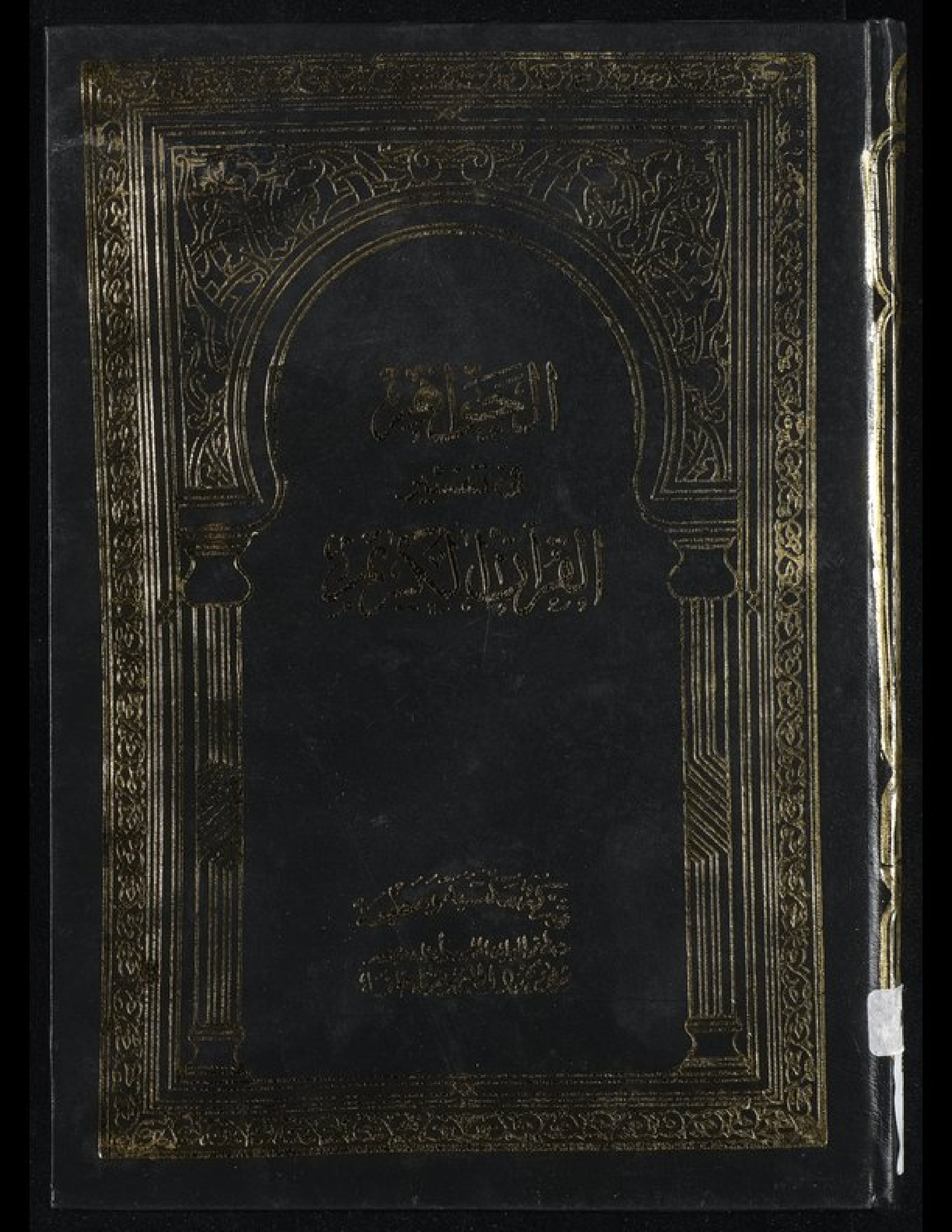

الجواهر
في تفسير
القرآن الكريم

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوى جوهرى

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الثالث عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

مباشرة محمد أمين عمران

(ARAB)
BP130
1.4
J217
juz' 13-14

« وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ »
(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الشعراء مكية

(إلا آية « ولو نزلناه على بعض الأعجمين » ومن قوله « ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » إلى آخر السورة فمدنية . وهى ٢٢٧ آية)

(وهى سبعة أقسام)

(١) مقدمة فى تسلية النبى صلى الله عليه وسلم على إعراضهم عن الدين ، وفى الاستدلال على الله بعجائب الطبيعة .

(٢) وقصة موسى وفرعون .

(٣) وقصة إبراهيم عليه السلام .

(٤) وقصة نوح عليه السلام .

(٥) وقصة هود وعاد وثمود وصالح .

(٦) وقصة قوم لوط وشعيب .

(٧) خاتمة السورة فى وصف القرآن بأنه نزل به جبريل ، وأنه شهد به علماء بنى إسرائيل ، وأنه لا يقدر على مثله الشعراء الخ ، يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال « أعطيت طه والطواسين من ألواح موسى عليه الصلاة والسلام » .

القسم الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

طسٓمٓ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿التفسير اللفظى﴾

(طسم) تقدم تفسير البسملة فى الفاتحة و «طسم» فى أول آل عمران وسيأتى هنا (تلك آيات الكتاب المبين) أى هذه الآيات التى فى هذه السورة آيات القرآن الظاهر إعجازه المبين بالحلال والحرام والأمر والنهى (لعلك باخع نفسك) قاتلها ولفظ لعل للاشفاق : أى أشفق على نفسك أن تقتلها حسرة وحزنا على مافاتك من إسلام قومك ، وقوله (ألا يكونوا مؤمنين) أى خيفة امتناع كونهم مؤمنين ، والمراد بهم قريش وكان حريصا على إيمانهم محبة له ، فلا تجزع يامحمد (إن نشأ) إيمانهم (ننزل عليهم من السماء آية) دلالة ملجئة إلى الإيمان (فظلت أعناقهم لها خاضعين) منقادين لما وصفت الأعناق بصفة العقلاء أجريت مجراهم وظل الماضى فى معنى المضارع كما تقول إن زرتنى أكرمتك أى أكرمك كما قال الزجاج (ومايأتيهم من ذكر) طائفة من القرآن (من الرحمن) يوحيه إلى نبيه (محدث إلا كانوا عنه معرضين) إلا جددوا إعراضا عنه وإصرارا على الكفر (فقد كذبوا) أى بالذكر بعد إعراضهم وأمعنوا فى التكذيب حتى استهزءوا (فسيأتيهم) إذا مسهم العذاب يوم بدر أو يوم القيامة (أنبؤا ما كانوا به يستهزئون) فيعرفون أحق كان فيصدق أم باطل فيكذب ويستهزأ به (أو لم يروا إلى الأرض) أو لم ينظروا إلى عجائبها (كم أنبتنا فيها من كل زوج) صنف (كريم) محمود كثير المنفعة ، فان النباتات بلغت أنواعها ٣٢٠ ألف نوع ولكل منها منافع ومناظر وخواص وطبائع وعجائب تخالف الثانى ، والانسان الذى هو أرقى المخلوقات فى الأرض له فى كل نبات منفعة ، فمنه الدواء ومنه الغذاء ومنه الروائح العطرية ومنه خشب السقف ومنه شبابيك المنزل وبعض السفن فى البحر والزيت والفاكهة الزيت منها ، والعطرى والمائى والحمضى والسكرى والمز (إن فى ذلك) أى فى إنبات تلك الأصناف وفى كل واحد منها (لآية) على أن الخالق تام الحكمة عليم سابغ النعمة واسع القدرة وقد علم الله أن أكثرهم قد طبع على قلوبهم

1503 PO 336454

فلا يرجى إيمانهم (وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز) فى انتقامه ممن كفر (الرحيم) لمن آمن منهم وتاب . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول . وههنا لطيفتان :

﴿ اللطيفة الأولى : فى معنى «طسم» ومعنى « كهيعص» ﴾

هذا مافتح الله به فى فجر يوم الأحد ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٨ فى معنى «طسم» وفى معنى « كهيعص » ومعنى « كهيعص » لم يخطر لى إلا فى هذا الصباح، وذلك أن القصد من هذه الحروف توجيه النفوس إلى المعانى المهمة فى السورة من تعليم وتهذيب ، فترى أن الكاف تشير إلى أن تذكر قصة زكريا فى أول السورة، وأنه دعا الله أن يجعل له وليا يكون نافعا لبنى إسرائيل بعد وفاته فأجيب دعاؤه، والسبب فى الإجابة أن هذا الدعاء قصد به العموم لا الخصوص ، فليعلم المسلمون أن الإنسان لاتتم إنسانيته إلا بأن يوجه همته للمنافع العامة كما فى أمر زكريا ، وهذه المعانى استنتجت من هذه القصة لمكان الكاف فى زكريا وفى اذكر ، وأما الكاف فى ربك فكأنه يقول سبحانه إن ربهم هو ربك أيها المسلم فلتفعل مافعلوا فان الله يعينك كما أعانهم وهذا هو القصد من القصص فإن القصص إنما يراد للتذكار والقدوة .

﴿ الهاء ﴾

قد جاء فى قوله «وهزى إليك بجذع النخلة» القصد من هذا أن تكون الأمم الإسلامية قائمة بأعمال الظاهر وتوجه الباطن ، فتوجه الباطن تقدم فى قصة زكريا واستجيب دعاؤه وإليه الاشارة بلفظ (كاف) وتوجه الظاهر هو الأعمال الظاهرة من عمارة الأرض ونظام الجمهور من الإمارة والصناعة والزراعة والتجارة وهذه يشار لها بقوله «وهزى إليك بجذع النخلة» ليعتدل الناس فى أعمالهم ، ومعنى هذا أن الحياة ترجع لنفوس تتوجه وأجسام عاملة ، فكما أن الحياة ترجع للروح والجسم هكذا أعمال الناس ترجع لعمل الأرواح وعمل الأجساد والأرواح عملها مقدم على عمل الأجسام كما تقدمت قصة زكريا على قصة مريم التى هزت جذع النخلة .

﴿ الياء ﴾

هى الياء فى يحيى تذكيرا عاله من المزايا الشريفة إذ هو أخذ الكتاب بجد واجتهاد وكان رءوفا وطاهرا وتقيا وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وهذه الصفات أوجدت له السلام، فليكن المسلم متصفا بهذه الأوصاف فإنه ينال عون الله له ، والقصد من هذا الاتصاف بمحاسن الأخلاق الباطنة .

﴿ العين ﴾

وهى فى عيسى وعبد الله، ولا جرم أن أهم مافى قصة المسيح أنه عبد الله وذلك هدم لما يزعمه النصارى، وهذا ملخص ماذكر فى أمر عيسى وكل ماذكر فيها من تاريخه وتاريخ الأحزاب واختلافهم بعده يرجع أنه عبد ، فمتى قلنا إنه عبد فقد ذهبت جميع الأوهام فى أمره .

﴿ الصاد ﴾

حرف الصاد جاء فى «صديقا نبيا» وفى الصلاة وفى الصالحين وفى «صليا» وهذا كله راجع للأعمال الصالحة من صلاة وصدق فى علم وعمل وصلاح وتقوى ، وجاءت الصاد أيضا فى أول «واصطبر عليها» فالصبر والصلاة والصدق والصلاح هى التى عليها مدار دين الإسلام ، إذن هذه الحروف تجمع فضائل الأعمال فى هذه السورة وقد ذكرت مرتبة فى الأغلب على ترتيب هذه المعانى التى رجع ملخصها إلى أن التوجه للصالح العامة يستجاب لدعاء فيه مع أنه لابد من إحكام الأعمال الظاهرة الدنيوية البحتة وإلا كان نقصا كما فعلت مريم بهز الجذع ، ثم لابد من تطهير العقيدة بنبذ الاتكال على المخلوق كعيسى وكل تقى صالح فى الأرض فإنهم

عباد الله . ومتى طهرت العقائد وأخرج منها التوجه لمخلوق ما من المخلوقات مثل عيسى وغيره هنالك لابد من الصلاة والصلاح والصبر والصدق فهذه أهم الأعمال الظاهرة . إذن دين الإسلام يجمع بين الدعاء بتوجه القلب والعمل فى الدنيا وعبادة الله وحده والقيام بالعبادات الظاهرة كالصلاة والأخلاق الباطنة كالصدق . إذن هذه الحروف فى أول سورة مريم أنزلها الله تذكيرا للمسلمين فى زماننا هذا ، وبيانه أنهم ظنوا أن الإسلام لايعنى بأمور الدنيا فقال (ها) وظنوا أنه لافضيلة إلا فى الأعمال الظاهرة فقال . كلا . الصدق والصلاة والصبر كلها من واد واحد ، فلا الصلاة وحدها كافية عن الصبر والصدق كما يظنه الجهلة من المتعبدين ، ولا الصدق والصبر يغنيين عن الصلاة كما يظنه الملحدون فى عصرنا الذين يكتفون بالمنافع العامة وحدها ويهجرون الديانات .

هذا ماظهر لى اليوم وفتح الله به فى « كهيعص » . أما « طسم » فان الطاء قد جاءت فى « لأقطعن » وفى « أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » وفى « ونطمع أن يدخلنا » ولاجرم أن هذين المعنيين هما أهم المقصود من قصة موسى وفرعون فى هذه السورة فان القصة مسوقة لكافر يطغى على مسلم ، وآخر عمل يعمله معه أن يقطع يديه ورجليه ، أفما كان من المسلمين وهم السحرة إلا أنهم رضوا أمر الله وطمعوا فى المغفرة فان هذه الانسانية مغموسة فى هذه الأرض غارقة فى حمأتها . فبهذا التعذيب يطمعون فى رحمة ربهم وهذه هى التى بها عمل عمار وصهيب وبلال وغيرهم ممن عذبهم أهل مكة فصبروا وبعضهم مات من التعذيب كما ذكر فى أمر سحرة فرعون . إذن الطاء تنبيه على العبرة فى هذه القصة . ولا جرم أن قصة إبراهيم بعد موسى فيها هذا المعنى وإن لم يصرح به فى السورة فهم أرادوا تعذيبه ولكنه صبر وطمع فى رحمة الله فرحمه ، فالنار التى أرادوا إلقاءه فيها فى سور أخرى قد نجاه الله منها وهذا الاضطهاد عرفه الغفران المفهوم من قوله «أطمع» الخ ومثله نوح أجمعين فطمع فى رحمة الله فنالها وهود وصالح ولوط وشعيب . إذن الطاء التى فى أقطعن وأطمع وأطيعون تضمنت المقصود من هذه القصص كلها . أما الميم فهى للدلالة على الرحمة الشاملة فى العوالم كلها لأنه بعد كل قصة يقول « إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم » فذكر الرحيم المختتمة بالميم (لأمرين : الأول) الاشارة إلى الفاصلة المكررة (الثانى) الاشارة إلى أن الرحمة غالبة على العباد مع معاصيهم ، فالله خلق الكافر والمسلم وعم الجميع بالرحمات الدنيوية فوق ما أعطى للمؤمن من المغفرة الدنيوية . وأما السين التى بين الطاء والميم فذلك للاشارة إلى أن أهل الأرض (قسمان) قسم له السلطان فيها بقوة رحمانية وهم العباد المخلصون من الأنبياء وغيرهم المشار لهم بقوله « وتقلبك فى الساجدين المبدوءة بحرف السين . وقسم لا سلطان له إلا بالأكاذيب كالشياطين والسحرة ورجال السياسة الذين ينشرون الأخبار الكاذبة ليستعمروا الأمم ، ولا جرم أنك ترى كثيرا من دول أوروبا يتعمدون إدخال الحشيش والخمر والكوكايين والمواد المخدرة كلها وينشرون الخلاعة . ولقد شاهدت ذلك بنفسى فى بلادنا المصرية فانى كنت ليلة فى عرس دعيت إليه وقد أحضر صاحب هذا العرس موسيقى الجيش فرأيت العسكر فى الموسيقى يغنون بمعانى أجهل البنات وذكر الوصل والحب وكل المعانى السافلة الدنيئة فخاطبت رئيسهم وقلت له إن هذه المعانى تورث أحقر الصفات فى الشعب مع أن رجال الجيش هم أعلى مثل للشجاعة فأخذته العبرة وبكى بكاء مرا وقال هكذا أمرنا رئيسنا فى الجيش الانجليزى ولما عارضته عاقبونى ، وذلك حصل أيام أن كان لمصر هيئة (برلمان) مصرية ولكن لاحول ولا قوة ، فهذا نوع من إلقاء السمع فلا فرق بين تعليم رجال الدول المستعمرة فى الشرق وبين إلقاء الشيطان فى قلوب الناس ولذلك يقول الله تعالى « قل أعوذ برب الناس . ملك الناس إله الناس . من شر الوسواس الخناس . الذى يوسوس فى صدور الناس . من الجنة والناس » فالله جعل

الوسواس الخناس للوسوس فى صدور الناس (طائفتين) طائفة هم الجن وطائفة هم الناس ، فوسوسة الناس هى أعمال المستعمرين الذين يقولون لابد من إضلال الأمم المحكومة حتى يكونوا دائما تحت إمرتنا. إذن السين تشير إلى الساجدين والذين يلقون السمع ، فالأولون هادون والآخرون مضلون والشعراء من القسم الثانى والحمد لله رب العالمين . كتب يوم ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

يقول الله لاتجزع يا محمد ولا تحزن لعدم إيمانهم ، أفتريد أن أنزل عليهم صواعق من السماء أو أسقط السماء عليهم كسفا حتى يظلوا خاضعين لها ويؤمنوا كما آمن فرعون عند وقوع العذاب ، إن الايمان عند وقوع العذاب لايفيد . إنى لا أفعل ذلك معهم لأنى سأخلق منهم قوما يؤمنون بى ، ولئن كذبوا بآيات القرآن اليوم فسأنزل عليهم غضبى فيعرفون الحق إذ ذاك ، وكيف يكفرون بى وقد نصبت لهم الدلائل الواضحة والآيات الباهرة فى النبات وأيات هذا لهم يشاهدونه صباحا ومساء وهم عنه غافلون ، وكيف يغفلون عن العوالم المشاهدة لهم ويعيشون وهم لا يفقهون . إن هذا القرآن نزل لارتقاء العقول فلا حاجة إلى تلك المزعجات السماوية والصواعق النارية لأننا أنزلناها على الأمم الغابرة والأجيال البائدة فما أغنت عنهم ولا انتفعوا بها ومات أكثرهم وهم كافرون . أما هـذه الأمم المستقبلة فثمارها الحكمة والعلم ، فانظروا أيها الناس للنبات فكم خلقنا فيه من زوج بهيج أى نوع أو صنف حسن ثم قال « إن فى ذلك لآية » أكد بإن واللام والجملة الاسمية ونكر الآية للتعظيم ، ومن المحزن والمؤلم أن يمر المسلم على هذه الآية وهو غافل عن النبات ، فيا أيها الذكى المطلع على هذا التفسير سألتك بالله الذى أنزل الكتاب وخلق النبات أن تكون مرشدا للمسلمين لهذا العلم ، خذ أصدقاءك وأصحابك وادرسه دراسة هذه صورتها [اذهب إلى الحقل واقرأ هذه الآية ثم تقدم إلى أنواع النبات وانظر إلى تنوعها واختلافها ، وإياك أن تكتفى بالظواهر ، إياك أن تقول أنا آمنت بالله وكفى فهذا قول العامة بل الايمان بالله يقتضى التغلغل فى النظر إلى عجيب إتقان صنعه] فإذا ذهبت إلى الحقل رأيت آيات .

(الآية الأولى . تنفس النبات)

إن الإنسان والحيوان يتنفسان وهكذا النبات يتنفس . إن الانسان يخرج بتنفسه من غاز حامض الكربونيك كل يوم (٢٥٠) جراما من الكربون الصرف ، وعلى ذلك لو دام الانسان والحيوان يتنفسان على طول الزمان للزم أن الهواء الجوى ينفد ويموت الانسان والحيوان بعد زمن وإن كان طويلا لأن الاكسوجين الذى يمتصه الجنس البشرى فى السنة الواحدة (١٦٠٫٠٠٠) مليون متر مكعب . ويقال إن الحيوانات الباقية تتنفس أربعة أضعافه ، فإذا كان هذا هو الذى يمتصه الحيوان وكان ما يخرجه من الفحم بالمقدار المتقدم بحيث يكون سكان القطر المصرى وحدهم يخرجون من أفواههم فى السنة (٤٠٠٫٠٠٠) طن من الفحم فى السنة ، فإذا تصورنا عموم ذلك فى كل حيوان وإنسان تصورنا كيف يمكن فناء هذه الأحياء بعد حين ولكن انظر إلى عجائب الصنعة الإلهية . انظر إلى حكمة بديعة وآية غريبة . ذلك أن النبات يحتاج فى تركيبه إلى الفحم وذلك الفحم إنما يأخذه مما لفظه الحيوان وهو حامض الكربونيك وفيه اكسوجين وكربون أى فحم ، فانظر كيف صار ذلك الحامض الكربونيك من الحيوان إلى النبات ودخل فى جسمه وحلل هناك بعملية تحت تأثير الشمس ولفظه النبات إلى الجو . ألا تتعجب معى كيف تركب الاكسوجين والكربون فى جسم الإنسان والحيوان وكيف لفظه الحيوان فدخل فى جسم النبات فتحلل هناك بتأثير الشمس ومتى تحلل خرج الاكسوجين إلى الهواء، فدخل فى أجسام الناس والحيوان بصفة

عملية التنفس . أليست هذه آية من آيات الله وعجائبه . يارب إن الناس غافلون بل ربما يمر عالم النبات على هذا وهو غافل عن تركيب هذه الدنيا نعيش ونحن لا ندرى أن هناك معامل تحلل لنا حامض الكربونيك وتلك المعامل فى النبات ولا ندرى أن لطف الهواء بالاكسوجين والاكسوجين يأتى من النبات ونعيش ولا نعلم أن أنفاسنا تخرج فى الهواء فحما وذلك الفحم يصير فى النبات الذى نلبسه ونوقد به النار ونتغذى به ونتداوى وغير ذلك .

(الآية الثانية)

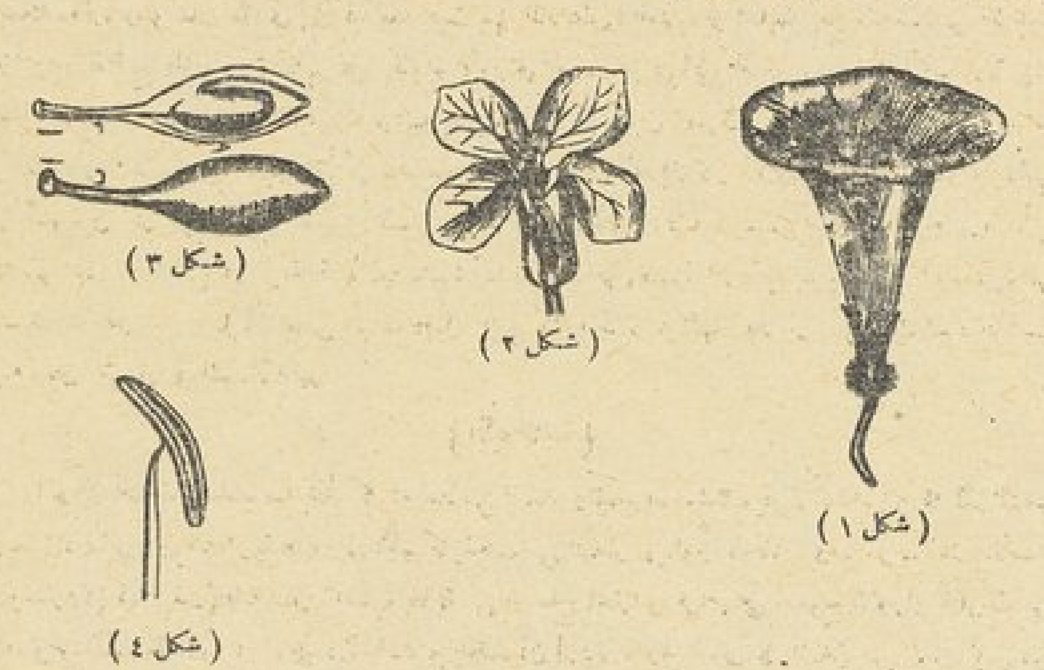
اعلم أن النبات لا يتنفس الاكسوجين النافع لنا إلا تحت تأثير الشمس ، ألا ترى أنك لو وضعت عشبا ناميا تحت إناء زجاجى يسمونه فى علم الطبيعة (قابلة وضعية) وهـذا الإناء بشكل اسطوانى فإذا وضعته مقلوبا وهو مملوء ماء فى إناء فيه ماء بحيث يبقى الماء غامرا العشب فى القابلة وعرضته للشمس فلا تلبث أن ترى فقاقيع غاز صغيرة تظهر على سطوح الأوراق ثم تصعد إلى أعلى القابلة وتدفع الماء تحتها ولا يزال الغاز يجتمع هناك حتى تمتلىء القابلة منه وهـذا هو غاز الاكسوجين الصرف ؛ فلو أدخلت فيه شمعة مشتعلة لزادت نورا شديدا وهذا دليل على أن هذا هو الاكسوجين . أما إذا كان ذلك بالليل فإن النبات لا يتنفس الاكسوجين بل يخرج بالليل حامض الكربون كما يفعل الحيوان لأنه لا يستخرج الاكسوجين إلا بتأثير الشمس فإذا نام الناس فى غرفة مقفلة فيها عشرة أعشاب حية فإن هواء الغرفة يفسد بتنفسها كما يفسد بتنفس عشرة أشخاص ، واعلم أن تنفس النبات بالليل ليس كثيرا كتنفسه بالنهار فلا يلزم من ذلك فساد التناسب بينه وبين الحيوان فى التبادل فافهم .

(الآية الثالثة)

اعلم أن النبات يتصاعد منه بخار كما يتصاعد من البحار والبحيرات ولذلك يقول العلماء إنه كلما كثر الشجر فى بلد زاد المطر لأن البخار يذهب إلى الجو كما يذهب من البحار ويكون سحابا ، وقد جرب ذلك الأستاذ (موشتبروك) فى (ليدن) فانه غطى العشب بقابلة من الزجاج باحتراس فرأى على سطوح الأوراق قطرات من الماء وهى المسماة بالندى ، وعلى ذلك استنتج العلماء أن أكثر مايراه الناس على النبات من الندى ليس من السماء وإنما هو من البخار المتصاعد من النبات ولذلك وجدوا أنه يتصاعدمن بعض النبات مضاعف وزنه ماء فى اليوم والليلة ، وهناك نباتات تقدم ذكرها فى هذا التفسير تسمى (نباتات الأباريق) تنتهى بأقداح اسطوانية تمتلىء ماء به يسقى الناس ويغاثون من الهلاك فتعجب من صنع الله تعالى . انظر كيف كانت الشمس مرسلة أشعتها على البحر وعلى النبات فماذا فعلت ؟ أطارت من البحر بخارا فصار سحابا وحللت من النبات اكسوجينا فلطف الجو فتنفسنا . فانظر كيف أثارت الشمس البخار من البحر والاكسوجين من النبات فكان المطر لحياتنا والاكسوجين وهو الأهم لتنفسنا ، فياليت شعرى هل للانسان دخل فى تحليل الاكسوجين أو فى صعود الماء بخارا ؟ إن الانسان فى الحالين يقول مايقوله المسلم فى الصلاة عند الرفع «اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد» . يعيش الانسان ويموت وهو فى جو من الاكسوجين حللته الشمس من النبات وفى نعمة النبات والحيوان والماء بسبب خروج البخار من البحر بحرارة الشمس وبخروج البخار من النبات فيرتفع إلى أعلى فيصيرسحابا وقد تطاير بخاره من النبات الذى هو المخزن البرى للماء كالبحر .

(الآية الرابعة : الزهرة)

قلت لك فى أول هذا المقام خذ أصحابك واذهب إلى الحقول والزهر والبساتين . قلت لك ذلك ولكن لم أشرح لك شيئا فى الحقل انما ذكرت لك أشياء عامة ، فهاك ماتدرسه وأنت فى الحقل وبهذه الدراسة درست سورة الشعراء ، ومقصودها ودرست علوم القرآن ودرست علوم حب الله تعالى ودرست الدين ودرست التوحيد وكنت فى نفس الوقت عابدا . كلا . كلا . فأنت أفضل من ألف عابد لأنك بعد هذا الدرس الآتى ستكون عالما حقيقة مطلعا على آثار جمال الله الظاهر البديع المدهش . انظر معى ألهمك الله العلم وعشقك فى الحكمة وحببك فى لقائه والنظر إلى وجهه الذى من مقدماته دراسة المخلوقات بشوق ولهف وحب (انظر شكل ١ وشكل ٢ وشكل ٣ وشكل ٤ وشكل ٥) .



(شكل ١)

(شكل ٢)

(شكل ٣)

(شكل ٤)



(شكل ٥)

انظر إلى الشكل الأول فإن الزهرة قطعة واحدة ونراه فى حقولنا المصرية كثيرا وشكل ٢ ترى فيه الزهرة منفصلة أوراقها ، وفى شكل ٣ ترى عضو الإناث مكونا من خيط ينتهى من أعلاه بجسم مفرطح يسمونه السمة وأسفله يسمونه المبيض وهذا المبيض فيه بويضات صغيرة وهى أصول البذور يتكون منها بعد التلقيح الثمر وشكل ٣ عضو الذكور وأعضاء الذكور تتكون حول عضو الإناث وهى خيوط صغيرة يعلوها جسم صغير منتفخ يسمى بالاثير أوفيه مسحوق وهو الطلع ووظيفته كوظيفة التى وقد تتعدد أعضاء الذكور فى الزهرة حتى إذا فسد بعضها قام الباقى مقامه والذكور حول الأنثى كأنها تحفظها ، وهذه الذكور تحيط بها أوراق النويج للحفظ وللزينة ، وأوراق النويج تحيط بها أوراق الكأس لحفظها من حوادث الجو ، والشكل الخامس هو الشكل الذى رسمناه فى سورة الأنعام ونعيدهنا لزيادة الفائدة . فالزهرة الكاملة مؤلفة من حافظ لشكلها محيط به ووسط داخل فى ذلك المحيط والمحيط بها مؤلف من طبقتين والأوراق الخضر المسماة بالكأس ، والأوراق الملونة التى فى داخلها المسماة بالتويج وهى ملونة بألوان بهجة تسر الناظرين وتسمى أوراق الكأس سبلا وأوراق التويج بتلا ، والذى هو فى الوسط [قسمان] أعضاء التذكير وهى المسماة بالأسدية جمع سداة والسداة كما رأيت فى الشكل مركبة من خيوط تنتهى بجزء منتفخ فيه طلع وهذا الانتفاخ يسمونه الثانيون (الاثير) والذى عليه هو الغبار أو الطلع أو البلن . والقسم الثانى أعضاء التأنيث وهى المسماة بالمدقات جمع مدقة كما رأيت فى الرسم وهذه المدقات تنشأ من قاعدة الزهرة وهى المسماة (التخت) وأسفل المدقة يقال له مبيض وأعلاها يسمى السمة وما بينهما يسمى (القلم) وقد تقدم إيضاح هذا فى سورة الأنعام وفى سورة طه .

فاذا ذهبت إلى الحدائق والحقول فأتقن هذه الأربعة واعرفها فان الكأس والتويج هما الحافظان والأسدية والمدقات هى المقصودات بالذات ، فانظر وتعجب تر المدقات تقوم مقام الإناث فى الحيوان والأسدية تقوم مقام الذكور ولذلك تجد كل أنثى قد عطفت على الذى بجانبها وهو قد انعطف نحوها كما رأيت فى الرسم وكيف يكون التزاوج بينهما . كيف يكون ذلك وأكثر الناس لايدرون : يقول الله تعالى «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت» تناقض واختلال . انظر تجد أن الطلع وهو الغبار المسمى (البلن) يقع من الأثير على السمة فى أعلى المدقة فيلقح بذورها فى المبيض بأسفل المدقة .

إن البلن المذكور غبار دقيق إذا بحثناه بالآلة المعظمة وجدنا أشكاله هندسية منها الكروى والهرمى والبيضى والمستطيل والمثلث ومنها الأملس والمخطط والشائك ، وإذا أمكنك بحث دقيقة من ذلك الغبار وجعلتها تحت المنظار المعظم وجدتها عبارة عن حوصلة لها غلاف مزدوج وفى جوفها سائل تسبح فيه كريات تعد بالملايين سموها (الأحياء الأثيرية) فالأسدية والمدقات تجتمع فى زهرة واحدة كما رأيت ويقع الغبار على السمة فيتعلق بأهداب لها هناك ثم ينزل الغبار المذكور وله نتوء مستطيل ويخترق القلم حتى يصل إلى أسفل المدقة وهو المبيض وفى هذا المبيض جراثيم البذور فاذا لامسها ذلك النتوء النازل من الطلع تلقحت ونمت وصارت بذرا إذا بلغ وغرس فى الأرض نبت وأثمر هذا إذا كان فى زهرة واحدة وهى القاعدة العامة وذلك كالورد والبنفسج والآس والرمان والشقيق والدفلة ، وقد تكون سلاة واحدة ومدقة واحدة فى الزهرة كما فى نبات مائى يسمى (ذنب الفرس) وقد تكون الأسدية على زهرة والمدقة على زهرة أخرى فى النباتة الواحدة وذلك كالخيار واليقطين والكستنة والكوسا والقرع وقثاء الحمار ، وقد تكون الأسدية على شجرة والمدقة على أخرى كما فى الصنوبر والصفصاف والبطم والتين .

(الزهرة الكاملة)

الزهرة الكاملة هى التى لها كأس وتويج وسداة ومدقة كما رأيت، وإن فقد منها واحد فأكثر فهى غير مستوفية .

(الزهرة القانونية)

هى الزهرة التى تشابهت فيها أقسام الكأس والتويج كالخوخ والكرز واللوز ، وان اختلفت سميت الزهرة غير قانونية مثل (البسلة) و (رأس السمك) .

(الزهرة المنتظمة)

هى التى أوراق الكأس والتويج والأسدية فيها على عدد واحد أومضروب عدد واحد إذا فقدت الزهرة الأسدية والمدقات فهى عقيمة لايكون لها بزور كبعض الزهور البستانية الزاهرة النمو وكالورد البستانى .

إذا فهمت ماذكرته لك عرفت كيف قسموا النبات إلى أجناس وأنواع ورتب وفصائل الخ . ذلك التقسيم على حسب الزهرة منتظمة وغير منتظمة ، قانونية وغير قانونية ، كاملة وغير كاملة ، وأجزاء التويج وأجزاء الكأس أهى متصلة أم منفصلة ، وهل اتصلت بالصف الذى يليها أم انفصلت عنه . وما عدد أوراق كل من الكأس والتويج والأسديات والمدقات وما أشبه ذلك ، فبهذا الاختلاف أمكن تقسيم النبات إلى أنواع بلغت آلافا وآلافا، فتعجب من العلم والحكمة .

(زهر العليق)

الزهرة قانونية الكأس خمس قطع متصلة عند قواعدها ، التويج خمس كذلك لكنها متبادلة الوضع مع القطع التى فى الكأس ، الأسدية كثيرة ولكنها موضوعة على التويج والمدقة مؤلفة من عدة جويفات .

(الخبازى)

الزهرة قانونية ذات خمس فلوس ، الكأس خمس قطع متصلة ، التويج خمس قطع منفصلة متبادلة مع قطع الكأس الأسدية كثيرة ، المدقة عدة جويفات متصلة وعدة أقلام وعدة سمات مختلفة .

(جمال العلم والحكمة)

اعلم أنه قد يقع على السمة الواحدة التى فى أعلى المدقة ألوف الألوف من الغبار الدقيق المنتشر عليها من السداة ، ومعلوم أن الواحدة منها فيها ملايين من مخلوقات سابحة كما قدمنا ومع ذلك هى لاتحتاج إلا إلى واحد من ذلك كله ، فهذه كلها أشبه بخطاب جاءوا إلى عروس واحدة فتقبل واحدا وترفض الباقين .

(الآية الخامسة : اهتزاز النبات عند التلقيح)

قد لاحظ الأستاذ الفسيولوجى (بورداخ) أن النبات يهتز فى أثناء التلقيح اهتزازا خاصا، فتنعطف السداة نحو السمة وقد تشاركها هذه فتنعطف نحوها كأنهما تتعانقان: ثم إن الحرارة تعظم فى أثناء التلقيح وبعض النبات لاتعرف اشتداد حرارته عند التلقيح إلا بمقياس دقيق وبعضها تظهر بالترمومتر المعتاد وبعضها ترتفع وتشتد الحرارة حتى إذا لمست الزهرة شعرت بحرارتها وعجبت كيف لاتحترق الزهرة بهذه الحرارة وذلك كزهرة النبات المسمى (أرام) بلسان الفرنجة ومنه نوع فى إيطاليا تبلغ حرارته (٦٢) بميزان سنتكراد وهذا النبات أسديته فى زهرة ومدقته فى زهرة أخرى وكلاهما على شجرة واحدة كالخيار ، ثم إن تلقيح النباتات التى هى مفردة الجنس يكون بالهواء أو بالحشرات كما هو واضح فى هذا التفسير فيما تقدم .

(الآية السادسة : النبات يحس ويتحرك)

قد ظهر لك مما تقدم أن فى الحيوان مبدأ الحس ومبدأ الحركة . قال (بيشا) العالم الفيسيولوجى الفرنساوى المتوفى سنة ١٨٠٢ م : إن فى النبات حسا بالسموم فهى تشله والكهربائية تميته ، وبعض النبات إذا سقى الأفيون نام نوما عميقا وهكذا العلامة (جوبرت) و (مقار) : إن الحامض البروسيك يسم النبات بسرعة كسرعة سم الحيوان به، وأيضا يلاحظ الناس أن النبات الحساس ينكمش إذا لمسته مادة مهيجة . وقال (كارودورى) : إنك إذا هيجت أطراف ورق الحس درت بعد عصارتها ، إن بعض النباتات التى يستنبتها الناس فى القاعات تكون يانعة أثناء النهار ولكنها فى الليل تطبق أزهارها وترخى أغصانها وتنام ، هكذا السنط الحساس متى لامست بعض أوراقه انطبق بعضه على بعض وذبل ، فالحس فى هذا النبات تبعته الحركة كما علمت ، وهناك نبات هندى اسمه (دسموديا) إذا أشرقت الشمس عليه تحركت ورقتان فيه بالتقارب والتباعد على الدوام كتقرب الدقائق فى الساعات ، وإذا قطعت غصنا منه ظلت أوراقه تتحرك بعد القطع مدة طويلة وربما كان ذلك بضعة أيام ، ومنها (مصيدة الفأر) وهو نبات له غدد إذا وقعت فيها ذبابة انطبقت أهدابها عليها ولسعتها بأشواكها ، فاذا حاولت الذبابة الفرار انقضت الكأس عليها حتى تخمد أنفاسها ، وإذا أردت فتح الكأس بيدك عنوة تمزقت ولم تنفتح وإنما تنفتح من تلقاء نفسها متى ماتت فريستها .

(الآية السابعة)

يشاهد فى كثير من الأزهار أن السداة عضو التذكير والمدقة عضو التأنيث كما فهمت فى زمن اللقاح يهتزان اهتزازا ظاهرا أحدهما نحو الآخر لاتمام اللقاح وقد تنعطف إحداهما دون الأخرى وبعض الأزهار المائية تطفو نهارا على سطح الماء فاذا جاء الليل غاصت فى قاع البحر .

(الآية الثامنة)

إن العلماء رأوا أن الطلع وهو المسمى (اللبن) الذى عرفته فيما تقدم قد يكون له فى بعض النبات أجنحة أو أهداب يسبح بها على الماء أو يطير فى الهواء لاتمام العمل الذى خلق له .

(الآية التاسعة : شجر المسافرين)

فى (مداغشكر) شجرة تسمى (شجرة المسافرين) وهذا النوع تحمل كل واحدة منه ٢٤ ورقة وطولها يختلف مابين متر و ٨٠ سنتيمترا وقد يكون مترين وخمسين سنتيمترا ، وعرضها من متر إلى متر و ٨ سنتيمترات وهى أشبه بمظلات وتحت كل ورقة منه مايشبه القارورة وفيه نحو لتر من الماء الصافى . ويكثر هذا الشجر فى الصحارى وينفع المسافرين أيام القيظ حيث لا يوجد ماء فيشق تلك القارورة فينسكب منها الماء الصافى فيروى عطشه ثم يتركها فتعود كما كانت أى يلتحم مكان الشق .

(الآية العاشرة وهى الأخيرة : شجرة اللبن)

هذه الشجرة توجد فى بلاد أمريكا وأهل المكسيك يستخرجون لبنها ، وقد كشف هذه الشجرة (اسكندر همبولت) وقد حلل العلماء لبنها فوجدوه كاللبن الحيوانى وهو أكثر شبها بالقشدة، وفيه أيضا مقدار كبير من شمع يشبه شمع العسل وأشاروا بتربية هذا الشجر للانتفاع بشمعه ، وهذه الشجرة من الفصيلة الدقلية تنبت فى أواسط أمريكا وتبلغ فى الارتفاع ثلاثين مترا وبنمو فى (فنزويلا) حيث تقل الأمطار ، وقد تمر على الشجرة أشهر لاتصيبها قطرة ماء حتى ترى كأنها ميتة فاذا جرحتها بمدية انسكب منها سائل أبيض كبير الشبه باللبن رائحته بلسمية خفيفة وطعمه يشبه القشدة الحلاة وهو مغذ يمكن تناوله بكميات كثيرة صباحا ومساء ولا يحصل منه ضرر مطلقا وهو لزج القوام إذا عرض للهواء غشيته مادة صفراء متجمدة كالجبن . ثم إن بعض النبات

يفرز مادة مثل (سن الفيل) . فانظر كيف أخرج النبات سن فيل ولبنا وشمعا وهو أيضا يضىء كما تقدم فى سور قبل هذه ويسقى الناس ماء فى الصحراء .

أيها الذكى . هذا هو المقصود من قوله تعالى « أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » يقول الله لجميع الناس ومنهم المسلمون لأن هذا القرآن تذكرة لنا معاشر المسلمين أعميتم أيها الناس فلم تنظروا عجائب النبات المذكورة وذلك بعد أن أنذر بقوله « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين » فكأن الله بهذا الكلام يقول للعقلاء إن لم تفكروا فى آياتى وتعقلوها كالآيات التى فى النبات فإنى أهلككم كما أهلكت أهل أمريكا الأصليين وكما أهلكت أهل استراليا . فأنا لا أبقى فى أرضى إلا الذين يبحثون فيها عن عجائب صنعى ، إن نشأ ننزل عليهم من السماء بلية ولكنا أبقيناهم عسى أن يفكروا فيما خلقنا فيصلحوا لعمارة أرضنا فلا نهلكهم . هذا هو مقصود القرآن على ما يقتضيه الزمن . ومن العجب أن القسم الثانى من السورة ينحو هذا النحو . ألم تر إلى نبأ موسى المذكور فيه كيف كانت محاجة موسى لفرعون على هذا النمط فإنه لما سأله مارب العالمين لم يجبه بالعصا ولا باليد وإنه قادر على ذلك بل ابتدأ بما ابتدأ به فى أول السورة فقال « رب السموات والأرض وما بينهما » فلما راجعه « قال ربكم ورب آبائكم الأولين » فلما راجعه « قال رب المشرق والمغرب وما بينهما » فجعل عماد الدعوة راجعا لخلق السموات والأرض وخلق الإنسان والمشارق والمغارب التى كانت من نتائج النور وما بينهما من نبات وحيوان وإنسان فرجع الأمر إلى النظر فى هذا العالم ، فتبين من هذه الأساليب القرآنية أن هذا الدين جهله أهله وسيظهر أمرهم ويعلو شأنهم ويرتقى المسلمون بالعلوم والمعارف والكمال .

فمن هذا فليفهم المسلمون قوله تعالى فى (سورة ق) « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد » .

فانظر أيها المسلم الذكى كيف قال « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وقال « رزقا للعباد » فإذا كان المسلمون لا يقرءون هذه العلوم فقد أعرضوا عن التبصرة والذكرى وأعرضوا عن الرزق لأنه قال « رزقا للعباد » فهما [أمران : علم وغنى] « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » « فههنا » إعراض عن الذكر وعن الذكرى فتكون المعيشة ضنكا .

أيها الذكى قل للمسلمين هذا كلام ربكم يقول « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » أى فى الدنيا « ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى » وآيات الله منها ما ذكر هنا وهو إخراج النبات وما فيه من كل زوج كريم والله يقول إنه جعله « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » وجعله « رزقا للعباد » فالمعرضون عن هذه العلوم والتحريض عليها أعرضوا عن ذكر ربهم وتكون لهم عيشة ضنكا . فالعقول خاوية والدور خالية من الثروة وهذا هو الذى حصل للمسلمين اليوم ، فالبصائر نائمة والأمم تريد اقتناصهم لجهلهم وتأخذ أموالهم وهم غافلون لأنهم ليسوا مستبصرين كما أمر ربهم ولم يحافظوا ولم يبحثوا عما خلقه ربهم لهم من الرزق فخلت العقول من العلوم والجيوب والدور من النقود ، فعليك أيها الذكى أن تعلن هذه الآراء للمسلمين بما وهبك الله من قوة بيان . وكيف يتسنى للمسلم أن يدرك قوله تعالى « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله » وكيف يتسنى له ذلك إلا إذا درس أمثال ما كتبناه هنا وتفكر فيه فيحس بأن دافعا يدفعه إلى ربه مشتاقا إلى لقائه أو معرفته كما أحسست فى نفسك وأنت تقرأ هذه الآيات العشر وقد دهشت مما رأيت من عجائب ربك

فمن هنا فليفهم لم قال الله « ففروا إلى الله » بعد قوله « ومن كل شىء خلقنا زوجين » ومن هنا تفهم بعض أسرار القرآن التى عجز عنها كثير من الناس . أو ليس من هـذا السر أن التعبير بالزوجين يرجع إلى حال الذكورة والأنوثة فى النبات . أو ليس هذا هو الذى عليه المعول عند علماء النبات فى تقسيمه، انظر إلى ما كتبه العلامة (لينيو) إذ شاهد أن الزهر فى النبات متميز وفى أقله إما غير متميز بتاتا أو متميز لكن على غير الهيئة التى يتميز بها فى أكثر النبات ثم أمعن النظر فى التميز فترى أنه إما خنثى وإما ذكر وإما أنثى وأن الزهر الخنثى يختلف فى العدد والوضع واجتماع أعضاء التذكير والتأنيث . وأن الزهر سواء أكان ذكرا أو أنثى إما أن يكون ذا مسكن واحد أو مسكنين أو كثير المساكن وعلى ذلك قسم النبات إلى (٢٤) رتبة .

الأول أحادى أعضاء التذكير . ثنائى أعضاء التذكير . ثلاثى أعضاء التذكير والرباعى والخماسى والسداسى والسباعى والثمانى والتساعى والعشارى وذو أحد عشر عضو تذكير . الثانى عشر أعضاء التذكير فيه زائدة عن (١٩) مندغمة فى التويج . الثالث عشر أعضاء التذكير الزائدة عن (١٩) مندغمة فى أسفل المبيض . الرابع عشر له أربعة أعضاء ذكور اثنان أطول من اثنين . الخامس عشر له ستة أعضاء ذكور أربعة أطول من اثنين. السادس عشر أعضاء التذكير المجتمعة حزمة بواسطة خيوط الحشفة . السابع عشر فيه أعضاء الذكور اجتمعت حزمتين بواسطة خيوط الحشفة . الثامن عشر فيـه أعضاء الذكور اجتمعت حزما كثيرة بواسطة خيوطها . التاسع عشر فيه أعضاء الذكور اجتمعت حزما بواسطة (الانثيرا) وقد عرفتها فيما تقدم . العشرون فيه أعضاء التذكير التصقت بعضو التأنيث . الواحد والعشرون فيه أعضاء تذكير وتأنيث وخنائى فى نبات واحد . الثانى والعشرون فيه أعضاء ذكور وإناث فى نباتين. الثالث والعشرون فيـه أعضاء ذكور وإناث فى نبات واحد أو أكثر . الرابع والعشرون نباتات خفية أعضاء التناسل .

هذه هى الرتب، والرتب تنقسم إلى أجناس عالية والجنس العالى يشتمل على أجناس والجنس على أنواع .

(الحروف الهجائية والزهرة)

أفلست ترى أن الزهرة بما فيها من كأس وتويج وعضو تذكير وعضو تأنيث واتحادها عددا واختلافها وافتراقها واجتماعها وما أشبه ذلك كونت رتبا وأجناسا وأنواعا عدها العلماء فبلغت (٣٢٠) ألفا . أليس هذا العدد كله نتج من اختلاف هذه الأعضاء وجودا وعدما وكثرة وقلة واجتماعا وافتراقا على آراء بعض العلماء فأشبهت الزهرة فم الإنسان فإنه جمع (٢٨) حرفا أو (٢٥) أو أقل أو أكثر وبهذه الحروف كوّن لغات فالحروف المعدودة كوّنت لغات والأعضاء المعدودة فى الزهر باختلافها كوّنت رتبا وأجناسا وأنواعا وأصنافا فى النبات « فتبارك الله أحسن الخالقين » انتهى الكلام على القسم الأول من السورة

(القِسْمُ الثَّانِي)

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ * قَالَ
رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ *
وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ *
فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ
نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ
الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ
لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ *
قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ *
قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ
الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ *
قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ *
قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ
فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ
مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ *
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ
مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ
أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالَ لَهُمْ
مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
الْغَالِبُونَ * فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ *
قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ

لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ * قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (وإذ نادى ربك موسى) أى واذكر وقت ذلك (أن ائت) أى ائت (القوم الظالمين) بكفرهم واستعبادهم بنى إسرائيل وإذلالهم، ثم أبدل منهم (قوم فرعون) أى فرعون وقومه (ألا يتقون) أى ائتهم زاجرا لهم فقد آن لهم أن يتقوا وهذه الجملة مستأنفة للحث والإغراء (قال رب إنى أخاف أن يكذبون) الخوف غم يلحق الإنسان لأمر سيقع (ويضيق صدرى) بتكذيبهم إياى معطوف على «أخاف» (ولا ينطلق لسانى) وذلك للعقدة التى كانت على لسانه (فأرسل إلى هرون) ليوازرنى ويعيننى (ولهم علىّ ذنب) أى دعوى ذنب وهو قتله القبطى (فأخاف أن يقتلون) به (قال) تعالى (كلا) أى لن يقتلوك (فاذهبا بآياتنا إنا معكم مستمعون) سامعون ماتقولون وما يقال لكم (فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين) الرسول يكون بمعنى المرسل فيثنى ويجمع ويكون بمعنى الرسالة كما هنا وهى مصدر يستوى فيه المفرد والمثنى والجمع فهو مصدر وصف به ، ومن هذا المعنى قول الشاعر :

لقد كذب الواشون مافهت عندهم بسرّ ولا أرسلتهم برسول

أى برسالة ، وقوله (أن أرسل معنا بنى إسرائيل) بمعنى أى أرسل لأن معنا الرسول يتضمن الارسال والارسال فيه معنى القول فتكون «أن» مفسرة . يقول خل بنى إسرائيل يذهبوا معنا إلى فلسطين فأتيا فرعون فقالا أرسل معنا بنى إسرائيل (قال) فرعون جوابا لموسى كيف تنكر نعمتنا عليك ونحن غذيناك وربيناك وعلمناك (ألم نربك فينا وليدا) أى ألم تكن صغيرا فربيناك (ولبثت فينا من عمرك سنين) قيل ثلاثين سنة ثم خرج إلى مدين عشر سنين ثم عاد إليهم يدعوهم إلى الله ثلاثين سنة ثم بقى بعد الغرق خمسين (وفعلت

فعلتك التى فعلت) يعنى قتل القبطى ، قال ذلك توبيخا له بعد تعداد النعم عليه (وأنت من الكافرين) بنعمتى إذ قتلت أحد خواصى . وهـذا القول من فرعون يتضمن [أمرين : الأول] المن على موسى بالتربية وهو طفل . [الثانى] توبيخه بأنه كفر نعمته بقتل القبطى ، فأجاب عن الثانى لأنه أهم (قال فعلتها إذن وأنا من الضالين) من الجاهلين أو من المخطئين لأنه لم يتعمد قتله أو من الذاهلين عما يئول إليه الوكز لأنه أراد به التأديب لجاء القتل خطأ (ففررت منكم) إلى مدين (لما خفتكم فوهب لى ربى حكما) حكمة (وجعلنى من المرسلين) فليس ذلك قدحا فى نبوتى كما يظهر من كلامك . وأجاب عن الأول بقوله « وتلك نعمة » أى أوتلك نعمة (تمنها علىّ) وهى (أن عبدت بنى إسرائيل) وتركتنى وحذف همزة الاستفهام هنا كحذفها فى قول عمر بن أبى ربيعة :

لم أنس يوم الرحيل وقفتها وطرفها من دموعها غرق
وقولها والركاب واقفة تتركنى هكذا وتنطلق

يقول وهل تلك نعمة تمنها على وهى أنك استعبدت بنى إسرائيل وتركتنى فلم تستعبدنى . وكيف تمن على بالتربية وقد استعبدت قومى ومن أهين قومه فقد ذل فاستعبادك بنى إسرائيل أحبط إحسانك إلى ولو لم تستعبدهم ولم تقتل أولادهم لم أرفع إليك حتى تربينى وتكفلنى ولكان لى من أهلى من يربينى ولم يلقونى فى اليم ، وهذه الأجوبة الشريفة السديدة يجب أن تكون أجوبة الشرقيين لاهل أوروبا فقد استعبدوا أمراءهم والأمراء يخوفون الأمم ويذلونهم بما نالوا من المال والجاه على أيدى أهل أوروبا . فليقل كل مسلم للأوروبى الذى له عليه يد كيف تمن على وأنت أذللت أممنا ولولا إذلالك لها لم تعطنى تلك النعم . فتلك الخيرات من بلادى ولا فضل لك إلا كما تفضل فرعون على موسى .

إن الله ماقص هذا القصص إلا للاعتبار والادكار وتفهيم الأمم الاسلامية كيف تكون المحافظة على العشيرة وعلى الأهل . وكيف يقاوم الغاصبون الظالمون . وكيف يجب أن يقلب الناس لهم ظهر المجن إذا أساءوا معاملة الأمم المظلومة وأن ينكروا إنعامهم ، فانما أنعام الأمم الغاصبة كأنعام المومس ببناء مسجد كما قال الشاعر :

بنى مسجدا لله من غير حله فكان بحمد الله غير موفق
كمطعمة الأيتام من كد فرجها فويلك لا تزنى ولا تصدق

ولما سمع فرعون الجواب ورأى أن موسى لم يرعو بما خاطبه به شرع فى الاعتراض على دعواه (قال فرعون ومارب العالمين) أى إنك تدعى أنك رسول رب العالمين فما هو ؟ (قال) موسى مجيبا له (رب السموات والأرض ومابينهما) طلب فرعون الحقيقة ، والحقيقة إن كانت للأنواع فبالتعريف وإن كانت للأفراد فانها بالتحليل والمسئول عنه هنا لاأجزاء له لأنه غير مركب فلذلك أجاب بأظهر الخواص وهو أنه رب السموات والأرض ومابينهما (إن كنتم موقنين) أى إن كنتم تعرفون الأشياء بالدليل فكفى خلق هذه الأشياء دليلا والإيقان هو العلم الذى يستفاد بالاستدلال (قال) فرعون (لمن حوله) من أشراف قومه (ألا تستمعون) معجبا قومه من جوابه ، يقول ياقوم تعجبوا من موسى سألته عن الحقيقة فأجاب بذكر الأفعال ، فأجاب موسى مستدلا بما هو أقرب إلى أنفسهم وهو التناسل المستمر فى النبات والحيوان والانسان والعجائب التى تقدمت فى القسم الأول وشرحناها بما تقر به أعين أهل العلم وذكر ماهو أهمها وما كان القصد الأكبر منها وهو الانسان وأحواله (قال ربكم ورب آبائكم الأولين) ومن نظر فى علم الأجنة وعلوم الأمم وعلوم التشريح وعلوم الطب

أدرك نظاما بديعا يدهش العقول . فبقى فرعون فى موقفه يريد الإجابة بالحقيقة لا بالأضاليل (قال إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون) أسأله عن شىء ويجيبنى عن آخر فأجاب موسى بعجائب الشمس وشروقها وغروبها وانتظام مداراتها وتنوع المشارق والمغارب كل يوم بحيث لا يختل لحظة يشير بذلك إلى علوم الفلك وجميع العلوم الرياضية كما أشار قبله إلى العلوم الطبيعية وبالأول إلى العلوم العامة وهى علوم ماوراء الطبيعة ولذلك قال (إن كنتم تعقلون) أى إن كان لكم عقل علمتم أن لا جواب لكم فوق ذلك لأن دراسة العلوم الطبيعية التى كان من أشرف نتائجها خلقكم وخلق آبائكم الأولين ودراسة العلوم الرياضية ومنها الفلكية لمعرفة شروق الشمس وغروبها واستكمال سائر العلوم ونظامها إجمالا بعلم ماوراء المادة . كل ذلك دلالة على أن هناك إلها صوّر هذه العوالم كلها وأبدعها وزينها ورتبها وحسبها ونظمها ، فلما رأى فرعون ذلك عدل عن البراهين إلى استعمال القوة كما فعل الذئب مع الحمل إذ شرب الذئب من ماء النهر والحمل المسكين واقف فى أسفل المجرى ، فقال له أيها الحمل قد كدرت الماء فقال الحمل أنا فى أسفل المجرى فليس من المعقول أن يجرى الماء إليك بل هو يجرى نحوى من عندك ، فقال أنت كنت شتمتنى فى العام السابق ، فقال لم أخلق إذ ذاك ، فقال لعل أباك أو أخاك هو الذى شتمنى وانقض عليه وأكله .

هذه هى الحجج التى يحتج بها الأقوياء فإذا ماضعفت الحجج استعملوا القوة . هكذا هنا فى محاجة فرعون لموسى فإنه لما لم تفد الحجج لبس جلد النمر و (قال لئن اتخذت إلها غيرى لأجعلنك من المسجونين) وهذه أيضا عينها ماتفعله الأمم القوية مع الأمم الضعيفة كأهل أوروبا مع المسلمين الذين يريدون الانقضاض عليهم ونهب بلادهم وملكهم وتسخيرهم وقوله «من المسجونين» أل فيها للعهد أى الذين تعهدهم وهم فى أشد حالات الضنك فهذا أشد من قوله لأجعلنك مسجونا فاضطر موسى أن يترك الأدلة العقلية ويذكره بالمعجزات وخوارق العادات (قال أو لو جئتك بشىء مبين) أى أتفعل ذلك ولو جئتك بحجة بينة لأحوالكم وزمانكم لأنكم قوم مغرمون بالسحر والمغرم بالسحر منصرف عما عداه من العلوم العقلية لأن السحر صرف النفوس عن الحقائق إلى أمور اخترعها الوهم وأبرزها الخيال . فأما الحقائق فإنها مستورة محجوبة عن هذه الطائفة فحجتى من جنس علومكم . وإذا كان الله ماأرسل رسولا إلا بلسان قومه هكذا ماأرسل رسولا إلا بحجج من جنس مايزاوله قومه . فترى أمة العرب مغرمة بالبلاغة فجاء القرآن معجزا لهم وكانت الأمم المصرية مغرمة بالسحر فأرسل موسى لهم ليعجزهم فيما هم فيه . وليست الفصاحة ولا السحر هما الأمران الجوهريان بل هما عرضيان لفضل النبوات اقتضتهما حال الأقوام الذين أرسل إليهم الرسل وإلا فالحقائق أولى بالبحث وأجدر بالتنقيب . يقول موسى لئن أهملتم أمور العلوم العقلية والنظر الصحيح فى هذه العوالم المشاهدة فدونكم ما اعتدتموه من السحر ونظيره فى سورة البقرة قوله تعالى «ياأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون . وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » .

فانظر وتعجب من المحاورتين محاورة موسى مع فرعون ومحاورة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه ، فأنت ترى موسى يقول الله على لسانه لما لم يفكر فرعون فى العوالم المحيطة بنا كما تقدم فى هذه الآيات ولم يتذكر السموات والأرض والشروق والغروب وخلقه وخلق الآباء الأولين الذين لا يعيشون إلا بعالم الطبيعة قال له هنا « أولو جئتك بشىء مبين » يقول له يافرعون أنت أعرضت عن التفكير بعقلك والرجوع للحقائق بفكرك أفتنصرف عن الحقيقة ولو أتيتك بشىء مقبول عندك لما انصرفت عما يقبله سائر العقلاء ألا وهو المعو

العلو عليك فى السحر هكذا فى سورة البقرة ذكر الله القوم . ذكرهم الله بخلقهم وخلق آبائهم الأولين مثل ماهنا تماما وذكر السماء والأرض كما ذكرا هنا وذكر إنزال الماء من السماء وهذا لايكون إلا بحرارة الشمس التى تغرب وتشرق ولما لم يفدهم ذلك قال لهم «فأتوا بسورة من مثله» ألا تعجب أيها الذكى . ألا ترى إلى مايرمى إليه القرآن ومايقصد به . ألا ترى أن المقامين متشابهان مقام موسى مع فرعون ومقام محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه . ألا ترى أن العلوم الكونية هى مقصود القرآن وأن البلاغة والسحر ليسا مقصودين . أفلا ترى بعد هذا أن الله لما أنزل القرآن جعل المقامين متشابهين . أتدرى لماذا ؟ لأنه علم أن المسلمين سيغرمون بقولهم من عرف البلاغة عرف سر القرآن وهو المعجزة الوحيدة . نقول نعم معجزة وحيدة عند من هم أهل البلاغة من العرب أو من نحا نحوهم ولكن هذه البلاغة جعلها الله حجة عند طائفة مخصوصة . أما الامم كلها وأرباب العقول فقد جعل الله الحجة القائمة عليهم هذا النظام البديع والخلق العجيب . ومن عرف اللغة العربية وبلاغتها ووقف عند هذا الحد فهو مغرور مغفل لأنه قصر القرآن على مايعرفه العرب الجاهليون وهذا جهل فاضح فإن القرآن باب لفتح العقول وفهم العلوم وإدراك أسرار الكون . فاذا وقف البليغ عند هذا الحد فهو نائم ساه بل عليه أن يدخل العلوم من أبوابها وأن يأمر الأمم الإسلامية بمعرفة سائر العلوم لأن القرآن هو بابها . ولعمرى ماالبلاغة إلا حلية الكلام فأين حلية العقول إذن ؟ حلية العقول هى العلوم ، إن فى مثل هذا المقام يظهر إعجاز القرآن . يذكر السحر وإبطاله بعد اليأس من فهم العوالم المحيطة بنا ، ويذكر البلاغة بعد اليأس من التعقل إذ يقول « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله » .

بمثل هذا فليدرس القرآن ، وبمثل هذا فليستيقظ المسلمون وإلا فإنى أنذرهم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فليقرءوا العلوم فقد أوضح القرآن مناهجها وأبان طرقها وأظهر مسالكها وبين أن الكلام على البلاغة وعلى السحر بعد اليأس من فهم المعقولات الكونية فقال الله هنا (قال) فرعون مجيبا لموسى (فأت به إن كنت من الصادقين) فى أن لك بينة فان من يدعى النبوة لابد له من حجة (فألقى عصاه فاذا هى ثعبان مبين) أى ظاهر ثعبانيته ، يقال إنها لما صارت حية ارتفعت فى السماء قدر ميل ثم انحطت مقبلة إلى فرعون فقال بالذى أرسلك إلا أخذتها فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت فقال وهل غيرها ؟ قال نعم وأراه يده ثم أدخلها فى جيبه ثم أخرجها فاذا هى بيضاء من غير برص لها شعاع كشعاع الشمس (ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين) حينئذ (قال) فرعون (للملأ) حال كونهم مستقرين (حوله) ومقول القول (إن هذا لساحر عليم) فائق فى علم السحر (يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟) وهذا التعبير الذى أفاد أن فرعون مع ادعائه الربوبية قد تشاور مع قومه . يقصد منه فى القرآن أن الشورى يجب أن تكون فى الإسلام لأنه إذا قال الله لنبيه ﷺ « وشاورهم فى الأمر » وزاد على ذلك أن فرعون مع ادعائه الإلوهية تشاور مع قومه فإن ذلك دلالة واضحة أن الشورى أمرها جليل عظيم وأن الأمم الكافرة لما جعلت الشورى فى أعمالها دام ملكها أمدا طويلا كما ترى من الآثار المدهشة لقدماء المصريين الدالة على ملك عظيم دام آلافا وآلافا من السنين فالشورى إذن أمرها عظيم ، فلما شاورهم (قالوا أرجه وأخاه) أى أخر أمرهما ولا تبادرهما بالقتل خيفة الفتنة (وابعث فى المدائن حاشرين) شرطا يحشرون السحرة (يأتوك بكل سحار عليم) والتعبير بالسحار ليبينوا له أنهم أقوى من موسى فى سحرهم (فجمع السحرة لميقات يوم معلوم) لما وقت به من ساعات يوم معين وهو وقت الضحى من يوم الزينة (وقيل للناس هل أنتم مجتمعون) هذه الجملة تفيد الاستبطاء والحث على الاسراع كما قال تأبط شرا :

هل

هل أنت باعث دينار لحاجتنا   أو عبد رب أخا عون بن مخراق

أى ابعث أحدهما إلينا سريعا ثم قال (لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين) لعلنا نتبعهم فى دينهم إن غلبوا . ومعلوم أنهم على دينهم فذكروا اتباعهم على سبيل الكناية يقصد بها أنهم لا يتبعون موسى وإلا فهم فى ذلك الوقت على دين المصريين ومنهم السحرة فكيف يتبعونهم من جديد (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذن لمن المقربين . قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون) وذلك بعد أن قالوا له إما أن تلق وإما أن نكون نحن الملقين (فألقوا حبالهم وعصيهم) المدهونة بالزئبق الذى تفرقه حرارة الشمس فيتطاير . ويقال إن الحبال كانت فوق سبعين ألفا وكذا العصى (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون) وهذا القسم مبنى على اعتقادهم فى أنفسهم ولأنهم أتوا بأقصى ما لديهم من السحر (فألقى موسى عصاه فإذا هى تلقف) تبتلع (ما يأفكون) ما يقلبونه عن وجهه بالتمويه والتزوير حتى إنهم جعلوا الناس يتخيلون العصى والحبال حيات تسعى (فألقى السحرة ساجدين) لأنهم علموا أن هذا منتهى التخييل السحرى . ولما ابتلعت الحية ما زوروه أيقنوا أن هذا فوق العلوم فآمنوا وخروا ساجدين لأنهم علموا أن هذه قوة فوق قوة الناس وليس فوق الناس إلا الله وهو الذى أرسل موسى ومقتضى اللغة أن يقال خروا ساجدين ولكن عبر بالالقاء أولا للمشاكلة وثانيا ليدل على أنهم لم يتمالكوا أنفسهم من الدهشة العلمية فكأنهم أخذوا فطرحوا وهذه أعجب ما يكون من جهة البلاغة اللسانية ثم أبدل من قوله « فألقى السحرة ساجدين قوله (قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهرون) وذلك إشعار منهم بعزل فرعون عن الربوبية وبأن سبب الإيمان ما أجراه الله على يدى موسى وهرون (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذى علمكم السحر) فضلكم شيئا دون شىء أو تواطأ معكم ، وإنما كان ذلك من فرعون ليلبس على قومه (فلسوف تعلمون) وبال ما فعلتم ، ثم بين ذلك الوبال فقال (لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . قالوا لا ضير) لا ضرر علينا فى ذلك فى الدنيا (إنا إلى ربنا منقلبون) أى لأنا ننقلب أى نصير إلى ربنا فى الآخرة مؤمنين مؤملين غفرانه وهو قوله تعالى (إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا) أى لأن كنا (أول المؤمنين) من أتباع فرعون (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى إنكم متبعون) أى يتبعكم فرعون وقومه ليحولوا بينكم وبين الخروج : أى أسر بهم حتى إذا اتبعوكم مصبحين كان لكم تقدم عليهم بحيث لا يدركونكم قبل وصولكم إلى البحر بل يكونون على أثركم حين تلجون البحر فيدخلون مدخلكم فأطبقه عليهم فأغرقهم .

وجاء فى التوراة فى سفر الخروج فى الإصحاح الحادى عشر أن الرب أمر أن يطلب كل رجل من صاحبه وكل امرأة من صاحبتها أمتعة ذهب وأمتعة فضة وأن الله سيميت كل بكر فى أرض مصر من الإنسان والحيوان وأمرهم أن يذبح كل أهل بيت شاة يوم الرابع عشر من شهر الخروج ويلطخون القائمتين والعتبة العليا من الدار ويأكلون اللحم تلك الليلة مشويا بالنار مع فطير وأمرهم أن يأكلوه بعجلة ويأكلون الرأس مع الأكارع والجوف . هذا هو المسمى (فصح الرب) وهذا الدم علامة على بيوت بنى إسرائيل حتى يحفظ كل بكر من بنى إسرائيل ويتخطاهم الموت إلى أبكار المصريين ويكون أكل الفطير سبعة أيام ويكون هذا فريضة أبدية تذكارا بالخروج من مصر من يوم (١٤) إلى (٢١) من الشهر كل سنة . وهكذا أمر موسى قومه بذلك ففعلوا كل هذا ونجا أولادهم وصار ذلك سنة أبدية . ولما مات الأبكار من الإنسان والحيوان فى جميع بلاد مصر نصف الليل اشتغل الناس بالأموات وبنو إسرائيل أخذوا غنمهم وبقرهم وأخذوا عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم مصرورة فى ثيابهم على أكتافهم وفعل بنو إسرائيل ما أمرهم الرب وارتحل بنو إسرائيل من رعمسيس إلى سكوت ستمائة ألف ماش من الرجال ماعدا الأولاد وخبزوا العجين الذى أخرجوه من مصر

خبز ملة فطيرا وكانت إقامة بنى إسرائيل فى مصر (٤٣٠) سنة فهذه الليلة هى عيد الفصح إلى الأبد . وكان الخروج فى شهر أبيب . فهذه سبعة أيام يؤكل فيها الفطير تذكارا لخروج بنى إسرائيل من مصر (فأرسل فرعون) حين أخبر بسراهم (فى المدائن حاشرين) وهم الشرط يحشرون الجيش ليتبعهم قال (إن هؤلاء لشرذمة قليلون) لأنهم ستمائة ألف وهم قليلون بالنسبة لجيوشه (وإنهم لنا لغائظون) لفاعلون ما يغيظنا (وإنا لجميع حاذرون) أو حذرون من عادتنا الحذر واستعمال الحزم فى الأمور (فأخرجناهم) أى خلقنا فيهم داعية الخروج بهذا السبب فحملتهم عليه (من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم) وهى المنازل الحسنة والمجالس البهية (كذلك) مثل ذلك الاخراج أخرجناهم (وأورثناها) أى أورثنا جنسها أى جنس الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم (بنى إسرائيل) وهى أرض المعاد التى هم سائرون إليها . يقول الله كما حملنا المصريين على الخروج من هذا النعيم حملنا بنى إسرائيل أن يرثوا نظيره فى أرض المعاد فساروا ليلا (فأتبعوهم) أى لحق فرعون وقومه موسى وأصحابه (مشرقين) وقت شروق الشمس ليصلوا إلى ما أعد لهم من أرض الموعد (فلما تراءى الجمعان) بحيث رأى كل منهما الآخر (قال أصحاب موسى إنا لمدركون) للحقون (قال كلا) لن يدركوكم فإن الله وعدكم الخلاص منهم (إن معى ربى سيهدين) طريق النجاة منهم (فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر) القلزم (فانفلق) أى فضرب فانفلق وصار اثنى عشر فرقا بينها مسالك (فكان كل فرق كالطود العظيم) كالجبل المنيف الثابت فى مقره فدخلوا فى شعابها كل سبط فى شعب (وأزلفنا) وقربنا (ثم الآخرين) فرعون وقومه حتى دخلوا على أثرهم مداخلهم (وأنجينا موسى ومن معه أجمعين) بحفظ البحر على الهيئة المذكورة إلى أن عبروا (ثم أغرقنا الآخرين) بإطباقه عليهم (إن فى ذلك لآية) لعبرة عجيبة لا توصف (وما كان أكثرهم مؤمنين) فلا القبط الباقون فى مصر آمنوا بها ولا بنو إسرائيل فإنهم بعد ما نجوا عبدوا العجل وقالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ولم يؤمن إلا القليل ، فكما لم يكن أكثر العرب مؤمنين وقد رأوا ما فى الأرض من النبات فى القسم الأول هكذا هؤلاء لم يؤمنوا بالمعجزة التى وقعت على يد موسى وهو انفلاق البحر ، فبهذا تبين أن الالتجاء إلى خوارق العادات لا يفيد إلا أولى العلم كسحرة فرعون فرجع الأمر إلى أن الإيمان النافع إنما يكون للعلماء كعلماء الطبيعة والفلك والنبات وعلماء السحر وهم المتبحرون فيه لأنهم لم يخرجوا عن تبحرهم فى أسرار الطبيعة فأصبح الأمر راجعا إلى قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فأما الذين يقلدون أو يظنون أن خوارق العادات كافية فهم غافلون (وإن ربك لهو العزيز) المنتقم من أعدائه (الرحيم) بأوليائه . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة . وههنا خمس لطائف :

(١) فى قوله تعالى « ألم نربك فينا وليدا » .

(٢) وفى قوله تعالى « قال فعلتها إذن وأنا من الضالين » .

(٣) وفى قوله تعالى « وتلك نعمة تمنها على أن عبدت بنى إسرائيل » .

(٤) وفى قوله تعالى « إن هذا لساحر عليم » .

(٥) وفى قوله تعالى « فأخرجناهم من جنات وعيون » ولأقدم قبل هذه اللطيفة جوهرة فى قصص القرآن .

﴿ جوهرة فى قصص القرآن من كلام الامام الشافعى رضى الله عنه ومن كلام علماء العصر الحاضر ﴾

(١) مايقوله الامام الشافعى فى قصص القرآن :

جاء فى الإحياء فى الجزء الأول صفحة ٢٣ مانصه [وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلا صالحا

ورعا

ورعاً وكان يسأل الشافعي رضى الله عنه عن مسائل فى الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه ، وقال للشافعي يوما أيما أفضل الصبر أو المحنة أو التمكين ؟ فقال الشافعي رضى الله عنه التمكين درجة الأنبياء ولا يكون التمكين إلا بعد المحنة فاذا امتحن صبر وإذا صبر مكن ، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنه ، وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنه وآتاه ملكا عظيما والتمكين أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل « وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض » وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكن قال الله تعالى « وآتينا أهله ومثلهم معهم » الآية . فهذا كلام الشافعي رحمه الله يدل على تبحره فى أسرار القرآن واطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء وكل ذلك من علوم الآخرة . وقيل للشافعي رحمه الله تعالى متى يكون الرجل عالما ؟ قال إذا تحقق فى علم فعلمه وتعرض لسائر العلوم فنظر فيما فاته فيها فعند ذلك يكون عالما فانه قيل لجالينوس إنك تأمر للداء الواحد بالأدوية الكثيرة المجتمعة فقال إنما المقصود منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدته لأن الإفراد قاتل . فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على رتبته فى معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة] انتهى بالحرف من الإحياء للامام الغزالى .

أقول إن الشدة خير مهذب للنفوس فانظر ماجاء فى كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول ، عن أبى هريرة قال « خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فوجد أبا بكر وعمر رضى الله عنهما فسألهما عن خروجهما فقالا أخرجنا الجوع فقال وما أخرجنى إلا الجوع فذهبوا إلى أبى الهيثم بن التيهان فأمر لهم بشعير فعمل وقام إلى شاة فذبحها واستعذب لهم ماء (١) معلقا عندهم فى نخلة ثم أتوا بالطعام فأكلوا وشربوا من ذلك الماء فقال ﷺ لتسألن عن نعيم هذا اليوم » أخرجه مسلم ومالك والترمذى .

وعن علىّ رضى الله عنه قال « بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا مصعب بن عمير رضى الله عنه ماعليه إلا بردة مرقعة بفرو فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه من النعمة ثم قال كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى حلة أخرى ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة قالوا يارسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة فقال بل أنتم اليوم خير منكم يومئذ » أخرجه الترمذى .

فاعجب لهذا الحديث الصحيح الذى أماط اللثام عن حال المسلمين فى جميع العصور فإنهم لما مالوا للذل والدعة والترف حرمهم الله الملك ولما كانوا هداة للأمم نافعين لها مكنهم الله فى الأرض وهذه قاعدة عامة ، فاذا رأيت الله عز وجل يذكر قصص القرآن فاعلم أنها رمز إلى أمثال هذا ، وترى قابس اليونانى المتقدم ذكره فى (سورة البقرة) عند آية (وبشر الصابرين) يقول إن السعادة لاتكون إلا بعد معاناة الشقاء والصبر فى هذه الدنيا وكذلك مايقوله عالم آخر فى كتاب (الكوخ الهندى)

أقول : وإنما نقلت هذا ليكون نصب أعين أولى العلم عند قراءة قصص القرآن ، فهذه القصص نموذج لما يفعله الله عز وجل بالمصلحين فى الأمم الاسلامية فهو يبتلى بالمحنة ثم يلهم الصبر ثم يعطيهم التمكين وقليل من الناس من يوفق للتمكين . إن قصص الأنبياء إذا لم تلاحظ فيها هذه الآراء والمعانى لم تؤثر فى العقول ولم تهذب النفوس ولم تعط فكرة ، فمن هذا الباب فليلج المسلمون ومنه فليدخلوا لإصلاح النفوس ومداواة عللها وأسقامها وإذن يكونون خير أمة أخرجت للناس .

---

(١) استعذب لهم ماء : أى استقى لهم ماء عذبا .

(٢) مايقوله علماء العصر الحاضر فى علم التاريخ ، فهناك ماجاء فى بعض المجلات العلمية للمستكين (جون مادوكس) دكتور فى الفلسفة من جامعة (بال) بأمريكا وها هو ذا .

سمع أحد علماء الرياضة أديبا كبيرا يتلو قصيدة (ملتون) الخالدة وهى (النعيم المفقود) بصوت مرتفع ولم يكد تاليها يفرغ من إنشادها حتى سأل العالم الرياضى من حوله ؟ أى شىء تجدى هذه القصيدة فى عالم الحقائق ولما أخفق فى الحصول على جواب يخلق فى نفسه الاقتناع صرح بأن الشعر لاجدوى منه وبالتالى هو منتوج لاقيمة له . ولا ريب فى أن عقيدة العالم الرياضى فى الشعر وهى عقيدة المعارضة أشبه بعقيدة رجل الأعمال فى التاريخ إذ يرى ثانيهما أن قارئ أية قطعة تاريخية عما فعل الانسان فى ماضى الحقب لايخرج منها مهما كانت متسقة الأسلوب بأية قاعدة علمية معينة يستطيع بها أن يشيد جسرا بل ولا يحصل منها على أية فائدة تجديه فى مشروعاته العلمية ، وسرعان مايصرح مؤكدا أن دراسة التاريخ لاتؤدى بصاحبها إلى أى غرض نافع وأن الوقت المبذول فيها ضائع هباء . وبديهى أن إثبات القيمة العملية من قراءة التاريخ يتوقف طبعا على تفسير كلمة (عملى) فان كان معناها لايفيد إلا الدنانير والدراهم والاستيلاء على الأكداس منها فيجب أن يتقرر فى الأذهان أن دراسة التاريخ لاتعلم الانسان تعلما مباشرا كيف يحصل على المال . وإذا كان فى معنى كلمة عملى مايدل على شىء آخر غير التنقيب عن الذهب فقد اختلف الحال عن سابقتها . أما إذا أفاد معناها إثارة جهود الإنسان للعمل مندفعا إليه بتأثير مثل من الأمثلة السابقة النبيلة . أوأن يكون معناها توسيع نظرات الانسان إلى الحياة أو تدريبه على واجبه منها بأدق الوسائل وأتقنها أوترقية مستوى معلوماته . إذاكان هذا فإن قراءة التاريخ أعلى قيمة وأجدى على الأذهان من أية دراسة أخرى . وبديهى أنى حين أحبذ دراسة التاريخ فانى أقصد بهذا تحبيذ التاريخ المسطور حديثا بدقة علمية ذلك لأن الاطلاع عليه يشق مواضع الدهشة منافى نحس بالماضى ولولا أن إنسانا فى العصور البائدة قد سبق فى الطريق المؤدى إلى تحقيق مايدور بخاطره من الأطماع وما يتلهف إلى إدراكه منها لبقينا إلى اليوم على حالتنا الهمجية الأولى نعيش فى المغاور ونرتدى الثياب المتخذة من جلود الحيوان وحينما صار أجدادنا على اهتمام بايجاد أحسن الوسائل لأداء الأعمال وثارت فى نفوسهم عوامل الرغبة فى الوقوف على ماابتكرته الشعوب الأخرى من الطرق لتأدية تلك الأعمال نفسها لعب التقدم دوره الحقيقى فى عمران الحياة . إن فى دراسة التاريخ منظارا لاغنية لنا عنه لنفهم العصر الذى نعيش فيه ولنتمكن بواسطته من التفريق مابين العناصر الأولية فى الحياة اليومية وبين تلك العوامل العارضة الزائلة ، وإذا عرفنا التاريخ معرفة وثيقة فاننا نصبح كما يقول الكاتب الإنجليزى (مورلى) أشبه كل الشبه بالطائر الذى يحلق فى أعلى طبقات الجو كيما يستطيع أن يرى سلسلة من الجزائر بحيث تكون نظرته إليها كأنها أجزاء من سلسلة جبال واحدة قد طغت عليها الأمواه وليست كأنها قطع منفصلة كل الانفصال عن اليابسة . وإذا قارنا الحاضر بالماضى فسرعان مانجد أن العصر الحالى يفوق سابقه فى النواحى المادية والعقلية والأدبية فقد زالت العبودية والرق وأخذت قوة الرجال الجسمية والعقلية فى قوامتهم على النساء تقل وتتناقص بينما قد اتسع نطاق الشعور بمساعدة الضعفاء والعطف عليهم وسرت روح العدالة والرحمة بين كل شعب بل وبين الشعوب قاطبة بعد أن كانت لا تتجاوز قلوب الأفراد فى الأسرة أو القبيلة الواحدة فكيف نستطيع وقد نفهم نواحى التقدم فى هذه الحالات ؟ لايتسنى لنا ذلك إلا بدراسة الماضى الذى تمخض عنها .

لقد كان (فون سيبل) السياسى الألمانى والمؤرخ المحقق قبل الحرب السبعينية يقول دائما فى الكلام عن الشئون السياسية ، إن من يعرف « من أين » لا بد أن يعرف « إلى أين » ولا ريب فى أن الساسة غير الواقفين على حقائق الأمور يرتكبون الأغلاط دائما لأنهم لا يعرفون ماذا أحدث فى الماضى ، تلك الخطط السياسية التى ينتهجونها فى حاضرهم .

يه

إن دراسة التاريخ تزودنا بالمعلومات الضرورية للحصول على فهم صحيح عن الجماعات الإنسانية العامة . ولا سبيل إلى أن نقف على منشأ أوضاع حكوماتنا ولغاتنا أومصدر حبنا للحرية وأفكارنا ومبادئنا الأدبية إلا بقراءتنا للتاريخ وبغيره لا نفقه شيئا من كل هذا وتراثنا النفيس فى عصرنا الحالى بل إن التاريخ ليمدنا بالوسائل التى نستطيع بها التكهن عن المستقبل والتأهب لملاقاة الأيام ، ولأضرب لذلك مثلا بحادث وقع على مشهد من أيام الحرب العالمية ، فقد تساءل ذات يوم أحد الجنود قائلا ؟ ماذا سيكون مصير أمبراطور ألمانيا فى نهاية هذه الحرب هل حقا سيشنق ؟ ألقى الجند هذا السؤال وأردفه بالصمت برهة عرض فيها لذاكرته حوادث الماضى ثم قال كلا . إنه لا يشنق ولكن سينفى وبذلك يحال بينه وبين جلب الأذى والأخطار على العالم مرة أخرى ، مثله مثل نابليون بونابرت فى خاتمة أيامه . وبديهى أن هذا الجندى ليس على موهبة التنبؤ ولولا درايته بالتاريخ وما وقع فيما مضى من أمثال هذه الظروف والحالات لما تسنت له هذه المقارنة التى تضمنتها إجابة على نفس سؤاله . إن الدراية بالماضى وما وقع فيه ذات جدوى عظيمة ليست فى معاونتها إيانا على حلّ المسائل العامة الأهمية فحسب ولكنها أيضا تعاون الأفراد على معالجة شئونهم الخاصة وأن الذين يحطمون سفن آمالهم حيث طاحت آمال غيرهم من قبل لا يلومون إلا أنفسهم فقد كان واجبا عليهم محتوما أن يدرسوا تجارب سواهم من الرجال ، والتاريخ لا يعيد نفسه ألبتة إعادة دقيقة ، إذ أن العوامل لن تكون هى نفسها فى كل زمان ومكان وبذلك لا يكون تحليلها دقيقا ، ومتى ثبت هذا تجلت قيمة المقارنة ما بين الحاضر بحوادثه وبين الماضى وما تم فيه . وأزيد من هذا أن دراسة التاريخ تبعث من نفوسنا الهمة على أداء واجباتنا التى أنيطت بنا فان الأمثلة السامية التى نقتبسها مما فعل الأبطال فى الماضى تولد النشاط لدى الناهضين بأعباء الحاضر . ولا ريب فى أن ما فعل (ليونيداس) ومواطنوه الاسبارتيون من أجل اليونان فى مضيق (ترمبولى) لا بد وأن يحفظ على كل وطنى شجاعته فى الدفاع عن وطنه بل ويكون بمثابة المحرك لأعصاب ذراعه بينما أن وقوفنا على كيفية نهوض الرومانيين وتفوقهم فى الانتصارات التى لم يسبق لها مثيل على يدى (هانيبال) . كل هذا يلهب حماسة الذائدين عن أوطانهم إلى النهاية . يجب أن ندرس التاريخ فإذا ما استوعبناه ووقفنا على خفاياه امتلأت أذهاننا بصور جمة عن الغرائز والصفات ومناظر يتجسم فيها مصير الأفراد والجماعات بل والأمم وبالأفكار العظيمة عن النظام الاجتماعى وارتقائه وبذلك نشعر بأنفسنا وقد كبرت وبعقولنا وقد اتسع نطاقها . ويقول (اللورد بيكون) اقتباسا عن أحد مؤرخى اليونان [إن التاريخ فلسفة تعلمنا بالأمثلة ، بل إن مثله مثل كل علم جليل القيمة إذا درسناه بدقة ونظام خلق فينا ذاكرة يسهل عليها الرجوع إلى الحوادث مهما يبعد بيننا وبينها الأمد وعينا دقيقة الملاحظة وقدرة على تفهم العلاقات بين الأسباب والنتائج] انتهت الجوهرة .

﴿ اللطيفة الأولى والثالثة « ألم نربك فينا وليدا » إلى قوله « وتلك نعمة تمنها علىّ أن عبدت بنى إسرائيل » ﴾

اعلم أن هذا القول قصه الله علينا ليعلمنا كيف تكون المحافظة على الأوطان وحب الإخوان فإن فرعون لما من على موسى بأنه رباه قال موسى كيف تمن علىّ بذلك وأنت لولا استعبادك لنا ما تسنى لك ذلك ، وقد وضع هذا المقال فى تفسير الآية وإنما جعلتها لطيفة ليتفكر فيها الأذكياء .

﴿ اللطيفة الثانية : فى قوله تعالى « قال فعلتها إذن وأنا من الضالين » ﴾

اعلم أن موسى عليه السلام لم يحقه ما اتفق له من قتل القبطى خطأ عن المضى فى الأعمال النافعة وإنما جاء ذلك القصص لنا لنضرب الذكر صفحا عما مضى من الأعمال ونتجه إلى أعمالنا العالية الشريفة

ولا نجعل ما اتفق لنا من الخطأ بحسب ما يظنه الناس عائقا عن الأعمال النافعة ، فليجد المسلم في عمله وليقم بما وجب عليه وليتذكر أن سيدنا موسى عليه السلام لما وكز القبطى فمات لم يعقه ذلك عن ترقية بنى إسرائيل وإسعادهم .

﴿ اللطيفة الرابعة : السحر عند الفراعنة ﴾

لقد ذكرت هذه القصة في القرآن مرارا وتكرارا وفيها ذكر السحر عند قدماء المصريين وفيها أن البحر انفلق لموسى ، فلأسمعك ما جاء عن قدماء المصريين من السحر لتطلع على عقائدهم وآرائهم ولتعلم أن قصة موسى وفرعون وراءها من الأخبار كل عجيب وغريب ، لأنقل لك ما وجد على ورق البردى وفي الآثار المكتوبة على الأحجار لتعجب من الأمم ومن علوم الأوائل ولتعلم أن الله عز وجل له في الأمم عجائب وغرائب . قال المرحوم أحمد باشا كمال ما ملخصه [قد كان السحر له تأثير غريب قبل اليوم بخمسة آلاف سنة ولم يكن لطبيب أن يداوى بالعقاقير إلا بعد أن يداوى بالعزائم السحرية ، فالعزيمة مقدمة على الدواء المادّى ، وقد ذكر حادثة في الأسرة التاسعة عشرة وهى أن فتاة ابنة ملك (بختن) قال ولعلها بغداد طلب أبوها من رمسيس الثانى أن يرسل لها أحد المعبودات المصرية فأرسل لها المعبود (خونسو) فوصل خونسو إلى الملك وطلب منه أن يخرج العفريت من ابنته المسماة (بنت رشت) فأخرج الجنى وهذا الجنى شرط قبل خروجه أن يصنعوا له مهرجانا لوداعه فأجابوه لذلك وجعلوا له يوماً عظيما مشهوراً فأحب الملك أن يبقى المعبود المصرى عنده دائما ولكن بعد مدة مرض وحار الأطباء في أمره فجاء له (خونسو) ليلا كأنه باشق من ذهب وألح عليه أن يرده إلى بلده فلما طلع النهار أرجعه إلى بلده فشفى من مرضه]

(١) وكانوا يعتقدون أن الجن تشفى من الدودة الوحيدة ومن رمد العين والالتهاب وغيره ، وقد دونوا في رسائل الطب كيفية إخراج الجان المؤذية وطردهم إلى أسفل سافلين لينجوا من أذاهم ، وذكر رحمه الله عزيمتين اشتهرتا بحسن الإجابة والقبول وكان الأطباء يتلونهما على كل مرض ولشهرتهما صدروا بهما ورقة (أبيروس الطبية) وهاك ترجمة العزيمة الأولى وهى تكرر بالدقة مراراً متى وضعت الأدوية على أى عضو مريض لكى يزول عنه سبب المرض والعين إذا كان استعمال العلاج من الظاهر ، وأنا رأيت ألا أذكرها بنصها لعدم فائدتها ، وإنما أقول إن ملخصها يرجع إلى الاستغاثة بالآلهة (أشوريس) التى خلصت (حوريس) من الأشياء الرديئة التى فعلها أخوه (ست) حين قتل أباه (أسوريس) والاستغاثة أيضا بالإلهة (أسيس) المعبودة الكبيرة يستغيث بها أن تخلصه من معبود الآلام ومن معبودة الآلام ومن الموت ومن الموتة ومن الصرع والصرعة . ويقول يا شمس تكلمى بلسانك (يا أشوريس) تشفع بتدخلك ، الشمس تكلمت بلسانها وأشوريس تشفع بتدخله ، فإذن عليك أن تخلصنى من كل شىء ردىء انتهى .

أما العزيمة التى تتلى إذا كان الدواء من الباطن فهاك ملخصها [بعد شرب الأدوية يخاطب الأدوية بقول هلمى أيتها الأدوية واطردى الأوجاع من قلبى ومن أعضائى ، العزيمة طيبة لأجل الأدوية والأدوية طيبة لأجل العزائم ، ثم يرجع ويقول كلاما كالسابق إذ يقول إن (موريس) و (ست) جىء بهما إلى البناء الكبير بعين شمس وحصلت المحاكمة بينهما ففاز (موريس) لأنه كان على الأرض يفعل ما يشاء كالمعبودات معه ويكرر هذا القول مرارا وهو يتعاطى الجرع] .

ولهم عزائم أخرى لإبعاد الهوام والدبيب وعزائم للمحبة والقبول ويمثلون شخصا على هيئة العدو ويتلون العزيمة ويضربون ذلك التمثال بالمدية فان العدو يحصل به ماحصل بصورة الشمع على زعمهم، وكانوا يتخيلون أنهم يرون الشمس نصف الليل ويستحضرون الشياطين الذين يجلبون لهم مايريدون . هذا ملخص ماذكر الباشا في [مجلة الموسوعات] .

وهاك ماترجمه أستاذى في علم التاريخ والجغرافيا المرحوم أحمدبك نجيب عن اللغة الألمانية المترجمة عن الورق البردى المصرى ترجمة حرفية ، إذ نقل رحمه الله محادثة بين الملك (خوفو) أحد ملوك الأسرة الرابعة وهو البانى للهرم الأول بالجيزة سنة ٣٧٠٠ قبل الميلاد . إن هذا الملك جمع أولاده الثلاثة وألزم كل واحد منهم أن يقص حكاية من أغرب التواريخ المصرية فامتثلوا أمره ، وإنى لأخلص لك حكاياتهم ، لماذا ؟ لأن هذا أغرب التواريخ فالاطلاع على تاريخهم، وأيضا إن القرآن ذكر سحرهم ، فهاك سحرهم لتقف على عجائب الدنيا وخرافات الأولين ولتعلم كيف ذكرهذا السحر في القرآن ولماذا ذكر وكيف كانت هذه الدنيا ومنشؤها، وإذا رأينا أنفسنا متعجبين من خرافاتهم التى كانوا يزعمونها حقائق فربما جاءت أقوام بعدنا فعدونا مخرفين « وفوق كل ذى علم عليم » .

﴿ الحكاية الأولى : قال ابنه الأول ﴾

(أعجوبة حصلت أيام الملك نبقا وهو من الأسرة الثالثة ومات سنة ٣٩٠٠)

وقف الأمير خفرع البانى للهرم الثانى وقال لأبيه (خوفو) أنا أقص عليك أعجوبة حصلت مدة أبيكم (نبقا) (ومعنى الأب هنا السلف) حينما ذهب إلى معبدالمعبود فتاح سيد عنخ تورى (مكان بمدينة منفيس به المعبد) وزار أكبر علماء السحر وكانت زوجته تحب رجلا من أهل المدينة وكانت ترسل إليه خادمتها كل يوم وهو يحلى معها في البستان منشرحا مسرورا وأرسلت له يوما صندوقا فيه ملابس لطيفة فأتى مع الخادمة ومضى على ذلك جملة أيام فلمح ذلك المدنى منزلا خلويا فى بستان زوجها فطلب منها أن يكونا معا فيه فأمرت أمين المنزل أن يهيء لهما هذا المنزل فى البستان لينشرحا فيه ففعل وجلسا معا فيه كما يشاآن، أما الخادم الأمين فإنه أخبر صاحب البستان وهو زوجها كبير القراء وهو الكاهن فقال الكاهن لهذا الأمين أحضر لى شمعا من الصندوق المصنوع من الأبنوس والفضةالمذهبة فصنع تمساحا من الشمع طوله سبعة أشبار ثم طلسم عليه بالسحر ثم قال للأمين متى جاء المدنى ليغتسل كما كان يغتسل كل يوم فى هذا الماء فألق عليه التمساح الذى من الشمع ثم جاء المدنى وجلس معها على عادته وشربا فى هناء وسرور وجاء العاشق لزوجة الكاهن ليغتسل فى البركة فألقى الأمين عليه التمساح من الشمع فانقلب إلى تمساح حقيقى بنفس الطول وخطف المدنى وغاص فى قاع الماء وكان اسم هذا الكاهن (ويبابونر) وبقى (ويبابونر) الكاهن المذكور سبعة أيام مع الملك والمدنى غاطس فى البحر فى جوف التمساح ثم طلب منه أن يريه عجبية فى رجل مدنى فى زمانه فتوجه معه البركة وتلا العزيمة على التمساح أن يحضر الرجل المدنى فأحضره فغضب الملك وقال كيف تعذب هذا الرجل بهذا التمساح فأخذ الكاهن التمساح إذا هو شمع كما كان وليس حيوانا وقص عليه قصص زوجته وهذا المدنى فغضب الملك وأمر أن يرجع الكاهن التمساح كما كان وينزل فى الماء وقد تم ذلك وأمر باحراق المرأة فى جانب البستان .

فلما أتم الأمير خفرع هذه الحكاية قال لأبيه (خوفو) هذه حكاية حصلت مدة أبيك (نبقا) فقرب الملك (خوفو) ألف رغيف خبز ومائة قدر بوزه (الجعة)وأمر بذبح ثور وكذلك أمر بحقين من الروائح العطرية . كل ذلك لروح الملك (نبقا) وقدم أيضا إلى روح أول القارئين طعاما وقدرا عظيما من البوزه وقطعة لحم كبيرة وحقا من الروائح العطرية .

﴿ الحكاية الثانية : أعجوبة وقعت فى أيام الملك (خوفو) نفسه ﴾

(ترجمت حرفيا من اللغة الألمانية وهى مترجمة من اللغة المصرية القديمة حرفيا أيضا)

عند ذلك قام الأمير (هرد داف) ابن الملك (خوفو) وقال إنك لم تسمع إلا ما كان فى الزمن الماضى ولم نشاهده بأنفسنا فهو يحتمل الصدق والكذب، ولكنى أخبرك عن شيخ فلاح مصرى يعيش (١١٠) سنة ويأكل كل يوم (٥٠٠) رغيف ويشرب مائة قدر من الجعة ويأكل رقبة ثور وهو يقدر أن يرد رأس الإنسان المقطوعة إلى مكانها فهو يحيى الموتى وإذا جر حبلا على الأرض خلفه خضع له الأسد ومشى خلفه مدة ما يجر الحبل وإنه يعرف حساب (ابت) وفيه الأسرار المكنونة للمعبود (توت) ويقال إن هذا الحساب وحدة المقاييس لتصوير الحيوان والإنسان فإن هذه الصور العجيبة التى صنعوها والهياكل التى اخترعوها لابد لها من مقاييس فهو إذن (ابت) فقال الملك (ياهردداف) أحضره لى وكان اسمه (ددى) فركب زورقا فى النيل وسافر إلى بلدة (ددى) فى إقليم (دوسنفرو) ولما وصل (هردداف) إلى الجسر تركه وسار محمولا على كفة من خشب الأبنوس وقوائمه من خشب أرز لبنان مشبك بكلاليب من الذهب فلما وصل إلى منزل ددى سلم عليه بسلام لا نعرفه الآن ، وكان (ددى) راقدا على سرير فوق مسطبة وخادم يروح على رأسه بمروحة وآخر يغمز (يكبس) رجليه وهذه صورة السلام [السلام عليك حالتك حالة كل من صار فى دور الشيخوخة والهرم ، فى دور الاحتضار والموت ، فى دور النزول فى القبر ، فى دور الدفن والمواراة فى التراب الذى تصير إليه عاجلا أنت أيها الفاضل المحترم، وإنى أتيت إليك من بلاد قاصية لأناديك ومعى رسالة من أبى جلالة الملك (خوفو) وإنك متى حضرت تأكل أكلا فاخرا يقدمه لك الملك أبى ويواليك بمثله فتصير وأنت فى هذه العيشة الراضية حتى تلحق بآبائك المرتاحين فى قبورهم ، فقال ددى سلام سلام ياهردداب ياابن الملك ، يا من يحبه أبوه ويكافئه ويجل قدره ويرفع شأنه فوق الكبراء والشيوخ وإن (قاك) حية ، ومعنى قاك يعنى صورتك الخيالية بعد الموت التى كانوا يعتقدون أنها تسكن فى الصورة التى يصنعونها على هيئة جسم الميت ويقدمون لها صور الخبز وكل مأكول وزعمهم أن هذا يجعل تلك الصورة حية ، ثم إن الأمير (هردداف) ساعده على القيام وسافر معه على الجسر فقال (ددى) مر لى بزورق وأحضر أولادى كلهم مع كتبى فأمر له بزورقين مجهزين بجميع لوازمهما . ولما وصل الأمير هر دداف هو وددى إلى (منفيس)وهى ميت رهينة الآن دخل ددى على والده الملك فقال له الملك هل مايقال إنك تحيى الميت حق؟ قال نعم أحيى الإنسان والحيوان فقطع رأس أوزة أمامه فأخذ الأوزة وجعلها فى الجهة الغربية من الايوان وجعل رأسها فى الجهة الشرقية منه وأخذ يتلو العزائم السحرية فقامت الأوزة تمشى وتتبختر وكذا الرأس صار يقفز نحو الجثة فالتقيا ولما وصلت لها وقفت الأوزوة وجعلت تصيح . فقال له الملك أصحيح أنك تعرف حساب(ابت) فى الأسرار المكنونة للمعبود توت . قال لا أعرفه ولكن أعرف مكانه إنه فى علبة مصنوعة من حجر ربى (كذا) موجودة بمنزل اسمه (سبق) بمدينة الشمس (عين الشمس) وأنت أنا الموعود بها بل الموعود بها أكبر أولاد المرأة (ردّدت امرأة الكاهن المسمى (را) الخادم للمعبود سخيو والمعبود المذكور وعدها أن يعطى أولادها أكبر الوظائف فى القطر وأكبرهم يكون هو الكاهن الأعظم لمدينة الشمس وهذه المرأة تلد فى الخامس عشر من شهر تى (طوبه) وأكرم الملك هـذا الساحر إكراما كثيرا ورتب له كل يوم ألف رغيف من الخبز ومائة قدر من الجعة وثورا ومائة ربطة من البقول والخضر انتهى .

﴿ الحكاية الثالثة هى أعجوبة وقعت فى أيام الملك سنفرو ﴾

لما انتهى الأمير خفرع من كلامه قام أخوه الأمير (بيوفرا) وتقدم للكلام أمام أبيه الملك خوفو وهذه الحكاية ملخصة فيما دار بين المؤلف وبين تلميذ بمدرسة عالية وقد نشر هذا الحديث فى جريدة الإخلاص تحت عنوان (السحر فى وزارة المعارف) وهاك نص الحديث .

(س) لقد جاء فى الكتب السماوية وفى العلوم الأثرية أن قدماء المصريين كانوا بارعين فى السحر فهل بقى من هذا العلم شىء الآن ؟

(ج) إن السحر اليوم فى وزارة المعارف .

(س) عجبا كيف تقول هذا وأنت كنت مدرسا بها وأنا تلميذ بل أنا كنت تلميذك بالمدرسة الخديوية . أجدا تقول أم أنت من الهازلين ؟ .

(ج) إنى لا أمزح وإنما أقول لك حقا إن وزارة المعارف قد عمها السحر من أولها إلى آخرها وهذا السحر قد أنام العقول .

(س) أوضح فإنى لم أدر ماتريد ؟

(ج) إن كل شىء يصرف العقول عن الحقائق يسمى سحرا . ألا ترى أن المنوم (بالكسر) يأتى فى المراسح العامة ويضع سكرا فى فم المنوم (بالفتح) ويقول له هذا حنظل فيلفظه المنوم ويقشعر وإذا عكس الأمر استحلى الحنظل وابتلعه وهو قرير العين .

هذا أحد أنواع السحر فقد صرف المنوم عن الحقائق حتى صار الحلو مرا والمر حلوا . أو لست ترى أن الرجل يقول له المنوم (بالكسر) أنت امرأة فيفعل فعل المرأة ويسمى نفسه باسم المرأة ثم يقول له أنت ملك فيفعل فعل الملوك وهو مصدق ذلك فى كل حال والناس يشاهدونه فى المراسح . إن هذا نوع من السحر بلا جدال .

(س) وهل هذا التنويم يدرس فى المعارف ؟

(ج) لا ولكن التنويم فى المعارف أشد وأشد . لاجرم أن كل ماصرف العقول عن الحقائق حكمه حكم التنويم ، فاذا رأينا فعلا يؤدى إلى هذه النتيجة عددناه سحرا وإن لم يسمه العامة ولا القاموس سحرا .

إن المقام مقام حكمة وعلم . وهل لك أن أقص عليك عجيبة من مرويات قدماء المصريين السحرية المكتوبة على ورق البردى سواء كانت على الحقيقة أو خرافية . ذلك أن الأمير بيوفرا وهو أخو الملك (خفرع) قام أمام أبيه الملك (خوفو) وقص عليه أعجوبة وقعت وقد ظهرت على يد أكبر العلماء المسمى (ززام عنخ) ذلك أن الملك (سنفرو) كان منقبض الصدر فوصف له أكبر العلماء أن يتوجه جلالته إلى بركة قصره ويجعل فيها زورقا مصفحا بالذهب جميلا فيه عشرون فتاة بكرا يجدفن فيه بمجاديف من خشب الأبنوس المحلى بالذهب وهن محليات بالقلائد والعقود ولابسات ملابس (شبكة) ففعل وركب فسرن به فى الزورق ونظر جمال الزورق ومن فيه وجمال الأشجار والأزهار حول البركة فانشرح صدره وكانت الفتيات صفين ولكل صف قائدة فوقع حجر دهنج من قرط إحدى القائدات فى الماء فارتاعت لذلك وتوقفت عن العمل هى ومن معها فضمن لها الملك مثل حجر قرطها فقالت لا أبغى سواه وهذا الحجر أخضر زاهى اللون كالزمرد فتكدر الملك فأغاثه أكبر العلماء المذكور وقرأ العزيمة على الماء وكان عمقه اثنى عشر ذراعا فانطبق أحد نصفى الماء على النصف الثانى وصار عمقه أربعة وعشرين ذراعا وصار مكان النصف يبسا فوجد حجر الدهنج فى الأرض على سقف

من ارجاج فالتقطه وناوله لصاحبته ثم تلا العزيمة مرة أخرى فى الماء فرجع الماء لحالته وانشرح قلب الملك هو وفتياته .

(س) وما فعلت المعارف من هذا ؟

(ج) إن أكبر العلماء أشبه بحكماء أوروبا فى كلياتهم والملك سنفرو وفتياته أشبه بملوك أوروبا وجنودهم والماء أشبه بالعلم فكلاهما للحياة والحجر الواقع من قرط الفتاة هى النيل والخيرات المخبوءة فى أرض مصر مثلا وما فيها من النعم . أما العزيمة فهى أن أولئك الفلاسفة والحكماء فى أوروبا يعطون التعاليم المدرسين ولولاة الأمور الأوروبيين فيعلمون أهل البلاد يقولون لهم إنكم لاتصلح لتعليم وأخلاق آبائكم وآدابهم كل ذلك نقص وينقضون على العلوم ويحذفونها ولا يبقى إلا قشورها . ألم تر أن التلاميذ قبل زمن الاحتلال وفى أوائله كانوا يدرسون علم الأشياء فى الابتدائى والفلك والحيوان والإنسان والنبات فى التجهيزى، ألم تحذف هذه العلوم من البلاد ؟ أليس الانسان يرى بعينه النبات ويرى الحيوان وأجسام الناس ويرى الكواكب ؟ .

(س) بلى ، ولكن لايدرسها لأنه ليس فى منهج الدراسة .

(ج) هذا هو السحر الحقيقى وما فعل سحر أكبر علماء سنفرو لم يفقده إلا حجرا هو قرط ولكن سحر أوروبا الآن أفادها قطرا كبيرا والقطر خير من القرط بل فيه مايساوى الآن ألف حجر من هذا . ومن تلك العزيمة قول الدول المحتلة أعطينا التلميذ الشهادة فيفتر المتعلم بذلك وكفى بالغرور جهلا ، وأما الماء الذى ارتفع عن أحد نصفى البركة فهو هذه العلوم انقشعت من البلاد بالتدريج فى زماننا والناس فى مصر ساهون لاهون مسحورون وأما الحجر فهو مال مصر كله وأما الآخذ فهى أوروبا فإنها لاتجرؤ على نهب أموالنا ونحن علماء إنما تأخذه ونحن جهلاء ، فإذا أزاحت العلم انكشفت لها كنوز مصر وأخذتها وإلافلماذا تدرس هذه العلوم فى مدارسها ولماذا ترى أمتنا المصرية كانت تدرسه قبل قدوم الانجليز وأصبح ذلك نسيا منسيا ، بل مابالنا نرى الكتب الانجليزية التى كانت تدرس فيها بعض هذه الأشياء غيرت وحل محلها قصص كحكايات العجائز والأطفال .

(س) إذن الساحرون من أوروبا .

(ج) نعم والناس اليوم مسحورون يسيرون فى الحقول وينظرون النبات والحيوان وينظرون نوع الإنسان وينظرون النجوم وهم غافلون لأن المنوم قال لهم هذه هى شهادة العلوم فتغفلوا .

(س) وهل الوزراء المتعاقبون شاركوا الإنجليز ؟

(ج) لم يكن للوزراء قبل الاستقلال أمر ، أما بعده فالوزراء رجالات الأمة فيغيرون ويرجعون الأمور إلى نصابها وما ذلك عليهم بعزيز وأما إذا رجعت مصر إلى عهدها الاحتلالى (لاسمح الله) فالسحر يستمر والجهالة تدوم وليس للمصريين إلا أن يفكروا جميعا . انتهى الحديث وبه تم الكلام على الحكايات الثلاث .

تقديس كتب السحر وأكابر السحرة عند قدماء المصريين

جاء في كتاب [أدب الدنيا والدين] عند قدماء المصريين مانصه بصفحة ١١٨ :

كانت كتب السحر داخلة في العلوم المقدسة ومندرجة أيضا من علوم البيان وكتب الطب والحكمة ، وكانت هذه الكتب تحفظ في دور الكتب الملكية المجاورة للمعابد والهياكل ومن المحفوظات الآن في مدينة لندن ورقة بردية في السحر كشفها كاهن في القاعة الكبرى من معبد كنتوس مذكور على جوانبها أن الأرض كانت مظلمة حتى ظهر القمر فجأة وأضاءت أشعته سطحها ، فأتى ذلك الكاهن بهذه الورقة إلى خوفو أحد ملوك الأسرة الرابعة . أما السحرة فكانوا ينقسمون إلى [طائفتين] الواحدة قانونية والأخرى غير قانونية فالقانونيون هم الذين كانت تأذن لهم الحكومة بمباشرة السحر وتعتمد عليهم وتعول على آرائهم في الطوارئ ولذلك كان لهم النفوذ الأكبر والمقام الأسمى أمام الفراعنة والرعية ، واشتهر في هذا العلم كثير من أبناء الملوك والأمراء كامنحتب بن حابي وزير الملك امنحتب الثالث الذي نبغ في السحر حتى أقاموا له تمثالا محفوظا اليوم بالمتحف المصري تحت (نمرة ٣) . وممن اشتهر أيضا بالنبوغ في هذا الفن الملك سيزوستريس حتى فاق جميع السحرة في عصره . وكانت الفراعنة يجلون هؤلاء السحرة ويثقون بهم ويلقبونهم بكتبة بيت الملك وكتبة الحياة ويدعونهم لتفسير أحلامهم والانتصار بهم على أعدائهم باظهار أعاجيبهم المدهشة كما حصل في قصة سيدنا موسى عليه السلام أو لعمل الألعاب السحرية لتسليتهم ورياضة أفكارهم ، وكان الساحر لاينبغ في هذا العلم إلا بعد التمرن الطويل ومضى مدة طويلة في حسن السيرة أو السريرة ومقاومة شهوات النفس والتمسك بالطهارة والعفاف والامتناع من أكل اللحوم والأسماك والانفراد والانزواء في الخلوة كل أيام حياته ولايجوز أن يحترف أية حرفة أخرى حتى تشغله عن مهمة وظيفته ، وقد أتقن السحرة هذا العلم وتفننوا في أساليبه وأحكموها حتى لم يتركوا غاية جهدهم فيه ورسخت قواعده في أذهانهم حتى كان أحدهم يأتي بأكبر الخوارق التي تبهر الأبصار والبصائر بدون تكلف كأنها ألعوبة صبيانية . ومما ذكر عنهم أنهم فلقوا البحار وقطعوا رأس رجل وفصلوها عن جثته ثم أعادوها إليه بدون أن يشعر بأذى وجعلوا التماثيل والأشباح المصنوعة من الشمع تتحرك بحركات مختلفة طوع إرادتهم وكانوا يختفون عن الأبصار وهم جلوس في المجلس فلاينظرهم أحد حتى إن الداخل لايعتقد أنهم موجودون في هذا المجلس ويقرءون الرسائل المطوية داخل ظروفها فيخبرون بما فيها بدون أن يفضوها ويخبرون الناس بماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم . ومن أعجب أمر أقاصيصهم أنهم قلبوا نظام الطبيعة حتى صنع أحدهم من الشمع تمثال تمساح صغير ثم تلا عليه صيغة سحرية فتحرك هذا التمثال وسلطه على رجل زان استحق العقاب فابتلعه وألقاه في البحر اه .

هذا ماجاء في الكتاب بنصه وفصه ، ولست أذكره على أنه حقيقة ولكن أقول هكذا كان القوم يعتقدون والحمد لله رب العالمين .

جمال العلم وبهجة الحكمة

اعلم أيها الذكي أن ما كتبته الآن لايفيد فائدة يحسن السكوت عليها ولولا أنه قد جاء مكتوبا في الورق البردي ما كتبته فلأرك الآن جمال العلم وبهجة الحكمة ونور الله المشرق في هذه الدنيا وسره الظاهر وعجائبه المدهشة . اللهم إنك أنت الظاهر والباطن وأجمل الأنوار وأبدع الأسرار هذه النفوس الإنسانية التي سكنت

أجسامنا وزينتها بحواسنا وكرمتها بعقولنا وأقدرتها أن تعرف الكائنات علويها وسفليها . اللهم إنك أنت الذي أبدعت أرواحا علوية أدارت الكواكب ودبرت الأشباح الأرضية وخلقت أخرى أصغر منها كالنفوس الانسانية وشوقتها إلى أن تطلع على كل عجيب وغريب ، ذلك لأنها قبسة من نورك وسر من أسرارك فهى أبدا تحن إلى الجمال والكمال وتصبو إلى إدراك الأسرار ، ومن عجب أننا نحن من أجل الأسرار وأبدع العجائب لكننا نجهل أنفسنا ولا نفطن لما فيها من الجمال البديع والنقش الغريب . بالله كأنك حكمت علينا بالحبس فى الجهل حتى ندفع ثمن علمنا بأنفسنا غاليا كما يدفع الرجل مهر عروسه ، وما ذلك المهر إلا دراسة هذا الوجود وعجائبه وتحلى النفس بالأخلاق الفاضلة وهنالك تتجلى لها معانيها فتعرف أنها قبسة من نورك فتطير فرحا إلى لقائك وتموت فرحة بمشاهدتك . أمامى الآن [كتابان] كنت دائما أحافظ عليهما لألخصهما فى هذه السورة المناسبة قصة سحرة فرعون . فهاهى ذه الآن تطبع ولم يوقظنى لذلك إلا بعض الإخوان قبل أن تضيع الفرصة فعلمت أن هذا الإيقاظ أمر إلهى نبه فى النفس ما كان خاملا ، والكتابان أحدهما يسمى [السحر الحلال فى الألعاب السماوية وبعض فوائد صناعية مجربة] والثانى يسمى [المختار فى كشف الأسرار] أما أولها فهو مؤلف مستخرج من العلوم الحديثة وفيه فوائد فائقة وعجيبة ويظهر لى أنها كلها صحيحة أو قريبة من الصحة والكتاب الثانى مؤلفه يسمى الشيخ زين الدين عبد الرحيم بن عمر الدمشقى كان فى القرون الوسطى فلأسمعك أولا ما اصطفيته من كتاب السحر الحلال . ثم أقفى ببعض ما اصطفيته من كتاب المختار فى كشف الأسرار لترى جمال الله المخبوء فى العناصر ، وتنتفع بفوائد ومنافع فى الحياة ولطائف تفرح الخلان وتؤنس الجلاس وأخرى للاعتبار والاحتراس من الناس . أما كتاب السحر الحلال فقد اصطفيت منه ٣٢ فائدة وهاك بيانها .

(الفائدة الأولى : كيفية جعل رأس عجل مطبوخ يعج على المائدة كأنه حى)

الطريقة فى ذلك هى أن تأخذ ضفدعة حية وتضعها فى أسفل الرأس من جهة الحنجرة تحت طرف اللسان الداخلى ويكون وضعها عند إخراج الرأس من الطنجرة حالا وهو شديد الحرارة بحيث إن حرارته تلذع الضفدعة فتصرخ هناك فيخرج صوتها من فم ذلك الرأس نظير صوت العجل تماما واحترز أن لا تضعها إلا عند إرادة استعمال ذلك قبل أن يبرد الرأس أو تموت الضفدعة .

(الفائدة الثانية : كيفية إطفاء شمعة مشتعلة وإشعال شمعة أخرى مطفأة فى وقت واحد)

[أولا] ينبغى أن تكون الشمعتان كاملتين وفتائلهما جديدة لم تمسها نار [ثانيا] أن تشق طرف الفتيلة التى تريد أن تشعلها بواسطة دبوس ونحوه وتضع فى ذلك الشق قطعة من الفوسفور (١) بقدر حبة حنطة واجعل المسافة بينها وبين الشمعة المشتعلة مقدار خمس أقدام وخذ بيدك غدارة وأطلقها على المشتعلة فيطفئها البارود بحزمه ويشعل الثانية التى فى رأسها الفوسفور .

---

(١) يجب الاحتراز الكلى عند استعمال الفوسفور ، ينبغى أولا أن لا تمسه بأصابعك لئلا يعلق بها شىء منه فتأخذ قطعة من الورق وتبلها بالماء وتمسكه بها لأنه سريع الالتهاب عند الضغط أو التقسيم ، وإذا اتفق ولصق شىء منه بالأصابع والتهب يصعب جدا إطفاؤه فربما آذى وآلم بشدة لهبه فلا يطفئه حينئذ إلا الغمس بالبول وغير هذه الواسطة لا تزيده إلا التهابا ، ولكى يؤمن خطر هذا العنصر أمنا تاما عند استعماله ينبغى أن يوضع فى قنينة مملوءة من الماء بحيث إن الماء يغمره بجملته والأحوط أن يمسك بواسطة ملقط فلينتبه جدا .

(الفائدة الثالثة : كيفية عمل برق في حجرة)

ينبغي أن تكون الحجرة التي تريد أن تصنع فيها البرق صغيرة ومظلمة ولا يكون فيها منفذ إلى الخارج يدخل منه الهواء، ثم تأخذ إناء من نحاس أو نحوه فتشعل فيه شيئا من العرق مع الكافور وتتركه في غليانه حتى يحترق العرق والكافور برمتهما ولا يبقى شيء في الاناء، وحينئذ إذا دخل أحد إلى تلك الحجرة وبيده شمعة موقدة يرى في الحال لمعان برق شديد في المكان، وذلك البرق لا يخشى منه ضرر لا للانسان الذي يغشاه البرق ولا البيت الذي يسطع فيه .

(الفائدة الرابعة : كيفية إظهار شبه قوس قزح)

طريقة ذلك أن تملأ فمك ماء وتقف في باب أو في شباك حجرة نافذ منها نور الشمس إلى الداخل وتجعل ظهرك موجها إلى أشعة الشمس ثم تنفخ ذلك الماء نفخا بحيث يكون نور الشمس واقعا عليه فيظهر للناظرين قوس منحن نظير قوس السحاب .

(الفائدة الخامسة : جعل الورق غير قابل الاحتراق)

عليك أن تأخذ قطعة من ورق الكتابة الاعتيادي وتغمسها بماء الشب ثم تجففها وتعيد ذلك عليها مرتين أو ثلاث مرات وتجففها في كل مرة جيدا فاذا وضعتها بعد ذلك على لهيب الشمعة لا تحترق أصلا .

(الفائدة السادسة : تكييف شراب حتى يضيء في الظلام)

عليك أن تأخذ قطعة من الفوسفور بقدر الحمصة الصغيرة وتقسمها إلى قطع ثم تضعها في وعاء من فخار يكون فيه مقدار ثلاثة فناجين اعتيادية من الماء، وتغلوه على نار خفيفة وخذ زجاجة طويلة بيضاء لها سدادة من جنسها تكون مضبوطة وافتحها وضعها في ماء حار ثم ارفعها وأفرغ فيها مقدارا من ذلك الماء الذي كانت فيه وأضف إلى الماء المغلو بالفوسفور حالا واغمس السدادة في الغراء وسد بها القنينة بالسرعة لكي لا يدخل الهواء كليا فيبقى هذا الماء لماعا مضيئا ليلا مدة جملة أشهر . فاذا وضعتها في مكان مظلم احترز من أن تحركها وإذا كان وقت حر وجفاف فهز القنينة فترى حينئذ لمعانا أشبه بلمعان البرق في وسط الماء .

(الفائدة السابعة : طريقة لإبقاء الزهور محفوظة زمانا وإبرازها في غير أوانها)

خذ زهرا من أي نوع شئت بشرط أن يكون كأس الزهرة (١) سالما ممتلئا وتويجها (٢) قريب التفتح واقطعها بمقراض تاركا لها عنقا طويلا ما أمكن ولبس طرفها المقطوع بقطعة من الشمع الأحمر وعندما تجف لفها بقطعة ورق ناشفة وضعها في محل ناشف . فاذا أردت بعد حين أن تبرزها أخرجها واقطع منها محل الشمع الأحمر وضعها في ماء به قليل من ملح البارود أو الملح الاعتيادي واتركها حتى تتفتح وتأخذ نضارتها .

(الفائدة الثامنة : طريقة لغليان حامض الكبريتيك من دون نار)

ضع في زجاجة كمية قليلة من حامض الكبريتيك وزدها قليلا من برادة النحاس الأصفر فترى الحامض في غليان شديد ضمن الزجاجة حتى إنه من قوة حرارته يلذع لذعا مؤلما .

---

(١) هو وريقاتها الخضر المحيطة بالنويج .
(٢) هو الأوراق الملونة .

(الفائدة التاسعة : إظهار ماء فى لون وتحويله إلى لون آخر بدون صباغ)

الطريقة لذلك أن تأخذ قنينة بيضاء جلية وتفرغ فيها مقدارا من روح القلى وتحل فيها كمية من برادة النحاس الأصفر فيزرق حينئذ السائل ، فاذا سددت القنينة اختفى لونه فإذا أردت إظهار اللون ثانية افتح القنينة بالثانى فيزرق وهكذا .

(الفائدة العاشرة : طريقة لتغيير هيئة جماعة فى مكان)

تأخذ كمية من الملح وأخرى من الزعفران وتحلهما فى قليل من العرق وبعد أن يتم مزجهما هذا خذ قطعة من القطن واغمسها فيه حتى تتشرب منه جيدا ثم أشعل طرفا منها وأشعل بها المصابيح الموجودة فى المحل فكل شخص أبيض يقع عليه هـذا الضياء يصير لونه أخضر وتستحيل حمرة الخدود إلى لون زيتونى مشرب .

(١١) (طريقة لتغيير لون طائر أو تويج زهرة)

لإجراء ذلك ينبغى أن تستحضر زجاجة واسعة يمكن أن تسع الطائر الذى تريد أن تحول لونه واستحضر لها سدادة من الفلين مجوفة على قدر غلظ عنق الطائر الذى ينبغى أن يكون رأسه خارجا والأجود أن تكون الفلينة منقسمة إلى شطرين يقع بينهما التجويف بحيث يمكن ضمهما على عنق الطائر من دون أن يتأذى أو يجرح وبعد أن تكون هيأت ذلك تأخذ الزجاجة وتلق بأسفلها أوقية من الكلس الجديد وثلاث دراهم من ملح النشادر وعندما ترى الغليان قد ابتدأ فى الزجاجة تسرع بوضع السدادة مركبا فيها عنق الطائر حسب التفصيل المتقدم حتى تكون جثته ضمن الزجاجة ورأسه فى الهواء وينبغى أن تكون الزجاجة طويلة لئلا يلحق الطائر إلى أسفلها فيتأذى وتبقى الطائر على هذه الحالة نحو دقيقتين إلى ثلاث دقائق فتتغير لونه الطبيعى إلى لون آخر واحترس أن يبقى أكثر من ذلك فانه يتألم وربما يموت . وكذلك تصنع إذا أردت أن تغير لون زهرة ما ولكن تكتفى أن يكون فى الفلينة ثقب بحيث يدخل فيه عنق الزهرة .

(١٢) (كيفية جعل صينية القهوة تدور من نفسها على الجلاس)

تأخذ سلحفاة وتلصق بظهرها قطعة من الشمع العسلى إلصاقا محكما بالتسخين ثم تأخذ الصينية فتلصقها بتلك الشمعة على ظهر السلحفاة بعد تسخين مكان الإلصاق من الصينية بحيث تتمكن جيدا وبعد ذلك تغطى الصينية بقطعة من القماش ترسلها حول أطرافها لئلا تظهر السلحفاة من تحتها وتضع عليها الفناجين وتوجهها إلى الجلاس ، ومن طبع السلحفاة أن تدور فتسعى هكذا من واحد إلى آخر بحيث يظهر للناظرين أن الصينية تدور من نفسها .

(١٣) (كيفية وضع شىء فى العين وإخراجه من الفم)

تأخذ قطعة من الرصاص أو نحوه بطول قمحتين وغلظ قمحة أو أقل مستديرة من قوامها وطرفيها بحيث لايبقى لها حرف يخدش داخل العين وتأخذ قطعة أخرى على هيئتها تماما فتضع الواحدة فى فمك خفية ثم تأخذ الثانية فتدخلها أمام الناظرين فى عينك فى (الماق الأنسى) أى فى طرف العين الذى من جهة الأنف وهكذا تغيبها تحت جفنك الأسفل بالتدريج مع الرفق منحرفا بها إلى الجهة الوحشية فاذا غابت بأجمعها أجر أصبعك من عند العين إلى جهة الخد مدير إياه بالتدريج أيضا كأنك تضغطها تحت الجلد حتى توصلها إلى الفم ومتى وصل أصبعك إلى قرب فمك ألق منه القطعة الثانية التى وضعتها أولا فيتخيل الناظر أن القطعة التى خرجت من فمك هى التى وضعتها فى عينك . وهكذا يمكنك العكس أيضا فتعيد تلك القطعة إلى فمك وتدير أصبعك منه إلى العين عكس مافعلت أولا ومتى انتهى أصبعك إلى العين تضغط به تحت الجفن ضغطا منحرفا إلى جهة

الأنف

الأنف مرتين أو ثلاثا فتخرج القطعة وتسقط وأبق القطعة الثانية فى فمك ولا تخرجها إلا خفية لئلا يكشف سر الصناعة ، ولكى لايسمع لها صوت عند اصطكاكها بأسنانك أو يتغير منطقك بسببها ، ينبغى أن تخبئها وراء اللثة مما يلى الأنياب مادامت فى فمك .

(١٤) (كيفية تحويل نصل سكين من الفولاذ إلى نحاس أصفر)

خذ أوقية من صفائح النحاس الأصفر الرقيقة وطهرها على النار حتى تنقى ، وبعد أن تقسمها إلى قطع صغيرة ضعها فى كأس زجاج وأرق عليها ثلاث أواق من حامض الترتيك واتركها حتى أوست ساعات فيذوب النحاس وينحل ، وبعد أن يسكن من غليانه اغمس فيه نصل السكين فيكتسى غشاء من النحاس المحلول .

(١٥) (طريقة يظهر بها الفولاذ كأنه سائل)

تأخذ قطعة من الفولاذ أو الحديد وتحميها إلى درجة الاحمرار الكامل ثم تمسكها بملقط باليد الواحدة وتأخذ باليد الثانية عصا تضع فى رأسها قطعة من الكبريت وتلفها على قطعة من الفولاذ المحمرة فيذوب الكبريت ويسيل عن قطعة الفولاذ التى يظهر للناظر كأنها هى السائلة .

(١٦) (إخراج عشرين طلقة من قنينة نظير صوت القدارة)

خذ قنينة من الزجاج الأسود متينة الجدران وضع فيها مقدار نصف لتر من الماء مع خمسة وتسعين جراما من برادة الحديد وستين جراما من زيت الزاج وسد القنينة واتركها حتى تسخن ومتى سخنت افتحها وأدن إليها من جهة فمها قطعة ورق ملتهبة فيخرج منها طلقة ثم أعد السدادة وهكذا تكرر هذه العملية فيخرج منها عشرون طلقة .

(١٧) (كيفية اصطناع الجليد من الماء فى فصل الصيف)

خذ قنينة أو شبهها من الفخار واملأها ماء مغليا ثم أضف إليها ثمانين جراما من ملح البارود وعشرين جراما من عرق الطيب ثم سدها سدا محكما وأنزلها فى بئر عميقة وأبقها هناك نحو ثلاث أو أربع ساعات ثم أخرجها بعد ذلك واكسر القنينة فتجد الماء قد تجمد .

(١٨) (سر خاص فى عدد ٣٧)

أىّ عدد من الأعداد الآتية ضربت فيه عدد (٣٧) يحصل ثلاثة أرقام متشابهة أخذت بالنسق من (١) إلى (٩) حسب نسق الأعداد المضروب فيها وهى هذه (٣ - ٦ - ٩ - ١٢ - ١٥ - ١٨ - ٢١ - ٢٤ - ٢٧) وهذه صورة العمل .

٣٧	٣٧	٣٧	٣٧	٣٧	٣٧	٣٧	٣٧	٣٧
٣	٦	٩	١٢	١٥	١٨	٢١	٢٤	٢٧
١١١	٢٢٢	٣٣٣	٤٤٤	٥٥٥	٦٦٦	٧٧٧	٨٨٨	٩٩٩

(١٩) (طريقة للكتابة بحبر يظهر ويخفى)

تأخذ مقدارا من تراب الزرنيخ وتحله بالماء المحلل وتضيف عليه شيئا من الماء الاعتيادى ثم تكتب به على الورق فلا يظهر له لون ، فاذا سخنت الورقة على النار ظهرت الكتابة بلون أخضر ومتى رفعت عن النار يذهب اللون وهكذا . وهناك طريقة أخرى لاظهار الحبر السرى على الورق بعد الكتابة به ، وهى أن تأخذ كمية قليلة من البصل الاعتيادى مع جزء من عصير الليمون الحامض وتمزجهما معا فى وعاء من زجاج وتكتب ماشئت على الورق وبعد أن تجف الكتابة اعرضها على الحاضرين فلا يرونها إلا ورقة بيضاء وعند ذلك يمكنك فى أى وقت شئت إظهار الحبر وذلك بعرض الورقة لحرارة النار فتظهر لك الكتابة بلون ذهبى لا يمحى

(٢٠) (طريقة لأجل الكتابة بلا حبر)

غطس ورق الكتابة في محلول الزاج الأخضر أي (كبريتات الحديد) وانشره على خيطان منصوبة حتى ينشف تماما ثم خذ من مسحوق العفص الناعم جدا وافرك به الورق بكرة تصنعها من خرق نظيفة ثم أزل مابقي على الورق بلا التصاق بفرشة ناعمة ثم اصنع منه دفترا فان بللت قلما أوقشة بماء أو بصاق ورسمت به على هذه الورقة تظهر لك الرسم أسود كما لو استعملت حبرا، وبهذه يستغنى عن الدواة وقلم الرصاص .

(٢١) (كيفية منديل يدل على المطر)

خذ منديلا وصور عليه صورة رجل حامل شمسية مصبوغة بكلوريد الكوبلت، فان كان الطقس حسنا ناشفا ظهرت الشمسية زرقاء ، وإن اختلف صارت رمادية ، وإن أمطر صارت بيضاء ، وإن غسلت زال لونها تماما .

(٢٢) (منديل غير قابل الاحتراق)

خذ شبا ونوشادرا واعجنهما بزلال بيض واطل بهما منديلا ، فاذا ألقيته بالنار لايحترق .

(٢٣) (طريقة لأجل إمساك النار)

خذ زرنيخا أصفر مورقا وشبا يمانيا وامزجهما بزلال البيض وادهن بهذا يدك فاذا مسكت النار لا تحرقك.

(٢٤) (طريقة لجعل بيضة تطير لذاتها)

خذ بيضة حمام وانقبها وأفرغ مافيها واملأها من الندى ثم سدها بقليل من الزفت واطلها بدهان أبيض نظير لونها وحينما تريد تطييرها ضعها في الشمس فتراها تطير لذاتها .

(٢٥) (طريقة لعمل حبر سرى)

خذ من حليب التين واكتب به على الورق وبعد أن تنشف الكتابة اعرضها على حرارة النار فتظهر الكتابة بلون ذهبي غامق .

(٢٦) (طريقة لعمل حبر لاينظر إلا في الليل)

خذ نوشادرا وحله في حليب واكتب به فيظهر في الليل ولا يظهر في النهار .

(٢٧) (طريقة لنزع الحبر عن الثياب)

خذ نوى المشمش اللوزى ودقه ناعما وافرك به القطعة الملطخة فيزول الحبر عنها .

(٢٨) (طريقة لإهلاك البراغيث)

انقع مسحوق الكبريت الأصفر في خل كاف يغمره مدة ثلاثة أيام ثم رش به الموضع المطلوب فتفر البراغيث منه ولا ترجع إليه أبدا مادامت تنشق رائحة الكبريت (مجربة) .

(٢٩) (طريقة لإهلاك البق)

خذ (١٦) جزءا من الصابون وجزءين من الزرنيخ الأحمر وجزءا من الكافور وضع الجميع في مقدار كاف من العرق حتى يصير المزيج كالمرهم وادهن به الموضع القاطن فيه البق فيجمد لامحالة (مجربة) .

(٣٠) (طريقة لإهلاك الصراصير)

امزج قليلا من مسحوق الزرنيخ بتفاحة مشوية وضعها في المحلات التي تكون فيها الصراصير فتهلك لامحالة . ولكن يجب الاحتراس من أن يصل إليها الأولاد فيأكلوها فيسموا .

(٣١) (طريقة لطرد النمل الصغير الذر)

امزج مل، ملعقة صغيرة من الطرطير القيء بملعقتين من الدبس وضع المزيج فى ماء وحركه واجعله حيث رأيت النمل وفى الصباح تجد نملا كثيرا ميتا على وجهه والبقية قد ارتعبت وهربت ثم احرق النمل الميت عن وجه المزيج وأعد هذا العمل فى كل مكان يظهر فيه النمل فتهلكه بأقرب وقت .

(٣٢) (ضوء الفسفور)

يمزج (١٢) قمحة من الفوسفور و(٤) دراهم من زيت الزيتون فى قنينة صغيرة ثم تسد هذه القنينة سدا غير محكم وتضعها فى وعاء فيه ماء مسخن حتى يذوب الفوسفور فتسد القنينة حينئذ سدا محكما وتهز حتى تكاد تبرق فكلما فتحت بعد ذلك أضاءت إضاءة تكفى لاظهار الكتابة وتدوم إضاءتها هذه بضع سنين اه ماأردته من الكتاب الأول .

وأما الكتاب الثانى فان مؤلفه يقول إنه عمله للملك المسعود ذكر فيه حيل المتنبئين والشيوخ الكاذبين والأحبار والرهبان وأصحاب الكيمياء وطلاب الكنوز وهكذا. فلأذكر لك مافيه من فوائد للاعتبار والاتعاظ .

﴿ القصة الأولى فى كشف أسرار من ادعى النبوة [١] ﴾

قد كان ظهر فى آخر خلافة السفاح بأصفهان رجل يعرف باسحاق الأخرس فادعى النبوة وتبعه خلق كثير وملك البصرة وعمان وفرض على الناس فرائض وفسر لهم القرآن على ماأراد ثم قتل . وكان حديثه أنه نشأ بالمغرب فتعلم القرآن ثم تلا الانجيل والتوراة والزبور وجميع الكتب المنزلة ثم قرأ الشرائع ثم حل الرموز والأقلام ولم يترك علما حتى أتقنه ثم ادعى أنه أخرس وسافر فنزل بأصفهان وخدم قيا فى مدرسة وأقام بها عشر سنين وعرف جميع أهلها وكبراءها . ثم بعد ذلك أراد الدعوة فعمل له أدهانا ودهن بها وجهه حتى لايمكن أحد النظر إليه من شدة الأنوار ثم نام فى المدرسة وأغلق عليه الأبواب فلما نام الناس وهدأت الحواس قام فدهن وجهه من ذلك الدهن ثم أوقد شمعتين مصبوغتين لهما أنوار تفوق السرج . ثم صرخ صرخة أزعج الناس ثم أتبعها ثانية وثالثة ثم انتصب فى المحراب يصلى ويقرأ القرآن بصوت أطيب مايكون وبنغمة أرق من النسيم، فلما سمع الفقهاء تواثبوا وأشرفوا عليه وهو على تلك الحالة فحارت أفكارهم من ذلك ثم أعلموا المدرس بذلك فأشرف عليه وهو على تلك الحال ، فلما رآه خر مغشيا عليه ، فلما أفاق عمد إلى باب المدرسة ليفتحه فلم يقدر على ذلك فخرج من المدرسة وتبعه الفقهاء حتى انتهى إلى دار القاضى والأخبار قد شاعت فى المدينة فأخبر القاضى بذلك فخرج القاضى واتصل الخبر بالوزير واجتمع الناس على باب المدرسة وهو قد فتح الأقفال وترك الأبواب غير مفتحة، فلما صار القاضى والوزير وكبراء البلد إلى الباب اطلع عليه الفقهاء وقالوا له بالذى أعطاك هذه الدرجة افتح لنا الباب فأشار بيده إلى الأبواب ، وقال تفتحى أيتها الأقفال فسمعوا وقع الأقفال إلى الأرض فدخل الناس إليه وسأله القاضى عن ذلك ؟ فقال إنه منذ أربعين يوما رأى فى المكان أثر دليل واطلع على أسرار الخلق ورآها عيانا ، فلما كان فى هذه الليلة أتانى ملكان فأيقظانى وغسلانى ثم سلما على بالنبوة فقالا السلام عليك يانبى الله فخفت من ذلك وطلبت أن أرد عليهم السلام فلم أطق وجعلت أتمهل لرد الجواب فلم أقدر على ذلك فقال أحدهما افتح فاك بسم الله الأزلى ففتحت فى وأنا أقول

---

(١) جاء بعض غلط فى كتاب (المختار فى كشف الأسرار) فى النسخة التى نقل المؤلف منها فتركناها بحالها من صفحة ٣٥ إلى صفحة ٤٠ .

فى قلبى سم الله الأزلى فجعل فى فمى شيئا أبيض لا أعلم ما هو أبرد من الثلج وأحلى من الشهد وأذكى من المسك فلما حصل فى أمعائى نطق لسانى فكان أول ما قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. فقالا وأنت رسول الله حقا. فقلت ما هذا الكلام أيها السادة. فقالا إن الله قد بعثك نبيا، فقلت وكيف ذلك والله تعالى قد أخبر عن سيدنا محمد أنه خاتم النبيين؟ فقالا صدقت ولكن الله أراد بذلك أنه خاتم النبيين الذين هم على غير ملته وشريعته فقلت إنى لا أدعى بذلك ولا أصدق ولا لى معجزات. فقالا يوقع فى قلوب الناس تصديقك الذى أنطقك بعد أن كنت أخرس منذ خلقت، وأما المعجزات التى أعطاك الله عز وجل فهى معرفة كتبه المنزلة على أنبيائه ومعرفة شرائعه ومعرفة الألسن والأقلام، ثم قالا اقرأ القرآن فقرأته كما أنزل، ثم قالا: اقرأ الإنجيل فقرأته، ثم قالا: اقرأ التوراة والزبور والصحف فقرأت الجميع كما أنزل ثم قالا قم فأنذر الناس، ثم انصرفا عنى وقت أنا أصلى وهذا آخر خبرى فمن آمن بالله وبعهده ثم بى فقد فاز ومن كذب فقد عطل شريعة محمد وهو كافر والسلام، فعند ذلك سمع له خلق كثير واستقام أمره وملك البصرة وعمان وغيرهما واستفحل أمره ولم يزل كذلك حتى قتل وله شيعة بعمان إلى يومنا هذا، قبحهم الله تعالى.

(القصة الثانية)

ظهر فى سنة تسعين وخمسمائة صاحب من الاسماعيلية يقال له (سنان) ونزل (بمسياط) وحكم فيها وفيما لها من القلاع وكان خبيرا بالحيل والنواميس الافلاطونية وسمع به أهل تلك الجبال وأطاعوه طاعة لا حد لها حتى إنه كان يقول أريد الساعة عشرة من الرجال تصعد على السور ويرمون أرواحهم فيسارعون إلى تلف أرواحهم وهذا رباط لا يقدر عليه أحد وكان يعمل لهم مثل هذه الحيل كثيرا وهذا مشهور عن سنان وهى صفة عمل أهل النار. ومن جملة حيله أنه كان حفر فى مجلسه المصطبة التى يجلس عليها حفيرة بمقدار ما إذا جلس الإنسان فيها جاءت إلى رقبته ثم حسنها وبلطها وعمل لها غطاء من الخشب الرقيق مقورا على مقدار ما يسع رقبة الرجل ثم أخذ طبق نحاس وقوره فى وسطه ثم جعله مصراعيين ولم يطلع عليه أحد فكان إذا أراد أن يفعل ذلك أخذ من يختاره من أصحابه بعد أن يهبه الأموال العظيمة ثم يوصيه بما يقول وينزله فى الحفرة ويغطى عليه ويخرج رأسه من القوارة ثم يأخذ الطبق المقور فيجعله فى رقبته ثم يسقط عليه السواقط فلا يظهر منه شىء إلا رأسه ثم يجعل فى طبق شيئا من الدم ثم يشيع أنه قد ضرب رقبته، ثم يدعو أصحابه إليه فإذا حضروا أمرهم بالجلوس فإذا جلسوا واستقر بهم الجلوس قال لمملوكه اكشف هذا الطبق فيكشفه فيجدون فيه رأس صاحبهم فيقول له حدث أصحابك بما عاينت وما قيل لك، فيحدثهم بما أوصاه فتذهل عقولهم من ذلك ثم يقول له فى آخر الكلام أيما أحب إليك الرجوع إلى أهلك وإلى ما كنت فيه من الدنيا أو السكنى فى الجنة؟ فيقول وما حاجتى بالرجوع إلى الدنيا والله ان خردلة مما أعد لى فى الجنة ما أبيعها بمثل هذه الدنيا سبع مرات فانتبهوا يا أصحابى وأنتم عليكم سلامى وأرجو أن تكونوا فى جوارى فى الجنة، فالله الله والحذر من مخالفة هذا الصاحب الذى هو خليفة الإمام وهو الحاكم فى الوقف كما قال لى الخالق جلت قدرته والسلام، فإذا سمعوا ذلك صدقوا ثم ينصرفون فإذا انصرفوا عنه أطلعه من الحجرة وحجبه إلى الليل فيضرب رقبته ويدفنه فهذا الخبيث قد استعبد أهل تلك الجبال مدة حياته وإلى يومنا هذا الرباط باق.

(القصة الثالثة فى كشف أسرار من ادّعى النبوة أيضا)

ظهر فى خلافة المعز بالديار المصرية رجل ادعى النبوة ونزل (تنيس) وكان يعرف بفارس بن يحيى الساطى وسلك مسلك عيسى ابن مريم عليه السلام وادعى إحياء الميت وإبراء الأبرص والأجذم والأعمى، وبنى له صومعة بتنيس على البحر شمالى البلد وهى باقية إلى يومنا هذا ثم أحيا لهم الميت أيضا

ثم ذكر طريق الغش والإيهام فلانطيل به وإنما نذكر بعض معجزاته التي يقول : إنه كشف أسرارها ، قال إنه كان يمشي على الماء على ساحل البحر فيطلع السمك إليه من البحر ويقبل أقدامه ، وذلك أنه كان يأخذ من خرء الآدمي جزءا ومن الباذروج جزءا ومن حب القثاء جزءا ثم يدقها ناعما ويعجنها بدهن الياسمين ويلطخ به أقدامه ثم يمشي على ساحل البحر فيطلع السمك على رائحة الدواء ويلحس أقدامه فيتوهم فيه الأوهام بالنبوة وغيرها ، ولأ كتف بهذا القدر في ادعاء النبوة .

(القصة الرابعة : الشيوخ الكاذبون)

ثم ذكر الشيوخ فأثنى على الجنيد وإبراهيم بن أدهم والحسن البصري وسري السقطي ومعروف الكرخي وأبي سليمان الداراني وغيرهم ، فهذه هي الدرجة الأولى . أما الدرجة الثانية فهم أصحاب الرياضات والعلم بالأسماء مثل عبادان وبهلول والشيخ أبي العباس ، قال وقد ظهر سنة ثمان وثلثمائة رجل يعرف بالحسين بن منصور الحلاج وكان يدعو الناس إلى عبادة الله فوشوا به إلى علي بن عيسى الوزير فأحضره وضربه ألف عصا وقال إنه كان ينشد هذا الشعر .

وحرمة الودّ الذي لم يكن   يطمع في إفساده الدهر

ما نالني عند نزول البلى   جهد ولا مسني الضر

ما قد لي عضو ولا مفصل   إلا وفيه لكم ذكر

قال وأما الدرجة الثالثة من المشايخ فهم أصحاب الدخن المختلفة والتباخير ، فهذه الطبقة هي المذمومة وإنما نذكرها هنا لنوقظ المسلمين إلى الشيوخ الكاذبين الذين يجعلون الدين وسيلة للدنيا وهذا الكتاب قد جعله الله من السيوف المرهفة لقطع دابر هذه الطبقة من بلاد الإسلام وهذا مناسب للسحر في القرآن لأن ما سنسمعه هنا ملحق بالسحر فليحترس المسلمون منه .

(القصة الخامسة)

قال : فمن المشايخ أصحاب الزوايا من أهل هذه الدرجة ، فمنهم من يتعاطى النزول في التنور وقد أوقد فيه قنطار من الحطب فينزل فيه ثم يغيب ساعة ويطلع وعلى يده طاجن فيه سمك مقلي أو دجاج محشو أو خروف مشوي أو ما اتفق من ذلك فيذهل الناس وتحرق عقولهم وذلك أن هذا التنور يكون مربص (كذا) الأعلى فتكون حرارة من أعلاه وأسفله بارد إلا أن التنور يكون محكم البذان وله صاج من الحديد في أسفله ولذلك الصاج خلو في الحائط مهندس محكم بحيث أن النار جميعها تكون في الصاج وبمقدار ما يضع يده على حافة التنور يسحب ذلك الصاج بما عليه من النار في ذلك الخلو فيبقى أسفل التنور خاليا من النار باردا فيقعد فيه ويكون قعوده بقدر ما يعلم أن الخروف مثلا قد استوى فإذا طلع أخذه معه وأطعمه لمن قد حضر وإذا كان هو أسفل التنور فإن أعلى التنور لايقدر أحد أن يقابله من وهج النار .

(القصة السادسة)

ومنهم من يفعل غير ذلك قبحهم الله تعالى فينزل في النار وقد روبص جميع جسده بالترابيص التي تمنع من النار وفعلها ، ولنذكر الترابيص التي يعملونها لمنع النار ، فمن ذلك يؤخذ الضفدع ويسلق حتى ينضج ويتفتت ولايبقى له أثر ثم يرفع عن النار حتى يبرد فإذا برد جمد الدهن على وجه الماء فيأخذ ذلك الدهن ثم يضيف إليه شيئا من البارود الثلجي ثم يلطخ به جسده وجميع أعضائه ويدخل النار فإنها لاتضره شيئا . ومنهم أخزاهم الله من إذا عمل السماع أخلى الزاوية من الماء فإذا رقصوا عطشوا فيشكون للشيخ ذلك فيقول هاتوا شيئا وخذوا ماء للشرب فيعطونه إبريقا أو غيره فيأخذه بيده ثم يفتح باعه ويدور في الطابق ثم يدفع لهم الوعاء

ملآن ماء مبخرا بمسك فيقول هذا من نهر الكوثر (أخزاه الله) فيشرب الجماعة من ذلك الماء وقد حارت عقولهم من ذلك « وكشف ذلك » أنه يأخذ مصران غنم فيدبغه بعد غسله ثم ينقعه بماء الورد سبعة أيام وبعد ذلك يأخذه فيربط طرفة الواحد ربطا جيدا ثم يجعل فى طرفه الآخر عقده قصب ثم ينفخه فى الهواء حتى يجف فإذا جف رفعه عنده فإذا أراد العمل به أخذه ثم ملأه ماء وقد جعل فيه قليل مسك وماء ورد ثم جعله فى قميصه وقد عمل له حمالات من تحت قبة القميص من كه الشمال إلى كه اليمين فإذا أراد أن يسقى الجماعة جعل رأس المصران فى فم الوعاء وهو دائر من حيث لا يعلم به أحد ثم يفك رأس المصران بظفره فينزل الماء فى الوعاء ثم يدفع لهم الوعاء ويدعى ما أراد ويقع منهم غير ذلك .

(القصة السابعة)

ومنهم من يكون فى السماع ويتقدم إلى الشمعة أو إلى المصباح فيمد يده ويشعل أصابعه العشرة فتشتعل كما يشعل الشمع فإذا أشعلها أطفأ ما يكون من الشمع ولا يزال يرقص وأصابعه تشعل حتى يضج الخلق ثم يدنى الشمعة فيشعلها ويطفىء أصابعه وهذا ناموس عظيم ، والسر فى كشف ذلك أنه يأخذ من الدواء الذى ذكرناه فى نزول التنور فيلطخ أصابعه جميعها إلى العقد ويدعها حتى تجف ثم يأخذ النفط ويلبسه على ذلك الدهن ثم يشعله فى النار فلا يزال يشعل حتى ينفد النفط ولا يدرك يده شىء من الحرارة فافهم . ومنهم من يدهن يده بالدهن ثم يعمل له عشرة قموع من اللبد الأحمر الطالقانى ثم يلبسها أصابعه العشرة ثم يسقيها بالنفط ويشعلها فتشعل ولا تضره شيئا ، ومنهم من يكون جالسا فى الزاوية وعنده جماعة فيشتهى كل واحد منهم على الشيخ شهوة فيحضر شهواتهم على الوصف الذى طلبوه وقد كنت اجتمعت فى بلاد الحجاز بشيخ يعرف بسليمان وكان من أهل المغرب فكنا عنده ثمانية أنفار فاشتهى كل واحد منا شهوة فقام إلى بيت الخلوة يصلى ويدعو ثم خرج فلم نشعر إلا والذى طلبناه قد حضر فخرق عقول الناس وشاع ذلك عنه وجاءته الفتوحات من كل إقليم وكشفت عن هذا السر فوجدت الشيخ قعيدة فى المدينة وعنده فى بيت الخلوة طائر يأتى بيت القعيدة ، فإذا اشتهى كل واحد ما فى قلبه قام الشيخ إلى بيت الخلوة ثم كتب جميع ما طلبته الجماعة فى بطاقة ثم علقها على الطير ثم أرسله فجميع ما يكون قد طلب منه ترسله القعيدة فلا يشعرون إلا وقد حضر فيذهل من كان حاضرا فافهم أسرار هؤلاء القوم ودهاءهم . ومنهم الذين كراماتهم أكل الحيات والنار ، فو الله لو فعل هذا أمام أطفال اضحكوا على من يفعله ، فيا عميان القلوب أهذه كرامات الصالحين؟ فانتبهوا يا نيام وتيقظوا .

(القصة الثامنة فى كشف أسرار كذبة الوعاظ)

ثم تكلم عن الوعاظ فقال ومن دهائهم أن أحدهم يصعد على المنبر بخشوع وسكينة فإذا شرع فى الكلام وذكر أهوال يوم القيامة بكى بدموع أمر من الجمر ، فإذا أراد ذلك يأخذ الخردل فيسحقه ثم ينقعه بالخل يوما كاملا ثم يسقى به المنديل الذى يمسح به وجهه ثم يتركه حتى يجف فإذا حصل على المنبر مسح وجهه بذلك المنديل تنزل دموعه مثل المطر وهذا أول ما لهم من الدهاء ، ومن ذلك أنهم يجهزون بعض نسائهم فى زى أرباب البيوت فيظهر أنها قد أخنى عليها الزمان ولا تقدر تبذل وجهها فى السؤال إلى الخلق فيعطف عليها القلوب ويرد الكلام فى ذلك المعنى ويورد فيه أخبارا وحكايات ثم يخلع ثوبه ويرميه عليها ويقول والله لو ملكت يدى شيئا من النفقة لكنت أنا أحق بهذه المثوبة ولكن العذر واضح فهذا ثواب يساق إليكم فإذا رأت الجماعة ذلك لم يبق أحد حتى يردفها بشىء على قدره ومكنته وما يحصل فهو للشيخ الواعظ .

(القصة

(القصة التاسعة : فى كشف أسرار كذبة الرهبان)

اعلم أن بعض هذه الطائفة أعظم الأمم كذبا ونفاقا ودهاء، وذلك أنهم يلعبون بعقول النصارى ويستبيحون النساء وينزلون عليهم الباروك ولا يعلم أحد أحوالهم، وهم أضرّ الخلق وأخس من غيرهم لأنهم إذا خلوا بأنفسهم يعترفون بأنهم على ضلالة وقد غيروا الأحوال والأفعال والأقوال ولهم أعمال عظيمة لا تعد ولا تحصى وهم يأكلون الأموال بالباطل ويرتبون الكذب وزخارف القول وهم أكذب الخلق على كل حال، فمنهم من عمل لديره عيدا وجعل له ناموسا من بعض النواميس يأكل به أموال النصارى ، وها أنا ذا أثبت الآن لك شيئا من ذلك فأقول: اعلم أن هؤلاء القوم أعظم ناموس لهم قنديل النور فى كنيسة قمامة بيت المقدس وهو من عمل الرهبان وقد ارتبط عليه جميع النصارى وأسباطهم وأجناسهم، وقد كان الملك المعظم ابن الملك العادل قدس الله روحه دخل إلى القمامة يوم سبت النور فقال للراهب لا أبرح حتى أبصر هذا النور كيف ينزل فقال له الراهب أيما أحب إليك هذا المال الذى يحصل من هذا الوجه أو اطلاعك عليه فإنك إن كشفت سره عدمت هذا المال فاتركه مستورا مصانا واربح هذا المال العظيم ، فلما سمع ذلك علم باطل قول الراهب فتركه على حاله وخرج، وهنا ذكر أن الراهب يضع الكبريت فى حق فى رأس قبة الكنيسة والحق معلق فى سلسلة وهى تدهن بدهن البلسان وبين كيفية ذلك فلا نطيل به .

(القصة العاشرة : أهل الكيمياء)

وذكر أهل الكيمياء، قال: ومن أعظم ماوقفت عليه أن السلطان الملك العادل نور الدين بن زنكى جرى له حديث يكتب بماء الذهب ملخصه: أن رجلا أعجميا جاء إلى دمشق ومعه ألف دينار جعلها فى بنادق وصرها فى مخلاة وسماها (طبرمك خراسانى) وقال لعطار هذه تنفع للسموم وباعها له بخمسة دراهم ثم لبس أفخر الثياب وأخذ يحسن للناس ويجالس العلماء ويقول أنا أقدر أن أستخرج الذهب ولكن ذلك يكون لمنفعة المسلمين فى الجهاد وهو فى ذلك الوقت ينفق باليمين والشمال فبلغ خبره الملك فاختلى به وأخذ عليه العهد لنصر المسلمين بالمال وقال له لابد من (الطبرمك الخراسانى) فبحث الجيش والوزراء فى جميع الدكاكين وهو معهم إلى أن وصلوا إلى الدكان المعلوم فاشتراها الملك منه ثم وضعها الملك بنفسه فى البودقة فخرجت سبيكة ذهب فأعطاه الملك مالا وجهزه بستين جملا منها شراب عمل تنيس ودمياط ومن عمل إسكندرية ومنها سكر بالأحمال والأحمال والجمالين ثم أعطاه خيمة ومطبخا وفراشين ونفقة الطريق إلى بغداد وإلى العجم وكتب معه كتبا إلى سائر البلاد بالمراعاة والخدمة والاعانة، ثم خرج السلطان وأرباب الدولة إلى وداعه وراح وقد وصل هذا إلى الحجر المكرم وحصل له الاكسير الأعظم . ومن أعجب مافى هذه القضية أنه كان بدمشق رجل يكتب أسماء المغفلين الحرفين فسمع بهذه القضية فكتب فى رأس جريدته « السلطان نور الدين محمود رأس المغفلين » فشاع ذلك ولم يعلم أحد باطن القضية حتى قيل للسلطان قد كتبك شخص رأس المغفلين، فقال أى شىء أبصر من تغفلى حتى يكتب اسمى (هاتوه) فنزلت إليه الجند وقالوا له بسم الله كلم السلطان فأخذ الجريدة فى كمه ومشى معهم فلما وقف قدام السلطان قال أنت فلان الذى تكتب أسماء المغفلين ، قال نعم ، قال وكتبتنى؟ قال نعم وهذا اسمك ثم أظهره ، فقال وما ظهر لك من تغفيلى حتى كتبتنى، فقال ومن يكون أغفل منك جاءك أعجمى نصاب عمل عليك حيلة ودكّ عليك ألف دينار أخذ بها مال المسلمين وراح؟ فقال إن راح بأى بطبرمك وكأنك به وقد جاء ومعه الطبرمك نعمل منه أموالا لاتحصى، فقال له ياخونداه إن رجع الأعجمى وجاء محوت اسمك من الجريدة وكتبت اسمه وما يكون فى الأرض أغفل منه . فلما سمع السلطان ذلك ضحك وقال أعطوه شيئا ينفقه عليه فأعطوه شيئا وراح . وكان كلما أفلس أخذ الجريدة ووقف على باب

الثلمة فإذا ركب السلطان فتح الجريدة ويقول ما جاء وهذا اسم السلطان مكتوب فيضحك ويطلق له شيئاً .
فانظر إلى هذا الدك والجسارة على بيع ألف دينار بخمسة دراهم فأقام السلطان على هذا حتى توفاه الله
والطومك لم يأت .

وأختم هذا القول بما جاء فيه من كشف أسرار الصيارف وتلاعبهم قال : اعلم وفقك الله أن هذه الطائفة
من جملة اللصوص وقطاع الطرق ، ولهم أمور لا يعلمها إلا كل فاضل وأحوال لا يطلع عليها إلا راجح العقل
وهم أشد الناس إجراما وأصنعهم فى أخذ أموال الناس مع أن فيهم متميزين وذوى هيبة ووقار ولهم فى الدك
أبواب ، فأول مارأيت فى الهند رجلا صيرفياله من الحشمة شىء عظيم وجميع التجار تورد إليه أموالهم ويستد
ينونها منه قليلا قليلا ورأيته قد صنع شيئا لم يسبق إليه وذلك أنى رأيت فى يده خاتما بفص وعليه نقش
فأدمت الجلوس عنده وأدمت النظر إلى ذلك الخاتم فرأيته إذا قبض الذهب من التاجر يجعل فص
الخاتم من قدام لسان الميزان إلى ناحية الصنج . وإذا دفع للتاجر الذهب حول فص الخاتم إلى قدام لسان
الميزان فإذا قرب الخاتم لعب بلسان الميزان لعبا زائدا فعلمت أن هذا الخاتم فيه شىء من الدك ولم أزل أبحث
عنه وأفكر فيه . ففى بعض الأيام انقدح لى فيه شىء فقلت هذا والله دك لم يسبق إليه وإذا فص الخاتم من
حجر المغناطيس فإذا قبض الذهب أدار الخاتم إلى ناحية الصنج فيأخذ لسان الميزان هواءه ويمنع
من النزول بمقدار ما يجذب من الحجر فيكون فى الوزنة زيادة مثقال وأكثر من ذلك . انتهى ما أردته
من الكتاب الثانى .

هذا ما اخترته من الكتابين ونقلته ولكنى لم أجرب شيئا منه . وإنما أردت بالسحر الحلال أن يدل
ما صح منها على جمال الله وبدائع صنعه . وأما ما اخترته من الكتاب الثانى فذلك ليعلم المسلمون كيف كان
الغش والتدليس فى بلاد الإسلام ليحترسوا منه الآن والحمد لله رب العالمين .

ولما انتهيت من هذا المقام حضر إلىّ عالم ذكى فقال ما القصد من هذه الحكايات الخرافية ؟ فقلت لقد
أوضحته فيما مضى وهأنذا أوضح المقام فأقول إن القصد من هذه الحكايات [أولا] أن نعطى التفسير حقه
فنذكر السحر عند قدماء المصريين [ثانيا] أن نذكر ما كانوا يزعمون أنهم يفلقون البحر بالعزائم فلئن ضرب
سيدنا موسى البحر بعصاه فهى معجزة ولكن هؤلاء يزعمون أنهم يفرقون البحر بالعزيمة فيكون موسى
عليه السلام أتى بمعجزة تبهرهم [ثالثا] أن هذا التفسير ماهو إلا روضة من رياض العلم ، فإذا كان أهل ألمانيا
ينقلون عجائب قدماء المصريين ومزاعمهم وقد بقيت هذه الحكايات فى بطون النواويس المصرية آلافا من
السنين ثم احتفظ بها أهل أوروبا من ألمانيا وغيرها فكيف لانذكر الناس بها لاسيما أن القرآن قد أشار
إليها واعتنى بها ومدح سحرة فرعون وشرفهم بالإيمان لأنهم محققون فى العلوم [رابعا] أن البراعة فى العلوم
فرض كفاية وقد قدمنا فى (سورة البقرة) أنواع السحر ، وأن بعض السحر الآن يجب تعليمه فهو فرض
كفاية (راجع ما كتبناه فى البقرة) فافهم هناك كيف يقول الله «وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة» الخ
[خامسا] أن علم السحر المذكور متنوع بعضه خرافة وبعضه له أصل ولتعلم أننا لانهتم بالتفاصيل وإنما نذكرك بما
مضى فى هذا التفسير فى سورة البقرة فقد ذكرت لك هناك كيف يؤثر النوم على النوم وقد تبين لك ذلك فى
الحكاية الثالثة المتقدمة ، فتأثير زيد فى عمرو أمر له وجود اليوم فى المسارح العامة يراها الناس فى الشرق
والغرب . واعلم أن للنفوس الانسانية قوة كامنة إذا استثارها الإنسان نفعته ، قال اللورد (أفبرى ان كبتلا)
الشهير العالم بالفراسة : بلغ من شدة صرف قوى عقله فى نقطة واحدة أن استطاع أن ينسى جميع أوجاعه فلا
يشعر بها وهذا يصدق على جميع الذين يستطيعون أن يتحكموا فى إرادتهم فإنهم بذلك يتمكنون من تحرير

نفوسهم فى ربقة الأوجاع الصغرى وانتعاشهم (وبعبارة أخرى) إنهم يصلون إلى حيث يمتلك العقل قياد الجسم ويصبح السيد المطلق الآمر الناهى اهـ .

هـذا مايقوله اللورد أفبرى الانجليزى . ويقول الفلاسفة [إن النفس الانسانية لها تأثير فى بدنها مثل كيفيات الفرح والحزن وكالتوهم الذى يجعل الماشى على الحائط يسقط مع أنه لو مشى عليه وهو على الأرض سقط ومتى قوى عزعته مشى على الحبل على الحائط ولا يسقطون لأنهم أذهبوا عنهم هذا الوهم] ويقولون :

[إن النفس الانسانية كما تؤثر فى جسمها تؤثر فى غيرها لأنها أرقى من عالم الماديات والسحر عندهم لايحتاج الساحر فيه إلى معين وصاحب الطلسمات يحتاج إلى معين كروحانية الكواكب وأسرار الأعداد وخواص الموجودات وأوضاع الفلك المؤثر فى العالم العنصرى ، والفرق بين السحر والمعجزة أنها قوة إلهية تبعث فى النفس ذلك التأثير ، فالنبى مؤيد بروح الله على فعله ذلك والساحر إنما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وإمداد الشياطين له فى بعض الأحوال ونحن نعرف الفرق بينهما بأن المعجزة لصاحب الخير والسحر لصاحب الشر]

ولبعض المتصوفة خوارق للعادات ، وإذا قدر أحدهم على فعل الشر فلا يأتيه لأنه مقيد بالأمر الإلهى ومن أتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق وربما سلب حاله . ومن الطلسمات أعمال قوم قابلهم ابن خلدون بالمغرب يعرفون بالبعاجين وهم يشيرون إلى الكساء أو الجلد فيخترق ويشيرون إلى بطون الغنم بالبعج فتنبعج ويسمى أحدهم لهـذا العهد باسم البعاج ، هكذا قال ابن خلدون لأنهم أكثر ماينتحلون من السحر بعج الأغنام وهم يخيفون بذلك الأغنياء فيعطونهم من أموالهم ، قال وهم لهم وجهة رياضية بدعوات كفرية وإشراك لروحانية الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى (الخزيرية) قال وقد شاهدت أعمالهم الكفرية وهى حقيقية . انتهى ملخصا .

أقول : واعلم أن هؤلاء البعاجة قد أخبرنى بهم أحـد أبناء (طيطوان) وقال إنهم يجلسون على هيئة الصوفية فى جهة مراكش ويدعون أنهم على طريقة شيخ زاهد ومتى جلسوا فى مكان وأخذوا يتلون أقوالا مخصوصة أمكن أحدهم أن يطير فوق القبة التى فوقهم وإذا كان وحده لايقدر ، وإذا أهدى إليهم أحـد شاة بقروا بطنها بأيديهم وسكاكينهم ثم شووها بجلدها وأكلوها ، فلما سمعت هذه الحكاية قلت إنهم من أولاد أولئك البعاجة تسموا باسم الصوفية تسترا لأن هذا عمل من لادين له . واعلم أيها الذكى أن طوائف كثيرة من الذين ينتسبون للصوفية يخيفون الناس بأنهم يؤذونهم وهم فى ذلك كاذبون يريدون أن الناس يعطونهم الطعام وهم نائمون فى بيوتهم ، وهذا ظلم مبين فيجب إزالة هذه الطوائف من المسلمين ، وإذا وجـد لساحر تصرف أو لشيخ فى الطريق فلا قوة لهم على إيذاء العاملين وكفاك معجزة موسى وعصاه وكيف كانت تلقف ما يأفكون . واعلم أن الأمة الإسلامية يجب عليها أن تعلن هذه الحقيقة وأن لاتدع أهـل الطرق يعبثون بالمسلمين ويخيفونهم فهذا ضياع للأمة ولا تأثير لأحد على أحد والرجل النافع للأمة يغلب آلافا من أولئك الساحرين والذين يدعون أنهم صوفية وماهم بصادقين وقد تبينت هـذا بنفسى وعلمت أن الخداع عم الأمم الاسلامية ، والله لايهدى الخائنين .

﴿ حقيقة ﴾

اعلم أنه لافرق بين أولئك الذين يقاتلون الناس بالمدافع والغارات الخانقة أو يدسون لهم السم فى الطعام والذين يأتون بالعقاقير الطبية ويقتلون الناس بها سرا واللصوص والسارقين وأمثالهم ، وبين الذين يستعملون السحر أو يتصرفون فى الناس أو يخبرون بالمغيبات حقا أو باطلا لأجل أخذ أموال الناس بالباطل ، فكما

أما نعت الطبيب الذى عرف السم فقتل به الناس ونعت الذين يحاربون بالغازات الخانقة ويميتون الناس أو يحموبهم هكذا يجب علينا أن نقاتل السحرة والذين يبعجون الغنم كما قاله ابن خلدون وأولئك الذين يقرءون أدعية ويخيفون الناس بأنهم قادرون أن يؤثروا فيهم . فهذه الطائفة من المسلمين الذين يقولون نأكل أموال الناس بطريق إخافتهم من دعائنا عليهم وكراماتنا ، لافرق بينهم وبين السحرة فكلهم يحتقرون لأن الله لم يجعل الكرامة وسيلة لجلب الطعام وإنما جعلها وسيلة للهداية ، فاذا وجدنا من يفعل هذا حقرناه وعلمنا أنه هو والساحر سواء لافرق بينهما وهما يريدان أكل أموال الناس بالباطل .

واعلم أن الله أنزل هذه الآيات ليرينا أن الحق يغلب السحر لأن عصى موسى ابتلعت عصى السحرة هكذا يجب على علماء الإسلام أن يزيلوا هذه الخرافات من المسلمين ، وليعلموا أن القرآن جاء لازالة السحر لا لتقويته ومن عمل السحر وزعم أنه كرامة فهو ملعون ، واعلم أنك إذا تصديت لرقى الأمة الاسلامية لايؤثر فيك مؤثر ألبتة وتغلب كل من يناوئك والاسلام محتاج إلى مصلحين والله هو الولى الحميد .

وما مثل النفوس إلا كمثل النبات فمنها السام ومنها المغذى ، فلنفعل مع النفوس الساحرة والتى تصيب بالعين مانفعل مع الحشائش الضارة بزرعنا ومع الحيوانات الصغيرة المسماة بالمكروب فإنا نجتهد لابادتها فلا فرق بينهما وبين النفوس المنحرفة .

واعلم أن هذه الدنيا دار اشتبه فيها الباطل بالحق . ألا ترى أن أكابر العلماء يقولون إنها دار خيال ويستدلون بقوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه » ويقول بعضهم « هالك » اسم فاعل وهو حقيقة فى المتلبس بالفعل فكأن الدنيا هالكة الآن . ويقولون إن ماق هذه الدنيا من سموات وشموس وأرضين ونبات وحيوان وضياء . كل هذا له حقائق غير هذه وإنما هذه ظل الحقيقة ، ويقولون فهذه ظلال الحقيقة والحقيقة وراءها ولقد تمادوا فى ذلك حتى أوضحوه وهذه تسمى (نظرية اينشتين) فقد جاء فى بعض الجرائد المصرية يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٢٥ مايأتى :

جبابرة العقول

(اينشتين ونظريته : الزمان والمكان)

فى عام ١٩١٥ والحرب العظمى فى أشد أدوارها خطرا أعلن نابغة الألمان الدكتور اينشتين الجزء الخطير من نظريته وهى النسبية العامة التى تبحث فى هندسة خاصة بالكون ليست بالاقليدية ودخل ضمنا فى هذا البحث أمر الجاذبية وظل مايقال عن النسبية العامة والجاذبية محصورا فى داخل حدود ألمانيا إذ كانت منعزلة عن العالم فى هذا الأوان . فلما وضعت الحرب أوزارها خرجت النسبية العامة خارج ألمانيا ، وحدث أن كان الكسوف الكلى للشمس عام ١٩١٩ م وهو عام الهدنة وفيه تحققت بعض آمال اينشتين فانتشرت النظرية انتشارا عظيما فى هذا العام وفى الأعوام التى تليه حتى إنك قلما ترى مجلة لاتذكرها أوجامعة لاتلقى فيها محاضرات عنها وانتشرت الكتب الانجليزية والأمريكية وأعطيت جوائز مالية كبيرة لمن شرح النظرية شرحا ممتعا مختصرا ، فأنت ترى أن عام ١٩٢٠ و١٩٢١ و١٩٢٢ ومابعدها هى أعوام الثورة الفكرية فى الخارج أى خارج ألمانيا والحدائق ، حركة الاهتمام بالنظرية قائمة بين أبناء مصر الآن . ولنرجع بعد هذه الكلمة القصيرة إلى النسبية العامة التى ذكرناها فنقول إن أمر خطورتها يتعلق بشىء واحد وهو النظر إلى الكون بعين غير العين التى ألفنا أن ننظر بها . كنا ننظر إلى الكون قبل (اينشتين) بمنظار مجسم فنقول هذا شىء ونعنى به كل مانلمسه أو نراه ، أما نابغة الألمان فيقول ياقوم ليست هذه حقيقة ، ماهى الحقيقة إذن ؟ مسألة من أخطر المسائل تلك

هى السؤال عن الحقيقة ؟ هل لو قلت لك إن الشمس طالعة وهى فى رائعة النهار وكان لك عينان ترى بهما تلك الغزالة أليست هذه حقيقة؟ يقول العلم الحديث كلا، بالمهول. أليست تلك الكتلة النارية التى أراها شمسا يقول العلم الحديث : العالم مظلم ساكن لاصوت فيه وإنما العقل هو الذى يصنع كل ذلك، فليس السر فى العالم بل السر فى هذا الذى تحمله بين عظام جمجمتك. مامعنى هذا؟ معناه فى نظر فلاسفة الكون الآن أن هذا الفضاء الواسع فيه تموجات مختلفة الطول، فان كانت هذه التموجات الأثيرية بحالة خاصة وطول خاص أثرت على أذنك فقلت عنها صوتا، وإن كانت بحالة أخرى وطول آخر غير السالفة قلت إنها ضوء إذ ميزتها عيناك، فأنت ترى أن الأمواج تملأ هذا الأثير من الفضاء، وهى لاتصنع صوتا ولاتحدث ضوءا أشبه بأمواج ماء البحيرة الراكد ماؤها وإنما عقلك هو الذى اخترع كل هذه السكنات من نور وصوت ، مامعنى خرير الماء لنفس الماء ؟ وما معنى حفيف الريح للأغصان إن لم تكن أنت واقفا هناك بالغاب . أليس الصوت والضوء أشياء وأمورا خاصة بك دون الطبيعة وتزيد الفلاسفة اليوم على ذلك أنه قد يكون فى أثير هذا الفضاء الواسع موجات أخرى تختلف فى سرعتها عن تموجات الضوء والصوت، ولكنا لانراها ولا نعرف عنها شيئا إذ ليس لنا من الحواس غير الخمس . وبعد كل هذا ماهى الحقيقة ؟ إن كان العالم مظلما هامدا صامتا وإن كانت كل هذه الأشياء التى نراها هى صنع أعيننا أو من صنع عقولنا كما يقولون إذ أن مركز الإبصار فى المخ وبه وحده نرى صور الكون على استقامتها بعد أن تكون معكوسة على شبكية العين أى أن الشمعة الموقدة ترسم على الشبكية معكوسا نورها إلى أسفل ومركز الإبصار فى المخ هو الكفيل باعتدالها . والآن فلنرجع إلى الحقيقة وأمرها فى نظر (اينشتين) الحقيقة فى نظره ليست كل هذه الأشياء التى نراها إذ أنها مهما تجسمت فهى ظواهر فقط وفرق كبير بين الظاهرة والحقيقة . نعم هذه الأشياء التى أمامنا هى ظل الحقيقة كما يقول العالم الألمانى (منكوسكى) والذى منه استمد (اينشتين) آراءه فى النسبية العامة فقد قال (منكوسكى) فى مجمع علوم بمدينة (كولونيا) عام ١٩٠٨ قبل ظهور النسبية العامة الخاصة بالمكان والزمان مايأتى بالحرف .

يجب علينا من الآن أن نعتبر أن الفضاء قائم بنفسه أو الزمان قائم بنفسه ظل الحقيقة التى ماهى إلا اتحاد المكان بالزمان وإيجاد عالم منهما تحدث فيهما الحوادث وهى الأشياء . فالأشياء فى نظر هؤلاء الجبابرة ماهى إلا حوادث ناشئة من تقاطع (أربعة إحداثيات) ثلاثة منها للمكان وواحد للزمان ، فالقوانين التى تحكم هذا الإطار المكزمنى هى الحقيقة بعينها اهـ.

فانظر رعاك الله كيف كان علماء هذا العصر يقولون إن هذا العالم ظل الحقيقة وإن حقيقة هذا الانسان وهذا الثوب وهذا الحجر وهذه الشموس إن هى إلا حركات فى الأثير لا أكثر ولا أقل وهذه الحركات تختلف فتختلف الآثار على حواسنا الخمس ، فحواسنا هى الشبكة التى بها اصطدنا هذا العالم فاذا متنا كان العالم فى نظرنا غير هذا . انظر للأثر المشهور [من مات فقد قامت قيامته] وانظر للكاهن المصرى المذكور فيما تقدم الذى صنع الشمع تمساحا والتمساح ابتلع الرجل ، فلما أخذه مرة أخرى صار شمعا ، وكأن الله أوجد هذا فى الدنيا سواء أكان خرافة أم صدقا ليبعث فينا فكرا جديدا . وكما أصبح التمساح الصناعى شمعا هكذا تصبح هذه الشهوات والنزوات الحيوانية شيئا لاقيمة له فى النظر الحقيق بل هذه العوالم ماهى إلا حركات بالنظر الحقيق العصرى وذلك الفكر الجديد أن هذه الدنيا لو كشف عنا حجابها لوجدنا الهموم والغموم والأحزان والطمع والمال والولد والغنى والفقر وما أشبه ذلك إنما هى عوارض جاءت بها الحواس وهى التى خدعتنا ونحن بها مخدوعون ألا ترى أن الناس يتعاطون المخدرات ليغيبوا عن الحواس ولكن تلك سبل ضلال والصراط المستقيم معرفة الحقائق حتى نرى الأشياء على ماهى عليه بل ليس فى الوجود سرى واجب

الوجود وسواء فانما هى شئونه . فانظر كيف كانت هذه الجملة مقولة لحكماء المسلمين . ثم انظر كيف جاء علماء العصر الحاضر فقالوا : إنما الوجود خداع الحواس . قال الشاعر :

ففز بعلم تعش حيا به أبدا   الناس موتى وأهل العلم أحياء

خطاب للأمم الاسلامية

(إن هذه العلوم واجبة وجوبا كفائيا)

عرفت الشر لا للشر   ر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر   من الناس يقع فيه

أيها المسلمون هذه صفحة من تاريخ الشعبذة والشعوذة فى الأمم الاسلامية ، فالشعوذة أمثال ماذكرناه هنا من إيهام الناس بوضع الابرة فى العين وإخراجها من الفم وبالعكس وهى ترجع لخفة اليد ، والشعبذة ترجع للعلوم الطبيعية مثل مسألة البيضة التى تطير بخاصة صيرورة الماء بخارا فيها بحرارة الشمس كما تقدم . هذه صفحة من تاريخ أولئك الذين اتخذوا الدين سلما للمال والملك كما ترون فى مسألة الذى أوهم الناس أن الرأس بعد قطعها أخبرت بأنه مختار من الله كما رأيتم وبهذه الوسائل المضللة استعبدوا الأمم الاسلامية قديما وجعلوهم كالأنعام يمتطونهم بل هم أضل من الأنعام . لمثل هذا نزلت قصة السحرة فى القرآن . نزلت قصة السحرة ليذكر الله المسلمين بالتفكر لئلا يضلوا فوالله لامنجى من هذا إلا بالعلوم والمعارف . ليقرأ المسلمون جميع العلوم الطبيعية والكيمائية طلبا لمنافعها واحتراسا ممن يتخذونها ذريعة لطمس العقول واستضعاف الأمم الاسلامية . إن الأمم الأوروبية قد نبغت فى كل علم وكل فن ولما عرفوا أمثال هذه العجائب اتخذوها ذريعة للغلبة فى الحرب فاصطنعوا الغازات الخانقة والمميتة لفتح الممالك الأخرى ولم يجعلوها وسيلة التدليس على أممهم حتى يجعلوهم دواب يمتطونهم كما ضل أولئك الرؤساء المضلون الذين جعلوا أتباعهم غنيمة لهم وتركوهم فى غيابة العماية والجهالة فضاعت تلك الممالك ولم يبق لها شرف ولا فخار . هذا هو السبب فى انحطاط الأمم الإسلامية اليوم قد خدرها الرؤساء تخديرا دام أثره إلى هذه الأجيال . ولقد تقدم فى سورة الكهف عند قوله تعالى : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » أن حسن بن الصباح منع أتباعه من العلم تخديرا لعقولهم وتحذيرا من الاطلاع على ما يكنه قلبه من إضمار تعميم الجهالة . فهاك ماقاله (سديو الفرنسى) فى صفحة ١٣٧ فى الكتاب المترجم بالعربية عنه قال ما نصه : كان لأبى عبدالله آخر رؤساء الكرمانية التصرف المطلق فى التعصب لمذهبه فهيج نهجه رجل يسمى حسن بن الصباح (انظر مذهبه فى سورة الكهف وانظر مذهب أحد أتباعه فى زماننا بالهند الذى قدم أتباعه عرضة فيه نشرت فى الأهرام وذكرتها فى سورة إبراهيم) سافر كثيرا وتبحر فى العلوم وعرف فرق الدين المحمدى وأخذ فى نهاية القرن الحادى عشر من الميلاد يعظ الناس ويحثهم على اتباع مذهب جديد يغلب على الظن أنه قريب من (مذهب الكرمانية) فتبعه جموع غفيرة ملك بهم عدة قلاع وحصون واستوطن حصون الموت المشيد على هضبة قرب (قزوين) فلقب بشيخ الجبل وأعلن العداوة للنصارى والمسلمين ورأى نفسه بينهم بمنزلة الإله الثانى الذى شغله الاقتصاص من الظالمين للمظلومين ونفذت أوامره فيمن معه فكان إذا أمر بقتل أحد منهم بادر بإلقاء نفسه من شاهق جبل على أسنة الرماح أو طعن بطنه بخنجر أو بقتل أحد من غيرهم بادروا بقتله ولو وزيرا أوسلطانا أو خليفة عباسيا . إنه أخبر قومه أن شارب الحشيش يذوق جميع لذات الفردوس فكانوا كالبهائم بسبب السكر بالحشيش مستعدين لارتكاب أكبر

الكبائر ولذلك سماهم المؤرخون (الحشاشين) لا الحساسين أى القتالين كما زعمه الفرنجة . كلا وأذن لهم فى النهب فنهبوا وجالوا بأسلحتهم فى الشأم حتى بلغوا جبل لبنان وبنوا فى الشأم أماكن محصنة ونهبوا جميع القوافل التى تمر بأرضهم وقطعوا الطرق وملكوا فى غرة القرن الثالث عشر من الميلاد كثيرا من المنازل فى العراق والشام وحصونا أخرى قرب دمشق وحلب وتوطنوا من ابتداء سنة إحدى وستين ومائة وألف ميلادية بالعراق الفارسى فبذل (الملك شاه) عزائمه فى إعدامهم ولم يبالوا بذلك بل يقال إن نظام الملك الذى كان الوزير الأعظم لهذا السلطان قتله أحدهم لشدة تعصبه وغيرته على مذهبه الدينى ، وكان هؤلاء الحشاشون مع الفاطمية كحزب واحد لشدة مخاصمتهم وإدمان مشاجرتهم مع أهل السنة) انتهى بالحرف .

ولقد تقدم كما ذكرت هنا فى سورة إبراهيم أن أغا محنون بالهند الآن يقول أتباعه إنهم معه أشبه بأتباع حسن بن الصباح له وإنهم سائرون على منهجهم حذو القذة بالقذة وأن العبادة له هو لا لله ، وقد أرسله الانجليز إلى الديار المصرية أيام غياب عباس باشا حلمى الخديوى السابق ليكون ملكا لمصر باعتبار أن الفاطمية كانوا بها سابقا وهذا من أتباعهم فكان ذلك سببا فى أن المغفور له السلطان حسين باشا كامل رضى بتولى الملك فى مصر ، فانظر لأمم أوروبا الذين يقرءون التاريخ ويأخذون منه مايوافق سياستهم ، فلينظر المسلمون فى ماضى تاريخنا فإن قصة السحرة ما جاءت إلا لنحترس من المدلسين ولكن الجهل هو الذى أوقع آباءنا فى أيدى المضلين الماكرين ، وأنا أحمد الله الذى جعل هذا التفسير كحد فاصل بين زمان العرفان الآتى وبين القرون المتأخرة التى [أورثتنا ضلالة وملأت بلادنا بالمضلين من الشيوخ الذين اتخذ[illegible]ن وسيلة لجمع المال ولحوز الملك وللاتحاد مع الحكام الأجانب أو غيرهم . كل هذا لأن الله يحاسب النا[illegible] على ضياع عقولهم ونبذ نوره الذى وهبه لهم وذكائهم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

وقال (سديو) أيضا فى صفحة (١٢٢) ما نصه [ظهر فى زمن الأموية عدة فرق دينية تعبوا فى إزالتها كالخوارج والقدرية والأزارقة والصفرية ، وفى عصر العباسية فرقة المعتزلة وفرقة الراوندية الزاعمة أن الخلفاء يعبدون كعبادة الإله وتعتبر دورهم كعبة جديدة وقاتلهم المنصور فقابلوه بأعظم ما يكون من الشجاعة والبأس ليعبدوه قهرا عنه وظهرت أيضا فرقة الزيدية القائلة بحرمة أكل الحيوان وتملك الإنسان شيئا لخاصة نفسه] اهـ .

أليس هذا كله من سحر العقول بالتأثير والايهام والتغرير ، وليس ينجى المسلمين من هـذا إلا قراءة كل تاريخ وكل علم وانتهاج الخطة المثلى وتعميم التعليم وإلا حقت كلمة العذاب . هـذا هو الذى جاءت لأجله قصة السحرة فى سورة القرآن ، فانظر إلى المنصور أيام صولة الدين وعزته كيف قاتل من يعبدونه وانظر إلى حسن بن الصباح وإلى بعض شيوخ الطرق اليوم كيف يجعلون أنفسهم فى مصاف المقدسين كأنهم معبودون وكأنهم هم المختصون بالشفاعة وكيف يحرم بعضهم أن ينظر أتباعه لوجهه بل لا يسلمون عليه إلا وهم مطأطئون رءوسهم وكيف كثرت هذه الخرافات فى أمم الإسلام وخالف الناس أخلاق الصدر الأول. لهذا انحطت المدارك وذهبت الأمم الإسلامية ضحايا الجهالة وقد أنذرت وحذرت والله هو الولى الحميد .

تم الكلام على القسم الثانى من السورة .

(القسم الثالث والرابع)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ * فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ * قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ * فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ * فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (واتل عليهم) على مشركى العرب (نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون) أى أىّ شىء تعبدون ، وهذا الاستفهام للاستخفاف عما يعبدون وأنه لا يستحق العبادة (قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين) أى نقيم على عبادتها ليلا ونهارا (قال هل يسمعونكم) أى دعاءكم (إذ تدعون) هل يجيبكم الآلهة إذا دعوتموهم (أو ينفعونكم) فى معايشكم إذا أطعتموهم (أو يضرون) فى معايشكم إذا عصيتموهم (قالوا) لا (بل وجدنا) ولكن وجدنا (آباءنا كذلك يفعلون) يعبدونها فنحن نعبدهم مقتدين بهم (قال) إبراهيم (أفرأيتم ما كنتم تعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون) وما كان يعبد آباؤكم الأولون (فإنهم عدو لى) أى أعداء لعابديهم لأن عبادتهم أضر على العابدين من الأعداء ، وإنما نسب الأمر لنفسه ليكون أدعى إلى القبول وأفرد العدو لأنه فى الأصل مصدر أو أريد به الجنس (إلا رب العالمين) استثناء منقطع أى ولكن رب العالمين . ثم وصفه بثمان صفات ترجع إلى إفاضة الخير والنعمة على العبد فإنه أولا خلقه (١) من نطفة (٢) ثم هداه لثدى أمه ولما بعده من أمور المعاش والعلم وإصلاح نفسه (٣) وأنعم عليه بالطعام (٤) والشراب لبقاء بدنه (٥) وأنعم عليه بالشفاء إذا مرض وذلك إما بالعقاقير وإما باجابة الدعاء حتى إذا دنا أجله (٦) أماته فإذا جاء اليوم المعلوم (٧) أحياه وإذا جاء دور حسابه غفر له خطاياه وأدخله الجنة ، فملخص ذلك أن إبراهيم دعا قومه إلى الله عما دعا به موسى وعما دعا به محمد صلى الله عليه وسلم ألا ترى أن نبينا صلى الله عليه وسلم جاء على لسانه فى أول السورة « أو لم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم » وإلى موسى كيف ذكر السموات والأرض وخلقهم وخلق آبائهم الأولين والمشرق والمغرب وما بينهما ، وهنا ذكر خلق الإنسان وتطوره فى جميع أحواله من يوم الولادة إلى الوقوف بين يدى الله تعالى فرجع الأمر إلى العلوم الطبيعية التى هى المنفذ الوحيد للسعادة فى الحياة من حيث منافعها وفى الموت من حيث التفكر فيها ، فانظر كيف جعل الله سعادة الآخرة متوقفة على التفكر فيما به حياتنا من غذاء وشراب ودواء وهداية لذلك ولغيره ، انظر كيف ذكر خلقنا وذلك عينه هو علم الأجنة وعلم التشريح وذكر الهداية وذلك منوط بعلوم الحكمة وعلوم الدين والشرائع وذكر طعامنا وذلك متوقف على درس الأشياء المحيطة بنا والاجتهاد فى استثمارها وذكر السقى وذلك يكون بالماء وهو ينزل من السحاب الجارى بالهواء المتحرك بالحرارة السارية من الشمس الجارية فى مدارها الجاذبة لما حولها من السيارات المجذوبة بغيرها من الشموس وذكر المرض وهو أنواع كثيرة تختلف اختلافا كثيرا تحتاج إلى دراسة خاصة وعلماء يختصون بها وذكر الشفاء منه وذلك بدرس جميع العقاقير الطبية والمناسبة بينها وبين الأمراض وآثارها فى أجسامنا واختلاف الآثار باختلاف الأقاليم والفصول والأشخاص وأن هذا تشتد الحاجة إليه فى المدن وتقل فى البدو لجودة الهواء وقلة أنواع الغذاء وعدم تكاثرها الموجب تعفن الأخلاط فى الجسم فهم أقرب إلى الصحة من أهل المدن ، كما أن الحيوانات الوحشية تقل فيها الأمراض وتكثر فى الحيوانات الأهلية كما تكثر فى الناس لفساد الهواء والازدحام فى المدن والحياة التكلفية والأمور العارضة كل ذلك يستوجبه ذكر الشفاء ثم إذا جاء أجل الانسان مات ليخلو وجه الأرض لمن بعده لأنه لو بقى الناس بلا موت لازدحموا ولعسرت الحياة فالموت نعمة على الأموات وعلى من بعدهم من الأحياء ، وكراهة الموت ناشئة من جهل هذا الانسان وعدم إلمامه بعلم الحكمة ونظام هذه الدنيا . ولو فكر العقلاء وأدركوا الحقائق لفرحوا بالموت وكيف لا يفرحون عما هو نعمة عليهم . إن النعمة والرحمة حاصلتان فى حسن النظام العام والنظام العام لا يتم ولا يكمل إلا بأن يرحل قوم من الأرض لتخلو لمن بعدهم لأنهم لو بقوا معهم لكانت الحياة لا تطاق .

فهذا الاعتبار كان الموت من النعم العامة كالحياة وربما كان قدماء المصريين قد أدركوا هذه الحقائق . ألا ترى إلى خطاب ابن الملك للكاهن فى الحكايات المتقدمة فى هذه السورة وقوله له إنك بلغت الحال التى لاحياة بعدها وإنك عن قريب ستوضع فى القبر إلى آخر ما هذا معناه فارجع إليه فيما تقدم .

(٨) ثم يبعث الانسان بعد الموت لينال جزاء ما عمل فى الحياة الدنيا والبعث نتيجة هذه الحياة .

فهذا القول استدلال على الله وعلى الآخرة بعلم الطبيعة كما فعل موسى وكما جاء فى أول السورة عند دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذه المعانى الثمانية هى قوله (الذى خلقنى) إلى قوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) ثم أخذ يدعو الله بدعوات خمس متدرجا فيه من حال الحياة إلى حال الموت على منوال ما تقدم فى كلامه ، فأولا طلب من الله أن يهبه (حكما) أى كمالا فى العلم والعمل ليستعد بذلك لخلافة الله ورياسة المخلوقين وذلك هو صفة الصالحين التى تلحق الانسان بهم ولذلك أعقبها بالثانية فقال (وألحقنى بالصالحين) أى وفقنى للكمال فى العمل لأنتظم به فى عداد الكاملين فى الصلاح بحيث لا يذنبون ذنبا صغيرا ولا كبيرا وذلك متى حصل يعقبه الصيت والذكر الحسن وهو قوله (واجعل لى لسان صدق) جاها وحسن صيت فى الدنيا يبقى أثره (فى الآخرين) إلى يوم الدين ولذلك ترى جميع الأمم محبين لابراهيم عليه السلام وقد جاء من ذريته نبينا صلى الله عليه وسلم يجدد أصل دينه ويدعو الناس إلى التوحيد كما دعا إليه ، ولما كان ذلك ليس بعده إلا ثواب الآخرة قال (واجعلنى من ورثة جنة النعيم) فى الآخرة ، فانظر كيف طلب الكمال فى العلم والعمل وذلك يلحقه بالصالحين وذلك يورثه الصيت والذكر الحسن وبعد ذلك تكون الجنة فلم يبق إلا أن يدعو لأقرب الناس إليه بعد أن أتم الدعاء لنفسه فقال(واغفر لأبى إنه كان من الضالين) عن طريق الهدى وهذه الدعوة للوفاء بوعد أبيه كما جاء فى آية أخرى « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه » الآية ، ثم أتبع ذلك بدعوة يريد بها وصف أحوال الآخرة فقال (ولا تخزنى يوم يبعثون) أى ولا تخزنى بمعاتبتى على ما فرطت أو بنقص مرتبتى والضمير فى يبعثون للعباد لأنهم معلومون ، ثم أخذ يبين حال يوم البعث فقال (يوم لا ينفع مال) كثرة المال (ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم) خالص من الذنب وحب الدنيا أى لا ينفعان أصلا إلا مخلصا سليم القلب من العيوب وكبائر الذنوب فان مثل هذا يجعل المال فيما خلق له ويرشد البنين إلى الحق ويعلمهم الخير ليكونوا مطيعين لله (وأزلفت) قربت (الجنة للمتقين) فصارت لهم منزلا (وبرزت الجحيم) أى ظهرت (للغاوين) للكافرين ، ثم أخذ يصف ما يعانيه هؤلاء من قذفهم فى النار وطرح بعضهم على بعض وحشر الآلهة معهم والجن وتخاصمهم مع المعبودين عند ما ظهر الحق وقولهم كيف نعدلكم برب العالمين وما دعانا إلى عبادتكم إلا المجرمون ثم إعلانهم اليأس من كل شافع وكل صديق قريب ثم تحسرهم وتمنيهم بعد اليأس أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا وهذا هو قوله تعالى (وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون . من دون الله) فى الدنيا من الأصنام (هل ينصرونكم) يمنعونكم من عذاب الله (أو ينتصرون) لأنفسهم (فكبكبوا) جمعوا وقذفوا وطرحوا بعضهم على بعض (فيها) فى جهنم (هم والغاوون) الذين أغووهم وهم الآلهة والجن (وجنود إبليس أجمعون) أتباعه (قالوا وهم فيها يختصمون) مع آلهتهم ورؤسائهم وذرية إبليس (تالله إن كنا) إنه أى الحال والشأن كنا (لفى ضلال مبين) وخلق الله السمع فى الأصنام كما يخلق النطق (إذ نسويكم برب العالمين) فى استحقاق العبادة (وما أضلنا) ما صرفنا عن الإيمان (إلا المجرمون . فما لنا من شافعين) كما للمؤمنين من الملائكة والأنبياء والعلماء الذين أفاضوا عليهم العلم فى الدنيا فانتفعوا بالعمل فى الآخرة فكانت الشفاعة وقوله (ولا صديق حميم) ذى قرابة يهمه أمرنا (فلو أن لنا كرة) لو للتمنى أى يا ليت لنا رجعة وجواب التمنى (فنكون من المؤمنين .

إن فى ذلك لآية) أى إن فيما ذكر من قصة إبراهيم لحجة وعظة للمستبصرين فإن ما جاء فى هذه السورة مقو التعقل واتباع الحكمة والعلم فقد استبان لك كيف شرح حال الحياة الإنسانية من خلق وهداية وطعام وشراب ودواء وموت وحياة ووصف أحوال السعداء والأشقياء وتخاصمهم وكيف يختصمون عند ظهور الحقائق ويلقى بعضهم التبعة على بعض ، وكيف أبان أن الحياة الآخرة لاخير فيها إلا لمن أخذ المقصود منها وهو سلامة القلب من حبها ومن الكفر والنفاق ثم كيف أظهر القوم اليأس وتمنوا أن يرجعوا إلى الحياة كرة أخرى وانظر كيف كانت الآية هنا مؤيدة لآية موسى إذ صرف العقول إلى الحكمة والعلم ولم يعبأ إلا بالنظر فى الكائنات ولم يكن لمعجزة العصا واليد سبيل إلى الهداية إلا عند السحرة الذين هم علماء فأصبحت قصة إبراهيم وموسى ومبدأ السورة فى مستوى واحد ولم يذكر فى هذه السورة من قصص إبراهيم غير ذلك . كل هذا نبذ لطريق السحرة ولطريق الشعراء الذين يقولون ما لايفعلون بل الشعر الذى به تحسين اللفظ وإحداث الصور التخيلية التى ذكرها علماء البيان والبديع والمعانى جعلت لفتح باب الخيال فهى مقدمات لولوج باب الحكمة والعلوم الطبيعية فمن ظن من الأمة الاسلامية أن علم الشعر مقصود لذاته فقد جهل وضل ضلالا مبينا . ثم علم الشعر وتاريخه من عصور الجاهلية إلى عصرنا الحاضر والنظر فى تطوره وتطور الأمم التى كان فيها الشعراء والاعتبار بما كان فى تلك الدول من ظلم وعدل وخفض ورفع . كل ذلك نافع فى اتساع عقول المسلمين كما أخذ بذلك المسلمون فى مصر بدار العلوم وغيرها فى هذه الأيام ، وسنتم هذا البحث إن شاء الله فى آخر السورة عند ذكر الشعراء ، وقوله تعالى (وماكان أكثرهم مؤمنين) أى أكثر قومه مؤمنين به كما حصل لموسى ولمحمد صلى الله عليهما وسلم وكل واحد منهم دعا قومه بالنظر والعلم الصحيح (وإن ربك لهو العزيز) القادر على تعجيل الانتقام (الرحيم) بالامهال لكى يؤمنوا هم أو ذريتهم .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى : «وإذا مرضت فهو يشفين » ﴾

اعلم أن شفاء الله للأمراض مثله كمثل الرزق ، فكما أن الرزق يحوزه علم الإنسان وعمله كذلك الطب ، وإذا وجدنا الناس شرقا وغربا اشتركوا فى أمور الرزق من حيث النظام العام هكذا نجد الأولين والآخرين من بنى آدم اتحدوا وساعد بعضهم بعضا فى الطب . علم بذلك العلماء ولكن أكثر الناس لايعلمون فسأذكر لك ماحاولته أمة اليونان وما نحوها فى الطب ، ثم أتبعه بما أفادنا به قدماء المصريين فى الكشف الحديث ثم أتبعه بشروط حفظ الصحة ثم الكلام على العلاج الطبيعى .

يقول الله عز وجل على لسان ابراهيم «وإذا مرضت فهو يشفين» نسب الشفاء لله ليفتح لنا باب البحث والنظر فى أمر الشفاء وعلم الطب وقد جاء فى سورة النحل عند قوله تعالى «يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس» . اعلم أن العلماء لما بحثوا فى أصل الطب من أين جاء تحيروا ولكن بعد التيا والتى وجدوه لايعدو [ثلاثة أحوال: الحال الأولى] التجربة [الحال الثانية] الإلهام [الحال الثالثة] المصادفة والاتفاق فهذه الأحوال الثلاث هى أصول الطب .

﴿ الحال الأولى ﴾

(١) يقولون : إن امرأة كانت بمصر وكانت شديدة الحزن والهم مبتلاة بأمراض كثيرة منها ضعف المعدة . ومنها امتلاء الصدر بأخلاط رديئة . ومنها احتباس حيضها فاتفق أنها أكلت (الراسن) مرارا كثيرة بشهوة فذهب عنها جميع ما كان بها ورجعت إلى صحتها ، فلما سمع به الناس استعملوه فبرئوا من ذلك المرض .

(٢) وقال جبيش الأعسم : إن رجلا اشترى كبدا طرية من جزار ومضى إلى بيته فاحتاج أن ينصرف في حاجة أخرى فوضع تلك الكبد المشتراة على أوراق نبات مبسوطة كانت على وجه الأرض ثم قضى حاجته وعاد ليأخذ الكبد فوجدها قد ذابت وسالت دما فأخذ تلك الأوراق وعرف ذلك النبات وصار يبيعه دواء للتلف حتى فطن به وأمر بقتله ، قال صاحب عيون الأنباء في طبقات الأطباء بعد ماذكر هذه الحكاية إنها كانت في زمن (جالينوس) . وروى عنه أنه قال: وأمرت أيضا في وقت مروره إلى القتل أن تشد عيناه حتى لا ينظر إلى ذلك النبات أو أن يشير إلى أحد نحوه فيتعلمه منه .

(٣) وأيضا قال حدثني جمال الدين النقاش السعودي أن في لحف الجبل الذي بناحية (اسعرد) عشبا كثيرا وأن رجلا نام على نبات هناك فلم يزل نائما حتى رآه الناس والدم يسيح من أنفه ومن مخرجه فتعجبوا حتى ظهر لهم أن ذلك من النبات الذي نام عليه . قال صاحب الكتاب : إن جمال الدين أخبره أنه خرج إلى ذلك الموضع ورأى النبات وذكر أنه أشبه (بالهندبا) وهو مرّ المذاق وقال له إنه شاهد كثيرا من الناس يقربونه من أنوفه ويستنشقونه مرارا فيحدث لهم رعاف ، قال ابن أبي أصيبعة ولم يتحقق عندي أهو الذي أشار له (جالينوس) أم غيره ، قال ابن المطران : إن النفس الفاضلة تنظر وتقول إن الدواء فعل ذلك الفعل فلابد أن يكون هناك دواء آخر ينفع هذا العضو وحينئذ تأخذ في التجربة وتطلب كل يوم حيوانا فتعطيه الدواء الأول ثم الثاني وهكذا وأخذ يضرب الأمثال ، وملخصها أن أمثال هذه الحوادث تنبه الأذكياء إلى البحث والتنقيب حتى ركبوا أدوية كثيرة باجتهادهم . هذا ملخص أمر التجربة في الطب .

﴿ الحال الثانية : الإلهام وذلك بالرؤيا الصادقة ﴾

حكى جالينوس في كتابه في الفصد إذ فصد العرق الضارب لما أمر به قال : إني أمرت في منامي مرتين بفصد العرق الضارب الذي بين السبابة والابهام من اليد اليمنى ، فلما أصبحت فصدت هذا العرق وتركت الدم يجري إلى أن انقطع من تلقاء نفسه لأني كذلك أمرت في منامي فكان ماجرى أقل من رطل فسكن عني بذلك المكان وجع كنت أجده قديما في الموضع الذي يتصل به الكبد بالحجاب وكنت في وقت ماعرض لي هذا غلاما .

(٤) وقال جالينوس : رأيت رجلا عظم لسانه وانتفخ حتى لم يسعه الفم فتحايلت في مداواته ففي ليلته رأى قائلا يقول له امسك في فمك عصارة الخس فاستعمل هذه العصارة كما أمر في المنام وبرأ برءا تاما .

ثم قال جالينوس في شرحه لكتاب الايمان لأبقراط مانصه : وعامة الناس يشهدون أن الله تبارك وتعالى هو الملهم لهم صناعة الطب من الأحلام والرؤيا التي تنقذهم من الأمراض الصعبة ، وذلك أنا نجد خلقا كثيرا ممن لايحصى عددهم أتاهم الشفاء من عند الله تبارك وتعالى بمثل ذلك .

(٥) قال (أريباسيوس) في كتابه الكبير : إن رجلا عرض له في المثانة حجر عظيم قال وقد داويته بكل دواء فلم ينجع فلما أشرف على الهلاك رأى في النوم إنسانا أقبل وفي يده طائر صغير الجثة ، فقال له هذا الطائر يكون بمواضع السباخات والآجام فخذه واحرقه وتناول من رماده حتى تسلم ، فلما انتبه فعل ذلك فخرج الحجر من مثانته مفتتا كالرماد وبرأ برءا تاما .

(٦) قال ابن أبي أصيبعة : إن بعض خلفاء المغرب مرض مرضا طويلا وتداوى كثيرا فلم ينتفع بها فرأى في بعض الليالي النبي صلى الله عليه وسلم في نومه فشكا له مايجده ، فقال صلى الله عليه وسلم ادهن بلا وكل ولا تبرأ . فلما انتبه من نومه بقي متعجبا من ذلك ولم يفهم مامعناه ولم يعرف المعبرون عنه شيئا إلا علي بن أبي طالب

القيروانى فإنه قال يا أمير المؤمنين إن النبى صلى الله عليه وسلم أمرك أن تدهن بالزيت وتأكل منه فقرأ لأن الله يقول «من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولاغربية» فلما استعمل ذلك صح وبرأ .

(٧) قال ونقلت من خط على بن رضوان فى شرحه لكتاب جالينوس فى فرق الطب مانصه [قد عرض لى منذ سنين صداع مبرح عن امتلاء فى عروق الرأس فقصدت فلم يسكن وأعدت الفصد مرارا وهو باق على حاله فرأيت جالينوس فى النوم وقد أمرنى أن أقرأ عليه حيلة البرء فقرأت عليه منها سبع مقالات فلما بلغت إلى آخر السابعة قال فنسيت مابك من الصداع وأمرنى أن أحجم (القمحدوة) من الرأس ثم استيقظت فحجمتها فبرأت من الصداع على المكان].

(٨) وقال عبد الملك بن زهر فى كتاب التيسير (إنى كنت قد اعتل بصرى من قىء بحرانى أفرط على فعرض لى انتشار فى الحدقتين دفعة فشغل بذلك بالى فرأيت فيما يرى النائم من كان فى حياته يعنى بأعمال الطب فأمرنى فى النوم بالاكتحال بشراب الورد وكنت لم أزل طالبا لم يكن لى حنكة فى الصناعة فأخبرت أبى فنظر فى الأمر مليا ثم قال استعمل ما أمرت به فى نومك فانتفعت به ، ثم لم أزل أستعمله إلى وقت وضعى هذا الكتاب فى تقوية الأبصار . هذا أيضا كثير مما يحصل بالرؤيا الصادقة فانه قد يعرض أحيانا لبعض الناس أن يروا فى منامهم صفات أدوية ممن يوجدهم إياها فيكون بها برؤهم ثم تشتهر بالمداواة بتلك الأدوية فيما بعد) انتهى الكلام على الحال الثانية .

(الحال الثالثة)

أن يكون قد حصل لهم شىء بالاتفاق والمصادفة مثل ما حصل لأندروماخس وغيره فيما تقدم فى آخر سورة النحل إذ ذكرت لك هناك كيف عرف الأطباء بالاتفاق كون سم الحيات يشفى بلحومها . وهكذا كل سم لحيوان يمنع ضرره لحم ذلك الحيوان . وهكذا يشفى كل مرض مزمن قوى بلحوم الحيات كالبرص والجذام فارجع إليه إن شئت هناك لتعرف هذه الأحوال الثلاث وهى التجربة والأحلام والمصادفات والاتفاق ، وإنما ذكرت لك ذلك لتفهم قوله تعالى هنا « وإذا مرضت فهو يشفين » .

إن الشفاء من الله فإنه إما أن يلهم الناس فى أحلامهم وهذا منه تعالى وإما أن يلهمهم فى اليقظة فيتفكرون كما فى الحال الأولى وهذه هى التجربة وإما أن تقع لهم الأشياء مصادفة فيفكرون فيها فسواء أكان بالأحلام أم بالاعتبار والبصيرة ، فكل هذا من الله ، ولتعلم أن الله عز وجل لايحب أن تكون جميع علومنا بالأحلام والرؤى ولا بوحى الأنبياء لأن الأحلام إنما هى موقظات فقط ، ثم إن الناس عليهم أن يجدوا بأنفسهم ليرتقوا أما الأنبياء عليهم السلام فإن الله جعلهم قليلا فى الأرض هكذا النابغون فى الأمم والحكماء . ذلك لأن الله يريد أن يجعل هؤلاء الأنبياء موقظين فيوحى إليهم قولا إجماليا ويطلب من أتباعهم أن يفكروا فيه ، فلو أن الناس أتت لهم جميع أعمالهم بطريق الرؤى أو كان الأنبياء معطين الناس كل علم وكل حكمة بحيث لايفكرون ولا يدرسون وإنما يعيشون على أحلامهم الصادقة وأنبيائهم الصادقين لكان ذلك وبالا ولذلك تجد الأحلام الصادقة قليلة جدا والأنبياء قلوا والعلوم التى أتوا بها تحتاج إلى التعقل والتفكر حتى لاتموت عقول الشعوب التابعة لهم بالاتكال على ما سمعوه ، وعلى كل فالشفاء من الله إما بالرؤيا واما بالجد والاجتهاد والتفكر والأول مبادئ وما بعده هو الأغلب الأكثر الأعم .

وهناك (حال رابعة) وهى ما يشاهده الناس فى الحيوان مثل ما ذكره الرازى فى كتاب الخواص أن الخطاف إذا وقع بفراخه اليرقان مضى فجاء بحجر اليرقان وهو حجر أبيض صغير يعرفه فجعله فى عشه فيبرأ وأن الانسان إذا أراد ذلك الحجر طلى فراخه بالزعفران فيظن أنه قد أصابهم اليرقان فيمضى فيجىء به فيؤخذ ذلك الحجر ويعلق على من به اليرقان فينتفع به (هكذا يقول ابن أبى أصيبعة والله أعلم بالحقائق).

وكذلك من شأن العقاب الأنثى أنه إذا تعسر عليها بيضها وخروجه وصعب حتى تبلغ للموت ورأى ذكرها ذلك طار وأحضر حجرا يعرف بالقلقل لأنه إذا حرك تقلقل فى داخله فإذا كسر لم يوجد فيه شىء وكل قطعة منه إذا حركت تقلقلت مثل صحيحه . وأكثر الناس يعرفه بحجر العقاب ويضعه فيسهل على الأنثى بيضها والناس يستعملونه فى عسر الولادة على ما استنبطوه من العقاب . ومثل ذلك أيضا أن الحيات إذا أظلمت أعينهن لكمونهن فى الشتاء فى ظلمة بطن الأرض وخرجن من مكامنهن فى وقت ما يدفأ الوقت طلبن (نبات الرازيانج) وأمررن عيونهن عليه فيصلح ما بها . فلما رأى الناس ذلك وجربوه وجدوا من خاصيته إذهاب ظلمة البصر إذا اكتحل بمائه . وذكر جالينوس فى كتابة فى الحقن عن (أرودوطس) أن طائرا يدعى (ايبس) هو الذى دل على علم الحقن وزعم أن هذا الطير كثير الاغتذاء لايترك شيئا من اللحوم إلا أكله فيحتبس بطنه لاجتماع الأخلاط الرديئة وكثرتها فيه فاذا اشتد ذلك عليه توجه إلى البحر فأخذ بمنقاره من ماء البحر ثم أدخله فى دبره فيخرج بذلك الماء الأخلاط المحتقنة فى بطنه ثم يعود إلى طعامه الذى عادته الاغتذاء به .

(الحال الخامسة)

أن يكون حصل شىء منها أيضا بطريق الإلهام كما هو لكثير من الحيوانات ، فانه يقال إن البازى إذا اشتكى جوفه عمد إلى طائر معروف يسميه اليونانيون (ذريفوس) فيصيده ويأكل من كبده فيسكن وجعه على الحال ، وكما تشاهد عليه أيضا السنانير فانها فى أوقات الربيع تأكل الحشيش فان عدمت الحشيش عدلت إلى خوص المكانس فتأكله ، ومعلوم أن ذلك ليس مما كانت تغتذى به أولا وإنما دعاها إلى ذلك الالهام لعل ما جعله الله تعالى سببا لصحة أبدانها فاذا أكلته تقيأت أخلاطا مختلفة قد اجتمعت فى أبدانها ولا تزال كذلك إلى أن تحس بالصحة المأنوس إليها بالطبع فتكف عن أكله . وكذا أيضا متى نالها أذى من بعض الحيوانات المؤذية ذوات السموم أو أكلت شيئا منها فانها تقصد إلى السيرج وإلى مواضع الزيت فتنال منه وعند ذلك يسكن عنها سورة ما تجده . ويحكى أن الدواب إذا أكلت الدفلى فى ربيعها أضر ذلك بها فتسارع إلى حشيشة هى بادزهر للدفلى فترتعها ويكون بها برؤها . ومما يحقق ذلك حالة جرت من قريب وهى أن بهاء الدين بن نفادة الكاتب حكى أنه لما كان متوجها إلى الكرك كان فى طريقه بالطليل وهى منزلة كثيرة نبات الدفلى فنزل هو وآخر فى مكان منها وإلى جانبهم هذا النبات فربط الغلمان دوابهم هنالك وجعلت الدواب ترعى مايقرب منها وأكلت من الدفلى فأما دوابه فان غلمانه غفلوا عنها فسابت ورعت من مواضع متفرقة ، وأما دواب الآخر فانها بقيت فى موضعها لم تقدر على التنقل منه ولما أصبحوا وجدت دوابه فى عافية ودواب الآخر قد ماتت بأسرها فى ذلك الموضع . وحكى (ديسقوريدس) فى كتابه أن المعز البرية بأقريطى إذا رميت بالنبل وبقيت فى أبدانها فانها ترعى النبات الذى يقال له (المشكطرامشير) وهو نوع من الفوتنج فيتساقط عنها مارميت به ولم يضرها شىء منه . وحكى القاضى نجم الدين عمر بن محمد بن الكرندى أن القلق يعشش فى أعلى القباب والمواضع المرتفعة وأن له عدوا من الطيور يتقصده أبدا ويأتى إلى عشه ويكسر البيض الذى القلق فيه قال وإن ثم حشيشة من خاصيتها أن عدو القلق إذا شم رائحتها يعمى فيأتى بها القلق إلى عشه ويجعلها تحت بيضه فلا يقدر العدو عليها . وذكر أوحد الزمان فى المعتبر أن القنفذ لبيته أبواب يسدها ويفتحها عند هبوب الرياح التى تؤذيه وتوافقه . وحكى أن إنسانا رأى الحبارى تقاتل الأفعى وتنهزم عنها إلى بقلة تتناول منها ثم تعود لقتالها وأن هذا الإنسان عاينها فنهض إلى البقلة فقطعها عند اشتغال الحبارى بالقتال فعادت الحبارى إلى منبتها ففقدتها وطافت عليها فلم تجدها فخرت ميتة فقد كانت تتعالج بها . قال وابن عرس يستظهر فى قتال الحية

باكل

بأكل السذاب، والكلاب إذا دودت بطونها أكلت السنبل وتقيأت واستطلقت ، وإذا جرح اللقلق داوى جراحه بالصعتر الجبلي ، والثور يفرق بين الحشائش المتشابهة في صورها ويعرف ما يوافقه منها فيرعاه وما لا يوافقه فيتركه مع نهمه وكثرة أكله وبلادة ذهنه ومثل هذا كثير ، فاذا كانت الحيوانات التي لا عقول لها ألهمت مصالحها ومنافعها كان الانسان العاقل المميز المكلف الذي هو أفضل الحيوان أولى بذلك وهذا أكبر حجة لمن يعتقد أن الطب إنما هو إلهام وهداية من الله سبحانه لخلقه. وبالجملة فانه قد يكون من هذا ومما وقع بالتجربة والاتفاق والمصادفة أكثر ماحصلوه من هذه الصناعة ثم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب ماشاهدوه وأدتهم إليه فطرهم فاجتمع لهم من جميع تلك الأجزاء التي حصلت لهم بهذه الطرق التفننة المختلفة أشياء كثيرة، ثم إنهم تأملوا تلك الأشياء واستخرجوا عللها والمناسبات التي بينها فتحصل لهم من ذلك قوانين كلية ومبادىء منها يبتدأ بالتعلم والتعليم وإلى ماأدركوه منها أولا ينتهى فعند الكمال يتدرج في التعليم من الكليات إلى الجزئيات وعند استنباطها يتدرج من الجزئيات إلى الكليات اهـ .

هذا ما اصطفيته من كتب المتقدمين وقد ظهر منه أنه ليس لمن قبل اليونان طب ذلك لأن سلسلة التاريخ الطبي لم تظهر بين الأمتين في التاريخ فانظر ماذا جرى ؟ الذي جرى أن مدرسة الطب المصرية قد مضى لها منذ تأسيسها (١٠٠) سنة وصادف أن ذلك وقت طبع هذه السورة أي قبله بقليل والأمة المصرية كثرعددها فوجب توسعة المدرسة فهنالك أخذت الحكومة تبني لها بناء جديدا واجتمع مؤتمر طبي لهذه المناسبة ووضع الحجر الأول بحضورهم ، وبهذه المناسبة كتبت الجرائد المصرية تاريخ الطب فرأيت أن ما كتبته الآن ليس أول الطب في العالم المعروف بل ظهر أن قدماء المصريين كان الطب عندهم منذ آلاف السنين مشابه الطب الحديث الآن كل المشابهة، فبينما نرى هؤلاء الأطباء الذين ذكروا هنا لايزالون ينتظرون الطب من الرؤى في المنام ومن التجارب إذا قدماء المصريين قبلهم بآلاف السنين قد وصلوا لما وصل اليه الناس الآن . فهاك ماجاء في إحدى المجلات الملية بتاريخ (٢٠) ديسمبر سنة (١٩٢٨ م) و ٨ رجب سنة (١٣٤٧ هـ) وهذا نصه : (شكل ٦) .

(شكل - ٦)

مخطوطات هيروغليفية

منقولة عن ورقة البردي المعروفة بورقة (ايبر) التي اكتشفها العلامة (جورج إيبر) سنة ١٨٧٥ ويرجع تاريخها إلى سنة ١٥٥٠ قبل الميلاد وهي تبين أول أثر بإذن عرف في تاريخ العالم فالى اليمين إحدى عشرة وصفة لعلاج التهاب القرنية المصحوب بافراز وتحتوى على مرهم (فرديجرى) ويعرف بالمرهم المصرى، ومن محتوياته بذور خاصة تنبت في الوجه القبلي وا كسيد الرصاص وعسل بكميات متساوية ، وفي الوسط أربع وصفات لطرد الديدان من الأمعاء تؤخذ في مدة أربعة أيام وإلى اليسار ثلاث وصفات لعلاج الاسهال تحتوى على عنب وعسل وبصل وتين ورصاص أخضر(؟) ودقيق وزلال بيض ، والقراءة من اليمين إلى اليسار اه .

وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية أنه ثبت من علم الآثار أن الكهنة المصريين القدماء كانوا قسمين الأطباء والصيادلة على نحو ماهو جار الآن وأن بابل نقلت منهم هذا التقسيم واستمر الحال إلى يومنا هذا حيث يصف الطبيب الدواء فيحضره الصيدلي وكلاهما يفهمان بعضهما ، ولايمكن للغريب عن هذه الدائرة فهم مخطوطاتهم حتى يقول العامة (خط الطبيب لايقرؤه سوى الصيدلي) يقول العامي ذلك وهو متعجب ويتمنى أن يتمكن من حل هذه الألغاز ويقصد إلى من يعرف القراءة جيداً ، ولكن على غير جدوى لأن الأخير يتعجب بدوره لعدم إمكانه قراءة الوصفة ، هكذا كان الأطباء من الكهنة القدماء يكتبون وصفاتهم على ورق البردي إلى الصيادلة من الكهنة أيضاً الذين يحضرون بدورهم الدواء للمريض والمريض بين الاثنين مذهول فنشأ عن ذلك الاعتقاد بأن الكهنة يعملون بالسحر .

إن الله عز وجل قد أذن لهذا التفسير أن ينال حظاً عظيماً . فبينما نحن نقرأ في كتبنا القديمة أن الطب كان مبتدئاً في أزمان قريبة إذا بحادثة مدرسة الطب المصرية قد قربت البعيد ونشرت هنا النصوص المصرية القديمة مع نصوص الأدوية .

إذن علمنا أن العلم قديم وتام أيضاً وهذا يفسر قوله تعالى «وكل شيء عنده بمقدار» وقوله «والذي قدر فهدى» وقوله «الذي خلقني فهو يهدين» .

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق العالم الذي اعتاد أن يسألني في الأمور الهامة ، فقال ها أنتذا ذكرت أقوال الأطباء المتقدمين من أمم اليونان والاسلام . ولما عثرت على أن الطب أقدم من ذلك أظهرته فما هذا التطويل ؟ فهل التفسير أصبح تاريخاً للعلوم ؟ إن هذا لشيء عجاب . اللهم إن هذه الطريقة مما يزهد القارىء في القراءة فيقول إنه بأدنى مناسبة يطيل الشرح والقول ويخرج القارىء عن المقصود من الكتاب الحكيم ، فقلت لننظر مايقول الله هنا . إنه يقول على لسان إبراهيم عليه السلام «الذي خلقني فهو يهدين ، والذي هو يطعمني ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين» ثم أتبع هذا بالموت والبعث ، فهنا [ستة أحوال] (الخلق . الهداية . الإطعام . السقي . المرض . الشفاء) أما الخلق فقد تقدم في أول سورة المؤمنون . يقول الله تعالى «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» فكرر الخلق (٦) مرات وقال في آية أخرى «إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه» فالخلق وهي الحال الأولى ملازم الابتلاء والاختبار مع الأخلاط لأن الإنسان مخلوق هو والحيوان والنبات من عناصر مختلطة وكل مركب متوقف على كل جزء من أجزائه وهذه الأجزاء دائماً في الذوبان والتحليل . ألا ترى رعاك الله إلى ماتقدم في (سورة النور) وكيف استبان هناك أن

هذه

هذه الأجسام كلها راجعة إلى الجوهر الفرد والجوهر الفرد يرجع إلى كهرباء سالبة وكهرباء موجبة أي أن العوالم التي نعيش فيها ومنها خلقنا ماهي إلا حبيبات مضيئة نورية كهربائية السالبة تجرى حول الموجبة وتدور كما تدور الكواكب حول الشمس وذلك بسرعة ملايين في الثانية الواحدة فاقرأه هناك محققا فأشبهت في نورها وفي جريها أحوال الكواكب السيارات الجاريات حول الشمس وهذه النقط الضوئية الجاري بعضها على بعض من سالبة وموجبة باختلاف أبعادها وسرعتها وكميتها تختلف العناصر المركبات منها كالحديد والنحاس والذهب والاكسوجين والادروجين وهكذا مما وصل عدده إلى (٨٠) فأكثر . هذه هي العناصر وهذه هي التي خلق الله فيها أجسام الحيوان والنبات وخلق الإنسان من أمشاج كما خلق كل نبات وكل حيوان . إذن الإنسان مكون من أشياء قد خلط بعضها ببعض والجسم والعقل فيه مرتبط بهذه البنية . لذلك ترى الله كما جعل خلقه أخلاطا وضع فيه وفي كل حيوان نوعا من الهداية والهداية مقدرة بقدر على مقتضى الحاجة ، فاذا كان النبات من أخلاط فله هداية تخصه كما في إلقاحه ونموه (انظره في سورة الحج وغيرها) وإذا كان الحيوان أرقى من النبات والإنسان أرقى من الحيوان فانك ترى الله ألزمهما قوى باطنة فطرية فطرهم عليها مثال ذلك الاحساس بالجوع وبالعطش وبالمرض وبالخوف من العدو وبالغيرة من القرن وبالحسد وبالغيظ وبالحب وبالشبق وبالذل وبالفخر . كل هذه عواطف خلقت مع أنواع الحيوان تقل وتكثر على حسب الحاجة ولولا هذه الاحساسات لم يبق حيوان ولا إنسان على الأرض . أفلا ترى أن هذا الاحساس للنوع إلى هذه الأنواع هداية . هذا هو معنى قوله تعالى هنا « الذي خلقني فهو يهدين » فعبر بالفاء إشارة إلى أن الهداية مقترنة بالخلق ملازمة له ملازمة تامة . فالخلق من المركب يلزمه هداية لحفظ هذا المركب ولذلك تجد كل حيوان يحس بألم الجوع وألم الشبق وألم العطش وألم المرض ، فلماذا هذا ؟ هذا لحفظ ذلك المركب فإن لم يكن هذا الألم أو هذا السوط المؤلم أو هذه المقامع من حديد تساق بها النفوس إلى حفظها ماعاشت فهذا والله عذاب أريد به الرحمة وشقاء أريد به النعيم وذل أريد به العز وإهانة أريد بها الإكرام ، إن العوالم التي في أرضنا ناقصة بالنسبة لعوالم أخرى والله لم يسلط عليها هذه الآلام نكاية بها ولا إذلالا لها ولكن سلطها عليها لحفظ كيانها ويجعل لها حياة ولم يكن من الممكن بالنسبة لها أن تخاطب بخطاب ألطف من هذا لتهتدى به ، فهذه المؤلمات هي اللغات الإلهية التي ليست بحرف ولا صوت ركبت في طباعها وغرست في نفوسها تهدى بها إلى المطاعم والمشارب والأدوية ، هذا هو معنى قوله تعالى « الذي خلقني فهو يهدين » .

فلما سمع ذلك صاحبي قال لقد والله شرحت صدري ، ما أجمل العلم ؟ ها أنا ذا أصبحت بعد هذا أقرأ في الهرة وفي الجمل وفي الإنسان علوما هي أمامي مكشوفة ولكني لم أفك طلاسمها ولا رموزها ولكني الآن أخذت أفك رموزها وطلاسمها وقد ظهر لي أن هذه الدواب وهذا الإنسان فضلا عن مساعدة الجميع بعضهم لبعض هم صحائف منشورة تقرؤها نفوس أعلى من نفوس أهل الأرض ، فإن هذا القول يظهر لي أن وراءه ماهو أعلى منه وأجمل وأبهج وأشرف مخبوء لم يظهر لنا معاشر بني آدم في الأرض فأرجو أن تتم القول فانه جميل وهو حقا في نفس القرآن وفي نفس الآيات في هذه السورة ، فقلت الحمد لله الذي شرح صدرك لما أقول وإني أشعر أن ما ترضاه أنت يرضاه جميع أحبائي قراء هذا التفسير ويشعرون بما تشعر به أنت شعور سعادة ومحبة وسرور فلأتمم هذا المقام فأقول والله المستعان :

إن الهداية في الآية على (قسمين) هداية فطرية وهداية تعليمية ، فأما الهداية الفطرية فهي ماقلته لك من الجوع والعطش وما تلاهما ، وأما الهداية التعليمية فإنها تظهر أولا في الحيوان وترتقي في الإنسان ، وأضرب لك مثلا الغراب إنه من أكالة اللحوم فان لم يجدها حية أكل الرم وهو يأكل الدود والفراش

والخنافس وصغار الحيوان وقد يسرق عش الطائر مع أفراخه الزغب ويخطف قطعة الجبن ولقمة الخبز وهو جبان وإذا صاح أحدها اجتمعت منها جماعات كثيرة وهو يقوم مبكرا ، كل ذلك بغريزة فيه . فانظر ماذا ترى ، تراه يعلم صغاره الطيران فهو يأخذها خارج العش ويطير بها ، ههنا أيها الذكى وصلنا إلى المقصود وهو أن الحيوان ارتقى بعضه طبقا عن طبق حتى كان منه ما وصل إلى درجة فى بعض شؤونه استعملها الإنسان ، فإننا نشاهد الضباط يمرنون العسكر على الكر والفر واستعمال السلاح والمشى والاصطفاف ، فهاهو ذا الغراب لم يقف عند حد الهداية الفطرية بل أخذ يمرن صغاره على الطيران كما فتحت الأمم فى أيامنا مدارس الطيران .

الجراد لايربى صغاره والعقرب الذكر يموت غالبا قبل وضع صغاره ، وأنثى العقرب تموت متى قويت أبناؤها كما ترى شرحه فى سورة المائدة عند آية الغراب ، فهاهو ذا الغراب أخذ يعلم أى أنه انتقل من الهداية الفطرية إلى الهداية التعليمية ، الله يقول « إن علينا للهدى وإن لنا للآخرة والأولى » فالله تولى هداية خلقه كلهم ، فالهداية الفطرية عامة ، أما الهداية التعليمية فهى التى جعلت خاصة وترى مثلها فى الغراب ، ومثلا آخر فى النحل فقد تقدم فى هذا التفسير أن النحلات الصغيرات إذا كانت فى شرنقتها (فيلجتها) وأرادت الخروج منها عند تمام مدتها حضرت لنجدتها وإخراجها النحلات الكبيرات كأنهن الأطباء أو القابلات فيمزقن الأربطة التى تستعصى على صغارها لتخرجها من محبسها كما تساعد القابلة الأم فى استخراج جنينها من رحمها .

فلما سمع صاحبى ذلك قال أنا الآن عرفت الفرق بين الهداية الفطرية والهداية التعليمية ولكن أرى الفرق بينهما عسرا فما المانع من أن يكون تعليم الغراب لابنه الطيران غريزة : أى فطرة تعليمية ، فياليت شعرى ما الفرق بين الغريزة والتعليم هذا ما لا أتعقله ، فقلت له إن الفرق بينهما عسر كالفرق بين الحيوان والنبات فانظر فى سورة الحج وفى غيرها تجد عند قوله تعالى « فتصبح الأرض مخضرة » أن الفرق بينهما عسر كذلك الفرق بين الغريزة والتعليم عسر دقيق وإنما يمكننا أن نقول إن هناك ارتقاء عن الغريزة شيئا فشيئا يبتدئ ذلك فى الحيوان ويرتقى فى الإنسان وكلما كان الإنسان أرقى كان أكثر تعقلا وفعل باختياره ولم يتكل على غريزته ، إن الإنسان كما أعطى غريزة كالحيوان ارتقى ونال هداية أعلى من الغريزة وهذه الهداية تبتدئ فى طعامه وشرابه ولباسه والهواء والضوء ، فالناس غرقوا فى الهواء وفى الضياء واحتاجوا إلى الماء وإلى الغذاء وإلى الدواء فهم فى ذلك كالحيوان ولكنهم لما كانوا أتم تركيبا أعطوا قوة عاقلة وهذه القوة العاقلة سلطوها على أنواع النبات التى تعد بعشرات الألوف وعلى أنواع الحيوان التى تعد بأكثر من ذلك فعرفوا ماينفعهم وما يضرهم وأخذت الأمم القديمة جميعها تتعلم لا المصريون وحدهم بل هناك أمم وأمم لم تصل لنا أخبارهم وصلت إلى ما لانعلمه ، وتنحصر الهداية التعليمية عند جميع الأمم فى (قسمين) قسم حفظ الصحة وقسم مداواة المرض . فأما قسم حفظ الصحة فهو (نوعان) نوع يختص بالطعام والشراب والهواء والماء وهذا تقدم فى (سورة طه) عند ذكر آدم فاقرأه هناك وتدبره . ونوع متمم لذلك :

(١) مثل المحافظة على نظافة الجلد بأن يستحم مرة فى الأسبوع شتاء ومرتين صيفا .

(٢) ومثل أن يغسل الإنسان يديه بالصابون قبل الشروع فى غسل عينيه ووجهه وقبل تعاطى الغذاء .

(٣) ومثل أن يغسلهما بعد الفراغ من الأكل وبعد لمس أى جسم غير نظيف وبعد الاستيقاظ من النوم وقبل إرادة النوم ، كل ذلك بالماء والصابون فإنه يبعث فى الجسم نشاطا وانشراحا .

(٤) ومثل غسل القدمين بالماء والصابون صباحا ومساء كذلك يخلل ما بين الأصابع ويزيل ما بينهما من الأقذار .

(٥) ومثل

(٥) ومثل أن شعر الرأس يجب غسله كل أسبوع بالماء والصابون .

(٦) ومثل أن تقلم الأظفار ثم تغسل الأصابع بعد القص بالماء مع الليفة أو نحوها لإزالة (التفث) أى القذر تحتها .

(٧) ومثل غسل الأنف وتنظيفه وأنه لايجوز نتف الشعر الذى فيه أوقصه فإن الله خلقه لصحة أبداننا فهو يضعف تيار الهواء إذا كان شديدا .

(٨) ومثل أنه لاينبغى إدخال الأصبع فى الأنف لأنها عادة رديئة وأنه عند التمخط تسد إحدى فتحتى الأنف ليخرج المخاط من الأخرى عند نفخ الهواء ثم بعد ذلك يسد الثانية وفتح الأولى .

(٩) ومثل العناية بالأسنان وتنظيفها بحيث تغسل بالماء والصابون قبل الأكل وبعده لئلا تبقى بعض الفضلات فتضر وتعقب أمراضا لاقبل لنا بها ، ويستحسن التنظيف بنحو السواك (والفرجون) بعد غمسه فى بعض العقاقير عند الصيادلة ويكون ذلك التنظيف بالعقاقير مرتين فى اليوم عند الاستيقاظ من النوم وعند الذهاب إلى الفراش ، هذا كلام الأطباء ، وديننا أمر بأ كثر من ذلك بحيث يكون السواك عند كل وضوء وعند كل صلاة وهكذا ، ويجتنب تكسير الأجسام الصلبة بالأسنان لئلا تتلف ويدخلها السوس .

(١٠) ومثل تنظيف الأذن من الخارج بالماء والصابون والأفضل أن يكون الماء (دفيئا) ولا ينبغى استعمال أجسام صلبة فى تنظيف الأذن هكذا لايدخل جسما غريبا كالحصة أو قطعة من الخشب .

(١١) ومثل أن يفعل بالعين ما يفعله بالأذن فيغسلان بالماء والصابون لئلا يضع الذباب بيضه فيهما . فليغسل الإنسان وجهه ويديه كل يوم مرتين بالماء والصابون ومعلوم أن الوضوء يتكرر وهذه نعمة إسلامية عظيمة ، ومن العجب أن عناية ديننا الإسلامى بالصحة أرقى من عناية الأطباء .

(١٢) ومثل أن وضع الكحل فى العين مضر ، ومثل أن من ينام على فراش أرمد يصيبه الرمد سريعا ، ومثل أنه إذا دخل جسم غريب من ذرات التراب فى العين وجب غسلها بالماء الفاتر مرات كثيرة بعد إغلائه فان لم يتيسر اخراجه بهذه الطريقة فليذهب الانسان حالا إلى الطبيب .

من بدائع وعجائب الإسلام فى الطب (السواك)

أيها المسلمون . هل كان منا أحد يظن أننا فى القرن العشرين نرى دين الإسلام الذى ظهر فى جزيرة العرب التى لاعلم فيها ولاملك ولا دين ولا مدنية ولا كتابة ولا قراءة تظهر آثاره ظهورا بينا فى المستشفيات ومدارس الطب وكشف العلماء . ومن ذا الذى كان يخطر له ذلك . أيها المسلمون نحن كنا فى الجامع الأزهر نحضر الدروس على شيوخنا وهذه صفحة مما قرأناه من كتاب المنهج مع شرحه وحاشيته فى مذهب الشافعى ملخصا قال ماملخصه : إن الاستياك سنة لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : «السواك مطهرة للفم» ويسن أن يكون ذلك الفعل فى عرض الأسنان لقوله صلى الله عليه وسلم «إذا استكتم فاستاكوا عرضا» ويجوز أن يكون الاستياك طولا وهذا فى الأسنان . أما اللسان فيسن فيه الاستياك طولا وتكون آلة السواك مادة خشنة كعود الأراك وجريد النخل والزيتون وكل ماله ريح طيب ثم بقية الأعواد وهذه يفضل فيها اليابس المندى بالماء ، ثم المندى بماء الورد ثم المندى بالريق ثم الرطب ثم اليابس غير المندى ، ويقال إن اليابس غير المندى مقدم على الرطب لأنه أقوى فى إزالة التغير .

﴿ فوائد السواك ﴾

إنه يبيض الأسنان ويزيل قلحها ويشدها ويطيب النكهة ويشد اللثة ويزيل رخاوتها ويصفى الحلق ويفصح اللسان ويزيد فى العقل ويذكى الفطنة ويحسن الخلق أى لون البدن ويهضم الصلب ويقطع الرطوبة من العين

ويحد البصر ويبطىء الشيب ويسوى الظهر ويرهب العدو ويصلب اللحم ويضاعف الأجر ويرضى الرب ويسخط الشيطان ويزيد فى ثواب الصلاة وينمى الأموال ويقوى القلب والمعدة وعصب العين .

(أوقات السواك)

هو مؤكد فى مواضع وهى الوضوء والصلاة وتغير الفم والقراءة ودخول المنزل وإرادة النوم واليقظة .
ومن الأحاديث الواردة فى السواك خبر ابن خزيمة «لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل وضوء» وحديث الشيخين « لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » أى أمر إيجاب . وحديث الشيخين أيضا « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك » أى يدلكه به . وحديث مسلم « كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا دخل البيت بدأ بالسواك » اه .

هذا ماجاء فى دين الإسلام من الحث على السواك . فلننظر الآن فى الكشف الحديث . من عادة طلاب العلم الدينى فى العالم أن بعضهم يعمل بأوامر دينه والأكثرون ينصرفون عن بعضها كالسواك لأنه سنة والسنة لا عقاب عليها وقد كنت أنا أتساهل فى أمر السواك ولاسيما لما صرت مدرسا فى المدارس الأميرية ، ثم إنى يوما توجهت إلى مدرسة الوعظ والارشاد التى أقامها الشيخ رشيد رضا، فلما دخلتها وجدت المرحوم الدكتور صدق يعطى درسا وفى يده كتاب باللغة الفرنسية وهو يترجم والتلاميذ يكتبون فسمعته يقول : وهذه الشجرة تسمى شجرة محمد عليه الصلاة والسلام - يريد بذلك شجرة الأراك - وأخذ يشرح المقام شرحا وافيا . يقول إن مؤلف الكتاب يفضل فى السواك شجر الأراك على الفرشة المعتادة ، وهذه الشجرة يسميها الفرنجة شجرة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أمر أمته بأن يستاكوا بأعوادها . هنالك استيقظت من غفلتى وقلت بالعجب ، علم قرأناه ثم أهملناه جهلا بمزاياه ومن ذلك الوقت أخذت أواظب على السواك ثانيا .
والأهم من ذلك ماجاء اليوم فى الطب الحديث فاسمعوا مايقوله الأطباء فى عصرنا مايقوله الأطباء فى عصرنا ، جاء فى مقال طبيب بمجلة (الجديد) ماهذا نصه :

خطر لا يفطن إليه كثير

(هل للأمراض الباطنية علاقة بأمراض الفم ؟)

للدكتور يوسف زكى

قد يدهش القارىء إذا عرف أن بعض جهابذة الطب يطلبون من بعض مرضاهم أو بالأحرى من معظمهم أن يزوروا طبيب الأسنان ويأتوا لهم بتقرير منه عن حالة فمهم وأسنانهم، وربما تزداد دهشتهم إذا عرفوا أن مريضا بالرمد استعصى علاجه على أكابر الأطباء، وكان يتملك اليأس هذا المريض وأن يفقد بصره لولا أن أشار عليه بعضهم باستئصال أسنانه أو بعضها ولم يكد يفعل ذلك حتى استجاب مرضه للدواء ونال تمام الشفاء .

إن الفم هو أول أجهزة القناة الغذائية وهو العامل الأول فى إعداد الغذاء لعملية الهضم فاذا حصل بأجزائه أو بعضها عطب أضر ذلك بالجهاز الهضمى أو ببعضه وأفسد عمله وربما تعدى ضرره إلى أجهزة أخرى، وقد تتخلف بالفم بقايا من الطعام تتعفن وتنمو فيها جراثيم الأمراض فتتسرب تلك الجراثيم إلى الأعضاء المجاورة كالزور والحنجرة ثم إلى المعدة فتحدث بها الأدوار المختلفة المعروفة ، ثم إن نسبة سرطان الفم واللسان لتآكل الأسنان وتقيح اللثة مثلا أمر معروف مؤكد بل قد ذهب بعض الأطباء إلى أن سرطان المعدة نتيجة لازمة للأمراض التقيحية المزمنة التى تعترى اللثة أو لخراجات الأسنان ، وأيد رأيه هذا بالأدلة الدامغة ثم جاء بعده كثيرون أثبتوا ذلك أيضا . قلنا إن الأعضاء المجاورة للفم هى أول مايتأثر بأمراضه وتأتى بعد ذلك المعدة

فتوازلها الحادة والمزمنة قد تكون أيضا من أمراض الفم . وأول من تنبه لذلك هو الدكتور (هنتر) سنة ١٩٠١ ونشر ملاحظاته فكان منها أن صار أطباء الأمراض الباطنية يفحصون أسنان مرضاهم قبل كل شيء فاذا بدا لهم أمرما نصحوا لهؤلاء المرضى بمعالجة فمهم قبل البدء فى معالجة أمراضهم الباطنية . وقد أكد الدكتور (جوربى) أن التهابات الملقة الدودية وتقيح الأعور تتسبب فى الغالب من ذلك القيح المتولد فى الفم وأضاف الدكتور (هنتر) على ذلك أن القيح المتولد فى الفم يسبب أيضا الأنيميا الخبيثة، وإذا وجدت خراجات الأسنان سبيلا إلى الدورة الدموية يحدث منها أمراض القلب مثل التهاب غشائه الداخلى أو غلافه المسمى (بالتامور) وقطعا يشق القلب من الأمراض متى تسمم بالمواد القيحية أو العفنة، ولا ننسى هنا أن نذكر أن مرض الرعاثم والمفاصل بنسبة ٩٠ فى المائة تدخل فى أسبابه أمراض الفم . ففى انكلترا وألمانيا يبدءون فى المستشفيات بعلاج أسنان كل من تقدم إليهم بمرض من أمراض الرعاثم على اختلاف أنواعها . وأخيرا نقول إن كثيرا من الضعف أو النهوكة أو ارتفاع درجة الحرارة أو الحول قد لايكون لها سبب غالبا سوى فساد أسنان المريض وفمه . ولا نذهب بعيدا إذا ذكرنا فى النهاية أن مستشفيات الأمراض العقلية ارتفت فيها نسبة من نالوا الشفاء التام من (٤٢ فى المائة إلى ٨٧ فى المائة) عند مابدءوا يعيرون أسنان المريض وفمه عناية تامة فيعالجونها بالاستئصال والنظافة التامة وما إلى ذلك مما يعرفه أرباب الصناعة . كذلك زادت نسبة الذين تحسنت صحتهم فى المصحات المعدة لمعالجة مرضى التدرن الرئوى (السل) عند ماأخذ الأطباء فى إعارة أسنان المرضى الالتفات المطلوب .

ويجدر بى أخيرا أن أقول بأنه من البديهى أن يكون لقلة وجود الأسنان بالفم أعنى سقوطها أسباب خطيرة لاضطراب عملية المعدة لأن المضغ يصدر إلى المعدة دون أن يكون قد طحن فى الفم طحنا كافيا وبذلك يقل مجهود الغدد المعدية ويصعب عليها أداء الوظيفة على كامل هيئتها فتنشأ الالتهابات البسيطة والتى لاتلبث هذه أن تنقلب إلى حادة . فعلى الإنسان إذن أن لايهمل أمر فمه وأسنانه بل يجب عليه أن يعرض نفسه على الطبيب إذا ماشعر بأقل شيء فان ذلك خير له وأبقى ، فاذا تعهد الانسان فمه بالغسيل وأخرج مايعلق بأسنانه من بقايا الطعام ونظفها جيدا بالفرشة (أو السواك) عقب كل أكل أمن شر كثير من أمراض الفم والأسنان وطرد من فمه أعداء كثيرة لايستهان بها اهـ .

هذه أهم النصائح التى أعلنها أطباء الأمم قديما وحديثا وهى متممات المحافظة على الصحة التى تقدم بعضها فى سورة طه من حيث الطعام والشراب والهواء وهكذا تقدم بعضها الآخر فى سورة الأعراف عند قوله تعالى «وكلوا واشربوا ولا تسرفوا» فقسم المحافظة على الصحة الذى ذكرت لك مجمله هنا لأنتفع به أنا وأنت وكل من قرأ هذا التفسير هو المذكور فى قوله تعالى « الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين » فذكر الخلق وقد بيناه سابقا وقد قلت لك إن الخلق تصاحبه الهداية ، وقلت إن الهداية إما فطرية وإما تعليمية ونحن الآن فى الهداية التعليمية والهداية التعليمية كما قدمنا [قسمان] قسم حفظ الصحة وقد تم الكلام عليها وقسم مداواة المرض . فالهداية فى الطعام والشراب المذكورين فى الآية قد تقدم الكلام عليها وسيأتى بعد استيفاء هذا المقام شرح الأمراض فى قوله تعالى «وإذا مرضت فهو يشفين» .

قد قدمنا أن المحافظة على الصحة تكون بالتعلم والتعليم على [قسمين] تعليم فى متناول كل واحد معرفته وتعليم يختص بتعقله الأطباء ثم الأمة تتبعهم فى ذلك .

﴿ الكلام على التعليم الذى يختص بمعرفته الأطباء ﴾

فلأذكر لك هنا منه [مسألتين : المسألة الأولى] فى بيان أعداء الانسان فى داخل جسمه . وكيف كنا ونحن فى هذه الحياة نجد فى أجسامنا جنودا مجندة داخلة خارجة تصطف صفوفا وتتحارب فى داخل

هيا كلنا ولا علم لنا بها . إن فى ذكر هذا المثال اجمالا وحكمة وبيانا لما جاء فى القرآن من ذكر حفظ القرآن وبيان العجائب فيه وهى دقيقة جدا فكيف يكون جسمى كأنه دولة وفيها آلاف آلاف الجيوش والجنود المجندة وهى (فريقان) فريق معى وفريق على وهذه الجيوش لاتفتأ فى حرب وضرب أمد الحياة فهى فى حركة دائمة ومد وجزر تشابه فى سرعتها سرعة النور والكهرباء التى خلقت منها أجسامنا وأجسام نباتنا وحيواننا «إن الله بكل شىء عليم» «وماعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر» [المسألة الثانية] ما جاء فى قانون الصحة من رسم الدودة الوحيدة ورسم عضلات لحم الخنزير التى تحوى هذه الدودة ورأس الدودة الوحيدة ، وكيف عرف هذا قدماء المصريين قبل نزول القرآن فحرموا أكله بقصة اخترعوها وهذا من أعجب العجائب فى أسرار ديننا الإسلامى .

إن فى هذا القول لحكما بديعة . اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم أريتنا يا ربنا العلم عيانا . حرمت فى القرآن لحم الخنزير فتركه المسلمون وإن لم يتركوا الخمر ، وهل كان يدور بخلد أحد فى العالم أن علماء الأمم الآن يرسمون لحم الخنزير والدودة الوحيدة فيه وهل كان يمر بخلد امرىء فى الأرض أننا نسمع أن أمما قبلنا بآلاف السنين حرمت الخنزير كالأمة المصرية ، وهل كان يخيل لأحدنا أن لله جنودا مجندة تروح وتغدو داخل أجسامنا فنها المهاجمة ومنها المدافعة . اللهم إن هذا توحيد وعلم ثم طب وبه نفهم قوله تعالى «فهو يهدين» فهو كما هدى أناسا بنصيحة الأطباء فغسلوا وجوههم وأيديهم ونظفوا أسنانهم هكذا هدى الأطباء فتوغلوا فى العلم وعرفوا أسرارا هى عينها أسرار الإسلام . إذن فلأذكر لك المسألة الأولى من المسألتين المذكورتين ليشرح صدرك بالعلم والحكمة والطب لحفظ الصحة ، فهاك ماجاء فى إحدى المجلات العلمية فى ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٧ م وهذا نصه :

الوقاية أفضل من المعالجة

(أعداء الانسان)

للدكتور شخاشيرى

أما أعداء الإنسان فهى المكروبات التى إن أصابت الجسم أحدثت فيه مرضا يعرف نوعه من الأعراض والتغيرات التى تبدو على الجسم بسببها ، والأمراض المعدية وأسبابها وطرق الوقاية منها هى التى أتحدث عنها الآن ، وتنتقل هذه الأمراض من المريض المصاب بها إلى السليم إما بواسطة الهواء أو الماء أو الحشرات أو الطعام أو بالملامسة وأسبابها جميعا المكروبات . ولكل مرض مكروب خاص كما أن لكل شجرة فصيلة خاصة وهذه المكروبات صغيرة جدا لاتراها العين المجردة وإنما نرى آثارها وماتفعله فى الأجسام من آلام وتدمير ، وقد يختلف عدد المكروبات فى الهواء الذى نتنشقه باختلاف المكان فاذا كان المكان مزدحما بالناس كان عدد المكروبات فيه كبيرا بسبب إثارتهم للتراب ولهذا السبب يكثر المكروب فى هواء المدن ويقل فى هواء القرى أو إذا كان المكان المأهول بالسكان خاليا من معالم النظافة لا مصلحة الرش والكنس ولا الساكن فيه يبذل جهدا ولو قليلا فى تنظيفه ولا شك أن المكروبات تنمو فيه بكثرة هائلة . وتكثر المكروبات فى الأماكن المنخفضة بنوع خاص لأن الهواء فيها غير طلق كما هو طلق فى الأماكن العالية لأن نور الشمس لا يدخل إلى جميع أجزائها ولذلك تتراكم فيها المكروبات العفنة فتحدث بحسب ميزتها التعفن والتخمر وتنبعث منها رائحة كريهة . وأما فى المياه فتكثر المكروبات فى الراكدة منها كالتى فى البرك وفى الجداول الصغيرة ، ومن الضرورى أن تغلى المياه المشوبة أو المشتبه فى سلامتها من الأدران . وفى التراب توجد مكروبات وفى الأقذار كذلك وعلى جلد الانسان وفى فمه وأمعائه . وإذا علمنا أن المكروبات موجودة فى كل مكان يقيم فيه

إنسان أو حيوان استطعنا أن تصور نطاق هؤلاء الأعداء الواسع وشدة حرصهم على الاشتباك بفريستهم واستعدادهم للفتك بها فى كل ساعة وحين ولكن لحسن الحظ أنه ليس كل هذه المكروبات خطرة أى ليس كل هذه الأعداء تحدث مرضا وإنما فيها ماهو نافع ووجوده لازم وضرورى للحياة الحيوانية والنباتية ولولا هذا الأمر لانعدمت الحيلة فى مقاومتها والتخلص منها .

يخلص لنا مما تقدم أن الإنسان مهدد بأنواع من المكروبات التى تنشأ عنها الأمراض المختلفة وأن للبيئة والعناية بنظافتها شأنا عظيم الأثر فى تقليل هذه الأمراض وإضعافها ، ومن هذا يتبين كم هو لازم أن نعمل بنص القول المأثور (درهم وقاية خير من قنطار علاج) وأن التوقى من داء خير من التعرض له مع وجود مداويه ، وأنت تعلم أن ماتكابده من العناء وتبذله من المال فى سبيل الوقاية من الأمراض لهو أقل بكثير مما عظم قدره من الأكلاف التى تدفعها على التداوى والمعالجة فضلا عن التى يدفعها جسمك ويظهر تأثيرها فى بعض أعضائه ، وإذا تصورت عدوا قادما عليك يريد أن يغتصب منك الذى تملكه من مال ومتاع فهل تنتظره إلى أن يصل إليك ويمد يده إلى متاعك فتنهض للدفاع عن ملكك وكيانك أم تعد عدتك وتستعد للقائه قبل أن يشرف عليك مقدمه ؟ وهل لاترى أنه أسهل عليك بكثير أن تقاومه وتدفع أذاه وأنت مستعد له أكثر منك وأنت على غير استعداد . إن الحيوانات تحسن الدفاع عن نفسها ويخاف الضعيف منها القوى فيها وهى بذلك تساق لغريزتها إلى الدفاع عن حياتها وناموس الطبيعة قائم على قاعدة الأخذ والدفع وبقاء الأصلح والانسان بفطرته الأولى كان يحسن الدفاع عن نفسه ويقى جسمه من تقلبات الجو وطوارئ الحدثان على قدر ماوصل اليه فهمه واختباره وعلى هذه النسبة ارتقت مداركه وأدرك اليوم مالم يكن يدركه من قبل .

وعلم الوقاية من الأمراض أفضل بكثير من علم المعالجة والتداوى ونريد منكم هذا العلم اليوم أن تنشروا لواءه فى كل مكان وترفعوا علمه فى صدر كل إنسان . وأمة تريد أن تحيا سعيدة وأن يكون لها المقام المحترم بين الأمم هى التى تنشىء بنيها على قاعدة صحية سليمة الأساس فتصلح البيئة وتطهرها من جراثيم الأمراض وتقضى على أثر هذه الأمراض فى وسيلة علمية معروفة ، فى تعليمهم كيف يعيشون وكيف يدافعون عن صحتهم من عوادى الأدواء وجيوش المكروبات مرمى سام من أسمى مراميها وغرض جليل من أجل أغراضها وهى : الأمة التى يحق لها أن تعيش وأن يطيب لها العيش . وأنت تعلم أن للجسم أعضاء رئيسية كبرى وثانوية صغرى ولكل عضو منها عمل خاص به كما أن لهذا العضو وظيفة يقوم بها وحده فهو من هذا الوجه حاصل على الاستقلال التام وحظه أوفر من حظ الشعوب الصغيرة التى تنشد الاستقلال وتتغنى به ولكن لاتنس أن استقلال أعضاء الجسم إنما هو استقلال ذاتى فهى تشتغل مستقلة ولكنها فى مجموعها تعمل لمصلحة الجسم كله وأنها تعمل بمفردها لمصلحتها ومصلحة المجموع ولها نظام تحترمه وتريدك أن تحترمه لأن الإخلال به يشوش على ذلك العضو عمله أولا وعلى سائر الأعضاء ثانيا . فإذا أثقلت على معدتك بالأكل الغليظ مثلا والشراب اللذيذ وأكلت من غير نظام ولا ترتيب وبلا انقطاع أى استمررت فى الأكل والشرب من غير أن تحسب أن لهذا العضو الأمين نظاما وأن له قوة محدودة على الهضم وأن له دائرة وحجما لايتعداها وليس فى وسعه أن يتعداهما تكون النتيجة إحداث الخلل فى نظام الجهاز الهضمى والارتباك فى وظيفته وتشعرك المعدة بألم التخمة وتحس بصداع وعسر بالتنفس وتوعك وانحراف ونفور من أهلك ومعارفك وتصبح كأنك بعزلة تامة عن الناس جميعا لايشغلك عن الافتكار بمعدتك أحد منهم .

فقليل من العناية والنظام فى نوع الطعام ومواعيده يقيك من هذا التعب ويدفع عنك أعراض التخمة وتظل معدتك على ولائها لك كما وجدت أن تكون (كذا) ولو اقتصر أضرار الإخلال فى نظام هذا العضو

على ما تقدم فقط لهان الأمر وكانت الاساءة قصيرة المدى وإنما تمتد أضراره إلى أبعد من التخمة والتلبك، وفي الغالب أن من أهمل القاعدة الصحية ولم يكن له نظام صحي في معيشته يكون عرضة لأمراض معدية وخيمة العاقبة عليه، فعليك قبل أن تأكل وتشرب أن تغسل يديك ووجهك وفمك، وبهذا تدفع عنك أخطارا عظيمة الأثر، والذي يهمل هذه القاعدة أهمل النظام كله فيأكل كل ساعة ويشرب دائما لايغسل يديه ولا فمه لاقبل الأكل ولابعده ويسخر منك إن رآك تغسل يديك قبل أن تجلس إلى المائدة فتجد هذا المهمل شاكيا مريضا لأنه في عدم غسل يديه قبل أن يتناول طعامه يرسل مع الطعام بعض للكروبات والجراثيم إلى معدته ومنها تجد هذه الجراثيم طريقها إلى الدم وتبدي إذ ذاك تأثيرها بعد مدة قصيرة، ومن عود نفسه على النظافة أراح جسمه وفكره من مشاق وأهوال لايدركها غير الخبير، وأرجو أن لاتكون اختبرتها بعد ولن تختبرها في مستقبل أيامك.

ولايذهب عن البال أن للجسم جنودا حمراء وبيضاء منوعة، ولهذه الجنود وظائف تقوم بها في أمانة وإخلاص لامزيد عليهما لمستزيد وليس لها غرض من وجودها غير الدفاع عن مجموع الجسم فهي أشبه بالأساطيل السابحة على الماء وبالجنود القائمة على حراسة الأمة وربما يصدر عن هذه الجنود المسلحة بعض التواني والتلكؤ في الواجب الملقى على عاتقها، أما جنود الجسم وأساطيله السابحة في دمه فلا تعرف للتواني معنى وليس للخيانة سبيل إلى عقيدتها فهي تحت السلاح في الخدمة العاملة دائما وفي كل وقت لاهدنة ولاهوادة في عملها. ولنفرض أنك أصبت بجرح في أصبعك فماذا ترى؟ ترى أن هذه الأمينة في حركة غير عادية هي أقرب إلى حركة حرب منها إلى حركة سلم فتشاهدها هاجمة على محل الاصابة خفافا وسراعا تبغى أن ترمم الجرح وترغم أحيانا إن كان الجرح بالغا إلى الخروج منه. ومتى تم لهذه الجنود الكشافة الثبات في محل الاصابة تقدم إلى هذه الساعة لإسعافها جنود أخرى للمناصلة والدفاع عن هذه الساحة ومقاتلة الكروب والجراثيم التي تريد احتلال الجرح وإحداث الالتهابات فيه فتنشب المعركة بين هذه الجنود والكروبات والغلبة تكون للأقوى، كما هو منتظر، فاذا كنت بحالة حسنة تراعي بمعيشتك النظام الصحي فلا خوف على جنودك من الغلبة وإحراز النصر، وإذا كنت تسيء إلى معدتك فتأكل من غير نظام وتشرب غير الماء النقي وتعرض جسمك إلى متاعب غير لازمة فتصيب جنودك الفشل بلاريب.

بعد هذا التمهيد الإجمالي أحدثكم قليلا وفي إيجاز عن بعض الأدواء المنتشرة في القطر ولا سيما في الأرياف وطرق الوقاية منها، وأول هذه الأدواء هو داء الرهقان المنتشر انتشارا هائلا يكاد لايخلو منه بيت من بيوت المدن والقرى والكفور والعزب الريفية فهو عدو لسبعين رجلا وامرأة وفتى وفتاة وطفل وطفلة من كل مائة منهم أي إن سبعين في المائة من ساكني الأرياف مصابون به متألمون، وأسبابه ديدان تدخل الجسم من الفم مع الماء أو مع الطعام فتستقر في المعا الدقيق وتتكاثر فيها وتقاسم المصاب دمه وغذاءه وتسلبه قوته بل حياته اهـ.

فانظر في عجائب صنع الله وتفكر في الحكم الطبية والطبية، واعلم أن التهاون بأمر الصحة ولو في أمر ضئيل يوجب إسراع الداء، فانظر ما جاء عن نفس هذا الطبيب ونصه في ٢٩ مارس سنة ١٩٢٨ م.

الوقاية أفضل من المعالجة أيضاً

داء الكزاز

بينما كان أحمد حسن عبده المقيم في القياس بالروضة آخذا عهلم عمله الذي يميش وأولاده منه عثر بمسمار اخترق باطن قدمه اليمنى حول الإبهام الأكبر مدى ثلاث سنتيمترات فمد يده وهو من الأشداء وانتزع المسمار من قدمه وظل مثابرا على عمله كأنه لم يحدث له شيء إلا أنه شعر بعد مضي خمسة عشر يوما على الحادث أن بمفصل فكه تيبسا وأن هذا التيبس امتد إلى عنقه فأصبح غير قادر على فتح فمه وغير قادر على تحريك عنقه أو تحويل وجهه من ناحية إلى أخرى وعاده الطبيب ووصف له دواء وحقنا ، ولما لم يزل الدواء ولا الحقن مابه من تيبس قصد في اليوم الثاني عيادة طبيب آخر فلم يجده ، وفي اليوم الثالث لظهور الأعراض عاده طبيب آخر وكانت أعراض التيبس أو (داء الكزاز) قد ظهرت على أشدها لا في الفك والعنق فقط بل في سائر الجسم فوصف له الحقن بالمصل المضاد لهذا المرض وحقنه بالوريد أولا وبالمفصل ثانيا ، ولكن إذا انتشر سم الداء في الجسم انتشارا ملك به عليه إرادته في تحريك المفاصل والأطراف قلما يجدي الدواء في مغالبة الداء فقلما تعادل قوة الدواء قوة الداء إذا خسر الجسم المعركة الأولى وفقد أسباب المقاومة والدفاع الكامنة فيه فقضى المرض على أحمد وذهب ضحية إهماله وعدم اكترائه للجرح الوخزي الذي أحدثه المسمار في باطن قدمه وذهب اهتمام أهله وذويه واهتمام الأطباء وما استخدموه من دواء في سبيل إنقاذه ذهبت هذه الآمال والوسائل العلمية أدراج الرياح ، والمرض إذا احتل الجسم احتلالا تاما سد عليه منافذ الرجاء من المعالجة والمداواة وأبعده عن أمنية الشفاء ، وفن الوقاية على صواب في نظريته وصواب في الدعائم القائم عليها نظامه هو يقول لأمثال أحمد الذي ذهب مبكيا عليه من ذويه وأهله تاركا زوجه وأولاده على رحمة الأقدار ، فإن أصابك جرح وخزي من مسمار أو غير مسمار فلا تهمله مهما كان في نظرك بسيطا بل اعرض نفسك على طبيب في الحال وهو يتولى أمره ويدفع عنك خطر هذا المرض والخوف منه ، وأعني بقولي في الحال في الوقت الذي تصاب به بالجرح لا في اليوم الثاني ولا في اليوم الثالث أو الرابع منه .

ها أنت ذا قد رأيت ما جره الإهمال على أحمد من البلاء وأنزل بأهله من الأحزان والأكدار ، فاعمل بنصيحتي أو بالحري بنصيحة علم الوقاية والله يقيك شر الأمراض ويريح جسمك من أوصابها ويبعد عنك وعن أهلك غصة نتائجها والسلام ، وبهذا تم الكلام على المسألة الأولى .

[والمسألة الثانية] وهي أن لحم الخنزير مضر وأنه يحوي الدودة الوحيدة ، وبيان ذلك بالرسم وأن قدماء المصريين عرفوا ذلك ، وإليك ما في تاريخ مصر القديم عنه .

صفحة من تاريخ مصر القديم

(تحريم الخنزير . أصله من الأساطير المصرية)

قال كاتب وجدت الأسطورة التي أترجمها فيما يلي في ورقة مما يسميه علماء الآثار (كتاب الموتى) ومع أنها تصف إحدى المعارك التي حمي وطيسها بين (حورس وست) لم يرد ذكرها فيما كتب عن تلك الحرب على جدران معبد حورس في (ادفو) ولا في موضع آخر خلا هذه الورقة ، على أن الفريضة التي ترسمها هذه الأسطورة كانت تمارس في هذا المعبد فيؤتى بخنزير فيقتل في نهاية احتفال كان يقام هناك لإحياء ذكرى انتصار

حورس على ست وقتله ، ويؤخذ من نقوش فيه أن العادة كانت قبل هذه الفرضة أن يمثل في هذا الاحتفال معارك الحرب فيمثل الملك دور (حورس) ويمثل (ست) رجل من العامة كان يقتل في ختامه .

وواضح أن هذه الأسطورة قد وضعت إذن لإبطال هذه الذبيحة البشرية وكان وضعها في زمن متأخر عن الزمن الذي وضعت فيه الأسطورة التي تضمنت سائر معارك هذه الحرب المقدسة المنقوشة على جدران معبد (ادفو) فلم تكتب معها لهذا السبب . أما كتاب الموتى الذي تؤلف هذه الأسطورة أحد فصوله فمجموعة صلوات وأناشيد وتعاويذ وشذرات من قصص الآلهة وهي في اعتقاد الأقدمين أحراز تقي من عذاب الآخرة فاذا كان لأحدهم ميت فإما أن يضع الحرز معه أو يكتبه على الكفن الذي يلف به لهذه الغاية ومن ذلك تسميتها بكتاب الموتى والاسم حديث استحدثه علماء الآثار أولوا الفضل في جمع هذه الأحراز ومراجعتها وترجمتها . أما اسمها القديم فهو (فصول في التقدم نحو اليوم) أي يوم الدين ، وفي هذا الاسم إشارة غير خافية إلى فائدتها عندهم .

﴿ أسطورة الخنزير الأسود ﴾

(حورس) و (ست) خصمان يتربص أحدهما بالآخر الدوائر من فرط العداوة والحقد وكانت الحرب بينهما سجالا بيد أن الآلهة كانت في صف (حورس) وتلك العداوة لأنهما على طرفي نقيض . أما (ست) فخب مخاتل يعتمد في الحرب على الخديعة أكثر من اعتماده على الشجاعة والجرأة بفنون القتال فتراه يلبس لكل حالة لبوسها ويتشكل بالشكل الذي يراه قمينا بأن يضلل الناس والآلهة على السواء . وأما حورس فلم يكن كذلك حاشا له أن يغش أو يكون من الكاذبين ، إنه على صراط مستقيم ، الحق والاستقامة من أخص صفاته : عيناه الزرقاوان لوح مسطور حسب المرء أن ينظر فيهما ليكشف المستور ويعرف المستقبل ، من أجل ذلك يهرع إليه الناس والآلهة جميعا ليلتمسوا عنده علم ما سيكون ، علم ست مرة أن سيجتمع (رع بحورس) للتشاور في بعض الشئون وألفى ست الفرصة قد سنحت ليضرب حورس ، وكان من تدبيره لذلك أن اتخذ هيئة خنزير أسود بلون الفحم ذي أنياب حادة طويلة شرس هائل المنظر يلقي الرعب في قلوب الرجال ، وأقبل (رع) على (حورس) وخاطبه فقال (دعني أقرأ في عينيك ما سيكون) ونظر في عينيه اللتين لونهما كلون البحار حينما يكون الفصل صيفا والسماء صافية مشرقة بالنور وبينما هما في ذلك ظهر الخنزير ومر حذاءهما لكن غم عليهما أمره فلم يفطن (رع) أنه إله الشر وصاح وهو مأخوذ بروعة منظره انظر هذا الخنزير الأسود أنا ما رأيت قط أضخم منه جثة أو أشرس منظرا ، تلفت (حورس) ليراه فما وقع بباله هو كذلك ، إن صاحب هذه الهيئة المنكرة هو (ست) لكن حسبه خنزيرا بريا من أدغال الأرض الشمالية وفي هذه الفترة وحورس غافل عن عدوه تهيأ (ست) فنفخ عليه نارا أصابته في عينه فصرخ من الألم وتملكه الغيظ فصاح (قد قذف على ست نارا أصابتني في عيني) وكان ست قد حمل نفسه بعيدا واختفى الخنزير الأسود عن الأنظار ولعن (رع) الخنزير من أجل (ست) وقال (ليكن الخنزير نجسا ومكروها لحورس) والناس إلى هذه الأيام كلما بلغ البدر التمام يذبحون الخنزير تشفيا لأن (ست) عدو (حورس) وقاتل أوزريس اتخذ هيئته ليلحق الأذى بالإله ذي العينين الزرقاوين ، ولهذا السبب يعتبر رعاة الخنازير في أرض مصر أنجاسا لا يؤذن لهم في دخول المعابد ولا تقبل منهم قرابين للآلهة ولا يسمح لأولادهم أو بناتهم أن يتزوجوا من المتعبدين لله المخلصين له العبادة .

هذا ما جاء عن قدماء المصريين بالمقطم في ١٤ أكتوبر سنة ١٩٢٨ فانظر ما جاء في كتاب (قانون الصحة) ونصه :

الأغذية المتعفنة أو المتحللة خطرة جدا ولا تصلح في الغذاء، وذلك كلحم الحيوانات المصابة بالدرن لأنها

قد

قد تسبب الإصابة بهذا المرض عند الإنسان . وكذلك لاينبغى استعمال الخضر قبل غسلها خوفا من أن تحمل إلينا بعض بيض الديدان كبيض الدودة الوحيدة (انظر شكل ٧ وشكل ٨ وشكل ٩) والطبخ فى أوان من نحاس قذرة يحدث التسمم ويكون ذلك مصحوبا بقىء ومغص وإسهال . وطبخ الأغذية مع الخل فى أوان من الرصاص يسبب التسمم بالرصاص اه .

(شكل ٧ — عضلات من لحم الخنزير محتوية على أكياس الدودة الوحيدة)



(شكل ٨ — رأس الدودة الوحيدة)



(شكل ٩ — (التريشين) ، ديدان لحم الخنزير)

﴿ إشراق النور الإلهى فى هذا التفسير وإنارة الله تعالى فيه إذ أنه نور السموات والأرض ﴾

فى هذا التاريخ ضحى يوم الثلاثاء ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٢٨ م بعد أن كتبت هذه المقالة ومعها رسم لحم الخنزير والدودة التى تعيش فيه خرجت من المنزل فشاهدنى فى نفس الشارع الذى أسكنه وهو شارع زين العابدين أحد الاخوان فأسرع جريا مشيرا إلىّ ينادينى يافلان يافلان فوقفت وسلمت عليه فقال اسمع اسمع ، هنا أمر عجيب فى القرآن والاسلام . فقلت وماهو يرحمك الله ؟ فقال ماذا تفهم فى حديث «فر من المجذوم فرارك من الأسد» فتذكرت أن بعض محررى الجرائد المصرية الكبرى فى مصر مرة قال لى [إن الفرنجة قد وجدوا أن الحيوان المكرسكوبى الذى يحدث الجذام فى الانسان مخلوق على شكل الأسد] ولكنى لم أرد أن أقول له هذا المعنى لأنى لم أره فى كتاب ولم أسمعه من طبيب مطلع ، فأجبته قائلا وماذا أصنع بفهمى فى مثل هذا الحديث أنا لاأعرف فيه شيئا. قال إذن أقص عليك قصصا عجيبا. ذلك أن رجلا عظيما من ضباط الجيش المصرى الذى هو أركان حرب فيه مع عرابى باشا أيام الحرب مع الإنجليز كان له تاريخ عجيب إذ اختلف مع الضباط فى الاستحكامات العسكرية وظهر صدقه وهو من أمهر الرجال العلماء العسكريين الذين تعلموا فى أوروبا وقد ظهر فى البلاد المصرية الطاعون بعد دخول الانجليز فكان مما استعملته الحكومات لدفع الخطر عن البلاد أنها أحضرت أطباء من ألمانيا، ولما كان هذا الضابط (وهو قاسم بك الهلالى) ممن يعرفون لغات كثيرة قابلهم وأنس بهم وتحدثوا فى أمور الطب التى هم قادمون لأجلها فجرى فى المجلس العدوى بمرض الجذام ، فقال طبيب ألمانى إن حديث « فر من المجذوم فرارك من الأسد » لما اطلع عليه الأطباء عندنا أخذوا يبحثون لماذا عبر النبى العربى صلى الله عليه وسلم بالأسد ولم يعبر بكلمة أخرى مثل أن يقول فرارك من النار أو من السيل

ومن ، وبعد ذلك فوضعوا تلك الذرات التي تخلق في جسم المجذوم تحت النظار المعظم فوجدوها على صورة الأسد ، هذا علماؤنا النبي العربي ﷺ فلما سمعت هذا عجبت لماذا أحد محدثي بهذا الحديث ينادني من بعيد حتى استمعني ثم لماذا قص على هذا القصص الآن ، ولماذا لم يكن إلا في هذا اليوم وفي هذه الساعة بعد كتابة موضوع لحم الخنزير الذي هو معجزة لنبينا ﷺ والقرآن تبياناً لقوله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » فلماذا يكون النص على لحم الخنزير في القرآن دون غيره ؟ ولماذا يحرمه قدماء المصريين ؟ وهنا نقول أيضاً كما روينا عن علماء الألمان لماذا خصص النبي ﷺ مرض الجذام بالأسد ، فرأيت أن أثبت هذا هنا اعترافاً بنعمة الله تعالى واعترافاً من كوثر علمه وباهر حكمته وبديع تبيانه وسابغ رحمته والحمد لله رب العالمين . انتهى الكلام على المسألة الثانية وبها تم القول في أمر حفظ الصحة التي هي أفضل من المعالجة في تفسير قوله تعالى « الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين » .

ها نحن أولاء عرفنا جمال الله عز وجل وحكمته في الحيوان وأنه درجات وفي الإنسان وأنه أرقى ورأينا العلم يبتدئ في الحيوان وينتهي في الإنسان وأن هذا الأخير تعاطى ماحوله من نبات وحيوان وغيرهما فأكل ولبس وشرب ثم ظهر فيه أطباء استخرجوا بواطن الأشياء كما عرفوا ظواهرها ، أمروه بغسل جسمه والمحافظة عليه وتنظيفه ، ثم درسوا له جسمه وأجسام الحيوان فرأوا مالم تره أمم قبلنا من جيوش مدججات بالأسلحة متقاتلات ثم أروه الدودة الوحيدة في الخنزير الذي حرم الله أكله على الناس وبهذا ظهر أن دين الإسلام هذا وقت ظهور عجائبه بل هو دين الحب العام والعلم العام وأن حصر أفكار المسلمين في علوم الفقه في القرون المتأخرة بعد العصر الأول يظهر لي أنه كان عقاباً من الله لهم لما شره ملوكهم على حطام الدنيا وتركوا وصايا القرآن فحبسهم الله في قضايا البيوع والميراث و[illegible]حرات والحيض والنفاس وقال أيها المسلمون قد أنفذت قضائي فيكم لأني أرسلت نبي محمداً ﷺ لينقذ الناس من الضلال وتعاليمه قد جاوزت حدود الصين ودخلت أوروبا والكتب القديمة رجمت . ولما علمت أن المتأخرين منكم لايصلحون لاصلاح عبادي أرجعتكم من أوروبا إلى الأقطار الأخرى وألهمت الأمم الأخرى أن حمل العلم عنكم فرقوه بأمري وأرجعت العلم الآن لكم من بلاد الغرب فطلعت شمسه من مغربها فهل أنتم منتهون ؟

اللهم إن هذا التفسير وأمثاله التي توحي المسلمين بها [illegible]وم سترجع هذه الأمة إلى سيرة السلف الصالح ويحيون الأرض بعد موتها « وإلى الله عاقبة الأمور » فلتنتشر [illegible]وم مبادئ علوم الدين الاسلامي في هذا التفسير فالنهضة قائمة والأمة مستيقظة وعين الله ترعاه « ألم نشرح لك صدرك » ولنختم الكلام في هذا القسم أي قسم حفظ الصحة ولنشرع في القسم الثاني وهو المعالجة لتفسير قوله تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » .

فاعجب لقوله تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » هو قول «فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين» ويذكر في ذلك لفظ « إذا » أما الشفاء فجعله معلقاً على الشرط وهذا من النكت اللطيفة لأن الأطباء حكموا أن تعاطي الأدوية أمر اضطراري كاستعمال السلاح لطرد العدو ، ومن الحرج والجهل أن تترك أبواب الحصون في المدن حتى يلج منها العدو ويدخل ثم نحارب داخل البلاد ، فهذه هي حال المحافظة على الصحة ، فإذا حافظنا على صحتنا ثم رأينا مرضاً لم نقدر على الاحتراس منه هنالك نستعمل العقاقير . أما ذلك الذي يشرب المسهل لكل طارئ ويتعاطى المقويات ويشرب التبغ والقهوة والشاي والكاكاو كما تقدم في (سورة طه) وغيرها فهؤلاء ملومون يخربون أجسامهم بأيديهم ويفتحون حصون مدنهم لأعدائهم جهالة ، فهذا معنى قوله تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » معبراً [illegible]

(الكلام على مداواة المرض وهو القسم الثانى من تفسير الآية)

لقد وعدت فى (سورة طه) أن أذكر لك ما استحسنته مما جمعه الزعيم الهندى (مهاتما غندى) الذى نشره «المنار» فى الجزء (٢٦) و (٢٧) من [مجلة المنار] ونشر فى كتاب وحده وهذا نصه :

﴿ الباب الأول : العلاج بالهواء ﴾

قد فرغنا الآن من البحث فى أساسات الصحة وأصولها وكذلك عن طرق صيانتها والمحافظة عليها ولو أن جميع الناس رجالا ونساء يخضعون لقوانين الصحة ويتمسكون بالتجرد التام لاتبقى أى حاجة للأبواب الآتية لأنهم يكونون فى مأمن من جميع الأمراض والأوصاب سواء فى أجسامهم أو عقولهم ، ولكن أين نجد هؤلاء الناس ؟ وأين الذين لايصابون بالأمراض ، وعلى كل فإنا كلما اعتنينا بالتمسك بالأصول التى دونت فى هذا الكتاب فالأغلب أننا نسلم من الأمراض ولكن إن أصابنا مرض يجب أن نعالجه باهتمام والأبواب الآتية تبين كيفية العلاج بدون الاستعانة بالطبيب ، إن الهواء النقى كما هو لابد منه لصيانة الصحة كذلك لاغنى عنه فى معالجة الأمراض ، فالمصاب بالنقرس مثلا إذا عولج بالبخار الساخن يعرق بكثرة وتلين أعصابه وتسترخ مفاصله ، وهذا القسم من علاج البخار يسمى (الاستحمام التركى) .

ومن كان يشكو حمى شديدة فليجرد من ملابسه ويلق فى الهواء الطلق تنزل الحرارة حالا ويشعر براحة بينة وعند ما يحس بالبرد يلف فى ثوب فيعرق حالا وتزول الحمى سريعا ، ولكن مانفعله عادة هو على عكس ذلك تماما حتى إنا نمنع المريض من البقاء فى الهواء الطلق ولو أراده بنفسه ونغلق عليه جميع أبواب حجرته ونوافذها ونغطى جميع جسده مع رأسه وأذنيه باللحف والأغطية فتكون النتيجة أن المريض يجزع فيزداد ضعفا عن مقاومة مرضه ، ينبغى أن نفهم أنه إن كان سبب الحمى شدة الحر فالعلاج بالهواء الذى ذكر آنفا غير مضر أصلا ويشعر بتأثيره حالا ، نعم يجب الاحتراس لئلا تأخذ المريض القشعريرة فى الهواء الطلق . فإن كان لايستطيع البقاء عاريا يجوز تغطيته جيدا بالدثار ، إن تغيير الهواء علاج مفيد للحمى المزمنة وغيرها من الأمراض ، فالعادة العامة التى جرت بتغيير الهواء ليست إلا عملا بأصول العلاج الهوائى ، وكثيرا ما نغير محل إقامتنا متوهمين أن البيت الذى تعاوده الأمراض محل الأرواح الشريرة ، وهذا وهم محض .

إن الأرواح الشريرة الحقيقية فى مثل هذه الأحوال إنما هى الهواء الفاسد فى داخل البيت ، إن تغيير البيت يتبعه تغيير الهواء وهذا هو الذى يدفع المرض ، إن العلاقة بين الصحة والهواء قوية جدا حتى إن التغيير القليل له يؤثر حالا تأثيرا رديئا أو حسنا ، يستطيع الأغنياء أن ينتقلوا إلى أماكن بعيدة وأما الفقراء فكذلك يستطيعون الانتقال من قرية إلى قرية ، أو على الأقل من بيت إلى بيت بل إن تغيير حجرة بحجرة فى البيت نفسه كثيرا ما ينفع المريض نفعا محسوسا ولكن تجب مراعاة الأحوال ليكون للتغيير نفع حقيق فالمرض الذى سببه الهواء الرطب مثلا لايمكن علاجه بالانتقال إلى محل رطب ، وبما أن الناس لايهتمون بمثل هذه الاحتياطات البسيطة الاهتمام الكافى لذلك لايجدى تغيير الهواء نفعا فى أكثر الأحيان .

﴿ الباب الثانى : العلاج بالماء ﴾

إن الهواء غير منظور فنحن لاندرك تأثيره العجيب ولكن عمل الماء وتأثيره الصحى يمكن إدراكه وفهمه بسهولة ، يعرف جميع الناس شيئا من استعمال البخار وسيلة صحية فكثيرا ما نستعمله فى الحميات ونعالج به وحده الصداع الشديد . وكذلك المصاب بالوجع الروماتيزمى فى المفاصل يشعر بالراحة السريعة عند استعمال البخار واتباعه استحماما باردا ، والدمامل والقروح لاتبرأ بمجرد وضع المرهم أو الدهان عليها ولكنها تشفى تماما باستعمال البخار ، ثم إن الاستحمام الحار أو الاستحمام بالماء الحار يتبعه مباشرة الاستحمام

البخاري مفيد جدا فى التعب الشديد . وكذلك النوم فى الهواء الطلق بعد الاستحمام البخاري يصحبه استحمام بارد نافع جدا فى الأرق . إن الماء الساخن يصح استعماله دائما كبدل للبخار . وإذا أصيب الانسان بوجع شديد فى بطنه يشفيه حالا تدفئة البطن بقنينة مملوءة بماء مغلى توضع فوق قماش غليظ على البطن . وإذا ما أريد التقيؤ يمكن ذلك بشرب كمية وافرة من الماء الساخن ، إن الذين يشكون الامساك يستفيدون كثيرا بشربهم كوبة من الماء الساخن إما وقت النوم فى الليل أو بعد تنظيف الأسنان صباحا مباشرة .

إن سير (جوردج سبريج) قد عزى صحته الجيدة إلى تعوده شرب كوبة من الماء الساخن يوميا قبيل النوم فى الليل وبعد اليقظة صباحا . إن كثيرا من الناس لاتلين معدتهم إلا إذا شربوا الشاى صباحا فيعتقدون حمقا أن الشاى هو الذى أحدث هذا التأثير مع أن الشاى وحده مضر فى الحقيقة وإنما الذى أثر هذا التأثير هو الماء الساخن فى الشاى فهو الذى يلين المعدة ويزيل الامساك .

قد اخترعت أرجوحة تستعمل عادة للاستحمام البخاري ولكنها ليست ضرورية جدا بل يصح أن يوقد وابور من الاسبرتو أو الغاز أو كانون من الوقود أو الفحم تحت كرسى اعتيادى من الخيزران ويوضع فوق الوقد قدر مملوء بالماء مغطى بغطاء ويشر فوق الكرسى رداء أو دثار بحيث تنزل أطرافه إلى الأمام لتق المريض من حر النار ثم يقعد المريض على الكرسى ويلف فى رداء أو دثار وعند ذلك يرفع غطاء القدر بحيث يكون المريض معرضا للبخار الذى يتصاعد منه ، أما ما تعودناه من تغطية رأس المريض فهو احتياط غير ضرورى إذ حرارة البخار تتصاعد من طريق الجسم إلى الرأس وتسبب عرقا كثيرا فى الوجه وإن كان المريض ضعيفا جدا بحيث لايستطيع القعود حينئذ يصح أن يضجع على سرير ذى فتحات وفرجات ولكن يحترس أن لايذهب شىء من البخار سدى ، وكذلك كما لايخفى يجب الاحتياط لئلا تصل النار ملابس المريض أو دثاره ، وكذلك تجب المراعاة التامة لحالة صحة المريض لأن استعمال البخار بدون مبالاة يخشى منه الخطر أيضا ، إن المريض لابد من أن يشعر بضعف بعد هذا الاستحمام البخاري ولكن ضعفه لايلبث أن يزول ، إن الإكثار من استعمال البخار يضعف البنية على كل حال ولذلك لاينبغى أن يستعمل إلا لضرورة شديدة والبخار كما يستعمل للجسد كله كذلك يصح استعماله لجزء خاص منه ، فمثلا إذا استعمل فى الصداع فلا احتياج إلى عرض سائر الجسم له بل يوضع الرأس وحده فوق قدر صغير الفم مملوء بماء فائر ويلف عليه قماش ثم يستنشق البخار بالأنف لتصاعد إلى الرأس . وإذا كانت المناخر مسدودة فهى تنفتح بهذا العمل وهكذا إن ورم عضو من الجسم فهو وحده يعرض للبخار .

قليل من الناس يعرفون القيمة الصحية للماء البارد مع أنه فى الحقيقة أنفع فى هذا الباب من الماء الساخن ويمكن أن يستعمله حتى أضعف الناس بنية ، فالتلفف بثوب مبلول بالماء البارد نافع جدا فى الحمى والجدرى والأمراض الجلدية ويمكن لجميع الناس استعماله بدون أدنى خطر . إن الدوار والهتر (جنون الحمى) يمكن دفعه حالا بلف ثوب مبلول فى ثلج مذاب على الرأس ، والذين يشكون الإمساك ينفعهم جدا لف ثوب مبلول بثلج مذاب على البطن لحين من الزمن ، وكذلك يمكن منع كثرة الاحتلام فى أكثر الأحيان بهذه الطريقة نفسها . إن نزف الدم من أى عضو كان يمكن منعه باستعمال ثوب مبلول بماء بارد مثلج . وكذلك الرعاف يمنع بصب الماء البارد فوق الرأس . إن أمراض الأنف والزكام والصداع يمكن معالجتها باستنشاق الماء البارد من الأنف ويمكن استنشاقه بمنخر وإخراجه بمنخر آخر أو يستنشق بمنخرين معا ويخرج من الفم ، ولاضرر من وصول الماء إلى المعدة إن كانت المناخر نظيفة ؛ إن هذه أحسن طريقة لجعل المناخر نظيفة دائما وأما الذين لايستطيعون استنشاق الماء بالمناخر فيجوز لهم أن يستعملوا الحقن ولكنهم يتعلمون بسعى قليل كيف

الاستنشاق بسهولة بل يجب على جميع الناس أن يتعلموها لأنها سهلة ونافعة جدا للصداع والرائحة الخبيثة في الأنف وكذلك لإزالة الأوساخ في مجرى الأنف .

يخاف كثير من الناس من استعمال الحقنة بل زعم بعضهم أن الجسم يضعف به ولكن هذه المخاوف ليست إلا وهمية ليس هناك طريقة للاسهال القوي أكثر تأثيرا من هذه الطريقة وقد ثبت نفعها العظيم في كثير من الأمراض حينما لم نجد غيرها من المعالجات . ولا عجب فهي تنظف الأحشاء تماما وتمنع تراكم المواد السامة فيها ، إن الذين يتأذون من الأوجاع الروماتزمية أو سوء الهضم أو الأوجاع من سوء حالة الأحشاء الصحية ينبغي لهم أن يحقنوا برطلين من الماء فيرون تأثيره السريع القوي : قال أحد الكتاب في هذا الموضوع إنه كان يشكو مرة سوء هضم مزمن واستعمل جميع الأدوية سدى وعبثا فنحل جسمه بذلك ، ولكن حقنة الماء ردت إليه شهية الطعام وشفته من دائه في ضمة أيام حتى إن بعض الأمراض مثل اليرقان يمكن معالجتها باستعمال حقنة الماء . إن الذي يستعمل الحقنة أحيانا كثيرة يجب أن يستعمل الماء البارد لأن الماء الحار ربما يضعف البنية بتكراره . إن الدكتور الألماني (لويس كوهن) قد حكم أخيرا بعد التجارب المتوالية بأن العلاج المائي نافع في جميع الأمراض . وقد نالت كتبه في الموضوع قبولا عاما حتى إنها ترجمت إلى جميع لغات العالم تقريبا ، ومن جملتها بعض اللغات الهندية . قال هذا الدكتور [إن البطن هو بيت الأدواء كلها ، فإذا كثرت الحرارة في البطن كثرة زائدة تجلت على الجسم في صورة الحمى والروماتزم والقروح والبثور وغيرها من الأمراض ، إن منافع العلاج المائي قد عرفها قبل (كيوهن) بكثير أناس عديدون ولكنه هو أول من قال بأنه أصل مشترك لجميع الأمراض . لسنا بمجبورين على أن نسلم بآرائه كلها على علاتها ولكن الحقيقة التي لامراء فيها هي أن أصوله وطرقه قد ثبت نجاحها في كثير من الأمراض وإني أذكر لك مثالا واحدا من أمثلة كثيرة قد اختبرتها بنفسي وذلك في مصاب بروماتيزم شديد جدا فقد حصل له الشفاء التام بطريقة (كيوهن) بعد أن خابت جميع المعالجات الأخرى] .

قال الدكتور كيوهن [إن حرارة البطن تزول باستعمال الماء البارد] وعلى ذلك أكد غسل البطن وما حوله من الأعضاء بماء بارد جدا . ولتسهيل الغسل قد اخترع نوعا خاصا من المغاسل من الصفيح ولكنها ليست بلازمة ، إذ قصاع الصفيح الهلالية الشكل في مقادير مختلفة لأناس مختلفي القامات التي تباع في أسواقنا تقوم مقامها تماما . يجب أن يملأ ثلاثة أرباع من القصعة بالماء البارد ويجلس فيها المريض بهيئة تبقى معها رجلاه وجسمه الأعلى خارج الماء ويبقى وسطه من الفخذ إلى مافوق البطن في داخله ، والأحسن أن تسند الرجلان على كرسي قصير ويجلس المريض في الماء عاريا بالمرة وإن كان يحس ببرد يغطي رجليه وجسده الأعلى برداء وإن لبس القميص فليبق القميص خارج الماء بالمرة . يجب أن يكون هذا الغسل في مكان طلق حيث يكثر الهواء النقي والنور ثم يفرك بطنه بنفسه أو غيره بخرقة خشنة من خمس إلى ثلاثين دقيقة أو أكثر فيرى نفع هذه العملية حالا في أكثر الأحوال . ففي الروماتيزم مثلا يأخذ الريح في الخروج حالا في صورة الجشاء وغيره . أما في الحمى فتنزل الحرارة درجة أو درجتين وتنظف الأحشاء بهذه العملية تماما ويزول التعب ، وإن كان يشكو الأرق يحل محله النوم ، وإن كان النعاس والارتخاء يأخذ مكانه اليقظة والنشاط . لاتعجب من اختلاف النتائج لأنه ليس في الحقيقة أمرا عجيبا كما يظهر وذلك لأن قلة النوم وكثرته علتهما واحدة وكذلك الدوسنطاريا والإمساك اللذان هما نتيجة لسوء الهضم يعالجان بنفس هذه الطريقة ، والبواسير المزمنة يمكن معالجتها أيضا بهذا الاستحمام مع ترتيب حسن في الغذاء ، والذين يشكون كثرة البصاق الدائم يجب أن يسرعوا حالا إلى هذا العلاج ، وكذلك المصابون بالضعف يتقوون بهذه الطريقة وقد نولج بها

حتى الروماتزم المزمن فتشفى تماما وهو كذلك علاج مؤثر فى النزف الدموى والصداع وقد قال عنه (كبوهن) إنه علاج ثمين حتى للسرطان والحامل التى تستحم هذا الاستحمام بنظام تجد الوضع سهلا ، والحاصل أنه يمكن لجميع الناس بدون استثناء فى العمر والجنس الاستفادة به ، وهنالك نوع آخر من الاستحمام يسمى (ويت . شيت . باك) وهو علاج نافع دائما للأمراض المختلفة وطريقته كما يأتى : يوضع سرير أو كرسى يمكن نوم المريض فيه براحة تامة فى هواء طلق وينشر فوقه نحو أربع بطانيات كبيرة بتدلى طرفاها من جانبيه أو أكثر أو أقل حسب حالة الجو وتنشر فوقها ملاءتان يضاوان مغموستان فى الماء البارد وتوضع المخدة تحت البطانيات فى طرف من السرير وعند ذلك يجرد المريض من ثيابه إلا إزار صغير فى وسطه إن كان يريده وينام على الملاءتين مع بسط يديه حذاء جنبيه وعند ذلك تلف الملاءتان ومن فوقهما البطانيات على جسمه مع الاعتناء برفع الأطراف النازلة جهة الرجل حتى تغطيها جيدا ، وإن كان المريض متعرضا للشمس يوضع ثوب مبلول فوق رأسه ووجهه مع ترك الأنف مكشوفا دائما فيشعر المريض فى أول الأمر ببعض القشعريرة ولكنها لا تلبث أن تزول ويحل محلها الشعور بحرارة لذيذة فيبقى فى هذه الحالة من خمس دقائق إلى ساعة أو أكثر وبعد مدة يتصبب العرق من جسمه ويغرق هو فى النوم فى أكثر الأحوال، وعقب خروجه من هذه اللفائف يجب أن يغتسل بالماء البارد وهذا علاج ناجح للجدرى والحمى والأمراض الجلدية مثل الجرب والقوباء والنفاطات والدمامل حتى إن أقبح أنواع الحصبة والجدرى يشفى به تماما ويمكن لسائر الناس أن يتعلموا بسهولة استحمام (ويت . شيت . باك) بأنفسهم ويصفوه لغيرهم وهكذا يرون بأنفسهم تأثيره العجيب، وبما أن الدنس كله ينتقل من الجسم إلى الملاءة السفلى الملاصقة للبشرة يمتنع أن تستعمل ثانيا بدون غسلها جيدا فى ماء فاتر .

لا احتياج إلى التذكير بأن الفائدة التامة من هذه الاستحمامات لا يمكن أن تحصل إلا بعد مراعاة الأصول التى ذكرت فى أبواب الغذاء والرياضة وغيرها مراعاة تامة فإن كان المصاب بروماتزم مثلا يستحم استحمام (كبوهن) أو استحمام (ويت . شيت . باك) ولكن يأكل غذاء رديئا ويعيش فى هواء فاسد ويعرض عن رياضته فلا ينال أى فائدة من الاستحمام . إن المراعاة التامة لجميع قوانين الصحة هى التى تجعل العلاج المائى نافعا ناجحا بلا ريب وإلا فلا .

﴿ الباب الثالث : العلاج بالتراب ﴾

نشرع الآن فى بيان الخواص الصحية للتراب الذى نعده أكبر من الماء فى بعض الأحوال . لا ينبغى لنا أن نتعجب من خواصه لأن جسمنا نفسه مركب من عناصر أرضية وفضلا نحن نستعمل التراب للتطهير فنغسل به الأرض لنزيل الروائح الخبيثة منها ونغطى به الأشياء المتعفنة لنمنع فساد الهواء وننظف به أيدينا ، وكذلك نستعمله لتنظيف أوانى المراحيض .

إن رهبان الهندوس يلطخون به أجسامهم ويعالج به بعض الناس القروح والبثور وتدفن الأموات فيه لئلا يفسد الجو . كل هذا يثبت جليا أن فى التراب كثيرا من الخواص الثمينة للتطهير والعلاج . وكما أن الدكتور (كبوهن) بذل جهده الخاص فى موضوع العلاج المائى كذلك الدكتور الألمانى الآخر قد تفرغ لدرس التراب وخواصه وقد توسع حتى قال بأن التراب يمكن استعماله بنجاح فى معالجة جميع الأمراض حتى أشدها وأعقدها ، وقد حكى عنه أنه قال [لسع ثعبان رجلا فيئس الناس من حياته ولكنى داويته بأن واريته فى التراب مدة من الزمن فزال السم من جسده وشفى تماما] .

ليس لنا أن نطعن فى صدق الدكتور لأننا نعلم أن حرارة شديدة تتولد فى الجسم إذا دفن الإنسان

والأرض وإنا وإن كنا لانستطيع بيان تولد التأثير تماما لايمكن أن ننكر أن في التراب خاصية جذب السم، أجل قد لاتنجح هذه الطريقة في كل حادثة اللسوع ولكن يجب حتما تجربتها في كل حادثة وأنا أستطيع أن أقول بتجربتي الشخصية إن استعمال الطين في مثل حوادث لدغ العقرب نافع جدا .

قد جربت بنفسي الأشكال الآتية للعلاج الترابي وبحثت فيها ، فالامساك والدوسنطاريا ووجع المفاصل المتأصل قد عالجته باستعمال لبخة من الطين فوق البطن يوميا مدة يومين أو ثلاثة أيام وقد تحقق النفع العاجل في حوادث الصداع باستعمال ضمادة طينية تشد على الرأس ، وكذلك قد عولجت العيون المتهيجة بنفس هذه الطريقة فشفيت .

إن الاصابات سواء كانت متورمة أو غير متورمة تعالج كذلك بها ، وإني قد كنت في حياتي الماضية السوداء لا أستريح بدون المواظبة على استعمال ملح الفاكهة (فروت سالت) وما شاكله من المسهلات ولكني منذ علمت في سنة ١٩٠٤ قيمة العلاج الترابي لم أستعمل أي مسهل ولا مرة واحدة إلى الآن .

إن لبخة طينية فوق البطن والرأس تنفع كثيرا في الحمى الشديدة وإن الأمراض الجلدية مثل الدمامل والقروح والقوباء والحرق بالنار أو الماء الحار قد عولجت بالطين أيضا إلا أن القروح المتقيحة ذات الصديد لاتشفى به بسهولة وكذلك البواسير تعالج بنفس هذا العلاج، وإذا احمرت الأيدي والأقدام وتورمت بسبب البرد فالطين علاج نافع جدا لها وكذلك وجع المفاصل يزول به، فبهذه وغيرها من التجارب في العلاج الترابي قد علمت أن التراب عنصر مفيد للعلاج البيتي للأمراض .

نعم إن جميع أنواع التراب ليست بنافعة على سواء . فالتراب الجاف الذي حفر في مكان نظيف يكون أنفع بكثير من غيره . لاينبغي أن يكون التراب لزجا جدا بل أحسنه ما كان بين الرمل والأملس ويجب أن يكون خاليا من الروث والقذر فيصفى جيدا في غربال نفيس ويعجن بماء بارد عجنا جيدا قبل الاستعمال ، ثم يربط في قماش نظيف غير مكوي ويستعمل كلبخة غليظة ، ويجب رفعها قبل أن يأخذ الطين في اليبس وهو لايتجفف في الأحوال العادية من ساعتين إلى ثلاث ساعات .

إن الطين الذي استعمل مرة لايستعمل بعد ذلك أبدا ولكن الثوب المستعمل يصح استعماله ثانيا بعد أن يغسل جيدا ليتنظف من الدم وغيره من المواد الوسخة، وإذا أريد استعمال اللبخة على البطن يوضع فوقه قماش دافئ .

يجب على جميع الناس أن يبقوا عندهم صفيحة من التراب المجهز للاستعمال لئلا يضطروا إلى البحث عنه هنا وهناك عند الحاجة إليه وربما تفوت الفرصة في حوادث مثل لدغ العقرب التي يؤدي التأخير فيها إلى خطر شديد .

﴿ الباب الرابع : الحمى وعلاجها ﴾

لننظر الآن في بعض الأمراض الخاصة ونبحث في طرق علاجها وأولها الحمى . نحن نطلق كلمة (الحمى) على حالة للحرارة في الجسم غير أن أطباء الافرنج قد نوعوا هذا الداء على أنواع كثيرة وخصصوا لكل منها علاجا ولكنا نظرا للخطة التي سلكناها في هذا الكتاب والأصول التي دوناها فيه نقول إن أنواع الحمى كلها يمكن معالجتها بعلاج واحد وبطريقة واحدة . لقد جربت هذا العلاج الساذج في جميع أنواع الحمى من أخفها إلى أشدها مثل الطاعون الغددي وحصلت على نتائج حسنة عامة فقد انتشر هذا الطاعون سنة ١٩٠٤ بين الهنود في أفريقية الجنوبية وقد كان فظيعا للغاية حتى إن (٢٣) إصابة حدثت قد مات بها (٢١) نفسا خلال (٢٤) ساعة . أما الاثنان اللذان بقيا فقد أرسلا إلى المستشفى ولكن لم يسلم منهما إلا واحد وقد كان هذا

الناجي هو ذلك الذي استعملت له البخة الطينية . نعم ليس لنا أن نستنتج من ذلك بأن هذه البخة هي التي شفته ولكن مما لاشك فيه أنها لم تضره أي ضرر . كلاهما كانا مصابين بحمى شديدة كان سببها الالتهاب الرئوي وكانا قد أغمي عليهما وكان الرجل الذي استعملت عليه البخة الطينية في أخطر الأحوال فكان يبصق الدم وعلمت بعد ذلك من الدكتور بأنه كان لايغذى إلا بلبن قليل جدا .

وبما أن أكثر أنواع الحمى تكون نتيجة للارتباك في الأحشاء فأول ماينبغي عمله هو تجويع المريض والقول بأن الضعيف يزداد ضعفا بالتجويع وهم باطل إذ علمنا بما تقدم أن الجزء الذي ينفع من الغذاء إنما هو ذلك الذي يتحلل في الدم . وأما الباقي فيبقى حملا على المعدة . وبما أن القوى الهاضمة تضعف جدا في الحمى لذلك يتوسخ اللسان وتتصلب الشفاه وتجف ، فإن أعطي المريض طعاما في هذه الحالة فلا ينهضم وتزيد الحمى . ولكن التجويع يعطي القوى الهاضمة وقتا لاتمام أعمالها ولذلك فإن تجويع المريض ليوم أو يومين ضروري . وكذلك يجب عليه في الوقت نفسه أن يستحم كل يوم على الأقل مرتين على طريقة (كيوهن) فإن كان ضعيفا أو مريضا إلى درجة لايستطيع فيها الاستحمام يجب أن تستعمل على بطنه البخة الطينية وأن يشتكي الرأس كثيرا أو يحس بحرارة شديدة تستعمل البخة على رأسه أيضا ، ومهما أمكن ينبغي أن ينوم المريض في الهواء الطلق ويغطى جيدا ويعطى وقت الطعام عصير الليمون بعد أن يصفى جيدا ويمزج بماء بارد أو مغلي حار ولا يخلط معه السكر ما أمكن . إن هذا العصير يؤثر تأثيرا نافعا جدا ويقدم وحده للمريض إن كانت أسنانه تتحمل حموضته ويجوز بعد ذلك أن يقدم إليه نصف موزة أو موزة كاملة بعد أن تمزج جيدا بملعقة من زيت الزيتون وبملعقة من عصير الليمون وإن كان المريض يحس بالعطش فيعطى ماء مغليا مبردا ولايسمح له بشرب ماء غير مغلي ويجب أن تكون ملابس المريض خفيفة وتغير كثيرا .

وقد شفي بهذا العلاج السهل محمومون كثيرون حتى الذين أصيبوا بالحمى التيفودية وأمثالها من الأمراض الخطرة وهم يتمتعون إلى الآن بصحة تامة . إن (الكينا) كذلك تؤثر وتنفع بادي الرأي ولكنها في النتيجة تجلب أمراضا أخرى حتى إن حمى الملاريا التي تعتبر فيها الكينا نافعة جدا قلما رأيتها تعطي شفاء دائما ولكني بالعكس رأيت حوادث مختلفة في المصابين بالملاريا قد شفوا شفاء دائما بالعلاج الذي ذكر آنفا .

يقتصر كثير من الناس على اللبن وحده أثناء الحمى ولكني وجدته بتجربتي مضرا في الدرجات الأولية من الحمى لأنه عسر الهضم ، فإن كان لابد من اللبن فالأحسن أن يكون مخلوطا بقهوة القمح أو بقليل من دقيق الرز المغلي جيدا بالماء ولكن لايصح أبدا أن يعطاه في الحمى الشديدة بل ينفع في مثل هذه الحالة عصير الليمون نفعا كبيرا ، فاذا زالت الحمى وتنظف اللسان يصح أن يزاد الموز في الغذاء على الطريقة المبينة آنفا وإن كان هناك إمساك فحقنة من الماء الساخن والبورق (لزاق الذهب) عوضا عن المسهل يصحبها غذاء زيت الزيتون لتنظف البطن جيدا .

﴿ الباب الخامس : الإمساك والدوسنطاريا والمغص والبواسير ﴾

يبدو لأول وهلة ذكر هذه الأمراض الأربعة المختلفة في باب واحد عجيبا ولكن الحقيقة أنها كلها مرتبطة بعضها ببعض ارتباطا شديدا ويمكن معالجتها تقريبا بطريقة واحدة لأنها إذا انضغطت المعدة بغذاء غير مهضوم سببت مرضا من هذه الأمراض حسب استعداد الرجل واختلاف بنيته فيحدث عند بعضهم الإمساك فلا تتحرك المعدة مطلقا أو تتحرك بعض التحرك أو يحدث وجع شديد عند قضاء الحاجة حتى إنه ينتج نزيف الدم أو المادة المخاطية أو البواسير ، ويحدث لبعضهم الإسهال الذي كثيرا ما ينتهي بالدوسنطاريا

ويحدث

ويحدث لبعضهم المغص المعدى الشديد مصحوبا بالوجع فى البطن والمادة المخاطية فى البراز، وفى جميع هذه الحوادث يفهى المريض أى يفقد شهوة الطعام ويصفر جسمه وتضعف بنيته ويتوسخ لسانه ويتعفن نفسه، وكذلك يتأذى كثير من الناس بالصداع وغيره من الأمراض . إن الإمساك عام جدا حتى إن المئات من الحبوب والمسحوقات قد أوجدت لمعالجته . إن الوظيفة الأصلية لمثل هذه الأدوية المسجلة مثل ملح الفاكهة (فروت سالت) إزالة الإمساك، ولذا ترى ألوفا من الناس يجرون وراءها فى رجاء باطل لينالوا فيه الشفاء. كل طبيب يخبرك بأن الإمساك وما شاكله من الأمراض إنما هو نتيجة لسوء الهضم فأحسن طريقة لعلاجها هى إزالة سبب سوء الهضم وقد صرح أصدقهم قولا بأنهم قد اضطروا إلى اختراع هذه الحبوب والمسحوقات لأن المرضى لايتركون عاداتهم القبيحة التى ألفوها وفى الوقت نفسه يريدون الشفاء .

إن أرباب الاعلانات عن هذه الأدوية يبالغون مبالغة عظيمة حتى إنهم يعدون الذين يشترونها بأنهم لايحتاجون إلى مراعاة أى أصل من أصول الغذاء والوقاية بل يجوز لهم أن يأكلوا ويشربوا ما يحبون إذا استعملوا أدويتهم . وأظنّ أن قرائى لايحتاجون إلى التذكير بأن هذا كذب محض . إن جميع أنواع المسهل حتى أكثرها اعتدالا مضرة بالصحة لأنها وإن أزالت الامساك ونفعت نفعا بالجملة تحدث أنواعا أخرى من الأمراض فيجب على المريض أن يغير طرق معيشته تماما حتى لايضطر إلى المسهل مرة أخرى فيقع فى مرض جديد . إن أول مايجب عمله فى حالة الامساك وأمثاله من الأمراض هو تقليل الغذاء لاسيما السمن والسكر والقشدة وما شاكلها والاحتراز التام من الخمر والدخان والحشيش والشاى والقهوة والكاكاو والخبز المصنوع من دقيق المطاحن وأن يحتوى الغذاء فى أكثر أجزائه على ثمار طرية مع زيت الزيتون .

يجب أن يجوع المريض قبل البدء فى العلاج (٣٧) ساعة وتستعمل أثناء هذا وبعده اللبخة الطينية على البطن أثناء النوم ويستحم المريض كما ذكرنا مرة أو مرتين كل يوم على طريقة (كيوهن) ويجب أن يكره المريض على المشى على الأقل ساعتين كل يوم . لقد رأيت بنفسى أشد حوادث الإمساك والدوسنطاريا والبواسير والمغص قد شفيت تماما بهذا العلاج السهل . لاشك أن البواسير لاتزول كلية ولكنه يبطل أذاها حتما . ثم إنه يجب على المصاب بالمغص أن يحتاط فلا يأكل شيئا غير عصير الليمون فى ماء حار حتى يبطل نزيف الدم أو المخاطية وإن كان وجع المغص شديدا جدا فى المدة يمكن معالجته بتدفئة البطن بقارورة من ماء ساخن أو بآجرّ ساخن جدا ، ولا احتياج إلى التنبيه بأن المريض يجب أن يعيش فى هواء طلق .

إن الثمار مثل البرقوق والزبيب والبرتقال والعنب نافعة خاصة فى الإمساك لكن ليس معنى ذلك أنها تؤكل حتى بدون الجوع ولا يجوز تناولها إلا فى حال المغص الذى يصحبه طعم ردىء فى الفم انتهى بالحرف.

فوائد صحية عامة

من كتاب ويلكوكس فى الطب

(١) حسن المضغ يمنع البواسير ، وفيه فوائد كثيرة ويكفى الانسان نصف ما يأكله عادة .

(٢) تحديد مواعيد الأكل يمنع الامساك .

(٣) كل من غير أن تشرب واشرب من غير أن تأكل . إن الأكل من غير شرب عدو الامساك فلتشرب بعد الأكل بساعتين أو ثلاث أو أربع باختلاف الأحوال ولك أن تشرب قبل الأكل بساعة أو بنصف ساعة .

(٤) كل بمقدار طاقتك .

(٥) يجب تنظيف المعدة بدون دواء كل سنة لأكثر الناس مرة أو مرتين وذلك بصيام (٤) أو (٧) أو (١٠) أو (١٣) يوما فلا يشرب إلا عصير الفواكه مثل البرتقال والليمون والعنب مع الماء ، والتين الشوكي ينظف المعدة إذا أكلته صباحا قبل كل أكل .

(٦) لاتشتغل عقب الأكل وإلا كنت معرضا للامساك .

(٧) إذا مشيت كيلو مترين قبل النوم فهو يمنع الامساك .

(٨) لاتأكل الفواكه قبل نضجها ولا الخضراوات البائتة وامتنع عن الفطير والسكر الأبيض والحلويات ، ومتى كان عندك إمساك لاتتعاطى إلا عصير الليمون والبرتقال .

(٩) كل طبيخ طبخ مرتين تضيع قوته تقريبا .

(١٠) هذه الفواكه مرتبة حسب منفعتها (البرتقال ، اليوسف أفندى ، الليمون الافرنجى والبلدى والتين ، والتفاح ، والعنب ، والكمثرى ، والبرقوق ، والخوخ ، والرمان والفراولة ، والبطيخ ، والشمام ، والجوافة) كل هذه الفواكه وكل كلّ قشرها الذى تقدر عليه ثم الزبيب المنقوع فى الماء عشر ساعات يقوم مقام العنب .

(١١) إذا كان طفل عنده جرب فليعط عصير البرتقال كل يوم فإنه يبرأ . وقد ظهر للأطباء قوى ثلاثة عليها مدار الحياة قوة (١) و (ب) و (ج) فقوة (ج) تساعد الهضم وتمنع الجرب وتحرس الدم وتنظفه وهى [أربع درجات : الدرجة الأولى] البرتقال ، الليمون ، الطماطم ، كل الخضروات الخضراء بورقها الأخضر [الدرجة الثانية] البصل ، الجزر ، الكبدة النية ، وورق الفجل [الدرجة الثالثة] باقى الفواكه تقريبا والخضراوات الخضراء المطبوخة مدة قصيرة والبطاطس المسلوق واللبن الحليب الذى لم يغل والكبدة المطبوخة مدة قصيرة [الدرجة الرابعة] اللفت الأبيض البنجر . وأما قوة (ب) فهى [ثلاث درجات : الدرجة الأولى فى الخميرة والسن الذى فى القمح [الدرجة الثانية] العدس ، الفول ، البسلة ، الدقيق بحاله : أى مع الردة والسن ؛ ومعنى هذا أنه لاينخل والجوز وصفار البيض والكبد والقلب واللحمة والكلاية والمخ . وقوة (١) تنفع من ضعف الأسنان (كما أن قوة (ب) تساعد فى منع مرض (البرى برى) الذى ينتج من أكل الرز المقشور وقوة (ج) تساعد على الهضم وتمنع الجرب وتحفظ الدم وتنظفه كما تقدم وهى [أربع درجات : الدرجة الأولى] زيت كبد الحوت [الدرجة الثانية] بطارخ السمك . الزبدة . صفار البيض [الدرجة الثالثة] الكبدة . الكلاية . قلب الحيوان . اللحم الطازج . اللبن الحليب . جميع الخضراوات . الجزر . الطماطم . [الدرجة الرابعة] جميع الطعام المصنوع من الدقيق الذى لم ينخل أى لم تخرج منه النخالة ولا السن .

﴿ جدول لأدوية طبيعية ﴾

مرض	دواء طبيعى
الكلاية	أكل البقدونس . كشك اللاز . فجل
الأعصاب	أكل الحس والسبانخ
مرض الرجرج	أكل الطماطم والليمون
لأجل حصول الشجاعة	أكل البرتقال والليمون

لطيفة فى إزالة سوء الهضم

ابتدئ بتنظيف المعدة ثم كل من غير أن تشرب الخضراوات المطبوخة مثل (السبانخ . الخس . الجزر البصل . الكرفس . الكرنب . البامية . الباذنجان . الخبيزة . الملوخية . أوكل الخضراوات التى لم تطبخ) وإذا كانت أسنانك ضعيفة يجب أن تدقها فى (هاون) وهى (الخس . الكرفس . الطماطم . الكرنب . الفجل . الخيار (خصوصا قشره) واعصر عليها زيتا مع ليمون . أو كل فواكه مثل : (البرتقال . التين . الرمان . العنب . البرقوق الساوق مدة قليلة . التفاح الأحمر) فهذه تبعد عنك سوء الهضم . انتهى ما أردته من الفوائد الطبية .

فقال صاحبى : أهذا كتاب طب حتى إنك تكثر فيه من هذه المسائل . فقلت ليس كتاب طب وإنما هو كتاب الله تعالى والله يقول على لسان نبى من أنبيائه « وإذا مرضت فهو يشفين » فقوله « فهو يشفين » جملة اسمية خبرها فعل مضارع تقتضى الثبات والدوام مع التجدد كقوله « هو يحيى ويميت » فههنا نستفيد (فائدتين) فائدة الطب العملى ينتفع به قارئ التفسير وفائدة علمية حكمية ، ألا ترى رعاك الله أن الأذكياء يدهشون حينما يقرءون فى هذا التفسير أن الكلية فى جسم الإنسان إذا مرضت قد زرع الله لها فى حقولنا البقدونس والفجل وألهم الناس فصنعوا لها الكشك . وأن أعصابنا إذا مرضت خلق الله لها الخس والسبانخ وأن نفوسنا إذا أصابها الخور والجبن والخوف ذهب ذلك بما أنبته حولها فى الأرض من شجر البرتقال والليمون وأن مرض الرجريج أنبت الله له الطماطم والليمون . وأن مرض الجرب ومرض الإمساك وعدم نظافة الدم ينفعها كلها أكل مافى قوة (ج) من الأطعمة مثل الطماطم والجزر وهكذا . وأن مرض الأسنان يزول بأكل مافى قوة (ب) وأن الجير الذى يشفى الجروح ويغذى العظم يوجد فى الكرنب واللبن والجبنة التى لم ينزع زبدها والسبانخ والبصل والشمش والتين والبرقوق والطماطم والكرفس والبامية والردة وأن المغنسيوم الذى يساعد الفضلات ويمنع الفتق موجود فى السبانخ والخس والخيار والطماطم والبرتقال والشعير والذرة والقمح والليمون والتين والبامية ، وأن الكبريت الذى ينظف الدم وهو عدو الروماتزم موجود فى السبانخ والقرنبيط واللفت والفجل الأحمر والطماطم والقرلة وكشك الماز والجزر والكرنب والبصل والبامية ؛ وأن الفوسفور الذى يغذى المخ موجود فى السمك والخس وصفار البيض والسبانخ والكشك (الماز) والفجل والقنبيط والخيار والجوز والبسلة والعدس والقمح . وأن الحديد الذى يعطى الدم حمرته ويمنع فقر الدم موجود فى الكرنب الأحمر والسبانخ والبصل والزبيب وصفار البيض النيء والتمر والبرقوق والبنجر وكشك (الماز) والطماطم . وأن الكلورين المساعد للهضم المنظف للمعدة موجود فى الكرنب وملح البحر والجزر والسبانخ واللبن وسمك البحر المالح والفجل والجبنة وجوز الهند والبنجر .

وأن كبار الأطباء كما جاء فى (مجلة الجديد) يقررون أن مخ الإنسان تعلوه طبقة خضراء رقيقة هى وحدها مصدر تفكيره وهى تتجدد فى كل ست سنوات وتكون فى كل مرة مخالفة من حيث طبيعة مادتها للطبقة السابقة ، وذلك لعدة عوامل أهمها اختلاف الغذاء ، فاذا كان الشخص مثلا قد وجدت عنده رغبة وقتية فى أن يكثر من أكل الجزر فان الخلايا التى تكون فى الذهن تكون (فوسفورية) وتكون صالحة للتفكير وتكون على العكس من ذلك إذا أكثر من أكل الخوخ . وإذا استمر الإنسان مدة ثلاثة شهور يأكل التفاح كان ذلك منتجا للخلايا قوة التفكير . ويعرف (الشلبك) بأنه من أحسن أنواع الأغذية فى هذا الشأن .

وعلى ذلك يكون الذهن متغيرا حسب الفصول وما ينتج فيها من الثمار والحبوب وأحسن أوضاع خلاياه ما كان فى شهر ديسمبر أو مارس وأسوؤها ما كان فى (أغسطس وأكتوبر) وإن الذهن وإن يكن يتغير بأجمعه

كل ست سنوات . فالتغير الجزئى يحصل فيه من وقت لآخر وعلى ذلك يكون الذهن فى كل حين قصير بشكل جديد . ويقدر عدد هذه الأشكال التى تظهر فى رأس إنسان عاش ثلاثين عاما نحو (١٨٠) شكلا أى (١٨٠) ذهنا مختلفا . وإذا كان هذا الشخص قد ابتدأ يفكر وله من العمر (٥) سنوات فإن مقدار ماعرض له من الأفكار التى اشتغل بها ذهنه يبلغ (١٫٩٢٠٫٠٠٠٫٠٠٠) فكرة . وإذا كان يشتغل عملا عقليا فإن عدد فكراته يكون ضعف ذلك . ويبلغ ذهن المرأة نحو (٥٠) أوقية وهو أخف من ذهن الرجل ولكنه أجود من حيث المادة وأشد كثافة منه . ويمتاز ذهن المرأة فى الستين من عمرها بنحو ٢٠ فى المائة على ذهن رجل فى سنها .

وأنه ليس بين الثمار ماهو أعظم نفعا من الليمون فإن فوائده الكثيرة لايمكن أن تقدر فان فى استعماله اقتصادا للوقت والمال وتخفيفا للعمل والمشقة ولايمكن أن نحصى مايستعمل فيه من الأغراض ، فاذا أريد تنظيف المناديل وقطع النيل بوضع معها عند الغلى قطع من الليمون فانها تصير بيضاء كأنها جديدة ، وإذا أريد أن يجلى النحاس بسرعة وأن يمكث بريقه ولمعانه مدة طويلة فليحك بخرقة مبتلة بعصير الليمون . ويمكن أن ينظف به الرخام الأبيض إذا تغير لونه بتأثير الدخان أو غيره . وإذا أرادت ربة الدار أن تذهب من يديها رائحة السمك النىء بعد أن قامت بتنظيفه فلتستعمل الليمون بدلا من الصابون ، وإذا تألمت العين من أثر الرمد فليقطر فيها بعض نقط الليمون ، وإذا ظهر فى الوجه النمش يمكن إزالته بشرب عصير الليمون فى كوبة ماء فى الصباح ، وإذا ظهر اسوداد فى الأسنان يمكن جعلها بيضاء إذا استعمل الفحم وعصير الليمون وهكذا من الفوائد التى يطول سردها . انتهى والله أعلم .

أقول لك أيها الذكى إذا قرأ هذا القول قراء هذا التفسير يدهشون ويعجبون ويقولون هذا الجير نراه أمامنا . وهأنذا فى مصر أراه يستخرج من جبالنا وأصله وأصل جميع الجبال مخلوقات فى البحر الملح ربى هناك فى أجيال ودهور فهذا الجير أدخله الله فى نبات الكرنب والسبانخ والبصل والمشمش والتين وهكذا الخ وأعد هذه كلها للانسان وجعلها مضمدة لجراحه مقوية لعظامه ، وهنا موضع الدهشة ، بعض الجير يدخل فى البصل والمشمش مثلا وكلاهما يشفى الجروح ويقوى العظم ، فهذا عجب ، ماهذه العجائب ! جير يدخل فى نبات يصلح جسم الإنسان ، إن العقلاء إذن يقولون إن الله مافرق هذا الجير فى أنواع النبات ثم أحوج الإنسان إليه إلا لأمر عجب وهو أن يدرس هذا الوجود . إذن هذه الأمراض خلقت فينا لنعلم ، فمن اقتصر على مجرّد علم الطب فيها ونعمت ، فالطبيب عالم والمريض يتداوى بما علم الطبيب ولكن ليعلم الطبيب والمريض أنهما لم يخلقا لهذه الدنيا وحدها فالمداواة الجسمية لهذه الحياة ولكن المداواة العقلية هى المقصودة بالذات وهى أن النفس تتغذى بهذه العلوم وتسعد وتتذكر جمال هذه الدنيا وأن الحكمة التى أبدعت الجير أولا ثم احتالت فى إدخاله فى النبات ثم أبدعت الإنسان وألهمته أن يتداوى ويتغذى بتلك النباتات تريد بنا شيئا أعلى من هذه الحياة وهو أن نكون سادة هذه المادة وأن هذه المادة لوحنا نقرؤه وكتابنا نفهمه . إذن المداواة الجسمية مقدمة للمداواة العقلية . يمر الناس على هذه العجائب ويحمدون ربهم أنه قد شفاهم من أمراضهم والأطباء يفرحون بأنهم نجحوا فى طبهم . إن الوقوف عند هذا حقارة لهذه الإنسانية فى الأرض ، فلينظر هذا الانسان لم خلق ؟ إن الأمر لعظيم . يمر الليل والنهار ونرى الكواكب ليلا والنبات وغيره نهارا وتمرض أجسامنا وتصح والغفلة مستحكمة فى أكثر الناس ونرى الأمم تفرح بأنها غلبت أمما أخرى والناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله اليوم شديد . اشتدت الحرب على الأمم والعداوة والأمراض فى الأجسام وكر الليل والنهار والناس كلهم غافلون . إنى أرى هذا الانسان محبوسا فى هذه الأرض ويخيل لى

أنهم كلهم مجلدون ويعذبون . لذلك لجهلهم ولقصور عقولهم ، فالليل والنهار برجان لعوالم جميلة والأمراض في الأجسام يراد بها فتح البصائر لما في الأرض من العجائب .

فلعمري أي مناسبة بين عصير البرتقال وبين الجرب ، فالذي عنده جرب يشرب هذا العصير فيذهب المرض ، وأي مناسبة بين نحو البرتقال والليمون والطماطم وما أشبهها من كل أنواع قوة (ج) وبين شفاء الجروح وكذلك ما العلاقة بينها وبين العين بحيث إذا قلت تلك القوة مرضت العين وتمام قوة (ج) يمنع مرض العين وهكذا تعاطي زيت كبد الحوت يشفي العين ، فما هذه المناسبات في البر والبحر للعين والجلد .

أقسم طنطاوي قسما حقا لاحانثا فيه ولا آثما إن هذه كلها لغات أفصح من لغات الألسنة ، فالمرض لغته تفهم العناصر الأرضية وتذكرنا بها إجمالا والنور والظلمات لغتان لبحث العجائب السماوية وهذا مما يرمز إليه قوله تعالى « يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فهذه الأمراض عذاب لنا ولكنها من جهة أخرى رحمة لأنها مذكرات لنا لنعلم هذه العوالم فنرقى إلى عوالم أخرى أرقى من هذه الأرض المعبر عنها بالجنات ، فقوله تعالى « فهو يشفين » معناه أن الأمراض تتجدد بتجدد الأجيال والنباتات وغيرها تتجدد بتجدد تلك الأمراض وأنا الذي أدير الأفلاك وأنظر لكم في أرضكم وأصلح أحوالكم وأصنع معكم صنع الأب الشفيق مع الابن الصغير أريكم بالخير وبالشر والنتائج كلها أردت بها الخير . والدليل على ذلك أن الأسبانيين لما دخلوا بلاد أمريكا منذ نحو أربع قرون رأوهم يحفرون حفرا ويضعون فيها حشيشة (التبغ) الذي يدخنه الناس في أفواههم فأمروا بقتل كل من فعل ذلك ثم وقع نفس الاسبانيين في نفس الشرك ثم نقلوه إلى أوروبا وما دخل التدخين أمة إلا قابله قسيسوها بالتكفير وسوادها بالمنع ثم تغلب التبغ حتى هاجم بلاد الاسلام ودخل قلعتها إذ ذاك وهي بلاد الترك سنة ٩٩٩ هجرية فحرمها علماء الدين وقاومها السواس فتغلبت ودخلت بلاد الاسلام . إذن التبغ هاجم الأمم كلها واستحوذ عليها واستعمرها فأصبح الناس في الشرق والغرب يدخنون لماذا ؟ لأن المتوحشين في أمريكا كانوا يدخنون . فلعمري أي فرق بين الحيوانات التي ظهرت في اللثة فانتشرت في جميع الجسم وبين التدخين بالتبغ الذي ظهر في القارة الجديدة فانتشر في القارات كلها، إذن الانسانية كلها جسم واحد ولن تنجو أمة من الذنب والعقاب في هذه الدنيا إلا بمساعدة غيرها . اللهم إن الأمم كلها أشبه بجسم واحد في الأرض كما أن عوالم السموات والأرض أشبه بحيوان واحد . وقد قام الدليل على أن العضو في الجسم يعدي بقية الأعضاء والضعف في أمة له أثر في سائر الأمم وستكون الانسانية بعد اليوم أشرف من إنسانية اليوم وأرقى « ولله عاقبة الأمور » .

بهجة العلم والطب

محاورات طيماوس الحكيم مع سقراط

إن الله عز وجل قد أنعم بهذا التفسير وجعله معرضا لآراء الأمم ، هأنذا قد ذكرت لك آراء الأمم في علم الطب قديما وحديثا بحيث اصطفيت اللب ونبذت القشر وجعلته بإذن الله عذبا سائغا شرابه صافيا ، فلأذكر لك الآن محاورات طيماوس الحكيم مع سقراط وهي المحاورات الموسومة بطيماوس . ذلك أنه حاور سقراط فبحث معه في السماء ونظامها وجمالها وأبان أن العالم حادث وأنه جميل وأنه نسخة لما هو أجمل منه وهي عوالم جوهرية أرفع من المادة ، وذكر أن صانع هذا العالم إنما صنعه لأنه جواد ولو لم يصنعه لم يتصف بهذا الوصف وأنه عمد إلى المادة المضطربة فنظمها وجعلها متزنة مهندسة وأن هذا العالم كله أشبه بحيوان له

عقل عام يدبره له نفس وله مادة ، فالعقل العام لايتصرف فى المادة إلا بنفس تكون واسطة بينهما . وذكر الأيام والليالى فأبان أنهما من صنع خالق العالم وبهما يحصل الزمان ولا زمان بالنسبة لصانع العالم بل الزمان مقياس لنا ، فالماضى والمستقبل والحال لنا نحن أما الله فلا يحكم عليه زمان لأنه هو محدث الزمان ، ويقول أيضا إن هذه الكواكب كلها منظمة بعقول تدبرها مستدلا بالنظام الكامل فى دورانها وإن الكواكب والعقول القائمة بها قد حدثوا بعد العدم . ويقول إن الأرواح الانسانية بينها وبين الأرواح التى تدبر الكواكب (وهى بلغة الشرع ملائكة) مناسبة، فكما تدبر أجسامنا عقول هكذا الكواكب تدبرها نفوس كبيرة . وذكر أن الله جمع الأرواح الانسانية وشرح لها العوالم قبل نزولها الأجسام وأبان لها الآثار التى تحصل لها إذا اتصلت بالأجسام . وأن من اتبع الشهوات فإنه يرجع بعد الموت إلى أسوأ حال ومتى عدلت فى الأرض رجعت إلى حال أرقى وتسكن الأماكن الشريفة فى العالم العلوى . وبين أن البصر إنما خلق فينا لنعرف به الليل والنهار وبهذا نعرف الزمان ونتجه إلى الحكمة والفلسفة وهما أعظم نعمة من الله . ثم ذكر المادة بحسب زمانهم وأنها عناصر أربعة الخ وأن ذكر العناصر لامعنى له لأنها كلها أمر واحد غير الظواهر فهى أمر غائب عن الحس يظهر فى صور هذه العناصر ، إذن المادة فى أصلها لاصورة لها . ثم ذكر اللذة والألم وأن المادة عبارة عن مثلثات تتركب منها أشكال هندسية بسيطة وباجتماعها تكون الخشن واللين والبارد والحار والمؤلم والذى يحدث اللذة فالاختلاف فى الأشكال يوجب الاختلاف فى التأثير فى أجسامنا فالتأثير الملائم لطبعنا به تكون اللذة والتأثير الذى لايلائم طبعنا يكون به الألم وإن كان متوسطا لم يكن ألم ولا لذة . ثم تكلم عن الجسم الانسانى وهو الذى سقنا لأجله الكلام هنا لأننا فى الكلام على صحته ومرضه بمناسبة الآية . ولم أذكر ما تقدم إلا كالمقدمة لينشط الأذكياء للقراءة وليفرحوا بما يسمعون من العلم والحكمة وليزدادوا علما بما جاء من الطب المجمل فى كلامه . ثم قال بالحرف الواحد وشرع بعد ذلك فى الكلام على تصور الانسان على يد (الملائكة حسبما أمر به الله) فقال : إنهم تسلموا من الله النفس الأزلية التى خلقها للانسان ، وألحقوا بها نفسا مائتة جعلوا مركزها فى الصدر . أما الجزء الغضبى منها ففى أعلى الصدر ، وأما الجزء الشهوانى منها ففى أسفل البطن ، ثم صوروا بقية البدن بغاية الاتقان نظرا إلى مصالح النفس ، وما تحتاجه من الخدمة حتى تكون جميع أجزاء البدن متصلة بالروح مستعدة لقبول أوامره . ثم بين منافع جميع الأجزاء جزءا جزءا ، وكيفية منفعتها ثم تصور العروق وتفرعها من الرأس إلى أقاصى البدن كما تتفرع السواقى فى البساتين لحمل الدم المركب من أجزاء الأغذية وتوصيله إلى الأعضاء والمفاصل لتخلف ما تحلل منها . قال فإذا كان ما تحلل زائدا على ما يخلفه الغذاء فإن الحيوان ينقص ويذبل ، وإذا زاد الغذاء على ما تحلل من الحيوان فقد ينمو البدن ومنه يتبين نمو الحيوان فى شبابه ثم تناقصه شيئا فشيئا فى الشيخوخة والمرض إلى أن ينتهى ذلك به إلى الموت ، وشرع فى بيان الأمراض البدنية ، وأمراض النفس وهى تابعة للأمراض البدنية وقسمها [ثلاثة أقسام] منها مايتبع إفراط اللذة والألم المؤثر فى الفكر ، ومنها ماسببه إفراط الحرارة والبلغم والأخلاط ، إذ بها يتعطل سريان النفس فى البدن فيكون سببا لسوء الخلق والتهور والجبن وجمود القريحة والنسيان . وحاصل ما آل إليه كلامه أن الشر غير اختيارى وأن له [علتين : العلة الأولى] فساد المزاج [والثانية] سوء التأديب ، فالشرير كالمريض يستحق الإشفاق عليه والعلاج لأن أغلب ما يعتريه من أسباب خارجة عن قدرته . قال وإذا سأل سائل عما ينبغى فعله لتدارك الأمراض وحفظ الصحة للبدن والنفس معا . فالجواب أنه لاطريق إلى ذلك إلا حفظ المعادلة بين البدن والنفس فإن النفس إذا كانت مفرطة القوة فى بدن ضعيف لاتصبر على صحته ولا تزال مضطربة فيه لتجهده وتملؤه أمراضا ، وبالعكس إذا غلب البدن على النفس

فإن

فإن العقل يجمد ويفتر ويعجز عن أعماله ، فالقاعدة أن نروض البدن والنفس معا : أما البدن فبأنواع الرياضة والحركة البدنية ، وأما النفس فبالموسيقى وبإعطاء كل من أجزائها ، أى النفس العقلية والغضبية والشهوانية ما يناسبها من الحركة والرياضة حتى تبقى كل واحدة منها على ما اختصت به من العمل وتكون النفس العقلية الأزلية رئيسة على الجميع كما يوافق شرعها . وأشار فى آخر المحاورة إلى منشأ الحيوان وذكر ما كانوا يعتقدونه فى زمانهم (وهو يخالف الإسلام وهو أيضا لادليل عليه) فقال إن الحيوانات كانوا من البشر فعوقبوا وردوا إلى رتبة أدنى مما كانوا عليها لما اقترفوه من الذنوب . أما النساء فقد كانت من قبل رجالا أظهروا فى سيرتهم الجبن والجور فانحطوا عن رتبتهم السابقة . وأما الدواب الأرضية فهى مما كان مدة حياته مسخرا لشهواته والحيوانات فاضلها ممن كان فى حياته قد استعبد لأخس الشهوات وأدناها فمسخوا إلى أصم الخلائق وأنقصها عقلا .

ثم ختم المحاورة بأن قال ، وليكن هذا آخر كلامنا عن العالم ، وقد كانت هذه صورة تركيب هذا العالم المحتوى على الحيوانات المائتة وغير المائتة وهو الحيوان المرئى المحتوى على جميع الحيوانات المرئية وهو إله محسوس على مثال الإله المعقول [أقول وهذه الجملة لاتجوز فى ديننا والتعبير بها كفر ولكن هم كانوا قبل النبوة فأرادوا بذلك أن هذه العوالم ظهرت فيها آثار القدرة الدالة على الجمال الإلهى] . وبعبارة أخرى : [إن الحكمة والعلم والقدرة ظهرت آثارها فى هذا العالم المجسم فالظاهر لنا من العوالم عنوان الله الذى اختفى عن أبصارنا وظهر لبصائرنا بتلك العجائب] ثم قال عن العالم [فهو السماء الوحيد المنفرد والطبيعة ذو العظم والحسن والجمال الوافر الكامل من جميع الجهات] انتهى تلخيص كلام طماوس .

هذا كله نقلته من كتاب الأستاذ (ستلانة) وهو مترجم من اليونانية إلى اللغة العربية وبذلت جهدى فى أن أمنع الألفاظ الممنوعة شرعا أو أنبه أنها كفر وأشرحها اه .

هذه تذكرة ماجربته فى حياتى من الأعمال الطبية

قبل أن أختم تفسير هذه الآية وهى قوله تعالى « الذى خلقنى فهو يهدين » إلى قوله « وإذا مرضت فهو يشفين » بما عالجت به نفسى لاسيما فى أيام الكبر ليكون تبصرة لأحبابى قراء هذا التفسير فإنى من إبان صغرى وجدت فى نفسى ميلا قويا إلى رقى الأمم الاسلامية وهذا الميل ازداد بازدياد سنى .

لقد ذكرت فى مواضع كثيرة من هذا التفسير وغيره إنى نشأت فى قرية كفر عوض الله حجازى من بلاد الشرقية واعترانى فى نحو العشرين من سنى حياتى مرض جسمى وشك فى هذا العالم وفى الصانع فكنت موجها قلبى إلى [أمرين] صحة جسمى وهداية نفسى ، فالأول بالطب والثانى بالعلم وكنت أسأل كل من أتوسم فيه الإفادة ولم أجد وسيلة خيرا من توجه النفس إلى مبدع هذا العالم فلأقصر القول على أمر الطب لأنى الآن فى صدد الكلام عليه . أقول أخذت إذ ذاك أمنع شرب الماء مع الطعام وعقبه وأقلل الطعام وأتخير ماهو ألطف وانتهى الأمر بالشفاء . ثم إنى لما بلغت الستين بدا لى أن أترك اللحم بتاتا لما رأيت فى الكتب الطبية ذمه وقد كان مرض الروماتيزم ملازما لى فتناقص هذا المرض إلى أدنى حد ولكنى كنت أجد له أثرا باقيا يخفى تارة ويظهر أخرى وذلك أنى كنت آكل الخضراوات المطبوخة التى طبخت فى مرق اللحم فكنت أتعاطاه مع أسرتى بالمنزل فى مرقه ، ثم لما قرأت فى العام الماضى كلام العلامة (غاندى) المصلح الهندى الذى حدثتك أيها الذكى عنه فى سورة طه . اقرأ ما كتبته هناك فى أمر الطعام عند ذكر آدم وفى سورة الحجر عند قصة آدم أيضا فى أولها وما ذكرته فى سورة الأعراف عند قوله تعالى « ولا تسرفوا » الخ ما ذكرته

فى سورة البقرة عند قوله تعالى « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » الخ ترکت الخضراوات وجعلت طعامى ما يأتى إلا نادرا :

(١) آكل الخبز المصنوع من دقيق البر ، وفيه جميع أجزائه ، فما يسمى (نخالة) ومايسمى (السن) يبقى فيه . وبعبارة أخرى : آكل خبز القمح بحيث لاينخل أدنى نخل فهو إذن بحاله ، وقد تقدم فى (سورة الحجر) أن أجزاء البر (١٦) جزءا كلها داخلة فى الدم ، وإخراج النخالة والسن منه إخراج لأهم أجزائه المانعة من الإمساك المقوية للبدن والعقل .

(٢) وآكل معه زيت الزيتون والفواكه مثل التمر والتفاح والبرتقال والليمون ، وربما أكلت من الخضر الطماطم بشرط أن لاتكون مطبوخة لأن المطبوخة ضارة بالصحة بنص الأطباء وبتجريبى وترکت الملح إلا ما يوضع فى الخبز وترکت السکر المصنوع مكتفيا بما فى الفواكه [وبعبارة مجملة] اقتصرت على الفواكه والحبوب إجمالا ولكن التفصيل هو الذى ذكرته لك الآن .

أقول : لما اتبعت هذه الخطة زال الروماتزم بتاتا وصرت أفتح شبابيك حجرة النوم ليلا ونهارا وأنا أكتب الآن ليلا وهى مفتوحة فلا أحس بذلك المرض ، وأنا أعلن حمدى لله عز وجل حمدا كثيرا فقد وجدت أنى أصح جسما وأصح عقلا وأقوى تفكيرا من جميع أيام حياتى ، كما أنى أحمده إذ أقدرنى أن أكتب بعض خواص النبات للمسلمين كما كنت أعنى أيام الشباب عند مرضى ، فإذا كنت الآن فى العقد السابع من سنى حياتى فإنى أقول إنى لم أكن يوما ما فى أيام شبابى وقبلها وبعدها منتظم الصحة والعقل والفكر مثل ما أنا عليه اليوم فأنا أقول الآن الحمد لله ولكن هذا الحمد ليس على صحتى وحدها لأن أوقات الحياة محصورة والموت لايتوقف على حال ما فهو يأتى بغتة « وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت » ولكن حمدى لله على النعمة العامة فالحمد على نعمة خاصة حمد ضئيل لايليق بالربوبية والإخلاص لها بل لايليق لعاقل . وإنما حمدى لله فى هذه النعمة على أنها نعمة على كل ذكى مطلع على هذا الكتاب ، لأن هذا القول يترك فى نفسه أثرا وهذا الأثر سيفيده يقينا وكم من رجال ذوى عقل عند ما يطلعون عليه يغيرون حالا أسلوب معاشهم مع أنهم هم أنفسهم قد يكونون أطباء أو مطلعين على الطب ولكن تجريبى هذه تشجع على إبطال عادات موروثة عن الآباء والبيئة ، فهذه نعمة عامة على قراء هذا التفسير فى حياتى وبعد موتى ، إذن حمدى لله على توفيقى للصحة موجه لعموم المنفعة للأحياء المنتفعين بهذه التجربة فى كل جيل لأن الحمد إنما يكون على النعمة الواصلة من المنعم إلى الحامد أو غيره وهذا سر قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين » ولم يقل المصلى ربى وحدى فهو مربى جميع العوالم كما تقدم فى محاورة (طيماوس) فالإنسان يجب عليه أن يوجه وجهه تلقاء العوالم كلها . فأما سمواتها وأرضها فبالتفكر والعلم والاعجاب بصانعها . وأما نوع الانسان فيكون ذلك بالعطف عليه وتعليمه ونشر الحكمة فيه . ولقد أثر فى نفسى ما جربه غاندى الهندى مما كتبته فى (سورة طه) أن الانسان عادة يقتدى بمن يثق بقوله إنه مجرب وأنا تجريبى مضت لها بضعة أشهر ولا أزال فى حال التجربة ، ولقد وجدت منافع لاحد لها فى الصحة والعقل كما قدمنا ولكنى لا أعد هذه المدة كافية وأنا موجه وجهى جهة مبدع الكون أن يلهمنى المحافظة على صحتى مدة حياتى فمنه أستمد ومنه التوفيق . ولقد تبين لى من هذه التجربة معنى قوله تعالى « قتل الانسان ما أكفره » وقوله تعالى « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون » ذلك أن هذا النبأ كلما علم به طبيب مدحه وقال إن هذا عمل جليل ولكنه لايكاد يقدم عليه هو نفسه ولا يأمر به المرضى وإنما الذى انتهج بعض هذه الخطة قوم آخرون . إنى لا أشرب إلا الماء ، وقد ترکت القهوة والشاى وما أشبه ذلك

ولا

ولا أشرب شيئا إلا إذا عطشت وصرت أنادى بأن هذا الانسان فى سجن العادات وعرفت اليوم أن الانسان منا هو الذى يضعف عقله وصحته بيديه ، أليس الطعام الذى نتعاطاه به قوام بنيتنا . إذن إقامة بنيق وصحة عقلى راجعان لما ألقيه فى فمى بيدى فإذا لم أتخيره فإنى لم أتخير بناء جسمى وحفظ عقلى ، ومن أكل بغير حساب ولا نظام أصبح عقله تبع مايأكل فتكون الصحة بالمصادفة والعقل بالمصادفة . واعلم أن هذا الانسان لما كان ضعيفا فى تصرفه حكم الله على أكثره بالفقر لأن الفقر هو الذى يمنع القدرة على حوز الطعام الكثير الضار بالصحة والعقل ، وفى ظنى أن الناس لو كانت إرادتهم قوية لامتلأت الأرض بالخيرات ولكن القوى الارادية لما كانت ضعيفة أنزل لهم المطر والأنهار والسعادة فى الأرض بحساب لتكثر حركاتهم فى الطلب وحركات عقولهم فى التدبير فتصح الأجسام والعقول بالحركتين «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » فهو يعلم ضعف الإرادات وضعف التفكير فأرغمهم على العمل وعلى التفكير بهذه الوسيلة لأن العقول فى عالمنا هذا مبلغها وهذا هو نصيبها من الفكر والقوة .
وممن أعانى على تدبير الصحة قرينتى (السيدة عائشة الحسنية) من ذرية الحسن بن على رضى الله عنهما فهى التى سارعت إلى تدبير الخبز على الطريقة المتقدمة وأسرتها كلهم أطباء ، ومما أعانها على ذلك أنها شاهدت أهل مكة هكذا يفعلون فى خبزهم ، وقد خالفت بذلك عادات النساء فى مصر واستفادت ذريتى بذلك فائدة ظاهرة فى هذه السنة ، كما أنها خالفت أكثر النساء فى أنها تواظب على الصلوات والعبادات .

هذا ، وأذكرك بما تقدم فى (سورة طه) عند مسألة الطعام وما ذكره العلامة ابن خلدون عن أهل المغرب وأهل فاس ومصر وشرح مضارّ الأطعمة المشهورة فى هذه البلاد وشرح المنافع التى يجانبها الناس فى الاقتصار على النافع من الأغذية ، فمن قرأته نشطت للعمل ببعض ما هنا وما هنالك تدريجا وما لايدرك كله لايترك كله .

ومما ذكره ابن خلدون أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا ينخلون الدقيق زهدا وهذا عجب أن يكون هذا الزهد هو الذى يطلبه الطب للصحة فالعجب كل العجب من حكم ديننا ، يقول الله « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » ويقول عمر رضى الله عنه للربيع بن زياد لما حضر هو والأمراء معه وعلى رأسهم أبو موسى الأشعرى وقد ظهر الربيع بمظهر القانع بالخشن من الطعام والثياب المرقعة [لو شئت لملأت هذه الرحاب صلائق وسبائق وصنابا] يريد بذلك اللحم والرقاق والزبيب المصنوع مع الخردل ولكنى رأيت الله عير قوما فقال « أذهبتم طيباتكم » الخ وإنما عجبت لأن هذا هو الذى به سعادة الناس فى نفس الدنيا فالإقلال من اللذات هو الذى به الصحة والعافية ، والأغرب من ذلك أن سقراط أثبت أن الذى لاعفة عنده لا لذة له وبرهن على ذلك بأن من شرب الماء وعطشه قليل لا لذة له فيه ، إذن الذى لاعفة عنده لا لذة عنده فهو بطلبه اللذة فقدها والعفيف ترك اللذة فجاءت إليه . إذن الصحابة رضوان الله عليهم بزهدهم فى اللذات نالوها وبزهدهم فى الدنيا ملكوها ، ومن عجب أن تكون هذه الأخلاق بنفسها هى التى استنتجها سقراط وأفلاطون بعقولهما قبل النبوة بنحو تسع قرون فإنك إذا قرأت [جمهورية أفلاطون] وجدت الزهد متجليا فيها والحكمة والعلم ومع هذا الزهد ينظم المدن ويقيم الملوك والأمراء والحكام والجند ويبين مراتبهم ورياضاتهم وآدابهم وآداب العامة معهم ومع الأمراء ، فالحمد لله الذى علمنا ما لم نعلم وأرانا العلم والدين توأمين متحدين عند ذوى البصائر وهذه من أعجب المعجزات إذ كيف تكون نتيجة الفلسفة قرونا وقرونا ينزل بخير منها الوحى على أمى فيدوم به ملك لم يحلم بها فيلسوف ولا ملك من الملوك .

وأختم هذا القول بذكر الحمية التي اتبعتها فأقول [لقد كانت عادتي أني إذا ارتبكت معدتي أن أتعاطى زيت الخروع وبعدها لا آكل بل أشرب اللبن أياما من ثلاثة أيام إلى (١٤) وفي تلك المدة يضعف جسمي ثم أتعاطى الغذاء المعتاد بالتدريج وهذا فيه مافيه ، ولكني في التدبير الجديد حصل لي منذ شهرين ارتباك في المعدة فامتنعت عن الطعام نحو يومين لم أتعاط فيهما إلا ماء (البرتقال) اتباعا للنصائح الطبية فشفيت والأطباء يأمرون بالجوع أكثر من يومين (اقرأه في كتاب غاندى) انتهى ليلة الجمعة ٢٩ مارس سنة ١٩٢٩ الساعة الثالثة بعد نصف الليل والحمد لله رب العالمين .

الاستشفاء بنور الشمس

ذكر ماخطر لي يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٢٩

عجب لهذا الإنسان يعيش ويموت وأكثره غافل ساه ، يرى المادة ويرى الكواكب والشمس والأرض وما عليها ولكن العلم يقول له هذا كله ظل الحقيقة والحقيقة غير ماتراه وفي نفس الوقت يقال له أتمم أعمالك بحسب ماظهر لك من الحواس ، يكون غنيا ويقول أنا اليوم نلت ما أتمناه فيرى الحوادث تكذب ظنه وتعتريه الحوادث سرورا وغما ويخاطبه العلم قائلا . كلا . فالصحة والمرض والغنى والفقر والعلم والجهل كلها عوارض والنفس هي هي معرض للسعادة والشقاء . يقول الفلاح ليتني كان لي مال كثير فلا أخرج إلى الحقل ولا أقف في الشمس طول يومي لزرع حقلي ، إن الله غضب عليّ ولولا غضبه علي لأعطاني أرضا واسعة وأجلسني في الظل وأخذت أقابل الوفود من كل صوب يحادثونني ، فيقول له علماء الطب كلا أنت جهول أيها الفلاح إن من اتسع ملكه في الأرض وهو لا يعلم شروط الصحة كأكثر ذوي اليسار من جهال المصريين وغيرهم يعتريهم المرض لقلة حركاتهم وعدم تعرضهم لضوء الشمس القاتل للمكروبات الضارة بأجسامهم وهم لايعلمون ، فالله الذي علم غفلة عباده وجهلهم هو الذي تولى قيادة الشعوب والأمم وأكثر من الفقراء وقلل جدا من ملاك الأرض الواسعة ليكون هؤلاء الأقلون أشبه بفداء للأكثرين الذين أجاعهم فأخرجهم الجوع إلى طلب الرزق والرزق يكون بالعمل في الحقول بحرثها وسقيها والوقوف في الشمس ساعات من النهار ، فههنا أمور ثلاثة : طلب للرزق من الأرض ، وتعرض للشمس ، وحركات الأعضاء . الفلاح يحس بالجوع فيضطر لطلب الرزق وهذا الرزق لاعمل له إلا أن يمنع هذا الجوع (وبعبارة أخرى) لا عمل له عند الفلاح إلا إزالة ألم نسميه جوعا كما أنه لايتزوج إلا لطلب دفع الألم وهو الشبق هذا هو المقصد له فإما أن جسمه يقوى وإما أنه يلد وإما أن الحركات تساعد على هضم الطعام وإما أن الشمس وإلحاح ضوئها عليه طول النهار يقتل المكروبات (الحيوانات الدرية) التي هي أكبر عدو للانسان والحيوان وهي السم القاتل لكل حي فإنه لا ذكر لهذا كله عنده ولا وزن له ولا عبرة به ولا خبر بل إذا سمعه يحقره وهكذا إذا قيل له إن الجلوس في بيتك وإقبال الوفود عليك وعدم حركاتك وعدم تعرضك لضوء الشمس أو إذا قيل له إن أكلك اللآكل الدسمة وأنواع الفطير وكثرة أنواع الطعام مذهبة لصحتك مضعفة لك ذائبة بعمرك فإن الفلاح يحتقر هذا كله ولا يصدق أن قلة المال في يده وقلة النقود هي أكبر عون له على السعادة إذ لولا ذلك لم يعمل في الحقل ولم يتعرض لحرارة الشمس . هذه حال الناس أيام جهلهم لذلك تولى الله بنفسه علاج الأمم فأكثر من الفقراء وقلل من الأغنياء وجعل ذلك الفقر هو العلاج لأجسام هؤلاء الفقراء ، وأسمعنا ذلك في القرآن إذ قال « وإذا مرضت فهو يشفين » فإذا قلت حركات الإنسان لجهله أو إذا قدم الظل على الشمس

و

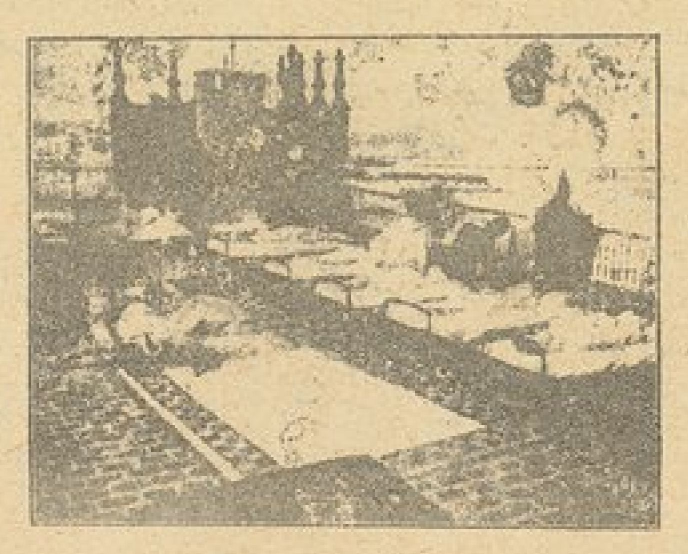
أو إذا أحب أكل الطعام الفاخر رحم الله عباده فألجأهم إلى الحركات فى طلب الرزق وعرّضهم للشمس ليقتل الأمراض الداخلة بالحركات ويقتل المكروبات بضوء الشمس ثم فى نفس هذه الحال يقلل المال عند أكثر الناس لئلا يبطروا فيأكلوا ما لذ وطاب فتذهب صحتهم ويكونون مرضى .

فلعمرى أى رأفة وأى رحمة أعظم من هذه ؛ عيال عليه لايميزون كما لم يميز الأطفال بين الضار والنافع فيمنعهم الآباء من تعاطى مايضرهم هكذا الله نظر إلى عباده فعاملهم كما نعامل نحن أطفالنا فجعل السواد الأعظم فقراء لتصح أجسامهم وجعل أقل الناس أغنياء . وقال هم فداء لكم أيها الفقراء فإذا مرض أكثرهم وصحت أجسام أكثركم فإنى أهتم بالاصلاح العام لأنه أولى .

هذا كله فى أيام جهل الأمم . أما إذا عم العلم فإن الجهلاء يفهمون هذه الحكم بطريق التعليم فيرضون وتكون عندهم سعادة على قدر مايشعرون فهم أفضل إذ ذاك من آبائهم الجهلاء ، وأما فريق الأغنياء فإن العلم ينقلهم إلى حظيرة الصحة ويتعرضون لضوء الشمس اختيارا لا اضطرارا ، وهاك مثلا مما جاء فى إحدى المجلات العلمية وهذا نصه :

الاستشفاء بأشعة الشمس

أصبحت المداواة والتقوية بأشعة الشمس أهم ظاهرات العلاج فى المستشفيات والمصحات الأوروبية والأمريكية . ويقول الاخصائيون من علماء الطب إن أشعة الشمس أنجع دواء لعلاج كثير من الأمراض وأن الفتاة التى تداوم كل يوم على التعرض للأشعة ساعة من الزمن تنال الصحة التامة والجمال المشرق البهجة وترى فى هذه الصورة (انظر شكل ١٠) قسما من مستشفى الأشعة فى فندق ابفرجلاد بكاليفورنيا وأكثر قاصديه من الفتيات الحسان . فهل آن لفتياتنا أن لا يخفن من التعرض لأشعة الشمس لأنها تسود وجوههن ؟ وهل من الجمال أن تبدو صفراء منتقعة اللون لحرمانها من أشعة الشمس اهـ .



(شكل ١٠ رسم قسم من مستشفى الأشعة فى مصح فندق ابفرجلاد بكاليفورنيا)

أقول إياك أن تظن أن معنى هذا أن تقف أو تقعد فى الشمس بدون علم ولا هدى ولا كتاب منير وإنما يجب أن تستشير الطبيب الصادق وإلا فاقرأ ماتقدم فى هذا التفسير فى (سورة يونس) فإنك ترى هناك ذكر الاستشفاء بنور الشمس وأنه يكون بالتدريج والمحافظة على الرأس وليس معنى هذا أنك تأخذ ماقيل هنا قضية مسلمة بدون بحث ولا تنقيب كلا .

إذا عرفت هذا فهمت قوله تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » فالفلاح الفقير يشفيه بحيلة وهى أنه يجيعه وهذا الجوع يقوده إلى الحركة وإلى ضوء الشمس والتعلم الفنى يشفيه بحركات المشى والعمل والتعرض لضوء الشمس بسبب العلم وهكذا . إذن الشفاء قد يكون له (سببان) سبب طبعى وهو الجوع المسبب للحركة والعلم المسبب للعمل ، فهذا من المعانى الداخلة فى قوله «وإذا مرضت فهو يشفين» .

ومن أسباب الشفاء تلك الرؤيا التى رآها قدماء الأطباء ومنها التجارب المذكورة وهكذا . إذن ظهر أن الشفاء من الله ولكن بالأسباب فالأسباب كلها مسندة إليه وهو الذى هدانا لها وهذا معنى قوله تعالى «ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم » فحال الجهل ـ التى تجعل الانسان كافرا بالنعمة بحيث يلجأ إلى أن يتعرض للشمس وإلى أن يحرك أعضاءه للعمل قهرا بدافع الجوع وحده ـ حال غير مرضية عند الله أى أن الله لايحب أن يبقى عباده جهالا بما حولهم وبما يعترى أنفسهم أى أنه لا يحب أن يبقوا كالأطفال تحت مراقبة آبائهم بل هو يحب أن يعرفوا النعمة ولا سبيل لشكر النعمة غير المعرفة فلذلك قال سبحانه وتعالى «وإن تشكروا يرضه لكم» فالفلاح لايعد ظهوره فى الشمس نعمة بل يقول إنها نقمة ولا يعد الحركة نعمة ويظن أن صاحب الأرض الذى هو طول النهار فى الظل وهو مريض لقلة الحركة أسعد منه حالا وذلك كله من الجهل .

تجربتى فى هذا المقام

أقول وأنا اليوم وقعت فيما وقع فيه الفلاح فى الحقل . ذلك أنى اليوم أكتب فى التفسير وليس لى هم فى هذه الحياة أعظم منه فأراه منية نفسى وأعظم مقاصدى قد ملك على مشاعرى بل أصبح أعظم اللذات . ولكنى أرى قواطع وقواطع من أعمال داخلية وأخرى خارجية توجب أن أقطع العمل وأجدّ فى تلك الأعمال وأسافر خارج القاهرة ، وقد خلق الله لى من يناوءونى فى أمور تافهة فى الحقل وفى أمور صغيرة جدا فأوازن مابين السعادة التى أحس بها فى كتابة هذا التفسير وبين الشقاء الذى أحس به فى الانقطاع عن مواصلته والبحث عن مدافعة هذه القواطع فماذا أفهم فى هذا ؟ أفهم فيه أن الله عاملنى معاملة الفلاحين فى الحقول فقال لى بلسان الحال أنت اليوم مستلذ بما تكتب وتعكف عليه وهذا ربما يسبب ضررا فى صحتك وضعفا فى قواك العقلية لأن المداومة على فكر واحد تؤثر فى المخ ولست أكتفى بمعلوماتك فى الطب وهى قليلة فلا تقوى على حفظ صحتك ولا تكفى الرياضة الجسمية التى تقوم بها لأنك تقوم بها مختارا واختيارك وحده غير كاف فلذلك خلقت لك من يناوئونك فى الحقل لحفظ صحتك لأنى بهذا أخرجك فى الهواء الطلق فتسافر وتقابل الناس وتحادثهم فيحصل هناك تعادل فى قواك وتنوع فى الفكر وفى الحركات وتذكر أن نبيك محمدا صلى الله عليه وسلم مع أنه نبى أوحى اليه كان يخرج للغزوات ويسافر ويقوم بأمر الأمة ولم يقطعه ذلك عن الدين والعلم بل أنه فى آخر الأمر كان ينزل عليه الوحى وهو فى سفره وجهاده والحرب قائمة فلتكن لك من ذلك موعظة ولترض بما حملته . هذا مافتح الله به يوم ٢٨ مارس سنة ١٩٢٩ أكتبه ذكرى لأولى الألباب .

هذا عمل الله فى الأفراد . أما عمله فى الأمم فإنه علم أن أمم العالم اعتراها الخمول فى بلاد الشرق وبلاد الغرب ، فبلاد أمريكا كانت قد وصلت إلى درجة الانحطاط بعد العز والمدنية بدليل ماوجدوا فيها هذه الأيام من آثار

المدنية والحضارة والمباني العظيمة كأهرام الجيزة بمصر وكانت بلاد اليابان والصين والهند كلها تحكم تخيم عليها الجهل والخرافات والنصارى بأوروبا قد أصبحوا في غاية الخضوع للقسيسين وهم في حال الوحشية والهمجية فأرسل الله سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم ، فقامت الأمة العربية بالحمية الدينية فهزت العالم من أقصاه إلى أقصاه فترى الدولة الأموية بلغت جبل طارق وسطت على اسبانيا وفرنسا وزعتهما من الجرمانيين الحاكمين عليها منذ ثلاثة قرون وهكذا فعلوا في بلاد المشرق ووصلوا إلى الهند وإلى أطراف الصين . فانظر مايقوله العلامة (سديو) صفحة ١٠٣ :

(خرج من عمان لفتح الهندستان أساطيل إسلامية سنة (١٦) هجرية فأخذت جزيرة طناج القريبة من مدينة بمباى ومن جزيرة البحرين أساطيل أخرى دهمت في خليج كامبى (مدينة بارود) وخرجت أساطيل ثالثة إلى مصاب نهر السند ثم أخذ عبد الله بن عامر سنة ٢٣ بلاد كرمان وسجستان ثم حارب والى اقليم مكران وملك السند فقتلهما وأخذ عبد الرحمن بن سمرة بعد ذلك بسنين قليلة (إقليم داور) ومدينة (بست) فكان مملكتا قبول والسند حدود الممالك العربية ، ثم ذكر بعد ذلك أنهم وصلوا إلى جبال (همالبا) ثم أخذوا بلاد (خوارزم) وماوراء النهر ومعظم مملكة التتار وأحرقوا أصنام (مدينة فرغانة) و (تخشب) و (بيكند) و (بخارى) و (سمرقند) سنة ٩٤ و (مدينة كشغر) و(اقصوا) و (خوكان) وبعث الأميرقتيبة من قبل الحجاج اثنى عشرسفيرا إلى ملك الصين وهددوه بالإغارة فغمرهم بعطايا الذهب الوافرة اتقاء لشرهم وحكم قتيبة مملكة قبول بشرق سجستان وأخذ منها الجزية فلحقه جيش في أرض مكران وانتشر في سهول مدينة (كشمير) ودافعته مدن على شواطىء السند فهزم هؤلاء، وهكذا كانوا يناوءون ملوك القسطنطينية، هذا هو الذى حصل منذ (١٣) قرنا ، لم ذلك ؟ كان ذلك لإثارة القوى الانسانية في الشرق والغرب إذ كانوا نياما ، فها هى ذه الأمم النائمة استيقظت وهذه الحركة العمرانية انتشرت في الغرب والشرق والمسلمون الذين قاموا بهذه الحركة جميعا ناموا أكتعين ابتعين أبصعين . وكأن الله يقول لنا ليس نومهم دائما . كلا : فكما سلطتهم على الناس فأيقظوهم هكذا أنا أسلط الناس عليهم ليوقظوهم فهاهى ذه المدافع والطيارات والغازات الخانقة وشن الغارات عليهم صباحا ومساء والجيوش الأوروبية تصبحهم وتمسيهم ، لماذا هذا ؟ كل هذا لايقاظهم من نومتهم ولقد استيقظ كثير منهم وسيتبعهم الباقون ، يظن الجهال من المسلمين أن هذه الحروب وهذا الإذلال نقمة .

نعم هو نقمة ظاهرا ولكنه نعمة باطنا فهو أشبه بالجوع في مثال الفلاح في الحقل الذى قدمته لك في هذا المقام .

أجاع الله الفلاح وقلل ماله فسعى للزرع فتحركت الأعضاء للعمل وأصابته الشمس وأكل الطعام فكان للجوع [ثلاث فوائد] غذاء بالطعام ، ودواء بحركات الجسم ، وضوء الشمس ، فالجوع ضرر واحد أنتج ثلاث منافع . إذن الجوع ليس ضررا بل هو نفع بل هو لغة يخاطب الله بها عباده بل هو أفصح من اللغات هذه لغة الجوع .

أما لغة احتلال مصر وتونس والجزائر ومراكش وطرابلس وبلاد الشام وفلسطين والعراق بالطليان وفرنسا وانكلترا فهى تشبه هذه شبها تاما : فالله بهذا الاحتلال يقول لنا .

(١) تعلموا جميع العلوم .

(٢) ويقول تعلموا جميع الصناعات .

(٣) ويقول لنا أيها الناس (تعارفوا) .

فهذه فوائد إذلال المسلمين الآن : إن إذلال الأمم لمنفعتها وإذلال الأفراد لمنفعتهم ، إذن الله عز وجل

حكم بعطى الدواء على مقتضى الداء. الله علم ضعف هذا الإنسان فى الأرض فجعل له ديانات مختلفات ليفعل ذلك فعل الجوع فى الجهلاء ، الله سلط الناس بعضهم على بعض لتستخرج قواهم بهذه العداوة . يقول الله تعالى : (ثم استوى إلى السماء وهى دخان، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) قالت السموات والأرض أتينا طائعين . لماذا ؟ لأن المدبر لها ملائكة والملائكة تدبر حركات هذه الكواكب الكبيرة فلا تخطئ . أما هذه العوالم الأرضية كالأمم الاسلامية والافرنجية فانها تساس بطرق أخرى ولا سبيل لذلك إلا ببعث البواعث فى عقولهم بالديانات تارة والعداوات أخرى فسلط المسلمين على الأمم ثم أنامهم وأيقظ الأمم وها هى ذه الأمم تحيط بأكثر المسلمين وهذه الإحاطة نعمة لأنها بعثت فينا الهمم. ومن ثمراتها كتب كثيرة وخطب. ومنها هذا التفسير الذى جعله الله مقدمة النهضة مصاحبة لظهور الطيارات فى الشرق والغرب ، ومتى ارتقى المسلمون قريبا سيشتركون مع الأمم فى رقى الانسانية العامة . إذن السموات والأرض أتتا طوعا .

أما المسلمون واليهود والنصارى وغيرهم فإنهم أتوا كرها لا طوعا والاكراه بالأمراض فى أجسامهم والفقر وقلة المال وحبس المطر والعداوات بينهم ليجدّوا فى العمل فيعيشوا سعداء. وهذا هو قوله تعالى «وإذا مرضت فهو يشفين» فهو الذى لما مرضت الأمم بالكسل شفاها بالعقاقير الاسلامية ، إذ حاربهم الجيوش ، ولما مرض المسلمون بالكسل والجهل سلط عليهم الأمم فحاربوهم وخلق لهم مؤلفين ليوقظوهم ، ومن التآليف هذا التفسير الذى هو من الأدوية التى ساقها الله للمسلمين لايقاظهم ورقيهم تفسيرا للآية والله هو الولى الحميد .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى : « إلا من أتى الله بقلب سليم » مع قوله تعالى « الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعمنى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يميتنى ثم يحيين » مع ملاحظة ما جاء فى أول السورة من الأمر بالنظر فى الأرض ونباتها على لسان رسولنا صلى الله عليه وسلم ، ووصف السموات والأرض وخلق بنى آدم قديما وحديثا وخلق المشرق والمغرب على لسان موسى عليه السلام ﴾

يقول الله تعالى على لسان إبراهيم «يوم لا ينفع مال ولا بنون» الخ ، فهنا ذكر الطعام والشراب والمرض والشفاء والموت والحياة كما ذكر خلق العوالم كلها وخلق الإنسان خاصة ، فياليت شعرى لم خلق هذا الانسان على الأرض ؟

فكرتى فى خلق هذا الإنسان بمناسبة هذه الآية

اعلم أن هذا الإنسان لا يهمه فى الحياة إلا المحافظة على هذا الهيكل المنصوب ، فكل علم وصناعة وإمارة وتجارة ترجع إلى المحافظة على هذا الهيكل . إن الله لما خلق هذا الإنسان جعل له حافظا من نفسه وواعظا من نفس هيكله وموقظا من جسمه ، وما هو ذاك ؟ هو الألم ، فالألم هو الناموس العام الذى نصبه الله فى الأرض برحمته فسبحانك اللهم ، نعم أسبحك يا الله ، أنزهك عما يؤذينا ، إنك لم تجعل الألم فينا لمجرد الإيذاء ، بل جعلته نعمة ولولا هذا الألم فى الحيوان وفى الإنسان لم يبقيا .

إن الله عز وجل لما خلقنا فى هذه المادة لم تكن هناك وسيلة فى هذا العالم المادى لبقائنا إلا بالآلام ، فنحن ننزهك فى صلواتنا فنقول «سبحان ربى العظيم» فى الركوع و «سبحان ربى الأعلى» فى السجود ونسبح عقب الصلوات ، وقد مدحت يا الله يونس عليه السلام فقلت « فلولا أنه كان من المسبحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون» فالمسبحون هم الذين أدركوا أسرار هذا الوجود واغترفوا من بحار الحكمة فعرفوا أن كل ما فى هذا العالم من الآلام لم يقصد الله منه إلا المنفعة وأن الضر القليل ينتج الخير الكثير وهذه طبيعة عالمنا .

هذا هو القانون . فالتسبيح الحقيقى هو إدراك هذه المعانى ، فاذا سمعت المسلمين صباحا ومساء يسبحون .

فإياك أن يختلج فى قلبك أن اللفظ هو كل المقصود . إن الله لايصل إليه إلا أناس ارتقوا عن هذه الأوساط الإنسانية وعرفوا نواميس هذا الوجود بقدر طاقتهم وهؤلاء وحدهم هم الذين يفهمون لم كان الطعام ولم كان الشراب ولم كان المرض ولم كان الموت الخ ، وينظرون إلى تلك الأحوال نظر الطبيب إلى الأدوية المعطاة للمريض .

إن الطبيب لايبالى بآلام المريض لأنها عنده لاقيمة لها فى جانب منفعته ، فمن عرف هذه الأسرار عرف السر فى كثرة التسبيح والتقديس الواردة فى الكتب السماوية ، ومتى أدركت النفس سر الوجود نزهت الله عن الايذاء قصدا بل هو ترقية وإسعاد لا إشقاء ، فلنبحث إذن فى ألم الجسم ليتضح المقام وينشرح صدرك للفهم والعلم والحكمة فإن الذى ذكرته إنما هو مقدمة لجمال المقال .

إن هذا الجسم الإنسانى كما قدمنا لا حياة له ولا بقاء ولا سعادة إلا على قاعدة الألم . وبيانه أن الألم قسمان : ألم داخلى وألم خارجى . أما الألم الداخلى فهو الجوع والعطش والشبق لطلب الطعام والشراب والوقاع لصحة الجسم وبقاء النوع بحصول الذرية ، وأما الألم الخارجى فذلك بالحر والبرد وتظاهر الأعداء من الوحوش والحشرات والأشرار من نوع الإنسان فكان لابد من اللباس والمسكن والقلاع والحصون والجيوش والعدد . وهذا هو الذى حكم على هذا الانسان بالصناعات والحرف والزراعة والتجارة الخ . ولهذا فتح المدارس ونظم المدن وعظمت المدنية . إذن الأمر كله راجع لهيكل الإنسان والمحافظة عليه فهذا هو الأصل وهذا الهيكل له حامل والحامل له فرعان: هما الألم الداخلى والألم الخارجى ، وما ألم المرض بخارج عن هذين الفرعين لأن المرض من داخل ومن خارج .

اللذة تلازم الألم

ومن عجب أن هذه الآلام مهما تنوعت صحبتها اللذة ولا لذة إلا بسابقة ألم ، فالألم واللذة كفرسى رهان أو كالشبح وظله ، هما شيئان متلازمان وعلى مقدار الألم تكون اللذة ، ومن فقد الألم فقد الحياة . ألا ترى رعاك الله أن الإنسان إذا لم يحس بألم الجوع حزن وذهب إلى الطبيب شاكيا له فقد هذا الألم . وإذا لم يحس بالشبق حزن وذهب إلى الطبيب شاكيا له هذا المرض . ذلك علما منهما أنه إذا لم يكن ألم الجوع فلا طعام وإذا لم يكن ألم الشبق فلا وقاع ، كما أنه إذا لم يكن عطش فلا لذة فى الشرب ولا شراب .

الله أكبر . إذن الألم كمال لانقص فإننا أثبتنا أن عدم الجوع نقص فالجوع كمال . فكما نقول الذى لايقدر على التكلم ناقص هكذا نقول الذى لايجوع ناقص لأنه لا داعية عنده لطلب الأكل . إذن الألم قوة كمالية لأنها سبب فيما به قوام أبداننا ، وما ألم المرض إلا كمال لأن ألم المرض إحساس يؤدى إلى تعاطى الدواء كما أن ألم الجوع كذلك فلو لم نحس بالنقص فى أجسامنا عند المرض لمتنا ، وأى فرق إذن بين من يحرق بالنار وهو لايحس وبين من يمرض فلا يحس فنحن لو لم نحس باحراق النار لمات أكثر الناس وهم لايبالون بما يصيبهم منها . هكذا لو أن المرض أصابنا ولم نحس به لزال أكثر هذا الإنسان من الوجود . إذن ألم المرض نعمة وألم الجوع نعمة . إذن لايكمل دين المسلم إلا إذا عرف معنى «سبحان الله والحمد لله» وعرف قوله تعالى «فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون» .

هذا معنى «وإذا مرضت فهو يشفين» . فالخير والشر مقرونان فى قرن ، والخير متبع والشر محذور ، وهذه نفسها حال العشاق إذ يقول شاعرهم :

إذا لم يكن فى الحب صد ولاجفا   فأين لذاذات الرسائل والكتب

ولقد حكم (سقراط) على من لاعفة عندهم بأنه لالذة لهم . إذن علمنا حكم هذا العالم فهذا العالم فيه ليل

ونهار وظلمة ونور وحياة وموت ، وبالجملة فيه كل متقابلين لذلك بنيت حياتنا على هذه القاعدة فكانت الصحة وكان المرض كما كان الجوع والعطش وتعاطى الطعام والشراب وهكذا الموت والحياة ، ويظهر لى أن عقولنا لو أنها ارتقت عن هذه الحال قليلا وأدركت سر الوجود لفرحت بالموت كما فرحت بالحياة لأنها إذ ذاك تكون قد اتصلت بالعوالم العلوية التى تدرك الحقائق وإدراك الحقائق هو نفس السعادة .

﴿إيضاح الكلام على اللذات﴾

لقد علمت أنه لا لذة إلا بألم فى كل شىء . فلا شفاء إلا بعد ألم المرض وآلام تعاطى الدواء . ولا فرح بالغنى إلا بعد الفقر ، ولا بالنجاة إلا بعد البأساء . ولا بالعز إلا بعد الذل . ومن عجب أن الفرد له أعوان ينفعونه ويساعدونه والأمة لها أمم تساعدها بالمعاهدة والصداقة ومع ذلك نرى القاعدة الآتية مطردة وهى أن أقارب الإنسان هم أكثر الناس حسدا له بل كل من كان أقرب منك نسبا أو صناعة أو منزلا أو مرتبة أو علما كان أسرع إلى كراهة نعمة الله عليك وأحقد عليك وأبغض لك بطريق المنافسة وحب العلو . وهذه حال الأقارب من كل أمة ودين ونحلة . فهم آلام ومنهم لذات وعلى مقدار الاقتراب تكون العداوات . إذن قاعدة هذه الدنيا واحدة « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون » واتل عليهم نبأ ابنى آدم » الخ «قلنا اهبطوا منها جميعا بعضكم لبعض عدو ـ يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ـ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا » الخ هذه حال أقرب الناس إلينا وأحبهم وأقربهم منازل منا . ومثل هذا يقال فى الدولة وحليفتها فكل منهما تتربص بالأخرى الدوائر ، فاذا قلنا :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

نقول أيضا :

عدوك من صديقك مستفاد فلا تستكثرن من الصحاب
فان الداء أكثر ما تراه يكون من الطعام أو الشراب

إذن الألم مصحوب باللذة لافرق فى ذلك بين ما به بقاء الجسم أو النوع أو مايعين على ذلك كالأصحاب . إذن القاعدة مطردة ، ألم فلذة ، وغاية الأمر أن اللذة إما لشهوة كالحاصلة من الطعام والشراب والوقاع ويلحق بهما الحاصلة بلباس الجسم لاتقاء الحر والبرد ، وإما غضبية كاللذة الحاصلة بقهر الأعداء من وحش وإنسان فهذه لذة أعلى من سابقتها ومنبعها ومحل آثارها فتحات القلب وهى الأذينان والبطينان ، فهذه الفتحات الأربع محل توارد الدم فاليها يرد ومنها يصدر صاعدا ونازلا فى الجسم من فرق الرأس إلى أخمص القدم ومتى أحس الإنسان بما يمس إحساسه وصل الخبر من الحواس إلى الدماغ والدماغ يرسل حالا بأعصاب الحس رسولا عصبيا أشبه بالبريد البرقى (التلغراف) فيصل الخبر للدم فى القلب فيسرع فى الجريان ويضطرب ويهتز الجسم كله ويضطرم بنار الأخذ بالثأر ويحتدم ويغلى كالمرجل ، فهذه قوة أرقى من سابقتها ومتى أخذ بالثأر سكنت ثائرته وهدأت حركاته واطمأنت نفسه وتكون اللذة على مقدار الألم وإنما تكون أعلى من لذة الطاعم والشارب واللابس والمواقع ، فكل هؤلاء لذاتهم تشاركهم فيها جميع الدواب والأنعام . أما لذة الانتصار فهى خاصة بطبقة أرقى وهى الوحوش والآساد والنمور فلذلك كانت أرقى من سابقتها ، فاتضح بهذا كله أن الغنم فى الحياة بالغرم واللذة مقرونة بالألم وهذا الألم نعمة لا نقمة ويشير لذلك قوله تعالى «ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن » فجعل العذاب ممن اتصف بالرحمة ، ثم أقول إياك أن تكدر صفو العلم هنا بأن تذكر الكافر وعذابه فهذا المقام لا يسع تفصيله ولقد قدمته فى مواضع كثيرة كالذى فى آخر (سورة هود) عند قوله تعالى « فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير » الخ . إذن هذا الوجود كله لم تخلص فيه لذة

من

من ألم حتى نفس العلم بتقدمه جهل ولولا الاحساس بنقص الجهل ما كانت لذة العلم فى هذه الأرض . فما الحكمة فى ذلك يا ترى ؟ وهل الحكمة الإلهية لم يكن سبيل عندها لإسعادنا أقرب من هذه ؟ ولماذا لم تكن اللذة خالصة ؟ أليس هذا أليق بمبدع العالم .

أقول : اعلم أنى لما فكرت فى هذا أيقنت بأن صانع هذا العالم خلقنا فى الأرض وهو يعلم أن هناك عالما أرقى منه فلم يشأ أن يجعلنا مطمئنين فيها بل ابتلانا بالخير والشر وقال «ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون» يعنى أنه لو لم يكن عندكم إلا الخير ولم نصبكم بالشر لم تحنوا إلى حال أرقى من حالكم التى أنتم عليها ، لذلك قرنا خيركم بشركم لتبحثوا عن حال تكون كلها سعادة وخيرا وارتقاء ولذلك قال « وإلينا ترجعون » فرجوعكم إلينا لا يكون بشوق إلا إذا أصبناكم بالآلام فتكرهون المقام فى الدنيا فلا تزالون فى جوع وشبع وفقر وغنى وحسد وقرابة وحب وبغض حتى تنتقلوا إلينا وتخلص نفوسكم ، ومتى خلصت نفوسكم كانت هناك السعادة التى لا شقاوة معها وهذا كله معنى قوله تعالى «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم» فالقلب السليم هو الذى خلص من هذه المتناقضات وارتقى عن هذه الدرجات ولم يكن كالغافلين الذين قال الله فيهم « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » لماذا هذا . لأنى أذقتهم الحلو والمر والخير والشر فرضوا بهذه الحال ولم يعقلوا الجمال فى هذا الوجود ثم قال « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم » الخ لأن هؤلاء رأوا حالا ناقصة ففزعوا لأحسن منها وفهموا قوله تعالى «ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون» إذ عرفوا أنهم خلقوا بين آلام ولذات كحزن وفرح وخير وشر ومرض وصحة ففروا من هذا العالم بعقول ولذلك أعقبه بقوله « ففروا إلى الله » إذن قوله تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » يقصد من هذه المتناقضات الفرار إلى الله لنكون « عند مليك مقتدر » .

الإبداع فى هذا الوجود

قلنا إن الألم داخلا وخارجا هو الباعث على العمل ، ومن عجب أن الطعام والشراب ولذة التناسل ولذة الغلبة مع اقترانها بالآلام صاحبت إدراك الجمال ، فهذا الوجود من سموات وأرضين كما أنه غذاء ودواء وفاكهة وشراب هو لوح يدرسه الناس وهو علم وهو جمال . فانظر لآلام حفزتنا إلى طلب الطعام والشراب فبقيت أجسامنا حية ونفس النبات والحيوان مصنوعات صنعا دقيقا يصير دراسة لنا فيرقى عقولنا ومناظر النبات والحيوان فى البر والبحر وكذا النجوم فى السموات ، كل هذه ترينا الجمال ، فكما عاشت بها أجسامنا ارتقت بها عقولنا علما وابتهجت أنفسنا بجمـ ـا وبهجة أشكالها ، فهى الغذاء وهى الرياضة البدنية وهى الدواء وهى الجمال وهى العلوم فهذا هو الإبداع ، فالذين أرسلوا لهذا العالم وبقوا فيه أغبياء لم يعقلوا علوم هذا النبات وهذه الحشرات وهذه السموات ، أى لم يتفكروا فيها فإن هؤلاء غافلون والغفلة متى استحكمت فى طائفة لم يتأهلوا للقاء ربهم وهل يجالس السوقة الملوك ؟ فالأغبياء يكتفون من الحياة بقشورها « وفرحوا بالحياة الدنيا» مع أن الدنيا كلها كدر وكيف يفرحون بوجود ضئيل زائل «وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع» فهذه الآلام فى الدنيا كأنها مخاطبة من الله للناس بلسان الحال فمن فهم الخطاب وأدرك أن هذه الآلام يراد بها استيقاظ النفس لإدراك العلم والجمال والحكمة طار إلى ربه فرحا وأحب الموت وسارع إلى لقاء ربه ومن لم يفهم هذا الخطاب ولم يعقل ما يراد به بقى مسجونا فى عالم ضئيل مهان معذب على حسب مرتبته . هذا هو السر فى الآلام التى نحس بها .

إن المتأمل لأهل الشرق ولأهل الغرب يجدهم متعاونين وإن لم يعلموا كل ينفع الآخر وإن لم يعقلوا وهم

مع ذلك أعداء، وهم يظنون متنابذون متشا كسون. أهل الكرة الأرضية ينفع بعضهم بعضا بالتجارة وبالصناعة وكل لكل مساعد . هذه الحياة كلها حيرة واضطراب . وإذا وجدنا الفرد منا يألم إذا لم يكن عنده ألم الجوع لاعتقاده أن عدم ألم الجوع نقص أى أن نقص الألم فينا عيب فى أجسامنا ، فإنا نجد المجموع يألم إذا لم تقم حرب .

ألا ترى ما قاله علماء الألمان قبيل الحرب الكبرى العامة إذ كانوا يقولون (إن الأمة التى أصبحت آمنة مطمئنة يكون مصيرها الزوال ومن أراد رق أمة فليذر الحية فيها بحرب فإنها تبعثها من مرقدها) وانظر إلى ما جاء فى مواضع من هذا التفسير أن أرسطاطاليس قال لتلميذه إسكندر فى الرسالة المنسوبة إليه (إن الأمة الآمنة المطمئنة إذا أصبح أفرادها غير موكول إليهم نظام ولا مجدّين فى أعمال عظيمة فإن هؤلاء يزلون إلى الحضيض ويصبحون فى ملك غيرهم يتولى أمرهم) إذن لافرق بين الأجسام الانسانية والأجسام المجازية الاجتماعية وهى الأمة بتمامها ، فالفرد إذا لم يحس بالجوع مثلا والأمة إذا لم تؤلمها الحوادث وتهذبها النوازل والكوارث فإن الفرد وإن الأمة يعتريهما إذ ذاك الاختلال والاعتلال . إذن ثبت بهذا أن حياة الأفراد وحياة الأمم لاتتم إلا بشر يصيبهم ومصائب تنزل بهم وإلا لم يرتقوا . وأذكرك بما تقدم فى سورة البقرة إذ ذكرت لك (لغز قابس) اليونانى القائل (إن الإنسان الذى لم تهذبه الحوادث معرض لنوائب الحدثان لايزال ذليلا وليس يحظى بالسعادة إلا من مرت النوازل والمصائب عليه) وهكذا كتاب « الكوخ الهندى » وقد أشرت إليهما فى سورة البقرة عند قوله « وبشر الصابرين » إذن العلم شىء ورأى الجمهور شىء آخر وبناء عليه تكون هذه الحياة مبناها النقص فليبحث الناس عن حياة أرقى من هذه .

فقال بعض الفضلاء بعد ما اطلع على هذا : هذا كلام حسن أى إننا لانجعل هذه الحياة هى المقصودة بدليل أنها لاتكون كاملة فى مرتبتها إلا بالآلام وما أقبح حياة يكون من شروطها الشر فأى خير فيها ؟ هذا حسن ثم إن قوله تعالى « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله » أظهر لنا الموضوع وجلاه وجعله بهجا بديعا حسنا وأصبحنا نفس مقصود حياتنا الدنيا فهى شر وخير والفرار إلى الله يجعلنا فى خير لاشر فيه .

اعتراض على المؤلف بأنه لامسبح إلا من يعرف هذه المعانى

ولكن أنت قلت إن التسبيح فى الديانات كتسبيح يونس فى بطن الحوت يفهمنا أن المسبح الحقيق من يدرك هذه المعانى ويعرف أن الله بهذه الآلام أنعم علينا بنفس الآلام وأنه بهذا منزه عن إيذائنا، فعلى هذا القول تكون رسالته ﷺ خاصة بأفراد عد الأصابع فى كل جيل من الأجيال . إن الذين يعلمون ما تقول فى هذا المقام قليل . إذن المسلمون فى (١٣) قرنا أى بعد العصر الأول لم يسبح الله منهم إلا أناس أقل من القليل وعليه تكون الصلوات والتسبيحات كلها لافائدة منها. فقلت له إن التسبيح اللفظى والعبادات كلها لها آثار فعلية فلا تسبيح ولاتحميد إلا وآثاره ترجع إلى النفس وتؤثرفيها كما يؤثر المنوِّم (بالكسر) فى المنوَّم (بالفتح) ولولا هذا لألغيت العبادات من الأرض والله عز وجل لايبقى إلا النافع ، ولقد قرأنا فى التاريخ وفى الألواح التى نصبتها الأمم فى كتبهم أنهم جميعا يعبدون والعبادة أقوال وأفعال وهذه كلها تؤثر بطريق الاستهواء الذاتى فكل قول يلفظ به جاهل أو عالم مع المعنى الإجمالى يؤثر فى النفس تأثيرا حقا فهو نوع من تنويم الإنسان نفسه ، إذن المنفعة عامة بالصلوات والتسبيحات لاخاصة بالعلماء والحكماء . فقال هذا حسن . فقلت الحمد لله رب العالمين .

واعلم أيها الذكى أن كلامى هذا لايعقله إلا قليل وهؤلاء القليلون يتأملون فيجدون أننا أشبه بكرة

يتجاذبها الحزن والفرح والقرب والبعد والبكاء والضحك والجمال والقبح فمتى عرفوا ذلك يقولوا نريد حياة بحال أرقى فيقال لهم « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » إذ مابعد النقص إلا الكمال ، فمن فهم هذا فهم قوله تعالى « إلا من أتى الله بقلب سليم » وقوله « ونزعنا مافى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » أما إخوان الدنيا فهم حاسدون قد شاب الضر نفعهم كالطعام والشراب والدول والممالك انتهى ليلة ٢ إبريل سنة ١٩٢٩ م (نصف الليل) .

ولنرجع إلى بقية التفسير اللفظى للقسم الثالث والرابع فنقول : قال تعالى (كذبت قوم نوح المرسلين) أى جماعة قوم نوح، وتكذيب نوح تكذيب للمرسلين لأنهم يدعون إلى صراط مستقيم واحد والاختلاف فى الطرق وفى الفروع ، وأما الأصول فهى واحدة الايمان بالله واليوم الآخر (إذ قال لهم أخوهم نوح) وقد كان منهم (ألا تتقون) الله فتتركوا عبادة غيره (إنى لكم رسول أمين) مشهور بالأمانة فيكم (فاتقوا الله وأطيعون) فيما آمركم به من التوحيد والطاعة (وما أسألكم عليه) على ما أنا عليه من الدعاء والنصح (من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . فاتقوا الله وأطيعون) كرره للتأكيد ولينبه على أن طاعته تجب عليهم لأمانته أولا ولأنه لايطمع فى مال منهم ثانيا وكل منهما وحده كاف فى دفع الشبهة عنه ووجوب طاعته ، فما بالك إذا اجتمعا فأوردوا عليه شبهة (قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون) الأقلون جاها ومالا جمع أرذل فإنك وإن كنت أمينا ولا تطلب منا أجرا فلا ضير عليك من هذه الوجهة إنما الشبهة واردة عليك فى اتباعك الفقراء الذين ربما أرادوا باتباعك أن تطعمهم من جوع وهذه شبهتنا فيهم ، فرد عليهم (قال وما علمى بما كانوا يعملون) أنهم عملوه إخلاصا أو طمعا فى مال وما على إلا اعتبار الظاهر (إن حسابهم إلا على ربى) ماحساب بواطنهم إلا على الله فإنه هو المطلع عليها (لو تشعرون) لو علمتم ذلك ولكنكم قوم تجهلون فتقولون مالا تعلمون . ولما كان قولهم إن أتباعك هم الأرذلون يفيد أنهم يريدون طردهم قال (وما أنا بطارد المؤمنين) بغية أن تؤمنوا بى على دعواكم أنهم هم المانعون لكم من اتباعى (إن أنا إلا نذير مبين) لا أفرق فى إنذارى بين عزيز وذليل فكيف يليق بى طرد الفقراء ، فلما أعيتهم الحيلة قالوا (لئن لم تنته يانوح) عما تقول (لتكونن من المرجومين) من المضروبين بالحجارة (قال رب إن قومى كذبون) فى الرسالة وقتلوا من آمن بى من الفرباء (فافتح بينى وبينهم فتحا) فاقض بينى وبينهم قضاء بالعدل (ونجنى ومن معى من المؤمنين . فأنجيناه ومن معه فى الفلك المشحون) المملوء (ثم أغرقنا بعد) بعد إنجائه (الباقين) من قومه . وقد تقدمت هذه القصة فى سورة هود مستوفاة فارجع إليها (إن فى ذلك لآية) شاعت وتواترت (وما كان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم) انتهى تفسير القسم الثالث والرابع من السورة .

(القِسْمُ الخَامِسُ)

كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا

بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون *
أمدكم بأنعام وبنين * وجنات وعيون * إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم *
قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين * إن هذا إلا خلق الأولين *
وما نحن بمعذبين * فكذبوه فأهلكناهم إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم
مؤمنين * وإن ربك لهو العزيز الرحيم * كذبت ثمود المرسلين * إذ قال لهم
أخوهم صالح ألا تتقون * إنى لكم رسول أمين * فاتقوا الله وأطيعون * وما
أسئلكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين * أتتركون فى ماههنا آمنين *
فى جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم * وتنحتون من الجبال بيوتا
فرهين * فاتقوا الله وأطيعون * ولا تطيعوا أمر المسرفين * الذين يفسدون فى
الأرض ولا يصلحون * قالوا إنما أنت من المسحرين * ما أنت إلا بشر مثلنا فأت
بآية إن كنت من الصادقين * قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم *
ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم * فعقروها فأصبحوا نادمين *
فأخذهم العذاب إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين * وإن ربك لهو
العزيز الرحيم *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (كذبت عاد المرسلين) أنث باعتبار القبيلة سموا باسم أبيهم (إذ قال لهم أخوهم هود ألا تتقون) إلى قوله (إلا على رب العالمين) كررت هذه العبارة فى دعاء الأنبياء للدلالة على أن دعوة الأنبياء لا تفيد إلا إذا كانت مقصورة على مايقرب إلى الله وثوابه ويبعد عن عقابه وهكذا العلماء لاينجح فى الناس تعليمهم إلا إذا كانوا مخلصين فى تعاليمهم كأنبيائهم وبغير ذلك لافائدة (أتبنون بكل ريع) بكل مكان مرتفع ، ويقال ريع الأرض ارتفاعها وكما يطلق الريع على الشرف من الأرض يطلق على الفج وهو الطريق بين الجبلين (آية) علما للمارة (تعبثون) أى بمن مر بالطريق لأنهم كانوا يبنون بالمواضع المرتفعة ليشرفوا على المارة والسابلة فيسخروا منهم ويعبثوا بهم (وتتخذون مصانع) قصورا مشيدة وحصونا مانعة ومآخذ الماء وهى الحياض (لعلكم تخلدون) أى كأنكم تبقون فيها خالدين لاتموتون (وإذا بطشتم) أخذتم وسطوتم وعاقبتم (بطشتم جبارين) متسلطين غاشمين بلا رأفة ولا قصد تأديب ونظر فى العاقبة (فاتقوا الله) بترك ذلك (وأطيعون) فيما أدعوكم إليه (واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون ، أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون) أى اخشوا الذى أعطاكم . ثم بين

ما أعطاهم فقال أعطاكم أنعاما وبنين ، وكرر التقوى لتفاوت المعنيين وهما ترك المنهيات فى الأول والحذر من انقطاع النعم إذا أهملوا فى الثانى وقد فصل النعم فى الثانى كما نبه على مساويهم بقوله «ألا تتقون» ثم أجمل ذلك كله بقوله (إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) فى الدنيا والآخرة وذلك العذاب يكون لفعل المعاصى أو لكفران النعم (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين) فإنا لانرجع عما نحن عليه (إن هذا إلا خلق الأولين) ماخلقنا هذا إلا خلقهم نحيا ونموت مثلهم ولا بعث ولا حساب (وما نحن بمعذبين) على مانحن عليه (فكذبوه فأهلكناهم) بسبب التكذيب بريح صرصر عاتية سخرناها عليهم (إن فى ذلك لآية) إلى قوله (وإن ربك لهو العزيز الرحيم ، كذبت ثمود المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم صالح) إلى قوله (إلا على رب العالمين) تقدم تفسيرها ، وقوله (أتتركون) إنكار لأن يتركوا خالدين فى نعيمهم (فى ماههنا آمنين) أى فى الذى استقر فى هذا المكان من النعيم آمنين من العذاب والزوال والموت ، ثم بين ذلك فقال (فى جنات وعيون ، وزروع ونخل) وخص النخل الداخلة فى ضمن الجنات تفضيلا للنخل على بقية الشجر (طلعها) أى ثمرها الذى يطلع منها (هضيم) لطيف يانع نضيج (وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين) بطرين أو حاذقين من الفراهة وهى النشاط فإن الحاذق يعمل بنشاط وطيب قلب (فاتقوا الله وأطيعون ، ولا تطيعوا أمر المسرفين) أى المشركين (الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) فإن المفسد الذى غلب صلاحه على فساده يجوز بقاؤه . فأما من غلب فساده على صلاحه أو كان فساده لا إصلاح معه فالهلاك أولى به (قالوا إنما أنت من المسحرين) الذين سحروا كثيرا حتى غلب على عقلهم (ماأنت إلا بشر مثلنا) هذا تأكيد (فأت بآية إن كنت من الصادقين) فى دعواك (قال هذه ناقة) وذلك بعد ماأخرجها الله من الصخرة بدعائه (لها شرب) نصيب من الماء كالسقى والقيت للحظ من السقى ومن القوت (ولكم شرب يوم معلوم) فلا تزاحموها فى شربها (ولا تمسوها بسوء) كضرب وعقر (فيأخذكم عذاب يوم عظيم) وعظم اليوم لعظم مايحل فيه (فعقروها) عقرها بعضهم برضاهم فكأنهم عقروها كلهم (فأصبحوا نادمين) على عقرها خوفا من حلول العذاب (فأخذهم العذاب) الموعود (إن فى ذلك لآية) إلى قوله (العزيز الرحيم) تقدم تفسيرها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الخامس .

(القِسْمُ السَّادِسُ)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَاخَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عَجُوزًا فِى الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا

فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ * كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط) إلى قوله (من العالمين) أي أتطئون الذكور من أولاد آدم مع كثرة الإناث فيهم (وتذرون ماخلق لكم ربكم) لأجل استمتاعكم (من أزواجكم) «من» تبيين لما خلق ويحتمل أن يكون للتبعيض: أي إنكم تذرون العضو المباح منهن وتجاوزونه إلى ماهو محرم فيهن لأن أدبار الزوجات والمملوكات محرمة (بل أنتم قوم عادون) متجاوزون الحد في الشهوة لأنكم تذرون ماهو محل التناسل من النساء إلى غيره منهن ومن الرجال (قالوا لئن لم تنته يالوط) عن نهينا وتقبيح أمرنا (لتكونن من المخرجين) من المنفيين من بلادنا (قال إني لعملكم من القالين) من المبغضين غاية البغض فأنا أحد المبغضين فلست وحدي في هذا الانكار ، ثم رجع إلى ربه فقال (رب نجني وأهلي مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين) أهل بيته والتبعين له على دينهم إذ أمرنا بإخراجهم من بيوتهم وقت حلول العذاب (إلا عجوزا) هي امرأة لوط (في الغابرين) أي كائنة فيمن بقوا في القرية فإنها لم تخرج مع لوط فهلكت مع الهالكين (ثم دمرنا الآخرين) أهلكناهم (وأمطرنا عليهم مطرا) أمطر الله على شذاذ القوم حجارة من السماء فأهلكهم ، وقيل بل أتبع الائتفاك مطرا من حجارة (فساء مطر المنذرين) مطرهم (إن في ذلك لآية) إلى قوله (لهو العزيز الرحيم) تقدم تفسيرها أيضا .

لطيفة في قصة قوم لوط عليه السلام

اعلم أن الله عز وجل أذن اليوم بإبراز العجائب والحكمة في القرآن لتقر به النواظر وتنشرح به الصدور ولتستقر الأمور ، فانظر أيدك الله إلى ماجاء اليوم من الكشف والعلم في هذه القصة في المجلات والكتب مثل [مجلة السياسة] الأسبوعية يوم السبت ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٨ وهذا نص ماجاء فيها :

قصة سدوم وعمورة

(هل هى حقيقة أم خرافة ؟ أحدث آراء علماء الآثار)

فى الكتب المنزلة أن الله أهلك مدينتى سدوم وعمورة وثلاث مدن أخرى بجوارهما بأن أمطر عليها نارا وكبريتا من السماء فلم ينج من سكانها سوى إبراهيم الخليل وأهل بيته ولوط وابنتيه ، ولم يكن إبراهيم من أهل تلك المدن . وإنما كان قد نزح إليها من الشمال طلبا للمرعى حسب عادة القبائل الرحل فى ذلك الزمن ، وقد اختلف المؤرخون فى قصة سدوم وعمورة ، فذهب بعضهم إلى أنها خرافة لا طائل تحتها ، وزعم آخرون أنها قصة رمزية ترمى إلى العظة والذكرى ، وقال فريق ثالث إنها حقيقة وإن فى آثار البلاد المجاورة للبحر الميت مايثبت صدقها ولعل الدكتور (أولبرايط) المشهور بمباحثه الأثرية فى بلاد المقدس فى مقدمة الذين سعوا لمعرفة حقيقة قصة (سدوم وعمورة) التى قد مر عليها أربعة آلاف سنة وهى لاتزال من الأسرار المستغلقة على علماء التاريخ ، ويظهر من المباحث الأخيرة التى قام بها أن تلك القصة حقيقية بجميع تفاصيلها وأننا على وشك اكتشاف مأساة من أفظع المآسى التى شهدها التاريخ .

قام الدكتور (أولبرايط) بمباحث واسعة النطاق فى وادى الأردن وعلى سواحل البحر الميت وهما المكانان الوحيدان اللذان يظن أن سدوم وعمورة والثلاث المدن الأخرى كانت فيهما ، وقد انتهى من المباحث إلى هذه النتيجة وهى أن القصة الواردة فى الكتب المنزلة ليست خرافة ولا رمزية بل هى تاريخية بجميع تفاصيلها وجزئياتها . وخلاصة هذه القصة هى أن حوالى القرن التاسع عشر قبل الميلاد انحدر إبراهيم الخليل من بلاد مابين النهرين إلى فلسطين ومعه أهل بيته وابن أخيه لوط وأهل لوط ومع كل منهما مواش كثيرة وفى رواية التوراة أن الأرض لم تحتملهما لكثرة ماكان معهما من الغنم والبقر والرعاة ، وأنه حدثت مخاصمة بين رعاة مواشيهما فافترق لوط عن إبراهيم حفظا للسلام . واختار لوط دائرة الأردن أى الوادى الذى كانت فيه سدوم وعمورة وأقام بسدوم . واختار إبراهيم المرتفعات التى فى الشمال وضرب خيامه فى موضع يقال له (بلوطات ممرا) وأقام هنالك مذبحا لله لأنه كان مؤمنا . أما لوط فيظهر أن اختلاطه بأهل سدوم أنساه عبادة الخالق فاقتفى أثر الوثنيين (هذه يكذبها القرآن) وكان ذلك فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد أى منذ نحو أربعة آلاف سنة وهذا هو العصر المعروف لدى علماء التاريخ بالعصر البرونزى . على أن آثار فلسطين التى ترجع إلى أربعة آلاف سنة تدل على أنه كان فى فلسطين فى ذلك الزمن حضارة راقية وليس فى تفاصيل قصة إبراهيم مايناقض آثار تلك الحضارة بل إن جميعها تنطبق على عادات القوم وطقوسهم وشعائرهم كل الانطباق ، فقد كان الناس الرّحل ينتجعون المراعى النضرة ويضربون خيامهم حيث تكثر المياه وتسهل وسائل المعيشة وكانت المدن تشاد فى الأودية على مقربة من مجرى الأنهر كما كانت الخيام تضرب على المرتفعات وهذا عين مافعله إبراهيم .

وليس فى هلاك مدينتين كسدوم وعمورة ماهو مدهش من الوجه العلمى أو التاريخى فقد أخربت صروف الدهر مدن (ترواده) و (بابل) و (بعلبك) و (قرطاجنة) و (بطرا) و (بومباى) و (تدمر) وغيرها ولكن لم يمح أثر إحداها محوا تاما بل لايزال لكل منها آثار تدل عليها وعلى ماكان لها من المجد والعظمة .

أما سدوم وعمورة بل المدن الخمس التى كانت فى دائرة الأردن فقد زالت ولم يبق لها أثر قط وهذا ماجعل

الكثيرين من المؤرخين يعتقدون أن قصة سدوم وعمورة خرافة لاطائل تحتها أو أنها حكاية رمزية كما تقدم .

على أن الدكتور (أولبرابط) قد اكتشف آثارا يمكن أن يستدل منها على صحة القصة فقد وجد هنالك آثار حصن قدم يعلو نحو خمسمائة قدم على سطح البحر الميت وبجوار هذا المذبح أى حجارة منصوبة بشكل أعمدة يرجح أنها المرتفعات التى كان الوثنيون فى ذلك الزمن يقدمون عليها قرابينهم ، ويسمى أهالى الأردن المكان الذى توجد فيه تلك المرتفعات (باب الدراع ؟) وهو على الأرجح الموقع الذى كانت فيه سدوم وعمورة لأن الوثنيين كانوا ينصبون مذابحهم فى المدن (فى المعابد) حيث يقيمون شعائر عبادتهم فلابد إذن أن باب الدراع كانت مركز حضارة وثنية ترجع إلى ذلك العصر ولكن أين آثار تلك الحضارة ؟ أيمكن أن يكون البحر الميت قد طما عليها فطمرها وأزالها ؟ .

هذا فرض كثير الاحتمال وفى التاريخ حوادث كثيرة تشبهه ، فى سنة ١٨٨٣ ثار بركان (كراكاتو) بين جاوا وسومطرة (وكان العلماء يظنون أنه قد انطفأ منذ زمان طويل) فغير جغرافية تلك الأنحاء تغييرا تاما وقلبها رأسا على عقب ، وفى سنة ١٨٨٦ أى بعدها بثلاث سنوات ثار بركان (تاراويرا) ببلادنيوزيلندا (وكان العلماء يزعمون أنه من البراكين المنطفئة) فغير معالم البلاد المجاورة وأحدث بها تغييرات حتى صار أهالى تلك الأنحاء لايعرفونها ، وعليه فمن المحتمل جدا أن يكون البحر الميت قد طما على المدن الخمس التى كانت فى دائرة الأردن بل إن بعض علماء الجيولوجيا يؤكدون أن هذا البحر يغمر اليوم بلادا كانت آهلة بالناس ، أما المدن الخمس فهى سدوم وعمورة وأدمة وبالع وصبوئيم ، وقد عثر المنقبون فى (باب الدراع) على آثار يؤخذ منها أن طقوس العبادة الخاصة بالمرتفعات السابق ذكرها استمرت من سنة ٨٠٠ إلى سنة ١٨٠٠ قبل التاريخ الميلادى أى إن باب الدراع كان من أمكنة القوم المقدسة مدة نحو ألف سنة ثم هجره أصحابه ولماذا ؟ لسبب بسيط وهو خراب سدوم وعمورة .

وليس فى تسميتنا سدوم وعمورة وأخواتهما بالمدن مايدل على حقيقتها فإنها لم تكن مدنا بالمعنى المعروف عندنا بل كانت على الأرجح قرى صغيرة تضم كل منها بضع عشرات أو أكثر من المنازل وكان ملوك تلك المدن أشبه بشيوخ بلد لولا ماكان لهم من الشأن عند رعيتهم ، ويؤخذ من رواية التوراة أن ملوك المدن الخمس المذكورة خرجوا لقتال أربعة ملوك من ملوك البلاد المجاورة وحدثت بينهم موقعة تعرف بموقعة (عمق السديم) فهزم الملوك الأربعة أعداءهم وأخذوا لوطا وأملاكه فى جملة من أخذوه من الأسرى والغنائم لأنه كان يقيم بسدوم ، فلما سمع إبراهيم بما جرى لابن أخيه خرج فى (٣١٨) من رجاله وهاجم الغزاة وكسرهم وأنقذ لوطا وأملاكه وأهل بيته ، وفى هذه الرواية عينها أن ملكى سدوم وعمورة قتلا فى (عمق السديم) حيث كانت آبار حمر كثيرة وآبار الحمر كما لايخفى هى قابلة للالتهاب ، وفى ذات يوم إذ كان إبراهيم جالسا بباب خيمته فى حر النهار أقبل عليه ثلاثة رجال ، وفى التوراة أنهم كانوا ثلاثة ملائكة فاستقبلهم بترحاب عظيم وصنع لهم وليمة واحتفى بهم وفى أثناء الطعام علم أنهم ذاهبون إلى سدوم وكان أهل هذه المدينة مشهورين بشرورهم وانغماسهم فى شهواتهم البهيمية ولاسيما المحرمة منها ، فلما وصل الرجال الثلاثة إلى سدوم ساروا توا إلى منزل لوط ابن أخى إبراهيم ليبيتوا عنده وعلم أهل سدوم بقدومهم فأرادوا أن يرتكبوا بهم موبقا ولكن لوطا دافع عنهم وعرض أن يضحى بشرف ابنتيه لينقذهم فأبى أهل سدوم إلا أن يرتكبوا بهم الفحشاء ، ولكن الضيوف تمكنوا من الفرار وأقنعوا لوطا وأهل بيته بالفرار معهم ، وإليك رواية التوراة بعد ذلك .

(وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط (صوغر) فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من السماء ، وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض ونظرت امرأة لوط إلى الوراء

فصارت

فصارت عمود ملح) ومعنى قوله صارت عمود ملح أنها اختنقت بالغازات الكثيرة المتصاعدة من آبار الحمر التي التهبت إما بسبب حدوث زلزلة أو بسقوط صاعقة من الجو ، وكلا السببين يكفي لإشعال آبار الحمر وجعلها أتونا يلتهم ما حوله من نبات وحيوان وإنسان ، ومثل هذا الحادث غير مناقض للنواميس الطبيعية بل له في التاريخ نظائر كثيرة ، وفي تاريخ الكرة الأرضية انقلابات جيولوجية كثيرة شبيهة بحادثة (سدوم وعمورة) فقد يثور بركان وتتدفق حممه على المدن المجاورة فتغمرها وتهلك أهلها ، وقد تخسف بلاد واسعة فيطمو عليها البحر وتزول هي وما فوقها من نبات وحيوان وإنسان ، وقد تنشق الأرض فتبتلع مدنا بأسرها ، ومما يجدر بالذكر أنك إذا وضعت الخارطة أمامك ورسمت خطا من بحر الجليل مارا بوادي الأردن فالبحر الميت فالبحر الأحمر فبلاد الحبشة كان لك ما يسميه علماء الجيولوجيا (منخفض ارتيريا) إذ يقولون إن الكرة الأرضية انخسفت في زمن من الأزمان على مدى الخط المذكور فأصبح بحر الجليل يعلو (٦٥٣) قدما على سطح البحر الأبيض المتوسط حالة أن البحر الميت أصبح تحت مستوى البحر الأبيض المتوسط بزهاء (١٣١٦) وهذا دليل على أن المدن الخمس التي كانت هناك غمرها البحر الميت وانخسف معها إلى أسفل وقد احترقت بالقار والحمر واختنق أهلها بالغازات المنبعثة عن ذلك (أقول نحن لانقر من هذا إلا ما وافق القرآن) انتهى .

وقد كتب كاتب في جريدة الأهرام بتاريخ ١٨ مارس سنة ١٩٢٩ م

البحر الميت أو بحيرة لوط

لما كان اسم هذا البحر أو البحيرة يرد كثيرا في تلغرافات الأهرام الخصوصية بمناسبة امتياز استنباط أملاحه المعدنية وهو المشروع الذي تدور المناقشة عليه في البرلمان البريطاني بين حين وحين في خلال السنوات الأخيرة وكنت قد زرته مرارا في أيام حداثتي التي قضيتها في القدس الشريف رأيت أن أذكر هنا موجز تاريخ هذه البحيرة ووصفها وما أعرفه عنها فأقول :

« إن موقع هذه البحيرة التي هي أكبر بحيرات فلسطين وسورية هو في الجنوب الشرقي من القدس الشريف على مسيرة ١٨ ميلا في منخفض من الأرض يسميه الكتاب (غور السديم) ويرجح أنها تغمر جانبا عظيما من المدن الخمس التي أمطرها الله نارا وكبريتا كما ورد في سفر التكوين من التوراة وطولها من الشمال إلى الجنوب يقارب خمسين ميلا وعرضها عشرة أميال وسطحها منخفض عن سطح البحر المتوسط (١٣١٦) قدم . ولما كانت هذه البحيرة مصبا لمياه غزيرة وكان لامنفذ لها ظاهرا ولا يبدو فيها أثر من زيادة مائها أو نقصانه تضاربت في أمرها آراء العلماء أذكر لهم رأيين : قال فريق ما خلاصته : إن غور أرض هذه البحيرة وانخفاضها العظيم واكتناف الجبال التي تشد على مخنقها لهو مجلبة لشدة الحر الذي يبخر من مائها يوميا كمية تعادل الكمية التي تصب فيها ، ولا ينكر أحد أن حرارة الجو الشديدة ينشأ عنها بخار وافر وضباب كثيف متكاثر ينتشر ويغطي سطحها وضواحيها مسيرة أميال ولكن يلوح من المستحيل تحويل كل الماء الذي يصير إليها بخارا أو ضبابا على ما علله المحققون من علماء هذا الفن وقد عدلوا كمية الماء الذي يجري إليها يوميا من نهر الأردن وحده بما يربي على ستة ملايين متر مكعب ، هذا عدا مياه الغدران الجداول ومجاري الأودية التي تصب فيها أيام الشتاء من أكثر جهاتها ولا سيما (نهر الموجب) الذي يأتيها من منحدرات الجبال التي تلي شرقها فإنها لعمري كمية لاسبيل إلى تحويلها بخارا مهما تعاظمت شدة الحر . وقال فريق آخر إنه لابد لها من منفذ سفلي تصب منه في عمق أحد البحور التي لايعلم إلى الآن غور لججها تماما وراقبوا الماء الذي تخسره سنويا بالتبخر وبذهابه في المنفذ المفترض فإذا هو يزيد على القدر الذي

باتها . وأما خواص مائها فليس له ثقل نوعي واحد بل يختلف في الكثافة والمرارة باختلاف مواضعه منها ، فحيث يدخلها ماء الأنهار والسواقي يكون أقل ثقلا ومرارة من غيره ، وعلى وجه العموم يقدر أن في كل مئة جزء منه خمسة وعشرين جزءا من الأملاح المعدنية ذائبة فيها وهي لكثرة أملاحها لاحياة فيها لحيوان البتة . ومعلوم أن مياه البحار الأخرى لاتفوق أملاحها أربعة في المئة . وأعظم جزء بين موادها هو (كلورور الصوديوم) وهو ملح الطعام فإنه يبلغ ثلاثة أرباع المواد الأخرى التي فيها مثل (كلورور المغنيسيوم) وكبريتات الكلس والمغنيسيا وغيرها من مواد أخر قارية وزفتية وكلها تولد فيها تلك المرارة والكراهية وهي من فرط هذه المواد المعدنية وكثرة مايتصاعد عنها من الضباب والأبخرة صافية رائقة تستبهج النواظر بجمال روائها غير أن الأيدي تتجافى عن لمسها لأنها تذر فيها أثرا زيتيا ولا مناص لمن خاض فيها أن يتطهر بعد ذلك بماء عذب زلال وأنه لايلبث زمنا قليلا حتى تحوس في جسمه حكة تهيج فيه البثور كما جرى للكثيرين وأكثر الذين يقصدونها للاستحمام يستحمون فيها على مقربة من مصب الأردن في الجهة الشمالية حيث يتمكنون جيد ذلك من الاغتسال في ماء الأردن . ولثقل ماء هذه البحيرة يطفو فوقها ما رسب في غيرها ولذا لاحذر فيها على من لايحسن السباحة فانه يعوم ولو ربطت كلتا يديه وراء ظهره وكل ماعليه هو أن يرفع رأسه ويبلغ عمقها نحو (٤٠٠) متر في الجهة الشمالية وستة أمتار وما ينيفها في الجهة الجنوبية ويختلف مابينهما باختلاف مواضعها تدريجيا ، وبالاجمال فانها تصلح لتسيير البواخر الصغيرة .

أما أرياف هذه البحيرة فكلها بلاقع قفرة خالية من السكان والدور والشجر ولا يقيم بها إلا بعض البدو وقبائل التعمريين الرحل وذلك في فصل الشتاء . وتحيط بها الجبال الوعرة إلا في الجهة الشمالية الشرقية منها فانها سهل فسيح الأرجاء ولكنه عقيم حمى التربة تغطيه قشرة ملحية جعلت أرضه سباخا لا تنبت نباتا إلا حيث تجري فيها المياه الحلوة ونباتها لا ينتفع به وهو في الغالب الحلفاء والأباة وماشا كلها من النبات المائي وقديما كان ينبت في جوار هذه البحيرة وأريافها نوع من الشجر يعرف ثمره بالعنب السام أو العنب المرفكان ظاهره بهي للنظر إلا أن داخله كان نتنا عفنا مملوءا رمادا وغبارا وقد أشار إليه النبي موسى في سفر التثنية قال (من جفنة سادوم جفنتهم ومن كرم عمورة عنبهم عنب سم وعناقيدهم من مرارة) وإلى الآن نرى أكثر ثمار هاتيك الأرض المجاورة لها نضرة شهية غير أنك إذا ماقطفتها تحولت بيدك إلى غبار ورماد ، على أن هذه الأرض وإن لم تصلح الآن للزرع والتثمير فهي صالحة لاستخراج المعادن فانها كثيرة غنية بها كالحمر والنطرون والكبريت وزيت البترول الخ . والأسماء المشهورة بها هذه البحيرة هي مايأتي :

(١) بحيرة لوط نسبة إلى لوط ابن أخي إبراهيم الذي أنجاه الله مع آله من سدوم .

(٢) البحر الميت لأن مياهه لاتعيش فيها الحيوانات المائية وتلبث راكدة هادئة إلا عند اشتداد العواصف .

(٣) البحيرة المنتنة لأنها تنبعث عنها في الغالب رائحة خبيثة لوفرة موادها المعدنية .

(٤) بحيرة الملح اعتبارا لمائها الأجاج ووفرة الملح فيها .

(٥) بحيرة الزفت لكثرة موادها الزفتية والقارية .

(٦) البحر الشرقي لمقابلته البحر المتوسط لكونه غربيه .

(٧) بحيرة البرية والسهل لأنها في برية قاحلة وشمالها الشرقي سهل فسيح .

(٨) بحيرة سدوم باعتبار أنها محلها على الرأى الأرجح ، أما المدن الخمس التي أشرت إليها في أول هذه المقالة ويقال إنها كانت حولها وفي موضعها فهي سدوم ، وعمورة وصبوتيم وأدمة وزغر . وقد اختلف علماء

الآثار على موقعها، فمنهم من جعله في الجهة الجنوبية من البحيرة حيث السهل الخراب، ومنهم من زعم أنه في الجهة الشمالية حيث السهل القاحل الكبريتي الممتد منها إلى أريحا. على أنهم وإن اختلفوا في ذلك فهم مجمعون رأيا على أن موقعها بجوار هذه البحيرة وأن جانبا منها تغمره مياهها الراكدة. وما يمكن قوله عن هذه المدن إنها كانت قبل أن شملها الخراب الإلهي حافلة بالسكان مترديه ثوب الحضارة والمدنية، ويخبرنا الإصحاح الرابع عشر من سفر التكوين أن كلا من هذه المدن كانت قاعدة لملوك جبابرة فضلا عن أن موقعها الطبيعي يستدعي أن تكون زاهرة غناء مزدهية بجمال موقعها بديعة بجنانها وغياضها غنية بوفرة مائها وخيراتها لأن نهر الأردن كان يتشعب في غورها الزاكي التربة سيولا فيسقي أرباضها ورياضها وحدائقها التي كانت ولاشك تفوق جنات دمشق كثرة وخصبا. ويمكن القول أيضا أن تحضر هذه المدن قديما وتألب السكان فيها قد حملا إبراهيم الخليل على أن يتقدم إلى الله العلي مسترسلا في كلامه مكررا تضرعه إليه تعالى أن يعفو عنها (تكوين إصحاح ١٨) غير أنه لما كان الفساد قد شمل سكانها وكان جميعهم قد سكروا بلذة الإثم حتى إنه لم يعد فيها بار سوى لوط وآله انتقم الله من أهلها بأن أمطر المدن نارا وكبريتا من السماء، فألهب ما كان هناك خزينا معدا من البراكين النارية التي عجلت دمارهم فطبق ماء الغور الزائد تحتها وجه هاتيك الأرض فغارت بهم خاسفة وظهرت البحيرة على ما نراه اليوم. انتهى والله أعلم. (س . خ)

ثم قال تعالى (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) الأيكة غيضة تنبت ناعم الشجر، يريد غيضة بقرب مدين تسكنها طائفة، فبعث الله إليهم شعيبا كما بعث إلى مدين وكان أجنبيا عنهم فلذلك قال (إذ قال لهم شعيب ألا تتقون) ولم يقل أخوهم لأنه لم يكن منهم وإنما كان من مدين وأرسل إليهم، ويقال الأيكة الشجر الملتف وكان شجرهم الدوم (إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون) إلى قوله (إلا على رب العالمين. أوفوا الكيل) أتموه (ولا تكونوا من المخسرين) حقوق الناس بالتطفيف (وزنوا بالقسطاس المستقيم) بالميزان السوي أو القبان وإذا جعلناه عربيا جعلناه من القسط وهو العدل (ولا تبخسوا الناس أشياءهم) أي لا تنقصوهم حقوقهم كدراهمهم ودنانيرهم بقطع أطرافها وغير ذلك (ولا تعثوا في الأرض مفسدين) بالقتل والغارة وقطع الطريق (واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين) أي وذي الجبلة الأولين أي الخليقة والأمم المتقدمة (قالوا إنما أنت من المسحرين. وما أنت إلا بشر مثلنا) فقد جمع بين وصفين منافيين للرسالة (وإن نظنك لمن الكاذبين) في دعواك (فأسقط علينا كسفا من السماء) قطعا منها (إن كنت من الصادقين. قال ربي أعلم بما تعملون) من نقصان الكيل والوزن وهو مجازيكم بأعمالكم فعلي البلاغ وعلى الله الحساب (فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم) إذ أصابهم حر شديد فكانوا يدخلون الأسراب فيجدونها أحر من ذلك فيخرجون فأظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها فأمطرت عليهم نارا فاحترقوا جميعا (إن في ذلك) إلى قوله (الرحيم) انتهى التفسير اللفظي للقسم السادس.

هذه هي القصص السبع التي جاءت في هذه السورة مختصرة، وهذه القصص دالة على أن هذا وحي من الله فإن النتائج التي حصل عليها الأنبياء هي التي حصل عليها النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن وقت نزولها ذا شوكة ولا قوة. وهذه القصص السبع نموذج لما أصيب به النبي صلى الله عليه وسلم من التكذيب والأذى ولما وقع به القوم من الخذلان والصغار ولما منح صلى الله عليه وسلم من النصر المبين والفتح. والمتأمل في هذا يعد هذا معجزة فإنه أولا لم يكن من القارئين حتى يطلع على مثل هذا، وثانيا لم يكن يدور في خلد أحد أن تكون هذه عاقبة من لا مال بيده ولا رجال ولا جند عنده وهذا من أغرب المعجزات.

واعلم أن هذه القصص قد تكلمنا عنها في سورة الأعراف وفي هود فارجع إليها إن شئت

(القسم السابع)

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ * وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ * كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ * وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ * وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ * فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ * إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ * وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ *

التفسير اللفظي

قال تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين) منزل منه (نزل به الروح الأمين) أى جبريل لأنه أمين على الوحى والوحى فيه الحياة . وقرىء « نزّل » بالتشديد أى نزل الله الروح بالنصب أى جعل الله الروح نازلا به والباء للتعدية (على قلبك) أى حفظك وفهمك إياه وأثبته فى قلبه إثبات من لاينسى كقوله « سنقرئك فلا تنسى » (لتكون من المنذرين . بلسان عربى مبين) واضح المعنى فصيح ، وإنما كان نزوله على قلبه بلسان عربى مبين لأنه لو كان بلغة غير لغته لكان أول توجه نفسه إلى اللفظ ثم المعنى مهما كان ماهرا فيها ، فاذا كان بلغته التى نشأ عليها كان توجه نفسه إلى المعانى بدون عائق . هذه هى العادة فيمن يعرف لغات كثيرة وهذا سبب نزوله بلغة العرب وهى لغة الرسول ﷺ (وإنه لفى زبر الأولين) وإن معناه لفى كتب الأولين أو ذكر محمد ﷺ وصفته ونعته (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل) أو لم يكن لهؤلاء المعاندين دلالة على صدق

محمد ﷺ أن يعرفه هؤلاء العلماء بنعته فى كتبهم . فقد بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ فقالوا إن هذا زمانه وإنا نجد فى التوراة نعته وصفته فكان ذلك آية على صدق محمد ﷺ والذين شهدوا بذلك خمسة عبد الله بن سلام وابن يامين وثعلبة وأسد وأسيد (ولو نزلناه) أى القرآن (على بعض الأعجمين) جمع أعجمى على التخفيف وهو الذى لايفصح ولا يحسن العربية وإن كان عربيا فى النسب (فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين . كذلك سلكناه) أى أدخلنا الكفر المدلول عليه بقوله « ما كانوا به مؤمنين » (فى قلوب المجرمين . لايؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم) الملجئ إلى الإيمان (فيأتيهم بغتة) فجأة (وهم لايشعرون) بإتيانه (فيقولوا هل نحن منظرون) معناه أنهم يسألون الإمهال فلا يجابون ، ولما تكرر الإنذار على أهل مكة وسمعوا بعذاب الأمم السابقة فى مثل هذه السورة قالوا إلى متى توعدنا بالعذاب ومتى هذا العذاب ؟ فقال الله (أفبعذابنا يستعجلون . أفرأيت إن متعناهم) متعنا أهل مكة (سنين) ولم نهلكهم (ثم جاءهم ما كانوا يوعدون) وهو العذاب (ما أغنى عنهم) من عذاب الله (ما كانوا يمتعون) كأنه قيل لكن الأمر كما يعتقدون من تمتيعهم وتعميرهم فإذا طال الأجل وتمتعوا ثم لحقهم ما أنذروا به فماذا ينفعهم من طول ذلك الأمد والتمتع بالنعم ، يقول الله إن العذاب واقع عاجلا أو آجلا فإذا لم يكن عاجلا فماذا يفيدهم نعيم وطول عيش هو ذاهب لامحالة بوقوع العذاب ، إن النعيم المنقطع لافائدة منه ولا خير فيه . وعن ميمون بن مهران أنه لقى الحسن فى الطواف وكان يتمنى لقاءه فقال له عظنى فلم يزده على تلاوة هذه الآية ، فقال ميمون وقد وعظت فأبلغت . وعن عمر بن عبد العزيز أنه كان يقرؤها عند جلوسه للحكم (وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون) رسل ينذرونهم إلزاما للحجة كما هى عادتنا فى أننا نقدم المرض قبل الموت غالبا إذا رأيناه حكمة ، وكم أنذرنا الناس بالردى قبل وقوع الكوارث والحوادث ، وهكذا إذا جاء أجل الأمة ألهمنا خطباءها وعقلاءها فذكروا المستقبل المظلم الذى لها ، وإنما فعلنا ذلك (ذكرى) أى لأجل التذكرة (وما كنا ظالمين) فنهلك غير الظالمين وقبل الإنذار . كلا .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين » مع قوله تعالى فى سور أخرى « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقوله « وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون » وقوله « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » والظلم هنا الكفر ، وقوله « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وقوله « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون لاتجأروا اليوم إنكم منا لاتنصرون » وقوله « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » ﴾

هاهو ذا القرآن يقول لنا أيها الناس إن الترف والنعيم والظلم مبدأ الخراب فى الأمم ، ويقول إن الأمم إذا أدبر شبابها وولت أيامها وأقبل هرمها أنذرها منذروها وحذرها المحذرون ، وهنا نقول : لماذا أنزل الله هذه الآيات فى القرآن الكريم . ألمجرد التلاوة والتعبد . كلا . بل للتلاوة والتعبد ومعهما العمل . أمم الإسلام اليوم فى حاجة شديدة إلى الإصلاح والتذكير والله يقول « وذكرهم بأيام الله » إذن نحن مأمورون أمرا حتما وواجبا وجوبا كفائيا ، وعلى كل مشتغل بعلوم الأمم الإسلامية أن يذكرهم بما علم . فإذن هنا أذكر المسلمين عموما بأمتين أنذرهما المنذرون وحذرهما المحذرون قبل سقوط دولتهما وهما أمة المصريين القدماء وأمة العرب بالأندلس . أنا أكتب هذا هنا تذكيرا للمسلمين وخروجا من الإثم بالتقصير لعلى أن ما أكتبه أنا ويكتبه غيرى من أهل العلم ببلاد الإسلام يرفع هممهم ويوقظهم إلى المستقبل كما قال تعالى « وذكر فإن

الذكرى تنفع المؤمنين » وإذا كانت الذكرى قد نفعت الأمم الغربية وأنارت دولهم وممالكهم القوية في عصرنا فانها ستكون هنا في بلاد الإسلام أسرع أثرا وأنفذ قولا وأبعد مدى . فهاك ما حدث بفرنسا قبل أوائل هذا القرن العشرين . ذلك أنهم أعانوا أن تحضر الفتيات عاريات في المراسح ليطلع الناس على الجمال بلا لباس في مرقص من مراقصهم ، فأعلن أحد علمائهم أن يلقى خطبة في ذلك الأمر واستقباحه ، فلما حضر واجتمع القوم رموه بالطماطم حتى صارت ثيابه جميعها ملوثة بلون الطماطم ، فلم يزد على أن قال « ما كنت أعلم أن هذا يوم الكرنفال » الكرنفال معناه يوم يلبس الناس فيه الملابس المضحكة لمجرد الفكاهة (المسخة) فضحك القوم وأنصتوا للخطبة فقص عليهم تاريخ الرومان قائلا [إن الرومان في أواخر أيامهم قد تمادى النساء في غوايتهن حتى وقفت فتاة في الشارع وخطبت على عربة وقالت والله لا نرجع عن الزينة والزخرف حتى تكون عرباتنا من ذهب وتصبح المالية وقفا على تفنننا في الخلاعة والزينة ، وزاد الفجور والفسوق فانحلت تلك المدنية وذهبت] فلما سمعه القوم أعرضوا عما عزموا عليه ومنعوا حضور النساء عاريات ، ذلك لأن الخطيب ذكرهم بذهاب مجدهم وانحلال ملكهم ، هكذا هنا أذكر المسلمين الآن بهاتين الأمتين وسيكون لذلك أثره إن شاء الله والله هو الهادى إلى صراط مستقيم .

فلأجعل الكلام في أربعة فصول :

[الفصل الأول] في انحطاط ديانة قدماء المصريين بعد ارتفاعها .

[الفصل الثاني] في ورقة أنسطاسى البردية أوسفر ابوور النبي المصرى القديم ونبوة الفيلسوف هرمس .

[الفصل الثالث] فيما حلّ بالأندلس من احتجاب الخلفاء ، وتشبه الفتيات بالفتيان وشيوع الترف والانغماس في اللذات وتفرّق العصبية .

[الفصل الرابع] فيما توقعه العقلاء من زوال ملكهم .

﴿الفصل الأول في انحطاط ديانة قدماء المصريين﴾

أنا أسوق هذا الفصل لأذكر قومنا بأيام الله حتى لا نقع فيما وقعوا فيه فأقول ، لابد قبل البدء في ذكر انحطاط هذه الديانة من ذكر ارتقائها وعلوها حتى نعرف كيف انحطت . إن المصريين استدلوا على الله بعقولهم أجيالا وأجيالا حتى عرفوا اسمه وصفاته وأحبوه حبا جما آلاف السنين ثم رجعوا القهقرى ونسوا أصل الدين وعبدوا الحيوانات فزال مجدهم ، وقد جاء في نص في قبر الملك (ببى الأول) إنهم أولا كانوا يقولون إن أتوم وذريته (آدم) وذريته كانوا يسكنون مدينة (هليوبوليس) وأتوم هذا كما أنه أبو الآلهة هو رئيسهم ورئيس الآلهة التسع المذكورة في عقيدة هليوبوليس التي كانوا يسمونها الفردوس الأرضى (هي قرب القاهرة الآن) وكانت هذه الذرية الآدمية خليطا من الآلهة والبشر في طهارة وسلام ، ثم إن (رع) كبير الآلهة انتصر على الحية وهي إلهة الشر . و (رع) هذا يحكم للأرباب والمربوبين وبعد ذلك زالت هيبة هؤلاء الآلهة الذين استعبدوا الناس ثم زالت هيبة المعبود (رع) ثم خافوا منه فهربوا للجبال فأهلكهم ثم استبقى من كان يحترمه من الناس ثم تكبر على الناس جميعا لأنهم مطبوعون على الشر وسكن السماء بعد أن نظمها واستخلف غيره من الآلهة البشرية وهذه الآلهة جميعها تمرض وتموت كالبشر انتهى ملخصا .

ثم تطور القوم فعرفوا أن آدم هذا وذريته جميعا مخلوقون وأن لهم خالقا بدليل ما جاء في [كتاب الموتى] (فصل ٤٢ العدد ١١ — ١٢) (لا يعرف الإنسان اسم الخالق) وجاء في أنشودة للمعبود أمون (إن اسم الخالق خفى عن الناس) وجاء في نصوص أهرام الملك أوناس من الأسرة السادسة (إن الخالق لا يمكن معرفة اسمه لأنه فوق مدارك العقول) ثم استعملوا ألفاظا عامة كالألوهية وبعض ألفاظ تدل على الخالق بطريق

الكتابة فقالوا (السيد المطلق المالك كل شيء وإنه لانهاية له ولا حد له) ثم اهتدوا لمعرفة صفاته وربما عرفوا اسمه من الأنبياء القدماء ، فقد جاء لفظ الجلالة مرارا في أمثال وحكم (حتب) الأديب المصري القديم منصوصة في كتابه الذي هو أقدم كتاب في العالم وهذا نصه (لاتوقع الفزع في قلوب البشر لئلا يضربك الله بعصا انتقامه) . قال (لباج رينون) (إن اليونان والرومان كانوا عريقين في الوثنية حتى لم يسمع عنهم أنهم ذكروا اسم الله أصلا . أما قدماء المصريين فلم يرد في تاريخهم أنهم عرفوا الوثنية) وأن الورقة البردية في المتحف البريطاني تضمنت ما يأتي (أنت الإله الأكبر سيد السماء والأرض خالق كل شيء ، يا إلهي وربي وخالق قوة بصري وبصيرتي لأستشعر مجدك واجعل أذني مصغية لقولك) فأما اتخاذهم السماء إلها أو عبادتهم الكواكب فإنما جعلوا ذلك رمزا لله الواحد الصمد . هذا وأذكرك أيها الذكي بما ذكرته في سورة البقرة من النشيد الذي جاء فيه التوحيد ومحبة الله والابتهاج بأنواره التي خلقها في الليل والنهار التي فيها أنت العالم بأسرار الحياة تظهر بجمالك في آفاق السماء .

هذا هو ارتفاع مدنيتهم ، أما انحطاطها الذي سقنا له هذا الفصل التي مبدؤها سنة ١٦٠٠ ق . م إلى سنة ٣٤٠ ق . م أي بعد خروج الرعاة من مصر فهذا بيانه .

انحطت مصر في الدين والأدب في الدولة الحديثة بسبب الثورات العديدة التي توالت عليها واستمرت إلى العصر الروماني لاختلاطهم بالأجانب ، وقد كانت الحيوانات عند قدمائهم رمزا للإله الحق ولكن في الدولة الحديثة جعلوها فوق الهياكل والمعابد وجعلوا المعبودات في المنزلة الثانية من الاعتبار وكثرت الخرافات فعبدوا الطيور والسمك والحيات والتماسيح والقطط والكلاب والأكباش واتخذوها آلهة وحنطوها ودفنوها بعد موتها بالإجلال والاحترام ، وهذا كان من مبدأ الأسرة (٢٦) وامتد إلى العصر الروماني ، وقد عظموا هذه الحيوانات حتى إنها إذا لدغتهم أو نهشتهم وافترستهم لايدفعونها احتراما .

وقد أخبر (ديودور الصقلي) أن رومانيا قتل قطا خطأ فقتله الشعب المصري انتقاما ، وذكر (بلوتارك) أن أهل (سينوبوليت) بالأقاليم الوسطى أخذوا مرة نوعا من السمك الذي كان معبودا عند أهالي إقليم (اكسرينيك) وأكلوه فأعلن هؤلاء عليهم حربا عوانا وأخذوا كلبا معبودا لهم وذبحوه انتقاما وتشفيا . وقال (استرابون) إنهم كانوا يتكلفون وضع المآكل للتماسيح في البحيرات المقدسة ويكابدون في ذلك نفقات عظيمة . وقال (هيرودوت) إنهم كانوا يدفنون حيواناتهم المقدسة في قبور على مقربة من قبور ملوكهم وأعيانهم وعنوا بدفنها أكثر من عنايتهم بدفن جثث آبائهم وأعزائهم ، وقد كشفوا أخيرا حفرا عميقة وأنفاقا واسعة مملوءة بمئات الألوف من القطط والتماسيح المحنطة ، وقد كشفوا مع أموات الدولة الحديثة كثيرا من التماثيل الصغيرة المسماة (أوشابق) أي المجيبات تجيب الدعاء وتجيب عن الميت يوم الحساب أو تقوم مقامه أو تكون في بدن الميت في الأعمال التي يسخر الميت فيها (سوريس) وهكذا عبدوا الأفاعي والحيات . انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثاني ﴾

في نبوة الفيلسوف هرمس وفي ورقة انسطاسي البردية أو سفر (ابوور) النبي المصري القديم

إن ديانة قدماء المصريين طال أمدها أربعة آلاف سنة ، وقد أخبر الفيلسوف هرمس بمستقبلها فقال :
[يجب عليكم أيها الحكماء أن تستدركوا كل شيء وتعرفوا أنه سيأتي وقت يترك المصريون عبادة الله فيغضب عليهم ويترك أرضهم ويهجر مصر بدون ديانة وتهمل الأشياء المقدسة ويأتي إليها الأجانب من كل صوب فيضعون لها قوانين تحرم ممارسة الديانة الحقة والتقوى وعبادة الإله وتعاقب من يباشرها وترى في القبور

والأموات بدلا من المعابد والهياكل التي تدنست أرضها ، أواه مصر . أواه مصر . سيأتي عليك وقت لا يبقى فيه من دينك القويم إلا الخرافات وتنحصر أخبارك في بعض أحجارك ويستوطن فيك البرابرة والهنود وصعد الإله إلى السماء ويموت البشر وتصبح مصر قاعا صفصفا لايقيم فيها الآلهة ولا عقلاء الناس . وأنت أيها النيل المبارك أنبئك أنه سيدنس مياهك المقدسة أمواج من الدم وتفيض إلى شواطئك وتكثر الأموات وتقل الأحياء وإن بقي من المصريين من يتكلم بلغتهم فانهم يكونون أغرابا عنها بأخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم التي تسرى إليهم من الأجانب . أنت تبكي اليوم ياهرمس . سيكون في مصر أشياء محزنة كثيرة . واحسرتاه ستقع مصر في الضلال والكفر ، تلك الأرض التي كانت وطن الأتقياء ، وحبيبة الإله ستفسد فيها أخلاق القديسين بعد ما كانت مدرسة التقوى والعبادات وستصير مسرحا للشرور والموبقات . سيكره العاقل الدنيا وما فيها ويؤثر الموت على الحياة لما يراه من قلب الحقائق وتفضيل الظلام على النور حتى يعتبر الفاسق تقيا والأحمق عاقلا والجبان شجاعا والضلال رشدا وتكون حياة الرجل التقي عرضة لجميع الأخطار اهـ (منذ ٤٠٠٠ سنة) .

وجد في متحف (ليدن) تحت رقم (٣٤٤) ورقة بردية طولها ٣٧٨ سنتي في عرض ١٨ سنتي اشتهرت بورقة (انسطاسي) لأنه هو الذي كشفها في مدينة منفيس بقرب (سقارة) ثم باعها إلى متحف ليدن سنة ١٨٢٨ وهي مكتوبة من وجهتيها بالخط الهيراطيقي في مدة الأسرة الثانية عشرة . وقيل إنها كتبت في الأسرة التاسعة عشرة وترجمت إلى الألمانية والإنجليزية واللاتينية ثم إلى العربية . وفي هذه الورقة تنبؤ (ابوور) النبي المصري القديم وهذا نصها (سيأتي على مصر زمان ينضب فيه ماء النيل وتبطل زراعة الأرض . وأطال في وصف الخراب . ثم قال ويتغلب الصعاليك على الأكابر وأكثر من الكلام في الثورة الداخلية . ثم قال ويجد البرابرة فرصة للاستيلاء عليها واستضعافا لأهلها وتسود العبيد وينهبون أموال أربابهم حتى تتخذ نساؤهم عقود الذهب والفضة والعقيق بينما تكون الأميرات في الطرق بائسات) إلى أن قال (ثم تنتهي هذه الشرور ويعود الهناء على يد رسول يرسله الله فيعيد الحياة في أرض مصر فيسود السلام وتفيض مياه النيل وتنمو الزراعة ويسترد المصريون ثغورهم ممن تغلبوا عليهم من العبيد والليبيين والنوبيين ويحل العمار محل الدمار) اهـ .

ومعلوم أن مصر قاست الشدائد ودخلها الأجانب وقد احتلها الرعاة وبقوا فيها (٥٠٠) سنة والفارسيون وأهل النوبة واليونان والرومان والله مقلب الليل والنهار .

ومن العجيب أن أنبياء بني إسرائيل تنبئوا في التوراة بمثل ما تنبأ به نبي المصريين . انتهى الفصل الثاني وكله ملخص من كتاب [الأدب والدين] عند قدماء المصريين .

﴿ الفصل الثالث ﴾

فيما حل بالأندلس من احتجاب الخلفاء، وتشبه الفتيات بالفتيان وشيوع الترف والانغماس في اللذات وتفرق العصبية

لقد كثر الترف والنعيم وأخذ الخلفاء الأمويون في أواخر أيامهم في الملاذ والشهوات والاحتجاب في القصور وقد كان المنشدون والسفراء يكلمونهم من وراء حجاب ويقف الحاجب من دون الستر فيكرر ما يقولونه .

ومما يحكى أن ابن مقانا الأشبوني ألقى قصيدة على مسمع من الخليفة المحتجب إدريس بن يحيى الحموى قال في آخرها :

أنظرونا نقتبس من نوركم   إنه من نور رب العالمين

فرفع الخليفة الستر وقابل وجهه بوجهه وأجازه جائزة حسنة ، وبينا الخلفاء يحتجبون عن الناس كالنساء إذا النساء يتشبهن بالرجال . قال الوزير بن شهيد :

ظبية دون الظباء قدمت فأتت غيداء فى شكل صبى
فتح الورد على صفحتها وحماها صدغها بالعقرب

وقد شاعت مجالس الخمر والسماع والرقص على نغمات الأوتار . ولقد صار المرابطون الذين أسسوا ملكهم على التقوى والصلاح فى أولها أهل خلاعة فى آخرها فسكنوا القصور فى الأندلس وأكثروا من مجالس الطرب واللهو فضعفت عصبيتهم ودينهم وأخلاقهم فتغلب عليهم الموحدون وانتزعوا منهم البلاد التى بقيت فى أيديهم ٦٢ سنة من سنة ٤٨١ إلى سنة ٥٤١ .

جاء فى سورة الإسراء عند قوله تعالى « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » من كتاب [الرحلة الأندلسية] للأستاذ البتنونى بيان ما حاق بالمسلمين فى الأندلس بسبب الإكثار من الاستعانة بالبربر الذين نصروا عبد الرحمن الداخل ، كما استعان العباسيون بالفرس فكسروا شوكة الأمويين واستكثروا من المماليك . فهؤلاء الأمويون بالأندلس قلدوا العباسيين فى الاستكثار من المماليك الصقالبة وغيرهم حتى صارت لهم الكلمة النافذة فى البلاد ثم صار حكمها فى أيديهم كما صارت البلاد الشرقية التى حكمها العباسيون فى حوزة الترك والفرس فى أزمان مختلفة . إذن هذه قاعدة مطردة : إن الترف والنعيم واتكال الأمم على الدخلاء يضيع المجد ويذهب الملك « ولله الأمر من قبل ومن بعد » .

فاقرأ ما مر فى سورة الإسراء ثم اسمع ما جاء فى نفس تلك الرحلة تحت عنوان :

﴿العبرة والتاريخ﴾

العلة الأولى لضعف العرب فى أسبانيا هى تفرق الجماعة وانقسام الدولة الأموية بعد أن طويت صحيفة بنى عامر إلى عشرين دولة صغيرة استقل بها ولاتها وهى : إشبيلية . جيان . سرقسطة . الثغر (ما كان منها فى شمال طليطلة) طليطلة . غرناطة . قرمونة . الجزيرة الخضراء . مرسية . بلنسية . دانية . طرطوشة . لاردة . باجة . المرية . مالقة . بطليوس . لشبونة . جزائر البليار . قرطبة . فكان هذا الانقسام داعيا إلى كثرة الاختلاف وقتال الدول بعضها مع بعض وطمع كل منهم فى الآخر واشتعال نار حرب كل منهم مع جيرانه وقهر القوى للضعيف . وقال ابن حزم (فضيحة لم يأت الدهر بمثلها ، أربعة رجال كل منهم يسمى بأمير المؤمنين واحد بأشبيلية والثانى بالجزيرة الخضراء والثالث بمالقة والرابع بسبتة ، وأصبح العرب والبربر فى خلاف مستديم والجميع فى خلاف مع أهل المغرب الأقصى وفى حروب مع الأمم الأسبانية والبرتغالية) إلى أن قال [وكثيرا ما يستظهر الابن على أبيه والأخ على أخيه بملوك النصرانية . وقد استنصر المأمون ابن الناصر من بنى عبد المؤمن بملك قشتالة على أخيه يحيى ، وكثر استنصار بنى الأحمر بملوك النصرانية بعضهم على بعض فى آخر دولتهم حتى سقطوا . وأن طليطلة ما أضاعها صاحبها القادر بالله بن المأمون بن يحيى بن ذى النون إلا لشهوته فى الاستيلاء على بلنسية واستنصاره بملك قشتالة (الفونس السادس) لمساعدته فى ذلك ؛ وكان الفونس لايبرح يورطه فى حربه لبنى عامر حتى أضعفه واستولى هو على بلاده سنة ١٠٨٥ بعد أن بقيت مستقلة فى أيدى بنى ذى النون ٧٣ سنة] انتهى ملخصا .

إذن ملوك النصرانية كانوا نشيطين فى إشعال نار الحرب بين ملوك الطوائف وهؤلاء الملوك جاهلون ليس عندهم من علم السياسة والتاريخ ما به يعرفون مواطن خراب الأمم وضياع مجدها ، وفى اعتقادى

أن المسلمين بعدنا سيكونون أرقى من آبائهم الذين لم يعرفوا من التاريخ مكان العبرة ولا من العلم مقام الاصلاح ، بل ترك العلماء الأمم الاسلامية حبلها على غاربها وأمعنوا فى الشعر والغزل ونسوا حظا مما ذكروا به .

أيها المسلمون ، ليقرأ التاريخ للعبرة والذكرى . وجاء فى الرحلة الأندلسية أيضا ما ملخصه : إن ملوك العرب وأمراءهم كانوا يخرجون فى أول أمرهم إلى معمعة الحروب بأنفسهم فيثيرون الحمية فى قلوب الجيوش فكانوا يغلبون ، فلما استناموا للترف والنعيم استعانوا بالصقالبة والمدجنين والعبيد بل كانوا يؤجرون مرتزقة من الأسبان ممن لا يهمهم النصر ولا يخافون من الهزيمة ، وأول من فعل ذلك المنصور بن أبى عامر فى زحفه على شانت ياقو وكان بنو هود (بسرقسطة) يستأجرون البطل سيد ورجاله فى حروبهم ضد إخوانهم المسلمين . ومن العجيب أن المنصور كان يستخدم المرتزقة من الأسبان فى حرب الأسبان أنفسهم ، فأما المنصور بن أبى عامر فإنه استعان بهم على حرب إخوانه المسلمين ، وأما البطل سيد المذكور فإنه هو (رودريك) الذى يسمى عند العرب (السيد قنبطور) وكان مشهورا بفروسيته ، وهو الذى ساعد الأمير شانجة ابن الملك فرديناند الأول على أخيه الفونس ، فلما تولى الفونس عرش البلاد نكب به وصادره فى أمواله فهاجر إلى صخرة قريبة من سرقوسة وبنى بها مسكنا اجتمع عليه (٣٠٠) من المعجبين به فهؤلاء كان بنو هود ملوك سرقوسة يستأجرونهم فى حروبهم ، والسيد هذا حاصر وهو رئيس جيوش يوسف بن أحمد بن هود بلنسية وهو مع أنه دخلها صلحا أحرق قاضيها (ابن الجحاف) لأنه لم يدله على خزائن المقتدر بن هود صاحب بلنسية ثم أشعل النيران فى المدينة حتى أتلفها . وقال فى ذلك ابن خفاجة :

عاثت بساحتك الظبا يا دار　　ومحا محاسنك البلا والنار
فاذا تردد فى جنابك ناظر　　طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت الخطوب بأهلها　　وتمخضت بخرابها الأقدار
كتبت يد الحدثان فى عرصاتها　　لا أنت أنت ولا الديار ديار

ولأكتف بهذا من فضائح الأمة العربية فى الأندلس ، ففيما لخصته مقنع لذوى الألباب بعدنا فيعلمون ويعملون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون . انتهى الفصل الثالث .

﴿ الفصل الرابع ﴾

فيما توقعه العقلاء من زوال ملكهم

اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا . اللهم إنك أنت المعلم . اللهم إنك أنت الرب الرحيم العليم المنعم المتفضل . اللهم إنى أشكرك شكرا كثيرا على أنك ألهمتنى وعلمتنى وأيدتنى وقويتنى وسهلت لى هذا التأليف وما كان ليخطر لى أن أجمع مابين تقهقر الأمم العربية والأمم المصرية وأوازن بينهما فى انحطاط شأنهما ، وأن الأولين والآخرين تشابهت قلوبهم لما انحطت أخلاقهم وانغمسوا فى اللذات . فالأمتان تفرقتا والأمتان سقطتا من شاهق ، فلك الحمد على هذه النعمة .

أيتها الأمم الإسلامية . أنا لست الآن مؤرخا . كلا . بل أنا مذكركم . أذكركم بكتاب الله تعالى . لم أكتب هذه الأخبار إلا لتفسير الآية . إن الله يقول لنا نحن « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين » وكيف نفهم هذه الذكرى إلا بدراسة التاريخ دراسة تشبه ما نكتبه الآن . وإياكم أن تقفوا على ما أنقله بل انظروا كما أمركم الله . سيقرأ هذا القول ذوو عقول من أبناء الأمم الإسلامية فيقفون على سبب خراب الأندلس وطرد المسلمين من تلك البلاد ويقفون على تفرق الكلمة عند المصريين

القدماء

القدماء فى دينهم وأخلاقهم لماذا يجدون فى صدورهم ؟ يجدون أنهم كانوا قبل أن يعرفوا هذا حزمين آسفين عليهم ولكن بعد هذا البيان يعلمون أن الله عدل ولا يفعل إلا مافيه المصلحة « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » فهؤلاء ذهبت فائدتهم وأصبحوا عالة على الأمم فأخرجهم الله من بلاده لأن الملك لله عز وجل وهو لايحب إلا المصلحين « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » ويرون أيضا أن الأمم المصرية أصبحت بعد تفرق دينها وضياعه تستحق احتلال بلادها وتذل فى عقر دارها ، هذا معنى قوله تعالى « ذكرى وما كنا ظالمين » وهذا هو الذى يشفى الصدر ، ولقد شفى صدرى ما نقلته لك الآن وعرفت أن الأمم لاتموت إلا بعد المرض ثم يشتد ثم يكون النزع ثم الموت فالله عدل ، هو عدل حقا ، منظم محسن النظام ، عدلت يا ألله فى نظام النبات والحيوان وأدنى الحشرات فرأيناه وفرحنا به وعجبنا منه وهذا قد ملىء به هذا التفسير فالحمد لله ولكن النظام والعدل فى الأمم يحتاج إلى علم أوسع حتى يدرك الإنسان العدل واضحا ، وفيما لخصته لك مقنع ، وفيه اعتبار ليحترس أبناء المسلمين من الوقوع فيما وقع فيه آباؤهم ، وهل يفيدهم إلا دراسة العلوم ومعرفة الحكمة والتاريخ ، وأنا واثق وقلبى مطمئن أن الله سيبعث فى الأمم الاسلامية همما تتلوها همم وتقوم هذه الشعوب قومة رجل واحد ، ذلك لأنهم يكونون على مشرب واحد لاسيما قراء هذا التفسير فإنهم هم الذين يرون الدين أمرا واحدا لايفرقه خلاف فى عدد الركعات أو أعضاء الوضوء أو مسائل الطلاق أو شروط البيع والإجارة أو أبواب الطهارة وأنواع النجاسة أو ما أشبه ذلك مما ظنه المسلمون ليس وراءه علم ولا حكمة . ومن عجب أن تفرق أهل الأندلس إلى (٢٠) دولة وتفرق أهل مصر فى عبادة الحيوانات قد حصل نظيره عند المتأخرين من المسلمين وإن لم يكن مثله من كل وجه ، تلك الأمة التى اقتسمها رجال الصوفية ورجال الدين وأخذ كل يفتخر ويكتفى بما لديه من العلم «وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » وفى الحديث « لتتبعن سنن من قبلكم » الخ .

﴿ معجزة النبى ﷺ ﴾

قد ذكرت فى أول سورة الأنفال الحديث الآتى وهذا نصه [عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله فقال إن مما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها فقال رجل أو يأتى الخير بالشر؟ فسكت رسول الله ﷺ ورأينا أنه ينزل عليه فأفاق يمسح عنه الرحضاء وقال أين هذا السائل وكأنه حمده ؟ فقال إنه لايأتى الخير بالشر وإن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم إلا آكلة الخضر فإنها أكلت حتى امتدت خاصرتاها »] وتفسير ألفاظه هناك . والذى يهمنا الآن أن نقول إن خوف رسول الله ﷺ علينا قد حصل فعلا وهذه نبوة وإخبار بالغيب ومعجزة كبرى بل هى من أجل المعجزات فى زماننا . إن الله أحل الغنائم ولقد تقدم فى سورة الأنفال أنه ﷺ بكى عند اقتسام غنائم بدر هو وأبو بكر وسيدنا عمر لأن النبى ﷺ كان يتوقع العذاب بسبب أخذ الغنائم ، وقد ظهر أثر ذلك فعلا فينا نحن فإن المسلمين ظنوا أن الغنائم بعد العصر الأول جعلت لتمتعهم بالشهوات ولم يجدوا من الحكماء والعلماء من يرشدونهم إلى خطر الأمر كما سمعت فيما تقدم من الخطيب الفرنسى الذى ذكر الفرنسيين بخطر تبرج النساء (وإن كانوا هم أيضا وأكثر أهل أوروبا صائرين إلى ما صار إليه من قبلهم من الأمم الفاسقة) .

أقول أفليست هذه معجزة وأى معجزة ؟ النبى صلى الله عليه وسلم أخبرنا بهذا الحديث الوارد فى الصحيح بما وقعنا فيه الآن وهذا هو قوله تعالى « ذكرى وما كنا ظالمين » فهاهو رسول الله صلى الله عليه وسلم أنذرنا بأن المال مال الله وليس معنى حل الغنائم لنا أن نتلهى بها . كلا . والله بل كان ذلك لاصلاح أهل الأرض ، انظر واعجب من هذا الدين ومن النبى صلى الله عليه وسلم . أحل الله الأسر وأحل الاسترقاق

وأحل أخذ الأموال ولكنه زهد المسلمين فيه وأمرهم أن ينفعوا به الأمم وأكثر من الأمر بالعتق والصدقة والصيام والقيام ، إذ يقول « وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو إطعام في يوم ذي مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة » الخ . إذن هذا الدين لم نجد من يعرف مقصده إلا قليلا . إن هذا الدين جاء مقدمة لإصلاح عظيم أن لايذل أحد أحدا وأن يكون النوع الانسانى كلهم متعاونين متحدين شرقيهم وغربيهم فقد جرب المسلمون الاستئثار بالمال وبالنساء فكان جزاؤهم الذل لأنهم لم يفهموا مايرمى إليه نبينا الصادق صلى الله عليه وسلم هذا هو الذى أردت أن أجعله مقدمة لذكر ما توقعه العقلاء من زوال ملك الأندلس .

﴿ بيان ما توقعه العقلاء والمصلحون ﴾

فأولهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتقدم فإنه أشار إلى ذل المسلمين فى الشرق وفى الأندلس ، وأبان أن الاستحواذ على الغنائم يكون ضررا بالأمم ويميتها إذا لم يوضع فى موضعه كالدابة التى تأكل الحشائش الضارة فتضرها أو تميتها وهذا هو الذى تم فعلا ، ثم إن ابن خلدون ذكر فى مقدمته أن أهل الأندلس كانوا يقلدون أهل أسبانيا فى ملابسهم وأخلاقهم وعوائدهم ويكتبون على حوانيتهم بلغة الفرنجة ، وختم العبارة بما معناه (إنهم لامحالة صائرون إلى أن يكونوا تحت إمرتهم لأن الأمة إذا تركت أخلاقها وعوائدها اندمجت فى الأمم التى تقلدها) وقد تم هذا التنبؤ فاقرأه فى المقدمة ، وقال شاعر من شعرائهم :

حثوا رحالكم يا أهـل أندلس ... فما المقام بها إلا من الغلط

السلك ينثر من أطرافه وأرى ... سلك الجزيرة منثورا من الوسط

من جاور الشر لم يأمن عواقبه ... كيف الحياة مع الحيات فى سفط

ولقد تحققت نبوءة هؤلاء لما استولى ملوك الأسبان على غرناطة وأوقعوا بالمسلمين وطاردوهم من ديارهم ولقد تقدم فى مواضع من هذا التفسير أنهم لما أزالوا ملكهم منعوهم من الاغتسال من الجنابة ومن الرقص الغربى وأوجبوا عليهم أن تكون نساؤهم مكشوفات الوجوه . وأقول الآن إنهم حرموا عليهم أن يستأجروا نصرانيا أو يظهر عليهم أية علامة من علامات الإسلام سرا أو جهرا « والله هو الولى الحميد » وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . انتهى الكلام فى تفسير قوله تعالى « وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون . ذكرى وما كنا ظالمين » .

ثم إن هذا القرآن لم يكن مفترى (وما تنزلت به الشياطين) كما زعم المشركون أن هذا القرآن مثل ما تلقيه الشياطين على الكهنة فليس من عند الله (وما ينبغى لهم) وما يصح لهم أن يتنزلوا به وكيف يصح لهم ذلك وقد جاء فى الأمثال العامة « وكل إناء بالذى فيه ينضح » . إن هذه الأرواح التى سكنت أجسام الناس فى الأرض وهم بنو آدم لايعدون أحد اثنين إما شريرا وإما بارا والأرواح التى فى غير عالم المادة كذلك لاتخلو من الأمرين إما شريرة وإما صالحة . كما أن السمك لايعيش فى البر والأنعام لاتعيش فى البحر والإنسان لايسامر الحيوان والحيوان لايفرح إلا بأبناء جنسه ولا يمرح إلا معها ، هكذا الأرواح الشريرة التى هى خارج عالم المادة لا تحادث الأرواح الفاضلة من بنى آدم كما لاتكلم الدواب الإنسان ، والأرواح الشريفة المجردة عن المادة لاتأنس من بنى آدم إلا بمن كان من أمثالها وأشكالها من الأرواح الشريفة ولا يتسنى لها أن تحادث الشريرة من بنى آدم كما لايتسنى للانسان فى الأرض أن يكلم الحيوان ويأنس بمحادثته . وأنت أيها الذكى إذا قرأت ما كتبناه فى [كتاب الأرواح] ونقلناه عن علماء هذا الفن رأيت أن هؤلاء العلماء قد بحثوا ودققوا وقد نقلنا فى هذا التفسير سابقا بعض ذلك ، فإذا استحضر الشرير روحا لاتلبيه إلا روح شريرة ، وإذا استحضر الصالح روحا لاتلبيه إلا روح صالحة . ولقد وجدوا أن الأرواح الشريرة لاتلائم طباعها طباع

الصالحين من الناس ولا الأرواح الصالحة العالية هناك أرواح الفاسقين هنا ، وثبت هناك أن المدار فى التخاطب على المشاكلة والتقارب ؛ فالصالحون والطالحون كل منهم لايألف إلا أشكاله وأمثاله وإن الله عز وجل وضع نظام العالم كله لاتفاوت فيه ولا اضطراب ، فالقانون العام واحد وهو أنه لايمنع الله أحدا عن شىء، ولكن المانع إنما هو تفاوت الدرجات وتباعد المراتب كما أن الملوك فى الأرض لايخاطبون إلا المقربين إليهم ولايتنزلون إلى الشعب ، هكذا لاتخاطب الملائكة من أهل الأرض إلا من كان مناسبا فى طبعه لهم وسواء أكان ذلك باستحضار الأرواح الصناعى كما تفعله أهل أوروبا أو بتصفية النفس ، فترى السحرة الذين تركوا الأمور المادية وترضوا وهجروا الطعام والشراب أياما وأياما قد تجردت نفوسهم من هذه المادة واتجهت إلى عالم الأرواح اتجاها ملائما لها ومناسبا لمزاجها فربما أخبرت ببعض الأمور الأرضية التى لا أهمية لها فى رقى النوع الانسانى كفقر زيد وغنى عمرو وعلاقاتهما مع بعضهما وما أشبه ذلك مما يدعيه بعض صغار النفوس ممن ينتمون للصوفية زورا وبهتانا وبعض المتريضين لهذه الغاية وهم يدعون بأدعية إسلامية أو غير إسلامية وأسماء عربية أو سريانية أو غيرها ، كل ذلك من هذا القبيل . وربما توجهت إلى أمر من أمور العالم كفشل عدو فاتفق أن أصيب به ، وترى الأنبياء الذين خلقوا مطبوعين على الكمال قد قربت نفوسهم من نفوس الملائكة فهناك أمكن التخاطب ونزلت الشرائع على الأنبياء لمنفعة النوع الإنسانى ، وهكذا الأولياء والصالحون والحكماء من جميع الأمم يلهمون الخير والعلم ، تلهمهم الملائكة ذلك للمناسبة بينهما ، فاذا سمع الأنبياء قولا أورأوا الملائكة وهم يخاطبونهم أو ألهموا فى قلوبهم العلم ، وإذا ألهم العلماء والأولياء معارف وعلوما فما ذلك إلا للمقارنة والمجانسة القريبة والبعيدة ، وإذا رأينا أناسا نبغوا فى الشر والفتنة وهم قادة الشر وآخرين أقل منهم فيه فذلك لأن أرواحا شريرة تتولى الوسوسة لهم وتعليمهم علوم الشر ، والأصل فى ذلك كله المناسبة والمقارنة والمجانسة .

هذا هو ما جاءت به الأرواح وعلمته الناس وذلك لاشك معجزة للقرآن فان ماتقدم عن علماء الأرواح هو معنى قوله تعالى « وما تنزلت به الشياطين . وما ينبغى لهم » أفلا تعجب أيها الذكى كيف يقول الله تعالى وما ينبغى لهم » جل الله وجل هذا القرآن . أفلا يعجب المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها أن تكون هذه الآيات هى ملخص علوم الأرواح المنتشرة فى أمريكا وانكلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا وسائر دول أوروبا ، أفلا يعجب المسلمون كيف كان إعجاز القرآن ، أفلا يعجب المسلمون كيف يقول الله « وما ينبغى لهم » (وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون) أى وما يقدرون أنهم عن سمع كلام الملائكة لممنوعون لماذا ؟ لعدم المشاركة فى الصفات ، لعدم التقارب فى حب الخير ، وعليه إذا أحب الإنسان الخير للناس وأحب العلوم ألهمته الملائكة الخير ، نعم لايوحى إليه لأنه ليس نبيا ولكنه يلهم الخير . اللهم إنى أبرأ إليك من الكتمان . اللهم إنك قد أظهرت معجزة هذا القرآن . إنك قد أبنت للمسلمين صدق دينهم ولقد وفقتنى لتأليف [كتاب الأرواح] والكتاب جميعه معجزة للقرآن وللنبى صلى الله عليه وسلم وهو كتفسير لهذه الآية وأمثالها .

لقد نقلت من [كتاب الأرواح] المذكور جملا فى مواضع من هذا التفسير ولأذكر لك منه جملا لتطلع على عجائب القرآن فى العلم الحديث وتعجب كيف ظهر سر قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم »

جاء فى صفحة (٦٣) من (كتاب الأرواح) المذكور نقلا عن علماء الأرواح مانصه (سأل هؤلاء العلماء الأرواح ، لماذا نرى بعض الوسطاء الصالحين ذوى الخصال الحميدة لايتمكنون من مناجاة الأرواح الصالحة . الجواب قد يمكن أن يكون ذلك قصاصا لهم لذنوب ارتكبوها ، وربما يكون ظاهر الفضيلة قد دفن

تحته صفات باطنية كالكبر والعجب ، إن الأرض ليس فيها كامل، فالكمال إنما يرجع للبواطن وليس يطرد الأرواح الشريرة إلا التقرب من طبيعة الأرواح الشريفة الصالحة] وجاء فى صفحة (١٠٩) الأسئلة الآتية :

(س) هل من وسيلة لطرد الأرواح الشريرة ؟

(ج) نعم وإن أحسن طريقة لطردهم هو اجتذاب الصالحة وذلك بعمل الخير واجتناب الشر وإصلاح شأنكم فبذلك تهرب الأرواح الشريرة عنكم .

(س) كثير من أهل الصلاح يكونون مع هذا عرضة لإزعاجات الأرواح الشريرة ؟ .

(ج) إن كانوا صالحين حقا فهو لهم تجربة وترويض وحث على الصلاح ولكن لاتثقوا بظاهر الفضيلة، فالفضيلة شيء وذكرها شيء آخر .

وجاء فى صفحة (١٢١) مانصه :

(س) أى وسيط يدعى كاملا ؟

(ج) كاملا ، يا للأسف إذ ليس من كمال على وجه أرضكم ولولا ذلك ما سجنتم فيها، قل وسيطا صالحا إن قدر وجوده ، على أن الوسيط الكامل لاتجسر الأرواح الناقصة أن تدنو منه لخداعه ، وأما الصالح فإن الأرواح الصالحة تألفه وقلما يكون عرضة لخداع الشريرة .

(س) ماهى أخص الشروط الواجبة لفوزنا بتعاليم الأرواح العلوية منزهة عن الضلال ؟

(ج) صنيع الخير واستئصال الكبرياء والتجرد عن حب الذات خاصة .

ثم جاء فى جواب سؤال آخر (إن النور يضيء على كل من طلبه فمن أراد أن يستنير فليتحاش الظلمة والظلمة هى نجاسة القلب . إن الأرواح العلوية لاتألف قلوبا شوهها الكبرياء والطمع وقلة المحبة، فمن طلب النور فليتضع وبالتواضع يجتذب الأرواح العلوية إليه) .

وجاء فى صفحة (١٢٤) مانصه (إن الروح مع علمه قد يكون تحت سلطة الرذيلة والأوهام ، إن فى عالم الأرض من هم فى منتهى الكبرياء والحسد والتعصب فهم لايتجردون من هذه النقائص حال مبارحتهم الحياة والرذائل تحيط بالروح بعد الموت ملتصقة بها كالهواء وهؤلاء أشد خطرا من الأرواح الشريرة) .

أقول أيها الذكى اقرأ ذلك الكتاب فكفى ما نقلت منه الآن ملخصا ، واعجب كيف يكون ما ذكرته ومالم أذكره الآن تفسير للآية وكيف يتضح الأمر اتضاحا وتفهم معنى قوله تعالى «إنهم عن السمع لمعزولون» لأن نفوسهم ليست خالصة من الرذائل (فلا تدع مع الله إلها آخر) فإن التوحيد والإخلاص لله والتقرب له بفعل الخير مما يدعو إلى قرب الروح الإنسانى من الملائكة ، إن تشرك بالله ولا تخلص له تسقط مرتبتك (فتكون من المعذبين) والخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم والقصد غيره لأنه معصوم (وأنذر عشيرتك الأقربين) الأقرب منهم فالأقرب . روى أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت صعد الصفا وناداهم فخذا فخذا حتى اجتمعوا إليه فقال لو أخبرتكم أن بسفح هذا الجبل خيلا أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم قال فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد (واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) لين جانبك لهم . يقال خفض الطائر بجناحه إذا أراد أن ينحط (فإن عصوك) ولم يتبعوك (فقل إنى برىء مما تعملون) أى تعملونه (وتوكل على العزيز) الذى يقدر على قهر أعدائك (الرحيم) الذى ينصرك وينصر كل مخلص فى عمله النافع العام (الذى يراك حين تقوم) إلى التهجد وإلى كل صلاة وإلى كل دعاء وأينما كنت (وتقلبك فى الساجدين) أى ترددك فى تصفح أحوال المتهجدين فإنه صلى الله عليه وسلم لما نسخ فرض قيام الليل طاف تلك الليلة بيوت أصحابه لينظر مايصنعون

حرصا على كثرة طاعاتهم فوجدها كبيوت الزنابير لما سمع بها من دندنتهم بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، أو تصرفك فيما بين المصلين بالقيام والركوع والسجود والقعود إذا أممتهم ، أمر الله النبي صلى الله عليه وسلم بالتوكل عليه قائلا إنه ينصره ويخذل أعداءه ، وأبان لم استحق ذلك فذكر وصفه بأنه يؤم الساجدين ويتصفح حالهم فهو إمام الصالحين ومن كان كذلك تولى الله أمره (إنه هو السميع) لما تقوله (العليم) بنيتك وعملك .

(لطيفة)

جاء في البخاري ومسلم « أنه صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية صعد على الصفا فجعل ينادي يا بني فهر يا بني عدي لبطون من قريش حتى اجتمعوا فقال: إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا فنزلت «تبت يدا أبي لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب» .

ومما جاء في الصحاح أيضا « أنه صلى الله عليه وسلم قال يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئا يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئا ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئا ، ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئا ، ويا فاطمة بنت رسول الله سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئا » انتهى ملخصا .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت عليه هذه الآية ضاق ذرعا وعرف أنه متى باداهم بهذا الأمر رأى ما يكره فصمت حتى جاءه جبريل ، فقال يا محمد إلا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لهم طعاما فعند ذلك أمر عليا أن يصنع الطعام وعلا عسا لبنا وجمع القوم وأنذرهم وحذرهم الخ .

انظر ، ألست ترى أن إنذار عشيرته الأقربين وتحذيرهم مع علمه أنهم يؤذونه ويفعلون معه كل مكروه مما يقرب للملائكة إليه ويجعله مستحقا للوحي . أليس ذكر هذا الكلام بعد قوله «وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون ، إنهم عن السمع لمعزولون» ليكون كالبرهان على أن هذا القول وحي لأن الوحي يكون بالخير وتعليم الأقربين وغير الأقربين خير والشياطين مبعدون عن الخير أي لا يألفونه بل لا يستطيعونه ولو كان من الشياطين لكان الأمر خلاف ذلك فلا ينذر عشيرته الأقربين بل يفتح لهم باب الشهوات والمخاصمات والعداوات . أما الإنذار والتعليم فليس من الطبيعة الشيطانية بل من الطبيعة الملكية فقوله «وأنذر عشيرتك الأقربين» كالبرهان على أن هذا ليس مما تنزلت به الشياطين بل هو مما يجانس طبائع الملائكة فكأنه قيل إذن كيف يكون تنزل الشياطين ، ها نحن أولاء عرفنا ما يكون من وحي الملائكة فكيف يكون ضده فقال لست ممن تنزل الشياطين عليهم لعدم المشاكلة والمجانسة (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم) أي كذاب فاجر وهم الكهنة وأمثالهم لمجانسة بين طباعهم كما اتضح فيما نقلناه لك قريبا ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس كذلك فلا يصلح لتنزل الشياطين عليه ، وكيف يصلح لذلك وهم ينزلون على الكذابين الفاجرين وهو ليس كذلك بل هو منذر معلم للخير صادق ، أما أولئك الأفاكون الآثمون من الكهنة وأمثالهم فإنهم (يلقون السمع) أي أسماعهم إلى الشياطين ويصغون إليهم ويتوجهون بقلوبهم إليهم فيتلقون منهم ظنونا لنقص علمهم كما جاء في [كتاب الأرواح] المذكور فيضمون إليها على حسب تخيلاتهم أشياء لا يطابق أكثرها وقد ورد في الحديث «الكلمة يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه فيزيد فيها أكثر من مائة كذبة» ولا كذلك محمد صلى الله عليه وسلم فالمغيبات التي أخبر بها طابقت كلها (وأكثرهم كاذبون) والأكثرية باعتبار أقوالهم لأنهم يسمعون شيئا ويزيدون عليه ، ويصح أن ترجع الضمائر للشياطين أي يلقون السمع إلى الملأ الأعلى فيعرفون بعض المغيبات فيوحون بها إلى أوليائهم مشوبة بالأكاذيب لنقص عقولهم وقصور أفهامهم وعدم ضبطهم وكلا المعنيين صحيح ، فالكهنة ومحضرو الأرواح في أوروبا الآن يسمعون من الأرواح الصغيرة أكاذيب كثيرة فيها

بعض الصدق لنقص تلك الأرواح لأنها لاتعرف إلا بطريق الحدس والتخمين ، وهـذا المعنى يؤيد رجوع الضمير للشياطين وهكذا الكهنة وأهل الرياضة قد تتصل بهم أرواح على شاكلتهم فيخبرون بأشياء وزيدون عليها من تلقاء أنفسهم استنتاجا وهذا يوافق رجوع الضمير لقوله « كل أفاك أثيم » والحاصل أن الأرواح سواء أكانت فى حال البرزخ أم فى الدنيا متى كانت ناقصة وأرادت معرفة للغيبات فنالت حظا منه فإنه يكون مخلوطا بآرائها ، فأما الأرواح العالية سواء أكانت فى الدنيا كالأنبياء أم فى العالم الأعلى فإنها لاتهتم إلا بما ينفع الناس وهؤلاء لايتطرق إليهم الكذب لأن الله معهم ويؤيدهم .

﴿ لطيفة ﴾

إذا عرفت هذا فانجب كيف يظهر صدق القرآن وكيف يأتى العلم الحديث يشرح هذه الآية شرحا وافيا وإنى لا أقول لك أكثر من أن أنقل إليك ماجاء فى [كتاب الأرواح] المذكور وهو ينطبق على ماجاء فى هذه الآية وأن الأرواح الناقصة تغش الناس وتخدعهم وتخبرهم بالمغيبات ، فأما الأرواح العالية فانها لاتهتم بالأمور الجزئية ولا تخبر الناس بالأمور الدنيوية وتحب أن ينصرف الناس عن ذلك إلى العلوم والمعارف وأن لايتطلعوا لمستقبل أمورهم لأن ذلك يشغلهم ، وإليك ماجاء فى الكتاب المذكور .

الحديث الرابع عشر

يتوهم البعض أن الروحانية واسطة سهلة وباب رحب لكشف الكنوز واستنباء المستقبل وفتح الفأل وحل المسائل العلمية إلى غير هذه من دواعى الطمع وحب الأرضيات ، فدفعا لهذه الأوهام رأينا أن نذكر فى هذا الفصل خلاصة تعليم الأرواح فى هذا الموضوع نقلا عن [كتاب الوسطاء] للعلم الفيلسوف الآن كاردك .

(س) هل تجيب الأرواح عن كل سؤال يطرح عليها ؟

(ج) كلا فإن الأرواح الرصينة لا تجيب إلا على أسئلة غايتها خيركم الروحى وترقيكم الأدبى .

(س) هل الأسئلة الجدية هى الواسطة لإجاد الأرواح الطائشة ؟ .

(ج) ليست الأسئلة التى تبعد الأرواح الطائشة بل صفات من يلقى الأسئلة .

(س) أية أسئلة تكرهها الأرواح الصالحة ؟

(ج) هى التى لافائدة منها أو يشتم منها رائحة الفضول أو الطمع .

(س) هل من أسئلة تكرهها الأرواح الناقصة ؟

(ج) لا تكره إلا الأسئلة التى تزيح النقاب عن جهلها وخداعها .

(س) ماقولك فيمن يتخذون المخابرة الروحانية بابا للهو والهزل أو لاستنباء أمورهم صوالحهم الزمنية؟

(ج) هؤلاء تسر بهم جدا الأرواح الناقصة لمداعبتهم وخداعهم .

(س) هل تستطيع الأرواح أن تكشف لنا أمر المستقبل .

(ج) كلا إذ لو عرف الإنسان المستقبل لأهمل الحاضر .

(س) أليس مع هذا من حوادث تنبئنا الأرواح عنها وتتم فى حينها ؟

(ج) قد يتفق أحيانا أن الروح يستشعر حدوث بعض أمور يرى من الفائدة كشفها وهـذا لايمنع الأرواح الماكرة من نشر النبوآت الكاذبة .

(س) ماهى أخص دلائل النبوآت الكاذبة ؟

(ج) هى التى لاتأتى بفائدة عامة أو يكون مرجعها النفع الخاص ؟

(س) لماذا تسكون الأرواح الرصينة عند تنبئها عن أمر لاتعين زمن حدوثه ؟.

(ج) يكون هذا إما عن عمد منها أو عدم معرفة، إن الروح يستشعر أحيانا وقوع أمر إنما زمن وقوعه يكون فى الغالب متعلقا بحوادث لم تتم بعد ولايعلمها إلا الله، أما الأرواح الطائشة فلا يهمها أمر الحقيقة وتحدد الأيام والساعات من دون التفاتات إلى صحة النبوءة وعدمها، ومن الواجب هنا أن أقرر عليكم القول أن غاية رسالتنا إنارة بصيرتسكم وترقيكم الروحى لا العرافة وفتح الفأل ، فمن أحب هذه تألفه الأرواح الماكرة ويصبح ألعوبة بين أيديها .

(س) ماقولك فيمن تنبئه الأرواح بموته فى ساعة معينة ؟

(ج) هذه أرواح ماكرة لاتقصد إلا الضحك بما تسبب من الرعب لمصدقها .

(س) كيف يتفق أن بعض الناس يستدلون على قرب موتهم ويحددون زمن وقوعه ؟

(ج) تطلع أرواحهم على ذلك عند انطلاقها من قيود الجسد ويبقى فيها ذكره عند اليقظة، فهؤلاء لايهولهم أمر الموت ولا يرون فيه إلا انتقالا من حالة إلى حالة أو تغيير كساء خشن بكساء لطيف، إن خشية الموت سوف تتناقص وتتلاشى عند انتشار الحقائق الروحانية .

(س) هل تستطيع الأرواح أن تطلعنا على حياتنا الماضية ؟

(ج) تستطيع ذلك إن سمح لها الرب ولا يكون سماحه إلا لغاية حميدة مفيدة لا لفضول باطل ، وعليه لاتصدقوا نبأ كهذا إلا إذا صار بديهيا ولغاية مفيدة . كثيرا ماتحب الأرواح الماكرة أن تهزأ بالوسطاء والمؤمنين بقولها لهم إنهم من أصل سام ومرتبة رفيعة فيتقبل بعضهم ذلك بمزيد الابتهاج ولا يفقهون أن حالتهم الروحية الحاضرة لاتدل على المرتبة التى تدعيهم الأرواح إليها مع أن الأحرى بهؤلاء المساكين تجنبا للسخرية أن يلاحظوا أن الترقى خير لهم من الانحطاط وأن التقهقر فى الكمال مخالف لناموسه تعالى .

(س) إن كان لايمكن للانسان أن يعرف شخصيته فى وجود سابق فهلا يمكنه على الأقل أن يطلع على مركزه والصفات أو النقائص التى تغلبت عليه فيه ؟

(ج) قد يمكن كشف أمر كهذا لكونه مفيدا لاصلاحكم ولكن لاحاجة إليه لأنكم إذا تأملتم جيدا فى أنفسكم تستدلون على الصفات والنقائص التى تغلبت عليكم فى الحياة الماضية .

(س) هل نستطيع استطلاع شىء من مستقبل حياتنا بعد الموت ؟

(ج) كلا وإياكم وتصديق شىء من هذا القبيل فانه إفك وخداع محض والدليل واضح وهوأن وجودكم المقبل يكون نتيجة سيرتسكم الحاضرة . كماقال الدين خف الوفاء، وازددتم فى المستقبل سعادة وراحة ولسكن أين وكيف يتم هذا الوجود ، هذا أمر لاتعرفونه إلا بعد عودتسكم إلى الحالة الروحية وتبصركم فيها .

(س) هل يسوغ استشارة الأرواح فى الصوالح الزمنية ؟

(ج) قد يمكن ذلك فى بعض الظروف وعلى مقتضى نية المستشير وصفات الروح الموجهة إليه الاستشارة، ومن الواجب أن تتأكدوا أن الأرواح الصالحة لا تتواطأ قط على مجاراة مطامعكم ، وأما الشريرة فتهزأ بكم بمواعيد سرابية ماوراءها إلا الخيبة والحسرة ، ثم اعلموا أنه إذا قدر عليكم محنة فالأرواح الصالحة تساعدكم على تحملها وتخفف عنكم وطأتها ولكنها قط لا تستطيع أن تدرأها عنكم لأن بها خيركم الروحى ونجاح مستقبلكم .

(س) إذا توفى شخص وكانت مصالحه معرقلة ألا يسوغ استشارة روحه فى حل بعض المشاكل وهلا يكون هذا من باب العدل ؟

(ج) لعلكم نسيتم أن الموت باب النجاة من هموم الحياة وأن الروح المعتوق من الأسر لاجاوز سلاسله التدخل فى أمور ماعادت تهمه والحدمة ورثة ربما ابتهجوا بموته لما تجم لهم عنه من الفائدة المالية ؟ تقولون إن هذا من باب العدل والعدل قائم بخيبة مطامعهم وهذا بدء القصاصات التى ستنوبهم من تعلقهم المفرط .

(س) أنستطيع أن نستنبئ الأرواح عن أحوالها ومراكزها فى عالم الغيب ؟

(ج) نعم بشرط أن يكون هذا الاستنباء ناتجا عن المحبة وطلب الفائدة الروحية .

(س) هل تستطيع الأرواح أن تصف لنا نعيمها أو شقاءها ؟

(ج) نعم ، لأن فوائد عظيمة تنتج لكم من ذلك أخصها اطلاعكم على ماهية الثواب والعقاب ورفع الأوهام المتركبة على عقول بعض السذج من هذا القبيل وإحياء الإيمان فيكم وتقوية رجائكم السماوى .

إن الأرواح الصالحة يلذ لها وصف نعيمها ، والشريرة تجد راحة فى تبيان ماتقاسيه من تباريح العذاب خصوصا إذا لاقت من سامعيها عواطف الإشفاق والتأسى، لايخفى أن غاية الروحانية هى إصلاحكم الروحى . والغرض من كل الأمثلة والمقالات التى تأتيكم هو وقوفكم على حقائق مابعد الموت لتتجردوا من الأرضيات وتسعوا وراء السماويات .

(س) إذا فقد أحد من الوجود ولم يعرف أمر مصيره فهل يمكن استحضار روحه للوقوف على الحقيقة ؟

(ج) قد يمكن ذلك إذا لم يكن الارتياب فى موته محنة قدر احتمالها على من يهمهم أمره .

(س) هل يجوز استشارة الأرواح فى الصحة ؟

(ج) نعم لأن الصحة شرط ضرورى لحسن القيام بالعمل الذى تجسد الإنسان لأجله ، وإنما لا ينبغى استشارة أى روح كان من الأرواح لأن الجهلاء يكثرون بينهم .

(س) أيحسن استشارة مشهورى الأطباء المتوفين ؟

(ج) ليس هؤلاء المشهورون بمعصومين من الغلط وقد تتصلب فيهم أحيانا بعض آراء فاسدة لا ينزعها الموت عنهم بسهولة . إن العلوم الأرضية ليست بشىء بالنسبة إلى العلوم السماوية وهذه لا يملكها إلا الأرواح العلوية فإليها يجب أن تلجئوا فى كل أمر ؟

(س) هل العالم بعد موته يقر بأضاليله العلمية ؟

(ج) إن كان قد تجرد من الكبرياء وأدرك نقصه يقر بها بلا خجل وإلا تبق فيه بعض الأوهام التى تركبت عليه فى الحياة .

(س) هل يمكن للطبيب أن يحضر للموتى الذين ماتوا على يديه ويستوضح منهم بعض الدلائل ليزداد بها خبرة ومعرفة ؟

(ج) قد يصح ذلك وينال المساعدة من الأرواح العلوية ذاتها بشرط أن يكب على درسه هذا بالاستقامة وصفاء القلب لابغية حشد المال وكسب المعارف من دون جد ولا عناء .

(س) هل يمكن استرشاد الأرواح فى المباحث والاكتشافات العلمية ؟

(ج) إن العلم هو صنع العقل ولا يكتسب إلا بالعمل وبالعمل وحده يتقدم المرء فى طريقه ، أى فضل يبق للانسان إذا أمكنه أن يعرف كل شىء باستنباء الأرواح ، ألا يصبح الغبى الجاهل بهذه الطريقة عالما ؟ ثم إن لكل شىء وقتا معينا يأتى فى حينه أى عندما تكون الأفكار مؤهلة لقبوله، وأما بتلك الطريقة فيقلب الانسان نظام الأشياء إذ يقطف الثمرة قبل نضجها .

(س) ألا ينال إذن العالم والمخترع من الأرواح للعونة فى مباحثه ؟ .

(ج) إن العون لاينقصه عندما يكون أوان الاختراع قد دنا قنوافيه وقتئذ الأرواح وتلق إليه بعض الإلهامات الفكرية فيفكر فيها هو ويشتغل بها إلى أن ينتج منها الاكتشاف المقصود فيكون معظم الفضل راجعا إليه ، فاياكم إذن والزيغ عن محجة الروحانية والتطرف إلى أمر لاينوبكم منه إلا الخداع والسخرية .

(س) هل يمكن أن تدلنا الأرواح على الكنوز والأحافير الخفية ؟

(ج) قد قلت لكم إن الأرواح العلوية لا تتنازل إلى مواضعة مطامعكم . وأما الماكرة فتدل دائما سائلها على أماكن لاوجود لكنز فيها فيذهب للمسكين عناؤه وتعبه أدراج الرياح .

(س) ما قولك فى الاعتقاد بحراسة الكنوز للدعوة رصدا .

(ج) إن بعض أرواح البخلاء يلبثون مقيمين حول الكنوز التى طمروها فى الأرض وخوفهم على اكتشافها يكون عذابا مستديما لهم إلى أن يتجردوا عن الماديات ويدركوا بطلانها اهـ

حينئذ قلت ياشير محمد تأمل فى هذا الحديث . ألم تجد فيه علما جديدا فى فهم القرآن . قال وما ذاك ؟ قلت قال الله تعالى « فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » فإن الجن أيام سليمان عليه السلام بقوا أمدا طويلا مسخرين وكان سليمان عليه السلام متكئا على عصاه فلما أكلت دابة الأرض تلك العصا خر على الأرض فلو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى ذلك العذاب ولعلموا أن سليمان ميت . ولا جرم أن هذه القصة ثمرتها أن لايثق الانس بأخبار الجن . هذا هو المقصد الحقيق منها ولقد تجلى واضحا فى هذا الحديث . ألا ترى أنهم لما سألوا الروح (هل تستطيع الأرواح أن تكشف أمر المستقبل) فكان الجواب (كلا . إذ لو عرف الإنسان لأهمل الحاضر) ولما سئلت الأرواح (أليس مع هذا من حوادث يتنبأ الأرواح عنها وتتم فى حينها) فكان الجواب (قد يتفق أحيانا أن الروح يستشعر حدوث بعض أمور ترى من الفائدة كشفها وهذا لايمنع الأرواح الماكرة عن نشر التبوآت الكاذبة) ثم أفاد أن الأرواح الرصينة قد تستشعر بأمر يكون فى الغالب متعلقا بحوادث لم تتم ولا يعلمها إلا الله فلا تقطع فى جوابها ، أما الأرواح الطائشة فلا يهمها أمر الحقائق فتنشر الأخبار الكاذبة ، ولا جرم أن ذلك مغزى قصة سليمان عليه السلام وشرح ما انطوت عليه من العلم وبرهان صدق لما فيها من التوقف عن تصديق ما تلق الجن من الأكاذيب اهـ

ثم انظر ياشير محمد إلى قول الروح « إن بعض الناس يستدلون على قرب موتهم ويحددون زمن وقوعه وإن هؤلاء الذين انطلقت أرواحهم من قيود الجسد لايهولهم أمر الموت » ألست ترى ياشير محمد أن هذا مصداق قوله تعالى « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم . ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين » فتعجب ياشير محمد كيف يقول « تتنزل عليهم الملائكة » ليلهموهم السرور والبهجة ويخاطبوهم ، وانظر إلى قوله تعالى « ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لاتبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم » فقد قال صلى الله عليه وسلم لما سئل عن البشرى « هى الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له » . وتعجب ياشير محمد من قول الروح فى هذا (إن الطبيب إذا أكب على درسه بالاستقامة لا بنية حشد المال وكسب المعارف بدون جد ولا عناء ينال مساعدة الأرواح العلوية) أو ليس هذا من مساعدة الملائكة للمجدين . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم » فلا علم بلا جد ونصب ولا حلم بلا تكلف وتصبر وجد . وقال تعالى

« وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » وقال « وكل شيء عنده بمقدار » وقد علمت فيما مضى أن الأرواح لا تخص من مضوا من عالم الأرض بل هناك من هم أعظم بل هم الملائكة المكرمون. ثم انظر قوله تعالى في سورة النحل « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون » ثم قال « وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة » ثم قال « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون » أليس هذا يا شير محمد بوهى إلى ما يقوله الروح هنا (إن أرواحهم تطلع على ذلك عند انطلاقها من قيود الجسد ويبقى فيما ذكره عند اليقظة فهؤلاء لا يهولهم أمر الموت ولا يرون فيه إلا انتقالا من حال إلى حال أو تغيير كساء خشن بكساء لطيف ، وهل يعطى من لا يستحق الحكمة ؟ كلا » ثم انظر إلى قوله « فالأرواح الصالحة تساعدكم على تحمل المحنة ولكنها لا تدرؤها عنكم لأن بها خيركم الروحي ونجاح مستقبلكم وهذا قوله تعالى « فعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » وقوله « ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير » وقوله « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون . أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ثم تأمل قول الروح (وهذا بدء القصاصات التي ستنوبهم من تعلقهم المفرط بالخيرات) وقوله (إن العدل قائم بخيبة آمالهم) فتعجب كيف كان مطابقا أشد المطابقة لقوله تعالى « ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » وقوله تعالى « المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » فجعل الله المال والولد عذابا في الدنيا وفي الآخرة لمن تعلق بهما ولم يجعلهما وسيلة لارتقاء روحه ، ثم جعل المال والبنين زينة الحياة ولا خير إلا فيما بقي من الصالحات الباقيات ، وأما قول الروح (إن العلوم الأرضية ليست بشيء بالنسبة إلى العلوم السماوية) فهذا قوله تعالى « قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا » وقول الروح (لا يخفى أن غاية الروحانية هي إصلاحكم الروحي والغرض من كل الأمثلة والمقالات التي تأتيكم هو وقوفكم على حقائق ما بعد الموت لتجردوا من الأرضيات وتسموا وراء السماويات هذا وكثير أمثاله يفهم من قوله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط وكذلك نجزي المجرمين » ومفهومه إن الذين صدقوا ولم يستكبروا تفتح لهم أبواب السماء ، وقوله تعالى « إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » ومفهومه إن الذين يرجون لقاء الله ولم يرضوا بالحياة الدنيا وجعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفنا ولم يطمئنوا لها ولم يغفلوا عما أودع فيها من آيات الله فأولئك مأواهم الجنة بما كانوا يكسبون اهـ .

﴿ حكاية ومعجزة ﴾

يا شير محمد ، إن قول الروح هنا أيضا (إن الطبيب ينال المساعدة من الأرواح العلوية) وقوله في العالم والمخترع (إنهما ينالان المعاونة من الأرواح العالية إذا آن وقت الاختراع) دال على مداخلة الأرواح في أعمالنا عند الاستحقاق .

أليس هذا مطابقا لقوله تعالى في سورة آل عمران « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين .

بلى

بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هـذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » ألا فانظر كيف رتبت الأرواح المعونة للمخترع والعالم على الجد والمثابرة وهي تطابق الآية إذ جعل مساعدة خمسة آلاف من الملائكة موقوفا على الصبر والتقوى وهجوم العدو ، أو لست ترى أن بيان الأرواح معجزة للقرآن ، لقد كنا نسمع هذا ونكل علمه إلى الله تعالى فأصبحنا نروى نظائره عن الأرواح العالية أنفسها ، وقال في سورة الأنفال « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » فانظر كيف أمر الملائكة أن يثبتوا الذين آمنوا وأنه سيلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فترى أن مقالة الروح هنا من إلهام الأرواح الأحياء ومساعدتهم وإنارة بصائرهم موافق للآيات ومعجزة فى هذا الزمان فتأمل اهـ .

الكلام على الشعراء

اعلم أن الشعراء والكهنة والسحرة بينهم تشابه وتجانس ؛ فالشاعر ينظم القول ويفخر بأن أكذب الشعر أعذبه ، وكلما أوغل فى التخيلات وإبراز الصور المشوقة للسامع التى تجتذب قلبه وتأخذ على سمعه وبصره كان معدودا من فطاحل الشعراء ، فاذا خيل الساحر للناس صورا لاحقيقة لها وأبرز الأمور على خلاف ماهى عليه ، وإذا كذبت الأرواح الناقصة على بنى آدم وهى فى برزخها وهكذا الأرواح التى فى أجسامها إذا تلقفت من تلك الأروح شيئا وزادت عليه ، فكلها فى الإفك متجانسة فليست تصلح لهداية البشر . لذلك قال تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون » أى السفهاء والرواة فانهم يتبعونهم على باطلهم وكذبهم وتمزيق الأعراض والقدح فى الأنساب ومدح من لايستحق المدح . فهؤلاء السفهاء والرواة هم الذين يستحسنون ذلك منهم ويفرحون به وأتباع محمد صلى الله عليه وسلم ليسوا كذلك وقد قرر هذا بقوله (ألم تر أنهم فى كل واد) من أودية الكلام (يهيمون) فهم حائرون وعن طريق الحق حائدون ، والهائم هو الذاهب على وجهه لامقصد له لأن أكثر مقدماتهم خيالات لاحقيقة لها وأغلب كلامهم فى النسيب بالنساء والغزل والهجاء وتمزيق الأعراض والوعد الكاذب والافتخار الباطل ومدح من لايستحق المدح والاطراء الكاذب وإليه أشار بقوله (وأنهم يقولون مالا يفعلون) والقرآن ليس كذلك فنتج مما تقدم أنه ليس معناه مما تنزلت به الشياطين ولا لفظه من كلام الشعراء ، ثم استثنى الشعراء المسلمين الصالحين الذين يذكرون الله ويكون أكثر أشعارهم فى التوحيد والثناء على الله والحث على طاعته ولا يهجون أحدا إلا انتصارا ممن هجاهم فلا يتخذون الهجاء إلا آلة لمقاتلة الأعداء لاطلبا للمال فليس الهجاء منهم لأغراض ذاتية بل ذلك لاصلاح الجميع باذلال أعدائهم . فهؤلاء لما آتاهم الله قوة الشعر صرفوها للمنافع العامة ولم يجعلوها أداة لكسب المال كما يفعل شعراء الجاهلية وأكثر شعراء الاسلام الذين تكسبوا بالشعر فى الدولة العباسية وفى الدول الأندلسية ، فهؤلاء هم الغاوون الذين يقولون مالا يفعلون .

إن الشعر نور من الله كالجمال وكالحرف وكالصناعات ، بل إن مخاطبة الأرواح التى حدثت الآن فى العالم والاستعداد لها كل ذلك جاء امتحانا للناس فان صرفوها لشهواتهم ساءت حالهم ، وان استعملوها لمنفعة العموم

سمدت أممهم ؛ فالشعر والجمال والحكمة وسائر المواهب على هذا النحو ، فإن بذلت للعموم كانت خيرا وإن بذلت للمصلحة الخاصة كانت شرا .

ظهر الحق واستبان السبيل وتبين أن المسلمين لم يفطنوا لهذه الآية وسار شعراؤهم في سبيل الغواية حتى كانوا من أهم أسباب ذهاب الدولة العربية بالشرق وبلاد الأندلس كما سأوضحه لك قريبا لتعجب من هذه الأمة كيف نامت أمدا طويلا ولم يفطن كثير من الناس لهذا القرآن ونبذوا تعاليم حكمائهم ، وسيظهر في الإسلام جيل لم تعلم به الأرض وأنهم تكونون خير من أخرجهم الله للناس ، قلت : إن الله استثنى الشعراء الصالحين للسلمين وذلك قوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا) فهم يجعلون الشعر كالدواء يصيب الداء : أى أنهم لا يجعلونه مكسبا يتكسبون به كما فعل المتنبي وأبو تمام وأمثالهما ممن سيأتى ذكرهم . كلا . بل غاية الأمر أنهم ينتصرون إذا ظلموا كما انتصر حسان بن ثابت بهجاء المشركين وهم كانوا بادئين (وسيعلم الذين ظلموا) بالشرك وهجوا رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى منقلب ينقلبون) أى أى مرجع يرجعون إليه بعد الموت ، قال ابن عباس : إلى جهنم وبئس المصير انتهى .

واعلم أيها الذكى أن الأمة الإسلامية أصابها داء الجاهلية بل زادت عليها وعكف أذكياؤها على الشعر لذات الشعر والمكاسب، لا لاصلاح الجمهور ولا لإقامة العدل ولا لحفظ الأمة ولا لحضها على حفظ البلاد وصيانة الأمن ومقاتلة الأعداء إلا قليلا فأثاروا الشهوات البهيمية والسبعية وأناموا الفضائل العالية والقوى العقلية فرجحت كفة الشهوات ومالت كفة المعقولات والمزايا الشريفة والأمور الرفيعة فانحطت بذلك الأمة الاسلامية وقد وجدت أبناء بلادى في هذا الزمان على هذا النحو وقد تركوا الأمة حبلها على غاربها ، ولأحدثك عما رأيته في ذلك .

(١) لقد رأيت وزيرا من وزراء بلادنا يتباهى بأنه محب للشعر وأمر مفتشا كبيرا من مفتشى اللغة العربية أن يشرح ديوان ابن الرومى ، وقد ظن ذلك الوزير أن ارتقاء الأمة موقوف على أمثال ذلك ، وقد صدع ذلك المفتش بأمره وشرح ذلك الكتاب، وأيضا كان يحقر من شأن الديانات ولا يبالى بها .

(٢) قابلت شاعرا كبيرا من شعرائنا وقد اطلع على مقالة من مقالات « نهضة الأمة وحياتها » وقد كتبتها في (جريدة اللواء) التي كان يديرها المرحوم مصطفى باشا كامل وسيأتى ذكرها وتحادث معى في أمر المقالة فقلت له أنا لا أعبأ بشعر شاعر إلا إذا كان مما ينفع العموم . فأما ماعداه فانى أحقره ولا أعده شيئا مذكورا وقد رأيت لك قطعة في وصف الشمس أعجبتنى فبعد ذلك رأيت لهذا الشاعر قطعا كثيرة في المعانى الوطنية والملية .

(٣) إن في بلادنا المصرية شاعرا كبيرا هو (شوقى بك) رأيت له مقدمة لكتاب شعره تنحو نحو المقالة المذكورة وأخبر أنه عدل رأيه وأخذ ينظم شعرا لرقى الأمة بعد ما كان على طريقة أبى تمام والمتنبى .

وهاك المقالة المذكورة في نهضة الأمة وحياتها .

الشعر والتاريخ

(المقالة السابعة والأربعون)

الشعر والتاريخ فنان بينهما علاقة ونسب يجتمعان ويفترقان ، يكادان يكونان طبيعة فى الانسان ، وكما أن الكهرباء سرت فى عامة الأجسام خلقت معها ركبت فى طبائعها ومقدارها يغلب فى الأجسام الحيوية فالجواهر المعدنية ويندر فى النباتية ونحوها ، فهكذا ترى أناسا نبغوا فى الشعر وآخرين يتشبهون ويتقاربون ويتكلفون وقد يصلون ، إن شئت فقل الناس شعراء ومؤرخون ، ثم واجلس فى مجلس فلا تسمع إلا قول الناس فى سمرهم ، ألا سعد فلان وتارة يحلون المجالس بالشعر والمواليا أو يذكرون تخيلا شعريا غريبا ، لم ترتفع هذه عن صغرى الطبقات كما لم تتسام عنها أرقى الطبقات ثم ترى الأمم فى مبدإ أمرها تكون فى الشعر أطفالا وفى البلاغة صغارا ، يعجبهم ما كان غريب اللفظ عويص المعنى كأنهم يخضعون لما تقصر عنه طاقتهم ، فإذا أخذوا فى الرقى قليلا مالوا الشبان فى العقل فأحبوا الخيال والنكت البلاغية غالبا فاذا ارتقوا مالوا إلى جمال المعانى واعتبروا من اللفظ رونقه ومن الخيال سبكه ونظمه وغاصوا على الحكمة وجمال المعنى . هذا ما عن لى فى درجات الشعر ، فمتى رأيت الرجل تدهشه تلك الكلمات وغرابتها فاعلم أنه عامى . ألا ترى أن العامة يقولون لكلام لايدرون معناه هذا فصيح إذا كان معربا ، وإن رأيته لايقف إلا عند الخيال ويعجب به فهو فى الطبقة الثانية ، فإن مرق من الخيال إلى ما فيه من حكم ووازن بينه وبين الحقيقة المقصودة من التأثير فهو فى المرتبة العليا .

ثانيا إن الناس أجمع يميلون الشعر ويحبونه ومنهم فريق استمر فى قرضه فمدح الملوك وذمهم . فياليت شعرى لم غرست هذه الطبيعة فينا ؟ وهل ما رأيناه من الذم والمدح لغلبة الشهوات كان مقصود تلك الفطرة السامية . الله أكبر وأجل أن يضع هذه الغريزة لمثل هذه الصغائر . وانظر كيف كان أبو الطيب أحمد بن عبد الصمد الجعفى المتنبى المتوفى سنة ٣٥٤ فى جهة سواد بغداد كان عظيم القدر شريف المنزلة سامى النفس ، ومع هذا يقول الشعر إرضاء لشهوات النفوس . فكم مدح سيف الدولة وكم ذمه . وكم مدح كافورا وكم ذمه يقول فى مدح الثانى وذم الأول تعريضا :

تجاذب فرسان الصباح أعنة	كأن على الأعناق منها أفاعيا
بعزم يسير الجسم فى السرج راكبا	به ويسير القلب فى الجسم ماشيا
قواصد كافور توارك غيره	ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه	وخلت بياضا خلفها ومآقيا
نجوز عليها المحسنين إلى الذى	نرى عندهم إحسانه والأياديا

وهذا من قصيدة يمدح بها كافورا الإخشيدى إذ ورد عليه وأكرم مثواه فى جمادى الآخرة سنة ٣٤٦ هجرية ، ثم ذمه بقصائد منها قوله :

إنى نزلت بكذابين ضيفهم	عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى وجودهم	من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لايقبض الموت نفسا من نفوسهم	إلا وفى يده من نتنها عود
أكلما اغتال عبد السوء سيده	أو خانه فله فى مصر تمهيد

صار الخصى إمام الآبقين بها ... فالحر مستعبد والعبد معبود
العبد ليس لحر صالح بأخ ... لو أنه فى ثياب الحز مولود
لاتشتر العبد إلا والعصا معه ... إن العبيد لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبنى أحيا إلى زمن ... يسىء بى فيه عبد وهو محمود

ولسنا نطيل النقل ، فمثل هذا الشعر مع حسنه وضع فى مقام غير شريف تفرح به الأمم فى أول أمرها وشبابها فاذا وصلت للحكمة أبتها طباعهم ولايرون لأمثال هذا قيمة وهكذا كثير من قصائد أبى تمام والبحترى وأضرابهم يمدحون ويذمون لتلك الشهوات . وهذا لعمرك ماصرح به القرآن إذ قال « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لايفعلون » فانظر كيف وصفهم بالهيام فى كل واد من أودية المدح والذم كما توحى إليهم الشهوات وتمدهم بالخيلات . إذن لماذا غرس الله هذه الفطرة فى نوع الإنسان ؟ أجمع العلماء أن كل غريزة فينا ذات حكمة شريفة وللشعر منزلة سامية فى النفوس ، لعل نفوس كثير من الشعراء حادت عن الطريق المستقيم ، لعل هذه الفطرة تجنح إلى وصف ما تراه من جمال هذه العوالم وبهائها تصف السحاب ، تصف النجوم والشمس والقمر ، تصف الأنهار تلك الحكم الزاهرة الباهرة ، الشعر كهرباء الأرواح الإنسانية تشع منها إلى النفوس فتطوف هذه العوالم الشاهدة فتستخرج المنافع المادية والمعنوية وتقود النفوس إلى الفضائل وتبتعد بها عن الرذائل فى العوالم الشاهدة عجائب وغرائب فيها حكم وبدائع وإنما يستخرجها الشعراء بقرائحهم . وإنه ليعجبنى مايتغنى به شعراؤنا اليوم من وصف الكون وحكمه والتشويق للعلوم وتحبيبهم للوطن والألفة والرقى . أذلك خير أم أولئك الذين يذمون ويمدحون كأنهم للشهوات عابدون .

المدح والذم صفتان عرضتا للشعراء إذ حاد الملوك عن القصد ونأوا عن الصراط السوى فاستعطفوهم واستجدوهم . الله أكبر كلما مالت الحكومات عن النيابية إلى الاستبدادية مال الشعر إلى الأشخاص ووصفهم ، وكلما عدلت الحكومات اعتدل الشعر وصار ملكا للأمة يحرض أبناءها ويرشدهم إلى المعالى . يغريهم بمكارم الأخلاق . وإنى لأرى أننا لانختار من الشعر إلا ما يقوى إرادة الشبيبة ويهديهم إلى طرق الرشاد . أما شعر المدح والذم فلن يفيد إلا حسن الألفاظ وجمال الخيال وهو خال من كل فائدة . هذا هو الذى أراه فى تعليم الشعر ، مثاله ما قال أبو الطيب فى الحكم :

هون على بصر ماشق منظره ... فانما يقظات العين كالحلم

يقال شق الأمر عليه صعب ، والمعنى هون على عينك مايشق عليها منظره فإن ما تراه فى اليقظة شبيه بما تراه فى المنام وكأن الحياة أحلام ولم الحزن على حوادثها ؟

ولا تشك إلى خلق فتشمته ... شكوى الجريح إلى العقبان والرخم
وكن على حذر للناس تستره ... ولا يغرك منهم ثغر مبتسم
سبحان خالق نفسى كيف لذاتها ... فيما النفوس تراه غاية الألم
الدهر يعجب من حملى نوائبه ... وصبر نفسى على أحداثه الحطم

ومن حكم أبى تمام الطائى حبيب بن أوس المتوفى سنة ٢٣١ :

خطوب إذا لاقيتهن رددننى ... جريحا كأنى قد لقيت كتائبا
ومن لم يسلم للنوائب أصبحت ... خلائقه طرا عليه نوائبا

ومن أجمل ما ينسب لعنترة :

ولأحمين النفس عن شهواتها حتى أرى ذا ذمة ووفاء
فلئن بقيت لأصنعن عجائبا ولأبكمن فصاحة البلغاء
ولأجهدن على اللقاء لكي أرى ما أرتجيه أو يحين قضائى

ومن حكم أبى العلاء وهو يشهد لما قلنا :

وما شعراؤكم إلا ذئاب تلصص فى المدائح والسباب
أذهب فيكم أيام شيبى كما أذهبت أيام الشباب

فإن كان ولابد من مدح فليكن بما عرف من فضائل الممدوح واشتهر ثم يجعل ذلك قدوة لأهل وطنه فيرجع المدح إلى ترغيب الناس فى الاقتداء به ، وهذا كأنه درس أخلاق وما عداه فلا أمدحه ولا أرضاه . الشعر والتاريخ لايقصدان لذاتهما إنما يرادان لإنماء العواطف والحض على المكارم وما عدا ذلك فنبوذ ، فالشعر الذى قصد به الشهوات يهيمون به فى كل واد ، فأما الآخر فهو ما ذكره الله بقوله « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا » الخ أراد به الشعر الذى قصد به غرض شريف ونفع عام وهكذا التاريخ أرى أن يحطو من حوادثه مايقود الشبيبة إلى المنافع والثمرات . التاريخ يراد منه إثارة الحمية والغيرة فى الرءوس ، التاريخ وصف شجاعة الشجعان وخذلان الجبان وسياسة العادل وحب صالح الوطن ورجال الأمة وعظائهم حتى يكون ذلك داعية إلى رقى الأمة والعمل لها ، وأعجب مارأيت تلك القصص القرآنية فما رأيت حكاية قصيرة أو طويلة إلا وتخللها حكم ومواعظ وأمثال وترغيب أو ترهيب كأنه يرينا كيف نعلم التاريخ كأنه يقول ليس التاريخ فنا معبودا ألا إنما التاريخ آلة لنمو القرائح وإنارة العقول للغرض الذى توجه اليه الأمة ، ومتى عرى عن هذه الأغراض فإنما هو من سفاسف الأمور وضياع الوقت وقراءة بعض كتب الإفرنج شاهد بذلك فيما يكتبون . انتهى .

﴿ لطيفة ﴾

لقد تبين لك مقام الشعر وعرفت حقائق علمية فيه ، فلأبين لك آثار الشعر فى أمة الإسلام وكيف كان التمادى فى الشعر سببا فى انحطاط بعض الأمم الإسلامية نقلا عن العلامة (لويس فياردو) ترجمه صديق عبد الحميد بك فهمى .

جاء فى الجزء الثانى من تاريخ عرب ومغاربة أسبانيا وهو الدور الإسلامى ببلاد الأندلس تحت عنوان الشعر مانصه : (ذكر أن العرب فى الأندلس قد بالغوا فى استعمال الشعر حتى صاروا يكتبونه فى المراسلات السياسية وعقد الصلح بل يخيل للانسان أنهم لايكادون ينطقون إلا بالشعر . قال وكان عدد الشعراء عندهم عظيما جدا وكان حماد الراوية الذى كان فى ابتداء القرن السابع يحفظ مائة ألف قصيدة عن ظهر قلب من قصائد الجاهلية على كل حرف من حروف الهجاء غير القطع الصغيرة وأن أبا تمام كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير المقاطع الصغيرة والأصمعى ستة عشر ألف أرجوزة ، وكان أبو ضمضم يروى أشعارا لمائة شاعر كل منهم اسمه عمرو) ونقل هو عن أحد الفرنسيين (أن بلاد العرب أنتجت من الشعراء أكثر ممن خرج من بقية بلاد العالم) ثم ذكر أن مجالس الخلفاء كهارون الرشيد ازدانت بالشعراء . وذكر المتنبى وهو أبو الطيب أحمد ابن الحسين بن عبد الصمد الجعفى المولود بالكوفة سنة ٩١٥ وهو مادح سيف الدولة بن حمدان أمير حلب وكافور الإخشيد وقد تقدم سابقا ، وذكر أبا العلاء المعرى ولزومياته وأبا تمام حبيب بن أوس الطائى المولود بالشام وكان نساجا ويسقى الماء فى الجامع بالقرية قبل أن يكون أمير الشعراء ، والبحترى وهو أبو عبادة ، ثم ذكر أن الشعر كان يرفع الرجل من المسكنة إلى الدرجة العليا ، واستدل على ذلك بأنهم يؤرخون حوادثهم كما

يؤرخون للملوك ويذكرون وفاتهم باليوم والسنة والساعة كما يذكرون وفاة ملوكهم وحجابهم ، ودخل الشعر أسبانيا مع الفتح حين دخلها موسى بن نصير ، وقد كثر الشعراء هناك ووقفوا فى قرطبة وأشبيلية وغرناطة على أبواب عبد الرحمن الداخل وأبى عبد الله الصغير وغيرهما ، وقد كانت تجمع القصائد فى مجلدات بالدواوين ، فيقال ديوان الشاعر فلان ، وقد كان الخليفة الحكم الثانى هو ناشر ومنظم ديوان ابن عبد ربه (أحمد بن محمد ابن عبد ربه) من شعراء قرطبة وصاحب (العقد الفريد) وبعض الدواوين يحتوى على مجموعات لشعراء مختلفين مثل مجموعة أبى بكر بن داود الأصبهانى المسماة بالأزهار ومجموعات أخرى ، ثم قال إن زمن الحكم الثانى كان زمن رقى شعرى عظيم ، وقد اشترك أهل الأدب فى المناظرة الأدبية التى قامت بينهم على أثر مانظمه أحد شعراء قرطبة (محاسن الورد) وما نظمه شاعر آخر فى وصف المطر فتشعبت الآراء وصار القوم فريقين فريق يفضل هذا وفريق يريد ذاك ، وقد أثرت هذه المناظرة الأدبية وولدت كثيرا من النظم والنثر وقل أن يوجد مثل أشهر من المناظرة بين الورد والمطر مؤيدة برأى المضدين لها . انتهى ملخصا .

﴿ نتائج الغرام بالشعر والسياسة فى الأندلس ﴾

ثم قال مانصه بالحرف الواحد : (غير أننا إذا فهمنا الشعر على هذه الكيفية فإنه بدلا عن أن يعلى قدر الأمة فإنه يجرها إلى الذل والهوان ، ويدلنا دلالة كافية على أنها قريبة من الزوال آيلة إلى الانحلال فى زمن قريب بدلا من أن تمكث وتستقر ثابتة فى أوج عزها ومجدها وبعد هـذا الزمن بقليل استوزر ابن عباد الثالث الشاعر (عبد الله بن زيدون) واتخذ أمير بطليوس وزيرا له (أبا محمد بن عبد المجيد بن عبدون) عند ذلك كثر تقلد الشعراء وظائف الدولة وراجت سوق الأشعار فيها حتى كانت المراسلات السياسية تكتب بالشعر يثبت ذلك ما كتبه ابن عباد إلى الأمير يوسف وإلى الفونس السادس . ولما اشتغل المسلمون بذلك وألهاهم الشعر عن النظر فى أمور الدولة قام الأسبان واستردوا مدينة (طليطلة) وهددوا الأندلس بجيوشهم ولم يجد الأمراء ووزراؤهم الشعراء خلاصا من بطش المسيحيين بهم إلا بابا واحدا وهو الاحتماء بأمراء إفريقية فاستدعوهم إليهم وسلموا إلى رئيس المغاربة ما بقى بأيديهم من بقايا الخلافة العربية فكأنهم قضوا بأيديهم على تمدنهم كما قضوا على دولتهم انتهى المقصود منه .

وإنما ذكرت لك هذا أيها الذكى لتعرف نتيجة قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون » فانظر كيف هام الأندلسيون من المسلمين فى الشعر وأوديته حتى قارنوا بين المطر والورد وتركوا الأمة وراءهم جاهلة لا يعلمونها نظام الحياة ولا رقى البلاد ولا الاستعداد لمقاتلة الفرنجة فهـذا هو الهيام فى كل واد من أودية الضلال ، وهـذا هو الذى عناه القرآن وهو معجزة أخرى ونتيجة سياسية لهذه الآية .

﴿ خاتمة السورة ﴾

اعلم أن هذه السورة بدأها الله بالعلوم فذكر النظر فيما خلقه فى الأرض من عالم النبات وعجائبه وذكر فى قصة موسى عليه السلام ذلك النظر كما شرحناه وعممه فى الأرض وفى السماء وفى المشرق والمغرب ومابينهما وفى نوع الإنسان ، وكذلك فى قصة إبراهيم عليه السلام من الأحوال الإنسانية خلقا وهداية وشفاء الخ ، ثم أعقب ذلك فى القصص الخمس الباقية بالعمل بعد العلم فذم الكبرياء على الضعفاء فى قصة نوح عليه السلام وذم التعالى والتعاظم بما أنعم الله من النعم لايذاء الناس وإذلالهم وإهانتهم كما كانت تفعل عاد من احتقارهم للناس وبطشهم بطش الجبارين ، وذم ثمود بكفر النعم التى أنعم الله بها عليها كالبيوت المتخذة فى الجبال ، وذم قوم لوط إذ جهلوا نعم الله فى النساء بالبنين وتركوهن واكتفوا بالذكور ، وهكذا قوم شعيب إذ ظلموا فى كيلهم

ووزنهم فرجع الأمر إلى نظام البلاد بإقامة العدل فى المعاملات وحفظ النسل وترك ظلم الناس وقتلهم وسفك دمائهم

هذا ملخص مافى القصص الخمس الأخيرة ، فالسورة ابتدأت بعلوم النظر وختمت بعلوم النظام الاجتماعى والحق أنه لاسعادة لأمة إلا بالنظر فى هذا الوجود أولا وحفظ النظام وضبط القوة الشهوية والقوة الغضبية ثانيا وهذا ملخص السورة ، وختمها ببيان أن القرآن لم ينزل به على النبى شيطان وأن النبى صلى الله عليه وسلم ليس بشاعر ثم وصف الشعراء وقد عرفت كل مايتعلق بذلك .

كيف يعلم الشعر فى الاسلام

اعلم أن السورة قد ختمت بذكر الشعر كما قدمنا وكان ابتداؤها بذكر الحكمة والعلم والنظر فى هذا الوجود كما شرحناه ، ألا تعجب من هذا النظام ، ألا تعجب أن التعليم الحقيقى يكون على هذا المنوال فقد جاء فى كتاب أميل القرن التاسع عشر ما ملخصه أن العلوم الأدبية والشعرية والقصص الخيالية والخرافية تقرأ أولا ثم يقرأ التلميذ بعد ذلك العلوم الطبيعية كالحيوان والنبات والانسان والعلوم الرياضية كالحساب والهندسة والفلك إلى آخره وذلك لأن الشعر ومامعه تفتح للعقل باب الخيال ، أما العلوم العقلية فإنها تصقل العقل وتهذبه فبهذا تعرف كيف سقطت دولة الأندلس فيما تقدم وتعرف ما يجب فى المستقبل على المسلمين .

فى تعليم الشعر

ليقرأ الشعر بالطريقة الحديثة بحيث يذكر تواريخ الشعراء ، وما السبب فى هذا الشعر ، ولم كان على هذا المنوال ، وكيف كان حكم الدولة فى تلك الأيام ، وما الذى أثر فى الشاعر حتى نطق بهذا القول ، وما حال الدولة فى أيامه ، وما مدنيتها ، وفى أى درجة كانت من الرقى حتى يخرج الطالب من ذلك وقد كسب ملكة النقد لرقى البلاد بآرائه . ولابد من العلوم الطبيعية كما جعل القرآن مبدأ السورة فيها فى أولها وفى قصة موسى وإبراهيم ، وكما ذكر بعد (سورة الشعراء) سورة النمل وهى من العلوم الطبيعية . أفلا تعجب من القرآن . أولا تعجب كيف سمى هذه السورة بالشعراء وأردفها بما هو من علوم الطبيعة ونظام الخليقة وبدائع الحكمة وهى (سورة النمل) .

تم تفسير سورة الشعراء يوم الثلاثاء ١٧ من شهر فبراير سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين

سورة النمل مكية

(وهى ثلاث وتسعون آية . نزلت بعد الشعراء)

وهى أربعة أقسام

[القسم الأول] فى مقدمة فى الإيمان، وفى قصة موسى عليه السلام .

[القسم الثانى] فى قصة سليمان عليه السلام .

[القسم الثالث] فى قصة ثمود وقوم لوط .

[القسم الرابع] فى حكم عامة وآيات بينات فى معرفة الله واليوم الآخر . وقصة موسى وثمود وقوم لوط أشبه بإتمام للقصص فى سورة الشعراء .

(القِسْمُ الأَوَّلُ)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ * هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ * إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طس) تقدم تفسيرها وتفسير جميع أمثال هذه الحروف فى أول بعض السور وفى أول سورة (آل عمران) وستقرأ قريبا ذكر ما يخصها هنا بإيضاح (تلك آيات القرآن وكتاب مبين) أى هذه آيات القرآن وآيات كتاب مبين فيه الحكم والإحكام والإعجاز ، وفى هذا الكلام عطف إحدى الصفتين على الأخرى . وقوله (هدى وبشرى للمؤمنين) حالان من الآيات فهى هدى من الضلالة وبشرى بالجنة (الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون) الجملة الاسمية عطف على ما قبلها (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم) القبيحة فأصبحت مشتهاة لهم طبعا (فهم يعمهون) أى يترددون فيها متحيرين (أولئك الذين لهم سوء العذاب) كالقتل والأسر يوم بدر (وهم فى الآخرة هم الأخسرون) أشد خسرانا لفوت الثواب واستحقاق العقاب (وإنك لتلقى القرآن) تلقنه وتؤتاه (من لدن حكيم عليم) فعلوم القرآن قسمان علم وهو يشمل الجائزات والمستحيلات والواجبات وهو يشمل القصص والأخبار والمواعظ ويشمل إتقان العمل وهذا الأخير هو الحكمة وهى القسم الثانى ، وهذه تشمل العقائد والشرائع والأحكام . ثم شرع فى بعض العلوم فقال اذكر (إذ قال موسى لأهله إنى آنست نارا) أى اذكر قصته ، وقوله (سآتيكم منها بخبر) أى عن حال الطريق لأنه قد ضله فى ذهابه من مدين إلى مصر: أى امكثوا مكانكم سآتيكم بخبر عن الطريق (أو آتيكم بشهاب قبس) على الإضافة بمعنى شعلة نار مقبوسة وشعلة النار تكون مقبوسة وغير مقبوسة ومنونا فيكون القبس وصفا للشعلة بمعنى مقبوس (لعلكم تصطلون) رجاء أن تستدفئوا بها من البرد وكان فى شدة الشتاء (فلما جاءها نودى أن بورك من فى النار ومن حولها) أى نودى بأن بورك من فى النور الساطع الذى ظنه موسى نارا أى قدس وهو الله تعالى كما قاله ابن عباس ومن حولها وهم الملائكة وموسى . ولا جرم أن الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم وقد خاطب موسى من ناحية الشجرة فلا ضير فيما قاله ابن عباس فى هذا المعنى وتقديس الله بمعنى تنزهه عن جميع النقائص وأحوال الخلق وتقديس موسى والملائكة بمعنى ترك الذنوب ومعصية الله تعالى ولا جرم أن الملائكة موكلون بهذا العالم فهم حاضرون فى كل مكان . ولما كان قوله « من فى النار » يوهم الظرفية الحقيقية ويوهم إشراك موسى والملائكة مع الله فى التقديس أو كثرة الخير من كل وجه أردفه بقوله (وسبحان الله رب العالمين) وهذا من تمام النداء أى تنزيه الله مربى العالمين والمربى يتعالى عن الذين هم مربوبون فلا يشاركونه فى كثرة الخير ولا فى التنزيه عما لا ينبغى . ثم وصف الله نفسه لموسى فقال (ياموسى إنه أنا الله العزيز الحكيم) القاهر الغالب ولست أقهر إلا لحكمة فأنا قاهر هذا العالم ولكن القهر مصحوب بحكمة فلئن قلبت العصا حية فإنما ذلك لأثبت قدرتى وإعجازك لما أظهرته على يديك ولكنى لا أظهر ذلك على يدى عبد من عبادى إلا لحكمة فلا أجعل مثل هذا شائعا لأن شيوعه وتداوله ينافى الحكمة بل إنى أجعله نادرا ولكن جميع ما يحصل فى الطبيعة إنما يسير بنظام تام فهناك حكمة فى دوام النظام وهنا حكمة فى خرقه على شريطة أن يكون وقت الحاجة . ثم أبان عزته وقهره لحكمة هنا فقال (وألق عصاك) عطف على بورك أى نودى أن بورك من فى النار وأن ألق عصاك (فلما رآها تهتز) تتحرك باضطراب (كأنها جان) حية خفيفة سريعة (ولى مدبرا ولم يعقب) ولم يرجع . يقال عقب المقاتل إذا كر بعد الفرار . وإنما رعب لأنه ظن أن ذلك لأمر أريد به فلذلك قال الله له (يا موسى لا تخف) منى ولا من غيرى ثقة بى (إنى لا يخاف لدى المرسلون) إذ لا يكون لهم سوء عاقبة فيخافون منه . أما الخوف الذى هو من شرط الإيمان فهو ملازم لهم .

واعلم أن الأنبياء قد يأتى بعضهم بغير الأفضل وقد يأتى بالصغيرة وموسى عليه السلام قتل القبطى ثم تاب و«قال رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى فغفر له» . وقال ابن جريج : قال الله لموسى إنما أخفتك لقتلك النفس ، ولذلك قال تعالى (إلا من ظلم ثم بدل حسنا بعد سوء فانى غفور رحيم) أو الاستثناء منقطع أى لكن من ظلم من سائر الناس فإنه يخاف فان تاب وبدل حسنا بعدسوء فانى أغفر له وأزيل خوفه (وأدخل يدك فى جيبك) أى جيب قميصك وأخرجها (تخرج بيضاء) نيرة تغلب نور الشمس (من غير سوء) آفة كبرص . يقول الله وأدخل يدك حال كونها آية مع تسع آيات أنت مرسل بهن (إلى فرعون وقومه) فتكون الآيات إحدى عشرة المذكورتان والفلق (٣) والطوفان (٤) والجراد (٥) والقمل (٦) والضفادع (٧) والدم (٨) والطمس (٩) والجدب (١٠) والنقصان فى مزارعهم (١١) وقوله (إنهم كانوا قوما فاسقين) خارجين عن الطاعة (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) بينة واضحة يبصرونها (قالوا هذا) الذى نراه (سحر مبين) ظاهر (وجحدوا بها) أنكروا الآيات ولم يقروا أنها من عند الله (واستيقنتها أنفسهم) أى علموا أنها من عند الله فهم جحدوا بها بألسنتهم واستيقنوها بقلوبهم (ظلما) لأنفسهم (وعلوا) ترفعا عن الإيمان وهما مفعولان لأجله لقوله «جحدوا» (فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) فقد أغرقوا فى الدنيا وأحرقوا فى الآخرة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة .

﴿لطيفة﴾

انظر عجائب هذه الآيات فى (سورة طه) وغيرها مما تقدم كالعصا والحية ، وكيف قلب الله العصا حية وما أشبه ذلك قد أوضحناه فى سورة طه ، فإن الله يظهر هذه العجائب كأنه يقول لعباده انظروا الأرض وما عليها تلبس ألوانا وألوانا ، يكون ليل ففجر فصبح فظهر فعصر فغرب فعشاء ، ألوان وألوان وظلمة وضياء وجمال فى النجوم ، وهذا كله تغير سريع متتابع ، وهناك تغير غير متتابع كالنبات وتتابع زرعه وهكذا الحيوان فالناس يعجبون من قلب العصا حية لجهلهم بصنعه فانهم لما شاهدوا تقلب النجوم والشمس والقمر وجلابيب النبات على الأرض وأنسوا بذلك صباحا ومساء أصبح ذلك عاديا لايؤثر فى أنفسهم لجهالتهم وإنما ذلك يؤثر فى نفوس العقلاء والحكماء ، ولكن لما رأوا العصا قد قلبت حية عجبوا من فعل ربهم وذكروه . هذه هى الحكمة فى ظهور أمثال هذه الخوارق .

بهجة العلم فى بعض أسرار (طس)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(هذا ذكر بعض أسرار الطاء والسين فى هذه السورة)

اعلم أن الله عز وجل الذى خلق أرواحنا من أجمل الأنوار وأبهج الجمال قد أنزلها فى هذه الأرض واستقرت فى الطين ولصقت به فوسمت بالجهل حتى لا تعلم فلذلك أخذ يعلمها الله ليرجعها إلى مقامها الأول .

نقل فؤادك ما استطعت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

لهذا أخذ ينزل لها العلوم إما بالوحى وإما بالعقل والحكمة ، والوحى مبدأ والحكمة النهاية وكلاهما منه تعالى ، وها هو ذا سبحانه أخذ فى أمثال هذه السورة يعلمنا كما يعلم الأستاذ تلميذه بالبسائط قبل المركبات والجزئيات قبل الكليات فابتدأ يقول لنا (طاء . سين) وهذان الحرفان لايفهم القارئ منهما معنى لأنهما

حرفان لا معنى لها . ولقد تقدم شرح هذا المقام بأوفى بيان فى سورة (آل عمران) فهناك تجد العجب العجاب ولكن نحن هنا نريد ما يخص هذه السورة من المقصود من الطاء والسين . إنا إذ ذكرنا فى سورة (آل عمران) من المعانى التى تختص بالألف واللام والميم ما به يستيقظ المسلمون النائمون إلى حوز مجدهم وشرفهم وأن هذه الحروف موقظة هناك إلى قصة اليهود للبنوة بالألف واللام والميم وهذه القصة تفيد أنهم قد اتكلوا على شفاعة آبائهم وعلى أنهم لا يدخلون النار إلا تحلة القسم كما وعد الله يعقوب بالنسبة لأبنائه أو أنهم لا يدخلون النار إلا أربعين يوما عدد أيام عبادة آبائهم العجل ، وهذا الاتكال الذى ادعوه جعلهم يستحلون المحرمات وينكرون الأحكام الشرعية ويكتمون ما أنزل الله حتى قالوا إن التوراة ليس فيها الأمر برجم الزانية والزانى ، وهذا الاتكال أوقعهم فى النكال فأزال الله ملكهم وحل المسلمون بساحة بلادهم وملكوها ، وقد بينا هناك أن هذه الحال بعينها هى التى حلت بالأمم الإسلامية اليوم سواء بسواء ، وأنهم اتكلوا على شفاعة الشفعاء من شيوخهم وعظمائهم وناموا جهلا بمعنى الشفاعة وبعدا عن معرفة الحقائق فلم يقدروا أن يفهموا ما هى الشفاعة ولا ما هو الواجب فوقعوا فيما وقع فيه اليهود من ضياع ملكهم وذهاب مجدهم فاتخذوا الشفاعة التى هى حق وصدق لاشك فيها سببا فى الجهل والكسل والظلم والنوم على فراش الراحة الوثير وهدموا الدين هدما . إذن هم ذكروا حقا وأرادوا به باطلا وأضل الله كثيرا منهم على علم . إذن « الم » فى سورة (آل عمران) يراد بها ارتقاء المسلمين اليوم وخروجهم من الظلمات إلى النور ومن الغرور المذكور فى قوله « وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » إلى الحقائق ومعرفتها ، وهناك بيان أنواع المغرورين فى زماننا وبيان الطريق التى يسلكها المسلمون للخروج من هذا الغرور فاقرأه هناك فإنه شاف واف . هذا ملخص ما هناك مجملا .

فلننظر هنا فى الطاء والسين ، فهل فيهما معان كالتى هناك ، أقول نعم فيهما وفيهما ، ههنا حضر صديق العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى المسائل الهامة فى هذا التفسير . وقال إن هذا الملخص الذى ذكرت أنه فى (سورة آل عمران) لم تأت فيه بتمام الغرض هنا ولكن الاطلاع عليه فى الفصل هناك يكفى اللبيب إنما الذى يهمنى الآن أن أعرف هل « طس » فيها معان تفيد الأمم الإسلامية كالتى تقدمت فى (آل عمران) فأجبته نعم تضارعها وتشرح الصدور . فقال وما هى تلك المعانى . قلت انظر وتعجب . إن هذه السورة تشتمل على :

(١) حديث سليمان والطير والنمل ويدخل فى أمر الطير مسألة بلقيس وعرشها . ولاجرم أن ذلك يدعو لأمرين : ارتقاء العلوم وارتقاء النظام السياسى فى الأمم .

(٢) وعلى أن صالحا اطير به قومه فوكل الأمر لله فنصره .

(٣) وعلى أن لوطا نصر إذ آذاه قومه .

(٤) وعلى نتيجة ذلك كله وهو وصف الله بجمال خلقه فى قوله « قل الحمد لله وسلام على عباده » الخ ثم الأمر بالسير فى الأرض وبقية النصائح .

هذا ملخص السورة ، علم الله قبل أن يخلق الخلق وينزل القرآن أن المسلمين سينامون نوما عميقا . لماذا ؟ لأن العرب لما فتحوا البلاد تفرقوا فيها ولما تفرقوا نسوا مجد آبائهم لما أسكرتهم خمرة الانتصار وطال عليهم الأمد وقست قلوبهم وصاروا مترفين . مع أنهم هم الذين علموا الأمم وهم الذين رقوها وهم الذين نقلوا علم اليونان وهم الذين سلموا ذلك العلم إلى أوروبا فأحاطت بهم الأمم من كل جانب وهم نائمون فقال الله لهم « طس » وهذان الحرفان أشبه بطلسم مكنون يقرؤه الناس جيلا بعد جيل وزمنا بعد

زمن وصله الآباء للأبناء وهذا زمان المعرفة والعلوم ، هذا زمان استيقاظ المسلمين من العرب ومن تلك الأمم التى أيقظها العرب الفاتحون ، ولما نام العرب ناموا أجمعين ثم رجعت أكثر الأمم التى ليست بعربية إلى أنفسها فقلت واستردت بعض مجدها ولكن « طس » يراد منها أن توقظ أمم العرب وغير العرب بادراك بعض سرها فى هذا التفسير ، فقال صاحبى فبين لنا ما هذا السر الذى قدمت له هذه المقدمات . فقلت انظر إلى (الطاء) ألست تراها فى لفظ (الطير) ولفظ (أحطت) و (تحط) فهى أول كلة طير وآخر كلة أحاط وتحيط . قال بلى . قلت انظر إلى السين ألست تراه فى أول لفظ سليمان . قال بلى . قلت هذا هو مفتاح العلم فى هذه السورة ، فالطاء والسين هما مفتاح الرقى للأمم الإسلامية وكان الطاء قفل وكان السين مفتاح كالمفاتيح المعتادة فى بلادنا . قال نعم . قلت فاذا اجتمع القفل مع المفتاح وأدخل فيه فتح الباب . هكذا هنا اجتمعت السين مع الطاء ففتحت خزائن العلم . فقال صاحبى أريد أن أرى هذه الخزائن . فقلت ههنا للعلم خزانتان : خزانة العلم وخزانة السياسة .

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم . اللهم لا معلم إلا أنت . « اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » . اللهم إن القلوب بيديك والفتوح منك فلا حول لنا ولا قوة إلا بك أنت . أنت الذى ألهمتنى هذه المعانى فلأقلها للمسلمين . اللهم إن سليمان نبيك كلم الطير ولم يكن ذكر ذلك فى كتابك لمجرد حكاية تحكيها عن سليمان لنفرح بها ونحن جاهلون أو لنتباهى بغيرنا ونحن مجردون . كلا إن القرآن ذكر مبارك والذكر يتبعه الفكر كما قلت « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض » فهنا يفكر المؤمن فى أمر سليمان وأمر الطير فيقول إن الطير يقول لسليمان « أحطت بما لم تحط به » فوالله ما كان علماء الأمم البائدة من قدماء المصريين والآشوريين والبابليين ولا علماء الأمم الحاضرة من الأمم العربية بأقل علما من الهدهد الذى يقول لسليمان « أحطت بما لم تحط به » ولا نحن بأغزر علما من أنبياء الله تعالى فليس لنا حق أن نتبرأ من علم الأمم أو أن نجهله بل نضرب فى كل علم بسهم ويكون منا لكل علم قوم نابغون فيه ، فلو أن تكبرنا على علم منها لكان سليمان أولى بالكبرياء على الهدهد ، فلا نحن أعلم من أنبياء الله ولا علماء الأمم بأضعف من الهدهد . ولقد ذكرت هذا المعنى فى سورة (يونس) عند تفسير قوله تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » ورسمت لك هناك صورة منطقة فلك البروج المنقولة عن قدماء المصريين المرسومة على صندوق موتاهم ، وعجبت كل العجب أن يكون علم الفلك مرسوما ملخصا على صناديق أموات قدماء المصريين ، ونرى أن جميع الأمم الاسلامية من مصريين وغير مصريين لم تحط أحياؤهم بهذا العلم ، إن الله جعل هؤلاء لنا آية ، يقول لنا هؤلاء الأموات رسمت على صناديقهم عجائب سمواتى فكيف كان أحياؤهم إذن ، وإذا كان الأموات يشرفون بجمال سمواتى وبهجة علومى فكيف بأحيائهم ، وهل يصح منكم ذلك يامعشر المسلمين الذين أرسلت لكم خاتم الأنبياء وجعلتكم رحمة العالمين أن تكونوا أجهل أمة فى الأرض ويكون الأموات من الأمم السابقة أحرص على جمال نظامى ونقوشه وبدائع كواكبى من أحيائكم وأنتم مسلمون ، ألا ساء مثلا القوم الغافلون الجاهلون .

أهل مصر كأكثر بلاد الاسلام ليسوا مغرمين بجمال علم النجوم وقد دفنت تحت أرجلهم أمم كانوا قبلهم وهذا العلم مرسوم على صناديقهم وها أناذا أبرزه لهم اليوم وأقول « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » هذا هو بعض ماجاء فى (سورة يونس) مع بيان أن علماء قدماء المصريين ليسوا أقل من الهدهد بل هم أشرف منه ولا أمم الإسلام بأرفع مقاما وعلما وقدرا من سليمان ، فاذا نزل سليمان إلى سماع الهدهد أفلا يسمع

المسلمون كلام العلماء . فقال صاحبي هذا حسن وقد تقدم ولكن هذا كله أشبه بمقدمة ويظهر لي أن هنا ماهو أجمل من هذا وأبين . فقلت نم هنا [أربعة فصول] :

[الفصل الأول] في أن الأمراء ورؤساء العشائر يجب عليهم مراعاة صغيرات الأمور ككبيراتها .

[الفصل الثاني] في أن الطيور وسائر الحيوان معلمات للانسان في الحال والاستقبال بنماذج تعليمية .

[الفصل الثالث] في أن هذه المخلوقات الحيوانية فيها مضار ومنافع لابد من علمها لرقي الانسانية .

[الفصل الرابع] في أن قصة بلقيس تذكرة للعرب قد دخلت في حديث الهدهد وفيها تقريع لأبناء العرب عموما ولأهل اليمن خصوصا إذهم في بلاد كانت لها مدنية مع وثنيتهم لم يصل لها المسلمون الحاليون مع جلالة قدر دين الاسلام .

﴿ الفصل الأول : في أن الأمراء ورؤساء العشائر يجب عليهم مراعاة صغيرات الأمور وكبيراتها ﴾

اعلم أن الله عز وجل لما أطلعنا على رقه المنشور وكتابه المفتوح وهي الطبيعة التي درسناها آنفا لم يفرق في الرحمة والعناية والحفظ بين الكواكب في مداراتها والحشرات في مخابئها بل وجدناه أعطى النمل من الأعين وعددها مالم يعطه للجمل والفيل ، جعل الله الكواكب مدارات منظمة بحساب متقن ولكنه لم يذر الذرات والحشرات الصغيرات الضعيفات بلا حساب ولا عناية بل أعطاها كل ما تحتاج إليه . إن الانسان الذي يوقن بهذا قد دخل أبواب الجنة فعلا في هذه الدنيا . هذا هو الذي رأيناه في عمل الله فانظر إلى عمل نبيّ من أنبيائه وهو سليمان عليه السلام ، فانظر ماذا فعل ؟ تراه يعاشر الوزراء ، ويدبر الملك ولكنه في الوقت نفسه لم يغفل عن النملة في مسكنها والهدهد في الهواء ، فهو يكلمهما ويتفقد الطير ويهدد الهدهد ويستمع جوابه ويقبل منه القول الحسن ويعمل بقوله ويسمع مخاطبة النملة ويتبسم ضاحكا من قولها . إذن هو كلم الوزراء وأدار الملك وتنزل إلى النمل فهو إذن في عمله نموذج لفعل ربه . وبعبارة أخرى يعني أنه يجب علينا نحن المقصودين من هذا القول كله أن نلاحظ مادق كما نلاحظ ما جل ونتفقد كل صغير وكل كبير في عملنا كما يتفقد الأب جميع أبنائه بل يتفقد الصغير أكثر مما يتفقد الكبير كما فعل الله إذ أعطى النملة من الأعين كما سيأتي في هذه السورة مشروحا مالم يعط الجمل والفيل وذوات الأربع عموما . انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثاني : في بيان أن الطيور وسائر الحيوان معلمات للانسان في الماضي والحال والاستقبال ﴾

وذلك ظاهر في (سورة طه) عند قوله تعالى « قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » فهناك ترى أربعين نوعا من الصناعات استقلت بها الحيوانات قبل خلق الانسان فتعلمها الإنسان كالبناء وضع الورق والسراديب والغزل والنسج وما ... به ذلك فراجعه تجده مشروحا ، وآخر صناعة نقلها الإنسان من الحيوان مسألة الطيارات التي تطير في الجو ولا ترتفع إلا إلى خمسة أميال فقط مع أنها تجرى مئات الأميال حول الأرض ولكن ارتفاعها محدد ، فهذه الصناعة لم يهتد لها الإنسان في زماننا هذا إلا من الطير كما تقدم في سورة المائدة عند ذكر الغراب وأن الله بعثه ليرى الإنسان كيف يدفن موتاه ، إذن الإنسان تلميذ الحيوان . واعلم أن علم الحيوان وعلم النبات وعلم المعادن وعلوم الكائنات يجب على الناس أن يقرءوها قبل قراءة جسم الإنسان وقراءة علم نفسه وعلم سياسته لأن هذه مخلوقات قبله ومقدمة عليه طبعا فوجب تقديمها صنعا فإن نظام الله إذا روعي ترتيبه كان أقرب إلى الرقي كما قال (اسبنسر) في تعليم اللغات (إنه يجب أن يبدأ للدرس بالتكلم ثم يتبعه بالكتابة لأن الناس هكذا تكلموا ثم كتبوا) فهكذا نقول هنا هذه العوالم خلقت قبل أن يخلق الإنسان فلتدرس قبل أن يدرس الانسان نفسه ويدرس عقله لأن الحيوان أقل تركيبا من الانسان فهو كجزئه والجزء يدرس قبل دراسة الجميع ، ولهذا عنيت الأمم

بقراءة تلك العلوم عناية تامة . هذا من معانى قول الطير لسليمان « أحطت بما لم تحط به » فكل طير وكل حيوان مخلوقات قبل الانسان فعلمها إسعاد له وكل علم عرفناه عن الحيوان علم بناحية من نواحى الانسانية العامة . انتهى الفصل الثانى .

﴿ الفصل الثالث : فى أن هذه المخلوقات الحيوانية فيها مضار ومنافع لابد من علمها لرقى الأمم ﴾

لقد تقدم فى أول (سورة الفرقان) كلام عام عند قوله تعالى « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » ومما ذكر هناك السمك الكهربائى فى البحر والحيوان الصدفى الذى يدير سفينته فوق سطح البحر والعنكبوت التى تتخذ لها سفنا فوق سطح البحر بشبكتها وطيارات فى الجو جوالات بها تصطاد الحشرات وتسير فى الجو وأن هذه الحشرات وأمثالها جعلها الله أمثالا لنا ولذلك قال « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » وقال فى آية أخرى « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » فهذه جعلها الله آيات مفصلات ، فالقمل آيات مفصلات والدم آيات مفصلات والطوفان آيات مفصلات وقد مر إيضاح أكثرها ومعرفتها هناك .

يعجب المسلم حين يسمع أن الضفدع والدم آيتان ، وإذا جعل الله الشمس والقمر آيتين فكيف يجعل القمل مثلا والدم آيتين . إذن الشمس والقمر كأقل الحشرات كلاهما من آيات الله .

الله أكبر ، جل الله وجل العلم ، هذه من آيات الله فهى منذرات . إنك ترى فى (سورة الفرقان) أن البراغيث اللاتى هن أخوات النمل رسل وسفراء بين الفيران وبين الإنسان فإذا حل الطاعون بساحة الفيران وساء صباحها وماتت جموعها حملت البراغيث هذا الداء من تلك الأجسام المطعونة إلى أجسام الإنسان فوضعت فيها جراثيم الطاعون ثم ينتقل من زيد إلى عمرو ويسرى فى الناس سريان البرق فى الظلماء . وقد تقدم هذا وكيفية الاحتراس منه فلا نعيده ولسنا نحن هنا فى مقام المداواة من الأمراض ولكن نحن فى مقام العلم والحكمة العامين فشرح الأمثال الجزئية تذكرة وتبيانا للقواعد الكلية . إذن لابد من دراستها فهى آيات مفصلات فصلها الله بعمله قبل أن يخلق الانسان ويخلق أنبياءه ويوحى إليهم فيدل بنى آدم بالوحى للأنبياء على ما كتبه فى هذا اللوح المنشور فيسمع الناس القول فيتبعونه بالعمل .

هذا هو السر فى أن الأمم حولنا يدرسون كل حشرة وكل طير ليحترسوا من الهلاك ويجتنوا الثمرات ، إن الانسان لا يخطر بباله يوما ما أن البرغوث مهلك بالطاعون للانسان ولكن العلم اليوم أثبت ذلك كما أن هناك جراثيم حية لاحد لعددها تمرض الانسان بأنواع الأمراض المختلفات « وما ربك بظلام للعبيد » وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم بالجهل بمصنوعاتنا ، وكلما كانوا أكثر جهلا كنا أكثر إهلاكا لهم لأنهم لو درسوا ماحولهم لأجل حفظ أجسامهم ورقى مدنهم لانتهوا إلى إدراك جمالنا وقدرتنا وحكمتنا ، فإذا أمرنا الناس بالنظر فى مصنوعاتنا لتوحيدنا وشكرنا فمعناه أنهم لايصلون للحقائق المعرفة بنا إلا بعد أن يكونوا قد أتموا دروس علوم الحياة التى تنفعهم فى دنياهم ، فالمنافع الدنيوية أشبه بجسر يعبرون عليه لمعرفة جمالنا وإنما فعلنا هذا النظام لنميز الخبيث من الطيب والذكى من البليد لأننا إذا تركنا الإنسان ولم نوقظه أهلكته البطنة بسوء الملكة فيكون من المترفين والمترفون مذمومون إذ جاء فى التنزيل « إنهم كانوا قبل ذلك مترفين » فجعل الترف هو السبب فى عذابهم فى جهنم ، فمن رحمتنا أن جعلنا ماله وولده والحشرات المحيطة به عذابا له ليعمل وليحترس من الهلاك ويجد ويجتهد فلا يحقر البرغوث والقمل ويقول ماضررهما فنقول له :

* أطرق كرا إن النعامة فى القرى *

ادرس البرغوث وادرس القمل وادرس الطير وإلا أذقناك أيها الأنسان العذاب وسلطنا عليك جنودنا فأهلكناك ، ولو أننا أعنا هذا الانسان لهلك . ألم تر إلى أمة اليابان ، تلك الأمة الشرقية أنها سبقت الشرق كله إلى الرقى . لماذا ؟ لأن بلادها خلقت معرضة للبراكين فهى أبدا على حذر وخوف لذلك ارتقت قبل أهل مصر الذين اشتركوا معهم فى اقتباس المدنية فسبق الأولون الآخرين واحترمتهم الأمم ، وإنما تأخر المصريون (أهل بلادى) لأنهم آمنون عندهم ما يكفيهم من القوت والملابس ولا زلازل ولا براكين عندهم فاكتفوا بما عندهم «وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» .

فالله لم يرسل المنذرات من الحشرات والجنود المجندات على هذا الإنسان إلا لايقاظه وارتقائه ، وهذا الإنذار لا يعرف إلا بالعلم وهذا هو سر قوله تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » فالعلماء بهذه الحشرات والحيوانات هم الذين بهم ندرك لماذا خلقت ؟ وبماذا نحترس منها ، مع أن أكثر المسلمين حين يسمعون الله يذكر الهدهد ويذكر النحل ويذكر العنكبوت يقولون فى أنفسهم « ماذا أراد الله بهذا مثلا » وهذا هو العجب أن يكون أسهل الأشياء عند الجهال أصعبها وأعظمها عند العقلاء .

قال الشاعر :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

هذا هو بعض سر الطاء والسين فى أول هذه السورة ، فالسين من سليمان والطاء من الطير ومن أحطت ومن نحط بشيران إلى ما ذكرناه من هذه المعانى ، وكأنما السين كما قدمنا قريبا مفتاح والطاء قفل بحسب شكلهما واجتماعهما وقد أفاد أن سليمان الذى أول حروفه السين يشير للعلم لأن الله يقول فى هذه السورة «ولقد آتينا داود وسليمان علما» فالعلم المشار له بسليمان هو المفتاح الذى يفتح به قفل الطلاسم فى الطير المشار له بالطاء فكأن الطير طلسم وهكذا كل الحيوانات والعلم حل له ورمز له بسليمان أو قفل ومفتاح بحسب ظاهر الشكل ، فالحمد لله على العلم والحمد لله على الإلهام والإنعام . انتهى الكلام على الفصل الثالث والحمد لله رب العالمين .

(الفصل الرابع : فى أن قصة بلقيس تذكرة للعرب وقد دخلت فى حديث الهدهد ، وفيها تقريع لأبناء العرب عموما ولأهل اليمن خصوصا ، إذ هم قد ورثوا بلادا كانت لها مدنية فى وقايتهم لم يصل لها المسلمون الحاليون مع جلالة قدر دين الاسلام)

اعلم أنى أكتب هذا الآن وأنا من أبناء العرب وأحس بأننا قد وصل ديننا أطراف الأرض بجد آبائنا وسعيهم فتفرقنا ونسينا كل علم وكل حكمة إلا قليلا ، فذكرنا الله برجل أعرابى يسمى ذا القرنين إذ بلغ مشرق الشمس ومغربها وقد تقدم فى (سورة الكهف) وهكذا هنا هذه ملكة فى اليمن تعبد الشمس وعندها الشورى فحكومتها حكومة ملكية مقيدة أشبه بمملكة الإنجليز الآن من حيث نظام الملك فجاء فى هذه القصة هنا أن لها عرشا وأن لها ملكا ضخما وأن لها مجالس للشورى وتدبيرا للملك فهل يسمع هذا أبناء العرب فى اليمن فيتحدوا مع الأمراء والملوك ويرجعوا للأمة مجدها وعزها وعظمتها ويتفكرون فيما لليمن من مجد تالد وعز قديم ، وكيف كان الماء النازل من السماء لا يترك سدى بل كان له سدود تحفظه وتحبسه بعلم الهندسة والحساب ونظام الدولة الجميل إذ القوم كان عندهم علم وحكمة فعمروا بلاد الله فعاش بها عباد الله ، فلما غفلوا أرسل

الله عليهم سيل العرم وبدلهم بجنتيهم الجميلتين المغدقتين عليهم النعم بجنتين لا منفعة فيهما وليس فيهما إلا الثمار المرة والعبل وقليل من النبق ورجعت البلاد كما كانت جزاء تقاطعهم وتدابرهم .

هذه تذكرة للمسلمين فى (سورة سبأ) وبالأخص تذكرة لأهل اليمن يقال لهم يا أهل اليمن ألستم ترون الأمم حولكم أقوى منكم بأسا وترون طياراتهم تحيط بكم وأسلحتهم وجنودهم المرسلات من أوروبا لبلادكم . إن هذا لتقصيركم وقصوركم لأنكم أعرضتم عن الحكمة والعلم ، فاقرءوا كل علم وكل فن يا أبناء العرب عموما ويا أهل اليمن خصوصا ، فالمجد الذى ضاع من أبناء العرب عموما لغفلتهم عن معرفتهم جميع العلوم وهكذا أهل اليمن والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الأحد ٧ اكتوبر سنة ١٩٢٨ .

﴿ سر من أسرار النبوة المحمدية قد ظهر فى الطاء والسين ﴾

اللهم لك الحمد ، أنت المنعم الملهم المعلم ، سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت أرسلت محمدا صلى الله عليه وسلم وجعلته آخر الأنبياء وأنزلت عليه هذه السورة . ومن عجب أن النمل له شبه بالإنسان فى حربه وأسراره ومنازله كما ستراه موضحا فيما يأتى . سيأتى قريبا أن سليمان تبسم ضاحكا من النملة لما سمعها تنفر قومها ، وهذا دلالة على أن النمل جماعات منتظمات وهذا ستراه مفصلا كما قلنا ، وبعد ذلك تفقد سليمان الطير ومنه الهدهد وبالهدهد عرف أمة سبأ وقد جاء فيها أن ملوك الأرض ظالمون وأعقب ذلك قصة أخرى تفيد أن بيوت الظالمين مخربة وهذا من أسرار النبوة . إن النبى صلى الله عليه وسلم أنذر المسلمين وحذرهم من غوائل فتح البلدان فى حديث البخارى إذ قال لهم : «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم الخ» وهذا الحديث تراه موضحا فى أول سورة الأنفال ، إذن فتوح البلدان يستوجب نوم الأمم الفاتحة إذ يعيشون بكسب غيرهم وهذا هو الظلم ومتى ظلموا انحطت مداركهم فخربت بيوتهم . ذلك هو ملخص ما يأتى (ظلم فخراب) هذه حال الإنسان . وذلك كله جاء بعد ما تفقد سليمان الطير فتفقده للطير أوصله إلى (سبأ) وفيها جاء ذكر ظلم الملوك الأمم فتخوى بيوتهم بما ظلموا والتفقد المذكور من سليمان للطير وفيهما السين والطاء وهما الحرفان الأولان من الاسمين اللذين جاء بينهما التفقد المنتج لما ذكر كما سيأتى إيضاحه فى أثناء تفسير هذه السورة فى إيضاح بعض أسرار هذين الحرفين .

فانظر لحال النمل ، فقد جاء فى الأخبار العلمية اليوم أن الأمم النملية التى تعيش من كسب الأسرى يعتريها الانحطاط والانقراض . وإليك ما جاء فى (مجلة الجديد) بهذا النص :

أكبر الجماعات فى الكائنات الحية

يقرر علماء التاريخ الطبيعى أن أكبر الجماعات فى الكائنات الحية لا توجد إلا فى النمل والجنس البشرى ويعتبر علماء الاجتماع أن أكبر الجماعات البشرية (ثلاث) الامبراطورية البريطانية يبلغ عددها ٤٦٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة والصين وسكانها ٤٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة والهندوبها ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نسمة . ويقدر علماء التاريخ الطبيعى أكبر جماعات النمل بنحو ٥٠٠,٠٠٠,٠٠٠ نملة فى الجماعات الواحدة ، وذلك لأن النملة حيوان اجتماعى فتوجد بين النمل النظم الاجتماعية التى توجد عند الإنسان بشكل يتفق مع تكوين هذه الكائنات الصغيرة فهنالك الجنود والعمال من جميع الأنواع والأرقاء والأسرى . والعجيب أن الرق فى أمة النمل مثله بين الجنس البشرى يؤدى إلى انحلال السادة وتدهورهم لأنهم يكفون عن العمل ويدعون أرقاءهم يقومون لهم بكل شئ فتنحط قواهم ومداركهم اه .

والأمم لما ظلمت انحلت قواها فخربت بيوتها فتشابه النمل والإنسان فى الظلم والخراب وهذا من عجائب القرآن وبدائعه فيجب أن يكون الناس أرقى من النمل وأن يكونوا أمة واحدة أى متضامنين وكل له عمل ومن لا عمل له يعاقب .

أقول إذن ثبت هنا أن الانسان العظيم القدر الكبير العقل لم ينل مدنية أعلى من مدنية النمل، فجماعات الإنسانية (حتى المزيفة منها بالاستعمار) لم تزد على جماعات النمل ، وأيضا إذا حكمت أمة من الناس أمة أخرى استعملتها خادمة لها وانحطت هى ، وهذه نفسها سليقة النمل وهى سليقة سافلة منحطة . إذن ثبت أن هذه الإنسانية التي نعيش فيها إنسانية حقيرة يزدريها العقلاء من نوع الإنسان .

أيها الناس ، أيها العقلاء ، أيها الشرقيون ، أيها الغربيون ، أيها الأمريكيون ، أهذه إنسانيتكم أهذه هى الانسانية ، إنسانية والله دنيئة حقيرة ، ولكن لالوم إلا على ذوى العقول الكبيرة فيكم ، أكبر جماعة فيكم لم تزد على جماعة النمل مع أن النمل ليست عندها طيارات ولا بريد ولا تلغراف ولامخاطبة بالتليفون وأنتم بأهل الأرض بينكم تواصل ويعرف الشرق منكم الغربى وكل منكم محتاج إلى الآخر فاذا بقيتم على سياسة النمل فأنتم قوم أضل من الأنعام ، ثم لماذا تتكلمون على الأمم المحكومة إذا حكمتم الناس فأنتم بهذا تنيمون أبناءكم على بساط الراحة فيبلون بالكسل والبطالة وتميتون الأمم المحكومة بإذلالها ، صدق الله « قتل الانسان ما أكفره» إذن هذه السورة يستفاد منها أمران : ثانيهما مرتب على أولها. أولا: اقتران سياسة الإنسان بسياسة النمل لأنهما ذكرا متعاقبين (ثانيا) بالبحث فى هذا نجد الإنسان أرقى من النمل عقلا ولم يزد عنه عملا بل صار فتوح البلدان إخمادا لعقله وجسمه كما فى حديث « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم الخ » إذن هذه السورة يؤخذ من فحواها استنتاجا أن الإنسان عليه أن يكون أرقى من حاله الحاضرة ولا يتم ذلك إلا بأن تكون الأمم كلها متحدة يخدم بعضها بعضا وأن لاتظلم أمة أخرى فلا يفسد الملوك القرى إذا دخلوها حتى لا تخرب بيوتهم ولا يتم ذلك كله إلا بنظام عام لجميع الأرض تعمر وجميع الأمم تنعم .

ونتيجة ذلك كله أن محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين لا لبعضهم ، فعلى المسلمين أن يسمعوا ماأقول فيتعلموا كل علم ويدرسوا تواريخ الأمم وعلومها ثم هم الذين يكونون واسطة عقد نظام المجتمع الإنسانى كله شرقا وغربا، ومستحيل أن يكونوا واسطة لذلك إلا إذا كانوا أقوياء وعلماء فى كل فن ويعمرون أرض الله ثم ليجدوا فى رفع الإنسانية من هذه الحماقة ليكون الناس جميعا متعاونين فى الشرق والغرب .

هذا معنى وسر كونه صلى الله عليه وسلم « رحمة للعالمين » فطاء طمأنينة العالم وسين سلامه تتوقفان على تفقد المسلمين الأمم أمة أمة كما تفقد سليمان الطير وتفقده له بين الطاء والسين وينتج الطاء والسين . ومن عجب أن سليمان فيه معنى السلام وأن الطيران الحديث ربما يعقبه تواصل الأمم فتكون الطمأنينة ؟ ففى الطاء والسين السر العجيب . انتهى يوم الأربعاء ٢٤ إبريل سنة ١٩٢٩ م وبهذا تم الكلام على القسم الأول من السورة، والحمد لله رب العالمين .

(القِسْمُ الثَّانِى)

وَلَقَدْ ءاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ * وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا

مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ
قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ
صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَا أَرَى
الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ *
إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا
يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ
لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ
مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ
أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي
فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ * قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ
شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ * قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا
وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ * فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ
بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ * ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ * قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ
يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي
عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ * قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ
إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ
أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ * قَالَ
نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ

أَهٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ * وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ * قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ *

﴿ التفسير اللفظي ﴾

قال تعالى (ولقد آتينا داود وسليمان علما) علم القضاء والسياسة ، وعلم داود تسبيح الطير والجبال ، وعلم سليمان منطق الطير والدواب (وقالا الحمد لله الذي فضلنا) بالنبوة والكتاب والملك وتسخير الجن والإنس (على كثير من عباده المؤمنين) والمراد بالكثير من لم يؤت علما أو أوتى علما ليس كعلمهما (وورث سليمان داود) نبوته وعلمه وملكه دون سائر أولاده ، وكان لداود تسعة عشر ابنا وزيد لسليمان على داود تسخير الريح والجن والشياطين (وقال) سليمان (يا أيها الناس علمنا منطق الطير) فإنا نفهم بقوتنا القدسية الإلهية اختلاف الأصوات لاختلاف الأغراض التي جعلت لها . ولا جرم أن لكل طائر تنوعات في صوته لتدل على ما قام بخياله من حزن أو فرح أو جزع وهي تنوعات معدودات لأغراض محدودات ، ولقد عرف العلماء اليوم كثيرا من لغات الطيور أي تنوع أصواتها لأغراضها المختلفات ، وفي هذا معجزة لهذا القرآن لقوله تعالى في آخر السورة « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » فتعجب من كلام الله كيف ظهر اليوم أن الأمم تبحث في لغات الطيور والحيوانات والحشرات كالنمل والنحل وتنوع الأصوات لتنوع الأغراض فالله أخبر بالغيب يقول إنكم لاتعرفون لغات الطيور الآن وعلمها لسليمان ولكن سيأتي يوم ينتشر فيه علم مخلوقاتي ويطلع الناس على عجائب خلقي ولعمري إن هذا لمعجزة لهذا القرآن ، وستأتي معجزة ثانية وهي انتقال عرش بلقيس وهذا أمر مستغرب في كل زمان ولكن القرآن جاء فيه « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وسترى في علم تحضير الأرواح مما أنقله لك هناك كيف تعمل الأرواح اليوم وتنقل الأشياء من أماكنها كأن الله يقول لنا إن انتقال عرش بلقيس معجزة ليست بصناعة علم الأرواح وسأريكم هذه الآية بعلم الأرواح لا بالمعجزة لأنكم لستم أنبياء وسيأتي معجزة ثالثة وهي قوله تعالى « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم » وسأذكر لك فيها مبحث علم الأرواح وما ذكرته هناك من أن هذا رمز لما ظهر من عجائب هذا العلم وأن الناس بهذا العلم أيقنوا بالله ، وسأذكر لك معجزة رابعة وهي قوله « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء » وتطلع هناك على ما لخص علم الفلك قديما وحديثا من دوران الأرض وثبوتها وعلى محادثة جرت بيني وبين سيدة من علماء أوروبا في هذا المقام ، إن هذه أيضا سر قوله « سيريكم آياته فتعرفونها » في علم الحيوان وعلم الفلك وعلم الأرواح في هذه السورة نفسها . إن هذا زمن ظهور أسرار القرآن وعار على المسلمين أن يتركوا نعمة ربهم ، فإذا قال سليمان « يا أيها الناس علمنا منطق الطير » فالله يقول « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » بالتعليم لا بالقوة القدسية كالأنبياء فإن ذلك لهم معجزة وأنتم مأمورون أن تعرفوا آيات الله على مقدار طاقتكم ، ثم قال سليمان

(وأوتينا من كل شيء) والقصد من ذلك كثرة ما أوتي كقولك فلان يقصده كل أحد ويعلم كل شيء ، وإنما خص منطق الطير بالذكر للتنويه بشأن العلم وحثا لأمة الإسلام على دراسة هذه العلوم . ومما ورد في ذلك أنه مر ببلبل يصوت ويترقص فقال يقول « إذا أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء » وصاحت فاختة فقال إنها تقول « ليت الخلق لم يخلقوا » فالبلبل صاح عن شبع وفراغ بال والفاختة صاحت عن مقاساة الألم . والضمير له ولأبيه أوله وحده على قوعد السياسة (إن هذا لهو الفضل المبين) الذي لا يخفى على أحد (وحشر لسليمان) وجمع له (جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون) يحبسون يحبس أولهم على آخرهم ليتلاحقوا (حتى إذا أتوا على واد النمل) أي أشرفوا على وادي النمل وهو واد بالشام يكثر فيه النمل (قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم) أجراهم مجرى العقلاء بعد الخطاب لأن القول إنما يقال للعاقل (لا يحطمنكم) لا يكسرنكم والحطم الكسر (سليمان وجنوده وهم لا يشعرون) أي إنكم لو لم تدخلوا وظهرتم لحطموكم ولم يشعروا بكم فسمع قولها ، ولما بلغ وادي النمل حبس جنوده حتى دخلوا بيوتهم (فتبسم ضاحكا من قولها) تعجبا من حذرها وتحذيرها والهداية التي غرسها الله فيها وسرورا بما خصه الله به من فهم مقاصدها وإشعارها لقارئ القرآن أن يفرح وينشرح صدره بالعلم والحكمة لا سيما عجائب النمل وغرائب الحكمة التي أودعها الله فيه ، فلئن فرح سليمان عليه السلام بما أعطاه الله من العلم القدسي الرباني فأنت أيها الذكي تلميذه وتلميذ الأنبياء ، وقد أمر نبينا ونحن تبع له أن نقتدي بهداهم فلنقتد بهدي سليمان ، إن سليمان أعطاه الله علم منطق الطير وعلمه عجائب النمل فعرف عجائب غرائزها وطبائعها وتبسم لما خالج قلبه من الحكمة البديعة والإلهام العجيب وكيف كانت مع صغرها ملهمة من الله عارفة مصادرها ومواردها ، فإذا كان هذا هو هدى الأنبياء فلنقتف آثارهم ولنذكر في هذه السورة عجائب النمل التي تدهش العالم كله منها والمسلم هو النائم ، يقول الله « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وهذه آية من آياته أعطاها الله لسليمان معجزة وسمع كلام النملة وحذرها وأوامرها وذكاءها وقد وعد الله بأن هذه الآية ستعرفها لا أنه يوحى بها لنا ، فسليمان علم منطق الطير ولم يقل تعلمنا ، وأما نحن فإن الله قال «سيريكم آياته فتعرفونها» فذكر أنه يرينا علمنا ، ونحن ندرس ، فالله تعالى أخبر أنه سيرينا هذه الآيات التي هي بعض ما علمه لسليمان بطريق الوحي ولكن لا تظن أن علمها كعلمه فعلمه معجزة ربانية ويدرك من عجائب النمل مالا ندرك ، وفرق بين من علمه الله ومن أمره الله أن يتعلم بالاجتهاد . وسأسمعك عجائب النمل ليكون ذلك معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم لأن الله أرى الناس وعرف الناس ، فو الله بهذا وبأمثاله يرتقي المسلمون وبهذه العلوم يخرج جيل في الإسلام يحدث في الأرض هزة وقوة عظيمة تنفع أهل الأرض أجمعين ، إن أوروبا تعلمت هذه العلوم ولكنها لا تزال ظالمة والمسلمون سيتعلمونها ويملئون الأرض رحمة وعدلا . فبهذا العلم فلينشرح صدرك كما تبسم سليمان من قول النملة ضاحكا (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك) أي ألهمني أن أشكر نعمتك (التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين) فاعجب لهذا النظم المدهش . انظر كيف رتب سليمان هذا كله على نعمة العلم بقول النملة ، انظر كيف فرح سليمان وكيف تبسم فرحا بنعمة العلم والحكمة كأنه يقول « العلم غاية مطلبي وقد حصلت عليه ولم يبق بعده إلا أن أطلب الشكر على نعمة العلم بالعمل الصالح الذي ترضاه وليس بعد العلم والعمل إلا أن أدخل في ضمن عبادك الصالحين من آبائي الأنبياء وغيرهم .

ليعلم المسلمون أن علم هذه الحيوانات من طير وحشرات وسائر الحيوان والنبات نعم عقلية ونعم مادية ومتى عرفها الانسان وجب عليه أن يقوم بشكر النعمة وينفع سائر أبناء نوعه حتى يحشر مع الصالحين في الجنة فلئن قرأ هذه الآيات المتأخرون من أسلافنا وهم عنها غافلون ، فيا أيها المسلمون إن الله يأمركم أن تقرءوا القرآن على هذا النمط الذي نقوله واعلموا أن هذا زمان ارتقاء الاسلام وعلو شأنه وسيكون لهذه الآراء فوز في مشارق

الأرض

الأرض ومغاربها بل سيقرأ هذا التفسير العقلاء والأذكياء من الشبان وسيكون هناك دول عظيمة حكيمة أرقى من دول أهل الأرض كلهم بهذه العلوم ويكونون رحمة للأمم لا عذابا على الناس ، ولما دعا سليمان ربه أن يلهمه شكر النعمة وأن يوفقه للعمل الصالح ناسب أن يؤتى بعدها بشيء من أعمالها الصالحة ، وذلك أن من أعطاه الله العلم والقدرة وسكت ولم يعمل شيئا معاقب لتقصيره ، ولا جرم أن الانسان الموفق يجب عليه رقى النوع الإنسانى وحفظ الثغور والعطف على الحيوان ، فوالله لا دولة ولا ملك إلا بحفظ الإنسان ولا حفظ للانسان إلا بحفظ الحيوان ولا حفظ للحيوان إلا بحفظ النبات فلذلك أتى بمسألة واحدة من أعماله الشريفة وهى تفقده للطير . ومعلوم أنه لا يتفقد الطير إلا إذا كان متفقدا للانسان الذى هو أرقى منه دلالة ، على أن الإنسان يجب عليه أن يتفقد ما يملكه وما فى حوزته فلذلك أعقبه بما سيأتى من قصص الهدهد وحديث بلقيس . وههنا لطائف فى النمل :

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

أذكر فيها ما جاء فى كتاب [جمال العالم] الذى نوهت عنه فى هذا التفسير تحت العنوان الآتى :

(عجائب النمل)

حال النمل عجيب جدا فإنها تفعل فعل الملوك وتدبر وتسوس كما يسوس الحكام ، فهذا النمل كيف يتخذ القرى تحت الأرض ولبيوتها أروقة ودهاليز وغرفات ذوات طبقات منعطفات وكيف تملأ بعضها حبوبا وذخائر وقوتا للشتاء . وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضا مصوبا تجرى إليه المياه وبعضها يكون حولها مرتفعا لئلا يجرى إليه ماء المطر . ومن العجيب أنها تخفى القوت فى بيوت منعطفات من مساكنها إلى فوق حذرا عليه من ماء المطر . وإنى لأظن أن ما يفعله قدماء المصريين فى مساكنهم من المنعطفات والدهاليز والأروقة إنما كان تقليدا للنمل وما أشبهه من الجرذان . ولكثرة عجائب النمل وغرائبه ورد قوله تعالى حكاية عن سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام « حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » فانظر كيف نسب لها العقل والفهم ونداء أخواتها وأمرها لهم بالفرار من الشر ودخولها المساكن لتأويها من أن يحطمها سليمان وجنوده بلا شعور الحاطمين ، وفى هذه الآية تنبيه على جميع غرائب النمل لإيقاظ العقول إلى ما أعطيته من الدقة وحسن النظام والسياسة وما أوتيت من حسن الهندسة فى مساكنها ودهاليزها ؛ فأما مساكنها فها أنت ذا رأيت نظامها فيما قدمناه ، وأما نداؤها لمن تحت إمرتها وجمعها لهم فإنما يشير إلى كيفية سياستها واجتماعها وحكمتها فى تصريف أمورها ، فمن ذلك أن الواحدة منها إذا أرادت شيئا عظيما لا تقوى على حمله أخذت منه قدرا يسيرا وكرت راجعة إلى أخواتها ، وكلما رأت واحدة منهن أعطتها شيئا مما معها لتدلها على ذلك ثم تمر كل واحدة من أولئك اللاتى لاقينها فى الطريق التى جاءت منها تلك البشرة ، فانظر كيف يجتمع على ذلك الشىء جماعات منها وكيف يحملونه ويجرونه بجهد وعناء فى المعاونة فهذه المعاونة فى المطلوب وهناك فهو أهم منها فى المرغوب عنه كالمعاونة فى الاتحاد وفى الفرار فهو أهم من الطلب إذ التخلية أفضل من التحلية ، وإنما ذكرنا ذلك ليفتح للعقول مجال البحث وإيقاظ النفوس من رقدتها .

(قياس نظام الأمة على نظام النمل)

لم يكن القصد من تلك القصة أن تكون رواية أو حكاية أو حديثا وإنما هى أمثال تضرب لقوم يعقلون فيفهمون حال هذه الكائنات وأن النمل كيف اجتمعت على الفرار كما تجتمع على طلب النافع وأن الأمة إذا لم تصل فى حكمتها إلى الحيوان الأعجم فإنها ضالة حمقاء تائهة فى الضلال والوبال رجعت عن الانسانية والحيوانية وانتهت إلى أفق الديدان والحشرات « ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شئ عليم » .

(دقة النمل فى عمله وحرصه)

ومن حكمة النمل أن الحبوب المخزونة عندها إذا أصيبت بماء أيام المطر تنشرها أيام الصحو وكيف كان القمح لا ينبت إذا قطع حبه نصفين وكذا الشعير والباقلا والعدس إذا قشرت والكزبرة إذا قطعت أربع قطع فإذا قطعت قطعتين نبتت بخلاف القمح ، فتأمل كيف عرف النمل جميع هذه الحكمة مع دقتها فإنه يقطع حبة القمح نصفين ويقشر الباقلا والعدس والشعير ويقطع حب الكزبرة أربع قطع ؛ ثم إنها تعلم أن أيام الصيف تنقضى فتغتنم مساعدة الوقت فتعمل ليلا ونهارا باتخاذ البيوت وجمع الذخائر ، ثم تأمل كيف تتصرف فى طلب قوتها يوما شمال القرية ويوما يمينها ثم تراها كأنها قوافل ذاهبة جائية غادية رائحة .

(موازنة بين شرائع النمل والأمم المتمدينة)

وإذا اجتمعت على شيء ورأت أن واحدة تكاسلت عن المساعدة أو راوغت اجتمعت على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها كما فى شرائع المصريين القدماء ، وتقرب منها شرائع الانجليز على ما سمعنا أنهم يتركون الجائع القادر على الكسب حتى يموت ومن يساعده يعاقب كما أخبرنى بذلك ثقة .

(حكاية عن النمل)

لقد رأى رجل فى زماننا هذا أن النمل يتكاثر على شجرة فى حقوله فعمد إليها وحفر حولها وملأ الحفرة ماء وظن أنه نجا منها وبات ليلا خالى البال منشرح الصدر مطمئنا على شجرته ، وما كان يتخيل أن للنمل حيلة فوق حيلته وأن هذه الحيوانات أمم أمثالنا فأصبح فرأى الورق مغطى بالنمل فعض يديه ندامة وحسرة ونظر الحفرة فوجدها كما هى مملوءة بالماء ، وبينما هو يتفقد السبب إذ رأى أوراقا متراصة على سطح البركة من شاطئها إلى جذع الشجرة والنمل يمر عليها كأنها قنطرة إلى حيث تطلع على تلك الشجرة .

كنا كتبنا هذا الذى تقدم فى النمل ثم عثرنا فى الكتب الحديثة الافرنجية على ما يأتى وترجمناه مع التلخيص فى القالب العربى المبين ونهجنا نهجنا فى الاستنتاج والاستدلال .

أيها الذكى ، لعلك إذا شاهدت الحقول والمزارع ونظرت ما فيها من الحشرات المختلفة الألوان والأشكال والمقادير والغرائز والصفات أعجبك اختلاف مناظرها وأدهشك حسن مناهجها ؛ منظر لا يعبأ به الجاهلون الذين ينظرون ما فى السموات والأرض وهم عن آياتها معرضون ، تلك الحشرات والهوام تزيد عدد أصنافها عن عشرات الألوف كما حققه فطاحل العلماء ، وأهم تلك الحشرات النمل إذ فى دراستها تبصرة للانسان وتذكرة وبهجة لعقله وأنس لنفسه كيف لا وأنت إذا شاهدت جسمها رأيته مكونا من رأس حوت الدماغ الذى يسع تلك السياسات والعلوم والمعارف التى سنشرحها ووسط كصندوق فيه الرئة وذنب أسطوانى وله ستة أرجل كباقى الحشرات بها يقدر على الجرى السريع والعدو فى طلب المعيشة وجناحين بهما يمكنه الوثوب من مكان إلى آخر وخمسة أعين عينان مركبتان على جانبى الرأس مكونتان من أعين بسيطة ملتئمة الوضع والتركيب والترتيب بحيث ترى كأنها عين واحدة تعد بالمئات والثلاثة الباقية موضوعة على هيئة مثلث يعلو على هاتين ،

وهذه الأخيرات أعين بسيطات لا تركيب فيها . فتأمل بعقلك واحكم بعدلك وتعجب من حكم لا يكاد العقل يصدقها لولا اجتماع آراء العلماء في العصر الحاضر عليها ، وياليت شعري كيف تكون العين المركبة مع عدم تمكن البصر من إدراكها لشدة صغرها حاوية لمالتي عين مثلا وكل منها لها قرنية وقزحية وزجاجية وعدسية محدبة الوجهين وقوام هلامي في الوسط وأربطة وأعصاب حساسة واصلة إلى المخ حتى ترسم المرئيات في الدماغ عند المدبر الحاكم فيه . لعمري إن هذه العجائب تخر لها أعناق فحول العلماء سجدا ويقولون « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » نار الجهل في الدنيا والتقهقر في المدنية ونار الآخرة التي تطلع على الأفئدة ، ومن ذا الذي يقف في دياجي الظلمات ويسمع اختلاف أصوات الحشرات ونغماتها المزدوجة فيفكر أن من بينها ماحوت هذا الجمال البديع والعيون الظريفة التي تمثل شكل النجوم المشرقات في دياجي الظلمات ولكن عيون النمل أبدع في الاتقان وأتقن في الصنع من كواكب السموات إذ تلك العيون المرصعة في رءوس النمل دبرت تدبيرا خفيا إلا على ذوي الفطنة وبها اهتدى أحقر شيء، فما ترى وأصغره ودقة الصنع واتقانه تعظم قيم الأشياء عند العقلاء فلا دخل لعظم الجثة وكبر الحجم . وللها قرنان طويلان كالشمرتين دقيقتان بهما تحس الأشياء وتقوم مقام اليدين والرجلين والأصابع في الحمل والحط والترحال يسميان (الحاستين) هـذا تركيب جسم النمل وهذا وصفه .

﴿ في مساكنه ﴾

لعلك أيها الذكي إذا سمعت ماتلوناه عليك وحدقت نظر بصيرتك وتأملت بفراستك تعلم أن هذا الإحكام لم يكن إلا لغاية وهذا الصنع لثمرة وأعمال وسياسات وإلا فبالله ماهذه الأعين الكثيرة ، وما هذه الأرجل ومالتلك الأجنحة ، ولم هذان الحساسان ، أخلق عبثا أم تراه مستعدا لأعمال عظيمة تناسبه ؟ أجل لاغرو أنك تتربص ثاني الأمرين ، وإني أرى نفسك قد شاقتك إلى معرفة ماترتب على هذا الصنع من الأعمال الجليلة وقد استعدت قريحتك لما ألقيه عليك الآن فأقول إن هذه الحشرة بمقدار ما أتقن الله من جسمها أتقنت من صنعها ، وعلى قدر كمال إحساسها وجماله أدارت سياساتها وملكها وحروبها وزروعها ، وهل أتاك نبأ البيوت التي تتخذها تحت الأرض وتجعل لها أعمدة وبهوات متسعات (صالات) في كل بهوة أبواب مفتحات إلى حجر صغيرات تسكن فيها وأخر تخزن فيها الحبوب والغلال وبينها الطرق والمسالك والشوارع بحيث تهتدي بها إلى أعلى الأرض ويجتمع من تلك البيوت وبهواتها وحجراتها وأعمدتها قرى كاملة ذات بيوت كثيرة، والأغرب من هذا أنها قد تملك عدة قرى كأنها مستعمرات تصل بينها بطرق كما تفعل الأمم المتمدينة وتصل بين مستعمراتها بالسكك الحديدية . ومن العجيب أنها لم تقتصر على فن واحد من العمارات بل هناك نوع آخر يبنى البيوت فوق الأرض من أوراق الأشجار والأغصان وقشور الخشب المتساقطة من الأشجار العتيقة وتبنى مساكن فوق الأرض كالتي تحتها وترى أمام الناظر كأنها آكام مابين عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدما ويكثر هذا تحت شجر الصنوبر، وهناك نوع ثالث ينحت من الأشجار العتيقة بيوتا كما يتخذ الانسان من الجبال بيوتا .

ومن يتأمل صنع قدماء المصريين في السراديب تحت الأرض والمغارات والتجاويف ومابنوه فوقها من الأهرامات والبرابي وما نحتوا من الصخور في جوف الجبال كما يشاهد بين مصر وحلوان وغيرها وجد أن الانسان في تحسينه مدنيته يصل إلى درجة الحيوان في صناعته فان هذه الأنواع الثلاثة هي التي هدى إليها النمل بفطرته بلا تعليم ولا مدرسة ، وسترى صور بعض هذه البيوت قريبا .

﴿ أحواله المعيشية وزراعاته وتربيته ماشيته وحربه وأسره ﴾

وهذه البيوت المنتظمة تستلزم عادة أعمالا خارجية تناسبها وتناسب استعداد هذه الحشرة ، وكما اختلفت أنواعها فى بناء مساكنها اختلفت فى طرق معاشها واكتسابها ، فمنها نوع زراع يزرع الأرز فى أرض صالحة ولو تأملته لوجدت حقلا جميل الشكل حسن الوضع وفلاحين غادين رائحين لهم طرق زراعية يعجز عنها الانسان لإحكامها وحسن هندامها ، ولقد شاهدت صورة رسمها السياح فى الكتب الأجنبية فوجدت للحقل الواحد أربع طرق زراعية هندسية والأرز متمايل عليها بحيث لا ترى ورقة من تلك الأوراق أصابها أدنى ضرر أو وسخ وفى وسط الحقل بهو (صالة) متسعة على هيئة شكل بيضاوى مشاكلة للنظام الذى تسير فيه الشمس وهى الدائرة السنوية البيضاوية وكهيئة أوراق الأشجار وهذا النوع كالأمة المصرية أمة زراعية وسترى صورته ، ومنه نوع عمد إلى الماشية فتغلب عليها أولا بالبأس والشجاعة ثم آنسها وتسمى باللسان الافرنجى (أفد) ونسميها نحن (بقر النمل) وذلك لأن النمل بعد أن يقهرها ويغلبها ويستأنسها ويستحوذ عليها بقوته يأخذها فى مرعى خصيب وهو ورق الورد وأغصانه فيلاحظها وهى تمتص منه حتى تمتلىء ثم تأتى النملة إلى واحدة من تلك الجاموس وتمتص مادة حلوة يستلذها النمل لأنه يميل للحلوى حتى إذا امتص مافى واحدة ذهب إلى أخرى وأخرى حتى يمتلىء ، ذلك عادة هذا النوع ، وقد فعل النمل فعل الانسان فى استئناس الحيوان والانتفاع بألبانه وغيرها ، وهناك نوع ثالث عمد إلى الحرب والقتال وتغلب على حيوانات أخرى فسخرها فى أعماله وشغلها فى فلاحته وإطعامه وإطعام أولاده ، فيخرج فى الحروب بنظام ويصدر الأحكام العسكرية الصارمة وإذا غلب أخذ الأسرى وفعل كالانسان .

﴿ تربية الصغار ﴾

وليس أعجب عند العاقل من تربية النمل لصغاره ، فلو نظرت لرأيت الإناث وهى تضع بيضا أصفر اللون أو أبيضه فى محال تقرب من مساكن كباره قد خصصت له مراضع ومربيات تلاحظهن ليلا ونهارا ، ولا يزال فى الطقس والحرارة المناسبتين له حتى يتم له أسبوعان أو أكثر إلى أربع ، ثم ترى كل البيوض قد تفتحت فأخرجت دودا صغيرا لا جناح له ولا رجل، بيضاويا شكله محدبات رءوسه يعتنى به المرضعات ، وتلاحظه المربيات تحمله من مكان إلى مكان مواظبات على إطعامه ما يناسب حاله من حار تارة وبارد تارة أخرى ومزدوج منها فى الدرجة المناسبة حسبما تقتضيه الحال ، كل هذا والدود يشره فى أكله ويستزيد من طعامه حتى إذا تم له بضع أسابيع أخذت حالته تتغير وينتقل إلى طور آخر من الحياة هو طور النوم والسكون والاختفاء فى شكل كرى من حرير تغزله نفس الدودة على نفسها كدودة الحرير . فلو رأيت ثم رأيت بعض الدود لم يزل مكتوفا والبعض أخذ يغزل بفمه كما يغزل دود الحرير والعنكبوت والبعض قد نسج على نفسه كرته ونام فى عالم البرزخ إلى يوم يبعث من مرقده فيخرقها ، وترى الأمهات إذ ذاك ملاحظات متيقظات فإذا تم النسج ونام الجميع ومضت أيام أخذت تلك العوالم تنهض من قبورها وتقوم من موتها وتنهض من رقدتها وتقطع خيوطها وتقرض حريرها المحيط بها ولذا خلقت لها الأرجل والأجنحة لتستعد لحياة جديدة هى الحياة النهائية حياة الجهاد والعمل ، ولو رأيتها لشاهدت أمهات قد أشرفن على الأبناء وقد ربطت ربطا محكما وثيقا فأخذت الأمهات يفككن الأربطة من الصغار ويطلعن الأجنحة والأرجل ويخلصن الناشئة النابتة من تلك الرباطات ويغسلن العيون والوجوه ويمسحن التراب ويزلن الأوساخ لأن النمل يحب النظافة حبا مفرطا ، فانظر وتأمل كيف كان جسم النمل وخلقته مستعدة لأمور عظيمة وقد هدى إليها بغريزته ، ومن هنا نفهم قوله تعالى «ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه» ومنه يعلم الحشر بطريق الفراسة . وذلك أن هيئة النمل فى شكله وعيونه وحواسه وقواه تناسب هذه

السياسات الغريبة والأعمال العظيمة فاهتدى لها . فهكذا فليكن الإنسان لما سخر له مافى السموات ومافى الأرض، وعشقت روحه العلوم والمعارف ومال بغريزته إليها، وجب أن يكون وراء هذا سر يناسبه وإلا فما هذا الاستعداد وما هذا الميل العجيب لاقتناص العلوم وحب الخير . وإذا كانت النحلة وهى دودة تشكل خلقها لتناسب الحال المستقبل فى الحياة ولا علم لها بها قط فهكذا الانسان درت روحه فى الحياة وربيت فلا بد لهذا من نبأ «ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون» .

وهناك نكتة أخرى وهى أن من رأى فى نفسه استعدادا لأمر وشوقا إليه فليعلم أن مقتضى الحكمة أن ينال مطلوبه لأن الاستعداد داع حثيث والكائنات أطوع لمستعد من غيره وهذا صدقناه بالبصيرة والنظر .

﴿ حكاية عجيبة عن النمل ﴾

قضى عالم من علماء الرومان طول حياته فى النظر فى حال هذه الكائنات الصغيرة، فشاهد نملة تشتغل طول يومها، فحسب ماحفرته وبنته فى ذلك اليوم ونسبه إلى جسمها وشغل الانسان وجسمه فوجد أنها لو كانت رجلا مشتغلا هذا الشغل لحفر خليجين كل منهما طوله اثنان وسبعون قدما وعمقه ٤ ر ٤ أقدام وأخذ هذا الطين وصنع منه آجرا وبنى به أربع حيطان على الأربع الجوانب للخليجين كل حائط من قدمين إلى ثلاثة ارتفاعا ونحو (١٥) بوصة سمكا وغلظا وبدعك تلك الحيطان من الداخل فتصير ملساء وكل هذه الأعمال بلا مساعدة آخر فى النهار كله وذلك كله مع فرض أن الأرض مملوءة بالأعشاب الصغيرة والأخشاب والأشجار وجذوعها الهائلة والأرض وعرة المسالك فيها آكام من الردم ، فإذا فعل هذا رجل كان أعجوبة زمانه وهو عادى بسيط عند النمل «فتبارك الله أحسن الخالقين – وفى الأرض آيات للموقنين» .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾

فى ذكر ما كتبته فى كتابى [نظام العالم والأمم] تحت العنوان الآتى :

الجمهوريات فى الحيوان

(ترجمتها عن اللورد أفبرى)

الحيوان خلق عظم فيه من دقائق الحكمة وصنوف الجمال مايبهر العقول ، فمنه مايبهج العين بمحاسنه ويدهش الفؤاد بمناظره كأبى دقيق وغيره من الحشرات والطيور ، ومنه مايهولنا بعظمته ويبهرنا بعظم جثته كالفيل والهيكل العظيم والخلق الكبير فى كل جيل ألا وهو (القيطس) ومنه مايسحر العقل بجماله ويخطف الفؤاد بسحر حلاله ويرسل للفكرة مغناطيس أقطابه ويسلب اللب لدقة صنعته وحكمة خلقته ذلك هو الحيوان الذى توارى عن الأبصار فلا يرى إلا بالمنظار ، وأجل الحيوانات لذة وأعظمها فائدة ماألف الشركات وعاش جماعات ، وهل أريد بما أتلوه عليك ماتجتمع أياما معدودات فى فصل من السنة كالخطاطيف، أو تلك التى لها جمهوريات ثابتة لخاصة السكان ، كلا . فالأولى يجمعها الزمان، والثانية يؤلفها المكان ، وإنما أردت تلك الدول النظامية والأمم الدستورية والجماعات الشورية كالغربان وكلاب البحر فإنها تهب لعقولنا حكما ولأرواحنا وحيا ولنفوسنا علما ولنظامنا دستورا ولأخلاقنا حكما على أنها مع عظم أمرها لن تبلغ عشر معشار ما وهب النحل من الحكمة فى تقدير بيوته وتسديس أشكاله وماأبدع فى نظامه وهندسته ، ومنح الانسان هبة العسل ونصب نفسه ناطور الأزهار وقيم البستان فلونت بألوان جميلة بعشقها ونحن له مدينون وهو لايشعر ، فقد زينت ونقشت لمنظره وهو غافل . على أن هذه ربما كانت أقل مهارة من النمل كما يشهد بذلك فطاحل العلماء

مثل (هبرولورل) و (كوك) و (وسمان) وغيرهم من الفحول إذ قالوا إن نظام جمهورية النمل فى أصناف جنسها وأفراد نوعها وفى دستورها الشامل لطوائف الأمم الخاضعة المستعبدة لرقها ، والنواميس العامة على أنواع المخلوقات من الأنعام المناسبة لها لا نظير له فى الأمم فيما ذكرنا . ثم ذكر المؤلف كلاما عن نمل بلاده فقال :

(إن النمل تبلغ أصنافه ألفا وتزيد ، كل نوع يمتاز عن غيره بصفة وقد لاحظت النمل الشغال فعاش سبع سنين والملكة فعاشت ١٥ سنة ، وكل جمهورية من الجمهوريات ذا ملكة أو أكثر ذات جناح قبل أن تطير لحلها ، فإذا حملت كسرت الأجنحة إذ تعلم أنها ستلازم المكان والجناح شغل لافائدة فيه فى الحجرات وفيها ذكران من النمل لاشغل لها والعملة لاجناح لها والصبية الصغار تبقى فى الديار تحفر الحجرات وتشكل السراديب وتهندس الدهاليز والمنعطفات وتنمو وهى فيها ، وترتيبهن فى المساكن على درجات السن ، كما تصف صفوف التلاميذ بالنسبة لأسنانهم . ومن النمل ماعظم جثة وكبر قامة وامتاز قوة ، وهل يقوم ذلك برهانا على أنهم جنود وقوامون على الأمة . ذلك مايعوزه الدليل) وقال دارتين : (إن النمل التى كبرت رءوسها وعظمت خراطيمها تمتاز عن الصفوف فى سيرها فتسير بجانبها كضباط العساكر وإذا احتملت تلك النملات قوتها رجعت تلك الضباط غير حاملات ، فربما كان ذلك دليلا على أن أولئك ضباط وذلك محتمل).

(ومن العجيب أن العملة من النمل والنحل لاتفتأ أثناء العمل تنظر إلى الملكة كأنها تستمطر الرحمات بمنظرها أو تستروح السرور بمشهدها . ولقد شاهدت جماعات النمل وهى خوارج من عش دواخل غيره قد اتخذن ذلك المشهد مهرجانا للملكة فمددت يدى لعمل أهيئه لهن فأصاب القضاء الملكة فلقيت حتفها ، فرأيتهن اجتمعن حولها ورفعنها حتى أدخلنها أوسع مكان فى القرية التى أعددتها لهن ولم يعاملنها معاملة مايموت منهن ينبذنه بالعراء بالعراء ، جلسن حولها فلو رأيتهن لقلت إنهن باكيات حزينات أو راجيات بشوق عظيم حياتها أو كأنهن يظنن أنها حية ستنتعش ، وقد تتركب القرية من خمسمائة ألف نملة) .

ومن العجيب أن لاترى نملتين من قرية واحدة تتنافران على أنهن لا يتحرجن عن مهاجمة إخواتهن فى الصنف فضلا عن النوع ، فضلا عن كل حيوان ، ولكن حاولت إدخال نملة من نفس الصنف فى عش إخواتها فلم تكد تطأ أرض العش بأرجلها حتى فاجأتها فأخرجتها من رجلها فليس بمكرم لديها إلا أخواتها المشاركات لها فى مرافق الحياة وماعداها من الصنف فمنبوذ مطروح ، ولقد فصلت القرية إلى قريتين وبقيت على ذلك سنة وعشرة أشهر ، فلعمرك مالتقى اجتمعان إلا وهما متعارفان يتصافحان ويهاجمان ماعداهما بمجرد التقائهما ، بهذا أثبتت المعرفة والتمييز فى الأشخاص ، ولن نعرف ، أكان بعلامة أم لا إلا بتجربة فعرجت على (الكلوروفرم) خفت أن يميتها فصعدت إلى العقار فأسكرتها وما كادت تسكر لولا أن غمست رءوسها فما كان إلا دقائق حتى سكرن وهن إذ ذاك خمسون خمس وعشرون منها من عش وخمس وعشرون من آخر وهما بمشهد من جماعات من إحدى القريتين وهن يطعمن على مائدة أحيطت بماء لئلا يتمزق النمل شذر مذر فما كادت تشعر بالسكارى إلا وأقبلت من كل صوب وأدهشت كالدهش لسكرانا فأخذن اللاتى من غير قريتها ووضعنها لدى طرف الماء وأغرقتهن ، أما اللاتى من قريتهن فحملتهن برفق إلى العش . فمن هذه ترى أن النمل تعرف بعضها بغير علامة ولاطريق . وهذه عاطفة فى النمل عدمت فى الذئب وغيره فإذا جرح أحدها أو مرض طرده أصحابه أو قتلوه . ولقد رأيت نملة كسرت رجلها إذ قصت بيضتها فنامت على ظهرها ثلاثة أشهر والنملات يطعمنها ويسقينها ، وأخرى جرحت بمثل ذلك فنامت أياما ثم خرجت فهاجمها الأعداء من كل صوب فوقعت مغشيا عليها فمر عليها النمل لاتبدى حراكا حتى إذا جاءت نملة وحركتها وجست نبضها ثم حملتها برفق إلى عشها فهذه دلائل العطف فى هذا الخلق الضعيف . النمل والنحل لهما علم بسياسة المدينة ونظام الجمعية ولكنه علم

محدود ونظام ممدود . وترى النملة إذا عثرت على طعام أسرعت البقية إليه ورأيت الرائد إذا دخل الحفر خرجوا معه وإن لم يكن فى فمه شىء فمن المحقق أنه أفهمهم بغير رؤية الشىء) .

(ومن النمل مايكون له أسرى وهؤلاء يقمن بخدمة السادة حتى إذا رحلن من قرية إلى أخرى حمل العبيد السادة من الأولى إلى الثانية . ولقد رأيت الصواحب من النمل إذا خرب عشها بحثن عن غيره فإذا سقف مكانا ورأته إحداهن أحضرت أخرى فحملتها ثم أرتها المسكن ورجعا فأخذا غيرهما ثم رجعن فحملن غيرهن وهكذا بالتضعيف حتى تجتمع القرية جميعا ؛ وهذه ترينا أن ذكاء النمل محدود ، ويدلنا على ذلك مانرى من أن بعض السادة لايأكل إلا إذا ساعدهن العبيد على إحضار الطعام فاذا قسم الغذاء بينهن وأفرد كل بمكان وبقى السادة يوما أو بعضه ماتت إذ لاترى من يضع الطعام فى أفواهها ، وكم من حشرات اتخذتها لها أنعاما زينة لها وجمالا ومتاعا . تتخذ ألبانها العسلية طعاما تسومها كالأنعام على غصون الأشجار) أو ترعاها فى الكلأ والحشائش والأب أو تحبسها فى بيوتها وتأتيها أكلها كل حين بتقدير ، فتمتص الأنعام من النبات فتحال العصارة فى بطونها عسلا فتمتصه النمل . وأنفع تلك النعم حيوان اسمه (فيس) كأنه بقرها تكلؤها بحمايتها وتحميها برعايتها ولم تكن رعايتها قاصرة على نفس الحيوان فقد تجمع بيوضا فى الخريف وتكلؤها فى الشتاء وتتربص الربيع المقبل ومن الحشرات ماتتخذه النمل دواب تحت الأرض فتبقى أمدا طويلا فتخسر عينيها وتبقى عمياء .

أنا لا أطيل الكلام فى هذا المقام إذ هذا الموضوع أوضحته فى مكان آخر ، إنما أقول أسائلك أيها العاقل إذا رأيت النمل وهى فى قريتها تستقل بحركتها وكيف تدرك بغريزتها وإذا رأيت هضبة سكنها النمل وهى آلاف مؤلفة تحفر الحجرات وتشكل الدهاليز وتهندس الطرق وتحفر الأماكن وتجمع القوت وتطعم الأبناء وتصف صفوف المدارس فيها وترفق بحيواناتها كل منها موكل بما يناسبه من العمل قائم به ، فلا جرم أن هذه هبة عقلية ولئن قلنا إنها غريزة وسليقة فمن ذا الذى يضع حدا فاصلا بين الغريزة والعقل ، إنه لعسير .

فهذه المناظر تهدينا إلى أن هذه هبة عقلية مشتقة من عقل الإنسان تشبهه كيفا وتنقص عنه كما (المؤلف)

أقول ها أنت ذا أيها الذكى القارىء لكتابى هذا نظرت مقال أكابر حكماء العصر الحاضر وفلاسفتهم فتأمل كيف تراهم ينقبون عن أسرار الحكمة الإلهية ويبحثون ونحن غافلون ، وهنا بدائع وملاحظات .

(أولا) إن الله جلت حكمته لم يشأ أن يبدع مخلوقا إلا وأعطاه حكمة وعلما لمعاشه وبقائه « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » كما ترى فى لون الحشرات والطيور والحيتان وأشكال وسياسات الحيوانات .

(ثانيا) إن علماء أوروبا يبحثون عن عجائب الجزئيات ويطمعون فى استقصائها ونحن نقول لامطمع فى استقصائها ولكن لا يرجع الأفئدة إلا تعقل الكليات ولن يعرف العقل إلا بعض الجزئيات ، إذ استقراؤها لا مطمع فيه وكليات المسائل عجيبة صادقة وكلها ناطقة بالعدل ، أما الجزئيات فترى المرء يضل فيها . فها هو (اللورد أفبرى) يضلل من عداه فى لون السمك فقد كانوا يحسبونه بلا حكمة فظهر له أنه بحكمة ونحن زدنا أن عظام الحيوان والأحجار لحكمة .

(ثالثا) يقول الحكماء فى القواعد العامة « إن لكل مخلوق علة ومادة وصورة وغاية ، فعلة اللون غير مادته غير صورته غير غايته وهى مطردة فى كل شىء ، فقوله ألوان المعادن والأحجار اتفاق كلام غير مسلم إذ له علة وهى التمازج بهيئة خاصة وصورة ومادة وله غاية وهو منفعة الإنسان فالتعبير بما قالوه قاصر » .

(رابعا) هذا بعد حكمته تعالى إذ يقول « وما كنا عن الخلق غافلين » .

(خامسا) قصة النمل وقول الله تعالى « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون . حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » إلى آخر الآية مما نفهم منه اهتمام الأنبياء بعلم الحيوان ونعلم أن المسلمين مأمورون بالبحث عن هذه الحشرات والله أعلم . انتهى ما ذكرته في كتابي « نظام العالم والأمم »

وقد جاء في جرائدنا المصرية يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ م ما يأتي :

حرب بين قبيلتين من النمل

في الشهر الفائت جرت معركة هائلة بين قبيلتين من النمل في حديقة الحيوانات في لندن اشترك فيها نحو ألف نملة من الجانبين ودامت أربعة أيام وانتهت بعشرات من القتلى والجرحى وشهد فيها المشاهدون انتظام الجيشين وهجماتهما وخنادقهما وكشافتهما وأسراهما وخططهما الحربية وهدنتهما إلى غير ذلك من أحوال الحرب مما يدهش الناظرين وحمل العالم الطبيعي (السير جون لوبوك) أن يقول (إن النمل أقرب الحيوانات إلى الإنسان في أفعاله) وتحرير الخبر أن أحد الموظفين في إدارة تلك الحديقة ألقى خشبة على مستنقع صغير في الحديقة المذكورة يفصل بين قبيلتين من النمل الواحدة قديمة فيها منذ (٣) سنين والأخرى جيء بها حديثا فكانت تلك الخشبة كجسر (كوبرى) يعبر عليه من مستعمرة النمل الواحدة إلى المستعمرة الأخرى ، وحدث أن نملة من القبيلة القديمة عبرت الجسر إلى القبيلة الجديدة ودخلت إلى عشها ولم ترجع فكان ذلك سببا لإثارة الحرب فقررت القبيلة القديمة الحرب ولكنها لم تضع صوابها وتستسلم لغضبها وحدتها وتندفع بلا نظام لكي تقع في كمين الأخرى بل اختارت عشرة من أبطالها وأرسلتها للاستكشاف والتجسس فانسلت هذه العشرة على الجسر إلى المستعمرة الأخرى ولكنها لم تر واحدة من نملاتها بل فهمت أن هذه كامنة في عشها غير دارية بما يجول في خاطر تلك فعادت الكشافة وأبلغت ما علمت ، والظاهر أن القبيلة القديمة عقدت مجلسا وقررت الهجوم لأنه بعد بضع دقائق خرجت جنودها صفوفا متراصة كصفوف الألمان والافرنسيس في معركة المارن وبعض النملات خرجت إلى جهة أخرى حيث الرمل الأبيض فأقامت متاريس من الرمل وتحصنت فيها ثم هجمت الصفوف على الجسر وجعلت تعبره ، وكان حينئذ أن نملة من القبيلة الجديدة خرجت فرأت صفوف الأخرى قادمة تتدفق على الجسر فأسرعت إلى عشها وأبلغت الخبر إلى قبيلتها فما لبثت هذه أن خرجت أيضا صفوفا للقتال وجرت المعركة الهائلة التي لا يصدق هولها إلا شاهد العيان ، دامت المعركة أربعة أيام بلياليها وفي خلالها حدثت هدنة واحدة مدة بضع ساعات ، والظاهر أن نملة لم تستطع ضبط غضبها فخرقت شروط الهدنة واستؤنفت المعركة ثانيا أشد احتداما من الأول وشوهد عدد عديد من الجرحى تنتفض في مصارعها وبعضها وقعت في الوحل وأما القتيلات فكانت مطروحة في مصارع مختلفة بلا حراك ، وأما القتال فكان أن القوية تقذف بالضعيفة إلى المستنقع وإن لم تستطع ذلك كانت تقطع رجلها وتتركها لرحمة الطبيعة وفي اليوم الرابع بعد الظهر انكسرت القبيلة القديمة أي انكسار إذ اندحرت على الجسر وفنيت عن آخرها تقريبا وحصونها لم تفدها لأن الطريق بقي مفتوحا لعدوتها وأما القبيلة الجديدة المنتصرة فأسرت جانبا من عدوتها لتستعبدها وقتلت البقية والنملات العاملات غير المحاربات نقلت القتيلات إلى مكان آخر ونظفت حيها منها وعاد السلام إلى نصابه .

وقد

وقد ظهر أن ذكاء النمل ونظامه فى مدة الحرب لا يقلان عنهما فى مدة السلم . ليس هذا الحيوان الاجتماعى العجيب جنديا حربيا قديرا فقط بل فيه المهندس الفنان والحاسب والممرض والجراح والطبيب والزراع وهو يدفن موتاه باحترام ، وظهر أنه يحب المرح والمزح واللعب والسباق حتى السكر ، ويؤكد الدكتور (هرمن ايدمان) العالم المشهور فى مونيخ (ألمانيا) أن النمل لغة للتفاهم ، أما أن النمل مهندس فنان فمعلوم من أبراج الطين التى يبنيها النمل الأبيض فى شرق أفريقيا إذ يبلغ ارتفاع بعضها عشرين قدما ومع ذلك ليست ضخمة فهى بنسبة ثخانتها إلى ارتفاعها كما لو بنى المصريون (١٢) هرما الواحد فوق الآخر . ولا يخفى أن النمل ليس له الآلات والعدد التى كانت للمصريين ومع ذلك ترى أبراجه هذه فى غاية الدقة والإحكام الهندسيين .

فى جبال بنسلفانيا إحدى الولايات المتحدة الأميركية أكبر مدن النمل فى العالم ومعظمها مبنية تحت الأرض وأكبرها يشغل ثلاثين فدانا ، تأمل فى (٣٠) فدانا من الأرض وقد حفرت فيها منازل النمل تتخللها الشوارع والمعابر والطرق وكل نملة تعرف طريقها إلى بيتها باحساس غريب وشعور بالجهات .

يعد النمل أعظم بناء على الأرض وأدواته وبعض مواده فى جسمه (مثال ذلك) أنه يصنع بعض مواد البناء بمضغ نوع من النباتات وجعلها ملتحمة بعضها ببعض بواسطة عصارة لزجة يفرزها من غدة فيه وأغرب دليل على ذكاء النمل أنه يصنع سقفا من أغصان الشجر بخياطة أوراقها بعضها ببعض هكذا النملة البالغة لا تستطيع أن تغزل خيوطا ولكن الطفلة تستطيع لأنها تصنع فيلجة (شرنقة) ولذلك تصحب النملات العاملات طفلاتها الغازلة فيالجها وتدنى النملة العاملة ورقتى الشجرة حافة لحافة وهى حاملة الطفلة بفمها وتقرب رأسها لحافتى الورقتين فتشرع الطفلة تغزل حريرها أى خيوطها وتعلقها بالحافتين وفى أثناء ذلك تجعل النملة العاملة تقدم الطفلة على طول الحافتين والخيوط المغزولة تلامسها حتى يتم التحامها جيدا . ولا يخفى أن الخيط يخرج عصارة من فم الطفل ولكن هذه العصارة تجمد فى الحال وتصبح خيطا .

ترى النمل فى ساعات العمل يعمل بنظام كأن مرشدا يرشده ، ترى نملة ترمم بناء متهدما وأخرى تنقل زبالة وثالثة تنقل الأطفال التى لا تحتمل تأثير النور إلى الوكر المظلم ورابعة تأتى بمواد البناء ولكن ليس هناك قائد ولا مرشد بل تعمل جميعها من تلقاء نفسها بحكم الغريزة كأنها آلات .

للنمل قوة التمييز الغريبة بدليل أن (السير جون لوبوك) أخذ بعض نملات ووضعها فى سائل كحلى (سبيرتو) حتى سكرت ثم طرحها سكرى فلما رأتها رفيقاتها الصاحيات جعلت تنقل منها ما كان من قبلتها إلى بيتها وألقت الغريبات فى بركة الماء .

مسامرة فى النمل

(من كتاب « علم الدين » للمرحوم أستاذنا على باشا مبارك)

إن النمل كثيرا ما يكون بينه حروب كبيرة ومناوشات كثيرة غير أن طوائف النمل عند تجهزها للحرب ومسيرها للقتال لا تستعمل ما يستعمله الإنسان لحروبه من العدد والآلات والأدوات بل تسير للقتال بأنفسها غير مستصحبة شيئا من ذلك معها وتستعمل فى قتالها ما قد يعجز الإنسان عنه من المكر والحيل والمكائد ومن النمل نوع يأسر غيره ويستعبده ويستخدمه طول حياته ويتخلص بواسطة من الكد والكدح والعمل لنفسه وقد شاهد بعض علماء الطبيعيين نوعا من النمل يحمل نوعا آخر فى فمه ولكن لم يكن يعلم حكمة ذلك ولا سببه إلى أن ظهر الآن أن بعض النمل قد يحتاج إلى خدم فيهجم على غيره فيسترقه ويستخدمه فى أعماله

وسائر أحوال مسكنه ومعيشته ، ومن يراقب النمل أيام الصيف فى بعض الجهات يجده يغير على بعضه فيأخذ الغالب منه أولاد المغلوب ويسترقها ولا يكون ذلك غالبا إلا فى الليل فيخرج ويصطف صفوفا متقاربة ويقصد الجهة التى يريد غزوها فلا يرجع إلا وقد بلغ مقصوده فيخرب المساكن ويفرق المكامن ويأخذ ما أحب من الذرية ولا يأخذ الكبار لعلمه أنها لا تنقاد لحكمه ، فإذا رجع بالذرية حملها بأفواهه ، وإذا خاب أحد من الحزب الغالب ولم يجد أسيرا يسترقه أخذ معه من رمم القتلى ما قدر عليه لينتفع به فى غذائه وترى هذه الفئة الغالبة فى عودتها ومنصرفها إلى مساكنها تسير خلف بعضها واحدة خلف واحدة حتى أنها قد تشغل مسافة من الأرض يبلغ طولها نحو أربعين مترا وبهذه الصورة تعود إلى مساكنها بالظفر والغنيمة فى حال مسرة وطرب ، فإذا وصلت إلى منازلها بهذه الأسارى الحديثة السن تفرد لها محلات مخصوصة وتربيها مع الصدق والأمانة والحنق وتحفظها من كل ما يضر بجسمها ويخل بصحتها حتى تبلغ أشدها ، وهذا النوع المحارب المحب السلب والنهب لا يحب أن يشتغل بشىء سوى الحرب فلذلك يكل بناء بيته وتربية ذريته إلى ماعنده من الأرقاء والخدم حتى أنه إذا احتاج للانتقال من مسكن إلى آخر تكفلت خدمه بنقله وقامت بحمله فتراها تحمله بأفواهها كما تفعل الهرة بأولادها . وقد امتحن بعض المشتغلين بالبحث عن أحوال الحيوانات بعض النمل الذى تخيل فيه الترؤس والإمارة والرفاهية والاحتياج إلى خدمة الغير له فأخذ جماعة منه وأفردها عن خدمها ثم أحضر لها شيئا مما يتغذى النمل به ويتهالك فى طلبه فوجدها غير طالبة لما أحضر لها حتى مات أكثرها جوعا، ثم إنه نقل إليها واحدا من النمل الذى توهم فيه العبودية والخدمة فاشتغل بخدمتها وتغذيتها فأكلت ما أحضره إليها مما كان بمرأى منها ولم تكن تحركت إليه من قبل فأكلت وشبعت وانتعشت ، فعلم من ذلك أن هذا الصنف الغالب المحارب بعد أن يبلغ فى حروبه ماشاء من النصر والظفر والغنيمة ويحصل على ماأراده من العزة والثروة والسعة قد يستولى عليه حب الراحة والرفاهية واللذة فيأخذ فى الكسل والبطالة ويكل جميع أموره إلى ما عنده من الخدم والحشم والأتباع ولا يشتغل هو بشىء من الأشياء فيختل عنده نظام الجمهور وتدور عليه صروف المقدور بالويل والثبور وتفسد الأمور .

وطباع هذا النوع مختلفة باختلاف الأماكن وبالنسبة للزوم الخدم وعدم لزومها ، فترى الأرقاء فى بلاد السويد هى التى تبنى المساكن وتقف على أبوابها بمنزلة البوابين فتفتحها فى أول النهار وتقفلها عند دخول المساء أو ظهور علامات تدل على المطر ، وقد شوهد فى بلاد الانكليز أن الأتباع والأرقاء عليها جميع الخدم المنزلية الداخلية فقط وفى بلاد السويد عليها بعض الخدم الخارجية أيضا بسبب كثرتها وليس جميع النمل قابلا للاستعباد والاسترقاق فإن هناك نوعا صغير الجثة لا يقبل الضيم والذل بل يدافع عن نفسه بحماس ويقاتل أعداءه بشدة بأس وشهامة فتخشاه وتهابه وتتجنبه حتى إنها لا تقرب عائلته ولا تتسلط على أولاده بل يرى بعضه ساكنا بالقرب من مسكن جيوش النمل المحاربة مع الأمن والاطمئنان من غير أن تناله بمكروه لعلمها بشجاعته وبأسه . ومن النمل المحارب ما لا يقتصر فى محاربته على استرقاقه لغيره من النمل بل يزيد على ذلك أن يتخلل النبات فيجد فى خلاله حشرات صغيرة كالبعوض لها ثديان فى ظهرها من الجهة الخلفية يخرج منهما مادة سكرية يحبها النمل حبا شديدا فيمتصها فتكون تلك الحشرات بالنسبة له كالبقر الحلوب بالنسبة للانسان فيصعد إليها فوق أطراف النبات والأعشاب ويركب كل واحد واحدة وفى بعض الأوقات قد يجتمع النمل وعبيده ويتحزب الكل ويسطو عليها دفعة واحدة ويأخذها ويحبسها فى منازله كما يحتبس الآدمى البقر والغنم فيمتص لبنها كما شاء ومتى شاء ويتعهدها بالطعام والغذاء كما يفعل صاحب الغنم والشاة .

وأغرب شىء أن هذا النمل يعمل حول بيته جسورا منيعة أولها عند بيته وآخرها بعيد عنه محاط بالحشائش

التي ترعى فيها الحشرات المذكورة ، وقد يتخذ لها أماكن مخصوصة لا يمكنها التخلص منها فتبقى فيها كالمحبوسة ترعى فيما أعد لها من المرعى وتعطي لبنها للنمل متى أراد . وفي بعض الأحيان يقع بين النمل وبعضه محاربات عظيمة ومناوشات شديدة كالحروب التي تقع بين قبائل البشر منشؤها عداوة طبيعية أو حوادث وقتية وقد وصف بعض المشاهير من علماء هذا الفن واقعة رآها بين قبيلتين من جنس واحد من النمل فقال (كنت بين قبيلتين عظيمتين كثيرتي العدد وكان مابين محطتيهما قدر مائة خطوة ولم أعلم السبب الذي أوجب ثوران الفتنة وهيجان الشر بينهما وإنما رأيت عدد المحاربين من الفريقين بلغ في الكثرة مبلغاعظيما جدا بحيث يتعذر على دولتين من الدول الكبيرة جمع عدد مثله من العسكر . قال ثم رأيت الفريقين أخذا في الزحف على بعضهما إلى أن التقى الجمعان في قدر قدمين من الأرض في منتصف المسافة التي بينهما ورأيت خلف كل جيش عددا معدا للمدد والاعانة كما تفعل الجيوش من اتخاذ المدد في الحروب ، ثم حميت الحرب والتحمت الصفوف والتفت الألوف بالألوف « والتفت الساق بالساق » وصار كل من الفئتين ينتفع بما صادفه أمامه في الأرض من حجر ومدر وغير ذلك فيتترس به ويتحصن خلفه من عــدوه وكان البعض يقاتل ويضرب والبعض يحوز الغنيمة ويضبط الأسرى وكان يرى على الأسارى علامة الحزن والكآبة لاسيما عند مقاربة المحل المعد لاعتقالها عند العدو ، قال ورأيت محل المعركة قد تغطى برمم القتلى ودماء الجرحى وصار يشم منه روائح كريهة لكثرة ما اجتمع فيه من الجيف وكان ابتداء القتال بين الفريقين باثنين برز كل منهما للآخر فتماسكا بالأرجل وصارا يتصارعان ويتغالبان ويجذب كل منهما قرينه إلى جهته ثم أتى لكل واحد منهمامدد من قبيلته يجذبه إلى ناحيته حتى صار الأولان مع ماانضم إليهما من المدد أشبه شيء بحبل طويل يشد أحد طرفيه إلى جهة والطرف الآخر إلى الجهة المقابلة لها حتى يغلب أحد الطرفين فيأخذ غريمه إلى جهته أو يحصل الانفصال من غير أن يغلب أحد ثم يعود القتال فاذا دخل الليل انفصل الفريقان وانقطعت الحرب إلى الصباح ثم يعود كل إلى ما كان عليــه وهكذا ، وكانت سعة ميدان الحرب قدر ست أقدام طولا وقدمين عرضا .

فقال الشيخ كنت فيما سلف اجتمعت برجل من أهل السودان فأخبرني أن ببلادهم نوعا من النمل أبيض اللون يتجمع جموعا كثيرة ويكون منه طائفة كالجند والعسكر وطائفة كالعمال والذكران منه أجنحة وليس لما عداها من العمال والعسكر والاناث أجنحة وتختص العمال منه ببناء المساكن والعسكر بالحفظ والضبط والحراسة وأما الاناث فعليها البيض وإكثار النسل وتربية الذرية والقيام بأمرها وهي كثيرة البيض إلى الغاية حتى كأنها كيس مملوء بيضا فان حجمها مملوء بالبيض قدر حجمها فارغة ألفي مرة ومتى ابتدأت البيض باضت في الدقيقة الواحدة قدرستين بيضة وقد يبلغ مقدار ماتبيضه في اليوم الواحد نحو ثمانين ألف بيضة (كذا قال والعهدة عليه) فقال الانكليزي هذا صحيح كما قاله وقد شوهد هذا النوع من النمل في جهة رأس الرجاء الصالح وحجمها كنه بالنسبة لحجمه مما يقضى منه بالعجب فان ارتفاع المسكن عن الأرض قد يبلغ نحو عشرين قدما وشكله هرمي شبيه بقمع من السكر عظيم الجرم واسع أسفله ضيق أعــلاه فمن رأى هذه المساكن على بعد ظنها كفرا من الكفور أو قرية من القرى الريفية وتكون في غاية من المتانة بحيث لا يمكن كسرها لشدة صلابتها وداخلها فسيح جدا حتى إن الواحد منها يسع اثني عشر رجلا يقيمون به ، وقد يتخذها صيادو الوحوش مأوى يكنون لاصطيادها ويوجد في داخلها مجاري مياه تشبه المدافع الكبيرة ممتدة في الأرض إلى عمق ثلاث أقدام أو أربع فلو نظرنا إلى النسبة بين امتداد قامتنا وارتفاع مانبنيه من المساكن مع النسبة بين قامة النمل وارتفاع مساكنه لوجدناه يفوقنا بكثير فان ارتفاع مسكنه قدر قامته خمسمائة مرة ، فلو كان ارتفاع مسكن الانسان بالنسبة لقامته بهذه النسبة لكان ارتفاعه قدر أكبر هرم من أهرام الجيزة أربع مرات أو أكثر . ومن النمل نوع يتسلط

على منازل الناس فيجعل له تحتها سراديب يتوصل منها إلى أكل مافيها من الخشب ولا يزال حتى يأتى عليه ولا يبق منه إلا ظاهره، فتسقط البيوت بأقل حركة فيفقد الانسان بيته فى زمن يسير ، وكثيرا ماتسلط ذلك النمل بهذه الصورة على مدائن عظيمة وبلاد عامرة فأتلفها وخربها عن آخرها واضطر أهلها إلى الرحيل عنها إلى جهات بعيدة لتسكنها وتبنى بها بلادها ومدائنها ، والعجب أن ذلك النمل لا يحتاج فى مثل هذا العمل إلى مدد طويلة بل يقضيه فى مدة قصيرة وأيام يسيرة . وقد حكى بعضهم أنه رآه أكل سلما كبيرا من الخشب فى مدة خمسة عشر يوما ويأكل مثل الكرسى والمائدة والدولاب فى أقل من ذلك ، فيرى الانسان هذه الأشياء واقفة بهيئتها على أصل صورتها ومتى مسها بيده صارت ترابا مذرورا وراحت هباء منثورا .

قال الشيخ رأيت فى بعض الكتب ماهو أخف من ذلك فكنت أستغربه فالآن زال استغرابى .

حكى الجاحظ فى [كتاب الحيوان] أنه فى بعض الأيام كثر النمل فى بعض دروب بغداد حتى ارتحل عنه أصحابه وتركوا مساكنهم للنمل وإن بعض الناس قال لأحد الفارين من النمل كيف أخرجكم النمل من دياركم ؟ فأخذ بيده ، وقال هلم معى لأريك ذلك وحمل من طريقه رأس جمل مشويا ، فلما انتهيا إلى بعض تلك الدور أكلا ذلك وأمر صاحب المنزل خادمه باحضار طشت كبير منصف بالماء ، ووضع عظام الرأس إلى جانبه فسعى النمل إليها وصار يأخذ النمل وينفضه فى الماء فبعد مدة يسيرة فاض الماء من الطشت ، فقال له كيف تسكن تلك الديار على تلك الحال؛ فسبحان من خلق الأشياء وعرف الانسان قدره بتلك الآيات ، فهذا جيش من النمل أخرج قوما من ديارهم وأبطل حيلهم وقواهم وأعجزهم ليفهموا قوله تعالى « وخلق الإنسان ضعيفا » ويقفوا بأنفسهم على مواضع الاعتبار وتكون مساعيهم فيما له خلقوا وكل ميسر لما خلق لأجله على حد الأدب مع الخلق وخالقه .

قال الانكليزى : ومن النمل نوع إذا بنى له بيتا لا يجعله هرميا بل يجعله على شكل كروى فى عظم البرميل يصنعه من مواد صمغية وأجزاء خشبية وبعض حشائش ويجعل فى داخله ضروبا وطرقا كثيرة تفوق الوصف ويكون فى العادة بين فروع الشجر ، وفى سنة ١٧٨٠ من الميلاد ظهر منه نوعان فى المديريات الجنوبية من فرنسا فخرب بسببهما بيوت كثيرة وسقطت أسقف وحيطان متعددة ولم يبق فى (روشفور) شىء من الكتب ولا الخشب حتى أنهم الآن يضعون أوراقهم فى علب من التوتيا خوفا عليها ، ومنه مايسكن المزارع فيضر بالزرع ضررا بينا وربما حفر له فيها بيوتا ومغارات وعمقها حتى يبلغ ارتفاع التراب الذى يخرج منها خمسة عشر أو عشرين قدما فتتلف المزرعة ويتركها صاحبها وربما أحرقت أماكن هذا النمل بالنار أوضربت بالمدافع لتخريبها إن أمكن ، وقد يستعمل اللغم فى تخريبها إذا كانت عميقة ممتدة فى جوف الأرض فقد تبلغ فى العمق إلى عشرين قدما فى داخل الأرض . والكلام فى هذا البحث طويل والذى ذكرته الآن أقل من القليل بالنسبة لما قيل فى هذا القبيل فان عجائب الخلقة ونفائس الحكمة لا تنحصر فى هذه الحشرات بل هى منبثة فى جميع أفراد الخليقة فقد منح الصانع كل جنس ونوع وصنف من العالم بخواص عجيبة وأمور غريبة تجدها فى الأشياء الكبيرة كما تجدها فى الصغيرة وتراها فى حيوان البحر كما تبصرها فى حيوان البر . ومن أعجب العجب أحوال حيوانات دقيقة جدا أمكن الاطلاع عليها بواسطة النظارات المعظمة وكانت لا ترى بدونها لفرط صغرها ودقتها ويقال لها عند أرباب الفن (الحيوانات النقعية والفطرية) وتوجد فى العصارات النباتية والحيوانية وفى الهواء والماء وغير ذلك وكانت مجهولة عند الأمم السالفة ولم يطلع الانسان عليها ولا انكشف له الغطاء عنها وعلم بعض أسرارها إلا منذ عهد قريب بعد ظهور النظارات لأنها لما فيها من خاصية تكبير الجرم وتعظيمه فى نظر الناظر عظمت أعضاء هذه الحيوانات الدقيقة فتيسرت رؤيتها وأمكن للانسان أن يمتحن أحوالها ويعلم كيفياتها انتهى ماأردته من كتاب [علم الدين] وقد جاء فى إحدى المجلات العلمية مايأتى :

متفرقات عن النمل

(النمل أعجب الحيوانات)

هل خطر لك أن النمل يفهم الحساب ؟ طبعا لايفهم الجبر ولكنه يفهم الهندسة لأنه يحسن البناء ويفهم العد أكثر من جميع الحيوانات ، ولعل بعض الهمج لايفهمونه مثله ، أنبأ (أورماند فرنسيس وليمس) من بريد (جيورت) من ولاية كونكتيكت (أميركا) أنه فى ذات يوم تعثر بحجر فانقلب الحجر عن عش مملوء من محضن صغار النمل التى شرعت تنقف بيوضها فتناول اثنين منها لفحصهما وفى الوقت نفسه صعدت النملات الأمهات وكرها مرتاعة وشرعت تنقل صغارها إلى مكان أمين حتى انتهت ثم عادت تبحث هنا وهناك كأنها علمت أن عدد الصغيرات ناقص اثنتين ، فلا ريب أنها أحصت الصغيرات فوجدتها ناقصة فردهما (أورماند) إلى مكانهما فحملتهما نملتان ومضت بهما .

النمل يربى صغاره

وهل تصدق أن النمل يحسن التمريض والتربية ؟ حالما تبيض ملكة النمل بيوضها تتجمع النملات العاملات حولها وتحمل البيوض بأفواهها وتمضى بها إلى المكان الدافىء الذى أعدته لها وهناك تشرع تعرف البيوض بحسب حجمها فتضع الكبيرات فى صف والصغيرات فى صف آخر ، ومتى نقفت الصغيرات بيوضها وخرجت منها تضعها العاملات فى شكل دائرة وتجعل رءوسها متجهة إلى خارج الدائرة لكى تسهل عليها تغذيتها .

وفى المناطق الاستوائية نوع من النمل تأخذ المربيات منه الصغار إلى خارج الوكر فى يوم الصحو لتعريضها لنور الشمس والهواء الطلق وتسير بها إلى هنا وهناك كأنها تنزهها كما تفعل مربيات الأولاد اللواتى يطفن بهم بالعربات اليدوية ؛ ثم إن النملات المربيات تبالغ فى تنظيف أوكارها ولاسيما أوكار الصغار أكثر مما تفعل ربات البيوت ، فهذه النملات تضع فى عشوش الصغار نوعا من الاسفنج تصنعه من المواد الناعمة المختلفة فمتى اتسخت خراطيم النملات وعلق الوحل على أفواهها تسرع المربيات إلى هذا الاسفنج وتمسكه وتمسح به أفواه الصغيرات وخراطيمها .

(النمل أقوى من الإنسان ٣٠٠٠ مرة)

لو كان فى إمكاننا أن نستنطق النمل ونجعله يقول بصراحة وصدق مافى قلبه ، وأن يخبرنا ماهى أعظم المزايا التى يفتخر بها لقال باعجاب [قوتى] ولضحك على ضعفنا ، ذلك لأن للنمل قوة عضلية بالنسبة إلى حجمه تزرى بقوة أعظم المصارعين والرياضيين ، روى (المستر د . دى بوا) العالم الطبيعى فقال (رأيت نملة تحمل حصاة من أسفل العرمة إلى أعلاها فوزنت النملة والحصاة وزنا مضبوطا بأدق الموازين وقست ارتفاع العرمة فوجدت بعد الحساب أن الرجل لكى ينافس النملة فى رفع الأثقال يجب أن يحمل حملا وزنه نصف طن ويصعد به (٢٥) درجة من درجات (السلالم) الاعتيادية .

لعلك تستغرب ذلك ، فانظر فيما يلى (النملة فى حقلها تحمل بين فكيها حملا أثقل من وزنها ثلاثة آلاف مرة من غير عناء ، ولكى نفعل فعلها يجب على كل واحد منا أن يقف على حافة هاوية ويمسك بين أسنانه سلسلة مربوطة بثمانى عربات محملة حديدا . وقد أكد أحد عارفى طبائع النمل أنه إذا كان رجل يزن (١٥٠) رطلا وله قوة بالنسبة إلى وزنه كقوة النمل لاستطاع أن يحمل على ظهره قاطرتين من أكبر قاطرات السكك

الحديدية من غير أن يتزحزح ، وقد روى الأستاذ (رفتون) أن فى أفريقيا نوعا من النمل يسمى (بول دوج) يستطيع أن يمشى واثبا وكل وثبة نحو قدم فإذا رام إنسان أن يحاربه وجب أن يثب الوثبة الواحدة نحو ١٤٤ قدما .

﴿ النمل فلاح ﴾

النمل فلاح أيضا ، لعلك تستغرب أنه كذلك والحقيقة أن للنمل حدائق يزرعها ويجتنى منها طعامه الذى لايجده فى كل مكان وله إصطبلات يحرس فيها أبقاره التى يحتلب عسلها ، وهناك نوع من النمل يسمى (قاطع الورق) فهو يقطع ورق الشجر بمقص فمه الحاد ويحمله إلى عشه وهناك يمضغه حتى يصبح كالعجين ويفرشه على الأرض ، وبعض النمل يبحث عن الشروم (نبات فطرى) فى الحقول وينقله إلى حديقته ويزرعه فى الأرض التى أعدها لذلك فينبت نباتا فطريا ويتغذى به .

﴿ بقر النمل ﴾

أما بقر النمل المشار إليه آنفا فهو نوع من البعوض النباتى المائل إلى الخضرة وهو كثير فى الجنائن فالنمل يقنص هذا البعوض ويأخذه إلى عشه ويحميه ويغذيه ، وهذا البعوض يفرز مادة لزجة يستطيبها النمل والعجيب أنه لايفرزها مالم يدغدغه النمل بخرطومه ، وقد حاول (دارون) أن يجعل بعوضة تفرز عسلها إذ دغدغها بشعرة فلم تفرز شيئا ، فلما أطلق عليها نملة دغدغتها فأفرزت العسل .

﴿ النمل جراح ﴾

وهل خطر لك أن النمل جراح ماهر ؟ إن عملياته الجراحية عجيبة . فى البرازيل نوع من النمل القاطع للورق يحسن الجراحة كأمهر جراح فمتى جاءت إليه نملة تقاسى من جرح خطر يستدعى بعض الجنود الاختصاصيين الذين لايخطىء فى استدعائهم ثم يضم شفتى الجرح معا ويأمر الجندى أن يمسكهما معا بفكيه ويبقى هذا ممسكا بهما إلى أن يخيطهما الجراح على طول الجرح بواسطة خيوط يفرزها من نفسه ، والله أعلم .

﴿ النمل مقبرة ﴾

ومن أغرب الأمور أن للنمل عادة ليست فى سائر الحشرات أو الحيوانات وهى أنه يدفن موتاه فى مقبرة خاصة ، وذلك أن بعض النملات ترفع الجثة بواسطة خراطيمها وتتبعها النملات الأخرى فى موكب جليل وتسير جميعا خارج الوكر إلى مكان معين تدفن فيه موتاها ، وهناك أعمال أخرى للنمل تدل على حذقه وذكائه وقوته ولو كان يتكلم لكنا نفهم منه أمورا أخرى ربما كانت أعجب وأغرب .

﴿ النمل الغازى ﴾

فى أفريقيا نوع من النمل تتفوق عن الجراد غزوا فهو يزحف صفوفا كثيفة متراصة متحاذية إلى أن يصل إلى الحقل الذى يريد غزوه فيحيط به ويحاصره من جميع الجهات وحينئذ لاينجو منه شىء من الحشرات كالخنافس والعقارب والعناكب والديدان والحيات الصغيرة حتى متى انتهى من غزوه لايبقى فى الحقل غيره فإن جلا عنه إلى حقل آخر تركه نظيفا . انتهت اللطيفة الثانية [رسالة عين النملة] .

﴿ اللطيفة الثالثة : الكلام على عين النملة ﴾

كتب يوم الجمعة ٢٠ رمضان سنة ١٣٣٤ هـ — ٢٠ يوليو سنة ١٩١٦ م

(بسم الله الرحمن الرحيم)

لئن عجب القارئ من هذا العنوان فعجب معناه ، ولئن كان غريبا فأغرب منه مغزاه ، يخيل للسامع أنه مما لايؤبه به ، وماقيمة النملة حتى يحتفى بعينها ، فليرين القارئ من العجائب وغرائب الإبداع فيها مايحار فيه لبه ويزداد عجبه ويوقن أن هـذه العين التى لايراها البصر ولا تتجه إليها الفطن كمدينة عجيبة مشرقة الأنوار زاهرة باهرة تترقرق جمالا وحسنا ويعلم إذ ذاك كيف سميت فى القرآن سورة باسم النمل . وكيف ذكر قصة سيدنا سليمان معها وأن مانذكره فى هذه العجالة غيض من فيض العلم المستمد من تلك العين ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عما تعلمون . لنقدم مقدمة قبل هذا البحث البديع فنقول :

بينا أنا منذ شهر فى مجلس خاص بأهل العلم والفضل والأدب من المشايخ وذوى الطرابيش « ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين » على تصحيح ورق الامتحان للتلاميذ عاكفين إذ قال قائل منهم ومعه فريع شجرة ذو ورق بديع لطيف منظم « إنى كان لى قرين » يقول ألا لايستوى نظام هذا الفرع ونظام النمل الفارسى وكيف يستويان وفى هذا الفرع من النظام والجمال مايبهر الناظرين « وما يذكر إلا أولوا الألباب » ثم قال وياليت شعرى لم قارن بين النمل الفارسى والورق فى النظام ، وإذا صحت المقارنة فما الدليل على ماقال ؟ فأجبت لقد أخطأ صاحبك المرمى ولم يصب المحز .

إن النمل أتقن نظاما وأبدع إحكاما وأهدى سبيلا وأقوم قيلا ولست أحيلك على دقة نظام ولا حسن إتقانه ولا أعضائه الباطنة والظاهرة ولا مدارسه وسياسته وجيوشه ومدنه وزراعته مما سطرناه فى كتبنا : [نظام العالم والأمم] و [جمال العالم] وغيرهما وإنما نحيلك على مسألة عينه العجيبة الغريبة ، فقال وما ذاك ؟ فقلت إنها تتركب من أكثر من مائتى عين كل واحدة منها ذات طبقات خاصة ونظر مستقل بحيث لو عميت إحداهن لنظرت الباقيات نظرا مستقلا صحيحا ، فلم يقع القول منه موقعه من ذى الغلة الصادى ، وقال كيف السبيل إلى معرفتها ، ومن ذا يجترئ أن يدعى هذه الدعوى وما الدليل ، فاحتدم بينى وبينه وطيس الجدال واجتمع القوم حولنا زمرا وكانوا أزواجا ثلاثة ، فريق كذبوا ، وفريق يشكون ، وقليل منهم من وافق . فأما أنا فقلت لقد سمعتها أيام تعلمى بمدرسة المعلمين الناصرية من الأستاذ ثم قرأتها فى الكتب الصغيرة الإنجليزية لتلاميذ المدارس الثانوية ثم رأيتها بعينى رأسى بالمنظار المعظم وسطرتها فى الكتب المنشورة فقال أوسطهم :

والدعاوى مالم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء

وقيل أيضا :

إن كنت ناقلا فالصحة أو مدعيا فالدليل

وقيل أيضا :

ولم أر فى عيوب الناس عيبا كنقص القادرين على التمام

فائت بالبرهان أو بالعيان ، فقلت سأريكموها تحت المنظار المعظم كما رأيتها « ثم لترونها عين اليقين » وإذ ذاك أقول :

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

وليس بعد العيان بيان فقالوا لاطاقة لنا اليوم بالحكم عند العيان فقد يخطىء الحس فأرنا كتب القوم والتنا بنص الكتب الصريح فقرأت « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وقلت سترونها فى كتب القوم وإذن أقول (فاز من ركب العصا) فتوجهت إلى المكتبة الملكية وقرأنا ما كتبه العلامة (اللورد أفبرى) إذا هو لايروى غلة ولا يشفى من علة ، وطالعت مجلات أخرى مع بعض الفضلاء فرجعنا بخفى حنين ، فقلت قال تعالى «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر» وإذن كلمت العلامة صديق محمد بك شوقى بكير المدرس بمدرسة الزراعة العالم بهذه العجائب الذى أطلعنى عليها بالمنظار الكبير المغرم بالعلم العاشق للحكمة فقال لسان الحال :

تسائل عن حصين كل ركب وعند جهينة الخبر اليقين

فأجاب : لقد اتسع نطاق هذا الموضوع فى كتب القوم وأحضر لى كتابين : أحدهما كتاب [درس علم الحشرات] تأليف (باكرد) الأستاذ (بردوفور) فى جامعة براون من صفحة (٢٥٦) إلى صفحة (٢٦١) المطبوع سنة ١٩٠٩ م (والثانى) كتاب [علم الحشرات] مع الاشارة إلى مباحثه الحيوية والاقتصادية المطبوع سنة ١٩١١ م من صفحة (٣٠) إلى (٣٤) وكذلك صفحة (١١٤) و (١١٥) وملخص مافى كتب القوم هو ماياتى (إن جميع الحشرات أعينها مركبة وأقلها تركيبا لاتقل أعينها عن اثنى عشرة عينا ومنها مايكون كل عين من عينيها مركبة من مائة ثم من ألف ثم ترتقى إلى سبع وعشرين ألفا وذلك فى حشرة من نوع الفراش فى القطر المصرى وغيره تعيش على العليق وعلى البطاطس وأمثالها تشبه حشرة (أبى دقيق) المعروفة ، فأما النملة فإن كل عين من عينيها لاتقل عن مائتى عين ولا تزيد عن أربعمائة تقريبا ، وللعلماء فى هذا مذهبان مشهوران ، فأما الأولون فانهم يقولون إن كل عين من تلك العيون تنظر الجسم جملة فإذا كانت عينا النملة مركبتين من ستمائة عين مثلا كانت كل واحدة منها ترى الجسم كما ترى كل عين من أعيننا الجسم الذى تراه الأخرى فأما المتأخرون من أهل الفن فقد حققوا الموضوع تحقيقا وكشفوا النقاب عن وجه الحقيقة وحكموا التجربة تحكيما فأيقنوا أن تلك العين إنما هى مجموع عيون كل منها ترى جزءا من الجسم بحيث لو عميت لم تبصر الجزء المقابل لها فى الجسم ، وأجمع الأولون والآخرون على أن كل عين ترى مستقلة وعلاقتها مع غيرها المجاورة ، فلما أن أتم قوله قلت «الآن حصحص الحق» واستبان السبيل وظهرت الحجة وقامت آية الله الكبرى وبهر جمال الله خلقه ، وقلت لأولئك الأجلاء ماظهر ومابطن وأعلنتهم جلية الخبر فسمعوا شاكرين وكبروا لله مخلصين . فقال صديق محمد بك شوقى بكير لندرس الموضوع حق دراسته لأترجم أهم هذا المبحث وليكن مقالا جامعا حتى يعرف الناس هذا العجب العجاب ، وسأذكر ماالخصه موضحا وأعرضه على القارئين مبينا ليقفوا على آيات الله الكبرى «سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها » فيعربوا مسئلة الكحل (مارأيت رجلا أحسن فى عينه الكحل منه فى عين زيد) ويقارنوا بين أبى تمام والمتنبى ، وبين جرير والفرزدق أو يعرفوا المجاز المرسل والاستعارة والكناية ومالهم ولهذه المسائل وهى إنما اختص بها الغربيون ودرسها علماء الزراعة . ومالشيوخ ولهذه العلوم . وماهذه العناية بهذا الحيوان الحقير ونحن فى حاجة إلى ماينفعنا والناس فى الحرب والضرب . فما هذه السخافات ؟ ولم اهتممت أنت بهذا اهتمامك بأعظم الأشياء فنقول :

ليس ينبغى أن يكون الشيوخ محصورى العقول فيما ذكر ههنا ، هاهم أسلافنا كعبد اللطيف البغدادى والجاحظ والرازى والغزالى ، فأولئك الذين هدى الله وكانوا نورا يستضاء بهم ، فاقرأ فى كتاب الحيوان للجاحظ تر الرجل جد وبحث جهد طاقته ولم يدخر وسعا فى سائر أنواع الحيوان ، والعلم الضيق العطن القليل

القطن واقف كالماء الراكد فى حيز واحد يقبعه تلميذه ويضيق صدره ويموت أمته ، لقد كذب الذين قالوا لاينبغى اتساع دائرة علومه إنه لضلال مبين ، ومن أضل ممن يأمر بالجهل ويغرى الناس بالكسل ، فأما العناية بعين النملة وبالنملة فليس بعجب بعد أن سمى الله سورة باسمه فى القرآن إيقاظا للعقلاء ليدرسوا هذه الحشرات الصغيرة وليدرسوها ليصلوا لأمرين : معرفة الله جل جلاله ، والاستلذاذ بالعلم والحكمة والوقوف على فوائدها الاقتصادية النافعة فى الحياة الدنيا كما فعل الأوروبيون فيما تقدم فى هذه الرسالة . فاذا رأيت ثم رأيت ملكا كبيرا داخل هذه الأعين كما ستراه قريبا ولما نزل قوله تعالى « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » . وقالت العرب «ماذا أراد الله بهذا مثلا» وهل يذكر الله هذه المخلوقات الحقيرة نزل «إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا ومايضل به إلا الفاسقين» .

فأما الاحتجاج بالحرب والضرب فتلك حجة الكسالى والعاجزين البائسين ، فالناس أيام الحرب يأكلون ويشربون والمدارس مفتحة الأبواب والناس يحيون ويموتون والشمس طالعة غاربة والنجوم مشرقة آفلة والدنيا كما هى . إذا كان للحرب تأثير على سير العلم فهلا أقفلت أوروبا مدارسها وهى اليوم ميدانه . إن الاحتجاج بالحرب خدعة شيطانية . فأما اهتمامى بذلك فليس بدعا . ألا ترى أنى لوأغمضت الجفن على القذى وتركت حبل الأمور على غاربها لظن الناس أننا نقول بلا تحقيق أو نكتب بلا تدقيق ومقالة السوء أسرع انتشارا وأعظم أنصار الحسد الكامن فى نفوس البشر « وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم » ولقد جاءنى من قبل عالم من علماء مكة وهو صديقنا السيد محمد حسين الخياط إذ قال : لقد قرأت كتابك [نظام العالم والأمم] وقد كان أهداه لى أحد تلاميذى ببلاد جاوه ، فلما قرأته أرانى هذا الوجود على غير ما كنت أرى وعجبت من مسألة تركيب الماء من الأكسجين والأودروجين ، وقولك إن النسبة بينهما هندسية عجيبة ورأيت الحساب المذكور فى كتابك والنظام المدهش فيها بحيث أنهما يكونان الماء ولو نقص أحدهما أو زاد عن النسبة المحدودة لم يكن ماء ولا مزاج ، وكنت أقول هل رأى المؤلف هذا بعينه ، فها أنت ذا المؤلف هل رأيته . فقلت نعم وسترى بعينى رأسك وتوجهت معه إلى مدرسة المعلمين الناصرية وكان المدرس إذ ذاك صديقنا أحمد بك فهمى العمروسى فأخذ يحلل الماء بطريق الكهرباء وحدثت حادثة مزعجة أن انكسرت الزجاجة وطارت منها شظية خددت خد العمروسى صديقنا ، ثم شفاه الله وعرف صاحبنا المسألة يقينا .

لقد رأيت من هاتين الحادثتين حادثة عين النملة وتركيب الماء وبعبارة أخرى ، العالم المكى والعالم المصرى ، إنى مطالب بما أكتب وإن المؤلف مستهدف للذم والمدح ، فعلى كل من ألف أن يستيقن من علمه لينفع الناس وليثقوا بعلمه « وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم وأن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم » ولو أنى توليت عن هذا الأمر معرضا لم أصل إلى معرفة ما وصل إلينا الآن ولم أستفد ما ستراه من العجائب المدهشة ، على أنى كتبت أصدقاء وإخوانا نتعاون على البر والتقوى ، قال ابن المقفع : أفضل مايعلم به علم ذى العلم وصلاح ذى الصلاح أن يستصلح بما أوتى من ذلك ما استطاع من الناس ويرغبهم فيما رغب فيه لنفسه من حب الله وحب حكمته والعمل بطاعته والرجاء لحسن ثوابه فى المعاد إليهم وأن يبين مافى الدين من الأخذ لذلك والذى عليهم فى تركه وأن يورث ذلك أهله ومعارفه ليلحقه أجره من بعد الموت وقال أيضا : مما يدل على علم العالم معرفة مايدرك من الأمور وإمساكه عما لايدرك وتزيينه نفسه بالمكارم وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عجب ومعرفة زمانه الذى هو فيه وبصره

بالحلى وأخذه بالقسط وإرشاده المسترشد وحسن مخالقته خلطاءه وتسويته بين لسانه وقلبه وتحريه العدل فى كل أمر ورحب ذرعه (الصدر) فيما نابه واحتجاجه بالحجج فيما تحمل وحسن تبصره .

عجائب عين النملة وغرائبها

لقد أبنا فى المقال السابق سبب تسطير هذا المقال فلنشرع الآن فى المقصود ونقول : من عجب أن يكون لكل نملة (خمسة أعين) ثلاثة منها أمامية فى مقدم رءوسها وهذه الثلاثة كأعيننا فى التركيب ، ذلك لأنها ليست تتركب من أعين كثيرة بل كل منها عين واحدة ترى كما ترى أعيننا وهى مركبة من :

(١) عدسة محدبة الشكل، ولما كانت العدسة لاتقوم بالإبصار وحدها أمد الله عز وجل تلك النملة فزاد لها مادة أشبه بهذا الزجاج الذى نراه تسمى الزجاجية فكانت شفافة تحت البشرة .

(٢) ولما كانت العدسة والمادة الزجاجية لابد لهما من مادة أخرى تتم بها الوظيفة جعل الله لها شبكية مركبة من خلايا مثنى وثلاث .

(٣) ثم يتصل بالشبكية أعصاب يسمونها (ليفية عصبية) وليست الشبكية منعزلة عن العدسة بل لها قضيب يمتد إليها ويصلها بها .

(٤) وبين الشبكية والأعصاب الليفية خلايا تسمى الخلايا الاضافية .

(٥) وفى داخل تلك الاضافية خلايا أخرى .

(٦) ملونة بالسواد .

(٧) ومن الخلايا مايكون قزحية العين .

فتأمل وتعجب فى هذه النملة الصغيرة وازدد عجبا فى عينها الصغيرة البسيطة ثالثة الثلاثة ونحن إلى الآن لم نتكلم على العين المركبة وانظر كيف كان للعين عدسة كالعدسة التى فى المنظار وجسم زجاجى وشبكية ليفية عصبية وقضيب يصل الشبكية بالعدسة وخلايا إضافية وأخرى ملونة بالسواد وقزحية ، فكل من هذه السبعة له حجم خاص به ومقياس لايتعداه ومقدار لا يتجاوزه ، ولو نقص أو زاد لاختل نظر تلك العين الصغيرة ولو وقفت على نظام الشبكية وحدها وتركيبها من خلايا مثنى وثلاث لقضيت العجب فى هذا الانقسام ، فهذه العين على شدة دقتها أصبحت ذات أجزاء سبعة والجزء الواحد مركب من خلايا مثنى وثلاث وكل خلية من تلك الجملة لو وضعت تحت المنظار كما رأيت أنا نظيرها تحته لرأيتها مقسمة أقساما تعد بالمئات مما يحار فيه العقل وتضل الفكر «وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر» .

وهذه الأعين التى سميناها بسيطة خلقت على نوعين : نوع يكون فى جانبى الرأس فى غير النمل من الحشرات وتكون العين كرأس الدبوس ، ونوع يكون فى الرأس من الأمام، فالأولى وهى الجانبية تكون فى الدودة التى استعدت لتنقلب حشرة ولم تكن فى الظلام ولافى مكان كثير الغذاء فان الحكمة الإلهية قضت أن لايكون عضو إلا لمنفعة ، وإذا نال الدود طعامه سهلا فما منفعة العين ؟ وإذا كان فى الظلام فالعين عبء ثقيل على عاتقه ويكون ضرها أكبر من نفعها فرفع الله إصر الأعين عن هذين النوعين وأنعم بها على غيرها من الحشرات «فتبارك الله أحسن الخالقين» «وفى الأرض آيات للموقنين» «وفى خلقكم ومايبث من دابة آيات لقوم يوقنون» .

﴿ جوهرة بديعة ﴾

لقد يضل علماء الحشرات فلا يتبينون الذكر من الأنثى فى تلك الحشرات الصغيرة ومما يجلون ذلك بكبر تلك الأعين فى ذكور بعض الحشرات واقترابها من بعضها دلالة على النشاط والقوة حتى يحث الذكر على الأنثى ولولا تلك القوة والأيد مااستطاع سبيلا للانتاج ولا نقرض النسل وذلك خلل النظام .

هذه نبذة صغيرة فى عين النمل البسيطة من الثلاث المقدمات (سؤال) ولعلك تقول كيف يحتاج بعدهذه الأعين الثلاث إلى الأعين المركبة التى سنشرحها وذوات الأربع من الحيوان والانسان كلها كفاها عينان وأعمالها عظيمة وحاجاتها أعظم ، فما النملة حتى يجوزها عينان مركبتان بعد هذه الثلاث المنظمة العجيبة ، نقول على رسلك ، إن هذه الأعين محدبة تحدبيا حادا والعدسة ثابتة لاتتحرك والمسافة بين العدسة وشبكية العين ثابتة فلاجرم يجب أن يكون المرئى على مسافة معلومة ثابتة بينه وبين عين الحشرة والتحديب الحاد يوجب قصر المسافة . ولقد أعموا حشرة بحيث غطوا أعينها المركبة التى سنتكلم عليها بمحلول معتم ووضعت الحشرة بعد ذلك فى صندوق مظلم ذى ثقب واحد مضىء فخرجت الحشرة من ذلك الثقب سواء كان بعين بسيطة واحدة أو باثنتين أو بثلاث فظن بعض العلماء استنتاجا أن هذه الأعين لايتميز بها إلا الضوء فأما معرفة القرب والبعد والشكل والحركة والسكون واللون وماأشبه ذلك فانه يكون بالعين المركبة .

العين المركبة

ولئن عجبت من عين النملة البسيطة مرة لتعجبن ألف مرة من عينها المركبتين ، انهما خلقتا على جانبى الرأس وكثيرا ماتملآن ذينك الجانبين وتتركبان من أعين خضر مستديرة أو مسدسة كما فى خلايا النحل فانها مركبة من أشكال هندسية عجيبة مسدسة محكمة ذكرناها فى كتبنا (كجمال العالم) و (جواهر العلوم) وغيرها وقد قدمنا أن هذه الأعين ليست خاصة بالنحل بل إنها تشمل سائر الحشرات وتكون العين مركبة من (١٢) عينا فى حشرة تسمى (ليبزما) ويصل عدد تلك الأعين إلى (٢٧٫٠٠٠) عين فى العين الواحدة فى الحشرة المسماة (اسفنكس كونفولولاى) وهى أشبه بالفراش الذى يعيش على القطن وتقدم بيانه وهذه أكبر من حشرة القطن حجما كما رأيتها بعينى رأسى فى الرسم. عين النملة كما تقدم مركبة من مائتى عين إلى (٤٠٠) عين وليست الأعين الصغيرة متساويات المساحة فيكون حجمها من $\frac{1}{200}$ من البوصة أى ٠٫٠١٦ من الليمتر أو ٠٫٠٠٩ من الليتر ، وإذا كان عينا النملة مثلا مركبتين من ثمانمائة عين على أكثر تقدير فتعجب وانظر تشريح كل عين من هذه الأعين وتأمل فى نفسك وعقلك وتركيبك واعجب من إتقان المبدع الحكيم لأدنى الأشياء وإحكامه لها وافهم قوله تعالى «وكل شىء عنده بمقدار» وقوله «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وماننزله إلا بقدر معلوم» وقوله « وما كنا عن الخلق غافلين » بل كيف يقرأ الإنسان علم عين النملة ولا يوجه قلبه إلى هذا المبدع الحكيم الذى نظر إلى النملة وعينها كما نظر إلى الشمس وقمرها والنجوم ونورها والجبال والشجر والأنهار . فانظر كل عين فى التشريح تراها تتركب مما يأتى :

(١) من قرنية العين وهى خلية بشرية ذات أديم شفاف محدب الشكل مكسر الضوء وأعلى هذه القرنية تارة يكون أوسع من أسفله وتارة يكون العكس .

(٢) وحول أسفل القرنية أهداب تكتنفه تختلف فى نظامها ومقدارها وشكلها باختلاف الحشرات.

(٣) ويلى القرنية من تحتها مباشرة مخروط يختلف حجمه باختلاف الحشرات .

(٤) ومن تحته عدسة كالبللور مركبة من أربع خلايا أو أكثر، ومن الحشرات ما لاعدسة له ولامخروط له ويكون أربع خلايا بدلها .

(٥) ثم تكون القضبان وهى حزمة منها ممتدة امتدادا طوليا على محور العين .

(٦) وتحيط بها خلايا مستطيلة وهى مكونة شبكة العين .

(٧) وهناك منطقة خارجية ملونة بالسواد حول الشبكية كأنها درنات صغيرة فى الخلايا القصيرة حول الشبكية وهذه تسمى منطقة حدقة العين .

(٨) ومنطقة أخرى داخلة وخلاياها الملونة طويلة ومستديرة وهى تفصل كل عين عن الأخرى .

(٩) لكل عين حزمة من العصب البصرى .

(١٠) ولذلك العصب ليف عصبى منفرج عنه داخل فى العين مار .

(١١) بالنسيج الأساسى وبالعصب .

هذا تشريح كل عين من العيون المكونة للعين الواحدة « فاذا رأيت ثم رأيت نعيا وملكا كبيرا » نعيا للعلماء وملكا للحكماء ، وهل ملك الحكماء إلاسعادة النفوس وخلاصها من أسر الطبيعة ودناسة الأخلاق وهل دار فى خلد أحد يوما ما وهو يطأ النمل برجله ويدوس عليه بسنابك خيله ويطؤه بأخفاف إبله ويذيقه الموت أفواجا أفواجا أن لكل عين من عينيه نحو (٤٠٠) عين لكل عين قرنية شفافة كالقرنية التى فى ظاهر أعيننا وسميت كذلك لأنها أشبه شىء بالقرن وحولها أهداب كأهداب أعيننا تليها عدسة أو مايشبهها كالعدسة التى فى أعيننا ثم شبكية كالشبكية فى أعيننا ومنطقتان ملونتان بالسواد لئلا يشع النور من العين حتى يكون محصورا فيها وأعصاب بصرية تصل إلى الدماغ ليحكم إدراك النملة على الأشباح التى أمامه ، وما أشبه عينى النملة إلا بتلك الثريات المعلقات فى الأماكن الشريفة بحيث يكون فى كل منها أربعمائة قنديل ، وعلى ذلك ليست تلك الثريات (النجفات) إلا مجموع قناديل مضيئة مشتركة تترقرق حسنا للناظرين ، فهكذا كل عين مجموع عيون مضيئات مشرقات للنملة هاديات لها «سبح اسم ربك الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى» النملة وسائر الحشرات ضعيفة ، ولقد قضت الحكمة أن لايعطى الشىء إلا بمقدار ، عميت الحشرات التى تعيش فى الظلام وهكذا التى كان عيشها رغدا لا حاجة لها فى طلب الرزق ، فأما أمثال النمل فان لها من المصالح والأعمال مالا حصر له كما أوضحته فى [نظام العالم والأمم] و [جمال العالم] وغيرها وكان من الحكمة أن لاتجتزئ بالأعين الثلاثة البسيطة بل منحت تلك الثلاث من العيون بحيث ترى كل عين منها جزءا من الأشباح التى أمامها ، ولقد بحث ملر واكسنر فى هذه الأعين بحثا مدققا فوجدا أن كل عين لاترى إلا ماأمامها . فأما الأولون فقد ظنوا أنها ترى الشبح كله كما ترى الأخريات ولقد وضع (اكسنر) العين المركبة تحت المنظار المعظم ونظر فيها فلم تر كل عين إلا ماأمامها ، وضرب لذلك مثلا فقال (هذه الأعين كأنابيب من الزجاج متجاورة ملونة بالسواد فهل ترى كل منها إلا ماأمامها ؟ أو ليس كون السواد فى كل عين وكل أنبوبة زجاجية يحول دون شع النور منها ، ولقد أزال (اكسنر) القرنية والمخروط ليعلم ماحكمهما وهل تبقى العين مبصرة كما هى أم ماذا يكون ؟ فنظر فيها فوجد الأشباح اقتربت واندمجت وعلم أنه لولا القرنية ولولا المخروط ماوضحت الأشباح للنملة ولاختلط عليها الأشباح وضلت سواء السبيل .

يقول (اكسنر) : (إن الحشرات ترى الأشباح وحركاتها بسرعة غريبة فان تلك الخلايا المسودة لتنقبض وتنبسط على حسب مقتضى الأحوال كما أن إنسان العين فى الانسان يضيق ويتسع كذلك تبع كثرة النور وقلته وذلك يعين الحشرات على سرعة الادراك والنظر السريع بحيث لايعوزها حركة العين ولا حركة الرأس

فان الشبح المتحرك تصل صورته إلى مئات العيون أسرع من البرق وتحس تلك العيون كلها مرة واحدة بتلك الحركة من جهات كثيرة، فما أسرع فرارها وأبدع خالقها ولذلك ترى الحشرات كالذباب والنمل والنحل سريعة الحركة قريبة الهرب من كل حادث قل أو جل) «إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد» أشهد أن الذى أبدع عين النملة وأفرغ عليها من الحكمة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب غافل . يعطى الأمة التى أراد حياتها رجالا مفكرين وقادة قادرين وحكماء ماهرين وعظماء مسيطرين ويمدها بنوره وحكمته ويعطيهم من لدنه علما فيكون عيونها الصغيرة المستمدة من النور الإلهى العام المحيط بالكون ثم يكلؤهم برحمته ويجعلهم تحت رعايته حتى تعيش الأمة فى سعادة وهناء وحبور ، أو ليس الذى أمد النملة بعيونها هو الذى يمد الأمة بحكمائها وعلمائها «تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير» وهو بالشكر جدير . انتهى يوم الأحد ٢٢ رمضان سنة ١٣٣٤ هـ ـ الموافق ٢٣ يوليو سنة ١٩١٦ م بمدينة اسكندرية بجهة أبو وردة .

وهذا ما كتبه الأستاذ الفاضل شوقى بك بكير وكيل ادارة البساتين الآن الأخصائى فى هذا الفن (لقد رأيتها وقرأتها فوجدت جميع المباحث العلمية التى فيها صحيحة وأنا مترجمها بمرفق) والحمد لله رب العالمين .

النحل بعد النمل

ما كنت أعلم وأنا أكتب تفسير (سورة النحل) عدد عيون النحلة ولذلك لم أكتب شيئا فى ذلك ولم أعلم أن عيونها بحسب الظاهر خمسا كعيون النملة فاعجب لما قرأته الآن من العجائب إذ ثبت أن عيون النحلة خمس منها ثلاث عيون صغيرات مجموعة فى مثلث فى وسط الجبهة ، فأما العينان الباقيتان فهما كبيرتان واقعتان فى جانبى الرأس وهما المقصودتان بالكلام ، ويقولون (لو كان للانسان هاتان العينان لرأى آلافا من الأشياء) ويقولون (إن ملكة النحل لها : ١٫٤٠٠) عدسة صغيرة وأما النحلة العادية فإن عينها الكبيرة تشتمل على (٤٫٠٠٠) عدسة (وهذه الأعداد فى إحدى المجلات المصرية فتأمل) وقوتها كقوة عدسات الملكة) ويقرر الأستاذ (كارل فريش) وهو أكبر عالم فى دراسة النحل أن أشعة عين النحلة مثل أشعة (اكس) تخترق الأجسام الصلبة وتريها ماوراءها ، وذلك بما ثبت له من التجارب . هذا ومن اطلع على ماجاء فى هذا التفسير فى إلقاح النبات كما فى سورة الحجر وفى سورة البقرة والأنعام فى آية «وأرسلنا الرياح لواقح» فى الأولى ، وآية «إن فى خلق السموات والأرض» الخ فى الثانية، وآية « انظروا إلى ثمره إذا أثمر » فى الثالثة أدرك أن النحل وغيره من الحشرات تتوقف حياة الانسان على وجودها . ألا ترى رعاك الله أنه لولا هذه المخلوقات الصغيرة ما أمكن أن تثمر كثير من الأشجار ، فهذه الحشرات هى الملقحات لها فبها يكون الاثمار والله هو الولى الحميد والحمد لله رب العالمين .

(اللطيفة الرابعة كيف «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم» الخ وكيف سمع سليمان عليه السلام ذلك

إنى أعلم أنك أيها القارىء لهذا التفسير تقول إن الحكمة والفلسفة ليس فيهما مايؤيد كلام النملة ولا أن سليمان سمعها ، وكيف يسمع من غير متكلم ؟ وكيف تتكلم هى النمل والنمل يسمعها ؟ وكيف علمت هى بحضور سليمان وجنوده ، تقول ذلك فى نفسك وتعجب فتقول إن هذا جاء به الوحى فلا قول لنا فيه ولكن إذا سمعت ماأتلوه عليك الآن تدهش من العلم الحديث والحكمة .

اعلم أن الله جعل الأنوار مائلة لهذا الوجود ولم يجعل العالم مظلما بل جعله مضيئا وخلق المرآة لتنظر بها مالا تتمكن من رؤيته ، وفوق ذلك جعل من ضوء الشمس صورا تبقى رسومها إلى آخر الزمان وخلق الحواس وهو حقا «واسع عليم» فكان مقتضى هذا أن يجعل بنى آدم وجميع الحيوانات تقرأ ما فى صدور بعضها بحيث يعرف الانسان مافى قلب أخيه والحيوان كذلك . هذا مقتضى الرحمة وسعة النور والجمال ، ولعلك توافقنى أنه كان ذلك أرحم بنا وأنفع ، أقول لتعلم أن هذه الأمنية الآن موجودة فعلا فينا وفى الحيوان . إن بيننا معاشر بنى آدم محبة وبغضاء وأمورا كثيرة نشعربها ، وبعض بنى آدم أضعفوا القوى الظاهرة فانكشف لهم بعض مافى القلوب وعرفوه بلا كلام ولا تعريف ، وهؤلاء قليل فى النوع الإنسانى وتوافق الخواطر من هذا القبيل ، أما الحيوانات فإنها مطبوعة على قراءة الأفكار بطريق الإلهام ، والناس سيأتى لهم يوم يكون المرء مرآة لأخيه ويحدثه على بعد عظيم كالتلغراف الذى لا سلك له ويصبح الإنسان عند كشفه لما فى نفسه من تلك المنحة عالما بما فى قلب من يريد التوجه له فى المخاطبة القلبية ، فعلى هذا للبحث الجديد يكون قراءة الأفكار عند الحيوانات طبيعية وقد كانت كذلك عند الإنسان ولكنه غطاها لما نبغ فى الخطاب والكلام فنامت تلك المزية .

وهاك ماجاء فى الجرائد المصرية يوم ١٨ ذى القعدة سنة ١٣٤٣ هـ - ١ يونية سنة ١٩٢٥م تحت عنوان :

التلغراف اللاسلكى وتبادل الخواطر

بحث الأستاذ (برس) أحد علماء الطبيعة الإنجليز موضوع التلغراف اللاسلكى وعلاقته بتبادل الخواطر فكتب مقالا طريفا ننقله عن صحيفة إنجليزية .

بدأ العالم المذكور بحثه بالرجوع إلى أن أول من فكر فى استعمال الكهرباء لنقل الكلام والرسائل هو كاتب إنجليزى فى مقال نشره عام ١٧٥٣ فى (سكوتس مجازين) وبعد ذلك بقرن تكلم عالم آخر إنجليزى عن التلغراف الكهربائى وذهب فى سياق بحثه إلى توقع نقل الرسائل الكهربائية بدون استعمال الأسلاك . ولئن كان موضوع التلغراف اللاسلكى اليوم قديما فى نشأته فسيجىء اليوم الذى يصل فيه المجهود الفكرى إلى استعمال التليفون اللاسلكى حتى يتخاطب اثنان فى طرفى الأرض معا دون اتصال الآلتين اللتين يتكلمان بواسطتهما بشىء من الأسلاك البرقية . إن أسهل طريق لتفسير التلغراف اللاسلكى هى استعمال الظاهرة الطبيعية المماثلة لسلك يهتز بتماوجات مؤتلفة مع النغمة الصادرة من سلك آخر على أن يتمشى كلتا النغمتين على وتيرة صوتية واحدة ، فالنغمات الصوتية السارية فى السلك الأول تنتقل فى الهواء إلى السلك الآخر وبفعل تموجات النغم فى الهواء ينتقل الصوت إلى ذلك السلك ، هذا فى حالة وجود الأسلاك ولكن فى النقل غير السلكى يحصل التكلم على الاهتزازات بواسطة الكهرباء فتنتقل الأصوات بواسطة الأثير (الهوائى) إلى درجة لاسلكية متفقة فى النغم مع الموجة الأولى المنتقل منها الصوت ، تنتقل التموجات الصوتية فى الهواء بمعدل ألف ومائة قدم فى الثانية ، أما التموجات غير السلكية فتسير فى الهيولى بمعدل ١٨٦ ألف ميل فى الثانية مما يقف أمامه الفكر البشرى حائرا لأن الخلاف بين السرعتين فى الهواء والهيولى عظيم جدا ، ويعتقد بعض العلماء اليوم أن تبادل الخواطر هو مستوى القوة التى تمكن الشخص من نقل آرائه إلى الشخص الآخر بدون أية واسطة مادية أو ظاهرية ، فهل هذا الرأى ممكن أو محتمل الوقوع ؟ وإجابة على ذلك يقول العالم الأنجليزى صاحب المقال : (إن نقل الأفكار قد يحدث فى أوقات شاذة وحالات خاصة وذلك مالا يعارض فيه أحد من الباحثين ولكنه لاينطبق على الحالات العامة ، وذلك التبادل قد يرى بوضوح بين الحشرات

والحيوانات

والحيوانات عند اقتراب الحشرة من الأخرى) ويقول الباحثون (إن السبب فى ضعف هذه الملكة فى الإنسان هو عدم استعمالها بعد أن تمكن من الكلام والخطابة) ويرى كثيرون من الطبيعيين وصائدى الحيوانات والطيور أن ملكة تبادل الخواطر تشتد ظهورا كلما اشتدت حاجة الحيوان أو الحشرة وإذن يظهر ذلك كثيرا بين الحيوانات فى أدنى مرتبة والطيور فى جميع مراتبها . أما الإنسان فيتركب من خلايا لاعدد لها ولكل خلية من جسمه عمل خاص ولاتتحرك الخلية إلا تبعا لعمل كهائى ، ويختلف تفاعل الالكترونات فى الخلية من هذا الجسم عن الخلية من الجسم الآخر . وتبعا لذلك نرى كل رأى نتيجة لعمل الثقوب الحاوية فى المخ وعن ذلك يحدث التفاعل الكهربائى المضطرب ، وقد يوجد فى بعض الأحيان توافق بين خلايا مخين وتحريك تلك الخلايا وعند ذلك حسب يحدث تبادل الخواطر اه.

فانظر ألست ترى أن هذا المبحث يقرب هذا الموضوع وبه نعرف أن الحيوانات تكلم بعضها بنقل الأفكار والنمل من هذا القبيل وأن الانسان مستعد لذلك لأنه من جملة مواهبه ولكن هذه الموهبة تجىء تارة بطريق الوحى الخارق للعادة وتارة بالتمرين وهو ما سيجد فيه الناس كما رأيت والحمد لله رب العالمين.

هذا ما كتبته عند تأليف الكتاب ، وعثرت عند الطبع على موضوع جميل فى الكتب الانجليزية ، فهاك ترجمته تحت عنوان :

الحشرات والنمل

إن الأرض لمزدحمة بالحشرات وإنها لكثيرة فيها مختلفة الحجوم والأشكال والألوان ولها من المنافع العظيمة ومن الأعمال مالاحد له . فى الأقطار الحارة تكثر الحشرات لملاءمة الطقس لها وأن بعضها لشديد الايذاء والاضرار لنوع الانسان ، وليس من السهل أن يأتى الانسان للحشرات بتعريف جامع مانع وإنما يمكن تمييزها عن سواها من الحيوانات بثلاثة أحوال :

[الحال الأولى] أنها على اختلاف أنواعها وأجناسها مكونة من ثلاثة أجزاء: الرأس والصندوق والبطن.

[الحال الثانية] أنها لابد أن تمر فى أدوار تكوينها فى [أربعة أدوار : الدور الأول] أن تكون بيضة.

[الدور الثانى] أن تكون دودة.

[الدور الثالث] أن تكون (فيلجة) أو شرنقة أى أن تنسج على نفسها نسجا حريريا تنام فيه أياما كدودة القز .

[الدور الرابع] أن تصير تامة التكوين بأجنحة وأرجل تامة الخ .

[الحال الثالثة] أن كل حشرة لها ستة أرجل .

هذه هى الخواص التى اشتركت فيها سائر الحشرات ؛ وربما كان أنبل الحشرات وأهمها وأكثرها فائدة النمل وإليك وصف بعض أحواله وأعماله .

﴿ النمل ﴾

إن النمل لترى فى كل مكان فى الدنيا ، وهى وإن اتحدت مظاهرها فى سائر الأقطار تختلف اختلافا بينا فى طباعها وطرق معايشها فى الحياة .

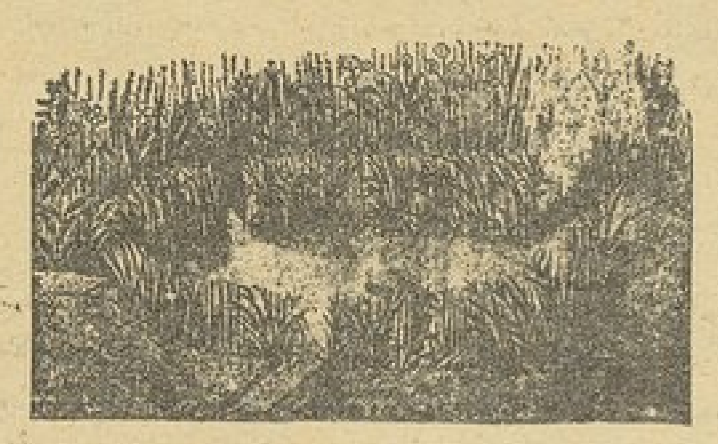
﴿ مساكن النمل ﴾

إن النمل لتعيش جماعات كثيرة العدد فى أماكن مبنية تحت الأرض أو بارزة فوقها كالآكام ومساكن النمل مفصلة تفصيلا عجيبا ومقسمة إلى حجرات مختلفات المنافع والأغراض . فترى حجرات كبيرات لعيش

فيها النمل ، وهناك الأظآر (جمع ظئر) للربيات الصغار يحتنين بهن اعتناء يفوق الوصف إطعاما وتنظيفا وترتيبا كما ترى النساء أطفالهن فى نوع الانسان ، وتحت هذه الحجرات حجرات أخرى جعلها النمل مخازن للبذور والحب إدخارا للقوت فى مستقبل الأيام ، وهذه الحجرات متصلات بطرق شاذة الوضع غريبة النظام كما أنها فى خارج تلك المنازل قد صنعت طرقا غريبة توصل إلى مداخل مختلفات .

﴿ أعمال النمل ﴾

إن من النمل ما اختص بجلب الحشرات النافعة لغذائها كما يفعل الإنسان بتربية البقر والاغتذاء بلبنه ، ومنه ما يحارب ويجندل الأعداء فى الميدان ويجلب الأسرى ويسخرها فى عمل نالمع للغالبين ، ومنه ما هو فلاح حقيق يزرع الأرض ويحصد الزرع ويخزنه كما يفعل الانسان، وهاك صورة المزرعة النملية وهى الأرز النملى (انظر شكل ١١) .



(شكل ١١ – رسم للمزرعة النملية وهى الأرز النملى)

هذه هى المزرعة النملية بأربع طرق ، وما تراه الآن هو أرز النمل الذى ينمو محيطا بالمزرعة .

إن فى الجزائر البريطانية نحو (٣٠) نوعا من النمل . وفى العالم كله أكثر من ألف نوع مختلفات الأطوار؟

إن النمل فى بعض البلدان تبنى مساكنها مجتمعة فيصل ارتفاعها من عشرة أقدام إلى خمسة عشر قدما فوق الأرض وتكون بذلك صورة قرية بارزة ظاهرة للناظرين، وفى أقاليم أخرى تكون النمل قوة مزعجة مهلكة شديدة الخطر على الأحياء ، وقد تكون مستعمرات النمل فى دور الكتب فتختط لها طرقا ومسالك تسلك سبلها وتذلل طرقها فى بطونها ولا يتم ذلك إلا باتلاف الورق أكلا وتمزيقا فلا يمضى زمان قليل حتى تصبح المكتبة كأنها لم تكن بالأمس عديمة الجدوى فاقدة المنافع. إن منظر النمل عادى تراه فى الحدائق وفى غيرها من الأرضين وهن غاديات رائحات عاملات ناصبات كل حين لايظهر عليهن أدنى ملال أو تعب .

إن كل نملة عاملة تمام العلم بما عليها من الواجبات قائمة بعملها حق القيام بكل قوة وإتقان . فإذا حل فصل الربيع شمرت النمل عن ساقها وهبت لعملها بلا إبطاء ، فلو رأيت ثم رأيت جماعات كالموج غاديات رائحات بين أشجار الصنوبر التى يغلب بناء بيوتها فيها ، وقد اجتمعت الجموع المائجة فوق تلك القرى والمنازل لاتمام بناء مساكنها وبناء الغرفات فوق الحجرات . إن من النادر أن يلتفت الإنسان أو يفكر فى اجتهاد النمل فى عمله العجيب، انظر إلى جماعات النمل تحاول انتزاع قطعة من الخشب وتجد كل الجد أن تأخذها لاستعمالها مع أنها

أثقل من أجسامهن كثيرا ، وكيف تراهن حول قطعة من الخشب كبيرة يحاولن دفعها تارة ورفعها أخرى وجذبها بقوة ليجعلاها فى المكان اللائق وضعها فيه .

إن النمل تأبى كل الاباء أن يطلع أحد على أسرارها أو يتطفل عليها لمعرفة نظامها العجيب فى الحياة ، ولو اتفق لك أن اقتربت من أحد مداخلها الموصلات إلى منازلها لرأيت الأعمال جارية بأدق مايتصوره الانسان محكمة الترتيب وليست فى إتقان أعمالها بأهدى سبيلا منها فى ابدع هذا المتطفل الجالس على الأبواب بحمتها الحادة النصال . النمل مختلفات الأنواع فلا ترى نوعين يتفقان فى ظواهر الأجسام ولا فى طرق أعمال الحياة .

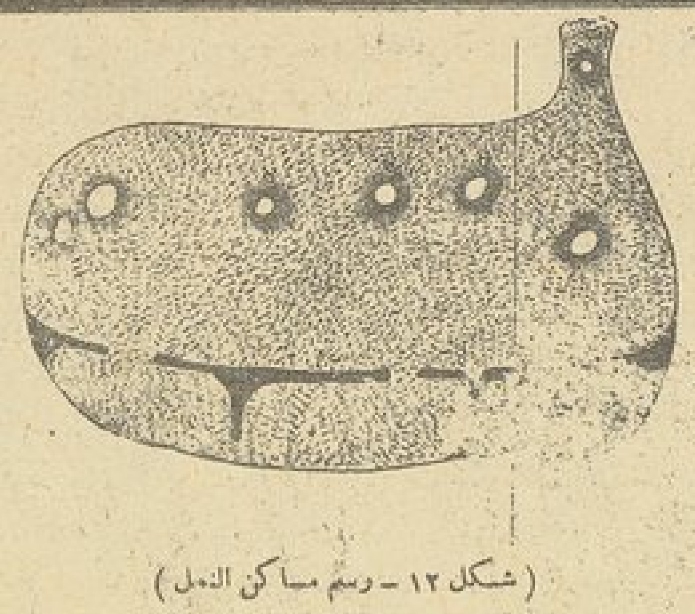
إن النمل فى الجزائر البريطانية أصغر منها فى بلاد أخرى وأكبر النمل فى ذاته صغير . ومن عجب أن يكون صغير الحجم دقيق الجسم وقد امتاز بالذكاء والعلم . ويدهش الإنسان من رأس ضئيلة تحوى فكرا قويا متينا.

إن للنمل [خمسة أعين] ثلاث منهن بسيطات كأنها مثلث واثنتان كل منهما مركبة من مئات العيون كما تقدم قريبا ، وله زائدتان كالشعر تشبه الرجلين أو اليدين ينبتان على جانبى الرأس يحس بهما ويزاول بهما الأعمال كذراعى الانسان ويديه وأصابعه ، وله فكان حادان جدا وأرجلها الست متصلة بالصندوق .

إن بيض النمل يفقس مابين (١٤) يوما و (٣٠) ويسير فى أشكاله التى قدمناها وحينما تكون دودة أو فليجة (شرنقة) تكون خالية من الرجلين والجناحين عاجزة يكفلها النمل الكبير . ولو رأيت ثم رأيت الآباء يحملن الأبناء فى المهد من حجرة إلى حجرة طلبا للدفء والحفظ والقرار .

إن الدودة لاتنقلب إلى فليجة إلا بعد أسابيع إذ تنسج فيها على نفسها خيوطا حريرية أشبه بما تصنعه دودة الحرير بل كل الحشرات هكذا ولكن دودة الحرير أظهرهن فى ذلك ثم تنقلب حشرة تامة فى آخر الأمر وذلك بعد تمام النسج وكونها فيه بأيام قليلة ؛ ومما تلذ رؤيته أن يشاهد الانسان تلك الفيالج وهى الكرات الحريرية قد أخذت النملات الصغيرة تتحرك من داخلها وقد شق عليها ذلك فترى النملات الكبيرة أسرعت لمساعدتها وحل أربطتها وتنظيف أجنحتها وفك أرجلها من تلك الخيوط . وهذه النملات المساعدات أشبه بالقابلات والأطباء المختصين بالولادة . فخروج النمل الصغير من النسج الحريرى أشبه بالوضع وعسر الخروج كعسر الوضع والمساعدة هناك محتمة على الآباء فى قرية النمل .

إن هذه الدنيا عجب وأى عجب . إن الأمر لعظيم. فما هذا الحنو والشفقة والحب والمساعدة للذرية النملية التى نطؤها بأرجلنا ونحقرها «وما كنا عن الخلق غافلين» . فياليت شعرى كيف غفل عن هذا الجمال المسلمون وأوروبا ظفرت به وهم نائمون . اللهم إنى قد وفقتنى أن أؤدى ماعلىّ لأمة الاسلام فأسألك أن تجعل هذه المباحث عامة فيهم إنك أنت السميع العليم ، واعلم أن النمل يقطع أجنحته قصدا متى دخل فى أعمال عظيمة كبناء المساكن وهذه صورة مساكن النمل (انظر شكل ١٢) فى الصفحة التالية .



(شكل ١٢ ــ رسم مساكن النمل)

(شكل ١٣ ــ هذا مرتفع قدر ارتفاعه الطبيعى مرتين)

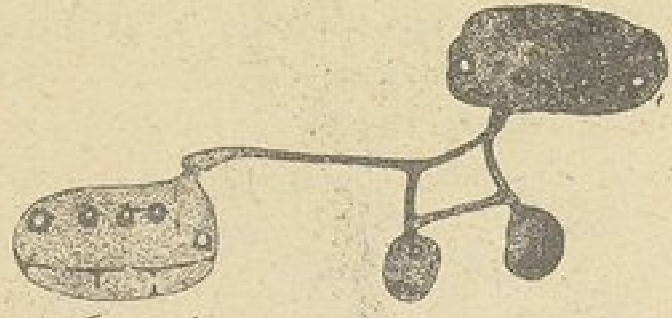
إن فى شكل (١٢) بهوا كبيرا مرفوعا سقفه على عمد وهذا البهو العظيم المتسع الشكل يفتح فيه ثلاث حجرات صغيرات جدا بالنسبة له ، وهاك بيانه :

(ا) الأعمدة التى رفع سقف البهو الكبير عليها وحفظه .

(ب) البهو الكبير وهو أهم مافى المسكن .

(ج) أجزاء من الحائط .

(د) الحجرات الداخلة وهى الصغيرة . (ه) البوابة والمدخل العام .

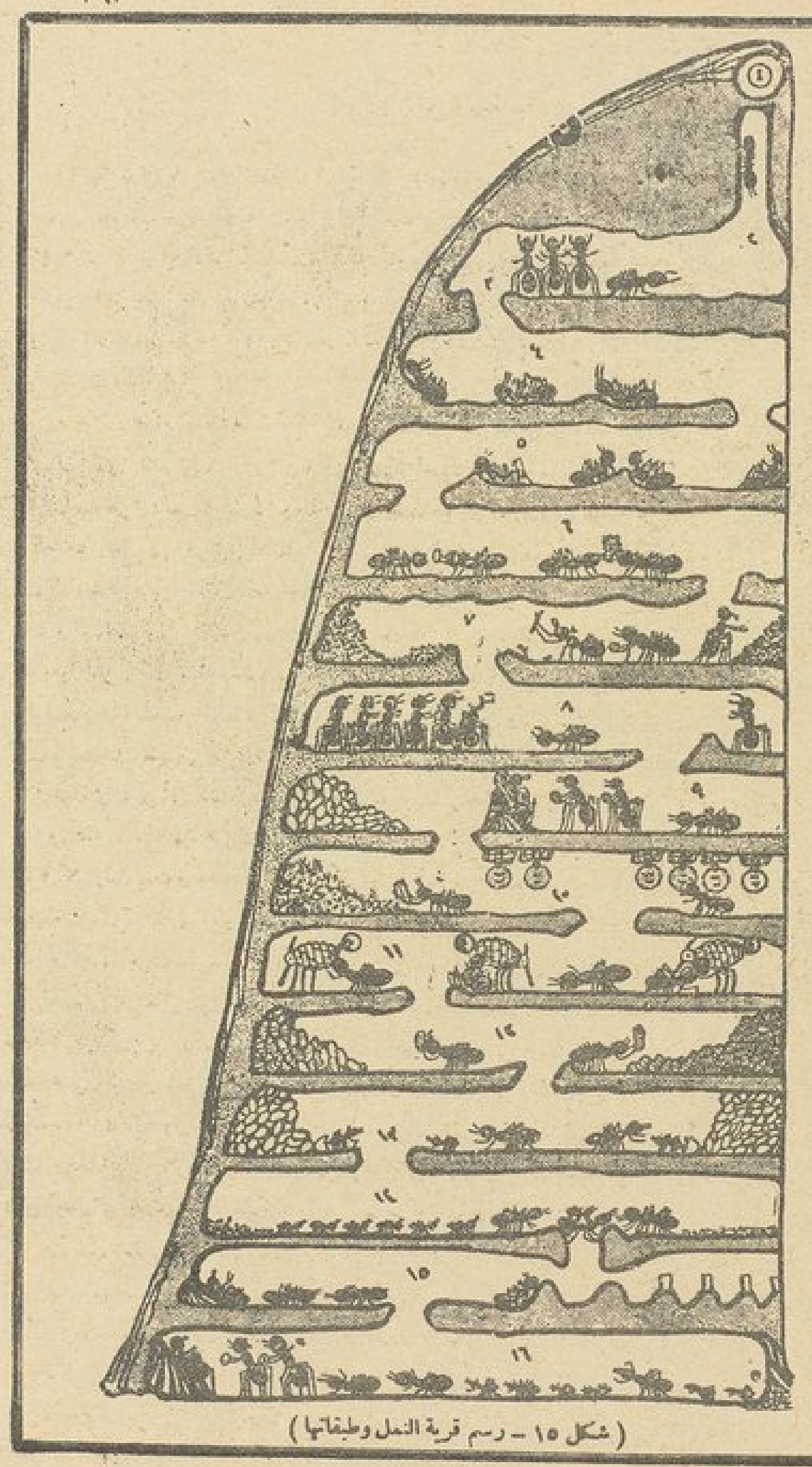


(شكل ١٤ ــ رسم مستعمرة النمل وهى أربعة مساكن)

(ا) الأعمدة التى رفع السقف عليها . (ب) البهو الكبير العظيم الاتساع . (ج) الحجرات الثلاثة الداخلة المتصلة بالبهو . (د) أجزاء من الحائط . (ه) للمدخل الموصل لمسكن . (و) الطرق الموصلات من مسكن إلى مسكن .

انتهى ليلة الثلاثاء (٤) اكتوبر سنة ١٩٢٦ م من (لونجمان) الجزء الرابع . هذا، وإن أحسن مساكن النمل وأجملها فيما رأينا هذه الصورة (شكل ١٥) أنظره فى الصفحة التالية .

شكل



(شكل ١٥ ـ رسم قرية النمل وطبقاتها)

قرية النمل وطبقاتها

(١) باب القرية . (٢) نملة تدخل القرية . (٣) الحرس لمنع دخول الغريب . (٤) أول طبقة لراحة العمال فى الصيف . (٥) الطبقة الثانية لراحة العمال فى الصيف أيضا . (٦) مكان تناول الغذاء .
(٧) مخزن تدخر فيه الأقوات . (٨) ثكنة لجنود النمل . (٩) الغرف الملوكية حيث تبيض ملكة النمل .
(١٠) إصطبل لبقر النمل مع علفه . (١١) إصطبل آخر لحلب البقر . (١٢) مكان لتفقؤ البيض عن الصغار .
(١٣) صغار النمل وبيضه . (١٤) صغار النمل . (١٥) مشتى للنمل ، وفى اليمين جبانة لدفن من يموت .
(١٦) مشتى للملكة .

واعلم أن ماتقدم الآن هو شرح لما فى الصورة المتقدمة أى شكل ١٥ .

ثم إنه لما اطلع على هذا أحد الفضلاء قال لقد أحسنت صنعا وشرحت صدرا وأشعت للعلم ذكرا . إنك قد شرحت طرق النمل ومزارعه ومساكنه وأفضت فيه ورسمته وأديت الواجب فى ذلك ، فلم لم ترسم نفس النملة حتى نطلع على أجزائها وأعضائها وندرسها حق دراستها . فقلت له لقد طال المقال وأنا أحب الاختصار لأن المقام مقام تفسير ، فقال عجبا لجوابك وماأقربه إلى المواربة ، كيف اعتنيت بالعرض وتركت الجوهر . إنك أريتنا نفس مزارع النمل ورسمت الطرق والمساكن والطرقات والمستعمرات بل ذكرت عدد الأرجل والأجزاء التى ركبت منها النملة وهى ثلاثة وذكرت درجاتها الأربعة فى النمو ، فلم رأيناك رسمت المساكن والمزارع وتحاشيت رسم النملة . فقلت له إن النملة يعرفها الناس ولكنهم قط لم يعرفوا مساكنها ولامزارعها ، وإنى أقول لك الحق إنى كنت مذ أمد قد رأيت رسم الزراعة فى الكتب الانجليزية ثم مضت عشرات السنين وأنا أقول فى نفسى أين هذا الرسم ، ولما قرب طبع تفسير هذه السورة وقع الكتاب فى يدى مصادفة فسررت جدا ورسمته ، أما النملة فان الناس يعرفونها . فقال كلا . إن الناس لايعرفون النملة إلا كما يعرفون أجسامهم فهم فى كل وقت يغدون ويروحون ولايفكرون فى أجسامهم وعجائبها . فكل يقول أنا أعرف النمل وهو لايعرفه ، ومن ذا الذى رأى أرجلها الستة أو عضويها الحساسين النابتين فى جانبى رأسها ، فرسم هذا الحيوان يجعلنا نعرف أجزاءه ، إن المسلمين أصبحوا فى أخريات الأمم بما فرطوا فى هذه العلوم ، وياليت شعرى كيف يسمى الله تعالى سورة باسم النمل وأخرى باسم العنكبوت والمسلمون يجهلون الحشرات ومنها النمل وهكذا العناكب . إن رسم النمل والعنكبوت وأمثالها يسهل على المسلم فهم الحيوان ودرسه ، والذى يخيل لى أنك تخشى اعتراض بعض الفقهاء فى التصوير ولشدة حرصك على رضاء جميع المسلمين راعيت المتشددين فيهم وأنت إذا فعلت ذلك وراعيته فقد تركت الواجب وكيف تخشى ذلك وقد ألف أحد المفتين بمصر رسالة فى جواز ذلك (هذا المقام مستوفى فى سورة يونس فراجعه) فقلت له الأمر لايحتاج إلى فتوى ولا إلى تأليف رسالة ومن أجهل ممن يفترى على الله الكذب ويحرم ما هو واجب وجوبا عينيا أو كفائيا .

إن هذه العلوم إما واجبة وجوبا عينيا لازدياد الشكر لله تعالى ، ومعلوم أن الشكر علم وعمل وهذا هو العلم المحبب فى الله المعرف لقدره فالاطلاع على هذه العلوم يزيد فى معرفة الله وفى شكره وهذا واجب على القادر أى أن الزيادة فيه واجبة على من يقدر وإما فرض كفاية من حيث منافعها العامة كما تقدم فى سورة المائدة مشروحا عن الإمام الغزالى مفصلا .

ولما ترك المسلمون دينهم وأصوله وعجائب صنعه قيض الله لهم الفرنجة فأذلوهم ليرجعوا للعلوم . فقال زدنى

فى هـذا الموضوع . قلت أنت تقول إن للفتى ناصرى أفتى بالجواز وأنا أقول لك هو واجب ومن حرم من المسلمين الواجب فهو معتوه ولم يرد فى الكتاب ولا فى السنة تحريم النظر إلى الظل . فقال وهل الصورة ظل فقلت إن هذه الصور التى يأخذها المصورون لم يصورها أحد بل صورها الله ، ألا ترى أنها عبارة عن أشعة شمسية ظلية واصلة إلى خزانة المصور فيثبتها فى لوحة ، فهذه الأشعة أو الظلال من الشمس تثبيتها فى ورقة لم يخرجها عن كونها ظلا ولم يخرجها عن كون الله هو نفسه الذى رسمها بشمعه . أليس من عجب أن الناس يحتاجون لفتوى على جواز النظر إلى الظل ، وإذا جاز لنا النظر إلى ظل الأشجار فهل يحرم علينا تكرار النظر إليه . فقال . كلا : قلت هكذا هنا هذا ظل أثبتناه ونظرناه فحكمه لم يتغير .

يقول الله تعالى « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال » جعل الله الظل ساجدا لربه ، وقال فى آية أخرى « ولو شاء لجعله ساكنا » أى الظل وقد أسكن الله الظل فى هذا الزمان بالتصوير وإنما أسكنه الله فى الأرض ليوقظ الناس للعلوم فإن رسم الأشكال يوضح المخلوقات ويظهر عجائبها وأعضاءها وبدائعها ، ومن ذا الذى لا يتعجب حينما يرى أن عين النحلة ترى فى المنظار أعينا تبلغ المئات عدا . يراها الإنسان رأى العين وقد رأيتها أنا بنفسى . هذا هو الظل الساكن الذى أشار الله له فى القرآن . فهذه الظلال قد حفظت لتزيد الناس علما بجمال الله وحكمه وبدائعه والمسلمون وحدهم هم النائمون .

فقال صاحبى لقد أقمت الحجة على نفسك فلماذا إذن أحجمت عن رسم هذه الصور وأنت موقن أن التصوير الذى جرى الكلام فيه هو المجسم . فأما هـذا فليس تصويرا ألبتة وإنما هو ظل . فقلت وأزيدك أيضا أن الإنسان يرى صورته فى المرآة وهو جائز . قال نعم . قلت فهل إذا دامت الصورة محفوظة فى المرآة يحرم ذلك . قال . كلا . قلت فالناس بحثهم فى الصور الشمسية قد رجعوا إلى البلاهة والجهود المحزن . قال إذن قد اتفقنا فأنا أقول إن التصوير جائز وأنت تقول فوق ذلك إن هـذا لا هو تصوير ولا هو رسم بل هو ظل الله أثبتناه فأنا أنتظر منك أن ترسم لنا أشكال الحيوان متى لزم . قلت إن شاء الله عسى أن يكون قريبا (هذا الموضوع كتب قبل أن أشرحه فى سورة يونس) .

هذا ، ثم إن هذه اللطائف الأربع وماجاء بعدها الواردة فى عجائب النمل وتركيبه تعرف معنى قوله تعالى « فتبسم ضاحكا من قولها » وأخذ يدعو الله أن يوفقه . وأنت أيها الذكى إذا اطلعت على هذا فاعلم أنه نعمة لك من الله بسبب القرآن وادع الله أن يلهمك أن ترشد الأمة الإسلامية وتنذر عشيرتك الأقربين وتفهم من حولك من المسلمين حتى لا يذلوا وحتى يعرفوا نعمة الله تعالى . ولما كانت العلوم بها تكون سعادة الحياة ونظام الدول أتبع ذلك بقصة الهدهد كما قدمنا فإن الأمم لا دول لها ولا نظام إلا بالعلم والعلم يتبعه العمل الذى طلب سليمان أن يوفق له . فانظر كيف أعقبه الله بقوله (وتفقد الطير) وتعرف الطيور فلم يجد فيها الهدهد (فقال مالى لا أرى الهدهد) لأنه محجوب عنى بساتر أو نحو ذلك (أم كان من الغائبين) بل أكان غائبا عنى . وإيضاحه أنه لما لم يره ظن أنه حاضر ولا يراه لمانع ماء فقال مالى لا أرى الهدهد » ثم لاح له أنه غائب فأضرب عن ذلك وأخذ يقول بل أهو غائب ؟ ثم قال (لأعذبنه عذابا شديدا) كنتف ريشه وكجعله مع ضده فى قفص (أو لأذبحنه) ليعتبر به غيره (أو ليأتينى بسلطان مبين) بحجة تبين عذره . والمعنى أنه يفعل معه أحد الأولين على تقدير عدم الثالث (فمكث غير بعيد) زمانا غير مديد أو مكثا غير طويل كما تقول عن قريب . فلما رجع سأله عما لقى فى غيبته (فقال أحطت) علمت شيئا من جميع جهاته (بما لم تحط به) يعنى بحال سبأ التى لم تحط بها . وفى هذا الخطاب من الهدهد مكافحة لسليمان دلالة على أن الأنبياء وغير الأنبياء فى الأرض قد يخفى عليهم

ما يعرفه غيرهم . ونظير ذلك ماتقدم في (سورة الكهف) من قول الخضر لموسى مامعناه « ما علمي وعلمك وعلم الخلائق بالنسبة لعلم الله إلا كما أخذ الطائر بمنقاره من هذا البحر » فهناك أفاد أن علم الخلائق قليل بالنسبة لعلم الله وهنا أفاد أن أعاظم علماء الأرض قد يجهلون مايعلمه أحقر المخلوقات . كل ذلك ليعرف الناس أقدارهم وليتعلم الإنسان من كل أحد وأن ذلك حق من للأمم الإسلامية أن يعلموا سائر الناس وأن يشغلوا كل واحد فيما اختصه الله به من القوى والادراك والعمل كما سخر سليمان الهدهد لمعرفة الخبر فسليمان يعجز عن الاتيان بخبر سبأ وعظماء الدول الإسلامية المستقلة يجب عليهم أن يوزعوا الأعمال على الناس ويشغلوا كلا بما يناسبه . وإذا كان سليمان استعان بالهدهد فليستعن عظماء أمة الإسلام بجميع الشعب وليعلموه وليجعلوا كلا مختصا بما خلق له وقد أوضحنا هذا في (سورة البقرة) عند قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » فعلى عظماء أمة الإسلام أن يستخرجوا كنوز الآراء وجواهر الأعمال من جميع الأفراد من انسان وحيوان فللنمل مزية ليست في الهدهد ، وللهدهد مزية ليست في الإنسان ، ولكل إنسان مزية ليست في غيره وهكذا الحيوان ومنها ما قاله الهدهد لسليمان (وجئتك من سبأ بنبأ يقين) بخبر محقق ، وسبأ هو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان . وسئل ﷺ عن سبأ فقال رجل له عشرة من البنين تيامن منهم ستة وتشاءم أربعة ، ولما قال الهدهد « بنبأ يقين » قال سليمان وما ذاك؟ قال له (إني وجدت امرأة تملكهم) وهي بلقيس بنت شراحيل من نسل يعرب بن قحطان ، وسيأتي في سورة سبأ تحقيق أمرها وأمر سبأ أجمعين وهي من نسل يعرب بن قحطان ، والضمير في « تملكهم » لسبأ (وأوتيت من كل شيء) يحتاج إليه الملوك (ولها عرش عظيم) أي سرير كبير ، ويقال إنه كان من ذهب وفضة مرصع بأنواع الجواهر قوائمه من ياقوت أحمر وأخضر ودر وزمرد وعليه سبعة أبيات وعلى كل بيت باب مغلق (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله) فهم كانوا يعبدونها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) عبادة الشمس وغيرها من الأفعال والاعتقادات التي لا تليق (فصدهم عن السبيل) سبيل الحق والصواب (فهم لا يهتدون) إليه ، وقوله (ألا يسجدوا) بدل من أعمالهم أي فزين لهم الشيطان أعمالهم ثم بينها بامتناع سجودهم لله أي زين لهم عدم السجود الخ . وقرىء « ألا » بالتخفيف وهي للتنبيه ويا للنداء أي يا قوم واسجدوا فعل أمر (لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون) وصف الله بما يوجب تفرده بوجوب السجود له وذلك أنه يظهر الخبء وهو كل ما خفي في غيره ؛ فإشراق الكواكب وإنزال المطر وإنبات النبات وإيجاد المخلوقات كل ذلك إخراج لما اختبأ عن الأنظار بالظلام والسحاب وباطن الأرض وحالة الامكان فان العالم كان خبئا في حال الامكان فظهر بالايجاد وكما أنه يظهر مااختبأ يعلم مايخفى ويظهر فقدرته عامة في كل ممكن وعلمه عام في الممكنات والواجبات والمستحيلات ثم ذكر عظمة الله وأبان فضلها على عظمة عرش بلقيس فانه إذا شملت قدرته كل شيء وأحاط علمه بكل شيء فلا جرم يكون عرشه أعظم العروش ولذلك قال (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) ولقد نكر عرشها وعرف عرش الله إشعارا بما ذكرناه ، وتقدم في [هود] وفي [يونس] معنى العرش وعظمة عرشها بالنسبة إلى ملوك الدنيا وعظمة عرش الله بالنسبة إلى جميع المخلوقات (قال سننظر) سنتصرف ونتأمل (أصدقت أم كنت من الكاذبين) لأننا لا نأخذ القضايا مسلمة ولا نعمل إلا بعد تجربة واختبار وامتحان كما هو شأن ملوك الأمم المدبرين للممالك العظيمة (اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم) تنح عنهم إلى مكان قريب تتوارى فيه (فانظر ماذا يرجعون) ماذا يرجع بعضهم إلى بعض من القول (قالت يا أيها الملؤا) بعد ما ألقي إليها (إني ألقي إلي كتاب كريم) الكريم مضمونه ومرسله ولغرابة شأنه لأن الهدهد ألقاه من كوة على نحرها فهذا وجه الغرابة فقبل لها ممن هو فقالت (إنه من سليمان) إن الكتاب من سليمان (وإنه) أي المكتوب أو المضمون (بسم الله

الرحمن الرحيم) المقصود (ألا تعلوا علىّ) ألا تتكبروا على ولا تمتنعوا من الاجابة (وائتونى مسلمين) منقادين وهذا الكتاب فيه وصف الله بصفات الكمال والأمر لهم بعدم الكبرياء والطاعة (قالت يا أيها الملؤا أفتونى فى أمرى) أشيروا على فيما عرض لى (ما كنت قاطعة أمرا) قاضيته وفاصلته (حتى تشهدون) تحضرون (قالوا نحن أولوا قوة) بالأجساد والعدد (وأولوا بأس شديد) نجدة وشجاعة (والأمر إليك) أيتها الملكة فى القتال وتركه (فانظرى ماذا تأمرين) تجدينا مطيعين لأمرك (قالت) بلقيس مجيبة لهم على ما أظهروا من الميل إلى المقاتلة بما أظهروا من قوتهم المادية وعددهم وعددهم ، قائلة لهم إن سليمان إن قاتلناه ربما دخل بلادنا فأضر بالأنفس والأموال والقرى والضياع وهذا قوله تعالى (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة) بنهب أموالهم وتخريب ديارهم وإهانتهم وأسرهم (وكذلك يفعلون).

يقول الله إن هذه هى صفة الملوك الفاتحين وهو الحاصل الآن فى مصر والشام وبلاد العراق وطرابلس والجزائر ومراكش ، فكل هذه البلاد لجهل أهلها دخل الفرنج بلادهم وأذلوهم وقهروهم والجهل عام وعسى الله أن يرجع لهذه الأمة مجدها واستقلالها ، ثم قالت (وإنى مرسلة إليهم) رسلا (بهدية) أدفعه بها عن ملكى (فناظرة بم يرجع المرسلون) من حاله حتى أعمل بحسب ذلك ومرادى بذلك أن أختبره أملك هو أم نبى فان كان ملكا قبل الهدية ورجع ، وإن كان نبيا لم يقبل الهدية ولم يرضه منا إلا أن نتبعه فى دينه وبلقيس قالت ذلك لأنها كانت لبيبة عاقلة قد قاست الأمور وسبرتها فأهدت له وصفاء ووصائف وألبست الغلمان لبس الجوارى بأن جعلت فى أيديهم الأساور من الذهب وفى أعناقهم أطواق الذهب وفى آذانهم أقرطة وشنوفا مرصعات بأنواع الجواهر وحملت الجوارى على خمسمائة رمكة والغلمان على خمسمائة برذون وأهدته حقا فيه درة غير مثقوبة وجزعة معوجة الثقب وبعثت إليه لبنات من الذهب ولبنات من الفضة وتاجا مكللا بالدر والياقوت وأرسلت له المسك والعنبر والعود اليلنجوج ودعت المنذر بن عمرو ومعه أشراف قومها وكتبت مع المنذر كتابا تذكر فيه الهدية وقالت إن كنت نبيا ميز بين الوصفاء والوصائف وأخبرنا بما فى الحق قبل أن تفتحه واثقب الدرة ثقبا مستويا وأدخل فى الخرزة خيطا من غير علاج ، وأمرت الغلمان والجوارى أن يتشبه كل منهما بالآخر وقت مخاطبته لهم وقالت للرسول إن نظر إليك نظر غضب فهو ملك فأنا أعز منه وإن قابلك ببشاشة ولطف فهو نبى فلما وصلوا إلى معسكره وعظم شأنه تقاصرت إليهم نفوسهم واستصغروا لبنات الذهب والفضة فى جانب ما رأوا من الأبهة والعظمة فوضعوها فى فرج قد تركها النبى سليمان على قدر ما أحضروا من اللبنات فلما وقفوا بين يديه تلقاهم بالبشر والقبول والأنس وسألهم عن حالهم وأعطوه الكتاب ، فقال أين الحق ؟ فلما رآه قال إن فيه درة ثمينة غير مثقوبة وخرزة معوجة الثقب فأمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فى الدرة وأمر دودة بيضاء فأخذت الخيط ونفذت فى الجزعة ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى ثم تضرب به وجهها والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ثم رد الهدية (فلما جاء) الرسول (سليمان) وحصل ما تقدم ذكره من ثقب الدرة وغيره (قال) للمنذر بن عمرو ومن معه من أشراف قومها (أتمدونن بمال) وأنا لم أرسل للمال والمال زائل إنما أرسلت لأعلم الناس الحكمة وأهديهم الصراط المستقيم (فما آتانى الله) من النبوة والملك كما رأيتم بأعينكم (خير مما آتاكم) لأنكم لم تؤتوا إلا ملكا أقل من ملكى وأنا أوتيت الملك والنبوة (بل أنتم بهديتكم تفرحون) ولا يفرح الأنبياء والمؤمنون إلا بفضل الله ورحمته ، فبذلك فليفرح العقلاء هو خير مما يجمعون من المال (ارجع إليهم) أيها الرسول (فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها) لا طاقة لهم بمقاومتها ولا قدرة بهم على مقاتلتها (ولنخرجنهم منها) من سبأ (أذلة) بذهاب ما كانوا فيه من العز (وهم صاغرون) أسرى مهانون (قال يا أيها الملؤ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين) لأطلعها على بعض ما أنعم الله به علىّ من العجائب

النبوة والآيات الإلهية لتعرف صدق نبوتى ولتعلم أن ملك الدنيا فى جانب عجائب الله وبدائع قدرته يسير وأن حكمة الله أوسع مما يشاهده الناس من آثارها من مجرى العادة وأيضا لأختبر عقلها حين أنكر عرشها .
ولما كانت الأرواح الأرضية والسماوية جميعا قسمين : قسم نورانى إلهى وقسم ظلمانى أرضى والأول أوسع علما وقوة والثانى محدود العلم والقدرة لافرق فى ذلك بين الأرواح التى فى أجسامها فى الأرض والأرواح التى جردت من مادتها سواء أكانت خارجة من عالمنا هذا أم لم ترد له بل عاشت فى عالم الأرواح ولم تسكن أرضنا .

هذه قاعدة مطردة تجدها فى كتب الأنبياء، وفى علم الأرواح الحديث الذى ملأ الأقطار وشرحناه مرارا فى هذا التفسير بحيث إن الروح الذى كان فى أرضنا وخرج من جسمه يصبح وقوته وعلمه على مقدار أخلاقه وصفاته رفعة وضعة وهكذا جميع الملائكة، منهم من هم فى أعلى مقام، ومنهم من هم أقرب إلى عالمنا « وما منا إلا له مقام معلوم » فكل روح غلبت عليها الآراء الأرضية والأحوال المادية يقل علمها وقدرتها على مقتضى ذلك ، وكل روح تجردت من أخلاق أهل الأرض والأحوال المادية وكانت ذات أخلاق إلهية وحب علم ورفعة شأن واقتراب من النور الأعلى كانت همتها وعلومها أوسع على مقدار ما اتصفت به من ذلك «وأن إلى ربك المنتهى» ولا يشفى غلتك فى هذا إلا أن تطالع [كتاب الأرواح] الذى ألفته فى ذلك ، إذا عرفت ذلك فانك تفهم قوله تعالى (قال عفريت من الجن) أى خبيث مارد قوى داهية وكان مثل الجبل يضع قدمه عند منتهى طرفه (أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك) أى مجلس قضائك وكان يقضى كل يوم فى الغداة إلى نصف النهار (وإنى عليه) على حمله (لقوى أمين) على مافيه من الجواهر وغيرها ، فلما سمع سليمان ذلك قال أريد أسرع من ذلك لأنه يعلم أن فى الأرواح من هو أقدر على إحضاره فى أقرب من ذلك كما علمت مما فصلناه لك لأنهم درجات كما فهمت (قال الذى عنده علم من الكتاب) وهو الذى صفت نفسه من ظلمات هذه الأرض وتباعد عن الكبر والحسد والظلم وجميع مافى عالم المادة وهو مغرم بالعوالم العلوية فهو أرقى من ذلك العفريت من حيث إشراق نفسه وصفاء باطنه ، هذه صفات الذى عنده علم من الكتاب فسواء أكان هو جبريل أو ملك آخر أو آصف بن برخيا الذى هو صديق يعرف اسم الله الأعظم أو سليمان نفسه وسواء دعا الله بقوله «ياذا الجلال والاكرام» أوقال «ياحى ياقيوم» كما قالت عائشة أوقال «ياإلهنا وإله كل شىء إلها واحدا لا إله إلا أنت ائتنى بعرشها» أوغير ذلك فالأصل واحد هى نفس مشرقة ملكية أوإنسية توجهت إلى الله بأى اسم كان أو بهمتها فالمدار على الهمم والنفوس الصافية ولا صفاء إلا بالتعالى عن أحوال المادة فلا يهمك التفصيل بتعيين الذى أحضره ولا بالدعاء الذى دعا به وقد أدركت سر الحقيقة .

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فدع زيدا يقول فى المجالس بأن سليمان مد عينيه ونظر إلى اليمن ودعا آصف فبعث الله الملائكة فحملوا السرير يجرون به تحت الأرض حتى نبع من بين يدى سليمان ، ودع عمرا يقول خر سليمان ساجدا ودعا باسم الله الأعظم فغاب العرش تحت الأرض حتى ظهر عند كرسى سليمان فقال ماقال (أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك)، أقول قد عرفت الحقيقة وستعرف أن هذه القصة من أكبر معجزات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والقرآن فاق ماسأتلوه لك فى شأن نقل الأمتعة من أماكنها بطريق غير طريق المعجزات وإنما هو بطريق الأرواح واستحضارها أصبح معروفا .

إن هذه القصة ذكرها الله فى القرآن وقد علم أن الأمم ستعرف هذه العجائب فأودع هذه المعجزة فى الكتاب ليزيد المسلمون علما وحكمة وليبحثوا عن عجائب صنع الله ، فلئن نقل عرش بلقيس بطريق المعجزة التى لايهتدى

إليها الناس فسترى كيف تنقل الأرواح الأمتعة من أماكنها على أيدى أكابر الحكماء والفلاسفة فى أوروبا ، ولترى أن هذا القرآن فيه أصول العجائب أودعها فيه لهذا الزمان حتى لا يفر المسلم من علم الأرواح وعلم الأرواح يقصد منه تقريب نفوسنا وتمرينها على ذلك العالم الجميل حتى لا تنفر من الموت ولا تفر من الأرواح إذا وردت إليهم وتفرح بالموت وتفرح بلقاء الله ، فليجد فى هذا العلم المسلمون حتى يهتدوا بهدى سليمان ، وهل ذكرها الله فى القرآن إلا لهذا ؟ إن سليمان عليه السلام أوحى إليه أن يوجه همته إلى إحضار عرش بلقيس بطريق العوالم اللطيفة الروحية فحضر العرش (فلما رآه مستقرا) حاصلا بين يديه (قال) وقد تلقى النعم بالشكر على مقتضى سنن المخلصين من عباد الله تعالى (هذا من فضل ربى) تفضل به علىّ من غير استحقاق، والإشارة إلى التمكن من إحضار العرش فى مدة ارتداد الطرف من مسيرة شهرين بنفسه أو غيره (ليبلونى أأشكر) بأن أراه فضلا من الله بلا حول منى ولا قوة (أم أكفر) فلا أشكرها وأنسب العمل لنفسى فلامال ولا جاه ولا ذكر حسنا فى هذه الدنيا ولا علم ولا حكمة إلا والله يبتلى العبد بها لأن ذلك كله تربية الخلق . فالنعم الجسمية والنعم الروحية والعقلية كلها مواهب يمتحن الله الناس بها فمن ضل بها هوى ومن شكرها ارتقى (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه) لأن ذلك يستجلب لها دوام النعمة (ومن كفر فان ربى غنى) عن شكره (كريم) بالانعام عليه (قال نكروا لها عرشها) بتغيير هيئته وشكله (ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون) إلى معرفته وإلى الإيمان بالله ورسوله حينما ترى أن عرشها تقدمها وقد خلفته مغلقة عليه الأبواب موكلة عليه الحراس فمتى عرفت أنه هو عرشها كان ذلك داعية للإيمان فمعرفة العرش مقرونة بالإيمان لأن المعجزة مقرونة بسبقها إلى سليمان فالمدار على العقل والذكاء والفطنة (فلما جاءت قيل أهكذا عرشك ؟) وذلك لامتحان عقلها والتشبيه عليها لأنهم ذكروها عنده بسخافة العقل (قالت كأنه هو) ولم تقل هو هو لاحتمال أن يكون مثله وذلك من كمال عقلها ، ولما ظنت أنه أراد بذلك اختبار عقلها وإظهار معجزة لها قالت (وأوتينا العلم) بكمال قدرة الله تعالى وصحة نبوتك (من قبلها) من قبل هذه المعجزة (وكنا مسلمين) منقادين خاضعين لأمر الله ولأمر سليمان (وصدها ما كانت تعبد من دون الله) أى صدها سليمان أو الله عما كانت تعبد من دون الله وحال بينها وبينه (إنها كانت من قوم كافرين) يقول الله تعليلا لعبادتها غير الله التى صدها عنها أنها نشأت بين قوم يعبدون الشمس ولم تعرف إلا عبادتها ، وعبادة الشمس وعبادة الكواكب قد شغلت عقول الأمم أجيالا وأجيالا لأن الله أكبر من كل شىء ، فإذا كانت الشمس إلها فلا يبحث الناس عن أكبر منها ، ولما نزل الإسلام والديانات التى حرمت عبادة الكواكب بحث الناس فى أمر الكواكب فرأوا الشمس أقل شأنا من غيرها وأن الله تعالى يريد إيقاظ العقول وترقية النفوس البشرية بمثل هذه الديانات التى ترتفع عن المادة من حيث الخلق ومن حيث العبادة وقد تقدم هذا فى سورة الأنعام . إلى هنا تم اختبار عقلها وعرف أنها ذكية ، هنا لك تبدى له أن يعرف ساقيها لأنه قيل له إن رجليها كحافر حمار ، ولما كان الله تعالى لطيفا حكيما لا يكشف الستر ولا يفضح فكانت هذه الأخلاق سنشنة الأنبياء والحكماء والملوك العظام فلا يفضحون أحدا ولا يخزونه بل يتلطفون فيما يريدون . بنى قصرا من زجاج أبيض وأجرى من تحته الماء وألقى فيه حيوانات البحر ووضع سريره فى صدره فجلس عليه فلما أبصرته ظنته ماء راكدا فكشفت عن ساقيها وهذا قوله تعالى (قيل لها ادخلى الصرح) القصر (فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه) إن ما تظنينه ماء (صرح ممرد) مملس (من قوارير) من زجاج وليس بماء فحينئذ سترت ساقيها وعجبت من ذلك وزاد علمها أن ملك سليمان من الله تعالى واستدلت بذلك على التوحيد والنبوة (قالت رب إنى ظلمت نفسى) بعبادة غيرك (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) أى أخلصت له التوحيد والعبادة

وهل تزوجها هو من بعد أن اتخذ الحمام والنورة لأجلها فأزيل شعر رجلها وأحبها حبا شديدا وصار سليمان يزورها كل شهر بأرض اليمن فى حصونها أم لم يتزوجها بل زوجها إلى ذى تبع ملك همدان ؟ وليس فى معرفة الحقيقة كبير فائدة ولكن الرأى الثانى أصح . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة ، وهنا [أربع لطائف] :

(١) فى الهدهد الذى أحاط بما لم يحط به نبى علما .

(٢) وفى قول بلقيس « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » .

(٣) وفى قول سليمان « فما آتانى الله خير مما آتاكم » .

(٤) وفى قوله تعالى « قال عفريت من الجن » الخ .

﴿ اللطيفة الأولى فى الهدهد الذى أحاط علما بما لم يحط به نبى مع ذكر بعض أنواع الطيور وأن هذه تشمل عجائب الأسرار فى « طس » ﴾

تفقد فعل ماض والطير مفعول والفاعل ضمير يعود على سليمان ، وقد قلنا فى هذه السورة إن السين هى أول حروف سليمان والطاء أول حروف الطير ، فهنا اسمان : وهما سليمان والطير وفعل هو تفقد ونحن أمرنا بالاقتداء بالأنبياء . ألاترى إلى قوله تعالى « فبهداهم اقتده » نبينا أمر بالاقتداء بهم وسليمان من المقتدى بهم فأنا مأمور بالاقتداء بهم والاقتداء لا يكون فى الأسماء وإنما يكون فى الأفعال والفعل تفقد ، فهذه الحروف الأربعة التاء والفاء والقاف والدال هى السر المصون والجوهر المكنون هى الحروف التى وقعت بين الطاء والسين طاء الطائر وسين سليمان وهما الرموز لهما بما فى أول السورة «طس» . علم الله أن أمة الإسلام ستنام حوالى (٩٠٠)سنة . نامت الأمم الإسلامية بعد العصور الأولى . ثلاثة قرون هى التى نبغت فيها الأمم الاسلامية فحركت أهل الأرض كلهم وماج المسلمون شرقا وغربا ثم ناموا ، ولكن كان فيهم أولوا بقية فى العلم والدين فظهروا وبهروا وقتا دون وقت وبقية الأمم الاسلامية نائمون هائمون على وجوههم جاهلون بجمال ربهم عاكفون على الرئاسات وطلبها والأموال وجمعها وقد أيقظ الله حولهم أهل أوروبا والصين واليابان وأهل أمريكا الذين لم يكونوا منذ (٤٠٠) سنة إلا أمما دبت فيهم الهمجية والجهل العميم وبقى المسلمون بين هؤلاء وهؤلاء لاهم فى العير ولا فى النفير فأنعم الله عليهم [بنعمتين] نعمة الكوارث والحوادث والأوصاب الحالة فيهم من الأمم المحيطة بهم والطيارات المحلقة فوقهم والمدافع الموجهة إليهم واستنزاف ثروتهم وضياع ملكهم وتعييرهم بالجهالة والتعدى على الدين وعلى المجد وعلى الملك ، ونعمة العلم الذى يدلف إليهم من الأمم حولهم ومن المؤلفين الذين يقومون بنشر الحكمة والعلم بينهم ليوجهوا هممهم إلى ما أحاط بهم . واعلم أن الكوارث والمصائب الحالة بالأمم الاسلامية لا تفيدهم مالم يذكرهم بها المذكرون ويرشدهم لها المرشدون ، ومن المنذرات المبشرات هذا التفسير ، وها أنا ذا أذكر المسلمين بقوله تعالى « وتفقد الطير » وقد بينت أنى مأمور أن أتفقد تفقد سليمان الطير . ولما خاطب الهدهد قال له « وجئتك من سبأ بنبأ يقين » إذن التفقد يكون من نتائجه اليقين وما الذى جاء به ؟ جاء به الطير المتفقد ، وتفقد إبراهيم النجوم والشمس والقمر بعد أن كسر الأصنام فقال الله فيه « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » وتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم النبات والطير ليعلم أصحابه كما فى حديث البخارى إذ أخذ يسألهم عن شجرة شبه المسلم فأخذوا يتفكرون فى شجر البوادى فلم يصب فى الاجابة إلا ابن عمر ولكنه خجل أن يجيب فأجاب صلى الله عليه وسلم بأنها النخلة لأنها تموت إذا قطع رأسها ومن رأسها تشرب ، ثم قال ابن عمر لأبيه لقد وقع فى قلبى أنها النخلة فأسف عمر على أنه لم يقله لرسول الله صلى الله علية وسلم ، فأما تفقد رسول الله صلى الله

عليه

عليه وسلم الطير فإنه ضربها مثلا إذ قال « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا » . فهذا التفقد للسموات فى قصص إبراهيم ونحوه ولشجر الوادى والطير من رسول الله صلى الله عليه وسلم والطير من سليمان ، كل ذلك تذكير لنا أن نتفقد كل شىء فلا نذر كوكبا ولا شمسا ولا قمرا ولا طيرا ولا حجرا ولاشجرا إلا تفقدناه وهذا أمر واجب وهذا الوجوب يختلف باختلاف الأشخاص ، وإنما قلت إنه واجب لأنا مأمورون بالشكر ومأمورون بالنظر ومأمورون بالفكر ولا شكر إلا بعلم ولا علم إلا بنظر ولا نظر إلا بالتفقد . إذا ظن المسلم أنه بقوله أنا آمنت بالله أو أيقنت بالله قد أتم ما عليه فهو مغرور سرى له هذا الغرور من شيخه الذى لقنه العلم فأوقفه عند حد محدود فحصر عقله وكبله فكبلت الأمة كلها وأحاطت بها الأمم وزملتها ودثرتها وأنامتها ، فبعض شيوخ العلم وبعض شيوخ الطرق يلقنون تلاميذهم : ألا تقرءوا الكتب غير مالقناكم ، ونحن نقول . كلا . أيها المسلمون تفقدوا كل شىء ، ألم يتفقد سليمان الطير ، ولماذا أنزل إلينا هذا القول ، ولماذا رمز الله لنا بالطاء والسين فى أول السورة ، لماذا يقول الله لنا فى أول السورة « طس » يقول لنا ذلك لأنه علم أننا سنكون أمة نائمة مئات السنين وسيأتى علينا هذا الزمان زمان العرفان والنورفيسأل الشبان قائلين لم ذكر الله « طس » وهذان الحرفان لامعنى لهما فأى فائدة فى ذكرهما فنحن نجيب بأن أمثال هذه الحروف جعلت أشبه بالمفاتيح لفتحما أغلق على المسلمين أجيالا وأجيالا واكتفائهم بكتب موروثة وعلوم محصورة ، وقدعمى أكثر الناس عن قوله تعالى « واشكروا لى ولا تكفرون » والشكر لا يتم إلا بعلم والعلم عام وعن قوله تعالى « وقل رب زدنى علما » فإذا كان النبى ﷺ أعلم الخلق بربه وأمر بازدياد العلم فما بالك بنا نحن فنحن مأمورون بازدياد العلم من باب أولى ، ولهذا كله الرمز بالحروف الأربعة الواقعة بين الفاعل سليمان ومفعوله الطير .

﴿ كيف يتفقد مؤلف هذا التفسير ﴾

أنا إلى الآن لم أتمم تفقد نفسى ولاتفقد العالم وأقول تفقدت نفسى وتفقدت السموات والأرض ومابينهما وماتحت الثرى وهذا مذكور فى هذا التفسير ، فأما نفسى فانى عجبت لها ، رأيتها لاتقف عند حد تهتز طربا لبهجة النجوم والشمس والقمر وتفرح بعلوم الليل والنهار والشجر والنجم وما فى باطن الأرض من المعادن والعجائب ، لم أجد لها نظيرا فى عالم الحيوان ، فكل طير قانع بما خلق له كما ستراه هنا ، فترى الطيور الدجاجية تحضن أولادها وتعتنى بصغارها مثل الحجل والحمام ، وترى الطيور ذات الأرجل الكفية كالبط فرحة بالحبوب والحشيش وكذا الأوز والبجع ، وترى الطيور الشاطئية تمد منقارها وعنقها الطويلين لتغتذى بالزواحف المائية مثل أبى قردان واللقلق فتفرح بذلك ولا تطلب غيره وهكذا الطيور المتسلقة المغتذية بالثمار والطيور التى تنقر الخشب تكتفى بالحشرات والطيور الدودية كذلك وهكذا الطيور الجارحة تأكل الطيور الأهلية والسمك وليس لها همة فوق ماعندها ، أرى هذه الطيور كل غاد ورائح يطلب ماخلق له فرح بما عنده عاكف على مالديه وأرى الزواحف كالسلاحف قانعة بما عليها من الدرقة التى تأوى إليها متى دهمها خطر أو أحست بعطب وهذه هى قلعتها وحصنها . وأرى التمساح من الزواحف اشتدت عنايته بما هو غاية أمنيته وهى بيضه الذى يدفنه فى الرمل على الشاطىء . وأرى الحرباء فرحت بما لديها من القدرة على التلون ومجاراة ماحولها فى لونه لتحفظ بذلك نفسها وهكذا مما لاتسعه هذه المقالة .

تفقدت نفسى فوجدتها مخالفة لهذه الحيوانات فلكل حيوان خاصية لايتعداها وهو بها فرح وهو بها فخور ، أما هذه النفس فانى وجدتها تسعى لتعرف كل شىء . فيأيتها النفس أخبرينى هل أنت كل شىء حتى تبحث

عنه ؟ فأجابتني قائلة نعم أنا قبسة من نور ربي . أنا مرسلة إلى هذه الأرض وكل نفس من نفوس بني آدم قد أرسلت إلى هذه الأرض ووضعت في هذه الأجسام وهذه الأجسام ماهي إلا آلات بها تصطاد المعاني من هذه العوالم وهذه العوالم بها غذاؤنا وشرابنا ولباسنا ومساكننا وحصوننا وبتحصيل ذلك تقوى عضلاتنا بالحركات وتقوى عقولنا بالتفكير وتبتهج نفوسنا بالجمال والزينة .

ثم إننا نذر هذه الأجسام في الأرض ونذهب إلى العوالم العليا وكل قد أخذ من الأرض زادا علميا وأخلاقيا على مقدار همته وهناك تكون الدرجات على مقتضى الهمم لاغير .

هذا كلام نفسي لي وهذا كله رمز الطاء والسين في أول السورة فطاء الطير وسين سليمان يفتحان لنا باب التفقد كما تفقد سليمان الطير وتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء فكان قبل صلاة الليل يقف وهو ينظر النجوم ويقرأ «إن في خلق السموات والأرض» الخ وتفقد الأمم أمة أمة فأرسل لهم رسله يدعونهم إلى الاسلام وبعد إرسال رسله أخذ يحاربهم ثم تمم أصحابه عمله فتفقدوا الأمم وجاسوا خلال أرضهم من بلاد فرنسا إلى بلاد الصين ثم ناموا ونحن أبناؤهم فأخذت الأمم تتفقدنا كما كان آباؤنا يتفقدونهم فأصبحنا عند تلك الأمم كالطير عند سليمان فسليمان تفقد الطير وآباؤنا تفقدوا الأمم وهذه الأمم أخذت تتفقدنا وقد قالوا (إن أبناء العرب من الأمم الاسلامية الآن قد رجع كثير منهم إلى سكنى القفار الموحشة والصحراء الكبرى ولا يعلمون أن آباءهم كانوا ملوكا لهم دول عظيمة) هذا من تفقدهم لنا . واعلم هداك الله أن هذا التفسير من مقدمات نهضات عظيمة سترج الأرض رجا وتقوم أمم عظيمة لايدري إلا الله مقدار عظمتها يعلمون أن هذه العوالم كلها كتاب من الله كتبه لنا ونحن قراؤه .

﴿ تذكرة بما اتفق لي أيام تلقي العلم ﴾

إن الذي كان له الفضل في مدرسة (دار العلوم) هو المرحوم علي باشا مبارك وزير المعارف ولقد كان يدخل الدروس بمدرستنا فرحا بنجاحه في إقامة هذه المدرسة . ولقد قال مرة (ليكن في يد كل منكم (كناش) يكتب فيه كل مايعن له من بناء شامخ أو طير سائح أو نور باهر أو جمال ظاهر أو حادثة غريبة أو مسألة عجيبة فإن ذلك يكون عدة له وحكمة تنفعه وقد انتفعت بهذا) .

ومما قاله أيضا : إن العلم لا حد له وليس العلم قاصرا على مافي الكتب فجدوا فيه وتعلموا وادرسوا الدنيا بعقولكم . أقول وأنا أوصي بهذه الخصلة فانها خير معوان على الحكمة العامة ومن حافظ على هذه الخصلة من صغره وهو ذو ميل طبيعي للحكمة والعلم والكتابة فإنه يهنأ بالحكمة والعلم يكون نورا لأمته ويكون إنشاؤه نعمة عامة للأمة ويرقي أمته على مقدار همته ثم هو يحيى في نفسه بسعادة وحبور وسرور لا يعلمه إلا هو وربه ولأقتصر على هذا في معنى الطاء والسين في أول السورة ، ولأخص تفقدي في هذا المقام بما هو أليق به وهي الطيور فأتفقدها من [وجهين : الوجه الأول] أن أذكر بعض عجائبها الظاهرة فأذكر بعض الطيور ، ثم ماهو شبيه بها .

﴿ الطيور ﴾

الطيور حيوانات فقرية تضع بيضا يخرج منه صغارها بعد التفريخ وحيث إنها ترتفع في الهواء خلق الله تركيب بنيتها مناسبا لذلك فشكل جسمها بأعظم شكل مناسب لشق الهواء بسهولة وخلق لها أجنحة بدل الأطراف المقدمة وليس لها أسنان وفمها منته بمنقار وعلى ذلك تزدرد أغذيتها من غير مضغ ولذا جعل الله معدتها قوية جدا وهي (القونصة) وجعل لها حوصلة فيها تلين الحبوب قبل وصولها إلى القونصة ومما أوجد فيها من قوة الإلهام تصنع أعشاشها وترقد على بيضها وتحن على صغارها ومنافعها كثيرة فمنها مايستعمل لحمه

غذاء وبيضه كذلك ، ومنها مايدفع مضار عظيمة كتبديد الحشرات والديدان المضرة بالمزروعات وتنقسم إلى جملة رتب :

(١) - ﴿ الطيور الدجاجية ﴾

وهى تشمل الطيور الأهلية التى تستعمل لحومها وبيضها غذاء وتشمل الدجاجة المعتادة وهى أكثر الطيور الدجاجية نفعا من أجل لحمها الذى يستعمل غذاء وبيضها الكثير الذى يحصل فقسه صناعة فى معامل مخصوصة تسخن إلى حرارة مناسبة كما يحصل ذلك إذا احتضنت الفرخة بيضها ، والدجاجة تعتنى بصغارها بحيث إذا طرأ عليها خطر تجمعها تحت أجنحتها وتدافع عنها بجوتها أما الديك فلا يهتم بأمرها ، والفراخ الرومية والهندية تنسب للطيور الدجاجية ، وكذا القبج وذكره يسمى حجلا وهو يعرف أيضا بدجاج البر .



(شكل ١٦ - القبج المعروف بالحجل)

(انظر شكل ١٦) .

والحمام الذى يعيش أزواجا وأنثاه تبيض بيضتين تستولى حضانتهما هى والذكر بالتبادل ، وكذا اليمام والسلوى المعروف عند الناس بالسمان والطاووس وهو أجمل الطيور ويتميز بذنبه الطويل المزين بريش لماع مرغوب فيه جدا وهو غالى الثمن .

(٢) - ﴿ الطيور ذات الأرجل الكفية ﴾

هى طيور يوجد بين أصابع أرجلها غشاء يصير أرجلها كمجاذيف وجسمها مستطيل يشبه السفينة وريشها مغطى بمادة زيتية تمنعها من البلل بالماء فلا يثقل جسمها فتعوم بسهولة وترغب وجودها فى الماء ، ومنها البط ويستعمل لحمه غذاء وغذاؤه الحبوب والحشائش ومنه نوع يسكن الأجزاء القطبية يسمى ايدر (انظر شكل ٢٧) يوجد أسفل بطنه ريش ناعم تحشى به الوسائد الخفيفة ، والأوز المعتاد لا يخالف البط إلا قليلا فى الجسم والطباع . ومنها البجع ، وهو طير ظريف أبيض يقتنى زينة فى الفساق .



(شكل ١٧ - رسم الايدر)

(٣) - ﴿ الطيور الشاطئية ﴾

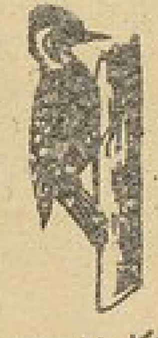
هى طيور أرجلها طويلة عارية عن الريش وعنقها ومنقارها طويلان جدا وهذا يساعدها على سرعة الجرى فى مياه المزارع لتتغذى بالزواحف المائية والأسماك والديدان وبعضها يتغذى بالحبوب والحشائش ومنها

أبو قردان وأبو مغازل والقلق الذى يفترس الزواحف التى على شاطىء النيل بكثرة ولذا كان محترما جدا عند قدماء المصريين حتى كان من قتله الإعدام . والنعامة وهى أكبر الطيور فيصل علوها إلى مترين ونصف وتسكن صحارى أفريقيا وريشها يستعمل للزينة مرغوب فيه تضعه نساء الإفرنج فوق البرانيط ، والكزوار (انظر شكل ١٨) وهو طير يسكن الهند ورأسه مزينة بقلنسوة .



(شكل ١٨ ـ صورة الكزوار)

(٤) ـ ﴿الطيور المتسلقة﴾



(شكل ١٩ ـ صورة نقار الخشب)

هى طيور تتسلق على فروع الأشجار بسهولة لتتغذى بالثمار أو بالحشرات التى على الأشجار ولذلك خلق الله أصبعين من أصابعها متجهتين إلى الأمام وآخرين إلى الخلف وهى مشهورة ببهاء ريشها وغلاء ثمنه وتشمل الببغاء وهى بأنواعها مشهورة بخاصية حكاية الأصوات ، ونقار الخشب (انظر شكل ١٩) ومنقاره قوى يشق به قشور الأشجار ليأكل الحشرات .

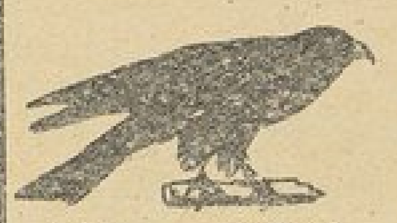
(٥) ـ ﴿الطيور العصفورية﴾

هى طيور صغيرة بعضها مشهور بجمال صوته وبعضها ببهاء ريشه وهى تنتقل من إقليم إلى آخر ومعظمها يتغذى بالحشرات ، ومنها البلبل المشهور بحسن صوته ، والعندليب والخطاف المشهور بعصفور الجنة وهى تبيد الحشرات الموجودة فى الهواء ، والقنبر (انظر شكل ٢٠) وهو طير يبتدىء فى التغريد فى فصل الربيع وهو من الطيور التى تغرد حال طيرانها ، والغراب والهدهد يتغذيان بالديدان .



(شكل ٢٠ ـ صورة القنبر)

(٦) - ﴿ الطيور الجارحة ﴾



(شكل ٢١ - رسم الحدأة)

هى طيور لا تعيش إلا بالسلب والنهب ، ولذا خلق الله جسمها معد لذلك فجعلها قوية منقارها كلابى وأرجلها منتهية بأظافر كلابية حادة وطيرانها شديد وحاسة بصرها قوية جدا بها تدرك فريستها من بعد وهى تقابل الحيوانات الكاسرة من الحيوانات الثديية ، ومنها النسر ويسمى (ملك الطيور) لقوته وشجاعته فيرفع فريسته بين مخالبه والعقاب طائر كبير عنقه خال عن الريش ، والصقر طائر فى قامة الدجاجة وهو أجمل الطيور الجارحة شكلا وأكثرها شجاعة وخفة ولذا كان يعلم الصيد فى القرون الوسطى ، والحدأة (انظر شكل ٢١) وهى مشهورة بشراهتها وخطفها لصغار الطيور الأهلية والسمك ، والبوم والصامة من الطيور الجارحة أيضا لكنها قليلة القوة أعينها واسعة يدخل فيها بالنهار ضوء شديد يحدث غطشتها ولذا لا تطير إلا ليلا ولا يسمع لطيرانها صوت ولذا تستولى على فريستها أثناء نومها بسهولة وهى نافعة جدا لأنها تبدد الحيوانات القرامة الصغيرة والحشرات المضرة والزاحفات (شكل ٢١) .

هذا ما أردت ذكره من الطيور ليكون تذكرة للذاكرين ، فإذا رأى المسلم الطير فى شواطىء البحار أو فوق رءوس الجبال أو فى الحدائق الغناء فإنه لا يأنس بها أنسا عليه إلا إذا عقل الفرق بينها وبعض خواصها كالذى ذكرناه هنا ، ومتى عرف ذلك وغيره أصبح فى بهجة وصارت العوالم حوله جنة أعدت له فى الدنيا وله فى الآخرة مزيد .

(٧) ﴿ الحيوانات الثديية ذات الأيدى الجناحية ﴾

أما مايشبه الطيور فهو (الخفاش) وهو من الحيوانات الثديية ذات الأيدى الجناحية أو الوطواط ويتميز بوجود ثنية من الجلد ممتدة بين أطرافه المقدمة والخلفية على شكل أجنحة بها يطير كالطيور (انظر شكل ٢٢) وهو حيوان ليلى يهرب من الضوء بالنهار لضعف بصره وقد عوضه الله قوة فى إحساسه ويتغذى بالحشرات ولذلك هو نافع وهذه صورته :

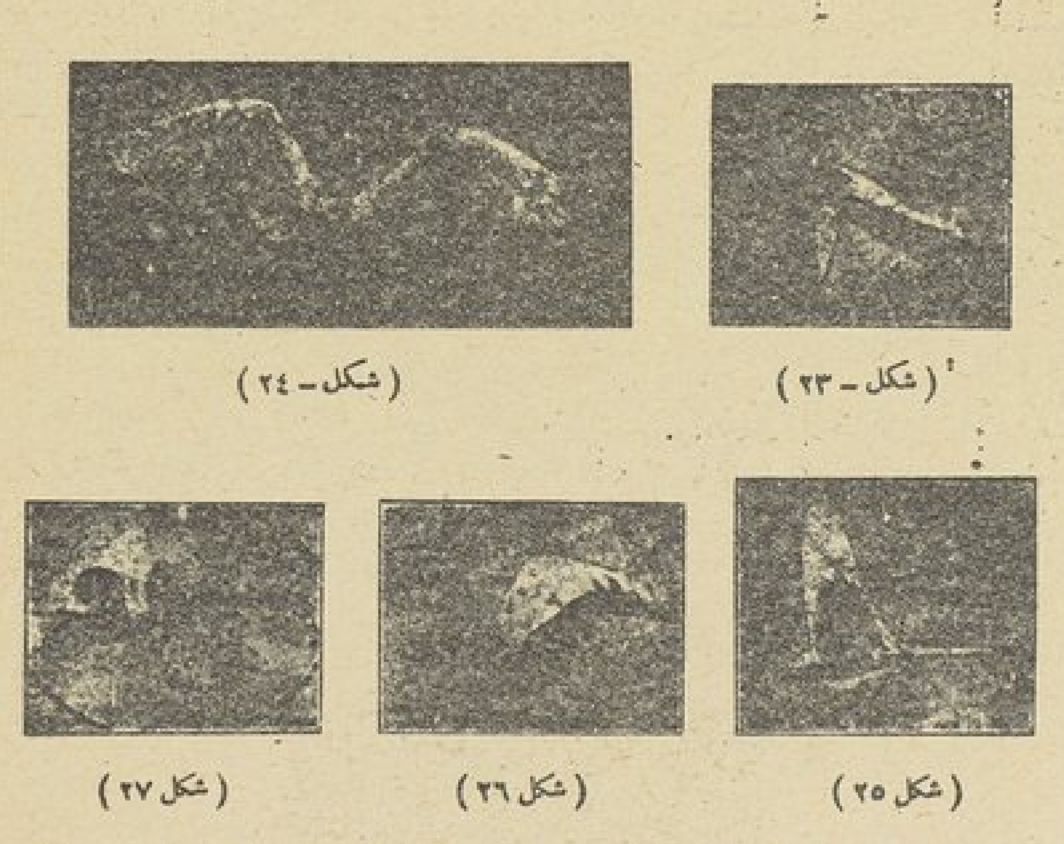


(شكل ٢٢ - صورة الخفاش . انتهى من كتاب المختصر المفيد)

[الوجه الثانى] أتفقد طيران الطيور كى يفتح باب الطيران فى الأمم الاسلامية ليشاركوا الأمم فى الطيران وقد جاء فى [مجلة الجديد] مانصه :

طير الأوز العراق الذى هو معجزة من معجزات الطبيعة

ليس عجيبا أن عموم الأوزة فان تكون جسمها على شكل قارب ، ولكن مايثير الدهشة عند العلماء كيف أنها تستطيع أن تحلق فى الجو بهذا التكوين العجيب بل تطير بكل سرعة وسهولة مع أنه لو صنعت آلة ميكانيكية على مثالها لكان من المستحيل أن تطير بالنسبة لتركيبها المرتبك . ولما كان العلماء والمخترعون يقتبسون على الدوام من مدهشات الطبيعة ويصنعون على مثالها فقد توجه التفات بعض العلماء إلى دراسة طريقة الأوز فى الطيران لاقتباس مايمكن أن يكون له فائدة عظيمة فى تقدم الطيارات (انظر شكل ٢٣و٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٧) .



(شكل – ٢٣)

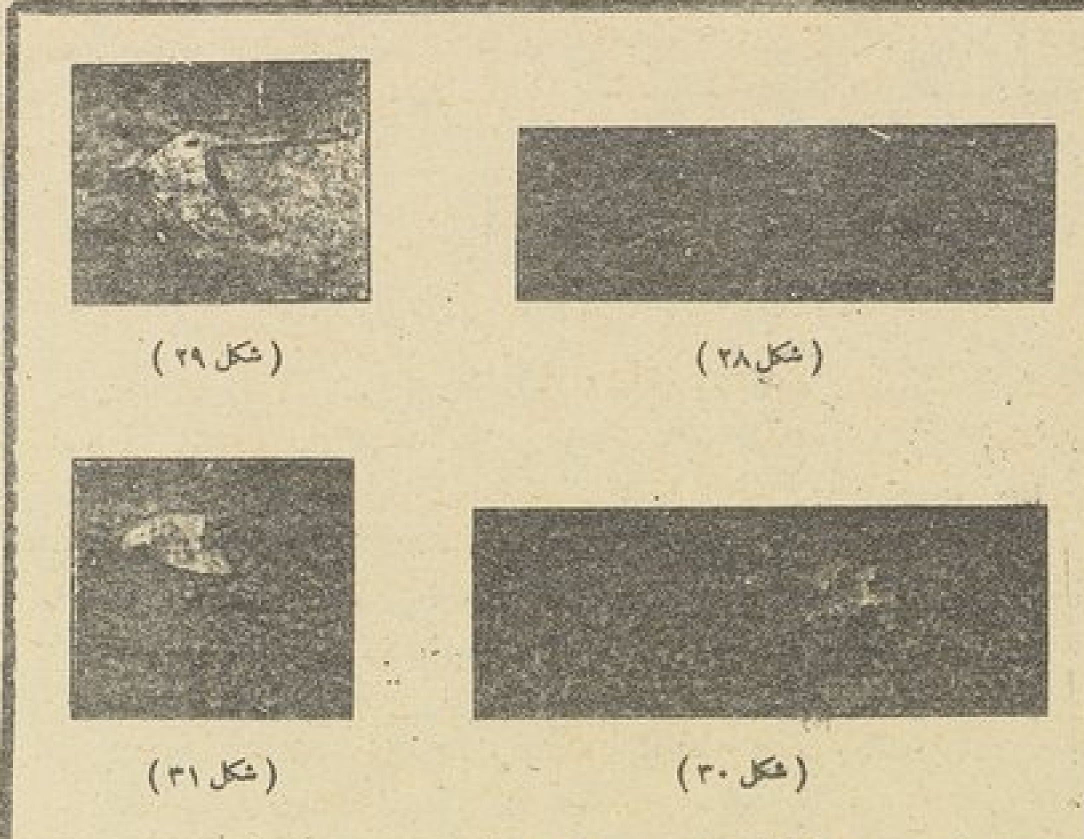
(شكل – ٢٤)

(شكل ٢٥)

(شكل ٢٦)

(شكل ٢٧)

ويلاحظ عند محاولة الأوز الطيران أنها تنهض من الماء ملوحة بجناحيها فى الهواء بحركة مختلطة بين السير والطيران مادة رقبتها الطويلة إلى الأمام ، ولا تلبث حتى تنتظم حركات جناحيها وتندفع بقوة إلى الاتجاه الذى تريده فيكون عنقها الطويل الممتد هو الحافظ لتوازن جسمها فى الجو وليس عليها إلا الاستمرار فى تحريك الجناحين وضغط الهواء إلى أسفل ولذلك تجعل جناحيها ينحنيان كثيرا نحو الأرض ، فهل يستطيع الانسان أن ينقل عن الطبيعة شكل هذه السفينة الهوائية العجيبة ؟ ذلك ماسيرهن المستقبل على إخفاقه أو نجاحه . (انظر شكل ٢٨و٢٩و٣٠و٣١) .



(شكل ٢٨) (شكل ٢٩)

(شكل ٣٠) (شكل ٣١)

ومن تفقدي الطير ما قرأته تحت هذا العنوان فى نفس المجلة :

الحرف والفنون والصناعات عند الطيور

ألقى الأستاذ (كاتلان) محاضرة على عدد كبير من علماء فرنسا وأعضاء الأكادمية عن حياة الطيور وطباعها وغرائزها ، ومن أغرب ماذكره فى محاضرته أن لكل نوع من الطيور استعدادا خاصا للحرف والصناعات والفنون ، ولكنها تختلف عن الانسان بأن الطير لايزاحم أنواع الطيور الأخرى ولا يحسن غير العمل الذى تمليه عليه غريزته . وقد ضرب الأستاذ الأمثلة على ذلك فقال : (إن الغراب يشبه عمال المناجم ، فهو لايجيد إلا الحفر والتنقيب ، والحمام الزاجل بما عرف عنه من الميل للأسفار الطويلة يماثل المولعين بالرحلات من بنى الانسان ، والبلبل بتغريده يؤدى بين الطيور فن الغناء ، والطير المسمى (روسيرول) يشبه البوهيميين فى التشرد وعدم الاستقرار فى مكان ، فتراه يوما يعاشر نوع (الكنارى) من العصافير وتجده فى يوم آخر قريبا من خلية نحل) على أن الطيور لم تحرم من مهرجين ومضحكين ، إذ يقول الأستاذ (كاتلان) : (إن بين العصافير فصيلة زرقاء اللون دأبها الإتيان بحركات بهلوانية مضحكة) ويلحق بذلك ماقرأته أيضا وهو :

«هجرة الفيران من انجلترا بقيادة فأر أعمى»

يروى التاريخ كثيرا عن مهاجرة الفيران وانتقالها على شكل قطعان كبيرة من بلد إلى آخر وتدميرها ماتجده فى طريقها حتى تأتى على الأخضر واليابس . وقد حدث أخيرا فى انجلترا على أثر نزول الأمطار الغزيرة فى منطقة (لى) أن هاجرت الفيران فى تلك المنطقة فسارت فى طريق (ايدمونتون) صفوفا متلاحقة يقودها فأر أعمى . وكان لهذه القطعان الثائرة الجائعة منظر يلقى الرعب والجزع . فخلا لها الطريق من المارة

وركب البسكليت حتى الكلاب المعروفة بجرأتها وشجاعتها لم تملك أنفسها من الخوف والتنحى عن الطريق لهذا الجيش المغير ، وانتهت هذه الهجرة عند غابة شاسعة صادفتها الفيران فى سيرها فتفرقت فى نواحيها وسار بها اهـ .

سر من أسرار الطاء والسين

(هذا السر قد تبين يوم السبت (١١) مايو سنة ١٩٢٩ م)

إن هذه السورة قد ذكر الله فيها أمتين من الأمم وهما أمة النمل وأمة الهدهد والنمل من دواب الأرض والهدهد من أنواع الطير الذى يطير بجناحيه، أفليس هذا كالتطبيق على آية الأنعام إذ يقول الله تعالى «ومامن دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » فمن دواب الأرض النمل التى تبسم سليمان ضاحكا لما سمع قولها، ومن الطائر ذى الجناحين الهدهد الذى سأل عنه . إن الله يوقظ المسلمين بهذا فيقول لنا استيقظوا أيها النائمون. هذا نبى من أنبياء بنى آدم وهذه أمم أمثالكم وللجلالة قدر هذه الأمم اهتم لها هذا النبى لايقاظكم ألا ترون أنها أمم أمثالكم والمثلية فى هذا المقام يجب أن تسترعى أسماعكم ، فهل هذه المثلية تمر عليكم مرور النسيم على الحصباء . ألم يأن لكم أن تعرفوا أن دراستها واجبة كدراسة الأمم حولكم والأمم الاسلامية التى تعيش وتموت وهى جاهلة نظام الحشرات كالنمل ونظام الطيور كالهدهد ونظام أمم الأرض الأخرى ولو إجمالا مستعدة للطامة الكبرى والذلة والوقوع فى براثن الاستعمار كما جهلت الدولة العباسية أمر أمة التتار المجاورة لها أيام (قطب أرسلان) وكما جهل المصريون قدرة الفرنسيين أيام احتلالهم أرضهم كما قدمنا ذلك فكان هلاكهم على يديهم «وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» .

اللهم إنك بحر فى الطاء والسين المشيرين للطائر ولسليمان قد أيقظت فينا ذكرى جهلنا بعوالم الطير وعوالم الحشرات ، فقد تقدم تقريبا فى [رسالة عين النملة] أن فى أوربا علما يسمى (أنتومولوجى) أى علم الحشرات فهذا العلم اليوم يدرسه القوم فى أوروبا ونحن نستمد من علومهم كما تقدم (سترى إن شاء الله صورة النمل مع صورة العنكبوت فى سورة العنكبوت للموازنة بينهما) .

وأما الطيور التى تفقدها سليمان وخاطب منها الهدهد فان الأمم حولنا درستها دراسة تامة ، لماذا هذا ؟ لأن حياتنا لاتتم إلا بمعرفة خواصها وأحوالها . ألا ترى إلى ماذكرته لك فى أول سورة يوسف، أذكرك بما كتبته هناك ، وإنى قد كنت مفكرا فى أمر الدودة التى كانت تفتك بالبرسيم والذرة وغيرها، وإنى كنت أرى (أبا قردان) فى إبان صغرى يأكل هذه الدود «أكلا لما» وأخذت أجمع آراء الفلاحين وأنا مدرس بالمدارس الأميرية وكتبت مقالة فى [مجلة الملاجئ العباسية] سنة ١٩١٢ م فأصدرت الحكومة بعد ذلك أمرا بعدم صيد (أبى قردان) ثم درس رجال الزراعة بقية الطيور فأصدروا أمرا بتحريم صيدها ، ومنها الهدهد الذى خاطبه سليمان عليه السلام .

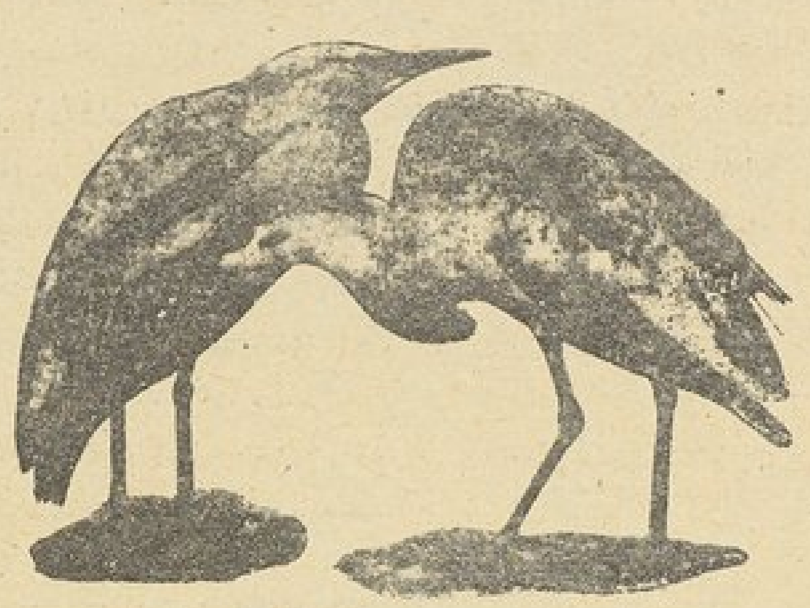
سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت الذى جعلتنا وجعلت الطيور وجعلت الحشرات أمما مشتركة فى العمل ، أنت أشركت معنا الهدهد وأبا قردان والزقزاق الشامى والزقزاق البلدى وغيرها ، جعلت هذه كلها شركاء لنا فى زرعنا، أى أنها مساعدات لنا على زرعنا، فلولا هذا الهدهد وأبوقردان وأنواع من العصافير وغيرها مما تقدم مصورا مشروحا فى أول (سورة يوسف) ماتم لنا زرع ولا در بيننا ضرع .

اللهم أنت المحمود على النعم . أنت معلم الجهال ومعلم العلماء، أما العلماء فهم الأمم التى سبقتنا بالعلم وانتفعت

بعلوم آبائنا وهم الأمم الغربية والأمريكية وأمة اليابان ونحوها. وأما الأمم الجاهلة فهم أكثر المسلمين الحاليين ، هذه الأمم التي نفرت من العلم وقنعت بالجهل وكذب عليها صغار الشيوخ فرمزت لهم بهذين الحرفين «طس» فرأوا الطاء في أول الطير والسين في أول اسم سليمان عليه السلام فاستيقظوا إلى علوم الطير وعلوم الحشرات ورأوا أن الهدهد وأبا قردان والكروان والزقزاق البلدي (إنظر شكل ٣٢ و٣٣ و٣٤ و٣٥) التي تقدمت هي وغيرها في (سورة يوسف) هي المساعدات للناس في حفظ زرعنا ، وقد منعت حكومتنا المصرية الناس من صيدها لحفظ زرعنا . إذن خطاب سليمان للهدهد إيذان بما فيه وفي أمثاله من المنافع وأنه مساعد لنا في حفظ زرعنا لأنه يأكل الدود الآكل لزرعنا ، فله علينا الحفظ والكرامة بل يحرم قتله هو وماسمه من الطيور لأن قتلها قتل لنا وإن لم يتضح بأجلى بيان فيما علمنا إلا فيما كتبناه في هذا التفسير . هنالك عرفنا بأن لله حكمة إنزال قصص سليمان مع الهدهد وأن له ولجميع الطيور شؤونا لا تعرف إلا بالدراسة كما للحشرات ولجميع دواب الأرض ، وأن المسلمين لا حياة لهم إذا جهلوا الأمم حولهم من بني آدم ومن دواب الأرض ومن طير السماء ، هذا سر من أسرار الطاء والسين والحمد لله رب العالمين .



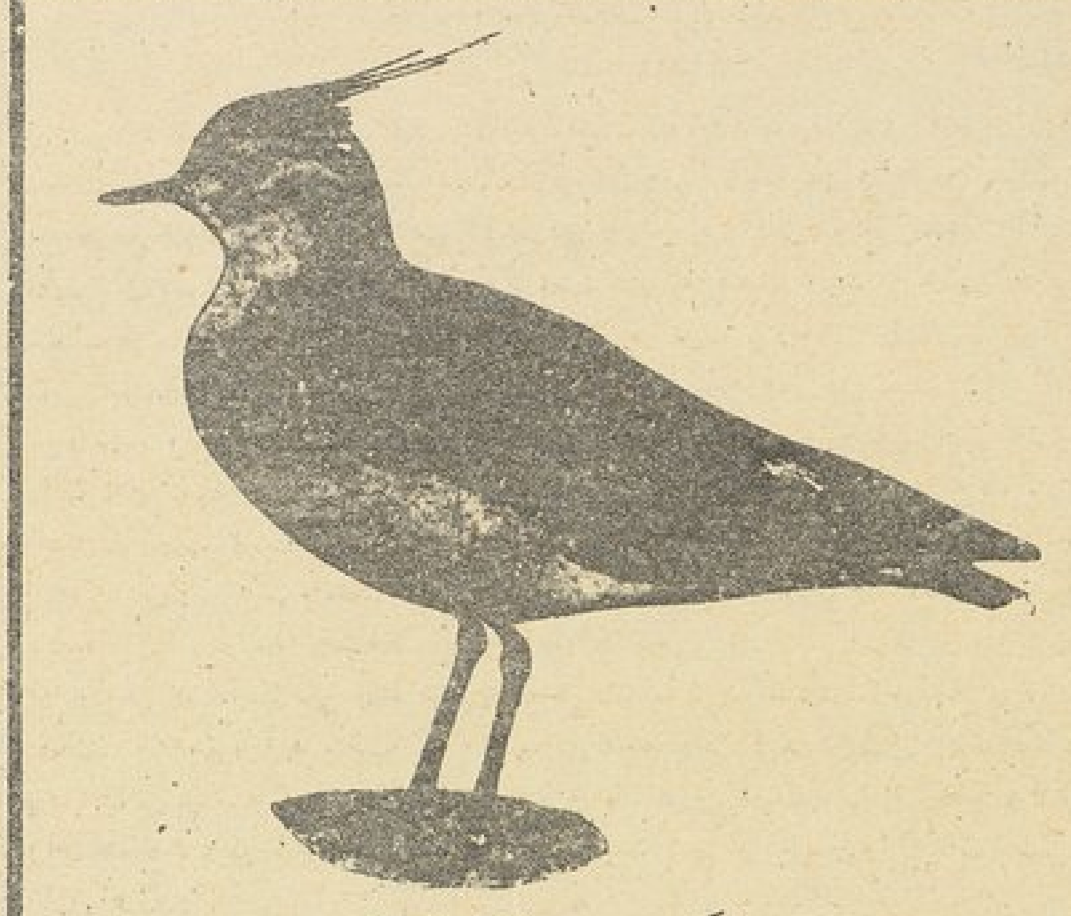
(شكل ٣٢ ـ صورة الهدهد)



(شكل ٣٣ – صورة أبي قردان)



(شكل ٣٤ – صورة الكروان)



(شكل ٣٥ - صورة الزقزاق البلدى)

﴿ تحريم صيد هذه الطيور ﴾

أيها المسلمون هذه الطيور المذكورات هنا مع الهدهد وهى (الكروان والزقزاق البلدى وأبو قردان) هذه الأربعة من طيور تبلغ فوق الثلاثين عداً تقدم ذكرها فى (سورة طه) هى التى تأكل الدود . وبعبارة أخرى هى تساعدنا فى زرعنا ، فهل يليق بالمسلم أن يعيش ويموت وهو لا يعلم ماينفعه من الطيور وما يضره وتكون حياة الطيور وموتها تابعين للمصادفة العمياء والناس يعيشون بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

هذه الطيور آكلات للدود وبأكلها الدود ينمو زرعنا وبنمو زرعنا نعيش وهنالك نعبد الله ونقوم بالأعمال النافعة، ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب، هل يرضى المسلم أن يكون هو المختص بالجهل دون الأمم الناس فى الشرق والغرب يدرسون هذه الطيور وحكوماتهم المتمدنة تحرم صيدها، وأنا أقول إن هذه الطيور متى ثبت نفعها لزرعنا حرم صيدها حتما ، وإذا خالف فى هذا مذهب من المذاهب فخلافه هنا يزول متى ثبت ضرر هلاك ذلك الطير .

هذه مسألة واحدة من آلاف المسائل فى هذه الحياة نام عنها المسلمون قرونا وقرونا جهلا وغفلة عن خطاب سليمان عليه السلام للهدهد إذ اعتبره أمة من الأمم ، وكم فى الجو وفى الأرض وفى أضواء الكواكب وفى المناظر من علوم قصر فيها المسلمون تاركين قوله تعالى «قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون» وقوله تعالى «وقل رب زدنى علما» انتهى .

﴿ من أعجب أسرار الطاء والسين « طس » ما خطر لى ليلة الاثنين ١٣ مايو سنة ١٩٢٩ ﴾

سبحانك اللهم وبحمدك ، أنت المنعم ، أنت المعلم ، اللهم أيدتنا وعلمتنا فلك الفضل ولك النعمة ولك الحمد جعلت مابين الطاء والسين علوما وعلوما ، ومنها ماأذكره الآن وهو أن تفقد سليمان الطير وكلامه مع الهدهد بعد أن سمع كلام النملة يفتح لنا باب السياسة والعلم على مصراعيه ، ولأذكر من ذلك أمرين : [الأمر الأول] أن الأمم لا تكون إسلامية حقيقة إلا إذا فطنت لعمل النملة ولعمل الهدهد ، أما عمل النملة فإنها حافظت على دولتها من المفاجأة ولو من غير قصد فحذرت قومها من سليمان وجنده ، والحق يقال إن الأمم التى لا عيون لها ولا جواسيس تتخلل الأمم كلها فتعرف الخطر فتتوقاه أحقر من النمل وأولئك أضل من الأنعام . فياويح أمة إسلامية نزلت عن النمل فى سياستها بترك الحذر . ألم يقل الله « خذوا حذركم » وأكد ذلك بأن النملة حذرت قومها من نبى من أنبياء الله لايقصد إضرارها ، أما عمل الهدهد فإنه كشف أحوال أمة أخرى . إذن لابد من (أمرين) محافظة على الدولة وكشف لأحوال الأمم الأخرى والعلوم [الأمر الثانى] أن مخاطبة الهدهد لسليمان كانت بغاية الحرية فإنه يقول له ـ وهو يملك ذبحه ونتف ريشه وحبسه وإذلاله ـ « أحطت بما لم تحط به » الخ فهذه الخصلة تدل على حرية تامة ولم ينزل الله هذا إلا ليعلم أهل الأرض قاطبة أنه لا يمكن استخراج قوى النفوس الانسانية إلا إذا كانت متمتعة بحرية الرأى كما تمتع الهدهد بذلك ، فأما إذا صغرت نفوس الناس من الضغط والذل فى أى أمة فإن الانسانية العامة يعتريها النقص بمقدار ما فقدت من قوى كانت كامنة فى تلك النفوس فحرمت ثمرتها كما أوضحته فى كتابى (أين الانسان) وعلى المسلمين أن يبثوا هذه الحرية ويستخرجوا آراء المسلمين بها ثم يعاونوا عليها فى الأرض كلها اهـ .

﴿ الكلام على الهدهد تفصيلا وعلى فن الطيران فى عصرنا الحاضر ﴾

ذكر الله الهدهد وانه أخبر سليمان بما لم يحط به علما ، وهذا فتح لباب فن الطيران وهذا الفن هو سلطان الأمم اليوم ، يا عجبا ، هدهد يذكره الله فى القرآن ويخبر سليمان وهو نبى بما لم يحط به علما ، فما بالك بنا نحن الذين لا علم عندنا فنحن أحرى أن نحرص على المواصلات بيننا بكل طريق وسبيل ممكن ومنه فن الطيران .

إن منشأ فكرة الطيران كانت عند الأمم كلها قديما ، وإنى أذكرك أيها الذكى بما مر فى سورة المائدة عند ذكر الغراب وابن آدم وأن الهواء أخف من الماء (٨٠٠) مرة والبخار أخف من الماء (١٧٢٨) مرة ولذلك ترى السحاب يرتفع فى أعلى الجو ، ولا جرم أن قاعدة (أرشميدس) لها السلطان على هذه العوالم ، فانك ترى أن الجسم فى الماء يخف بمقدار حجمه من نفس الماء ، ومعنى هذا أن الحديد والنحاس والحجارة وغيرها إذا غطست فى الماء فقدت من وزنها مقدار حجمها من الماء ، وعلى ذلك لايعوم السمك على وجه الماء إلا إذا نفخ الكرة الهوائية الداخلة فى جسمه حتى يكبر حجمه ويكون وزنه قريبا من مساواة وزن حجمه من الماء فإذا ضغط السمك كرته الهوائية فخرج الهواء صغر جسمه فصار أثقل من مقدار حجمه من الماء فنزل إلى أسفل وهذه القاعدة هى التى استخرج العلماء بها الوزن النوعى للأجسام فيقال هذا المعدن وزنه النوعى (٥) أو (١٠) أو (١٣) وهكذا أى أنه أثقل مما يساوى حجمه من الماء بهذه المقادير ، وهذه القاعدة نفسها تسرى على ما يطير فى الهواء ، فما البالون الآتى ذكره إلا على هذه القاعدة أى أن يكون الحجم الطائر

فى الهواء أخف منه ، كما أن السمك يكون أخف من الماء حتى يعوم . إذن هذه قاعدة واحدة فى الهواء والماء ولكن النوع الانسانى لم يقف عند هذا الحد فقال: كلا . لابد لى أن أقلد الطير ، والطير جسمه ثقيل فعلى أن أطير بجسمى الذى هو أثقل من الهواء مئات المرات وعلى أن أدرس الطير فى الجو وأعلم كيف تمكن من الطيران وجسمه أثقل من الهواء . ولكم تغزل الشعراء وأدخلوا فى غزلهم أنهم يطيرون إلى أحبابهم بأجنحتهم ويقول شاعرهم :

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلى إلى من قد هويت أطير الخ

ولقد ورد فى قصة حسن الصائغ المصرى وصف الطيران الخيالى بالأثواب والريش وهكذا . وفى آداب اليونان أنهم كانوا يشيرون إلى استخدام الأجنحة وتقليد الطير . وفى الآثار المصرية من صورهم بصورة أناس ذوى أجنحة ثم انتقل الخيال إلى العمل :

(١) فى القرن السادس عشر حاول رجل إيطالى الطيران فسقط وكسر عظمه ومات .

(٢) وفى القرن السابع عشر فعل مثله رجل ألمانى فمات .

(٣) ومثله مستر (كيزفرنسوس) فى القرن الثامن عشر فلم ينجح .

(٤) ومثله عباس بن فرناس صاحب الصحاح كما هو معلوم .

ههنا دخل النوع الانسانى فى الجد والعمل بعد الخيال وأخذوا يدرسون الطيور ، فأول من درس الطيور وحركاتها (بورلى) سنة ١٧١٣ فدرس حركات عدة أنواع من الطيور وعضلاتها الصدرية ، فأفتى بعجز الانسان عن الطيران ، ولما يئس الناس من ذلك رجعوا إلى فكرة المناطيد المبنية على نظرية الخفة والثقل التى ذكرناها وقنعوا بما نقله (جان بيار بلا نشاد) الفرنسى فى أواخر القرن الثامن عشر الذى قطع بحر المانش من (دوفر) إلى (كاليه) فى المنطاد سنة ١٧٨٥ م ولكن الانسان لم ييأس من فكرة الشاكلة للطيور فقام (ليلياتتال) يمتحن قوة الطيور ثانيا فظهر له أن هناك سرا آخر غير قوة العضلات فى الطائر وهو أن يحوم الطائر فى الجو فإذا قدر الإنسان أن يصعد إلى الجو بقوة رافعة وأخذ يحوم فإن ذلك يفتح له باب الطيران ، وذلك بعد أن درس الطيور عشرين سنة ولكنه مع صحة نظريته قد مات ضحية التجارب سنة ١٨٩٦ .

ومن المعلوم أن الإنسان كله أشبه بجسم واحد ، فماذا حصل ؟ تنبه لهذا العمل الشابان الأمريكيان (ويلبور وأورفيل رايت) وأخذا يصنعان الطيارة المنبسطة الأجنحة المسيرة بالقوة ويحسنانها حتى سنة ١٩٠٥ فطار أحدهما فى الهواء مسافة (٢٤) ميلا فى مدة ثمان وثلاثين دقيقة ، فهذا أول النجاح فى الطيران .

وقد اشترت حكومة الولايات المتحدة ، (طيارة رايت) بمبلغ ٢٥ ألف دولار للمخترعين معا . هنالك ظهر فن الطيران وشاع فى سائر أنحاء العالم فظهر أن طيران الطير فى الجو له نظام خاص ، فمن الطير ما يجرى أولا على الأرض ثم يطير قليلا قليلا ويصعد وذلك لأنه يرفع جناحيه فيخلو المكان من الهواء فيحل محله هواء آخر مما يحيط به ، فهذا الهواء بهجومه على جناحى الطائر يرفعهما إلى أعلى فإذا أعاد الكرة مرة أخرى ورفع الجناحين زادت قوة الرفع بالهواء الهاجم على الجناحين . إذن سر الطيران راجع لأمر عجيب أى حسن السياسة والنظام ، فخفض الجناح ورفعه أشبه بالمراوح التى يحرك بها الهواء ، والهواء بعد الرفع يهجم فيعطى قوة وهذه القوة تضرب طيرين بحجر . أولا ترفع الطائر بضغطها على الأجنحة إلى أعلى ، وثانيا تدفعه إلى الأمام لأن الهواء الهاجم إنما يأتى من الخلف لأن الطائر حينما يخفض جناحه يرجع الهواء إلى خلف فإذا رفع الجناح هجم الهواء الخلفى على الجناح بمقدار دفعه ، فهو إذن يرفعه إلى أعلى ويدفعه إلى الأمام معا . إذن يأس الناس

من الطيران أولا ناشيء من اعتقادهم أن قوة العضلات هي السبب ونجاحهم ثانيا بسبب ما عرفوه في سنة ١٩٠٠ إن هنالك سرا غير القوة الجسمية كالسر الذي عرفوه في البخار وحسن استعماله ، فهنا الارتفاع في الجو والسرعة إلى الأمام جاءا معا بالحكمة في استعمال الهواء وحسن النظام الذي وضعه الله في الطير . فلما عرفه الانسان فعل مثل ذلك ولذلك تجد الطيارة يجب أن تجرى على الأرض أولا ثم تأخذ في الارتفاع قليلا قليلا بما تفعله محركاتها من الأمام كما تفعله أجنحة الطيور .

﴿ الاحتفال بهذين المخترعين في هذه الأيام ﴾

جاء في الأخبار العامة هذه السنة ما يأتي :

في ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٨ احتفلوا بمضى ٢٥ سنة على تجربة الأخوين (ولبر) و (أورفيل رايت) في فن الطيران . ولد (ولبر) المذكور في ٢٦ إبريل سنة ١٨٦٧ في بلدة (ملفيل) بولاية (انديانا) من أعمال الولايات المتحدة الأمريكية . وولد أخوه (أورفيل) سنة ١٨٧١ ولما تعلما علومهما الثانوية فتحا دكانا لاصلاح الدراجات (العجلات) ثم اعتنيا بأمر الطيران . وفي ١٧ ديسمبر سنة ١٩٠٣ طار أحدهما بطيارة من صنعهما مسافة ٢٦٠ ذراعا فلبث في الجو ١٧ ثانية فكان بذلك أول إنسان طار بطيارة أثقل من الهواء . وفي ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٥ طار (أورفيل) بالقرب من بلدة ديتوت مسافة ٢٤ ميلا بسرعة ٣٨ ميلا في الساعة ، ولكن الأغنياء لم يتقدموا لمساعدتهما بالمال فذهب (ولبر) سنة ١٩٠٨ م إلى فرنسا . وفي ٢١ سبتمبر فاز بجائزة (ميشلن) بعد ما طار مسافة ٥٦ ميلا فذاع صيته حالا . وفي سنة ١٩٠٩ طار فوق (نيويورك) مسافة ٢١ ميلا في ٣٣ دقيقة و ٣٢ ثانية . وفي سنة ١٩٠٩ منحهما الكنغرس (مجلس الأمة الأمريكية) وساما ضرب لهما خاصة ثم اشترت الحكومة طيارتهما بستة آلاف جنيه .

وقد توفي (ولبر) سنة ١٩١٢ ولا يزال أخوه (أورفيل) حيا وهو رئيس المهندسين في شركة طيران كبيرة ،

إذن الطيران بالطيارات التي هي أثقل من الهواء ابتدأ من سنة ١٩٠٣ في شهر ديسمبر واشتهاره في (٢٥) ديسمبر سنة ١٩٢٨ والطيارة الأولى بقيت ١٧ ثانية في الجو والطيارة الآن أي بعد (٢٥) سنة تبقى محلقة في الجو ٦٠ ساعة ، وسرعة الطيران الأولى لا تزيد عن (٣٨) ميلا في الساعة والآن تبلغ (٣١٩) ميلا في الساعة وذلك في الطيارة المائية التي ركبها الكابتن (دارسى كريج) الانجليزى في نوفمبر سنة ١٩٢٨ .

إذن الناس من سنة ١٩٠٣ ابتدءوا عصرا جديدا ، وينتظر الناس أن يكون الطيران شائعا سنة ١٩٣٩ ثم إن البلون (غراف) زبلين بلغ طوله ٧٦٢ قدما والبلون الانجليزى المنتظر إتمامه طوله ٧٢٠ قدما ، ويمكنه أن يجتاز (٩٠٠٠) ميل من غير أن ينزل إلى الأرض وهو يحمل مائة مسافر . والبلون الأمريكي الذي يبنى الآن طوله ٧٨٠ قدما ويسير في سرعة ٨٥ ميلا في الساعة ، فالبلونات متقدمة لأنها تستطيع أن تحمل مائة مسافر ، أما الطيارات فلم تصل إليها ، نعم الآن يشتغل مهندس ألمانى بعمل طيارة من هذا القبيل ويظن الناس اليوم أن زيادة السرعة في الطيران ربما تصل إلى خمسمائة ميل في الساعة بعد أن تدرس طبقات الجو العالية دراسة تامة .

اللهم إنا نحمدك على العلم والحكمة التي بها فهمنا قولك في (سورة الملك) « أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير » فهذه الحكمة وهي رد الفعل في الهواء وضغطه على الجناحين بعد خفضهما هي الداخلة في قوله تعالى « إنه بكل شيء بصير » فهو الذي أبدع هذا الشكل من الحكمة وأودعه الطير وقلده الانسان . كل ذلك لمناسبة الهدهد الذي جرى من سليمان إلى بلقيس في بلاد اليمن ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ جوهرة ﴾

﴿ جوهرة فى قوله تعالى بعد آية الهدهد « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » ﴾

من اللطائف البديعة أنى كنت راكبا فى قطار السكة الحديدية المتوجه إلى المرج لعمل فى الحقل فقابلنى رجل من المرج فقال ألا تتذكرنى . أنا الذى كنت أطالع التفسير مع فلان فى بلدة المرج فتذكرته فقال أريد أن أسألك ؟ لم يقول الله « الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم » تارة ويقول تارة أخرى « رب العرش الكريم » فقلت له إن الملك قد يكون عظيم العرش عظيم الملك دولته مشرفة على أمم كثيرة ولكنه غير كريم ، أما الله فانا نشاهد أن ملكه واسع وعرشه عظيم ، ومن طبع الملك العظيم فى أهل الأرض أنه يذهل للملك عن تفقد الأمور الصغيرة فليس فى قدرة ملك من ملوك الأرض أن يبادر إلى إجابة كل مريض وكل فقير وكل يتيم وكل عجوز وكل أرملة ، بل يكل ذلك إلى نوابه فى الأقاليم ، فملوك الأرض كلما اتسع ملكهم كثرت حاجات الناس إليهم ، وعلى مقدار ذلك يكون ضعفهم عن القيام بها فهذا مستحيل عقلا وعادة ، فأما الله فإنه مع سعة ملكه وعظمته فانه تجلى لكل امرئ فى نفسه فشكا إليه أمره وأغاثه وأعانه وليس ذلك فى ظاهره فحسب بل يتجلى له فى داخله وقرارة نفسه ويحدثه ويسأله فيجيبه مرة ويؤجل الاجابة مرة أخرى ثم هو يلازمه فى الحياة وبعد الموت ولا يفارقه ، ونراه يكون مع الطير ومع الحشرات ومع دواب الفلوات ولا يذر دودة فى حجر ولا طيرا على شجر ولا ذئبا فى فلاة ولا مخلوقا فى أو جل إلا وهو معه يناجيه فى سرائه وضرائه . فهذا هو الكرم الحقيق وهذا معنى قوله تعالى فى سورة المؤمنين « فتعالى الله الملك الحق » لأن الملك الحق هو الذى يتصف بهذا ، إن الملك الحق هو الذى يتفقد رعاياه فى سرهم وعلانيتهم وهذا بعض السر فى قوله تعالى «فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » فهذا هو الكرم الحقيق وهذا هو الملك الحقيق . أما ملوك الأرض فملكهم ليس حقا بل ملوكهم مجازيون ، ومن آيات رعايته ودلائلها المشاهدة أن كوكب الشمس تراه النحلة والنملة والملك والصعلوك وساكن الأرض والمريخ وبقية السيارات وغيرها كأنها له وحده وكأنها لا تقابل غيره وكذلك القمر . فإذا كانت الشمس التى لا تعقل هذا عملها فكيف بالخالق الحكيم ؟ فهو مع الجميع سرا وجهرا . وإذا كان ابن سينا والغزالى يقولان (إن ذا العقل الكبير يكلم رجلا ويكتب بيده ويسمع بأذنه رجلا آخر ولا يلهيه واحد من هذه الشؤن عن الآخر) .

فهذا فتح باب أن نعرف أن العقول الكبيرة كالملائكة تسع خلائق كثيرة فى آن واحد ، فالله إذن أوسع وأعلى وهو الحكيم العليم ، فإذا سمعت الله يقول فى سورة المؤمنين « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » فهو من هذا الباب لأنه كريم ومن أجل كرمه إنه لما خلقنا لم يرد بذلك مجرد وضعنا فى الأرض مدة ثم يهلكنا ، نعم لا حرج على الخالق ولكنه لا يفعل ذلك ويقول لنا اطمئنوا يا عبادى أنا خلقتكم ورزقتكم وابتليتكم بالشر والخير وعلمت سركم وجهركم وحافظت عليكم وأجبت دعاءكم وأنعمت عليكم بنعم لا تحصونها ، ولكن أهم من هذا كله أنكم لا تفنون فأنتم تعيشون أبدا سرمدا ، وإذا كنتم أنتم تأنفون أن توصفوا بالعبث فهل أرضى بالعبث فى صنعى ؟ ومن أين اتصفتم بصفة الأنفة من العبث إلا بالفيض من آثار قدرتى وعلمى ، فإذن أنا أبقيكم فى دار أخرى ولذلك أتى بها بصيغة الاستفهام الانكارى فقال « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون » ثم وصف نفسه بالعلو والعظمة ووصف عرشه بالكرم وليس من الكرم أن يخلق أرواحنا ثم يهلكها بلا مزية ولا منفعة كأنها مزج البحار أو هبات النسمات أو خطرات الأوهام ، إذن نحن نرجع لله بعد حين .

فلما سمع ذلك الرجل قال هذا كاف واف فقلت الحمد لله رب العالمين . ولما كان ذلك السؤال قبيل طبع هذه السورة ألحقته بها ، وأنا أحمد الله على التوفيق . تم الكلام على اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية فى قول بلقيس « ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون » ﴾

هذه الآية تدل على ما كان عند العرب من أمر الشورى وأنها قديمة العهد ، ومن عجب أن الأمة العربية بعد الاسلام فى هذه الأجيال القريبة نسيت مجد آبائها الأقدمين ونسيت مجد الاسلام ، يقول الله « وأمرهم شورى بينهم » وينقل الكتاب عن أسلافنا أن مجالسهم كانت شورية . فيا عجبا . لا أخلاق الآباء اتبعنا ولا الدين نهجنا . إن أمة العرب اليوم قد انحلت عراها واختل أمرها ، وأذكر لك حادثة واحدة . ذلك أنه منذ خمسة أعوام وأنا أكتب فى تفسير هذه السورة كانت تدور الحرب بين أمير نجد الذى احتل مكة وبين على بن الحسين الذى هو ملك جدة . فالأول يريد إخراج على منها والثانى يدافع عنها . وقد حضر وفد ينوب عن مسلمى الهند يحمل تفويضا منهم ليفاوض المتحاربين فمنع الملك على الوفد من السفر إلى مقابلة ابن السعود أمير الوهابيين . ولما طلبوا منه أن تكون مكة وبلاد الحجاز محكومة بالقوانين الشورية وبالنظام الدستورى وأن يحكم البلاد مجلس شورى يديره رئيس ويكون أعضاء المجلس بالانتخاب أبى على الوفد ذلك وقال إن البلاد لا يوافقها ذلك . فتعجب من أمم الإسلام اليوم كيف أصبح بعضها لا يلوى على دين ولا على مجد سابق بل أكثرهم مستبدون ظالمون . ومن آيات الله أن يجعل الاشراق بعد الظلام وقد بزغ فجر الحرية فى الاسلام وستشرق شمسه على الأقطار كلها ، وإذا كان المسلمون اليوم فى أدنى درجات الانحطاط بالنسبة لغيرهم فما ذلك إلا علامة على سرعة تبدل الحال « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة » والضد يتبع ضده فكما يتبع النهار الليل هكذا سيتبع العدل الظلم والرفعة الضعة ومن يعش يره والله مقلب الليل والنهار ، انتهت اللطيفة الثانية .

﴿ اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى « فما آتانى الله خير مما آتاكم » ﴾

هذه الآية والآيات السابقة كقوله تعالى « فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى الخ » دلالة على أن نعمة العلم هى كل شىء وهى كل نعمة ألا ترى إلى سليمان وقد دعا الله فيما تقدم لما سمع كلام النملة وفرح بالنعمة كيف أخذ بعد ذلك يتفقد الطير ويكلم الهدهد وينظر فى شأن الملك وإسلام الأمم المجاورة له ، انظر كيف ذكر قصة بلقيس وهداها وإحضار عرشها بعد أن نال نعمة العلم بعجائب الحيوان كالنمل ، فهو أولا منح نعمة العلم ثم منح نعمة هداية الناس ، فلا ملك إلا بعد العلم ولا هداية للناس إلا بعد العلم ، وانظر كيف يقول بعد حديث النملة « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك » ويقول بعد أن رأى عرش بلقيس « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » فكأن الانسان فى جميع أحواله مختبر ، فبالعلم مختبر وبالنعم مختبر وبالكرامة الإلهية مختبر والأنبياء بالمعجزات مختبرون وهذا كله من قوله تعالى « ونبلوكم بالشر والخير فتنة » فلا فرق بين نبى ولا مؤمن ولله الأمر من قبل ومن بعد » .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « إن الملوك إذا دخلوا قرية » الخ مع قوله تعالى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » ﴾

حضر إلى صاحبى العالم الذى اعتاد أن يتحدث معى فى أهم ما فى هذا التفسير فقال إن هذه السورة اشتملت على آيتين مرتبتين ترتيبا ذكريا عجيبا . فأولاهما تدل على أن الملوك إذا دخلوا فاتحين بلادا أفسدوها وأذلوا الأعزة فيها وهى قوله تعالى « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » .

والآية الثانية قوله تعالى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » يظهر لى أن ورود هاتين الآيتين من حيث

الترتيب مقصود وكأنه يقول سبحانه إن هؤلاء الظالمين لابد أن تخرب بيوتهم وتصبح خاوية على عروشها ، وما أحسن الافاضة فى هذا الموضوع حتى تتجلى الحقيقة ناصعة فان هذا الزمان زمان ظهور الحقائق الواضحة أما الاجمال فلا يكفى أولى الألباب . فقلت إن هذا المقام يعوزه البحث فى أصل نشأة هذا العالم ونظام ذراته والسير فى الموضوع من الذرات إلى الأجسام الى الأمم بحيث تكون العلوم مستخدمة فيه وهذه سنة فى الأسلوب خطرت لى هذه الليلة (مساء الأربعاء ٢ يناير سنة ١٩٢٩ م) فقال وما هذا الأسلوب الذى خطر لك . فقلت إن هذا الإنسان لم يكن على هذا النحط إلا لما فى تركيبه من القبول لهذه التنوعات السياسية . فإذن لتتجاذب أطراف الحديث فى أصل نشأته ونشأة العوالم التى ركب منها ، فقال قل موجزا ، فقلت إن الإنسان والحيوان مركبان من مادة نارية مضطربة ، فقال أريد أن أفهم ما تقول ، فقلت قد قدمت فى سورة البقرة [مم يتركب النبات] ولا جرم أن النبات غذاء الحيوان والنبات والحيوان غذاء الانسان . فمتى عرفت العناصر التى تركب منها النبات فى (سورة البقرة) أدركت الاضطراب فى السياسة وفى النظام الاجتماعى .

﴿ مزاج هذه الدنيا محرق ﴾

(١) العناصر محرقة مثل البوتاسا والبوتاسيوم .

(٢) المعادن فيها قوة تحكم العناصر .

(٣) النبات له نفس تضبطها وهو مختلف باختلافها .

(٤) الحيوان كثير الاختلاف والنفس حولت تلك الأحوال إلى عواطف .

(٥) الانسان بعقله حولها إلى عواطف أعلى .

(٦) وهكذا آراء فلاسفته كالفارابى وأفلاطون فى مدينته .

(٧) ثم ما حال الأمم المغلوبة والغالبة .

(٨) هو فى ذلك لم يرتق عن الحيوان .

قال صاحبى ، يا عجبا ، أى مناسبة بين علم السياسة وعلم الكيمياء . إن العناصر المذكورة فى سورة البقرة عند آية الطير وإبراهيم تعرف بعلم الكيمياء ولا مناسبة بين هذا العلم وعلم السياسة ونظام الدول .. فقلت خير لنا أن لا نطيل وأن نهجم على الموضوع حتى تظهر لك جلية . قال إذن لتبينها هنا بطريق يخالف طريق ما فى (سورة البقرة) بعبارة أوضح لتكون هنا فائدة غير ما هنالك . فقلت نعم ، العناصر التى يتركب منها النبات هى النيتروجين (الاوزوت) الذى تتركب منه العضلات فى الحيوان . والكربون الذى يتركب منه الدهن فى الحيوان أيضا والادروجين الذى يدخل فى الماء مع الاوكسوجين . فهذه الأربع معروفة فى النبات والحيوان . ويضاف إليها : (١) البوتاسا (٢) الصودا (٣) الجير (٤) المغنيسيا (٥) حمض الفوسفوريك (٦) حمض الكبريتيك (٧) سلكا (٨) كلور (٩) أوكسيد الحديد ، هذا ما ذكرته هناك .

(١) البوتاسا من البوتاسيوم وهو معدن أبيض فضى اللون إذا قطع غير أن سطحه يسود سريعا وإذا ألقى فى الماء يشتعل بنور بنفسجى وهناك تتكون البوتاسا .

(٢) الصودا من الصوديوم وهو معدن فضى اللون لين إذا ألقى فى الماء الحار أو أحمى قليلا يشعل بنور لامع أصفر فاقع ، وكل أملاح الصوديوم إذا أشعلت تكسب اللهب لونا أصفر .

(٣) الجير هو أوكسيد الكالسيوم والكالسيوم المذكور هو فلز ذو لمعان أصفر يتغير بسرعة فى الهواء الرطب إذ يتكون طبقة سنجابية من الكالسيوم على سطحه ، وإذا سخن على صفيحة من البلاتين التهب

فيحترق بلهب شديد اللمعان وهو يحلل الماء على الدرجة المعتادة . ثم إن أوكسيد الكالسيوم المذكور وهو الجير المعروف يحصله الناس بحرق كربونات الجير فى فرن يسمى فى مصر (قمينة) ويسمى الجير الحى ومتى حصلنا الجير الحى المذكور بالحرق ونديناه بالماء فانه يسخن الماء ويصير له بخار ثم يتشقق ويزداد حجما وإذا كان ذلك الماء كافيا استحالت قطع الجير الحى إلى مسحوق أبيض يسمونه (الجير المطفأ) .

(٤) وأما حمض الفوسفوريك فهو مركب من الفوسفور مع غيره . والفوسفور قسمان : أصفر وأحمر؛ أما الأصفر فهو سريع الاشتعال ولذلك يجب حفظه فى الماء لئلا يشتعل من حرارة الهواء الاعتيادية ، وأما الأحمر فلا يشعل بسهولة ولذلك يمكن حفظه فى الهواء مثل سائر المواد وهو لا يوجد إلا مركبا مع الكلس والصخور وهو يكون مع التراب والتراب يدخل النبات والنبات يدخل الحيوان فالفوسفور جزء من عظامها فهو يتكون مع الاكسوجين ويكون فيها حمض الفوسفوريك وعظام الرجل الواحد يستخلص منه خمس رطل فوسفور خالص .

(٥) المغنيسيا هو مركب المغنسيوم مع الاكسوجين . فالمغنسيوم معدن فضى اللون لين قابل لأن يسحب شريطا وخيوطا ولا يكون صرفا فى الطبيعة بل مركبا مع أجزاء أخرى مثل المادة الفحمية (الكربون) ومع المادة الرملية (السليكا) والمغنسيوم إذا أشعلناه يعطى نورا لامعا أبيض صافيا . وبخار المغنسيون أسود وهو يصعد منه بدون احتراق .

(٦) حمض الكبريتيك هو مركب من الكبريت مع غيره . والكبريت موجود فى الطبيعة صرفا فى جوار البراكين وقد يكون مركبا وهو جامد أصفر اللون قصم ذو رائحة خاصة سريع الاشتعال وعند الاشتعال يكون غازا قوى الرائحة معطسا خانقا ساما وله ألفة شديدة للمعادن . والكبريت يتكون مع الاكسوجين فيكون حامض الكبريتيك الذى يقال له فى التجارة (روح الزاج) الذى يستعمل فى الصابون .

(٧) والسليكا هى مادة مركبة من السليكون مع الاكسوجين والسليكون مادة بلورية سوداء ويستحضر بإزالة الاكسوجين من السليكا ، والحجر المسمى بالكوارتس أو دب الملح المتبلور إنما هو سليكا صرف والرمل والصخور الرملية كلها سليكا صرف أو ممزوج ببعض المواد الأخرى وهكذا بعض الأحجار الكريمة مثل الجشت واليشب واليشم وهو الحجر اليمانى والعقيق والياقوت وحجر الصوان والخلقيدونى سليكا، وأنواع الرمل الملونة سليكا ملونة بأوكسيد الحديد أو مواد أخرى وهو موجود فى قشر جميع أنواع القصب والخيزران وسوق الحبوب والحشائش وذلك سبب إبداء حروف السكاكين بها، والسليكا موجود فى أكثر المياه الطبيعية فى حال الذوبان وبكثرة فى مياه الينابيع الحارة فى (سيلانده) والزجاج والخزف الصينى والفخار والآجر سليكات ، والزجاج يصنع بإحماء مزيج من الرمل الأبيض (السليكا) والكلس أو الصودا أو البوتاسا مع أوكسيد الرصاص .

(٨) أما الكلور وهو (الكلورين) فهو لايكون حرا فى الطبيعة ويكون فيها مركبا مع الصوديوم وهو ملح الطعام ، والكلور الذى هو الجزء المتمم للملح غاز مفطس لونه مصفر مخضر رائحته مفطمة خانقة يحدث سعالا شديدا وهو سام .

(٩) أما أوكسيد الحديد فهو الاكسوجين متحدا بالحديد والحديد قليل جدا فى النبات وهو معروف فلا نطيل به .

فلما سمع صاحبى ذلك قال هذا من علم الكيمياء، وقد أطلت فيه وإنى أخاف أن قراء هذا التفسير تنبو طباعهم مع علمى بأنك تحاشيت فى هذا المقام أن تأتى بما يصعب من أوصاف هذه العناصر ونحن الآن فى تفسير

آيتين من كتاب الله تعالى آية «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» الخ . وآية «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا»

إن هذا المقام يحتاج إلى الحصر وجمع العلوم بحيث تكون هذه الكيمياء منسجمة مع ما سيأتى بعدها ويكون الموضوع هيئة واحدة لا انفصام لها حتى تأخذ بمجامع القلوب لأن هذا المقام حقيقة غريب وإذا انتظم شمله والتأمت أطرافه واستوفيت تفاصيله سرى فى العقول الانسانية كلها لا الاسلامية وحدها وحصلت به فكرة نافعة لهذا العالم الانسانى . فقلت له إن الأمر فى هذا المقام سهل فاننا نقول إن جميع النباتات مركبات من هذه التسعة ومثلها الحيوان والانسان لأن هذين على مقتضى النبات ، فاذا رأيت الذرة والقمح والشعير والقطن والبرسيم وأمثالها فاعلم علما ليس بالظن أن أزهارها وأوراقها وأغصانها وعروقها الضاربة فى الأرض كلها مركبات من هذه العناصر .

(١) فاستحضر أمامك قطعة من البوتاسا . إن هذه البوتاسا منها ماتسمى بالبوتاسا الكاوية ومحلولها يستعمل فى تحضير الصابون اللين أى (الصابون البوتاسى) وانظر كيف يشتعل إذا ألقى فى النار ، فهذا جسم نارى لاغير .

(٢) وأحضر أيضا قطعة من الملح فان فيها الكلور وهى المادة المقطعة وفيها الصوديوم وهى المادة المحرقة .

(٣) وقطعة من الجير الحى .

(٤) والعيدان الفسفورية التى يوقد بها الناس إذ تلتهب بالحك ، قد جعل الفوسفور متحدا مع مادة أخرى فى أعلى العود وبه يكون الالتهاب .

(٥) وقطعة من الكبريت الذى تقدم لك وصفه .

(٦) وقطعة صخر رملية .

إذا جمعت هذه أمامك فقل إن أمامى كل نبات وكل حيوان ، ماهى النباتات على الأرض ؟ هى مواد محرقة ، مواد كلها مهلكة . اللهم إنك أنت الحكيم وأنت العليم وأنت الجميل ، يا الله رأينا جمالك فى الدنابل الموت رأينا فى هذه المادة حكمتك وبدائعك وجمالك . لماذا هذا ؟ لأنك صنعت قطننا وذرتنا وقمحنا من مواد محرقة ، ولماذا كانت محرقة مهلكة ؟ لأنها مخلوقة وسائر العناصر التى تبلغ نحو (٨٠) من ذرات ضوئية وماهى إلا نقطة تسمى (الكترونا) تكون فى المركز ثابتة وهى كهرباء موجبة وأخرى تدور حولها وهى تسمى بروتونا وهى كهرباء سالبة وتدور السالبة حول الموجبة ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية الواحدة وباختلاف عدد الكترونات والبروتونات تكون هذه صوديوما وهذه كبريتا وهذه فوسفورا وهكذا .

اتضح الأمر وظهر وعرفنا أن هذه القطع التى أمامنا الآن وفيها ملح الطعام المشتمل على جسمين مهلكين وفيها البوتاسا الخ كلها عبارة عن كهرباء اختلفت أجزاؤها فاختلفت أوصافها فكانت النتيجة أنها جميعها مواد محرقة ؟ لماذا لأنها مركبات من كهرباء أومن نور الحركة السريعة والحركة توجب الحرارة والحرارة تكون كهرباء وتكون نورا وهكذا .

إن من الأجسام الداخلة فى النباتات الكبريت والكبريت يتركب البارود منه ومن ملح البارود ومن الفحم ، فمن ملح البارود ٧٨ فى المائة ومن الكبريت عشرة ومن الفحم ١٢ إذن البارود دخل فى تركيبه الكبريت ، ذلك الكبريت الذى دخل فى النبات كما سيأتى وصفه ، ومقادير أجزاء البارود عند الدول الآتية ماياتى بيانه :

	فرنسا	ألمانيا	انجلترا
ملح البارود	٧٥٫٠٠	٧٤٫٠٠	٧٦٫٠٠
كبريت	١٢٫٥٠	١٠٫٠٠	١٠٫٠٠
فحم	١٢٫٥٠	١٦٫٠٠	١٤٫٠٠

هذا تركيب البارود عند هذه الأمم . إذن الكبريت الذى دخل فى القطن وفى القمح وفى الذرة وفى البرسيم دخل فى البارود ، فالمادة التى تركب منها غذاء الانسان وغذاء الحيوان نار مشتعلة فكيف اطمأنت هذه النار وكيف سكنت . وما الذى أسكن هذه النار وأقرها حتى أصبحت طعامالنا وشرابا وفاكهة وأبا متاعا لنا ولأنعامنا ، ثم كيف تكون هذه الأرض نارا ملتهبة أو كهرباء مذبذبة وتصبح خضرة وكيف تكون حركات ذراتها ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية فما الذى كسر تلك الحرارة وأخمدها وثبتها فانقلبت حالا إلى عناصر فيها تلك الخواص المحرقة ؟ ما الذى أخمد تلك النار المتقدة .

إن خواص الكلور وخواص الصوديوم وخواص البوتاسيوم وخواص الكبريت كلها ترجع إلى الحرارة والاحتراق ولكن هذه بالنسبة لحرارة الكهرباء فى ذراتها قليلة إنها محرقة جدا فإن الحركة السريعة فيها أعظم والحركة تتبعها الحرارة . أما الجواب على ذلك فإنه يظهر لى أن هذه العناصر فيها قوة من عالم آخر غير العالم الأرضى سكنتها فأخضعت تلك الذرات المشتعلات على القوة الموجبة والقوة السالبة الكهربائية وهذه القوة نسميها نفسا معدنية وبها حفظت تلك الحركات وانقلبت إلى خواص عرفناها فى الصوديوم والباتاسيوم والفوسفور والكبريت . ثم إن هذه العناصر أيضا دخلت فى النبات .

﴿ الكلام على النبات ﴾

فانظر إلى (البوتاسا) فهى فى شعر القطن (٥٫٥٠٠) فى المائة وفى بذره (٣٢٫٣) فى المائة وفى خشبه (٣٢٫٩) فى المائة . وقد دخلت فى عود القمح (٣٢٫٩) فى المائة وفى حبه (٣١٫٥٤) فى المائة وفى تبنه (١٥٫٦٤) فى المائة ، وهكذا بقية العناصر لها نسبها كلها مذكورات فى (سورة البقرة) فارجع إليها عند الطير وإبراهيم . فاذا قرأت هذا الموضوع هناك وضممته إلى ماهنا عرفت أن مطعوم الانسان والحيوان عبارة عن هذه القطع التى أحضرتها أمامك الآن وأكثرها محرقة مهلكة . فياليت شعرى ما الذى قلب وضعها ؟ والجواب على ذلك أن هناك نفسا نباتية كنا فيما مضى نعدها أقل من النفس الحيوانية ولكن الكشف الذى تقدم فى (سورة الحج) على يد عالم هندى أبرز لنا أن النبات يحس ويتحرك فبناء عليه أصبحنا نعجب من كهرباء موجبة وسالبة اختلفت مقادير جزئياتها وحركاتها فأعطتنا عنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا ، أعنى أنها فى المعادن أعطتنا فوسفورا محرقا وكبريتا محرقا وبوتاسيوما كذلك وإن تنوعت الصفات وههنا ارتقت فى الاعطاء فانها أعطتنا الغذاء كالبر والفاكهة كالتفاح والدواء (كالسنامكى والخروع) والداء كشجرة تسمى (الداتوره) والسام والمخدر كالأفيون عند كثرته أو عند قلته ، وأعطتنا الحلو والحامض والمز والحريف ، وأعطتنا ما لايتناهى من العجائب والحكم مما لايحصره العد ، وياليت شعرى من أين جاءنا ذلك الذى سميناه نفسا هنا فى المعدن وفى النبات فقال صاحبى إنها كامنة فى المادة كمون ماء الورد فى الورد . فقلت وإذا كانت هذه التى سميناها نفسا نباتية وما قبلها التى سميناها نفسا معدنية إنما ظهرت بعد الكمون فى تلك الذرات الكهربائية فلماذا لم تبرز أرضنا حرارة كحرارة الشمس وتستغنى عن حرارة الشمس ؟ إن أرضنا لا تنال حياة لحيوان ولا نموا لنبات إلا بماء وحرارة ولكن الحرارة تأتى من الشمس والنجوم لا من الأرض والماء يستحيل حصوله إلا بضوء الشمس المثير البخار المجرى للهواء الحامل للسحاب . فالمطر على الأرض الجارية بسببه الأنهار فلا نهر ولا سحاب ولا رياح إلا بالشمس . ولما امتحنت أرضنا إلى (أمرين) وهما إصلاح الظواهر بالحرارة وإصلاح البواطن بنفس مدبرة ورأينا أنها

عجزت عن إصلاح أسهل الأمرين وهو ظواهر الأجسام بالانضاج فمن باب أولى تعجز الأرض عن أن تضم بين جوانحها أعظم الأمرين وهى النفوس المدبرة فثبت بهذا البرهان أن المادة ليست فيها نفوس مطلقا لا نباتية ولا حيوانية ولا ما سميناه نفوسا معدنية لأنها محتاجة جد الاحتياج إلى حرارة الشمس والإصلاح ما عليها من حيث ظاهره . إذن النبات نفوس جاءت من عوالم أخرى نجهلها كل الجهل وهذه النفوس المجهولة لنا كل الجهل تحل فى النبات عند استيفاء شرط الانبات وتعدل تلك الذرات وتستخرج بها وفيها أفانين الصور والأشكال والثمرات العجيبة .

﴿ الذرات فى عالم الحيوان ﴾

ثم إذا وجهنا نظرنا تلقاء الحيوان ألفيناه مركبا مما تركب منه النبات لأنه غذاؤه وحكم المركب حكم أجزائه فهذه البوتاسا وهذه الصودا وما عطف عليها كلها داخلات فى أجسام الحيوان ولقد أتت بالعجب العجاب فيه أكثر مما فى النبات . فإذا رأينا الكبريت قد دخل فى البارود (بارود الحرب) غير ما [illegible] مع الفحم وملح البارود بهيئة خاصة بحيث يكون نقيا مع فحم نباتى خاص فهناك يأتى بالمقصود من الحرب وهكذا . إذا رأيناه أى الكبريت مع أخويه مستعملا فى المخاليط المضيئة والفرقعة والمحرقة فى الحرب وفى السواريخ التى جعلت لاحراق مواد العدو والقابلة للاحتراق بترتيب غير ما تقدم وأجزاء بحيث تختلف عما قبلها فتكون ثلاثة أجزاء من البارود المحبب و (٤) من البارود الترابى و (٢٨) من الكبريت ولهب هذا الساروخ يكون متسعا واذا أريد بالسواريخ إنارة الأماكن لترى ليلا يكون من ملح البارود (٨) أجزاء والكبريت (٢) ومن الأنتيمون جزء واحد والضوء إذن يكون شديدا . وقد تظهر السواريخ بهيئة مطر فهذه تكون بأجزاء بهيئة غير ما تقدم . وإذا نظرنا إلى نفس الكبريت الذى جعلناه مثالا هنا فى النبات واقتصرنا على القطن ألفيناه كما تقدم داخلا فى شعره بهيئة حمض الكبريتيك نحو (٨) فى المائة تقريبا وفى بذره (٣) فى المائة وفى الخشب (٥) فى المائة . إذن الكبريت الذى أعان على أنواع البارود والسواريخ وكشف الأماكن وإحراق العدو ها هو ذا أعان فى النبات أى فى القطن خاصة على حصول شعر القطن . ذلك الشعر المركب من شعرات هى أنابيب مفرطحات مركبات من مادة (سليولوز) وهذا الشعر يخلطه بحامض النتريك وبحامض الكبريتيك يكون هو قطن البارود الذى إذا سخن احترق بحيث لا يترك فضلة وهذه المادة جعلت مع مواد أخرى وصبت فى قوالب فصارت مفرقعات ، فالكبريت كما دخل فى المفرقعات المعدنية دخل فى المركبات النباتية .

﴿ الحيوان ﴾

ثم إنه هو وجميع المواد الأخرى يدخل فى جسم الحيوان . إن الحيوان يغتذى بالنبات ويتشكل ويتمثل بمادته فيحصل هناك تنوع لا حد له ، فبينما نرى الحية السامة المتغذية بالمواد العفنة والأسد الضارى المغتذى بلحم الحيوان والنمر والطيور الكاسرة نرى أنعاما ودواب وطيورا مغردة سارة وأخرى مرقشة الصور جميلة الهيئة متقنة الأجسام ، ونرى الجو والبحر والبر ملئت أنواعا يخطئها العدو كلها مختلفة الصور ، والادراكات والأعمال والأمكنة والأغذية وهكذا . كل هذه لم تخرج عن كونها مركبات من المواد المحرقات المتقدمة ، وهنا يرد نفس السؤال المتقدم ؛ لم أصبحت المادة الكهربائية التى هى الكترونات (كهربائية موجبة) وبروتونات (كهربائية سالبة) تجرى حول الأولى . أقول لم أصبحت هذه فى الصود يوم حرارة وفى النبات أغذية وأدوية ثم أصبحت فى الحيوان اليوم حسا وحركة وحياة وتعقلا لأمور المعاش وأجهزة العنكبوت داخلة فى جسمه منها يستخرج نسيجه الذى يستعمله لاصطياد الحشرات كالذباب مثلا وفى النحل لاصطناع العسل وحفظ الولد ونظام الجمهورية وفى حيوان المرجان لاحداث جزائر وجزائر تعد بعشرات الآلاف فى البحر

(انظر صور جزائره في آخر سورة الفرقان فيما تقدم) وهكذا كيف انقلبت تلك الحركات الذرية الضوئية الكهربائية اتحادا بين أنواع الذرات الميكروسكوبية المحدثة للجدرى والحمى فتعاونت تلك الحيوانات التي لا ترى على إهلاك نوع الانسان أو أنواع أخرى كالخيل والأنعام وهكذا . أقول والجواب على ذلك : عين الجواب المتقدم في النبات . إن الأرض والمواد التي فيها ليس عندها شيء كامن فيها يصنع هذه العجائب كالقوى المخبأة في أدمغة الحير التي بها تعرف الطرق والمسالك وتحيط بها علما يقصر عنه الإنسان ، وإذا كانت أرضنا كما تقدم لم تجد في عناصرها حرارة تغنيها عن حرارة الشمس للحياة ولا ضياء ينير السبل فكيف قدرت هذه المواد أن تحدث لنا نفوسا دراكة تعطى حيواناتنا الأخرى معا نظام تركيبه وهدايته إلى معاشه وإلى سبله في حياته ، فإذا كانت الأرض عجزت عما به الاضاءة والانضاج فالأعجزها وأضعفها عن أن تأتى لنا بالقوة النامية الحيوانية والادراك والتدبير ومعرفة الطرق وتربية الذرية . كلا . ثم كلا . إن هناك نفوسا ليست من هذه المادة رفعت القوة التي في العناصر فنوعت حرارتها التي كانت محرقة في الكبريت ومفرقعة في القطن إلى حس في الحيوان وتبصر فيه وإدراك وهداية بالنجوم والشمس والقمر .

﴿ الإنسان ﴾

ههنا نأتى إلى عالم الانسان ونقول فيه ما قلنا في الحيوان ولكننا نرى فيه عجائب لا تحصى ، ففيه الأنبياء والحكماء والملوك ، وفيه النصابون واللصوص والسفاكون . أقول لا غرابة فمادته معروفة ، إياك أن تنسى أنه هو نفسه فوسفور وما معه فهو كالنبات وكالمفرقعات المتقدمة ، فهذه النفس التي دخلته من عالم أعلى من عالمنا يجب أن تكون على شاكلة الجسم ، ذلك لأن الظرف يلائم المظروف كالأن الصدف ملائم للجوهر فيه ، هنا لك يظهر لك لم كان البون بين الناس عظيما ، فهذا ملك وهذا شيطان ، ذلك لأن الاختلاف في الانسان أعظم من الاختلاف في الحيوان وفي الحيوان أعظم من الاختلاف في النبات وفي النبات أعظم الاختلاف في المعادن . إن المسافة هنا شاسعة جدا ، فالنفوس الحالة في الأبدان إما أن تغلب هي فتقلب القوى الهائلة في الذرات التي علمت إنها كهرباء كلها إلى منافع وفضائل . وإن غلبت قوى الذرات أزلت النفس إلى مراتبها وغلبت طباعها .

إن بين نفوسنا وبين المادة مشاكلة . إن المادة كهرباء كما قدمنا وهي شديدة الحركات ونفوسنا يظهر أنها من عالم ألطف جدا فغرها سراب هذه الكهرباء فخدعت بها فدخلتها فحبست فيها وأخذت تسمى طوعا أوكرها . وها هي ذه تجاهد وقد حولت تلك القوى المادية المهلكة إلى حس وحركة وخيال وقوة مفكرة وقوة حافظة وأخذ العالم ينطبع في قوى هذه النفس انطباعا وكأنها نور أشرق من لدن الحضرة الإلهية . ولما نزل إلى الأرض وغمرته المادة أخذ يتطلع كرة أخرى إلى الملأ الأعلى فظهرت في لوحة نفسه صور السموات والأرضين على مشاكلة طبعه الإلهي الذي نسيه فهو من نور إلهي ، وهنا يقع التفاضل . فالنفوس الضعيفة تصور العالم كله إجمالا ولكنها لا تعير هذا التصور التفاتا ولاتعقله بل تهمله والنفوس الكبيرة تعلم علم اليقين بالظن أن هذه القوة والقدرة خلقت فينا لندرس بها هذا الوجود وإلا فلماذا نراها حاضرة عندنا ولماذا نراها في عذاب واصب في هذه الأرض لاراحة لنا ، كل ذلك لنعلم أننا مخلوقون لعالم أعلى ولن ندركه إلا إذا عرفنا قيمة أنفسنا التي لا تفتأ تذكرنا بمجدنا الأثيل وعلمنا الرفيع وشرفنا الأعلى .

ها هو ذا الانسان هو المركب من تلك العناصر المحرقة والنفس الحالة فيه ليست من هذا العالم بما قدمنا من البرهان لأن هذا العالم الأرضي لم يقدر أن يستغنى بضوء لنفسه من نفسه فهو عن ضوء العقل أعجز ، إذن نفوسنا من السموات أي من عوالم أشرف من الأرض . هذا هو البرهان الذي اطمأنت له نفسي . هذا هو البرهان الذي أبني عليه ما يأتي :

[أولا] أذكر نظام الانسان فى مدنيته .

[ثانيا] أتبعه بغاية ماوصل اليه بعقله وذكائه فى اجتماعه وسياسته .

[ثالثا] أذكر كيف كانت الأمم المغلوبة لغيرها يسرع إليها الفناء .

[رابعا] أذكر أن الأمم الغالبة تلحقها فى ذلك مع ذكر شواهد التاريخ .

[خامسا] أبين أن الإنسان فى ذلك لم يبلغ شأو الحيوان فى الإبداع حتى أنه عجز عن أن يصنع ماصنعه المرجان من إحداث أرض تنفع الإنسان والحيوان .

[سادسا] أتبع ذلك بخطاب عام للأمم الاسلامية كلها شرقا وغربا .

كل ذلك تفسير لهاتين الآيتين «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» الخ وقوله تعالى «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» فههنا إذن [ستة أمور] .

﴿ الأمر الأول : فى ذكر نظام الإنسان فى مدنيته ﴾

سياسات الإنسان

هل لك أيها الذكى أن أسمعك كلام العلامة الفارابى الذى لخصته فى كتب كثيرة مثل كتاب [نهضة الأمة وحياتها] أذكر لك الآن ماملخصه . إن من الناس من قالوا إنما الحياة هى اللذات فعكفوا عليها وتركوا ماوراءها وهؤلاء يسمون ذوى الحياة الحسية . وآخرون يقولون إن المدار فى الحياة على الكرامة فلنعش على الكرامة والعظمة لأن المقصود من الحياة ذلك ، وآخرون يرون أن الحياة يجب أن تكون بالغلبة فيفعلون فعل الأسود والنمور ، وآخرون قالوا إن الإنسان مدنى بالطبع وهؤلاء انقسموا (قسمين) قسم مدينته فاضلة وقسم مدينته فاسقة فأهل المدينة الفاسقة هم (١) إما اجتمعوا بطريق النسب والعصبية وغلبوا غيرهم (٢) أو بطريق اللغة فأهل اللغة الواحدة يستعبدون سواهم (٣) وإما بالوطن فأهل الوطن الواحد يستعبدون سواهم (٤) وإما بالدين فأهل الدين الواحد يذلون سواهم ويدوسونهم (٥) واما بالمعاهدة فالدول المتعاهدة المتعاقدة تستعبد غيرها (٦) وإما بالمصاهرة فالأمم التى يتصاهر ملوكها أو ذوو الأمر فيها يكونون عونا على من سواهم . (٧) وإما بالاستعباد فالأمة تستعبد أخرى وهما معا يستعبدان أخرى وهكذا (٨) وإما بملك جامع يجمعهم فيكونون حربا على من سواهم .

هذه هى التى ذكرها الفارابى فى كتاب ﴿ أهل المدينة الفاضلة ﴾ وجعل هؤلاء كلهم أهل مدينة فاسقة خارجة عن الحق . وإياك أن تظن أن الاجتماع الذى اجتمعه المسلمون من هذه المدينة الفاسقة لأن المسلمين الأولين كانوا يعرفون لماذا يخضعون الأمم ، كانوا يخضعونها للرابطة الإنسانية الدينية وليعلموهم ، فلما انحطت مدارك المسلمين نسوا أن الفتوح للدين ولرقى الأمم فأذلوا الأمم فطردهم الله من ديارهم ، هذه آراء أهل المدينة الفاسقة فى نظر الفارابى ، وعلى هذا القول تكون الأمم المعاصرة لنا كلها فاسقة لأنها اجتمعت بالوطن وبالعصبية أو بالمعاهدة فإنك ترى أن الانكليز تعاهدوا مع اليابان على الروسيا سابقا فهزموها فهذه غلبة بالمعاهدة ، كذلك اجتمعت أوروبا سابقا أيام حرب (البوكسر) فى الصين على حرب هذه الأمة ولم تنل أوروبا كلها منها حظها وهاهى ذه الآن غلبت أوروبا كلها . والمقصود من هذا المقال أن الأمم الحالية فى رأى العلامة الفارابى فاسقة وذلك أنها ليست تراعى إلا أنفسها وتريد الخير الخاص مع إذلال غيرها وإهلاكهم ، وهذه الخصلة بعينها هى التى كانت فى نفس المادة لأنك علمت أن المواد المعدنية الداخلة فى النبات وطباعها نارية وهذه الطبيعة النارية هذبها أولا القوة المعدنية ثم القوة النباتية ثم القوة الحيوانية ، فلما جاء الإنسان بقيت فيه طبائع النار وهاهو ذا آخذ بالتهذيب شيئا فشيئا ، ههنا أقف وقفة لأنظر معك أيها الذكى . لقد تبين من هذا كله أن الإنسان الحالى

لا تزال فيه طبيعة النار المتقدة وهذه النفس التى نزلت من السماء وهبطت إلى الأرض ودخلت هذه الهياكل الجثمانية لم تزل طبائعها تقترب من طباع الآساد وطباع الكبريت والفوسفور والكلور ، إن المادة أشبه بجهنم فهى جهنم الصغرى والله كونها بهندسة ونظام دقيق قد استبان لك فى دقة الحساب إذ يدخل العنصر الواحد فى أنواع من النبات بأوزان تختلف باختلاف النبات كالبرسيم وكالقمح وكالقطن فترى ذلك فى (سورة البقرة) فى الجدول هناك عند آية الطير وإبراهيم إذ يكون الوزن مختلفا باختلاف النبات ولولا هذا الوزن لم يكن قطن تلبسه ولا بر تأكله ولا برسيم تأكله الدواب ، فالحساب فى ذرات هذه كلها جار بلا خطأ ولو حصل أى اختلاف فى الحساب لم تكن هذه الحياة ولا هؤلاء الأحياء . إذن الله فعل مع المادة التى نعيش فيها مثل ما سيفعل مع النار يوم القيامة .

إن الجبار يضع قدمه فى النار (كما فى الحديث) فتقول قط قط . فها هو ذا سبحانه وضع النفوس المعدنية والنباتية والحيوانية فانتظمت أحوالها . ولقد هذبت هذه المادة تهذيبا حسنا وسارت سيرا مستقيما بسبب حساب الذرات الذى هو أوفق لهذه النفوس التى نزلت للأرض من عوالم أخرى ، فالله على صراط مستقيم قال تعالى «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه» الخ ، وقال «ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم» ولا جرم أن الدواب والنبات كلها موزونات ذراتها بوزن لا عوج فيه ولولا ذلك ما عاشت ولا نما الحيوان ولا النبات ولا وجد فى الأرض ، ويقال فى الصراط (إنه أدق من الشعرة وأحد من السيف) وصراط الله كذلك لأنه لولا هذا الحساب ما كان حى ولذلك ذكره عقب ذكر الدواب ، ونحن نقول «اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم» وصراط الذين أنعم عليهم هو صراط الله وصراط الله هو الذى عرفته فى نظام هذا الوجود . إذن وصلنا إلى المقصود .

هذه أرواح بنى آدم جاءت إلى الأرض وجعلهم خلفاء أرضه ، لم يجعل الله عقولنا كعقول الحيوان بل فتح لنا باب الفكر وقال انظروا فنظر الفارابى هذا النظر فى نوع الإنسان وقال إنهم فساق ، ثم أذكر آراء العلامة الفارابى فى سياسة الإنسان .

﴿ أهل المدينة الفاضلة ﴾

وقد ذكرت هذا المقال فى مواضع من هذا التفسير وأنا أجمله هنا الآن . قاس مجموع الأمة على نظام الجسم الإنسانى وأخذ يشرح الجسم كالأعضاء وأعصاب حس وأعصاب حركة وتكلم على أعضاء الهضم وأن الفم يخدم المعدة والمعدة تخدم الأمعاء وهكذا ويلخص كل ذلك فى أن الأعضاء منها خادم ومخدوم والقلب كالوزير للدماغ وهو مجلس القوة الحاكمة واستنتج من ذلك كله أن كلا من أبناء الأمة يوضع فى مركزه الذى استعد له فكما استعدت العين للابصار والأذن للسمع والمعدة للهضم والدماغ للتفكر هكذا يجب أن يكون أرباب الرأى هم الحكام وأرباب القوة هم الجيوش وهكذا ، وأبان أن التركيب إذا اختل اختلت المدينة وصارت فاسقة ، ويرى أيضا أن أهل الأرض كلهم يجب أن ترتب دولهم على هذا المبدأ بحيث تكون كل دولة فى مركزها الخاص بها اقتصادا وعملا ويصبح الناس كلهم أمة واحدة فإن خالفوا ذلك كانوا فساقا ولكنه لم يوضح تعليمهم العام بل تركه لمن يفهم ذلك بعده ، وأنت ترى أن آراءه تستمد من نفس الطبيعة وتنحو النحو الذى أثبته لك فى هذا المقام .

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذى ألهمت الحكماء فعبروا عن صراطك المستقيم بما شاهدوه فى عملك ، قاس الفارابى نظام الأمة على نظام الجسم الإنسانى وهكذا جميع الأمم وإن كان قوله إجماليا ، وأنا قلت هنا إنك أنت أخضعت المادة بالنفوس التى أنزلتها إلى الأرض وهذه النفوس من النور الذى أبدعته فنفوسنا نور

إلهى ولذلك يسمونها بالجزء الإلهى فينا ، ونحن الآن لم نصل إلى الدرجة التى بها نسعد فى الحياة لأنك أنت على صراط مستقيم ونحن لم نسر على صراطك الذى نقوله كل صباح « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم » ومن أعظم النعم عليهم أولئك الذين تكون مدنيتهم على هذا النمط ويكونون فى السلام الذى نقوله فى التشهد (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) وأنت تقول لنا « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » وتقول لنا « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » جعلت الدار الآخرة مرتبة على عدم العلو فى الأرض وعدم الفساد فيها ، فقولنا فى الصلاة (السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين) تدخل فيه تلك الحال التى يكون الناس فيها أمة واحدة إذ يكونون مصلحين فى الأرض غير مفسدين وهم منعم عليهم لا يريدون العلو بل يكون الملك والعرش للمنفعة العامة وخدمة المجموع لا للأغراض الخاصة التى هى شأن أمم الأرض قاطبة اليوم .

أنا قلت لك إن العلامة الفارابى لم يبين تعليم الأمم ولم يفصله ولكن الذى تعرض للتعليم هو أفلاطون فى جمهوريته التى جعلها على لسان (سقراط) أستاذه فأنا أورد جملا منها الآن ثم أتبعها بآراء فى زماننا .

(آراء أفلاطون فى سياسة الإنسان)

ذكر أفلاطون فى المقالة الخامسة من جمهوريته أن التعليم لا يختص بالرجال بل يعم الرجال والنساء معا وقال إن التفاوت بين الرجل والمرأة راجع التفاوت فى التعليم وبذلك يشاركن الرجال فى الحرب والوظائف المدنية ويتعلمن الموسيقى والرياضة البدنية كالرجال سواء بسواء ، وهنا ذكر كلاما لا ينبغى لأنه لا يوافق عاداتنا ولا ديننا . وقال فى المقالة السادسة (إن معرفة الوجود الحقيقى لا تكون إلا للفيلسوف لأنه هو وحده الذى يحتقر الظواهر ، وهو وحده الذى ينفر من الكذب ، وهو يحقر مايستعظمه الجمهور من متاع الدنيا إذ لا يريد إلا التشبه بالنظام الأزلى) وأخذ يذكر تربية الحكام فقال (يجب أن يكونوا قادرين على العلم والعمل فيصطفى أذكى أهل المدينة وأكثرهم حافظة وأصبرهم على التعب ويمتحنون فى الأشغال الفكرية والجسمية ويؤخذ أفضلهم للرياسة) ثم قال (وهذا الجد والنصب والتعب لابد منه لمن يريد أن يرتقى إلى معرفة أعلى العلا وهو معنى الخير المحض (وهو الإله فى كلام أفلاطون) ثم قال : إن الخير للمعانى كالشمس لبقية الموجودات منها يستمد كل موجود وجوده وبقاؤه ولا يعرف إلا بها) ولا طريق لها عنده إلا العلم الإلهى الذى له (طريقان) طريق الجمع وهو الاستقراء أى الارتقاء من المعانى المفردة إلى ما هو أرفع منها إلى أن يبلغ إلى جمعها تحت معنى عام ، والثانى طريق التحليل والتقسيم بين المعانى الجامعة إلى أن ينتهى التحليل إلى المعانى المفردة) انتهى من ترجمة الأستاذ (سنتلانه) .

ولعل بعض هذه المعانى غامض فأوضحه قائلا (إنه يقول إن الله سبحانه وتعالى كالشمس فكما أن الشمس بها ظواهر الحياة وبها هدايتنا لطرقنا هكذا الله به قوام الحياة وبه هو معرفة المعانى فهو المحيى وهو الهادى وعقولنا إن لم تستمد منه لم تعرف شيئا كما أن أجسامنا إن لم يحيها هو لم تحى) وطرق الاستدلال التى ذكرها هى فى العلم الإلهى من فن الفلسفة بحيث يدرس الإنسان هذه الدنيا إما بالتحليل والتقسيم وإما بطريق الاستقراء ومن اطلع على هذا التفسير عرف مجمل ما يقوله . وذكر فى المقالة السابعة مسألة المعرفة وضرب للناس مثلا بالمغارة التى تحت الأرض وفيها أناس مغلولون منذ صباهم معتقلون فيها فى رقابهم أطواق من حديد تمنعهم كل حركة ولم يروا إلا ما أمامهم من النور إذ لا يلتفتون يمنة ولا يسرة ووراءهم نار على ربوة وهى تنير المغارة وبين المغارة والنار طريق وبجانب الطريق حائط على طوله وقد كثر المارون بهذه الطريق وهؤلاء المارون يحملون تماثيل مختلفة وأنواعا من البضائع ثم إن أصحاب المغارة أشبه بنا الآن لأنهم لم يروا

من أنفسهم إلا الظل ولم يروا نفس الأشياء وهذا الظل للتماثيل والأمتعة ، ثم إن هؤلاء إذا تحدثوا فإنهم يجعلون لتلك التماثيل أسماء ويحكمون بأنه ليس في الوجود سواها فإذا انطلق أحدهم من المغارة فإنه يستحيل أن يقدر على مقابلة الأنوار إلا تدريجا فهنالك يتعود ذلك المنطلق منهم على أن يرى ظل الأشياء أولا في الماء ثم يرى نفس الأشياء ، ثم ينظر السماء ليلا أولا فيرى الكواكب ثم يرى القمر ثم الشمس ثم يعلم أنها سبب الفصول والأعوام وسبب كل ما يحدث على الأرض وكل ما يراه في المغارة ثم يرجع إلى أهل المغارة ليهديهم إلى ماهدى إليه شفقة منه عليهم وهنالك يتعود على الظلمة شيئا فشيئا حتى يقدر أن يعيش معهم ثم يحدثهم فيسخرون منه ويتسبونه للجهل وربما تحدثوا بقتله ثم قال فهذه حال الناس في الدنيا بالنسبة إلى حقيقة المعرفة فالمغارة هي هذا العالم المحسوس والنار ضوء الشمس والأسير المغلول الذي خرج من المغارة هي النفس إذا ترقت إلى عالم المعاني فإذا بلغت النفس أقصى العالم المعقول فهنالك تعرف بعض معنى الخير المحض (يريد الله) فإذا شعرت بذلك عرفت أن الخير المحض (يريد الله) هو علة كل مافي هذا العالم من الجمال والخير ، ومتى أدرك الإنسان ذلك صغر لديه كل ما في هذا العالم وتعذر عليه توجيه همته إلى الأمور السخيفة التي هي مطمع أبناء جنسه وشغل أعمارهم في هذه الدنيا اهـ .

ثم قال (أفلاطون) ومن هذا يستدل على أن المعرفة لا تحصل للنفس دفعة واحدة كما يفتخر به بعض الناس إذ يقولون (نحن ندخل المعرفة مرة واحدة في النفوس الخالية منها كما يفعل بالمكفوف البصر بأن يرجع له الإبصار ، والحق على خلاف ذلك وهو أن كلا منا له قدرة طبيعية على إدراك العلم وله كذلك آلة معه لهذه الغاية والحيلة فيه أن يحول هذه الآلة والنفس أجمع من مشاهدة مايفنى إلى مشاهدة ما هوموجود في الحقيقة إلى أن يتعود شيئا فشيئا على مشاهدة ماهو كالشمس في الوجود وهو الخير المحض (يريد الله) ثم قال أفلاطون وعلى هذا فليس الأمر أن تحصل على الإبصار إذ الإبصار حاصل لكل منا لكن آلته لم تنظر حيث يجب أن تنظر فينبغي تقويمها لكي تنظر حيث يجب) .

ثم رتب على هذا كيف تكون تربية الحاكم الفيلسوف ليستعد للحياة النظرية والعملية معا فقال بعد الفراغ من التربية المفروضة على جميع أصحاب الرياسة وهي الموسيقى والرياضة البدنية يصطفى منهم من هم أقوى جسما وأصح عقلا وأصبر على المشاق وأنقى وأتقى وأكثر قوة على التعرض للمخاطر وابتعادا عن الملاذ والشهوات فيعلمون أولا علوم الرياضيات الحساب والهندسة والموسيقى ، فهذه العلوم مع الاحتياج إليها في العمل تعود النفس على مراقبة الأشياء الدائمة التي لا يلحقها التغير لاقترابها من الوجود المحض (الله) .

ثم يتلو هذا التعليم الرياضة الحربية مدة عامين أو ثلاثة ثم الرياضات من جديد حتى يبلغ التلميذ من عمره ثلاثين سنة ثم يتعلم العلم الإلهي فيبحث عن علل الأشياء وجوهرها العقلي وهذا هو البحث عن الوجود ، قال أفلاطون (إن هذا العلم لبقية العلوم كالشخص للظل وكالعلم لمجرد الظن ، ويستمرون في هذا العلم خمس سنين ثم يدرب في العلوم الحربية وغيرها ، ثم إذا انتهوا من ذلك كله يقلدون أمر المدينة بصفة حكام وذلك إذا بلغوا من العمر خمسين سنة) انتهى .

وقال في المقالة الثامنة (قد ذكرت أن هذه هي المدينة الفاضلة وهؤلاء هم حكامها فإذا فسدوا نزلت مدينتهم ورجعت فاسقة فتكون أولا عسكرية وهي الخاضعة للقوة الغضبية ، أما المدينة الفاضلة فهي خاضعة للقوة العاقلة ، ثم حكومة الجمهور ثم حكومة الجبر والفسق ، وهي حكومة الفرد .

ثم أبان أن هؤلاء المتعلمين هم الأشراف وحكومتهم تسمى (حكومة الأشراف) ثم قال (إن فساد المدينة الفاضلة ينشأ من فساد النسل وتنازل الأولاد في أخلاقهم وأفكارهم عن شرف آبائهم ؛ ومن ذلك مايقع بينهم

من

من تخزق الآراء والتشاجر وكثرة الفتن ويكون مآل أمرهم أنهم يقسمون المكاسب والأموال فيما بينهم ويسخرون بقية أهل المدينة لخدمتهم بعد أن كانوا لهم حراسا وحكاما فيغلب عليهم حب السلطان والمال وينفرد كل واحد برأيه ، فإذا تمادى الأمر على ذلك وكثرت الثروة وانتشر فيهم حب الترف والإسراف والحرص على على المال فقد ينقص بقدر ذلك من احترامهم الفضائل ويزداد إعجابهم بالأغنياء واحتقارهم الفقراء . إذن تتبدل هيئة المدينة شيئا فشيئا وتصير الرياسة إلى الأقل وهم الأغنياء. إذن تكون المشاركة في الحكومة من قدر المكاسب وإنه لاحق في الرياسة إلا لأصحاب الأموال دون غيرهم وعلى ذلك تنطبع أخلاق أهل المدينة بحب المال والبخل وعدم المروءة والحرص ثم يدوم الأمر على ذلك فيصبح المال في يد زمرة قليلة من الأغنياء ويزداد الفقراء يوما فيوما لأجل ما يؤخذ منهم من الربا وما يباع من مكاسبهم لخلاص الديون ويزداد الأغنياء بقدر ذلك ثروة وقدرة وإذن تكون المدينة (فريقين) الفريق الأكبر هم الفقراء، والأقل هم الأغنياء الذين بيدهم زمام الأمور فينهمكون في اللذات والإسراف ويتبع ذلك الكسل وضعف الأبدان وفساد المزاج وعدم الصبر على المتاعب والمشاق ، فإذا رأى الفقراء تلك الحال وشعروا بغلبة عددهم ووفور قوتهم على قوة الأغنياء لا يلبث الأمر أن تشب نيران الفتنة والثورة في المدينة فربما غلب الفقراء فيأخذون في قتل الأغنياء وإجلائهم عن المدينة (وقد حصل هذا فعلا كما قدمته في سورة النحل ببلاد الترك وبلاد الروسيا حرفا بحرف هو بعينه فقد أخرج بنو عثمان وقتل القيصر وانتهت هذه الفتنة) ونهب أموالهم فتصير الحكومة إليهم ويستبدون في المدينة بالأمر وهذه هي الحكومة الجمهورية (ديموقراطيا) وهنالك تعم الحرية وإزالة عنان الأحكام والموانع والفروض الواجبة فيتبع كل من الأفراد هواه ويصير الأمر كالفوضى بينهم لا حاكم ولا محكوم ولا ثبات ولا اتحاد وتستمر الحال على هذا المنوال إلى أن يسقط اعتبار الأحكام من نظر الجمهور وهذا افراط في الحرية فلا بين الراعي والرعية حاجز ولا بين الأب وابنه قيد وينحل كل رباط فيحصل إذ ذاك العكس ، فالشيء إذا جاوز الحد انقلب إلى ضده ، والإفراط في الحرية يوقع الأمة في العبودية التامة ـ «جزاء وفاقا» .

هنالك عند تفاقم الأمر يصبح الأمر بيد واحد مستبد برأيه ولا يعتمد إلا على قوة سلاحه فيطغى ويجور ولا يأمن أحد ظلمه وهذه هي الحكومة الجبرية وهي آخر هيئات الحكومات التي تتغير إليها المدينة الفاضلة وهي أخسها مرتبة وأضرها عاقبة على الأمة .

وفي المقالة التاسعة ذكر أفلاطون أخلاق النفس الجبرية المشاكلة للمدينة الجبرية فقال إنها النفس العديمة العفة والحياء المنطلقة في ميدان الخلاعة والظلم والاستبداد لاستيلاء النفس الشهوانية فيها على النفس العاقلة فهي أشبه شيء بنفس السكران والمجنون ، فإذا كثر مثل عدد تلك النفوس في المدينة كانوا الجبار المتسلط عليها من أقوى الدعائم للاستمرار في ظلمه وسعادة هذه النفوس وسعادة الجبار المتسلط عليها لا معنى لها إلا الشقاء المستمر بل هم أشقى الناس وأحقهم بالشفقة ، وأهل مدينتهم أشقى أهل المدن : فإذا رتبنا الهيئات الخمس المذكورة وجعلنا الموازنة بين ما لكل منها من السعادة جملة وأفرادا عرفنا أن مراتب السعادة تتناقص فيها على قدر تنازل المراتب فأعلاها درجة في السعادة (مدينة الأشراف) فالمدينة سعيدة وأفرادها سعداء وهكذا بالترتيب إلى آخرها وهي الهيئة الجبرية فهي أقلها سعادة وأكثرها شقاوة ، ثم قال (ان أسعد الناس وأفضلهم وأعدلهم هو من ملك نفسه ونظمها على هيئة (مدينة الأشراف) وأشقى الناس هو أظلمهم وأخبثهم وهو الذي على هيئة (المدينة الجبرية) فهو ظالم لنفسه وغيره ولم يترك العقل ولا العدل مجالا .

والمقالة العاشرة التي هي آخر الكتاب ذكر فيها أنه يجب الحجر على الشعراء والمشخصين وغيرهم من الصنائع التي شأنها تمثيل الأهواء والعواطف المموهة لأن في عملهم إغراء النفوس وحملها على ما يشاهد أو يسمع من

أنواع الشهوات والغضب والقسق والحزن المفرط والضحك المفرط وغير ذلك من أنواع العواطف الناقضة لاعتدال النفس وما يجب حفظه من رياسة النفس العاقلة ، قال لأنه ليس من أنواع المجاهدة ماهو أعظم خطرا وأعسر مباشرة من الجهاد الوقوف عليه أن يكون المرء فاضلا لاخبيثا فلا ينبغى أن تغفل عن العدل ولا عن معيشة الفضائل لأجل شيء آخر سواء كان الكسل أو للمال أو السلطان أو جزيل الشعر . انتهى ماذكره أفلاطون ترجمة الأستاذ ستلانه .

ثم أنا ذكرته مجملا سابقا وهنا فصلته تفصيلا أوسع لماأورده هنا ، فيا أيها الذكى ذكرت لك مبدأ الأمر وهوهذه العناصر التى فى أرضنا ومنها الصوديوم والبوتاسا والكبريت التى هى من جملة مافى النبات والحيوان والإنسان من العناصر وأنها محرقات ملتهبات كما أن الاكسوجين أيضا ملتهب وهو من أهم أجزاء تلك المواليد وأن هذه النفوس النباتية والحيوانية تصرفت فى هذه الطبائع فحولتها إلى ماهو أكمل ، ثم إن هذه النفس الإنسانية أكمل وقد لعبت بها هذه المادة فرجعتها إلى أخلاقها والنفس تارة تكمل لأنها من عالم أعلى وتارة تسفل لأنها انحطت إلى هذا العالم المضطرب المحترق ثم ذكرت لك أخلاق النفوس البشرية فى كلام الفارابى وأن المدينة الفاضلة نتيجة كمال هذه النفوس ككمال النظام فى الجسم الانسانى وقلت إنه لم يبين التعلم بيانا واضحا وأتبعته بكلام أفلاطون وان كنت أجلته فى غير هذا المكان لأنه ذكر التعلم وأوضحه وفى كلامه الأصول التى سأبنى عليها إن شاء الله ماحصل فى أمتنا الاسلامية وما فى ذلك من العجب والعلم والحكمة وبدائع الأقدار وعجائب التصريف الإلهى فى هذا النوع الانسانى وكيف يتشابه الأولون والآخرون اه .

﴿ التعاليم الاسلامية ﴾

(ماذا أصاب أمتنا الاسلامية من الأهوال السياسية بمخالفتها فى التاريخ وتطبيق الآية على السابق وعلى اللاحق)

ولما فرغت من الكلام على الأمر الأول وهو ذكر نظام الانسان فى مدينته وعلى الأمر الثانى وهوذكر غاية ماوصل اليه بعقله وذكائه فى اجتماعه وسياسته أبين [الأمر الثالث والرابع] اللذين فيهما أن الأمم المغلوبة لغيرها يسرع اليها الفناء وأن الأمم الغالبة تلحقها فى ذلك الفناء وأذكر شواهد التاريخ على ذلك كما وعدت ولأقدم مقدمة فى ذلك فأقول :

لا جرم أننا الآن فى تفسير آيتين من كتاب الله تعالى وهما «إن الملوك إذا دخلوا قرية» الخ وقوله تعالى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » فلأبين مايناسب كلام أفلاطون من القرآن . اللهم إنك أنت الذى خلقت هذه المادة وأنت الذى جعلتها محرقة مضطربة وأنت الذى خلقت أرواحنا والقوى المعدنية والنباتية والحيوانية وجعلت هذه النفوس من عندك مهيمنات على هذه الأرض واصطفيت من هذه النفوس الانسانية ألطفها وأمرتها أن تفكر تارة باجتهادها وتارة بأن توحى اليها ، فالحكماء بالجد والتفكير والأنبياء بالوحى وأنزلت العلم على قلوب حكماء فى الصين والهند وبابل وقدماء المصريين وقد تشابهوا فى أصولهم وكان من بقيتهم الوارث علم قدماء المصريين (أفلاطون) ومن معه من الحكماء ، ثم إن هذا الفيلسوف ألف كتبه ومضى إليك ولم يقدر على إيجاد أمة من الأمم بل بعده بعشرات السنين ذهبت دولته وهى اليونانية وحلت محلها دولة الرومان وورثوا علومهم وعلومهم وتمسك بها أمثال (سنيكا وشيشرون) الفيلسوفين الرومانيين وتسلطت هذه الدولة على أمم كثيرة ثم قسمت ، ولكنك قبل أن تخربها أردت أن تظهر أمة أخرى بشكل عجيب فعمدت إلى بلاد قليلة النبات لاعلم عند أهلها فهم فى قطرهم أبعد الناس عن كل علم وتهذيب واصطفيت واحدا منهم وقلت له « والشعراء يتبعهم الغاوون . ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقولون ما لايفعلون » فهذه الآية قد

فسرها

فسرها (سقراط) الذى زالت دولت أمته ودولة أمة اليونان بعدها فقد قال فى المقالة العاشرة المتقدم ذكرها بوجوب الحجر على الشعراء والمصورين والمشخصين الخ لأن هؤلاء يفتحون على الأمة أبواب الفسوق والعصيان فتضعف الأبدان والعقول وتصبح مدنهم فاسقة ، وقلت له « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » وهذا اجمال يفصله ما تقدم فى مقالات (سقراط) قبل المقالة العاشرة كما سمعته من المدينة الفضية وهى العسكرية والمدينة الجبرية وهى حكومة الفرد المستبد ومن المدينة التى تحت حكم الأغنياء ، وكيف ينتهى أمر هؤلاء بضعف الأجسام وضعف العقول بالانهماك فى الشهوات فيذهب ملكهم ويضيع مجدهم ، فهذه المدينات الأربع[1] التى ذكرها أفلاطون وإن كان فى بعضها نظر ما سأوضحه بعد هى التى ذكرها الله فى القرآن بهذه الآية . وقلت له « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » ، وقلت له « ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون » ، وقلت له « إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض » وقلت له « فخرج على قومه فى زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » .

فهذا كلام لمن اصطفيته من هؤلاء الذين لا علم عندهم ولا مدنية فما اطلعنا على خلاصة فلسفة الأمم السابقة ألفينا تفسير هذه الآيات قد حضر فى العقول من عندك قبل نزول القرآن كأنك أنزلت هذه المعانى أولا ثم أنزلت القرآن لنطلع الآن عليها ونجعلها شرحا له كما أنك خلقت النبات قبل خلق الحيوان ليكون مرعى له وخلقتهما معا قبل خلق الإنسان ليكونا سعادة له ، فهذا الدين أنت أنزلته على نبى أمى وأمته أميون حتى إذا قرءوا كتب الأمم السابقة دهشوا وقالوا يا عجبا يا ربنا يقول أفلاطون فى جمهوريته فيما تقدم هنا (إن أولئك الملوك المستبدين فى شقاء فى حياتهم وهم معرضون لزوال الملك بعد ضعف أجسامهم وعقولهم) هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أن هذه الأموال والنعم الظاهرة التى يعظمها الجمهور عند طائفة من الناس وهم الفلاسفة عذاب واصب لأنهم اطلعوا على الخير المحض ، وهؤلاء الفلاسفة يجعلون حياتهم كلها تقوية لعقولهم بالعلم الرياضى والإلهى ولأجسامهم بالتمرين الحربى ، فالعظمة والسعادة إذن ترجعان إلى شىء غير المال وهو قوة العقل بالعلوم جميعها لاسيما معرفة الخير الأعظم وهو الله ومعرفة الخير الأعظم لا تأتى إلى الناس بغتة فلابد من ممارسة العلوم العقلية والصناعات العملية هذه فى وقت وهذه فى وقت آخر حتى يقوى العقل ويقاوم الانسان جميع الشهوات وتسلم لصاحبه مقاليد المدينة ويتولى نظام الأمة . إذن ما كان يحكم فيه الحكماء جاء به نفسه القرآن ، فهمه المسلمون أم لم يفهموه ، عقلوه أو لم يعقلوه ، فكم وضع الله من بذور فى الأرض فخرجت زرعا نضرا والناس لا يعقلونه ، فإذا رأينا أمما إسلامية ماتت وأخرى حية وهم جميعا لا يعلمون هذه العلوم فليس هذا بدعا فهذه أعمال الله ، ينزل الخير ولكن هذا الخير ينتظر أصحابه وهم قراء هذا التفسير وأمثاله

---

(١) الرابعة هى الديمقراطية التى يذمها سقراط ولا يوافقه المؤلف اه .

ومن على شاكلتهم بل إنهم حين يقرءون هذا يزيدون دهشة واستغرابا لهذا الاتحاد العجيب بين العلوم المخزونة عند الأمم ، وبين الدين المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم .

فهذه هي الآيات التي أنزلتها يا ألله على من اصطفيته من أمة العرب فأصبحت المدينات الأربع التي هي أدنى من مدينة الأشراف منطبقة في الأغلب على هذه الآيات، فإذا كان هذا الفيلسوف يقول إن بني آدم جميعا لايرون من الخير ولا الحقائق إلا صورها ، ولا يعرف الحقائق حق معرفتها إلا الذين تدرجوا في العلوم وقتا فوقتا كأن يتعلموا العلوم الرياضية أو الإلهية سنين ثم تتلوها سنون أخرى يتعلمون فيها الأعمال الحربية تقوية لأبدانهم ويعيدون الكرة هكذا دواليك ، فهؤلاء في نظرهم الذين يعرفونك أنت ويديرون ملكك على صراطك المستقيم فإذا كان هذا رأيه على علاته فها أنت ذا يا ألله قلت « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض » الخ ، وقلت « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » الخ ، وقلت « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » فلا اطمئنان لدولة إلا بمعرفتك أنت ، وقلت أيضا « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » وقال علماء الإسلام باستحباب السبق والرمي لتقوى الأبدان وهكذا ، وقد جمعت ذلك كله في قولك « وزاده بسطة في العلم والجسم » . هذه يا ألله آيات دينك المنزلة على النبي الأمي ، وهذه آراء حكماء خلقتهم قبله وكلها مجهولة عند عامة هذا الإنسان فالعامة لايعرفون إلا الترف والنعم والغلبة والراحة ويظنون أنها هي أهم السعادات فجاء العقل الذي خرج من بين هذه الحواس المغلولة في وسط هذا الإنسان المحبوس في مغارة (أفلاطون) وقال أيها الناس أنتم غافلون، أنتم لاتعرفون من السعادات إلا ظلها، ولا من العلوم إلا صورها، أما حقيقة السعادات وحقيقة العلوم فليس لها سبيل إلا بالعقول ثم جاء الوحي مؤيدا لذلك كل التأييد بل أصبح ماوهبته للعقول غذاء وتقوية وشرحا لما أنزلته بالوحي فاصطلح العقل والوحي في هذا التفسير وتعانق القديم والحديث واطلع عقلاء المسلمين على خلاصة علوم الأمم فيصبحون أمة لانظير لها في السابقين والحمد لله رب العالمين .

ههنا يا ألله عرفنا اتجاه الفلسفة اليونانية الأفلاطونية والقرآن الذي أنزلته على نبيك العربي فماذا وجدنا ؟ وجدنا أن هذا الفيلسوف لم يكون أمة وإنما تآليف نقلتها أمة الرومان فالعرب، فأمم أوروبا وهاهي ذه تدور بين الأمم في أمريكا وأوروبا والشرق الأقصى ، ووجدنا أن نبيك العربي بالوحي خلقت على يده أمة وصلت مشارق الأرض ومغاربها ، فلننظر الآن ماذا كان يفهمهم حتى ارتقوا ؟ هاهو ذا القرآن والحكمة اتفقا على أن المال والاستكثار منه مضعف للأمم مزيل للملك ، فانظر أيها الذكي ماذا جرى ؟ أحلت الغنائم وهذه الغنائم في الحكمة سبب ضياع المجد والعقل والسعادة كما أجمع عليه الدين والفلسفة كما علمت فقال الله لهم « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » إذن أخذ الغنائم قد اشتم منه رائحة الغضب السماوي ، وتقدم عند تفسير هذه الآية أن محمد بن إسحاق قال (لم يكن أحد من المؤمنين ممن حضر بدرا إلا وأحب الغنائم إلا عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ » هذا الذي ذكرته هناك ، إذن هذه المسألة قد اختبأ فيها غضب من الله ولا يظهر أثره إلا في وقته أي حينما تظهر ذرية غير صالحة وتستعمل هذه الغنائم في شهواتها ويجعلون الأمم عبيدا لهم ولا يكونون نافعين للأمم بل آكلين أموالهم باسم الدين ، ولذلك ورد في حديث البخاري الذي ذكرته عند تفسير الآية أيضا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن أخوف ما أخاف عليكم مايفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها ، فقال رجل يارسول الله أو يأتي الخير بالشر ؟ » الحديث ، فارجع اليه في سورة الأنفال في أولها . إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم صرح بهذا وعلم ماستلاقيه أمته من هذه الغنائم وفتوح البلدان فإنه أظهر للذي سأله عن ذلك أن فتوح البلدان وإن كان خيرا فانه يكون شرا على نفوس استعظمته ووضعته

فى غير موضعه بخلاف الصالحين . إذن رسولك صلى الله عليه وسلم علم الأمة معنى القرآن وهو أن الغنائم ليست للذات بل هى لنفع الأمم لاغير ، وإن حادت عن هذه الجادة انقلبت عذابا واصبا ماله من دافع ثم سمعنا رسولك صلى الله عليه وسلم يقول فى رواية الترمذى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لها « إن سرك اللحوق بى فيكفيك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تستخلق ثوبا حتى ترقعيه » وقال عروة فما كانت عائشة تستجد ثوبا حتى ترقع ثوبها وتنكسه ، وفى حديث الترمذى أيضا عن على « قال بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ طلع علينا مصعب بن عمير رضى الله عنه ماعليه إلا بردة مرقعة بفرو ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه من النعمة ، ثم قال كيف بكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى أخرى ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟ قالوا يارسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم نكفى المؤنة ونتفرغ للعبادة ، فقال بل أنتم خير منكم يومئذ » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان يأتى علينا الشهر مانوقد فيه نارا إنما هو التمر والماء إلا أن نؤتى باللحيم» أخرجه الشيخان والترمذى ، وفى رواية «ماشبع آل محمد من خبز البر ثلاثا حتى مضى لسبيله» ، وفى رواية « ما أكل آل محمد أكلتين فى يوم إلا إحداهما تمر » وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيت الليالى المتتابعة وأهله طاويا لايجدون عشاء وكان أكثر خبزهم الشعير» أخرجه الترمذى وصححه فهذه هى التعاليم .

يا الله التى أنزلتها على نبيك الأمى فألفيناه يفسر القرآن بقوله وفعله ويقول لهم إن فى الغنائم لداء دفينا وذكرهم بالعذاب وبكى وبكى معه أبو بكر وجاء عمر فطلب أن يعرف سبب بكائهما حتى يبكى أو يتباكى فاذا هى نفس الغنائم ، هذه هى الأحوال النبوية فى العصر الأول ، فماذا جرى بعد ذلك .

﴿ الكلام على تخريب الفاتحين الممالك وكيف يجازون بزوال ملكهم
بعد ذلك من ابن خلدون ﴾

وصلنا الآن من المقدمات فى الفصلين الثالث والرابع إلى المقصود منهما وهو أن الملوك يذلون أهل البلاد وهؤلاء الظالمون أيضا تخرب بيوتهم ، ولأذكر لك مجملا من كلام العلامة ابن خلدون فى تاريخه فى الجزء السابع فانظر ماذا يقول ، وهاك نصه :

قال : لما فرغ شأن الردة من أفريقيا والمغرب وأذعن البربر لحكم الاسلام وملكت العرب واستقل بالخلافة ورئاسة العرب بنو أمية اقتعدوا كرسى الملك بدمشق واستولوا على سائر الأمم والأقطار وأثخنوا فى القاصية من لدن الهند والصين فى الشرق وفرغانة فى الشمال والحبشة فى الجنوب والبربر فى المغرب وبلاد الجلالقة والافرنجة فى الأندلس وضرب الاسلام بجرانه وألقت دولة العرب بكلكلها على الأمم ثم جدع بنو أمية أنوف بنى هاشم مقاسميهم فى نسب عبد مناف والمدعين استحقاق الأمر بالوصية وتكرر خروجهم عليهم فأثخنوا فيهم بالقتل والأسر حتى توغرت الصدور واستحكمت الأوتار وتعددت فرق الشيعة باختلافهم فى مساق الخلافة من على إلى من بعده من بنى هاشم ، فقوم ساقوها إلى آل العباس ، وقوم إلى آل الحسن ، وآخرون إلى آل الحسين . فدعت شيعة آل العباس بخراسان وقام فيها اليمنية فكانت الدولة العظيمة الحائزة للخلافة ونزلوا بغداد واستباحوا الأمويين قتلا وسبيا وخلص منهم فى الأندلس عبد الرحمن بن معاوية بن هشام فجدد فيها دعوة الأمويين وانقطع ماوراء البحر عن ملك الهاشميين فلم تخفق لهم به راية ، ثم نفس آل أبى طالب على آل العباس ما أكرمهم الله به من الخلافة والملك فخرج المهدى محمد بن عبدالله المدعو بالنفس الزكية فى بنى أبى طالب على أبى جعفر المنصور وكان من أمرهم ماهو مذكور واستحملتهم جيوش بنى العباس فى وقائع

عديدة وفرادريس بن عبد الله أخو المهدى من بعض وقائعهم فى المغرب الأقصى فأجاره البرابرة من (أوربة) و (مغيلة) وقاموا بدعوته ودعوة بنيه من بعده ونالوا به الملك وغلبوا على المغرب الأقصى والأوسط وبثوا دعوة إدريس وبنيه من بعده فى أهله من زناتة مثل (بنى يفرن) و (مغراوة) وقطعوه من ممالك بنى العباس، واستمرت دولتهم إلى حين انقراضها على يد العبيديين ولم يزل الطالبيون أثناء ذلك بالمشرق ينزعون إلى الخلافة ويبثون دعاتهم بالقاصية إلى أن دعا أبو عبد الله المحتسب بأفريقيا إلى المهدى ولد إسماعيل الامام ابن جعفر الصادق فقام برابرة كتامة ومن إليهم من صنهاجة وملكوا أفريقيا من يد الأغالبة ورجع العرب إلى مركز ملكهم بالمشرق ولم يبق لهم فى نواحى المغرب دولة ووضع العرب ما كان على كاهلهم من أمر المغرب ووطأة مضر بعد أن رسخت الملة فيهم وخالطت بشاشة الإيمان قلوبهم واستيقنوا الوعد الصادق أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فلم تنسلخ الملة بانسلاخ الدولة ولا تقوضت مبانى الدين بتقويض معالم الملك وعد من الله ولن يخلف فى تمام أمره وإظهار دينه على الدين كله فتناغى حينئذ البربر فى طلب الملك والقيام بالدعوة إليه إلى أن ظفروا من ذلك بحظ مثل كتامة بأفريقيا ومكناسة بالمغرب ونافسهم فى ذلك زناتة وكانوا من أكثرهم جمعا وأشدهم قوة فشمروا له حتى ضربوا معهم بسهم فكان لبنى يفرن بالمغرب وأفريقيا على يد صاحب الحمار ثم على يد يعلى بن محمد وبنيه ملك ضخم، ثم كان لمغراوة على يد بنى خزر دولة أخرى تنازعوها مع بنى يفرن وصنهاجة ثم انقرضت تلك الأجيال وتجدد الملك بالمغرب بعدهم فى جيل آخر منهم فكان لبنى مرين بالمغرب الأقصى ملك ولبنى عبد الواحد بالمغرب الأوسط ملك آخر قاسمهم فيه بنوتوجين وبطن من (مغراوة) حسبما نذكر ونستوفى شرحه ونذكر أيامهم وبطونهم على الطريقة التى سلكناها فى أخبار البربر، والله المعين لارب سواه ولا معبود إلا إياه . انتهى ما أردته منه ، والله أعلم .

ولا ريب أن هذا الاجمال هو الذى جاء به نبينا صلى الله عليه وسلم فانه خاف من فتوح البلدان ومن الغنائم وقد تحقق ماخافه ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ سر ارتقاء العرب ثم انحلال دولتهم ﴾

قلت لك آنفا إن الله لما أعظم دولة الرومان واستفحلت وعلم أنها ستنحل عمد إلى أمة بدوية فاصطفى أفضلها وعلمه ثم وازنت بين ما أوحى إليه وماجاء على قلوب الحكماء لأن المادة منه والحكمة منه والوحى منه «فأينما تولوا فثم وجه الله» وإنما الجاهل هو الذى ضاق عقله فلم يتسع إلا إلى بعض هذه ، فالعقول والأجرام والدين كلها من الله بل الخير والشر كله منه وكلاهما عند العقول سواء فى الافادة والتعلم . أقول فلما أخذت دولة الرومان تنحل كان الله قد أعد أمة أخرى خرجت من البادية لتعليم الناس وأباح لها الغنائم لأن هذه الغنائم ساعدتها فى فتح البلدان وطيرهم بالمال وبالرجال فذهبوا إلى الهند والصين وإلى أمم الفرنجة وأصبحوا كلهم تحت حكم أمة واحدة، لم يرد الله بهذا فى حكمته إلا أمرا واحدا هو نشر الدين فى هذه الأصقاع لأن هذه الأمم فى عالم متأخر وهى أرضنا التى علمت أنها عالم كله نيران متأججة وهو على صراط مستقيم فليس من العدل عنده أن يجعل أمة واحدة تقود العالم كله لأن ذلك ليس هو العدل الذى أنزله فى الأرض ، فلابد لكل أمة أن تستخرج مواهبها ، وهل تستخرج مواهبها بتسليط أمة واحدة عليها لذلك أرسل الله نبيا أميا صلى الله عليه وسلم وذلك بعد أن عجزت الفلسفة والحكمة فى الأمم عن إسعاد الأمم ، إن الفلاسفة أجمعين عجزوا أن ينشروا علما واحدا فى العالم كله يجمع الأمم ، ولم يتسن لسقراط وأفلاطون المعتبرين عند جميع الأمم أكبر جبابرة العقول أن يوجدا أمة تنشر هذه التعاليم فاختار الله أمة العرب وطيرها فى البلاد شرقا وغربا ووضع لها مع ذلك داء دفينا وهو المال وفتوح البلدان وألهم رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحذرهم المال ويخوفهم الفتنة

بالمال

بالمال ، فلما توفاه الله أخذوا هم يتبعون سنته ، ولقد سمى المسلمون أبا بكر خليفة وهكذا من بعده فهم خلفاء لاملوك ، إذن مال الله ليس لهم بل هم خلفاء على عباده وجميع الناس خلفاء على أموالهم وتسلطهم على الأمم أولا و بالذات لتعليم الدين ، فلم يزل الدين يتمكن فى قلوب الأمم وشيطان الطمع يوسوس فى قلوب العرب بحيث يكون الخلف منحرفا عن السلف « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا » .

هنالك دالت دولة العرب وحلت محلها دول أخرى ثم ذهبت وحلت أخرى محلهم ، لماذا كل هذا ؟ لأن الله يقول «وتلك الأيام نداولها بين الناس» فلم يخص العرب بالملك بل هو سخرهم كما يسخر النحل والحشرات لالقاح النبات ، والنحل إنما تسعى للعسل ، وكما سخر الذكور والاناث لإنجاب الذرية وهم إنما اجتمعوا للشهوة لاغير ، فهذه الشهوة قد سخرهم الله بها حتى ولدوا الذرية ثم ذهبت وضعفت وحل محلها ماهو أعلى وأغلى وهو الاتحاد والعطف عليهم والمعاشرة وتدبير المنزل ، هكذا إذا كان بعض من كانوا ساعين فى فتوح البلدان لا يريدون إلا عرض الدنيا فان عملهم أنتج تلقيح أفكار الأمم بالدين الاسلامى مع العلم بأن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ما كانوا يريدون إلا إعلاء كلمة الله ، ولولا ذلك ما أذابوا مهجهم فى الحرب ولا توغلوا فى الأمم شرقا وغربا . إذن أنت يا ألله هكذا أردت ، حذرت من المال وحذرهم نبيك صلى الله عليه وسلم وطيرتهم فى الشرق والغرب فنشروا الدين ثم أخذت تسلب من الأبناء مامنحته الآباء لتمهد الأسباب لترك آبائنا العرب البلاد لأهلها كما أنك حكمت بموت صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم لما أتممت الدين فقلت له ولهم «اليوم أكملت لكم دينكم » فهو صلى الله عليه وسلم مات لما أتم ماأوجبته عليه والعرب ماتت دولتهم لما أتمت ماخلقت لأجله لأن الدين لك أنت والأرض لك «إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» إذن كل ماحصل فى أمم الاسلام مصداق للقرآن وللحديث ولفعل النبى صلى الله عليه وسلم ولكلام الفلاسفة اليونانيين والمسلمين .

﴿ نبذة من أسباب ذهاب دولة أمة العرب مصداقا للآيات والأحاديث ولقوله صلى الله عليه وسلم : لما أخبرهم بأنهم يغدون فى حلة ويروحون فى أخرى وأنهم توضع أمامهم صحفة وترفع أخرى ﴾

جاء فى (الرحلة الأندلسية) ماملخصه : أنه قد كثر زواج ولاة الأندلس من العرب وأمرائهم من الاسبانيين ، وأول من تزوج منهم عبد العزيز بن موسى بن نصير فقد تزوج بالسيدة (ايلونا) أرملة لذريق ملك القوط بعد أن مات أثر جروحه فى واقعة شريس التى تغلب عليه فيها طارق بن زياد ، وتزوج الأمير محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط باسبانية اسمها (مارية) ورزق منها بولده عبد الرحمن الناصر ، وتزوج الحاكم ابن الناصر بن أبى عامر بنت (سانكو) ملك بافاريا ولدت له ابنه عبد الرحمن وكانوا يسمونه سانكو الصغير لميله إلى ملاذه وجرأته على الدين فى سيرته الشخصية ، وتزوج المأمون بن الناصر سلطان الموحدين باسبانية اسمها حباب وخلف منها ابنه رشيد ، وتزوج السلطان محمد بن أبى الحسن بن الأحمر بالسيدة (ثريا) الاسبانية وولدت له ابنه أبا عبد الله وكانت أم عبد الحق بن أبى سعيد سلطان بنى مرين اسبانية . قال وقد فشا الزواج والتسرى بالاسبانيات من القوط وغيرهم بين الأمراء والرؤساء من العرب وكان لهذا العنصر الجميل شىء من التأثير فيهم ظهرت نتائجه الخبيثة عند ضعف الدولة كما كانت سببا فى استكانة هشام المؤيد إلى حاجبه ابن أبى عامر ، تلك الاستكانة التى ساعدت عليها فى أول الأمر أمه ، فلما اختلفت مع المنصور وهو قوى الارادة لم تقدر على كسر حدته ، فلما كبر ولدها ظهر أثرها فيه فأصبح جبانا لا يسعى إلا إلى لذاته

وتمضى فى حياته على الدولة الأموية وهذا من أسباب ضعف العرب فى أوروبا كما كان من أسبابها كذلك ضعفها فى بنى العباس بالشرق إذ كانت أم المستعين بالله العباسى صقلية وأم المهتدى رومية وأم المقتدر تركية وكانت كثيرة التدخل فى أمور الخلافة مدة ولدها وتجتمع بالوزراء والقواد فى مجلسها وتصدر إليهم أوامرها من غير علم ولدها فلذلك أخذت الدولة تضعف فى الشرق واستبد الأتراك بدولة بنى العباس كما ذهبت دولة بنى أمية بالأندلس بنظير ذلك فيما مضت ، وبعد ذلك ظهرت التربية الأجنبية فى عبد الرحمن بن أبى عامر فبه قضى على الدولة العامرية وفى الرشيد بن مأمون بضعف الوحدين وفى عبد الحق بن سعيد المرينى ملك المغرب بضياع الملك من بنى مرين وفى أبى عبد الله بن الأحمر بالقضاء على حكم العرب فى الأندلس .

وقد كان الزواج بالاسبانيات ليس خاصا بالأمراء بل تعداهم إلى العامة بل نسبوهم إليهن على غير عادة العرب ، فقالوا ابن الرومية وابن القوطية بل هذا التلقيح ظهر أثره فى البربر فرق من أخلاقهم وقلل من حدتهم .

هذه أحوال أمم العرب شرقا وغربا ، فهل تعجب بعد هذا البيان إذا تذكرت ماقدمته لك فى (سورة طه) عند قوله تعالى «وقل رب زدنى علما» إذ ذكرت لك هناك انقسام الدولة العباسية فى الشرق إلى دول مختلفة أوضحتها هناك بعد انحلالها ، وكذلك لاتعجب إذا عرفت ماأذكره هنا من انحلال الدولة الأموية بالأندلس وانقسامها إلى عشرين دولة صغيرة مثل (اشبيلية . جيان . سرقسطة . الثغر . طليطلة . قرمونة . الجزيرة الخضراء . مرسية . بلنسية . دانية . طرطوشة . لاودة . باجة . مالقة . بطليوس . لشبونة . جزائر البليار قرطبة) راجع كتاب [الرحلة الأندلسية] لصديقنا البتنونى فهذه النبذة التاريخية ملخصة منه . هذا مصداق الأحاديث المتقدمة والآيات وآراء الفلاسفة . فالنبى صلى الله عليه وسلم قد أخبر به وجعل المال والغنائم سببا للحرمان إذا استعملت للشهوات وتذكر حديث الزواج فى حلة والغدو فى حلة وقوله تعالى « وأترفناهم فى الحياة الدنيا » وآراء أفلاطون إذا أصبحت أخلاق الأبناء على خلاف أخلاق الآباء، وهى المدينة التى انحرفت عن مدينة الأشراف وهى كذلك للدينة الفاسقة عند الفارابى ، إذن ماحصل لأمم العرب قبلنا هو مقتضى قواعد الدين والحكمة، وإنى أحمد الله حمدا كثيرا على ماعلم وألهم وأسعد فله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون .

ههنا اطمأنت النفس للعلم وعرفت الحقيقة بقدر الطاقة البشرية ، وما كان يخيل لى مرة فى أول حياتى أن أطلع على هذا الجمال والبهاء والحكمة وأن أصل إلى بهجة الحكمة والعلم بمقدار طاقتى بحيث يكون شرابا صافيا وطريقا معبدا يسير به أهل العلم فى حياتى وبعد موتى وعليه يبنون مستقبلهم فى هذه الحياة ويعرفون نظائره من المؤلفات فى زماننا حتى يحيوا ماانداس من معالم العلم والدين ويوقظوا أمما خلت ودولا هلكت فلله كما أنصب ملك كثير من الأمم الشرقية فأنامهم أجيالا هو لامحالة معيد لهم مجدهم لأنه جعل العالم دولا «وتلك الأيام نداولها بين الناس» وهو يقلب الليل والنهار ، فها هو ذا قد أعد العدة ومهد الطرق لخلق أمم جديدة فى الشرق . فهو كما مهد لذهاب دولهم بأن أمر مترفيهم بالأندلس من الأمويين والعباسيين ففسقوا فيهم فحق عليهم القول فدمر دولهم تدميرا . هاهو ذا سبحانه أخذ يهيئ الأسباب لإرجاع شباب دول أخرى من أبنائهم قد ناموا أمدا طويلا ومن تلك الأسباب هذا التفسير وأمثاله فسيقرؤه ويقرأ أمثاله رجال وشبان وستنوم أمم وأمم أعلى كعبا وأرقى وأشرف دولا من الأمم السابقة فى الشرق إذ يعتبرون عما حل بآبائهم ويظهر فيهم مؤلفون يعلمونهم ما كان يجهله آباؤهم وإذ ذاك يعرفون معنى قول النبى صلى الله عليه وسلم «ويل للعرب من شر قد اقترب» ويعرفون أيضا قول النبى صلى الله عليه وسلم لمن جاء يسأله عن الساعة أن ذلك حين تعد

الأمة ربتها، وحين يتطاول الرعاة فى البنيان وهذا هو الذى حصل فعلا فى الشرق والغرب كما علمت فإن الاماء ولدن الملوك كما رأيت فى بنى العباس وبنى أمية وهكذا نساء الأجانب على وجه العموم فكان ذلك سببا فى فساد الدول الإسلامية وضياعها فإذا علموا ذلك فهموا أن جوابه صلى الله عليه وسلم السائل عن الساعة جاء على الأسلوب الحكيم، إذ يسأل السائل عن الساعة العامة فأجابه هو عن الساعة التى تضيع فيها دولة العرب وقد عرفت المعجزة فى ذلك كما كتبته فى كتابى [التاج المرصع].

وههنا آن أن ألقى إليك ماعقدت له هذا المقال فى الأمر الثالث والرابع وهو لبّ الأمرين وما تقدم إنما هو مقدمات لهذا اللب وهو «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» الخ وأن «بيوتهم خاوية بما ظلموا» كما قاله أبو نصر الفارابى فى المدينة الفاسقة التى لم تكن على سنن الجسم الانسانى الطبيعى وكما قاله أفلاطون فى المدينة التى مالت عن سنن مدينة الأشراف فأسمعك الآن فصولا تؤيد ماتقدم من كلام العلامة ابن خلدون وهما: (مطلبان: المطلب الأول) كيف يحصل الفساد والخراب فى الأمم المغلوبة. (المطلب الثانى) كيف تقع الأمم الظالمة فى سوء أعمالها وتذهب دولهم.

﴿المطلب الأول: كيف يحصل الفساد والخراب فى الأمم المغلوبة على أمرها تفسيرا لقوله تعالى «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» الخ﴾

فصل: قال العلامة ابن خلدون مانصه:

(١) إن من عوائق الملك حصول الذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم.

(٢) وأن الأمة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء.

(٣) وأن الأمم العربية (لما تركت الدين ورجعت إلى قسوتها الأولى) إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب.

(٤) وأن العرب (أى بعد أن تركوا الصبغة الدينية) أبعد الأمم عن سياسة الملك.

(٥) وأن الظلم مؤذن بخراب العمران.

هذه هى الفصول التى ذكرها ابن خلدون مبرهنا عليها بحوادث وسأذكرها لتعلم لماذا ذهبت دول آبائنا فى الشرق وفى الأندلس، وتعلم قوله تعالى «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال» وهنا لك تفرح بنعمة العلم إذ تقف على الحقائق وتنفع الأمم الاسلامية بعلمك وعملك واجتنابك ما فعله المتأخرون، فقال رحمه الله تعالى فى الأول:

﴿الفصل الأول فى أن من عوائق الملك حصول الذلة للقبيل والانقياد إلى سواهم﴾

وسبب ذلك أن الذلة والانقياد كاسران لسورة العصبية وشدتها، فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فما رئموا للذلة حتى عجزوا عن المدافعة ومن عجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة، واعتبر ذلك فى بنى إسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام إلى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا «إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها» أى يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا وتكون من معجزاتك يا موسى، ولما عزم عليهم لجوا وارتكبوا العصيان وقالوا له «اذهب أنت وربك فقاتلا» وما ذلك إلا لما آنسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر فى تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقابا حتى ذهبت العصبية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا حق الايمان بما أخبرهم به موسى من أن الشام لهم وأن العمالقة الذين كانوا بأريحاء فريستهم بحكم من الله قدّره لهم فأقصروا عن ذلك وعجزوا تعويلا على

ما عطوا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما حصل لهم من خلق الذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به ، فعاقبهم الله بالتيه وهو أنهم تاهوا فى قفر من الأرض ما بين الشام ومصر أربعين سنة لم يأووا فيها لعمران ولا نزلوا مصرا ولا خالطوا بشرا كما قصه القرآن لغلظة العمالقة بالشام والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومتهم كما زعموه ؛ ويظهر من مساق الآية ومفهومها أن حكمة ذلك التيه مقصودة وهى فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصبيتهم حتى نشأ فى ذلك التيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يسام بالمذلة فنشأت لهم بذلك عصبية أخرى اقتدروا بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الأربعين سنة أقل ما يأتى فيها فناء جيل ونشأة جيل آخر ، سبحان الحكيم العليم ، وفى هذا أوضح دليل على شأن العصبية وأنها هى التى تكون بها المدافعة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من فقدها عجز عن جميع ذلك كله . ويلحق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للقبيل شأن المغارم والضرائب فإن القبيل الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لأن فى المغارم والضرائب ضيما ومذلة لا تحتملها النفوس الأبية إلا إذا استهونته عن القتل والتلف وأن عصبيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ؛ ومن كانت عصبيته ضعيفة لا تدفع عنه الضيم فكيف له بالمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقياد للذل كما قدمناه ومنه قوله صلى الله عليه وسلم فى شأن الحرث لما رأى سكة المحراث فى بعض دور الأنصار « ما دخلت هذه دار قوم إلا دخلهم الذل » فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للذلة ، هذا إلى ما يصحب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر فإذا رأيت القبيل بالمغارم فى ربقة من الذل فلا تطمعن لها بملك آخر الدهر ، ومن هنا يتبين لك غلط من يزعم أن زناتة بالمغرب كانوا شاوية يؤدون المغارم لمن كان على عهدهم من الملوك وهو غلط فاحش كما رأيت إذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة ، وانظر فيما قاله (شهربراز) ملك الباب لعبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل (شهر براز) أمانه على أن يكون له فقال « أنا اليوم منكم يدى فى أيديكم وصفرى[1] معكم فمرحبا بكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا إليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ولا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم » فاعتبر هذا فيما قلناه فإنه كاف .

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون فى الفصل الأول . فأما ما قاله فى الفصل الثانى وهو أن الأمة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء فهذا نصه :

﴿ الفصل الثانى : فى أن الأمة إذا غلبت وصارت فى ملك غيرها أسرع إليها الفناء ﴾

والسبب فى ذلك والله أعلم ما يحصل فى النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستعباد آلة لسواها وعالة عليهم فيقصر الأمل ويضعف التناسل والاعتمار إنما هو عن جدة الأمل وما يحدث عنه من النشاط فى القوى الحيوانية فإذا ذهب الأمل بالتكاسل وذهب ما يدعو إليه من الأحوال وكانت العصبية ذاهبة بالتغلب الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم بما خضد التغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل وسواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا . وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذى خلق له والرئيس إذا غلب على رئاسته وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه ورى كبده وهذا موجود فى أخلاق الأناسى ، ولقد يقال مثله فى الحيوانات المفترسة وأنها لا تسافد إذا كانت فى ملكة الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره فى تناقص واضمحلال إلى أن يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك فى أمة

---

(١) كذا بالأصل .

الفرس كيف كانت قد ملأت العالم كثرة ولما فنيت حاميتهم فى أيام العرب بقى منهم كثير وأكثر من الكثير . يقال إن سعدا أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفا منهم سبعة وثلاثون ألفا رب بيت ولما تحصلوا فى ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم إلا قليلا ودثروا كأن لم يكونوا ، ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم فملكة الاسلام فى العدل ما علمت وإنما هى طبيعة فى الانسان إذا غلب على أمره وصار آلة لغيره . ولهذا إنما تذعن للرق فى الغالب أمم السودان لنقص الانسانية فيهم وقربهم من طبيعة الحيوانات العجم كما قلناه أو من يرجو بانتظامه فى ربقة الرق حصول رتبة أو إفادة مال أو عز كما يقع لمماليك الترك بالمشرق والعلوج من الجلالقة والافرنجة بالأندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة لهم فلا يأنفون من الرق لما يأملونه من الجاه والرتبة باصطفاء الدولة، والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق .

هذا ماقاله العلامة ابن خلدون فى الفصل الثانى . فأما ماقاله فى الفصل الثالث وهو أن الأمم العربية (أى التى تركت الدين) إذا تغلبوا على أوطان أسرع اليها الخراب فهاك نصه :

﴿ الفصل الثالث : فى أن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب ﴾

والسبب فى ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة وكان عندهم ملذوذا لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذى به العمران ومناف له ، فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصبه أثافى للقدر فينقلونه من المبانى ويخربونها عليه ويعدونه لذلك ، والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذى هو أصل العمران هذا فى حالهم على العموم ، وأيضا فطبيعتهم انتهاب ما فى أيدى الناس وأن رزقهم فى ظلال رماحهم وليس عندهم فى أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه فإذا تم اقتدارهم على ذلك بالتغلب والملك بطلت السياسة فى حفظ أموال الناس وخراب العمران وأيضا فلأنهم يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لايرون لها قيمة ولا قسطا من الأجر والثمن . والأعمال كما سنذكره هى أصل المكاسب وحقيقتها وإذا فسدت الأعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال فى المكاسب وانقبضت الأيدى عن العمل وابذعر الساكن وفسد العمران ، وأيضا فانهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد ودفاع بعضهم عن بعض إنما همهم مايأخذونه من أموال الناس نهبا أو مغرما ، فاذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم والنظر فى مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المفاسد وربما فرضوا العقوبات فى الأموال حرصا على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم ، وذلك ليس بمغن فى دفع المفاسد وزجر المتعرض لها بل يكون ذلك زائدا فيها لاستسهال الغرم فى جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا فى ملكتهم كأنها فوضى دون حكم والفوضى مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للانسان لايستقيم وجودهم واجتماعهم إلا بها وتقدم ذلك أول الفصل ، وأيضا فهم متنافسون فى الرياسة وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا فى الأقل وعلى كره من أجل الحياء فيتعدد الحكام منهم والأمراء وتختلف الأيدى على الرعية فى الجباية والأحكام فيفسد العمران وينتقض . قال الأعرابى الوافد على عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عنده بحسن السياسة والعمران فقال « تركته يظلم وحده » وانظر إلى ماملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه وبدلت الأرض فيه غير الأرض فاليمن قرارهم خراب إلا قليلا من الأمصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذى كان للفرس أجمع

والشام لهذا العهد كذلك وأفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خرابا كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمرانا تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمداشر، والله يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . انتهى ما قاله العلامة ابن خلدون فى الفصل الثالث ، وأما ما قاله فى الفصل الرابع وهو أن العرب (أى الذين تركوا العمل بالدين) أبعد الأمم عن السياسة فهذا نصه :

﴿ الفصل الرابع : فى أن العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ﴾

والسبب فى ذلك أنهم أكثر بداوة من سائر الأمم وأبعد مجالا فى القفر وأغنى عن حاجات التلول وحبوبها لاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم فصعب انقياد بعضهم لبعض لإيلافهم ذلك والتوحش ورئيسهم محتاج إليهم غالبا للعصبية التى بها المدافعة فكان مضطرا إلى إحسان ملكهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيتهم فيكون فيها هلاكه وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضى أن يكون السائس وازعا بالقهر وإلا لم تستقم سياسته ، وأيضا فان من طبيعتهم كما قدمناه أخذ ما فى أيدى الناس خاصة والتجافى عما سوى ذلك من الأحكام بينهم ودفاع بعضهم عن بعض ، فإذا ملكوا أمة من الأمم جعلوا غاية ملكهم الانتفاع بأخذ ما فى أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الأحكام بينهم ، وربما جعلوا العقوبات على المفاسد فى الأموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل الفوائد فلا يكون ذلك وازعا وربما يكون باعثا بحسب الأغراض الباعثة على المفاسد واستهانة ما يعطى من ماله فى جانب غرضه فتنموا المفاسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الأمة كأنها فوضى مستطيلة أيدى بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعا شأن الفوضى كما قدمناه فبعدت طباع العرب لذلك كله عن سياسة الملك وإنما يصيرون إليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية تمحو ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه، واعتبر ذلك بدولتهم فى الملة لما شيد لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم . كان رستم إذا رأى المسلمين يجتمعون للصلاة يقول: أكل عمر كبدى يعلم الكلاب الآداب، ثم إنهم بعد ذلك انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين فنسوا السياسة ورجعوا إلى قفرهم وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة ببعدهم عن الانقياد وإعطاء النصفة فتوحشوا كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك إلا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم . ولما ذهب أمر الخلافة وامحى رسمها انقطع الأمر جملة من أيديهم وغلب عليهم العجم دونهم وأقاموا بادية فى قفارهم لايعرفون الملك ولاسياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد كان لهم ملك فى القديم وما كان لأحد فى القديم من الأمم فى الخليقة ما كان لأجيالهم من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وحمير والتبابعة شاهدة بذلك ثم دولة مضر فى الاسلام بنى أمية وبنى العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا إلى أصلهم من البداوة ، وقد يحصل لهم فى بعض الأحيان غلب على الدول المستضعفة كما فى المغرب لهذا العهد فلا يكون مآله وغايته إلا تخريب ما يستولون عليه من العمران كما قدمناه، والله يؤتى ملكه من يشاء اه .

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون فى الفصل الرابع ، وقال فى الفصل الخامس ما نصه :

﴿ الفصل الخامس : فى أن الظلم مؤذن بخراب العمران ﴾

وهنا ذكر الناس إذا اغتصبت مكاسبهم وقهروا على ما ملكوا وانتهت من أيديهم كسلوا عن العمل وانقطعت آمالهم وقعدوا عن العمل لعلمهم أنه ذاهب من أيديهم ، وضرب لذلك مثلا ما ذكره المسعودى

فى أخبار

في أخبار الفرس عن الموبذان صاحب الدين أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في إنكار ما كان عليه من الظلم، إذ سمع البوم وسأل بهرام الموبذان عن معنى كلامها فقال له إنه يعلمه وإن الأنثى لما طلبها الذكر شرطت عليه أن يقطعها عشرين قرية من الخراب، فقال لها إن دام بهرام أقطعتك ألف قرية فتنبه الملك فقال له الموبذان لا يتم الملك إلا بالشريعة ولا تتم الشريعة إلا بالملك ولا عز للملك إلا بالرجال والرجال بالمال والمال متوقف على العمارة والعمارة بالعدل والعدل ميزان منصوب بين الخليقة، وأفهمه أنه قد انتزع الضياع من أهلها فهلكت الرعية وضاع الجند وهرمت الدولة، فاتعظ الملك وعدل فانتظم ملكه. وهكذا أخذ يبين أن الدولة العظيمة لا يظهر فيها أثر الظلم دفعة واحدة بل يكون بالتدريج ثم يظهر بعد حين كالأمراض الدائمة — «والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» انتهى المطلب الأول.

﴿ المطلب الثاني: كيف تقع الأمم الظالمة في سوء أعمالها وتذهب دولهم تبيانا لقوله تعالى: «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» وفي هذا المطلب جوهرتان ﴾

(الجوهرة الأولى ما قاله العلامة ابن خلدون: إن من عوائق الملك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم)

قال وسبب ذلك أن القبيل إذا غلبت بعصبيتها بعض الغلب استولت على النعمة بمقدار وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصة بمقدار غلبها واستظهار الدولة بها، فإن كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع بما يسوغون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم إلى شيء من منازع الملك ولا أسبابه، إنما همتهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة إلى الدعة والراحة والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصبية والبسالة ويتنعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستنكفون عن سائر الأمور الضرورية في العصبية حتى يصير ذلك خلقا لهم وسجية فتنقص عصبيتهم وبسالتهم في الأجيال بعدهم بتعاقبها إلى أن تنقرض العصبية فيأذنون بالانقراض، وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون إشرافهم على الفناء فضلا عن الملك، فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصبية التي بها التغلب، وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافعة والحماية، فضلا عن المطالبة والتهمتهم الأمم سواهم، فقد تبين أن الترف من عوائق الملك «والله يؤتي ملكه من يشاء» اهـ.

فهذا هو تفسير قوله تعالى «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها» وقوله تعالى «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» وبهذا تم الأمر الرابع من الأمور الستة.

﴿ الأمر الخامس ﴾ في أن الانسان وإن قلد الحيوان في صناعاته فان هناك من الأعمال ما عجز عن نظيره الانسان فيجب عليه أن يجد فيه.

﴿ الأمر السادس ﴾ خطاب الأمم كلها شرقا وغربا، وهذان الأمران ستراهما في آخر هذه السورة عند قوله تعالى «سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم» الخ.

ولكن هنا أتم الكلام على نظام الأمم الاسلامية الذي ظهر في التاريخ ونقلته عن ابن خلدون، فماذا فعل الله تلقاء هذا؟ علم الله قبل أن يرسل نبينا صلى الله عليه وسلم أن أمم العرب والأمم التي معها ستقوم دولهم بالعصبية لأن استعداد أهل الأرض إذ ذاك لم يتجاوز هذا المقدار من الفضائل، وعلم أنهم سيجوبون الأرض شرقا وغربا وأنهم سينشرون الدين ثم تنطوي دولهم واحدة بعد الأخرى، فماذا أعد لأهل الأرض؟.

(أولا) أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرهم بأن فتوح البلدان سيكون فتوح شر، وغاية الأمر أنهم مسخرون، وأخبرهم بأنه يخاف عليهم من ذلك الفتوح وأن البطنة والترف سيهلكهم، فصل الله ذلك كله معهم .

(وثانيا) خلق أمما أخرى وأعدها لعمارة الأرض وأرسلهم من جزيرة خلاء فى الأرض ليطوا الأمم لما علم بعلمه القديم أن فارس والروم قد قتلتهم البطنة ، هكذا هذه الأمم الإسلامية أعد لها أمما تحل عليهم إذا أصابهم الترف وأهلكهم النعيم كما أخبر الصادق صلى الله عليه وسلم ،وما تلك الأمم التى أعدها الله لعمارة الأرض واستعمارها .

﴿ الجوهرة الثانية: ذكر بعض الممالك التى أعدها فاحتلت بلاد بعض المسلمين لما ذهبت دولهم ﴾

ذكرت لك أيها الذكى فيما تقدم هنا إجمال الكلام على ممالك الاسلام وأنهم ذهبت دولهم دولة بعد أخرى من عرب وغيرهم ، وقلت لك إنهم على وتيرة واحدة (حرص على الدنيا. ترف وشهوة . ظلم الرعية . ذل الرعية ، ذهاب الدولة) فها أنا ذا أذكر لك الممالك التى كان أعدها الله لتحتل بعض بلاد الاسلام وهذه الممالك التى سأذكرها لك امتازت بأنها لا تجعل الأحوال موقوفة على الملوك بل الشعب قائم بترقية نفسه بخلاف تلك الممالك فقد كان المدار غالبا عندهم على الملوك،فان مالوا للعلم والاصلاح مالوا إليهما وإلا فلا فكانت الشعوب تتبع للصادفات وهكذا لا يتزوجون الأجانب لئلا يفسد النسل فتضيع الدولة وتذهب هباء منثورا ، وهكذا لا يأمنون الأجانب فلا يولونهم الوظائف العالية فى بلادهم بخلاف الأمم الاسلامية كالتركية ، فلأذكر لك دولة انجلترا وفرنسا الخ .

﴿ دولة انكلترا ﴾

كانوا فى أول أمرهم كالوحوش ومساكنهم حقيرة يقيمونها تارة من الأعواد وأوراق الشجر وتارة من الطين ،وكان عملهم صيد الحيوانات بها يعيشون وحالهم كأجلاف العرب وكانوا يسجدون للصخور والحجارة وينابيع الماء ، وأول ظهور أمرهم كان قبل المسيح (سنة ٥٥ ق . م) على ما يقول السيد أحمد ابن السيد زينى دحلان، ثم لم يزل أمرهم يظهر ويقوى ولم يستقلوا إلا (سنة ٨٢٧ ب . م) وسنة ٢٤٣ هـ وكان دخولهم فى النصرانية قبل الهجرة بست وعشرين سنة وهم فيهم الكاثوليكية والبرتستانت والدهرية وهم مجتمعون من قبائل شتى ، وفيهم جماعة من (الكليتيين) ولهم جزيرتان منفصلتان (بريطانيا) و (إيرلنده) وصارت دولتهم عظيمة واستولوا على الهند سنة ١٧٥٧ م ، أى سنة ١١٧٢ هـ وتم استيلاؤهم على الهند سنة ١٨١٦ م أى سنة ١٢٠٨ هجرية، وذلك بعد حروب كثيرة ، واستولوا على جبل طارق الذى فى المغرب سنة ١١١٦ هـ إذ انتزعوه من الأسبان فى ذلك التاريخ والاسبانيون قبل ذلك انتزعوه من المسلمين سنة ٨٦٧ هـ وهذا الجبل مفتاح البحر الأبيض المتوسط وهو مقابل الجزيرة الخضراء التى هى من بلاد الأندلس ويسمى جبل طارق، وطارق هو طارق بن زياد مولى موسى بن نصير،وموسى مولى عبد العزيز بن مروان الذى هو أخو عبد الملك بن مروان ووالد عمر بن عبد العزيز ، فسمى الجبل باسم طارق المذكور لأنه نزل بالمسلمين عنده لما قصد فتح الأندلس ولذلك يسمى (جبل الفتح) والعامة يسمونه (جبل الطار) وهكذا دخلوا مصر بعد ذلك .

﴿ دولة الفرنسيس ﴾

أما دولة الفرنسيس فقد ابتدأ ملكهم (سنة ٤٢٠ ب م) قبل الهجرة بمدة (٢٦٢) ذلك ابتداء نظام ملكهم ، وقبل ذلك كان لهم ملوك لم ينتظم أمرهم ولم يكمل استقلالهم بل كانوا تارة يستقلون وتارة يحتلهم

غيرهم، ومبدأ أمرهم كان قبل الميلاد بخمسة قرون، وكانت اليونان تحكمهم ولما غلب الرومان اليونان حكموا فلم يكن ملكهم مستقلا وكانوا يعبدون الأصنام المصورة على صورة الكواكب فهي أشبه بديانة أهل الهند عباد الأوثان ثم دخلوا في النصرانية (سنة ٤٩٦) وأول من دخل منهم فيها الملك (كاويس) وهم كاثوليكية وبعضهم على المذهب البروتستانى، ومنهم من لا يتدين بدين، بل كثير منهم من ينكرون الصانع وقد حصل بينهم وبين الانجليز حرب دامت (١١٦) سنة من سنة ١٣٣٧ م أى سنة ٧٣٨ هـ والصلح كان سنة ١٤٥٣ م أى ٨٥٧ هـ، وهذا يسمى حرب المائة سنة.

واستولت الفرنسيس على الجزائر بأفريقية سنة ١٢٤٦ هـ وفى سنة ١٢٩٦ أدخلوا المملكة التونسية فى حمايتهم وقد استولوا على مراكش فى أيامنا هذه.

﴿دولة هولاندا ويقال لهم الفلمنك﴾

هذه كانت تحت حكم أسبانيا ودار الحرب بين الدولتين مدة ثمانين سنة واستقلوا سنة ٩٨٧ هـ وفى تلك السنين استولوا على بلاد جاوه، وكان دخولهم النصرانية فى الزمن الذى دخل فيه غيرهم من أوروبا.

﴿دولة اسبانيا﴾

كانت تابعة لدولة اليونان فالرومان ثم بعض ملوك أوروبا ثم استولى المسلمون على أكثر ممالكهم لما فتحوا الأندلس فكان الأندلس تحت يد اسبانيا إلى (سنة ٩٢ هـ) فانتزعه المسلمون منهم وبقى معهم ملك ضعيف فى آخر الأندلس ووقعت بينهم حروب كثيرة ثم انتزعوا الأندلس من المسلمين شيئا فشيئا إلى أواخر (سنة ٩٠٠ هـ) ثم أخرجوا من بقى من المسلمين بالأندلس فى (سنة ١٠١٠) واستقلوا بالملك، وكانوا أولا يعبدون الأصنام ودخلوا فى النصرانية فى الزمن الذى دخل فيه غيرهم. انتهى من كتاب السيد أحمد ابن السيد زينى دحلان المترجم عن اللغات الافرنجية.

هذه هى الدول التى أردت ذكرها هنا لأن هؤلاء أكثر من يحتلون اليوم بلاد الاسلام، ذكرت دولهم ليعلم المسلمون أنهم لما جعلوا الممالك مغانم واقتتلوا على ذلك لأجل الترف والنعيم فى العصور المتأخرة أبعدهم الله عن الملك وأجلس غيرهم على عروشهم، وذلك قوله تعالى «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا».

﴿استعمار الفرنجة لبلاد الإسلام، وهل يدوم؟﴾

اعلم أن الله عز وجل كما قدمنا قد أعد الأمم العربية لفتح البلاد لما أصبحت الأمم القديمة لا تصلح لإدارتها ولما فسدت الأجيال العربية والأمم التى حلت محلها أعد أمما أخرى كالانجليز وكالفرنسيس، ولكن هذه الأمم سلكت مسالك العرب فى القرون المتأخرة، وإنما أرسل هؤلاء فاحتلوا بلاد الإسلام ليوقظ فيهم روح الحية «لعلهم يعقلون» والزمان سيستدير دورته، وها هى ذه الأمم الشرقية آخذة فى الرقى جهدة لأخذ مكانتها تحت الشمس «وهم من بعد غلبهم سيغلبون - والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

ولكن هنا أخاطب الأمم الاسلامية فأقول: ها أنتم أولاء قرأتم تاريخ أسلافكم واطلعتم على ما حل بهم فى الشرق والغرب وظهر لكم هذه الخصال.

(الخصلة الأولى) أن الترف والنعيم هما المقصودان لكل من طلب الملك فى الأمم الاسلامية المتأخرة فى الأندلس وفى بلاد الشرق.

(الخصلة الثانية) أن هذا الترف والنعيم حملهم على ظلم الرعية كما فى آية «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها»

(الخصلة الثالثة) أن تلك الأمم المظلومة تذل بهذه الأعمال .

(الخصلة الرابعة) أن الأمم الظالمة تضعف قواها الجسمية والعقلية بسبب النعمة والكسل والاتكال على عمل غيرهم .

(الخصلة الخامسة) أن هؤلاء المالكين ينقرضون أيضا .

(الخصلة السادسة) أن أمما أخرى تحل محلهم .

(الخصلة السابعة) أن هؤلاء يحصل لهم ما حصل للسابقين حذو النعل بالنعل .

ونتيجة ذلك أن الأمم ماهى إلا كدود مخلوق فى جثة الميت ، وهذا الدود لما فى جسمه يأكل بعضه بعضا حتى إذا بقيت فى آخر الأمر دودتان أكلت أقواهما أضعفهما ثم ماتت الآكلة بالجوع . هذا تاريخ الأمم المتأخرة الاسلامية .

﴿ لطيفة فى هذه الأيام ﴾

فى هذه الأيام حصل أمر مهم لابد من ذكره فى التفسير لأنه يناسب هذا المقام لأن الله عز وجل قد أيد هذا التفسير تأييدا عظيما . ذلك أنه فى يوم ٢٤ إبريل سنة ١٩٢٩ دعانى الأستاذ أحمد زكى باشا لحفلة شاى جمعت علماء الشرق وعلماء الغرب ، فلأذكر ما دار فيها لأنه أكبر شاهد على ما وصل إليه جيلنا العربى من التضرع للأمم ، وهذا نص الخطبة :

أنتم تعلمون أيها السيدات والسادات أنى أغتنم كل فرصة سانحة لأكون واسطة التعارف بين أكابر الافرنج وأفاضل العرب ، ولى فى ذلك مطمح بعيد المدى وهو أن يكون هذا التفاهم سببا فى خلق جو جديد من الصفاء والوفاء بين الشرق والغرب ، فهذه الغيوم التى نشكو من تواليها لابد لها من الانقشاع ، وتلك الإرهاقات التى نعانيها من سياسة البطش والاستعمار لامناص لها من التبدد والزوال . أما الامتيازات الأجنبية التى تجعل أكبر عزيز فى بلادنا مهانا فى عقر داره ومهضوم الحق بإزاء الأفاق الطارىء عليه فقد انقضى زمانها وزالت دولتها فى كل البلاد (ما عدا مصر) .

هذه الامتيازات هى العقبة الكبرى فى سبيل التفاهم بيننا وبين أوروبا لأنها أكبر سبة لكرامتنا القومية ولماضينا المجيد ، ولا دواء لهذه العلل القاسية إلا عن طريق أهل الرأى المجردين عن الهوى وهم أفاضل الافرنج ذوو الأخلاق الطاهرة والضمائر الحية ، أولئك الذين لا تعميهم مصالحهم الشخصية فيصورونا بأشكال لاتنطبق على الواقع ولكنها ترجع بالفوائد المادية عليهم وحدهم دون غيرهم ، هؤلاء المستشرقون والمستعربون هم القادرون على بث الدعوة بين قومهم ليحملوهم أخيرا وبعد تمادى الزمان على الاعتراف بأن العرب جديرون بأن يتبوءوا مركزهم تحت الشمس لأنهم على الأقل مساوون لبعض الأمم العائشة فى النصف الشرقى من أوروبا .

لقد كان من دواعى اغتباطى أن يجتمع فى هذه الفترة القصيرة سيدات من كرام العائلات الشرقية والافرنجية بجانب رجال من الطراز الأول على ضفاف البحر الأبيض المتوسط التعاون على إنشاء قنطرة أدبية فوق ذلك البحر المجيد لتسهيل التواصل والتعاون بيننا وبين أوروبا الرشيدة ، أتوجد فرصة لتحقيق هذا الغرض أحسن من التى أتاحها لى الزمان فى هذه الساعة ، ثم أخذ الأستاذ زكى باشا فى تقديم المحتفل بهم إلى الحاضرين حسب ترتيب أسمائهم فى الحروف الهجائية فذكر أولا الأستاذ جيل بيم فالأستاذ أنجلو جويدى فالدكتور شخت فالسيد عبد الرحمن القصبى فالسيد العرفى فالمستر كراين فالأستاذ ليتمان فالأستاذ مارجوليت فالأستاذ نايلنو فالأستاذ يهودا ، فذكرا عن كل منهم ما كان فيه الثناء والكفاء لتعريف الحاضرين بهم ، إلى أن قال :

ياسادة العرب. ويا أفاضل الافرنج، مفروض عليكم أن تتضافروا على تحقيق الأماني الكبار التي يترمقها أبناء الشرق على العموم ونحن إليها العرب بنوع خاص .

فيا سادة العرب، ويا أفاضل الافرنج ، مفروض عليكم أن تتضافروا لتحقيق هذه الغاية بقلوب يعمرها الايمان بحقوق الانسانية على الانسان، مفروض عليكم أن تتعاونوا هنا وفي ما وراء البحار على تربية الرأى العام في ديار أوروبا وأمريكا لإدراك هذه الحقيقة التي تفتت الحلفاء في أيام الحرب والتي سيحتاجون إليها بلا شك كلما تجدد الخطب واشتد الكرب .

مفروض عليكم أن تتواصلوا بالقول وبالعمل إلى تحقيق تلك الأمنية العالية الشريفة وهي المجاهدة في ديار أوروبا وأمريكا حتى يعرف أهلوها بأن العرب جديرون بالرعاية والاحترام، جديرون بالحرية الصحيحة جديرون بالاستقلال التام .

ولى كل يوم موقف ومقالة أنادى ليوث العرب ويحكو هبوا

ثم دعى الكلام حضرة أسعد لطفى بك رئيس نقابة موظفى الحكومة فألقى كلة نوه فيها بما للمستشرقين من الفضل فى خدمة العلم واللغة العربية وختمها بالترحيب بهم وشكر الحاضرين على تلبية الدعوة ، وبعد أن انتهى أسعد بك من كلته وقف الاستاذ (ليتمان) المستشرق الألمانى فاستهل الكلام بقوله : (نحن الغربيين متشكرون جدا لسعادة زكى باشا لهذه الحفلة التى جاءت فريدة فى مجموعها ولو أنها جاءت على الحركرك (كذا) ثم قال إننا ونحن فى ألمانيا نقول ألمانيا فوق الجميع ، وأنتم أيها المصريون تقولون فى وطنكم مصر فوق الجميع ولكن كلمتنا فى هذا الاجتماع هى العلم والتفاهم بين الأمم الشرقية والغربية فوق الجميع) .

وبعد ذلك دعى الكلام الاستاذ (مارجليوث) المستشرق الانجليزى الشهور وهو فى العقد الثامن من عمره فحيا الحاضرين وشكرهم على حفاوتهم واحتفائهم وخص بالشكر العلامة زكى باشا على هذا الاجتماع الذى سيبقى ذكراه فى الأفئدة طول الدهر على ممر السنين مستشهدا بأحد أبيات المتنبى اه. وإنما ذكرت هذا لأنه اجتماع جمع من عظماء الشرق والغرب، وكنا نحن أبناء العرب نطلب المساعدة من علمائهم فى إخراجنا من ذل الاستعباد ذكرت هذا ليعرف أبناؤنا بعدنا ذلك فيحترسوا .

﴿ الذى أراه فى إسعاد هذه الأمم الاسلامية فى المستقبل ﴾

أيها المسلمون إياكم أن يزعجكم ما نقلته عن ابن خلدون فى قوله (إن الأمم العربية لاتتسلط إلا على البسائط وإنها ما دخلت أمة إلا أسرع إليها الفساد وإنها خربت أمما وأمما كما تقدم) فانه هو نفسه قال (إن ذلك ما حصل إلا بعد أن تناسوا الدين ورجعوا إلى طبيعتهم) ثم إن الله ما فعل ذلك إلا تحقيقا لوعده إذ قال « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ثم هو سبحانه وعدنا خيرا فقال « ولا تكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون . اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » إننا وصلنا الى أدنى مراتب الإسلام فى قرون وقرون سواء أكنا عربا أم تركا ، فهذه الأمم كانت تجهل الدين جهلا تاما ، وها هو ذا وعد الله عز وجل بإحياء أممنا قد ظل إبانه وأقبلت أيامه .

﴿ اجتماع الأمم بالعلم بعد الاجتماع بالعصبية ﴾

لقد تبين لكم من تاريخ الدول الاسلامية من كلام ابن خلدون أن قوامها لم يكن إلا على العصبية فلا مهدى إلا بالعصبية ولا ملك إلا بها، وقد تقدم أن العصبية تضمحل وتضعف بالترف والترف من نتائج الملك، إذن الاجتماع بالعصبية والقرابة أمره زائل بالبرهان العقلى. لقد وضح الصبح لذى عينين وجاء الحق وزهق

الباطل، إذن هذه القرون ذهبت ولم تفز الانسانية من الدين الاسلامى فى سياسة بطائل، وما مثل المدنية القائمة على العصبية والنسب إلا كمثل العشق المبنى على جمال الظاهر فإنه ذاهب متى قضى العاشقان شهوتهما وكسر سورة العشق والهيام بفتور الشهوة، وعلى مقدار ضعفها يقل العشق ثم يزول بتاتا . فأما الحب المبنى على العلم فلاحد لدوامه، فحب الشاب الفتاة لمجرد النظر الظاهر ليس كحب المتعلم للعالم الذى يجذبه بعلمه وسحره يدبج بيانه فيا بعد ما بينهما. إن الاجتماع الإنسانى المبنى على اللغة أو النسب أو المعاهدة أو التغلب أو نحو ذلك مما ذكره الفارابى وربما تراه فى آخر تفسير السورة . كل هذا لاثبات له فإن هؤلاء تنحل رابطتهم متى خضعوا للترف وخضعوا للذات، فأولئك تذهب مدنيتهم هباء منثورا .

﴿ الطريق الأقوم لسعادة الأمم الاسلامية المستقبلة ودوام ممالكها ﴾

إنما السبيل لذلك أن تسعى كل أمة من الأمم الإسلامية حالا إلى تعليم جميع أفراد الأمة رجالا ونساء وأن يتعاون جميع أهل العلم وذوى الوجاهة وأرباب الأموال فى تثقيف الشعب كله: فإذا وقع كتابى هذا فى يد رجل ذى منزلة سامية فليفكر فيما أقول وليسع حالا مع أمثاله وأصحابه وأهل الوجاهة وأرباب الأموال وليشمروا عن ساعد الجد وليعلموا الشعب كله وليفتحوا دور التعليم ولتكن هناك مدارس ليلية يتعلم فيها الفلاح والصانع مبادئ القراءة والكتابة ولتكن لهم مناهج بها يدرسون ما ينفعهم فى صحة أبدانهم وطرق معاشهم ومعادهم وليعرفوا ما حولهم من الحيوانات فى الأرض، وسيكون منهم أفراد ممتازون خلقهم الله فى كل قطر فهؤلاء يتعلمون ما يوافق عقولهم ويناسب أمزجتهم من العلوم والصناعات، وهؤلاء يكونون عماد الأمة يقودون هؤلاء العامة فى أمور دينهم ودنياهم . وقد قدمت أمثال هذا القول فى كثير من فصول هذا التفسير مثل ما ذكرته عند قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » فى آخر البقرة، وهذا واجب على كل أمة وقعت تحت الفرنجة أما المستقلون فأمرهم معلوم فهم جميعا قد استيقظوا، والله معين لكل مجد .

إن ما أكتبه الآن فى هذه القرن لا يقف فى طريقه مدفع ولا نار . إن العلم أمر روحى والعقائد متى رسخت فلن يعيقها عائق ولن يصدها صاد، بل تأخذ مجراها وتنتهى إلى نهايتها، فإذا قرأ المسلمون علوم الأمم المحيطة بهم وأشربت حبها قلوبهم فهنالك يظهر جيل جديد مغرم بجمال الله، مغرم بارتقاء الانسانية، مغرم بالسلام العام، عالم ما يقوله فى صلاته « الحمد لله رب العالمين » لا رب المسلمين وحدهم، وإذا كان الله مربى العالمين فلنكن متخلقين بأخلاقه ولنطلب منه أن يهدينا الصراط المستقيم، والصراط المستقيم هو صراط الله الذى عرفناه فى السموات والأرض من القيام بالقسط والعدل والنظام والإحكام العام لا الخاص وحينئذ يكون كبار الأمم مشوقين لأن يقلدوا النظام العام فهم كحملة العرش أو كالملائكة الذين يقومون بنظام هذه العوالم كلها وهذه الحال هى الأنسب لما نرى من جمال الكواكب ولما نرى من عموم أنوارها، وهذا كله فضل الله الذى نطلب منه الهداية لصراطه . إن للمسلم خلق لحياة أعلى من حياة هذه الأمم ومتى قرأ الناس هذا التفسير وأمثاله اشرأبوا إلى هذه الحياة وعملوا لها، ولن يقف الاصلاح بعد ذلك لأن العشق العام فى الأرض للنجوم والعوالم وللأنوار وللكشف الحديث ولاستخراج ما فى الأرض والهواء من النعم الإلهية يزداد جيلا فجيلا . ثم إن هذه الحال لا يخاف زوالها لأن زوالها سببه الترف والنعيم، والترف والنعيم إنما يكون عند القوم الذين جمعتهم العصبية كالممالك الإسلامية بعد العصور الأولى، والترف يهلك ولكن الأمم الذين يعرفون هذه العلوم ويدركون هذا الجمال وتكون لهم حكومات انتخابية يصطفون فيها أرقاهم عقولا وأذكاهم وأصلحهم يجرون أمورهم مع عموم التعليم وانتشاره وعموم الحركة العلمية والصناعية مع سن قانون يحرم البطالة والاستجداء من الناس لا يخاف عليهم ما كانت تخافه الأمم السابقة فأين الترف والنعيم والبطالة والكسل

والاتكال

والاتكال على ما يجبى من الناس بالعسف والظلم فلا ظلم اليوم ولا اغتصاب للأموال بل هو نظام ثابت وكل مغرم بعمله أو بصناعته قائم بواجبه، هناك يكون العدل والحب والحق والسعادة اهـ .

﴿ عبرة تاريخية فى آية « إن الملوك إذا دخلوا قرية » الخ ﴾

اعلم أيها الذكى أن هذا النوع الإنسانى لايزال فى مبدأ تطوره أنه أشبه بالأطفال أو المراهقين الذين يختصمون ويتقاتلون ويرجم بعضهم بعضا بالحجارة، وهم أبدا فى هرج ومرج ، هذا هو نوع الإنسان ، ذلك النوع الذى امتلأت نفوسه بالبر والإحسان والرحمة ثم غطى ذلك كله الشهوات واللذات فاستحلى ما كان مرا ، واستحسن ما كان قبيحا ، فترى طائفة منه يجتمعون ليدبروا الحيل لأخذ أموال الناس فى ظلام الليل البهيم وهم اللصوص، وآخرون يترصدون فى طريق السابلة فيقفون فى القفار والأودية بعيدا عن العمران، وهم بمنجاة من القانون والشرطة ويعبثون بالمارة قتلا وسرقة ونهبا ، وقد تكون تلك الفئة أكبر وأكبر حتى تكون جيوشا جرارة يقودها ملك كما اتفق للسلطان سليم، ذلك الرجل المسلم الذى قرأ كتاب الله عز وجل، فهذا الملك لم يحجزه الدين ولا العقل عن إذلال بعض الأمم الإسلامية، وهم فى ديارهم آمنون. إن هذا الإنسان لايزال طباعه وحشية وغرس كثير منه سبعية، لايحترمون الإنسانية العامة، ولا الأخوة الآدمية ولا الأخوة الدينية الخاصة .

لقد رأينا ملوك أوروبا قد أجمعوا كيدهم وأتوا صفا لمحاربة المسلمين فى ديارهم أيام صلاح الدين الأيوبى، وأشد من هؤلاء همجية وأكثرهم وحشية من يفتكون بأمة ويميتون آلافا من الناس وهم على دينهم، وهم شرقيون مثلهم بلا إثم ارتكبوه ولاذنب جنوه إلا أنهم أحياء مسلمون ذلك هو السلطان سليم سلطان الأمة التركية وهو من بنى عثمان فقد انقض على مصر سنة ١٥١٧ أفرنكية والبلاد كانت بلادا صناعية زراعية وكان لها أسطول قوى يحمى تجارتها بينها وبين الهند وهكذا بينها وبين أوربا ، فهؤلاء الترك لما دخلوها شنقوا سلطانها (طومان باى) بمصر بعد ما قتلوا السلطان الغورى ببلاد الشام وشتتوا شمل المصريين وأخذوا أعظم العمال فى البلاد، وهم ألف صانع وحملوهم إلى الأستانة وفصلوا مابين مصر وأوربا والهند فأصبحت البلاد زراعية واستحالت ضعيفة بعد أن كانت قوية ، وماتت الصناعة فيها ولحقها البوار وحل بها الكساد وصار الناس (طبقتين اثنتين) طبقة الفلاحين للعمل وطبقة الموظفين للعظمة وللمال والجاه ؛ أما طبقة الصناع فهى ليست ذات بال ، ولقد سرت الروح الزراعية فى البلاد وأهملت الصناعة واستولى الحكام على أهم موارد البلاد وهم ظالمون . وسرى ذلك الداء فى الأمة أربعمائة سنة ، ولا زال لهذا الخلق بقية باقية فى البلاد إلى وقتنا هذا ، كل ذلك من همجية الانسان الأولى وقسوته وطغيانه . فهذا ملك مسلم لم يمنعه دينه من تغيير طباع أمة قد خلقها الله فيها فى هذا الزمان وأرادت أن تجارى الأمم ولكنها بطيئة التقدم بما ورثت من صفات وضعها فى أبناء بلادى السلطان سليم الذى أعظم أمر الحكام فلهم السطوة والثروة وسواهم لاهو فى العير ولا فى النفير . وامتد هذا الخلق فى أهل بلادى فى عصرنا الحاضر إذ استقلت البلاد استقلالا اسميا ومع ذلك بق هذا الخلق فى أهلها فنعهم من التخلص من قيود الاحتلال . مثلا تجد رئيس حكومة إيطاليا (ما سوليني) راتبه (٣٠) جنيها شهريا . وهذا مثل ضربته لنظرائه فى أوربا ، ولكن مصر فيها اليوم أى سنة ١٩٢٨ م نحو (٦٠) وزيرا يتناول كل منهم معاشا قدره (١٥٠٠) جنيها فى العام وابتلعت الوظائف مالية حكومة البلاد فصارت تقرب من نصفها،وهذا سبب الخلق الذى ورثناه من سلاطين آل عثمان لما حكموا البلاد .

وكما أثر سلاطين آل عثمان فى أخلاق أمتنا المصرية أثروا فى قوتها العلمية، فإن الفاطميين أسسوا الأزهر

وعلموا فيه مذاهبهم (٢٠٠) سنة أي مدة بقاء دولتهم بمصر . وفي نظير الأزهر أسس (نظام الملك) للدرسة النظامية في بغداد لتعليم الدين الاسلامي على مذهب أهل السنة ليقاوم التعليم الشيعي في مصر لاسيما ما كان منه في (دار الحكمة) أو (دار العلوم) التي أسسها الحاكم بأمر الله بمصر. ولما تغلب صلاح الدين الأيوبي على الفاطميين (سنة ٥٦٧ ه) أبدل تعليم المذاهب الأربعة بتعاليم الشيعة في الأزهر ودعا للخليفة العباسي وأدخلت فيه العلوم الرياضية والنجوم وغيرها وحج إليها الطلاب أفواجا من أقاصي البلدان . ولما زالت الدولة الأيوبية ودخلت مصر في حكم المماليك أولا ثم في حكم الأتراك أخيرا انحط شأن اللغة العربية والعلوم ، وكان آخر انحطاط وتدهور لها في القرن الثامن عشر للميحي ، ثم أخذت تسترد البلاد بعض مكانتها أيام محمد علي باشا ، ولا زالت في ارتفاع وانخفاض للآن تمشي ببطء ، وتعثر في أذيال الخجل بين الأمم، وهذا زمان نهوض الأمم جمعاء، فلا بد من نهوض هذه البلاد ، وإنما ضربت هذا المثل وهو مثل المصريين مع الترك، لأبين لك بكل جلاء ووضوح كيف يكون إفساد الملوك إذا دخلوا قرية ، وكيف يجعلون أعزة أهلها أذلة؟ فالإفساد في مصر شمل القوة العقلية والقوة الصناعية وقوة العفة ، فعلم الرياضيات ونحوها والطب وأمثالها ألغيت من الأزهر الشريف ، وهكذا الصناعات ، وهكذا ماتت العزة القعساء، والهمة الشماء، وهي العفة والتبرى من الترف، فإن الترف ما دخل أمة إلا أفسدها ، فكثر في مصر الحكام المترفون المنغمسون في اللذات ، واستمر ذلك الخلق حتى لصق ببعض أهل بلادي الآن . والدليل على ذلك مرتب الوزراء الضخم المتقدم ذكره ، قال تعالى لقوم : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » .

فعلى الأذكياء قراء هذا التفسير أن يكونوا قادة للأمم الإسلامية وليعلموا أهل البلاد صغيرا وكبيرا بالتدريج وليجدوا في إفهام الشعب هذه المعاني وليمرنوهم على الصناعات والعلوم ، وليمنعوهم من الترف والنعيم كما كان الترك قبل انقلابهم الأخير إذ اختصوا بالحرب والعظمة على الناس فانغمسوا في الترف على طول الزمان فتملكهم رقاب الأمم واستنزفهم أموالهم « إن الإنسان لظلوم كفار » .

إن للمسلمين في المستقبل غيرهم بالأمس « والله يعلم وأنتم لا تعلمون — والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

﴿ اللطيفة الثالثة : في نقل عرش بلقيس ونحوه ﴾

لأنقل لك من [كتاب الأرواح] شذرة تناسب هذا المقام ، قد جاء في صفحة ٥٥ ما نصه :

وإليك الآن شرح كيفية مخابرة الموائد وفقا لتعليم الأرواح ذاتها المنقول في [كتاب الوسطاء] للمعلم الفيلسوف (ألان كاردك) وها هو ذا :

(س) هل السيال العام عنصر الأشياء كلها ؟

(ج) نعم كل ما في الكون مركب من العنصر الأصلي .

(س) هل من مناسبة بينه وبين السائل الكهربائي ؟

(ج) إن الثاني مركب من الأول .

(س) في أي حالة يظهر السيال العام على بساطته الأصلية ؟

(ج) لا تظهر بساطته الأصلية إلا في الأرواح النقية ، أما في عالمكم فهو متقلب أبدا متغير تتركب منه المادة الكثيفة المحيطة بكم ، إنما السائل الذي يقرب منه بالأكثر في أرضكم هو السائل المغناطيسي الحيواني

(س) كيف يتمكن الروح من تحريك الجماد ؟

(ج) يمزج جزءا من السيال العام بالمائع الحيوي المنبعث من أعصاب الوسيط .

(س) هل تنهض الأرواح المادة بأيديها المجسمة على نوع القول ؟

(ج) بل عند ما يريد الروح أن يحرك مائدة يحييها حياة اصطناعية بواسطة السيال العام والسائل المنبعث من الوسيط وبعد ذلك يجتذبها ويحركها بقوة ما به من السائل الخصوصى المنبعث منه بفعل الإرادة وعندما يكون الجرم الذى قصد تحريكه ثقيلا جدا يستعين بأرواح أخرى تأتى لمساعدته .

(س) هل الأرواح التى تأتى لمساعدته أدنى منه وتحت أمره ؟

(ج) الغالب هى أرواح مقارنة له .

(س) هل لكل الأرواح كفاءة على إتيان تلك الأعمال ؟

(ج) لا تأتى هذه الأعمال إلا أرواح سفلية لم تتجرد بعد من المؤثرات المادية .

(س) لسنا نجهل أن الأرواح العلوية لاتتنازل لعمل ما لايليق بها فقط نسأل عما إذا كان لهذه الأرواح المجردة عن الماديات مقدرة على إنشاء هذا العمل إذا أرادت ؟ .

(ج) لها القوة الأدبية كما لغيرها القوة الطبيعية فاذا افتقرت إلى هذه تستخدم من علكها كما تستخدمون أنتم العتالين لرفع الأثقال .

(س) يظهر من قولك أن العنصر الحيوى مستقر فى السيال العام ، وبما أن الجسم الروحانى مركب من هذا السيال فبدونه لايستطيع الروح أن يأتى عملا فى المادة الهيولية .

(ج) نعم وهو يحيى المادة الجامدة بنوع ما حياة اصطناعية فتطيعه منقادة لإشارته ، فالروح إذن لايحرك المائدة أو يرفعها بقوة ذراعه بل المائدة الحية تتحرك من نفسها لإشارته .

(س) فما دخل الوسيط فى هذا الحادث ؟ .

(ج) قد قلت لكم إن المائع الحيوى الذى لايملكه إلا الروح المتجسد أى الوسيط يستعيره الروح الذى لم يتجسد ويمسكه بمقدار من السيال العام وبهذا المزيج يحيى المائدة وهذه الحياة مؤقتة تتلاشى مع العمل وأحيانا قبل نهايته إن كان السائل المنبعث من الوسيط ضعيفا .

(س) هل يستطيع الروح أن يعمل بمعزل عن الوسيط ؟

(ج) كلا . فقط يعمل أحيانا من غير علم : أى أن من الناس من ينبعث منهم هذا السائل الحيوانى من غير علم منهم فيستعيره الروح ويحدث تلك الأعمال البديهية من دون وجود وسيط ظاهر يساعده على عمله .

(س) هل المائدة التى أحياها الروح تعقل ماتفعل ؟

(ج) لاعقل لها أكثر مما للعصا التى تشيرون بها لأن ما بها من الحياة الصناعية تجعلها فقط منقادة لحركات الروح فلا تتوهموا أن الطاولة المتحركة روح لأنه ليس لها من ذاتها فكر ولا إرادة .

(س) ما العلة المتغلبة فى الحوادث الروحانية ، أهى الروح أم السوائل ؟

(ج) الروح هى العلة والسوائل هى الواسطة الآلية ووجود كليهما ضرورى .

(س) ما وظيفة إرادة الوسيط فى هذه الحوادث ؟

(ج) وظيفته إحضار الأرواح ومساعدتها على تنفيذ السوائل .

(س) هل فعل الإرادة ضرورى بوجه الإطلاق ؟

(ج) أنها تساعد على العمل وتزيده قوة ولكن ضرورتها ليست بمطلقة لأن الحوادث تتم أحيانا رغما من هذه الإرادة حتى بدون علمها ، وهذه برهان على كون علة الحوادث ليست فى الوسيط .

(س) لماذا ليس لكل الناس هذه الخاصية ؟

(ج) لاختلاف الأمزجة وللصعوبة التى يلقاها الروح فى تركيب السوائل ، فبعض الوسطاء لاينبعث منهم

الناتج الحيوى إلا بفعل الإرادة وغيرهم يتدفق منهم بسهولة طبيعية فيستعيره الروح ويعمل فيه بدون علم منهم ، لهذا ليس لكل الوسطاء قوات متساوية .

(س) أيستقر الروح الفاعل بالمادة داخلها أم خارجا عنها ؟

(ج) يعمل فى كلا الحالتين لأن الروح ينفذ فى الجماد ولا يعوقه عائق عن الدخول فى أحصن الأماكن والنفوذ فى أكثف المواد .

(س) كيف يعمل الروح عند طرقه الموائد ؟

(ج) بطرقته السائل الممتزج الذى يستعمله فى التحريك وفى الطرق فعند ما يحركها ينقل إليكم النور مرآى تحريكها وعند ما يطرقها ينقل إليكم الهواء صوت طرقها .

(س) لا يصعب علينا إدراك ذلك عند ما يطرق الروح الجماد ، ولكن كيف يستطيع أن يسمعنا أصواتا وألفاظا مركبة .

(ج) بما أنه يعمل فى الجماد لا يعسر عليه العمل فى الهواء أيضا ، وأما الألفاظ المركبة فيقلدها كما يقلد باقى الأصوات .

(س) تقول إن الروح لا يستعمل يديه فى تحريك الموائد مع أنه قد شوهد فى جملة حوادث نظرية ظهور أصابع تمر على ملامس الارغن لضرب الألحان ، أليس ههنا حركة اللامس متأتية عن ضغط الأصابع لها .

(ج) يتعذر عليكم بعد إدراك طبيعة الأرواح وكيفية فعلها إلا بأمثلة متقاربة لا تملأ أذهانكم فلا تصوروا طرائق أعمالها مشابهة لطرائقكم ، أما قلت لكم إن فعل الروح مناسب لطبيعته وأن سوائل الجسم الروحانى تنفذ فى المادة وتحييها حياة صناعية ، فعند ما يضع الروح أصابعه على دساتين الارغن يضعها حقا بل يحركها ولكن ليست القوة العضلية هى التى تضغط على اللامس بل اللامس التى يحييها كما يحيى المائدة تتحرك من نفسها بفعل إرادته وتحدث الصوت ، وقد يحدث أمر يصعب عليكم فهمه وهو أن بعض الأرواح السفلية المتأخرة لا يزال غرور الحياة متركبا عليها فتظن بنفسها أنها تعمل كما لو كان لها جسم مادى فلا تدرى بعلة ما تأتيه من الأعمال كما لا يدرى الفلاح بأصول الألفاظ التى يركبها ، فإذا سئلت هذه الأرواح كيف تضرب على الارغن أجابت أنها تضرب بأصابعها لجهلها بالعلة الحقيقية فيحدث الفعل فيها غريزيا دون أن تدرى بأصوله وهكذا قل عن الألفاظ التى تسمعها .

(س) يظهر فى بعض الحوادث الروحانية ما هو مناف لكل النواميس الطبيعية المعروفة ، أفلا يجوز الاشتباه فى صحتها ؟

(ج) السبب فى ذلك بعد الانسان عن معرفة كل النواميس الطبيعية فلو عرفها كلها لأصبح روحا علويا . ففى كل يوم تظهر اكتشافات جديدة تكذب من ظن بنفسه أنه قد بلغ منتهى المعرفة ولم يبق شىء خافيا عليه . فهذه الاكتشافات المستجدة ينبه الله الانسان أنه لا يثق بأنوار علومه إذ سيأتى يوم فيه يعود علم العلماء خزيا لهم . ألا ترون يوميا أجراما تتغلب حركتها على قوة الجاذبية كقلة الدفع المقذوفة فى الهواء والمنطاد المتطاير فى الفلاة ، كفاكم تكبرا يابنى البشر . الأحرى بكم أن تقروا بضعفكم وعجزكم عن إدراك كل شىء .

قال شير محمد لما سمع هذا القول . هذا رجوع إلى ما قيل فى القرون الأولى والأعصر المظلمة من أن الأرواح لها قدرة على رفع الأثقال وعظائم الأعمال بأسباب يزعم القوم أنها طبيعية . قلت نعم ولا عار

على العلم إذا كشف اليوم ما أنكره أمس وهـذا ياشير محمد رجوع منك إلى مبدأ الترفع والاستكبار عن القول بصحة ما قيل فى الأعصر الغابرة ولكن علينا أن نخضع للعلم وندع الكبرياء فالدليل واضح والصدق راجح .

وليس يصح فى الأذهان شئ إذا احتاج النهار إلى دليـل

قال إذن هات القصة الثالثة عسى أن تكون أوفى حجة وأهدى سبيلا وأقوم قيلا وأرجح بيانا وأقوى تبيانا وأعز مراما وأرفع مقاما . قلت روى العلامة (والاس) الانجليزى فى صفحة ٧٢ من الكتاب المذكور ما نصه بالحرف الواحد :

(أعجب مارأيت من وساطة الآنسة (نيشول) إيجادها زهورا وفواكه داخل غرفة محكمة الغلق ؛ فنى أول مرة بدا على يدها هذا الحادث كانت فى منزلى بصحبة بعض من أخصائى ، فبعد أن تناولنا الشاى لأننا كنا فى فصل الشتاء دخلنا حجرة صغيرة مغلقة بإحكام وما قعدنا برهة من الزمان حتى لاح على المائدة التى جلسنا حولها كمية وافرة من الزهور منها شقائق النعمان والخزامى والاقحوان الأصفر وخلافها من الزهور الربيعية وكل أوراقها غضة ناضرة مكللة بالندى الرطب فيبستها كلها وحفظتها باعتناء بعد أن علقت عليها شهادة ممضاة من الحضور . وحوادث كهذه تكررت أمامى مئات من المرار وفى محلات شتى وظروف مختلفة ؛ فتارة جاءتنا الزهور بكميات وافرة وطورا مصحوبة ببعض ثمار يطلبها الحضور . وفى إحدى الجلسات طلب صديق لى إلى الروح إحضار دوار الشمس فما مضى هنيهة حتى رأينا أنه أهبطت على المائدة هذه الزهرة وعلوها ستة أقدام وجرثومتها مكسوة بكومة من التراب . وفى جلسة أخرى حضرها المسيو أولف ترولوف والكولونل هارفى ، وقد قصد هؤلاء الأشراف قبل إقامة الجلسة أن يتبشوا الغرفة جيدا فى كل أنحائها وأوعزوا إلى مدام ترولوب بأن تفحص جيدا كل قطعة من ثياب الآنسة (نيشول) ثم جلسنا حول المائدة والمسيو ترولوب قابض على يد الوسيطة وبعد مضى عشر دقائق استنشقنا جميعا أريج زهور فأوقدنا حالا الشمعة فوجدنا أذرع المسيو ترولوب والآنسة نيشول مكسوة بزهر النسرين اهـ .

وأغرب المنقولات التى تحدثت بها مؤخرا المجلات الروحانية منقولات الزهور على يد الوسيطة (حذروت ومنقولات الآثار القديمة والنباتات حتى الأسماك وبعض الطيور الحية على يد الوسيط الشهير بايلى وقد شهد هذه الغرائب كثير من مشهورى العلماء فى استراليا وإيطاليا وألمانيا وخلافها من الممالك الأوربية التى تجول فيها الوسيطان المذكوران . روى العلم الفيلسوف (الآن كاردك) فى (كتاب الوسطاء) حادثا نقليا شاهده عيانا والأسئلة التى طرحها على الروح الذى أتم الحادث والملاحظات الأصولية التى علقها روح علوى على أجوبته كما يأتى :

(س) نرغب إليك فى أن تفيدنا لم لا تقوى الروح على إحضار المنقول إلا عند إلقاء الوسيط فى السبات المغناطيسى ؟

(ج) السبب فى ذلك طبيعة الوسيط ومزاجه فما أستطيع عمله مع هذا وهو نائم أستطيع إنشاءه مع آخر وهو يقظان .

(س) لم تتأخر طويلا فى إحضار المنقول وتهيج بشدة رغبة الوسيط فى ذلك .

(ج) إطالة الوقت ضرورية لى لمزج السوائل ، أما تهييجى لرغبة الوسيط فمن باب التسلية والمزاح .

(ملاحظة الروح العلوى) لم يصب فى جوابه ولا أدرك غاية تهييجه لرغبة الوسيط فظنها بابا من التسلية مع أن مفعولها إثارة رشح السائل الحيوى بزيادة وهذا ناتج عن الصعوبة التى يلقاها الروح فى هذا الحادث عند مالا تكون وساطة الوسيط بديهية .

(س) هل للحضور تأثير فى انقاذ عملك ؟ .

(ج) إن إنكار الحضور ومقاومتهم تربكنا فى العمل جدا فلهذا نؤثر بسط مالدنيا أمام ناس مؤمنين خبراء بأصول الروحانية .

(س) من أين أحضرت الزهور والحلاوى ؟ .

(ج) قطفت الزهور من البساتين .

(س) ومن أين أخذت الحلاوى، أما درى البائع بنقصانها ؟ .

(ج) إنى آخذ الحلاوى من حيث أشاء ولا يتضرر البائع بذلك لأنى أضع له بدلها .

(س) والخواتم التى أحضرتها أليست بذات قيمة فكيف لا يتضرر صاحبها بخسارتها ؟ .

(ج) أخذتها من محل لا يعرفه أحد بنوع الا يحصل لأحد ضرر من ذلك .

(ملاحظة الروح العلوى) ليس الجواب بمستوفى الشروط والروح يحاول فيه اقناعكم باستقامته وعدم تضرر أحد بسرقته والحال أن الشيء لايعوض إلا بمثله وذى قيمتواحدةفلو أمكن الروح إبدال الشيء بنظيره ما احتاج إلى أخذ الأول بل استعمل الشيء الثانى مكانه .

(س) هل تقوى على إحضار زهور من كوكب آخر ؟

(ج) كلا . هذا مستحيل .

(ملاحظة الروح العلوى) أجاب بالصواب وذلك لاختلاف السوائل المحيطة بكل من الكوكبين .

(س) هل تستطيع إحضار زهور من خط الاستواء ؟.

(ج) أستطيع نقل الشيء من أى بقعة من الأرض كانت .

(س) هل تستطيع رد الأشياء التى أحضرتها وإرجاعها إلى مكانها ؟ .

(ج) كما استطعت إحضارها هكذا أستطيع إرجاعها .

(س) هل تشعر بتعب فى إنشاء العمل ؟ .

(ج) لا يكلفنى العمل تعبا طالما أنا مأذون فيه إنما نلق العناء الشديد فى أعمال لا يؤذن لنا فيها .

(ملاحظة الروح العلوى) لايشاء أن يقر بما ينوبه من التعب الجسيم من عمل كهذا مادى على نوع القول

(س) ما الصعوبات التى تلقاها ؟

(ج) أخصها سوء السوائل وعدم ملاءمتها لعملنا .

(س) كيف تحضر المنقول ؟ هل تمسكه بيدك ؟

(ج) كلا بل أخفيه فىّ ؟

(ملاحظة الروح العلوى) بل هذا غلط لأن الروح لا يخفى المنقول فى شخصيته بل يمزج شيئا من سائل جسمه الروحانى الشديد التمدد والانبساط بجزء من السائل الحيوى للنبث من الوسيط ، وبهذا المزيج يستر المنقول ويحمله .

(س) هل يعسر عليك إحضار شيء ثقيل الوزن ؟

(ج) لا فرق لوزن المنقول عندنا وإنما نؤثر جلب الزهور لطيبها ولطافتها .

(ملاحظة الروح العلوى) هذا صحيح فانه يستطيع إحضار ما وزنه مائة ومائتا كيلو دون أن يرتبك بهذا الثقل ، فقط بما أن كية السائل المزوجة يجب أن تكون مناسبة لجسم المنقول (وبعبارة أخرى) بما أن القوة هى بموازنة للدافعة ينتج أن الروح لا يحضر زهورا أو أشياء خفيفة إلا لعدم وجوده فى الوسيط أو فى نفسه للمائع الضرورى لنقل ما هو أثقل منها.

(س) هل يتوقع أحيانا اختفاء أشياء سببها الأرواح ؟

(ج) نعم قد يتوقع ذلك ويمكن استرجاع الشيء بالتوسل إلى الروح في رد ما أخذه .

(ملاحظة الروح العلوى) هذا صحيح وقلما يرد الروح ما أخذه ولكن بمـا أن فعلا كهذا يستدعى ظروف النقل ذاتها فينتج أن وقوعه نادر جدا وضياع الشيء يتأتى عن طيشكم لا عن فعل الأرواح

(س) أليس من المقولات ما يصوغها الروح من نفسه بما يأتيه من التغيرات فى السيال العام ؟

(ج) أنا لاأستطيع ذلك ولكن روح أرفع منى لا يعجز عنه .

(س) كيف أدخلت هذه الأشياء الغرفة وهى محكمة السد ؟

(ج) أدخلتها معى وأنا محتضن لها بجوهرى ولا أستطيع أن أشرح أكثر من ذلك .

فلما أن سمع ذلك شير محمد رأيته استبشر وفرح وابتهج وانشرح وقال يا سيدى إن مثل أنا وطلاب العلم فى هذا المقام كمثل صبية صغار مات عائلهم وهم لاسيد عندهم ولا ليد ولا حول بيدهم ولا قوة . يفترشون الثرى على الجيوب ويلتحفون السماء بعد الغروب ، فقال لهم قائل أيها الصبية المعدمون واليتامى الملقون هل جاءكم نبأ عما تملكون من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث مما ترك أبوكم فى قرية تبعد عنكم بأميال وأنتم لا تعلمون ، فقالوا ما لنا بهذا من علم إنما نحن صعاليك محقورون وصغار منهوكون ، وفقراء محرومون ، وأذلة معدمون . ولكن هذا الكلام قد ترك أثرا فى أفئدتهم ، ومزج الفرح بترحهم ، فأنشأوا يتساءلون ويسألون الركبان من كل غاد ورائح عن هذا النبأ العظيم ، وهم بين تصديق وتكذيب وتقريب وتبعيد ورجاء ويأس وأمل وقنوط حتى إذا جاء من بيده الحل والعقد وقال هلموا يا أبنائى فانظروا ، هذه أرضكم وخيلكم وأنعامكم ، فقروا عينا ، واشرحوا صدرا ، وطيبوا نفسا ، واصبروا قليلا لنبلوكم حتى تبلغوا سن الحلم فان آنسنا منكم رشدا دفعنا إليكم أموالكم وعسى أن تعرفوا قيمها وتقوموا بحقها ولا تهاونوا فى حفظها وعسى أن تكونوا من المفلحين .

ذلك يا أستاذى مثلنا وقد عشنا فى الدنيا جاهلين وقرأنا كتب المرسلين فسمعناهم حدثونا بحديث البقاء بعد الموت وذكروا عوالم تملأ السهل والجبل والبر والبحر تكتنفنا أنى توجهنا وتعيش معنا أنى عشنا وتلقى إلينا علما وتدلى إلينا بحكمة ، وأن منها من ترفع الأثقال من مكان إلى مكان . أو ليس من العجب أن حديث بلقيس وسيدنا سليمان فى هذه السورة له اتصال بهذا الحديث . ومن ذا الذى كان يدور بخلده أو يخطر بقلبه أو يهجس به أن العلم يكشف لنا جواز نقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام قال تعالى «قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين ، قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك ، فلما رآه مستقرا عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم » الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله . بعد أن كانت تلك القصص مما نسمعه ونؤمن به لفظا ولا نعقل له معنى : اتضح الأمر وظهر وتجلى العيان وعلمنا أن ذكر مثل هذه القصص لاستيقاظ الأمم بعلم الأرواح ليرقوا شعوبهم ، وأن البحث فى تلك الأحاديث من أقوى أسباب ارتقاء العقول وارتفاع الأمم ليكون الشك سببا للبحث والبحث مقدمة الوصول . وانظر كيف يقول الله تعالى «ليبلونى أأشكر أم أكفر» ولا جرم أن غرائب عالم الأرواح نعمة خفية ، فمن الناس من يستمسك بها ومنهم من لا يبالى ويقول لاخير فيما لا طعام فيه ولا لباس ولا لذة ولا جاه ، فمالنا وما للأرواح والآخرة والأولى « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون » .

ثم قال شير محمد : يا سيدى سيقول السفهاء من الناس هل كان الذى عنده علم من الكتاب محضرا للأرواح ؟ قلت إن قال قائل هذا فقل له ذلك لا علم لنا به وهذا مقام لا نصل إليه وإنما مقامنا أن الكشف الحديث أظهر وجود مخلوقات حية عاقلة روحية تصديقا للقرآن لها قدرة على حمل الأثقال ، فهذا ما نرمى إليه ليثق من لا يؤمن بالقرآن أن ذلك حق ، فأما ما عدا ذلك فمالى به يدان ولست أدخل فى هذا الميدان مع من لا يعقل البرهان ، فقال حسن . انتهى ما نقلته من كتابى [الأرواح] وبهذا تم الكلام على القسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله) بأن اعبدوه (فإذا هم فريقان يختصمون) مؤمن وكافر يختصمون فى الدين (قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة) بالبلاء والعقوبة (قبل الحسنة) العافية والرحمة (لولا) هلا (تستغفرون الله) بالتوبة إليه من كفركم ومعاصيكم (لعلكم ترحمون) لا تعذبون فى الدنيا (قالوا اطيرنا) تشاءمنا (بك وبمن معك) إذ تتابعت علينا الشدائد فتفرقت كلمتنا وحبس القطر عنا وذلك بشؤمك وشؤم من معك (قال طائركم عند الله) أى ما يصيبكم من الخير والشر مكتوب عنده ، وسمى طائرا لأنه لا شىء أسرع من نزول القضاء المحتوم ، ويقال [طائركم عملكم لسرعة صعوده] وقوله (بل أنتم قوم تفتنون) تختبرون بتعاقب السراء والضراء ، وهذا إضراب عن بيان طائرهم وهو مبدأ ما ينزل بهم من الشر إلى ذكر سببه (وكان فى المدينة تسعة رهط) تسعة أنفس وهو من الثلاثة إلى العشرة والنفر من ثلاثة إلى تسعة

(يفسدون فى الأرض ولا يصلحون) شأنهم الافساد الخالص عن شوب الصلاح (قالوا) قال بعضهم لبعض (تقاسموا بالله) أى احلفوا به (لنبيتنه وأهله) لنباغتن صالحا وأهله ليلا (ثم لنقولن لوليه) لولى دمه (ما شهدنا) ماحضرنا (مهلك أهله) أى قتل صالح وأهله فما ندرى من قتله ولا من قتل أهله (وإنا لصادقون) ونحلف إنا لصادقون (ومكروا مكرا) غدروا غدرا حين قصدوا قتل صالح ومن آمن معه من قومه (ومكرنا مكرا) دبرنا تدبيرا بأن عجلنا الهلاك لهم (وهم لا يشعرون) بذلك ، ثم أبان ذلك فقال (فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم) أهلكنا التسعة . روى أنه كان لصالح فى الحجر مسجد فى شعب يصلى فيه فقالوا زعم أنه يفرغ منا إلى ثلاث فنفرغ منه ومن أهله قبل الثلاث فذهبوا إلى الشعب ليقتلوه فوقعت عليهم صخرة من جبالهم فطبقت عليهم الشعب فهلكوا وهلك الباقون فى أماكنهم بالصيحة . وإلى هلاكهم أشار سبحانه بقوله (وقومهم أجمعين . فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا) بظلمهم وكفرهم (إن فى ذلك لآية) لعبرة(لقوم يعلمون) قدرتنا (وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون) الكفر والشرك فلذلك خصوا بالنجاة (ولوطا)واذكر لوطا، ثم أبدل منه قوله (إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون) تعلمون أنها فاحشة لم تسبقوا إليها وهو إما من بصر القلب ، ولا ريب أن اقتراف الفاحشة من العالم بها من أقبح الذنوب ، وأما من بصر العين لأنهم كانوا يأتونها وبعضهم يبصر بعضا ، ولا جرم أن فاحشة العلانية أقبح من فاحشة السر . ثم بين تلك الفاحشة وعللها بالشهوة إيماء لازدرائها ومنافاتها الكمال متى خلت من الحكمة فى خلقها وهى أن يطلب منها النسل فقال (أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) اللاتى خلقن لذلك (بل أنتم قوم تجهلون)تفعلون فعل من يجهل قبحها أو يكون سفيها لا يميز بين الحسن والقبيح أو تجهلون العاقبة (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون) يتنزهون عن أفعالنا ويعدونها قذرا (فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين) قدرنا كونها من الباقين فى العذاب (وأمطرنا عليهم مطرا) هى الحجارة أى أمطرنا على شذاذهم والمسافرين منهم (فساء) فبئس (مطر المنذرين) مطرهم انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة والحمد لله رب العالمين .

﴿ جوهرة : فى قوله تعالى أيضا « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » مع قوله تعالى « فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا » أيضا ﴾

اعلم أن الأمم الإسلامية أصابها ما أصاب الأمم، فإنهم ظلموا فخربوا البلدان التى فتحوها مصداقا لحديث « إن أخوف ما أخاف، عليكم ما يفتح عليكم الخ » . إن الله عز وجل بالمرصاد لكل أمة والله عز وجل لما أنزل القرآن جعله نورا مبينا وأمر المسلمين أن يكونوا خير أمة أخرجت للناس فيجعلوا العالم كله أمما متعاونة فلا ظالمة ولا مظلومة . ولقد ظهر فى أوروبا وفى الشرق من الآراء ما يناسب ما ذكرناه ليزول الظلم من أهل الأرض وهو الذى كان يأمر به نبينا ﷺ إذ يأمر بالعتق والرحمة ويقول الله « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو طعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة . ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » . إن المسلم هو الذى يوصى غيره بالصبر وبالرحمة العامة . وليعلم المسلمون أن أهل الأرض مستعدون لذلك . فإذا بلغ المسلمون ذرى المجد فى العلم والعمل فليرقوا الانسانية والدليل على أن الأمم قابلة لذلك (لطيفتان) .

﴿ اللطيفة الأولى : فى رأى فيلسوف الصين « كونفوسيوس » فى دولية العالم ﴾

معلوم أن تعاليم (كونفوسيوس) الفيلسوف كانت ترشد الشعب الصينى العظيم وتكون مصيره ومع أنه قد مضى عليها ألوف السنين يقول دارسوها إنها تحوى من الآراء والنصائح والنظريات

مايكاد يكون عصريا . مثال ذلك . ما اقتبسه (المستر الفرد مارتن) من هذه التعاليم عن دولية العالم وهو بالترجمة كما يلى :

(عند ما يسود مبدأ الدولية يصير العالم بأسره جمهورية واحدة وتنتخب الأمم أفاضل ذوى مواهب ومقدرة فيتكلمون عن الاتفاق الحقيق ويثقفون الوئام العالمى ويصبح الناس والحالة هذه لا ينظرون إلى والديهم بأنهم والدوهم فحسب ولا إلى أولادهم بأنهم أولادهم فحسب ، وسيعين للمتقدمين فى السن معاشا حتى وفاتهم ويدبر عملا الرجال تقدمهم الشيخوخة ويقدم للأحداث ما يساعدهم على النمو والتقدم فى مراحل الحياة. أما الأرامل والأيتام والمقطوعون والعجزة من تأثير الأمراض فكلهم تتكفل بهم الحكومة وسيضمن لكل رجل حقه ولكل امرأة شخصيتها) انتهت اللطيفة الأولى .

(اللطيفة الثانية)

فى ذكر ما جاء عن أحد الضباط الأوروبيين إذ مدح الأمير عبد الكريم بعد انخذاله . وهذا نص ماجاء في جريدة الأهرام بتاريخ ٦ مارس سنة ١٨٢٩ م .

(عواطف كريمة)

(كبتن كننج فى شعره)

عرفنا من قبل الكبتن كننج رجلا أبيا هماما أعجب بشجاعة الريفيين وساءه ما يلقى حقهم من باطل أعدائهم فكتب يسعى للسلم بين عبدالكريم وأعدائه سعيا لم يقصر فيه ولكن خيبة ظلم السياسة وكبرياؤها ، فهل عرف قومنا أن هذا الرجل الانكليزى الشريف شاعر رحيم القلب على النفس ، ويسترض فى شعره الماضى والحاضر ليشيد بذكر العظماء ويقضى حق البطولة أنى وجدها؟ وهل عرفوا أن لعظماء التاريخ الاسلامى من شعره المكان الأول والنصيب الأوفر ؟ طلع علينا (الكبتن كننج) منذ عامين بطائفة من شعره سماها (موت أكبر وقصائد أخرى) خص بمعظم صفحاتها جلال الدين أكبرشاه ملك الهند العظيم فثل هذه العظمة على سرير الموت محتضرة ، وما أوسع هذا مجالا لقريحة شاعر كبير القلب ذكى الفؤاد .

ثم نشر هذا العام طائفة أخرى من شعره عنوانها [أبو عبد الله وقصائد أخرى] وهى مائة وخمسون صفحة من الشعر الجيد تستغرق قصة أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة أربعا وثلاثين ومائة صفحة منها ، وقد أعطى فيها الشاعر التاريخ نصيبه وللانسانية حقها وأن النفس الكبيرة التى تقدر البطولة وتحدب عليها فى بأسائها هى التى وقفت بالكبتن كننج على أبى عبد الله فى أيام نحسه كما وقفت به من قبل على جلال الدين أكبر فى سرير موته ، وكذلك قطعة عن جنة العريف فيها الشعر والقلب العطوف مجال واسع وأعظم ماقى الكتاب من بعد [قصيدتان : إحداهما] فى رثاء المرحوم سعد باشا زغلول وكان الشاعر قد رآه حين قدم مصر منذ سنة ونصف ، وفى هذه القطعة يصف بلفظ موجز وقع المصاب فى مصر ومكانة الزعيم الفقيد من قلوب أمته ، ثم يهيب بالمصريين ألا تيأسوا وسيروا على سنة زعيمكم فالمستقبل وضاء أمامكم . وحسبنا من نبل الأخلاق والانتصار للحق أن يقف الشاعر هذا الموقف من رجل مات وهو فى نضال سياسى تخاصم فيه الإنجليز (قوم الشاعر) والقطعة الثانية نظمها حين أحدق بالزعيم الريفى عبد الكريم نحسه فاضطره إلى الاستسلام لعدوه ؛ والشاعر يمثل فيها ريفيا محتضرا يفتقد زعيمه العظيم . انتهى الكلام على القسم الثالث من المورة .

القسم

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ءَاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ • أَمَّنْ خَلَقَ
السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ
لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَءِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ • أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا
وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ • أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ
خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؟ أَءِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ • أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ،
وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، أَءِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ • أَمَّنْ
يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، أَءِلٰهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قُلْ هَاتُوا
بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ
إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ • بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا
بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ • وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ • لَقَدْ
وُعِدْنَا هٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ • قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ
فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ • وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا
يَمْكُرُونَ • وَيَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ • قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ
رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ • وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ، وَلٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ • وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ • وَمَا مِنْ
غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ • إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ • وَإِنَّهُ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ • إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
بِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ • فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ • إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا
تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ • وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ

إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا، فَهُمْ مُسْلِمُونَ • وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ • وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا، فَهُمْ يُوزَعُونَ • حَتَّى إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا، فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ • أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ • وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ • وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً، وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ، إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ • مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا، وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ • وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ • إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ • وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ • وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ •

اعلم أن الله عز وجل لما قص فى السابق من هذه السورة نبأ داود وسليمان وقوم لوط ، وثمود وقد ورد ما استبانت به عظمة الله وإنعامه على عباده من علم وحكمة لداود وسليمان واطلاعه عليه السلام على عجائب الخليقة وبدائع الحيوانات فى الجو وفى التراب وابتهاجه بمعرفة غرائزها وطبائعها وعجائبها وإلمامه بمراتب الجن والشياطين والملائكة وما خولهم الله من قدرة وعلم ، وكيف رتبتهم مراتب ونظمهم صفوفا كل فيما استعد له من عفاريت يقدرون على الأعمال بمشقة وملائكة يزاولونها بسهولة تبعا لنفوسهم ومراتبها فى الحياة والرقى ، ومن نصر واعتلاء على أهل الكفر كما فى قصة ثمود وقوم لوط إذ أهلك الله الكافرين ورد كيدهم إليهم وأوقعهم فى حفرة حفروها وداهية لغيرهم طلبوها . لما قص الله ذلك وعرفت منته وفضله العظيم استبان به أن النفوس الطاهرة الراقية تنال العلم والنصر ، فلا جرم يستحق سبحانه الحمد على إنعامه وهؤلاء الأنبياء المخلصون سلموا من الأذى ونصروا على أعدائهم ، هاتان نتيجتان لما تقدم ، إنعام من الله وأمان للذين اصطفاهم ولا جرم أن ذلك يرجع الى أصل الموضوع وهو التوحيد ، فالنعم الواصلة للمخلصين من الأنبياء وغيرهم والسلامة الموجهة إليهم لأنهم وحدوا الله وساروا على نهجه فى الأعمال الشريفة وتخلقوا بأخلاقه ، فإذن وجب أن نبين آيات من آياته وعجائب من بدائعه ليلحق الخلف بالسلف ويقرأ الناس فى سطور هذه الكائنات آيات الجمال كما قرأها سليمان فى عالم الحشرات والطيور وعالم الجن والملائكة

لبحلها

ليحذوا حذوه في شكر الله وليكون هذا العلم ابتلاء لهم وامتحانا حتى إذا عرفوا الموهبة شكروا النعمة والتحقوا بالقربين كما قال سليمان « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدى » وكما قال « ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فانما يشكر لنفسه ومن كفر فان ربى غنى كريم » هذا هو المقصود من ذكر هذه الآيات الآتية :

وهى (١) خلق السموات والأرض (٢) وإنزال الماء من السماء (٣) وإنبات النبات (٤) وإبداع الحدائق البهجات (٥) وجعل الأرض قرارا بحيث أمكن الاستقرار عليها فاستقر عليها الانسان والحيوان (٦) وخلق الأنهار الجارية فى خلالها (٧) وخلق الجبال التى ينزل المطر منها فى الأنهار (٨) وإبداع حواجز بين الماء الملح والعذب بحيث لا يختلطان (٩) وإجابة دعاء من اضطر إلى الله والتجأ إليه من كل مكروه (١٠) وكشف الضر عن الانسان (١١) وجعل الناس سكانا للأرض بالوارثة عن السابقين فيتصرفون فيها قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل وأمة بعد أمة (١٢) وهداية الناس بالنجوم والعلامات فى ظلمات الليالى بالبر والبحر وفى مشتبهات الطرق كما يقال طريق عمياء وظلماء التى لامنار بها فأودع فى قلوب البشر علوما بها عرفوا طرق البحار ومسالكها ومدارات النجوم وألهموا أن تكون لهم الابرة المغناطيسية تدلهم على جهة الشمال تقريبا ومتى عرفوها عرفوا سائر الجهات بها (١٣) وإرسال الرياح مبشرات قبل المطر ليستعد الناس لنزولها فرحين مستبشرين (١٤) ولا جرم أن من قدر على هذا قادر أن يعيد الخلق كما بداه (١٥) ومن تأمل هذا عرف أن الله يرزق الناس بأسباب علوية وسفلية معا ، فالعالم كله متفق فى أعمال نتائجها متوافقة فقد اتحدت الأسباب السماوية والأرضية وتعاونت على رزق الانسان والحيوان ولا يصح هذا الاتحاد إلا إذا كان الصانع واحدا ولو تعدد فكان لكل إله عمل من هذه الأعمال لم تكن النتيجة كما هى حاصلة بهذه الوحدة لأن اختلاف المدبرين يقتضى اختلاف النتائج والنتائج متحدة متعاونة . إذن الإله واحد (١٦) ولا جرم أن ذلك يدل على أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ولايعلمه سواه لأن هذه النتائج الصادقة لا يستخرجها إلا العالم بها ولا يعلمها سواه ، فإذن لا يعلم الناس متى يبعثون (١٧) بل إنهم فوق ذلك تكامل علمهم فى الآخرة واستحكم بدلائل وحجج قاطعة ومع ذلك هم متحيرون فيها شاكون بل هم فوق ذلك عمى عنها لا يدركون دلائلها لاختلال بصائرهم وهذا وإن ذكر أنه لمن فى السموات والأرض ليس القصد منه إلا الذين كفروا .

هذه المسائل السبعة عشر هى من قوله تعالى « وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » إلى قوله « بل هم منها عمون » واعلم أن هذه النعم المذكورة تذكرة للمسلمين وتبصرة لهم أن يعرفوا نعم الله تعالى ويفقهوها ويدرسوها ويعملوا بها كما فعل سليمان عليه السلام فإنه لما علم علم الحشرات طلب من الله أن يلهمه الشكر على ذلك العلم ، ولما نال الملك فى الأرض ووصل الى أقصى ما يرام من العلم جعل هذا اختبارا فهكذا فليكن حال المسلم فليدرس السموات والأرض والمطر والنبات والأشجار والبحار ويتوجه الى الله، وعلى المسلمين أن يكونوا علماء بالنجوم وبالطرق فى البر والبحر بالعلوم المختلفة وأن يذللوا الطبيعة بالدراسة لا بالمعجزة كسليمان عليه السلام وأن يكونوا مصلحين فى الأرض حتى تلحقهم كلمة رسول الله ﷺ إذ قال بأمر الله الحمد لله على ما أنعم على عباده وحيا كل مصطفى من عباده النافعين لخلقه الهادين لهم المرشدين الصادقين فلتكن فى عملهم صفاء وصدقا لتدخل فيمن حياهم النبى ﷺ بأمر ربه ولتكون عاقبتك فى الدنيا والآخرة كعاقبة سليمان وداود وأمثالهما .

﴿ تفسير الكلمات فى هذه الآيات ﴾

قال تعالى (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يحمد الله شكرا له على نعمه التى يسديها لكل مصطفى من نبى ومؤمن وتلك النعم علوم وهداية ونصر وأن يحيى هؤلاء الذين اصطفاهم (آلله خير أما يشركون) إلزام لهم وتهكم بهم وتسفيه لرأيهم (أمن) بل أمن (خلق السموات والأرض وأنزل لكم) لأجلكم (حدائق ذات بهجة) بساتين ذات حسن يبتهج بها من رآها (ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) أى إنكم لا تقدرون أن تنبتوا شجرها (بل هم قوم يعدلون) عن الحق الذى هو التوحيد (أمن جعل الأرض) بدل من خلق السموات والأرض وكذا ما بعده (قرارا) دحاها وسواها للاستقرار عليها (خلالها) ظرف أى وسطها وهو المفعول الثانى والأول (أنهارا) و (بين البحرين حاجزا) مثل ذلك (رواسى) جبالا ثوابت تمنعها من الاضطراب لأن الجبال متصلة بالطبقة الصوانية نابتة منها وهذه الطبقة لو اقتلع جزء منها لا ضطربت النار وخرجت من باطن الأرض فكانت براكين فاهتزت وخرجت بعد الاضطراب الكثير (البحرين) الملح والعذب (حاجزا) مانعا أن يختلطا (لا يعلمون) التوحيد (أمن يجيب المضطر) المكروب المجهود المضرور بالحاجة المحوجة من مرض أو نازلة من نوازل الدهر فهى إذا نزلت بأحد بادر الى الالتجاء والتضرع إلى الله (ويكشف السوء) الضر إذ لا يقدر على تغيير حال من فقر ومرض وضيق إلى غنى وصحة وسعة إلا الله القادر (خلفاء الأرض) بأن ورثكم سكناها (قليلا ما تذكرون) أى تذكرون تذكيرا قليلا (يهديكم) يرشدكم (بين يدى رحمته) قدام المطر (أمن يبدؤا الخلق) نطفا فى الأرحام (ثم يعيده) بعد الموت (ومن يرزقكم من السماء) بالمطر (والأرض) بالنبات (برهانكم) حجتكم (إن كنتم صادقين) فى أن مع الله آلهة شتى (قل) يا محمد لأهل مكة (لا يعلم من فى السموات) من الملائكة (والأرض) من الخلق (الغيب إلا الله) نزلت فى المشركين حين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن وقت الساعة ، والمعنى أن الله هو الذى يعلم الغيب وحده (أيان يبعثون) متى ينشرون وأيان أصلها أى وآن (اداركم) تكامل وانتهى واستحكم . يقال أدركت الفاكهة تكاملت نضجا وأصله تدارك فأدغمت التاء فى الدال وزيدت ألف الوصل ليمكن التكلم بها (عمون) جمع عم وهو أعمى القلب . وقيل ادراك بمعنى اضمحل كما يقال تدارك بنو فلان إذا تتابعوا فى الهلاك أى اضمحل علمهم فى الآخرة . انتهى تفسير بعض الكلمات ، والله أعلم .

﴿ لطيفة ﴾

اعلم أن هذه المذكورات التى عددناها (١٧) هى التى تفهم المسلم كيف يحمد الله . إذ حمد الله إنما يكون على نعمة والنعمة مالم يدرسها الإنسان لا يفهم معناها وإذا لم يفهمها فلا حمد له كما شرحناه فى سورة الفاتحة . ألم يعلم المسلمون أن هذه هى التى يحمد عليها . إن الحمد ثناء بجميل لأجل جميل اختيارى ؛ فإذا لم يعرف الانسان المحمود عليه فلا حمد له والله أمر نبينا ﷺ أن يحمد الله وذلك الحمد يكون فى العبادة وفى العلم ، أما فى العبادة . فالمسلم يقرأ الفاتحة ويحمد الله فيها على أنه مربى العالم كله وهو يرحمه ، وكذلك نرى المسلم يقول « التحيات لله » فالمسلم يحمد الله ويقول التحيات له ، ويقول المسلم أيضا فى الرفع والاعتدال « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شىء بعد » هذا حمد المسلم فى العبادة ، فانظر أثر العبادة ، إن أثر العبادة يظهر فى العلم ، انظر أيها الذكى ، إن الحمد فى الصلاة على تربية العالمين وملء السموات والأرض وما بينهما وملء كل شىء بعد ذلك ، أنظر أليس هذا هو ما فى هذه السورة ، ألم يذكر الله هنا

بعد ذلك الحمد المحمود عليه ، ألم يذكر السماء والأرض والمطر والنبات ، والأنهار والبحار ، والهداية فى البر والبحر وإرسال الرياح ؟ انظر . إن الله لم يذكر فى هذا علم الحيوان لأنه تقدم فى قصة سليمان وذكر الإنسان فى قوله « ويجعلكم خلفاء الأرض » فإذن المحمود عليه هنا جميع هذه العوالم وهى المذكورة فى قول المؤمن « ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ » فانظر كيف أمر الله النبى صلى الله عليه وسلم أن يقول لنا « الحمد لله » ثم ذكر المحمود عليه سبيل العلم لا على سبيل العبادة ، فالعبادة مجرد تذكرة ، وأما هنا فهو علم فإذا قال « الحمد لله رب العالمين » وقال « الحمد لله ملء السموات وملء الأرض » فنتيجة ذلك أن يدرس هذه العوالم بقدر إمكانه وعلى قدر فهمه فيها يكون ارتقاؤه إلى الله تعالى . هذا مقصود الحمد هنا وهو الدراسة والعلم فلا حمد إلا بمعرفة المحمود عليه والمحمود عليه هو هذه المذكورات وهذه المذكورات هى عجائب السموات والأرض وما بينهما من نمل وهدهد وجن وملائكة ومطر ونبات وبر وبحر وجبل الخ هذا هو الحمد ، أما السلام فى قوله « وسلام على عباده الذين اصطفى » فاعلم أن ذلك هو الدرجة الثانية وهى ترجع إلى الأخلاق والفضيلة والإنسان ما دام مبعدا عن حب الناس جاهلا بالجامعة الإنسانية فهو بعيد من ربه . فالإنسان سعادته بأمرين : [الأمر الأول] العلم وقد علم فى الحمد [الثانى] فى الحب العام ، والحب العام أشار له بقوله « وسلام على عباده الذين اصطفى » أتدرى أيها الذكى أين هذا فى ديننا ؟ ابحث عنه تجده فى التشهد ، تجد المسلم يقول « السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » يقول المسلم مخاطبا النبى ﷺ السلام عليك يحييه إجلالا ويبشره بشرى على بشرى بالسلامة كما تحييه الملائكة وهذه التحية من بواعث السرور والمودات . يسلم المؤمن على النبى وعلى نفسه وعلى كل عبد صالح وهذا عين قوله تعالى « وسلام على عباده الذين اصطفى » فليفكر المؤمن وقت الصلاة فى هذا المعنى وليقل « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » إن التفكر فى هذا المعنى يحدث ألفة بينه وبين الأرواح الشريفة التى ارتقت إلى عالم الصفاء والنور حتى إذا مات أحس بالألفة الجامعة بينه وبينهم فلا ينفر منهم ولا يأنف ، هذا هو المقصود من هذا السلام .

وليفكر فيمن اصطفاهم الله بالعلم والحكمة وليأخذ بأحسن ما عملوا به كما قال تعالى « فبهداهم اقتده » والإقتداء بهداهم إحكام للرابطة بين المرء وبين الصالحين فهناك رابطتان رابطة بالتسليم فى العبادة ورابطة بالقدوة الحسنة فى العلم كقصة سليمان هنا إذ يتبحر الإنسان فى العلوم ويخوض فى بواطنها من علم طبيعة وعلم أرواح ويزيد فى الإخلاص لله والتسليم له فلا يغتر بما أعطى بل يقول « ليبلونى أأشكر أم أكفر » الخ فمن اقتدى بعالم أو بنبى فى خصلة فقد عظمه وحياه وهو أيضا فى كل صلاة يسلم عليه . وبهذا فهمنا « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » وصار الملخص أن نتبحر فى العلوم ليتم حمدنا لله وأن نقتدى بالأنبياء ليكون ذلك رابطة تجمعنا بهم وهذه رابطة أوكد من رابطة التحية كما قال صلى الله عليه وسلم «أنت مع من أحببت » وكما قال تعالى « أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا . ذلك الفضل من الله » .

واعلم أن الذين اصطفاهم الله أشبه بآباء الناس ، وكما أن الله عز وجل منزه عن المادة مربى العالمين مسعد لهم لبرقيهم من حال إلى حال ، فكذلك هؤلاء الصالحون يسيرون على السنن الذى سنه وإن كانوا فى هذه الأجسام فهم وإن شاركوا الناس فى أمور الحياة لا يريدون بها إلا القوة على المنافع العامة للأمم ، وكلما كان الإنسان أزهد فى المادة وأحب للعلم وأكثر مساعدة وحبا للناس كان أقرب إلى الله ، وكلما نزل عن ذلك كان أبعد عنه ، إن الله أعطانا دروسا التى فى الحياة ، قلل الشهوة البدنية زمن الكبر ، وأكثر من المصائب

فى المنازل وفى المدن وفى علاقات الأمم بعضها ببعض وفى الأجسام ، كل ذلك ليفهم الناس أن هناك حياة أرقى من هذه وكأنه يقول : أيها الناس إن هذه الحياة ليست أعظم حياة ، إن ربكم قادر وليست قدرته واقفة عند هذا الحد ، إن هناك حياة أوسع من هذه الحياة وأعلى منها ، وعلى مقدار إخلاصكم فى أعمالكم وخلوص نفوسكم من علائق هذه الحياة تصلون بعالم أرقى والعالم الأرقى يكون فيه عباده الذين اصطفى كسليمان إنه لم تفتنه زخارف الدنيا ، إن الملك وطاعة الملوك لم تؤثر فى نفسه . إنه يذكر ربه فى وادى النمل كما يذكره وهو على عرش بلقيس ويفوض الأمر له وذلك هو عين التفويض وباب الحب فلتقتدوا به وبالأنبياء لتكونوا مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » الخ . وفيها « لطيفتان : (اللطيفة الأولى) فى شرح هذه العجائب (اللطيفة الثانية) فى بهجة الحدائق ﴾

﴿ اللطيفة الأولى : فى شرح هذه العجائب وفيها خمس مطالب ﴾

(١) فى قوله « حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » .
(٢) وفى قوله « أمن جعل الأرض قرارا » .
(٣) « وجعل خلالها أنهارا » .
(٤) « وجعل لها رواسى » الخ .
(٥) وفى قوله « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » الخ .

﴿ المطلب الأول : فى الحدائق ذات البهجة الخ ﴾

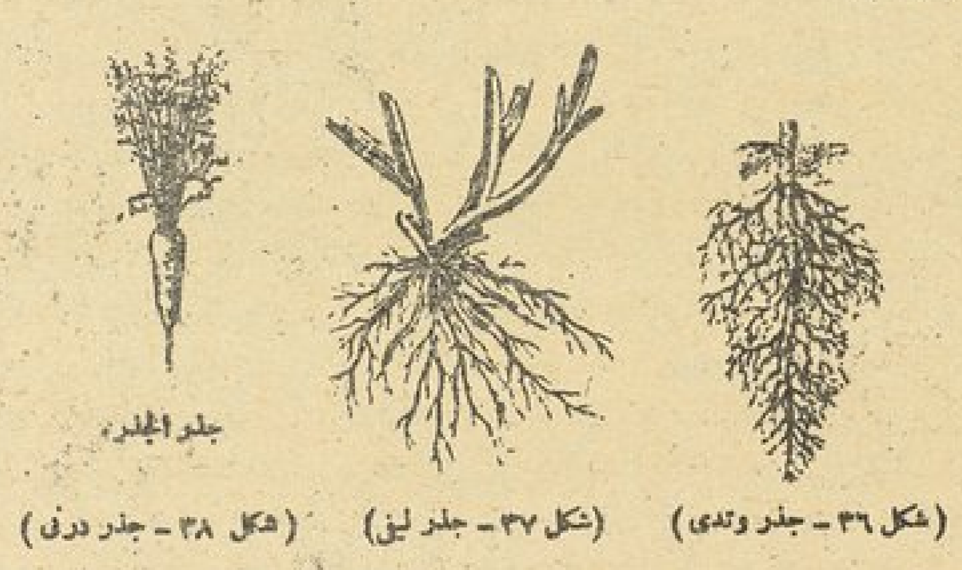
يعيش الإنسان فى هذه الأرض وأكثره فى غفلة محجوب عن جماله وبهائه وحسنه ، إن العالم فى نظر أكثر هذا الانسان حجب وراءها حجب مسدولة بل هو مظلم قاتم لالذة فيه ولاجمال إلا اللذة الحيوانية، فالناس يعيشون مسحورين بما أعطوا من حواس وبما نالت تلك الحواس من اللذات الحقيرة وينظرون إلى الهواء وإلى الماء وإلى المعادن كالحديد والكبريت والبوتاسيوم والصوديوم والجير والمغنيسيا والفوسفور والسلكا (الرمل) والكلور وغيرها نظرهم إلى أمور جامدة قارة خامدة لاتحرك من هممهم ولاتبعث من نشاطهم اللهم إلا علماء الصناعات المتعلقات بهذه الكائنات وإلا علماء الكيمياء ومن نحا نحوهم ورجال الصناعات والعلوم الجزئية كلهم نظرهم جزئى وبحثهم محصور فى دوائر ضيقة، ولكن من حسن الحظ أن هذا الإنسان خلقت فيه طائفة عقولهم أوسع ونظرهم أعلى وحكمتهم أشرف ونورهم أبهى وأجل وأجل وأجمل إذ ينظرون بهيئة تندرج تحتها كل العلوم ، تلك الطائفة هم خلفاء الله فى أرضه ، هم الذين جعلوا فى الأرض أوصياء على هذا الإنسان المسكين المحبوس فى الأرض المقصور فى حمأتها الممنوع عن الجمال ، فهؤلاء يقولون : نعم العالم الذى نحن فيه فى ظاهره جماد جاف وعند البحث تنظر فترى هذا الهواء، وهذا الماء،فيهما عناصر الأكسوجين والأدروجين والأزوت ويصحب هذه الثلاثة الكربون ، فالماء فيه العنصران الأولان والماء فيه العنصر الأول والثالث والكربون أى الفحم معروف وهذه الأربعة تجتمع ويخلق منها كل نبات وكل حيوان مع إضافة مقدار قليل من العناصر التسع المتقدمة التى أولها الحديد وآخرها الكلور . من هذه العناصر أو أكثرها يكون النبات ويكون الحيوان . إذن الهواء وهذا الماء وقليل من الكبريت وقليل من الفوسفور الخ هو نفسه هذا الانسان وهذا الحيوان وهذا النبات ، فما هو إلا أن يأخذ الانسان حب القمح أو حب الشعير أو الذرة أو البرسيم

أو الخردل أو اللوبيا أو الخشخاش أو الجزر وزرعها فى أرض صالحة وتعهدها بالطرق المعروفة فإنه يرى، بعد أيام أن النبيتة التى كانت فى داخل تلك الحبوب أخذت تنمو وأخذنا نلاحظ أن هناك :

(١) جذرا وهو للغرس فى الأرض وله فروع ويعرف بالمجموع الجذرى .

(٢) وساقا وهو الجزء الذى يرتفع فى الهواء ويتفرع فيه وأن من الحب الذى زرعناه ماهو ذو فلقتين مثل اللوبيا والفول ومنه ما هو ذو فلقة واحدة مثل القمح والشعير .

(٣) وأن المجموعات الجذرية إما وتدية، وإما ليفية، وإما درنية ، فالوتدية هى التى يستمر الجذر الأصلى فى النمو مع بقائه أكبر من فروعه كذلك مثل جذور البرسيم والخردل والخشخاش ، والليفية تكون قليلة النمو وجذيراتها كثيرة مثل جذر القمح والشعير والذرة . وأغلب النباتات ذات الفلقة الواحدة ، والدرنية تكون منتفخة ممتلئة بالمواد الادخارية التى يتغذى بها النبات فى المستقبل مثل الجزر والبطاطا والفجل واللفت والبنجر وهكذا ، وهذه صور أنواع الجذور الثلاثة الوتدى والليفى والدرنى . (انظر شكل : ٣٨،٣٧،٣٦) .



(شكل ٣٦ ـ جذر وتدى)　(شكل ٣٧ ـ جذر ليفى)　(شكل ٣٨ ـ جذر درنى)

(٤) وأن الجذر لايحمل أوراقا وله قلنسوة تصون تحته ، وله منطقة نامية بالقرب من طرفه وله منطقة ماصة وهى منطقة الشعيرات الجذرية وله منطقة مثبتة خالية من تلك الشعيرات وليست ماصة وهو متفرع إلى جزيرات صغيرة وهو متجه رأسيا من أعلى إلى أسفل ويسمونه الانحناء الأرضى ويؤثر على هذا الاتجاه عوامل أخرى مثل الرطوبة والضوء ونحوهما .

(٥) وأن الساق تحمل أوراقا وبراعم (وهى المجموع المكون من قمة الساق ومن الأوراق الصغيرة التى تحميه) وليس لها شعيرات ماصة كما الجذور وليس لها قلنسوة ونموها طرفى ودون الطرف وتتجه رأسيا من أسفل إلى أعلى وتحمل الأوراق وتعرضها للهواء وتوصل العصارات من الجذر إلى الأوراق ومن هذه إلى الأعضاء الأخرى ، وقد تؤدى وظائف الأوراق وتقوم مقامها وتمتلىء بالمواد المدخرة فى بعض النباتات كالقصب والتين الشوكى والبطاطس ، ومتى نما النبات ترى له أزهارا تتشاعليه ويطلق على مجموعها اسم (الفرع الزهرى) ثم تذبل الزهرة وتستحيل إلى ثمرة .

(٦) وأن الأجزاء الرئيسية للنباتات الزهرية هى الجذر والساق والورقة والبرعم والزهرة والبزرة ، ثم ما الذى تراه من العجائب فى الجذور وفى الساق ؟ أما الجذر فانظر ماذا جرى فيه ، لقد رأيت أيها الذكى بعينك نظامه فى باطن الأرض فهو إما مثل الوتد ، وإما مثل الليف وإما مثل الدرن ، ثم انظر ماذا حصل ؟ حصل كل العجب وأى عجب بعد أن ترى ساقا وورقا وبرعما وزهرا وثمرا . كل ذلك حاصل بسبب الجذور الممتدة المتفرعة فى الأرض ، ماذا فعلت تلك الجذور ياترى ؟ هذه الجذور فيها فتحات شعرية ، تلك الفتحات الشعرية تمتص المواد من الأرض . أى المواد تمتصها ؟ تمتص مافيها مما ذكرناه من العناصر وهى الاكسوجين والادروجين والازوت والكبريت والحديد والفوسفور الخ وكيف تمتصها؟ تمتصها بمقادير خاصة فمقاديرها فى القطن غير مقاديرها فى الفول غير مقاديرها فى الورد جميل الرائحة غير مقاديرها فى العنب (انظر ماتقدم فى سورة البقرة واقرأ الجدول المذكور عند مسألة إبراهيم والطير) والعجب لاختلاف المقادير التى يتناولها النبات هناك وبها تختلف السوق والأوراق والطعوم والروائح والأغذية والفواكه فياليت شعرى أين الحكمة التى تعلمتها تلك الفتحات الشعرية حتى امتصت مايليق بنباتها طعما ولونا وقدرا . ثم إن النباتات تبلغ مئات الألوف عدا وقد اختلفت اختلافا مدهشا عظيما فكيف اختلفت الفتحات الشعرية فيها اختلافا بمقدار اختلاف ظواهرها . ثم إن الكبريت والحديد والفوسفور والسليكا والأكسوجين وماشابهها هى هى نفس الكمثرى التى نأكلها والورد الذى نشمه والزيت الذى نستعمله . إذن نحن لم نستعمل شيئا إلا تلك المواد التى نشاهدها من ماء ومن هواء ومن معادن أرضية ولكن هذا السحر الحلال الذى ظهر فى الأعمال التى ظهرت فى حب القمح وفى حب الذرة وفى نوى التمر والمشمش هو الذى أرانا هذه العجائب . لاتمر ولا بر ولا ذرة ولا ورد إلا أجزاء هوائية ومائية ومعدنية تقدم ذكرها اختلف تفاعلها فاختلفت أفاعيلها فصدق الإمام الغزالى إذ يقول : إن المشعوذ البارع لن يفعل مثل مانراه فى الطبيعة ولكن الناس لاعتيادهم على مشاهدة هذه العجائب أنسوا بها فلم يروا فيها غرابة ولا عجبا ، ومن عجب أيضا أن المادة المسماة (الكلوروفيل) هى التى تجعل للنبات لون الخضرة وخاصة أجزاء النبات التى تحتوى على الكلوروفيل . إنها متى كانت معرضة للضوء تمتص (غاز الكربونيك) من الهواء وتحلله إلى كربون واكسوجين فتحفظ الكربون وتطرد الاكسوجين . وتعرف هذه الظاهرة (بالتمثيل الكلوروفيلى) إذن هذه الخضرة تفعل فى النبات فعل التنفس فى الحيوان فالحيوان يبقى الاكسوجين ويطرد الكربون بالتنفس والنبات بالمادة التى أحدثت له الخضرة طرد الاكسوجين وأبقى الكربون بعكس الحيوان .

ولما كان النبات الذى يعد بمئات الألوف مختلف النتائج والثمرات اختلفت طرق امتصاصه من الأرض بالشعيرات الجذرية كما تقدم واختلفت طرق تصرف المادة الخضراء فى هيئة تنفسه . فاعجب لاختلافين اختلاف الفتحات الشعرية فى الجذور الأرضية واختلاف الخضرة فى الأوراق الهوائية . الخضرة واحدة ولكنها تختلف اختلافا بالقوة والضعف . وبهذا الاختلاف يختلف فعلها التنفسى فى الهواء، وتكون الثمرات والأشكال على مقتضى الاختلافين ويرجع كل هذا إلى هواء وماء وكربون وحديد وفوسفور وكبريت مما تقدم ذكره . فجمال الأزهار وبهجة الثمار وابتسام الورد وبهجة البساتين . هذه كلها هى نفس الماء ونفس الهواء ونفس الفحم ونفس الكبريت . فياليت شعرى من أين جاء للهواء وللفحم أن يعقل أن الجذر لابد أن يشتمل على قسم يثبت فى الأرض وعلى قسم ينمو فيها وعلى قسم آخر يمتص الغذاء فى الأرض والغذاء لابد أن يكون مناسبا للفاكهة وللحب ولمطالب الحيوان ولمطالب الانسان الغذائية والدوائية والفاكهة : حارت العقول يارب فيما نراه وما ألفناه .

هذا هو قوله تعالى «ما كان لكم أن تنبتوا شجرها» هذا هو تفسير هذه الآية أى فكيف تنبت هذا

الشجر وماهذا الشجر إلا مواد نراها ولكننا لا نقدر أن نصنع هذه الأعاجيب منها . فنحن أمام هذا النظام أشبه بجميع الناس أمام الخطباء والشعراء إذ يعرفون الكلمات والحروف والمعانى ولكنهم لايقدرون أن ينظموا أشعارا كامرىء القيس ولا نثرا مثل عبد الحميد الكاتب . فالله يقول لنا « هاؤم اقرءوا كتابيه » ها هو ذا النبات وهكذا الحيوان ، هذه كلها من المواد التى ترونها فهل تقدرون على هذا النظام ؟ كلا ، ثم كلا .

(٧) ثم إن الساق إما أن تكون قائمة ، وإما أن تكون زاحفة ، وإما أن تكون متسلقة ، فالأولى كالأشجار المعروفة وكالقمح والذرة . والثانية كالخيار والقرع والشليك . وهذه لما كانت فروعها يجب أن تكون كثيرة الماء ضعفت فامتدت على الأرض وحملت الأرض عنها ثمارها ، فترى البطيخ والقرع وأمثالها على الأرض لضعف تلك السوق المائية عن حمله . والثالثة تتسلق السياج وجذوع الأشجار الأخرى كاللبلاب الذى يلتف حول الأجسام التى يتسلقها، وبعضها كالكرمة والبازلاء يتثبت بتلك الأجسام بواسطة (محاليق) وهى خيوط رفيعة تلتف حول الأجسام التى تصادفها، ومحاليق الكرمة غصون محورة ولذلك تراها قد تحمل براعم . أما محاليق البازلاء فهى أوراق محورة . ثم إن غصون السوق الهوائية قد تتحول إلى أشواك للدفاع عن النبات كما فى البرتقال (انظر شكل ٣٨) .



(شكل ٣٩ — صورة محاليق الكرمة)

فانظر لغصن انقلب تارة إلى محلاق ليرفع شجرته، وتارة إلى شوك ليحفظ النبات ثم الورق انقلب إلى محلاق ليرفع شجرته أيضا .

(٨) ثم انظر إلى عجائب العلم والحساب والهندسة فى النبات أذكرك بما تقدم فى سورة الحجر عند قوله تعالى فيها «وأنبتنا فيها من كل شىء موزون» فتأمل شكل ١ وشكل ٢ وشكل ٣ وشكل ٤ فى (سورة الحجر) وتأمل رعاك الله نظام أوراق النباتات المختلفة وكيف كانت محسوبة بحساب عجيب فتراها على الأغصان بينها مسافات متساوية تكون دائرة تامة .

فانظر إلى هذا الحساب هناك وإلى هذه الدقة فى الهندسة والحساب البديع واقرأ بقية شرح الحساب هناك ثم ارجع إلى أول المقال ، فأول المقال أنه ليس عندنا شىء إلا هذا الماء وهذا الهواء وهذا الحديد ثم انظر هذه التنوعات فى الجذور وفى السوق وفى الأوراق وفى الأزهار وفى النتائج وفى حساب الأوراق على الساق ونظامها وأعدادها ودوائرها . هذا معنى «ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » وكيف تنبت شجرها ونحن إذا

لاحظنا نظام الجذر لانلاحظ نظام الساق ولا الزهر ولا الفاكهة ولا حساب الأوراق . فهذا كله حاصل ولا يختل عمل بسبب مزاحمة الآخر له .

هذه الملاحظات الثانية التي ذكرتها لك أيها الذكي في الحدائق والأشجار وسائر النبات متى تأملتها وجدتها شرحا لعلم الفلسفة القديمة والحديثة .

وقبل أن أذكر آراء الفلاسفة أقدم القول في الحدائق فأقول :

اعلم أن الحدائق ذات البهجة على [قسمين] حدائق في البر وهي معروفة وحدائق في البحار عرفها الناس في أيامنا هذه، وذلك باختراع آلة وهي عبارة عن غرفة يمكن الغوص بها على أعماق بعيدة في الماء وتتصل بالسفينة بواسطة أنبوبة تحمل الهواء، ومن مزاياها أن حركتها يمينا وشمالا لاتتنافى مع حركة السفينة وسيرها وهي تتسع لرجلين أحدهما يتولى إنارتها وإزالها وإصعادها، والآخر للقيام بتصوير المناظر ثم هي مزودة بنظارة يبلغ قطرها مترين وسمكها سنتيمترات كثيرة بحيث يمتد منها البصر على مساحة واسعة . ذلك إلى أنها تستخدم لعكس الأشعة وتسهيل استكشاف المناظر . وقد استطاع هذا المخترع وهو (المستر وليام سن) المشهور باستكشافاته البحرية أن يرتاد في غرفته هذه مياه جزائر البولينيز وأن يشاهد من عجائبها ماأثار دهشة العلماء .

فما ذكره أنه رأى من النباتات المتباينة الألوان مايشبه أجمل الحدائق فوق اليابسة وأن هذه الحدائق تسكنها حيوانات مختلفة الأنواع . فنها حيوانات رخوة وذوات أصداف لم تكن معروفة حتى الآن وهي تتطاحن وتتنازع أكثر من تطاحن حيوانات اليابسة وتنازعها . وأغرب ماذكره المستر (وليام سن) أن من هذه الحيوانات مايشبه النبات في شكله ولكنها حيوانات ضارية إذ تنقض على الأسماك التي ليست من نوعها فتفترسها ثم كان من أثر مشاهداته أن كشف لنا ظاهرة عجيبة وهي أن الأسماك الكبيرة كالنوع الذي يسمونه وحش البحر أو كلب البحر ليست على ضخامة جسمها أشد الأسماك فتكا وأكثرها خطرا لحياتها هدف لسمك صغير له أسنان حادة ينهشها به ثم ينفث في جسمها مادة سامة تقتلها لساعتها . وشاهد المستر (وليام سن) معركة بين فصائل مختلفة من السمك تنوعت فيها الأسلحة والآلات فكان من هذه الآلات المركبة في جسم الأسماك مايشبه السيف ، ومنها مايقرب شكله من المنشار، أما أضعف هذه الأسماك فهو ماكان يحمل في جسمه شوكة يطعن بها خصمه، انتهى من مجلة الجديد .

﴿ تطبيق المذاهب الفلسفية في جميع الأمم على نظام النبات ﴾

(١) قام في اليونان (تاليس) بأكثر من خمسة قرون قبل الميلاد، فقال أصل العالم الماء، لماذا ؟ لأنك رأيت الماء داخلا في النبات وفي الحيوان .

(٢) ثم قام بعده (أنكسيانس) فقال : كلا . أصل العالم الهواء .

(٣) ثم قام أنكسيمندر فقال أنا لا أعتبر إلا المادة العامة . فأما الماء والهواء فما هما إلا فرعان ومثله (ديموقراطيس) إذ رجع إلى الجزء الذي لايتجزأ وقد أخذ به علماء الأشعرية من أئمتنا الاسلامية .

(٤) ثم قام فيثاغورس وقال : لا أيها الناس كلا . ثم كلا . مالنا وللماء والهواء والمادة . أصل هذا العالم إنما هو العدد والحساب لأني رأيته منظما .

(٥) فقال أنكساغورس : كلا . أيها الناس هل يكون الحساب بلا حاسب والنظام بلا منظم ، هنالك عقل يعقل هذا العالم .

(٦) ثم جاء سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس فقالوا بإله منظم العالم .

هذا ملخص مذاهب اليونان وتبعهم الرومان وقامت أوروبا فلم يخرج مفكروهم عن هذه الآراء ، فأما

أهل الهند فانى رأيت فى كتاب (راجا يوقا) أن قوما منهم أشبه بتاليس، ومن معه لايرون للعالم صانعا وهم السنخ وقوم مثل أنكساغورس يرون له عالما به ، وآخرون يشبهون أفلاطون ومن معه ، فاليوجيون يقولون انه عالم بما لا نهاية له ومعلم لكل عالم فى العوالم كلها ، والذين يتبعون كتاب الفيدا يقولون هو عالم وصانع للعالم كله جزئيه وكليه مستدلين بالنظام الموسيقى .

وبناء على ذلك أصبحت عقول أهل الغرب وأهل الشرق ترجع إلى ماتراه الآن فى هذا النبات . فأهل السنخ فى الهند وتاليس ومن معه فى اليونان لم ينظروا إلا إليها أمامهم كما ينظر العامى فى هذا النبات ولايفكر إلا فى المادة وحدها، فأما اليوجيون فى الهند وأتباع الفيدا وهو الكتاب المقدس عندهم فانهم لاحظوا ماهو أعلى من حيث نظام الأوراق والأزهار وحسابها كما لاحظها أفلاطون وسقراط وشرحاها شرحا جيدا كما نقلته عنهما فى رسالتى التى سميتها (مرآة الفلسفة) فقالوا بأن للعالم إلها نظمه وهو حكيم ومبدع ، إذن مسألة النبات التى شرحتها هنا قد شرحت أدوار الفلسفة فى الشرق والغرب وقد أصبح ما كان من الفلسفة عسر الفهم (عويصا على العقل مشتتا للفكر موجبا للالحاد للجهل الفاشى ولصعوبة الكتب) مشاهدا بالبصر سهل الفهم شارحا للصدر قريبا من العقل يفهمه المتوسطون . أما أنا فانى أحمد الله عز وجل إذ وقفت على هذه المذاهب واختصرتها هنا وطبقتها على النبات واستبان بهذا أن الناس فى مشاهدة هذا العالم أشبه بالعميان الست الذين شاهدوا الفيل وكل حكم عليه بما وقع تحت حسه فاقرأه فى سورة المؤمنون عند قوله تعالى « كل حزب بما لديهم فرحون » ومن أدرك ما كتبته الآن ووقف على تفصيله فى غير هذا المكان فانه لا محالة ينظر لاختلاف مذاهب الفلاسفة فى الغرب والشرق فى عصرنا نظر البصير إلى الفيل وقد سمع العميان الست يدرسونه ولكل رأى فيه وهو من آرائهم يسخر وقد عرف أن كلا منهم قال بعض الحقيقة ، أما هو فقد وقف عليها وهو من الموقنين . انتهى الكلام على (المطلب الأول) فى قوله تعالى هنا «وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها » .

﴿ المطلب الثانى : فى قوله تعالى « أمن جعل الأرض قرارا» ﴾

أقول : لقد تقدم رسم القارات كلها فى (سورة النور) فارجع إليها هناك وانظرها مع الحدائق البهجة والنبات والحيوان .

﴿ المطلب الثالث والرابع فى قوله تعالى « وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى » ﴾

فالمطلب الأول هو النبات ، ولما كان النبات لابد له من قرار أتبعه بالمطلب الثانى ثم أتبعه بما كان سبب إنباته فذكر الأنهار ، والأنهار لا تكون إلا بالسحاب والمطر والثلج الذى يكون فى الجو تارة وتارة يقع على الجبل فينزل الماء فى داخله ويخزن فيه فتنبع منه العيون وتمد الأنهار فى الأوقات المختلفات ، فانظر فى (سورة النور) وتأمل هذه المطالب هناك فانك تجد فى تفسير قوله تعالى « ألم تر أن الله يزجى سحابا » الخ صورة السحاب الذى ليس بركوم والسحاب الركوم والسحاب الذى يخرج منه الودق ، وهكذا ترى الثلج الذى هو كالجبال فى الجو الذى يخلق البرد فيه وهو معرض لوصول الهواء الحار إليه فيرجع مطرا وهكذا جبال الثلج التى تحفظ فوق الجبال مثل جبال الألب المرسومة هناك وهكذا الثلج الذى يكون فوق الجبل وترى نازلا منه فى النهر كنهر الرون الذى يصب فى البحر الأبيض المتوسط كما يصب فيه النيل الخارج من خط الاستواء من البحيرة المسماة بحيرة فكتوريا ، فهذه الثلوج وهذه الجبال تراها مرسومة فى تفسير تلك الآية فلا حاجة لاعادتها هنا .

وأما قوله تعالى « وجعل بين البحرين حاجزا » فانظره فى سورة الفرقان عند قوله تعالى « مرج البحرين » الخ اهـ .

﴿ المطلب الخامس فى قوله تعالى « أمن يجيب المضطر إذا دعاه » ﴾

وهذا أمر لا يعرف إلا بالوجدان ولكل حيوان ولكل إنسان فى الأرض شوون تخصه لايعرفها غيره والله أمده بامداد خاص وأنقذه من خطر هو أدرى به وحده ولكل ذى نفس مع ربه سر لايدركه سواهما ويظهر لك فى مثالنا أنك تراه نوع غصن الكرمة فجعله محلاقا ، وقدتقدم رسمه ونوع ورقة البازلاء فكانت كذلك كما تقدم ، ونوّع غصن البرتقال فصارشوكا لحفظ النبات ، فهو قد راعى ما يحتاجه البرتقال من الحفظ وما تحتاجه البازلاء والكرمة من المحاليق لترتفع بها على غيرها فأمدها فهو إذن يحافظ على الجزء كما يحافظ على الكل ويراقب الورقة الصغيرة ويفعل فيها ما تقتضيه المصلحة . فهذا نظير إجابة المضطر إذا دعاه . هذا ما فتح الله به فى هذه الآيات، كتبته ليلة الاثنين ١٥ إبريل سنة ١٩٢٩ .

(البهجة : فى حدائق ذات بهجة)

أكتب هذا صباح يوم الخميس(٦ يونيه سنة ١٩٢٩)إذ كنت متوجها لزيارة بعض الأصحاب فى شارع الصليبة الموصل من ضريح السيدة«زينب» إلى القلعة،فبينما أنا أسير إذ رأيت أمرا غريبا،رأيت منظرا جميلا وحديقة بهجة فى الجهة الشرقية لجامع ابن طولون ، ذلك المسجد الذى أسس منذ نحو مائة وألف سنة فوق (جبل يشكر) ولقد كنت قبل اليوم أرى هذا المسجد حوله مبان قذرة وبيوت ضئيلة كأنها الأكواخ مشهدها يقبض النفوس ويجلب البؤس ، وهذا القبض والبؤس بسبب تلك القاذورات والحيوانات القذرة والرطوبات المنتشرة التى تكون سببا فى المرض وفساد الصحة وضعف الأجسام والنفوس والأخلاق ولقد مضت لى شهور وشهور لم أمر من هذا الشارع . إن حكومتنا المصرية لما لها من الاتصال برجال الغرب أرادت أن تجاريهم فى تحسين القاهرة وتجميلها فاشترت تلك البيوت الحقيرة وغيرها وهدمتها وصنعت فى محلها هذه الحديقة فاستوقفت نظرى ولم أشأ أن أندفع فى السير حتى أتأمل هذه الحديقة . المسجد فوق الجبل والشارع منحط عنه بما يزيد على ١٢ مترا ، فبناء عليه جعل هذا المنحدر الذى هدمت البيوت المبنية فوقه حديقة ظريفة مكونة من (سبع قطع) متجاورات (القطعة الأولى) جهة الشارع فى أسفل المنحدر بيضاوية الشكل يحيط بها سور من الحديد قد زرعت حشائش تكون طول السنة مخضرة ويسمونها (قازو) وفى وسطها روضة ظريفة صغيرة مزروعة أشجارا أوراقها طويلة أزهارها كبيرة محمرة يسمونها(كنه) أو سنبل وهذه الروضة الصغيرة أيضا بيضاوية الشكل كمدار الكواكب كلها فانها بيضاوية ويحيط بها أشجار السرو الجميل وكل هذه إنما اختيرت لأنها مخضرة طول العمر لايتحات ورقها ولايطمع الناس فى أكل ثمرها فكأن الإثمار يضيع رونق بعض الأشجار وينهك قواها فلاتبقى على رونقها طول السنة .

هذه هى القطعة الأولى ، والقطع الست الباقية كلها مستطيلات الشكل يحيط ببعض سورها شجر يسمى (توية) أخذوا هذا الاسم من اللغات الافرنجية التى جلبوا هذه الأشجار منها . هذه هى الحديقة التى رأيتها وأنا الآن أراك أيها الذكى تقول لى : لقد وصفت حديقة لا قيمة لها وفى الدنيا حدائق جميلة بهجة ، وهذه بالنسبة لها أثر بعد عين أو عدم بالنسبة للوجود . فأقول أنا لم أكتب هذا المقال لأسمعك هذا الوصف . كلا . بل إنى أريد أن أذكر ما خطر بنفسى حين رأيت هذه الحديقة ، تذكرت أن هذا المكان كنت أسكن منذ ٣٠ سنة بالقرب منه وما كان له هذا الرونق فتغيرت الحال فقلت فى نفسى هذه أجسامنا التى نعيش بها نرى الله يقلبها من حال إلى حال ثم يهدمها ويحدث غيرها ، فإذا رأينا الأرض الملاصقة لمسجد ابن طولون لما

هدمت بيوتها ظهر لها رونق جديد هكذا فلتكن أجسامنا بعد أن تهدم تظهر أرواحنا بمنظر جميل شارح الصدور ، وهذا الخاطر ليس هو المقصود الأول من هذا المقال بل المقصد الأهم من هذا هو تذكير المسلمين بقوله تعالى « حدائق ذات بهجة » .

ماهى البهجة هنا ؟ يظن الجهلاء وصغار العقلاء أن البهجة فى مناظر الحدائق وظواهرها مع أن خضراء الدمن أى تلك الحشائش التى تنبت فى الأماكن المستقذرة تكون ذات بهجة أيضا . كلا ، إن المدن إذا ازدحمت بالسكان وتراكمت فيها الأقذار ضاقت الأنفاس فيها وتعذر على الناس القيام بأمر شئونهم لما يتخلل شوارعهم وأزقتهم من المزابل والأتربة والقمامات والقاذورات فتنبعث منها الروائح الكريهة وتكثر الحميات وتضعف الأبدان ولا يبقى فى المدن إلا أناس قويت أجسامهم فتحملت هذه المهلكات فعاشت ، والأمم مادامت جاهلة لم يظهر فيها مفكرون ترضى بهذه الحال وتعتقد أنه لا مفر منها وأن هذه هي الحال العامة وليس هناك خير منها فيجوس الوباء خلال الديار فيجرف الأجيال جيلا بعد جيل والناس لا يعقلون . فأما إذا تخللت الحدائق المدن كهذه الحدائق هنالك يتجدد الهواء وسط المدينة فكأن المدينة بهذه تنفست بعد أن كانت لا تنفس لها . وبيانه أن النبات بينه وبين الحيوان اشتراك فعلى فى الحياة ، فالانسان والحيوان يخرج الكربون (الفحم) من أنفاسهما ويأخذه الهواء ويوصله إلى الأشجار ، ومعلوم أن أوراقها أشبه بالرئة فتأخذ من الهواء للمادة الفحمية الآتية من أنفاس الانسان والحيوان وتعطى الهواء مادة الحياة التى يسمونها الاكسوجين ، وتقول أيها الهواء خذ مادة الحياة هذه وسلمها بسلام إلى إخوتى وإخوانى: الانسان والحيوان فيحمل النسيم تلك التحية ويسير إلى أن يوصل تلك المادة وهى (الاكسوجين) إلى الانسان والحيوان فيتنفسان بها أى يجذبانها من الهواء ويدخلانها فى المادة الدموية فتنظفها وتعطيها قوة الحياة فيكون الدم شريانا بعد أن كان وريديا . فأنا إذا وقفت أمام هذه الروضة الصغيرة كنت كأنى أسمع تلك الأوراق والأشجار والأزهار تخاطبنى بهذه المعانى وتقول قل للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، لماذا كانت مساكنكم فى مصر ومراكش والجزائر وتونس والعراق وغيرها أقل رونقا وبهجة وتنبعث منها الروائح الكريهة ؟ أجهلتم العلوم ونبذتم العلماء أم لم تفهموا قول الله تعالى « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » فهذه البهجة التى تظهر فى رونق الأشجار والأوراق تنبعث منها لنفوسكم بهجة وحياة فتكون هناك سعادة القلوب وانتعاش المدن وقلة الوباء وارتقاء الأمم ،

فها أنا ذا أكتب هذا للمسلمين فأقول قد بلغت اللهم فاشهد . فلما كتبت هذا حضر صديق العالم فقال هذا كلام حسن ولكن ما معنى قولك « قد بلغت اللهم فاشهد » هل أنت بلغت دينا ، وهل الحدائق ذات البهجة يجب أن تتخلل المدن الاسلامية حتى تقول: ألا هل بلغت اللهم فاشهد. هذه قالها النبى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع ولكن قالها فى أمور هامة وهو حفظ الأنفس والأموال والرفق بالعبيد وبالنساء . أما هذا الذى تقوله فلا هو فى العير ولا فى النفير ، وإنما أنت رجل رأيت حديقة فى مكان كنت تسكن قريبا منه وكان مكانا مزدحما بالسكان قذرا فأصبح مكانا جميلا نأثر فى خيالك . هذا أول الأمر وهذا آخره . قلت: يا صاح اسمع . ألست ترى بعد هذا البيان أن فيه حفظ الأنفس وصحتها ؟ قال بلى . قلت ومتى صحت الأنفس كثرت الأموال ؟ قال بلى . قلت أليس من هذه الأنفس النساء والعبيد . قال بلى . قلت أو تصدق أنت بالقتلى العلمية التى ذكرتها لك ؟ قال نعم . قلت إذن فقد الصحة وحصول الوباء المتكرر فى البلدان يميت نساء وعبيدا وأطفالا ورجالا ، ولكن هذا الموت ليس بالسلاح المعروف وإنما هو بسلاح آخر أرسله الله لأهل الأرض لجهلهم فيحصد الأرواح حصدا ، أفلا تذكر أن هذه المباحث فروض كفايات ؟ قال بلى . قلت: وتركها إثم على

الأمة كلها ؟ قال بلى . قلت : ولذلك يعم المرض ولا يخص وكذلك الوباء . كل ذلك عقاب على ترك فرض الكفايات . قال نعم . قلت : فماذا تريد بعد هذا البيان ؟ أليس فى ترك هذا الاصلاح هلاك الأنفس الذى حذر منه صلى الله عليه وسلم ؟ قال بلى . قلت إذا وصلنا للمقصود ودخل هذا الموضوع فى نفس الحديث المذكور وصار الاثم خاصا بمثلى وبمثلك فاذا لم تقنع الناس إقناعا تاما فانهم لايعملون ، فافهم ما قلت وفهمه للناس ، أفلا يحق لى أن أقول (قد بلغت اللهم فاشهد) قال لقد أفحمتنى بحسن بيانك « إن من البيان لسحرا » فقلت الحمد لله رب العالمين .

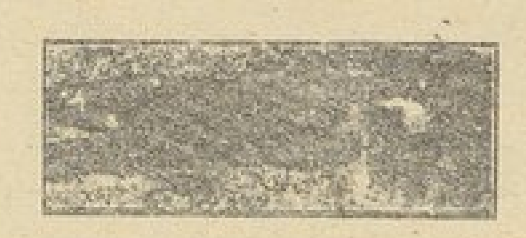
﴿ اللطيفة الثانية فى بهجة الحدائق ﴾

هذه الآيات باب نلج منه لندخل أبواب الحدائق الغناء والحقول الخضراء والبساتين البهجة الدهامات وهذه ذكرى لما كان ديدنى أيام شبابى . مشربى فى أول حياتى ولوع بالأشجار والأزهار والزروع والأعشاب ، أجلس على حافة الأنهار وعلى شطوطها وفى المزارع وتحت الأشجار وأسمع تغريد طيورها وغرور أعشابها ورنين حشراتها ، وأرى مستقرها ومستودعها ، وكم كنت أطرب لمرأى جمالها وبديع نظامها وتفنن أوراقها وبدائع أغصانها وترنح فروعها وبهجة حسنها . ولقد كان يخيل إلى أنها مراقص فاتنات ومغان مرنحات ذات معان مبهجات . وكأنما تغريد أطيارها وغرور أعشابها ورنين حشراتها وهى تردد فى الجو أفانين ألحانها وعجائب نغماتها وبدائع هزجها ورملها جماعات من الموسيقيين الفنيين يضربون على دفوفهم ويغنون على أعوادهم وقد برعوا فى فنونهم وانتظموا فى صفوفهم فأبهجوا السامعين .

هذه كانت حالى أيام الشباب لا سيما إذا جن الليل وأرخى سدوله ونظرت الراقصات الحسان والناعسات الطرف المشيئات دياجى الظلمات الباسمات الثغور الشارحات الصدور الداعيات إلى جمالهن أجمل العقول وأكبر النفوس أن هلموا إلىّ وأقبلوا على . إن ابتسام الزهر وافترار الثغر وبهجة الورد واعتدال القد وحمرة الخد كلهن مشتقات من بسماتى وبهجة أنوارى ومحاسن إصدارى وإيرادى فلا تقصدوا إلا إلىّ ولا تعوّلوا إلا على ، وارفعوا النفوس إلى العلا وأنتم مبتهجون .

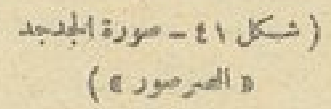
هذه كانت قصة خيالى فى مبدأ حياتى فى الرياض المشتبكات والحقول الخضرات ، فهل كان يجيش بقلبى أو يمر بخاطرى ما ظهر الآن وبهر من علم الحشرات وغناءٍ وأن تلك الحدائق والحقول كان فيها تلك المعانى حقيقة لا مجازا وحسا لا خيالا ، وهل كنت أعلم إذ ذاك أن من أنواع الحشرات ما بلغ التعاون بينهما مبلغا عظيما ، وأصبحت حضارتها أبلغ فى الحقيقة من حضارة الإنسان . إن هناك نظاما يفوق الوصف فى تلك المخلوقات قد قرأته فى سور كثيرة لاسيما فى هذه السورة ، مثل إن العلماء راقبوا النمل فوجدوا الواحدة منها تصل شواربها بشوارب الثانية فيحصل هناك ضجة كبيرة فى تلك الجماعات ، إنها متلاونات . إنها متحدات ، إن بينها تخاطبا بطريق (التلغراف الذى لا سلك له) كيف لا وقد أدهش العلماء أن رأوا جماعات منها تقطع الأميال فى الليل البهيم لتنقذ حشرة وقعت أسيرة ، فمن أخبرها ؟ وأى واسطة للتبليغ غير ذلك . يظن العلماء أن لها لغات لكن لا نسمعها ، وقد أثبتوا أن لها مغانى وآلات طرب بقسميها وهما ذوات النفخ كالمزمار وذوات النقر كالطبل . مثاله (السيكادا) وهى نوع من الذباب الكبير فان له طبلا ينقر عليه كطبل الانسان وهذه صورته (شكل ٤٠ فى الصحيفة التالية) .

شكل



(شكل ٤٠ – رسم ذباب كبير له طبلة
يحدث بها صوت الوسيق)





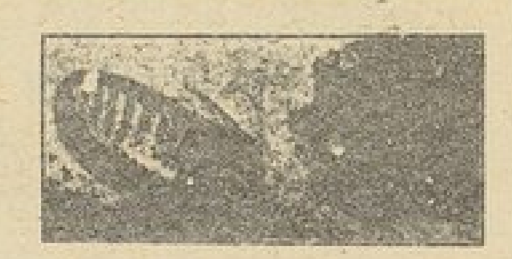
(شكل ٤١ – صورة الجدجد
« الصرصور »)

وهكذا هناك حشرة تفرغ جذع شجر المليون أو غيره فتجعله كالطبلة فيسمع لذلك صوت مستمر. وهذه صورة الجدجد وغناؤه معلوم (شكل ٤١)

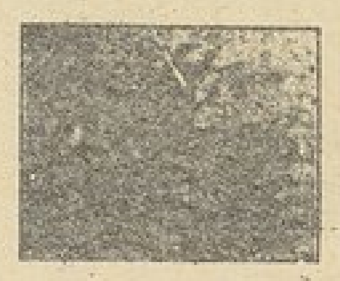
وهناك الخنفساء التي تعزف بطريق خاص بها وتشد عضلات الرجلين المقدمين والرجلين المؤخرين فيظهر بينها غشاء رقيق مشدود فتعزف عليه ويظهر لها صوت جميل مثل (الناي) أليس هذا هو عين قول الله تعالى « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم » أليست الخنفساء القبيحة المنظر التعسة لها مالنا من أنواع الوسيقى والغناء والألحان ، فها هي ذه الماثلة لم تقتصر على حال دون حال بل وصلت إلى الزينة وهي نوع الموسيقى التي كنت أتخيلها في الحقول وما هي بخيال بل كان الوجدان يقتطف ويختطف ذلك الفرح وتلك البهجة من بين الأعشاب ويلقيها إلى نفسي فأتخيل النغمات وإن كنت لا أسمعها وأستطرف تلك المعاني وإن كنت لا أدركها .

(مغاني النحل)

وهل كان يدور بخلد أحد من أهل العلم قبل الآن أن للنمل آلات موسيقية وأنها تحتك بأجسامها في أوراق الأشجار فتحدث صوتا في بعض الغابات يسمعونه على بعد عشرين قدما وبين كل نملة وأخرى مسافة معلومة فتحدث هناك نغمة خاصة ويكون البدء وتكون النهاية في وقت واحد ، وهذا جهاز التنفس في الحشرات والغشاء الرقيق الذي يحدث الصوت (انظر شكل ٤٢ وشكل ٤٣)



(شكل ٤٢ – جهاز التنفس في الحشرات
والغشاء الرقيق الذي يحدث الصوت)



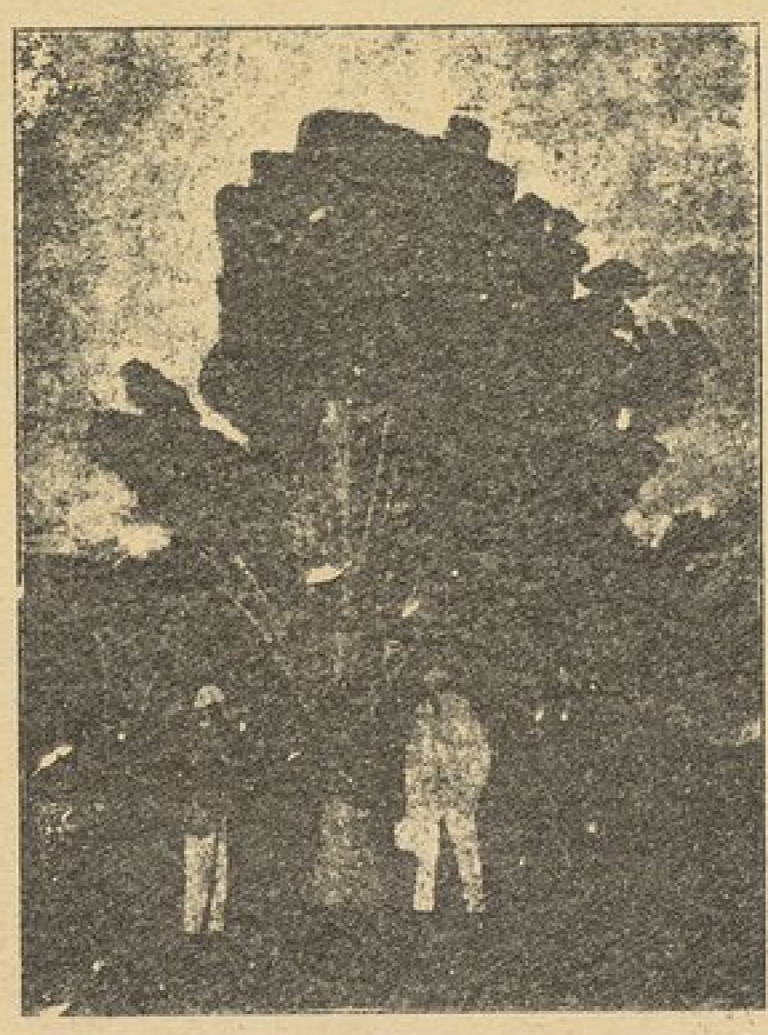
(شكل ٤٣ – رسم الخنفساء
الوغلية وهي طائرة)

إن أجنحة الحشرات تتحرك بسرعة تفوق الوصف بل تصل إلى (٣٥٠) مرة فى الثانية فى الحشرة المسماة بالزجاجة الزرقاء ، وليست موسيقى الحشرات كلها بالنقر أو الاحتكاك . كلا . بل منها ماله جهاز تنفسى كجهاز الانسان.

يقول علماء الحشرات إنه مامن نوع من أنواع الحشرات إلا وله نغمات خاصة به ، وإذن قوة الانسان لن تقدر أن تدرك ذلك وقد قطعوا الأمل أن يدركوا ذلك بآلات لأنهم يقولون . (إن الإنسان أدق نحو مليون مرة من أشد الآلات العلمية إحساسا) .

بهذا نفهم قوله تعالى « حدائق ذات بهجة » وقوله تعالى « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون » أفلست أنا أيها الذكى على حق إذا قلت وأنا فى تلك الحقول أيام الشباب ، إن النجوم الباهرة النيرة ليلا تقول هلموا إلى لأن أرضنا فيها - إن بديعة عجيبة قد استبهمت علينا فشوقتنا إلى المعرفة العامة فى الأرض وغيرها ، وبالمعرفة تكون السعادة ، ومتى طرنا من هذه الأرض أدركنا جمالا أرقى ومحاسن أبهى والسلام ، انتهى .

وأقول : أيضا هل كان يخيل إلى وأنا فى حال الشباب جالسا فى الحقول كما قدمت آنفا أن هناك شجرة تسمى (شجرة السائح) نقلا عن مجلة الجديد ، وهاهى ذه (انظر شكل ٤٤) .



(شكل ٤٤ - شجرة السائح فى حديقة النباتات فى (جورجتون) عاصمة غيانا البريطانية وهى تحتوى دائما على كمية كبيرة من المياه النقية الصالحة للشرب فاذا ثقب أحد الفروع يتسرب الماء من الفتحة بقوة وكل فرع به مخزن مستقل من الماء)

أم كان

أم كان يخيل إلى أن هناك عواطف للحب بين أنواع الحيوان والطير كما ترى من مغازلة الطاووس لأنثاه (شكل ٤٥) فلقد جاء فى مجلة الجديد أيضا مانصه :



(شكل ٤٥ — رسم مغازلة الطاووس لأنثاه)

﴿ مغازلات الحيوانات والطيور وهدايا العشاق ﴾

تقدم الأستاذ (جوليان سوريل هكسلى) بجامعة أكسفورد إلى الجمعية العلمية الإنكليزية بأبحاث هامة أثبت فيها أن كل الطرق والاجراءات التى يتفنن فى عملها الذكور والإناث من بنى الانسان لاستمالة القلوب موجود مايماثلها من كل وجه بين الحيوانات والطيور ، فانه يكون بين الجنسين فيها المغازلات والغناء والرقص وتقديم الهدايا إلى آخر مايصير بين المحب والحبيب وليس ذلك قاصرا على الأنواع العليا . فالأستاذ هكسلى بحث أن

بعض الحشرات تعطر بروائح الثمار والأزهار كي تكون محبوبة ، ومن المعروف أن كثيرا من الطيور والحيوانات حتى الأنواع الزاحفة منها تعرف أغاني الحب وتكثر منها لاستمالة القلوب .

﴿حب العنكبوت المبصر﴾

ويرى الأستاذ (هكسلي) أن لكل نوع من الحيوان طرقه الخاصة به حسبما يتفق مع تكوينه؛ فالعنكبوت مثلا قسمان: قسم يتجول ويصطاد فريسته، وقسم يتخذ بيوتا من النسيج الدقيق الذي يغزله ، ويرى أن العنكبوت الأخير لايبصر؛ فالعاشق منه طريقة غير التي يتبعها العاشق من النوع الأول؛ فالعنكبوت المتجول الذي أبصر عنكبوته من نوعه أخذ يدنو منها بأرشق حركة ثم إذا صار أمامها يأخذ في الرقص حولها بكل مهارة ودقة حتى إذا وجد أنه أثار ميلها إليه ألقى بجسمه أثناء رقصه فوق جسمها وقد تسبقه هي باحتضانه فيرقصان معا نحو مائة دورة قبل اتصالهما العنيف الجنوني .

﴿حب العنكبوت الأعمى﴾

وأما العنكبوت الأعمى وهو الذي يتخذ البيوت الخيطية فانه يعبر عن عواطفه في الحب بطريقة أخرى غير الرقص لأنه لاتراه حبيبته حيث يدنو من بيت معشوقته بكل مهارة كأنما هو روميو تحت شرفة جوليت فلايحطم لها خيوط البيت ولكنه يهز أحد الخيوط برشاقة وينقر عليه بخفة وبطريقة خاصة تفهم منها العنكبوتة أن الطارق هو روميو لاذبابة وهذه الإشارة الأولية لابد منها وإلا فان المعشوقة العمياء ربما حسبته فريسة وأكلته وقد يجيء العنكبوت حاملا إلى حبيبته فريسة من اللحم المختار ملفوفة في خيوط من الحرير على سبيل الاهداء فان تقديم الهدايا ليس خاصا بالانسان بل هو غريزي في بعض أنواع الحيوانات والطيور ، ويوجد نوع من الذباب يصنع الذكر منه (باقة) من الأزهار الدقيقة ويقدمها للأنثى ليشعرها بحبه، وذلك بأن يخرج إفرازا يصنعه على شكل فقاقيع صغيرة ويجمع قطعا من أوراق الأزهار ويلصقها عليها فاذا صنع باقته كذلك وضعها على رجله وقدمها لحبيبته .

﴿حب الفراش﴾

ومن البديهي أن تأنق الطبيعة في زخرفة الفراش بأبهج الألوان الجذابة لم يحصل عبثا فلا بد من أن تطورات الانتخاب الطبيعي لاختيار النوع الأمثل كانت على أشد حرارة بين هذه الحشرات. وهل معنى ذلك إلا اشتداد العواطف الحارة بين الذكور منها والاناث. على أن أنواع الفراش لاتقنع باستمالة العشيقات ببهيج الألوان فتجمع إلى ذلك التعطر بأريج الأزهار كما هو مشاهد عند العلماء الذين يشمون عند دراسة أنواع الفراش ماتحمله أجسامها من الروائح العطرية المختلفة .

﴿غناء الحشرات﴾

وليس الانسان وحده الذي يرسل زفرات فؤاده بالألحان والأنغام فان أقل الحشرات تعبر عن وجدانها وتستميل عشيقاتها بالغناء ، ومنه ماتسمعه أذن الانسان كما في الجدجد والناموس وغيره ، وقد يكون أهم سبب له إشعار الإناث بوجود الذكور أي الاعلان عن أنفسها .

﴿دموع التمساح﴾

وقد يضرب المثل بدموع التمساح دلالة على أنه بعيد عن التأثر بالعواطف الرقيقة ولكن علماء التاريخ الطبيعي الذين درسوا حياته في مواطنه الطبيعية يرون أنه شديد التأثر بميوله وعواطفه الجنسية إلى درجة الجنون فهو يثور ثورة يكاد ينفجر منها إذا أغضبته الأنثى :

﴿الحب

﴿ الحب بين الطيور ﴾

ويقرر العلماء أن حياة الطيور تكاد تكون موقوفة على مناورات الحب والاستمتاع به ولكل نوع منها إجراءات وطرق عجيبة لايجاد الاتصال بين الذكور والاناث . وذهب بعض العلماء إلى أن أرقى مثل للزواج يوجد بين بعض أنواع الطيور حيث يجعل الذكر كل أعماله لاسعاد الأنثى وهى راحمة على بيضها فى العش دون أن يتألم من أية مشقة فى إعالتها وإعالة أفراخها الصغار ، ويرى الدكتور (لودلو) العالم الأمريكى أن تغريد الطيور مكون من ألفاظ غزلية وسواها حسبما تشعر به من الانفعالات والميول الجنسية نحو بعضها فهو فى الحقيقة لغة عواطف الطير ، ويرى الأستاذ (هكسلى) أنه من الخطأ البين حتى بين رجال العلم أن نجعل كل الانفعالات النفسية حقا مقررا للانسان وحده وترجم ظواهر هذه الانفعالات فى الحيوان والطير من هذه الناحية وحدها فى حين أن الحقيقة والأمر الطبيعى أن تعتبر هذه الانفعالات من غرائز الكائنات الحية وأن الانسان المتسلسل منها محتفظ بنصيبه منها مثل أى كائن حى . وصفوة القول أن الصفات الحسية والعواطف المختلفة التى استأثر بها النوع البشرى حيوانية قبل أن تكون إنسانية ولم تبلغ درجتها الحالية إلا بعد أن تطورت فيه وفى أسلافه من أقدم العصور حتى هذا العهد اهـ من مجلة الجديد .

﴿ بهجة الأبصار فى أوراق الأشجار ﴾

لما كتبت هذا واطلع بعض العلماء عليه أخذ يحادثنى قائلا ، لقد ظهر لى جمال العلم والحكمة فى شجرة البرتقال وشجرة الكرم والتنوع فيهما ، ولعمر الله لقد أدهشنى وأبهج قلبى أن أرى المحلاق فى شجرة الكرم وأرى الشوكة فى شجرة البرتقال وأن لهما مزية ظاهرة مع أن أكثر هذا النوع الانسانى لايعرفون من الشوك إلا أنه خلق لمجرد الايذاء وأن هذا المحلاق وجد اتفاقا ، فهذا القول يفتح لنا مجالا للتبصر والبهجة هذا من العجب العجاب ، فهل تتوسع لنا فى هذا الموضوع حتى إذا تفيأنا ظلال الحدائق الغناء شرحت صدورنا بأوراقها وأزهارها وتباين أشكالها وتفنن أثمارها ونقول :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه   يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

ونرى فى الزهر والنبات مايراه علماء البديع فى تعليم المبتدئين قول الشاعر يصف مجاهدا قتل فى الحرب

تردى ثياب الموت حمرا فما أتى   لها الليل إلا وهى من سندس خضر

وهم فرحون طربون طربا لفظيا فى ذكر الحمر والخضر وما يزاولونه مما يسمونه الجناس فى قوله تعالى «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة» من اتفاق لفظ الساعة فى الموضعين واختلاف المعنيين وهكذا مما هو معروف مشهور ، فقلت سهل مابدا لك فى أنواع الزهر والورق ، فقال لقد انبهم على السر فيما يأتى :

(١) ورقة القصب والذرة والقمح . (٢) وورقة البازلاء وورقة الورد.
(٣) وورقة الحناء . (٤) وورقة المشمش مثلا .
(٥) وورقات الفجل والخروع . (٦) وورقات العدس والترمس .

هذه الورقات مختلفات اختلافا بينا ، فهل تشرحها لى شرحا يشرح صدرى شرح الله صدرك كما انشرحت وطربت لمعرفة السر فى شوكة البرتقال ومحلاق العنب . فقلت أذكر لك ماأعلمه فى هذا المقام على مقتضى أصول علماء النبات .

اعلم أن الله عز وجل قد أبدع فى نظام هذه النباتات إبداعا لاحد له ، وما إبداع الناس فى تركيب كلامهم

ولا تزويقهم لصنوف عباراتهم إلا قبسة من أنوار الجمال الأعلى ولكن أنى يستوى السابق والضليع .

« ليس التكحل فى العينين كالكحل » ففى الطبيعة التى أبرزها الله لنا من الجمال مايبهر الأبصار « ولكن أكثر الناس لايعلمون » إن الإبداع عام فى أوراق النباتات وفى أزهارها وفى أثمارها. والابداع فى الأوراق نوعان : (النوع الأول) فى نفس تكوين الأوراق . (النوع الثانى) فى نسبة بعضها إلى بعض

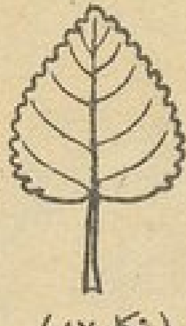
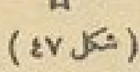
﴿ الكلام على النوع الأول، وهو تكوين الأوراق ﴾

اعلم أن الله عز وجل أرسل لنا من لدنه (نورين)نورا حسيا ونورا معنويا عقليا وضرب النور الحسى مثلا للنور العقلى ؛ فكما أننا نرى الشمس واحدة وقد عم نورها الآفاق وأشرقت بها الأقطار ولم تذر نباتا ولا حيوانا ولاصغيرا ولا كبيرا إلا نثرت عليه ملاءة من أنوارها وهى واحدة هكذا نرى أنه هو واحد وقد بث من لدنه نورا عقليا وحكمة قدسية هندست خلق الأوراق والأزهار بحكمة وإتقان بحيث يراعى فى ذلك أن يظهر جميع الممكنات ،فكل ممكن فى الوجود يبرزه . وبعبارة أوضح أنه كما نوع منافع الأشجار والزروع نوع ظواهرها ، فهذه التى ذكرتها فيها الحبوب كالقمح والذرة والبازلاء والعدس وفيها الفاكهة كالقصب والمشمش وفيها الخضروات كالفجل وفيها الدواء كالخروع وفيها الزينة كالروائح العطرة فى الورد والأصباغ الجميلة فى الحناء .

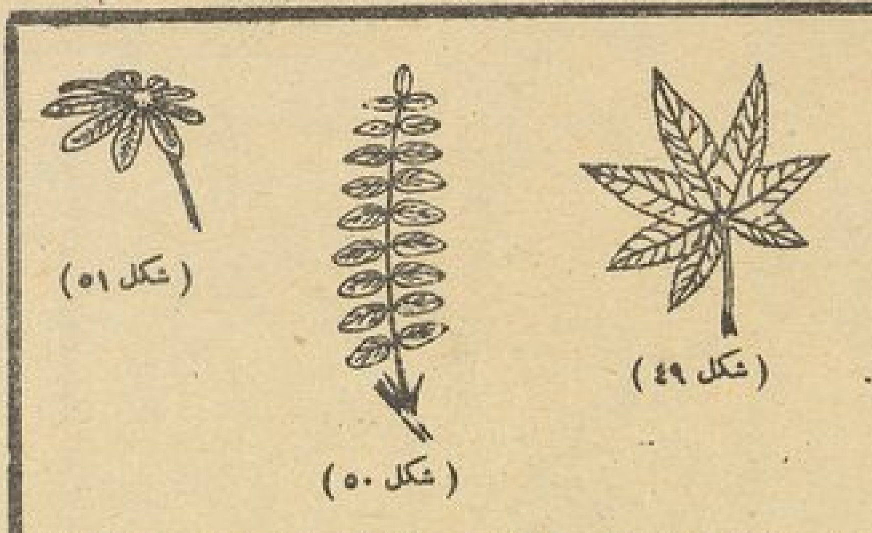
ولاجرم أن مانحتاجه إما ضرورى كالحبوب ، وإما كمالى كالفاكهة والخضر ، وإما دواء كالخروع ، وإما زينة كالحناء والورد ، فهذه التى ذكرتها قد جمعت نموذج مانحتاج إليه فى هذه الحياة الدنيا، فهذا النوع الموافق لحاجاتنا بالحكمة والتدبير يقابله تنوع فى ظواهر الأشكال بحيث يشمل كل مايمكن حصوله فى العقل .

إن عقولنا لاتتخيل فى الورق إلا أحد هذه الصور : أن تكون حافتها مستوية لاأسنان فيها أو أن تكون فيها أسنان صغيرة أو أن تكون الأسنان كبيرة لاتبلغ نهاية الورقة ، أن تكون الأسنان بالغة نهاية الورقة فهذه الأنواع الأربعة كلها وجدت فى هذه الأوراق التى ذكرتها ؛ فمثال الأول ورقة الحناء (انظر شكل ٤٦) ومثال الثانى ورقة المشمش (انظر شكل ٤٧) ومثال الثالث ورق الفجل والخروع (انظر شكل ٤٨و٤٩) ومثال الرابع ورق العدس وورق الترمس (انظر شكل ٥٠و٥١ فى الصفحة التالية) .


(شكل ٤٦)



(شكل ٤٧)


(شكل ٤٨)



(شكل ٤٩) (شكل ٥٠) (شكل ٥١)

ومن العجب أن النبات ذا الفلقة الواحدة كالقمح غالبا ترى ورقه لها عروق متوازية . وأما النبات ذوالفلقتين كالعدس والترمس فإن ورقه غالبا يكون مشبها هيئة الريش كورقة العدس أومشبها راحة الكف كورقة الترمس ، ثم إن هذه الأوراق كلها لها أعناق وتلك الأعناق إنما خلقت لها لترفعها عن الأغصان حتى تلاق ضوء الشمس وتتمتع بالهواء ، ولولا هذه الأعناق لبقيت جاثمة على أغصانها ، فهذه الأعناق الرافعة لها إنما خلقت لهذه الحكمة ولولاها لم تخلق ، ولذلك ترى ورق القرطم لاعنق له بل الورقة حينئذ يسميها علماء النبات جالسة لجلوسها على مستقرها إذ لاحاجة إلى انفصالها عنه لأنها متمتعة بالهواء وبالضوء بلا حاجة إلى مايرفعها . ثم إن هذا العنق الذى يرفع الورقة ربما احتاج إلى مايحفظه، ومعلوم أنه لابد منه للورقة والورقة نافعة للشجرة لأن الورقة أشبه بالرئة فى الحيوان ، بها يكون مايشبه التنفس فيه فهى بما فيها من المادة الخضراء (الكلوروفيل) تنقل غاز اكربونيك من الهواء فتحلله وتأخذ الكربون (الفحم) وتطلب الأكسوجين فى الجو فيذهب للحيوان ، إذن هذه الأوراق لابد منها لحياة الشجرة ولذلك اقتضت العناية أن يرفعها ذلك العنق فتقابل الهواء والنور ليتم فعلها فتأخذ من الهواء الغاز وبغير النور لاتقدر على عملية التنفس . وقدجاء فى كلام علماء الفقه (مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب) فإذا وجب وجود هذا العنق ليتم عمل الورقة واحتاج إلى ما يحفظه فليصنع له ماصنعه الناس فى حفظ رقابهم من حوادث الجو. إن الناس يضعون على رقابهم أربطة فى بلادنا وفى أكثر بلاد العالم لتقيهم الحر والبرد ورقابنا لابد لنا منها فنحفظها كما أن رقاب الأوراق لابد منها لها ، لذلك اقتضت الحكمة الخفية أن عنق ورقة البازلاء وعنق ورقة الورد يخلق لهما مايسميه علماء النبات (أذنين) وهما إما كبيرتان كما فى البازلاء (انظر شكل ٥٢ فى الصفحة التالية) وإما صغيرتان كما فى الورد ترى الحماية لعنق ورقة السنط بالسلاء ، ثم إن العنق إما محيط بالساق كما فى القمح والقصب والذرة فهو أشبه بالغمد وإما غير محيط به بل لاضخامة فيه كالكتان فهذا جواب ما سألت عنه. إذن ظواهر هذه الأشجار قد أخذت الأشكال التى يتصورها العقل وبواطنها تنوعت إلى ما نحتاج إليه فى حياتنا ، فالظواهر والبواطن فى النبات توجب علينا دراستها لتحيا أجسامنا وترقى عقولنا . انتهى الكلام على النوع الأول فى نقش تكوين الأوراق صباح يوم الجمعة ١٩ إبريل سنة ١٩٢٩ .



(شكل ٥٢)

النوع الثانى نسبة الأوراق بعضها إلى بعض

وهذا تقدم شرحه مع رسم بعض الصور فى (سورة الحجر) عند قوله تعالى «وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » فلا نعيده . وأما الكلام على الأزهار فقد تقدم أيضا فى أول سورة الشعراء وفى أول سورة الحجر وفى سورة الأنعام فليراجع .

﴿ ذكرى الجمال والحكمة ومخاطبة المؤلف لصانع العالم بمناسبة عجائب الأوراق المرسومة فيما سبق ﴾

فى هذا اليوم (الأحد ٢١ إبريل سنة ١٩٢٩) بعد كتابة ماتقدم أخذت نفسى تحدثنى كأنى أخاطب صانع العالم قائلا : يا الله إنى وجدتك لم تذر صغيرة ولا كبيرة فى هذا العالم إلا دبرتها ونظمتها ، أضأت شمسك وأنرت قمرك ونجومك وأرسلت أشعتها على الأرض ولم يغادر هذا النور المحسوس صغيرة ولا كبيرة إلا أضاءها ، هذه شمسك الجميلة لم يكفها إرسال النور على السيارات حولها وعلى الأرض بل شمل نفعها الذرات والحشرات كما شمل الأنعام والإنسان ، ووجدتك أنت حبوت بالتدبير الممالك الصغيرة والكبيرة الحيوانية والنباتية من حيث عمومها ولم تذر حشرة ولا حيوانا ذريا إلا أكملت خلقه ولا نباتا صغيرا ولا كبيرا إلا أحكمته، ويزيدنى دهشا أن أرى جيش ورقة الورد وورقة البازلاء وورقة السنط محميات محفوظات مكفولات فى كنفك ، فأعطيت الأولى حافظا لها يقيها ، والثانية حافظا لها أقوى ، والثالثة أعنتها بشوكة تقيها العاديات ، حكم لا يفطن لها الناس يمرّون عليها وهم عنها غافلون ، من ذا الذى كان يظن أن الحكمة والعناية تصل إلى ورقة السنط الضعيفة وأختيها ، من ذا الذى كان يعقل أن هذه الزوائد والروافد على البازلاء والورد وضعت لمنفعة .

اللهم إنه لولا الحجاب المسدول بيننا وبينك لظهر نورك البديع فأحرق الأجسام والقلوب والأفئدة، هذه النفوس الأرضية قبسة من نورك وقد حجبتها فى المواد الطينية فهى الآن فى غفلة ولولا الغفلة لم تمش طرفة عين ولم يستقر لها قرار ، إنى لأحس فى نفسى بأن فى هذه الأرض أناسا منا نحن قد اطلعوا على الحقائق فرأوك فى كل ورقة وشجرة وزهرة وحجر ومدر وكوكب فعاشوا فى النعيم الذى لاتعيم يوازنه ولا سعادة

تضارعه وهؤلاء لو تزينت لهم الحور العين وأغدقت عليهم سائر النعم وملكوا الجنات والولدان لم يأبهوا بها ولم يطربوا لها بل يرون نورك الذى بهرهم أعظم سعادة وجمال وأن احتجابه عنهم أشد العذاب.

أقول هذا موقنا به ، وهذه الطائفة التى تصورتها تصبح اليوم فى نعيم وإن كانت فى هذه الدار لاتشتاق إلى حال أرقى مما وصلت إليه لأنها ترى رب الدار وتقول « الجار قبل الدار » ولا يروقها إلا وجهك . إن فى الأرض أناسا تمت سعادتهم قبل دخول الجنان « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

أقول هذا لمشاهدته فى هذه العوالم ولما عرفته أثناء هذا التفسير من إبداعك فى صنعك ورأفتك بكل ضعيف وكفالتك للذرات والحشرات وصغيرات الأوراق والأزهار وإلهامك لكل حى مايصلحه، والآن فهمت قولك « إن كل نفس لما عليها حافظ » وقولك « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » وقولك فى قصة قارون « إذ قال له قومه لا تفرح » الخ ، وقولك «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة» وقولك « وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين » وقولك « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » الخ ، فأنت لا تحب الفرحين ، وأنت لا تحب المفسدين ، ولاتحب الذين يريدون علوا فى الأرض وتأمرنا بالاحسان للناس كما أحسنت إلينا ، وذلك كله تجلى لى فى هذه الورقات وإبداعك فيها ، أنت راعيت أضعف الورق فى السنط وفى الورد وفى البازلاء ، فهكذا أنت تراعى كل إنسان من باب أولى ويعنيه الخير والشر فلم الفرح ولم الحزن إذا لم يكن هناك عمل إلا عملك أنت ولا فرح إلا بما يعمله الانسان مستقلا ولا عمل له فى الحقيقة والفسد فى الأرض خالف منهجك الذى رأيناه فى رعايتك هذه الورقات والعلو على الناس خلاف سنتك فأنت تحفظ هذه الورقة كما تحفظ الشمس والقمر والانسان وضوء شمسك لا يتكبر على الخنفساء مثلا ويختص بالانسان ، فعلى الناس أن يقتدوا بك فى عملك . وهذه الزروع والأشجار قد تركت للناس ثمارها فأحسنت لهم كما أنك أحسنت إليها، أفلا يجب على أن أنشر بين الناس هذا الكتاب وغيره اقتداء بعملك وسيرا على منهجك إنك أنت الحكيم العليم .

أيها الذكى هذا هو الذى قرأته فى هذه الورقات فاقرأه معى وأحسن كما أحسن الله إليك . واعلم أن الله عز وجل لا يكره منا إلا حب العلو وحب الفساد ، أما نفس العلو فهو أمر واجب كأن يكون الانسان حاكما أو أستاذا واليد العليا خير من اليد السفلى. ومعلوم أن المعطى خير من الآخذ ولكن لايرى أن له فضلا فى ذلك بل يعلم أنه لله ، وإذا قهرنا أعداءنا وجب أن لا يكون ذلك لمجرد الانتقام بل يكون ذلك لإصلاح أهل الأرض كما كان ذلك دأب الصحابة فى محاربة الأمم فلم يكن انتقاما بل كان عملا يراد به الاصلاح، كما أن الله يزيل نبات الصيف ويجعل محله نبات الشتاء للاصلاح لا للافساد فى الأرض .هكذا فلتكن أعمال الناس . هذا ما تذكرت عند نظر هذه الأوراق المرسومات والحمد لله رب العالمين .

﴿ سعادة مؤلف التفسير وسعادة قرائه ﴾

هذه هى السعادة التى كنت أنشدها بين الحقول والأشجار وعلى شواطئ الأنهار وأنا شاب وفتى. كنت أنشد الحقيقة والحقيقة هى نفس السعادة ، ما هى الحقيقة التى كنت أنشدها ؟ كنت أريد أن أعرف ما وصل إليه عقل هذا الإنسان فى معرفة هذا الوجود . فها أنا ذا اليوم أعلن أن ورقة السنط وورقة البازلاء وورقة الورد وآلافا أمثالها فى الأرض والسماء قد أعطت نفس الايقان الذى أيقنه أفلاطون وأرسطاطاليس وقبلهما سقراط من أمة اليونان . والايقان الذى أيقنه مؤلف كتاب الفيدا بالهند . والايقان الذى أيقنه (كانت الألمانى) وسبنسر الانجليزى ومئات غيرهم . هاهم أولاء كلهم قد وصلوا إلى نقطة واحدة هى ما ذكرته الآن فى هذه الورقات . أيقن أفلاطون . بماذا أيقن ؟ أيقن بمبدع للعالم لأجل هذا النظام وبعد أرسطاطاليس

وقبله سقراط . وتغلغل مذهب أفلاطون فى عقول المفكرين من أمم النصارى والمتصوفين من أمم الاسلام وفى أمم غيرهم وتقابل هذا المذهب مع مذهب الفيدا فى الهند ومع آراء أمم أوروبا الحالية أى العقول الراقية هناك ومع وحى جميع الأنبياء ، إذن أنا الآن أعلن أنى أكتب متفقا مع أكبر العقول فى الأمم قديما وحديثا ولهذا الإجمال تفصيل فى رسالتى المسماة (مرآة الفلسفة) وسأكتبها فى هذا التفسير إن شاء الله تعالى اه

ههنا نرجع للتفسير اللفظى ، يقول الله تعالى «وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون الخ» ههنا ذكر الله أقوال الكفار والرد عليهم فى أمر الآخرة .

(١) يقول الكافرون كيف نخرج نحن وآباؤنا بعد أن أصبحت أجسادنا ترابا وكيف يصير التراب أجسادا؟

(٢) إن هذه المواعيد قد سمعها آباؤنا من قبلنا وما هى إلا أحاديث الأقدمين يتحدثون بها فى سمرهم ومحاوراتهم وليس لها حقيقة .

(٣) أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالنظر فى الأمم التى كذبت فلقد كذبوا فلما كذبوا أهلكوا .

(٤) وكما أمرهم بذلك أمره صلى الله عليه وسلم ألا يحزن ولا يضيق صدره من مكرهم .

(٥) ذكر الله أنهم يستبطئون العذاب الذى وعدهم به . ذلك أنه أمرهم بالاعتبار بالأمم السالفة فكأنهم قالوا وأين العذاب الواقع بنا كما وقع بهم ؟ فأجاب قائلا عسى أن يكون تبعكم ولحقكم بعض ما تستعجلون منه كيوم بدر وكالمصائب التى تحل بالناس فى أموالهم وأولادهم وفى مدنهم وفى منازلهم كما قال تعالى « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا » والعذاب على قدر الإحساس وما دام الإنسان غافلا يظن أن هذه الحياة هى كل شىء فليعلم أنه يعذب بكل حادث حل به لتعلقه بهذا العالم وارتباطه به ، فبقدر الارتباط يكون العذاب فيحزن لفقد المال والولد ، ولكل طارىء يطرأ لفئاته فهذا هو قوله تعالى : « قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون » .

(٦) ذكر أن الله ذو فضل على الناس فانه غمرهم فى النعمة وهم لا يشكرونها .

(٧) ذكر أنه يعلم ما يسرون وما يعلنون ويعلم ما غاب فى السموات والأرض .

(٨) والقرآن أيضا من علمه تعالى فهو يقص على بنى إسرائيل أكثر ما يختلفون فيه وهو هدى ورحمة للمؤمنين ، وبعد ذلك خاطبه صلى الله عليه وسلم بقوله « إن ربك يقضى بينهم بحكمه » الخ .

﴿ تفسير بعض الكلمات فى هذه الآيات ﴾

(من قوله « وقال الذين كفروا » إلى قوله « وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين »)

قال تعالى (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وآباؤنا أئنا لمخرجون) من قبورنا أحياء والعامل فى إذا مادل عليه « أئنا لمخرجون » وهو نخرج وتكرير الهمزة للمبالغة فى الإنكار ، والمراد بالاخراج الاخراج من الأجداث وهذه الجملة تبيان لعمههم وازدياد ضلالهم وجهالتهم (لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل) من قبل وعد محمد صلى الله عليه وسلم (إن هذا إلا أساطير الأولين) أحاديثهم وأكاذيبهم التى كتبوها (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين) هذا تهديد لهم على التكذيب وتخويفهم بأنه ينزل بهم ما نزل بالمكذبين قبلهم (ولا تحزن عليهم) على تكذيبهم (ولا تكن فى ضيق) فى حرج صدر (مما يمكرون) من مكرهم فإن الله يعصمك من الناس (ويقولون متى هذا الوعد) العذاب الموعود (ردف لكم) تبعكم ولحقكم واللام مزيدة للتأكيد (بعض الذى تستعجلون) حلوله وهو ما تقدم من عذاب النفوس والمعاملات وإزعاج الأمم كل ذلك يكون قاسيا على النفوس ما دامت مغرمة بالدنيا ، فإذا كانت نزاعة إلى الشرف والفضيلة والعلم وحب الله خف عنها ما تجده فى الدنيا وزال عنها فى الآخرة (وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون)

واعلم أنه لاشكر للنعمة إلا بعد إدراكها وفهمها ، ومتى فهم النعمة شكر الله بقلبه واعتقاده وقام بالعمل لطاعته وأثنى على الله بلسانه ، وكيف يشكر نعمة هو يجهلها ، فالحمد لله فيما تقدم والشكر له هنا يوجبان درس هذه العوالم المذكورة فيما تقدم ، ولتعلم أن الامام الغزالى ألف بابا من أبواب الإحياء فى شكر الله تعالى وذكر فيه درس العلوم ومتى فهمت هذه السورة ومقاصدها عرفت أن شكر المسلم لن يكون إلا بدراسة هذه العلوم والعوالم وعجائبها ، وهؤلاء الكافرون لجهلهم بالله قصروا علمهم على هذه الحياة وأنكروا سواها . ولو أنهم درسوا هذا الوجود لعرفوا أنه لم يخلق سدى وأن هذه الحياة لو لم تكن هناك حياة بعدها لكان ذلك نقصا فى الخلق أو الحكمة فما الحكمة فى خلق الناس وموتهم بلا فائدة لهم . إن ذلك نقص مشين فى خلق العالم وفى الحكمة . فالوقوف عند الحياة الدنيا إخلال بالعلم وبالشكر لله وجهل به وكفى بالجهل كفرا بنعمة الله وعدم شكره (وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) أى ما تخفيه صدورهم وما تعلنه من عداوتهم له ليجازيهم (وما من غائبة فى السماء والأرض إلا فى كتاب مبين) أى خافية فيهما وغائبة وخافية من الصفات الغالبة والتاء فيهما للمبالغة كما فى رواية (إن القرآن يقص على بنى إسرائيل) يبين لهم (أكثر الذى هم فيه يختلفون) من أمر الدين وقد كان بنو إسرائيل يختلفون فى التشبيه والتنزيه وأحوال الجنة والنار وعزير والمسيح (وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين) فإنهم المنتفعون به (إن ربك يقضى بينهم) بين بنى إسرائيل (بحكمه) بما يحكم به وهو الحق ، أو بحكمته (وهو العزيز) فلا يرد قضاؤه (العليم) بأحوالهم فلا يخفى عليه شىء منها (فتوكل على الله) فثق بالله ولا تبال بمعاداتهم (إنك على الحق المبين) وصاحب الحق حقيق بالوثوق بحفظ الله ونصره فلا ناصر لك سواه ، أما هم فلا طمع فى مشايعتهم ومعاضدتهم لأنهم كالموتى وكالصم وكالعمى (إنك لا تسمع الموتى) لأنهم لا ينتفعون باستماعهم ما يتلى عليهم (ولا تسمع الصم الدعاء) دعوتك إلى الحق والهدى (إذا ولوا مدبرين) معرضين ولا جرم أن الأصم إذا ولى مدبرا قطع الطمع فى إسماعه برفع صوت أو نحوه (وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم) إلى الهدى حيث الهداية لا تحصل إلا بالبصر (إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا) إلا من يصدق بالقرآن إنه من الله (فهم مسلمون) مخلصون من أسلم وجهه لله (وإذا وقع عليهم) أى إذا وجبت الحجة عليهم أو إذا لم يرج صلاحهم بالطرق المعروفة فى آخر الزمان (أخرجنا لهم دابة من الأرض) . وقد ورد فى صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال « بادروا بالأعمال قبل ست طلوع الشمس من مغربها والدخان والدجال والدابة وخويصة أحدكم وأمر العامة » وورد فيه أيضا « إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريبا » ولم يرد فى الصحيح على ما أعلم ماذكر من صفاتها من أن معها خاتم سليمان وعصا موسى فتجلو وجه المؤمن وتخطم أنف الكافر بالخاتم حتى إن أهل الحق ليجتمعون فتقول لهذا يامؤمن وتقول لهذا ياكافر وأن اسمها الجساسة وطولها ستون ذراعا لايدركها طالب ولا يفوتها هارب ، ولها أربع قوائم وزغب وريش وجناحان ، ويقال لها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن إيل وعنق نعامة وصدر أسد ولون نمر وخاصرة هرة وذنب كبش وخف بعير الخ وأنها تخرج من الصفا فكل ذلك لم أره فى الصحيح وإنما نعرف من صفاتها ماورد فى الصحيح كما تقدم فانه لم يذكر إلا زمن مجيئها ولم يرد فى القرآن إلا قوله تعالى (تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون) تكلمهم من الكلام بأن الناس الخ ، وعلى قراءة كسر أن يكون المعنى تكلمهم قائلة إن الناس كانوا بآيات ربنا الخ ، ثم ذكر قيام الساعة فقال (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) أى واذكر يوم نجمع من كل أمة من الأمم زمرة (ممن يكذب بآياتنا) من للتبيين ومن الأولى للتبعيض (فهم يوزعون) يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا ثم يساقون إلى موضع

الحساب والمراد بذلك كثرة عددهم وكذا الفوج عبارة عن الجماعة الكثيرة (حتى إذا جاءوا) حضروا موقف الحساب (قال أكذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما) الواو للحال أى أكذبتم بها بادىء الرأى من غير فكر ولا نظر يؤدى إلى إحاطة العلم بكنهها لتعلموا: أبالتصديق أم التكذيب هى جديرة (أماذا كنتم تعملون؟) أى أى شىء كنتم تعملون بعد ذلك؟ وهذه الجملة تبكيت لهم إذ لا عمل لهم غير التكذيب (ووقع القول عليهم بما ظلموا) حل بهم العذاب الموعود وهو دخولهم النار بسبب ظلمهم وهو التكذيب بآيات الله (فهم لاينطقون) باعتذار لشغلهم بالعذاب (ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصرا ؟) أصله ليبصروا فيه فبولغ فيه لجعل الإبصار حالا من نفس النهار ، يقول الله ألم يبصروا تعاقب الليل والنهار وكيف جعلنا الظلمة والنور متعاقبين فى أوقات محددة ، أليس ذلك دليلا على عظم قدرتنا ووجودنا ، أو ليس نوم الناس فى الظلمة واستيقاظهم فى النور مما يدل على أن لهم حالا بعد الموت مخالفة وذلك بالحياة؟ أليس الموت كالنوم ليلا والبعث كاليقظة نهارا ، أو ليس تسهيل المصالح باليقظة دليلا على عناية تامة بهم ، يوم يبعثون فيعطى كل ما يليق له كما يفعل ذلك بعد اليقظة تماما (إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) لدلالتها على الأمور الثلاثة المتقدمة وحدانية وبعث وعناية بالمصالح بعد البعث كما يفعل فى اليقظة (ويوم ينفخ فى الصور) قيل هو جمع صورة .

ويقال الصور القرن ، فهو تمثيل لانبعاث الموتى بانبعاث الجيش إذا نفخ فى البوق . يقول الله واذكر يوم ينفخ فى الصور (ففزع) من الهول وعبر بالماضى لتحقق وقوعه (من فى السموات ومن فى الأرض) ماتوا أى يلقى عليهم الفزع إلى أن يموتوا (إلا من شاء الله) أن لا يفزع بأن يثبت قلبه .

ورد فى حديث البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ينفخ فى الصور فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من رفع رأسه فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش فلا أدرى أكان ممن استثنى الله عز وجل أم رفع رأسه قبلى؟» وهناك أقوال فيمن استثناهم الله كالملائكة الأربعة وكالشهداء والحور والخزنة والعلم عند الله ولا نثق إلا بما يجىء فى الصحيح (وكل أتوه) جاءوه بعد النفخة الثانية (داخرين) صاغرين (وترى الجبال تحسبها جامدة) قائمة واقفة (وهى تمر مر السحاب) تسير سير السحاب حتى تقع على الأرض فتسوى بها وذلك لأن الأجرام الكبار إذا تحركت فى سمت واحد لا تكاد تبين حركتها (صنع الله) مصدر مؤكد لنفسه وهو مضمون الجملة المتقدمة (الذى أتقن كل شىء) أى أحكم خلقه وسواه (إنه خبير بما تفعلون) عليم ببواطن الأفعال وظواهرها وهو المجازى عليها (من جاء بالحسنة فله خير منها) من عشرة إلى سبعمائة وما فوق ذلك (وهم من فزع يومئذ آمنون) أى من خوف عذاب يوم القيامة وإن كان الرعب المتقدم عند مشاهدة الأهوال لا بد منه مع أن المحسن آمن من وصول ضرره إليه (ومن جاء بالسيئة) بالشرك (فكبت وجوههم فى النار) أى أبدانهم أى كبوا وطرحوا جميعهم فى النار (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون؟) فى الدنيا من الشرك أى تقول لهم الخزنة ذلك (إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها) الله بعد أن ذكر المبدأ والمعاد وشرح الدول والمالك والقيامة والفزع والثواب والعقاب وهذا تمام الدعوة ، أمر أن يستغرق فى العبادة وتخصيص مكة بالإضافة لتشريفها وحرمتها (وله كل شىء) خلقا وملكا (وأمرت أن أكون من المسلمين) المنقادين أو الثابتين على ملة الإسلام (وأن أتلوا القرآن) وأن أواظب على تلاوته لتنكشف لى حقائقه فى تلاوته شيئا فشيئا (فمن اهتدى) باتباعه إياى (فإنما يهتدى لنفسه) فإن منافعه عائدة إليه (ومن ضل) بمخالفتى (فقل إنما أنا من المنذرين) ولا يضرنى ضلاله وما على الرسول إلا البلاغ (وقل الحمد لله) على نعمة النبوة والعلم والتوفيق للعمل (سيريكم

آياته)

آياته) فى هذه الدنيا من الوقائع التى أخبر بها القرآن كنصر النبى صلى الله عليه وسلم وكظهور عجائب الكون وغرائب علم الأرواح والكشف الحديث فى العلوم الذى أدهش العقول (فتعرفونها) فتعرفون أنها آيات الله، ولقد عرف كثير من الناس فى أوروبا وفى الشرق ربهم واليوم الآخر بقراءة علم الأرواح أو باستحضارها وبالاطلاع على عجائب العلم الحديث وظهور حقائق مدهشة (وما ربك بغافل عما تعملون) فإن الله عالم به غير غافل عنه فالغفلة والسهو لا يجوزان عليه انتهى التفسير اللفظى .

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

(١) فى قوله تعالى « أخرجنا لهم دابة من الأرض » .

(٢) وفى قوله تعالى « وترى الجبال تحسبها جامدة » الخ . .

(٣) وفى قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » .

(٤) وأن فى هذه السورة شكرين لسليمان عليه السلام وحمدين لنبينا صلى الله عليه وسلم وما سر ذلك .

(٥) وفى تلخيص كتاب الشكر إجمالا للامام الغزالى فى الإحياء وتذكير المسلمين بهذه العلوم .

﴿ اللطيفة الأولى من كتاب الأرواح بالحرف ﴾

ومما يدهش العقلاء أن القرآن ربما أشار بطرف خفى إلى حادثة ظهور الأرواح فى هذا الزمان فى آية « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون » . يقول الله تعالى «وإذا وقع القول عليهم» أى شارف الوقوع وهو قرب قيام الساعة وحقت كلمة العذاب على نوع الإنسان لجهلوا المعنويات وعكفوا على الماديات وكذبوا الديانات وشكوا فى الآيات وأصبحوا لا شرف لهم فى حكوماتهم ولا أفرادهم ومرنوا على الكذب والنفاق وازدادوا بالعلم عمى وبالفلسفة ظلما أخرجنا لهم من الأرض من يطرق الموائد ويحركها ويمسك الأقلام فى أيديهم ويكتب ويتراءى لهم فى أشكال وأزياء مختلفة ووجوه نورية، فتراه أبصارهم تارة ويسمعون كلامه وطورا يبصرون أشكالا وتارة يقرءون خطوطا وآونة يسمعون صريرا وصوتا شديدا كالرعد القاصف وقد يحسون ببرودة تمر عليهم ثم تتحرك الأيدى بالكتابة فكان فى عمله أشبه بمن يدب على الأرض من الإنسان فى نطقه وعمله وبما يجرى فوقها من الدواب فى حركاتها وأعمالها الأخرى فهذا يشير له معنى قوله « أخرجنا لهم دابة من الأرض » وهذه الدابة تبين للناس حقائق وتدرس لهم حكمة وتريهم أنهم غافلون جاهلون ضالون فيجلس أمامها أكبر الضالين وأعظم الفاسقين وأشد الغافلين ومن يدعى أنه ملك مقاليد العلم وبرع فى الحكمة المادية فيخر ساجدا لربه خاضعا لخالقه موقنا أن روحه ستبقى بعد موته فهذا معنى « تكلمهم » الخ وقرأ ابن مسعود «تكلمهم بأن الناس كانوا بآياتنا لايوقنون» وهذا هو الحاصل الآن بعينه، وهذه معجزة للقرآن وحكمة ثابتة للفرقان فإن الآلاف المؤلفة من البشر اليوم فى أنحاء العالم يوقنون إذا تحققوا مذهب الأرواح وليس الايمان بكاف بل اليقين هو أكمل الإيمان فتعجب من الآية وانظر كيف كان هذا مظهرها وهى مسألة ظهور الأرواح فالقرآن يشير إليها .

قال شير محمد : يا سيدى إن تفسيرك هذا يخالف ما جاء عن سيد البشر وكيف تترك قول النبى وتسمع مقالك ، أو ليس النبى صلى الله عليه وسلم أعلم بالكتاب منك ؟ قلت وكيف ذلك ؟ قال ، قال الفخر الرازى إن لهذه الدابة أربع قوائم وزغبا وريشا وجناحين .

وعن ابن جريج فى وصفها رأس ثور وعين خنزير وأذن فيل وقرن أيل وصدر أسد ولون نمر وخاصرة بقر وذنب كبش وخف بعير وإنها تخرج من المسجد الحرام أو تخرج من الصفا، وقيل تخرج باليمن ثم تخرج من بين الركن حذاء دار بنى مخزوم . فقلت يا شير محمد اعلم أنه لا دلالة فى الآية على ما روى وقد قال الرازى

حسه فان صح الخبر فيه عن رسول الله قبل وإلا لم يلتفت إليه وهو يريد أن الخبر غير صحيح . أقول ولقد بحثت فى كتب الصحاح فلم أعثر على هذا الوصف للدابة ، على أنه لو صح فرضا لدل على أنها مخالفة لكل حيوان . فقال ولكن كيف تنصرها على مسألة الأرواح وأنى لك هذا . فقلت يا شيخ محمد أنا لم أقل إن هذا هو المعنى ولكن أقول إنه رمز له وإشارة ، فالآية باقية على ظاهر معناها ترمز إلى ما ذكرنا ، فالدابة باقية على المعنى الأصلى ،نكل علمها إلى الله تعالى وتكون رمزا لهذا وهذا قسم من أقسام الكناية فى علم البيان فاللفظ على حاله يشير لما اقترب منه كما أوضحه الإمام الغزالى فى تفسير قوله صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب ولا صورة » فقد جعلهما على حالهما ورمز بهما إلى الشهوة والغضب فافهم ، فإذا فهمت هذا فقد قطعت جهيزة قول كل خطيب ، وقطع لسان كل معترض بعدك فقد سدت فى وجهه أبواب الجدال « وكفى الله المؤمنين القتال » انتهت اللطيفة الأولى .

﴿ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « وترى الجبال تحسبها جامدة » الخ ﴾

لأبين لك فى هذه اللطيفة عجيبة من عجائب القرآن وهى أن هذه الآية بديعة الوضع محكمة الصنع فان التفسير يناسب المتقدمين من الأمة الاسلامية ، وإذا فسرت بأن الأرض دائرة حول الشمس والجبال بالطبع سائرة معها وتراها الآن جامدة وهى فى الحقيقة جارية جريا سريعا جدا فإن ذلك يناسب قوله « صنع الله الذى أتقن كل شىء » فهذا هو الإتقان وإلا فالقيامة تخريب للعالم والإتقان يناسب هذا التفسير .

﴿ حكاية ﴾

قد ذكرت فى سورة البقرة أن سيدة روسية تسمى (المدام لبيديف) قد جاءت إلى مصر ، وأقول الآن إن وزير المعارف إذ ذاك قال لها لما سألته عمن يدرس معها علم التصوف إن الشيخ طنطاوى له إلمام بهذا العلم ثم إنى لما اجتمعت معها فى المنزل الذى نزلت به أخذت أدرس معها هذا العلم فى الرسالة القشيرية نحو تسع سنين وهى كانت بعد الفهم تترجمه إلى اللغة الفرنسية ، واستمررنا فى الكتاب وفيه حكايات كثيرة عن الصالحين فقرأنا حكاية عن الجنيد رحمه الله تعالى ، ذلك أنه كان فى مجلس ذكر وهناك قوال ينشد فطرب التلاميذ طربا شديدا والشيخ ساكن لا يتحرك فقال له أحد التلاميذ يا سيدى أليس لك حاجة فى السماع فقال « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » فقالت ما مناسبة هذه الآية فى الحكاية فقلت إن للآية (معنيين) معنى يليق بالأمم الاسلامية التى قبلنا ، ومعنى يليق بأيامنا والقرآن يحتمل المعنيين ولكن الثانى أقرب . فقالت ما هما المعنيان . قلت أما المعنى الأول فإن الجبال يوم القيامة تمر مر السحاب لأجل أن تصل إلى الأرض فتستوى بها ولعظم حجمها يراها الإنسان كأنها جامدة غير متحركة وهذا يناسب مساق الآية وأما المعنى الثانى فهو أن الأرض تجرى سريعا والجبال ماهى إلا من أجزائها فهى جارية تمر هى والأرض حول الشمس كما يمر السحاب حول الأرض والدليل عليه قوله « صنع الله الذى أتقن كل شىء » فعبر بلفظ أتقن لا بلفظ خرب كل شىء لأن القيامة تخريب لا إتقان للصنع وفرق بين الصنع والتخريب ، وكأن الله أتى بالآية على هذا الشكل لتكون موافقة للعصور الأولى من حيث مساقها ولهذه العصور من حيث نهايتها ويكون فهم الناس هو الذى يخطىء ويصيب والحقائق باقية على حالها ، وأما الشيخ الجنيد فلم يرد هذا ولا ذاك بل قال إنه فى سكونه أشبه بالجبل الذى هو متحرك ويظن الناس أنه ساكن يريد أنه يرى ظاهره ساكنا ولكن قلبه متحرك فى مشارق الأرض ومغاربها ويجول فى المعانى العلية البديعة ، فلما سمعت هذا القول فرحت فرحا شديدا وقالت تعس الفرنجة يقولون ليس فى القرآن لطائف ولا نكت بديعة ، وها أنا ذا أنقل لك المحاورة

التى جاءت فى كتابى [جواهر العلوم] الذى هو أول ما ألفته من الكتب العلمية ، فقد جاء فيه مانصه لأنه فيه زيادة فائدة .

قال تعالى « ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين . وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شىء » .

معلوم مما قدمنا فى المجالس السابقة والمذاكرات أن علماء الهيئة قسمان : المتقدمون وهم يوافقون مايظهر للنظر العام من ثبوت الأرض ودوران الشمس والمتأخرون ، وتخالف هيئتهم ما يعرفه العامة فيحكمون بدوران الأرض حول الشمس وهذا المقام قد أوضحناه سابقا بما لا مزيد عليه وقدمنا أن هذه كلها دائرة على الظن وأن الثانى أقرب الى الظن من الأول وأن القرآن لم ينزل لتحقيق مثل هذه المسائل لأنه جاء لما هو أجل من هذا إذ هذه الأشياء أقرب شبها إلى الصنائع وقلنا إن أشكالها على نوع الانسان دعا إلى نمو الأفكار فهو المقصود إذ هو فى عالم التربية ثم نقول الآن العجب كل العجب من وضع الآية التى نحن بصددها وضعا متقنا على حسب ما قدمنا ، وبيانه أن قوله «ويوم ينفخ فى الصور» إلى قوله « داخرين » أى صاغرين مسوقة ليوم القيامة ثم قوله بعدها « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » حملها العلماء على يوم القيامة « ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة » ولشدة عظمتها ترى كأنها واقفة ، ولا ريب أن هذا التفسير يناسب من علقت فى ذهنه الهيئة القديمة من أيام نقل الفلسفة اليونانية إلى الآن فناسب ما قبل الآية وصدرها أول الأمة ، وإذا نظر الى قوله بعدها «صنع الله الذى أتقن كل شىء» نجد أن خراب الأرض ينافى الإتقان وإنما الاتقان يناسب سير الأرض وجبالها ثم يراها الانسان مع شدة حركتها ساكنة لا تتحرك فهذا هو الاتقان العجيب وإنما لم يقل وترى الأرض لأنها على هذا الرأى لا ترى إلا متحركة مع خروج الانسان بالمرة عنها وهذا مستحيل فى الدنيا ، أما الجبال فرؤيتها ممكنة ثم انظر كيف تسير الأرض بتلك الحركة العجيبة حول نفسها وحول الشمس ونحن نراها ساكنة لم يحس أحد بحركتها من آدم الى الآن ، فهذا هو الإتقان وهذه هى الحكمة وهذا هو الوضع العجيب الذى جمع بين الحركة والسكون ، ففيه تنبيه على أن العالم كله فى حركة مستمرة مع أنه يرى فى سكون بل الانسان يرى ساكنا مع أنه لا يقف فكره لحظة لا فى اليقظة ولا فى المنام إذ قوته المخيلة لا تقف حركتها لحظة ولا تقف إلا بالموت وهكذا الأمة فى حركة مستمرة إما إلى صعود وإما إلى هبوط وإما إلى استمرار ، فالصعود باختراع الجديد والهبوط بهدم سور المدنية الحقة والاستمرار فى الأمور الدنيوية على ماعودهم الآباء بلا فكر جديد ، فالعالم كالعالم وكالانسان والأمة كل فى حركة مستمرة ويرى فى الظاهر كأنه ساكن دائم السكون ولم نذكر هذا على أنه تفسير للآية ولكن لمناسبة العالم بعضه بعضا وإنما نحن فى ذكر الجبال وأنها على الأرض وترى أنها ساكنة مع أنها على الهيئة الجديدة سائرة دائما معها وهذا هو غاية الإتقان ويحق لنا أن نقول « صنع الله الذى أتقن كل شىء » بعد ما ذكر هذا ما خطر ببالى الآن ، وإنى لأعجب من هذا الوضع المتقن فى الآيات وكيف ناسب صدرها صدر هذه الأمة وعجزها متأخريها أى العصريين المعاصرين للأوروباويين فلم تصادم الآية مذهب السابقين وأشارت لمذهب المتأخرين[1] ولعمرى هذه هى الحكمة العجيبة جعل نظام كلامه كنظام ملكه ، فما أتقن الفعل وما أحسن

---

(١) فيكون ملخص المعنى سيقوم من فى السموات ومن فى الأرض فزعين إلا من شاء الله وهم جميعا صاغرون ، ولا ريب أن السموات والأرض أكبر ممن فيهما وإليه والزمر بقوله « لخلق السموات والأرض من خلق الناس » وإذا كانت السموات والأرض أطاعتا حتى قال فيهما « قالتا أتينا طائعين » فكيف لايأتيه

القول ، سياستان متشابهتان « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؟ »
وعندى أن هذا وأمثاله هو الإعجاز والحكم لا التأكيد ولا الجناس والطباق ولا غيرها ، ألا فليتق الله العلماء وليبينوا للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون . ومن عجيب الإتقان نفس هذه الآية فكفى بإتقانها وإحكامها برهانا ساطعا ومعجزة لمن درس العلوم وذاق لذة المعارف . ولعمرى لا يعقل هذا إلا العالمون ، فتأمل كيف ناسب مراعاة مذهب المتقدمين سابق الكلام ومذهب المتأخرين لاحقه ، وكيف ثم كيف قال بعد أربع آيات فى آخر السورة « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » اهـ .

﴿ اللطيفة التالية فى قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » ﴾

لأذكر لك ما كتبته فى « جواهر العلوم » تحت عنوان (إن القرآن والسنة يتجدد إعجازهما كلما تمادى الزمان) والذى أعنيه من ذلك :

(١) قوله تعالى « ويخلق ما لا تعلمون » بعد قوله تعالى « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » إذ لم يقل « ويخلق ما لا تعلمون » فى القرآن كله إلا بعد ذكر ما يركب فى هذه الآية وحدها إشارة إلى ما سيحدثه فى المستقبل من مدهشات ما يركب ويسير بالوسائل من البخار والكهرباء والسفن الحربية والبالون والتلغراف بلا سلك أو به وكل هذه إما حاملة رسالة أو وقرا وهى تختص بالدواب عادة ، وقال أيضا « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون » وقد وضح هذا فى سورة النحل إيضاحا تاما .

(٢) « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا » وقد سكن الظل بواسطة الفوتغرافية

(٣) « للموازنة فى ذكر « وكل فى فلك يسبحون » بعض ذكر الشمس والقمر والأرض وجعلها بعد الشمس والقمر ، وذلك لإجماع الأمم على حركتهما ، وأما الأرض فذكرت إيناسا لمن يعتقد سكونها لوجود الفصل بالشمس والقمر ولمن يعتقد دورانها بدخولها فى « يسبحون » .

(٤) ذكر السفن فى قوله تعالى « وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون » بعد الكواكب والأرض إشارة إلى أن الجميع من واد واحد ، فالسفن فى البحر كالشمس والقمر والأرض فى الأثير وهى المادة المالئة الفضاء ، وكأن الكواكب كلها والأرض سفن فى بحر الأثير « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » .

(٥) « اقتربت الساعة وانشق القمر - أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها » إشارة إلى ما قيل أن القمر انفصل من الأرض فنقصت وانشق هو منها .

كل من فيهما صاغرين أذلاء ، أولا يرون أن الأرض التى هم عليها وما فوقها من الجبال منقادة له مسخرة فى هذه الحياة الدنيا لا يمكنها الاستقرار لحظة من الزمان « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » فإذا كانت الأرض التى خلقها أعظم من خلقكم أنتم فى الحياة الدنيا خاضعة له مع جبالها وأنتم عليها فكيف بكم أنتم وحدكم فلابد من إتيانكم صاغرين يوم القيامة .

« أطرق كرا إن النعام فى القرى »

(٦) « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » قالوا إن الشمس والأرض كانتا شيأ واحدا فانفصلتا .

(٧) مادة العلم الأثير وهو مالئ للكون لم يعرف إلا بالعقل لدقته عن الحواس « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » .

(٨) «ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » اكتشف أن حواس الإنسان وأعضاءه كلها تراب صار نباتا وحيوانا ودخل فى الجسم فصار هو نفس الإنسان .

(٩) « بل هم فى لبس من خلق جديد » قد اكتشف أن جسم الانسان يتجدد فى كل مدة نحو ثلاث سنين فتذهب مادته ويؤتى بدلها بالمواد النباتية والحيوانية والمعدنية فتصير بشرا سويا منتشرا « ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » .

(١٠) « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » قد كشف أن الخنزير منشأ الدودة الوحيدة[1] وقد تقدم رسمها والكلام عليها فى هذا التفسير .

(١١) كراهة أكل لحم بعض البقر لأنه منشأ السل .

(١٢) وجوب غسل أثر الكلب سبعا فقد كشف أنه سم ومثله الهر كما فى بعض أحاديث الجامع الصغير .

(١٣) المستنقعات منشأ المكروبات القتالة للانسان وقوله عليه الصلاة والسلام « لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ولا يغتسل فيه » فبالأول يزيد ضرره وبالثانى يصيب المغتسل الضرر بالمكروب .

(١٤) ورد فى السنة أن الطاعون من وخز الجن وقد ظهر أنه حقا من الحيوانات المكروبية التى هى قسم من أقسام الجن فى الحديث الذى فى كتابنا « ميزان الجواهر » نقلا عن الإحياء حيث قال فيه وصنف كالهواء .

(١٥) الأمر بكثرة الاغتسال والوضوء وهذا أعظم داع لعدم العداوى وامتلاء السجون كما قاله العلامة (بنتام الانجليزى) مشرعهم الشهير الذى درس علوم الأمم كلها وقال (من واظب على أغسال الدين الاسلامى لم يصدر منه ذنب ولا جريمة) فالنظافة من محاسنه ، كما استحسن أيضا منع الخمر منعا باتا فى جميع الكرة الأرضية وعده من محاسن هذا الدين وإليه الإشارة بقوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » .

(١٦) ظهور الازدواج فى جميع النبات « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين ـ وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج » .

(١٧) « وأرسلنا الرياح لواقح » قد علم مما قدمناه أن الريح هى الملقحة لاكثر النبات .

(١٨) ظهور الجدرى فى أصحاب الفيل بالمكروب الذى دل عليه قوله تعالى « وأرسل عليهم طيرا أبابيل » أى متتابعة مجتمعة « ترميهم بحجارة من سجيل » أى من الطين الذى يتماسك على سطح المستنقعات .

---

(١) وفى الخنزير ديدان لا تؤثر فيها الحرارة فى درجة من درجاتها . ولقد أخبرنى أستاذنا الشيخ حمزة فتح الله عن دولة الغازى مختار باشا أن جماعة ماتوا بعد أن أكلوا فبحث الأطباء عن سبب موتهم فإذا هم أكلوا لحم الخنزير فأماتتهم مكروباته وهو بلامين من هذه القاعدة ، وفى مقدمة [ميزان الجواهر] فوائد فى هذا أيضا فاقرأها هناك إن شئت .

(١٩) ظهر أن كل شيء له مقدار محدود بالتحليل الكيماني « وكل شيء عنده بمقدار » .

(٢٠) « ويوم ينفخ في الصور » الخ تقدم قبل هذا .

(٢١) اعلم أن الأرض متزنة بالجبال ولولاها لاضطربت في سيرها لأن الجبال والطبقة الصوانية تحفظ الكرة النارية أن تتصاعد فتختل الأرض « وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم » .

(٢٢) قوله تعالى « حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج » قد تقدم في سورة الكهف .

(٢٣) قوله تعالى « ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى » ومعلوم في الأصول أن الذين اسم عام لا يخص من نزلت الآية بسببهم وظهر في كل زمان لا سيما هذا الزمان، إن كثيرا منهم يدخلون بسرعة في الإسلام بخلاف اليهود باجماع فلاسفة الأمتين ، وفي أمريكا العجب العجاب وكذلك في أوروبا ، وسيأتي الزمان المستقبل بأعجب من هـذا في الإعجاز ، وقال تعالى لعيسى « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » .

(٢٤) تشتت اليهود في أقطار العالم وعذبهم الفرنساويون في الجزائر وغيرها وطردهم الروس وهم مبغضون في كل دولة « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إن ربك لسريع العقاب » .

(٢٥) « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » قد أجمع علماء اليونان والعرب وأوروبا أن علم النفس إنما يكون بعد الرياضيات والطبيعيات، وهاك آخر ما وصل إليه البحث إلى وقتنا هذا من ترتيب العلوم بحيث إن المتأخر لا يفهم إلا بعد المتقدم (ا) العلوم الرياضية (ب) العلوم الفلكية (ج) العلوم الطبيعية (د) علم الكيمياء (هـ) علم وظائف الأعضاء (و) علم النفس والمنطق (ز) علم الاقتصاد السياسي (ح) علم تكوين الشعوب (ط) علم تمييز الجمال (ى) علم ما وراء الطبيعة ويدخله العقائد ومعرفة الخالق والروح ، وأما علم النفس فإنما هو ظواهرها لا حقيقتها (ك) علم الأخلاق (ل) علم الحقوق (م) العلوم السياسية ، فأنت أيها الذكي ترى من هذا أن علم الروح في المرتبة العاشرة مع العلم الالهي المعبر عنه بما وراء الطبيعة أو الفلسفة الأولى أو العلم الأعلى والمخاطب بهذا هم يهود جزيرة العرب ولا ريب أنهم أبعد الناس عن هذه العلوم فلا يمكنهم فهم الرياضيات العليا فضلا عن الروح فلذلك قال « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » أي ولا يفهم الروح إلا من درس علوما كثيرة، وما أعجب قوله « من أمر ربي » إذ علم الروح وعلم الألوهية في الدرجة العاشرة .

(٢٦) قال عليه الصلاة والسلام « صنفان من أمتي في النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رءوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ولا يرحن ريحها وإن ريحها لتوجد من مسيرة كذا وكذا » أخرجه مسلم . قوله كاسيات عاريات : أي يسترن بعض أجسامهن ويكشفن بعضها ، أو يلبسن ثيابا رقيقة تصف ما تحتها فهن كاسيات ظاهرا عاريات حقيقة ، وقوله مائلات أي زائغات عن طاعة الله فلا يحفظن فروجهن ، وقوله مميلات أي مميلات الرجال إلى الفتنة ، وقوله كأسنمة البخت أي يكبرنها من المقانع والخمر والعمائم أو بصلة الشعر كأسنمة البخت. انتهى من تيسير الوصول لجامع الأصول . وقد ظهرت تلك السياط بعد النبوة بأزمان وهو الكرباج . أقول : فأما النساء الموصوفات بذلك فقد رأيتهن في زماننا .

(٢٧) ورد أن الذباب فيه داء وقد ظهر بالاستكشاف .

(٢٨) قال تعالى « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم » قد قارن

علماء

علماء أوروبا بين النساء المتعلمات وبينهن حين لم يتعلمن فاستنتجوا أن المرأة كلما قدمها التعليم لتلحق الرجل أخرتها الحكمة الإلهية فى القوة والإدراك والجسم فصارت على الثلث منه فى مجموع قواها ، فكلما قدمهن التعليم أخرتهن الحكمة على مقدار ذلك لتبقى درجة الزيادة محفوظة بين الرجال والنساء وإلا لاختل النظام بتساوى الدرجتين ولذلك قال بعدها « والله عزيز » أى غالب حكيم فيما صنع (اقرأ المرأة المسلمة لصديقنا محمد أفندى فريد وجدى) فقد ذكر هذا وأنه قامت قيامة فلاسفتهم الآن ينذرون قومهم الخطر .

(٢٩) إن الفونغراف داخل فى عموم « قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء » .

(٣٠) قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » أما آيات الآفاق فهى جميع ما استكشف فى العلوم الحديثة فى الأرض والسماء بعد أن كانت منحصرة فى كواكب معدودة من السيارات وهى (٧) مع جهل الثوابت وعناصر محدودة ، فقد كشفت كواكب سيارة أخرى وعرف كثير من الثوابت وهكذا العناصر بعد أن كانت (٤) وصلت إلى نحو (٧٠) وأما آيات الأنفس فان للانسان جسما وروحا ، أما الجسم فأظهرته أشعة رنتجن التى هى عبارة عن أضواء شرر الكهرباء المنحصرة فى آلات تسلط على الجسم فتكشف الأعضاء من الداخل وتظهر الدورة الدموية من وراء الجلد واللحم والقلب والعروق كأن هذه أجسام شفافة لاتحجب ما وراءها مما يدهش العقل ويحار فيه فكر اللبيب مصداقا لقوله فى هذه الآية « وفى أنفسهم » ومعلوم أن « فى » للظرفية ، أى الآيات المظروفة فى نفوس النوع البشرى ، والمراد بها هنا ما يشمل الجسم . وأما الروح فقد ظهرت عجائبها بالتنويم المغناطيسى الذى تناقلته الأفرنج عن الهنود . انتهى ما أردته من كتابى : [جواهر العلوم] .

﴿ اللطيفة الرابعة . إن فى هذه السورة حمدين وشكرين ﴾

اعلم أن سليمان عليه السلام شكر الله مرتين فى هذه السورة . شكر دخل فى ضمن الدعاء إذ قال « رب أوزعنى أن أشكر نعمتك » الخ وشكر دخل ضمن قوله « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » معلوم أن الله يستجيب دعاء الأنبياء فى الأولى ، فأما الثانية فان الأنبياء أقرب الناس إلى الشكر إذا أنعم الله عليهم بنعمة ، فاعجب كيف كان له (شكران : أحدهما) على نعمة العلم (والثانى) على نعمة الملك فأما سيدنا محمد ﷺ فانه أمر من الله أن يحمده وأن يسلم على الأنبياء وكل مصطفى بعد أن ذكر نعمة سليمان بالعلم والملك . ولما انتهت السورة أمر أن يحمده تعالى على أن أمته ستنال العلم والعرفان وأن الله يطلعها على عجائب هذه الدنيا ، هما حمدان ، وأنت تعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم يبعثه ربه مقاما محمودا والمقام المحمود مقام يحمد القائم فيه ويحمده كل من عرفه ، فهو مطلق فى كل مقام يتضمن كرامته وليس خاصا بمقام الشفاعة بل هو مقام أعم منه ولذلك قيل أيضا « إنه مقام يعطى فيه لواء الحمد » فهذا المقام أعمّ وعليه نقول إنه صلى الله عليه وسلم لما أمر أن يحمد الله ويحيى الأنبياء فى هذه السورة وأمر أن يحمد الله على أن الله يعرفنا آياته بعده دل ذلك على أن هذا أيضا مقام حمد يحمده فيه العالم على رقى أمته لأنها ستعرف هذه العوالم « سيريكم آياته » وستكون لها القدح المعلى فى العلوم الكونية وتعرف علم الأرواح كما تقدم فى قصة سليمان والعلوم الطبيعية من حيوان ونبات إلى آخر ما تقدم فى هذه السورة ، وعلم الفلك أيضا كما عرفت وستصبح أعلم الأمم وأحسنها نظاما .

إن الحمد لا يكون إلا بعد معرفة المحمود عليه والمحمود عليه هو النعم والنعم جسمية وروحية وغيرها وجميع العلوم نعم ، فمن جهل شيئا فانه لا يحمد الله عليه وكيف يحمد على مالم يعرفه . إن الحمد نوع من الشكر والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح ، فمن قال الحمد لله فهو شاكر على نعمه ويكون هذا الحمد على مقدار

ما عرف من الحم الواصلة من الله إلى عباده ، وهذا المعنى هو الموافق لقوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » وظهور رحمته للعالمين أن يكون المسلمون أرقى الأمم فى جميع فروع العلوم كما يقتضيه القرآن على مقتضى ما بينا فى هذا التفسير ويصبح المسلمون أقوى أهل الأرض علما وعقلا وحكمة وعدلا ويكونون رحماء بأهل الأرض آباء لهم . هذا هو المقام الذى يحمد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدنيا . فأما حمده فى الآخرة فمعلوم ، فإذا رأينا سليمان صلى الله عليه وسلم أوتى حكمة وعلما وملكا وحسن سياسة فليكن أتباعه صلى الله عليه وسلم قائمين مقام سليمان فى ذلك وفى غيره من عموم العلم والحكمة وليكونوا معلمين لكل الأمم مهذبين لهم .

إن النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدم أمر أن يحمد الله فهو له مقام محمود يحمد فيه ربه ويحمده كل من عرفه ، وأيضا له الشفاعة ، ولا جرم أن هذين يستلزمان أن ترتقى الأمة الإسلامية وتكون نورا لأهل الأرض فى مستقبل الزمان ، ألا ترى أن الشفاعة تكون على مقتضى ما وصل الناس من علم وكذا الحمد يكون على مقتضى نعم ، وأهم النعم العلم . إذن يكون لواء الحمد ومقام الشفاعة يرجعان لشىء واحد لأنه إذا حمد الله على نعمه وحمده الناس عليها فلاحمد إلا عن علم وإذا شفع الناس فالشفاعة على حسب مقتضى العلم والعلم فيهما يتبعه العمل إذن ينتج من ذلك أن هـذه الأمة ستكون أمة علم أرقى من سائر الأمم فتكون محمودة لعلمها وعملها وحامدة لأن الحمد على نعمة العلم والعمل . انتهت اللطيفة الرابعة .

﴿ اللطيفة الخامسة ﴾

قال الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم «فبهداهم اقتده» وقد شكر سليمان عليه السلام على نعم العلم والملك فلنبحث فى الشكر وقد أمرنا الله بالشكر فلنبحث فيه لما له من العلاقة بهذه السورة وبرقى الإسلام فى المستقبل . واعلم أن الشكر مطلوب قال تعالى « واشكروا لى ولا تكفرون » وقال « وسنجزى الشاكرين » وقال « وقليل من عبادى الشكور » وقد جعل الله الشكر مفتاح أهل الجنة وهو « وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده » الخ ، ولا نطيل بذلك ، فالآيات والأحاديث كثيرة .

ولألخص لك بعض كلام الإمام الغزالى فى هذا المقام لتعرف أن أمة الإسلام الآن لم تقم بالشكر ولما لم تقم بالشكر دخلها الفرنجة واحتلوا ديارنا ، فهل يعلم المسلمون أن العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية والعمل بها هو شكر الله ، هل يعلم المسلمون ذلك ؟ هل يعلم المسلمون أن ما ذكر فى هذه السورة من عجائب النمل والهدهد وعجائب العفاريت والملائكة والعجائب التى عددناها كالأنهار والجبال والبحار والسماء والأرض والحدائق والأشجار ، هل يعلمون أن علم ذلك واستعماله وقبوله من خالقه هو الشكر . إن المسلمين لو علموا ذلك لكانوا نبغوا فى هذه العلوم ولكن قام رجال صغار العقول صرفوهم عنها ، هل يعلم المسلمون ذلك ، فواحسرتا على أمة قتلها رجال سموا أنفسهم قادة ، وما هم بعالمين .

يقول الامام الغزالى : (لابد للشكر من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل ، والحال هو الفرح الحاصل بالانعام ، والعمل القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه ويكون العمل بالقلب واللسان والجوارح) . وفى مقام العلم أخذ يشرح نعم الله عز وجل فى النفس وفى البدن وفى المال وفى الأصحاب وجعل كل واحد من هذه أربعة أقسام فهى (١٦) ولا حاجة إلى تفصيلها ولكن نقول إذا نظرنا إلى صحة البدن وحده عرفنا أنه لابد له من طعام ، والطعام لاينال الانسان إلا بالنبات والنبات لايتم إلا بالمطر وبالأرض وبالبذر وبالشمس وبالهواء .

ثم إن الإنسان لايتعاطى الغذاء إلا إذا أعطى أعضاء باطنة وظاهرة ، فالظاهرة للجلب والباطنة للهضم

وغيره

وغيره ، ولابد من الحواس الظاهرة والباطنة ، فهنا علوم التشريح وعلوم النفس وعلوم النبات وعلوم الحيوان وعلوم الكواكب لما علمت أن الحرارة منبثة من الشمس إلى الأرض فصح بدنك ، إن جميع العلوم لابد منها في معرفة نعمة الله تعالى ، فمتى عرف الإنسان هذه العلوم التي هي مرتبطة ارتباطا لا انفكاك له فقد عرف النعمة ومعرفة النعمة ليست شكر الله بل هي ركن واحد من أركان الشكر . (الركن الثاني) الفرح بالمنعم لا بالنعمة ولا بالانعام ، فاذا رأيت جمال الله في السموات والأرض وأدركت بعض العلوم أحسست بسرور ، ولكن يجب أن يكون السرور بمن خلق هذا الجمال . (الركن الثالث) العمل بموجب هذا الفرح ، وهذا العمل إنما يكون بالقلب واللسان والجوارح ، فأما بقلبه فيقصد الخير لجميع الناس ، وأما بلسانه فليكن شاكرا لله به دائما ، وأما بالجوارح فليصرفها كلها في فعل الخير ، فالعين مثلا لاتنظر إلى محرم بل تنظر نظر اعتبار .

أنا لا أطيل عليك ماذكره الامام الغزالي فاني لو ذكرته وشرحته لاحتاج إلى مجلد ولكن الذي يهمني في هذه السورة أن تنظر أيها الذكي ، انظر واعجب من أمة الإسلام ، انظر كيف يقول سليمان عليه السلام « ليبلوني أأشكر أم أكفر » ويقول « رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي » ولما بحثنا عن الشكر وجدنا مبدأه العلم بالنعمة ، ولما بحثنا عن العلم بالنعمة وجدناه دراسة هذه العلوم المذكورة في هذه السورة وفي غيرها علوم الحيوان من طير وحشرات وغيرها وعلوم النبات وعلوم الكواكب وعلوم التشريح والطب وغيرها ، يارب عجبا لأمة هذا دينها وهؤلاء علماؤها ، ألهذا الحد يجهل المسلمون . ألهذا الحد ينامون . يذكر الله الشكر ويقول عالم الاسلام : الشكر علم والعلم شمل سائر العلوم التي فازت بها أوروبا علينا وغلبتنا والمسلمون نائمون ، ألم يقرأ أحد منهم كتب السابقين ، ألم يقرءوا القرآن ، أيها القارئ الذكي بالله أيقظ هذه الأمة وأخبرها أن الله أمرنا بالشكر وأن الشكر مبدؤه العلم بسائر العلوم التي جاءت في هذه السورة من الأرض والسماء والأنهار والبحار والجبال والحيوان وكل ما أمكن معرفته ، والمسلم إذا لم يعرف هذا وهو قادر فهو غير شاكر ومتى عرف فانه يفرح بالمنعم نفسه لامحالة ومتى فرح به وجب عليه أن يحب الناس كلهم ويشكر الله بلسانه ويعمل الخير لسائر الناس فالشكر علم تام وإخلاص عام وعمل نافع بجميع الجوارح .

المسلمون غير شاكرين مالم يفتحوا مدارس ابتدائية ومدارس ثانوية ويذيعوا تعاليم جميع الأمم من فلك وطبيعة وكيمياء وحيوان ونبات وإنسان وطبقات الأرض ، هذا التعليم لابد منه لسائر الطبقة المتوسطة أما الطبقة العليا فهم المختصون بعلوم خاصة كالطب والهندسة وغيرهما ، كيف جاز للمسلمين أن يناموا أجيالا وأجيالا كيف يجهلون شكر النعمة ، كيف تركوا علم النبات وعلم الحيوان وعلم التشريح وعلم النفس وعلم الفلك كيف تركوها والله أمرهم بالشكر والشكر علم وحال وعمل ، شكر سليمان وشكر صلى الله عليه وسلم فهذا هو شكرهما ؛ لقد نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء ، وقرأ قوله تعالى « ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته » ومعناه أن يقرأها ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا ، فمن قنع منه بمعرفة ذلك فهو الذي مسح بها سبلته ، فلله في ملكوت السموات والآفاق والأنفس والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فان من أحب عالما فانه لا يزال مشغوفا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى فان العالم كله من تصنيفه بل تصنيف المصنفين من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده ، فان تعجب

من تصنيف فلا تعجب من المصنف بل من الذى سخر المصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسديده وتمرينه انتهى .

فبهذا عرفت معنى الشكر المذكور فى قول سليمان عليه السلام وأن ملخصه معرفة جميع العلوم والفرح بالنعم وإظهار الخير للناس قاطبة وانطلاق اللسان بالشكر والجوارح بالأعمال الصالحة ، وأمر الله النبى صلى الله عليه وسلم بالحمد على أن الله سيرينا آياته إشارة إلى أن هذه العلوم ستذاع فى الأمة الاسلامية وهو إخبار بما سيقع لامحالة من سعادة هذه الأمة ورقيها حتى أمر نبيه أن يحمد الله على معرفتنا ومعرفتنا لابد أن تشمل كل العلوم ونظام المدن المذكور فى هذه السورة ومعرفة العوالم الروحية من ملك وجن باتساع علم تحضير الأرواح وفهم العوالم كلها وانتظام ممالكنا كما نظم ملك سليمان ، وإلا فلماذا قال له بعد تلك القصص «قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى» ؟ ذلك إشارة إلى أننا سننسج على منوالهم ونحفظ مدنناونرقى علومنا ونشكر ربنا حتى حمد الله نبينا على معرفتنا والمعرفة يتبعها العمل ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ جوهرة فى مقال عام فى قوله تعالى «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» الخ ﴾

هذا المقال قد وعدت به فيما تقدم ، ووعدت أيضا بأن أكتب هنا فى تفسير هذه الآية (رسالة مرآة الفلسفة) ولكن وجدت المقام لايسع هاتين الرسالتين فأجمل الرسالة الأولى فى سورة فاطر عند قوله تعالى «مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها» وأجمل (مرآة الفلسفة) فى سورة القتال عند قوله تعالى «فاعلم أنه لا إله إلا الله» الخ والعلم بذلك للأنبياء ، وهى ولكنه لنا كسبى ، ومرآة الفلسفة فيها ملخص آراء الأمم قديما وحديثا وبها يفهم المفكرون قوله تعالى «كل شىء هالك إلا وجهه» وقوله تعالى «وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها» وملخص الرسالة أن الوجود الحقيقى الكامل هو الله وماسواه هالك ، وهذا الذى سميناه هالكا له نوع من الوجود بحيث يكون كله آيات دالة على جمال الله تعالى وهذه الآيات تتجدد وقتا فوقتا ، ولا جرم أن (رسالة مرآة الفلسفة) فيها ملخص أصول الحكمة العامة فى هذه الدنيا بحيث يطلع الأذكياء قراء هذا التفسير على ما استبان من نظام هذه العوالم بطريق العقل .

(١) فمن نظريات جعلت مقدمة الرسالة بحيث تبين أن النفوس الانسانية ليست من عوالم الأرض بأدلة عقلية وأنها باقية بالبراهين الحسية التى توافق عقول جميع الأمم فهى أشبه بمقدمات علم الهندسة التى تقبلها جميع العقول وتكون لها نتائج فيها اليقين الذى لاشك فيه ، وهذه الأدلة والحمد لله لم تكن إلا فى هذه الرسالة ليعلم المسلمون قوله تعالى «وقل الحمد لله سيريكم آياته» الخ ، فهذه البراهين من آيات الله المتجددة فى زماننا فليفرح بذلك عقلاء الأمم مقدما .

(٢) ومن آراء لأقدم الفلاسفة وكيف كانوا فى بحثهم متدرجين من ماديين ودهريين وسوفسطائيين وعلماء إلهيين من طاليس ومن بعده إلى فيثاغورس الذى يقول (أصل العالم العدد) إلى أنبذوقلس الذى يقول (أصل العالم المحبة والعداوة) إلى إنكساغورس الذى يقول (للعالم إله ولكنه تركه كما يترك الانسان الساعة تجرى وحدها) إلى سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس الذين يقولون بإله صانع للعالم منظم له مصلح لصغيره وكبيره إلى من بعد هؤلاء من المشائين والرواقيين وعلماء الاسكندرية ثم انتقال العلم من الاسكندرية إلى أمم الاسلام أيام الفارابى ومن بعده ثم انتقال العلم إلى أمم أوروبا ، وكيف ترى هناك أن علماء أوروبا الحاليين يقولون بأوفى حجة وأجلى بيان إنهم معرفة الله والنفس ومبدأ العالم لم يصلوا إلى عشر معشار سقراط وأفلاطون ونحوهما وإن المذاهب المنتشرة اليوم فى أوروبا لم تخرج عن كونها تكرارا لمذاهب اليونانيين ، فمن زعم أن العالم مادى ولا إله له فذلك هو عين مذهب طاليس قبل الميلاد بأكثر من خمسة قرون ، ومن زعم

أن

أن الحقائق لا تعرف وهو شاك فهو أشبه بالسوفسطائية بأقسامهم الثلاثة التي ستراها وهم (العندية والعنادية واللاأدرية) وإذا رأيت قوما من أوروبا نبغوا في ذلك وأدركوا بعض سر التكوين مثل الفيلسوف (كنت) الألماني الذي تتبعه اليوم الأمم الألمانية ، وتتبعهم في قراءة كتبه أمة إيطاليا فاعلم أن هذا للذهب عينه هو مذهب سقراط وأفلاطون الذي ستقرأ فيه الحكمة البديعة بحيث إنك حين تطلع على ما نقلته عنهما بنصه وفصه مما لم تنقله أسلافنا بنصه تدهش إذ ترى أن القرآن حقا وصدقا نفس آراء هؤلاء الفلاسفة الذين خلقهم الله قبل أن ينزل القرآن ، أما أنا فاني اعتراني الدهش وازداد تعجبي من صنع الحكيم العليم الذي أنزل حكمة على قلوب عباده قبل نزول القرآن بنحو (٩) قرون وجعلها أشبه بتفسير القرآن المنزل على عبد من عباده في جزيرة قاحلة ، وستقرأ في الرسالة المذكورة كيف جاء حب الله على لسان الفلسفة وكيف يكون ازدراء هذا الوجود المتغير الناقص وكيف يجب علينا في هذا الوجود أن ننظم دوله فلا نذر الدنيا الناقصة ولكن ننظمها ونتجه أثناء تنظيمها إلى مبدعها . كل ذلك ستراه في (مرآة الفلسفة) وستعجب أنت كما عجبت أنا من تفاني هؤلاء الفلاسفة في حب الله والإخلاص له وهذا هو لب القرآن . أو ليس هذا هو معنى قوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » وقوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم . . فتعرفونها » ومتى قرأت هذه الرسالة أيها الذكي ستقول كما قلت سواء بسواء ، لقد رأينا آياتك يا ألله في هذه العوالم كما رأيناها ظهرت على قلوب الحكماء من الأمم إذ تجلت قبل نزول القرآن وخبئت في الكتب وظهرت اليوم فوجدناها مفسرة القرآن مجلية للحقيقة موضحة لحقيقة العقل والنفس بل فوق ذلك ترى ما كان من الخلاف بين أفلاطون وأرسطاطاليس من قول الثاني للأول (إن تعاليمك الفلسفية لم يظهر فيها المناسبة والارتباط بين عالم المثال الذي تخيلته وبين هذه العوالم المشاهدة إذ أنك اعتبرت أن العلم لا يبنى إلا على أمر ثابت ولا ثبات لعالم المادة من سموات وأرضين والثابت في نظرك هو عالم المثال ، وقد قلت إن ما يظهر للناس في الأرض والسماء إنما هو على مقتضى عالم المثال وهو على صورته أو نسخة من نسخه) فهذان العالمان المادي والمعنوي لم نعرف المناسبة بينهما .

ثم قال (أرسطاطاليس) بعد ذلك (أنا أرى أن العلم لا يحتاج إلا إلى المادة والصورة والمادة لا توجد إلا بهذه الصور التي نراها في الأرض والسماء الخ) .

وقد جاء المشاءون بعد (أرسطاطاليس) أيضا وفندوا رأيه واعترضوا عليه وقالوا له (إننا لم نعرف المناسبة بين المادة والصورة وبين الله الذي صنع العالم وأنت برهنت على وجوده ، وأنت لم تبين المناسبة بينهما كما لم يبين أستاذك المناسبة بين عالم المثال وعالم المادة) .

هنالك أخذت الأمم بعدهم تقرأ هذه الآراء وتبين اتحادها تارة واختلافها تارة أخرى ، فهذه المجادلات التي ستراها في الرسالة المذكورة ولخصتها هنا لا يكون لها أثر بعد المقدمات والحجج التي ستراها بمقتضى ماظهر للناس اليوم في العالم من العلوم في (رسالة مرآة الفلسفة) إذ ترى أن البراهين اليقينية التي ذكرتها في أولها لا يرد عليها ما ورد على أفلاطون وأرسطاطاليس ، وستقرأ هناك أن خلق العالم يتضح بما يراه الإنسان في نفسه من العوالم العقلية ، وسترى شرح ذلك وتعلم أن هذا هو قوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » فهذا هو العلم بانفراد الله بالألوهية لأنه أتى بملخص عقول الأمم قديما وحديثا وهذا يفهمنا قوله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وقوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » فهذه الرسالة ظهر فيها كيف كان علم النفس هو المفتاح الذي به فتح ما أغلق على الناس أيام سقراط وأفلاطون ومن بعدهما وبه زال الاشكال الذي ورد على طريقتيهما في تبيان أصل العالم وصلة العالم المادي بالعالم العقلي وصلتهما بخالقهما ، فهذا الاشكال كله ستراه قد حل في هذه الرسالة . ومن أعجب العجب أنها لم تظهر للناس إلا

فى تفسير القرآن عند آية « فاعلم أنه لا إله إلا الله » وقد انطبقت على هاتين الآيتين اللتين ختمت بهما هاتان السورتان الدالتان على أن المادة باطلة ، وأن العوالم المشاهدة آيات الله ، والله سيريها لنا ، وها نحن أولاء قد رأيناها فى كلام العلماء والحكماء وفى العوالم المشاهدة ، ومن أهم الآيات التى أراها الله لنا إبقاء لعهده تقسيم العلوم ، وهذه سنختم بها [رسالة مرآة الفلسفة] بحيث يطلع الأذكياء من المسلمين على آثار عقول الأمم البائدة وماتركته لنا من العلوم الرياضية والطبيعيةوالإلهية وتهذيب الأفراد وتدبير المنزلوتدبير المدينة والأخير هو علم السياسة وهناك تقسم هذه العلوم إلى (١٧) علما ولهذه العلوم فروع تبلغ أصولها مع تلك الفروع نحو (٦٠) علما وصناعة ، وهناك ترى أن الصناعات كالطب وكالزراعة وأمثالها وهكذا التجارة والحدادة ما هى إلا فروع لتلك العلوم . هذه هى الآيات التى وعد الله أن يريها لنا ، وهى آيات العلوم الحكمية المنقولة عن الأمم الخالية الموافقة للقرآن حقا وصدقا ، وآيات هى أقسام العلوم وما يناسبها من الصناعات التى لابد منها للأمم . هذه هى [رسالة مرآة الفلسفة] التى وعدت بها فيما تقدم والتى ستطلع عليها أيها الذكى فى (سورة القتال) عند قوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » وقد تضمنت إيضاح الآية فى آخر هذه السورة ونظيرها آية « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » والآيةالتى فى آخر سورة القصص ، وهى « كل شىء هالك إلا وجهه » .

أما المقال العلمى الذى وعدت أن أكتبه هنا فيما تقدم وسأذكره فى سورة فاطر عند قوله تعالى « مايفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » لأن الحال اقتضت ذلك فهاك ملخصه إيفاء بما وعدت ومقدمة لذكرها هناك فهى :

(١) أولا أن إشراق العوالم التى تحيط بنا على قسمين : إشراق ظاهر وإشراق باطن ، فالأول ما تدركه الحواس ، والثانى ما تدركه العقول ، وهذا الأخير مراتب وراء مراتب ، ولن نصل لمرتبة إلا بعد وصولنا إلى مرتبة قبلها ، والحد فى الآية تابع لاستكناه الحقائق وظهور المعلومات فلا تكون المعرفة اللاحقة إلا بعد السابقة .

(٢) المسلمون فى القرون المتأخرة نظروا العوالم الظاهرة فلم يزيدوا فى معرفتها عن العامة مع أنهم يقرءون فى القرآن قصة سليمان إذ سخرت له الريح وهذه القصة تدلهم أن هناك منافع غير التى عرفها العامة فى هذه المخلوقات المحيطة بنا .

(٣) مثل إن الهواء مركب من نيتروجين وأوزوت واكسوجين ومن مواد أخرى وهذه المادة وهى النيتروجين أو الاوزوت وجدت مركبة مع مواد أخرى فى جزيرة (شيلى) فجعلها الناس سمادا لأن النيتروجين من مركبات السماد المعروف من الدواب فى القرى وبلاد الفلاحين فى مزابلهم .

(٤) وقد استخدم العالم الألمانى (فرتزهابر) الكهرباء فى استخراج النيتروجين من الهواء بدل الاتكال على ما يستخرجه الناس من (جزيرة شيلى) وعلى ما يأخذونه من سماد الحيوان وصنع فى الهواء بالكهرباء ما يصنعه الناس فى الماء من تبريده وجعله ثلجا ، فالناس جميعا يجدون طريقة لجعل الماء السائل جسما صلبا وهو الثلج هكذا العالم (فرتزهابر) جعل النيتروجين بالكهرباء جسما صلبا بعد أن كان جسما غازيا كالبخار فى الهواء فالبخار يكون سائلا ثم صلبا وهكذا الغاز الذى هوجزء من الهواء يرجع سائلا فصلبا ويكون سمادا وهو المطلوب وذلك بواسطة (الفرن الكهربائى) الآتى شرحه فى سورة فاطر فى المقالة العامة هناك .

(٥) كان عند الألمان مصانع كبيرة زمن الحرب يستخرج بها النيتروجين من الهواء فيه تكون المواد المهلكة ثم حول هذا كله بعد الحرب إلى سماد .

(٦) المسلمون يأكلون الملح ولا يعلم أكثرهم أن علماء أوروبا استخرجوا بالكهرباء من محلوله فى ماء

البحار مواد مثل الكلور والصودا الكاوية والهيدروجين ، والكلور المذكور المستخرج من الملح ينفع في تطهير ماء الشرب من الجراثيم فيمنع انتشار الحمى التيفودية وينفع في جعل الورق أبيض ، وينفع في إحداث التخدير للمريض عند العملية الجراحية ، ويكون سما للأعداء في الحرب إذ يرسل في الهواء ، ويكون في المفرقعات القاتلات للأعداء ، ويكون قاتلا للحشرات ، إذن ملح الطعام يأكله المسلم ولا يعلم أنه أصبح مطهرا لشرابنا قاتلا للحيوانات الذرية التي تفتك بالناس في الوباء مبيضا لورقنا مزيلا لآلام جرحانا مهلكا لأعدائنا . .

(٧) إن المسلمين الذين جهلوا هذه العلوم التي عرفتها الأمم في الأرض يعاقبون في الدنيا والآخرة لأنها فروض كفايات ، فإذا أمر الله بقطع يد السارق لأجل ربع دينار أفليس معناه أنه يحافظ على المال النافع لنا ، وإذا أمر بقتل القاتل فمعناه أنه يحافظ على نفوسنا ، إذن هذه العلوم تحفظ أنفسنا وتحفظ أموالنا فكيف يسوغ للمسلمين تركها ؟

(٨) وهناك فوائد كثيرة للكلور وغيره من عناصر الملح وصلت إلى (١٢) فائدة كلها نافعة في الحياة فكيف يجهلها المسلمون وهي فرض كفاية ؟

(٩) وهناك معدن يسمى (الالومنيوم) وله فوائد عظيمة ستذكر لامحل لإطالة الكلام عليها هنا مثل أنه إذا خلط مع القصدير استعمل بدل النحاس ، ومثله أنه يجعل صفائح التفضيض ، ومثل أنه يركب مع النحاس فيكون شبيها بالذهب ، فكيف يترك معرفة هذا المسلمون وهو من فروض الكفايات ؟

(١٠) إني أنذر الأمم الاسلامية بأنهم إذا أهملوا العمل بما في كتابي هذا فان هذا القرن يكون آخر قرونهم في الأرض .

(١١) أفلا ينظرون كيف اخترع (المستر بالى) زجاجا سماه (زجاج بالاس) وهو زجاج لا ينكسر ومنه تدخل الأشعة فوق البنفسجية من الشمس لتنفعنا في الصحة ، بخلاف زجاجنا المعروف وهو مصنوع من مواد أرخص من المواد التي صنع منها زجاجنا ، وسيصنع من هذا الزجاج ألواح بهيئة قشر السلحفاة وأقلام لن تنكسر وهكذا .

(١٢) فيا أيها المسلمون ، عليكم أن تجدوا في الأعمال حتى تلحقوا الأمم ثم تكون هناك أجيال بعدنا إسلامية متحدة مع الأمم في رقي أهل الأرض .

انتهى الكلام على ملخص المقال العام الذي سيكتب في سورة فاطر كما لخصت قبل ذلك [مرآة الفلسفة التي ستكتب في سورة القتال عند قوله تعالى « فاعلم أنه لا إله إلا الله » ا هـ .

﴿ جوهرة في بعض سر الطاء والسين في قوله تعالى « قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى » ﴾

هنا السين في « وسلام » والصاد والطاء في « اصطفى » والحرفان الأخيران من واد واحد لأنهما من حروف الإطباق ، وهي الصاد والضاد والطاء والظاء ، فسلام مبتدأ بالسين واصطفى مبتدأ بحرفين من واد واحد وهما الصاد والطاء المذكورة في « طس » في أول السورة ولاعبرة بالهمزة لأنها زائدة للتوصل للنطق بالساكن وهذا تذكرة بالسلام للمصطفين وفتح باب لفهم ماسأسمعه لك .

إن الإنسان على الأرض دائما في اضطراب مادام جاهلا بنظام هذا العالم وما مبدؤه وماميدعه وما نهايته ونهاية الأرواح ، وأكثره يشك في مستقبل هذه النفوس الانسانية ويسمع بالزلازل وبالوباء وبالحروب وبفتك الحيوانات الذرية في الانسان .

ويرى هذا العالم كله اختلاطا واختباطا ولانظام فيه ولا أمان ، غاية الأمر أن المؤمنون بالديانات يسلون

تبطيا ولا يشكرون ، والمفكرون منهم يقعون فى هذه المآزق فإذا فكروا فى هذا نشأت لهم وساوس وأحسوا بالألم النفسى وزايلهم السلام والأمان فنفوسهم فى وحشة وإن ظهروا مستأنسين ، وقلوبهم فى غم وإن كانوا فى ظاهر أمرهم فرحين ، وهؤلاء متى عرفوا الحقائق واطمأنت نفوسهم إليها وركنوا لها أحسوا بالسلامة والأمان وأيقنوا بأن من يسوسهم فى الدارين رحمن رحيم لا يجرى عليهم إلا ما هو خير لهم عاجلا أو آجلا ويرون الموت والمرض والفقر وأشباهها أعراضا زائلة كما يعترى الأرض قحول وقحط فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت ؛ فهؤلاء هم المصطفون الأخيار الذين تسلم نفوسهم من تلك المهالك فى هذه الحياة وغيرها ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم « لا يحزنهم الفزع الأكبر » الخ ، وقال فيهم « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم » الخ وقال فيهم « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » والقرآن يفسر بعضه بعضا ، فهذه الجملة جاءت فيها السين والطاء المصاحبة لصاد والسين والطاء ذكرنا فى أول السورة لتوقظنا للآيات الأخرى . ولما ذكر السلام والاصطفاء أعقبه بالدروس التى يدرسها أولئك المصطفون فذكر السموات والأرض والمطر والحدائق والأشجار والأنهار والجبال والبحار والبرازخ بينها وإجابة دعاء المضطر والهداية فى البر والبحر وإرسال الرياح ؛ فهذه الطائفة التى أنضجت عقولها بهذه العلوم والحكم تكون مصطفاة وأنفسها تعيش فى سلام وتموت فى سلام كما قال تعالى فى عيسى عليه السلام « وسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » وهذا السلام هو الذى يقوله المسلم فى التشهد فيسلم على نبيه وعلى نفسه وعلى الصالحين من الأمم ، ومثل هذه النفوس المصطفيات هى التى إذا صلت وقرأت « اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم » لا تفهم معنى الغضب كالذى تفهمه فى غضب الناس لأن غضب الناس انفعال ورحمتهم انفعال ولكن غضب الله ورحمته لا انفعال فيهما ، بل الله منزه عن ذلك وإنما هذه شئون النظام والتدبير والإحكام فى الخلق ، حيث رحمة فى حال وغضبا فى حال بحسب مراتب الموجودات لا غير ويفهمون ذلك من تسبيحهم فى حال الركوع والسجود ، فالمسلم يقول (سبحان ربى العظيم) ويقول (سبحان ربى الأعلى) ويفهم من ذلك المصطفون أنه منزه عن الغضب الانفعالى وعن الرحمة الانفعالية عند قراءتهما الفاتحة ففيها ذكر الرحمة وفيها ذكر الغضب وفيها تقديم الرحمة على الغضب للاشارة إلى قوله تعالى « ورحمتى وسعت كل شىء » وإلى ماورد فى الحديث « إن الرحمة سبقت الغضب » لأن هذا نقص فى العباد والله كامل محكم التدبير منظم الشؤون ، وهذه الطائفة حين تعرف هذا توقن بأن نفس الصلاة فيها رموز وعلوم وحكم ، وكلما ارتقى الانسان فيها زاد علما كما قال تعالى « وقل رب زدنى علما » .

فالمسلم وهو يقرأ الفاتحة يفهم معنى الرحمة والغضب إجمالا ، فاذا ركع وسجد فهم أن الله منزه عن صفات العباد بالتسبيح .

ومن أعجب العجب أن يقول فى هذه الآية « وقل الحمد لله وسلام » الخ ثم يقول فى آخر السورة « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » فهنا أمره بالحمد وجعله مصحوبا بالسلام ، وأردفه بالدروس التى يتلقاها المصطفون ، وفى آخر السورة أمره بالحمد وأتبعه بنفس الدروس إجمالا وهى أنه سيريهم آياته وأنهم يعرفونها . ولا جرم أن الدروس التى جاءت فى هذه الآيات هنا بعض الدروس المجملة فى آخر السورة .

الله أكبر . تبين هنا أن السلام بعد الحمد ولا حمد إلا على نعمة والنعمة مذكورة فى هذه الآيات هنا مفصلة وفى آخر السورة مجملة ، وهذا قوله تعالى فى سورة أخرى « دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » واعلم أن الحمد مصحوب بالسلام المتبوع بالآلاء والنعم فيما نحن

بصدده ، وبعده الحمد الذى فى آخر السورة وقد بيناها الآن كأنهما تطبيق أو نتيجة لما جاء فى قصة سليمان فى أول السورة ، إذ حمد الله هو وداود على نعمة العلم وأن الله فضلهما على كثير من عباده المؤمنين ، فهما حمدا الله على نعمة العلم ، وههنا أمر النبى ﷺ أن يحمد الله مرتين وذكر بعد الحمد المعلومات ، فاعجب لأسرار القرآن ، فتبين أن السلام يذكر مع الحمد والحمد لا يكون إلا على علم بالمحمود عليه حتى يذعن القلب ويفرح بالمنعم . إذن فليعلم المسلمون أن ديننا دين حمد ولا معنى للحمد إلا على نعمة ولا تعرف النعمة إلا بالتعليم ، فليتعلم المسلمون كل علم وليزيدوا على الأمم وإلا فليرحلوا من هذه الأرض لأنهم لا أمان لهم فى الدنيا لأنهم بجهلهم نواميس الوجود لا يقدرون على مقاومة الأمم ، وهكذا يكون عقلاؤهم مضطربى الآراء فى الوجود وفى الأنفس الإنسانية ونهاية هذه الدنيا . هذا ما فتح الله به يوم الجمعة ٣١ مايو سنة ١٩٢٩ .

﴿ المستنبطات التى وجدت بين سنة ١٧٠٠ وسنة ١٨٠٠ ترجع إلى الأدوات والآلات الميكانيكية ﴾

(فأما مستنبطات العصر الحاضر فأكثرها كهربائى أو كيمائى أو كيمائى معدنى)

كتب كاتب أمريكى فى مقتطف اكتوبر سنة ١٩٢٨ يقول مانصه :

(١) فى الولايات المتحدة خمسة ملايين آلة لاسلكية مستقبلة .

(٢) ألفت فيها شركات لنقل الصور الفوتوغرافية بالتلغراف السلكى واللاسلكى .

(٣) وقرب الوقت الذى تتقن فيه إذاعة الصور المتحركة كما تذاع الخطب والأغانى والقصص وتستقبل .

(٤) وقرب الوقت الذى يمكن فيه توزيع القوى الكهربائية فتلتقطها البواخر فى عرض اليم والطيارات محلقة فى الفضاء .

(٥) والأشعة التى فوق البنفسجية قد كمن فى أمواجها فوائد صحية جزيلة ، وقد ألفت شركات لتوزعها بعد إتقان آلاتها فتضاء بها المصابيح فى الدور والمكاتب والمعامل والمدارس فتعطى الناس قوى حيوية جديدة .

(٦) وسيسمد الناس زرعهم من الأسمدة المستكنة فى الهواء بسبب الكيمياء .

(٧) وسيصنعون جوارب حريرية وأدهانا مختلفة من الأشجار .

(٨) والمادة التى تصبغ بها السيارات تصنع منها الجوارب الحريرية والفرقعات والجلد الصناعى وهكذا

(٩) ثبت أن (معدن الكروم) إذا أضيف إلى الصلب صار الصلب قاسيا جدا لا يصدأ فاستعماله يوفر على الناس ملايين يخسرونها بسبب الصدأ .

(١٠) والنفط يستخرج الآن من الفحم الحجرى ومن القار بأسلوب كياوى ، وذلك فى ألمانيا بأسلوب (برجيوس) .

(١١) وقطران الفحم الحجرى يستخرج منه الآن أصباغ عجيبة تفوق التصور ، فهذه ملابس السيدات الزاهية الألوان تصبغ بأصباغ تستقطر من الفحم الحجرى ، وفى المستقبل عجائب أكثر من هذه الألوان .

(١٢) « مستقبل الطيران » ـ إن الطيران سيوصل الناس إلى أخصب بقاع الدنيا وإلى حراج غبياء لا يجهم الناس لها وزنا وستزيدهم ثروات طائلة بسبب الطيران .

(١٣) النور الآن متحد مع الحرارة فنحو ٩٦ فى المائة من القوة يذهب فى الحرارة و ٤ فى المائة يعطى ضوءا وسيتمكن الناس من قلب الوضع فتكون ٩٦ الضوء و٤ الحرارة، وإذن تنار المنازل بجزء من عشرين جزءا مما نستعمله الآن من الكهرباء، ويتم ذلك بعد مائة سنة ، وفى ذلك الوقت تتولد الكهربائية من ضوء الشمس رأسا ، لامن الفحم الحجرى ولا من الماء المنحدر أو من قوة المد والجزر أو من حرارة باطن الأرض .

(١٤) فى كثير من البلاد ينابيع حارة ، ففى هـذه الأماكن ستصير هناك مدن عظيمة لأن حرارة باطن الأرض تستخدم حينئذ لتوليد الكهرباء، والكهرباء هى سر الصناعة الحديثة .

(١٥) وفوق هذا وذاك قوة الشمس ولا يعوزها إلا آلة تمتص الحرارة ولا تشعها ولم يوفق الناس إلى الآن لاختراع آلة تمتص الحرارة ولا تشعها، ومتى وفق الناس لهـا أصبحت هذه مصدرا هائلا للقوة الهائلة الرخيصة الثمن .

(١٦) إن المستنبطين إلى الآن لم يعكفوا على استخدام المد والجزر فى توليد القوى بجدّ وعزيمة .

(١٧) قد استحدث الناس آلة لاستحداث أصناف جديدة من النبات والخضراوات والأثمار والأزهار والأستاذ (بربنك) أكبر مستنبط فى هذا الميدان كما أن (اديسن) أكبر مستنبط فى الكهربائية .

(١٨) استنبط (بربنك) مئات من الأنواع الجديدة من الأثمار والأزهار وأدخل فيها صفات لم تعرف من قبل مثل البرقوق (خوخ) لا قشرة قاسية لنواته ، ومثل التين الشوكى الذى لا شوك فى أغصانه ، وعنده أن الاستنباط هنا يفوق ما استنبطه (اديسن) و (ماركونى) و (بل) و (فورد) وغيرهم .

(١٩) وسيبتدع الناس وسائل تغير الجو فتجعله صالحا لأحوال زرعهم بإدارة زر كهربائى ولا مانع يمنع علماء الزراعة من أن تكون أثمار الفراولة حجمها كحجم البطاطس وحجم الكرز والبرقوق (الخوخ) والتفاح كحجم رؤوس الكرنب .

(٢٠) وعند المهندسين الآن آلة لاسلكية تبعث فى الفضاء أمواجا صوتية خاصة فتفجر مقدارا من الديناميت على بعد (٢٠) ميلا أو (٣٠) بشرط أن يكون فى الديناميت آلة تقبل هذه الأصوات ، وأمثال هـذا الجهاز يستعمل فى البحث عن المعادن بحيث تكون الأرض التى لا معادن فيها لا تعوق الأصوات المذكورة فتصل فى الوقت المعين لهـا وإن أبطأت دل ذلك على رواسب المعادن التى أخرجت هذه الأصوات .

(٢١) وسيفوز الانسان بالطعام المركب تركيبا كيماويا . قال وفى السنة الماضية أدب أحد أصدقائى مأدبة لجمهور من معارفه وجميع طعامها مرتبة فى العمل الكيماوى مثل (الأوردوفر) و (اللبن والقشدة) و (اللحوم) و (الخضراوات المختلفة) و (الشوربة) وهكذا الأثمار والمثلوجات وأصناف الحلوى ولم يكن للفلاح ولا للبستانى أثر فى هذه المأدبة .

(٢٢) إن فى الجوهر الفرد قوة هائلة مدخرة . ويقال إن الهيدروجين فى الماء الذى يملأ ملعقة شاى واحدة يولد مائة ألف كيلو من الكهربائية وتساوى قوتها ١٣٣ ألف حصان، فإذا أطلقت هذه القوة

واستخدمت

واستخدمت . استغنى الناس عن الفحم استغناء تاما ، وحينئذ تقطر القوة اللازمة لادارة معمل كبير كما تقطر القطرة فى العين .

(٢٣) إن الغدد فى الأجسام لها علاقة بالحياة وبالصحة وبالعواطف والصفات الأدبية كالشجاعة والمضاء ولابد أن يصلوا إلى إطالة الحياة وربما يكون الرجل فى نشاطه الجسدى وعقله الذكى حينما يبلغ المائة من العمر انتهى ما أردته من مجلة المقتطف ، وبه تم تفسير سورة النمل ، والحمد لله رب العالمين .

﴿تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الثالث عشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ويليه الجزء الرابع عشر . وأوله تفسير سورة القصص﴾

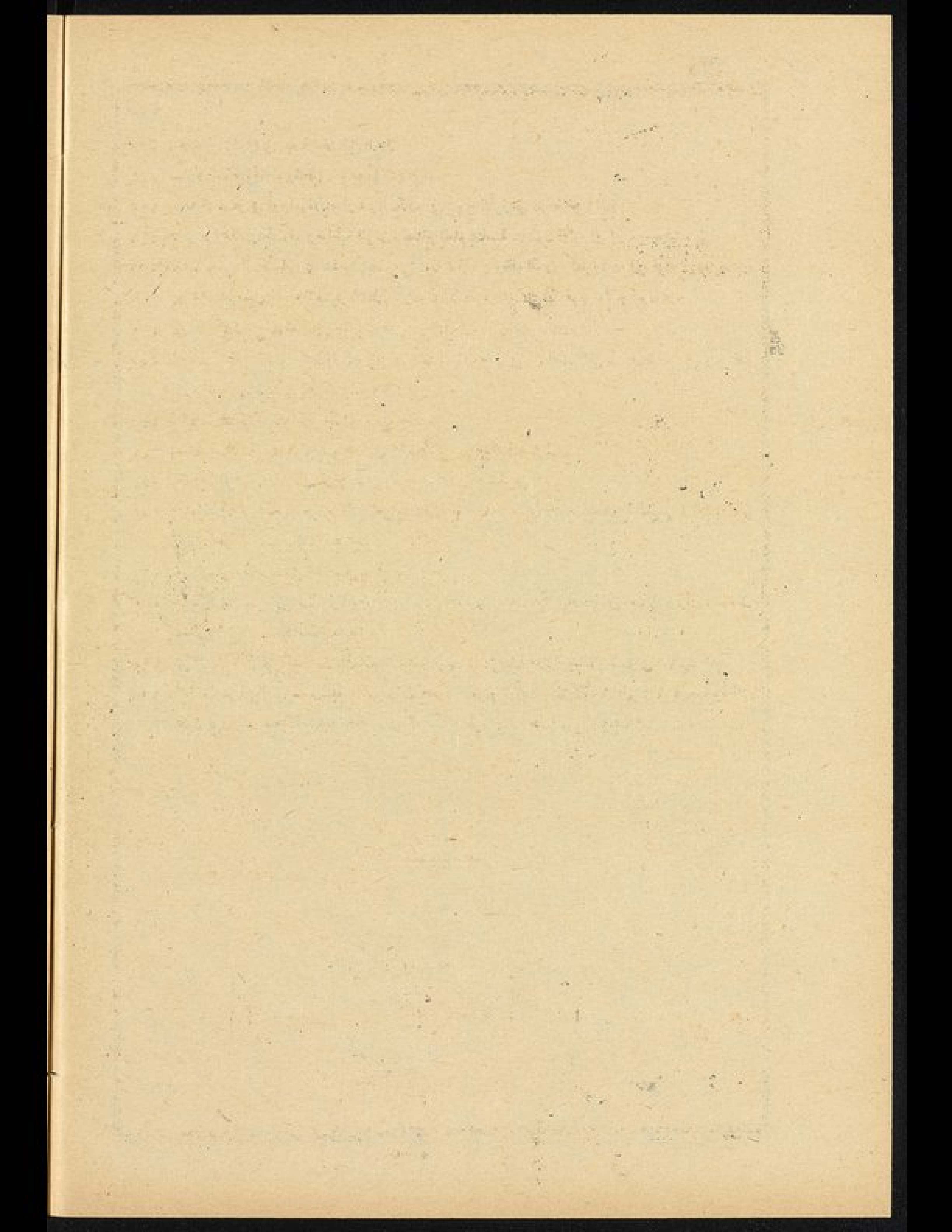
فهرس

الجزء الثالث عشر

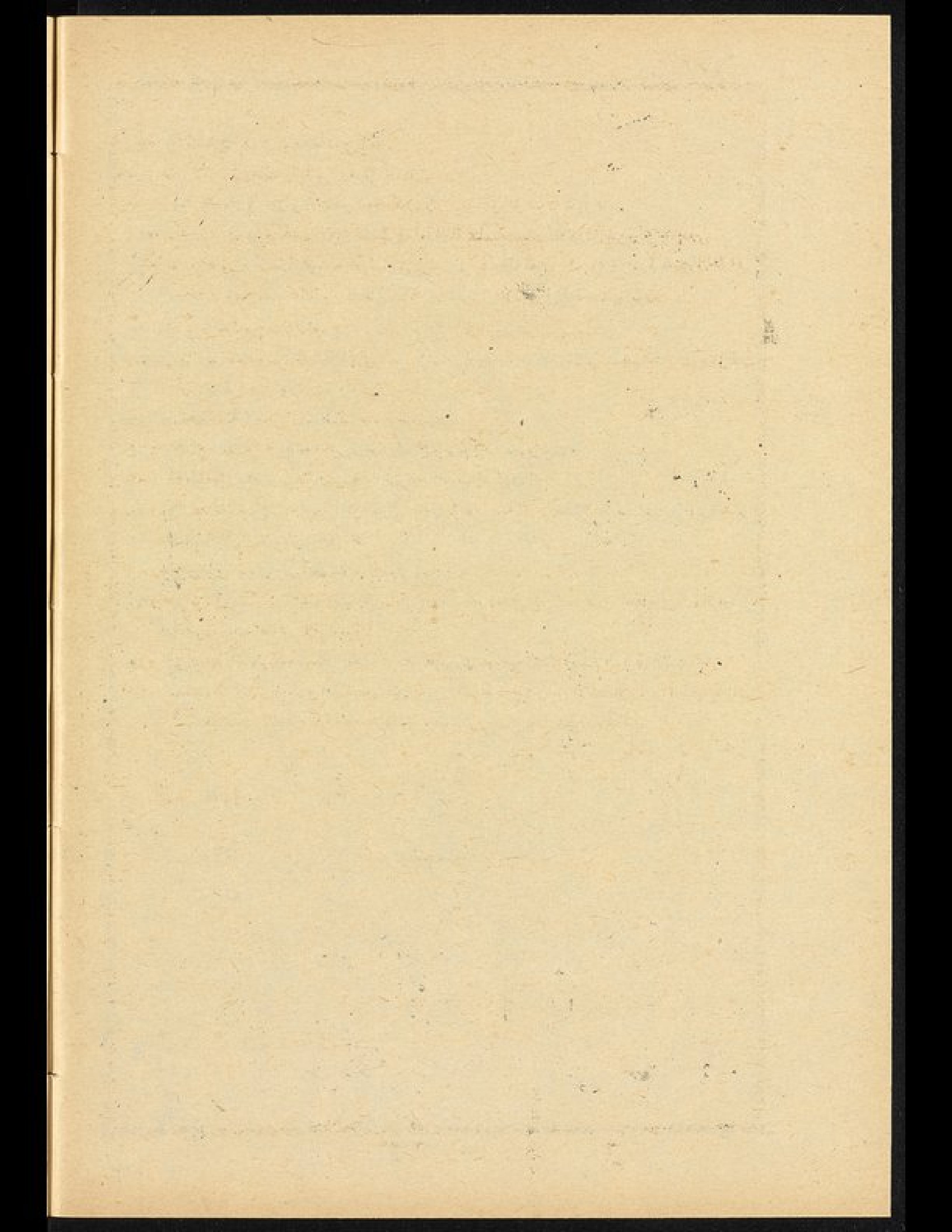
من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة



صحيفة



الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الرابع عشر

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ — رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

بمباشرة محمد أمين عمران

وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ

(قرآن كريم)

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة القصص ، وهى مكية

(إلا من قوله « وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين » إلى قوله « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين » فمدنية ، وآية « وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيرا للكافرين » فبالجحفة أثناء الهجرة ، وآياتها ٨٨ نزلت بعد النمل)

ولأقدم قبل تفسير السورة مقدمات ثلاثا قد كنت كتبتها فى كتابى [النظام والإسلام] وفى كتابى [نظام العالم والأمم] وقد كانت تدرج فى جريدة المؤيد وغيرها قبل وضعها فى الكتاب ، تلك المقدمات ذات علاقة بالقصص القرآنية المذكورة فى هذه السورة وغيرها .

المقدمة الأولى : نموذج فى كيفية فهم قصص القرآن

(التربية والآداب فى قصص القرآن)

طال الأسى على أمتنا فأهملت مافى غضون كتابها من أساس التربية والحكمة وكيف تنتق الرجال الأكفاء فى مهام الأعمال ؟ ياليت شعرى ما الذى أصابها حتى غضت النظر عن القصص التى قصها وأهملت أمرها وظن أهلها أنها أمور تاريخية لاتفيد إلا المؤرخين ، القصص فى كل أمة عليها مدار ارتقائها سواء أكانت وضعية أم حقيقية ، على ألسنة الحيوان أو الإنسان أو الجماد ، على هذا تبحث الأمم قديمها وحديثها ، وناهيك بكتاب [كليلة ودمنة] وما والاه من القصص الناسجة على منواله فى الإسلام ، ككتاب [فاكهة الخلفاء ، ومقامات الحريرى] وإن حاد بعضها عن سواء الصراط والجادة وطغى فخلط الجد بالهزل ككتاب [ألف ليلة وليلة] الذى استخلص زبدته الغربيون ، كل يعلم ماصنعت الروايات فى عقول الغربيين من التأثير وأخذهم منها بالأحسن من الكلام والأجمل من الأفعال ، وكيف يسمعون ويعقلون ، جاء القرآن بقصص الأنبياء ، وهى لاجرم أعلى منالا وأشرف مزية ، كيف لا وقد جمعت حسن الأسلوب واختيار المقامات المناسبة لما سيقت اليه والقدوة الحسنة بالكمل المخلصين من الأنبياء ومن والاهم وتحققها فى أنفسها لوقوع مواردها ، وأن حب التشبه طبيعة مرتكزة فى الإنسان

لاسيا لمن يقتدى بهم ، فهذه خمس مزايا اختصت بها هذه القصص ونقصت فى سواها ككتاب كليلة ودمنة منتق كتب الهند وترجمة الفرس والاسلام جاء على ألسنة الحيوانات وقد نقصه تحقق موارده والروايات المنتشرة فى الغرب أكثرها إبهاما لوقوع مواردها اختلط فيها صادق الحكم بكاذب الوقائع اصطفاها القوم لأنفسهم لما تضمنته من النصائح فى بواطنها مع زخرف ظاهرها وقصصها الكاذب . أليس من العيب الفاضح أن تقرأ قصص القرآن فلا نكاد نفهم إلا حكايات ذهبت مع الزمان ومرت كأمس الدابر ، ومالنا ولها إذن ؟ كلا إن هذا لهو البوار ، وما نحن إلا كما حكى فى هذه الأيام عن فلاح بورى فقير بنى منزله الحقير من حمأ مسنون مرصع بقطع من الماس الجيل المقدر بمئات الألوف من الجنيهات ، جهلها الرجل وعرفها سائح أوروبى فكان ذلك من أهم الاكتشاف فى تلك الأقطار . كم من فتى يسمع هذه القصص فيقول فى نفسه تارة وعلى الملأ أخرى : ياليت شعرى كيف توافق التاريخ وهل الاكتشافات التاريخية والمباحث العصرية والعلوم المكتشفة فى الأهرام والبرابى والهيلوغريف تؤيده ويظل يبحث عن ذلك حتى يقف باهتا مندهشا . وقد يعثر على قول فلان الفرنسى والانجليزى بما يؤيد هذه المباحث فيطير بها فرحا ويظن أن هذا مستند الدين ، وفاته أنه إن وافقه كتاب فقد يخالفه كتب إذ لا ثبات للمؤرخين فيما يصفون عن دهر الدهارير . لعمر العلم لم يكن هذا إلا للجهل بالمقصود من قصصها وأنها عبرة لمن اعتبر وتذكرة لمن تفكر وتبصرة لمن ازدجر ، أما الرجوع إلى التاريخ ومقارنته بما قصه المؤرخون فى كتبهم وما سطره الأقدمون على مبانيهم وما يقوله القاصون فى خرافاتهم فذلك سبيل حائد عن الجادة يضل فيه الماهرون ، يرشدك لذلك ماتسمعه من نبأ فتية الكهف وكيف يقول : «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل» .

فانظر كيف أسند العلم لله ولم يعول على قول المؤرخين المختلفين ثم لم يبين الحقيقة لئلا يكون ذريعة للطعن فى التنزيل ، فان قال خمسة قالوا ستة ، وإن قال أربعة قالوا سبعة فكتب المؤرخين كثيرة الاختلاف فى القصص وما المقصود منها وليكون عبرة ، وبالاجمال فليس القصد من هذه القصص إلا منافعها والعبر المبصرة للسامعين «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب» ولسنا ممن يتبجح بالقول بلا بيان فلا نعتمد إلا على البرهان .

تأمل بإصاح هذا القصص تجده لايذكر إلا مايناسب الارشاد والنصح ويعرض عن كثير من الوقائع إذ لالزوم لها ولامعول عليها فلاترى قصة إلا وفيها توحيد وعلم ومكارم أخلاق وحجج عقلية وتبصرة وتذكرة ومحاورات جميلة تلذ العقلاء . ولأقتصر من تلك القصص على ماحكاه عن النبى يوسف الصديق عليه السلام وكيف جاوز فيها كل مالاعلاقة له بالأخلاق من مدنية المصريين وأحوالهم إلى الخلاصة والثمرة الخ اه .

المقدمة الثانية

لأذكرلك نموذجا آخر لذلك ، وهى محادثة جرت بينى وبين فتى فى حديقة الجيزة ، إذ قال إننى اعتقدت أن القرآن أعظم مشرق للعلوم ولكن أناسا يقولون :

(١) إن الدين لاعلاقة له بالكون ، وهؤلاء علماء أوروبا تراهم عزلوا الدين عن العلوم فأفلحوا وهم صادقون فأخبرنى رعاك الله أين أنت من قصة سليمان وماحكاه الله فى القرآن ، ولقد سئلت أسئلة فلم أقدر على الإجابة عليها ، فها أناذا أعرضها الآن .

(٢) كيف سمع سليمان النملة وهى تتكلم «حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون» وتفسير الآية ظاهر بأقل التفات .

(٣) وكيف يقول الرب «وورث سليمان داود وقال ياأيها الناس علمنا منطق الطير وأوتينا من كل شىء»

وكله الهدهد فقال «أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء» الآية .

(٤) وكيف يقول «قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين» وكيف يقول «قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» .

(٥) وما تلك الأبنية العظيمة المسماة بالمحاريب التى كانوا يعملونها له « يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل » الآية .

(٦) وما تلك القصاع الكبيرة المعبر عنها بالجفان ، وما تلك القدور الراسيات العظيمات ؟ .

(٧) وكيف تسيل المعادن من الأرض المرموز لها بقوله «وأسلنا له عين القطر» أى أسلنا له النحاس كالمعين ينبع .

(٨) وما هى دابة الأرض التى أكلت عصاه فى قوله « مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » .

(٩) وكيف سخرت له الريح حتى قال « ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر » شهر أول النهار وشهر آخره .

(١٠) ماهذه المحاورة التى بين بلقيس وقومها واستشارتهم فى الأمور العامة والسياسة عند وصول كتاب سليمان إليها «قالت يأيها الملؤ أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمرا حتى تشهدون ، قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد» وهذا السؤال الأخير ليس فيه إشكال وإنما سألتكم فيه تكميلا للمقام وإنى أعتقد أن هذه لاعلاقة لها بالعلوم لبعد منالها عن الأفهام ، ولاينبغى أن يفهمها إلا العامة ، أما أمثالنا الذين اقتبسوا العلوم واجتلوا الحقائق فالأجدر بهم أن يكفوا عن هذا ، وسكت . فقلت أيها الفتى إن لكل أمة وجهة توليها وتناسب حالها ، والأمم التى ذكرت لم يكن فى دياناتها علوم ، وإنما هى مواعظ ، وقوم دينهم شأنه هذا جديرون بعزله عن العلوم فنحن على هذا نقر لهم بالعلم والحكمة وإنما كان هذا شأنهم لأن عيسى عليه السلام جاء بالروحانيات خالصة وابتعد عما عداها ولم يلتفت قط فى خطابه إلى غير ذلك ، وموسى قبله أخذ بالجسمانيات وأما القرآن فجمع بين الأمرين وتكلم على الجسمانيات والروحانيات وأشار إلى العلوم إجمالا فاذا قلدناهم فى ذلك ساءت العقبى لأن المسلمين أمة عودها دينها أن يتكلم عن جميع شئونها إجمالا حتى إنه يعلمهم المواريث والأحكام ويفصل بينهم بالحق فاذا جاءوا إلى العلوم وعزلوه عنها ارتبكوا فى شئونهم ولم يجتمعوا على رأى واحد فالقرآن جامع بينهم . وأما مسألة نبى الله سليمان عليه السلام فانى أرى أنك تستعظم ذكر النملة وكلامها والهدهد وخطابه والأرضة وأكلها العصا مع نبى الله سليمان ، ويلوح لى أنك لم تعلم ما المراد من ذكر هذه الحيوانات . ولنقدم لك مقدمتين قبل الخوض فى الجواب عن أسئلتك العشر ، فقال نعم هات . فقلت تعلم أيها الفتى أن الأمم أجمعوا على استحسان ذكر الحكم والعلوم والمواعظ على ألسنة الحيوانات والإنسان ، ألم تر إلى كتاب [كليلة ودمنة] نخبة كتب الهند وترجمة الفرس والعرب وهكذا نسجت كتب كثيرة على منواله فى الإسلام وقد علمت هذا المقام فى قصة سيدنا يوسف عليه السلام فلا أطيل بالاعادة .

إن الحيوانات على (قسمين) حكيمة تعمل الأعمال العجيبة كالنمل فى بناء المساكن والادخار والأرضة فى الهندسة والاتقان والنحل وغيرها ؛ فهذه حيوانات صغرت أجسامها وعظمت حكمتها (والقسم الثانى) حيوانات خلقت للعمل كالثور والجاموس فلا قدرة لها على أعمال النمل ولا النحل ولا دود القز فهى حيوانات عاملة لاعاقلة فأعطيت الضعيفة العلم والقوية العمل ، قسمة عادلة . وقد جعل الله الحيوانات الحكيمة معلمة

للانسان

الانسان « فبعث الله غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوأة أخيه قال ياويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأوارى سوأة أخى » .

إذا فهمت هاتين المقدمتين فاعلم أن قصص القرآن جاءت بوجه عام حكاية عن الأنبياء وهم أشرف ما يعلمه الانسان وهذه أول مزية واضحة الظاهر حقيقية ، وهى مرتبة ثانية ودالة على التوحيد والأخلاق ، وهى مرتبة ثالثة خالصة مما لاعلاقة له بذلك وهى مرتبة رابعة ، وهذا نبى الله سليمان عليه السلام لم يذكر معه إلا النمل والهدهد والأرضة وهى دابة الأرض ، فظاهر هذه الألفاظ أمور سهلة بسيطة ، وكلم الهدهد وسمع النمل وأكلت الأرضة عصاه ، فأما الجاهل فى سمع هذه اكتفى بها وقال كفى بهذه معجزة ويقف عند هذا الحد ويظن أن هذا غاية ما فى القرآن وهذا فى الحقيقة لم يصل لدرجة تلميذ فى المدارس فانه يقرأ الحكاية ويقول ما مغزاها وما المقصود منها ، ولما علم أهل أوروبا أن التاريخ جعل للعظة والاعتبار وجهوا اليه عنايتهم وأخذ كل عالم يهذب تاريخ قومه علما منهم أن المدار على ثمراته لامجرد حكاياته . ثم إن علماء الإسلام ما وضعوا علوم البلاغة إلا لخدمة القرآن ، ومن أجل تلك العلوم فن البيان وفيه الاستعارة التمثيلية التى تشمل جميع الروايات والخيالات وما جاء على ألسنة الحيوان والنبات ، ومنه مقامات الحريرى واعترضوا عليه بأن هذا خيال يلتبس بالحقيقة ، ومن هذا القبيل جميع الروايات المنتشرة فى زماننا هذا ، فأما مثل [كليلة ودمنة] الذى جاء على ألسنة الحيوانات فقد قبله جميع علماء الغرب والشرق لظهور أن القصد منه الحكم والمواعظ وهذا هو الاستعارة التمثيلية بالطريقة العملية ، وهناك نوع يسمى الكناية وهى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى فيكون المعنى الأصلى صحيحا واللازم هو المقصود بالذات ، وعلى هذا جاء قصص القرآن فيكون حكايات ظاهرها صحيح ومقصدها ما وراء ذلك المعنى ، فالعامى يقف عند مجرد الحكاية ، فاذا سمع مسألة الهدهد مع سليمان والنمل وحد الله وأخلص له وعبده وأخذ يسبح بكرة وأصيلا ، أما العالم فاذا سمع هذا قال ليس القصد من هذه القصة مجرد الخطاب فان النمل ومسألته والهدهد وخبره والأرضة وأكلها أمور تشير إلى ما هو أدق من ذلك وأرقى ، وكون نبى الله سليمان عليه السلام علم منطق الطير صحيح فى نفسه ولكن الطير ليس عنده من العلم إلا مقادير محددة تناسب مأكله ومشربه . إذن هذه الأمور تستلزم بطريق الكناية معانى أرقى من هذه مرادة ومقصودة ، وإذا كان كل كلام عربى وأعجمى له مغزى فكيف يحرم من هذا كلام الله ولأجله دون فن البلاغة ، إن هذا لهو الخسران المبين ، ومن ادعى أن المقصود حكاية بسيطة فهو أحقر من أن يكون تلميذا بل هو حيوان فالأولى أن يسكت وليعتزل العلماء وليجلس مع العامة فليس له فى العلم من نصيب . فقال الفتى : ما مثال الكناية من كلام العرب ؟ فقلت أنواع المجاز والكنايات عليها مدار تفاضل البلغاء والشعراء والخطباء ، وكل كلام لم يكن فيه تلك الملح تجيده عاطل من حلى البلاغة ، ولأذكر لك مثالا واحدا لتقيس عليه ما سواه :

دخل صخر أخو الخنساء عليها يوما واستشارها فى أن تتزوج دريد بن الصمة أحد مشاهير العرب ، فقالت فى أبياتها :

معاذ الله يرضعنى حبركى قصير الشبر من جشم بن بكر

فالجاهل إذا سمع مثل هذا يقول : أين المناسبة بين السؤال والجواب ؟ فهو يقول لها تزوجى دريدا ، وهى تقول أعوذ بالله أن أرضع طفلا قصيرا شبره قصير ، أما العالم فانه يعرف اللازم والملزوم ويدرك سرا فهمه العربى فى البادية بدون تعلم بل بالفطرة والنحة الإلهية وهو أنها إن تزوجت فلا بد من الاقتراب والاقتراب يتبعه الحمل فالوضع فالرضاع لطفل يشبه أباه غالبا وأبوه قصير فيكون قصيرا ، والأعضاء على حسب الجسم ، ومنها الشبر فيكون قصيرا فاذا لم ترضع الطفل الموصوف بما ذكر لزمها أن لا تتزوج أباه المرتب على زواجه ما جده

فهذه لوازم وملزومات ذكرها علم البيان ومقدمات خطابية يذكرها المنطقيون عرفها هؤلاء الأقوام بفطرهم وإذا كان هذا كلام أعرابية فى البادية وقدتضمن هذهالحكم وذكرت أمرا صحيحا وهو الامتناع من الإرضاع ولكن أرادت ماهو أرقى من ذلك عندالفطن، وهوعدم التزوج بدريد بن الصمة وهوالمقصود بالجواب، وقد عد هذا من أجمل طبقات البلاغة فما بالك ياسيدى بالقرآن الذى هو سيد الكلام فكيف لا يكون فيه كنايات أم كيف لا يكون فيه رموز وحكم وعجائب وغرائب ، ولو نظرت فى كلام العرب بإمعان لرأيت فيه كثيرامن ذلك جدا فما بالك بكلام الله جل جلاله ؟ . الله أكبر كل كلام تظهر بساطته عند الجاهل يعظم أمره عند العالم الماهر الدقيق ، وما مثل الكلام السهل الممتنع إلا كمثل النور يبدو للجاهل فيظنه معروفا عنده لشدة وضوحه ، فإذا نظر العالم فيه وبحث عنه وقف على كنهه ، وها هم العلماء قديما وحديثا يبحثون عن كنهه ولا يزالون مختلفين إلى يوم الدين (العلماء ثلاثة) : عالم لغة وهو يفسر القرآن تفسيرا بسيطا كل لفظة بما يراد منها وهذا فى طبقة العامة لم يعز عنهم والعامة بمثل هذا مولعون، وهو وهم ناجون بصدقهم وتصديقهم وهم مؤمنون ، وعالم البلاغة وهو أرقى من سابقه مولع بفهم المقصود من الكلام فيتصرف فيه بالمجاز تارة والكناية أخرى والاستعارة بأنواعها والتمثيل وضروبه وهذا متوسط فى العلم وفوقه عالم درس جميع العلوم وعرف الكون وأصبحت له ملكة بها يحلل ويركب فى المعلومات وهذا هو العالم حقا وهوالحكيم الذى يأخذ بأمته إلى العلا وهو الذى أشار له الله فى قوله « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء » فتأمل كيف مدح العلماء بعد ذكر حكم الله فى الكون وتنويع أشكاله ومزايا أصنافه وعجائبه وإلى هذه الطبقات الاشارة بقوله « يرفع الله الذين آمنوا منكم » إشارة إلى الطبقة الأولى «والذين أوتوا العلم درجات» إشارة إلى الطبقتين بعدها، وهم درجات بعضها فوق بعض كما قال ابن عباس « بين العالم والجاهل سبعمائة درجة كل درجة كما بين السماء والأرض » إشارة إلى تفاوتهم فى الفهم كما هو مشاهد محسوس فى كل فن من الفنون ، فإذا لم يمكنك أن تكون من الحكماء فاجتهد أن تكون من علماء البلاغة ، وهم أوساط الأمم الذين يناط بهم التحرير والإنشاء، ومن سمع آية من القرآن فان كان من الفريق الأول وهم علماء اللغة والعامة فليس لهم إلا ألفاظ بسيطة ترجع لعلم اللغة فان ترقوا قليلا للبلاغة فيا حبذا ، ولقد أصبحت الأمم جمعاء تنحو هذا النحو فى تعليم صغار تلامذة المدارس وهذه أمور سهلة ليست خارجة عن السنن المعهود ، فمن ظن أن القرآن لا يفهم فالأجمل به أن يصمت ويعتزل العلماء . عجبا أن يكون لكل حكاية فى العالم مغزى يراد منها، ويسلب هذه المكرمة أبلغ الكلام ، أين البلاغة إذن ؟ فقال الفتى كفى هذا وأرجو أن أسمع ما ترمز إليه هذه القصة فأجلته إلى الغد ، رجعنا إلى الحديقة ، فقلت يا بنى إن هذه القصص تشير إلى مدنية كانت عند نبى الله سليمان فان مدار المدنية الآن على :

(١) سرعة نقل الأخبار بالبريد والكهرباء والتلغراف بلا سلك .

(٢) وسرعة النقل وسهولته بالسكك الحديدية والآلات البخارية والمراكب الهوائية (البالون) الذى سيخلف السكك الحديدية الأرضية بواسطة تبخير الغازات التى هى أخف من الهواء .

(٣) وإنشاء المبانى العظيمة .

(٤) وفن النقش والتصوير وصنع التماثيل العظيمة .

(٥) واستخدام المعادن على اختلاف أنواعها .

(٦) والتدبير والإحكام والهندسة .
(٧) والسياسة بالتشاور ، وجعل الأمر بيد الأمة وأن لا يستبد الحاكم بالرأى .
(٨) والاعتماد على النفس .
(٩) والتحلى بالعلوم والمعارف .
(١٠) والاقتداء بالصنعة الإلهية .

فهل المدنية غير ما ذكرت لك الآن ؟ فقال الفتى هذه أمور عامة داخل تحتها فروع كثيرة . قلت الهدهد إشارة إلى أن النبي سليمان عليه السلام أعطى سهولة نقل الأخبار بأى طريقة من طرق النقل ، والهدهد رمز لذلك وقد أعطى حكمة ورثها عن آبائه وأيدها الوحى بها فنقل الأخبار بسرعة ليس خاصا بالهدهد بل به وبغيره ولعل عنده ماهو أرقى مما عندنا على سبيل الكناية . وتسخير الريح له إشارة إلى أن وسائط النقل متوفرة عنده عليه السلام حتى وصل إلى استخدام الريح الذى يبحث عنه الأوروبيون الآن بالطيارات المعروفة ، وإن كان للنبي معجزة لايصل لها البشر ، ولغيره بالعمل وهو أقل وأضعف . ويقال إن النقل فى مستقبل الأمريكون بها لتخلو الأرض للزراعة والمنافع الأخرى ويشارك الإنسان الطير فى الطيران وهذا كان سرا لايعلمه إلا ذلك النبي معجزة له ، ذكره الله فى القرآن ليجدّ الناس فى العلوم لعلهم يصلون إلى بعضه ، أما الوصول إلى غايته فلن يصل أحد إليه ، وأشار إلى المبانى العظيمة بقوله « يعملون له ما يشاء من محاريب » . وأما فن النقش والتصور فى قوله « وتماثيل » وأما استخدام المعادن فهى قوله « وأسلنا له عين القطر » وهو النحاس فقط ، وهو رمز إلى المعادن على اختلاف أنواعها من إطلاق اللفظ وإرادة لازمه أو الجزء وإرادة الكل إذ المدنية الهائلة العظيمة تستلزم الرقى فى استخراج المعادن ، وأما التدبير والإحكام فى الصناعات وإتقانها ، فإليه الإشارة بفهم كلام النملة وسماعها ولذلك يقول « وورث سليمان داود وقال يأيها الناس علمنا منطق الطير » فأطلق وأريد به لازم معناه ، وهى الحكم والمعارف والعلوم والنظامات . التى أودعت فى الطير والحيوان وليس القصد مجرد تلك الحكاية من الطير والدواب الدالات على أشياء لا تخرج عما يليق بحياة ذلك الحيوان : من مأكل ومشرب لاتعنى نبيا من الأنبياء إلا للاعجاز والتحدى ، وإلا فهو أرقى وأوسع علما ، فنبى الله سليمان أوتى الحكمة والعلم ، أشار له بقوله بعد ذلك « وأوتينا من كل شىء » ثم أخذ يسرد حكايات النمل والهدهد ليدلك على الحكمة التى أعطيها حتى لم يذكر فى قصته إلا الحيوانات الحكيمة ولم يذكر الجمل ولا البقر فى قصته ، إذ هو عليه السلام نبىّ وحكيم ورث بعض العلم عن آبائه الذين ألقيت إليهم النبوة والحكمة ، أما سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم فلم يكن علمه ميراثا وإنما جاء كله بطريق الوحى ، فهو أمى لأمة أمية جاء فى جزيرة العرب لهم خاصة ، وللناس عامة ، فأمرهم بالتوحيد والنظر فى الكون والأخذ بأحاسنه . ومما قصه عليهم هذه القصة النبوية وقال تعالى له « فبهداهم اقتده » فأمره بأن يقتدى بهم ، ومنهم نبى الله سليمان وقد أوتى الحكمة والعلم فوجب إذن على أتباعه أن ينظروا فى قصته ويطلبوا العلم الذى يرقى مدنيتهم من الأمم حولهم فإن بعض العلوم التى عند نبى الله سليمان ورثها عن آبائه وتلقاها عنه حكماء اليونان فالرومان ، وقد كان فيثاغورس تلميذا لنبى الله سليمان عليه الصلاة والسلام كما قيل وقد انتشر علمه فى اليونان والهند كما فى كتاب [الملل والنحل] ومنهم إلى الرومان فالعرب فأهل أوروبا فكان أدوارا شتى وطرقا مختلفة ، فقصة سليمان إشارة لمدنية قديمة معلوم عهدها مجهولة آثارها ، إذ سندهم متصل بقدماء المصريين وكان بيت بنى إسرائيل مجتمع الحكمة من الأمم الغابرة ودام ملكهم قرونا متطاولة ، ولذلك لما خرجوا من مصر أمرهم موسى

بذبح البقرة لأن أذهانهم قريبة عهد بالعجل المسمى أبيس وعبادة المصريين له ولهذه الحادثة سميت بها أكبر سورة فى القرآن فقيل سورة البقرة . وكان بنو إسرائيل إذ ذاك غلاظا شدادا لا يفقهون الحكم فأمروا بذبح البقرة التى على هيئة عجل (ابيس) معبود المصريين ولما كثر فيهم الأنبياء وتمادى الزمان رقت أذهانهم وجاء فيهم نبى الله سليمان عليه السلام وأوتى الملك والحكمة « وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير » وذكر حديث النمل وغيره ، فتأمل رعاك الله تجد الأمم المتأخرة الآن تبحث عن هذه الحيوانات وتأملها حتى فى أصغر كتاب للتلامذة ، فميزان الأمة نظرها فى الكون ، فكلما دقت أنظارهم وعرفوا بواطن الأشياء ترقوا فى المدنية والعكس بالعكس ، وهذا هو المقصود بذكر هذه الحيوانات فى قصة ذلك النبى . ومن العجيب أن السورة التى ذكر فيها النمل وسميت باسمه كانت قصيرة بخلاف البقرة . وإنى لا أزال أيها الفتى أتعجب من تخصيص ذكر هذه الحيوانات فى قصة سليمان ولم يقل تخاطب البقرة والخيل، والحكمة ما علمت فقال الفتى كفى فى هذا السؤال . فقلت وأما التشاور فى الأمر فهو ظاهر من محاورة بلقيس لقومها واستشارتهم فى الأمر وآدابها وآدابهم وهذا ظاهر لا يحتاج إلى إيضاح . وأما الاعتماد على النفس فهو ما ذكره من مسألة العفريت من الجن وادعاء الجن أنهم يعلمون الغيب فقال تعالى « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك » فهذا هداية للانسان أنه متى حاز النهاية فى العلوم لم يكن مثله أحد من المخلوقات إذ هو خليفة فى الأرض وهو أقوى من الجن ، فهذه أول داع لذوى العقول أن يتقدموا فى العلوم والمعارف وقال « ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين » فهذه كلها تريك أن الاتكال على الاخبار بالغيب عجز وجهل بل الاهتداء بالأمور المعهودة والتأمل فى أعمال الخليقة يهدى الإنسان إلى الطريق الأقوم فان كثيرا من الناس يخبرون بالغيب ولكنهم فيهم الصادق والكاذب فلا يعول عليهم ما عدا المعصومين من الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين . والعفريت والجن فى هذه الآية يناسب ما انتشر فى أوروبا الآن من ظهور علم الأرواح وتكليمهم إياهم مما هو شائع مستفيض، والجن والعفاريت هم من قبل أولئك المستحضرين فى أوروبا وهم يخبرون بالغيب والقرآن يفيد أن الإنسان لا يلتفت إلى كل خبر منهم بل يعرض كل قول على عقله واستنتاجه كما وضح من هذه الآية ، ونتيجة ذلك أن الاعتماد على النفس والعقل فى كل شىء علو للهمة فى العلوم والمعارف ، وأن الإنسان فى علمه فوق الجن مكانة كما فى مسألة دلالة دابة الأرض على موت سليمان وجهل الجن به والإنسان أسمى قوة كما فى نقل عرش بلقيس بأسرع من لمح البصر . فقال الشاب وكيف انتقل سريعا وبين الشام واليمن شهر . فقلت ذلك إشارة إلى أن فوق هذه المدنية الحاضرة مدنية أخرى أسمى منها وأرقى، وان كان ذلك معجزة للنبى سليمان عليه الصلاة والسلام ولكن يطلب الأخذ بالأسباب لكل ما يسهل وسائل النقل والاسراع فيها . أما الاجتهاد فى العلوم والمعارف فهو مفهوم من قوله « قال الذى عنده علم من الكتاب » وأما الاهتداء بالكون والصنعة الإلهية فيفهم من السورة بتمامها وتأمل فى النمل وانظر . فقال الشاب ما رأيت أعجب من هذا البيان ثم قال الفتى: أخبرنى عن يأجوج ومأجوج وكيف ذكرهم الله فى القرآن ومالنا بهم من علم وفى أى زمن خروجهم فقلت : أيها الفتى قد سأل هذا السؤال أحد أدباء الهنود من زمن غير بعيد وأجبناه فى [مجلة الهلال] وهى فى نظام العالم والأمم وقد تقدم فى سورة الكهف .

المقدمة الثالثة

(أحوال الدول فى قصص فرعون وموسى عليه السلام)

الإنسان فى حياته ينتهج سبيلا سلكه من قبله واختطه له جاهل أو عالم. فاما مكبا على وجهه أو سويا على

صراط

صراط مستقيم . كل ابن أنثى يتخذ طريقا سنه الأبوان أو الأقربون أو الإخوان والأصحاب والعشيرة والقبيلة والمربى مع ملاحظة الأمزجة وهؤلاء يهدونه أحد النجدين إما الخير أو الشر ، ويقال آخر إن هؤلاء مثل ضربت له وسبل سنت طرقا للسعادة أو الشقاء ، والتاريخ مثل واضح يتمثل به الإنسان سيره فى نفسه وأهله ومدينته مع عقل وعمل، وحوادث الأصحاب والإخوان تاريخ تشاهده العينان وتسمعه الأذنان، ولاجرم أنه يسد عوز الحكيم إذا عقل فى سيرته الشخصية والمنزلية ، أما سيرة المدن وتقبلها فمرجعها إلى مرآة أوسع وأعظم ألا وهى تواريخ الأمم الغابرة فهى المنظار المعظم تدرس بها الأخلاق فى شكل بهيج جميل . لعمرك ليس كل تاريخ يغنى « وما كل مصقول الحديد يمانى » فقد يستسمن ذو الورم وينفخ فى غير ضرم ، يسرد المؤرخ حكايات الأولين قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل ولن تجد العبر إلا فى آثار وأحوال تستأنس بها النفس وتطمئن لها العقول وتذكر له الحوادث برونق بهج ونواتجها ظاهرة واضحة خيرا أوشرا فيخرج القارىء من بساتينها مقتطفا من رياضها أزهارا ، وجانيا من أشجارها أثمارا . ولقد ذكر العلماء أن درس التاريخ إن عدل عن هذه الوجهة كان شغلا بلا فائدة وضياع وقت وحياة . نذكر ذلك ليكون عبرة للعالمين لاسيما المصريين وقد كان فرعون يقول « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون؟ » ذلك تذكرة للكاتب والقارىء لأنا نعلم أنه لم يكن ليجعل حكاية يسلى بها القارىء نفسه كما يشعر به قارىء رواية أويقتل به الزمن كلا . كيف وهو سبحانه وتعالى يقول « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » والعبرة مشتقة من عبور البحر فينقل قارىء التاريخ حال غيره إلى نفسه ويعبر به على سفن الألفاظ إلى الحقائق، ويقول تعالى : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » ويقول جل وعز « كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » ويقول سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام « ما تحت الشمس من جديد » ويقول علماء العصر « التاريخ يعيد نفسه » غفل الناس عن ذلك الاعتبار جهالة بالقصد ، وخبلا عن الفحوى ، ورضاء بالقشور وابتعادا عن أسرار البلاغة . جاء الخطاب بلسان العرب وهم يعلمون ضرب الأمثال والمواعظ، ولكل مثل مورد ومضرب، وقد علموا مواردها ومضاربها ومغازيها ومراميها وأحوال العرب عامة تنطق بهـا ، فمن أجهل ممن جمد على الألفاظ دون معناها، أوالمعانى دون مغزاها ، ولذلك قال أبلغ البلغاء عليه الصلاة والسلام: « شيبتنى هود وأخواتها » وترى كثيرا من الأدباء إذا أزمع هداية إنسان ذكر له قصصا تشبه حاله فيردعه عن غيه فتكون أشد تأثيرا من وقع الحسام وتثير فى القلب حمية وإقداما أو خيفة وإحجاما فزال المراء ورفع الغطاء ، إن الخبر فى مغزاه كالسهم فى مرماه، فلنبدأ بعد هذا بما وعدنا ونذكر تلاشى الأمم فى قصص فرعون وموسى عليه السلام .

أشرنا فيما تقدم إلى أن تاريخ مصر أمس بالمصريين وأنفع للعالمين، ونحن لانعلم من تاريخ دولهم إلا أنهم كانوا فى ليل الجهل الدامس ، حتى بعث لهم نبى الله إدريس المسمى بهرمس ويسمى المثلث لأنه كان نبيا وملكا وحكيما ، وورد أنه أول من خط القلم فاقتبس المصريون الحكمة المطمورة الآن فى النواويس تحت الأحجار والصخور وكانوا موحدين وتاهوا فى ذلك التوحيد وبنوا الهياكل العظيمة آثارا لجلاله ونظروا فيما حسن ولطف دلالة على جماله ثم نسوا المعبود وعبدوا الأثر وتراخى الزمن وبقى التوحيد سرا مكنوما عند حملة الدين وحرموا العامة منه فأرسل النبى موسى عليه الصلاة والسلام فبرهن للخاصة والعامة بالعصا واليد فنجح فى الخاصة وهم القليل ، وآمن بنو إسرائيل وبقى المصريون فى عمايتهم وجهلهم مع فرعونهم « فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » فأغرق فرعون وجنوده، وأما بقية الشعب فاجتاحتهم جائحة الحبشان بعد الأسرة العشرين ودمرتهم صاعقة الأشوريين وأحاطت بهم سرادقات الفارسيين فجاء قمبيز فلعمرك ما سدد

عليهم فأصابهم وأقصد القلب الإبقوس من شعائر دينهم ، عبدوا بعض الحيوانات ومنها الهرة فوضعها قمبيز بين الجيشين فتحرج المصرى عن قتلها فأصابها وأصابه قمبيز فملك وقتل وسبى وغزا وأرسل الجيوش وقتل العجل المعبود وأغضب المصريين ، وكان ما كان من هلكته .

مضت دولة الفرس فورثهم إسكندر المقدونى وبعده البطالسة فالرومان الذين استباحوا ما حرمه الظالمون فقتلوا الأبرياء وانتهكوا الحرمات وغالت الأمة غولهم ، وجاء عمر مهيمنا عليهم بجناح الرحمة وأسدل ستارا من العدل وحرسه بجند من الإيمان وبنى عليه هيكلا من العلم وزينه بزخرف من الكياسة ووشاه بنقوش الحكم وسيطر عمر بن الخطاب عليه فجاء نورا على نور وسجاه بثوب من الرغبة وقنعه بسوط من الرهبة فوسمه بهما وسم إمام الصحابة رضى الله عنهم فى قضية ابنه وابن القبطى إذ ضرب الثانى الأول بمحضر من الصحابة فى المدينة حتى قال القبطى قد شفيت نفسى ، كل هذا وحال المصريين تنادى :

وإنك عادل يا عمر فينا ولكن جئت فى الزمن الأخير

فأكثرهم أبيد بيد الفاتحين الظالمين وحقت عليهم كلمة العذاب ، مصداقا لما روى عن إدريس عليه السلام «يا مصر ، يا مصر ستتركين دينك القويم القديم وتستبدلينه بالصور والتماثيل فستذهب رجالك وآمالك وتبقى أخبارك فى أحجارك» والكتاب أوضح هذا فقال فى فرعون « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين . ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون » .

العبرة فى هذا أن الأمم لها باب ترتقى فيه ، وآخر فيه تضعف قوتها ، وإذن لا بد لها من إصلاح ، فإما أن تتعظ الأمة بالمرشدين الناصحين ، وإلا فلا مناص لها من السير على نهج فرعون وقومه بهلاك الجند كما أغرقوا ثم الاستعباد المتعاقب وتتابع الأمم العصية المهينة الفاتكة وأن الأمة إذا ظلت عاكفة على عجول جهالتها فهى دابة كل راكب خادمة كل سيد ، طفلة كل مرب ، زوجة كل بعل ، وكما لم ينفع المصريين أن انجلت عنهم دول الأحباش والأشوريين والفرس واليونان والرومان ، بل كلما راح ظالم غدا عليهم جبار ، فهكذا يا قوم فليكن حالنا اليوم فما دمنا جهلاء فنحن سنكون أبد الدهر طعمة الآكلين فريسة القانصين ، ولو ساد اليابان والصين أو الفرنسيس والألمان فليس لنا فى ذلك مصلحة خاصة فرحمة الله إنما ينزلها للمحسنين عملا « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ، إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » إن المصريين القدماء لو اعتبروا واتبعوا دعوة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ما سحقتهم الأمم الجائرة ، بل تراهم تفرقوا شيعا فذاق بعضهم بأس بعض . فانظر كيف كان عاقبة الجامدين .

أما أهل مصر الحاضرون فما غشيهم ما غشى أهل فرعون فإن أكثر سكانها من بيوتات العرب وقبائلهم نزحوا إليها ، وهم وإن نسوا أنسابهم ففيهم بقية صالحة من صفات النجدة والشرف تظهر بكثرة فى عرب البادية المصرية ، وتقل فى الفلاحين وتضعف فى أهل الأمصار والمدن الكبار إلا فى أناس أرجعها لهم التعليم إن صح . فلا حكم عليهم كما حكم على الأمة التى قبلهم ولا أرى أن يسام الحاضرون بالغابرين .

هذه أمة عربية فتحت منذ قرون وتتابعت فى هذه الديار زمرا زمرا زمن الأمويين والعباسيين والفاطميين إلى نحو القرن السادس الهجرى وأن ما فى البعض من سمات الذلة يرجى زواله بعد حين ، كيف وقد غلبت

صفات الفاتحين من العرب على من دخل دينهم وعاشرهم وصاهرهم ، فإذا قيل مصر بقيت فى الذل ٤ آلاف سنة فذلك لا يكون حكما علينا ، كيف وقد كان من العرب أنفسهم الفاطميون الذين انقرضوا من نحو سبع قرون، وعليه فإن أمتنا قابلة لإسراع الرقى فى أقرب الأزمنة متى تعلموا، وسنذكر بعد هذا كيف تولد الأمة وهى جنين ، وكيف تشب وهى طفلة لعوب .

﴿ إنشاء الأمم ﴾

سبق القول أنا سنبسط شرح أحوال الأمم آن تدرجها وهى أجنة فى البطون فى مدارج الحياة ونشأتها وأن ذلك سنة لا محيص عنها . للأمم أعمار وابتداء وانتهاء كطلوع الشمس وزوالها وغروبها وكالإنسان طفل فشاب فشيخ فميت، وكالسنة: ربيع فصيف فخريف فشتاء فموت، كسير القمر: تولد فتربيع فبدر فتربيع ثان فسرار وكالنبات ينبت فيستوى على سوقه فيعجب الزراع فتراه مصفرا فيكون حطاما وكل بائد مما ذكرنا تخلفه نظيره وشبيهه إما بالحركات فى الأفلاك أو بالولادة فى العناصر. الزوجان من الإنسان مهما حاولا أن يتناسيا النسل فلا مناص منه للجمهور شاءوا أم أبوا ، فهكذا الأمم تراها مقهورة مسخرة على كفالة سواها مما تحت سيطرتها . ولكم حاولت الأمم القاهرة أن تبقى فريدة فى الوجود وتدمج سواها فى جسمها فلا تلبث أن تتمزق كل ممزق بأيدى الأمم الضعيفة فيسود الضعفاء ويحكم المقهور « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » وناهيك بما وقع للمصريين من السودان، وهم عبدانهم والكنعانيين وهم الضعفاء المقهورون، وما كان من تمزق الرومان بأيدى الفاتكين من الأمم الوحشية إذ شنوا الغارة على دولة الرومان الغربية ومزقوها كل ممزق وذاقت جزاء ما كسبت يداها من الظلم وحق عليها القول ، هكذا ترى العرب غلبوا الفرس على أمرهم فى أعصر النبوة وهم كانوا تحتهم بالأسم والغلبة والقهر «وتلك الأيام نداولها بين الناس» .

هذا وليس رق الأمم بلا موجب فللرقى أسباب وللتدلى أسباب. ولقد فصلنا القول فى أسباب السقوط فلنشرح الآن أسباب الرقى من قصة فرعون وموسى عليه الصلاة والسلام إذ هما أقرب لنا مكانا ومولدا ومهاجرا وقدمنا أنها ذكرت فى الكتاب الحكيم لتذكير العالمين عموما والمصريين خصوصا ليتعظوا ويقيسوا الحاضر بالغابر والشاهد بالغائب ويعتبروا بالأمم السالفة « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم» وقد استخلصنا أسباب الرقى إذا هى عشرون : عشرة منها بكسب الإنسان وعشرة من الله ، ومتى قام الناس بما عليهم منحهم الله ماعنده من الهبات والمنح. العشرة الأول أن تمنح الأمة رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه فأخلصوا فى أعمالهم لأممهم وجادوا بمالهم وجاههم وعملوا الأعمال لذاتها لا لرياء ولا سمعة بحيث يكون ذلك كأنه خاصة فيهم هبة لهم وهذا كما ساعد موسى عليه الصلاة والسلام بنتى شعيب عليه السلام فى سقى الغنم إذ « قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير» فرفع الحجر عن البئر «فسقى لهما ثم تولى إلى الظل » وكان ماكان من زواجه بإحدى الابنتين ورعيه الغنم (١٠) سنين . وكما أقام الخضر الجدار لليتيمين بأنطاكية ، وقد أبى القوم أن يضيفوهما وما كان ذلك إلا عملا أريد به فضل العمل لذاته، لا أجر ولاشكور .

(١) حسن السياسة مع الأمم الفاتحة الغيرة وإفهامها حاجات الأمة المغلوبة بما فى الامكان واجتذابها إليها بما جمل من العلم والمعرفة كما وقع لسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام إذ خوطب « اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى» إلى أن قال «فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى» فجمع بين الإرشاد واللين

فى القول أو الشفاعة فى قومه وهذا واجب شرعا على كل من أوتى حكمة فى القول وجاها وعلما وقدرة أن يتذرع بها إلى الأمم المسيطرة على أمته ليريهم وجه الصواب والخطأ ويسعى فى علو شأن أمته ، لهذا نزل القرآن لاتغنيا أو إعرابا فحسب، أو تاريخا ، ومن أعطاه الله حكمة أوجاها فانتبذ من أهله مكانا قصيا عاكفا على شهواته فبشره بالمذلة والهوان وليعش معيشة الحيوان مخالفا حكمة عامة الأديان .

(٢) القوة العلمية وإقناع الخاصة بما يلائمهم ، والعامة بالمحسوسات حتى تتحد الطبقات على مبدأ واحد ، يشير إلى الأول قوله تعالى فى موسى «قال فمن ربكما ياموسى ؟ قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» وقوله « الذى جعل لكم الأرض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى » فهذه براهين تعقلها القلوب الواعية والأنفس الراقية ، وهى تشير إلى مايعقله العقلاء ويتباهى به الحكماء ثم تلقفت عصاه إفك السحرة وأخرج يده فإذا هى بيضاء وهذه محسوسة لدى العامة معقولة أيضا لدى السحرة .

(٣) الأنفة والغيرة والبأس والحمية وحماية الذمار وخوف العار بإزالة المنكرات جهارا واستئصالها ليلا ونهارا عند القدرة كما قتل موسى القبطى الظالم للاسرائيلى « فوكزه موسى فقضى عليه » وإن ندم بعد ذلك وهكذا إن أذاق الخضر الغلام كأس الحمام لما كان مرسوما على صحائف نفسه بفراسة بنور النبوة والعلم أنه سيضل به الوالدان ، فهذه إشارات وملامح يراد منها انتهاج خطة الصلاح والإصلاح ، فهذه أشجار هذا زهرها ، وأثمار هذا طعمها ، وفاكهة هذا حلوها .

(٤) سياسة اللين عند الاستكانة والضعف واستجلاب الحيل ودفع المكروه بالتى هى أحسن كما احتال الخضر على نجاة السفينة من الظالم بخرقها « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » وهكذا أم موسى وضعته فى التابوت لنجاته قال تعالى «فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين» .

(٥) الثبات على المبدأ ، والصبر أمد العمر ، ألم تر كيف خرج قوم موسى من البحر سالمين ونجوا من الغرق «وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون» الخ هذا فى العلم وفى المحاربة قالوا له «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون. قال رب إنى لاأملك إلا نفسى وأخى» وبهذا اتعظ نبينا عليه الصلاة والسلام، فقال «والله لأقاتلنهم ولو وحدى» وليس قصدنا من هذا إلا الثبات على المبادئ الشريفة وانتهاج خطة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فمتى صح لديك البرهان فكن على مبدئك ولا تبال بخاذل أو ناقم .

(٦) إشعار النفوس بالشهامة وعلو النفس وأن لهم اتصالا بمبدع العالم ولهم شرف وفضيلة ولذلك كرر ذكر فضائل بنى إسرائيل فى القرآن بهذه العبارة «وأنى فضلتكم على العالمين» تذكرة لهم فى زمانهم وتذكرة لمن يقرأ هذا الدين الجديد فويل لأمة تقرؤه وهى ترى الصلة بينها وبين مبدعها منقطعة فتذل وتخزى ، كيف وهذه الأمة عموما وجمهور المصريين أبناء العرب أرباب التاج وملوك الأرض مدنوا العالم ، منا الأمويون والعباسيون والفاطميون . وما الطولونيون والإخشيديون إلا موالى آبائنا وما المماليك البرية والبحرية الذين دوخوا هذه البلاد إلا من موالى أسلافنا، ولقد أدركت القوم فى القرى إبان نعومة أظفارى وهم يفخرون بقرى الضيف وضرب السيف وينشدون الأشعار الحماسية ، وماعهدا كتساح التتار بعائق ألفه من المصريين أيام الظاهر من نحو سبع قرون ببعيد ، ولعمرى لأن تمتلىء النفوس شهامة والعقول حماسة والقلوب إقداما خير من أن تراها ذليلة منكسة الأعلام مرتاعة الأفئدة مرتعدة الفرائص حائرة ذاهلة وتضمحل كخيوط من شعاع الشمس أو دقائق الهواء أو ذرات الهباء خائرات القوى .

(٧) تربية الناشئة على مبادئ جديدة تصلح للرقى والتربص بمن شبوا وشابوا على الذلة والمسكنة حتى ينقرضوا ويموتوا كما وقع لبنى إسرائيل لما جبنوا عن الحرب بقوا فى أرض التيه أربعين سنة حتى نشأ رجال تمكنوا من دخول مدينة الجبابرة «قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين» .

(٨) الفرار بالأهل والعشيرة والأمة من حال ترديهم إلى هاوية العذاب إلى حال أخرى كالخروج من أرض إلى أرض، وأن ذلك يسهل متى أراد الإنسان وهو أبو العجب، ألم تر إلى موسى عليه السلام كيف مر ببنى إسرائيل من أرض فرعون إلى أرض كنعان .

(٩ و ١٠) ازدواج اللين والشدة، وقد كان للأولى هارون وللثانية موسى عليهما الصلاة والسلام .

هذه العشرة متى ظهرت فى أفراد من الأمة منحهم الله هبات وافرة، وهى عشرة سنذكرها فى مقال آت إن شاء الله تعالى .

قلنا فيما سبق إن الأمم تحيا برجال يجمعون عشر خصال «إخلاص العمل لأمتهم والحنو والشفقة وتذليل العقبات بين أممهم ومن غلبوا على أمرهم : وما من أمة من أمم الشرق إلا ولها علاقة مع دولة غربية، فعليهم أن يخلصوا لبلادهم فى العمل رغبة فى حسن الأثر والأحدوثة الجميلة وتخليد الذكر إن كانوا أوساطا فى العلم أو الثواب الجميل والشوق إلى مبدع الكون وتقليده فى صنع الجميل بلا طلب أجر إن كانوا حكماء، وإقناع الخاصة والعامة بالمعارف المناسبة لهم وتعميمها وتهذيبها بجميع أنواع الوسائل المرقية للأمم ودفع الأذى عنهم وحماية الذمار ودفع العار متى أمكن، ولو أذاقهم الفاتحون كأس الحمام وجرعوهم الموت الزؤام . فلا أمة تفعل ما فعلت الفراعنة فى بنى إسرائيل ومع هذا لم يترك موسى عليه السلام فرصة قتل نفس منهم والتلطف عند الحاجة والثبات على المبدأ مهما عارضه الأقربون والأدنون وإشعار النفوس بمكانتها وشرفها، فلا ينبغى أن تصغى الأمة إلى من يصغرها فى عينها» . ولقد قال ابن خلدون رحمه الله: «إن هؤلاء الذين يسكنون الخيام فى البادية ، هم أبناء ملوك الأعصر الغابرة، وهم يجهلون أصلهم وتاريخهم» وأنا أقول: إننا قبائل نزحنا إلى هذه البلاد وأقاليم السودان واستوطناها وتغلبنا عليها من آماد وأجيال قريبة العهد لا تقتضى بأن يضرب علينا الذل والمسكنة ، ولا يقال فى مصر : «هى لمن غلب» فإنما كان هذا المثل مضروبا لأمة خلت «تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون» وتربية النشء على المبادئ القويمة والعزة ومزج الشدة باللين والفرار بالعشيرة عند الحاجة مكانا أو صفات أو أخلاقا أو ملكا الخ .

هذا ملخص ما ذكرناه أمس ، ونقول هذه العشرة تتبعها العشرة الأخرى التى قلنا إنها هبات من الله وهى تساوقها بلا ترتيب ولا تعقيب ، فضلا من الله الحكيم لعباده الرحيم بهم وإحسانا .

(١) الإلهام ، وذلك بكشف الغطاء عن القول فتظهر لهم وجوه المنافع ومساوى المضار فان النفوس إذا جاوزت هذه العقبات أو بعضها حصلت لها جامعة روحية ودخول إلى الحكمة فأدركوا حالهم ومآلهم، وإليه الإشارة بقوله تعالى «وأوحينا إلى أم موسى» وهذا وإن كان بلا كسب ففيه إشارة إلى ما نحن فيه .

(٢) إجابة الدعاء والنصر «قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما» .

(٣) شد الأزر وتقوية الأفئدة بالإخوان والأنصار «قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون»

(٤ و ٥) النصر والنجاة من الضر « ولقد مننا على موسى وهارون ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم. ونصرناهم فكانوا هم الغالبين » .

(٦) الهداية إلى الطريقة المثلى « وآتيناهما الكتاب المستبين . وهديناهما الصراط المستقيم »

(٧) حسن السمعة والذكر والصيت « وتركنا عليهما فى الآخرين سلام على موسى وهارون . إنا كذلك نجزى المحسنين »

(٨) القرب من الله تعالى « وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا .

(٩) التمكن من الخلافة فى الأرض « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون » .

(١٠) انقلاب الأعداء أصدقاء محبين ، ألم تر إلى حديث رجل من آل فرعون « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » فكان نتيجة صبر موسى عليه السلام على الدعوة أن قام رجل من أعدائه يطالب قومه بالاهتداء بهديه . ولعمرك إن فى هذا لبلاغا للأمم المهضومة الحقوق إن من أعطى فصاحة أو جاها أو حكمة وعلما وجب عليه وجوبا عينيا أن يقوم فيناضل عن أمته بماله أو جاهه أو قلمه ، فان الله عز وجل وعد بالنصر ولو بعد حين حتى يبلغ الأمر أن صار العدو حبيبا والخاذل ناصرا والمعادى مواليا ، وهذا يتربصه كل من انتهج منهج الكمال والاعتدال ورق أمته وهداها ورفع منارها ووسع نظامها « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » ولما جاهد بنو إسرائيل بالقوة والعلم والجاه والمال منحهم الله ملكا عظيما دام ألفا وخمسمائة سنة مع قلة عددهم وأخذت مصر فى التلاشى إذ ذاك ودوختهم الأمم المغيرة الفاتحة من فرس وروم وسودان وكنعانيين وأشوريين وبطالسة « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » انتهت المقدمات .

تفسير السورة

هى أربعة أقسام

(القسم الأول) فى قصص موسى عليه السلام من أول السورة إلى قوله « لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » .

(القسم الثانى) من قوله « ولولا أن تصيبهم مصيبة » إلى قوله « فعسى أن يكون من المفلحين »

(القسم الثالث) من قوله « وربك يخلق ما يشاء ويختار » إلى قوله « وضل عنهم ما كانوا يفترون »

(القسم الرابع) من قوله « إن قارون كان من قوم موسى » إلى آخر السورة .

القِسْمُ الأوَّلُ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

طسم * تِلْكَ ءايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ

يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ * وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ * فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ: هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ، وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ: هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * قَالَ: رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ * فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ، قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ * فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ * وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ

وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا
قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ
رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ * فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ
أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ
نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ
الْقَوِيُّ الْأَمِينُ * قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ
فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ *
قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ، وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ *
فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا
إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا
أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي
أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا
وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ * اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ
يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ
أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا
يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا
بَيِّنَاتٍ قَالُوا : مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * وَقَالَ مُوسَى
رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *
وَقَالَ فِرْعَوْنُ : يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ
فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَاسْتَكْبَرَ

هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا، وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(طسم) تقدم فى أول سورة آل عمران (تلك آيات الكتاب المبين) إن هذه السورة آيات القرآن المبين يقال بان الشىء وأبان بمعنى واحد . ويقال أبنته فأبان لازم ومتعد، والمعنى مبين خيره وبركته، أومبين الحلال والحرام والوعد والوعيد والاخلاص والتوحيد (نتلوا عليك) نقرأ عليك أى يقرؤه جبريل بأمرنا ومفعول نتلو قوله (من نبأ موسى وفرعون) أى نتلو عليك بعض خبرهما (بالحق) حال كوننا محقين (لقوم يؤمنون) لأنهم هم المنتفعون به، وههنا ذكر (فصلين) فصلا يدل على علو فرعون فى الأرض وظلمه ، وفصلا يدل على أن المظلومين نصرهم الله ليفهم المسلمين أنهم إن كانوا مظلومين، والناس تؤذيهم كما كانوا فى مكة فان الله ينصرهم كما حصل بعد ذلك وهكذا اليوم هم أذلاء بظلم الأمم لهم، وهو الآن يريد نصرهم لأنهم مستضعفون وأيضا يريد الله أن يفهم المسلمين أنهم إن ملكوا الأرض لا يطغون وإلا دالت دولتهم كما حصل سابقا لهم ولأمم بعدهم . إنهم أسرفوا فى الشهوات ، وهم فى الأندلس فأذلهم الأسبان فأخرجوهم أجمعين ، والأسبان طاردوا المسلمين فى أصقاع أفريقية ولكن الله يريد أن يمن على الذين استضعفوا فى أرض أفريقية من المغاربة المسلمين ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين ، ولقد ابتدأ ذلك بقتال أهل الريف ورئيسهم عبد الكريم جنود الأسبان ، ولقد قتلوا منهم مابين أربعة آلاف وعشرة آلاف فى الحقول والقفار حتى إن مكاتبا أفرنجيا وصف ذلك وصفا مريعا ؛ فقال إنه عد فى عشرين دقيقة (٣٥٠) قتيلا، وأن القتلى فى طول الحقول والقفار وعرضها لاتجد من يدفنها ولا مقابر لها إلا بطون الغربان والجوارح الجائعة والكلاب العاوية، وهذا من أسرار هذه الآية «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض» ولكن بعد هذا نفى عبدالكريم ولم يتم الاستقلال اهـ . وهاك ذكر الفصلين .

﴿ الفصل الأول ﴾

قال تعالى (إن فرعون علا فى الأرض) وهذا تبيان لبعض نبأ موسى وفرعون، والمراد بالأرض أرض مصر (وجعل أهلها شيعا) فرقا، وقد استعمل كل صنف فى عمل وجعلهم أحزابا أغرى بعضهم ببعض كيلا يتفقوا عليه كما هى سياسة الأمة الانجليزية وعنوانها «فرق تسد» (يستضعف طائفة منهم) وهم بنو إسرائيل

وأبدل من « يستضعف » قوله (يذبح أبناءهم ويستحى نساءهم إنه كان من المفسدين) ذلك لأن كاهنا أخبره أن مولودا يولد من بنى اسرائيل يذهب ملكك على يده فلذلك اجترأ على القتل ، فملخص هذا الفصل :

(١) أنه علا فى الأرض .
(٢) واستضعف حزبا من أحزاب مصر .
(٣) وقتل الأبناء .
(٤) واستبقى النساء .
(٥) وأنه مفسد .

﴿ الفصل الثانى ﴾

ذكر فيه سبحانه أنه قابل الخمسة الأولى بخمسة ، وهى :

(١) يمنّ أن يتفضل «على الذين استضعفوا فى الأرض» بإنقاذهم من بأس فرعون .
(٢) قال «ونجعلهم أئمة» مقدمين فى أمر الدارين .
(٣) «ونجعلهم الوارثين» لأرض الشأم .
(٤) «ونمكن لهم فى الأرض» أرض الشأم فنسلطهم عليها .
(٥) «ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم» من بنى إسرائيل «ما كانوا يحذرون» من ذهاب ملكهم وهلاكهم بالإغراق .

هذان الفصلان عظمة وضعف يعقب أحدهما الآخر كما يعقب الليل النهار . قال تعالى «وتلك الأيام نداولها بين الناس» ولقد حصل هذا فى كل زمان ومكان ، أفلا ترى كيف أحاطت أوروبا بالأمة التركية فقضت على ملكها ثم قام طائفة منهم بالأناضول فأزالوا الظلم وأرجعوا الملك ، وتمّ نظيره فى بلاد الفرس وبلاد الأفغان . ولقد كانت الدولة الروسية قائمة بالقياصرة فاستبدوا بنحو مائة وعشرة ملايين من الناس ، وكانت البلاد بأيدى أفراد من العظماء والثروة كلها فى أيديهم فقتل القيصر وبدد وشرد جميع الأغنياء ، واقتسم الناس تلك الثروة فى تلك الأصقاع وصارت الأمة بلشفية ، فهذا هو ماقاله الله هنا «ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» فهذا هو الحاصل الآن ، أصبح المساكين الصعاليك فى يدهم مقاليد الحكم فى تلك البلاد ، ويودون أن يعمموه فى سائر الأقطار ، وهم لذلك ساعون .

رأى سقراط فى السياسة

(١) يرى سقراط فى السياسة أن الحكم يكون بأيدى قوم يصطفون من الشعب يتعلمون تعليما أرقى من سائر الناس مع التعليم العسكرى .

(٢) فاذا انقرض هؤلاء ، تولى الحكم قوّاد الجيوش ، وهم أقل ممن قبلهم رتبة .

(٣) فاذا تمادى الزمان قام بالأمر أبناؤهم الذين لاهم حكماء ولا قواد ولكن ميزتهم إنما هو المال فكل عملهم لأجل المال .

(٤) ويعقب هؤلاء أن الأمة تقوم فتقسم مالهم وتزيل ملكهم ويصير الحكم فوضى لارابط ولا رادع

(٥) ثم يتولى فرد يقهرهم ويسخرهم ويذلهم .

فالحكومات

فالحكومات عنده (خمس درجات) أرقاها حكومة الحكماء والفلاسفة، وأدنى منها الحكومة العسكرية ويليها حكومة ذوى المال والشهوات والترف، ثم حكومة المجموع الذى هو أشبه بالفوضى ثم حكومة الفرد فالحكومة الرابعة لامناص منها إذا استبد الأغنياء، وأرباب الشهوات بالأمر فأخذوا المال وحدهم وسخروا الأمة لمطالبهم، وهذا هو الذى حصل فى بلاد الروسيا إذ قام الشعب فأزال القياصرة وأرباب الأموال وهذا من قوله تعالى «ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين» اللهم إن الشرق الآن ضعيف فليقم فيه قائمون ليرجع اليه مجده، ويزيل الظالمين من أرضه.

وهنا أذكر لك [حادثتين: الحادثة الأولى] وقعت أيام الفراعنة فقد جاء فى بعض المجلات فى بلادنا وهى مجلة [كل شىء] مانصه:

البولشفية فى مصر قبل ٤٠٠٠ سنة

كلما تفاقمت الشرور وتعاظم الناس أمرها شعروا كأن نهاية العالم قد اقتربت وهذا ماشعر به المسلمون عند قدوم التتار عليهم، وماشعر به الأقباط عندما اضطهدهم (دقلديانوس) وهذا أيضا ماشعر به النبلاء فى فرنسا سنة ١٧٨٩ وفى روسيا سنة ١٩١٧ عند نشوب الثورة، ولعل فى هذا الشعور رحمة للمضطهدين لأنه يعزيهم عن فقدهم مجدهم ويوهمهم أن العالم كله سيذهب بعدهم بقليل.

وقد حدث سنة ٢٢٠٠ قبل الميلاد ثورة بولشفية فى مصر تغلبت فيها الكثرة من العامة على القلة من الخاصة وطردتهم من الأرض والسكن واحتلت مكانهم، وكان ذلك فى الأسرة العاشرة، والغريب فى هذه الثورات القديم منها والحديث أن يسبقها على الدوام ثورة فكرية تهىء الأذهان للانقلابات القادمة، فأدباء فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر طبخوا الثورة طبخا فى أذهانهم قبل وقوعها، وأدباء روسيا هم الذين أحدثوا الشيوعية فى كتبهم قبل أن يقتل الثائرون القيصر وأسرته، وكذلك الحال فى مصر فى الأسرة التاسعة كانت مشهورة بكثرة المفكرين، حتى إذا جاءت الأسرة العاشرة كانت العقائد قد تزعزعت وزالت من النفوس تلك الكرامة التى كانت للحكام والأخلاق، وكانت الأسرة العاشرة تحكم الوجه البحرى وجزءا من الوجه القبلى، وكان فى طيبة أمام الأقصر أسرة فرعونية أخرى تحكم جزءا صغيرا من الصعيد، وفى هذه الأسرة العاشرة انهزم سلطان فرعون وأخذ كبار القواد والأعيان يؤلفون الجيوش يقاتل بعضهم بعضا حتى ساءت إدارة البلاد وكثر اللصوص وعم القحط فقام العمال فجأة وهجموا على الأغنياء فقتلوهم واستولوا هم على الأرض والمنازل.

ونحن نعرف خبر هذه الثورة من كاتب مصرى يدعى (ابفور) رأى بعينيه هذه الثورة وكان أمينا لفرعون بواليه، وكان فرعون قد فرّ من أعدائه إلى مكان خارج مصر، فأرسل إليه (ابفور) خطابا يستحثه على الرجوع لكى يعيد النظام إلى نصابه، ومما قاله فى خطابه هذا (إن من الناس قد ثاروا على التاج وقامت منهم طائفة قليلة العدد لا نظام لها تريد التخلص من الملوكية، وقد ذهب النظام القديم وهدم البلاط فى لحظة وطرد العمال الملك وأصبحت خزانة الدولة ملكا لكل إنسان).

وبعد ذلك يصف أحوال الناس فى تلك الفوضى فيقول: (إن لم يكن يملك شيئا قد أصبح الآن غنيا فأرى فقراء البلاد وبات الأغنياء لايملكون شيئا، ومن كان قبلا خادما قد صار الآن مخدوما وكفّ الخدم عن تأدية المهامّ التى يكلفهم بها أسيادهم وصاروا لايخشون مخالفة أوامرهم وانطلق لسان الخادمات حتى صرن لا يطعن كلة من سيداتهن، وهؤلاء الخادمات يزيّنّ نحورهن بالذهب والجواهر ومع أن البلاد لاتزال غنية فإن ربات البيوت يقلن «ليتنا نجد شيئا نأكله» وذلك لأن الفقراء قد امتلكوا البلاد).

ثم يقول (إن من كانوا يلبسون الملابس الفاخرة قد صاروا الآن يلبسون الأهدام البالية ، ومن لم يكن يجد الخبز قد صار له بيدر وامتلأت خزائنه بأموال الناس ، ومن لم تكن ترى وجهها إلا فى الماء قد صارت تقتنى المرآة فالأغنياء فى حزن ، ومن كانوا فى فقر يفرحون الآن ، ومن كان له أب عظيم صار لا يعرف الآن أو يميز ممن لم يكن له أب مثله لأن عائلات النبلاء طردت من بيوتها إلى الشوارع ، وقد جاع الأمراء والأميرات وصارت أجسامهن فى حال محزنة للخرق والأسمال التى يلبسونها) .

ثم يقول (ايفور) أيضا (لقد حدثت حوادث مدهشة فحملت أطفال النبلاء وضربوا بالحائط ، وفتحت المحاكم وبعثر ما فيها من الكتب وداس عليها الناس فى الأماكن العامة وسرقت مصالح الحكومة وذبح الموظفون وأخذت أوراقهم وكل شىء صار فى خراب وجميع البلاد تقول: هلموا نذل الولاة والحكام وذوى السلطان بيننا ومع أن الناس ينادون بالحق بأفواههم فإن ما يفعلونه هو الباطل) ثم يصف بعد ذلك ثمرات الثورة يقول (إن وجوه الناس شاحبة لأن المجرمين مطلقون ولم يبق أحد من ذوى السلطان فإذا قصد الفلاح إلى حقله حمل معه سلاحه ، ويقول الخدم هلموا نسرق شيئاً ، والأب يقاتل ابنه ويعد أخاه عدواً له ، وقد قست قلوب الناس والدم يسفك فى كل مكان والموت يحصد الناس وليس بالبلاد صناع يعملون الآن ، وكف الناس عن حرث الأرض وصارت المواشى ترعى هاملة سائبة ليس لها راع . والناس يأكلون العشب ويشربون عليه الماء ، وتؤخذ الأعمدة والبوابات والسياجات للحريق والصناديق المصنوعة من الأبنوس تحطم) انتهى .

﴿ الحادثة الثانية ﴾

إن الأمة الإنجليزية متى تحكم بلادنا قد انتصر العمال فيها ، ولكن هذا الانتصار مبنى على العقل وعلى الحكمة ، لا على الظلم والفتك كما فعل الروس والمصريون القدماء ، وهذا ماجاء بجريدة الأهرام يوم ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ عند طبع تفسير هذه الآية .

(فى بريطانيا العظمى)

« انتخبت (مس بوند فيلد) وزيرة العمال ، وهى أول امرأة فى تاريخ الإنجليز ذكية الفؤاد كفء تشترك مع الرجل فى تخطيط سياسة الامبراطورية ومصير بلادها ، فهى تفتخر كذلك بأنها كانت عاملة فى دكان كما يفتخر رئيسها المستر (ماكدونالد) بأنه لما وصل إلى لندن لأول مرة فى حياته كان لا يملك أكثر من شلنين ونصف ، وكان يستبدل الشاى بالماء الساخن فى شربه ، ولا تزيد مصاريف يومه عن ثمانية بنسات ، هـذا هو المستر (ماكدونالد) مدير الأمبراطورية اليوم ، وهذه (مس بوند فيلد) بوضع اليوم فى يدها أهم مشكلة تعانيها الامبراطورية منذ ربع قرن ، ولم تكن (مس بوند فيلد) شديدة التأثر والانفعال بل كانت أشد من زملائها الوزراء من الرجال حينما ذهب أعضاء الوزارة الجديدة إلى قصر وندسور لمقابلة جلالة ملك الانجليز فقد كانت تسير بين الجمهور بجنان ثابت وعزيمة قوية إذ ابتسمت وهزت رأسها حينما سئلت عما إذا كان المركز يثقلها وقالت لا يا عزيزى لست كذلك بعد مجهود أربعين عاما ، إنى مفتخرة بأن أكون أول امرأة تصل إلى كرسى الحكم وأشعر بسعادة لأن الفرصة قد هيأتى للعمل فى مسألة كانت ولا تزال موضع اهتمامى ، والواقع فإن (مس بوند فيلد) كانت فى مجموع العموم المنحل كثيرة الاهتمام بمسألة العمال وعائلاتهم فقد قدمت فى دوره الماضى مشروعا لحماية أطفال العمال بإعانة الحكومة لهم وشراء الأحذية اللازمة لهؤلاء الأطفال ، وهذا المشروع معروف بمشروع أحذية الأطفال » اهـ .

﴿ اللطائف الإلهية والتدبير لإنقاذ بنى إسرائيل من الذل ﴾

ولما أتم الله هذين الفصلين شرع يبين للناس لطائفه وتدبيره فى إبراز ما أراده لتستيقظ الأمة الإسلامية إذا ضعفت ولتعلم أن الله ما أنزل القرآن إلا لإسعادهم ، علم الله أن أمة الاسلام سيحل بها ما حل بالأمم قبلها من عز وذل ، وقد أخذت حظها من الرفعة ثم سقطت إلى الحضيض فأنزل هذه القصة ليبين أنه يلهم أناسا إسعاد الأمة فينبغى ألا ييأسوا وليعلموا أن الله الذى نجى بنى إسرائيل هو نفسه حى ينجى المسلمين متى صحت العزائم ، والقلوب لا تزال قابلة للالهام ، والله لا يخلف وعده ، فلنذكر لك الآن الحوادث المتتابعة التى انتهت بإنقاذهم ثم نتبعها بمـا يناسبها من حوادث العصر الحاضر ، ثم نذكر المسلمين أن الله معهم « وإن الله لمع المحسنين » وتلك الحوادث (١٣) :

﴿ الحادثة الأولى ﴾

قال تعالى (وأوحينا إلى أم موسى) بإلهام أو رؤيا (أن أرضعيه) أى بأن أرضعيه ما أمكنك إخفاؤه (فإذا خفت عليـه) بأن يعلموا به (فألقيه فى اليم) فى البحر وأراد به النيل (ولا تخافى) عليـه من الغرق (ولا تحزنى) على فراقه (إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) . يروى أنها لما ضربها الطلق دعت قابلة من الموكلات بحبالى بنى إسرائيل فعالجتها ، فلما ولد موسى أحبته حبا جما فأرضعته أمه ثلاثة أشهر ولما أحست بالأرصاد والعيون وضعته فى تابوت وألقته فى اليم ، هذه هى الحادثة الأولى .

(والحادثة الثانية) التقاط آل فرعون له ، و (الثالثة) رضاع أمه له ، و (الرابعة) نبوغه فى العلم ، و (الخامسة) قتله القبطى ، و (السادسة) و (السابعة) و (الثامنة) فراره إلى مدين ، وسقيه للبنتين ، وزواجه بابنة شعيب عليه السلام ، و (التاسعة) نزول الوحى عليه ، و (العاشرة) ظهور المعجزة ، و (الحادية عشرة) كفر فرعون ، و (الثانية عشرة) هلاك فرعون وجنوده أئمة الضلال ، و (الثالثة عشرة) خطاب النبى صلى الله عليه وسلم بذلك ، لاستيقاظ أمته .

﴿ الحادثة الثانية ﴾

قال تعالى (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) اللام للتعليل بحسب الأصل ، وجعلت هنا للعاقبة لأن آل عمران لم يريدوا أن يكون عدوا وحزنا ، بل هذه هى العاقبة (إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين) مذنبين يقتلون أبناء بنى إسرائيل ويستحيون نساءهم ، فلا بدع إذا ربى موسى بين ظهرانيهم وصار عدوا فاقتص منهم لأن هذا هو العدل (وقالت امرأة فرعون) لفرعون حين أخرجته من التابوت (قرة عين لى ولك) لأنهما لما رأياه أخرج من التابوت أحباه : (لا تقتلوه) خطاب بلفظ الجمع للتعظيم (عسى أن ينفعنا) فإن فيه مخايل اليمن ودلائل النفع . يقال إنه كان لفرعون بنت ولم يكن له ولد غيرها وكان بها برص ، وقد وصف لها الأطباء ريق مخلوق يشبه الإنسان يخرج من البحر فى ساعة كذا حين تشرق الشمس ، فلما كان ذلك اليوم جلس فرعون على شفير النيل ومعه آسية امرأته ، وابنة فرعون معهما ، ظهر التابوت فلم يقدر على فتحه إلا آسية لأنها هى التى رأت النور مشرقا منه فظهر منه صبى صغيرة وجهه منير وقد جعل الله رزقه فى إبهامه يمص منه لبنا فأحبه فرعون وآسية فأما ابنته فإنها عمدت إلى ما يسيل من أشداقه فلطخت به برصها فبرأت فقبلته وضمته إلى صدرها ، ولما قال له القوم : اقتله قالت آسية «لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا» وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها وقال لها أما أنا فلا حاجة لى فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو قال يومئذ قرة عين لى كما هو لك لهداه الله كما هداها الله » فقيل لآسية سميه فقالت سميته موسى لأنا وجدناه فى الماء والشجر ، لأن « مو »

هو الماء، و« سا » هو الشجر. هذا قول بعض المفسرين. وأقول لكن قال أساتذة علم قدماء المصريين الذين يقرءون الخط الهيروغليفي: إن «مو» هو الماء كما قال هؤلاء، أما «سا» فمعناه ابن، أى ابن الماء، فهذا قوله تعالى « فالتقطه آل فرعون » إلى قوله « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » أى نتبناه فإنه أهل له (وهم لا يشعرون) حال من الملتقطين.

﴿ الحادثة الثالثة ﴾

(خوف أم موسى عليه وفزعها وإرجاعه لها وإرضاعها إياه)

قال تعالى (وأصبح فؤاد أم موسى فارغا) صفرا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون، وهذا كقوله تعالى « وأفئدتهم هواء » أى خلاء لا عقول بها (إن كادت لتبدى به) أى لتصرح بأنه ابنها من شدة وجلها وتقول: « وا ابناه » (لولا أن ربطنا على قلبها) بالصبر والتثبيت (لتكون من المؤمنين) من المصدقين بوعد الله إياها فلما ربط الله على قلبها وصدقت وعد الله أخذت فى الأسباب لحفظ ابنها (وقالت لأخته) لمريم أخت موسى (قصيه) اتبعى أثره وتتبعى خبره (فبصرت به عن جنب) عن بعد، وقرئ «عن جانب» وهو بمعناه (وهم لا يشعرون) أنها تقص أثره وأنها أخته (وحرمنا عليه المراضع) أى حرمنا عليه أن يرتضع من المرضعات جمع مرضع (من قبل) من قبل قصها (فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم) لأجلكم (وهم له ناصحون) لا يقصرون فى إرضاعه وتربيته، فأمرها فرعون بأن تأتى بمن يكفله فأتت بأمها، وموسى على يد فرعون يبكى وهو يعلله، فلما وجد ريحها استأنس والتقم ثديها فقال من أنت منه؟ فقد أبى كل ثدى إلا ثديك، فقالت إنى امرأة طيبة الريح وطيبة اللبن لا أوتى بصبى إلا قبلنى فدفعه إليها وأجرى عليها فرجعت إلى بيتها من يومها، وهذا هو قوله (فرددناه إلى أمه كى تقر عينها) بوصلها (ولا تحزن) بفراقه (ولتعلم أن وعد الله حق) علم مشاهدة (ولكن أكثرهم لا يعلمون) أن موعده حق فيرتابون فيه. وقوله «ولتعلم أن وعد الله حق» فيه تعريض بما فرط منها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون. انتهت الحادثة الثالثة.

﴿ الحادثة الرابعة : نبوغه فى العلم ﴾

قال تعالى : (ولما بلغ أشده) مبلغه الذى لا يكاد يزيد عليه نشؤه، يقال إنه فى نحو ثلاث وثلاثين سنة (واستوى) أى بلغ أربعين سنة، ويقال انتهى شبابه وتكامل (آتيناه حكما وعلما) عقلا وفهما فى الدين فعلم وحكم موسى قبل أن يبعث نبيا (وكذلك نجزى المحسنين) أى مثل ذلك الذى فعلنا بموسى وأمه نجزى المحسنين على إحسانهم.

﴿ الحادثة الخامسة : قتله القبطى ﴾

قال تعالى (ودخل المدينة) ودخل مصر آتيا من عين شمس (على حين غفلة من أهلها) فى وقت لا يعتاد دخولها ولا يتوقعون فيه. يقال إنه وقت القيلولة (فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته، وهذا من عدوه) أحدهما ممن شايعه على دينه وهم بنو إسرائيل. والآخر من مخالفيه وهم القبط (فاستغاثه الذى من شيعته) وهو الإسرائيلى (على الذى من عدوه) أى القبطى فسأله أن يغيثه بالإعانة ولذلك عدى بعلى (فوكزه موسى) فضرب القبطى موسى بجمع كفه (فقضى عليه) أى فقتله وأصله فأنهى حياته (قال هذا من عمل الشيطان) لأنه لم يؤمر بقتل الكفار، ولأنه كان مؤمنا فيهم فلم يكن له اغتيالهم، ولا يقدح فى عصمته قتل الخطأ (إنه عدو مضل مبين) ظاهر العداوة (قال رب إنى ظلمت نفسى) بقتله (فاغفر لى) ذنبى (فغفر له) باستغفاره (إنه هو الغفور) لذنوب عباده (الرحيم) بهم، وإنما عده من عمل الشيطان وسماه ظلما واستغفر منه لأن المقربين يستعظمون كل ما فرط منهم ولو خطأ (قال رب بما أنعمت على) أى أقسم بإنعامك على بالمغفرة وغيرها لأتوبن (فلن

أكون ظهيرا للمجرمين) فلن أكون معينا لمن أدت معاونته إلى جرم ، قال ابن عباس إنه لما لم يستثن ابتلى به مرة أخرى (فأصبح فى المدينة خائفا يترقب) يترصد الاستقادة (فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه) يستغيثه ، مشتق من الصراخ (قال له موسى إنك لغوى مبين) مبين الغواية لأنك تسببت لقتل رجل وتقاتل آخر (فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما) لموسى والاسرائيلى ، ومعلوم أن القبط أعداء بنى اسرائيل (قال) الاسرائيلى (ياموسى أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفسا بالأمس) ولم يكن أحد يعلم من قوم فرعون أن موسى هو الذى قتل القبطى حتى أفشى عليه الاسرائيلى فسمعها القبطى فأتى فرعون فأخبره ، وإنما قال الإسرائيلى ذلك لأنه ظن أن موسى هم بقتل القبطى عمد إليه هو لما سمع من قوله (إنك لغوى مبين) فقال ما تقدم ، وتمامه (إن تريد) أى ما تريد (إلا أن تكون جبارا فى الأرض) تطاول على الناس ولا تنتظر العواقب (وما تريد أن تكون من المصلحين) ولما فشا أن موسى قتل القبطى أمر فرعون بقتله فخرجوا فى طلبه وسمع بذلك رجل من شيعة موسى يقال له سمعان وهو قوله تعالى « وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى » يسرع فى مشيه حتى سبق إلى موسى فأخبره وأنذره بما سمع (قال: ياموسى إن الملأ يأتمرون بك) يتشاورون فيك (ليقتلوك) وقيل يأمر بعضهم بعضا بقتلك (فاخرج) من المدينة (إنى لك من الناصحين) أى فى الأمر بالخروج (فخرج منها) موسى (خائفا) على نفسه من آل فرعون (يترقب) ينتظر لحوق طالب فيأخذه ثم لجأ إلى الله تعالى لعلمه أنه لا ملجأ إلا إليه (قال رب نجنى من القوم الظالمين) خلصنى منهم واحفظنى من لحوقهم .

﴿ الحادثة السادسة ، والحادثة السابعة ، والحادثة الثامنة ﴾

(أنه ورد ماء مدين وسقى لابنتى شعيب وتزوج بإحداهما)

قال تعالى (ولما توجه تلقاء مدين) نحوها، والتوجه: الإقبال على الشيء، ومدين: قرية شعيب عليه السلام سميت بمدين بن إبراهيم ولم تكن فى سلطان فرعون ، ولم يكن له علم بالطريق إلا حسن الظن بربه، وإنما توجه نحوها لأنه وقع فى نفسه أن بينهم وبينه قرابة لأن أهل مدين من ولد إبراهيم وموسى من ولد إبراهيم ومدين ابن إبراهيم . ولما خرج لم يكن معه زاد ولا ظهر ولا طعام إلا ورق الشجر ونبات الأرض، وما وصل إلى مدين حتى وقع خف قدميه ، وبين مصر ومدين كما قيل ثمانية أيام ، قال ابن عباس وهو أول ابتلاء ابتلاه الله لموسى (قال) موسى (عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل) قصد الطريق إلى مدين فهداه الله إليها (ولما ورد ماء مدين) هو بئر كانوا يسقون منها مواشيهم (وجد عليه) على الماء (أمة) جماعة (من الناس يسقون) مواشيهم (ووجد من دونهم) سوى الجماعة (امرأتين تذودان) تمنعان أغنامهما من الماء، لئلا تختلط بأغنامهم تحبسان غنمهما من الماء من ضعفهما حتى يفرغ القوم (قال ماخطبكما؟) ما شأنكما تذودان غنمكما (قالتا: لانسقى حتى يصدر الرعاء) يصرف الرعاء مواشيهم عن الماء حذرا عن مزاحمة الرجال فإذا صدروا سقينا نحن مواشينا من فضل مابقى فى الحوض (وأبونا شيخ كبير) لايقدر أن يسقى مواشيه فلذلك احتجنا نحن إلى سقى الغنم اضطرارا لذلك. قيل أبوهما شعيب أو ابن أخى شعيب بعد ما مات شعيب ، أو رجل ممن آمن بشعيب ، فلما سمع موسى كلامهما رق لهما ، فلما فرغ الرعاء من السقى غطوا رأس البئر بحجر لايرفعه إلا عشرة نفر فجاء موسى فرفع الحجر وحده وسقى الغنم بالدلو كما سقى الرعاء. وذلك قوله تعالى (فسقى لهما) مواشيهما رحمة ورأفة (ثم تولى إلى الظل ، فقال رب إنى لما أنزلت إلى من خير) قليل أو كثير، والمراد به الطعام (فقير) محتاج، قال ابن عباس سأل الله فلقة خبز يقيم بها صلبه ، فلما رجعتا إلى أبيهما قالتا وجدنا رجلا صالحا رحمنا فسقى لنا أغنامنا فقال لإحداهما اذهبى فادعيه إلى (فجاءته إحداهما تمشى على استحياء) مستحيية متخفرة، واسمها صفوراء، وهى التى تزوجها موسى (قالت: إن أبى يدعوك ليجزيك) ليكافئك (أجر ماسقيت لنا) جزاء سقيك لنا، فأجابها تبركا برؤية الشيخ وليستظهر بمعرفته لاطمعا فى الأجر ، فلما قدم له الطعام امتنع عنه وقال « إنا أهل بيت لانبيع

دينا بالدنيا » فقال الشيخ هذا عادتنا مع كل من ينزل بنا (فلما جاءه وقص عليه القصص قال : لاتخف نجوت من القوم الظالمين) كما دعا موسى ربه إذ قال « رب نجني من القوم الظالمين » أي فرعون وقومه (قالت إحداهما) التي استدعته (يا أبت استأجره) لرعي الغنم (إن خير من استأجرت القوي الأمين) فقال الشيخ : وماعلمك بقوته وأمانته؟ فذكرت إقلال الحجر وأنه صوب رأسه حين بلغته رسالته وأمرها بالمشي خلفه (قال إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تأجرني) أي إني أريد أن أزوجك صفوراء التي طلبتك على أن تكون أجيرا لي (ثماني حجج) أي ثمان سنين (فإن أتممت عشرا فمن عندك) أي فإن أتممت عشر سنين فذلك تفضل منك وليس بواجب عليك (وما أريد أن أشق عليك) أي ألزمك تمام العشر في مراعاة الأوقات واستيفاء الأعمال (ستجدني إن شاء الله من الصالحين) في حسن المعاملة ولين الجانب والوفاء بالمعاهدة (قال : ذلك بيني وبينك) أي ما شرطت علي فلك، وما شرطت من تزوج إحداهما فلي ، والأمر بيننا على ذلك (أيما الأجلين قضيت) أي أي الأجلين أتممت وفرغت منه الثمانية أو العشرة (فلا عدوان علي) أي لا ظلم علي بأن أطالب بأكثر منه (والله على ما نقول وكيل) شهيد بيني وبينك . قال ابن عباس « قضى أكثر الأجلين لأن رسول الله إذا قال فعل » ويقال إن شعيبا بكى ثم عمي فرد الله بصره وكرر ذلك ثلاث مرات يعمى ويرد الله بصره عليه، فقال الله له ما هذا البكاء أشواقا إلى الجنة أم خوفا من النار؟ فقال لا يارب شوقا إلى لقائك فأوحى الله اليه هنيئالك لقائي يا شعيب لذلك أخدمتك كليمي موسى . ويقال إن العصا كانت عند شعيب ورثها عن الأنبياء فسلمها إلى موسى .

(الحادثة التاسعة ، والعاشرة ، والحادية عشرة ، والثانية عشرة)

(إرسال موسى وظهور المعجزات على يديه وكفر فرعون وجنوده وهلاكهم وأنهم أئمة الضلال)

قال تعالى (فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله) قاصدا مصر بامرأته بعد أن استأذن من شعيب (آنس) أبصر (من جانب الطور نارا) من الجهة التي تلي الطور (قال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر) بخبر الطريق (أوجذوة) عود غليظ سواء أكانت في رأسه نار أم لم تكن ، ولذلك بينه بقوله (من النار لعلكم تصطلون) تستدفئون (فلما أتاها نودي من شاطىء الوادي الأيمن) يعني من جانب الوادي الذي عن يمين موسى (في البقعة المباركة) جعلها الله مباركة لأن الله تعالى كلم موسى هناك وبعثه نبيا (من الشجرة) أي من ناحية الشجرة، وكانت من العليق، ومن الشجرة بدل اشتمال من شاطىء (أن ياموسى) أي يا موسى (إني أنا رب العالمين) وقد خلق الله في نفس موسى علما ضروريا بأن المتكلم هو الله تعالى، وأن ذلك الكلام كلام الله تعالى (وأن ألق عصاك) فألقاها فصارت ثعبانا واهتزت (فلما رآها تهتز كأنها جان) أي حية صغيرة في سرعة حركتها (ولى مدبرا) هاربا منها (ولم يعقب) ولم يرجع فنودي عند ذلك (يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين) من المخاوف فانه لايخاف لدي المرسلون (اسلك يدك في جيبك) أدخلها (تخرج بيضاء من غير سوء) عيب وبرص ، والمعنى أنه أدخل يده فخرجت ولها شعاع كضوء الشمس ، ولما اعترى موسى الخوف تارة من العصا، وتارة من الدهشة بشعاع يده ، أمره الله أن يتجلد ويظهر الثبات والجرأة بقوله : (واضمم إليك جناحك من الرهب) من أجل الرهب أي الخوف ، مأخوذ من حال الطائر فانه إذا خاف نشر جناحيه وإذا أمن واطمأن ضمهما اليه ، ويجوز أن يراد واضمم يدك إلى صدرك يذهب ما بك من فرق حتى قال ابن عباس رضي الله عنهما « كل خائف إذا وضع يده على صدره زال خوفه » ولا غضاضة في إرادة المعنيين معا أي أنه يتجلد بقلبه ويضع يده على صدره ليكون تأكيدا لزوال الرعب (فذانك) أي العصا واليد (برهانان) حجتان (من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوما فاسقين) فكانوا أحقاء بأن يرسل اليهم

(قال رب إنى قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون) بها (وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءا) معينا (يصدقنى) بتلخيص الحق وتقرير الحجة وتزييف الشبهات (إنى أخاف أن يكذبون) ولسانى لا يطاوعنى عند المحاجة (قال سنشد عضدك بأخيك) سنقويك به وكان هارون بمصر (ونجعل لكما سلطانا) حجة وبرهانا (فلا يصلون إليكما) بقتل ولا سوء نسلطكما (بآياتنا) فهو متعلق بقوله سلطانا أو فلا يصلون إليكما بسبب آياتنا (أنتما ومن اتبعكما الغالبون) لفرعون وقومه (فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر مفترى) أى سحر تعمله أنت ثم تفتريه على الله وليس معجزة (وما سمعنا بهذا) الذى تدعونا إليه (فى آبائنا الأولين . وقال موسى ربى أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار) العاقبة المحمودة (إنه لا يفلح الظالمون) أى ربى أعلم منكم بحال من أهله للفلاح حيث جعله نبيا ووعده حسن العقبى ، يريد بذلك نفسه . وهو لا يرسل الكاذبين بل يخذلهم ولا ينبىء الساحرين ، والمراد بالدار هى الدنيا ، والعاقبة المحمودة أن يختم العبد بالرحمة والرضوان وتلقى الملائكة بالبشرى والغفران (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) إن قدماء المصريين كانوا يجعلون الأمة ثلاث طبقات : عليا وهم الكهنة ، ووسطى وهم الجيش ، وسفلى وهم بقية الطبقات ، وفرعون مصر من صف يشرف على الكهنة . وكانت لهم قوانين يتبعها الملوك والرعية وكان الملك مطاعا سواء أكان عادلا أم جائرا ، ولكن إذا مات يحاكمونه فان كان عادلا دخل القبرة التى له وإلا فلا وكان الملوك على كل حال مقدسين منزهين متصلين بالآباء وبالآلهة ، هذا كان اعتقادهم وليس يعتقد فرعون أنه هو الرب وحده وإنما كانت الألوهية هنا كالربوبية فى قوله تعالى «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» وفسرها صلى الله عليه وسلم بأنهم يشرعون لهم الشرائع كما تقدم ، فبهذا يقول فرعون تارة «أنا ربكم الأعلى» وتارة « ما علمت لكم من إله غيرى » ولقد كان الكهنة يحرمون على الشعب أن يعرف الحقائق وعلى تمادى الزمان قدسوا الأشخاص الانسانية وبعض أنواع الحيوان ، والفراعنة كانوا أكبر المقدسين عندهم فيكونون أكبر الآلهة لأنهم متصلون بالآلهة الذين فوقهم ، ولا تظن أن هذا بعيد ، غاية الأمر أن كثيرا من الناس غافلون . إن أمة اليابان لها ملك يزعمون أن أجداده منذ أربعة آلاف سنة جاءوا من نسل امرأة من السماء ، أى من الآلهة فهو عندهم كأنه نصف إله ، وعلى ذلك نجد أن القائد اليابانى الذى غلب دولة الروس فى الحرب بينهما ويسمى « توجى » لما مات الملك تقرب إلى الله بالانتحار هو وزوجته العجوز وإنما انتحرا ليدفنا مع الملك وذلك على حسب القاعدة الدينية : من قتل نفسه عند موت الملك كان الله راضيا عنه مع أن هذا القائد يعرف جميع العلوم العصرية ، ولا تظن أن المسلمين والنصارى وسائر الأمم خلو من هذه الفكرة فان كثيرا من مشايخ الطرق يفهمون تلاميذهم أنهم ينفعونهم ويضرونهم ، وهذه الفكرة عامة فى كل طبقة جاهلة من أى نحلة وأى دين على وجه الأرض ، وترى كثيرا من أتباع الشيوخ أحياء أو أمواتا متى سمعوا لهم أمرا التزموه كأنه منزل من الله ، بل بعض الصوفية فى عصرنا وفى غيره يقدسهم تلاميذهم ويلوون وجوههم عن كل ما يقال فى الدين ، فإذا أعطوهم وردا انكبوا عليه وإن كانوا جهلاء بهذه الدنيا وبنظام الكون ، ومنهم من يحرم عليهم النظر فى العلوم والمعارف ، ومنهم من يقول لهم إن الفقهاء قوم لا يعرفون إلا القشور ويقولون دعوا علم الفقه واتبعوا الذكر وحده وهكذا تنوعت الطرق وتنوعت الاعتقادات فتفرق أهل الإسلام وأخذهم الفرنجة ، كل هذا لأن كل ذى طريقة أو فكرة يفهم أتباعه أنه لا نجاة إلا بما عرفوه منه ويتركون بقية الدين ، وكل ذلك كقوله تعالى « ما علمت لكم من إله غيرى » فلا فرق بين أتباع فرعون فى الجهالة وبين أتباع أى دين إذا جمدوا على قول شيخهم ، وإنما ديننا هو ما أوضحناه فى هذا التفسير بحيث يكون المؤمن عارفا بربه ناظرا فى الطبيعة من حيوان ونبات وإنسان وفلك فان لم يعلم ذلك فليؤمن به وليأمر المتعلمون الجهال

بالنظر على قدر الإمكان . ولعلك تقول إذن جميع الأمم وجميع أهل الطرق بل جميع المسلمين كافرن . أقول لك . كلا . المسلمون جميعا ناجون لا أفرق بين جماعة وجماعة هذا اعتقادى الذى ألقى الله عليه ولكن الكلام فى النقص ، ففرق بين من ينجو وهو ناقص ، وبين من ينجو وهو كامل ، والتعاليم الاسلامية اليوم فى غاية النقص والجهالة . فاذا لم يتعاضد جميع الشيوخ على تعليم الشعب النظر فى هذا الوجود فلا فلاح لهم فى الدنيا وهم فى الآخرة ناقصون . حقا إن من لم يفتح أبصار المسلمين من السنيين والشيعيين والزيديين وغيرهم إلى ما نقوله فى هذا التفسير وقد اطلع عليه فان الله سبحانه يعاقبه لأنه علم وكتم ، إن الله يعاقب المسلمين اليوم جميعا فى الدنيا على جهلهم ، ويعاقب الرؤساء إذا لم يفتحوا عيون تلاميذهم إلى ما أبدع الله فى السموات والأرض ليفتح المسلمون المدارس فى الأرض وليعلموهم العلوم تعلما إجباريا لينظروا صنعة ربهم ، وحرام ثم حرام على كل شيخ أن يأمر تلاميذه بالجهالة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، إذ عرفت هذا فقد عرفت قول فرعون هنا «ماعلمت لكم من إله غيرى» فله السلطة الدنيوية والقوة الروحانية فى نظر الشعب الجاهل ، والآلهة كلهم متى أشار باشارة أنفذوها فى الشعب . هذا هو الاعتقاد الذى كان سائدا وترى نظيره فى الأرض .

﴿ حكاية ﴾

قد تقدم فى هذا التفسير لاسيما فى آخر (النساء) أن حكايات جرت لى مع الفلاحين وفيها أن المرحوم عمى الشيخ محمد شلبى سأل القائم بحديقته المسمى (أبا حمودة) أن يحلف بالله على العنب فحلف ولما قال له احلف على أبى مسلم قال لا إنى أخاف منه ، فانظر كيف جعل الشيخ أبامسلم الذى له ضريح يزوره الناس فى بلادنا بالشرقية قادرا أن يؤذيه ، فأما الله فانه رحيم ، وأى ألوهية أكثر من ذلك ، أفلا يكون فرعون عند المصريين قديما كالشيخ أبى مسلم عند أبى حمودة ، وإذا قال صلى الله عليه وسلم « إن تشريع الشرائع وتحليل الحلال وتحريم الحرام أوجب أن يسمى الأحبار والرهبان أربابا » فكيف إذا انضم لذلك عقائد التصرف فى أنفس الأحياء بالنفع والضر ، أفلا يحق لفرعون إذن أن يقول «أنا ربكم الأعلى» وأن يقول «ماعلمت لكم من إله غيرى» . يقول المؤلف وأنا أحمد الله على هذه المعانى فى هذا المقام لأن هذا يوافق العلم المنتشر عن قدماء المصريين ، وسيزيد هذا العلم وضوحا وانتشارا بين المسلمين فحق عرفوه وقرءوا هذا التفسير وجدوه مطابقا لما قرءوه فى الرسائل وعلى الأحجار وفى الأوراق البردية وفى القبور والبرابى والأهرام ، ولما كان هذا شأن فرعون وأنه سلط تسلطا ماديا وروحيا على الناس أخذ يتمم تعاليمه فطلب من وزيره أن يطبخ له الطين فيجعل اللبن آجرا أى طينا محرقا ويبنى له منارة عالية جدا ليرصد منها أوضاع الكواكب ويحسب حركاتها وينظر هل فيها مايدل على بعثة رسول وتبدل حال الأمم ، وهذا قوله تعالى (فأوقد لى ياهامان على الطين) أى اتخذ لى الآجر واطبخه (فاجعل لى صرحا) منارة (لعلى أطلع إلى إله موسى) أى إلى فعله هل فى الأفلاك الدائرات وحركات الأجرام التى خلقها دليل على أنه اختار موسى للنبوة ، أوهل هناك إله غير من نعرفهم من آلهة المصريين (وإنى لأظنه من الكاذبين) فى زعمه أنه نبى عن إله العالم الذى يغاير من نعرفهم فى أرض مصر ونحن نفعل كل شىء ونتصرف بإمدادهم (واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق) بغير استحقاق (وظنوا أنهم إلينا لايرجعون) بالنشور (فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم) كما تقدم فى التفسير (فانظر) يامحمد (كيف كان عاقبة الظالمين) وحذر قومك أن يكونوا امثالهم (وجعلناهم أئمة) قدوة للضلال بالحمل على الاضلال (يدعون إلى النار) إلى موجباتها من الكفر والمعاصى (ويوم القيامة لاينصرون) لا يدفع العذاب عنهم (وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة) طردا من الرحمة (ويوم القيامة هم من المقبوحين) من المطرودين أو ممن قبحت وجوههم .

﴿ الحادثة

﴿ الحادثة الثالثة عشرة ﴾

قال تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب) التوراة (من بعد ماأهلكنا القرون الأولى) أقوام نوح وهود وصالح ولوط (بصائرللناس) حال من الكتاب، والبصيرة: نور القلب الذي يبصر به الرشد والسعادة كما أن البصر نور العين الذي يبصر به الأجسام، أي آتيناه التوراة أنوارا للقلوب لأنها كانت عميا لاتستبصر ولا تعرف الحقائق (وهدى) من الضلالة لمن عمل به (ورحمة) لمن آمن (لعلهم يتذكرون) بما فيه من المواعظ أي ليكونوا على حال يرجى منهم التذكر (وما كنت) يامحمد (بجانب) الجبل (الغربي) وهو المكان الواقع في شق الغرب منه، وهو الذي وقع فيه ميقات موسى (إذ قضينا إلى موسى الأمر) أي كلمناه وقربناه نجيا (وما كنت من الشاهدين) من جملة الشاهدين للوحي إليه حتى تقف بالمشاهدة على ماجرى من أمر موسى في ميقاته (ولكنا أنشأنا قرونا) بعد موسى (فتطاول عليهم العمر) أي طالت أعمارهم وفترت النبوة فنسوا عهد الله واندرست العلوم ووقع التحريف والتخريف في كثير منها فارسلناك مجددا لتلك الأخبار مبينا ماوقع فيه التحريف فلذلك أعطيناك العلم بقصص الأنبياء وقصة موسى، يقول الله: أنت يامحمد ما كنت مشاهدا ماحصل لموسى من الوحي وطالت الفترة فكان ذلك سببا لإرسالك فالاستدراك بين به سبب الوحي الذي يفهم من السياق، ومثل ماقيل هنا يقال في قوله (وما كنت ثاويا) مقيما (في أهل مدين) وهم شعيب والمؤمنون به (تتلوا عليهم آياتنا) تقرؤها عليهم تعلما منهم، أي لم تقرأ الآيات التي فيها قصة شعيب (ولكنا كنا مرسلين) أي ولكنا أرسلناك واخترناك بها وعلمنا كها بعد مامضت قرون اندرست فيها العلوم فأرسلناك لتبين للناس مااندرس منها وتذكر الحقائق وتدحض المحرف منها (وما كنت بجانب الطور إذ نادينا) موسى لما أخذ الكتاب بقوة (ولكن) أعلمناك وأرسلناك بعدما اندرست العلوم وحرفت القصص (رحمة) للرحمة (من ربك لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك) في زمان الفترة بينك وبين عيسى (لعلهم يتذكرون) يتعظون بماسمعوا من هذا القصص. انتهى التفسير اللفظي للقسم الأول من السورة.

ها أنت ذا اطلعت على الحوادث التي عددناها (١٣) التي منها اثنتا عشرة حادثة حصلت لتمام أمر موسى ونجاة بني إسرائيل وهلاك أعدائهم، ابتدأت هذه الحوادث بفكرة خطرت لأم موسى أن ترضعه وألهمت أو رأت في المنام أنه محفوظ لها وسيرجع، لم تكذب هذا الإلهام ولم تيأس من رحمة الله، فكم في أمة الإسلام من رجل ومن امرأة ومن شاب ومن شيخ ومن عالم ومن جاهل تخطر لهم خواطر تحثهم على خروجهم من مأزق الذلة والهوان ومن اقتناص براثن أوروبا لهم، تخطر لهم هذه الخواطر فلا يعيرونها التفاتا، يقولون الأمرانقضى والإسلام انتهى والدنيا أدبرت والآخرة أقبلت والعالم سيزول والأرض ستذهب.

هذه هي الأراجيف والأكاذيب والوساوس التي تقوم في عقول المسلم الجاهل، لماذا؟ لأنه لم يعرف القرآن، لماذا؟ لأنه لم يعرف هذه القصة إلا كما يعرف الطفل جمال الزهرة وجمال الورق وجمال الشجر ولكن أباه يعلم أن الزهرة ذابلة والورق انما خلق لمساعدة على تغذية الشجرة والأغصان والقضبان والجذوع انما هي وسائل للثمرات والثمرات هي المقصودة، أكثر المسلمين هكذا يقرءون هذه الآيات ويمرون عليها كما يمر الطفل بالزهر والورق في الحقول والبساتين ولا يفكر في الثمر، أما أبوه فان قلبه معلق بالثمر. يظن المسلم أن المقصد من هذه القصة أن يفرح بزهراتها فيقول ماأعجب هذه القصة، انظر أيها الأخ إلى موسى كيف وضع في التابوت وكيف حفظه الله، وكيف تعلق بالشجرة في البحر، وكيف اتفق أن فرعون وزوجه وبنته كانوا يشاهدونه وقت طلوع الشمس، وكيف شفى الله بنت فرعون بريقه، وكيف ظهر نوره فأحبه فرعون وآسية؟ فياعجبا لذلك، وكيف رجع إلى أمه ثانيا فأرضعته، وكيف أيد الله أخته فدلتهم على أمه

وكيف كتم الخبر وربط الله على قلب أم موسى ، وكيف جاء رجل من شيعة موسى يقول له : اخرج نصيحة له ، وكيف قدر أن يرفع الحجر الذى لا يرفعه إلا عشرة وما أشبه ذلك ، فهذه العجائب يقف عندها أكثر الناس ، وهم فى ذلك أشبه بالأطفال يفرحون بالزهرات . أما العقلاء فانهم يقولون : ياقوم لاتقفوا موقف الأطفال فكما أن الزهرات مقدمات للثمرات هكذا هذه العجائب مقدمات لما هو أهم منها ، إن جمال تلك القصص مسوق لما به السعادة ، وما به السعادة إما حفظ الأخلاق للأفراد وإما حفظ الأمم للجماعات . هذا هو المقصود ، فاذا قرأ القارىء أن موسى كان عفيفا حين رأى بنت شعيب ، وأنه كان أمينا عليها ، حتى أمرها أن تمشى خلفه وأن هذه العفة وهذه الأمانة رفعته فى عين شعيب وابنته ، تشوق القارىء الذكى أن يكون كموسى أمانة وعفة وكذلك يقلده فى العطف على كل ضعيف ويقول إن هذه الأخلاق انتهت بالنبوة ، فهكذا كل الأخلاق الفاضلة تنتهى بجلال المرء ، وبالفتوح الذى يفتحه الله عليه .

(نظرة المسلمين فى هذا الزمان)

وإذا نظر المسلمون هذه القصة فى هذا الزمان علموا أنها مسوقة لإسعادهم وإعزازهم وإخراجهم من المآزق والهلاك . إن المسلمين اليوم فى ذل وجهل ما بعده جهل ، ولكن عقول المسلمين أشبه بأرض خصبة تحتاج إلى البذر وإنزال الماء فيخرج نبات حسن منها ، هكذا إذا عرف المسلمون مقاصد أمثال هذه الآيات خرجوا عما هم فيه من الذلة . علم الله أن المسلمين سينامون وسيمر عليهم ما مر على الأمم قبلهم ، وسيذوقون السوء ، فأنزل لهم هذه القصة ، يقول أى عبادى : إن نجاة بنى إسرائيل كان مبدؤها فكرة خطرت لأم موسى ، وإلهاما ألهمته لها فلم تنبذ الإلهام ، وتبع ذلك أمور وأمور ، أخذت هذه الصالحة تفكر ، فيم فكرت ؟ فكرت فى نجاة ابنها ونجاة فرد من مجموع نافعة المجموع فأرسلت ابنتها تدلهم على من يكفله ، وكتمت السر وظهرت لفرعون كأنها ليست أمه وهكذا ، كل ذلك بعد الفكرة الأولى لم تيأس من رحمة الله .

أيها المسلمون أتدرون لم وقعتم فى الذل ؟ إنكم يئستم من رحمتى فى الدنيا ولم تيأسوا منها فى الآخرة وهذا خطأ محض ، أنا رحيم فى الدنيا ورحيم فى الآخرة ، إن يأسكم فى الدنيا من نصرى لكم أقعدكم عن التفكير فى الخروج من الذل ، وأنا لا أعطى إلا من فكر ، كم من رجل منكم خطر له أن ينفع أمته ، كم من شاب ، كم من امرأة ؟ كثير جدا منكم يفكرون كل يوم فى الخروج من الذل ، ولكن إذا جاء لهم الفكر طردوه كأنه من كلام الأبالسة ، كأنه من كلام الشياطين . أى عبادى إن الفكر الصالح يمر بخواطركم ، أنا لم أمنعه ، أنا لم أقص عليكم هذا القصص لأقول لكم إن الإلهام خاص بمن مضى أو بأم موسى . كلا ، إن الالهام الخير موجود مستفيض كما يستفيض ضياء الشمس على أرضكم ، وقد يحجبه ليل أو سحاب ولكنه لا يزال موجودا ولكن خطباؤكم والجهال من شيوخكم قالوا لكم إن الزمان قد قرب والدنيا ستخرب فصدقتموهم مع أنى لم أطلع أحدا على غيبى فكيف تحرمون من السعادة ؟ كلام هؤلاء الشيوخ هو السحب المانعة لضوء شمس العلم التى ألقيها على قلوبكم . هو الليل البهيم الذى تنام فيه الناس وتقفل أبصارها لذلك حرمتم من النصر وحرمتم من السعادة ؛ أى عبادى إن حرمانكم من الرقى هذا هو سببه وإلا فان خطرات السعادة محيطة بكم ؛ فاياكم أن تسمعوا لكلام هؤلاء الشيوخ المثبطين ، فاذا خطر لكم خاطر النصر وأن تقوموا بإسعاد هذه الأمة أو بإسعاد أنفسكم أو بحفظ بلادكم أو بطرد العدو منها . فلتعلموا أن هذا الخاطر قدسى يجب أن يبنى على الفكر والسعى والجد والكتمان وحفظ السر كما فعلت أم موسى ، فان فكرتها نمت وترعرعت وكان من نتائجها أن موسى قوى وكبر وتعلم وابتلى بقتل القبطى ، وهذا الابتلاء كان سبب نعمة

لا تهمة لأنه به خرج إلى أرض مدين وقابل شعيبا وتزوج ابنته ورجع فأوحى اليه فرجع إلى فرعون فأخرج بنى إسرائيل . يقول الله لا تدعوا أيها المسلمون خواطر الاصلاح فليس إنعامى محجوبا عن عبادى . أنا إليكم ناظر ومن خطر له خاطر الإصلاح فليعلم أنى معه لا سيما الاصلاح العام فانى مع المحسنين ودعاء من يدعو إلى إصلاح الجميع مقبول نافع ، وكلما كان المرء ساعيا فى مصلحة العموم كنت معه مؤيدا وحافظا وناصرا . كم من المسلمين من أضاعوا حياتهم سدى يقرءون هذه الآيات فلا يزيدون على التعجب ولا يزيدون على أن فرعون ادعى الألوهية ويذمونه، وليس لهم وراء ذلك مطلب بل المتعلم الذى قرأ علوم قدماء المصريين المتشرة حين يقرأ هذه الآية يقول : كيف يقول فرعون « ما علمت لكم من إله غيرى » مع أنهم كانوا يعبدون آلهة مثل (سيزوستريس) و (إيزيس) وما أشبه ذلك ، ويظن أن القرآن غاب عنه ما قرأه هو فى أوراق البردى أو تلقنه ممن قرأه ويقول مالى ولهذا القصص وهو غافل عما ذكرناه من معنى الألوهية والربوبية فيما تقدم بأوضح مقال وذاهل عما سيق له الحديث الذى نحن بصدده حديث رقى الأمم وخروجها من الذل والاستعباد . هكذا فليخرج المسلمون اليوم أو غدا وهذا أمر محقق لا شك فيه عندى وسيقرأ هذا المسلمون بعدنا ويرون أنهم نالوا ما ذكرناه . وستشيع أمثال هذه الآراء فى الاسلام وسيكونون « خير أمة أخرجت للناس » وكيف لا يصيرون كذلك وقد تقدم فى (سورة النمل) أن الله يقول « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » أليس هذا وعدا لنا بأننا ستعرف العلوم وعجائب الأرض والسموات ، وهل وعد الله يخلف ؟ أليس نبينا محمد صلى الله عليه وسلم له المقام المحمود ويعطى لواء الحمد ؟ أو ليس الحمد إنما يكون على نعم ؟ أو ليس أهم النعم هو العلم ، أو ليس حمد الأولين والآخرين له على العلم الذى ترقى به أمته ، فاذا كان مقامه محمودا وهو رافع لواء الحمد فنتيجة ذلك كله أن تكون أمته أعلم الأمم ، وإذا كان شافعا لأمته فان الشفاعة على مقتضى الهداية ولا هداية إلا بعلم ، فالعلم سيعم الأمة الاسلامية وسيخرجون من الذل وسيفكرون فى إخراج أنفسهم من الهوان والجهل كما فعلت أم موسى إذ انبعث الالهام بأن ابنها سيرجع لها بالعمل وتسلسلت حوادث كانت نتيجتها خروج أمتها من الذلة . وهنا لطائف :

﴿ اللطيفة الأولى ﴾

اعلم أن الناس يعجبون من أمر موسى ، ويعجبون من أمر موسى ، وكيف نجا ، وكيف خرج بنو إسرائيل وهم فى كل وقت يشاهدون أمثال هذا ولا يعجبون ؟ . أليس الانسان يأكل الفاكهة مع أن حصولها بين يديه عجيب كأم موسى وموسى وخروج بنى إسرائيل . ألست الفاكهة من البستان فهل كان الحداد الذى يصنع المحراث يقصد الشجرة التى منها فاكهتك ؟ وهل كانت البهائم التى خرج منها ما به تسمد الأرض تقصد أن تنال أنت الفاكهة . وهل كان الذى يستخرج الليف من النخل لصنع حبال البهائم التى تحرث الأرض يقصد فاكهتك . انظر حوادث كثيرة من بحار وسحاب ومدار وحديد وخشب تجمعت من أقطار شتى ، ونتيجتها وصول الفاكهة إليك . إن المفكرين يعجبون من الطبيعة وغرائبها كما تعجب أنت من قصص موسى وأمه وخروج بنى إسرائيل ، ولكن لما كان هذا القصص غائبا حلا فى السمع ، أما عجائب الطبيعة فان اللطائف الموجهة من الله إلينا أعجب وأعجب ، وإلا فأين دوران الشمس فى فلكها ودوران الأرض حول نفسها ودورانها حول الشمس بحساب بديع ؟ . أليس ذلك من أسباب هذه الفاكهة ؟ . ولو أن حساب الشمس والأرض اختل ما أمكن ظهور هذه الفاكهة لأنها تحتاج إلى حرارة بمقدار ، فمتى اختلت الشمس فى سيرها اختلت الحرارة فى نزولها على الأرض فذهبت المنافع ولكن هذه العجائب يجهلها أكثر الناس « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

(اللطيفة الثانية)

لعلك تقول: من لى بأن اعتقد ما أعتقدته أم موسى، ومن لى بذلك، ومن أنا ؟ إن ذلك فى زمان مضى وانقضى . فأين البرهان على ذلك فى هذا الزمان ؟ أقول: على رسلك ، أليست الحرب العظمى قلبت الكرة الأرضية . أليس سببها أن عالما يسمى (ماركس) وهو ألمانى أخرج كتبا للناس قائلا يجب إزالة هذه النظامات الأرضية، ومن هذه الفكرة تعلم الروسيون، وبها وحدها انقلبت الدولة فصارت بلشفية . ألم تكن دولة الفرس مقسمة بين الانجليز والروس . أفليست الحرب العظمى جعلتها حرة مطلقة من كل قيد . انظر أين فكرة ماركس الألمانى وخلاص الفرس . أليس ذلك من قوله تعالى « إن ربى لطيف لما يشاء » وأى لطف أعجب من هذا ؟ تلطف فى خلق الأفكار وبثها بين الناس حتى عمت الكرة الأرضية وانتهت باستقلال الروس وتبع ذلك بلاد الفرس . أليس هذا كمسألة أم موسى قصدت إنقاذ ولدها فأنقذ بنو إسرائيل، وكدوران الشمس بحساب بلا خطأ فى سيرها فكانت الحرارة منتظمة على قدر إنضاج الفاكهة ولولا ذلك ليئس الفلاح ولم يزرع . أليس ذلك كما فصل الله فى ماء النيل . أنزله فى الأرض كل عام فيصل ما بين (٤١) مليارا من الأمتار المكعبة وبين (١٠٠) مليار . ونتيجة ذلك ظهور الزارع . ولا ينزل ذلك الماء إلا بالبخار ولا بخار إلا بالحرارة ولا حرارة منتظمة إلا بانتظام سير الشمس فأين سير الشمس، وأين الفاكهة ؟ هناك سلسلة منتظمة انتهت بالفاكهة . وهناك سلسلة منتظمة انتهت باستقلال الفرس . وهناك سلسلة منتظمة انتهت بخروج بنى إسرائيل ومبدؤها إلهام أم موسى وهناك سلسلة منتظمة بها استقلت دولة الأفغان لما قام الأفغان فحاربوا الإنجليز أيام الحرب العظمى واستقلت البلاد إلى الآن . وهناك سلسلة منتظمة ستحصل بعد قراءة هذا الكتاب فينظر المسلمون ويقرءون قوله تعالى هنا «وما كنت ثاويا فى أهل مدين» إلى قوله «ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون» فهذا الذى قررته هو الرحمة وهذا هو التذكير، يتذكر المسلمون هذا القصص فيستخرجون منه خلاصة وثمرة، هى أن يفكروا فى الخلاص ويستمروا فينجحوا ، يفكر المسلمون فيقولون: نحن «خير أمة أخرجت للناس» فكيف كانت هممنا منحطة لنرجع إلى القرآن وليعرف الناس أنه يأمرنا أن نعشق جمال الله فى العوالم العلوية والسفلية وهذا الجمال لاحد له والعمر كله مدة دراسة والارتقاء لاحد له وهذه القصة وأمثالها إنما هى كشجرة فلنأخذ ثمرها ولا نكتفى بظلالها والثمرات: إما أخلاق كعفة موسى وإما إيمان بالله خيفة الهلاك كما هلك قوم فرعون ، يقول المسلم: أنا مسلم فكيف أهلك ؟ نقول له ولكنك ذليل بعيد عن العلم ، فانظر كما نظرت أم موسى وخلص أمتك من الذلة والهوان ، قل لها كونى منتظمة ، كونى مفكرة ، تعلمى، اسعى للرقى والنجاح ، اجتهدى، انشرى العلوم . إن العلوم بها محبة الله. إن الإنسان لاخير فى حياته بدون النظر فى هذا الجمال . إن العقول إذا وقفت تقهقرت وإذا تقهقرت انحطت، واذا نزلت هلكت وبئس المصير .

سيقول المسلمون بعد هذا التفسير وانتشاره إن شاء الله: مالنا قد امتزنا فى جميع الكرة الأرضية بالجهالة، فى بلاد الشرق والغرب أصبحنا عالة على الأمم ، لماذا نرى المسلم فى بلاد سيام كما يقول رجالها لا يرتقى عن الفلاحة إلا قليلا، فأما غيره فانه يمسك بعنان السعادة ويسافر للعلم ويحظى بالخير والعز ، مالنا نرى المسلم الصينى شاذا بعيدا عن العلم، والوثنى هو القائم بالعلم وبالحكمة وبشئون الدولة ، مالنا نرى المسلم أينما حللنا أو ارتحلنا واقفا فى مكانه ومتى قال من بعدنا هذا القول تجلت لهم الحقائق وأظهروا مكنون العلم وأيقظوا الأمة ونشروا فيها ما كتبناه فى القرآن وما يكتبه غيرنا وانقلب الأمر فأصبح المسلم أقوى من غيره فى العلوم والمعارف لما يرى من عجائب القرآن التى شرحناها وشرحها المتقدمون والمتأخرون .

هذا بعض مايقصد من هذا القصص ومن قول الله تعالى « ولكن رحمة من ربك » إلى قوله «لعلهم يتذكرون » هذا هو القصد من إنزال هذا القصص فالقصد الرحمة والتذكر أى أن الله رحمنا بالتذكر فيما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك هو المذكور فى الحادثة الثالثة عشرة ليرينا أن القرآن لهذا أنزل فليس يقصد أن نفرح ببنى إسرائيل بل نفرح بما نتذكر وبالرحمة التى تنالها من التذكير فلا خير فى شجر لاثمر له . ولا خير فى علم لانفع له . ولا خير فى أمة لاهمة لها . ولا خير فى قراءة دين لايعقله قارئوه . ولا خير ولارحمة إلا لمن يتذكرون ويعقلون ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ البلاغة والعلوم ﴾

ينظر قوم إلى القرآن من جهة البلاغة ويظنون أنهم إذا عرفوا الجناس فى قوله «إلى إله موسى» وعرفوا ماسأقصه عليك، وهو قول الأصمعى حكاية عن فتاة عربية قالت إن فى قوله تعالى « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فاذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين» قالت الفتاة إن فيها أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين . فالخبران أوحينا وخفت . والأمران ألقيه وأرضعيه . والنهيان لاتخافى ولاتحزنى . والبشارتان «إنا رادوه إليك، وجاعلوه من المرسلين» .

أقول ينظر قوم إلى القرآن من هذه الوجهة فيطربون لعجائب التركيب والبلاغة ولهم الحق فى ذلك ولكن هل لهذا أنزل القرآن .

إن البلاغة علم يرجع إلى تركيب الألفاظ ونسق الكلام، فهل هذا كاف ؟ كلا ثم كلا . إن المقام ليس مقام استدلال على أن القرآن معجز فليس هذا نهاية العلم . إن نهاية العلم أن يدرس ويستخرج منه مايجب علينا دراسته فى هذه الحياة .

﴿ قصص موسى أيضا ومناسبة قوله تعالى «ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ماأتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون ﴾

لقد عرفت آنفا مقاصد البلاغة وأنها لقوم مبتدئين فى العلم وأنها مفتاح الفهم ، أما الفهم فانه وراء ذلك فالبلاغة مفتاح خزائن العلم والعلم فى نفس الخزائن وفرق بين مفاتيح الخزائن وبين المخزون ، هل فيما أنبئك بشىء من المخزون فى هذه السورة ؟ أنت تعلم أن قصص موسى قد كرر فى القرآن وتكراره يصعب على كثير من الناس إدراك سببه . فأما عالم البلاغة إذا كان حاد البصيرة فانه يقول: الإطناب فى مقام والايجاز فى مقام لمراعاة المقامات وهذا لابأس به وهو حق، ولكن أين الفائدة الحقيقية ؟ فعالم البلاغة لاقدرة له على الاجابة ولكن انظر مخزون العلم ومكنون الحكمة ، انظر وتعجب ، ذكرت قصة فرعون وموسى فى (طه) وفى (الشعراء) وفى هذه السورة . لقد اطلعت على (طه) فانظر ألست ترى أنه فيها شرح مسألة العصا ومسألة عجل السامرى. وأطنب فيهما ليرينا أن المدار على العلوم العقلية، فأما خوارق العادات فانها تنفع مؤقتا ، فالإيمان بها كأنه ظل لاثبات له وذلك لأن الصور المادية ظلال الحقائق فيكون الإيمان بها ظلا لاثبات له . وملخص ذلك أنه يراد أن تكون الأمة الإسلامية أمة علم وحكمة، لا أمة خوارق عادات للصالحين ولا للطالحين وقد تقدم هذا .

ولقد ذكر فى تلك السورة عجائب الأرض والسماء ليتم القصد من هذه الموازنة . هذا فى (سورة طه) وليكون ذلك تبصرة وتذكرة للمسلمين . أما فى (سورة الشعراء) فقد أطال القول فى السحرة وشرح المقام شرحا وافيا فأوجب ذلك النظر فى السحر وحده وشرحه كما فعلنا هناك وذكرنا سحرهم على قدر مايسعه المقام

أما فى هذه السورة فان القصة أتت لغرض آخر كأنها شرح لقوله صلى الله عليه وسلم فى الصحيح «بدا الإسلام غريبا وسيعود كما بدا» .

إن الأمة الإسلامية فى أول أمرها كانت قليلة العدد وكانوا مضطهدين من الكفار، وهاجر بعضهم إلى الحبشة ثم هاجروا جميعا إلى المدينة ثم أعزهم الله فبدءوا بدءا غريبا لم يكن له نظير فى سرعة الرقى والانتشار والمنعة ، بعد الخوف والقلة والضعف ، ثم ماذا ؟ إنهم انتشروا فى الأرض وترجموا علوم الأمم فتحقق بذلك كونه « رحمة للعالمين » لأن أمته حفظت العلم وسلمته إلى أمم الغرب والشرق ، والبرهان على عموم رحمته للشرق والغرب الألفاظ الآتية فى العلوم فانها تنطق بلسان فصيح أن محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فى جميع الكرة الأرضية لأنه لولا أمته ماحفظت هذه العلوم .

﴿ الألفاظ العربية فى العلوم العصرية ﴾

(علم الفلك)

السمت والنظير .

(الكيمياء والطب)

الانبيق. الالكحول . القلى . البورق . الشراب . الجلاب . الاكسير . اللعوق . السنا . الكافور .

(الموسيقى)

العود . الطبل . الطنبور

(فن الملاحة)

أمير البحر . الترسانة . الحبل . الجلفاط . الرصيف . الموسم . الفلك .

(فن التجارة)

التصريف . الديوان . المخزن . البازار . القيروان . الترجمان .

هكذا أخذ الأوروبيون عن المسلمين الأرقام الهندية وأصول الجبر والهندسة والنقوش وبناء الحصون والقلاع والسفن الحربية والحجزة والمناور وكثيرا من الفوائد الصناعية والزراعية التى هدت أوروبا إلى الحال الحاضرة من العمران والتقدم ، وإنما نقلت لك هذا لتفهم هنا قوله تعالى « ولكن رحمة من ربك » وتفهم أيضا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » هذا هو معنى هذه الرحمة ، فانظر كلمات العلوم العربية التى لا تزال تنطق بلسان فصيح بهذه الآية، وبقوله تعالى « وإنه لذكر لك ولقومك» هذا ماحصل فى الزمان الماضى ولكن هذه السورة جاء فيها ذكر قصص فرعون بطريق آخر كما قدمنا لم يقصد فيها شرح السحر ولا الموازنة بين عصا موسى وعجل السامرى، بل أريد أن تجعل القصة بابا للحرية والخروج الأذلاء من ذلهم، فذكر الحوادث الثلاثة عشرة التى بها خرج بنو إسرائيل . يقول للمسلمين إذا وقعتم فى الذل فلتخرجوا منه كما خرج بنو إسرائيل، وسيكون شأنكم غريبا بعد ذلكم كما كان غريبا فى أول أمركم فإذا تقهقرتم أيها المسلمون ولا مناص من تقهقركم « وتلك الأيام نداولها بين الناس » لا فرق بين الأمم والديانات فى الأرض كلها فإن الباب مفتوح لخروجكم من ذلكم، وانظروا قصص بنى إسرائيل فلتخرجوا كما خرجوا ولترجعوا المجد الذى فقدتموه، ولتكونوا رحمة للعالمين كما كنتم سابقا . وإذا كنتم فى مجدكم الأول حفظتم العلوم وسلمتموها للأمم، فإذا رجعتم هذه المرة فاقرءوا العلوم وعلموا الأمم كيف يكون العدل وعمارة الأرض لأنكم كنتم رحمة أولا لمناسبة ذلك الزمان فلتكونوا رحمة على حسب الزمان المستقبل ولهذا كله يشير قوله تعالى « ولكن رحمة من ربك » بعد ذكر انتصار بنى إسرائيل فيكون الإسلام غريبا فى سيره اليوم بأن ينتشر أهله بسرعة غريبة لانظير لها كما انتشر فى المرة الأولى انتشارا لا نظير له، وكما حفظ المسلمون العلوم أولا ونفعوا الأمم فليرثوها من أهلها ثانيا وليرقوا النوع الإنسانى . هذا ما فهمته من قوله

تعالى

تعالى « ولكن رحمة من ربك » وفى التعبير بمعنى التربية إشارة إلى ماذكرناه و« لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء »

(جوهرة فى قوله تعالى « إن فرعون علا فى الأرض » إلى قوله « إنه كان المفسدين »)

اللهم إنك أنت المنعم المتفضل اللهم ، أنت الرحيم ، رحمت الجنين فى رحم أمه ، ورحمت الحشرات فى الفلوات والأنعام فى المراتع ، لم تذر عالما من العوالم إلا شملته برحمتك . اللهم إننا فى هذه الأرض قد غمرتنا رحماتك وشملتنا أنوارك ظاهرا وباطنا كما قلت فى سورة الروم « وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة » ولكننا محبوسون فى حواسنا مغمورون فى ذنوبنا وعواطفنا ومطالبنا فصرفنا عن فهم النعمة وحولنا عقولنا إلى أمور غير عظيمة تحويلا مزريا بإنسانيتنا وبشرف أصلنا فى العالم العلوى ، فكأننا بهذا الصرف معذبون ونحن غير عالمين .

أنت رحمن رحيم للأفراد وللأمم ، وهذه أمتنا الاسلامية المترامية الأطراف قد بذرت بذور العلم والرقى فى الأمم شرقا وغربا ثم دالت دولها ونامت آمادا وآمادا ، وها هى ذه تريد الرقى كرة أخرى وهذا كتابك بين يدى الآن أكتب هذه الكلمات فى تفسيره ، وقد قدرت فى علمك القديم أن يكون هذا التفسير فى زمان نطلع فيه على مجمل سياسيات الأمم الاسلامية القديمة والحديثة وعلى سياسة الأمم المحيطة بنا . فها نحن الآن ننظر فنرى آباءنا العرب ومن اهتدوا بهديهم من الأمم بدين الاسلام قد سلطتهم على أرضك وخولت لهم ممالكك وأودعتهم ودائعك فقاموا بالأمانة ماشاء الله أن يقوموا ثم خلع الأبناء عن أنفسهم فضائل الآباء، وتركوا مواهبهم وناموا وكسلوا وبطروا ولم يقوموا برعاية عبادك كما وصيتهم فى كتابك فأخذت منهم أرضك وأعطيتها لغيرهم وقرأنا تاريخهم وعرفنا مدى رقيهم ومدى ضعفهم وتبين ذلك فيما تقدم فى (سورة النمل) عند آية « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها » وما بعد ذلك من أن بيوتهم خاوية بما ظلموا . إذن هذا التفسير اليوم قد جاءت فيه ملاحظات على الأمم الإسلامية السابقة وأن ما تم لهم كله مصداق للقرآن الكريم .

يا سبحان الله ويا سعدانه ، فكيف نسمع الله عز وجل يقول فى (سورة النمل) ما تقدم من إفساد الملوك للأرض إذا دخلوها ، وكيف يذكر أن بيوتهم خاوية بما ظلموا ثم تأتى هذه السورة فيكون مبدؤها فيه هذا المعنى نفسه ونهايتها فيه مصداقه فكان فيها رد العجز على الصدر المذكور فى علم البديع . إن تفسير القرآن على هذا النمط فى زماننا مرآة ترى فيه آثار الأمم والدول المصدقات لكتابنا المقدس . أول هذه السورة (أمران : الأول) علو فرعون فى الأرض مع استضعاف أهلها وجعلهم شيعا وتذبيح أبنائهم (الثانى) أنه مفسد من المفسدين . هذا هو الذى جاء فى أول هذه السورة . فانظر أيها الذكى إلى ما جاء فى آخرها ، ما هو ؟ هو ذكر قارون وأنه كان من قوم موسى ، فماذا فعل ؟ بغى على قومه وفرح بماله الوفير ونصحه الناصحون فقالوا له « ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لا يحب المفسدين » وهذه القصة القارونية تضمنت إن الله لا يحب الفرحين ولا يحب المفسدين ، ومعلوم أن الفرح صفة لمن يعلو فى الأرض . إذن هذه القصة تضمنت النهى عن العلو المذكور فى أول السورة وعن الفساد . إذن قصة فرعون جاءت فى أول السورة لذم العلو والفساد ومثلها قصة قارون فى آخرها . ثم انظر كيف قال فى آخر السورة « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين » فجل الله وجل العلم وجلت الحكمة . هذا معنى قول الله تعالى « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .

انظر لحكم الله عز وجل فى القرآن أيها الذكى، انظر إلى القرآن فى ظاهر الأمر ، إن الناظر للقرآن نظرا سطحيا لايتخيل هذه الحكم ، العربى فى البادية عرف تأثير القرآن بغرزته وفطرته ولكننا نحن الآن نقف على جوهره وبدائعه وحكمه . جل الله . إن ما نعرفه الآن فى حكم القرآن وبدائعه أجل وأرفع مما عرفه علماء البلاغة السابقون . إذن كأن هذه السورة يقصد بها ألا تعلو فى الأرض وألا نفسد فيها .

المفسدون فى الأرض هم الذين يغلبون الأمم ويحكمونهم ليكونوا عالة عليهم ليذلوهم وليكونوا أشبه بالنمور والأسود والذئاب ، والناس أمامهم كالغزلان والأرانب . وهذه الصفة هى التى وصفها ابن خلدون فيما نقلناه عنه فى سورة النمل فى الآية المتقدمة فى صفة الأمم العربية المتأخرة التى تركت دينها فكان ذلك مصداقا لتخوف النبى صلى الله عليه وسلم من فتوح البلدان ومصداقا لقوله تعالى « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم » ولما ظهر من سورة الأنفال تلك السورة التى جاء نظمها فى الحكمة أشبه بما جاء فى هذه السورة . ألا تراه تعالى يقول فى أول السورة « وإن فريقا من المؤمنين لكارهون » إلى قوله « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم » الخ . وملخص المعنى هناك أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يريدون أن يستولوا على العير التى مع أبى سفيان ويتركوا الجيش الكبير الذاهب إلى بدر لمحاربتهم لأن العير التى مع أبى سفيان غنيمة لا تحتاج إلى قتال ، وأما الجيش المتوجه إلى قتالهم فانه يحتاج إلى قتال وعمل شاق ، فاختار الله لهم مواجهة الجيش لأن المال ليس هو المقصود بل المقصود إعلاء كلمة الله لا غير وإعلاء كلمة الله لا تكون بالاستيلاء على الغنائم بل بمحاربة الرجال والطعن والنزال . وجاء فى آخر السورة قوله تعالى « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله » . فتأمل فى هذه الآيات وتعجب ، حذر الله المسلمين فقال « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » ثم ذكر العذاب وأبان أنه ملازم لعرض الدنيا غاية الأمر أن الله أباح الغنائم لنا لأجل حفظ بلاده فهذه الغنائم يلازمها العذاب ولكن الله لم يعذب المسلمين ولم يمنعهم من الغنائم ذلك لأنهم بها كانوا نعمة على الأمم ولكن المفسدون فى الأرض من الأجيال التى جاءت بعد القرون الثلاثة لم يجعلوا الغنائم لحفظ الأمم بل جعلوها لشهواتهم وهذا هو الذى يهلك الأمم . فالدمار الذى حل بأمم الإسلام كله تطبيق على القرآن . فإذا رأينا أهل الأندلس كما تقدم فى السورتين السابقتين لهذه صاروا (٢٠) مملكة فاقرأها فيما تقدم . وإذا رأينا بنى العباس فى آخر أمرهم تفرقت دولتهم شذر مذر فى أيام خلافتهم . وإذا رأينا أمة الترك بعد ذلك كانت تفعل تحت خلافة بنى عثمان ماكانت تفعله الأمم العربية بعد الصدر الأول أيقنا أن هذا كله تفسير لهذه الآية وأن مال الغنائم المستعمل فى غير ما وضع له يجعل الأمم التى ملكته فرحة به مفسدة فى الأرض والله لايحب الفرحين ولا يحب المفسدين ، وإنما فرح هؤلاء بالمال لأنهم وجدوا أن القصد من الحياة هى اللذات والنوم والكسل بلا عمل وهذه صناعة الديدان فى الأرض ، فالله ينتقم من هذه الأمم بالاذلال ، ومن تأمل أول القصص وآخرها وجدهما مطابقين لأول (الأنفال) وآخرها . وما القصص فى القرآن إلا إيضاح للحكم المودعة فى القرآن ، فالله أبان فى الأنفال أن عذاب الله يمس من يأخذون الغنائم ولكنه أباحه لكم بمقتضى ما سبق فى علمه القديم وهو أن أمثال أبى بكر وعمر وكثير من الصحابة والتابعين لم يجعلوا المال وجهتهم فكان عمر يخطب على المنبر بثوب مرقع وأبو بكر يحرم على أهل بيته أخذ شىء من الغنائم إلا للضرورة فهؤلاء هم الذين فهموا القرآن وفهموا فضل النبى صلى الله عليه وسلم وفهموا قوله تعالى :

« إن

« إن فرعون علا فى الأرض » وفهموا قصة قارون وما فيها من ذم الفساد فى الأرض وذم الفرحين ، لذلك تبرءوا من المال . أما ملوك الإسلام فأكثرهم جهلوا هذه المعانى فانحطت عزائمهم وخارت قواهم وذهبت دولهم لأنهم لم يفهموا لم أحلت الغنائم ولم يفهموا قوله تعالى « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » فكأن قصة فرعون فى هذه السورة وقصة قارون إيضاح لما تقدم فى سورة الأنفال من المذكور فى أولها والمذكور فى آخرها ، ثم اعجب من قول قارون « قال إنما أوتيته على علم عندى والرد عليه من الله بقوله أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون » الخ فهذا مثل قوله فى (الأنفال) « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » ثم انظر إلى قوله تعالى « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون » فهذا فتح باب للعلم والحكمة والعلم هو الذى شرح أمر المال ، فترى الفيلسوف (قابس) قبل الميلاد بنحو (٥٠٠) سنة ألف الكتاب المسمى [لغز قابس] وفيه أبان أن السعادة ليست هى المال وحده ولا الملك ولا الأدب المزور ولا غيرها من عرض الدنيا وإنما السعادة تَرجع إلى كمال النفس بالصبر والوقار والحلم فاقرأ ملخصه فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى « وبشر الصابرين » الخ وترى كتاب (الكوخ الهندى) المؤلف حديثا ينحو هذا النحو . وترى أفلاطون فى جمهوريته يبين طبقات الحكام والمحكومين ويذكر أن الأمة إذا حكمها أهل الطمع فى المال وجمعه أحاط بها وبهم الذل . فالأغنياء يجمعون المال والشعب يذل وكل منهم فى شقاء . والأغنياء مهددون من الفقراء لقلة الأولين وكثرة الآخرين .

ونظرة فيما تقدم فى (سورة النحل) عند آية الملوك المفسدين وغيرها تعرف أن المال آلة للشقاوة عند قوم وللسعادة عند آخرين ، فهو تابع لعقول المستعملين له شرفا وضعة ، إن القرآن لم يهمل نظام الأفراد ولا نظام الأمم بل سلك كل سبيل لاسعادهما وإنما هذه الأمم الإسلامية حيل بينها وبينه ، فهو كتاب يفسره كل علم فى الأرض قبله وبعده . ومن عجب أن أكبر الفلاسفة جاء بحثه على مقتضى هذه الآيات . ولقد قرر أفلاطون وقبله سقراط أن هذه الحياة الدنيا أشبه بالعدم لأن المادة فى نظرهم ليست شيئا مذكورا . لماذا لأنها متغيرة وكل متغير متقلب غير ثابت لا يستحق اسم الوجود بل الذى يستحق اسم الوجود إنما هو الدائم والدائم إنما هى النفوس والعقول وفوقهما الله . وبناء عليه وجهوا عقول الناس إلى مبدع الكون وازدروا بالدنيا ازدراء تاما بهذا البرهان مع أنهما وضعا أشرف النواميس والقوانين للحكومات وللجيوش وللأمم ليعيش الناس بسعادة . اللهم إنى لأعجب من كتابنا كيف يكون هذا هو مشربه ثم يجهله المتأخرون. يا سبحان الله . كيف يختم الله السورة بهذه الآية « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » وكيف يكون نفس هذا القول ملخص آراء أكابر الحكماء فى العالم، وعليه يجب على أن كتب فى سورة القتال عند آية « فاعلم أنه لا إله إلا الله » تلك الرسالة المسماة (مرآة الفلسفة) ليطلع المسلمون بعدنا على ملخص فلسفة الأمم قديما وحديثا ويفهموا كيف يقول أولئك الفلاسفة: إن المادة غير موجودة وإن هذه العوالم أشبه بالخيال ، وكيف يتجه أفلاطون وسقراط إلى الخير المحض (الله) وكيف يقول علماء أوروبا الحاليين إن علومهم فى هذا المقام ليست شيئاً مذكورا بالنسبة لعلوم علماء اليونان المذكورين ، وكيف نرى ألمانيا تتبع مذهب (كنت) الألمانى لمذهبه يقرب من رأى أفلاطون ، إن المسلمين يجب أن يطلع كبراؤهم وعظماؤهم على هذا ، وواجب على أن أكتبه لهم لينظموا دولهم وعقولهم ومدارسهم على نهج على وليكونوا بمنجاة من الافساد فى الأرض الذى ورد فى (سورة القصص) هنا وفى (سورة النحل) ولا يدخلوا فى زمرة من نهاهم الله فى (سورة الأعراف) فقال « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها »

فإن الافساد فى الأرض إنما يفعله الجاهلون الذين ورد ذكرهم فى آية « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها الخ وفى آية « وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الأرض ولا يصلحون » وفى آية « إنه كان من المفسدين » وفى آية « ولا تبغ الفساد فى الأرض » .

إن قراء هذا التفسير حينما يطلعون على هذا بمجرد اطلاع يدخلون فى زمرة قال الله فيها فى آخر هذه السورة « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » ولولا أن الله علم أن الأمم العربية التى حملت هذا الدين سيكون من ذريتهم قوم فرحون بالمال وملوك مفسدون فى الأرض ماصرح لهم بالنهى عن الافساد فى آية « ولا تفسدوا » ولا عرض لهم فى آية « فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض » .

علم الله عز وجل أن آباءنا ستكون هذه حالهم فملأ القرآن بهذه الحكم التى تقر بها وتشهد بها تلك العقول الحكيمة أيام اليونان وبعدها ثم غشى على عقول أمم إسلامية فجهلت ذلك واستحلت مرعى البغى والإثم فأذاقهم الله عذاب الخزى فى الحياة الدنيا وجعلنا نحن أبناءهم وعلمنا خطأهم وبصرنا وأفهمنا الحقائق فكتبناها واقتبسناها من القرآن وانشرحت بها صدورنا فسيكون خلفنا إن شاء الله خلفا شريفا صالحا نافعا لعباد الله مستخرجا لكنوز الله التى خبأها فى الأرض رءوفا بالأمم عاطفا على الإنسانية كلها لأنهم عباد ربه وهو يحبه ويحب عباده والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الخميس ٦ يونيو سنة ١٩٢٩ .

(الْقِسْمُ الثَّانِى)

وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ✽ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ ✽ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ✽ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ✽ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ✽ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ✽ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ✽ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ✽ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا

أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ * إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ * وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ * فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ * فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ *

(التفسير اللفظى)

قال تعالى (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم) إلى قوله (ونكون من المؤمنين) أى لولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يبلغنا آياتك فنتبعها ونكون من المصدقين ما أرسلناك. وملخص الآية إنما أرسلناك قطعا لعذرهم وإلزاما للحجة عليهم . روى أن مشركى العرب بعثوا إلى رؤوس اليهود بالمدينة يسألونهم عن محمد صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أن نعته فى كتابهم التوراة فرجعوا فأخبروهم بقول اليهود فقالوا ساحران تظاهرا وهذا قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتى مثل ما أوتى موسى) أى هلا أوتى الكتاب جملة واليد والعصا وغيرها مما اقترحناه تعنتا قال تعالى (أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل) ومعنى هذا أنهم سألوه الآيات التى اقترحوها كما كان يفعل موسى من خوارق العادات فرد عليهم بأنكم قد كفرتم بموسى كما كفرتم بى وبين ذلك بقوله (قالوا ساحران تظاهرا) أى محمد وموسى ساحران تعاونا يقوى كل واحد منهما الآخر . ومن قرأ «سحران» فهو بمعنى ساحران وعبر بالمصدر مبالغة (وقالوا إنا بكل كافرون) أى بكل منهما (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما) مما نزل على

وعلى موسى (أتبعه إن كنتم صادقين) أنا ساحران (فان لم يستجيبوا لك) دعاءك إلى الإتيان بالكتاب الأهدى (فاعلم أنما يتبعون أهواءهم) فانهم لو اتبعوا العقل لأتوا بحجة (ومن أضل ممن اتبع هواه) استفهام بمعنى النفي حال كونه كائنا (بغير هدى من الله إن الله لايهدى القوم الظالمين) الذين ظلموا أنفسهم بالانهماك في الشهوات (ولقد وصلنا لهم القول) أتبعنا بعضه بعضا في الإنزال ليتصل التذكير ووصلنا خير الدنيا بخير الآخرة حتى كأنهم عاينوا الآخرة في الدنيا (لعلهم يتذكرون) فيؤمنون ويتعظون ويقيسون أحوالهم بأحوال الأمم . روى أنه آمن أربعون من أهل الانجيل منهم اثنان وثلاثون جاءوا مع جعفر من الحبشة ومنهم ثمانية جاءوا من الشام فهذا قوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون) والضمير للقرآن (وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به) أى بأنه من كلام الله تعالى (إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين) فقوله «إنه الحق من ربنا» علة لقولهم « آمنا » وقولهم « إنا كنا من قبله مسلمين » أى ليس إيماننا به مستحدثا بل إنا كنا به مسلمين من قبل لأنا قرأناه في كتبنا الدينية (أولئك يؤتون أجرهم مرتين) إحداهما على إيمانهم بكتابهم . والثانية على إيمانهم بالقرآن (بما صبروا) أى بسبب صبرهم وثباتهم على الايمانين (ويدرءون بالحسنة السيئة) يدفعون بالطاعة المعصية كما قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ويدفعون ما سمعوا من أذى المشركين وشتمهم بالصفح والعفو (ومما رزقناهم ينفقون) في سبيل الخير (وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) تكرما (وقالوا) للاغين (لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم) متاركة لهم وتوديعا (لا نبتغى الجاهلين) لا نطلب صحبتهم ولا نريدها ، أو لا نريد أن نكون من أهل الجهل والسفه لأنا نترفع عنهم (إنك لا تهدى من أحببت) لا تقدر أن تدخله الاسلام (ولكن الله يهدى من يشاء) فيقذف في قلبه نورا يشرح صدره للاسلام (وهو أعلم بالمهتدين) المستعدين لذلك . روى مسلم قال نزلت في رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث راود عمه أبا طالب على الاسلام إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم له عند الموت « يا عم قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة قال لولا أن تعيرني قريش يقولون إنه حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك » وهذه وإن كان نزولها على ما ترى ليست خاصة بذلك ، إنها قاعدة عامة . فتجد المستعدين للحكمة والعلم والهدى أناسا لا تجمعهم رابطة ولا بلد ولا أمة ، فتجد أن المستعدين للفنون والعلوم والحكمة يخلقون ونفوسهم قابلة لذلك فالمدار على الفطرة الأصلية لا على القرابة وأمثالها . جاء الحارث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال نحن نعلم أنك على الحق ولكنا نخاف إن اتبعناك وخالفنا العرب أن يتخطفونا من أرضنا فنزل قوله تعالى (وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أو لم نمكن لهم حرما آمنا) أى أو لم نجعل مكانهم حرما ذا أمن فان العرب كانت في الجاهلية يغير بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضا وأهل مكة آمنون أى كانوا وذلك لحرمة الحرم فهو مكان منعنا عنه الأذى ممن عداه وأغدقنا النعم على أهله ، فالشر عنه مدفوع والخير إليه وارد وهذا قوله (يجبى إليه) يحمل إليه ويجمع فيه (ثمرات كل شيء) من الشام ومصر والعراق واليمن (رزقا من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون) أى جهلة لايتفطنون ولايتفكرون في أن حرمهم آمن من الغارات تجبى إليه الثمرات ، فالشر عنه نازح والخير إليهم وارد وهم في ذلك على طريقة أكثر النوع الإنساني جهلوا ما هم فيه من نعمة العقل والأعضاء والجوارح والسموات والأرض والأنهار والجبال والنعم التي لا حصر لها فمثل يجهل النعم العامة . فاذا قال الله في أهل مكة «ولكن أكثرهم لايعلمون » قال في الإنسان كله « إن الإنسان لفي خسر » واستثنى بعضه وقال «إن الإنسان لظلوم كفار» وقال «قتل الإنسان ما أكفره» فهذا هو الكفر وهذا هو الجهل . فلا فرق بين جهل الجاهل بنعمة الحرم وجهل الجاهل بنعمة المال والولد والجسم والعقل والحواس والسموات والأرض . لافرق بين الكل والجزء ؛ فالناس إلاقليلا يجهلون هذه النعم

لا أهل

لا أهل مكة وحدهم « إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » ثم أشار الله لذلك فقال: لم يخص أهل مكة بهذا البطر بل سبقتهم أمم فبطروا فهلكوا وهو قوله (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها) أى وكم من أهل قرية أثرت وطغت وبطرت أى ساء احتمالها للنعمة كحالكم فى مالك فخرب الله ديارهم (فتلك مساكنهم خاوية (لم تسكن من بعدهم إلا قليلا) أى لم يعمر منها إلا أقلها وأكثرها خراب (وكنا نحن الوارثين) أى لم يخلفهم فيها أحد يتصرف تصرفهم فى ديارهم وسائر متصرفاتهم (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا) أى ما كانت عادته سبحانه أن يهلك القرى حتى يبعث رسولا فى أكبرها وأعظمها لأن أهلها يكونون أفطن وأنبل فكمكة وأهلها (وما كنا مهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون) بتكذيب الرسل أو الجهل والمعاصى وبطر النعمة وما أشبه ذلك ، وكيف قصرتم نظركم على الحياة الدنيا ، أفلا تعلمون أن للنفوس الإنسانية حياة ودواما (وما أوتيتم من شىء) من أسباب الدنيا (فمتاع الحياة الدنيا وزينتها) تتمتعون به وتتزينون مدة حياتكم المنقضية (وما عند الله) وهو ثوابه (خير) فى نفسه من ذلك لأنه لذة لا يخالطها كدر (وأبقى) وأدوم لأنه لا آخر له (أفلا تعقلون) فتستبدلون الفانى بالباقى (أفمن وعدناه وعدا حسنا) وهو الجنة (فهو لاقيه) مدركه (كمن متعناه متاع الحياة الدنيا) الذى هو مشوب بآلام الكدر والانقطاع (ثم هو يوم القيامة من المحضرين) للحساب والعذاب وثم للتراخى فى الزمان ، وهذه الآية زيادة بيان لما قبلها والاستفهام بمعنى النفى أى لا يستويان ، فإن الحسن الباقى خير مما ليس بحسن وهو منقطع . ثم أخذ يبين ما يلاقونه يوم القيامة بيانا لقوله « ثم هو يوم القيامة من المحضرين » وإظهارا لمناقشتهم الحساب (و) اذكر (يوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) أى الذين كنتم تزعمونهم شركائى (قال الذين حق عليهم القول) بثبوت مقتضاه وهو قوله تعالى « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (ربنا هؤلاء الذين أغوينا) أى هؤلاء هم الذين أغويناهم ثم استأنف فقال (أغويناهم كما غوينا) أى أضللناهم كما ضللنا فنحن لم نفعل إلا ما هو من عادتنا وسجيتنا ولم نغوهم إلا لما وجدناهم قابلين كما لا يقع الذباب إلا على عين قذرة فليس ذنبهم علينا وإنما عيبهم عليهم هم لأنهم مشاكلون لنا ولو كانت نفوسهم أرقى ما أضللناهم ولا أغويناهم لعدم المناسبة والمشاكلة ، فإذا فعلنا ما كان من طباعنا فهم فعلوا ما كان من طباعهم فلا يلوموننا وليلوموا أنفسهم (تبرأنا إليك) منهم فليس علينا ذنبهم (ما كانوا إيانا يعبدون) وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وهل الذنب على الذباب إذا وقع على العين القذرة إنما العيب على صاحب العين لأنه لم ينظفها ولو نظفها لتباعد الذباب عنها طبعة فهكذا هؤلاء هم الملومون لا نحن ، هكذا الأمم الإسلامية اليوم لقلة العلم فيها يرسل أهل أوروبا لهم أقواما من العظماء منهم يعطونهم أموالا ليثوا فيهم أن هؤلاء يحمونهم ويحفظونهم من غوائل الأمم ويدخلونهم تحت حمايتهم ورحمتهم فيطيعهم هؤلاء فيقول الأوروبى ليس الذنب على إنما أنت جاهل ومن طبعك أنك ضعيف ولا تفهم إلا الحياة الحيوانية فأنا استعبدتك لأنك جاهل ، ولو كنت متعلما ناظرا فى هذه الدنيا وفيما خلق الله فى السموات والأرض حافظا لثغورك متسلحا بالأسلحة التى تقيك ما تجاسرت أن أكلمك ، وكيف أجسر أن أكلم من هو مثلى أن يدخل تحت حكمى فليس العيب على فى استعبادك ولكن العيب عليك لأنك أهل أن تخضع للأقوى لضعفك وجهلك (وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم) من فرط الحيرة (فلم يستجيبوا لهم) لعجزهم عن الإجابة (ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون) أى لو أنهم كانوا يهتدون فى الدنيا ما رأوا العذاب فى الآخرة . ثم إن هؤلاء يسألون سؤالين : سؤالا عن إشراكهم بالله وسؤالا عن تكذيبهم الأنبياء . ولما ذكر الأول أتبعه بالثانى فقال (ويوم يناديهم فيقول

ماذا أجبتم المرسلين) أى ماكان جوابكم لمن أرسل إليكم من النبيين (فعميت عليهم الأنباء يومئذ) أى خفيت واشتبهت عليهم الأخبار والأعذار والحجج فلم يكن لهم عذر ولا حجة (فهم لايتساءلون) لايسأل بعضهم بعضا عن الجواب لفرط الدهشة فهم إذن يسكتون (فأما من تاب) من الشرك (وآمن وعمل صالحا) أى جمع بين الإيمان والعمل الصالح (فعسى أن يكون من المفلحين) عند الله ، ثم إن عسى تحقيق على عادة الكرام . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « ولقد وصلنا لهم القول » الخ ﴾

(حديث بينى وبين العالم صديق الذى اعتاد أن يباحثنى فى هذا التفسير)

بعد أن كتبت ما نصه [إن توصيل القول لهم فيه معان غزيرة وعجائب وحكم] حضر صاحبى فقال أتريد أن تولد هنا معانى من هذه الجملة ، هذه جملة مفهومة بنفسها وإنك بهذا تطيل التفسير إطالة ربما لا تكون مجدية وربما يسأم منها كثير من الناس . فقلت له إنى أرى أن هذا غير إطالة إنما التطويل هو القول الذى يكون أشبه بالمكرر وما سأكتبه هنا ليس بالمكرر بل هو حكمة ازينت للناظرين ، وحسناء أسفرت للعاشقين ، وحوراء برزت للمحبين .

كأنما تبسم عن لؤلؤ   منضد أو برد أو إقاح

جمعت إلى اعتدال قوامها وحسن شكلها زينة حلاها وفصاحة لسانها وجمال جنانها وحسن خلقها ورجاحة عقلها ، بها هام العاشقون ، وبحديثها طرب السامعون ، ألا فلأكشف لك عنها القناع بعد أن تنقد مهرها ، فقال وما مهرها ؟ قلت أن تشعر أن جسمك وروحك قد أحضرت صورتهما أمامك وأخذت تدرسهما ومتى فهمتهما فهمت معنى التوصيل وهنالك يتم لك الوصال . فقال إذن توصيل القول فى الآية يحوزه دراسة جسمى ودراسة روحى . فقلت نعم . فقال إلا أن هذا تطويل لأنه تكرار كما قلت لك أولا لأن دراسة الروح قد تقدمت فى مواضع كثيرة . فقلت له لكل مقام مقال والحديث ذوشجون والكلام ذو ألوان .

فلا تدوم على حال تكون به   كما تلون فى أثوابها الغول

هذه الدنيا عروس ذات ألوان ونحن خلقنا فيها فعلينا أن نبرز علومها بـبدائع الألوان وأفانين الصور ومختلف الأصباغ . فقال وكيف ذلك . فقلت إن ذلك منا إنما هو نسج على منوال ما نرى فى وضع الحكمة فى خلق أجسامنا ، نحن نأكل ونلبس لمنافعنا وهذه المآكل والملابس والأصباغ والزينة والأزهار والطيور المغردة . لم يكن شعورنا بها ولا علمنا بمحاسنها من طريق واحد بل الطرق لعلمها مختلفة . فهذا التفاح نلمسه بأيدينا ونذوقه بألسنتنا ونشمه بحاسة الشم ونسمع صوت وقعه على الأرض بحاسة السمع ونرى شكله بحاسة البصر ، فهذه طرق خمس لنعرف ثمرة التفاح ، إن الحكمة قضت أن لا يكون العلم بالتفاحة عن طريق واحدة بل نرى لنا حاسة تلمسه من قرب وحاسة ذوق تحس بحلاوته ، فاحساس الحلاوة غير إحساس النعومة ، فالحلاوة بالذوق فتحت الباب لأكلها وتمثلها بأجسامنا ، فأما الحرارة والبرودة والنعومة والثقل والخفة التى عرفناها باللمس فهى أقل درجة من الطعم الذى هو أقرب إلى استعمالها من الثقل والخفة ، وحاسة الشم وظيفتها أنها تقبل ذرات دقيقة منفصلة عن التفاحة واصلة إلينا من الهواء فتشوقنا لاجتنائها .

أما حاسة السمع فالواصل لها من التفاحة إذا سمعت وقعها إنما هو الحركات الآتية فى الهواء ، فهى حاسة

ألطف من سوابقها . فأما حاسة البصر فانها ألطف وألطف لأن الرسول الموصل لها إنما هو الضوء وهو ألطف من الهواء الذى استعمله الشم والسمع .

فلما سمع صاحبى ذلك قال هذه أقوال غريبة . إن المقام مقام سؤال منى لك فى مسألة التوصيل فى الآية فأجبتنى بدراسة الجسم والروح . فقلت أنا : فيه تكرار فأجبتنى قائلا إن العلم يجب أن يتنوع ويكون أصنافا وألوانا ثم أخذت تقول إن الله جعل العوالم التى حولنا تصل لنا من طرق شتى وضربت مثلا بالتفاحة فانا نعرفها بلمسها وذوقها وشمها وسمع صوتها ورؤية شكلها فهل ذلك القول هو نفس المقصود من تفسير الآية (وبعبارة أخرى) هو نفس الأسلوب الذى نتوصل به إلى معنى التوصيل فى الآية ، أم هو تبيان نظام الله فى تعليمنا الذى نقيس عليه تعليم أممنا العلوم من حيث التفنن . إنى أرى أن هذا الذى تكتبه يظهر لى أنه شروع فى الأمرين معا أى أنك أردت أن تضرب بحجر واحد طيرين . فبينما أنت تمثل لتنوع المناهج فى تعليم الناس العلوم بما فعله الله فى جسم الانسان من الحواس التى تدرك التفاحة بأنواع من الإدراك رحمة من الله بنا أن يرينا بطرق مختلفة لازدياد العلم . إذ أنت بنفس هذا المثال أخذت تشرح المقصود وهو الجسم والروح اللذان أردت أن أتصورهما أمامى وأفهمها وبهذا الفهم أصل لمعنى التوصيل فى الآية وبعض سره . فقلت لقد أحسنت . نعم إنى بهذا التمثيل أبين الأمرين معا . أبين أن تعليم الأمم الإسلامية وغير الاسلامية يجب أن يكون على طرق شتى وكلها ترمى إلى غرض واحد ، كما أن الله لما خلق العالم وخلق الإنسان فيه جعل علمه بما حوله بطرق مختلفة ليحيط به علما على مقدار طاقته ، ويكون من نتيجة هذا أن أفهمك معنى « ولقد وصلنا لهم القول » قال فاضرب لى مثل ذلك حتى أعقله . فقلت إنما مثل الإنسان فى هذه الأرض كمثل ملك عظيم الشأن رفيع المقام عالى المنزلة واسع الملك كثير الجنود والأعوان . ولا جرم أن مثل هذا الملك له عاصمة يعيش فيها وله بلاد نائية عن العاصمة ، فمنها ما هو قريب من العاصمة ومنها ما هو بعيد عنها ، فأهل العاصمة يمكنهم المثول أمامه بأنفسهم ورفع قضاياهم له بدون رسول . قال نعم . قلت وسكان القرى المتوسطة فى البعد يمكنهم أن يرسلوا نوابا عنهم قال نعم قلت وسكان القرى التى هى فى أقاصى بلدانه يقدرون على محادثة الملك بإرسال رسائل كتابية بطريق البريد المعروف أو بطريق الحمام الزاجل أو بطريق البرق (التلغراف) قال نعم كل هذا ممكن . قلت هذه صفة الإنسان فى هذه الدنيا . إن الملك فى عاصمته له أعوان يحيطون به فى نفس قصره وله خواص يعيشون فى عاصمته . قال نعم . قلت فالأعوان المحيطون به من خدام قصره يراهم كل حين . فأما ضواحى المملكة فإنه يراهم حينا بعد حين لمصالح المملكة . قال نعم . قلت هكذا هذا الإنسان هو هذا الملك والعاصمة هى جسمه فأما الحر والبرد والثقل والخفة والنعومة والخشونة وما أشبهها وهى [عشرة أحوال] من أحوال المادة فانها تحيط بالجسم وهى تعرف بحاسة اللمس فقد أشبهت أعوان الملك المقيمين معه بقصره . وأما طعم التفاحة وطعوم المآكل المختلفة من الحلاوة والملوحة والحرافة ونحوها فالقائم بها حاسة الذوق التى هى أرقى من حاسة اللمس لأن حاسة الذوق أشبه بوزراء المملكة الذين يترددون عليها آنا فآنا ليتشاوروا ، فى حياتها وإصلاحها ، ثم إن المشمومات والمسموعات أشبه بسكان المملكة الذين ابتعدوا عن عاصمة الملك ، فأما المشمومات فإنها ترسل ذرات دقيقة جدا كذرات المسك التى تتطاير فى الهواء كل حين ولشدة دقتها لا يظهر أثر النقص فيه على طول الزمان فهذه الذرات التى تخللت الهواء لم تخرج عن كونها نماذج من جرم التفاحة المخلوقة فى الشجرة أرسلت مع الريح يشمها الانسان فهى أشبه بالوفود التى أرسلها سكان القرى المتباعدة عن المملكة ليعرف الملك مقدار طاعتهم ممن حضروا منهم ونابوا عنهم فى الخضوع أمام الملك وتقول تلك الذرات التى نسميها رائحة : أيها الملك إننا طائعون لك فهل ترغب أن يحضر بقية الجماعة ليكونوا خدما لك وعبيدا بل سيصبحون جزءا

من جسمك ولحما ودما وعظاما ومخا وعينا وأذنا . ولا جرم أن هـذه الذرات أغلظ من الحركات لأن الحركات عرض والذرات جسم ، ثم إن حركات تلك التفاحة فى الشجرة وهى تترنح يمينا وشمالا وتعانق الأوراق وتضاحك القمر والنجوم وتفرح وتمرح وترسل تلك النغمات فى أمواج الهواء ، فيسمعها صاحب البستان تعطى نفسه شوقا وتوقا إلى إحضارها والتغذى بها ، وهذه أشبه بإرسال البريد بالخط والرقم فى القطارات أو مع الحمام الزاجل .

ولا جرم أن الحركات فى الهواء ، وسماعها ألطف من الذرات المشمومات فى الهواء ، كما أن حاسة السمع أشرف من حاسة الشم فتلك أقرب إلى عالم الروح ، وهذه أقرب إلى عالم المادة ، ثم إن صورة تلك التفاحة لا يحملها النسيم ولكن يحملها عالم الأثير الذى يتموج وبتموجه آلاف آلاف المرات فى الثانية يحدث لنا ما نسميه ضوءا فهذا الضوء يحمل تلك الصورة ويدخلها فى حدقات الأعين المركبات من أغشية متناسقة معدة لقبول تلك الصورة فتعجبنا فنتناولها . هذه هى الفنون وأنواع الطرق وألوان الطرق العلمية التى أبدعها المبدع الحكيم فى صورة الإنسان فلم يقتصر الإنسان على :

(١) لمس التفاحة .

(٢) ولا على ذوقها .

(٣) ولا على الإحساس بأجزاء منها بحاسة الشم .

(٤) ولم يقف عند سماع حركات الهواء بسبب تحركها .

(٥) بل تعالى إلى عالم الأثير وضوئه فارتقت هذه النفس إلى عالم الأفلاك ، لماذا ؟ لتعرف التفاحة فهى إذن استعانت بكل ما حولها ، استخدمت اللمس مباشرة والهواء والضياء ، وهذا الضياء سافر لها من أقاصى العوالم التى ربما كان ضوؤها قد سافر إلينا منذ مائة مليون سنة نورية (اقرأ هذا فى سورة الفرقان عند قوله تعالى « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا » فإنك ترى هناك هذا المقام مشروحا وأن من الأجرام السماوية ما بعده عنا مائة مليون سنة نورية) هذه مراتب العلم عند الإنسان .

(٦) إن العين كما تدرك صورة التفاحة بنفسها تدرك اللفظ الدال عليها مكتوبا بصناعة اليد .

(٧) وتدرك صورة رسمها بالآلات المصورة فهى إذن تعرف من (طرق سبعة) ثلاث منها بطريق البصر والأربعة الباقية بطرق الحواس الباقية .

ثم إن الحواس الثلاث الأولى أقرب إلى العالم الأرضى فلذلك كانت صناعاتها سهلة قريبة المنال . أما حاسة السمع والبصر فإنهما أقرب إلى عالم الأرواح ولذلك ترى أن حاسة السمع تسمع كل ما حولنا قريبا وهذا المسموع يشمل كل ما هو قريب وكذا ما هو بعيد باللفظ لأن الكلام يعبر عن كل موجود قريبا أو بعيدا .

والبصر كما يدرك نفس الأشياء يدرك صورها التى صورت بآلات التصوير . هذا هو الشرح الذى أردت أن أبينه لك أيها الصديق . وههنا (نتيجتان . النتيجة الأولى) أن العلوم والمعارف فى هذا النوع الإنسانى يجب أن تتنوع وتكون لها طرق مختلفة ، وقد عرف هذا علماء البيداجوجيا كما تقدم فى تفسير سورة الفاتحة فإنهم يقولون للمدرسين ليسمع التلميذ القول وليكتبه هو بيده وليكن مكتوبا بخط جميل ولتكن صور الأشياء مرسومة أمامه إذن يشترك السمع من المعلم وبصر المتعلم وكلام نفس المتعلم وكتابته للكلمة وصور الأشياء المرسومة أمامه كلها تشترك فى تفهيم التلميذ . إذن علماء تعليم الأطفال أخذوا يدركون الحكمة الأولى وهى حكمة صانع العالم أنه أرانا ما حولنا بطرق مختلفة . فهم أولاء أخذوا يسيرون على منواله ومن ضل طريق

الصانع الحكيم عاش جاهلا ، هذه هى النتيجة الأولى التى جاء الكلام عليها عرضا . أما (النتيجة الثانية) وهى المقصود من أصل المقال فهى أن الله عز وجل جعل جسم الإنسان كأنه النور أو كأنه بطارية كهربائية وخلقه مناسبا ما حوله ومهد السبيل لانتفاعه بكل ذلك ، فالنور والهواء ونفس الأجسام كلها مستعدات لإبلاغه العلم ومنفعته . إن الله لما خلقه أراد أن يرفعه إلى عالم أعلى ولا طريق إلى رفعه إلى عالم أعلى إلا العلم فخاطبه بطرقه وأكثر منها وابتلاه بالآلام واللذات والمرض والصحة والموت والحياة . كل ذلك ليوقظه للعالم الذى هو مسوق إليه فأكثر من الطرق ، ليزعجه ليخرجه من هذه الأرض الضيقة وجعل فى الأرض حكماء وعلماء وأنبياء فهؤلاء زادوا فوق الحواس وإنما زادهم فى الأرض ليساعدوا هذه الحواس وهذه المزعجات من حوادث الأيام والليالى على خروج الانسان من مضايق الأرض فأسمعوهم أقوالا توقظهم إلى عوالم عرفوها تارة بعقولهم كالفلاسفة وتارة بالوحى كالأنبياء فهؤلاء استعملوا حاسة السمع فسمعوا الكتب السماوية ومنها القرآن . إن البصر ازداد قوة برسم صور الأشياء بعد رؤية نفس أجسامها وبنظر الألفاظ الدالة عليها بوضع اللغات المختلفات شرقا وغربا ، هكذا السمع فضلا عن سماعه حركات المخلوقات سمع الألفاظ الدالة عليها ثم هو فوق ذلك سمع ما أنتجته العقول أو جاء به الوحى . كل ذلك تكميل للنفوس لارتقائها إلى العالم العلوى وإزعاجها عن هذا العالم الضيق فقوله تعالى « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » تبيان لآخر ما يترقب من حاسة السمع وهو سماع الوحى الذى يأتى للنفوس بما يحدث فيها حكمة فتستيقظ بعد الغفلة وتتلق أشعة من نور الحكمة والعلم فتنبعث لدراسة ما حولها ، وهذا الذى كتبته الآن لم ينبعث فى نفسى إلا عند قراءة « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » فما هى الذكرى التى وصلت إلينا من هذه الآية .

فقال صاحبى هذا بيان حسن ، ويظهر أن هذا الجسم الإنسانى مستودع علم فعليه نظام الدول الأرضية كما فى كتابك [أين الإنسان] وبه علم (البيدادوجيا) أو علم تعليم الأطفال ، وبه الازدياد فى الحكمة ودراسة العلوم الطبيعية وعلم الفلسفة . فقلت نعم إن نوع الإنسان بعدنا سيكون فيهم أناس أبرع من العلماء فى زماننا أما الأمم الاسلامية فإن حوادث الدهر ومزعجات الليالى والأيام وأمثال هذا التفسير كلها متعاونات على إخراج أجيال منهم يكونون « خير أمة أخرجت للناس » وسينهجون منهج ما أكتبه فى هذا التفسير وسيكون منهم حكماء وعلماء يبتلعون علوم الشرق والغرب بعشق وغرام وحب ولا يثنيهم عن ذلك الجمال عائق ، وهم الذين يقولون إن الله قد جعل أجسامنا مستمدة من كل ما حولها ، فعلينا أن نستمد من كل مخلوق فنتعلم كل علم وندرس كل موجود ، ومتى قصرنا فى أى عالم من العوالم التى حولنا فالله لنا بالمرصاد ويقول لنا أيها الناس أنا لم أترك فرصة إلا انتهزتها لتعليمكم ولم أقف عند اللمس ولا الشم ولا البصر بل خلقت لكم اللغات المعبرات عن صور الموجودات ووصلتها لكم تكثيرا للعلم ، فاذا أغمضتم العين ولم تشموا ولم تلمسوا أرسلت المعانى بطرق الألفاظ حتى إن هذه الحاسة كأنها جميع الحواس . فاذا كانت هذه أعمالى فعليكم أن تتخلقوا بأخلاق ولا تدعوا فرصة إلا انتهزتموها فانتفعوا بكل شىء بالهواء وبالماء وبالضوء وبكل موجود فهذا هو التوصيل وهذا هو حديث حجة الوداع « ليبلغ الشاهد منكم الغائب فرب مبلغ أوعى من سامع » وهؤلاء هم الذين يعقلون قوله تعالى « ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون » فهؤلاء وأمثالهم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن على شاكلتهم هم الذين يتذكرون . اهـ صباح يوم الجمعة ٢٥ يناير سنة ١٩٢٩ ، والحمد لله رب العالمين .

واعلم أن هذا القسم إلزام للكفار واحتجاج عليهم وقطع لأعذارهم بعد أن مهد لهم السبيل بذكر قصص موسى حتى يكون مدخلا للكلام معهم ومخاطبتهم وقطع أعذارهم . ثم أعقبه بالقسم الثالث وهو من قوله تعالى « وربك يخلق ما يشاء ويختار » إلى قوله « وضل عنهم ما كانوا يفترون » وهو تذكير بآيات الله سبحانه

فى الأرض والسموات كما ذكرهم فى القسم الأول بآياته فى الأمم الماضية حتى تتضافر الدلائل وتتحد الحجج فأخذ يذكر أنه سبحانه هو وحده مصور الصور باختياره يخلقها كما يشاء، لاراد لقضائه فلا شريك له كما زعمون وعلمه محيط بما ظهر ومابطن وهو محمود فى الدنيا والآخرة وقضاؤه نافذ، ومن أعظم نعمه أنه لم يجعل ظلام الليل دائما ولا نور النهار دائما بل أدار الأفلاك فكان ليل ونهار لينام الناس ليلا ويعملوا للرزق نهارا. وإليك بيان القسم الثالث.

(القِسْمُ الثَّالِثُ)

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ * وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ، أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ *

﴿التفسير اللفظى﴾

قال تعالى (وربك يخلق مايشاء ويختار) أى وربك يخلق مايشاء ويختار مايشاء لاموجب عليه ولا مانع منه ولذلك كان هذا العالم على غاية النظام والإتقان والابداع فليس لأحد من المخلوقين اختيار فى شىء من ذلك (ما كان لهم الخيرة) أى التخير كالطيرة بمعنى التطير فليس لهم أن يختاروا على الله شيئا ما، وله الخيرة عليهم. ومما يدخل فى هذا أنه له أن يرسل من يشاء رسولا فلا يجعل ذلك منوطا بمال أو بجاه فيسقط بذلك قولهم «لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» وهما الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى، فالله مطلق التصرف وهو أعلم بمن استعدادهم قابل لذلك (سبحان الله) تنزيها له أن ينازعه أحد أو يزاحم اختياره؛ فاذا أراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يهدى أحدا من أحبابه أو أراد أهل مكة أن يرسل الله رسولا من عظمائهم قال الله: ليس لك من الأمر شىء، فلا النبى يهدى عمه ولا أهل مكة ينالون أن تكون الرسالة فى عظمائهم تنزيها لله (وتعالى عما يشركون) عن إشراكهم. ولما كانت القدرة المسبوقة بالارادة المعبر عنها بالاختيار تتقدمها العلم الذى هو مقدم على الارادة أعقبه بقوله (وربك يعلم ماتكن صدورهم) تخفى (وما يعلنون) يظهرون، فلما اختص بالعلم اختص بالاختيار فخلق مايشاء كما يشاء (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة)

ذلك أنه يحمده المؤمنون وأولياؤه وأنبياؤه فى الدنيا ويحمدونه فى الآخرة مثل قولهم « الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » وقولهم «الحمد لله الذى صدقنا وعده» (وله الحكم) القضاء النافذ فى كل شىء (وإليه ترجعون) بالنشور (قل أرأيتم) أى أخبرونى يامعشر الكفار (إن جعل الله عليكم الليل سرمدا) دائما إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء) يقول الله : أخبرونى من إله غير الله يقدر أن يأتيكم بضياء إن جعل الله عليكم الخ (أفلا تسمعون) سماع تدبر واستبصار، وكان الانسان إذا جن عليه الليل وفرض أن الشمس لا تطلع يقول فى نفسه ذلك فعبر بالسمع لأن الليل يناسبه السماع والنهار عكسه (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غيرالله يأتيكم بليل تسكنون فيه) استراحة من التعب (أفلا تبصرون) . ولما كان الضوء فى نفسه نعمة والظلمة إنما هى عدم الضوء لم يصف الضوء اكتفاء بذكره هو ووصف الظلمة لتبيان فائدتها (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) بالليل (ولتبتغوا من فضله) فى النهار بالمكاسب المختلفة والتنقل فى الأسفار والتقلب فى الأعمال (ولعلكم تشكرون) أى ولكى تعرفوا نعمة الله فى ذلك فتشكروه عليها ولا شكر لغيره لأنه لايكور النهار على الليل ولا الليل على النهار إلا الله تعالى فلذلك يعترف الكافرون بهذه الحقيقة على رءوس الأشهاد يوم القيامة بعد أن جهلوها أو تجاهلوها فى الدنيا وهو قوله تعالى (ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون) هذا تكرير للتوبيخ على اتخاذ الشركاء ، فهو فيما تقدم دليل على فساد آرائهم، وهنا تقرير أنه لاحجة لهم ولا شبهة وإنما هو هوى وشهوة وهو قوله (ونزعنا) أخرجنا (من كل أمة شهيدا) وهو نبيهم يشهد عليهم بما كانوا يعملون (فقلنا) للأمم (هاتوا برهانكم) على صحة ما كنتم تدينون به (فعلموا) حينئذ (أن الحق لله) فى أن الله ألوهيته لايشاركه فيها أحد (وضل عنهم) وغاب عنهم كما يغيب الضائع (ما كانوا يفترون) أى يختلقون فى الدنيا من الكذب على الله .

انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة .

(عجائب القرآن فى هذه الآيات)

تأمل قوله تعالى « وله الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون » تأمل فى هذا وتعجب كيف يقول هنا « وله الحمد فى الأولى والآخرة » نعم الله محمود فى الدنيا يحمده الناس على ما عرفوا من نعم يحمدونه إذا أحسوا بها ، فيحمده الفقير متى أحس بالغنى ، ويحمده المريض متى نال الشفاء ، ويحمده الذليل متى أحس بالعز . وبالجملة حمد الناس وثناؤهم على ربهم إذا أحسوا بنعمة ، وذلك عام فى جميع النوع الإنسانى ، فأما فى أوقات الفراغ وهدوء البال فإن الناس لايذكرون نعمة ربهم فلا يذكرون صحة البدن ولا قوته ولا العقل المركوز فيهم ولا الذكاء ولا يفكرون فى نعمة الوالد والأهل والأصحاب والأقارب ولا نعمة نظم المدن التى تحفظهم ليعيشوا فيها ، ولا نعم السموات والأرض والكواكب والشمس والقمر والأنهار والبحار ، فالناس مادامو فى خفض وسعة الرزق وبحبوحة العيش ماهم غافلون . لذلك أرسل الله رسوله صلى الله عليه وسلم والأنبياء قبله ليذكروا الناس بالنعم ليدرسوها ، ومتى درسوها أحسوا بها ومتى أحسوا بها حمدوا الله عليها . ولما كان النبى صلى الله عليه وسلم آخر الأنبياء، وأمر بالحمد كما رأيت فى (سورة النمل) إذ قال الله له « قل الحمد لله وسلام على عباده » أمر صلى الله عليه وسلم أن يصلى المسلمون بفاتحة الكتاب فقال « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » وإنما قال ذلك لأن الله أمره بالحمد ولاحمد إلا حيث تعرف النعمة لأن النعمة التى لا يعرفها الإنسان لا يحمد عليها كما لايحمد الأصحاء على العافية ولا المبصرون على خلق أعينهم إذا لم يعترهم مرض فيذكرهم . لهذا ترى المسلمين فى أقطار المسكونة قد اتخذوا الفاتحة شعارهم وتسمع فى كل آن وقت الصلاة وفى خارج الصلاة قولهم (الحمد لله) وفى عقب الأكل وعقب كل

نعمة (الحمد لله) فهذا من الحمد فى الدنيا . ولا جرم أن الحمد يتقدمه العلم بالمحمود عليه حتى تشعر النفس بالنعمة . فالشعور إما بحادث طبيعى أو بطريق علمى ؛ والحادث الطبيعى المذكر بالنعم غير دائم بل هو قليل لأنه خاص بالمصائب والأمراض . أما الطريق العلمى فهو عام فى النعم الجزئية والنعم الكلية . فبه تعرف نعم السموات والأرض والأنهار وخلق هذا العالم حتى يدرك الإنسان أن هذه كلها مساعدة له على بقائه ونمها واصلة إليه ، بل يرى أن الناس جميعاً ينفعونه فى أمته وفى غير أمته ، فإذن العالم كله نافع له لا فرق بين شمس وقمر وبحر وأمة نشأ فيها وأمة لم ينشأ فيها ، فالعلم يعرف الإنسان هذه العوالم فيحمد عليها ويعرفه أن الناس إخوانه فيحبهم ، ومتى حمد الإنسان على نعم الله فى الدنيا حمد عليها يوم القيامة بل لا حمد فى الآخرة إلا إذا تقدمه حمد فى الدنيا إذ لا حمد حقا إلا على علم والعلم فى الدنيا باق فى النفس بعد الموت فمن لا يدرك هذا الوجود فى الدنيا لا يدركه فى الآخرة ، فإذا حمد العامة والجهال ربهم على طعام أو شراب أو مال أو جاه ، فالعالم أرقى وأرق لأنه يحس فى نفسه بحمد الله كلما نظر كوكبا أو نباتا أو حيوانا أوهبت ريح أو جرى نهر لأنه يراها كلها متعاضدة متعاونة لخدمته وخدمة الناس بل يحمد الله لذلك الجمال البديع والبهجة والرونق والحسن ويرى هذا العالم كله جميلا فيكون الحمد أجلى وأبهى وأدوم وأبهج وأجمل ، وهذا الجمال هو المقصود لذاته وهذا غاية الحمد .

ولما كان الأنبياء هم المذكرون بتلك النعم ، وآخرهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ورد أنه هو رافع لواء الحمد وأنه له المقام المحمود فيرجع الأمر كله إلى العالم لأنه لا حمد إلا بعد علم ، ونتيجة هذا القول أن هذه الأمة الإسلامية أمة حمد ويلزم من ذلك أن يكونوا علماء بهذا الوجود ، انظر أليس الأمر اليوم معكوسا ، إن حمد المسلمين اليوم لفظى إذ حمد العامة هو الغالب ، أما الحمد الإسلامى العقلى المبنى على العلم والحكم والفهم فانه غائب اليوم إنه سيقوم فيهم أناس ينبغون فى العلوم ويعلمون هذه الأمة أنواعها ويتصرفون فيها وهم الأكابر وهم يفيضون على الأصاغر وهذا هو السر فى قوله فى (سورة النمل) « وقل الحمد لله » وأتبعه بقوله « سيريكم آياته فتعرفونها » لأن الحمد بلا معرفة حمد لفظى لا معنى فيه ، وهو جسم بلا روح ولفظ بلا معنى ، وأى فضل فى حمد لا يحس حامده به ، فالحمد بعد المعرفة ولذلك قال فى هذه السورة « وله الحمد فى الأولى والآخرة » لأنه ذكر المعرفة هنالك فى آخر (سورة النمل) ومثل هذا يقال فى (سورة الفاتحة) ابتدأ الله فقال (بسم الله الرحمن الرحيم) ولا جرم أن الرحمة (قسمان) رحمة أفيضت على الأجسام ، ورحمة أفيضت على العقول ، ورحمة الأجسام مقدمة ورحمة العقول نهاية ، ثم أتبعها بقوله (الحمد لله رب العالمين) فذكر التربية ليرجه عقولنا إلى نظام هذه العوالم كما تقدم فى الفاتحة وأتبعه بذكر الرحمة للدلالة على أنها سارية فى العوالم كلها لتستوجب الحمد والإحساس بالنعمة ، ولما كان أكثر الناس كما قلنا لا يحسون إلا بما تشعر به حواسهم من النعم الطارئة ولا يفقهون النعم المترادفة لأنها بتكرارها عليهم يبطرون ولا يذكرونها . ذكر العبادة وأنها خاصة بالله وسأل المؤمن أن يهديه الله الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم . فذكر هداية الله للنعم عليهم إلى الصراط المستقيم ، وهذه الهداية منشؤها العلم والعلم بالنعمة هو الذى يثير فى النفس الحمد والاعتراف به . إن الأمة الإسلامية أمة حمد ، ونبينا صلى الله عليه وسلم رافع لوائه ولا حمد إلا على علم بالمحمود عليه ، والمحمود عليه جميع النعم ، والمسلم يسأل الله الهداية لصراط النعم عليهم وصراط المنعم عليهم غير المغضوب عليهم وغير الضالين هو الصراط السوى : هو العلم بالنعم . هو العمل الصالح ، والذين أنعم الله عليهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون هؤلاء هم المنعم عليهم ، فالأنبياء والصديقون متحققون بالعلم والأخلاق

والشهداء

والشهداء تبع لهم . وأما الصالحون فهم متحققون بالعمل أكثر من العلم ، فالصراط المستقيم شامل للعلم والعمل وبالعلم كما قلنا يثور الحمد فى الإنسان .

إن هذه الآيات التى نحن بصددها جاء فيها التسبيح « سبحان الله وتعالى عما يشركون » وتبعه التوحيد ، إذ قال تعالى « وهو الله لا إله إلا هو » ثم الحمد على النعم ، وهو قوله « له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم » فهذه (درجات ثلاث) تقديس وتوحيد : أى أن الذات المقدسة ليست متعددة ، ثم حمد . وقد ورد « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ، ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ، ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة » وورد أيضا « أفضل الدعاء الحمد لله » وقيل : ليس شىء من الأذكار يضاعف ما تضاعف الحمد لله . قال الإمام الغزالى : ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات . اهـ .

يقول مؤلف الكتاب : إن أول الأمر وآخره المعرفة والعلم ، إن هذه كلها مذكرات بالعلم ، فإذا سمعت قوله تعالى « وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » فإنما ذلك الحمد لمعرفة أوجبته فى الدنيا والمعرفة فى الدنيا هى الاطلاع على نظام هذه الدنيا وجمال الله فيها وحكمته وبهائه ، وتلك النظم البديعة البهية التى تدهش العقل وتبهره فينطق بالحمد فى هذا الجسم وبعد مفارقته . وهذا الذى ذكرته كله واضح فى هذه الآيات فإنك ترى التقديس تلاه التوحيد ، أتبعه الحمد . ولما كان الحمد لا يكون إلا على نعمة والنعمة العامة لا تعرف إلا بالعلم قال الله تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا » الخ يقول الله أيها المسلمون إن ربكم مختص بالحمد فى الدنيا والآخرة ولا حمد إلا بعلم ، فانظروا فى الليل والنهار فلو أن الليل دام عليكم أفلستم تحرمون من التصرف فى معاشكم ، وإذا كان النهار دائما عليكم أفلستم تمنعون من وقت الراحة ؟ . انظروا فى رحمتى التى وسعت كل شىء ، انظروا فيها فأنى جمعت ظلمة وجعلت نورا بنظام دوران الشمس ليكمل هناؤكم وسعادتكم فحمدكم لا يكون إلا إذا عرفتم رحمتى ولا تعرفونها إلا بالعلم ، ألم آمركم أن تقولوا « بسم الله الرحمن الرحيم » قبل « الحمد لله رب العالمين » أليس ذلك لتذكروا رحمتى التى وسعت هذا النظام وذلك بالتعليم ومتى عرفتم حمدتم . انتهى .

(النقم والنعم مذكرات موجبات للشكر ، وهذه الآية ذكر فيها أعظمها)

(نمط آخر فى تفسير هذه الآية)

ذكر الله الليل والنهار وأنه رحمنا بهما مريدا بذلك أن نعلم النعم فنشكر عليها والشكر أعم من الحمد المتقدم فالحمد باللسان وحب جميع الناس بالقلب ، وصرف النعم والمواهب كلها فيما خلقت لأجله ، فهذه الثلاثة هى الشكر وأسها كلها العلم ، ومجامع النعم وأضداد النعم جمعت هنا . إن الله لما خلقنا فى هذه المادة أراد تربيتنا والتربية لابد لها من ضدين ، نعمة ونقمة ، فالنعمة موهبة ، والنقمة تسوق الناس إليها ، وعبر عن هذا كله بالليل والنهار ، والأصل كله دوران الشمس ومبدأ ذلك كله الحركة ، فبالحركة كان دوران الشمس ظاهرا وبدوران الشمس ظاهرا كان الليل والنهار ، والنهار عنوان النعم ، والظلمة أشبه بعدمها وعدم النعم هو النقم إذ لا نقمة إلا عدم النعمة ، فهذا الدوران أنتج فيما على الأرض ماهو من طباعه ، وإذا كان من طباع الدوران الظلمة والنور ، أى عدم النعمة ووجودها .

(كان فى الأرض)

جبل وواد وسهل وجزر وبحر وبر وعامر وخراب وخصب وجدب وحلو ومالح وهواء وحجر وخشن وناعم وحر وبرد ولطيف وكثيف ومر وحلو فى النبات وحيوان مفترس ضار لنا وأنعام تنفعنا .

﴿ وكان فى أجسامنا ونفوسنا ﴾

أعمى وبصير ، وأصم وسميع وأخرس وفصيح وأعرج وضده وأقطع وذو يد ومريض البدن وسليمه وكذا مريض القلب أو الجنب أو المعدة أو الأمعاء أو الكبد أو الطحال وهكذا بقية الأعضاء ومقابلة الصحيح فى ذلك كله، وكان فى الإنسان الغنى والفقير والعزيز والذليل والبخيل والكريم وهكذا مما لا يسعه المقام . وكان فيه أيضا الذكى والبليد والعالم والجاهل والأحمق والعاقل كل ذلك داخل فى ذكر الليل والنهار فالأول لعدم النعم والثانى لوجودها وماذكرناه كله لايخرج عنهما وكل ماعلى الأرض ناجم من آثار الحركات السماوية النازلة على الكرة الأرضية ، فكأن النتائج تابعة للمقدمات ناهجة منهجها سائرة على منوالها . ولما كانت هذه تمر على الناس وهم غافلون ذكر الله الناس بقوله « لعلكم تشكرون » أى لعلكم تعرفون فتشكروا على النعم .

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى ألم الجهل وألم الذل وألم الفقر وألم المرض والجوع وألم الفراق وألم الوحدة محرضات على نعمة العلم والعز والغنى والصحة والطعام والاجتماع وهذه أشبه بالسائق للناس إلى حوز النعم وجعل لذة العلم ولذة النصر ولذة الثروة ولذة الصحة ولذة الطعام ولذة الاجتماع أشبه بالقائد ، فلكل من ذلك سائق مؤلم وقائد ملذ تحمله على استجلابه ، ومن أكبر قائد للنعم جمال الزهر وحسن القمر وبهجة ضوء الكواكب . وغرائب المخلوقات التى تلفت النظر وتكون فى باب السائق أشبه بالمقطوعى الأيدى والأرجل فى باب النقم . ثم الجمال الفائض والقبح الزائد أحدهما قائد للنعم وثانيهما سائق يسوق الناس للبعد عن قبح النظر وشناعة الملبس وسوء الحياة .

هذا كله هو ماوضعت عليه الحياة فى أرضنا ويقرب منه قوله تعالى « ومن كل شئ خلقنا زوجين لعلكم تذكرون . ففروا إلى الله » فقوله : « ففروا إلى الله » هناك أى بالعلم وقوله « لعلكم تشكرون » ولا شكر إلا بعد علم .

﴿ نتيجة هذه الآيات ﴾

عليك أيها الذكى أن تفهم المسلمين أن الله يغضب على كل أمة نامت عن العلوم ، أيقظ المسلمين وقل لهم اقرءوا جمال هذه الدنيا من نبات وحيوان وتشريح وعلم نفس وعلم فلك وعلوم البحار وبهجة هذه الدنيا وعلى كل غنى وعالم وذى جاه أن يفهم المسلمين أنهم يجب عليهم أن يعمموا التعليم فى سائر بلاد الإسلام وأن تكون معرفة الله بأشياء مشوقة من بهجة الأنوار ومحاسن الأشجار وجمال البحار وصولة البخار وعزة النضار وضوء الماس ونفائس الأحجار وبدائع الأسرار وعجائب الآثار وحساب الليل والنهار وعجائب الفلك المدار « إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

قل : ابدءوا بهذه العلوم فاقرءوها فإذا قرأتموها للصغار ، فمنى ذلك أن تقطفوا من ثمارها وتسمعوهم من أخبارها فيكونون مشتاقين فرحين بها وهذا الشوق يدفعهم إلى اكتناه أسرارها إذا كبروا . ذلك هو المسمى (درس علم الأشياء) فيؤتى بنبذ من كل علم وتعطى لهم كأنها حلوى بها يفرحون وفاكهة بها يتفكهون فإذا كبروا قرءوا دروسها وعرفوا نظمها وتناولوا آياتها .

هذا هو شكر ربكم فادرسوه ، وهذا هو دين الإسلام فى المستقبل فترجوه ، وهذا هو توحيد الله وشكره فاشكروه ، وهذا هو الذى به تعمر مدنكم وتنظم أممكم وتقوى شوكتكم وتحفظ ثغوركم وتكثر نعمكم وتقل نقمكم ويهابكم عدوكم ، هذه هى العلوم التى ترفعكم فى الدنيا بما ذكرناه ، وفى الآخرة بلقاء الله ، فالدنيا تكون لكم سامعة مطيعة وقلوبكم تعشق ربها وتحب خالقها وتأنس به فى هذه الحياة ، فإذا ماقرب موتها أنست بعالم الجمال وفرحت بلقاء الله ، وهذا هو قوله تعالى «رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك هو الفوز العظيم » .

وههنا [أربع جواهر : الجوهرة الأولى] فى قوله تعالى « وربك يخلق مايشاء ويختار » .
[الجوهرة الثانية] فى قوله تعالى « وهو الله لا إله إلا هو » الخ .
[الجوهرة الثالثة] فى بهجة العلم فى قوله تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله » الخ .
[الجوهرة الرابعة] فى قوله تعالى « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار » الخ .

﴿ الجوهرة الأولى : فى قوله تعالى « وربك يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون » ﴾

يقول المسلم فى صلاته « اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا راد لما قضيت ولا ينفع ذا الجد منك الجد » هذا لأنه أعلم بالمصالح فهو يعطى وهو يمنع لحكم هو وحده يعلمها ، ولن يعرف أحد من بنى آدم حقائق هذه الحكم إلا بقراءة كل علم على قدر الطاقة ، هو يخلق مايشاء ويختار ، ليس الخيار لنا لأن علمنا قاصر وهو يعلم كل شىء ، وإذا أردنا ضرب مثل هنا على ذلك وجدنا العالم كله والعلوم كلها مضرب أمثال ، ولكنى أقتصر على مسألة واحدة تأخذ باللب وتشرح الصدر فأقول :

يعيش الجنين فى بطن أمه وفيه يتغذى بدمها ، فأمه تهضم الطعام فى بطنها وينقلب دما والدم يقابل الهواء الجوى بالتنفس فى رئتها فيصلح لتغذية جسمها فيرجع إلى القلب ويدخل الجهة اليسرى منه فيدخل من أعلاه فى تجويف يسمى البطين وينزل منه بفتحة إلى تجويف أسفل منه يسمى الأذين وهو أكبر من التجويف الأول ، ومن هذا التجويف الأكبر فى الجهة اليسرى يخرج منتشرا فى البدن أعلاه وأسفله ثم يرجع إلى نفس القلب من الجهة اليمنى وهو ممتلىء مواد فحمية (كربونية) فيدخل فى تجويف صغير هناك ثم ينزل منه تجويف أسفل منه يسمى البطين أيضا ، ومن هذا الأسفل يخرج متجها إلى الرئتين أى رئتى المرأة التى كلامنا فيها وهو يحمل المواد الفحمية فيقابل الهواء الجوى الداخل فيعطيه بتنفسها تلك المواد ويصفى كما نصفى نحن الماء ونخلصه من المواد الغريبة بآلات التصفية ، فهذه الرئة أشبه بالأوانى التى نضعها فى منازلنا وفيها الماء فينزل من مسامها خالصا سائغا للشاربين لا ضرر فيه ، فالرئة كالأوانى المذكورة والدم كالماء ، ومتى صفى الماء فى الرئة وطهر بمقابلة الهواء الجوى أخذ من الهواء فى نفس الحال مواد الحياة (الأكسوجين) بعد ما أعطاه المواد المهلكة السامة الفحمية (الكربونية) ورجع الدم يجرى إلى الناحية اليسرى ودخ‍ـ‍ـها كما تقدم . هذه هى الأعمال التى تحصل فى قلبى وقلبك أيها الذكى وفى قلب المرأة ، ونحن لا نشعر ولا نعلم . وليس شرح هذا المقام مقصودا بهذا المقال . كلا لأنه قد تقدم مستوفى فى (سورة المؤمنون) عند آية « وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » وإنما الذى سقت له هذه المقالة أمر عجيب وغريب ، سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذى اخترت هذا الوضع للقلب واصطفيت له هذه الدورة الدموية التى تتوقف حياتنا عليها . ولما كان هذا النظام معلوما لجميع الأطباء ويتبعهم المتعلمون فى الكرة الأرضية لم يكن أمرا غريبا لأن كل مألوف متروك ، وكل غريب مرغوب ، فلتكرار هذا العمل زالت غرابته كما زالت غرابة الليل والنهار ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والكواكب فلا تحرك ساكنا فى أكثر هذا النوع الانسانى ، كذلك هذه الدورة الدموية التى تدور فى أجسامنا المملوءة حكما وعلما قد أصبح الانسان كله إلا قليلا معرضا عن بدائعها وعجائبها ، وإذا رأى الناس كسوف الشمس وخسوف القمر أخذوا يتعجبون من ذلك لأنه نادر فربما بعث الأذكياء منهم إلى التفكر . هذا فى عالم السموات الذى نراه بأبصارنا . أما الدورة الدموية فهى غائبة عنا لانراها بل لا يعرفها إلا العلماء الدارسون لها ، بل الدارسون لها أيضا قل منهم من يفكر فى عجائبها .

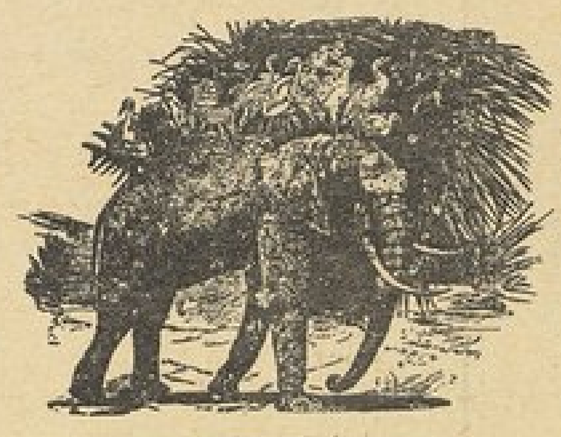
إن دراسة العوالم حولنا أسهل علينا من دراسة نفوسنا وتشريح أجسامنا ، ولكن إذا اطلع هؤلاء الدارسون لتلك الدورة على ماسقت الكلام لأجله دهشوا من تلك الدورة وعجبوا وذلك هو المقصود من هذا المقال كله . ذلك أن التجويفين الأعليين الصغيرين اللذين يسميهما العلماء (بطينان) بينهما فى أجسامنا الآن فاصل وحاجز فلا صلة بينهما . ذلك لأن الدورة الدموية لاتتم إلا بهذا الحاجز بينهما (انظر شكل الدورة الدموية فى سورة المؤمنون) .

وإنما لم تتم الدورة إلا بهذا الحاجز لأنه يفصل الدم الوريدى أى الذى لايصلح للتغذية فى البطين الأيمن عن الدم الشريانى الذى يصلح التغذية فى البطين الأيسر كما علمت . إذن الله فعل فى الدورة الدموية فى جسمى وجسمك أيها الذكى مثل مافعله فى البحرين العذب والملح ، وقد جعل بينهما برزخا وحجرا محجورا فلم يخلط أحدهما بالآخر وجعل الحلو مشتقا من الملح بالبخر منه فيخرج إلى الهواء فيخلص من الملح ثم يكون مطرا ، هكذا فعل الله فى هذه الدورة خرج الدم الوريدى الذى لايصلح للتغذية لما فيه من الكربون من البطين الأيمن ورفعه إلى الرئتين فقابل الهواء الداخل بالتنفس فصفاه وجعله صالحا للتغذية . هذا هو فعل الله فى جسمى وجسمك أيها الذكى الآن وجسم المرأة التى تحمل الجنين . إنما الأمر الأعجب هو أن الحاجز الذى بين الأذين الأيمن والأيسر الذى بينا أنه لابد منه لأنه حاجز بين الدمين الشريانى والوريدى الآن لم يكن له وجود فى الجنين فهو لى ولك ولأم الجنين ولكنه لم يكن عند الجنين ومتى ولدته أمه سدت هذه الفتحة حالا فكأن هنالك بوابا فتح هذا الحاجز قبل الولادة وعند الولادة أقفله وبقى مقفلا ، والسبب فى ذلك أن الجنين إذا وصل دم أمه إليه اتجه أولا إلى الأذين الأيمن فبدل أن ينزل إلى البطين الأيمن ومنه يتجه إلى الرئة ليخلص فيها كما قدمنا يتجه حالا من الأذين الأيمن المذكور إلى الأذين الأيسر مباشرة ومن الأذين الأيسر إلى البطين الأيسر ومنه ينتشر فى الجسم كله ، ذلك لأنه دم الأم ، ودم الأم الذى يجرى إلى الطفل كله شريانى . إذن لاحاجة إلى دخول الدم فى البطين الأيمن ثم خروجه إلى الرئتين لأنه لايعوزه مايعوز دمنا نحن لأن ذلك دم مصفى فى رئة الأم فهو دم شريانى . فرئة الطفل لا نفس فيها لأن نفس الأم فى رئتها قائم بما يجب . إذن لاحاجة لهواء يدخل فى رئته لقيام رئة الأم مقام رئته ، وعليه لابد من اتجاه الدم من الأذين الأيمن إلى الأيسر مباشرة ويعطل البطين الأيمن مادام الجنين فى بطن أمه وتعطل الرئة أيضا ، ومتى ولد الطفل قابل فمه وأنفه الهواء الجوى ودخل الهواء إلى الرئتين فهنالك حالا يسد ذلك الحاجز ويدور الدم دورته المعلومة المشروحة شرحا كافيا وافيا ، والحمد لله رب العالمين اهـ . صباح يوم الثلاثاء ٤ يونيو سنة ١٩٢٩ .

﴿ ضوء الجوهرة فى قوله تعالى أيضا «وربك يخلق مايشاء ويختار» ﴾

عبر بلفظ الرب إيذانا بالتربية فلم يكن الخلق إلا على مقتضى التربية (وبعبارة أخرى) لم يكن الخبر إلا على حسب المبتدأ ؛ فالمبتدأ هو ربك ، والخبر هو يخلق ، وفى إضافة الرب لضمير الخطاب إيذان بشرف المخاطب وأنه جدير بأن يكون خليفة فى الأرض يربى الأفراد والأمم ، فالله يربى ماخلق ورسوله ﷺ ومن اقتدى به يتخلقون بالأخلاق الكاملة التى أمرهم بها ليكونوا مربين للناس ، وجعل المشيئة خاصة به تعالى والاختيار ولم يجعل لأحد من عباده اختيارا فى إعطاء أو منع ، المربى الخالق الذى يعلم ماخلق لايجعل لأحد سلطانا ولا وزارة ولا استشارة فيما يدبره ، وهذا القول الإجمالى هو معنى الآية وهذا المعنى معلوم ، وإذا أردنا أن نجعل له مثالا تواردت آلاف الأمثلة بل مافى هذا التفسير من عجائب الحكمة يصلح فى هذا المقام ولكن وقع اختيارى على هذا الفيل المسمى بالانجليزية (جمبو) وعليه صف من طير أبى قردان تأكل الدود من جلده وهو مطمئن ساكن وهذه صورته فى الصفحة التالية (شكل ٩) .

(شكل ١)



(شكل ١)

أنا اخترت هذا المثال لأنه أثر فى نفسى أعظم أثر وكيف لايؤثر وأنا أرى أكبر الفيلة واقفا ساكنا وهذه الطيور واقفة فوقه وهو مستلذ ساكن بل مبتهج . هذا الفيل معلوم من طبائعه أنه قوى جدا وهو يقوم فى العمل مقام جماعة من الرجال ، وهو يقاتل الآساد والنمور وغيرها من الحيوانات المفترسة ولكنه فى نفس الحال حبيب صديق لأبى قردان ، ذلك الطائر الضعيف الذى لاسلاح له ولا قوة ، إن الفيل وإن لم يغلبه غالب من الحيوانات المفترسة فقد غلبه أضعف المخلوقات الذى هو أعدى أعدائه ولكنه لم يقدر أن يصل إليه .

إن له جلدا متينا قويا جدا وقد سلط عليه حشرة صغيرة تسمى (تيكس) فهى تعيش فيه وتتغذى بأكله وتؤذيه بأكلها وهو يحتك بالحجر وبالشجر لينحيها عن جسمه « ولات حين مناص » وكلما أوغل فى حكها أوغلت هى فى جلده وتعمقت وغاصت فيه فلن يقدر عليها فهى فى أمن وأمان ، فمن ذا الذى يغيث الفيل إلا أصدقاؤه ، أولئك القوائم على ظهره الآكلات عدوه المطهرات جلده من الآلام . وهذه الطيور البيض الجسم الصفر العيون والمناقير قد عملت للفيل مالم يقدر الفيل أن يعمله لنفسه ، إذن هذه الطيور خير أصدقائه .

قال شارح هذه الصورة باللغة الانجليزية (فعلينا أن يخدم بعضنا بعضا) هذا هو الذى استنتجه العالم الانجليزى من هذه الصورة .

ننظر نحن فى هذه الصورة فنجد الفيل العظيم احتاج إلى الطيور الضعيفة وصارت صديقات له وهذا هو خلق الله وتربيتم بعشيئته ، ليس المدار فى هذا المقام على كثرة العلوم ، بل المدار على الاتقان والفهم ، وسترى أيها الذكى فى (سورة الروم) عند قوله تعالى « واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » كيف تكون الصور فى أنواع الحيات وفى بعض الطيور وفى بعض الحشرات متشابهة وتشابهها يجعل سببا فى حفظ الضعيف الذى لاسلاح له لمشابهته والتباسه بالقوى إذ يخيل إلى الذى يريد إهلاكه أنه ذو سلاح أو بطش شديد . هذا ماستراه هناك وسترى صوره الجميلة الموضحة الدالة على حكمة تفوق كل حكمة وعلم لم تعلمه الأمم إلا فى أيامنا هذه فإن علم الألوان (كما تقدم فى سورة الكهف عند قوله تعالى « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا ») لا يزال الآن فى حال الطفولة ومع ذلك قد أصبح ما ظهر منه الآن معجزة قرآنية فاز تلك الألوان وتلك الصور والإبداع فيها والتفنن لايدع أدنى شك لعاقل فى الحكمة التامة التى لا يعقلها إلا من عرفها وهل يعرفها إلا علماؤها ، وهذا معنى كونه آيات للعلماء لالجميع الناس . هذا ماسيأتى هناك ومعه شرحه لتبيان تلك المعجزة ، وهى أن هذه الآيات إنما يفهمها العلماء بفن الألوان ، وهى أيضا تصلح

لهذا المقام لأن قوله تعالى « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » إذا تلوت ما ستراه فى الصور التى هناك أو الصور المذكورة فى (سورة المؤمنون) عند قوله تعالى « وما كنا عن الخلق غافلين » فيما تقدم أيقنت أن هذا الاختيار يسحر العقول ويدهشها . إذن أنا فى هذا المقام لا أكثر من الأمثلة فإن ما مضى وما سيأتى كاف فى ذلك .

وإنما الذى أقول الآن : إن منظر الفيل وفوقه أبو قردان ماهو إلا كتاب كتبه الله بيده وقال اقرءوه . الفيل أقوى والطير ضعيف والحشرة أضعف . الفيل كن العدو فى جسمه ولم ينجه منه إلا طير ضعيف ؛ إذن تعاون الفيل وأبو قردان على هذا الضعيف . إن هذا الكتاب الذى كتبه الله لنا بيده يجب علينا دراسته ، فنقول : الفيل من الحيوانات الأرضية ذوات الأربع ، وأبو قردان من حيوانات الهواء ، والدود من الحيوانات التى تختفى عن الأعين فى الأجسام .

هذه أمم ثلاثة : أمة تسكون غالبا فى الأجسام أو تحت الثرى ، وأمم فوق الثرى ، وأمم فى الهواء هذه كلها هى التى ظهرت فى هذه الصورة فساكن الأرض وساكن الهواء تعاونا على ما يسكن تحت الثرى أو فى طيات الأجسام . أيها الناس ، طير وحيوان أرضى برى تعاونا معا ، هذه هى الصورة التى ترونها ، تعاونا لأن الحاجة ماسة ، فهناك دفع أذى عن الفيل وغذاء لأبى قردان ، فهذا العمل أشبه بمن ضرب بحجر طيرين فهو غذاء للطير وشفاء للفيل . إذن هو غذاء وشفاء . وهنا نقرأ (درسين : الدرس الأول) بعض أسماء الله تعالى . الدرس الثانى نظام نوع الإنسان .

(١) الدرس الأول بعد أسماء الله الحسنى

انظر إلى الصورة وتفكر فإنك تقرأ فيها أن الله ملك فالملك يدبر الرعايا وهم فى رحابه يعيشون ، وأى ملك ينظم كهذا النظام ، وهو (قدوس) منزه عن كل ما لا يليق بكماله ، ومنها أنه لا يخلق داء إلا خلق له دواء مثل ما رأينا هنا (السلام) فهنا أمان للفيل وأمان لأبى قردان ، وهو (مهيمن) فهو يفعل مع هذه الحيوانات فعل الطائر يهيمن على صغاره بأجنحته ، وهو (عزيز) قد غلب الفيل بتلك الحشرات وغلب تلك الحشرات بأبى قردان ، وهو (مؤمن) جعل هذه الحيوانات آمنة فى أماكنها فرحة بنعم خالقها وهو (جبار) حكم على الفيل بما يؤذيه وأخضعه فذل لأضعف الحيوان واحتاج لبغاث الطير ، وهو (متكبر) لا يريد أن يدخل أحدا فى هذا النظام فهو عمله وحده (الخالق) أى المقدر لهذه الموجودات (البارىء) الموجد لها (المصور) صورها على مقتضى الحكمة التى رأيناها هنا عيانا . وهو (قهار) قهر الفيل وقهر الحشرة وهو (وهاب) وهب هذه الطيور أغذيتها من تلك الحشرات (رزاق) رزقها من جلده (فتاح) فتح لها باب الرزق (عليم) بما يصنع فى هذا وفى غيره (قابض) قبض أرواح تلك الحشرات (باسط) بسط الرزق لتلك الطيور بأجسام تلك الحشرات (خافض) تلك الحشرات (رافع) تلك الطيور على الفيل (معز) لهذه الطيور (مذل) لهذه الحشرات الخ . إذن أسماء الله الحسنى دراستها تكون أكمل فى الحقول . وهو (لطيف) وبهذا اللطف خلق المنقار الحاد والعيون القوية والأجنحة لهذا الطائر فغاص على تلك الحشرات فصار لطيفا بالفيل ولطيفا بالطير ، وهكذا .

(٢) الدرس الثانى نظام الأمم الأرضية

وحق لى الآن أن أخاطب الناس كافة ، ذلك لأن هذا كتاب الله وهذا خلق الله وأنا مفسر لكتابه وقد ينشرح صدرى لما أقول فيه ، فعلى أن أخاطب أهل الشرق وأهل الغرب ، أخاطبهم بكلام ربهم وأعماله العجيبة ، فأقول :

يا أهل الشرق ، ويا أهل الغرب ، إن الله جعلكم أرقى من هذه الأمم الحيوانية وجعلها هى أنفسها دروسا لكم ، فاقرءوا هذا الدرس وانظروا أمة من أمم الهواء قد اتحدت مع أمة من أمم الأرض مع

تباعد ما بينهما وشدة اختلافهما واتساع نطاق البعد بينهما ، هذا قوى وهذا ضعيف ، هذا أرضى وهذا هوائى ، هذا له أجنحة ، وهذا له أرجل ، هذا له معدات وهذا له قانصة وحوصلة ، هذا أسود وهذا أبيض ، هذا طعامه نبات ، وهذا طعامه حيوان . ثم أنتم درستم يا أهل الأرض صفات الحيوان ولكن لم تدرسوا فن الأدب ونظام الأمم منه ، فإذا كانت هذه الحيوانات المتباعدات تباعدا تاما قد اتحدا وتعاونا وفرح كل منهما بأخيه ، فما أجهلكم يا أهل الأرض ؟ رأت الأمم الكبيرة أن الأمم الصغيرة لضعفها لم تستخرج ما فى أرضها من كنوز ولم تستثمر مواهبها ، فماذا فعلوا ؟ هجموا عليهم وأذلوهم ومنعوهم العلم وهذا هو الخطأ والجهل .

يقول الله لكم جميعا : انظروا الفيل وأبا قردان ، الألفة بينهما جامعة لاعداوة فيها ولا إجهاد ، قتل الإنسان ما أجهله « قتل الإنسان ما أكفره » تقرءون ولا تفهمون ، تدرسون ولا تعقلون « صم بكم عمى فهم لايعقلون » .

أعجزت الأمم العظيمة أن تكون مع الصغيرة كالفيل مع أبى قردان تعاونا بالمحبة والمودة لا بالإذلال والاكراه .

ارتقت الأمم الأوربية ولكنهم جاهلون طرق الاستعمار ، الأرض لم تزل مملوءة بالمتوحشين من نوع الإنسان وهؤلاء لم يقدروا أن يعلوهم ، وغاية ما يعملونه أنهم يستعبدونهم وينهجون معهم نهج جماعات النمل القوية مع النمل الضعيف كما تقدم فى (سورة النمل) فيكون هؤلاء سادة ، وهؤلاء عبيدا وتكون النتيجة أن السادة بعد أجيال وأجيال يألفون الراحة ويكرهون التعب ويفرحون بالبطالة وهناك تنقرض تلك الجماعات من الوجود . هذا هو استعمار أوروبا المعطوف على استعمار الرومان والأمم العربية فى القرون المتأخرة ومثلها استعمار التتار والترك العثمانيين ، فهؤلاء فى أواخر أيامهم كانوا عالة على الأمم يستنزفون ثروتهم وهم مذمومون « فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » .

والحق الذى لامحيص عنه أن الأمم الأرضية اليوم لاسعادة لها إلا بالمعاونة العامة ، وهذه يعوزها مفكرون دارسون لها حتى يكون الضعاف فى أواسط أفريقيا وفى غربها مع الأقوياء فى أوروبا أشبه بأبى قردان مع الفيل .

هذا هو الذى فهمته من هذه الصورة أى (شكل ١) فى تفسير قوله تعالى « وربك يخلق ما يشاء ويختار » فهو الذى وضع لنا فى الأرض نملا يأسر بعضه بعضا ، وطيرا يصاحب فيلا ، وقد اخترنا أسوأ المثالين فى القرون الحالية فلنختر أشرفهما فى الأيام المقبلة لنكون ناهجين فى العمل أحسن المنهجين . انتهى يوم الثلاثاء ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٩ م .

﴿ الجوهرة الثانية فى قوله تعالى « وهو الله لاإله إلا هو له الحمد فى الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون » الخ ﴾

جاء فى هذه الآية أن الله واحد وأنه محمود أولا ومحمود آخرا وأنه هو سبحانه له الحكم وأن المرجع إليه . ثم أعقبه بذكر الليل والنهار والضياء والظلام . ومن عجب أن المحاورة بين (طيماوس) وهو حكيم من أصحاب (فيثاغورث) وبين (سقراط) الفيلسوف المشهور تناسب كل ما فى هذه الآية ، وألخصها هنا جميعها لمناسبتها هذا المقام بعد أن أثبت منها فى (سورة الشعراء) ماهو أكثر مناسبة للطب فى آية « وإذا مرضت فهو يشفين »

ذلك أن طيماوس ابتدأها بقوله (إنه يستعين بالله فى شروعه فى معرفة مبدأ العالم على أن يلهمه الله القول الحسن ويلهم السامع قبوله ، ثم أخذ يفرق بين القديم والحادث فالقديم متصف بالوجود ويدركه العقل . أما الحادث فليس له وجود حقيقى وإنما يدركه الحس والخيال ويحتاج إلى علة فى وجوده المجازى ،

ثم أخذ يثبت حدوث العالم بأنه مرئى ملموس مادّى ، وكل ماثبت له هذه الصفات فهو محسوس ، فكل ما هو محسوس فهو مدرك بالوهم والحس فهو إذن حادث والحادث لابد له من علة . ثم أبان أنه عاجز عن شرح وفهم الإله لأن المتكلم والسامع من البشر ، ثم ذكر سبب خلق العالم وقال سببه أن الله جواد وقد عمد إلى الأشياء المضطربة فوزنها فركب لها عقلا والعقل جعله فى النفس والنفس جعلها فى الجسد فجعل صورة العالم كله كصورة حيوان واحد مشتمل على كل حيوان والعالم فى نظره حيوان عاقل مرئى جسده مركب من العناصر الأربعة فى نظره إذن العالم مركب من العقل والمادة وشىء مشترك بينهما فهو كله أشبه بجسم إنسان واحد،وقبل ذلك التكوين لم يكن ليل ولا نهار لأنهما حصلا عند تكوين الأفلاك . إذن لا نحكم إلا على الحادث ، أما القديم فلا ، والكواكب التى هى من هذا الحيوان الكبير وهو العالم سواء أكانت سيارة أم ثابتة أجرام حية (فى نظرهم) بها تكونت الأيام والشهور والسنين ، ويقول إن الله لما خلقها خلق لها أرواحا وهى للملائكة تدبرها وخاطبهم يقول : أنتم حادثون وهذا الحدوث ليس نقصا لكم ، لأن قوتى تحفظكم فأنتم لا يلحقكم موت ، وهنا لك خلق أرواحا فى كل كوكب وفى الأرض والقمر والكواكب الثابتة وأطلع تلك الأرواح على العوالم كلها ثم قال لها أنا خلقتكم من عنصر الروح الملكية وسأنزلكم إلى عوالم المادة ، وتكون لكم شهوة ، فمن اتبع العقل رجع إلى كوكب سعيد ، ومن اتبع الشهوة نقلته فى حيوان بعد حيوان على حسب ما غلب عليه من الشر والشهوة ، وقبل ذلك خاطب أرواح الكواكب فقال لها : أنتم دائمون وأنا آمركم أن تأخذوا هذه الأرواح التى هى أيضا إلهية وتسكنوها فى أجسام وتغذوها بما يناسبها وتكون تلك الأشخاص مركبات مما يموت وهو الجسم ومما لا يموت وهو الروح مع إحداث حيوانات أخرى ليكمل النظام العام . وهذا القول الذى قاله طيماوس لسقراط أكثره موافق للاسلام فقد ذكر بقاء نفوسنا ونفوس الملائكة وذكر العقاب للمذنب والسعادة للصالح، وذكر أن الملائكة موكلون بالعالم وذكر أن العالم حادث وهذا عجيب جدا أوقفنا على أن نقل الفلسفة من اليونانية إلى العربية كان مشوها إذ نقلوا القول بقدم العالم فظهر أن ذلك النقل كان عن صغار علمائهم ، وأن ذلك الخلاف فى الكتب كان ضياعا ، وأقول الآن : يجب الاستقلال فى جميع المباحث فإن الاتكال على الأمم مضيعة لأمتنا والذى ينافى ديننا مسألة كون العصاة يصبحون حيوانات ، فنفس (طيماوس) يقول : هذا ظن لا يقين وعليه فان شريعتنا ذكرت جهنم وهذا عذاب يقين ، ومن الحكم العجيبة أنه يقول « إن الله خلق الأرواح وخاطبها » وهذا بعينه آية « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » الخ . وهذا من أعجب العجب أن يكون نبينا صلى الله عليه وسلم قد نزل الوحى عليه وهو لم يزاول علما بما كان يختلج فى قلوب علماء اليونان . وأقول : إن هذه معجزة كبرى بل كل هذا المقال معجزة وأى معجزة ، وكيف يثبت طيماوس المبدأ والمعاد وقدم الله وإثبات اليوم الآخر والعذاب والثواب وإن أخطأ فى تعيينها ويثبت بالظن خطاب الله للأنفس قبل نزولها إلى عالمنا الأرضى ، كل ذلك قبل الرسالة المحمدية بنحو تسع قرون .

وهنا بهجة العلم التى هى أنسب لهذه الآية بذكر النور والعين ، قال ما نصه بالحرف الواحد :

(قال أفلاطون : ثم بين (طيماوس) تصور الأبدان من العناصر على يد الله وتصور الآلات المختلفة من البصر والسمع وغيره ، قال إن البصر نار جعله الله فى داخل العين فمن تلاقيه بالنار الموجودة من خارج يتولد الأبصار وبسط القول فى مدح البصر وبيان منافعه، قال إن فائدة البصر على ما أرى أنه لو لم تكن لنا القدرة على إدراك الشمس والكواكب ما كنا نتمكن من الكلام عن السماء والعالم إذ من مراقبة اليوم والليل

وتحول

وتحول الأشهر والأعوام حصل لنا العلم بالأعداد والشهور بالزمان وحدث فينا الشوق لمعرفة الطبيعة والعالم فنه نشأت الفلسفة وهى أنفس ما أنعم الله به على البشر) .

ثم قال (إن الله لم يقصد من إيجاده البصر فينا إلا أن يمكننا من تأمل دوران العقل فى السماء لنستفيد منها تقويم دوران عقولنا وتنظيمه على نسق ما نراه فى السماء من ترتيب العقل فى دورانه إذ هو وذاك طبيعة واحدة) انتهى .

يقول (طنطاوى جوهرى) مؤلف هذا التفسير : إنى لما اطلعت على هذه الجملة الأخيرة اعترانى مايشبه الدهش والبهر وفكرت فى هـذا النوع الإنسانى فى الوقت الحاضر لاسيما أمة الإسلام ، اللهم إنك أنت خلقتنا فى هذه الأرض غرباء عن المادة فجبت هى أكثر عقولنا فكيف نرى هذا الجمال ؟ جمال النجوم ونظام الشمس والقمر والكواكب ونرى الشهور والسنين ونحن غافلون لم يخطر ببالنا من تلقاء أنفسنا أن تهلك العوالم المنظمة قد جعلت نبراسا لعقولنا التابعات لها ونحن نقرأ كل يوم « وزيناها للناظرين» ونقرأ « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج » ونقرأ « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا » الخ فها هو ذا ذكر الليل والنهار وأنهما لمنافعنا ، ويقول فى آية أخرى : « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا» الخ ،أو ليس من أعجب العجب أن يأتى رجل يونانى فيقول إن البصر لم يخلق فينا إلا لنلاحظ هذه الكواكب وسيرها ، ونفكر أن نظامنا يكون على نظام السموات التى نظمتهاعقول عالية عقولنامخلوقة على مثالها . أو ليس هذا هو قوله « ووضع الميزان. ألا تطغوا فى الميزان » .

أيتها الأمم الإسلامية ، إنى أكتب هـذا وان نفسى فى خجل أن أرى أن هذه الحكمة وهذا الاشراق وهذه النظرات السامية تكاد تكون مفقودة فى أمتنا الإسلامية فى القرون المتأخرة ، أنا أقول لن يكفى المسلم أن يقرأ هذا فى كتاب . كلا . بل لا يتسنى للمسلمين أن يتأثروا بهذه المباحث إلا إذا نظروا بأنفسهم وفكروا بعقولهم فكرا استقلاليا ، فمن وفقه الله لهذا هداه إلى النظرات فى الكواكب ليلا فيفكر فى جمالها الظاهرى ويتأمل فى عجائبها بنفسه يوما فيوما ثم يدرس مبادىء الفلك وهذا هو قوله تعالى « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض » هنالك يتأثر الوجدان ومن هذا التأثر تحصل المعرفة ، فالكتب وحدها لا تفيد بل لابد من النظر الاستقلالى .

اللهم إنك أنت المنعم وأنت الهادى . اللهم إنى ألجأ إليك أن تجعل هذا الكتاب ذكرى لشبان من النوع الإنسانى مسلمين وغير مسلمين لأنك أنت رب الجميع والمنعم على كل نسمة بما يناسبها وخير النعم ما كان علما وحكمة ، فاجعله يا ألله نورا لبصائر المستعدين من العالمين، والحمد لله رب العالمين. انتهى صباح الاثنين يوم آخر شهر رمضان المعظم سنة ١٣٤٧ .

﴿ الجوهرة الثالثة فى بهجة العلم فى قوله تعالى « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة» الخ ﴾

حدثنى الحارث بن همام قال رأيت فى المنام كأنى مت وغسلت وكفنت وصلى على ودفنت وفى نفس الوقت كان روحى ترفرف بهيئة تشبه هيئة جسمى ولكنها هيئة روحية نورية فأخذنى ملائكة أوقفونى فى عوالم من النور البهيج الذى لا مثيل له فى الأرض بحيث لا أتمكن من وصفه لبهجته وجماله ثم أحسست فى نفسى بخواطر على هيئة السؤال والجواب وأنا فى حال الدهش من الجمال وكأن الحق يخاطبنى بلا حرف ولاصوت وأنا أجيب فى سرى، وكأنه يقول لى ياعبدى أنا أحبك فقلت فى سرى ربما كان هذا الخاطر شيطانيا وإلا فكيف أستحق

هذه المحبة وأنا مقصر فى أعمالى كلها ، فقلت فى سرى وما علامة حب الله لى؟ فكان الجواب ما يأتى (علامة حبي لك أنى شغلت عقلك بى طول حياتك ، فأنت فى حضرك وسفرك وفى كل حال من أحوالك تبحث عنى وتفكر فى أعمالى ، فهذه لم تكن إلا من الحب الذى ألقيته فى قلبك لى ولن يحبنى أحد إلا كنت أنا محبا له قبل أن يحبنى ، ألم تقرأ « يحبهم ويحبونهم ») ثم قال (وقد خلقت العالم كله لأجلك) .

قال فلما خطر لى هذا الخاطر وكأنه خطاب من الله اعترانى الذهول ورفعت طرفى إلى السماء، وقلت يا ألله أنا لست بقادر على أن أفهم هذا فأجبت بما يأتى (طب نفسا وقر عينا وسأعلمك معنى ذلك ، من أين أتت روحك ؟ فقلت هى قبسة من نورك ، فقال وهذا النور حكمت عليه أن يتربى تربية تدريجية فى العوالم المادية ولا يكون ذلك إلا بأبوين يلدانك وأمة يعيش فيها هذان الأبوان وأمم تحيط بهم تساعد هذه الأمة بتجارة ومعاملة وهذه الأمم كلها لابد لها من الحيوان والنبات والماء والمعادن والأرض والهواء والكواكب الثابتة والسيارة . فقلت نعم حقا أنا لا أخلق إلا وأنا مصحوب بهذا كله فقال لى الله فى سرى: فأنا لأجلك خلقت الشمس والقمر والمجموعة الشمسية والمجرة والسدم والأرض ومن عليها ، قال فقلت فى نفسى إنه لم يخلقها لى وحدى ، فأجابنى قائلا أضرب لك مثلا رجلا له عشرة أبناء أسكنهم بيتا مزخرف الحيطان مفروش الأرض مضاء السقف بالمصابيح، وهؤلاء الأبناء يتعاونون على جلب الرزق ودفع الأعداء ،فهل هؤلاء الأبناء كل واحد منهم شر على البقية من إخوانه أم هو خير؟ فقلت بل هو خير لأنه وإن شارك إخوته فى الرزق فقد شاركهم فى العمل والمنفعة لهم ، فقال إذن كل واحد من العشرة الأبناء فى حياة وسعادة بالمنزل نفسه وبجميع إخوته المساعدين له ، فقلت نعم قال فهكذا أهل الأرض كلهم فكل امرىء منهم يصح أن يقول خلق العالم كله لأجلى ولا ينافى هذه القضية بل يؤيدها وجود أمثاله من بنى آدم فى الأرض لأن كل إنسان منتفع بالناس تعليما وتجارة ومدنية ونظاما كما انتفع من الشمس والقمر والسحاب والهواء . إذن لكل عاقل أن يقول خلقت لى السموات والأرض وما بينهما كما تقول المرأة فى حق زوجها وإخوتها وذريتها: هؤلاء كلهم لنفعى وخدمتى وكل من هؤلاء يقول مثل ما تقول هى ، وعليه لكل إنسان فى الأرض أن يقول: خلق العالم كله لأجلى ، قال ثم هجس فى نفسى أن هذه المعانى كامنة فى قوله تعالى « ألم يجدك يتيما فآوى » فاليتم اللغوى معروف وهو الذى يجبب القلوب فى ذلك اليتيم فتكفله ، أما اليتم العلمى فهو احتياج النفوس إلى تربيتها فى الأجسام وإصلاحها بهذه العوالم كلها. وأول اليتمين رمز لثانيهما ، فكل نفس فى حد ذاتها مفتقرة إلى هذه العوالم افتقار من فقد أباه إلى من يعوله ، وقوله « والضحى . والليل إذا سجى » قد شمل العوالم كلها فالعالم العلوى والسفلى ليلا ونهارا مسخر لكل امرىء فى الأرض .

قال الحارث بن همام: فلما تم هذا الخاطر فى نفسى: قلت ياعجبا وهل هذا دليل على حب الله لى ؟ فخاطبت الله فى السر قائلا إذن أنت تحب كل مخلوق وكل إنسان كافر أو مسلم لأن كل واحد من هؤلاء يقول مثل ما أقول فأجابنى الخاطر فى سرى يقول (إن الله لم يخلق الخلق إلا وهو يحب أن يخلقهم ومن كشف منهم له الغطاء عن حقيقة الأمر وأحس بوجدانه بما ذكرته لك الآن فهو المقصود الحقيقى لأن روحه أصبحت راقية ، أما بقية الخلق المغمورين فى الجهالة فأمامهم دهور ودهور يتيهون فى بحر الجهالة والعماية والضلال ، ثم قال إن الله خلق الخلق وأعدهم للرقى ومن أحس بهذا الوجدان وثبت فى نفسه فذلك دليل على أنه استعد للمحبة الحقيقية والنور والبهجة والجمال) .

ثم قال الحارث بن همام: فقلت فى سرى إن المحبة فى أهل الأرض إذا ملكت قلب امرىء أضنته وأحرقت فؤاده وأمرضته وما هى إلا أن يحب الرجل امرأة ردحا من الزمن ، فما بالك إذا أحب العالم مبدع هذه الصور

وأنواع

وأنواع الجمال ؟ فكيف يطيق ذلك ؟ وكيف يكون ذلك الحب . قال فأجابنى الخاطر فى سرى قائلا أما قولك كيف يكون ذلك الحب ؟ فأقول، أذكرك بما تقرأ فى الحكمة والعلم فتفكر فى رجلين رأيا طائرا على شجرة مثل الزرزاق البلدى (المرسوم فى سورة يوسف وفى سورة النمل) فهذا له نوع من الجمال فوق الشجرة وقد تمايلت الأغصان وهبت الرياح وتغنت الأطيار فأحدهما لم يفكر فيه والثانى فكر فى جماله ومنفعته وكيف أعد لأكل الدود الذى يأكل الزرع ، فهنالك يحار لبه ويدهش ويقول إنى كما أنتفع بالشمس والقمر والكواكب وأهل بلدى وأمتى والأمم وبالجبال والأنهار هكذا أنتفع بهذا الطائر هو وأمثاله التى تبلغ نيفا وثلاثين كما تقدم فى (سورة طه) و (سورة يوسف) فهذه كلها جيوش وجنود مجندة أرسلت إلى من العالم الأعلى لتلتقط الدود وتحافظ على حياتى ، هنالك يخرج من هذا الخاطر إلى ماهو أرقى عنده ويقول فى نفسه من أنا ؟ وماهى حياتى؟ وما هذه الطيور والأمم والدول والكواكب ؟ . إن الأمر لأعظم وأكمل ، أى حكمة دبرت . وأى تدبير أحكم ؟ إن الأمر لعظيم . هنا تدبير محكم ربط الشجر والطير بالدود والزرع والإنسان . هذه حكم ونظم محكمة مضبوطة هنالك تطير روح هذا المفكر إلى عالم الجمال وتفكر فيه وتنشرح وترجع إلى مبدع هذه النظم وهنالك يرى الجمال بالبصيرة ويدهش عقله ويطير لبه . وهذا الحب والدهش والتعجب ليس اختياريا ، بل هو أشبه بحب المرأة لولدها والعاشق لمعشوقه . والناس فى حق أصحاب الجمال على (قسمين) قسم عرف الجمال وهام به ، وقسم عرفه ولم يهم به لعدم استعداده . وكما أننا إذا أتينا بطفل أمام مائة امرأة وهو يبكى طالبا إرضاعه لانرى واحدة منهن تتقدم إليه أكثر من غيرها إلا امرأة واحدة هى أمه التى تلقمه ثديها لأنها هى التى بينها وبينه مناسبة أشد من غيرها وإن كان النساء كلهن يتأثرن لبكائه ويردن إرضاعه ، هكذا مناظر هذا الوجود كمسألة الطائر المتقدمة والتقاطه الدود وحسن النظام العام ، فهذا ينظره العالم والجاهل وعلماء الزراعة وغيرهم ولكن لا يتأثر بالحب لمبدع العالم إلا نفوس خاصة كما لم يؤثر بكاء الطفل الأثر القوى إلا فى أمه . هنالك دهيت فى سرى وقيل لى إذن أنت محبوب فعلا لأنك إذا نظرت أمثال هذا الطائر طار لبك وأخذ منك العجب كل مأخذ ووجدت فى نفسك حبا لايحس به من حولك مع أنهم يشاهدون مثل ماتشاهد ويعلمون مثل ماتعلم بل نفس علماء الحيوان وعلماء النبات يعلمون هذا أكثر منك ولكنهم لايتأثرون فيرى عالم الزراعة أن ورق السنط قد حفظ بشوكة طلعت بجانب كل ورقة وأن عنق ورقة (البازلاء) وعنق ورقة الورد قد حفظ كل منهما بما خلق ملازما له كما تقدم فى (سورة النمل) رسم ذلك . يرى ذلك عالم الزراعة فلا يتأثر به لأنه ربما لم تكن روحه من الأرواح المستعدة لفهم الجمال كما لم يستعد الطفل لإدراك جمال الغانيات .

ثم قال الحارث بن همام ، وختم الهاتف فى سرى خطابه لى قائلا [إن كل العوالم ساعية مجدة للرقى ولم يحظ بتلك المحبة] إلا نفوس خاصة هى التى أدركت ذلك الجمال ، أما البقية فإنهم إلى الآن لم يصلوا إلى ذروة الكمال فلم ينالوا هذه المحبة . هذا جواب السؤال الأول ، وهو كيف يكون هذا الحب .

أما قولك كيف يطيق ذلك الحب ؟ فأقول هذا هو بيت القصيد . اعلم أن أرواحكم فى هذه الأرض لها صلة بالأرواح العالية فهى نفوس جزئية لها نسبة إلى النفوس الكلية التى بها نظمت العوالم كلها بأمر الله وهى « المدبرات أمرا » فهذه وضعت فى الأرض ، والأرض كلها جمال وحكم وعجائب وبدائع فلو أن هذه النفوس كشف لها الجمال فيما حولها لماتت وتصدعت ولكن الله لرحمته أحاطها بالمصائب والجهل والحسد والحرب والمرض وغيرها لئلا تعرف ذلك الجمال فيدهشها فلا تتحمله فتهلك ، فانظر إلى آثار رحمة الله ، جهل وذل وعمل وأشغال متعبة وهموم ، كل ذلك جعل غطاء يغطى جمال هذه العوالم المحيطة بالإنسان من كل جانب بل على مقدار كثرة الجمال فى العوالم كان الغطاء الذى غطاه ، فكثرة الأعمال والجهل والثورات والفتن فى الأرض

وضعت بمقدار وفرة الجمال لتغطيه وتحجبه . فأكثر الخلق محجوبون عن الجمال فى أنفسهم وأجسامهم وحيوانهم ونباتهم وأرضهم . فأما الذين كشف لهم بعض الجمال فهؤلاء أيضا تنزل بهم الكوارث والنوائب فتحجب عقولهم عن ذلك الجمال كالباقين وإنما يتجلى لهم الجمال وقتا بعد وقت فى فترات على مقدار طاقتهم « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

﴿ نور الجوهرة الثالثة الصحة والشمس ﴾

جاء فى جرائدنا المصرية فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٦ ما نصه :

يقول الدكتور (بنتلى) عميد كلية الطب بكلكتا : إن الشمس تسبب زيادة سكان الممالك أو نقصها كما تسبب نمو المحصولات أوضعفها . وعلى ذلك يقول الدكتور إنه فى أمريكا والهند استدلوا على أن الشمس تؤثر فى إنماء الأجسام والمحصولات الزراعية وأن عدم وجود الحرارة يضعف الأجسام والمحصولات أيضا . ويزيد أن الصحة لا تسلم إلا فى نور الشمس وتحت حرارتها اه .

﴿ الجوهرة الرابعة فى قوله تعالى « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار » الخ بعد قوله « قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا » الخ ﴾

اعلم أيها الذكى أن هذا المقام عظيم القدر سامى المنزلة ، ففهم الرحمة هنا يعوزه أن تجتهد النفس فى أن تتملص من عاداتها وتخلص ولو مؤقتا من شئونها حتى تتفرغ إلى فهم رحمة الله بشمسه وكواكبه نهارا وليلا وبالظلمات والأنوار . واعلم أن السبيل لذلك ما قاله الله فى سورة أخرى « فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى . ولاتمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى . وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لانسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى » .

خلقنا الله فى الأرض وأفاض علينا نعم الشمس والكواكب والأنوار ولكنه فى الوقت نفسه سلط علينا الأعداء من كل جانب كما أحسن إليهم المرسلون والعلماء بإفاضة العلم والخير أساءوهم وسلقوهم بألسنة حداد ومن جهة أخرى سلط على كثير من الأخيار فى الأرض حب الموازنة بينهم وبين معاصريهم فى المال والرزق والولد والجاه . إن أهل الأرض من الصالحين والطالحين جميعا قد أحاطت بهم هذه المزعجات ممن حولهم ومن أنفسهم ، يجدون من بنى آدم العداوة والبغضاء ، لاسيما الأقارب والقرناء ، ويجدون من أنفسهم طمعا لاحد له وميلا لزخرف الحياة الدنيا . فالأنفس فى عذاب واصب مزدوج من داخلها ومن خارجها فأنى وكيف تقدر هذه النفوس أن تخلص للنظرة العامة فى هذه الشمس الجميلة والكواكب البهجة وبهائها وظلمة الليل وضياء الشمس ؟ كلا . فالقوى النفسية فى الإنسان محدودة وقد وزعت بين قوتين قوة داخلة وأخرى خارجة .

اللهم إنا نحن بنى آدم على الأرض مساكين خلقتنا فى أرضك الجميلة تحت شمسك البهية المتلألئة وكواكبك البديعة ثم أحكمت أقفال أبواب السما ، على أكثر نفوسنا فغابت فى دجى ظلماتها وانهمكت فى مطالب دفاع الأعداء وجلب الكساء والغذاء ، فنفوسنا أبدا مابين قوى الدفع والجذب ، فأنى لها أن تخلص من ذلك وتنظر رحماتك الواسعة المحيطة بها ؟ .

علم أن ذلك الخلق فينا فقال لنا : أيها الناس ، أماذم الأعداء وحسدهم وإيذاؤهم فدواؤه الصبر وما الصبر إلا الجنة (بضم الجيم وتشديد النون) التى تتخذونها لكم دروعا تتقون بها إيذاء الأعداء وأنا مع الصابرين ،

وأما

وأما مطالب أنفسكم وحبها لزهرة الحياة الدنيا فاياكم أن تمدوا أعينكم إلى ذلك لأنها زهرات وهل للزهرات بقاء؟ إذن لابد من صبر على الضراء وصبر عن الشهوات . إذن الناس موثقون بوثاقين والوثاقان لهما حل واحد وهو الصبر ، صبر على قول الأعداء وصبر عن الشهوات . وبعبارة أخرى احتقار ما يصيب الإنسان داخلا وخارجا . هذا هو قوله تعالى « فاصبر على ما يقولون » راجع للصبر على كيد الأعداء . وقوله « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم » الخ راجع للصبر عن الشهوات . وهاتان الخصلتان يرجع إليهما كل مكروه من مرض وفقر وفراق وهكذا . فهذه هي القواطع التي تقطع الناس وتصرفهم عن معرفة رحمة الله عز وجل في شمسه وقمره وكواكبه . وبالصبر والرضا بالقضاء والقدر رضا مبنيا على العلم والحكمة . يتفرغ الإنسان لهذا الوجود ويفهم إذ ذاك قوله تعالى « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى » لأن النفس لا ترضى إلا بالعلم والعلم لا يكون إلا بعد أن تذهب تلك القواطع .

يأمرنا الله بالتسبيح بحمده قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ويأمرنا بذلك في بعض ساعات الليل ويقول لنا في هذه الآية التي نحن بصددها « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله » . قد قلنا إن الإنسان موثق بوثاقين من الداخل والخارج والوثاقان يحلان بالصبر ولكن الزهد في الدنيا والصبر على الأذى وحدهما ليس معناهما أن الإنسان فهم هذا الوجود لأن هذا ماهو إلا تخلية ولا بد من التخلية كداخل الحمام يتجرد من الأقذار ثم يلبس الثياب هكذا هنا إذا خلت النفس من هذه القواطع فلتشرع في درس هذا الوجود . ولتقف أيها الذكي صباحا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في موضع خال والجو جميل فسبح وقد أقبلت جيوش الصباح البيض الصباح أو المشرقات الحسان البهجات في دياجي الظلمات . فهنالك تنظر فترى دولة وموكبا مقبلا فتطلع الشمس وترسل الحرارة إلى الهواء فتجرى الرياح وإلى الماء فيثور البخار الذي يصير سحابا فتقابله الرياح فتحمله إلى الأقطار فيمطر فيكون أنهارا تسقي النبات والحيوان والإنسان . أو ترى تلك الثريات اللامعات التي لاحد لجمالها في الدجى وهن باهرات لايعرف لهن أمد ولا يوقف لهن على عدد ثم تنظر فترى أن حياة كل مخلوق موقوفة على الشمس وضوئها وحرارتها ، وأن كل ماهو جميل في الأرض مشتق من بهاء تلك المشرقات ، وما هذه الزينة التي تتباهى بها الغانيات الحسان في الأرض إلا من آثار ذلك الضياء ، ألم تر أن الأصباغ التي نوعها الإنسان في الثياب ماهي إلا من الفحم الحجري الذي حفظ ضوء الشمس قبل آلاف الآلاف من السنين ثم استخرج الناس منه تلك الأصباغ الآن والأضواء ، وبتلك الحرارة المخزونة أجروا المركبات في الطرقات ونوعوها ووزعوها في الأقطار .

نفس الإنسان شريفة كبيرة عظيمة تعطى الملك والنعم والمال والولد وتملك الأقطار والبلاد ولكنها تقول كلا كلا . هل من مزيد ، هي حقا من نور الله ، نحن لانرضى في الأرض بما نملك . لو ملك كل منا هذه الأرض جميعها لقال هل من مزيد فكيف إذا كانت الأرض موزعة بيننا فلا سبيل لنا إلا العداوة والبغضاء في اقتسامها ، وإنما لم ترض بذلك لأن هذه النفوس عالية شريفة لاترضى إلا بمعرفة حقيقة هذا الوجود ومتى عرفت اطمأنت وسكنت . فهذا معنى قوله تعالى « لعلك ترضى » إما إهلاك الأعداء وإما مد عينيك إلى ماستعناهم به من مال وولد فهذا لايرضى هذه النفوس إلا وقتا ما ثم ترجع للمطالبة وتقول أين المنتهى . ومتى أدرك الإنسان جمال هذا الوجود [ويكفيك مؤقتا قراءة هذا التفسير أو أكثره] رضيت نفسه وفهم معنى « فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » الخ وأدرك السبب في ترتب الرضى على التسبيح والتنزيه لاغير إذ يرى أن ما يصيبنا لم يكن إلا لارتقائنا والله منزه عن قصد الايلام بلا فائدة . ومتى اعتقد ذلك اعتقادا مبنيا

على النظر والعلم رضى وفهم سر معنى كون رضوان خازن الجنان فهو من هذا الوادى وكم فى هذا المقام من أسرار وبهذا المقام يفهم المسلم فى صلاته معنى مخاطبة ربه قائلا « أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت » فأنت أهل الثناء والمجد دائما . ومعلوم أن الثناء لا يكون إلا على نعمة وهذا المنع بعد فهم الحقائق صار نعمة . والمصلى يقوله إما تعبدا وتكلفا إن كان جاهلا ، وإما بعلم وعقل إن كان عارفا بأمثال ما يذكر فى هذا التفسير وهنالك درجات فوق ذلك .

فهناك يمتزج التسبيح بالتحميد إذ يرى فى طلوع الشمس والكواكب وغروبها حياة وموتا وزرعا وحصادا ويدرك النعم ويعقل السبب فى الموت والمرض وأن كل شر لم يكن إلا الخير وأن الأمر عظيم . ويفهم « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » ويرى أن الملك الكبير كما يكون يوم القيامة يكون فى الدنيا بالفهم والعلم غاية الأمر أنه يكون هناك أظهر ، ولكنه ظاهر لذوى البصائر الآن . إن هذه الطائفة التى اتصفت بما أقوله الآن وعرفت مقصود الوجود على مقدار طاقتها تعرف نعم الله فتحمده عليها وتشكره ويخامر قلوبها حبه لما ترى من جماله وإحسانه الذى لا حد له ، وتفهم أن رحمته لا حد لها وتعقل أن الموت الذى هو أعظم المصيبات المخيفات فى الدنيا ما هو إلا مقدمة لابد منها من مقدمات الرحمات لأنه يستحيل أن تكون هذه الرحمة التى لا حد لها تأتى بنقمة إلا مقدمة لنعمة . وبعبارة أخرى إن النقمة ضرورية لجلب نعمة أرقى من النعم السابقة .

هذا هو الذى تضمنه قوله تعالى هنا « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار » الخ فبهذا الإجمال تصور مبادئ الرحمة التى فى هذه الآية فننزه الله عن الإيلام لغير نتيجة ، وهذا هو التسبيح ، ونعرف نعمه التى لا حد لها وهذا هو التحميد . وهذا هو غاية الرضا وإذن نفهم « لعلك ترضى » هذه هى الرحمة العلمية .

أما الرحمة العملية فانظر أيها الذكى إلى بنى آدم تجدهم قد تخبطوا فى قبول هذه النعمة . رأوا الشمس وضوءها فماذا فعلوا ؟ رأوا الطيور والأنعام والحشرات متمتعات فرحات بضوء الشمس فقلت أمراضها وكثرت خيراتها ونعمها . أما هذا النوع الانسانى فانه لما أعطى قوة الفكر والتمييز أخذ يتوارى عن السعادة وينحط فى دركات الشقاء بسوء تدبيره وكبل فى قيوده وحيل بينه وبين سعادته بالتباهى وألهاه التكاثر فى المال والولد والزينة والزخرف وجمع المال والإكثار من الملابس والتفنن فى الأطعمة والانزواء فى القصور والمنازل فحرم الهواء النقى وضوء الشمس والأطعمة الطبيعية فأحاطت به المكروبات (الحيوانات الذرية) وأوردته موارد الهلكة بالطاعون والحصباء والجدرى والحمى وأمثالها وقتلته الأسقام بسبب البطنة وسوء اختيار الأغذية واتباعه ظواهر اللذات الحسية ونبذه مقاصد المطاعم والمشارب ، ولذلك الإشارة بقصة أبينا آدم التى ذكرت فى مواضع من القرآن يقول تعالى « فأكلا منها فبدت لهما سوآتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى » فانظر هذا المقام فى أول سورة الحجر وفى أواخر سورة طه ، فهنالك ترى خطل هذا الانسان وجهله فى الشرق والغرب ومرض بدنه بجهله ، سواء فى ذلك أطباؤه وعامته وعلماؤه وجهلاؤه .

لعمر الله ما نزلت تلك القصة ولا كررت تأديبا لآدم . كلا . وإنما ذكرت عظة لنا وتأديبا وهذه القصة قد نزلت على الأنبياء ثم على نبينا صلى الله عليه وسلم ، والناس لا يكادون يفطنون لها حتى إذا كان هذا الزمان أخذ الناس يفطنون لهذا الوجود وبحثوا فأداهم بحثهم إلى أن التوارى عن الشمس والانزواء فى البيوت والانهماك فى اللذات كلها عذاب واصب . أما المطاعم واللذات فقد تقدم الكلام عليها مفصلا فى (سورة الشعراء) عند قوله تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » وفى (سورة طه) عند قصة آدم ، وفى سورة (الحجر) كما تقدم ، وفى سورة (الأعراف) عند قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وفى (سورة البقرة) عند قوله تعالى « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » فاقرأ هنالك ، فإن فيه غنى لك ولذويك وحكمة ونورا مبينا .

وأما

وأما أمر الشمس فان الناس اليوم عرفوا قيمة الخلوات والهواء والتعرض لضوء الشمس فعلى المسلمين أن يذروا ماعندهم من العادات وليكن لهم وجهة صحية بعلم وفهم، وليعلموا أن الله عز وجل عمم نورالشمس وجعله سعادة وصحة للطيور وللأنعام والحشرات المقيمات فى الحقول والبساتين فليس من المعقول أن يكون نعمة لهذه المخلوقات ثم هو نفسه يكون نقمة على الإنسان .

قد أجمع الأطباء أن ضوء الشمس يجب أن يتخلل جميع حجرات المنزل حتى تقتل الحيوانات الذرية بل إن الأمر فوق ذلك . هاهم أولاء أهل ألمانيا أخرجوا التلاميذ من المدن والمنازل وأخذوا يعلمونهم فى الخلاء ليتلقوا العلم وهم معرضون للشمس التى هى رحمة مرغوبة لا نقمة مرهوبة ، فهاك مااطلعت عليه فى [مجلة كل شىء] فاقرأه قراءة من يريد أن يعمل بالعلم، فاذا قرأته فتفكر فيه وغير نظام مدارس المسلمين وأخرجهم من ظلمات الحجرات الحقيرة القذرة، وقل لهم أيها الناس إن الله جعل ضوء الشمس رحمة بنص الآية ثم ألهم الأمم وعلمها فعرفت فوائد الضوء فاغترفوا من رحمته بضوء الشمس ولا تحبسوا أبناءكم فى تلك الأماكن القذرة التى لايدخلها ضوء الشمس وابتغوا من فضل الله ، فهذا كلام الله وهذا عمل العلماء من عباده ، فهذا ماجاء فى تلك المجلة بنصه :

التعليم فى الهواء الطلق

يؤمن الأطباء الآن إيمانا عظيما بفائدة الضوء والهواء الطلق ، ولذلك هم ينصحون للمرضى بالتعرض لضوء الشمس والتخفيف من الملابس بل ينصحون باستعمال الضوء الصناعى إذا كانت الغيوم كثيرة كما هى فى لندن .

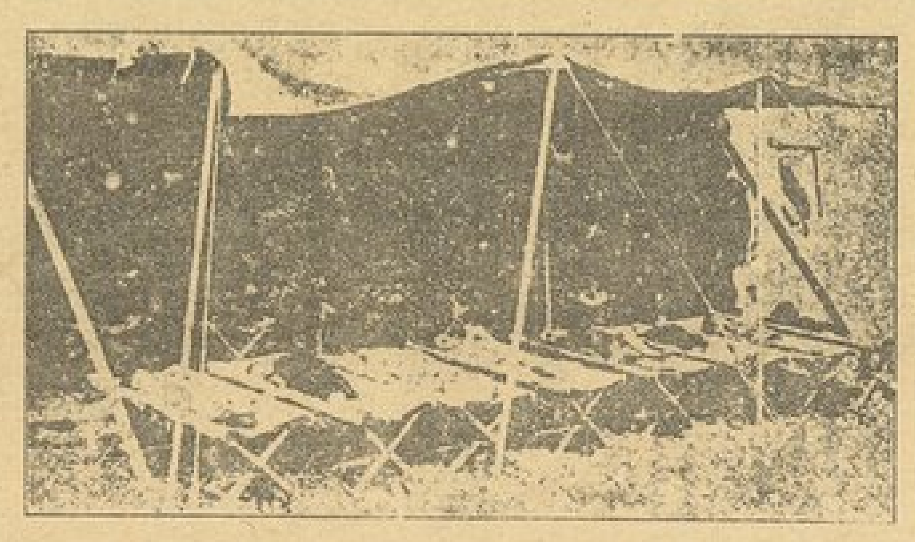
وقد بنى الألمان وغيرهم مدارس مكشوفة يجرى التعليم فيها فى الخلاء ، فاذا أمطرت السماء آوى التلاميذ والمعلمون إلى الغرف ، ويرى القارىء هنا ثلاث صور لمدرسة أطفال جديدة أنشئت قريبا من (بورجيه) فى فرنسا، وهى تجمع الصغار من منازلهم كل يوم بالأتوموبيل وتخرج بهم للخلاء فيجرى التعلم بين الحقول تحت الشمس عند اعتدال الهواء ، فاذا لم يكن الجو موافقا قعد التلاميذ فى المدرسة الأصلية وهى بناء عادى به الغرف الخاصة بالتدريس وبهذه المدرسة الآن ٨٠ تلميذا (انظر شكل ٢) و (شكل ٣) و (شكل ٤) .



(شكل ٢ – التلاميذ فى المدرسة الجديدة التى أنشئت أخيرا فى فرنسا يلعبون فى الحقل أثناء الاستراحة بين درسين)



(شكل ٣ ـ التلاميذ على الموائد)



(شكل ٤ ـ التلاميذ فى خيامهم فى الخلاء يسترمحون على أسرتهم عقب الغداء)

فلما اطلع صاحبي العالم على هذه الصورة وفيها التلامذة فى الخلاء معرضين للشمس . قال أتدرى مايقول الناس حين يرون هذه الصورة ؟ يقولون إنك تأتى بالجزئيات فتجعلها كليات ، هذه فرنسا ربما قام فيها أفراد وصنعوا هذه التجربة وجعلوا مدارسهم فى الخلاء تحت الهواء والشمس فهل يصبح هذا قاعدة وعلما ؟ وأيضا إن أمر الشمس يحتاج إلى إيضاح ، ثم لماذا أدخل «من» على الرحمة وما رأيك فى تعليم المسلمين اليوم وغدا ؟ فقلت سأشرح هذا المقام فى هذه الفصول

(الفصل الأول) فى منافع الشمس وما يتخيله الناس فى مستقبل أمرهم بالنسبة لها

(الفصل

(الفصل الثانى) علاقة الشمس والهواء بارتقاء الأمم ، وفى ذلك مقصدان :

(المقصد الأول) آراء ابن خلدون فى أن التضييق على المتعلم بورثه الخيبة ويقعد به عن المعالى

(المقصد الثانى) فيما قاله لعالم السويسرى الذى جاء إلى مصر الآن

(الفصل الثالث) فى أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم

(الفصل الرابع) فى شرح الكلام على الرحمة فى هذا المقام

(الفصل الخامس) آرائى فى التعليم عند المسلمين اليوم وفى المستقبل .

﴿ الفصل : الأول فى منافع الشمس ومايتخيله الناس فى أمرها غدا ﴾

(١) إن الشمس بها يكون البخار فيصير سحابا فقطرا فيكون النبات والحيوان .

(٢) إن الفحم الحجرى المطمور تحت الأرض من مئات ألوف السنين قد خزنت فيه حرارة الشمس وها هو الآن تجرى به المركبات وتسرع الحركات .

(٣) بالشمس كانت الرياح اللاتى تجرى بهـا السفن والمطاحن . إن الشلالات بها تستخرج الكهرباء والشلالات وما أشبهها نتائج الشمس ، لأن نفس الأنهار سببها الشمس .

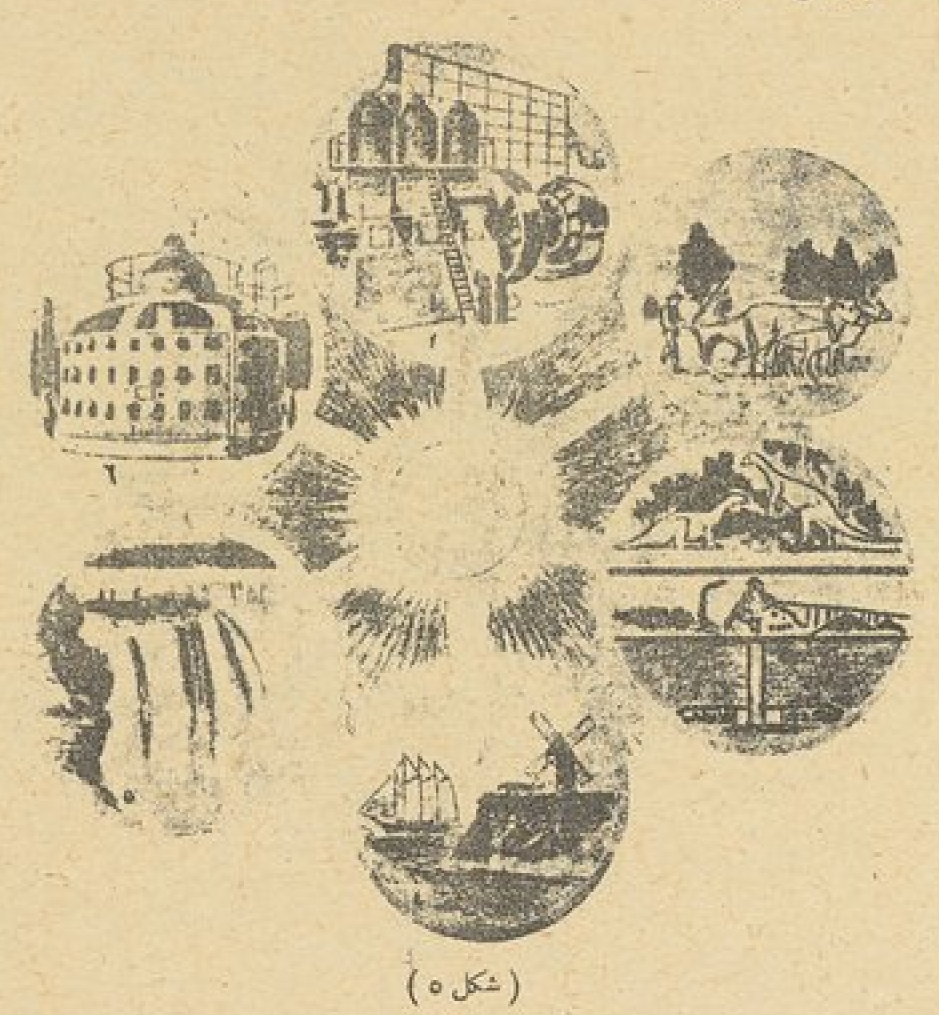
(٤) وكل محرك كهربائى لا يسير إلا بوقود وقوة ، والقوة أصلها من الشمس .

(٥) وقد تخيل العلماء أن الشمس فى المستقبل سيجعل لها زجاج بلورى يجمع الأشعة ثم يوزعها .

ومعنى هذا أننا بدل أن نرجع إلى ما خزن من حرارتها قديما فى الفحم المطمور فى باطن الأرض نتجه مباشرة لنفس الضوء بآلات خاصة ونخزنه ونستعمله، أى أننا نأخذ ضوء الشمس مباشرة بدون تلك الوسائط القديمة التى صنعها الله لنا لضعفنا وجهلنا، أما الآن فالعلم يفتح لنا كل مغلق . وهذا هو الرسم الذى تخيله الناس نقلته من مجلة [كل شىء] انظر شكل (٥) فى الصفحة التالية.

الشمس مصدر كل قوة فى الأرض

هذا الرسم يبين أهمية الشمس للبشر وكيف أنها المرجع الأصلى لكل القوى التى نستخدمها على وجه الأرض ، وقد رسمت الشمس فى الوسط ورسمت حولها بعض الأشكال التى نستخدم بها قوتها أى الأجهزة التى تستمد قوتها من الشمس .



(شكل ٥)

(١) آلة لاستخدام أشعة الشمس فى المستقبل ، وهى صورة تخيلية .
(٢) الأحياء كلها تستمد قوتها من الشمس إما مباشرة أو غير مباشرة .
(٣) الفحم ليس إلا نباتا مطمورا ، والنبات إنما تحييه الشمس .
(٤) الشمس تسبب حركة الرياح فتستخدم فى المطاحن وفى السفن .
(٥) الشلالات والأنهار إنما نشأت عن تبخر الماء وسقوطها مطرا .
(٦) المحركات الكهربائية لاتسير إلا بوقود ، أى بقوة مستمدة من الشمس .

﴿ إيضاح الصورة المتقدمة ﴾

تكثر الصحف هذه الأيام من ذكر القلق الذى ينتاب العلماء بشأن نفاد الوقود ؛ فالبترول والفحم سينفدان عن قريب ، وقوة المياه الساقطة محدودة . أما قوة الرياح والمد والجزر فلم يعنها أحد إلا قليلا ولذلك يكد العلماء قرائحهم لابتكار طريقة للانتفاع بقوة الشمس مباشرة ، فكل ماقى الأرض من قوة مخزونة ماضية أو مستقبلة مرجعه إلى الشمس وحدها . فنى :

(١) رسم يمثل آلة لتوليد القوة من الشمس رأسا وبها زجاج بلورى يجمع الأشعة ثم يوزعها والرسم خيالى لأنه لم يتحقق للآن ولن يتحقق إلا فى زمن بعيد جدا ، وفى :

(٢) صورة حارث يحرث الأرض ، فكل مافيه وفى الأشجار والثيران من قوة مستمدة من الشمس ؛ فالشجر يخزن قوة الشمس بواسطة ورقه وحياة الحيوانات كلها متوقفة على حياة النبات والنبات لايمكنه أن يعيش بدون ضوء الشمس وفى :

(٣) يرى القارىء صورتين العليا تمثل الأشجار القديمة والزواحف المنقرضة . وهذه الأشجار قد طمرها التراب فصارت الآن فحما ، فمصدر القوة فى الفحم هو الشمس أيضا لأنها هى التى أنبتت نباته ، وفى :

(٤) ترى مطحنة هوائية وسفينة وكلتاهما تستغل الرياح والرياح لاتتحرك إلا بفعل الشمس التى تسلط أشعتها على بعض الأماكن فيخف الهواء عندما يسخن ويرتفع فيأتى غيره مكانه فتتولد الريح ، وفى :

(٥) يرى القارىء شلالا ينتفع بسقوط المياه منه فى توليد الكهربائية وقوته تعزى أيضا إلى الشمس التى هى سبب تبخر المياه وتكوين الأمطار والأنهار ، وفى :

(٦) يرى دينامو كهربائى ولده البخار الذى تولده الشمس أيضا فهى التى أوجدت الوقود لايجاد البخار وبهذا تم الكلام على الفصل الأول .

﴿ الفصل الثانى : فى بيان علاقة الشمس والهواء ونحوهما بارتقاء الأمم وفيه مقصدان ﴾

(المقصد الأول) آراء العلامة ابن خلدون فى التضييق على المتعلمين ، فقد عقد فصلا عنوانه :

(فصل : فى أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم)

قال : وذلك أن إرهاف الحد فى التعلم مضر بالمتعلم سيما أصاغر الولد لأنه من سوء الملكة ، ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر وضيق على النفس فى انبساطها وذهب بنشاطها ودعا إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير مافى ضميره خوفا من انبساط الأيدى بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك ، إلى أن قال وفسدت الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره ، ثم أخذ يقيس الأمم على الأفراد وضرب مثلا باليهود وأنهم يوصفون فى كل أمة وعصر بالحرج والتخابث والكيد وسببه ماتقدم ، ثم أخذ ينصح المعلم أن لايستبد بالمتعلم ونقل من الأستاذ محمد بن أبى زيد فى كتابه الذى ألفه فى حكم المعلمين والمتعلمين أنه لايزيد فى الضرب عن ثلاثة أسواط ، وهنا ذكر موعظة عمر ، وخطاب الرشيد للأحمر معلم ولده وقوله له : ياأحمر إن أمير المؤمنين الخ .

هذا ماقصدت نقله من مقدمة العلامة ابن خلدون وهو وإن لم يكن فيه نص على الهواء والشمس اللذين نحن بصدد الكلام عليهما لمناسبة الآية ، ففيه ذكر العناية بالمتعلمين وأن فى إذلالهم بوضعهم فى حجر ضيقة ومنع الهواء والشمس عنهم ضررا أشد وذلا أعظم من الضرب . وهذا هو الذى صرح به المستر (مان) الذى انتدبته وزارة المعارف المصرية أثناء طبع هذه السورة من علماء النفس والتعليم فى بلاد سويسرا وهو الذى عقدت له .

(المقصد الثانى)

فان وزارة المعارف كلفته أن يضع تقريرا وافيا عن التعليم فى مصر بجميع فروعه ، فمن حسن حظ هذا التفسير أنى اطلعت على ما كتبه فى هذا الصدد فرأيته يقول (لقد رأيت مدارس كثيرة فى نفس بلاد الريف والجو حول المدارس حسن جميل والمزارع تحيط بهم والتلاميذ مع ذلك لاتبدو عليهم ملامح السرور فكأنهم محبوسون وقد حرموا من الهواء والشمس ، ونصح المعارف أن تجعل الشمس والهواء يحيطان بهم وأن يجعل لهم حرية فى الذهاب والإياب وأن يشعرهم المعلمون بأن لهم كرامة الخ . واقترح أن المعلمين يذهبون بهم أحيانا إلى الخلاء فى الشمس والهواء ويعلمونهم هناك اه).

أفليس هذا من العجب ، أنى بعد أن أحضر صورة المدرسة الفرنسية أطلع على التقرير أثناء ترجمته فأجده يصرح باخراج التلاميذ إلى الخلاء فى الشمس أحيانا . أليس هذا من التأييد لهذا التفسير . ومعلوم أن جميع مدارس أوروبا تنحو نحو الخلاء والشمس والاستقلال .

﴿ الفصل الثالث : فى أن تباعد الناس عن الفطرة يضر بصحتهم ويقصر أعمارهم ﴾

إن هذا الموضوع مناسب لما قبله مرتبط به ، ذلك أن العلامة (فلند) ألف كتابا موضوعه [إطالة العمر] فقد قال هو وغيره : إن الكلب يبلغ تمام نموه فى سنة ونصف ، والحصان فى ثلاث سنين وهكذا لكل حيوان زمان يتم نموه فيه ، ومدة تمام النمو المذكورة تبلغ ثمن عمره إذا لم يقتل بسبب آخر ، فيعيش الكلب (١٢) سنة ويعيش الحصان (٢٤) سنة ويقاس عليهما بقية الحيوانات .

ثم قال هو وغيره : إن نهاية نمو الإنسان تكون فى (٢٥) سنة وبضربها فى (٨) تكون مائتى سنة ، والسبب الذى منع عن الناس طول عمرهم أنهم لايعيشون بالبساطة والقناعة والاعتدال بل يفرطون فى كل أمر مع الانحراف عن النظام الطبيعى ومن ذلك العبودية للشهوة والتقليد والبطالة والزى . أنا لست أقول هذا الكلام حق من كل وجه . كلا . وإنما أقول علينا أن نعتدل لتصح أجسامنا . وقد ذكر أن (هنرى) عاش (١٦٩) سنة وهو إنجليزى و (جون بافن) البولندى عاش (١٧٥) سنة و (يوحنا) النوروجى عاش (١٦٠) سنة و (طوزمابار) عاش (١٥٢) سنة وهناك رجل زنجى يعيش الآن وعمره (٢٠٠) سنة اه .

(الفصل الرابع : فى الكلام على الرحمة)

يقول الله تعالى «ومن رحمته» الخ . معلوم أن أول السورة « بسم الله الرحمن الرحيم » والمسلم فى كل كل صلاة يذكر الرحمة عشرات المرات ، فالرحمة تتكرر فى كل زمان ومكان . يقول الله « ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار » الخ فهذه الشمس المضيئة التى جرت بها الأنهار والرياح والسحاب واخضر الزرع وعاش الحيوان والانسان وجرت السفن والقطرات والكهرباء ، وبها كانت الأصباغ المخترعة الكثيرة التى تفتخر بها النادات فهى كلها من القطران المستخرج من الفحم كما تقدم فى آخر (سورة النحل) .

فهذه الشمس ومنافعها التى لاحصر لها من بعض رحمته . ومعلوم من حديث الصحيح أن الرحمة فى الأرض واحدة نشأ عنها هذه السعادة فى الأرض والرحمة بين الأمهات وذريتها والآباء وأبنائهم فى الإنسان والحيوان وهذه الرحمة واحدة من مائة رحمة آخرها جميعها للناس فى عالم آخر بعد فراق هذه الأرض .

﴿ الفصل الخامس : آرائى فى التعليم عند المسلمين اليوم ﴾

إن الأمم الاسلامية فى الأكثر اليوم ليس عندها إلا الكتاتيب المعدة لحفظ القرآن وهى فى أكثرها أشبه بالمقابر قذرة لاضوء فيها ولا هواء إلا قليلا وهذه مضرة بالمتعلمين باجماع الأمم . فقال صديق العالم هل

تظن أن المسلمين يقنعهم هذا القول ؟ هذا يقنع الراقين منهم لأنهم يعلمون اتساع ديننا . أما الأمم المتأخرة منهم فانها لاتثق إلا بما يرد عن المتقدمين . فقلت أذكرك بما ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه وهو سائر فى الغزوات ومتى نزلت عليه آيات أو سورة اجتمع القوم أولهم فى الطريق وآخرهم وهو على دابته يقرأ لهم مانزل عليه صلى الله عليه وسلم ، فها هو صلى الله عليه وسلم ألقى عليهم الدرس فى الشمس والهواء الطلق . أفليس هذا يكفيك أن تعرف أن جلوس المسلمين فى الهواء الطلق موافق للسنة النبوية . ومن عجب أن الحج فيه الوقوف بعرفة ورمى الجمار والسعى بين الصفا والمروة وهكذا جميع أعمال الحج . وترى الحاج قد امتنع عن كل زخرف فى هذه الحياة ولا يلبس المخيط وإنما يلبس إزارا ورداء ، فكيف كان الحج على هذا النمط ؟ نعم هذا أمر تعبدى ، نحن لا ننكر ذلك ولكن هذا التعبدى ظهر بعض سره اليوم . الله أكبر . يتجرد الحاج من المخيط ويقف عارى الرأس تحت الشمس المحرقة يوم عرفة ويهرول بين الصفا والمروة . أليست هذه مبادئ ستبنى عليها أمم بعدنا سعادة للانسانية غير هذه الحال . إن آدم أكل من الشجرة والقرآن والتوراة وغيرها صرحت بذلك وعصيان آدم ربه نزل به القرآن فهو مع صحته يرمز به لحالنا نحن ؛

فها هى ذه الأعمار قصرت لانحراف الناس فى مآكلهم ومشاربهم وملابسهم وفى طعمهم وفى شرههم ولذاتهم فهلكوا سريعا .

إن بنى آدم باجماع الاطباء انحرفوا عن سواء السبيل فى أحوالهم النفسية والجسمية ، فرأينا الصحابة رضى الله عنهم يأكلون الخبز غير منخول زهدا فى الدنيا ، ولكن العلم الحديث اليوم أثبت أن هذا صحة لأبدانهم وها هى ذه الأمم تنحو نحوهم طبيا لا زهدا ، ومثلها مسألة الحج فهى لنا تعبد ولكن من الذى تعبدنا ؟ الذى تعبدنا هو الله ، ولما نظرنا وجدنا أن الأمم اليوم تستشفى بالشمس (انظر ماتقدم فى سورة الشعراء شكل ١٠) فانك ترى الفتيات فى الشمس يستشفين بنورها ، ثم انظر المدرسة الفرنسية فى هذه المقالة التى ترى تلاميذها مكشوفين للشمس . إذن البساطة فى الحج من حيث الملابس وظهور بعض الجسم للشمس هو أولا عبادة مقدسة وثانيا هو مبدأ يتخذ للشفاء والصحة والقوة والعلم وهذا ضد الترف المهلك للأمم ونفس الهرولة بين الصفا والمروة مبدأ يقاس عليه الحركات التى تقوى الأجسام وهذه كلها حكم غير حكمة العبادة المقدسة العالية ؛ ألست ترى أن تقليل الملابس وكشف بعض الجسم للشمس وترك الترف هو هذا الذى يحبه النوع الانسانى الآن ليسعد بالحياة وتصح أجسامه . إذن الحج من فوائده فتح باب التجرد من أمور الزينة والشهوة لتصح الأجسام ومنها فتح باب الرياضة البدنية وأيضا اجتماع الناس فى مكان واحد ولبسهم ملابس متماثلة رجوع بهم إلى الفطرة الأولى ، وفيه إشارة إلى أنكم أيها الناس جميعا يجب أن تتعارفوا وتتركوا الترف والنعيم وهذا الترك هو الذى يجمعكم واللذات تفرقكم ، والصوم يلحق بالحج لأن فيه ترك الأكل ، فأما الصلاة فهى درس إجمالى لجميع العلوم كما أوضحته فى بعض هذا التفسير ، الصلاة مبدأ العلوم ، والزكاة مبدأ الودات بين الأمة والحج مبدأ للمساواة العامة وصحة البدن وهكذا . انتهى نصف الليل ليلة الأربعاء ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٩ وبهذا تم الكلام على القسم الثالث من السورة .

(القِسْمُ الرَّابِعُ)

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ

فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ۝ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ۝ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ۝ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ۝ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ مَن جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ۝ وَمَا كُنتَ تَرْجُوا أَن يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِّلْكَافِرِينَ ۝ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً ءَاخَرَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝

هذا القسم تطبيق على ماتقدم من أقسام السورة راجع إليها متمم لها مكمل لمقاصدها منبه لما ترمى إليه .

ابتدأ الله السورة بما يأتى :

(١) بذكر أن فرعون علا فى الأرض وأنه من المفسدين .

(٢) ثم ذكر قصة موسى وفرعون ونجاة الأول وهلاك الثانى وقومه .

(٣) ثم أردفه بذكر نظير ذلك من كفار قريش وأفهمهم أنهم كقوم بطروا معيشتهم فخربت ديارهم .

(٤) ثم أتبع ذلك بمن أنعم عليهم وتعلموا وشكروا .

ذلك ملخص السورة ، ثم أتبع ذلك بذكر قارون وأنه بغى على قومه وقد كثر ماله فأبطره الغنى ونسبه إلى علمه وتكبر على قومه ، وانقسم الناس فى أمره قسمين : قسم العلماء وهؤلاء حقروا زينته

وماله . وقسم الجهلاء وهؤلاء تمنوا مثل ما أعطى قارون ، فلما وقعت واقعته وانشقت سماء مجده فكانت واهية وسقط قارون فى الهاوية عرف الجاهلون الحقيقة بهذه الحادثة وأدركوها بتلك الكارثة. فأما أهل العلم فلم تزدهم إلا ثباتا ، إن ذلك أشبه بما حصل لفرعون وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وكفار قريش ففرعون كقارون ، وكأهل مكة لما طغوا وأسرفوا واستكبروا وتدمير قارون وما يملك كتدمير فرعون وجنوده وكذلك هلاك قريش . لذلك ختم السورة بأن الدار الآخرة يحرم منها (اثنان) العالون فى الأرض والمفسدون وينالها من تنزهوا من هذين وهذا نظير ما فى أول السورة « إن فرعون علا فى الأرض » إلى قوله «من المفسدين» فهنايقول الآخرة لمن لم يتصف بهذين الوصفين وتجرد من الأمرين وفاز بالحسنيين التواضع وإصلاح الأرض . ثم ختم السورة بأن كل شىء هالك إلا ما كان على نسق رضاه الله كما كان موسى ومحمد صلى الله عليه وسلم والذين أوتوا العلم مع فرعون وقريش وقارون . وملخص ذلك أنه لا آخرة إلا لنبى أو حكيم أو عالم أو متبع سنتهم . فهؤلاء هم الذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا فكأن السورة فى هذا القسم لخصت مرتين مرة فى قصة قارون ومرة فى قوله « كل شىء هالك إلا وجهه » فى آخر السورة. إذا عرفت ذلك فلنشرع فى :

(تفسير الألفاظ)

قال تعالى (إن قارون كان من قوم موسى) كان ابن عمه (فبغى عليهم) طلب الفضل عليهم وأن يكونوا تحت أمره وتكبر عليهم وظلمهم (وآتيناه من الكنوز) الأموال المدخرة (ما إن مفاتحه) أى خزائنه جمع مفتح بفتح الميم وأما ما يفتح به فهو بكسرها وما بمعنى الذى منصوب والجملة صلته (لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى لتثقل العصبة ، فالباء إذن للتعدية ، يقال ناء به الحمل : إذا أثقله حتى أماله ، والعصبة: الجماعة الكثيرة ، والقوة : الشدة ، وقوله (إذ) متعلق بتنوء (قال له قومه) المؤمنون ونبيهم موسى عليه السلام (لا تفرح) لا تبطر بكثرة المال كما قال تعالى « ولا تفرحوا بما آتاكم » وكيف يفرح الناس بما أوتوا وهم زائلون من هذه الأرض (إن الله لا يحب الفرحين) بزخارف الدنيا لأنهم قوم غافلون ، ثم أبان المقصود من المال فى هذه الدنيا فقال (وابتغ فيما آتاك الله) من الغنى والثروة (الدار الآخرة) بأن تكون أبا لأمتك ناظرا فى شؤونهم مرقيا لهم حافظا لكرامتهم حريصا على اسعادهم بحيث يكون مالك معينا لفقرائهم مرقيا لهم (ولا تنس نصيبك من الدنيا) لأنك واحد منهم والمال مال الله والخلق عياله ، فليس معنى إنفاق المال للناس أن تنسى نفسك . كلا . بل ابدأ بنفسك فإذا نسيت نصيبك من الدنيا فأنت مذنب لأنه لا معنى لإحياء نفوس الناس وإماتة نفسك وإصلاح حياتهم وافساد حياتك . ولما قرر هذه الحقيقة أخذ يتمم تحريضه على الإحسان فقال (وأحسن كما أحسن الله إليك) لأن ما لديك من المال والقوة والعلم ليس منك وإنما هو من الله ، وكما أن ضياء الشمس والكواكب من الله خلقه فإنه إلى خلقه منفعته هكذا ما أنعم الله به عليك فهو من الله وإلى عباده ومنهم نفسك (ولاتبغ الفساد فى الأرض) بالظلم والبغى (إن الله لايحب المفسدين) لسوء فعلهم فأجاب قارون ناسيا أن الله هو الذى وهبه هذه النعم مدعيا أنه استحقها بقوة فطنته وذكائه وعلمه (قال إنما أوتيته على علم عندى) فضلت به على الناس واستوجبت به التفوق عليهم فى المال والجاه أى إنما أوتيته حال كونى على علم كائن عندى : كعلم التجارة والكيمياء ، ولا جرم أن العلوم كلها كشجرة ذات أغصان وفروع ، فمن اقتصر على أحدها أغرم به وجهل سواه وما مثل الناس إلا كمثل قوم عمى أمسك كل بجزء من الشجرة فقال أحدهم إن هذه الشجرة ناعمة رائحتها طيبة وهو قد أمسك بالزهرة ، وقال آخر إن هذه الشجرة خشنة مدورة وقد أمسك بالجذع ، وقال ثالث إن هذه الشجرة رقيقة كورق

الكتابة كثيرة القطع معلقة فى سقف مربوطة بحبال دقيقة يريد الورق وهو متصل بفروع صغيرة دقيقة هكذا العلوم من قرأ منها علم التجارة أو علم الكيمياء على فرض استخراج الذهب به فإنه يغرم به ويقول إنما العلوم لجمع المال وهو المقصود وما عداه فجهالة . ومن قرأ علم الزهد والتصوف احتقر المال وتعلق بأسباب الكمال وتهذيب النفس ، وههنا قارون كان من القسم الأول ، وكلا القسمين فى نقص الشين فلابد من معرفة سائر العلوم معرفة إجمالية ثم التفرغ لواحد منها ولا يكون المسلم كما كان قارون يحفظ علما واحدا ويجهل سواه فيعيش ناقصا وحيدا لأن ذوقه لا يطابق أذواق الناس فيصبح عالم التجارة عدو صاحب تهذيب الأخلاق ويكون الناس فى تقاطع ، فعلى الناس أن يقرءوا سائر العلوم ، فعلم الزهد لابد منه لذى المال حتى لا يكون أحدهم مغرما بالمال فتضيع حياته سدى ولذلك وبخه الله فقال لماذا عرفت علوم الدنيا وتركت علوم الآخرة والدنيا والآخرة لى ، هلا قرأت العلمين (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) للمال : أى أغره علم المال فافتخر به وجهل علم تواريخ الأمم الغابرة والقرون البائدة وكم فيهم من كانوا أكثر منه مالا وأعز نفرا فهلكوا .

فقل لمن يدعى علما ومعرفة   حفظت شيئا وغابت عنك أشياء

ولذلك يقال « البلاهة خير من الفطانة البتراء » فهؤلاء جميعا واقعون فى الهلاك محكوم عليهم بالإعدام لا فرق بين الأولين وبين الآخرين ومنهم قارون ، إنهم يهلكون بذنوبهم لأن الله عليم بظواهر ذنوبهم كما هو عالم ببواطنهم فيهلكهم (ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون) وكيف يسألون وأمرهم عنده معلوم ، ثم أعقبه بذكر بعض ذنوبه ليعلمنا الله كيف تكون الذنوب الكبائر والموبقات كامنة فى مظاهر لا يظنها الناس إثما ولا يعتقدونها ذنبا بل تلك المظاهر أحوال عادية وأمور مباحة مظاهرها رحمات وباطنها زلات بل أعظم الزلات فياليت شعرى أى شين وأى إثم فى قوله تعالى (فخرج على قومه فى زينته) وماذا فعل ؟ يقال إنه خرج على بغلة شهباء عليها سرج من ذهب وعليه الأرجوان ومعه أربعة آلاف فارس وعليهم وعلى دوابهم الأرجوان ومعه ثلثمائة جارية بيضاء عليهن الحلى والثياب الحمر وهن على البغال الشهب ، ولا حاجة إلى نقل أقوال غير هذا لأنها عبارات متقاربة ، وإنما المقام مقام هذا السؤال أى ذنب فى هذا وهل ظهور الإنسان مع نسائه ومع الفرسان وعليهم ملابس جميلة حرام ، إن هذا ليس بحرام إلا إذا كان هناك بعض ملابس محرمة وهذه الملابس حرمتها من الصغائر . إن هذا المظهر مظهر مباح فما ذنب قارون إذن ؟ ولماذا يذكر ذلك المظهر بعد قوله « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » وهل إذا تمنى الجهال مثل ذلك الجمال والزينة إذ (قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لذو حظ عظيم) من الدنيا ، هل هذا ذنب لقارون وإنما هؤلاء لجهالتهم تمنوا مثل قارون كما نرى ونسمع فى كل قرية ، وبلدة وضيعة هذه العبارة بعينها حتى إن الرجل والشاب والمرأة والفتاة ليقول كل منهم يا ليت لى مثل ما أوتى فلان وفلانة على أى نعمة كثوب جميل أودابة يركبها أو بهيمة يأكل لبنها أو مزرعة يحصد غلتها وما أشبه ، ذلك إن هذه عادة جميع أهل الأرض فى زمن قارون وقبل قارون وبعد قارون ، فما ذنب قارون إذن ؟ نعم ذنبه ظاهر فى الآية إذ قال تعالى « فبغى عليهم » وسيأتى ما فعله من أنه برطل المرأة الباغية لتتهم سيدنا موسى ، فهذا بعض البغى منه ولذلك ذمه الله فخسف به وبداره الأرض . أقول ولكن ذكر خروجه على قومه فى زينته لابد فيه من أمر خفى وإلا فلماذا يذكر بعد ذكر هلاك الأمم وأن للذنب منهم لا يسأل عن ذنبه كما قال تعالى « فيومئذ لايسأل عن ذنبه إنس ولا جان » والجواب على ذلك ، أن من الذنوب ذنوبا باطنية وقال علماؤنا رحمهم الله إنها أشد فتكا بالإنسان من الذنوب الظاهرية . إن الله لم

يذكر

يذكر فى القرآن إلا أنه بغى على قومه وأنه « قال إنما أوتيته على علم عندى » وأنه « خرج على قومه فى زينته » ولم يذكر ما سأقصه عليك مما نقله المفسرون عن بنى إسرائيل من أمر المرأة وغيرها ، فلنبحث فى هذا الذى جاء فى الآية . إن فيه لكبائر الذنوب مثل الكبرياء والاعجاب والتعالى على الناس ، فهذه وأمثالها ذنوب كبائر ويقول علماؤنا إنها هى المهلكة . إن هذه المظاهر إما أن تكون من أشرف الأعمال وإما أن تكون من أضلها ، فإذا كانت لاظهار مجد الأمة وقهر عدوها وكسر نفسه وإظهار العظمة الدينية والقومية فهى جهاد فى سبيل الله . فأما إظهارها لاذلال النفوس وكسر القلوب والتعالى على الإخوان وأبناء البلاد فذلك تفريق للكلمة وإظهار للعظمة فى غير موضعها فإن الناس إخوانه ومتى تعالى عنهم خفضهم فلا جامعة بينهم ولا رابطة تربطهم فيذلون فى الدنيا بانقضاض الأعداء عليهم وفى الآخرة بجهنم . فمظاهر قارون كانت من القسم الثانى قصها الله ليعلم المسلمين ويقول لهم لتكن نفوسكم شريفة وإياكم أن تطمعوا إنما نظرى القلوبكم لا لصوركم . فكم مظهر نعمة يريد بها التعالى والتفاخر ، وكم مقيم زينة وصانع وليمة أو عرسا أو مأتما وهو فى ذلك كله كقارون ، ليست هذه المظاهر عند كثير من الناس إلا ليظهروا بها الكبرياء والتعالى على الناس وإظهار العظمة « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » إن هذه الآية وردت فى المرائين ، ففعل قارون وأمثال قارون من كل ذى مال ولو قل فى الأمة الإسلامية يدخله الرياء والاعجاب بالنفس والكبرياء والتعالى على الأقران وهى هى المهلكات المزعجات قال تعالى « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » هذا هو القرآن وهذا كلام الله وأكبر مصيبة حلت بالإسلام أن الذنوب الباطنية لم تذكر فى مدارس التعليم واكتفى الناس بالأحكام الشرعية الظاهرة وظنوا أن التعلم فى البواطن خاص بالمجاذيب والصوفية وهذا من أكبر عيوب التعاليم الإسلامية . إن هذا هو السبب فى أنك ترى بعض المسلمين فى الاكتتابات العامة النافعة لا يساعدون ، وترى الناس يصرفون أموالهم فى الزينة والزخرف والسفر إلى أوروبا للنزهة والرياضة ومصر التى هى بلادى يسافر منها كل سنة نحو خمسين ألفا يصطافون فى أوروبا ، وترى الناس فى المآتم والأعراس يدفعون أموالا كثيرة ، كل ذلك لأن التعاليم الإسلامية اليوم لم تدخل القلوب . إن التعاليم الإسلامية إنما قصرها الناس على ظواهر الأجسام وتركوا القلوب فارغة لا علم ولا رحمة ولا إحساس إلا ما جاء عفوا وبدون قصد ، فأما تربية الوجدان فإنها متروكة للأهل والأقارب والبيئة . إن المسلم إذا سمع هذه الآيات يقول إنها فى الكفار فأما أنا فيكفينى الإسلام وهذه أكبر خطر . يقول المسلم [مادمت لا أوذى أحدا ولا أسرق ولا أزنى فأنا لا ذنب على] وهذا هو الخطأ الفاحش والذنب العظيم . إذن أين أمثال هذه الآيات ولم أنزل القرآن ؟ إن استتار المسلم بالدين واحتجاجه به وقوله إنى مسلم وإنما هذه الآية واردة للكفار هو الذى أوقع الأمة فى الجهل وضياع المال والبذخ والزينة والاسراف فخسف بنا وبدارنا الأرض خسفا معنويا وذلا حقيقيا . فلئن خسف بقارون وبداره الأرض فهلك هلاكا حسيا فلقد خسف بنا وبدارنا الأرض خسفا معنويا ، فأينما تول وجهك فى بلاد الإسلام لا ترى إلا جهالة عمياء وضلالا ورياء ، إلا قليلا من ذوى النفوس الشريفة فهم الذين يرجع إليهم وسيقومون بنشر أمثال هذه بين المسلمين وسيرجع للاسلام مجده على يديهم ويكونون نورا للمسلمين . إن الله ما قص هذا القصص إلا ليرينا أن أمثال هذه الذنوب كالكبرياء والرياء والتعالى ليس ذنبها فى الآخرة وحدها بل شؤمها يحصل فى الدنيا كما حصل اليوم للمسلمين ، هذا

فى ضمن قوله تعالى (وقال الذين أوتوا العلم) بأحوال الدنيا والآخرة لأولئك المتمنين (ويلكم) دعاء بالهلاك استعمل للزجر عما لا يرتضى كيف تتعالون بالزينة وتفخرون بالحلية (ثواب الله) فى الآخرة (خير لمن آمن وعمل صالحا) مما أوتى قارون ومن الدنيا وما فيها (ولا يلقاها) أى المثوبة أو الجنة والعمل الصالح (إلا الصابرون) على الطاعات وعن المعاصى ، وبذلك الصبر وحفظ الشهوات يصرفون مالهم لوجه الله وللأعمال العامة ويكونون قدوة صالحة ويرفعون أممهم ويحفظون مجدها ويجعلون مالهم لاسعاد أممهم فينالون بذلك الصبر الثناء فى الدنيا وحب الناس وفى الآخرة يدخلون الجنة فإنه لا آخرة إلا على حسب الدنيا . إن النفوس الإنسانية مصروفة إلى الهوى والشهوة والعادات الموروثة والأمور المحسوسة . انظر إلى المصلى إنه يريد أن يوجه قلبه فى الصلاة لله وللذكر والقراءة وللمعانى فلا تطاوعه نفسه وتنصرف إلى أمور تهمها. هذا طبعها فإذا جاهدها مرة بعد مرة قرت وثبتت وتذكرت ثم يصير ذلك عادة جديدة ثم يستلذ بها هكذا فى المال تنصرف النفس إلى الزينة وإظهار الشرف والغنى والجاه والثروة فإذا وجدت من يفهمها أن المال ليس لهذه السفاسف بل لتأييد الدين وشريف العواطف ويذكرها مرة بعد أخرى صار ذلك عادة لازمة واستلذ بها لذة دائمة ويسمع ثناء الناس عليه والآخرة خير وأدوم . إن اتجاه قلب المصلى بعد شموسه وجماحه وشروده وانقياده بعد نفوره للحضور فى الصلاة وصرف ذى المال ماله للمحتاجين وللمنافع العامة بعد ريائه وكبريائه وجهالاته لم يكن إلا بالصبر . إن ردع النفس عن طبعها لا يكون إلا بالصبر عن المألوف والبذل والمعروف . هذا معنى قوله تعالى « ولا يلقاها إلا الصابرون » ولا جرم أن قارون لم يكن منهم ككثير من أمثاله من أغنياء الأمة الإسلامية الآن بل إنه استعان بالمال على إهانة قومه وعصيان ربه ككثير من أغنياء المسلمين الآن ، وقد ذكر المفسرون منها ما يأتى :

(١) أوحى الله إلى موسى أن مر بنى إسرائيل أن يعلقوا فى أرديتهم خيوطا أربعة فى كل طرف خيطا أخضر كلون السماء يذكروننى به إذا نظروا إلى السماء ، ويعلمون أنى منزل منها كلامى فامتثل بنو إسرائيل وتكبر قارون ، وقال هذا فعل الأرباب لعبيدهم .

(٢) جعل الله الحبورة لهارون وهى رياسة المذبح ، فكان بنو إسرائيل يأتون بقربانهم إلى هارون فيضعها فى المذبح فتنزل نار من السماء فتأكله فحسد موسى وهارون وقال أنا أقرأ التوراة وأنت تنال الرسالة وهارون الحبورة ولست فى شئ من ذلك فأقام له موسى الحجة أن هذا من الله فعدها سحرا . ذلك أن القوم وضعوا عصيهم فى قبة وحرسوها طول الليل فأورقت عصا هارون ولم تورق سواها من العصى ، فقال هذا سحرك المعهود ولكم سحرت قبل هذا .

(٣) أمره بالزكاة فلما جمعها استكثرها وعصى ولم يعطها .

(٤) أراد أن يفضح موسى بين بنى إسرائيل فبرطل بغيا لترميه بنفسها فلما كان يوم العيد قام موسى خطيبا ، فقال : من سرق قطعناه ، ومن زنى غير محصن جلدناه ، ومن زنى محصنا رجمناه ، فقال قارون ولو كنت أنت ، قال ولو كنت أنا ، قال إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فجرت بفلانة فاستحضرت فناشدها موسى عليه السلام بالله أن تصدق ، فقالت جعل لى قارون جعلا على أن أرميك بنفسى فخر موسى شاكيا منه إلى ربه فأوحى إليه أن مر الأرض بما شئت فقال يا أرض خذيه فأخذته إلى ركبتيه ثم قال خذيه فأخذته إلى وسطه ثم قال خذيه فأخذته إلى عنقه ثم قال خذيه فخسفت به وكان قارون يتضرع إليه فى هذه الأحوال فلم يرحمه فأوحى الله إليه ما أفظعك استرحمك مرارا فلم ترحمه وعزتى وجلالى لو دعانى مرة لأجبته ثم قال بنو إسرائيل إنما فعل ذلك ليرثه فدعا الله حتى خسف بداره وأمواله .

إن ذلك كله كان نتيجة عدم صبره أى أنه لم يكبح جماع نفسه عن رعونتها وميلها إلى الكبرياء والشهوات والقرآن لم يجئ فيه هذا التفصيل وليس فيه إلا قوله تعالى (فخسفنا به وبداره الأرض)

مرشدا بذلك المسلمين أن يصرفوا هوامهم عن التعالى والكبرياء والتعالى فى الزينة لئلا يخسف بهم وبعالمهم الأرض كما حصل الآن ، فقد أصبح مالهم تحت تصرّف غيرهم من الأمم المحتلة وذلك لجهلهم وقلة علم وعاظهم إلا قليلا فصرف الناس أموالهم وعقولهم فى الرياء والمباهاة وجهلوا المقصود من المال ومن الحياة فضاعت بلادهم وهذا هو الخسف العظيم ، وأى شئ خسف قارون وداره ؟ الخسف الآن خسف الأمم بتمامها ، يدخل جيش الأعداء القاهر فى بلدة من بلاد الإسلام فيصبح الناس عبيد الغاصبين وضحية الطامعين ، ذلك هو الخسف الأكبر ، خسف أمة لا خسف فرد ، فليخسف الفرد ولتبق الأمة ، أما الأمم الإسلامية الحديثة فإنها ابتليت بخسف الأمم والأفراد لجهل كثير من الوعاظ الغافلين الساهين النائمين الجاهلين ، الخسف حتم لكل مراء وباغ وجاهل بمقاصد المال ومقاصد الصحة والعلم ، يخسف بهم سواء أكانوا أمما أم أفرادا كقارون (فما كان له من فئة) أعوان (ينصرونه من دون الله) فيدفعون عنه عذابه (وما كان من المنتصرين) الممتنعين منه ، يقال نصره من عدوّه فانتصر إذا منعه منه فامتنع . وكيف يكون له معين . وكيف يكون للأمة الغافلة ناصر وهو وهى قد فرطوا فى قواهم وأضاعوا مجدهم وخربوا بيوتهم بأيديهم . إن النصر للصابرين . إنما النصر نتيجة الصبر على حفظ المال وحفظ الشهوات والعقول وجعل ذلك كله للفضائل والمنافع العامة .

﴿ ضرب مثل لحال المسرفين فى مالهم بالمسرفين فى مآكلهم ﴾

أضرب لك مثلا يوضح لك السابق كله لتعلم أن هذه الآية لم تنزل فى القرآن ليتعجب الجاهل من قارون كيف خسفت به الأرض وكم كانت البغى لم يغرها المال بل نطقت بالحق وهو براءة موسى وأشباه ذلك . كلا . إن هذه القصص جاءت لحقائق علمية ومعانى قدسية وحكم عقلية وآيات عمرانية وعجائب نظامية وسعادة إسلامية للمسلمين فى مستقبل الزمان . قال أطباء هذا العصر من النمساويين والألمان وغيرهم [إن الذين يتعاطون اللحم والبيض واللبن وأمثالها من كل مافيه غذاء كثير التغذية تقوى أجسامهم وتحمر وجوههم ويحسدهم أقرانهم لأن المواد الغذائية فى هذه الأصناف الثلاثة قوية فتدخل فى نسيج الجسم وخلاياه بقوة فتملؤها فيظهر ذلك على الوجوه والأعضاء وتحمر الخدود وتقوى الجسوم] . وهناك فريق ثان ضعيف البنية منهوك القوى قد أضر به المرض فظهر فى جسمه القروح والبثور والعوارض الكثيرة وهو يئن من المرض ولا يقوى على هضم الطعام أحيانا ، فيقول الناس إذا رأوا الأول قائما بينهم هاشا باشا ياليتنا كنا مثله ويحسدونه على ما آتاه الله من قوة الجسم والبدن والجمال والحسن وبينما الناس على هذه الحال إذا ذلك القوى المتين خر صريعا فى يوم أو بعض يوم ، أما ذلك المريض الضعيف فإنه كثيرا ما يعيش بعد ذلك سنين وسنين وهذا أمر عجيب ، الغذاء حسن جميل مقو فهل القوى ضار ؟ وماذا يصنع الناس ، فأجاب هؤلاء الحكماء قائلين اعلم أن الرجل القوى الجسم كان ضعيفا والضعيف الجسم كان قويا لأن القوى الجسم لما أكل هذه المواد الدسمة وامتلأت به أنسجة جسمه ولم ترحم تلك الأنسجة ولم تشفق عليها ولم تكن كالأغذية الواردة عليها من المواد النباتية والفواكه والحبوب ، تلك الأغذية التى تدخل تلك الأنسجة بلطف وتؤدة لأنها ليست كثيرة التغذية بل قوة الغذاء مصحوبة بمواد أخرى تحول بينها وبين تلك الأنسجة فلا ترهقها كما أرهقها أمثال اللحم وما معه .

أقول لما حصل كل هذا فى جسم ذلك القوى ظاهرا وامتلأت الأنسجة بالمادة الغذائية احتاج الجسم أن يخرج الفضول ويستريح مما زاد عن قوة الأنسجة الممتلئة فلا يجد لذلك سبيلا فامتلأ الجسم كما يمتلئ النهر بالماء حتى يفيض ولابد من قطع موضع من الجسر ، هكذا ذلك الجسم يتمزق فى يوم أو بعض يوم ، أما ذلك الضعيف فإن جسمه لما امتلأ كذلك القوى فإنه لقوته فتح منافذ سماها الناس أمراضا كالقروح والبثور

والأمراض فتخرج الداء من الأجسام ويستريح الجسم وما ذلك بداء وإنما هو صحة للجسم وإخراج للفضلات منه فتكون النتيجة هكذا [المريض قوى والصحيح ضعيف] .

هذا هو الذى قاله الأطباء فى العصر الحاضر وبنوا على ذلك أن الإنسان خير له أن يأكل البقول والفواكه والحبوب وأن يمتنع عن اللحم والبيض واللبن أو يقلل منها ما استطاع لذلك سبيلا . أفلست ترى أن صاحب الثروة الواسعة الذى أشبه قارون فى بذخه كذلك القوى الجسم . أولست ترى أن الذى أنفق ماله لأهل قريته ونفع أمته وذلك العالم الذى جعل علمه لأمته أشبه بذلك المريض الذى قوى جسمه على دفع الأذى . ألاترى أن مايظنه الناس أنه فقر عند مايعطون المال لمستحقه أشبه بما يظنه الناس مرضا بظهور القروح والبثور فإذن يكون المنفق غنيا والممسك المتباهى بالزينة فقيرا . أو ليس هذا أشبه بما فى قوله (وأصبح الذين تمنوا مكانه) منزلته (بالأمس) منذ زمان قريب (يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر) يبسط ويقدر بمقتضى المشيئة ، لالكرامة تقتضى البسط ولا لهوان يوجب القبض فالقبض والبسط كالليل والنهار والصغر والكبر والصيف والشتاء يمران على الصالح والطالح امتحانا لهما واختبارا وتربية من رب العالمين ، وقد أخطأ الإنسان فإنه إذا أكرمه الله ونعمه يقول «ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن . كلا » ثم كلا ، إن الأمر امتحان واختبار وتربية ولفظ « وى » للتعجب و « كأن » للتشبيه أى ما أشبه الأمر « إن الله يبسط » الخ (لولا أن من الله علينا) فلم يعطنا ما تمنينا (لخسف بنا) لأنه يحيق بنا ما حاق به فيخسف بنا (ويكأنه لا يفلح الكافرون) لنعمه الصارفون لها فيما نفعه قليل ومن هؤلاء المكذبون برسله . أليس هذا هو ما يحصل الآن أمام أعيننا فى الدنيا لا سيما فى هذا العصر :

(١) ألم تر إلى قيصر الروس كيف كان له السلطان التام والقدرة والصولة والعظمة والجاه وقد ملك مقاليد الروس ، وما أدراك ما الروس ، أمة عظيمة قوية تحتها أمم وأى أمم ، مائة مليون أو يزيدون فماذا حلّ به لما جاءت الحرب الكبرى ؟ أنزله قومه من على عرشه وذبحوا أبناءه أمامه وأنزلوه بعد ذلك دار الهوان وقتلوه قتلا شنيعا بعد أن أجاعوه وأذاقوه مر النكال . أليس ذلك هو عينه ما حصل لقارون وللمسرفين فى مآكلهم مخالفين نصح الأطباء ، يحسدهم الناس ويقولون ياليت لنا مثل قيصر إنه لذوحظ عظيم ، ياليت لنا صحة مثل هذا السمين الوسيم من الأصحاء ، أفليس الناس بعد انقلاب الأمر على قيصر وحلول المنون بذلك السمين الوسيم يقولون نفس هذا المقال ، يقولون نتعجب كأن هذه الدنيا دار خدعة ، انظر إلى قيصر كيف أبادته الجنود وأهلكه من كان يغترّبهم وذلك لأنه استبد بالأمر وخرج على قومه فى زينته وهو يريد الحياة الدنيا والناس كلهم كانوا له كالعبيد . هكذا حصل فى الأستانة وخلع عبدالحميد من ملكه وهكذا كثير من ملوك أوروبا .

(٢) أو لست ترى أن أولئك الموسرين من مصر وأهل الشام والمغرب وغيرهم من أقطار الإسلام الغافلين عن منفعة المال يتباهون بالدور والعقار والولائم ويتظاهرون بها ، وقد ركبهم الدين ورهن العقار والفرنجة واقفون لهم بالمرصاد يخربون بيوتهم بالدين وهم غافلون والناس من حول هؤلاء المثرين يقولون ياليت لنا مثل ما أوتى فلان المثرى ، انظروا إلى زينته ، انظروا إلى قصوره ، انظروا إلى الجموع التى جمعها فى عرسه أو مأتمه ثم ينقض عليه دائنوه فيبيعون العقار ويخربون الديار ويصبح كأن لم يغن بالأمس . ذلك مشاهد فى كل قرية وبلد وضيعة ولكن الناس غافلون وترى الذين كانوا يحسدونه بالأمس بعد سقوطه يقولون « ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر » لولا أن الله لطف لكان جعلنا مثله مغرورين فأصبحنا عبرة وشماتة للأعداء فى الداء العضال ذلك هو المقصد من قصة قارون . ثم ذكر الله

نتيجة

نتيجة جميع ما تقدم فقال (تلك الدار الآخرة) الإشارة للتعظيم : أى تلك التى سمعت من أنباء الأمم وعرفت وصفها ، وقوله « الدار » بدل والآخرة صفة الدار والخبر (نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض) غلبة وقهرا (ولا فسادا) ظلما على الناس كما أراد فرعون وقارون وكفار مكة لما آذوا النبى وأصحابه وأصحابه (والعاقبة) المحمودة (للمتقين) مالا يرضاه الله (من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون) أى إلا مثل ما كانوا يعملون ؛ ولما كان الصابرون الذين لا يفخرون على الناس وتكون أموالهم وحياتهم وقفا على أممهم موعودين بالثواب فى الآخرة أعقبه بما يفيد أن الحظ فى الدنيا والآخرة لهم فلهم الآخرة ولهم الدنيا ، فالذى لا يتبع الهوى فى شهوة الطعام له الصحة الحقة ، والذى يسلك سبيل الانفاق فى المنافع العامة يرى فى الدنيا سعادة لايحلم بها ذلك المسرف المرائى بما يتهيأ له من حب الناس وثنائهم عليه وإكرامهم له وتبجيله وإعظامه فقال (إن الذى فرض عليك القرآن) أى أوجب عليك تلاوته وتبليغه والعمل بما فيه (لرادك إلى معاد) دنيوى وأخروى ، أما الدنيوى فإنك ترد إلى مكة إذا اشتقت إليها لأنها مولدك ومولد آبائك ، وأما الأخروى فإنك ترد إلى المقام المحمود الذى وعدت أن تبث فيه وهذا المقام أنت تحمده ويحمده كل من عرفه ، ولقد تقدم أن هذا المقام يشير إلى ارتقاء العلوم فى هذه الأمة فى مستقبل الزمان كما ارتقت عند أسلافنا ، فهم رفعوا منار العلوم التى هى مناط الحمد كما قدمناه وسيرفعونه كما أوضحناه . وملخصه أن هذه الأمة سترقى فى مستقبل الزمان . وملخص ذلك كله أن الذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا وهم منفقون أموالهم فى الخيرات ينالون الخير فى الدنيا والآخرة كما حصل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل لما نزل الجحفة بين مكة والمدينة وعرف الطريق إلى مكة فاشتاق إليها « أتشتاق إلى بلدك » قال نعم قال فإن الله تعالى يقول « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » فهذه الآية لا مكية ولا مدنية ، ثم قرر ذلك فقال (قل ربى أعلم من جاء بالهدى) وما يستحقه من الثواب فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى « وآتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين » (ومن هو فى ضلال مبين) وما استحقه من العذاب والإذلال فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى « لهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون » والمقصود من ذلك نفسه عليه الصلاة والسلام والمشركون وكذا كل مهتد وكل ضال كما عرفت . ولما كان الصبر على شدة الكفار ومقاساة الأهوال شديدا على النفوس وقد وعد الله نبيه على صبره على أذى قومه وما يلاقيه من الصعاب أن يرده إلى مكة فى الدنيا وإلى المقام المحمود فى الآخرة . أكد ذلك بما سبق له من شوقه إلى لقاء جبريل ونزول الوحى أيام الفترة فى أول النبوة ، فلقد كان لشدة وجده وهيامه وغرامه بملاقاة جبريل وتلقيه الوحى منه يكاد يلقى نفسه من فوق الجبل ، وذلك الشوق جعله الله فى الأنبياء وفى العلماء والحكماء ليكون ذلك أدعى إلى صبرهم على مقاومة الأعداء ومقارعة الاخوان ومصادمة الحوادث ، فإنهم لو لم يتشوقوا لتلك المراتب ولم يرتقبوا تلك الفضائل بل أتت لهم سهلة هنيئة مريئة لمجوها إذا أوذوا أو لتركوها إذا قهروا؛ فالمشتاق للشىء الذى لج فى طلبه وكرره وهو ممتنع عليه محبوس عنه إذا بلغ مناه بعد اليأس كان أحرص الناس عليه وألزمهم له وأغرمهم به وأحبهم إليه وهذا قول الله تعالى (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب) أى يوحى (إلا رحمة من ربك) أى ولكن لرحمة من ربك ألقى إليك الكتاب فأنت أوتيت الكتاب بعد الشوق وقطع الرجاء فها نحن أولاء وعدناك بالعز فى الدنيا والمقام المحمود فى الآخرة الآن وقد كنا شوقناك إلى الوحى ومنعناه عنك وقد قطعت رجاءك استزادة لشوقك لتزيد بالكتاب غراما وعليه حرصا حتى تصبر على الأذى وتقاوم المشركين (فلا تكونن ظهيرا للكافرين) أى لا تكونن معينا لهم

بمداراتهم والإجابة إلى طلبهم ، وكيف يكون ذلك منك وأنت ما نلت هذا الكتاب إلا بعد الطلب القوى والشوق ؟ إن ذلك أدعى لصبرك هكذا أكرمناك ودبرنا أمرك « وما كنا عن الخلق غافلين » وهكذا جميع الحكماء والعلماء والمصلحين يشوقون إلى المعالى ثم يمنعونها زمانا ليصبروا على ما أحبوا متى نالوه وهذه سياسة الله فى هذا العالم الأرضى « إنه لطيف لما يشاء » (ولا يصدنك عن آيات الله) عن قراءتها والعمل بها (بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك) إلى عبادته وتوحيده (ولا تكونن من المشركين) بمساعدتهم (ولا تدع مع الله إلها آخر) وذلك القول لقطع أطماع المشركين وكيف يصدونك أو ينالون بغيتهم منك أو تكون أنت معهم ونحن قد أحكمنا أمرك بما ذكرناه فشوقناك ثم أرسلناك . وهذا القول يقتضى أن سياسة الشوق أعظم وسيلة للمنفعة العامة ، فالدعاية والتشويق للأفراد وللأمم والجماعات إلى فضيلة من الفضائل هى الداعية للاستزادة منها .

فعلى المسلمين فى أنحاء المعمورة أن يشوقوا الشبان إلى مجد آبائهم وإلى حفظ بلادهم وإلى استخراج ثمرات أرضهم ومعادن جبالهم ويبثون فيهم هذه الفكرة ويحضونهم حضا دائما على ذلك وعلى النظر فى العجائب بذكر بعض جمالها ، وكلما منعت هذه المطالب ازداد الشبان بها غراما حتى إذا نالوا بغيتهم استمسكوا بتلك المزايا أجيالا وأجيالا حتى تخور العزائم وتدور الدوائر وتضمحل الأمم وتموت الهمم ذلك يؤخذ من هذه الآيات إذ رتب الله أمره لنبيه بأن لا يعاون الكافرين ولا يصدن عن آيات الله وأن يدعو إلى ربه وأن لا يكون من المشركين وألا يتخذ غيره وكيلا على أموره كلها ولا يعتمد إلا عليه . كل ذلك رتبه على أنه شوقه إلى الوحى وأوحى إليه بعد اليأس ، هكذا فليفعل المسلمون وليقم بذلك المدرسون فى البلاد الإسلامية ، وقوله (لا إله إلا هو) معروف (كل شىء هالك إلا وجهه) أى إلا ما أريد به وجهه لأن كل شىء أريد به غير الله فهو هالك ، فكل ما لا مصلحة فيه كما تقدم من الأمثلة بقيصر الروس وبالأغنياء فى الإسلام المسرفين الجاهلين وبقارون وفرعون وكفار مكة كل فعل هؤلاء هالك (له الحكم) فصل القضاء بالعدل فيخذل المسرفين المرائين وينصر الفاضلين العادلين على وجه الحكمة وطريق الصواب (وإليه ترجعون) للجزاء بالحق . اهـ التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة . وهنا لطائف :

(اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى « فخرج على قومه فى زينته »)

لقد ذكرنا فى هذا التفسير فى سور كثيرة أن التنعم مضعف للأجسام والعقول والهمم ، ومن لطائف الاسلام أنه حرم لبس الحرير والتختم بالذهب على الرجال ، ذلك ليقفل باب التنعم الذى يورث القعود عن المعالى ، والأمم لا حياة لها إلا بالرياضة البدنية ومزاولة الأعمال معسكرية ومشاق الجندية لحفظ الثغور ونظام البلاد وقوة الأجسام وصيانة النفوس والقوى من الضعف .

إن السعادة كل السعادة فى ترك التنعم وكثرة الأعمال الجسمية وترك النعيم فانه أدعى للسعادة والهناء والصحة والقوة وحفظ البلاد .

(اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين »)

إن ذكر هذه الجملة بعد ما قص الله من قصص قارون وموسى وما تجلى للناس من أمر المال وأنه زائل وأن الذين أوتوا العلم قالوا إن ثواب الله خير النعم ، ثم خسفت الأرض بالمال وصاحب المال . أقول إن ذكر هذه الجملة بعد ما تقدم فتح باب لأرقى ما وصلت اليه الحكمة والفلسفة . ياسبحان الله . أليس من العجب أن يكون أرقى الحكماء فى نظر علماء العصر الحاضر والغابر يقولون [إنه لا يصح أن يسمى موجودا إلا ما كان

معصوماً من الزوال] ولقد نسمع كثيراً من حكماء القدماء يقولون [إن الحركة وجودها ضعيف وبرهنوا على ذلك] فهذه هي القاعدة التي بنى عليها أن العلم لايبنى إلا على ماهو ثابت ، فأما مالا ثبات له فلا يبنى العلم عليه . ولاجرم أن مافى السموات والأرض كله متغير والمتغير غيرثابت وغير الثابت لايبنى عليه علم، فالعلم الذى نعقله مبنى على أمور وراء هذه المادة ويسمونه (عالم المثال) وكل مانراه أو نحس به فماهو إلا ظلال لذلك العالم أو صور له أو آثاره لاغير وذلك العالم هو الثابت الذى يبقى فلذلك نرى العلم باقياً فهوباق ببقاء مابنى عليه والمادة لابقاء لها فلا علم يتعلق بهما ، وعلى ذلك يقول أولئك الفلاسفة [فلنوجه وجوهنا للعالم الذى يبقى ولنحقر هذه الدار الفانية] .

أما الدار الدنيا فليست دار حياة وإنما هي دار متقلبة متغيرة فليس من حقها أن تسمى حياة كما أنه ليس من حقها أن تسمى موجودة ، فالعجب من القرآن ومن أن تشرحه حكمة الحكماء وعلم العلماء ، فجل الله وجل العلم ، والعجب كيف يقول الله فى آية أخرى «إن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون» فأفاد أن عدم العلم هو الذى يمنع الناس من أن يفهموا أن عالم الأرواح هو العالم الثابت وهو الموجود على الحقيقة وماسواه من المادة باطل ، وهل يفهم هذا القول إلا أولوا العلم المذكورون فى هذه السورة فى قوله تعالى «وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير» وأفاد أن ذلك يعوزه الصبر . انتهى صباح يوم السبت قبيل ظهر (٢١) يوليو سنة ١٩٢٩ م .

(اللطيفة الثالثة : الموازنة بين فهم الصحابة رضى الله عنهم وبين فهمنا فى القرآن)

كيف كان سلفنا الصالح يفهمون القرآن ، وكيف كان فهمهم سبباً فى أنهم ملكوا ملك فارس والروم، وكيف كان فهمنا للقرآن بعد ذهاب الدول الاسلامية والقوة العربية غير مجد ولامفيد فغلبتنا الأمم وصرنا لهم خاضعين . ذلك نفهمه من حكاية الربيع بن زياد مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه . قال الربيع بن زياد الحارثى : كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين فكتب إليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً (أى أن يتخذ كل واحد منهم له خليفة يقوم بالحكم فى غيابه) قال فلما قدمنا أتيت (يرفأ) فقلت (يايرفأ) مسترشد وابن سبيل أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله؟ فأومأ إلىّ بالخشونة فاتخذت خفين مطارقين أى مطبقين ، يقال طارقت نعلى : إذا أطبقتهما ويقال لكل ماضوعف قد طورق ، ولبست جبة صوف ولثت عمامتى على رأسى أى أدرت بعضها على بعض على غير استواء ويقال رجل ألوث إذا كان أهوج مأخوذ من اللوثة ، فدخلنا على عمر فصفنا بين يديه فصعد فينا وصوب فلم تأخذ عينه أحداً غيرى فدعانى فقال من أنت ؟ قلت الربيع بن زياد الحارثى ، قال وما تتولى من أعمالنا ؟ قلت البحرين . قال كم ترتزق ؟ قلت ألفاً ، قال كثير فما تصنع به ؟ قلت أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لى فمافضل منهم فعلى فقراء المسلمين ، قال فلا بأس ارجع إلى موضعك ، فرجعت إلى موضعى من الصف فصعد بنا وصوب فلم تقع عينه إلا على ، فدعانى فقال كم سنك ؟ قلت خمس وأربعون سنة ، قال الآن حين استحكمت ثم دعا بالطعام وأصحابى حديث عهدهم بلين العيش وقد تجوعت له فأتى بخبز وأكسار بعير (الكسر والجدل والوصل بكسر الأول فى الثلاثة العظم ينفصل بما عليه من اللحم وجمع الكسر أكسار) فجعل أصحابى يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد فجعلت أنظر إليه يلحظنى من بينهم ثم سبقت منى كلمة تمنيت أنى سخت فى الأرض ، فقلت ياأمير المؤمنين إن الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا ؟ فزجرنى ثم قال كيف قلت ؟ فقلت أقول ياأمير المؤمنين أن تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز ليناً واللحم غريضاً (أى طرياً) فسكن من غربه

(أى لانت حدته) وقال أهينا غرت (أى ذهبت) قلت نعم ، فقال ياربيع إنا لوشئنا ملأنا هذه الرحاب من صلائق (الصلائق كل مطبوخ ومشوى بالنار) وسبائك (هو مايسبك من الدقيق فيؤخذ خالصه وهو الحوارى والرقاق تسمى سبائك) وصناب (هو صباغ يتخذ من الخردل والزبيب) ولكنى رأيت الله عز وجل نعى على قوم شهواتهم (أى عابهم ووبخهم) فقال « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » ثم أمر أبا موسى باقرارى وأن يستبدل بأصحابى اه .

﴿ الكشف الحديث ﴾

(فى إيضاح قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون »)

اعلم أن هذه الآية أصل عظيم من أصول العلوم الطبيعية ، والذى جاء فى نص هذه الآية هو آخر رأى وصل له العلماء ، انظر إلى علوم اليونان فلقد ابتدأت حياتى العلمية الفلسفية بقراءتها ولم أكن أعلم بالحديث فرأيت القوم يقولون إن السموات والكواكب كل هذه أزلية أبدية ولا يمكن خرقها ولا التئامها فهى قديمة كما أن الله قديم وباقية كما أن الله باق ولا يمكن أن تجزأ ولا تنفصل . أقول ومعلوم أن هذا المذهب يخالف ديننا على خط مستقيم ، ثم إن المتأخرين من العلماء أجمعوا أن هذه الكواكب مركبات من عناصر وأنها كانت بخارا قديما وفى المستقبل ترجع بخارا الخ ولاجرم أن هذا يوافق ديننا : أى أن علماء أوروبا قرروا مايوافق ديننا موافقة تامة وإن كانوا لايعلمون ولكن بقيت العناصر وهى فوق الثمانين ، فهذه لاتنحل مطلقا فإذن هى دائمة وتقوم فى دوامها مقام السموات فى بقائها عند القدماء فرجع الأمر إلى مثل ما كان عليه القدماء هنالك ظهر علماء زماننا فقالوا : كلا بل كل هذا الوجود ونفس هذه المادة تنعدم كما تنعدم مركباتها ، وآخر رأى هو أن العناصر محكوم عليها بالفناء كالمركبات منها .

﴿ إيضاح هذا المقام : النظرية القديمة ﴾

قد أبنت لك أن بعض علماء اليونان ومن تبعهم من علماء الاسكندرية أيام دولة الرومان بمصر قد قالوا [إن السموات لا تنحل] وأزيد عليه أيضا أنهم قالوا [إن المواليد الثلاثة وهى الحيوان والنبات والمعادن مركبات من عناصر أربعة وهى الماء والتراب والنار والهواء ، فاذا حكمنا بأن السموات وكواكبها لاتنحل ولاتتجزأ ولاتفنى فانا نحكم أيضا على الماء والنار والتراب بأنها لا تنحل ولا تتجزأ إلى عناصر أخرى ، فالشمس لاتفنى والقمر لا يفنى والكواكب لاتفنى] واستمر الأمر على ذلك مئات السنين .

(نقض هذه النظرية)

هنالك جاء متأخرو علماء الإسلام كما تراه فى كتاب المواقف للعلامة العضد وهكذا السيد وغيرهما فزلزلوا بعض القواعد كقولهم [إن الأرض تدور حول الشمس وليست الشمس دائرة حول الأرض] .

ثم جاء (كوبرنيكوس) و (غاليلى) من علماء أوروبا وأوضحوا هذا ودونوه ، وهذا وإن لم يكن نقضا لهذه النظرية هو فتح باب للنظر فيها والتفكر والهدم . هنالك نظر المتأخرون من الفرنجة مثل العلامة (لافوازيه) فانه وضع هذه النظرية وهى :

(المادة لاتنعدم ولا تتجدد)

ومعنى هذا أنك لو أتيت بمادة خشبية وأحرقتها فان الأجزاء تتفرق فبعضها يطير فى الهواء وبعضها يبقى فحما فى الأرض وهكذا . نحن نأكل الخبز فالخبز لم يذهب منه شىء فانك لو وزنته فوجدته رطلا فهذا الرطل يقسم أقساما فقسم يصير دما بعد تمام هضمه وقسم يخرج مع العرق والبول وقسم يخرج مع الفضلات ، فدمنا موجود يصير لحما وعظما ومخا الخ ، والفضلات والعرق لاتزال فى هوائنا وفى أرضنا وفى حقولنا فترجع

فى أجسام

فى أجسام نباتنا وحيواننا أو فى تراب أرضنا . هذا هو الوجود كله عند (لافوازيه) وهناك حللوا هذه المادة فوجدوا أن العناصر الأربعة مركبات من عناصر ألطف منها، فالماء من الاكسوجين والاودروجين ، والهواء من الاكسوجين والاوزوت ومعه بخار الماء والفحم وهو الكربون ومواد أخرى ، وقد عرفوا من العناصر فوق الثمانين ولها جداول عجيبة تبين المناسبات بينها كما ستراه فى(سورة العنكبوت) فهذه العناصر وإن أبطلت النظرية القديمة لم تحل بها المشكلة ، فاذا قلنا إن الكواكب مركبة من عناصر كما يتركب حيواننا ونباتنا وماؤنا وأرضنا وأن هذه الكواكب وهذه الأرض ستنحل وتذهب مركباتها وتتفرق وأن ذلك معروف من أضواء تلك الكواكب فانهم حللوها بالمنظار فوجدوا فى كل كوكب أضواء مختلفة كالنحاس والحديد والرصاص الخ . أى أنهم وجدوا هذه الكواكب مركبات من عناصر هى نفس العناصر الأرضية والشمسية لأن أشعة تلك الأضواء تشبه أشعة المعادن المختلفة المذكورة وبحثوا بحثا طويلا فى معاملهم .

أقول إن هذا أيضا لم يحل المشكلة لأن هذه العناصر التى تنحل إليها الكواكب لاتفنى كما هو رأى (لافوازيه) .

﴿ الرأى الحديث الموافق لقوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » ﴾

(رأى العلامة جوستاف لوبون)

اطلع العلماء اليوم على مادة اسمها (الراديوم) فهذا الراديوم له ضوء غريب عجيب جدا . ذلك أن أشعته لها مزايا لاتوجد فى غيرها بها تنحل أجزاء العنصر أى ينقص وزنه فهذا أدهش العلماء كيف يكون هذا الشعاع سببا فى نقص الوزن فأخذوا يعللون ذلك بعلل لم تصب كبد الحقيقة وذهبت أدراج الرياح ، ولكن (جوستاف لوبون) قال ما يأتى : [إن جميع العناصر تقبل هذا الانحلال ولكن الراديوم أقواها وأسرعها انحلالا مع علمنا أن جزءا واحدا من ألف جزء من الجرام فى الراديوم الذى هو أسرع المواد انحلالا يبقى دهرا وهو يشع الملايين وملايين الملايين من تلك الذرات حتى يصبح معدوما تماما : أى أن الراديوم المذكور يصير قوة لا مادة ومثله العنبر وإن كان أبطأ انحلالا عن الراديوم وهكذا سائر العناصر قابلة لهذا الانحلال لكنها أبطأ وأبطأ ، ثم قال وهذا الانحلال البطىء يكون بخروج أجزاء ضوئية سرعتها فى الثانية الواحدة (٢٠٠٫٠٠٠) مائتا ألف كيلو متر . وقرر العلماء الذين وافقوا (لوبون) أنهم لو استطاعوا أن يحللوا جراما واحدا من الحديد فى ثانية واحدة أى لو قدروا أن يعدموه كما يعدم الراديوم ويحولوه إلى قوة لا وزن له لأفادونا قوة من هذا التحول تعادل قوة تجر قطارا حديديا حول الكرة الأرضية أربع مرات فان القوة التى يتحول إليها ذلك الجرام تساوى قوة (٦٨٠٠) ألف ألف حصان] ومعنى هذا أن المادة التى نراها والعناصر التى تركب منها كل نبات وحيوان وإنسان تنعدم كلها ، وماهذه العناصر إلا قوى مخزونة متراكمة مجتمعة سميناها مادة وماهى إلا حالة من حالات عالم يسمى الأثير ، فالأثير الذى لاوزن له ولا لون ولايرى ولايعرف إلا بالعقل والاستنتاج هو الوجود كله ، فاذا رأينا كهرباء أوضوء أو نور أوحرارة ومغناطيسا قلنا هذه كلها قوى يتحول بعضها إلى بعض وهى فى المعنى شىء واحد هو الأثير المالىء للفضاء فى جميع هذا الفراغ فاليه يرجع كل شىء بل هو كل شىء ، وماهذه العناصر الأرضية والسماوية بالنسبة للأثير إلا كالماء قد صار ثلجا أو البخار صار ماء ، فاذن أنا وأنت وأرضنا وسماؤنا وعناصرنا كلها عبارة عن قوى أشبه بقوى الكهرباء والنور تجمدت وتكاثفت وهانحن أولاء نراها تنحل فى الراديوم مثلا . إذن هذا الوجود الذى نعيش فيه والذى نسميه مادة منوعة إلى عناصر وإلى كواكب وشموس ماهو إلاقوى متجمدة متكاثفة كتكاثف البخار فيعود ماء ، فالبخار إذا صار ماء أمكن رجوعه إلى بخار ثانيا هكذا المادة . فاذن لامادة ، وإذن فهمنا قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » .

﴿ حظ هذا التفسير ﴾

أفلا ترى أن هذا التفسير حظه عظيم ، انظر إلى التوفيق ، انظر كيف أمكن انطباق الآية فى آخر السورة على آخر كشف حديث ، وكيف كانت هذه الآية توافق نفس العلم الذى به ارتقت أوروبا وقهرت المسلمين به ، اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم والحكمة ، بل انظر فوق ذلك إلى ماسنراه فى (سورة العنكبوت) أنا الساعة أكتب هذا صبح يوم الأربعاء وهو ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٢٦ وذلك أثناء طبع هذا التفسير بعد أن تم تأليفه وقد كنت كتبت فى (سورة العنكبوت) فى العام الماضى مايناسب هذا المقام ولم أكن لأعلم ولم يخطر لى أن آخر الشعراء هو عين أول العنكبوت . وبعبارة أخرى : لم يكن ليخطر لى أن قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه » هو عين مادونته فى (سورة العنكبوت) من أن « الم » فى أول السورة هى عبارة عن حروف مفرقة ، وهذه الحروف تفتح باب العناصر وأن المركبات السماوية والأرضية ترجع إلى عناصرها كما ترجع الكلمات والخطب والقصائد إلى الحروف الأبجدية وأن الأمم الإسلامية يجب عليها أن تنظر فى التحليل والتركيب لأن العالم الذى نعيش فيه لانعقله إلا بتحليله ، كما أن القراءة لاتتم إلا بمعرفة حروف الهجاء التى تتركب منها الكلمات ، وهناك فى السورة جدول للعناصر والصلة بينها . إذن سورة العنكبوت أصبحت موضحة لسورة الشعراء من بعض الوجوه واتصل آخر الثانية بأول الأولى .

﴿ ظهور هذه الوحدة فى النبات والحيوان ﴾

(الذرة والخروع)

إن الذرة كما تقدم فى (سورة الفاتحة) يكون فيها أعضاء الذكور فى أعلى عودها والأنثى فى وسط العود والخروع يكون ذكره أسفل والأنثى أعلى ولكنها عند الالقاح تنزل الأنثى فتكون أسفل من الذكر فيقع اللقح عليها ثم تكون الثمرة فيهما ثم بعدم الذكران والإناث ، وهذه الحال حاصلة فى كل نبات . والنخل وإن امتاز ذكره عن أنثاه هكذا حالة الذكر والأنثى متعاونان ثم يذهبان ، وكل حيوان وكل إنسان أشبه بعود الذرة وعود الخروع ، فانك ترى شجرة الخروع وتقول هى واحدة وترى النباتة من الذرة فتقول هى واحدة ومع ذلك ترى فى هذه الوحدة ذكرا وترى أنثى فهما ممتازان ، فهنا وحدة تنوعت ، هكذا النخل وحدة تنوعت وهكذا الإنسان والحيوان ، فالرجل والمرأة فيهما معنى الوحدة التى رأيناها فى الذرة والخروع وهذه الوحدة تذكرنا بالوحدة العامة فى الوجود فهو كله يرجع للأثير والأثير شىء لاوزن له ، فالمظاهر كلها ذاهبة هذا كله معنى قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » والحمد لله رب العالمين .

﴿ إيضاح لهذا المقام بأوسع مما تقدم وذلك تذكرة فى قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » وقوله تعالى فى سورة أخرى « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » ﴾

إن هاتين الآيتين من واد واحد ، فقوله « هالك » وقوله « فان » كلاهما اسم فاعل وهو حقيقة فى الحال ، وكثيرا ما كنت أسمع بعض أساتذتى يقولون ذلك وأن الوجود على الحقيقة هو الله ولا موجود سواه الآن ، ولما كانت العقول اليوم فى الأمم لاتعرف إلا الحقائق أخذت أبحث فى هذا الموضوع فوجدته يرجع إلى (مسألتين اثنتين : المسألة الأولى) هل المادة موجودة وجودا حقيقيا (المسألة الثانية) هل هذه العوالم صائرة إلى الزوال ؟

أما المسألة الأولى وهى هل المادة موجودة وجودا حقيقيا ، فاعلم أيها الذكى أن نفس المادة من سموات وأرضين وما بينهما قد صعب على العلماء إثباته وتحاروا فى تحقيقه ، وبيانه أن القدماء من علماء الفلسفة قالوا إن هذه المادة مفرقة على حواسنا ، فهذه الأضواء والحركات والسكنات والألوان والقرب والبعد اختص

بها البصر ، وهذه المسموعات من صوت الإنسان والحيوان والجماد اختصت بها حاسة الشم ، وهذا الثقل وهذه الخفة وهذه الحرارة وهذه البرودة اختصت بها حاسة اللمس ، وهذه الحلاوة وهذه الملوحة والمرارة وما أشبهها اختصت بها حاسة الذوق

إننا لما فكرنا فى هذا الوجود لم نعرف منه إلا هذه الصفات وهذه الصفات شئ والمادة شئ آخر ، وأما المادة فإننا لم نعرف لها برهانا ولا برهان على وجودها إلا هذه الأوصاف فهذه المحسوسات ماهى إلا أعراض وأخيرا حكموا بأن المادة وجودها ضعيف .

هذا مايقوله قدماء الفلاسفة وهذه المحسوسات هى التى عرفوها فى (علم المقولات) وهى كلمات عشر تشمل جميع هذا الوجود والذى ذكرته لك منها هنا ملخص كلة منها وهى (الكيف) والكيف عندهم يرجع إلى كيف محسوس وإلى كيف معقول ، والذى ذكرته هوالكيفيات المحسوسة التى استنتجوا منها ضعف أدلة وجود المادة . هذا آخر آراء القدماء فى المسألة الأولى وهى هل المادة موجودة وجودا حقيقيا .

﴿ آراء المحدثين ﴾

أما آراء علماء العصر الحاضر فإنهم وافقوا القدماء ولكن على منهج غير منهجهم ، قالوا إن الذى نعرفه من هذه العوالم أمامنا إنما هو الأثير والأثير شئ تصورناه ولم نره وهذا الأثير فيه حركات كثيرة وتلك الحركات تتنوع ، فمنها حركات تصير كهرباء ، ومنها حركات تصير نورا ، ومنها حركات تصير حرارة . وبعبارة أخرى : إن هذه المذكورات من النور والحرارة والكهرباء ماهى إلا حركات ظهرت بمظاهر مختلفة : أى أنها شئ واحد اختلفت مظاهره بحسب استعداد قوانا نحن الأحياء على الأرض . فأما ما نراه من جماد ونبات وحيوان وإنسان وجبل وحجر فما هو إلا نفس هذه الحركات حصل لها ماحصل للحركات التى صارت نورا وكهرباء وحرارة ، غاية الأمر أن الحركات التى صارت نورا قليلة بالنسبة للحركات التى صارت قمحا أوقطنا أو ذهبا أوفضة فإن الحركات التى سميناها نورا تعد بملايين الملايين فقط فيقال إن حركات النور فى الثانية الواحدة من حوالى (٤٠٠) مليون مليون إلى حوالى (٧٠٠) مليون مليون . فأما الحركات التى تكون حجرا أو شجرا أو ماء فإنها تعد بأكثر من هذا ، فيقال مثلا إنها ستة آلاف مليون مليون فبدل أن كنا نقول إن الحركات فى النور تعد بمئات الملايين صرنا نقول إن الحركات التى صارت مادة تعد بآلاف الملايين . إذن الموجودات كلها ترجع إلى حركات وكلما كانت الحركات أقل كان الموجود ألطف وكلما كانت الحركات أكثر كان الموجود أكثف . ولعمرى إن هذا يخالف ماهو معروف فى بادئ الرأى . ألا ترى رعاك الله أن النور سريع الحركات وأن الحجر والشجر معدومة الحركات . فانظر كيف انقلب الوضع وأصبح ماكان يظهر لنا أنه كثير الحركات قليل الحركات وماكان قليل الحركات قد كثرت حركاته .

فياعجبا من وجودنا فى هذه الأرض ، الأوضاع مقلوبة والأحوال معكوسة والعلم يظهر لنا الحقائق على غير مانعهد . سبحانك اللهم حكمت علينا أن نعيش فى عالم مقلوب الوضع معكوس الحال ، نرى الشمس جارية حول الأرض فيقول العلم ، كلا . الأرض جارية حول الشمس . ونرى أن المال والولد والدنيا كل ذلك سعادة فيقول لنا العلم والدين . كلا . فالسعادة غير هذا ، ونرى بحسب نظرنا أن الإنسان متى مات فلا وجود له ويقول العلم والدين . كلا بل هو حى . إن هذه الحياة مقلوبة الوضع معكوسة الحال ترينا الكبير صغيرا والصغير كبيرا والعظيم حقيرا والحقير عظيما .

فهاك برهانا على مانحن بصدده من أن المادة كلها ترجع لحركات أذكرك بما تقدم فى (سورة النور) عند قوله تعالى «الله نور السموات والأرض» فأذكرك بقطرة الماء المذكورة هناك وأنها رجعت إلى جزئيات

ضعيفة وتلك الجزئيات يبلغ عددها نحو عدد نجوم السماء ثم هى مع هذا كله لا تملأ فراغ هذه القطرة بل تملأ جزءا من مئات الآلاف من الفراغ المذكور، ثم هذه الجزئيات مع صغر مقدارها بالنسبة للفراغ الذى تشغله القطرة ظهر أنها ترجع إلى كهرباء سالبة وإلى كهرباء موجبة . وبعبارة أخرى نقطة ضوء تجرى حول نقطة أخرى ستة آلاف مليون مليون مرة فى الثانية الواحدة وباختلاف مقادير هذه السرعة فى الجرى اختلفت المادة بحسب مانراه فقلنا هذا اكسوجين وهذا ادروجين وهذا ذهب وهذا فضة الخ، والحقيقة أن هـذا كله أمر واحد هو نور أو كهرباء لا غير وباختلاف الحركات ظهرت المواد المختلفة . أما أنا فانى أحمد الله عز وجل . أحمدك يا الله على أنك وفقتنى لتلخيص هذا الموضوع وشرحت صدرى لتبيانه فيعرف الأذكياء فى أمم الإسلام وغيرهم أن العلم الذى وصل إلى عقول أمم الأرض الآن أظهر أن الوجود إنما هو حركات والحركات ضوء أو كهرباء أو حرارة أو ذهب أو قمح أو حديد لا أقل ولا أكثر . فالحقيقة شىء والظواهر شىء آخر .

واعلم أيها الذكى أن كثيرا من الناس حينما يقرءون هذا يهجس فى نفوسهم خواطر تزعجهم فيقولون : [إذا كان الوجود ماهو إلا حركات اختلفت مظاهرها فكيف يكون عندنا جنة ونار وحساب وعقاب ودنيا وآخرة إذن هذا كله لاوجود له] وهذا قول من لاتحصيل عنده . فاننا إذا عرفنا حقيقة هذه الدنيا على حسب ماوصلت إليه عقولنا فليس معناه أن هذه الموجودات والمظاهر لاعمل لها . كلا. فان فائدة هذه المباحث فى مثل هذا المقام أن تظهر لنا الحقائق فأما تعطيل قوانا وملكاتنا وأعمالنا فهـذا ضرب من الجهل . إن هذه الحقائق تثير عقولنا وتفهمنا أن هـذه العقول أمرها عظيم وأنها قادرة أن تحيط علما بالمادة علوها وسفلها. وبعبارة أخرى أنها أكبر من الشموس والأقمار والكواكب الثابتة والسيارة لأنها تحكم عليها وتتصورها وتتخيلها وترجعها كلها إلى أمر واحد . إذن هذه العقول نور أكبر من النور الذى خلقت منه المادة بدليل أن هذه العقول حكمت على جميع العوالم فقالت إنها نور والنور يرجع إلى حركات والحاكم أفضل من المحكوم عليه ، فنفس هذا البحث يرينا عظمة نفوسنا وشرفها وأنها تكبر وتعظم أن تخضع لهذه المظاهر بل مقامها الأسنى أن تعيش فى ملأ أعلى ومقام أشرف « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » .

﴿ آراء أفلاطون ﴾

ولا جرم أن هذه الآراء قد عرّفها إجمالا أفلاطون إذ يقول [إن هذه المادة لاثبات لها ، ومالا ثبات له فلاثقة به ، ومالا ثقة به لايصح مناطا للعلم بل العلم مبنى على أمور ثابتة] وما هى هذه الأمورة الثابتة ؟ هى التى سماها هو (المثل الأفلاطونية) التى أوضحتها فى غير هذا المكان ، وما هذه المثل الأفلاطونية إلا العوالم العقلية التى تعلو عن المادة ، وكم ورد عليه من اعتراض ، وكم أجيب عنه ، وسترى هذا البحث فى (سورة القتال) إن شاء الله تعالى فى رسالة [مرآة الفلسفة] التى ظهر فيها هذا الوجود أوضح مما قاله أفلاطون ولا يرد علينا ماورد عليه من الاعتراض ذلك لظهور الحقائق فى زماننا « والله واسع عليم » .

سبحانك اللهم وبحمدك ، علمت الأولين وعلمت الآخرين وجعلت العلم كله يرجع إلى أمر واحد وألهمت (أفلاطون) قبل الميلاد ما علمته لعلماء العصر الحاضر ، إنك رحيم بعبادك معلم الأولين والآخرين ، ومن عجب أن علماء الهند قديما يقولون كما رأيته فى كتاب [راجا يوقا] المترجم إلى الانجليزية من الهندية [إن المادة أصلها عقل بدليل أنها ترجع إليه] ألا ترى أن الغذاء فينا يرجع إلى قوة فكرية ، فمن المادة العضلات والأعضاء ومنها نفس العقل إذن رجعت إلى أصلها وهذا رأى عجيب وهذا الرأى يقول به (استوارت سميث)

فانه

فإنه يقول [إن المادة ما هى إلا عقل تكاثف] وهذه العبارة منقولة عنه فى نفس ذلك الكتاب . انتهى الكلام على المسألة الأولى وملخصها :

(١) إن القدماء يقولون [إن الكيفيات المحسوسة البالغة ٣٦ كيفية مفرّقة على حواسنا وحواسنا لم تدرك المادة وإنما أدركت هذه الكيفيات لاغير] إذن وجود المادة ضعيف .

(٢) علماء العصر الحاضر يقولون [إن العوالم كلها ترجع إلى حركات فلا فرق بين الضوء وبين الحجر كلاهما حركات والحركات أضواء والأضواء باختلاف حركاتها تصير محسوسة لنا فإن كثرت الحركات كانت مواد صلبة وإن قلت كانت سائلة وإن زادت قلتها كانت ضوءا أو كهرباء الخ] .

(٣) أفلاطون من علماء اليونان يقول [إن المادة لاثبات لها ومالا ثبات له لايصح أن يكون مناط العلم بل لايصح أن يسمى موجودا فالموجود الحقيق هو العالم العقلى المسمى المثل الأفلاطونية] .

(٤) يقول القدماء من علماء الهند [إن المادة أصلها فكر بدليل أنها تعود إلى فكر] ويقرب منها رأى (استوارت سميث) ومن قرأ آراء (اينشتين الألمانى) لا يجدها تعدو ما كتبناه هنا ، فهو يقول هذا القول بعينه غاية الأمر أنه أوضحها وأطال فيها وأعلن عنها . فهذا العالم الألمانى أعلن أيام الحرب الكبرى هذه المسألة وقال [إن هذا الكون ساكن لا وجود لشىء فيه وما هى إلا حركات ظهرت لحواسنا مختلفة المظاهر] وهذا الرأى قد تقدم فى هذا التفسير فارجع إليه إن شئت .

وهذا هو نهاية الكلام على المسألة الأولى وهى هل المادة موجودة وجودا حقيقيا تفصيلا وإجمالا ، وأحمد الله على التوفيق ونعمة العلم ونعمة الايضاح ، والحمد لله رب العالمين .

(المسألة الثانية هل هذه العوالم صائرة إلى الزوال)

اعلم أيها الذكى أن المسألة الأولى رجع الأمر فيها إلى تحقيق هذا الوجود وأنه راجع للحركات لاغير ولكن هذه الحركات مظاهر وهذه المظاهر لها قيمتها العظيمة لحياتنا كلها وأعمالنا ودنيانا وآخرتنا ترجع أكثرها إلى هذه المظاهر فليس معرفة أصل الوجود بمغن فتيلا عن نفس هذه الموجودات ، فما تقع عليه حواسنا له مقام عظيم فى العلم فلا ينبغى لنا أن نفعل ما يفعله كثير من جهلة الصوفية الذين يقولون [إذا لم يكن فى الوجود إلا الله فالعلم يكون جهلا والبحث جنونا] وهذا يرجع بالإنسانية إلى الكسل والجهل والعجز ويقول صلى الله عليه وسلم « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل الخ » إذن لهذه المادة التى هى مظهر من مظاهر الحركات والأنوار مقام عظيم وعليها مدار الباحث وهى السبيل للوصل إلى ما وراءها وحينئذ نقول هل هذه المادة التى ظهرت أمام حواسنا يوما ما ستفنى بحسب ما يظهر لحواسنا ، وهنا ظهر فى الدنيا (رأيان اثنان : الرأى الأول) وهو القديم [لا شىء يزيد على المادة ولا شىء ينقص منها] وهذا رأى (لا فوازيه) وهو يعتبر اليوم الرأى القديم . ومعنى هذا أنك إذا أحرقت خشبة أمامك ثم جمعت ما بقى من رمادها وما طار فى الجو من دخانها وبخارها كان مساويا فى وزنه لوزن الخشبة ، وعليه يكون للماء والهواء ونحوهما لا تفنى فالماء يدخل النبات ويخزن فيه ثم يتحلل هذا النبات والماء الذى كان فيه لابد أن يرجع بخارا كرة أخرى ولا يفنى وهكذا الهواء ونحوه . إذن المادة تتحلل وتتركب وكأنها هى حروف الطبع توضع فى الصندوق وترتب وتنظم ويطبع بها الكتاب ثم تفرق كرة أخرى وهكذا فالحروف واحدة معلومة محدودة فى المطبعة والكتب المطبوعة بها تعد بالمئات والآلاف هكذا هذه العوالم بحسب النظر الظاهر والمشاهدة فى هذه الحياة .

﴿ الرأى الحديث « لاشىء يزيد على المادة ولكن كل شىء صائر إلى الزوال » ﴾

لعلك حين تسمع هذا القول تقول إن المسألة الأولى والمسألة الثانية اللتين ذكرتهما مرجعهما واحد فإن المسألة الأولى رجع الأمر فيها إلى أن العوالم كلها ترجع إلى الحركات والحركات إلى الأثير ، وهذا الرأى القائل إن المادة صائرة إلى الزوال معناه يرجع لهذا ، فرجع الأمر إلى أن هذه المادة تنحات وتتجزأ وتصير فى آخر أمرها إلى القوة والقوة ترجع إلى الأثير قلت كلا . ليست المسألتان واحدة. وإيضاحه بضرب المثل أن أقول انظر حباك الله العلم وألهمك التوفيق وشرح صدرك للحكمة وأنالك الكمال إلى رجل أصيب بمرض عصبى وهذا المرض جعله يرى أشباحا مزعجة وأشخاصا يظهرون له فيؤذونه ويسمعونه ما يكرهه ولا يزالون يوالون الظهور له وهو يستغيث ولا مغيث ويسأل ولا مجيب وهو فى الحقيقة ما ظهر له إلا ماخيلته له نفسه من الصور المخيفة التى ظهرت له كأنها حقيقة فلا تزال تلك الصور تظهر له وقتا فوقتا حتى يوارى فى ثرى رمسه بسبب ظهور تلك الأشباح المزعجة، والتاريخ القديم والحديث قص علينا قصص هؤلاء المصابين الذين أوردهم مرضهم موارد الحتف وأقلقتهم تلك الصور وأقضت مضاجعهم وهيأتهم للموت ومفارقة الحياة ، لست فى هذا التمثيل أتخيله تخيلا بل هو حقيقة عرفها علماء الطب وعلماء الأخلاق ، هذا المريض بذلك المرض العصبى يرى تلك الأشباح، لماذا ؟ لأنه مستعد لذلك فاستعداده هيأ له تلك الأشباح والمظاهر ، وهذه حقيقة عنده لاتقبل الشك ولذلك تمنع عنه النوم والأكل والشرب واللذات ثم يرد أحواض المنايا ليخلص من هذا العذاب المهين ، فبينما هو كذلك إذ الناس حوله يصفونه بأوصاف الجنون والتخبط والطبيب يقول إن أعصابه فيها مرض هيأ له ظهور هذه الصور فهنا (رأيان) رأى الجمهور الذى سلمت قواه العقلية من الخطل فهو يقول لا صور ولا أشباح ، ورأى المريض الذى أصيب بهذا الخطل والخبل فهو يقول بوجود صور وأشباح، والجمهور تكون نتيجة معارفه أنه لا يفزع لأشباح ولا يخاف من عفاريت وهذا العصبى يتأثر فيموت .

إذا عرفت هذا المثل فاعلم أنه منطبق على المسألتين السابقتين . فما مثل الناس فى الأرض إلا كمثل هذا العصبى المريض . وما مثل العوالم الروحية التى خلصت من المادة إلا كمثل العقلاء الذين فى الأرض حول هذا العصبى، وما مثل الصور والأشباح التى تظهر له إلا كمثل هذه المادة الظاهرة لنا فى الأرض الآن . فإذا قال العصبى هنا صور وأشباح وقد صدق فيلا وما كذب ، وقال الناس حوله لا صور ولا أشباح وقد صدقوا وما كذبوا فهكذا نحن الآن فى الأرض نقول هنا موت وحياة وسماء وأرض وجماد وحيوان ونبات وقد صدقنا ، وهناك عوالم أخرى روحية لاترى إلا أنوارا وحركات وقد صدقوا فنحن صادقون فى اعتبار هذه العوالم موجودة وصادقون فى قولنا باعتبار آخر إنها غير موجودة . ومن الجهل أن نخلط أحد القائلين بالآخر، ثم إن هذا المريض العصبى إذا بقى على حالة مرضها واتفق أن الصور والأشباح لم تعد تظهر له فهذه حال أخرى نظيرها ماتقوله فى المادة نحن فإننا نقول إن المادة آيلة للزوال ونحن على حالنا الحاضرة :أى أننا بالعلم عرفنا أن هذه المادة ونحن فى حالنا الحاضرة تأخذ فى الزوال وترجع إلى قوة والقوة ترجع إلى عالم الأثير. إذن هنا فرق بين المسألة الأولى والمسألة الثانية ، المسألة الأولى فيها أن هذه العوالم لا حقيقة لها بل ترجع إلى الأثير أى فى التحقيق العلمى وهذا كالمثال الأول للمريض بالمرض العصبى، والمسألة الثانية ترجع إلى أن المادة ونحن على حالنا صائرة إلى الزوال كما أن العصبى وهو مريض زالت الأشباح وماعادت تظهر له .

هذا هو الفرق بين المسألتين ، فالمسألة الأولى فيها بطلان العوالم فى التحقيق العلمى ، والمسألة الثانية تفيد أن بطلان المادة يصير عملا واقعا تطبيقا للعلم على العمل ، وعليه نقول « كل شىء هالك إلا وجهه » و « كل

من عليها فان » إما فى الحال الآن فى التحقيق العلمى وإما فى الظواهر وفى مقامنا الإنسانى فى الأرض . بل نحن مأمورون ومسوقون إلى العمل فى العالم بمجرد اعتبار أنه موجود فعلا وجودا يناسب حالنا ، وإما فى المآل بأن يبطل هذا العالم الذى ظهر لنا ويزول من الوجود فعلا كما أنه زائل الآن فى النظر العلمى ولا يجوز للناس أن يخلطوا أحد القسمين بالآخر ، فلا يقول جهال المسلمين وبعض الذين يدعون التصوف [إذا لم يكن فى الوجود إلا الله فلم النصب والعمل فلنتوكل ولننم] وإذا قال بعض المتفلسفين صغار العقول من الذين قرءوا قشور العلوم وجهلوا الحقائق [ليس عندنا فى الوجود إلا هذه المحسوسات فعلام النصب والتعب فى تحصيل الحقائق ولا حقائق إلا ما نراه فلنعش للذات] فهؤلاء يقال لهم أنتم مساكين جهلتم علوم الأمم المحيطة بنا وأداكم كسلكم إلى هذه الفكرة فوقفتم فى أول الطريق فأنتم مغرورون وهؤلاء يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

ولما اطلع صديق العالم على هذا المقال قال لقد أجدت صنعا ولكن هنا (سؤالان : الأول) أنك جعلت النوع الإنسانى أشبه بالمريض مرضا عصبيا يرى الأشباح ولا حقيقة لها . إذن هذا الإنسان الآن فى حال نقص . فقلت إن الإنسان فى هذه الأرض روحه من عالم النور ووجوده فى أرضنا بعد له عن مقامه السامى الشريف وهذا هو المرموز له بقصة آدم إذا عصى وأكل من الشجرة وهذا هو المرموز له بالذنب ، ألم تر إلى قوله تعالى « واستغفر لذنبك » ألم تر إلى المسلم يقول فى كل صلاة فى الجلوس بين السجدتين « رب اغفرلى وارحمنى الخ » إن المسلم يطلب المغفرة دائما أذنب أو لم يذنب ، ولا معنى لطلب المغفرة لغير ذنب . إذن هناك ذنب عام لنوع الإنسان وهو تجسده فى هذه المادة والذنب هنا ليس بالمعنى المتعارف بل بمعنى آخر كالنقص أو الاحتجاب عن مقام الكمال أو البعد عن عالم الأرواح والصفاء والنور ، ولهذا المعنى تفسر كثير من الآيات كقوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا . ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ولاذنب لنبينا صلى الله عليه وسلم متقدما أو متأخرا من الذنوب المعروفة . كلا وإنما الذنب هنا بمعنى الوجود فى هذه المادة الجسمية التى هى أشبه بسجن يسجن فيه الناس ولكنهم بالعبادة والعلم والعمل يتخلصون من ذلك السجن ، فالذنب هنا يرجع إلى معنى يقرب من هذا ، ولا جرم أن هذا المعنى ملازم لكل حى فى الأرض . إذن نبينا صلى الله عليه وسلم أشبه بمن دخل السجن لا ليسجن ولكن دخله ليخلص المسجونين ولكنه فى أثناء بقائه فى السجن قد حجز وأبعد عن مقره العالى الشريف فلا مانع أن يسمى هذا ذنبا مجازا. وهذا هو السر فى طلب الاستغفار وسنزيده بيانا قريبا فى الجوهرة الثانية ، هذا هو السؤال الأول .

فقال أما (السؤال الثانى) فإنى أقول إنك لم تبين لنا إيضاح المسألة الثانية وهى أن الكون صائر للزوال ومن الذى قال بهذا الرأى وما برهانه ؟ فقلت إن هذا الرأى رأى الدكتور (جوستاف لوبون) العالم الفيلسوف الفرنسى فان الناس يقولون [إن علم الطبيعة أساسه الجوهر الفرد] ولكنه هو يقول [إن المادة تنحل فعلا] وجعل المادة أشبه بالنبات والحيوان والإنسان ، فكل نبات وكل حيوان تنحل وترجع إلى المواد الأصلية والعناصر المعلومة ، فهكذا المادة تكون على الحال الأثيرية ثم تصير كواكب وأرضين ثم تنحل وترجع إلى عالم الأثير فهى كحيوان أو كنبات ، وقد قرظ علماء أوروبا كتابه الذى شرح فيه هذه الآراء وسماه [نشوء المادة] أحسن تقريظ ثم قالوا إنه أعظم كتاب علمى ظهر بعد كتاب [أصل الأنواع لدارون] وملخص كلامه أن الرأى القديم القائل إن الكون مركب من مادة قابلة للوزن ومن قوة تحرك المادة ولا تقبل الوزن أيضا وتكون كهرباء وحرارة ونورا الخ ومن أمر لطيف يسمى أثيراغير قابل للوزن أيضا تسبح فيه الجواهر الفردة وهذه العوالم الثلاثة كل منها مستقل عن الآخر فهو يقول إن هذا الرأى

القديم خطأ، وإن هذه العوالم الثلاثة لافواصل بينها . فالمادة تتحول إلى قوة والقوة تتحول إلى أثير . يقول (جوستاف لوبون) لإثبات هذه المسألة [إن الراديوم وما أشبهه يذهب هباء منثورا ويزول من الوجود بارسال ذرات صغيرة منه ذات سرعة عظيمة] ويقول إن جزءا من ألف من جرام (الراديوم) الذى هو أسرع المواد انحلالا يبقى دهرا وهو يشع ملايين الملايين من تلك الذرات إلى أن تتحول مادته إلى قوة أخيرا فعلا، إن جميع المادة لا فرق بينها وبين الراديوم غاية الأمر أن الراديوم أسرع انحلالا وانحلال الراديوم يكون بإرسال ذرات صغيرة منه بسرعة تقرب من سرعة النور أى (٢٠٠,٠٠٠) كيلو متر فى الثانية وقد قاسوا تلك القوى التى تضيع فى أثناء انحلال المادة فوجدوها أشد القوى فى هذا العالم وقد قالوا إنهم لو قدروا أن يحولوا جراما من الحديد بحيث يعدم فى ثانية واحدة لتحول هذا الجرام إلى قوة تعادل قوة (٦) آلاف مليون و (٨٠٠) مليون حصان وهذا المقدار كاف أن يجر قطارا حديديا حول الأرض (٤) مرات ومن هذه القوة الكامنة فى المادة النور والكهرباء والحرارة والجاذبية ، فهذه يتحول بعضها إلى بعض لأن أصلها واحد وما الكهربائية إلا نتيجة انحلال المادة وهكذا ضوء الشمس فهو ناتج من انحلال مستمر فى عناصر ، وهكذا .

فهذا هو الرأى الجديد لجوستاف لوبون القائل إن العالم المادى مصيره الزوال ككل حيوان وكل إنسان وهذا هو تفسير الآية . يقول الله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » إذن أصبح الرأى الجديد هو المفسر لهذه الآية ، فكل شىء هالك إلا وجهه فلا فرق بين النحلة والنملة وبين نفس المادة العامة فكل منها له عمر محدود ثم ينعدم ، فإذا رجع الحيوان والنبات إلى المادة الأرضية والهوائية رجعت المادة جميعها إلى عالم الأثير وعالم الأثير عالم إلهى لاندرى سره « وأن إلى ربك المنتهى » .

وما عالم الأثير إلا كعالم الخيال الذى نحسه فى نفوسنا، فإن الإنسان متى أغمض عينيه وهو مستيقظ أخذ يجول فى عوالم لا نهاية لها يشاهدها بحاسة باطنية، ثم إن الصور التى تبرزها فى الخارج لا نصنعها إلا بعد أن نتصورها فى خيالنا كما أن للمادة الخارجية لا تظهر إلا من الأثير ، فعالم الأثير عالم مجهول لا يقربه لنا إلا هذا الخيال الذى نتخيله ولا نراه .

فلتنظر أمة الإسلام بعدنا وليتأملوا هل أمكننا تفسير هذه الآية إلا بقراءة علوم الأمم حولنا ؟ ألسنا بهذا نعرف قوله تعالى « ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب » فالعلماء فى الأمم بعدنا هم الذين يفهمون أسرار النبوة ويعقلون معنى « كل شىء هالك إلا وجهه» ومعنى « وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير » الخ .

وهذا وأمثاله هو السبب فى أن القرآن يذكر فى الأمور العظيمة العلم وأولى العلم ويقول الله « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » إذن دين الإسلام فى المستقبل لا يحمله إلا أمم ارتضعت بالعلم ودرست مناهل كل فن ، فويل بعدنا للمسلمين الجاهلين ، وويل ثم ويل لمن قرأ هذا التفسير ولم يكن نبراسا ونورا مشرقا للمسلمين فأعرض وتولى عنهم مع قدرته ولم يكن مصلحا لعقول المؤمنين .

انتهى ما أردته فى تفسير هذه الآية عند الطبع يوم الاثنين أول يوليو سنة ١٩٢٩م .

(جوهرتان)

(الأولى) فى بعض سر « طسم » .

(الثانية) فى الصلة بين السورتين .

﴿ الجوهرة الأولى: فى سر « طسم » أى الطاء والسين والميم فى أول سورة القصص ﴾

فى ليلة الخميس ١٨ يوليو سنة ١٩٢٩ خطر لى وأنا ذاهب إلى المنزل هذه المعانى فى سر « طسم » فى أول هذه السورة . لقد جاء فى أول السور المتقدمة أن هذه الحروف قد خصت لتذكر المسلمين اليوم بأهم ماينقصهم من الكمال فى هذه الحياة وغيرها وهذه السورة طبعا بدئت بما يشير لذلك فيها . إن هذه السورة مبدوءة بقصص فرعون مختومة بقصص قارون ، ولا جرم أن فرعون استضعف طائفة من الناس واستحيا نساءهم لأنه مفسد ، ثم إن هذه الطائفة من الله عليها وفازت ، إذن أهم مافى هذه السورة أن الطوائف الضعيفة المستعبدة يوما ما تنصر على أعدائها « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ومثل ذلك أمر قارون فإنه أعطى المال ففرح وأفسد ثم ذهب هو وماله وكان الذين أوتوا العلم أرشد ممن أوتى المال . هذا ملخص مافى السورة طوائف ذليلة ، سياسة ، أومالا يكون مآلهم الفوز ، فالسياسة فى أول السورة فى قصص فرعون وموسى والمال فى آخرها فى قصص قارون ، فلما كانت هذه المعانى هى أهم ما يقصد فى زماننا لرقى المسلمين كان مافتح الله به فى هذه الليلة مناسبا لذلك ، ألم تر أشار بالطاء لطائفة وبالسين لذلها واستعبادها وهذه السين مذكورة فى « يستضعف . ويستحيى . وفى المفسدين » . فالسين فى الكلمتين الأوليين مذكورة مع الإذلال وفى الأخرة لتوجيه الفكر إلى صفة الظالمين وهو الإفساد ، ولما كانت هذه الطوائف الضعيفة لابد من نصرها كثر ذكر الميم فى هذه المعانى إذ قال « ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم » . الخ فالميم فى طسم . تشير إلى جعلهم أئمة لأن الميم جاءت فى الكلمتين ، وفى جعلهم الوارثين وفى تمكينهم فى الأرض . إذن « طسم » فى هذه السورة فيها ملخص السورة ، ولعل قائلا يقول ، هذه الحروف لم تأت فى أول الكلمات غالبا بخلاف كثير من السور السابقة ، فأقول إن من فهم أسرار حروف أوائل السور فيما تقدم يسهل عليه استخراج فحوى هذه السورة من الحروف فى أولها ، إذن من عرف ماتقدم يعرف الحكمة الإلهية ، وإذن يفقه ما ذكرناه هنا سريعا ، لذلك جعل الله هذه الحروف هنا موزعة على آيات كثيرة وليست أكثرها فى أول الكلمات وظهور هذا السر الآن فى هذا التفسير يرمى [لغرضين : الغرض الأول] هو ماتقدم وهو أن الطوائف الضعيفة لابد من فوزها وأن الله رءوف بها ، فالطاء للطائفة والسين لذلها والميم لنصرها ، وهذا ملخص السورة كما تقدم ، فهذا الغرض اليوم يشير إلى رقى المسلمين ، كأنه يقال لهم أيها المسلمون كل ذليل يعز بعد ذله فاقرءوا التاريخ فإياكم أن تقنطوا من رحمة الله فسيرجع لكم مجدكم فلستم أول أمة ذلت بعد عزها [الغرض الثانى] أن تحترس الأمم الإسلامية وغير الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها من الغرور بالملك واستضعاف الأمم ، فإذا قويت أمم إسلامية فلتعلم أن الله لها بالمرصاد وإذا أذلت أمة فإن الله يقتص للمظلوم من الظالم ، وكل هذا تشير له « طسم » فكأن هذه الحروف مبشرة لكثير من الأمم الأذلاء ، ومنذرة للأمم الأقوياء ، وأنهم لابد أن الله ينصر الضعفاء يوما ما عليهم فيجب الإحسان للأمم الضعيفة والنصح لهم ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ الجوهرة الثانية: فى الكلام على الصلة بين آخر سورة القصص وأول سورة العنكبوت ﴾

اللهم إنا نحمدك على جمال العلم وبهاء الحكمة ، أريتنا يا الله فى قصة قارون أنه غره المال والخزائن وقال ، « إنما أوتيته على علم عندى » ووبخته على أنه جهل تصرفك فى الدول وإهلاكك للأمم وشهد الذين أوتو العلم أن هذا ظل زائل وقلت للناس فى غضون ذلك إنك لاتحب الفرحين وإنك لم تجعل العاقبة إلا للذين لا يفسدون فى الأرض ولا يريدون العلو فيها ، ثم ختمت السورة بأن هذه المواد غير موجودة عند التحقيق وإنما هذه النفوس الأرضية قد حكم عليها أن يكون نظرها للموجودات نظرا يحبسها فيها ويجعل عقولها مشغولة

بهذه المادة وفى الحقيقة لامادة وإنما تلك أشياء أقرب إلى الخيال منها إلى الحقائق ، فناسب أن تكون سورة العنكبوت مبتدأة بمسألة الفتنة وأن هذا النوع الإنسانى مبتلى كله كما ابتلى الأنبياء والعلماء وذلك ليجتهد الناس فى أعمالهم ويصل كل منهم إلى درجته التى استعد لها . ثم أخذ بعد ذلك يحرض على الجهاد وأن لقاء الله لايكون إلا بهذا الجهاد . إن هذا الإنسان كله مكبل بقيوده محبوس فى سجنه حكم عليه حكما قاطعا أن يعيش فى ظلمة الطبيعة ويقضى الضرورة الحيوانية ويتلبس بالطين ويزاول شهوات البهائم ونزوة السباع وضراوتها فلست تراه إلا ساعيا جهده لكسرة يأكلها وشهوة يسدها وغضب يثيره فقواه موزعة وآراؤه مشتتة .

هذا هو الإنسان أوله وآخره، وما الدين ولا العلم ولا العمل إلا سعى للخلاص من هذه الطبيعة الطينية . واعلم أيها الذكى أن هذه المعانى لاتنكشف إلا لمن أدرك ماعليه الناس الآن . إن الناس تراهم فى هذه الأرض مجبورين مقهورين على أعمال كلها نصب وتعب، وما أرضنا إلا جواهر نارية متكاثفة وباطنها مواد محرقة وكل نبات وكل حيوان أجسامها قابلة للاحتراق ونحن لاحياة لنا إلا بالحرارة التى هى من طبع النار ، وها نحن أولاء ننتقل من سجن إلى سجن ، فإذا سجنا فى سجن الجوع أو الشبق وهربنا من هذين السجنين بتعاطى الطعام وباجتماع الذكور بالإناث دخلنا فى سجنين آخرين وهما سجن حوز المال وحب الترف وذل المحافظة على ما ملكنا ، ثم الحسد والبخل وما أشبه ذلك ، وسجن الذرية الذين نسعى ونكدّ لتربيتهم وتعليمهم ونحزن لمرضهم وجهلهم فنحن نخرج من سجن إلى سجن ومن عذاب إلى عذاب ونحن نظن أننا سعداء فرحون.

ثم إن الأمم كالأفراد فهم متعادون منافقون مخادعون متحاربون « لقد خلقنا الإنسان فى كبد ــ قتل الإنسان ما أكفره ــ إن الإنسان لفى خسر » وكيف لايكون فى خسر وهو مشغول بما كفيته الدودة وسعدت به حشرة أبى دقيق، حشرة أبى دقيق دودها يأكل ورق القطن وتجده موفرا لها فهى به سعيدة ، وما نال الإنسان من سعيه مثل مانالت تلك الحشرات الساكنات فى قصور خضراء من ورق القطن فيها ثريات لامعات بهجات هى أزهار القطن، وهذا الإنسان كله أوله وآخره يسعى ليحصل سعادته فى الدنيا فلم ينل ثم هو يخلو بنفسه ويفكر فى أصل العالم ومنشئه وهذه النجوم والشموس ولماذا خلقنا فى الأرض وهكذا فيعجزه البحث فيرجع طرفه خاسئا وهو حسير .

هذه هى مرتبة الإنسان ولهذا أمر بالجهاد ليخرج من هذه المآزق وضربت له الأمثال تارة بقصة آدم وآونة بقصة قارون ،فإذا وجدنا قارون افتتن بالمال فذلك ليس خاصا به بل كل الناس بل الذى لامال عنده قد يكون قلبه معلقا به كقارون ،وكم من صعلوك لايملك شروى نقير أعمته الدنيا وأضلته ، وكم من غنى ،زهدها فيها كما قيل :

علقتها عرضا وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

واعلم أن جميع الذنوب التى وردت فى الشرائع السابقة واللاحقة كالزنا والسرقة والقتل ماهى إلا آثار أونتائج لما كمن فى هذه النفوس من الشهوة والغضب ، فما مثل تلك الصفات فى النفوس إلا كمثل الأقذاء فى العيون ،وما مثل هذه الذنوب إلا كمثل الذباب يقع عليها ، فلو لم تكن فى العيون أقذاء لم يقع الذباب عليها فوقوع الذباب شبه به الذنوب والقذى فى العين شبه به أساس تلك الذنوب ومن أزال الأساس فقد أزال مابنى عليها ولايزال هذا الأساس إلا بالجد والاستغفار والتوبة والأعمال الصالحة والرجوع إلى مبدع العالم .

وأعلم أيها الذكى أن من عرف ماقلته لك الآن وأدركه حق الإدراك عرف أسرارا فى الديانات وحلت له مشاكل كثيرة .. مثال ذلك أن المسلم يقول ، فى الجلوس بين السجدتين « رب اغفر لى وارحمنى واجبرنى وارفعنى وارزقنى ، واهدنى وعافنى » فقول المسلم اغفرلى فى كل ركعة ليس معناها أنه قدأذنب فعلا ، فكم من

المسلمين

للسلمين من يقول اغفر لى ولا ذنب له وقد كان ﷺ يقولها ، وقد أجمع العلماء أنه معصوم من الذنب فهو ﷺ وكثير من المسلمين لا ذنوب لهم فكيف يطلب هؤلاء الطاهرون غفران ذنب لم يقع منهم . إذن طلب الغفران منصب على أساس الذنوب وهى الطبيعة الترابية التى شبهناها بقذى العين الذى هو السبب فى وقوع الذباب عليها . إذن المسلم يطلب غفران الذنب سواء أذنب ذنبا أو لم يذنب لأن هذه الطبيعة الطينية معرضة للذنوب، فإذا كان المسلم مذنبا طلب غفران هذه الذنوب الفرعية وإن لم يكن مذنبا طلب إزالة أساس الذنب لا غير وبهذا نفهم قوله تعالى « إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر » فالغفران كما تقدم هنا منصب على تلك الآساس التى اقتضتها الطبيعة الإنسانية فى هذه الأرض .

﴿ بيان مايشير إلى هذا المعنى عند الأمم السابقة ﴾

وإذا أنت أيها الذكى رجعت إلى ماتقدم فى آخر (سورة المائدة) وقرأت أن الدين المسيحى ماهو إلا صدى صوت ديانات تقدمت فى مصر والهند والتبت والعراق عند الآشوريين والبابليين وأهل المكسيك القدماء وهكذا ترى بعضه فى (سورة مريم) منقولا عن علماء الألمان الكاشفين لهذا المعنى سنة ١٩٠٣ فيما وجدوه على الألواح فى بلاد العراق ، أقول إذا رجعت إلى ذلك كله وقرأته وفهمته حق فهمه أيقنت أن الصلب كان أمرا شائعا فى تلك الأمم على سبيل الخرافة وقد نقل إلى الدين المسيحى نقلا لاغير وأن هذا الصلب لابن الله البكر ليخلصهم من ذنوبهم بخروجه من هذه المادة وأنهم جميعا يغمسون أنفسهم فى الماء (ماء المعمودية) وأيضا قد شاع فى أكثر الديانات وآخرها الإسلام أن آدم عصى وأنه هبط من الجنة إلى الأرض وهكذا ، فكل ذلك من واد واحد، ثم تلك الديانات منسوخة عندنا نحن المسلمين والمنسوخ لاحكم له ، ولكن كلامنا الآن فى شيوع هذه الآراء فى الأمم .

إن العقول الإنسانية لاتقل فى فطرها عن فطرة الحيوان بل فطرة الإنسان أرقى وأرقى ولم نجد فى الحيوان غرائز باطلة بل هى كلها غرائز شريفة أبدعها المبدع الحكيم ،فاذا كان هذا فى الحيوان فكيف إذن بالانسان الذى جعله الله خليفة فى الأرض وشرفه فكيف تم فيه خرافات الصلب وهذا الصلب لابن الله البكر ، وكيف تشيع عادة ماء المعمودية ، أقول إن هذا كله إنما شاع فى هذه الديانات وقبلته الفطر الإنسانية وبقيت فيها دهورا ودهورا ، لأن هذا النوع الانسانى كله يحس بأنه موضوع فى طبيعة تبعده عن مقامه العالى وشرفه الرفيع فهو عاص وهو يحتاج إلى التطهير من المعصية ، فماء المعمودية ماهو إلا رمز لطهارة النفس بالعلم والعمل والصلب خروج النفس من هذه المادة وارتقاؤها وتنزهها عن شهوات أهل الأرض . كل هذه المعانى مخبوءة فى عقول أهل الأرض فتارة تظهر بهذه الخرافات كالصلب وماء المعمودية وتارة تظهر بهيئة حقائق مثل أنها ذنوب ويطلب من الله غفرانها ، ومثل أن أبانا آدم قد عصى وهبط من الجنة . كل ذلك يرجع إلى تلك الآساس التى ذكرتها لك . ولست أقول لك إن كل دين من تلك الأديان كان حقا بل أقول إن هذه خرافات ابتدعها الناس فى الأمم وقبلتها نفوسهم ولكن لماذا قبلت النفوس هذه الخرافات ؛ إنما قبلت هذه الخرافات لأنها تعبر عن فطرها .

ولما أراد الله انقاذ الإنسان من الخرافات وعلم أنه استعد لإظهار بعض الحقائق أنزل دين الإسلام وعبر بالمغفرة والذنب . هذا، ثم إنك إذا سمعت الله يقول فى آخر القصص «فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون » فإن هذا راجع إلى الذنوب الفرعية ، وإذا سمعته يقول « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » الخ . فهذا راجع إلى طهارة تلك الآساس وتهذيبها . وإذا سمعته يقول « فخرج على قومه فى زينته » الخ فذلك لفروع تلك الآساس . وإذا سمعت ذكر الجهاد

والفتنة فى أول العنكبوت لما هو إلا إتمام لما فى آخر القصص ، وهكذا ذكر الأعمال الصالحة والسيئات والأثقال كل ذلك تكميل لما فى آخر السورة قبلها . انتهى والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الجمعة ١٩ يوليو سنة ١٩٢٩ م .

تذييـــل

(حكمة ألقاها الله على قلوب بعض عباده من الصوفية ، وهى أن من ادعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل وهى من حكم قصة قارون فانها تحدد الزهد فى الدنيا)

هذه القصة كما ذمت المال والدنيا حرضت على عدم نسيانهما بالكلية ، فالقصة أعطتنا طريقا وسطا فلا نكون عالة على الناس ولا نكون طامعين جماعين ، ولقد شاع فى أيامنا هذه أن كثيرا من الشيوخ ورجال الصوفية وجهلة الوعاظ يحقرون أمر الدنيا للناس فيبطل سعى كثير من العامة ويكون نفس أولئك الشيوخ عالة على الأمة يلتمسون منها الهدايا تقربا إليهم مما هو شائع معروف وهـذا إثم وضلال ، فالله ماخلق العقل والقدرة والأعضاء والحواس الظاهرة والباطنة ليعطلها ولـكنه فصلها تفصيلا لأعمال تقوم بها فتظهر مواهبها فى الحياة الدنيا والآخرة ، ولقد رأيت فى كتاب الشيخ الشعرانى المسمى [درر الغواص على فتاوى سيدى على الخواص] ما نصه : سألت شيخنا رضى الله عنه عما استند إليه الزاهد فى الدنيا من الأسماء والحضرات الإلهية فانه لابد لـكل شىء فى العالم من استناده إلى حقيقة إلهيـة ونرى الحق تعالى رجح وجود العالم على عدمه فخلق من تخلق هذا الزاهد ؟ فقال رضى الله عنه الزهد فى الدنيا هو هـدى الأولين والآخرين المتبعين للأوامر الالهية لأن الله تعالى قد عشق الخلق فى الوجود وزينه لهم وجعل ذلك حجابا عليه لايصل أحد إلى معرفته تعالى إلا بالاعراض عن زينة الـكونين، فمن زهد فى الدنيا والآخرة ، فقد تخلص لربه عز وجل، ومن زهد فى الدنيا فقد تخلص للآخرة ومن لم يزهد فى الدنيا لم يتخلص بشىء ، وتعس وانتكس ، فالزاهدون قد تخلقوا بأخلاق الله تعالى فى كون الله تعالى منذ خلق الدنيا لم ينظر إليها أعنى نظر محبة ورغبة وإلا فهو تعالى ينظر اليها نظر تدبير وإمداد ولولا ذلك ماكان لها وجود، وكذلك الزاهد لاينظر إلى الدنيا نظر محبة ورغبة وإنما هو نظر تدبير لمعايشه التى لايصح له أن يستغنى عنها، فان من ادعى الاستغناء بالله عن الدنيا فهو جاهل إذ الغنى بالحق حقيقة لايصح، فالاستغناء عن الوجود نعت خاص بالله عز وجل فما بقى مقصود القوم بالزهد فى الدنيا إلا فراغ القلب وعدم التعمل فى تحصيل مازاد على ضرورات العبد لاغـير عكس مرادهم بالرغبة فيها . فقلت له إن بعض الناس يزهد فى الدنيا ويقول إنما أزهد فيها توسعة على إخوانى فى الرزق فما حكمه ؟ فقال رضى الله عنه هو زهد معلول. فقلت له فكيف ؟ فقال لأن فى اعتقاده أن الذى تركه قسمه الحق له ثم أعطاه للخلق وهو باطل . فقلت له فما الخلاص فى مقام الزهد ؟ فقال رضى الله عنه الخلاص أن يكون بما ضمنه الحق تعالى أوثق منه مما فى يديه ثم يتصرف فيما فى يده تصرف حكيم عليم إذ هو نائب الحق من حضرة اسميه المعطى والمانع فيمنع بحق ويعطى بحق « والله غفور رحيم » انتهى ، وبهذا تم الـكلام على (سورة القصص) والحمد لله رب العالمين .

سورة العنكبوت مكية

إلا من أول السورة إلى قوله تعالى «وماهم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون» فمدنية وآياتها ٦٩ . نزلت بعد الروم

(وهي قسمان)

[القسم الأول] في تعليم الصبر والجهاد وطاعة الوالدين والمجاهدة في سبيل الله وفي برهما ومجاهدة الأصحاب وعدم إطاعتهم إذا أرادوا فتنة المؤمن ، ثم قصص الأنبياء من أول السورة إلى قوله « وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

[القسم الثاني] في محاجة الكفار وأهل الكتاب وإثبات النبوة من قوله «مثل الذين اتخذوا من دون الله » إلى آخر السورة .

القِسْمُ الأَوَّلُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الم ● أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ● وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ● أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ● مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ● وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ● وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ● وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ● وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ● وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ● وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ

لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون *
ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان
وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها ءاية للعالمين * وإبراهيم إذ قال
لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون
الله أوثانا وتخلقون إفكا إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا
فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون * وإن تكذبوا فقد
كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين * أولم يروا كيف يبدئ
الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ
الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل شىء قدير * يعذب من يشاء ويرحم
من يشاء وإليه تقلبون * وما أنتم بمعجزين فى الأرض ولا فى السماء وما لكم من
دون الله من ولى ولا نصير * والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من
رحمتى وأولئك لهم عذاب أليم * فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه
فأنجاه الله من النار إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون
الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض
ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين * فآمن له لوط وقال
إنى مهاجر إلى ربى إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا
فى ذريته النبوة والكتاب وءاتيناه أجره فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين *
ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين *
أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان
جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرنى
على القوم المفسدين * ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل
هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين * قال إن فيها لوطا قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه

وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ * وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(الم) تقدم الكلام فيه فى سورة آل عمران، وسيأتى بيان أتم لها فى هذه السورة، فانك سترى قريبا أن «الم» هنا تشير إلى قوله تعالى « أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق » الخ ففيه «الم» وذلك ليحقق العلماء بالحكمة ، ههنا أخذ الله عز وجل يصل هذه السورة بما قبلها ، إن أواخر السورة السابقة كان فى ذكر قارون وأهل العلم والجهلاء، وكيف كانت الزينة القارونية تغر الجاهلين وكان أهل العلم غير مغترين بها ولا جزعين من فواتها ولا فرحين بتوالها لعلمهم أن دوامها مستحيل وأن هناك ماهو أبهج منظرا وأبقى أثرا وهى الحكمة والعلم ونعيم الآخرة فكان ملخص ذلك المجاهدة فى ترك هوى النفس فلا علو على الناس ولا فساد فى الأرض فهذه السورة ابتدأت بتمحيص هذا الموضوع والتدقيق فيه ، فقال الله (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أى أحسبوا تركهم غير مفتونين لقولهم «آمنا» كلا إنهم لايتركون لقولهم آمنا بل يمتحنهم الله بمشاق التكاليف كالمهاجرة والمجاهدة ورفض الشهوات ووظائف الطاعات وأنواع المصائب فى الأنفس والأموال والفقر والقحط ومصابرة الكفار . ولقد فتن الله بعض الناس ببعض لتخلص نفوسهم من أسر المادة وذل الطبيعة لأن التهذيب والتأديب إما بالعلم والمعرفة والعبادة وإما بأنواع المصائب فكلاهما جعله الله فى الأرض لتخليص الناس من أشراك هذه المادة :

(١) فيجاهد المرء شهواته المذكورة فى آخر القصص حينما يرى زينة المترفين والأغنياء كزينة قارون وهذا الجهاد إما بالعلم كما قص الله عن أهل العلم إذ قالوا « ويلكم ثواب الله خير » الخ ، وإما بالعبرة والنوازل كالجهلاء لما رأوا هلاك قارون فعرفوا معرفة سطحية وقالوا « ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر » .

(٢) ويجاهد أبويه ويكون معهما بوجهين فهو بارّ بهما عاص لأمرهما إذا أمراه بالكفر كما سيأتي .

(٣) ويجاهد الأصحاب إذا أغروه أن يكفر وسهلوا له الأمر كأن يقولوا له «نحن نحمل عنك خطاياك»

وملخص ذلك كله جهاد الشهوات ، وجهاد الأصحاب ، وجهاد الأعداء ، وكل ذلك اختبار الناس وتهذيب .

واعلم أن كل مارواه المفسرون في هذا المقام من أنها نزلت في عمار أو في مهجع أو غيرهما لم يرد له ذكر في الصحيح وفوق ذلك رواياتهم مناقضة للحقيقة لأنهم ذكروا أن بعضهم أوذي في مكة والمؤمنون في المدينة وذلك ينافي كون السورة مكية وكثير من أحاديث النزول ليست في الصحيح فتفطن ، ولم يرد في هذه السورة من الصحاح إلا حديث أم هانئ كما سيأتي رواية الترمذي وحديث ابن عباس رواية رزين وبقية الصحاح لاشيء فيها مما يخص هذه السورة ، وسأتبع هذه الطريقة في بقية التفسير إن شاء الله تعالى ، فلأذكر بقية تفسير هذا القسم فأقول :

ههنا يقول الله أيها الناس لا تظنوا أني خلقتكم سدى إنما خلقتكم لأرقيكم لعالم أرقى من عالمكم ولا يتم ذلك إلا بعلم وعمل ، ولما كان العلم والعمل وحدهما لا يقويان على ارتقائكم ساعدتكم بما يتتابع من النوازل والمصائب الطبيعية والأنفس والآفاق لأن هذا يرقي نفوسكم وإن كنتم لاتشعرون ولم أخل العبادات من ذلك ، فلقد أمرتكم بالتخلي عن بعض المال والشهوات وبالجوع في الصيام لأكمل بالعمل التهذيب الذي وضعته بالطبع في أرضكم كما أني كلفتكم بالزرع والكسب لإصلاح معاشكم فأكثر معاشكم بالطبيعة التي نظمتها ولا يكمل إلا بعملكم هكذا المصائب والنوازل وتغير الأحوال التي لا تفترون عنها كل حين مهذبات لنفوسكم فجاء الدين فأكملها تهذيبا وتأديبا بصرف النفس عن المال والولد إلى الزكاة والحج والصلاة والجهاد وغيرها فحياتكم كلها حياة شقاء شئتم أم أبيتم ، فان جاهدتم ارتقيتم وإلا كان العذاب واصبا عليكم في الدنيا وبعد الموت لأن الميت إذا لم يكن له أجنحة من العلم والعمل يطير بها هناك فكيف يعيش في تلك الأجواء النقية الحرة البهية فلذلك لم أخلكم من الجهاد كما لم أخل من قبلكم من الأمم البائدة (ولقد فتنا الذين من قبلهم) فذلك سنة قديمة قويمة شرعناها لكم كما شرعناها للأمم قبلكم فلا ينبغي أن يتوقع الناس خلاف ذلك (فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أي فلينظرن الله الصادقين والكاذبين وليميزنهما أو ليجازينهما فالمراد بالعلم أثره ومن ظن خلاف ذلك من الناس فهو سيء الحكم جاهل (أم حسب الذين يعملون السيئات) كالشرك والمعاصي (أن يسبقونا) أي بل أحسب هؤلاء أن يفوتونا فلا نقدر أن نجازيهم (ساء ما يحكمون) أي بئس حكما يحكمونه حكمهم ، وكيف يحكمون هذا الحكم وأنا لم أخلق الخلق سدى ، أنا ربيتهم في عالم المادة وهذبتهم بأنواع التهذيب والتعذيب والرياضة والعلم عسى أن يلمحوا في هذا العالم نور جلالي وجمالي (من كان يرجو لقاء الله) في الجنة وأن يشاهده ويرى مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فليفرح (فان أجل الله لآت) وكيف لايفرح وكل معصية نزلت أو تكليف جاء به دين فانما جعل ليقرب العبد من ذلك المقام ويبعده عن ظلمة المادة وليس الله بغافل عن المطيع والعاصي (وهو السميع) لأقوال الفريقين (العليم) بما أكنته قلوبهم من كفر وجهل أو إيمان وعلم فيضع كلا في مركزه الخاص به ، فعلى المرء أن يجاهد حتى يبلغ تلك المرتبة العالية (ومن جاهد فانما يجاهد لنفسه) لأنه يريد أن يتخلص من عالم النقص حتى يستعد لمشاهدة العوالم اللطيفة ثم يصل إلى الله ولا يكون ذلك إلا بتلطيف النفوس فليس ذلك الجهاد راجعاً لله بل هو لنفس العبد (إن الله لغني عن العالمين) فهم في حاجة إلى لقائه بتصفية نفوسهم لا هو فالجهاد إذن لهم لا له ، إذ لامعنى لعمل لاتعود فائدته على العامل نفسه ، فكل عبادة أو تكليف يراد بها ارتقاء النفس ، فقول العبد «إياك نعبد» ليس الله في حاجة إليها بل تلك تلطف النفس بعض التلطيف بذلك التوجه فتتخلص شيئا فشيئا من المادة

وهذا

وهذا هو قوله (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيآتهم) كالكفر بالايمان والمعاصي بالطاعات فترتفع نفوسهم عن العالم المظلم (ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعملون) أى أحسن جزاء أعمالهم والحسن فى الجزاء أن تكون الحسنة جزاؤها حسنة ، والأحسن أن تكون الحسنة جزاؤها عشر حسنات أو أكثر . ثم أخذ يشرح بعض الجهاد فى الوالدين إذ قال (ووصينا الانسان بوالديه حسنا) أى وقلنا له أحسن بوالديك حسنا أو قلنا افعل بهما حسنا (وإن جاهداك لتشرك بى ما ليس لك به علم) أى لا علم لك بإلهيته بل هو منفى أى لتشرك بى شيئا لايصح أن يكون إلها (فلا تطعهما) فى ذلك وكيف تطيعهما فى معصية خالقك وخالقهما (إلىّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون) فأجازيكم على الخير والشر . روى أنها نزلت فى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه وأن أمه حلفت لا تنتقل من الضح ولا تطعم ولا تشرب حتى يرتد ولبثت ثلاثة أيام كذلك ثم إن ابنها أوقع فى قلبها اليأس من إسلامه فرجعت فأكلت وأن هذه الحادثة أيضا كما كانت سبب هذه كانت سبب التى فى لقمان والأحقاف وهذه الرواية لم ترد فى الصحيحين ولا بقية الكتب الستة ، ثم قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم فى الصالحين) أى فى جملتهم فليستعدوا لذلك بالجهاد ، فللصلاح درجات وللعلم درجات وكل يوم القيامة يدخل فيمن هو أهل لهم ، وليس الصلاح مجرد دعوى لادليل عليها بالعمل .

إن الصلاح لايكون إلا بالجهاد والصبر على الأذى (ومن الناس من يقول آمنا بالله فاذا أوذى فى الله) كما حصل من تعذيب الكفار المؤمنين (جعل فتنة الناس) أى مايصيبه من أذيتهم فى الدنيا ليصدوه عن الإيمان (كعذاب الله) الذى قدره على الكافرين ليصرفهم عن الكفر ، فهؤلاء يجزعون من عذاب الناس ولا يصبرون عليه فيطيعون الناس فى كفرهم كما يطيع المؤمن ربه لخوفه من عذابه ، وهل فتنة الناس كعذاب الله؟ كلا إن عذاب الله أشد وأبقى فهؤلاء لاثبات لهم ولاصبر ، ولا سعادة لأحد إلا بالصبر وإنما يروغون كما يروغ الثعلب ويتقلبون تقلب الحرباء وذلك التقلب لضعف قلوبهم ، ولذلك إذا جاء نصر أو غنيمة قالوا إنا معكم وهذا قوله تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم) فى الدين فأشركونا فيه ، فهؤلاء هم المنافقون (أو ليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين) من الإخلاص والنفاق ، ثم أكده فقال (وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين) يقال إنها نزلت فيمن أخرجهم المشركون معهم إلى بدر وهم الذين نزل فيهم «الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم» ولذلك يقال إن هذه الآيات العشر من أول السورة إلى هنا مدنية وباقى السورة مكى وقد علمت أن الأحاديث ليست فى الصحاح المعلومة .

هذا ، ولما تم الكلام على جهاد الوالدين وما بعده من المنافقين ذكر جهاد الأصحاب الذين يغرون أصحابهم ليتركوا الدين فقال (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا) الذى نسلكه فى ديننا (ولنحمل خطاياكم) فاتركوا الإسلام واتبعوا ديننا القديم وعلينا أن نحمل خطاياكم وهذا قول صناديد قريش لمن آمن منهم (وماهم بحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون) فى قولهم : نحمل خطاياكم (وليحملن أثقالهم) أثقال ما اقترفوه من الاثم (وأثقالا مع أثقالهم) أى أثقالا أخر معها فان من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزر من اتبعه شىء ، (وليسألن يوم القيامة) سؤال تقريع (عما كانوا يفترون) من الأباطيل التى أضلوا بها ، وههنا ابتدأ سبحانه بذكر قصص الأنبياء ليتعظ المسلم بما يرى من جهاد المجاهدين شرحا لقوله «ولقد فتنا الذين من قبلهم» الخ فابتدأ بما فتن به نوح ومن معه حتى يصبر الناس كما صبروا وكذلك إبراهيم ولوط وشعيب وهود وصالح وموسى ، فهؤلاء كلهم صبروا هم وأتباعهم على ماأوذوا فنجوا وهلك أعداؤهم .

﴿ جوهرة فى قوله تعالى « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين » ﴾

اللهم إنك خلقتنا فى الأرض ونحن فيها أشبه بالغرقى فى بحر لجىّ ، أرواحنا قبسة من نورك فأنزلتها إلى الأرض ولبست كل روح جسمها ووقعت فى حيص بيص ، فهى أبدا تجاهد لتنجو من الخطر اللازم لها وهى هذه الأجسام وشهواتها وأخلاقها وأحوالها . وليس الجهاد قاصرا على أمر دون أمر فالجهاد يشمل كل عمل يرفع هذه النفس عن الدنايا ويقويها فى سفرها وينتشلها من غرقها ويخرجها من بحر هذه الحياة اللجى . والجهاد [نوعان] جهاد داخلى وجهاد خارجى ، فالجهاد الداخلى لقوتى الشهوة والغضب فيعتدل الإنسان فى قوتيه الجسمية والعقلية ، وجهاد خارجى وهو دفاع الأعداء وبعض العبادات ومنها الحج فهو من أهم أنواع الجهاد بل الحج يذكرنا بسعادة نوع الإنسان ويرمز إلى فائدتين منها صحة البدن واجتماع الأمم بسلام . إن الاسلام لو لم يكن فيه سوى الحج لكفى لسعادة الإنسان ، ففيه جهاد النفوس بترك المخيط من الثياب كما تقدم قريبا فى (سورة القصص) عند الكلام على منافع الشمس فى آية «قل أرأيتم» الخ والاجتماع بالاخوان من سائر الأقطار ليشهدوا منافع لهم . واعلم أيدك الله أيها الذكى أن مسألة الحج يقصد بها إلى أمر عظيم وهو نبذ التعالى والتكبر وترك الترف والنعيم اللذين يسببان هلاك الأمم فى هذه الدنيا . ولقد فاتنى فى سورة الحج وفى البقرة وغيرهما من السور التى ذكر فيها الحج أن أبين أكثر مما ذكرته هناك ولكن الله عز وجل يريد أن يمن على أمم الإسلام بالعلم والحكمة ، فأول ماخطر لى خاطر الحج من حيث الصحة العامة بتعرض الجسم لضوء الشمس كان بسبب محادثة شاب معى أخذ يذكر مناسك الحج وأن أوروبا قد أخذت تنبذ القصور والدور وتذهب إلى أعالى الجبال ليعرضوا أجسامهم لحرارة الشمس تبعا لأوامر الصحة ، هنالك حضر لى هذا الخاطر فكتبت بعض ذلك فى (سورة القصص) كما قلت لك آنفا ولكن انظر . إن الإنسان يعيش ويموت وهو لا يزال فى حاجة إلى الاطلاع ليعلم مالم يكن يعلم فإنى فى هذا اليوم صباح ٢٤ يوليو سنة ١٩٢٩ اطلعت على هذا الموضوع فى (الرحلة الحجازية) لصديق محمدلبيب بك البتنونى فرأيته وفى الموضوع حقه فسألخصه هنا تلبية لنداء الوجدان وإتماما للكلام على الجهاد لأن جهاد النفوس الانسانية فى الحياة الدنيا يجب أن يشمل الجهاد الجسمى والجهاد الروحى وجهاد الأجسام بصفائها وخلوصها من الأمراض بترك الاكثار من المآكل وباستخلاص أنفسها فى الحياة والصحة وبترك الاكثار من الملابس التى تضر بالصحة فى كل أمة بحسبها ، والجهاد الروحى بحب الإخوان بل بحب جميع الأمم ولن يكون ذلك إلا بترك الترف والتنعم والحرص ومديد المساعدة العامة فلا مترف فى الأرض مساعد لاخوانه ولا ضعيف جسم يقوم بأود محتاج . إن الحياة جميعها جهاد . ومما كان يهيج بالى ويزيد بلبالى أمر الملابس فانى وجدت الأمم قد اختطت لأنفسها خطة ضيق الملابس والتصاقها بالجسم ولم أجد فى هذا الإنسان إلا مقلدا . الناس جميعا مقلدون وقليل فيهم المفكرون وهذا القليل لاقوة له على إخضاع هذه الجموع ، ولطالما وقفت أمام صورة فى المتحف المصرى يقال إنها صورة (شيخ البلد) فكنت أجد الجسم ليس عليه إلا إزار واحد فعجبت وصرت أقول ياليت شعرى ، أليست هذه مصر ، أليس هذا منها وأنا منها ، فلماذا اكتفى هذا الرئيس ومرءوسوه بالإزار ونحن لبسنا ملابس وماهى إلا حمل ثقيل علينا . هذا الموضوع وغيره حرك وجدانى فبحثت فلم أجد لى سبيلا إلا مناسك الحج وفهم بعض أسرارها فعرفت أن الله فرضه ليقول للناس هاهو ذا وصف رقىّ الإنسان ليقرأ الناس علم الصحة فيعرفوا أن صحتهم لا تتم إلا بالتجرّد فى بعض الأوقات من الثياب وبتعرض أجسامهم للشمس وليكونوا بزّى واحد تقريبا حتى يتحابوا فتكون مدارس الغرب ومدارس الشرق على وتيرة واحدة ، هنالك يتعاونون جميعا وهنالك تقدم لهم الأرض خيراتها وكنوزها . ولم أجد كتابا شرح هذا الموضوع مثل ما جاء فى تلك (الرحلة) وهذا نص ما جاء فيها تحت العنوان التالى وها هو ذا :

لباس الإحرام

كان الناس قديما يصنعون ملابسهم من القطن أو الكتان أو جلود الحيوان بحال بسيطة جدا والمصريون كانوا يستعملون فى أول أمرهم المئزر ثم البرنس وهو قطعة من القماش تلقى على الأكتاف وتربط بحزام وترسل إلى الركبتين فى العامة أو إلى أسفل منهما فى الخاصة حتى إذا ترقت الدولة فى عمرانها أطالوا من ذلك البرنس إلى الكعبين ولبسوا من تحته قميصا لا أكمام له أخذوه عن الأثيوبيين (١) وكانوا فى مبدأ أمرهم يلونون ثيابهم بلون واحد (أخضر أو أزرق أو أحمر) ثم انتهوا باستعمال كثير من الألوان فى ثيابهم مع ماكانوا يوشون به دائر ملابسهم بالأشرطة المنقوشة . أما الأشوريون فقد كانوا يشتملون بقطعة كبيرة من القماش ويمرونها من تحت إبطهم الأيمن ويغطون بها الصدر ثم يرسلونها على الكتف الأيسر حيث يثبت طرفها إما بعقدة أو بمشبك (انظر سطر عشرين من صفحة ١١٥٣ من الجزء الثانى من دائرة المعارف الفرنساوية الكبرى) ثم غيروا هذا الزى بأن لبسوا قميصا صغيرا ومن فوقه شىء يشبه العباءة . والأعجام كانوا يزيدون على ذلك سراويل واسعة . وأهل اليونان كانوا يلبسون رداء طويلا واسعا ويمرونه من تحت إبطهم الأيمن بعد أن يلفوا به وسطهم ثم يرسلونه على ظهرهم بعد أن يغطوا به كتفهم الآخر ثم صاروا يشملون بهذا الرداء الجسم جميعه، ذلك بأنهم كانوا يأتون بهذا الرداء الطويل ويربطون طرفيه ثم يدخلون ذراعهم الأيمن مع الرأس من فتحة ما بينهما بحيث تكون العقدة على الكتف الأيسر ثم يلف الجسم بباقى هذه الشملة ويسمونها (شيون) كما تراه إلى اليوم فى عرب البادية المصريين خصوصا عرب الغرب منهم . ولا شك فى أنهم أخذوا هذا الزى من الرومانيين أو القرطاجيين ولبث فيهم على بداوته الأولى إلى الآن وهذا الشكل يوجد منه صور كثيرة على الآثار الرومانية وقد شاهدت شيئا مماثله تماما على قاعدة المسلة التى فى القسطنطينية فى ميدان السلطان أحمد وعلى بعض النواويس الموجودة فى متحف الأستانة بل وفى النقوش الموجودة فى سقف جامع القهرية (القمرية) وهو أول كنيسة بنيت فى الأستانة وحولت إلى مسجد بعد الفتح . أما أنتكخاتنا المصرية فقد شاهدت فيها أن ملابس المصريين فى قديم الزمان كانت تنحصر فى لبس المئزر وهو فوطة يلف بها النصف الأسفل من الجسم على هيئة ما يكون الرجل فى أيامنا هذه داخل الحمامات العمومية (٢) .

وأخص بالذكر مما رأيته على هذه الصورة تمثال « كفرين » المشهور بشيخ البلد فى القاعة حرف (٨) من الدور الأول نمرة ٧٤ وهو بانى هرم الجيزة الثانى ومن ملوك العائلة الرابعة المصرية التى كانت توجد فى القرن الخمسين قبل المسيح، ثم تمثال (رعنفر) من العائلة الخامسة فى القاعة حرف (٥) ثم تمثالى (أمور ، وأمون) وهما من معبودات المصريين ، ثم صورة للمسيح بالدخلة الصغيرة للطرقة اليمنى تمثله بمئزر بسيط ولا يمكن تحقيق ما على نصفه العلوى لأن يد الزمن قد محت ما عليه ، ويوجد غير ذلك كثير من التماثيل البرنزية والنحاسية التى فى دواليب المتحف لابسة شبه إحرام كامل ، وقد شاهدت من بينها تمثالا من الفخار للعذراء وهى ملتحفة بشملة تغطى جميع جسمها وابنها على يدها .

أما القاعات الرومانية واليونانية التى على يمين صحن المتحف من الدور الأول ففيها مثال الإحرام بأشكاله التامة، فترى فى وسط القاعة حرف (١) امرأة رومانية من الرخام الأبيض الوردى بهيئة إحرام كامل

(١) هم سكان أثيوبيا، وهى مملكة قديمة كانت فى جنوب مصر فى المنطقة التى بها الحبشة وما والاها شرقا إلى الصومال وشمالا وغربا إلى جزء عظيم من السودان المصرى .

(٢) هذا اللباس شائع للآن فى أغلب بلاد السودان وغيرها من البلاد التى لا تزال على فطرتها الأولى ونشاهده على كثير من أعراب البادية فى إحرامهم وفى غير إحرامهم .

أعنى أنها ملتحفة برداء أبيض يغطى كل جسمها ما عدا رأسها ، ويقرب منها مثال رجل من الجرانيت الأسود ملتحف برداء قد انحسر عن ذراعه الأيمن وهو ما يسمونه فى الاحرام بالاضطباع وفى رجله نعال لا تغطى ظاهر القدم اللهم إلا عروة يدخل فيها الإبهام ويخرج منها سيران رفيعان يتصالبان على مادون الكعبين ويربطان فما دون العقب وهو ما يسمونه فى الحجاز بالنعال الشرقية التى أجمعت المذاهب الأربع على صحة الإحرام بها، وهذه النعال تراها أيضا فى قدم منفصلة عن جسمها موضوعة على يسار الداخل فى القاعة حرف (٨) ومتاحف الفنون الجميلة فى جميع أنحاء الدنيا غاصة بصور الناس فى العهد القديم وهم فى لباسهم البسيط الذى يماثل لباس الإحرام بل هو هو بعينه والقوم يمثلونه تماما فى تشخيص الروايات التى تمثل الزمن القديم الرومانى أو اليونانى وخصوصا فى تمثيل صور الأنبياء والحكماء ، ويقال إن اليهود كانوا يستعملون فى معابدهم لبسا غير مخيط . أما الآن فيكتفون بوضع رداء على أكتافهم من الصوف يسمونه (تليت) أو (تسيسوت) ليتشبهوا بموسى عليه السلام فى بساطة لباسه . ومن هذا ترى أن ملابس الناس فى الزمن القديم بل فى جميع أدوار الأمم الخالية حتى فى إبان الحضارة كانت على هذه البساطة ، وليس هذا بغريب فإن آلة الخياطة ما كانت معروفة فى تلك الأزمان .

ولقد كان الناس يستعملون أولا فى خياطة ملابسهم شوك الأسماك وسل النخل ثم توصلوا إلى استعمال الإبر الحديدية ، أما الإبر التى من الصلب فإنها لم تخترع إلا فى القرن الرابع عشر للمسيح ولم يشع استعمالها فى أوروبا إلا فى القرن السادس عشر ، وكان أبسط تلك الملابس شكلا ونوعا ملابس الأشوريين الذين هم إخوان الكلدانيين الذين خرج منهم إبراهيم لأن كليهما من الجنس السامى ، وعليه فلباس الإحرام كان هو هو بذاته ذلك اللباس البسيط الذى كان يلبسه إبراهيم عليه السلام حين أمره الله تعالى بالحج قائلا « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق » وما زالت هذه السنة قائمة فى حج البيت إلى الآن . وأما كونه أبيض فلأن لون البياض شعار الطهارة والنظافة وإلا فالغرض من الإحرام لبس غير المخيط مطلقا إشارة إلى أن الإنسان خرج إلى ربه من زخارف الدنيا وما فيها إلى بساطة الوجود وبداوته ، خرج إلى ربه من أبهة الحياة ورفهها وتمثل بين يديه تعالى بحال رجع فيها إلى طبيعة الوجود البشرى من حيث البساطة التامة التى كان مظهرها ذاك الزى الذى يمثل الاشتراكية الحقة بكل معانيها فيستوى فيه الصعلوك والملوك . هذا الزى الذى يستقبل الإنسان فى مهده ويشيعه إلى لحده حتى كأنه يقول إلى ربه [اللهم إنى قد نزعت عن نفسى ظاهرها وباطنها رداء قد وشته الأباطيل وموهته الأضاليل وخرجت إليك وقد جردت نفسى لك مما أملك طامعا فى نيل مالا أملك من ثم إن عشت أعود بها إلى حياة جديدة كلها فضيلة وخير وبركة أو أقضى بها إن مت فى سبيلك ومحبتك وطاعتك وأنتقل بها إلى دار السعادة الحقيقية فأحشر فى زمرة المقبولين والصديقين زمرة الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين] .

وهلا رأيت ذلك اللباس الاكليروسى البسيط « لباس الرهبان » الذى رسم عليه كل من تمثالى (غليوم الثانى) أمبراطور ألمانيا والأمبراطورة قرينته وأرسل بهما ليوضعا فى الملجأ الألمانى الذى بنى فى بيت المقدس وسافر البرنس (ايتل) لافتتاحه رسميا بالنيابة عن والده الأمبراطور فى شهر إبريل سنة ١٩١٠ .

على أنه لايعزب عن فطنتك وينبو عن فكرتك أن الأطباء وجدوا أخيرا أن الإنسان لابد له من تعريض جسمه إلى الهواء المطلق ومؤثرات الجو نحو شهر من كل سنة يسترجع فيه الجسم قوته ويستعيد نشاطه بفضل ملاصقة أوكسوجين الهواء لجميع مسام جثمانه ، وبهذه العملية يحترق ما فى الدم من الكربون الذى

تتبع

تشبع به أثناء دورته من الفضلات التي تخلفت في الجسم فيعود إلى القلب دما نقيا زكيا صالحا لتغذية الحياة بمادة القوة التي تكون بها العافية التامة والصحة العامة التي هي قوام الوجود بل الحياة بجميع معانيها . لذلك ترى الأوروباويين وعلى الخصوص الانجليز (لاعتنائهم بصحتهم أكثر من غيرهم) يعمدون كل سنة إلى الجبال أو إلى شواطئ البحار فيخلعون ثيابهم إلا مايسترعورتهم ويقيمون على هذه الحال شهرا أو أكثر يستعيدون فيه ما فقدوه من قواهم في سبيل العمل طول سنتهم ، وكثيرا ما رأيت الفرنجة في هذه الأماكن الصحية على شاطئ البحر حفاة عراة معرضين بكل جسمهم للهواء وبرودة الجو أو حرارة الشمس جملة ساعات وليس عليهم إلا تلك العانة المستعارة التي يخطون بها السبيلين ويسمون ذلك بعلاج الطبيعة أو علاج الهواء، ولا غرابة إذا رجعت بنا المدنية الحديثة إلى كثير مما كان عليه القدماء في بداوتهم الذي يسميه الجهلاء خشونة وتوحشا . انتهى ما أردته من تلك الرحلة، والحمد لله رب العالمين .

واعلم أيها الذكي كما قدمت لك أن الحياة كلها جهاد وإنما أطلت الكلام على الحج لأن فيه أصول سعادة الأمم جسما وروحا فهو نموذج الجهاد العام وأي جهاد يفوق توافق الأمم وارتباطها واتحادها وأول من قام بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذي حرك الأمم شرقا وغربا وهي هذه الموجة التي أرسلها فإنها قد سكنت في الشرق ثم تحركت في الغرب ثم رجعت إلى الشرق ثانيا، كل ذلك لم يقصد منه إلا اجتماع جميع الأمم شرقا وغربا ورمز لذلك بالوقوف بعرفة والتجرد من المخيط وغير ذلك من المزايا والأحكام وصرح بذلك فقال « حتى تضع الحرب أوزارها» . هنالك قال العلماء إن ذلك يوم يصبح أهل الأرض قسمين : قسم مسلم وقسم مسالم اهـ.

﴿ خطابي للمسلمين ﴾

أيها الأمم الإسلامية ، حكمة الجهاد عامة تشمل العبادات والأعمال المدنية كلها والصناعات والسياسات ، إن ذلك كله إما فرض عين وإما فرض كفاية ، فالصلاة والصيام ونحوها فروض عين والعلوم ونظام المدن والصناعات فروض كفايات وتحتاج إلى جموع كثيرة حتى تكفي الأمة . فالتجارة والحدادة والكهرباء وصناعات السفن والطيارات ونظم المدن كلها فروض كفايات واجب على الأمة أن تتعاون عليها طوعا أو كرها وليس عمل من هذه الأعمال يكفي فيه الفرد الواحد فالجموع هي التي تتعاون على كل ذلك .

أيها المسلمون ، لقد أودع الله في عقول الأمم وفي أديانها بذور السعادات ، ها هو لم يذر العباد يتخبطون ويغرقون في بحر الحياة اللجي بل أسعفهم بأصول العلم وغرسها في أفئدتهم وفي عاداتهم وفي دياناتهم . لك الحمد يا الله على نعمك العامة، أنت الذي ألهمت القدماء ألا يبنوا بناء ولا يعملوا عملا إلا نقشوه على الأحجار وكتبوه في الطوامير وأبقاه الأولون للآخرين ، أنت يا رب أبقيت آثار الأولين ليتبعها الآخرون، هذه مصر والعراق والشام وبلاد الهند وأمريكا والصين وأوربا يظهر كل يوم فيها كنوز مدفونة وأجسام مطمورة ونقوش مفهومة أبقاها الأولون للآخرين. أنت الذي دفنت الفحم الحجري قديما ثم أبرزته لأهل الأرض الآن ليكون من أكبر أساس السعادة في العالمين ، فالأرض ملأتها بالذخائر والنفائس والنقوش وأودعت فيها وفي الجو كهرباء تصل الناس بعضهم ببعض وهم يتعجبون ، ولما كانت الديانات في الأرض من وحيك ونزلت بأمرك وقبل الناس دعوة الرسل بإلهامك كنزت فيها علوما وخزنت فيها حكما كما كنزتها في الأرض والهواء والماء والسماء .

ألهمت الأنعام والحشرات وكل حيوان إلهامات كلها نافعات لها وأنزلت للانسان ديانات وجعلتها هدى للعالمين في كل زمان بحسبه ، وهذا ديننا كنزت فيه علوما وعلوما وهذه العلوم لايثيرها إلا البحث والتنقيب. والتوحيد والصلاة والصيام والزكاة والحج التي هي أركان الإسلام قد كنزت فيها سعادات الأمم ، هذه الصلاة التي هي بعض الجهاد المذكور في هذه الآية قد جعلتها مذكرة بجميع الحكمة والفلسفة؛ وما الحكمة ولا الفلسفة إلا ما أجنته السماء، وأقلته الأرض ونظام هذا العالم . المؤمن صباحا ومساء يقول « ربنا لك الحمد ملء السموات

وملء الأرض وملء ماينهما الخ » كما قدمناه مرارا ، وهل جميع الطبيعيات والرياضيات إلا مافى السموات والأرض . الله أكبر . لقد أنعم الله علىّ بنعمة هذا التفسير وما هو إلا سر الصلاة التى هى ركن من أركان الجهاد المذكور فى هذه السورة وسيأتى فيها « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » فهنا يقول تعالى « ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه » وفى أواخر السورة يبين أهم أركان الجهاد وهو الصلاة الخ .

﴿ رؤى المؤلف الكثيرة بالفتوح ﴾

أعلم أيها الذكى أننى من إبان شبابى كنت أرى رؤى كثيرة جدا كلها تدل على ما أعمله الآن وبشرت بأن هناك عملا نافعا لابد منه ، ولما بلغت سنى نحو (٥٩) سنة رأيت وقت الصباح كأنى أقول أنا يارب قائم بأعمالى ولاتقصير عندى فأين إذن مابشرت به ؟ فسمعت قائلا يقول كذبت إنك لاتحضر قلبك فى الصلاة فلما استيقظت أخذت أحضر قلبى فى الصلاة بقدر الامكان فانفتح الباب لهذا التفسير . ومن عجب أن كثيرا من المسائل تحضر لى بعد الصلاة أو فى أثنائها ، وبسبب هذا الاستحضار عرفت أن الصلاة ملخص العلوم أو مفتاح لأصولها وهكذا سميت الفاتحة فعلمت إذن أن المسلمين بتأملهم فى الصلاة يصبحون أمة غير هذه الأمة . الصلاة عبادة ولكن إذا كنا نرى الناس يشربون الماء ويأكلون الفاكهة ومع ذلك يحللونهما ويدرسونهما حتى يتم الانتفاع بهما ، فإذا كان الماء والهواء والتراب لايتم الانتفاع بها إلا بتحليلها فكيف بالصلاة والصيام والزكاة والحج ، أفليس انتفاع الجهال بها فى العبادة كانتفاعهم بشرب الماء ، أو ليس الانتفاع بكشف أسرارها وما ترمى إليه كانتفاع الأمم الآن بتحليل الماء والهواء الخ . أليس هذا سر قوله تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » فالدرجات لأولى العلم ، أما الجهلاء فلاحظ لهم من العبادة إلا كحظ الشارب من الماء . هذا ما أقوله فى الصلاة وسيتم الكلام عليها فى آية « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » الخ .

ولأذكر الحج بعد الصلاة لأنه هو الذى أفضنا فيه الكلام قريبا وقد ظهر أن الله كنز فيه آثار الأمم وأصبحت الأمم العريقة فى المجد ترجع إلى حال البساطة وسهولة الحياة فيسعدون سعادة لم يحلم بها أولئك المترفون الغافلون ، إذن الحج الذى هو من أركان الاسلام قد حمل فى طياته بذور السعادة والمدنية المستقبلة التى يرجع فيها الانسان إلى الاجتماع العام والصحة التامة .

فانظروا أيها المسلمون ، صلاة تحث على الفلسفة وحج يحث على الصحة العامة ونظام الاجتماع العام . وههنا جاء دور الزكاة (الزكاة ذكر فيها الامام الغزالى أنها مساعدة للفقراء ومذهبة لشح النفس فان الانسان إذا ملك حب المال قلبه أقلقه وأحزنه بعده عنه بموته هو أو بأخذه منه ظلما أو بالقضاء والقدر) ويقول (إن المقصود من ذلك راحة النفوس) ونقول نحن : فكما أن الصلاة مذكرة بالعلوم والحج بالاجتماع العام وصحة الأبدان هكذا الزكاة يراد بها أن يكون الناس جميعا إخوة كما نقلته عن الامام الغزالى فى أواخر (سورة البقرة) فانه يقول (إن مال الانسان للأمة كلها عند الخواص ، أما الزكاة فانما تؤخذ من البخلاء) فتبين إذن أن إنفاق المال بالزكاة متمم لنظام الاجتماع الذى فهمناه من الحج ، فالحج يعطينا درس الاجتماع العام والصحة والزكاة تكمل ذلك بالمساعدة . وههنا جاء دور الكلام على الصيام .

الكلام على الصيام معروف فى الكتب ولكن نحن الآن فى تفسير القرآن وتفسير القرآن إنما يكتب لأجل الأمم كلها لأن القرآن كتاب الله والناس عباده والصوم درس من أهم ما ظهر منه اليوم فى الأمم علم الصحة ، نعم هو قربى إلى الله ولكن فيه فوائد أخرى ، إن علم الصحة اليوم قد تطور وأخذ الناس يهجرون المداواة بالعقاقير ويكتفون بالرياضة البدنية والجوع ، يصوم المسلم ويصلى المسلم ويحج المسلم ولكنى أقول إن من أكبر العار أن لا تظهر أسرار هذا الدين إلا على يد الأمم لا على يد المسلمين . يحج الناس ويكتفون من الحج بظواهره ويقف العلماء فى الأمم الاسلامية عن دراسة الحقائق الاجتماعية .

الله أكبر . بعد هذا التفسير سيقوم في الاسلام فطاحل العلماء ويدرسون كل شيء في الوجود وبعد ذلك يدرسون أركان الاسلام ومتى درسوا عرفوا أنها يراد بها اجتماع جميع الأمم شرقا وغربا على الصحة والتعاون العام . هذا الصيام درسته الأمم في زماننا وعرفوا بعض سره ففتح لهم بابا واسعا من علوم الصحة والمداواة

الله أكبر . وها أنا ذا أسمعك مقالين (أحدهما) مقال عن حال زعيم الهندوس الأكبر مهاتما غاندى (والثانى) ما جاء فى مجلة « كل شىء » تحت عنوان (المعالجة بالصوم) فهاك ما قاله معرب كتابه المسمى (كتاب الصحة) ومعربه الأستاذ الشيخ عبد الرزاق المليح آبادى ، وهذا نص ما قاله فى مقدمة التعريب :

إن من سوء حظ الشرق أنه لم يفقد استقلاله السياسى فحسب بل قد فقد استقلاله الفكرى أيضا ولذلك تراه يقلد الغرب فى كل شىء حتى إنه أصبح لا يتفكر فى نفسه ولا يقيم للأشياء وزنا ولا يميز بين الحق والباطل بل لا يزال نظره إلى الغرب فان رآه يقول لشىء إنه حق قال هذا أيضا إنه حق وبالعكس.

أنا لا أكره الغرب ولا أنكر فضله فى العلم والمدنية ولا أحرم الاقتباس والاستفادة منه ولكن الذى أقبحه وأشمئز منه هو الاستعباد الفكرى للغرب لأن هذا الاستعباد إذا تمكن من نفوسنا لن نسترد حريتنا السياسية المغصوبة ولن نجدد أسس قوميتنا المنهدمة . أقول هذا لأنى أخشى أن ينبذ فريق من القراء هذا الكتاب قبل أن يطلع عليه ، لا لأنه يستحق النبذ بل لأنه جاء من مصدر شرقى بحت فيحسبه سخافة شرقية ، فلذلك أرجو من هو على هذه الشاكلة أن يتمهل فى الحكم عليه ليقرأه بامعان فإن لم يعجبه فليرمه إن شاء ، وإنى تطمينا لهؤلاء أقول إن هذه الآراء ليست خاصة بغاندى وحده بل هناك فى أوروبا وأمريكا أيضا ثورة كبيرة على الطب وأساليبه وأدويته، بل إن تقدم العلوم أخذ يهدم أركان هذا الطب الذى نسميه (الحديث) ويسمونه هنالك (القديم) .

إلى أن قال « إن هذا الزعيم كذلك يدعو الناس إلى المعيشة الفطرية الساذجة ونبذ البذخ والترف وإلى التخلق بالأخلاق الفاضلة والمحبة الشاملة العامة والتمسك بجميع مافى الأديان من الخير والتقوى وخشية الله والرأفة بالبشر . ليت شعرى كيف يكون عجب المفترين بالمدنية الغربية إذا رأوا هذا الزعيم الهندى بأعينهم . إنهم ليرونه عاريا حافيا حاسرا قد تجرد من الملابس قائلا لا يصح لى أن أتجمل بالملابس والملايين الكثيرة من بنى جلدتى لا يجدون مايسترون به عوراتهم ، ويقوون به أجسادهم من الحر والبرد ، فتراه الآن متجردا ليس على جسده لباس اللهم إلا إزار صغير يستر به عورته . وكذلك شأنه فى مأكله ، لا يأكل المشتهيات والملذات والأطعمة الشائقة ، ليس ذلك لأنه يرى رأى المتقشفين النقل الذين يحرمون أنفسهم من الطيبات ويحسبون ذلك قربة إلى الله ، بل يرى ذلك مضرا بالصحة البدنية والعقلية فلذلك تراه لا يأكل الملح ولا اللحم ولا العدس ولا الحبوب ما عدا خبز القمح نادرا وقد حصر غذاءه فى الفواكه وهو يكثر من أكل البرتقال والموز ويفضلهما على غيرهما من الفواكه .

إلى أن قال [وأكبر دليل على قوته أنه صام أربعين يوما متتابعة لم يذق فيها اى شىء ومع ذلك لاأغمى عليه ولا أحس بضعف بل مازال يكتب لجرائده المقالات ويغزل كل يوم من القطن القدار الذى قرره لنفسه] ومن أعجب ما رأينا أنه بينما كان ثقله قد قل كثيرا فى الأسبوع الأول من الصوم حتى خافوا على نفسه أخذ يزداد وزنا بعد ذلك وقد تحير الأطباء فى تعليل ذلك . ثم إنه فوق ذلك قد ملك زمام نفسه فيعيش كما قرر لنفسه أن يعيش فلا ينام إلا القدر الذى قرر أن ينام ويقوم بجميع أعماله بنظام تام بدون أن يطرأ عليه أى خلل ، ثم إنه لا يغضب أبدا ولا يستعجل ولا يفزع بل يبقى دائما هادئا مطمئنا كأنه مالك نفسه سخرها فأصبحت له أطوع من بنانه . ومن عجيب أمره أنه يعيش مع زوجته ولكنه يحبها كأخته أو أمه كما صرح بذلك فى إحدى خطبه فقال [أنا وزوجتى قد اتفقنا على أن نعيش كالأخ والأخت أو كالابن والأب

أو البنت والأم فأنا لها كأب وهى لى كأم] وكلامه هذا لا يرتاب فيه لأن عيشته مفتوحة وليست بسر وهو لا يكذب أبدا مهما اضطرته الأحوال اه . هذا ما أردت نقله من ذلك الكتاب المذكور والحمد لله رب العالمين .

وأقول : إن هذا الزعيم الهندى قد جمع بين فضيلة الصيام وفضيلة الحج فاستفاد بهما صحة وقوة . هاهو ذا تجرد من أكثر الثياب . وهاهو ذا قلل الطعام فنال الصحة والعافية . ولست أقول إن هذا عبادة ولا أنه يثاب عليها . كلا ، لأن الصيام لا يصح إلا من مسلم وكذا الحج ، وأيضا الحج إنما يكون بمكة لا بالهند ولكن ليس المقام فى خصوص التدين بل المقام فى أن منافع الصوم ومنافع بعض مناسك الحج فى حد ذاتها مقوية لصحة الإنسان كما قررناه . فهذه فى الحقيقة دراسة للحج وللصيام من بعض الوجوه . وعلى المسلمين بعدنا أن يتولوا هذه الدراسة ليتموا ما نقص فى أمم الإسلام . انتهى الكلام على المقال الأول .

﴿ المقال الثانى ﴾ ما جاء فى مجلة « كل شئ » بتاريخ ١٨ يوليو سنة ١٩٣٧ تحت العنوان الآتى :

الصوم للمعالجة

كان الناس ولا يزالون للآن يصومون للأغراض الدينية وقد يكون صومهم كليا أو جزئيا ، ففى الهند يعمد الصالحون إلى الكف عن الطعام كلية جملة أيام ، ولا يزال بعض الأقباط فى مصر يصومون عن الطعام والشراب كلية ثلاثة أيام فى ذكرى يونس الذى بلعه الحوت ، أما الصوم الجزئى ففى الامتناع عن اللحم كما يفعل بعض المسيحيين إلى الآن .

وجميع الذين يصابون بكثرة الزلال فى الدم أو بتصلب الشرايين ينصح لهم الأطباء بالامتناع عن اللحم وخاصة ذلك اللحم الأحمر بالامتناع أيضا عن تناول زلال البيض ونحو ذلك بل من الأطباء ، من ينصح لكل من جاوز سن الأربعين أو الخمسين أن يمتنع كلية عن اللحم والاقتصار على الأغذية النباتية ، وقد فشت عادة الصوم فى هذه الأيام حتى إن طبيبا فرنسيا يشير على كل إنسان جاوز الأربعين أن يصوم صياما كاملا يوما فى الأسبوع ، ويشير أيضا بأن يتعاطى مسهلا فى الصباح حتى تبقى أمعاؤه فارغة لا يشغلها شاغل يوما كل أسبوع، ومن الأطباء من ينصح بالامتناع عن العشاء للمسنين .

ولكن فائدة الصوم ليست للأمعاء وحدها بل هى أيضا للجسم كله وذلك لأن الجسم إذا لم يحمل الدم إلى خلاياه طعاما جديدا انكفأ على نفسه تأكل منه الخلايا القوية الخلايا الضعيفة وفى الوقت نفسه يزول الشحم من الجسم فتطهر المسالك وتحمل معها فضلات كانت تعوق الدورة الدموية فإذا انتهى الصيام بعد ثلاثين أو أربعين يوما لم يبق بالجسم سوى خلايا قوية . وللجسم عقل يهتدى به أيام الصيام فهو يتخلى عما لا فائدة فيه إلى ما فائدته صغيرة ، أما الأنسجة التى لا يمكن الجسم العمل بدونها فلا تتلف من الصيام . فإذا شرعنا فى الصوم فإننا نفقد أولا الشحم ثم اللحم ، أما الأعصاب ومادة الدماغ فلا تنقص درهما واحدا بعد صيام ثلاثين أو أربعين يوما وذلك لأن مادة الأعصاب ثمينة وعليها ميزان الجسم كله وعقله وهى إذا فقدت شيئا لم تستعضه أما اللحم والشحم فيمكن استعادتهما بعد فقدهما . والصيام الذى يمارسه الناس للمعالجة الآن هو عن الطعام فقط . أما الماء فإن الصائم يشرب كما يحب ويشتهى لأنه فى حاجة إليه حتى يغسل خلايا جسمه وأنسجته ويحمل معه الفضلات ويطهرها منها ، وبعض الصائمين الآن يضع قطرات من عصارة الليمون أو الفاكهة أو الخضراوات

الطازجة على الماء حتى لا يحرم الجسم من الفيتامين لأن جسم الإنسان قد يستطيع أن يعيش بلا طعام نحو خمسين أو ستين يوما ولكنه لا يمكنه أن يبقى هذه المدة بلا فيتهين .

ويمكن كل إنسان أن يمارس الصيام ولكن يجب الحذر من الإفطار لأن الصائم إذا بقى نحو عشرين يوما بلا طعام رقت جدران معدته وأمعائه واعتاد جسمه حالة الصوم فإذا فاجأ قناته الهضمية بطعام جامد فقد يؤذى نفسه بذلك أذى كبيرا إذ قد يغمى عليه من هذه الصدمة وقد ينخرق جدار الأمعاء أو المعدة ، فالإفطار يجب أن يكون رويدا رويدا حيث يتمصص الصائم جرعة بعد جرعة .

ونحن نذكر فيما يلى تجارب المستر (ارفنج) وهو رجل إنجليزى صام خمسين يوما بغية التخلص من ضعف المعدة وضعف الأعصاب الناشئ عن تراكم الفضلات فى الجسم ، فقد قال إنه ابتدأ أول يوم من الصيام بأن شرب ستة أكواب من عصارة البرتقال ، وفى اليوم الثانى شرب أقل من ذلك من هذه العصارة أيضا ، وفى اليوم الثالث لم يشرب سوى الماء القراح وبقى على ذلك عدة أسابيع وكان أحيانا يمزج الماء بقطرات من عصارة الليمون . وبعد الأسبوع الأول من الصيام زالت الشهوة للأكل فكان يتريض بالمشى ميلين أو ثلاثة فى اليوم على مهل وفى غير مشقة وكان لسانه قد اكتسى بفرو أبيض يكاد ينفصل عنه إذا مسح .

ويقول الراسخون فى فن الصوم [إن الصحة لا تعود إلى الجسد حتى يزول الفرو الكاسى للسان] ولكن الواقع أنه لا يزول تماما وإنما عند اقتراب نهاية الصوم يتحسن اللسان ويرق هذا الكساء من الفرو ، وكان المستر (ارفنج) قد هبط وزنه واستمر الهبوط إلى الأسبوع الرابع حين وقف الجسم فلم يفقد فى الأسبوعين سوى رطل أو رطلين فقط . وفى اليوم الثامن والأربعين جلس فى الشمس فنام نوما طويلا استيقظ منه وهو فى غاية الضعف وقضى اليوم التاسع والأربعين وهو فى الفراش ، وفى اليوم الخمسين عاد إليه نشاطه فنهض وزال عن لسانه بعض فروه فقنع بهذه المدة وخاصة عند ما رأى أن الآلام التى كان يشكو منها قد زالت كلها .

أما كيفية رجوعه فإنه شرب فى اليوم الخمسين نصف كوب من اللبن تمصصه كما يمص الإنسان الليمونة . وفى اليوم التالى صار يشرب كوبا من اللبن كل ساعتين فيمتصها أيضا ، وبعد ذلك يتناول كوبا من اللبن كل نصف ساعة واستمر على ذلك أربعة أسابيع تناول فى نهايتها (مجة) وكان قد فقد فى صيامه ٤٦ رطلا استعادها وزاد عليها ، ومن غريب ما رأى أنه كان يلبس نظارات لقصر نظره فلما صام عاد إليه نظره كله سليما اهـ .

(ضرب مثل لحال العابدين الذين يفكرون فى العبادة بحال قراء القرآن بلا تعقل)

اعلم أن مثل العباد الذين يعبدون ولا يفكرون فى عبادتهم ولا يعرفون مقصودها كمثل من يقرأ القرآن بلا فهم ولا عقل فكلاهما له ثواب على مقدار نيته ولكنهما فى مرتبة ضعيفة ، هذا فى القراءة وهذا فى العبادة فإذا فكر العابد وأدرك معانى الكلمات التى يقرؤها فى الصلاة التى يقيمها ومقاصد الزكاة التى يؤتيها ومناسك الحج التى يؤديها وعبادة الصوم التى يتقرب بها كان هؤلاء كلهم أشبه بمن يفهم معانى القرآن ويعمل به ، فإذا ارتقى العابد عن هذه الدرجة أدرك السر المصون والجوهر المكنون كالذى ذكرناه هنا فى أمر أركان الإسلام وأنها بذور لسعادة إنسانية عامة فى الطب وفى الاجتماع والتعاون العام ، كان ذلك خليفة الله فى أرضه وكان أشبه بمن ارتقى عقله فى القرآن وأدرك أن علوم الحكمة كلها وأسرارها موافقة للقرآن وأن هذه العلوم كلها لا تخالف بينها وبين القرآن الذى أنزله الله بالوحى وأنه كلما كان الإنسان أضعف منزلة وأقل فهما وأسخف رأيا تباعدت مسافة الخلف بين دينه وبين العلوم عند عقله ، وكلما ارتقت نفسه منزلة وازداد عقله كمالا تقارب العلم والدين عنده على مقدار ارتقاء علومه وعقله « والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

الجهاد على (ثلاثة أقسام) جهاد بالغريزة . وجهاد بالعقل . وجهاد بالوحى . والأخيران أفضل من الأول . إن الجهاد بالغريزة لايعوزه عقل ولا فكر ولا روية فهو أضعف رتبة وأقل قيمة ، فأما الجهاد بالعقل وبالوحى فهما أرقى منزلة وأكمل شرفا وأعظم قدرا .

ألا ترى رعاك الله أن هذا الإنسان فطر على ألا يعجب إلا بممنوع وألا يفرح إلا بما تباعدت أقطاره وصعب نواله وعز مطلبه وتمنع وتولى بركنه كما ترى أن الماس والياقوت والزبرجد وأمثالها من الأحجار الثمينة يحرص عليها الناس كل الحرص لغلاء ثمنها وصعوبة مطلبها ووعورة طرقها وهم يشاهدون أمامهم فى منازلهم وحقولهم وسمائهم زهرا جميلا وكوكبا مشرقا متلألئا أجمل من الياقوت والماس والزبرجد وأبهج وأعلى ، ولكن الزهر والكواكب مبذولات والماس والياقوت ممنوعان ، لذلك رغب الناس فى الممنوع وزهدوا فى المبذول ولذلك نجد الكواكب فى السماء لايفرح بها الجهلاء وإنما يفرح بها المفكرون من العقلاء ، ويحقرون الأحجار الثمينة وأنواع الزينة فى هذه الأرض إذا وازنوها بما عرفوا من جمال الكواكب وسيرها فى مداراتها ودقة حسابها وبهجة نظامها ، فالجاهل وقف عقله عند الزبرجد والياقوت والعالم ارتقى فحقرهما ولكنه سعى سعيا حثيثا وجدّ حتى ارتقى إلى الأفلاك . كلاهما لاسعادة له إلا بالجهاد . فالجاهل جاهد بالمال حتى نال الماس والزبرجد والياقوت . وهنالك وقف عقله وحطّ رحله وأنشد :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قرّ عينا بالإياب المسافر

والعالم جاهد جهاد الأبطال فى ارتقاء عقله وبذل ثمن ذلك النوال بالسهر والنصب والتعب والجدّ ، وأنشد :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها ... وتصغر فى عين العظيم العظائم

وقال آخر : ومن تكن العلياء أكبر همه ... فكل الذى يلقاه فيها محبب
وقال غيره : فالمنايا ولا الدنايا وخير ... من ركوب الخنا ركوب المنايا
وقال غيره : لا تحسب المجد تمرا أنت آكله ... لا تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إذا عرفت هذا فهاك نبذة فى الجهاد بالغريزة ، ثم أتبعها بنبذة فى الجهاد بالعقل ، ثم أذكر تأييد الوحى للعقل فى الجهاد وذلك فى (ثلاثة فصول) :

﴿ الفصل الأول : فى الجهاد بالغريزة ﴾

إن من قرأ هذا الكتاب أو جملة صالحة منه عرف كثيرا من غرائز الحيوان فانه يراه مفرقا فى سور كثيرة فانظر رعاك الله فى (سورة النحل) واعجب من نظامه ونظام الأرضة فانك تراها مرسومة هناك فى جانب رسم مملكة النحل وجنودها المحيطين بها . فهاتان دولتان عظيمتان دولة الأرضة ودولة النحل ومثلهما دولة النمل . الله أكبر . جل الله . إنك يا ألله رحيم لطيف حكيم عليم ألهمت الأرضة فجعلت لها دولة لا تضارعها فى أرضنا دولة من دول الانسان ولا الحشرات ولا الطيور وعدد كل دولة من دول الأرضة لايعرف منتهاه فهى أعظم من مملكة النمل والنحل . وإذا كان الناس الآن وجدوا أن أعظم دولة للنمل عرفوها قد بلغت (٥٠٠) خمسمائة مليون نملة ولا نظير لها فى الممالك الأرضية إلا الدولة الصناعية المتكاتفة التى هى انكلترا بل هى لم تصل لهذا العدد مع ملحقاتها التى ليست ملتئمة بها التئام رعايا النمل . أقول عرف الناس ذلك كما تقدم فانهم لم يقدروا أن يحصوا مملكة واحدة من ممالك الأرضة كما تقدم شرحه فى سورة النحل وسيأتى تمام الكلام على ذلك فى (سورة سبأ) عند آية « ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته » .

ها أنا ذا أيها الذكى ذكرت لك ممالك ثلاثا أنت عرفتها فى هذا التفسير مشروحة فاقرأها فى سورة النحل وفى سورة النمل وفى سورة سبأ وأقتصر لك عليها فى بيان الجهاد بالغريزة . فهذه وغيرها من الطيور والحشرات

وحيوانات البر والبحر نرى جهادها جهادا اجتماعيا لا فرعيا ، فأيقنا بهذا أن الجهاد كلما كان من جمع كان أقوى وأعظم وكلما كان فرديا كان أضعف وأقل فائدة . والعبرة فى هذا أن الناس كلما كانوا أكثر عددا فى العمل والجهاد كانت الثمرة أضعافا مضاعفة على مقدار كثرة العدد على شرط أن تكون الجماعة مهما كثرت على رأى واحد ومشرب واحد وفكرة واحدة ونظام قوى متين . فاذا كان الجهاد بالغريزة الذى أثبتنا أنه أقل مرتبة من الجهاد بالعقل وبالوحى لم يكمل إلا بالاجتماع فليكن ذلك الاجتماع فيما هو أكمل منه أكثر وجوبا وأولى بالعناية . انتهى الكلام على الجهاد بالغريزة .

﴿ الفصل الثانى : فى الجهاد بالعقل ﴾

أيها الذكى ، إن العلم سعادة وهناء ، وأى سعادة وأى هناء من أن نجد فى هذا المقام أن غرائز الحيوان فى اجتماعها قد اتصلت بآراء الحكماء والفلاسفة .

أيها الذكى ، إننا بالبحث فى العلم كلما أوغلنا ازددنا بهجة وسعادة ، وأى بهجة وأى سعادة أعلى وأدوم من اتفاق الغرائز فى الحيوان مع عقول الحكماء فى الشرق والغرب . وبعبارة أخرى : إن عقول الناس كلها إنما تسعى لترجع العلم كله والحياة كلها إلى مبدإ واحد وقاعدة واحدة ، فكلما وصلوا لهذا التوحيد فى عمل ما أحسوا بالهناء والسعادة ، وكلما تباعدت القواعد واختلفت الأصول كانت العقول أقرب إلى الشقاء وأبعد من السعادة لما تجد من التناقض والاختلاف فى هذا الوجود .

هذه الحشرات وهذه الطيور وهذه الأنعام نرى أكثرها كونت لها ممالك منتظمة أيما نظام متقنة أيما إتقان ، فهل تحب أن أنبئك نبأ عقول الحكماء والعلماء ، انظر كيف ضربوا الأمثال للاجتماع ، إنما ضربوا الأمثال بنفس الحيوانات واجتماعها وائتلافها واتحادها فى طلب النافع والفرار من الضار ، وإنما ضربوا هذه الأمثال بالحيوانات لأنهم أيقنوا بعقولهم أنها لوحهم المقروء وكتابهم المفتوح ومدرستهم العامة ، فالأمم قديما قبل نزول الانجيل والفرقان كانوا يضربون الأمثال بالحيوان للاجتماع وإن كان ذلك ضربا من الصور على طريق الخيال لأنه أقرب إلى الأفهام وأدعى إلى الاقبال . يقصدون بذلك أن الجهاد يكون أتم كلما كان عدد المجاهدين أوفر ونظامهم أتم . فانظر إلى أمثال (كليلة ودمنة) الذى ألفه بيدبا الفيلسوف وترجمه عبد الله ابن المقفع إلى العربية بعد أن ترجمه (برزويه) الطبيب الفارسى الذى كان أبوه من المقاتلة وأمه من عظماء بيوت الزمازمة من الهندية إلى الفارسية فإن من الأمثال هناك ما جاء فى باب الأسد والثور من تمثيل (بيدبا) الفيلسوف رأس البراهمة للمتحابين يقطع بينهما الكذوب المحتال حتى يحملهما على العداوة والبغضاء ثم لا يلبثان أن يتقاطعا ويتدابرا بالأسد والثور اللذين تحابا وحصلت بينهما المودة والمحبة . ثم جاء (دمنة) وأخذ يشى بينهما ويقول للثور يا ثور إن الأسد يريد أ كلك وقال للأسد إن الثور يريد مقاتلتك وعلامة ذلك أنك إذا توجهت إليه وجدت حركات غريبة فلما رأى الأسد الثور خاف الثور واضطرب فظن أنه يريد مقاتلته ففتك بالثور الأسد ثم ظهرت الحقيقة بعد ذلك وحكم على (دمنة) جزاء كذبه .

ومن تلك الأمثال مثل الحمامة المطوقة ، فقد ضربها ذلك الفيلسوف ليعلم الناس أنهم يقدرون على الاتحاد سواء أ كانوا من وطن واحد وأمة واحدة أم من أوطان مختلفة وأمم كثيرة . ذلك أن دبشليم الملك قال لبيدبا الفيلسوف قد سمعت مثل المتحابين يقطع بينهما الكذوب وإلى ماذا صار عاقبة أمره من بعد ذلك فحدثنى إن رأيت عن إخوان الصفاء كيف يبتدأ تواصلهم ويستمتع بعضهم ببعض فذكر الحمامة المطوقة وهى سيدة الحمام إذ وقعت هى وهن فى الشبكة فخطبتهن خطبة قالت [لا تخاذلن فى المعالجة ولا تكن نفس إحدا كن أحب إليها من نفس صاحبتها ولكن نتعاون جميعا فنرفع الشبكة] فلما علت الحمامات فى الجو استعانت المطوقة بجرذ كان صاحبها قديما يسمى (زيرك) فنزلت معهن بالشبكة عنده فقرض الشبكة حتى فرغ منها فنجت المطوقة

وأخواتها . فلما رأى الغراب صنع الجرذ مع الحمام أحب مصاحبته وانضم إليهما السلحفاة والظبى . فكما تعاون الحمام الذى هو من نوع واحد تعاون الغراب والظبى والجرذ على نجاة السلحفاة حين جاءها الصياد ليقتنصها. هذه أساليب تلك الأمثال التى ضربها حكيم الهند لجهاد الانسان المؤيد بالجماعة انتهاجا لخطة الحيوان بغريزته ، وبهذا انتهى الكلام على الفصل الثانى .

﴿ الفصل الثالث : فى الجهاد بالوحى الذى هو أعلى من سابقيه ﴾

قد ذكرنا آنفا أن الهدى بثلاث طرق : طريق الغريزة ، وطريق العقل ، وطريق الوحى ، وكل مرتبة أرقى مما قبلها وأقل مما بعدها ، وربما يظن قوم أن غريزة الحيوان كوحى الأنبياء وربما يستدلون بقوله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل » وهذا خطأ فإن الغريزة فطرية ساذجة وإن كانت صادقة والوحى أمر علوى يحكم العقل ويصقله ويرقيه . فالوحى جاء لتنظيم العقول والغريزة لنظام العمل فى الحيوان والعقول الانسانية أرقى من الأعمال الحيوانية ومنظم الأعلى أرقى من منظم الأدنى .

ها أنت ذا رأيت غرائز الحيوان فعى بها مجاهدات وعقول الحكماء وتعليمهم للناس فقدجاء على مقتضى غريزة الحيوان ، فهل لك أن أسمعك ما جاء بالوحى فاقرأ ما ستسمعه وأعجب من هذا الوجود ، حيوان ذو اجتماع بغريزته وإنسان يتعلم الاجتماع بتعليم حكمائه ثم أنبياء تراهم ينظمون اجتماع الانسان على نسق غرائز الحيوان وحكمة الحكماء فى الإنسان بحيث يصقل تلك العقول ويهيئها .

فاسمع ما أقصه عليك من جهاد رسول الله ﷺ عسى أن تنهج نهجه . فانظر كيف كاتب الأمراء والملوك وحملهم على التآلف والتآزر والمودة والإخلاص حتى اتحدوا والتأموا وصاروا أمة واحدة يشار إليها بالبنان . فها هو ذا جهاد الغريزة وجهاد العقل اللذان بدأهما الله فى الحيوان والإنسان أكملهما بما هو أعلى فأرسل نبينا ﷺ يذكر العقول بما اختبأ فيها من الكمال الفطرى « إنما أنت مذكر ـ إنا نحن نزلنا الذكر » فما الوحى إلا تذكير للناس بما سترته عاداتهم وتقاليدهم عن فطرهم الشريفة الإلهية المستمدة من سماء الكمال وكمال الجمال .

خير مناهج الجهاد

اعلم أن للجهاد مناهج وطرقا مذللة عبدها (بتشديد الباء) أناس مضوا قبلنا ، وخير المجاهدين من درس سير العظماء والعلماء والحكماء ، فلتقرأ أيها الذكى سير أولى العلم والحكمة . واعلم أن الله ما خلقنا فى الأرض إلا لننمى كل قوانا التى خلقها فينا وفصلها تفصيلا . أما والله ليسألن كل امرىء عن هذه الأعضاء المفصلة وهذه الحواس المكملة وهذه العقول المحكمة وعما أعطيت من نعم وما أتيح لها من قوى وقدر .

واعلم أنك مسئول عما أودع فيك من هذه العطايا والنعم فجاهد أمد الحياة ولتبدأ بجهاد نفسك ، فإذا رأيت منها خورا أو ضعف عزيمة فاستعن بالله وأدم الدعاء وثق به فإنه مجيب دعاءك لا سيما إذا كان هذا الدعاء عن شدة ولوع بما تدعو إليه فتكون أشبه بالمضطر فهنا الإجابة محققة لاشك فيها .

وخير من تقتدى بهم فى جهاد نفسك وفى إرشاد غيرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاذا ألمت بك حاجة فادع كما دعا رسول الله ﷺ إذ يقول « اللهم إنك تسمع كلامى وترى مكانى وتعلم سرى وعلانيتى ، لا يخفى عليك شىء من أمرى ، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير والوجل المشفق المعترف بذنوبى ، أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت لك رقبته وفاضت لك

عيناه وذل جسده ورغم أنفه لك ، اللهم لا تجعلنى بدعائك رب شقيا وكن بى رءوفا رحيما يا خير المسئولين ويا خير المعطين » .

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم فى الاستسقاء « اللهم اسق عبادك وبهائمك وانشر رحمتك وأحى بلدك الميت ، اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريئا مريعا(١) نافعا غير ضار عاجلا غير آجل » ومن دعائه « اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام (٢) والجبال والظراب (٣) وبطون الأودية ومنابت الشجر » ومن دعائه « اللهم اسقنا غيثا مغيثا مريعا غدقا مجللا (٤) عاما طبقا (٥) سحا (٦) دائما . اللهم اسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين ، اللهم إن بالعباد والبلاد والبهائم والخلق من اللأواء والجهد (٧) مالا نشكوه إلا إليك ، اللهم أنبت لنا الزرع وأدر لنا الضرع واسقنا من بركات السماء وأنبت لنا من بركات الأرض ، اللهم ارفع عنا الجهد والجوع والعرى واكشف عنا من البلاء مالا يكشفه غيرك ، اللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارا فأرسل السماء علينا مدرارا » .

وإذا أصابك هم أو دين فقل ما أمر به رسول الله ﷺ « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال » فإذا دعوت به وداومت فإن الله يجيب دعاءك كما روى فى الحديث وهكذا من الأدعية التى وردت فى الصحاح ، فإذا قويت نفسك وهذبت ورأيت فيها ميلا قويا إلى الإرشاد والنفع العام فاعلم أنه لا يقف أمامها مايمنعها ولا يصدها أحد فى العالمين وإياك أن يصيبك خور أو ضعف واسمع ما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ماينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شىء فلا تقل لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وماشاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان » واعلم علما ليس بالظن أن الله لما خلق هذه النفوس الانسانيه جعل قواها موزعة على ما يحتاج إليه النظام ، واعلم أنك إذا منحت منحة إفاضة الخير والإرشاد والتعليم فإن تأثيرك على سامعك حاضرا وعلى قارىء كلامك غائبا لن يكون إلا على مقتضى ما تمتلىء به نفسك فعلى مقدار الأحوال المضمرة فى نفسك تكون نتائج كلامك . إننا نرى النار تحرق بجوهرها وكذلك الماء يحيى بنفس جوهره لا بعوارض فيه وهكذا السم ، السم فى الإهلاك والدواء فى الشفاء . كل هذه مؤثرات بأنفسها وطبائعها هكذا شأن التعليم والإرشاد ، فإذا رأيت نفسك متجهة وطال الأمد على هذا الاتجاه فاعلم أنك رجل قد أذن لك وقد اصطفيت لترقية العقول وإصلاحها ، فشمر عن ساعد الجد وادرس سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسير الصحابة وعظماء الأمة وحكمائها ، واقتف آثاره صلى الله عليه وسلم فى وعظه وإرشاده للأفراد وللجماعات الذين كانوا معه ولمن بعدوا عنه ، فإذا رأيت هذا كله مغروسا فى نفسك من غير تكلف ولا تصنع فاعلم أنك منصور مقبول الوعظ والإرشاد فجاهد فى الله بعد أن تقرأ أمثال ما قاله ابن شهاب « بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان

---

(١) المرىء : الطيب السائغ ، والمريع : المخصب وكلاهما بوزن كريم .
(٢) جمع أكة : وهى الرابية .
(٣) الجبال الصغار واحدها ظرب ككتف .
(٤) الغدق : المطر الكبار القطر . والمجلل : الذى يجلل الأرض ويعمها بمائه أو نباته .
(٥) ما كان للأرض مغطيا لها .
(٦) قوله سحاء بفتح السين وتشديد الحاء : أى دائم النزول .
(٧) اللأواء : الشدة ، والجهد : المشقة كقفل .

يقول إذا خطب : كل ما هو آت قريب، لابعد لما هو آت ، ولا يعجل الله لعجلة أحد ولا يخف لأمر الناس ، ما شاء الله لا ماشاء الناس ، يريد الله شيئا ويريد الناس شيئا ، ماشاء الله كان ولو كره الناس ، ولا مبعد لما قرب الله ولا مقرّب لما بعد الله ، ولا يكون شيء إلا بإذن الله » وهكذا نقرأ خطبته صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة . قال ابن إسحاق : كانت أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، ونعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يقل : أنه قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال « أما بعد ، أيها الناس فقدموا لأنفسكم تعلمن[1] والله ليصعقن[2] أحدكم ثم ليدعن غنمه ليس لها راع ثم ليقولن له ربه وليس له ترجمان ولا حاجب يحجبه دونه ألم يأتك رسولي فبلغك وآتيتك مالا وأفضلت عليك فما قدمت لنفسك ؟ فلينظرن يمينا وشمالا فلا يرى شيئا ثم لينظرن قدامه فلا يرى غير جهنم فمن استطاع أن يقي بوجهه من النار ولو بشق من تمرة فليفعل ومن لم يجد فبكلمة طيبة فانها تجزى الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

قال ابن إسحاق : ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة أخرى فقال « إن الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن أحسن الحديث كتاب الله ، قد أفلح من زينه الله في قلبه وأدخله في الإسلام بعد الكفر فاختاره على ما سواه من أحاديث الناس ، إنه أحسن الحديث وأبلغه ، أحبوا ما أحب الله ، أحبوا الله من كل قلوبكم ولا تملوا كلام الله وذكره ولا تقس عنه قلوبكم فانه قد سماه خيرته من الأعمال فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا واتقوه حق تقاته واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم وتحابوا بروح الله بينكم، إن الله يغضب أن ينكث عهده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[3] » .

ونقرأ ما ورد عن أحمد بن حنبل أنه صلى الله عليه وسلم قال « أما بعد : فان رجالا يزعمون أن كسوف هذه الشمس وكسوف هذا القمر وزوال هذه النجوم عن مطالعها لموت رجال عظماء من أهل الأرض وأنهم قد كذبوا ولكنها آيات من آيات الله تبارك وتعالى يعتبر بها عباده فينظر من يحدث منهم توبة الخ » ونقرأ خطبة حجة الوداع . لما زالت الشمس يوم عرفة أمر صلى الله عليه وسلم بناقته القصواء[4] فرحلت ثم سار حتى أتى بطن الوادي فخطب الناس خطبة عظيمة نذكر لك نصها من رواية ابن هشام في سيرته وها هي ذه .

« الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته وأستفتح بالذي هو خير ، أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم وقد بلغت ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وأن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لاربا وأن ربا عباس بن عبدالمطلب موضوع كله وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث (وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل)

(١) بنون التوكيد .

(٢) من باب علم .

(٣) روى ذلك هناد وعن أبي سلمة مرسلا .

(٤) القصواء : لقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن قصواء : أي مقطوعة طرف الأذن .

فهو

فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية (أما بعد) أيها الناس . إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسىء [١] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متوالية [٢] ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان. (أما بعد) أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان [٣] لا يملكن لأنفسهن شيئا وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم وأن المسلمين إخوة فلا يحل لمسلم من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم ، ألا هل بلغت ؟ فقال الناس اللهم نعم فقال رسول الله ﷺ اللهم اشهد » .

فإذا قرأت هذه الخطب وأمثالها علمت أن لكل مقام مقالا وانتهزت فرص الحوادث والوقائع وهنالك يسمع قولك ويهش السامعون له ويبشون . فانظر كيف انتهز صلى الله عليه وسلم فرصة كسوف الشمس وجعلها موضوع وعظ . فهكذا فليكن تعليمك على حسب الوقائع والأحوال ولتكن أنت نبراس زمانك باجتهادك أنت نفسك وإذا رأيت ظلما عم وفتناطمت فتفكر فى قوله ﷺ فى بعض خطبه « أما بعد فإن الدنيا خضرة حلوة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء . ألا إن الغضب جمرة توقد فى جوف ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه [٤] فإذا وجد أحدكم شيئا من ذلك فالأرض الأرض . ألا إن خير الرجال من كان بطىء الغضب سريع الرضا ، وشر الرجال من كان سريع الغضب بطىء الرضا . فإذا كان الرجل بطىء الغضب بطىء الفىء وسريع الغضب سريع الفىء فإنها بها . ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب وشر التجار من كان سىء القضاء سىء الطلب . فإذا كان الرجل حسن القضاء سىء الطلب أو كان سىء القضاء حسن الطلب فإنها بها . ألا إن لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته . ألا وأكبر الغدر غدر أمير عامة . ألا لا يمنعن رجلا مهابة الناس أن يتكلم بالحق إذا علمه . ألا إن أفضل الجهاد كلمة حق عند أمير جائر . ألا إن مثل ما بقى من الدنيا فيما مضى منها مثل ما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » .

وهيء نفسك لتذكير الناس بأمثاله . ومتى علمت قبول جهادك فيمن يليك ورأيت النفوس مشرئبة لما تقول متبعة طريقك فى جهادك وأن عواطفك قد أشربت قلوب من حولك بتأثير وعظك وهديك فهنالك يجب عليك أن تخاطب من بعد عنك كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يجعل الناس كلهم فى الأرض أمة واحدة فلننسج نحن على منواله ولنوقظ العقول الإسلامية

---

(١) النسىء : التأخير فى الوقت . كان العرب يؤخرون بعض الأشهر الحرم إلى شهر آخر .

(٢) ذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

(٣) عوان : بالفتح معينات لأزواجهن ، أو عوار كما فى رواية : أى أمانات عندكم .

(٤) الأوداج : عروق الدم فى العنق .

لتتجه لإصلاح الأرض مع الأمم. أفلا تعجب منه صلى الله عليه وسلم إذ أخذ يدعو الأمم أمة أمة، فاقرأ ما كتبه صلى الله عليه وسلم إلى صاحب اليمامة :

(« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هوذة [١] بن علي . سلام على من اتبع الهدى واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر [٢] فأسلم تسلم وأجعل لك ماتحت يديك (وكان الحامل لهذا الكتاب سليط [٣] بن عمرو العامري فأكرم هوذة وفادته) وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ماأحسن ماتدعو إليه وأجمله والعرب تهاب مكاني فاجعل إلىّ بعض الأمر أتبعك، وأجاز سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر فقدم بذلك كله إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره وقرأ النبي صلى الله عليه وسلم كتابه فقال لو سألني سيابة من الأرض ما فعلت باد وباد مافي يديه . وقد مات هوذة مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفتح ») .

ثم اقرأ ما كتبه إلى مالك عمان (« بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى جيفر [٤] وعبد ابني الجلندى [٥] سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فاني أدعوكما بدعاية الاسلام أسلما تسلما فاني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وإنكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالاسلام فان ملككما زائل عنكما وخيل تحل بساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما، وقد بعث بالكتاب مع عمرو بن العاص فخرج به حتى وافى عمان ، قال عمرو فلما قدمتها عمدت إلى عبد وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقا فقلت إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم إليك وإلى أخيك فقال أخي المقدم علىّ بالسن والملك وأنا أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك ، ثم قال وما تدعو إليه؟ قلت أدعوك إلى الله وحده لاشريك له وتخلع ما عبد من دونه وتشهد أن محمدا عبده ورسوله . قال : ياعمرو إنك ابن سيد قومك فكيف صنع أبوك فان لنا فيه قدوة . قلت مات ولم يؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ووددت أنه كان أسلم وصدق به وقد كنت أنا على مثل رأيه حتى هداني الله للاسلام، قال فمتى تبعته ؟ قلت قريبا، فسألني أين كان إسلامك ؟ قلت عند النجاشي وأخبرته أن النجاشي قد أسلم قال فكيف صنع قومه بملكه ؟ فقلت أقروه واتبعوه . قال والأساقفة والرهبان تبعوه؟ قلت نعم، قال انظر يا عمرو ماتقول إنه ليس من خصلة في رجل أفضح له من الكذب. قلت ما كذبت وما نستحله في ديننا . ثم قال ماأرى هرقل علم باسلام النجاشي . قلت بلى . قال بأي شيء علمت ذلك ؟ قلت كان النجاشي يخرج له خرجا فلما أسلم وصدق بمحمد صلى الله عليه وسلم قال لا والله لو سألني درهما واحدا ما أعطيته فبلغ هرقل قوله فقال له النياق أخوه أتدع عبدك لا يخرج لك خرجا ويدين بدين غيرك دينا محدثا قال هرقل رجل رغب في دين فاختاره لنفسه ما أصنع به ؟ والله لولا الضن بملكي لصنعت كما صنع . قال انظر ماتقول يا عمرو . قلت والله صدقتك، قال عبد فأخبرني ما الذي يأمر به وينهى عنه . قلت يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته ويأمر بالبر وصلة الرحم وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنا وعن الخمر وعن عبادة الحجر والوثن والصليب . قال ما أحسن هذا الذي يدعو إليه لو كان أخي يتابعني عليه لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به ولكن أخي أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبا . قلت إنه إن أسلم ملكه (بتشديد اللام) رسول الله صلى الله عليه وسلم على قومه فأخذ الصدقة من غنيهم فيردها على فقيرهم . قال إن هذا لخلق حسن وما الصدقة ؟ فأخبرته بما فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقات في الأموال حتى انتهيت إلى

---

(١) هوذة ، بوزن جوزة .

(٢) الخف للبعير، والحافر الفرس، ويطلقان عليهما .

(٣) سليط بوزن جبل .

(٤) بوزن جعفر . (٥) بضم ففتح فسكون وهو مقصور .

الإبل قال يا عمرو وتؤخذ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه . فقلت نعم . فقال والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون لهذا قال فمكثت ببابه أياما وهو يصل إلى أخيه فيخبره كل خبرى ثم إنه دعانى يوما فدخلت عليه فأخذ أعوانه بضبعى[1] فقال دعوه [2] فأرسلت فذهبت لأجلس فأبوا أن يدعونى أجلس فنظرت إليه قال تكلم بحاجتك فدفعت إليه الكتاب مختوما ففض خاتمه وقرأ حتى انتهى إلى آخره ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته إلا أنى رأيت أخاه أرق منه ، قال ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت ؟ فقلت تبعوه إما راغب فى الدين واما مقهور بالسيف . قال ومن معه ؟ قلت الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال فما أعلم أحدا بقى غيرك فى هذه الحرجة وأنت إن لم تسلم اليوم وتتبعه توطئك[3] الخيل وتبيد خضراءك فأسلم تسلم ويستعملك على قومك ولا تدخل عليك الخيل والرجال ، قال دعنى يومى هذا وارجع إلى غدا فرجعت إلى أخيه فقال ياعمرو إنى لأرجو أن يسلم إن لم يضن بملكه حتى إذا كان الغد أتيت إليه فأبى أن يأذن لى فانصرفت إلى أخيه فأخبرته أنى لم أصل إليه فأوصلنى إليه . فقال إنى فكرت فيما دعوتنى إليه فاذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما فى يدى وهو لا تبلغ خيله هنا وإن بلغت خيله ألفيت قتالا ليس كقتال من لاقى . قلت وأنا خارج غدا فلما أيقن بمخرجى خلا به أخوه . فقال ما نحن فيما ظهر عليه ؟ وكل من أرسل إليه قد أجابه فأصبح فأرسل الىّ فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا النبى صلى الله عليه وسلم وخليا (بتشديد اللام) بينى وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم وكانا لى عونا على من خالفنى ») .

وهكذا تتأمل كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى . (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم العلاء ابن الحضرمى إلى المنذر وكتب إليه « بسم الله الرحمن الرحيم أسلم أنت ، فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ، من أحب ذلك من المجوس فانه آمن ومن أبى فعليه الجزية فأسلم . وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم (أما بعد) يا رسول الله فانى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث إلىّ فى ذلك أمرك ، فكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . بسم الله الرحمن الرحيم « من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى ، سلام عليك فانى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله (أما بعد) فانى أذكرك الله عز وجل فانه من ينصح إنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ومن نصح لهم فقد نصح لى وإن رسلى قد أثنوا عليك خيراً وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ، ومن أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية) .

وبعد ذلك تنظر مكاتبته ﷺ إلى ملك الحبشة . (« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى النجاشى ملك الحبشة ، أسلم أنت فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول [4] الطيبة الحصينة فحملت بعيسى خلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لاشريك له والموالاة على طاعته وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فانى رسول الله وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عزّ وجل وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتى والسلام على من اتبع الهدى ») . وقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم بكتابه هذا مع عمرو بن أمية الضمرى[5] فقال للنجاشى

(١) الضبع : وسط العضد ، أو ما تحت الإبط ، وقوله بضبعىّ مثنى ضبع بوزن قلب .

(٢) بالبناء للمجهول . (٣) بتشديد الطاء . (٤) البتول : أى العابدة .

(٥) بفتح الأول .

« يا أصحمة إن علىّ القول وعليك الاستماع ، إنك كأنك فى الرقة علينا وكأنا فى الثقة بك منك لأنا لم نظن بك خيرا قط إلا نلناه ولم نخفك على شىء قط إلا أمناه وقد أخذنا الحجة عليك من فيك الانجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد وقاض لا يجور وفى ذلك الموقع الحز وإصابة الفصل وإلا فأنت فى هذا النبى الأمى كاليهود فى عيسى ابن مريم وقد فرق النبى صلى الله عليه وسلم رسله إلى الناس فرجاك لما لم يرجهم له وأمنك على ما أخافهم عليه بخير سالف وأجر ينتظر فقال النجاشى أشهد بالله إنه النبى الأمى الذى ينتظره أهل الكتاب ، وإن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل ، وإن العيان ليس بأشفى من الخبر . ثم كتب النجاشى كتاب جواب النبى صلى الله عليه وسلم إلى محمد رسول الله من النجاشى أصحمة ، بسلام عليك نبى الله من الله ورحمة الله وبركات الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فقد بلغنى كتابك يارسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت ثفروقا (العلاقة بين النواة والقشر) إنه كما ذكرت وقد عرفت ما بعثت إلينا وقد عرفنا ابن عمك وأصحابك فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين) .

وهكذا تفكر فى كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى ملك الفرس (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله أدعوك بدعاية الله فانى أنا رسول الله إلى الناس كافة « لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين » أسلم تسلم فان أبيت فعليك إثم المجوس . فلما قرئ عليه الكتاب مزقه فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال مزق الله ملكه وقد كان)

ثم تقرأ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية وهذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد عبد الله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بدعاية الاسلام[1] أسلم تسلم وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت فان عليك إثم أهل القبط « يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » الآية ، وقد بعث به صلى الله عليه وسلم مع حاطب بن أبى بلتعة فلما دخل على المقوقس قال له إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال[2] الآخرة والأولى فانتقم به ثم انتقم منه فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك . فقال إن لنا دينا لن ندعه إلا لما هو خير منه . فقال له حاطب ندعوك إلى دين الاسلام الكافى به الله فقد ما سواه . إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له اليهود وأقربهم منه النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الانجيل وكل نبى أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه وأنت ممن أدركه هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به . فقال المقوقس إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فوجدته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب فيه ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكاذب ووجدت معه آية النبوة باخراج الخبء[3] والإخبار بالنجوى[4] وسأنظر وأخذ كتاب النبى صلى الله عليه وسلم فجعله فى حق من عاج وختم عليه ودفعه إلى جارية له ثم دعا كاتبا له يكتب بالعربية فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك (أما بعد) فقد قرأت كتابك وفهمت ماذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيا بقى وكنت

---

(١) دعوته : وهى كلمة الشهادة التى يدعى إليها أهل الملل .

(٢) النكال : العقاب الذى يزجر الغير . (٣) المختبئ . (٤) السر .

أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام عليك، ولم يسلم) .

وهكذا تقرأ كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل ملك الروم وهذا نصه (بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى (أما بعد) فانى أدعوك بدعاية الاسلام أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فان عليك إثم الأريسيين[1] « ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ولما قرأ هرقل الكتاب فكر فى الأمر ثم جمع عظماء الروم فى قصر له بحمص (بكسر الحاء) ثم أطل عليهم فقال [يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا لهذا النبى فحاصوا[2] حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الايمان قال ردوهم على وقال إنى قلت مقالتى آنفا[3] أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت] فسجدوا له ورضوا عنه)

فاذا تتبعت أمثال هذه المكاتبات والخطب ألفيته صلى الله عليه وسلم يخاطب الأمراء فى بلاد العرب بأسلوب غير الذى يخاطب به الملوك ويعطى كل ذى حق حقه . ألا تراه يقول لملك الحبشة «وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم » ولكنه يقول لملك عمان وأخيه « وإنكما إن أقررتما بالاسلام وليتكما وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما » فانظر الفرق بين الكتابين اللذين اختلفا على مقتضى الحالين .

فاذا قرأت هذا وأمثاله هنالك تعرف كيف ترقى الأمم الإسلامية الآن وكيف تتحد مع غيرها فى الأعمال النافعة . وانظر تلطف حاطب بن أبى بلتعة مع المقوقس وقوله له [لسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به] وهذا أمر عجيب ، ووازن بين هذه المعاملة ومعاملة ملك عمان . إن هذه الأحاديث والأخبار تعطينا فكرة عامة وهى أن نلبس لكل حال لبوسها ونجد فى رقى الأمم الإسلامية ونكلم كل امرىء بما يصلح له ولا ننفر أمة منا ، إذن دين الإسلام فى مستقبل الزمان سيقوم به قوم أرقى وأعلى من رجال تقدمونا بعد العصر الأول الذى هو خير العصور والعصرين بعده وسيكون إصلاحا لجميع الأمم ، والحمد لله رب العالمين .

﴿ بيان عام فى أمر الجهاد ﴾

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة . رأينا جمال صنعك وحكمتك البالغة التى نظمت بها الأفلاك فى علاها والحيوانات فى فلاها والأمم فى هداها .

يقف المصلى ذاكرا رحمتك بسم الله الرحمن الرحيم يكررها كل حين ويعترف بأنك أنت ربيت جميع العوالم مع رحمتك التامة وحكمتك الشاملة وقيامك بالقسط فيها وعدلك فى الحكم وهو قد شاهد نظامك فى حركات الأفلاك ومداب الأسماك فيطلب إذ ذاك هدايتك لصراطك وما صراطك إلا شمول الرحمة وعموم الحكمة والنظام «ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم» فصراط ربى تآلف الطيور فى الهواء والأنعام فى العراء، وعيشها بسعادة وهناء، وصراط ربى أن يلهم أمثال (بيدبا) كما ذكرناه آنفا أن يصوغ الحكم ويعلم الناس الاتحاد تشبها بالحمامات وبالحمامة المطوقة مع الفأر والسلحفاة والغراب وصراط ربى أن يتحد الناس

---

(١) جمع أريسى ، نسبة إلى أريس كفعيل : وهو الفلاح .
(٢) نفروا . (٣) قريبا .

على المنافع العامة . اللهم إنك أنت الذى ألهمت النمل فأحكمت نظامها وعلمت النحل فهديتها طرقها ورسمت الحكماء رسما فى عقولهم فنسجوا على منوالك فى إلهامك الحيوان ، ولعمرى ما مكاتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ملك عمان والحبشة ومصر والروم والفرس إلا على نهج صراط الله فى الهداية فهناك هداية بالغرائز أولا وبالعقول ثانيا وهنا هداية بالوحى الذى نزل ليصقل العقول ويجمع الشتات ويؤلف بين القلوب ، سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت الحكيم العليم .

﴿ زيادة إيضاح ﴾

أنت يا ألله جعلت صلاة المصلى شاملة معانى عامة إذ يلحظ نظام الكواكب وتجاذبها ونظام الجسم الانسانى فى دعاء الركوع والسجود فيرى انتظام الوضع بين الكواكب وانتظام الحركات فى سيرها وجمال الترتيب والتنسيق والجندرة والاتساق فى السمع والبصر والمخ والعظم والعصب وما استقلت به القدم فلا يسعه إلا أن يطلب أن يكون الناس فى اتحادهم على مقتضى ما شاهد فى الآفاق وفى جسمه، وهنالك يرى أن الهداية للصراط المستقيم هى صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض كما أنها هداية الله الذى « ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها » وإذن يرى المصلى أن الصراط المستقيم فى الفاتحة هو صراط المنعم عليهم لا صراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين فان هاتين الطائفتين لم يخلقوا للنظام العام وسعادة الأمم فان أهل الغضب والضلال متشاكسان وهل يجمعهما إلا المهديون إلى الصراط المستقيم وهذا هو الذى حصل أيام النبوة فانه صلى الله عليه وسلم ما كاد يسمع آية « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » حتى أرسل رسله إلى الأمصار وخاطب الملوك يريد أن يكون النوع الإنسانى على وتيرة واحدة من حيث نظام السياسة ويجعل أولئك الذين على صراط مستقيم مسيطرين على أولئك المغضوب عليهم والضالين . أرسل صلى الله عليه وسلم رسله وقواده وجيوشه وكان ذلك كله بلذة روحية فكان الصحابة والتابعون لا يريدون إلا وجه الله ، وإن من قرأ سير الصحابة والتابعين ودرس محاورات هؤلاء مع الملوك والأمراء كما تقدم فى محاورة حاطب بن أبى بلتعة مع من أرسل إليه من الملوك ومحاورة عمرو بن العاص كذلك واقرأ ما تقدم فى (سورة الكهف) محاورات عبادة بن الصامت مع المقوقس وكيف كانوا يفحمونهم فى الخطاب ويدعونهم للحق .

فالحق والحق أقول لولا هذه اللذة الروحية ما توغل المسلمون فى بلاد الله شرقا وغربا . إن الله جعلهم رسل نظام عام على شريطة أن يكونوا رحمة للأمم على مقدار ما تتحمله هذه الطبيعة الطينية . يا سبحان الله بقيت هذه الخصلة (٣٠) سنة كما قال صلى الله عليه وسلم « الخلافة بعدى ثلاثون ثم تكون ملكا عضوضا » خلف من بعد الخلفاء ملوك لم يكونوا كالخلفاء . إن الخلفاء كانوا يعلمون مقصود النبوة فحرموا على أنفسهم مال المسلمين علما منهم أن الأمة إذا انغمست فى الشهوات زال ملكها فى الدنيا وعذبت فى الآخرة . ناهيك ما تقدم فى آخر (سورة القصص) من حكاية الربيع بن زياد لما وفد على عمر رضى الله عنه فاقرأه تجد أنه خاف من قوله تعالى « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » ماذا كان يخاف عمر؟ خاف عذاب الهون وخاف عذاب الخزى فى الحياة الدنيا إذا استمتع باللذات ولذلك لم يبح لنفسه أن يتخذ مأكلا لمجرد اللذة .

هذا هو رأى أكابر الصحابة ، حرم عمر على ابنته أن تضمخ ثوبها بطيب المسلمين ونظيره فى ذلك أبو بكر وبقية الخلفاء الراشدين ، خلف من بعدهم خلف بعضهم أضاعوا النخوة والعزة وتلهوا بالتفنن فى اقتناء الجوارى والانغماس فى اللذات بعد الغزوات فكانوا لا يبالون باذلال الأمم ولا باذلال المسلمين وأخذوا بعض الدين وتركوا بعضه . ذلك أن الله أباح الأسر ولكنه يقول « فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك

رقبة أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيما ذا مقربة ، أو مسكينا ذا متربة ، ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة » فالله أول ماذكر فى هذه الآية قال « فك رقبة » إذن فك الرقبة أهم مابه تقتحم العقبة وذكر بعدها الإطعام ثم ذكر الإيمان مع الصبر والمرحمة . إذن هنا فك الرقبة أولا والمرحمة آخرا وهكذا دخل العتق فى أكثر أبواب الفقه .

إنه صلى الله عليه وسلم أرسل لمنفعة الأمم ، ولما وجد النوع الانسانى قد تأصلت فيه عادة الأسر أبيح له أن يأسر كما تأسر الأمم . فلو أنه حرم أسرهم على المسلمين لانقرضوا فانهم فى الحرب يأسرهم غيرهم إذا غلبهم وإذا غلبوا غيرهم لا يأسرونهم وهذا هو هلاك الأمم الاسلامية وظلمهم ، لذلك أباح أخذ الأسرى ورغب فى العتق وجعل بين المعتق والعتيق ولاء ومودة حتى إن المعتق يرث من أعتق كالقريب ، ومعنى هذا كله أن يكون الأعداء أصدقاء . وبعبارة أخرى : تصبح الأمم المغلوبة مندمجة فى الأمم الغالبة بطريق الولاء الذى هو كالنسب .

هذه الأحكام لا مندوحة عنها ، فالمسلمون يأسرون غيرهم ثم يعتقونهم وخير من هذا أن يمنوا عليهم فلا أسر ولا فداء . وكل هذا كان موكولا للملوك والملوك كانوا يستبدون بالأمر ، ثم تغاضى المسلمون بعد ذلك عما يسمعون من أخلاق أبى بكر وعمر وعلى وأمثالهم فاستباح الملوك لأنفسهم كل أنواع الزينة والفسوق وجهلوا تلك الأخلاق الفاضلة ، وإذا سمعوا قوله تعالى «فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا» أو سمعوا الآية المتقدمة التى أخافت عمر رضى الله عنه وهى «أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» الخ يقولون هذه وردت فى الكفار فأصبح فهم المتأخرين غير فهم المتقدمين فانغمسوا فى اللذات فذهبت نخوتهم ودولهم وعزهم والله لايظلم الناس شيئا .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو الذى يقتبس منه الصحابة الحقائق ثم انكمش المسلمون وتركوا هذه الفضائل واقتصروا على الفقه وظنوا أن الحرام والحلال كافيان فى الاسلام وتركوا آيات كثيرة جدا ظنوها نزلت فى الكفار أو فى المنافقين، فبهذا صار الاسلام غريبا وكيف لايكون غريبا وآيات العبر ونظام الأمم قد تركت وجعلت خاصة بقوم غيرنا . إذن بعض المسلمين صدق عليهم قوله تعالى «وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول» فالمترفون فى الآية هم أنفسهم الذين قال الله فيهم « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا» الخ . سر فى بلاد الاسلام شرقا وغربا فانك لا تجد لهذه المباحث العامة رواجا اللهم إلا فى هذا الزمان فان النهضة قد سرت بين المسلمين وسيتم أمرها ، واعلم أن المسلمين فى زماننا لاملجأ لهم إلا أن يقوم فيهم مجددون مصلحون ينيرون السبل ويوضحون الطرق ، وإنى أحمد الله عز وجل أن يكون هذا التفسير قد جعل فيه روح الاصلاح . وهناك كتاب فى بلاد الاسلام معروفون يسيرون على منهج الاصلاح وهذا زمان النهضة وسيأخذ حظه ورقى الأمم التى تدين به إن شاء الله .

(جهاد بعض المتأخرين من الأمم الاسلامية السابقة جهاد خذلان وانتكاس)

لقد طال الأمد على أممنا الاسلامية فقست القلوب وكثر الفسق والفجور فأين الجهاد ؟ والجهاد يراد منه الإصلاح، وكيف تصلح أمم انغمست فى الشهوات وقل فيها المصلحون بعد العصور الأولى، وكلما تمادى الزمان ازداد العصيان بسبب الترف والجهل العميم . فوازن رعاك الله بين أزمان النبوة إذ أريد جعل أهل الأرض أمة واحدة وبين أيام انحطاط دولة العرب باسبانيا وطردهم منها فى كلام العلامة (سديو) الفرنسى وهذا نصه :

﴿ الباب الرابع : فى انحطاط دولة العرب بأسبانيا وطردهم منها ، وفيه خمسة مباحث :
(المبحث الأول) فى وقوع عدة ممالك إسلامية من أسبانيا تحت حكم ملوك النصارى ﴾

نعود الآن إلى ماسلف من تاريخ عرب أسبانيا فنقول [لما أغارت الأهالى على عساكر الموحدين المحافظين بأسبانيا أوقعوا بهم أول نكبة وأحطها لكنهم أماطوا عنهم جورا يلزمهم أن يستعدوا عقبه لصد النصارى بتجديدهم للحكومة مركزا عموميا تنبنى عليه المصالح العامة لكنهم عدلوا عن ذلك وأخذ كل ينظر فى مصالحه الخاصة ، ولذا انقسمت الحكومة الاسلامية إلى عدة دول صغيرة مستقلة عن بعضها لم يكن منها ذات شوكة فى الجملة إلا مملكتا (والنسة) و (الجرو) ومملكتا (ابن هود) و (محمد الحمار) وكان ذلك التفرق مساعدا للفرنج على أخذهم عدة ممالك واحدة بعد أخرى] .

ثم قال [وسلك (فريند) مسلك السياسة بتوليته محمدا الحمار على جميع بلاده الرحبة الممتدة من حدود الجزيرة إلى المرية بين جبل طارق وهويسقه بشرط أن يؤدى له جزية كل سنة وجنوداً زمن الحرب ويذهب إلى المشورة التى تنعقد فى (قسطيلة) ثم حاصر فريند ومعه محمد الحمار مدينة إشبيلية التى كانت كرسى سلطنة المراوية والموحدين فقاومه أهلها زمنا طويلا لورود مدد إليهم من الوادى الكبير وعبورهم قنطرة من سفن على هذا النهر إلى مدينة تريانة المشتملة على لوازمهم فجهز (فريند) فى جون بسقاية ومبنيات إقليم جاليسة سفنا صغيرة استولى بها على مصب نهر الوادى الكبير ثم ألقى سفنا كبيرة كسرت تلك القنطرة بشراعها فكان لأهل إشبيلية مجاعة سلموا بها المدينة إلى فريند سنة ١٢٤٨ بشروط توافقهم لبيع أملاكهم ميعادها أطول من ميعاد أهل (والنسة) وقد تيسر لهم بأخذ (مدينة إشبيلية) سرعة انقياد جميع البلاد التى على ميمنة نهر الوادى الكبير وجالوا حين استيلاء البرتغال على مدينتى لولة وأيامنتة سنة ١٢٤٩ بسواحل البحر التى بين نهر الوادى الكبير والوادى اليانع جولة منتصر مؤيد فأخذوا مدنا بعضها للمسلمين] .

فانظر كيف ترى (فريند) مع محمد الحمار يحاربان (إشبيلية) وقد سلمت لفريند أى إن الأمير المسلم يساعد الفرنجى على أن يملك بلادا إسلامية ، ذلك لأن الترف والنعيم هما اللذان يقعدان بالأمم عن المعالى ثم تأمل ما تقدم فى المجلد الثالث عشر فى (سورة الشعراء والنمل) فانك تجد تاريخ القوم واضحا وأنهم غرقوا فى بحار الفسوق والفجور ، ولله عاقبة الأمور .

ولأختم هذا المقال بما لم أذكره فيما مضى مما أنتجه التخاذل الذى سببه الانغماس فى الشهوات وشيوع الغزل والتغنى والتفاخر بالخمر وانحراف الأمة عن العلوم والمعارف ورضاها بالقشور فتفرقت وذاق بعضها بأس بعض ، ذلك عبرة لمعتبر وتبصرة لمدكر .

جاء فى تاريخ (زينى دحلان) صفحة (٣٠١) ما نصه [من الممالك التى فى شرقى الأندلس بربشتر وسرقسطة والثغر الأعلى ومدينة طليطلة ومرسية وبلنسية وغير ذلك والمتغلبون عليها من ملوك الطوائف بنو سليمان بن محمد بن هود الجذامى من سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وكان قبلهم متغلبا عليها بنو منذر بن مطرق التجيبى فانتزعها منهم بنو هود فى السنة المذكورة فلما كانت سنة ست وخمسين وأربعمائة نازلها جيش الاردمليش وحاصرها وقصر الأمير يوسف بن سليمان بن هود فى حمايتها ووكل أهلها إلى نفوسهم فأقام العدو عليها أربعين يوما ووقع فيما بين أهلها تنازع فى القوت لقلته واتصل الخبر بالعدو فشدد القتال عليها والحصر لها ، وكان لها مدينتان فدخل المدينة الأولى خمسة آلاف مدرع فدهش الناس وتحصنوا بالمدينة الداخلة وجرت بينهم حروب شديدة قتل فيها خمسمائة افرنجى ، ثم اتفق أن القناة التى كان الماء يجرى فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض فى سرب موزون فانهارت القناة وفسدت ووقع فيها صخرة عظيمة سدت السرب بأسره فانقطع الماء عن المدينة ويئس من بها من الحياة فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال

فأعطاهم

فأعطاهم العدو الأمان فلما خرجوا نكث بهم وغدر وقتل الجميع إلا القائد ابن الطويل والقاضى ابن عيسى ومعهما نفر من الوجوه وحصل للعدو من الأموال مالا يحصى حتى إن الذى خص بعض مقدمى العدو ألف وخمسمائة جارية أبكاراً ومن وقار الحلى والكسوة ما يحمل خمسمائة جمل وقدر القتلى والأسرى مائة ألف نفس . ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتنادى من كان بالقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو لولدها فيقول لها أعطنى ما معك فتعطيه ما معها من كسوة وحلى وغيرها ، وكان السبب فى قتلهم أنه خاف من وصول أحد لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله فشرع فى قتلهم ، فلما قتل منهم نيفا على ستة آلاف نادى الملك بتأمين من بقى ، وأمر أن يخرج من بقى بالبلد فازدحموا على الباب إلى أن مات منهم خلق كثير ونزلوا من الأسوار بالحبال خشية الازدحام فى الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء وقد كان تحيز فى المدينة جماعة ولم يخرجوا وكانوا مقدار سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا فى نفوسهم وانتظروا ما ينزل بهم فلما خلت ممن أسر وقتل وأخرج من الأبواب والأسوار وهلك فى الزحمة نودى فى تلك البقية أن يبادر كل منهم إلى داره بأهله وله الأمان وأرهقوا وأزعجوا فلما حصل كل منهم بمن معه من أهله فى منزله اقتسمهم الإفرنج بأمر الملك وأخذ كل واحد منهم دارا بمن فيها وكان جماعة من أهل المدينة قد نفروا ولاذوا برءوس الجبال وتحصنوا بمواضع منيعة وكادوا يهلكون من العطش فأمنهم الملك على نفوسهم وبرزوا فى صورة الهالكى من العطش فأطلق سبيلهم فبينما هم فى الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم يشهد الحادثة فقتلوهم إلا القليل ممن بقى أجله ، وكان الفرنج لما استولوا على المدينة يفتضون البكر بحضرة أبيها والثيب بحضرة زوجها وأهلها ، وجرى من هذه الأمور والأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان ومن لم يرض منهم أن يطأ بعض النساء ذوات المهنة أعطاهن خدمه وغلمانه يعيثون فيهن وبلغ الكفرة منهم ما لا يمكن أن يوصف على الحقيقة . ولما عزم ملكهم على القفول إلى بلده تخير من بنات المسلمين الجوارى الأبكار والثيبات ذوات الجمال ومن صبيانهم ألوفا حملهم معه ليهديهم إلى من فوقه من ملوكهم وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة ومن الرجالة ألفين .

ومما كان فى هذه الواقعة الشنعاء أن بعض تجار اليهود جاء (بربشتر) بعد الحادثة ملتمساً فدية بنات بعض الوجوه مما نجا كنّ حصلن فى سهم قومس منهم كان يعرفه قال فذهبت إلى منزله واستأذنت عليه فوجدته جالسا مكان رب الدار مستويا على فراشه رافلا فى نفيس ثيابه والمجلس والسرير كما خلفهما ربهما يوم محنته لم يغير شئ من رياشهما وزينتهما ووصائفه مضمومات الشعور قائمات على رأسه ساعيات فى خدمته فرحب بى وسألنى عن قصدى فعرفته وجهه وأشرت إلى وفور ما أبذل له فى بعض اللوانى كن واقفات على رأسه وفيها كانت حاجتى فتبسم وقال بلسانه ما أسرع ما طمعت فيمن عرضناه لك اعرض عنهن وتعرض لمن شئت ممن صيرته لحصنى من سبى وأسرى من أقاربك ، فقلت له أما الدخول إلى الحصن فلا رأى لى فيه وبقربك أنست وبكنفك اطمأننت فأعطنى بعض من هنا فإنى أعطيك رغبتك قال وما عندك ؟ فقلت العين الكثير الطيب والبز الرفيع الغريب فقال كأنك تشهينى ما ليس عندى ، ياباجه ينادى بعض أولئك الوصائف (يريد يا بهجة فغيره بعجمته) قومى فاعرضى عليه ما فى ذلك الصندوق فقامت إليه وأقبلت ببدر الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلى فكشف وجعل بين يدى العلج حتى كادت توارى شخصه ثم قال لها أدنى إلى من تلك التخوت فأدنت منه قطعة من قطع الوشى والخز والديباج الفاخر حتى حار لذلك ناظرى وبهت واسترذلت ما عندى ثم قال لى لقد كثر هنا عندى كل شئ حتى ما ألتذ به ثم حلف لى إنه لو لم يكن عنده شئ من ذلك ثم بذل لى أحد مثل ذلك ما سخت بهذه الجارية التى تطلبها نفسى فهى ابنة صاحب المنزل وله حسب فى قومه واصطفيتها لنفسى لمزيد جمالها لأجل أن تلد لى وفعلنا هذا مثل ما كان قومها يصنعون بنسائنا إذا ملكونا حين كانت

دولتهم وقد رد الله لنا الكرة عليهم فصرنا فيما تراه وأزيدك بأن تلك الخودة الناعمة وأشار إلى جارية أخرى كانت مغنية لوالدها ثم قال لها يافلانة خذى عودك فأخذت العود وقعدت تسويه وأنا أتأمل دمعها يقطر على خدها فتسرع العلج ومسحه بيده واندفعت تغنى بشعر ما فهمته أنا فضلا عن العلج وأظهر الطرب فلما يئست مما عنده قمت منطلقا واطلعت على كثرة ما بأيديهم من السبي والغنم فطال تعجبي قال في [نفح الطيب] فهذا مقنع لمن تدبره وتذكرة لمن تذكره « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » فان أهل الأندلس لما توالت عليهم النعم انهمكوا في اللذات والشهوات وحل بهم داء التقاطع وقد أمروا بالتواصل والألفة فأصبحوا على شفا جرف يؤدى إلى الهلكة لا محالة وأنهم كانوا يعللون أنفسهم بالباطل ويغترون بالنعم الزائل وقد بعدوا عن طاعة خالقهم ورفضوا وصية نبيهم وغفلوا عن سد ثغورهم حتى جاس عدوهم خلال ديارهم ثم سرى البثق إليهم جميعا فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم] اه .

وإنما سقت هذه الحادثة لترى أيها الذكي كيف كان اتباع الشهوات سببا في التخاذل ، والتخاذل سبب في انتهاك العدو حرمة البلاد وضياع المال والعرض والشرف والجاه ، وانظر كيف أصبحت الفتاة بهجة مملوكة لعلج في نفس منزل أبيها ، وكيف يأمر تلك الفتاة التي كانت مغنية لأبيها أن تغنى له ، أو ليس مما يؤسف له أن يجعل الرجل ابنته مغنية له ، كل ذلك دليل على ضياع الأمم . ثم هذه المدينة في السنة التي بعدها استرجعها المسلمون كما في نفس التاريخ وفعلوا بالفرنجة مافعله الفرنجة بالمسلمين ولكن ليس المدار على الانتصار المؤقت في بلدة من البلاد بل المدار على استقامة القلوب وارتقاء النفوس فهو النصر الحقيقي .

وإذا أراد الله ذل قبيلة رماها بتشتيت الهوى والتواكل

﴿ كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خمود أمم الاسلام ﴾

لقد ذكرت لك أيها الذكي فيما تقدم كيف تمزقت الوحدة الاسلامية بعد القرون الأولى ، وكيف انغمس المسلمون في الشهوات والمعاصي وفسقوا فسوقا أدوا ثمنه وهو الأسر والذل والفتك والضنك ؟ وكيف دخل العدو الدار وفسقوا بالبنات والنساء أمام الأزواج والآباء ، وانظر إلى الفتاة (بهجة) كيف اصطفاها العلج لنفسه بحجة أنها كانت ابنة رجل عظيم وقد استخدمها في نفس منزل أبيها على فراشه ، وانظر كيف وكل الأمير الأندلسي يوسف بن سليمان أمر أهل بربشتر إلى أنفسهم وقال لهم دافعوا عن أنفسكم .

إن أعظم سبب في فشل الأمم ومنها الأمة الإسلامية أن الأمر يوكل إلى أناس يظن فيهم الخير فاذا مات الآباء ونشأ الأبناء على الترف والنعيم بقى الناس مسحورين بالابن كما سحروا بالأب فيطبع ذلك الابن وابن الابن الشعب بطابعهم فهو يرتع في ملاهيه ولذاته وهم يقلدونه ، ولما رأت الأمم الحاضرة ذلك استبدلت مجالس النواب والشيوخ بذلك النظام العتيق ، فاذا كان الملك فاسقا جاهلا لم يضرهم شيئا فلهم الحل والعقد وعليه التصديق فليكن كما شاء جاهلا أو عالما . هذا هو الذى عليه الأمم الآن ولكنهم لم يصلوا إلى هذا إلا بعد جهاد وجهاد وصبر طويل وتجارب هداهم إليها الإسلام ، وإنما قلت هداهم إليها الإسلام لأنك إذا رجعت إلى تفسير (سورة التوبة) عند آية « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار » الخ رأيت هناك أن الانقلاب الأوروبي ماحدث إلا بما قرأه أمثال (فولتير) و (روسو) من كتب المسلمين المنهوبة من الأندلس أو المأخوذة من مصر (اقرأ مذكرات سيدة أوروبية أسلمت) تحت عنوان [الحضارة الاسلامية والحضارة الأوروبية] فلقد أثبتت هناك ذلك بأجمل العبارات ، واقرأ قبيل ذلك كيف كان ظلم القسيسين والبابوات ، ولعمرى لم يكن ذلك إلا الخضوع القبيح الذى يخضعه الإنسان لغيره جهلا بقوله تعالى « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله » وبقوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا

أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون . وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » .

وفي القرآن من أنواع المحاورات بين الرؤساء والمرءوسين مالا يدع عذرا لمعتذر وقد غفل عن هذا المسلمون واستيقظ له الأوروبيون ، ولقد تقدم في هذا التفسير أمثلة كثيرة لاستيقاظ الأوروبيين والموازنة بينهم وبين المسلمين ، ولأكشف الآن بأمر عجيب نشر في جرائدنا في وقت طبع هذا المقال لاسعاد هذا التفسير والعناية الإلهية به يوم ٤ أغسطس سنة ١٩٢٩ فقد جاء في جريدة الأهرام مانصه :

٤ أغسطس

(أو يوم إعلان حقوق الإنسان)

عندما تشرق شمس هذا النهار ويستقبل الناس يوما جديدا يتم انقضاء مائة وأربعين سنة كاملة على اليوم الذي أتحدث عنه الآن .

ففي يوم (٤) أغسطس من عام ١٧٨٩ ذكرى قمينة بالخلود في نفوس الشعوب المجيدة التي تعتز بالحرية والأمم الناهضة التي تنشدها ، وحقيق بالفرنسيين خاصة أن يجلوه تبجيلهم ليوم (١٤ يوليو) الذي جعلوه عيدهم القومي وهو لايمتاز في الواقع إلا بهدم حصن الباستيل وقتل حراسه القلائل والتمثيل بهم أشنع تمثيل وإخراج بضعة نفر من أقبيته المظلمة لاهم في العير ولاهم في النفير .

أما في يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨٩ وإن شئت الدقة ففي مساء ذلك اليوم فقد نال الشعب الفرنسي ما كان يصبو إليه ويجاهد في سبيله وهو إعلان حقوق الإنسان على أساس المبادئ التي نادى بها (جان جاك روسو) ومحو الامتيازات التي كانت للأشراف ورجال الدين الذين طالما أثقلوا كاهل الشعب ودفعوا به في قرار سحيق من الفقر المدقع والضر المفجع وإليك البيان .

في مثل يومنا هذا منذ قرن وأربعين سنة بالتمام كان الناس في باريس في هرج ومرج على أثر الظفر الذي عقد لهم لواؤه بهدم الباستيل في (١٤ يوليه) من العام ذاته والفلاحون في الأقاليم يمعنون هدما وسلبا في قصور الأشراف التي تمثل الباستيل بينهم حتى لايكونوا وراء أهل باريس في ميدان المجد والفخار والبلاد من أقصاها إلى أقصاها في ثورة مروعة انكمش أمامها رجال الادارة خشية أن يحل بهم ماحل بحاكم الباستيل وزادت الحالة سوءا حين امتنع التجار عن عرض مالديهم من الأقوات خوفا من السلب والنهب . وإذ أدرك الغوغاء مقدار قوتهم صاروا يثورون لأقل شيء وينقضون على كل من توهموا فيه العداء لهم ، فتارة يصلبونهم وطورا يقطعونهم إربا وكانت سفليات النساء في الأسواق في مقدمة أولئك الفتاك وأكثرهم شرا . ووقف مجلس الأمة (وكان مؤلفا من الهيئات الثلاث الأشراف والقساوسة والعامة) يراقب الحوادث في حيرة ووجل خوف سوء العقبى وكل ماتبينه أعضاؤه من الموقف أنه لايرجى لذلك الحال من هدوء إلا إذا جرد الأشراف والكنيسة من امتيازاتهم، على أن ذلك لم يكن محتمل الوقوع ، إذ وقف الملك لويس السادس عشر يشد أزر هؤلاء وينصاع إليهم بتأثير زوجه الملكة (مارى انتوانت) فظل خطر الموقف مسلطا فوق الرقاب جميعها إلى أن كان يوم (٤) أغسطس سنة ١٧٨٩ وإذا المعجزة تقع من تلقاء نفسها ، ففي مساء ذلك اليوم وقف في مجلس الأمة أحد الأشراف وكان فقيرا واقترح النزول عن امتيازات الأملاك ، فما هي إلا لحظة حتى دب دبيب الغيرة في النفوس وتبارى الناس في تنفيذ هذا الرأى ، وماانقضت الليلة حتى كان الأشراف قد نزلوا عن كل

امتيازاتهم وكذلك أعلنت حقوق الإنسان فى تلك الليلة على أساس المبادىء التى نادى بها (روسو) ومجملها أن الناس ولدوا أحرارا متساوين فى الحقوق وأن الغرض من الحكومات ضمان الحرية والأملاك الشخصية وصيانة الحقوق وحماية الأرواح ومنع المظالم وأن لكل أمة الحق فى وضع القوانين وتقرير الضرائب ولها وحدها السلطة العليا فى البلاد وليس لأحد أن يستعمل هذه السلطة إلا بارادتها . وحين أعلنت هذه المبادىء أخذ الناس بها وجاءت الجمعية الأهلية بعدئذ فأدخلتها فى صلب الدستور وهكذا تقوضت مظالم العهد القديم وأشرف العالم على عصر جديد ملؤه العدل والحرية والمساواة .

ذلك هو يوم (٤) أغسطس سنة ١٧٨٩ الذى يتم بانبلاج شمس هذا الصباح مرور ١٤٠ سنة عليه وإذا كانت حادثات كبار وخطوب جلل أتت بعده فى إبان الثورة الفرنسية حتى شاهد القرن التاسع عشر أياما سوداء ملؤها الدم والدمار فإن ذلك كله لا يحجب عن الناس نعمة ذلك اليوم المجيد انتهى .

قصة نوح عليه السلام

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما) وقد كان عمره ألفا وخمسين سنة بعث على رأس أربعين ، ولبث فى قومه تسعمائة وخمسين سنة ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة وفى ذكر الألف تخييل لطول المدة إلى السامع لأن القصد من القصة تسلية النبى صلى الله عليه وسلم وتثبيته ومجاهدته لما يكابده من الكفرة ، وإياك أن يصدك عن هذه القصة ماتراه من طول الأعمار التى لم نعهدها ولم يظهر فى التاريخ المعروف نظيرها فإن التاريخ القديم مجهول جهلا تاما ، وليس المقصود من مثل هذه أن نبحث فى السنين كيف كانت وأمثال ذلك فإنك إذا ظننت أن ذلك هو المقصود لم تنتفع بالقصة . إن الإنسان إذا قرأ أن قوما قاسوا شدائد وطالت المدة عليهم وهو يعلم أن مدته قصيرة اطمأن وصبر وجاهد لينجو ويهلك عدوه كما هلك أعداء نوح (فأخذهم الطوفان وهم ظالمون) أى طوفان الماء ، وهو يطلق على كل ما طاف بكثرة من سيل أو ظلام وما أشبه ذلك فلتعتبر بهذا ولا تضع وقتك فتقول كما يقول البعض [إن السنة عبارة عن دورة الأرض حول الشمس مرة] فربما عبر هؤلاء فى أيامهم بالسنين عن دورة القمر حول الأرض وهو شهر عندنا وإذن يكون عمر نوح كالأعمار المعتادة التى لا تبلغ مائة سنة . أقول لك لا تضيع وقتك فى هذا فانا نلجأ إليه عند القطع بعدم حصول ذلك والمقام ليس مقام تاريخ بل المقام مقام جهاد وصبر وأدب ولم ينل أحد السعادة إلا بالاجتهاد والجهاد ومقارعة الخصوم ، فإذا طالت المدة كان ذلك أدعى إلى التأسى والاقتداء (فأنجيناه وأصحاب السفينة) أى أنجينا نوحا ومن ركب السفينة معه (وجعلناها) أى السفينة أو الحادثة (آية للعالمين) يتعظون بها ويستدلون بها .

﴿جوهرة: فى قصة نوح وسفينته﴾

اقرأ ما تقدم فى (سورة هود) وفيه بيان أن الطوفان فى القرآن جزئى لا كلى وهناك تقرأ المقام مفصلا على مقتضى الكشف الحديث ولكن اطلعت بعد ذلك على تفصيل أوفى فى كتب حديثة مختلفة ، فمن ذلك ما جاء فى بعض المجلات العلمية بتاريخ يوم الاثنين ١٥ صفر سنة ١٣٤٨ - ٢٢ يوليه سنة ١٩٢٩ وهذا ملخصه :

[يرى بعض العلماء اليوم أن قارة تسمى (لمبوريا) كانت فى الاوقيانوس الجنوبى وتتصل بآسيا من جهة وبافريقيا من جهة أخرى وإن قارة أخرى تسمى (اتلنتس) كانت إزاء جبل طارق وكانت قدر أفريقيا وآسيا معا ثم غطاها ماء الاوقيانوس فغرقت . وأن قارة أخرى كانت فى الاوقيانوس الباسفيكى على بعد ألفى ميل وأربعمائة ميل غربى سواحل أمريكا الجنوبية وقد أغرقها الماء وذهبت كأمس الدابر ،

فهذا طوفان أغرق قارات فى أزمان قديمة لا يعيها التاريخ ، وهناك قصص للطوفان بعضها فى التوراة وبعضها جاء فى مجموعة (سجلات جلجميش) فى النصوص البابلية وبعضها عن أهل الصين وبعضها عن أهل الهند ، أما قارة (ليموريا) فهذا ملخص ما جاء عنها فى هذا المقال بذلك التاريخ وهذا نصه :

﴿ جغرافية العالم القديم . القارات الضائعة وكيف اختفت . الحيوانات الباقية والمنقرضة ﴾

تذهب إلى (جزيرة مدغشقر) بعثة علمية لدرس حيوانات هذه الجزيرة وأحافيرها ولتعليل بعض الظواهر البيولوجية الغريبة فيها ومن جملتها قلة الارتباط النسبى بين الحيوانات التى فيها والتى يختلف بعضها عن بعض إلى حد مدهش ، ومع أن هذه الجزيرة لا تبعد عن سواحل أفريقيا أكثر من ثلثمائة ميل فإن بينها وبين حيوانات القارة الافريقية بونا شاسعا ، من ذلك أنها خلو من ذوات القوائم الأربعة الكبيرة الأجسام ما عدا بقر الماء (فرس البحر) ولكنها موطن حيوانات كثيرة لم توجد فى موضع آخر من العالم ، وليس ذلك فقط بل إن أحافير الجزيرة تدل على أنها كانت فى الأزمنة الغابرة موطن حيوانات وطيور وزحافات لا وجود لها إلا فى الخرافات ، من ذلك طير (ايورنيس) ولعله أكبر الطيور التى حلقت فى جو الكرة الأرضية وكان يضع بيضا هائل الحجم يبلغ طول محوره ثلاث عشرة بوصة وثخانتها عشر بوصات أى بحجم بطيخة كبيرة مستطيلة وكان هذا الطير أكبر كثيرا من النعامة ويشبه طير (اللوا) من طيور نيوزيلندا المنقرضة ، وزعم الكثيرون أن طير (ايورنيس) المذكور هو طير الرخ الذى ورد ذكره فى روايات « ألف ليلة وليلة » وأن واضعى تلك الروايات نقلوا وصف الرخ عما سمعوه من العرب الذين ساحوا فى أفريقيا ووصلوا إلى (مدغشقر) ورأوا طير (ايورنيس) وفى مدغشقر أيضا طائفة من الزحافات الهائلة من فصيلة الضب أو العظاية وكان فيها قديما عظايات يبلغ طول كل منها ستين أو سبعين قدما وكان ذلك فى الزمن الذى كانت فيه الزحافات سيدة جميع المخلوقات على الأرض ، ومن الظواهر البيولوجية الغريبة أنه مع قرب جزيرة مدغشقر من الساحل الافريقى فإن حيواناتها تختلف عن حيوانات أفريقيا كل الاختلاف حالة كونها تشبه حيوانات آسيا مع بعد الشقة بينهما ، وقد حاول بعضهم تعليل ذلك بقوله [إنه كان فى الحقب الغابرة قارة فى الاوقيانوس الجنوبى تتصل بكلتا آسيا وأفريقيا و أطلقوا عليها اسم (ليموريا) أى بلاد الليمور وفيها نشأ هذا الحيوان ثم انتقل إلى مدغشقر وبتمادى الأحقاب غارت (ليموريا) فى قاع الاوقيانوس وبقيت فصيلة الليمور فى جزيرة مدغشقر] .

(قارة اتلنتس وقارة أخرى كانت فى الاوقيانوس الباسفيكى)

وعلى ذكر هذه القارة المزعومة نقول إن كثيرين من الكتاب والمؤرخين يعتقدون أن جغرافية العالم القديم كانت تختلف عن جغرافية هذا الزمن وأنه كان ثمة قارات وبلاد ضاعت لأن مياه البحار طغت عليها ، من ذلك قارة (اتلنتس) وقد أشار إليها أفلاطون قديما وكان الأقدمون يقولون بوجودها وراء أعمدة هرقل (جبل طارق) ويزعمون أنها أكبر من آسيا وأفريقيا معا ولا يزال بعضهم يقول بوجودها قريبا حتى هذا اليوم ، بل إن بعض علماء الجغرافيا يزعمون أنه كان فى الاوقيانوس الباسفيكى أيضا قارة غارت بطغيان البحر عليها ، وهم يؤيدون زعمهم هذا بعدة براهين من جملتها وجود نقوش على بعض صخور (جزيرة يستر) وهى جزيرة من الاوقيانوس الباسفيكى على بعد ألفين وأربعمائة ميل غربى سواحل أمريكا الجنوبية ، وفى الواقع أن فى هذه الجزيرة مئات من النقوش والتماثيل المتقنة الصنع ومعظمها تمثل رءوسا بشرية لا يفوقها فى دقة الصنع أجمل تماثيل اليونان القدماء ، وفى تلك الجزيرة الصغيرة أيضا دلائل كثيرة على حضارة بائدة وأهالى هذه الجزيرة لا يجاوزون بضع مئات يتناقلون قصة الطوفان أبا عن جد ، ومن المحتمل جدا أن تشير هذه القصة إلى طغيان مياه الباسفيك على القارة المذكورة .

واذا أنكرنا قصة (أتلنتيس) والقارة الباسفيكية الضائعة كان لابد لنا من الالتجاء إلى نظريات أخرى لتعليل بعض الظواهر البيولوجية غير المفهومة ، ومن جملة تلك النظريات مايزعم بعض العلماء من أن القارات المعروفة فى الوقت الحاضر هى عائمة على وجه المياه وأن قارتى أفريقيا وأميركا الجنوبية كانتا متصلتين معا فى العصور الغابرة وفى الواقع أننا لو أمكننا زحزحة هاتين القارتين ووصلهما معا لكان الاتصال تاما ومتينا من الوجه الطبوغرافى ، ولو أمكننا أيضا زحزحة (مدغشقر) والهند واستراليا ووصلهما معا لكان لنا منها قارة (لجوزريا) التى سبقت الاشارة إليها وحلت هذه النظرية كثيرا من المشاكل التى يصعب اليوم فهمها .

وأما ما جاء فى التوراة فهذا نصه [ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض فحزن إنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه وقال « امحوا عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته . الانسان والبهائم والدبابات وطيور السماء لأنى حزنت أنى عملتهم » وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب فقال الرب لنوح نهاية كل بشر أمامى لأن الأرض امتلأت ظلما منهم ، اصنع لنفسك فلكا من خشب مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء ، كل مافى الأرض يموت ولكن أقيم عهدى معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك ، من كل حىّ تدخل إلى الفلك اثنين لاستبقائها ، ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض فدخل نوح ومن معه الفلك وانفجرت ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة فكان الفلك يسير على وجه الماء وبعد مائة وخمسين يوما نقصت المياه واستقر الفلك على جبال أراراط]

(القصة البابلية والصينية والهندية)

هذه هى القصة كما وردت فى التوراة ، أما جبل أراراط فهو فى الشمال الشرقى من أرمينيا فكان أعلى الجبال المعروفة فى العالم اليهودى فى ذلك العهد . قصة الطوفان هذه لايمكن أن تؤخذ بمعناها الحرفى والأرجح أن الطوفان الذى تشير إليه كان طوفانا محليا ، وإذا رجعنا إلى علوم الأقدمين نجد عن الطوفان قصصا كثيرة أقربها إلى نص التوراة القصة البابلية كما وردت فى مجموعة (سجلات جلجميش) فقد جاء فيها أن جلجميش [وهو من الجبابرة] زار أحد أسلافه ليسأله كيف نجا من الموت بالطوفان فأخبره سلفه بقصة بناء الفلك وهى القصة السومرية بعينها ويقال إنها أقدم قصة فى هذا الموضوع ، وقد اقتبسها البابليون وعنهم أخذها اليهود لما كانوا فى الأسر ، ومن أشهر قصص الطوفان أيضا القصة الصينية والقصة الهندية وكلتاهما تشير إلى طوفان محلى نشأ عن فيضان الأنهر وهطل الأمطار ، ولاشك أن القصة البابلية أيضا نشأت عن فيضان دجلة والفرات وغمرها البلاد المحيطة بهما ، وفى بلاد (اور) شمالى العراق بعثة إنجليزية تنقب عن الآثار وتبحث عما يثبت قصة الطوفان ، وقد كانت (اور) منذ أربعة آلاف سنة مركز حضارة راقية ، والأرجح أن مدينة (اور) نفسها (وهى مسقط رأس الخليل) بلغت أوج ثروتها ورخائها سنة (٣٥٠٠) قبل التاريخ المسيحى وكان أهلها ماهرين فى صناعة الأدوات المعدنية ولاسيما الفضية والذهبية ، وتقلبت على (اور) أزمنة مختلفة ؛ فبعد أن بلغت أوج حضارتها ثار الطمع فى قلوب حسادها فغزوها ونهبوا معابدها وهياكلها وبعد ذلك التهمتها النيران ثم أعيد بناؤها ثم أخربها الغزاة مرة أخرى ثم أعيد بناؤها إلى أن طغى عليها نهر الفرات فأغرقها وأهلك أهلها ، ومنذ ذلك الحين أصبحت (اور) قفرا يبابا ، ومن المحتمل جدا أن الطوفان الذى أهلكها هو الطوفان الوارد قصته فى التوراة . ومما يجدر بالذكر أن بعثة الآثار التى تنقب اليوم فى أنحاء المدينة قد استطاعت إزاحة التراب عن جانب كبير من خرائبها فظهر أن بيوتها كانت مبنية على هندسة تكاد تكون حديثة فقد كانت مبنية من الحجر والآجر (الطوب) ومعظمها ذو طبقتين ولكل منها حوش أوفناء ، كذلك كانت هندسة هذه المدينة فى أيام إبراهيم الخليل وكانت كما سبق القول مسقط رأسه وفيها نشأ وترعرع .

ويظهر

ويظهر أن جميع الأمم التى نشأت فى وادى دجلة والفرات كانت تتناقل قصة الطوفان على وجوه شتى ، وليس فى ذلك ما يدهش إذا تذكرنا أن أولئك الناس كانوا يعيشون مهددين دائما بخطر طوفان النهرين العظيمين وقد كانت مخيلتهم تبتكر لهم دائما قصة بطل نجا من الطوفان بأعجوبة إما لفضيلة فيه أو لسبب آخر فجلجميش عند البابليين ونوح عند اليهود و (مان) عند الهنود و (ابتان) عند غيرهم وهلم جرا . انتهى ملخصا مع تغيير يسير جدا لتسهيل الفهم .

أقول ، اعلم أن ما تأتى به الكتب السماوية ينزل لكل أمة بحسب مزاجها وعقلها وما جاء فى التوراة يقبله اليهود وما جاء فى القرآن مقبول عندنا ، أما البحث العام فذلك يعوزه دراسة علوم كثيرة كالتاريخ والجغرافيا وعلم الآثار وعلم طبقات الأرض، وكما أن الانسان ينظر الطعام ويشمه ويذوقه وقد يسمع حركته كما يفعل الناس إذا أرادوا معرفة البطيخة أهى ناضجة أم لا ، هكذا إذا زاولوا مسألة وجب بحثها من وجوه عدة ، فانظر إلى مسألة الطوفان كيف تعددت رواياتها ثم انظر إلى علم طبقات الأرض اليوم ، ألا ترى أنهم وجدوا فحما فى الأقطار القطبية وقد تقدم فى هذا التفسير حتى إن بعض المهندسين يريد أن يصنع هناك محطة للطيارات لأجل إمدادها بالفحم من هناك وبسبب الفحم يمكن تكوين الكهرباء . إن مسألة القطبين وأن فيهما الفحم هذا أمر مجمع عليه وهل يكون الفحم إلا فى أرض حارة . إذن كانت هذه خط استواء ثم تغيرت الحال فى أزمان مجهولة فصارت قطبا ولما صارت قطبا دفنت فيها غاباتها وحيواناتها وطمرت وبقيت إلى الآن . ومن المسلم به أيضا أن الأنهار وهى تجرى من اليابسة إلى البحار تجرف معها مواد وتقذفها فى البحر وهذه المواد تتراكم جيلا فجيلا ثم يأتى زمن تصير قارة جديدة إذ يحصل هناك انقلاب عام فيصير البر بحراً والبحر برا بحادث فجائى عظيم لأن الأرض ملتهبة نارا فى باطنها . وانظر ما جاء فى كتاب (إخوان الصفا) تحت عنوان :

﴿ الأدوار والأكوار ﴾

إذ ذكر أن البر يصير بحرا والبحر يصير برا فى أزمان وعين لها نحو (٣٦) ألف سنة وأن ذلك تبع تقدم الاعتدالين، ولكن أقول إن هذا ظن دليله ضعيف وإنما المعروف هو ما قدمته لك . إذن هذه الأرض تتقلب كما يتقلب الليل والنهار وهذه القارات يوما ما تذهب وتحل محلها قارات أخرى تخلق الآن فى قاع البحر وستظهر بزلزلة عظيمة ، فقصة نوح ونحوها ماهى إلا فتح باب لهذه الفاجآت العظيمة التى أعرب عنها الله بقوله « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا كان ذلك فى الكتاب مسطورا» . ألا ترى رعاك الله أن البراكين اليوم [كما ستقرؤه فى أول سورة فاطر عند قوله تعالى «يعلم مايلج فى الأرض وما يخرج منها»] تأتى لنا من باطن الأرض بمادة بركانية تكون أصلح للزرع من جميع التربة فوق الأرض ، فكم للبراكين والزلازل من منافع، فإذا أتمت قارة عملها خسف بها الأرض هى وأهلها وأظهر قارة أخرى أحسن منها . فالقارات والمدن والأمم أشبه بالأشخاص لكل أجل محدود لمنافع هو يعلمها ولا يعلمها سواه ، وهلاك قارة أو أمة كهلاك فرد واحد لا فرق بين الفرد والأمة والقارة والمدينة اهـ .

﴿ قصة إبرهيم عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) اذكر قصة (إبراهيم إذ قال لقومه) أى حين كمل عقله وتم نظره (اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم) مما أنتم عليه (إن كنتم تعلمون) الخير والشر وتميزانهما (إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا) أى تصنعون أصناما بأيديكم تسمونها آلهة (إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا) فكيف تعبدونهم إذن (فابتغوا عند الله الرزق) فإنه المالك (واعبدوه واشكروا له) لأنه المنعم

عليكم بالرزق والشكر يستلزم العلم بما يجب الشكر عليه والذى يشكر عليه كل ما فى السموات والأرض مما خلق الله فيجب النظر فيه ومعرفته كل على مقدار طاقته وذلك هو قوله « أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده » الخ فذلك هو مفتاح الشكر الذى سيذكر بعد إتمام هذا المقام وهو قوله « إليه ترجعون » فى الآخرة (وإن تكذبوا) أى تكذبونى (فقد كذب أمم من قبلكم) من قبلى من الرسل فلم يضرهم تكذيبهم وإنما كان ضررهم على أنفسهم (وما على الرسول إلا البلاغ المبين) الذى يزول معه الشك، فأما كونه يصدق ويتبع فليس عليه . ثم أخذ يشرح مبادئ الشكر الذى هو إخلاص بالقلب لسائر الناس وثناء باللسان على الله وصرف كل نعمة فيما خلقت له وتلك المبادئ هى المعرفة والعلم فقال (أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق) من مادة ومن غيرها (ثم يعيده) كما بدأه لأن من قدر على البدء فهو قادر على الإعادة (إن ذلك) أى الإعادة أو ما ذكر من الأمرين (على الله يسير) لأنه إذا قال للشئ كن فيكون (قل) يا محمد أو يا إبراهيم (سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق) على اختلاف الأجناس والأحوال وسيأتى شرحه (ثم الله ينشئ النشأة الآخرة) بعد النشأة الأولى التى هى الإبداء ومن عرف النشأة الأولى عرف أن الأخرى أهون (إن الله على كل شئ قدير) والممكنات كلها تتعلق بها قدرته (يعذب من يشاء) تعذيبه (ويرحم من يشاء) رحمته على مقتضى درجته التى استحقها ، ولا معنى للعدل إلا وضع كل شيء فى موضعه (وإليه تقلبون) تردون (وما أنتم بمعجزين) ربكم عن أن يدرككم (فى الأرض ولا فى السماء) إن فررتم من قضائه بالتوارى فى الأرض أو التحصن فى السماء أو القلاع الذاهبة فيها لأنه خلقكم ليربيكم فيهما ويدير عليكم دوائر النحس والسعد والعذاب والنعيم . كل ذلك لتمحيصكم وتربيتكم وتخليصكم من المادة ورجوعكم إلى عالم الأرواح فتلاقوه إن استحققتم وتردون إلى العذاب إن نقصت تربيتكم فأين تذهبون إذن (وما لكم من دون الله من ولى ولانصير) فلاولى يمنعكم ولانصير ينصركم من عذابى (والذين كفروا بآيات الله) دلائله الدالة عليه عقلية ونقلية (ولقائه) بالبعث (أولئك يئسوا من رحمتى) أى يئسوا منها فى الدنيا لأنهم ظنوا أن الله خلق هذه الأرواح فأحياها ثم أماتها بلا فائدة ولا حياة بعد الموت وهذا عمل من لا رحمة عنده ولا رأفة كما قال تعالى « قل لمن مافى السموات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه » فجعل من موجبات الرحمة التى كتبها على نفسه أنه يجمعنا يوم القيامة ويقول هنا إن هؤلاء يئسوا من رحمة الله فهذه هى الرحمة حقا ، فأما خلق الناس ثم هدم بنيتهم هدما تاما وإعدام أرواحهم لارجعة لها فهذا لارحمة فيه ، ولذلك تجد أكثر الآيات يقرن فيها ذكر الله بذكر اليوم الآخر ، وقوله (وأولئك لهم عذاب أليم) أى بكفرهم (فما كان جواب قومه) قوم إبراهيم له (إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه) أى قال الرؤساء ذلك ورضى به الأتباع فأسند إلى كلهم فقذفوه فى النار (فأنجاه الله من النار) فصارت بردا وسلاما (إن فى ذلك) أى فى إنجائه منها (لآيات) كحفظه من أذى النار وإخمادها مع عظمها فى زمان يسير وإنشاء روض مكانها (لقوم يؤمنون) لأنهم المنتفعون بها (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا) أى اتخذتم أوثانا سبب مودة بينكم فتكون « مودة بينكم » مفعولا ثانيا بتقدير مضاف (ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا) فيتناكر الأتباع والمتبوعون ويلعن بعضهم بعضا شأن اللصوص وقطاع الطرق إذا وقعوا فى قبضة القضاء (ومأواكم النار) يعنى العابدين والمعبودين (وما لكم من ناصرين) مانعين من العذاب (فآمن له لوط) وهو ابن أخيه وأول من آمن به لما رأى النار لم تحرقه (وقال إنى مهاجر إلى ربى) من قومى إذ أمرنى بذلك فهاجر من قرية « كوثى » وهى من سواد الكوفة مع لوط وامرأته سارة ابنة عمه إلى حران ثم منها إلى الشام فنزل فلسطين ونزل لوط سدوم . ويقال إنه هاجر وهو ابن خمس وسبعين سنة (إنه هو العزيز) الذى لايغلب وهو الذى يمنعنى من أعدائى (الحكيم) الذى لايأمرنى إلا بمصلحة لى (ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا

فى ذريته النبوة والكتاب) يقال إنه لم يبعث نبي بعد إبراهيم إلا من نسله (وآتيناه أجره فى الدنيا) وهو الثناء الحسن فيكل أهل الأديان يحبونه ويصلون عليه والذرية الطيبة والأنبياء من نسله ، هذا له فى الدنيا (وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) أى فى زمرتهم مثل آدم ونوح وإدريس .

﴿ قصة لوط عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) أرسلنا (لوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين) لم يفعلها أحد قبلكم وفسرها فقال (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل) وتتعرضون للسابلة بالقتل وأخذ الأموال حتى انقطعت الطرق، وكذلك تقطعون سبيل النسل بالإعراض عن مكان الحرث (وتأتون فى ناديكم المنكر) وذلك أنهم كانوا يجبقون فيه وكانوا يستعملون الخذف والسخرية كما فى حديث الترمذى، ومعنى الحبق الضرط، ومعنى الخذف بالمعجمة رمى الحصاة من طرف الأصبع (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) فى استقباح ذلك وفى دعوة النبوة (قال رب انصرنى على القوم المفسدين) بابتداع الفاحشة وسنها لمن بعدهم (ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى) بالبشارة بالولد والنافلة (قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية) قرية سدوم (إن أهلها كانوا ظالمين) بتماديهم فى المعاصى وكفرهم بلوط (قال إن فيها لوطا) فكيف تهلكونها فيهلك مع الهالكين (قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) الباقين فى العذاب أو القرية (ولما أن جاءت رسلنا لوطا سىء بهم) جاءته المساءة والغم بسببهم مخافة أن يقصدهم قومه بسوء (وضاق بهم ذرعا) وضاق بشأنهم وتدبير أمرهم طاقته كما يقال ضاقت يده فى مقابلة رحب ذرعه بكذا إذا كان مطيقا له لأن طويل الذراع ينال ما لاينال قصير الذراع (وقالوا لا تخف ولا تحزن علينا إنا منجوك وأهلك) أى إنا مهلكوهم ومنجوك وأهلك ونصب أهل بإضمار فعل (إلا امرأتك كانت من الغابرين) (إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء) عذابا منها (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم (ولقد تركنا منها آية بينة) وهى حكايتها المشهورة وآثار الديار الخربة (لقوم يعقلون) أى يستعملون عقولهم فى الاستبصار والاعتبار . هذا واعلم أن الكلام على قرى قوم لوط وأين مقرها تقدم فى المجلد الثالث عشر عند ذكر القصة فى القرآن فارجع إليه إن شئت تجد هناك الكشف الحديث مجالا واسعا.

﴿ قصة شعيب عليه السلام ﴾

قال تعالى (وإلى مدين أخاهم شعيبا فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر) افعلوا ما ترجون به ثوابه (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . فكذبوه فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة، وقيل صيحة جبريل (فأصبحوا فى دارهم جاثمين) أى فى دورهم باركين على الركب ميتين .

﴿ قصة عاد وثمود إذ أرسل لهم هود وصالح عليهما السلام ﴾

قال تعالى (و) أهلكنا (عادا وثمودا وقد تبين لكم من مساكنهم) يا أهل مكة إذا نظرتم إليها عند مروركم بها (وزين لهم الشيطان أعمالهم) وهى المعاصى وعبادة غير الله (فصدهم عن السبيل) السوى (وكانوا مستبصرين) متمكنين من النظر والاستبصار ولم يفعلوا .

﴿ قصة موسى عليه السلام ﴾

قال تعالى (و) أهلكنا (قارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين) أى فائتين بل أدركهم أمر الله (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا) وهم قوم لوط رموا بالحصباء، وهى الحصا الصغار كما كانوا يرمونها بأصابعهم وهم يأتون فى ناديهم المنكر (ومنهم من أخذته الصيحة) يعنى ثمود ومدين (ومنهم من خسفنا به الأرض) وهو قارون (ومنهم من أغرقنا) وهم

قوم نوح وفرعون (وما كان الله ليظلمهم) ليعاملهم معاملة الظالم فيعاقبهم بغير جرم (ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون) إذ تعرضوا العذاب باستعداد نفوسهم له على مقتضى النظام الذى نظمناه فى سر الخليقة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الأول من السورة .

﴿ لطيفة فى قوله تعالى « أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير .
قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة » ﴾

لقد مضى الكلام على هذه الآية فى ضمن الكلام على قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض » الخ فى (سورة البقرة) بطريق الاستطراد فلنفصل الكلام عليها تفصيلا الآن .

يقول الله « أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق » الخ ثم يقول « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » وهذا أمر صريح يوجب علينا معاشر المسلمين التشمير والجد والطلب الحثيث فى معرفة كيف بدأ الله الخلق . أمرنا الله بالسير فى الأرض والسير قسمان : سير جسمى وسير عقلى ، فالأول محتم على الجهلاء والتلاميذ ، والثانى محتم على العلماء والحكماء ، ولا يكون الثانى عادة إلا بعد الأول ولا معنى للسير الثانى إلا الدراسة فأما مجرد النظر الظاهرى كنظر العامة ونظر البهائم فهذا ليس بنظر وليس بسير .

واعلم أيها الذكى أنى فى مبدأ أمرى كنت أقول فى نفسى هذا العالم إما منظم وإما مبعثر لانظام فيه ولا ترتيب فان كان الأول فله إله وإن كان الثانى فلا إله له لأنها عبارة عن اجتماع وافتراق بلا ضابط ولا رابط ولا نظام ؟ ولقد ذكرت هذه القصة فى كتابى [التاج المرصع] وقلت ما معناه [إنى توجهت إلى مبدع هذا الوجود وطلبت منه أن يوقفنى على نظامه ولطالما سألته سبحانه فى الخلوات ودعوته فى الحقول وعلى شطوط الأنهار وبين الأشجار وفى الليالى والأسحار أن يفهمنى ذلك حتى يكون اليقين داخل نفسى لا يؤثر خارجى وأصبحت بهذه الفكرة مغرما وعليها معولا وكنت إذا نظرت الطيور فى وكناتها وهن يغردن طربات ويطرن فرحات ويربين أولادهن صابرات . أقول إذا كان صانع هذا العالم قد أعد للطير عدته وأبان له محجته أفلا يكون لهذا الإنسان سبيل إلى ما يبتغيه وطريق إلى ما له حاجة فيه وكان ذلك مبدأ فكرى فى هذه الدنيا وكنت إذا عثرت على شاطىء النهر على بعض حشرات ذات خطوط منظمات وذات زوايا مهندسة وأشكال بهجة أقول بالبتى أرى هذه الدنيا كلها على هذا النمط فأقر بإله نظمها وحكيم أبدعها ولكنى أرى الجبل والقفر والبر والبحر والشجر والحجر والأرض والسماء لانظام فيها مقبول ولا عمل فيها محسوب .

أليست هذه المرأة تضع حب الذرة فى الأرض التى شقها الحراث ، وزوجها واضع يده على قائمة ذلك المحراث يسوق دابتين فأين النظام ؟ بهائم ليست مستقيمات الرءوس إلى أعلى وإنسان رأسه مشرئب إلى العلا وماء يجرى فى الحقول وحب يبذر فى الطين ، أمور غير مضبوطة وأحوال ليس لها قانون ولا نظام مسنون ثم توجهت وتوجهت ودعوت ودعوت وقلت لو أن صانع هذا الكون علمنى نظامه لأودعت ذلك بطون الكتب وتركته لمن بعدى من الحائرين وخلفته للأذكياء المفكرين كيلا يشكوا كما شككت ولا يهنوا كما وهنت ولا يضلوا كما ضللت ، ثم صنفت كتبا مختلفة المقاصد والحمد لله إذ وفقنى لهذا التفسير . إن هذا غاية مطالبى من هذه الحياة ونهاية مأربى من هذه الدنيا ، فهل تحب أن أريك جمال الوجود والنظام المشهود لتعرف قوله تعالى «قل سيروا فى الأرض فانظروا» . فانظر ما سأضعه بين يديك واعجب من حكم عالية وجواهر غالية ووجوه باسمة وعيون ساحرة وشموس ساطعة وأنوار باهرة فهاك مبادئ الوجود وأوائل العالم المشهود .

ولنبدأ بالعوالم العلوية ونتبعه بالعوالم السفلية :

(١) فترى أولا نظام الكواكب .

(٢) ثم نظام العوالم الأربعة الإنسان والحيوان والنبات والمعادن .

(٣) ثم

(٣) ثم نظام العناصر .

(٤) ثم بيان أن الإنسان خاصة دعى إلى معرفتها .

(٥) وبيان ذلك فى أدعية الصلاة نفسها وكيف كان المسلم فى صلاته وأدعيته يكرر صباحا ومساء نفس هذه المبادىء ويتلوها وهو غافل عن معانيها وهو بتلك التلاوة وبتلك الأدعية مأمور أن يبحث فى هذا العالم وكيف بدأ الله الخلق .

(٦) ثم تبيان أن الله ماترك الناس سدى بل أعطى الجهلاء ظلال هذا النظام وألقاه على ألسنتهم وفى أعمالهم بصورة مصغرة .

ومتى قرأت هذه الصور اتضح لك العالم ورأيته كقلادة الحسناء أو كمنزل نظمه بانيه وأحكم نظامه أو كحديقة غناء رتبت أشجارها وانتظمت مزارعها ، أو كمدينة أحكمت طرقها وبيوتها أو كبيوت الشطرنج انتظمت طولا وعرضا وفيها أمهر اللاعبين وأذكى الحاسبين .

(١) نظام السموات

سأتلو عليك من نبأ السموات مايناسب المقام ولأوضحنه على قدر الامكان لتعرف كيف وضعت الكواكب وضعا محكما بحيث كان بينها مسافات منتظمات وكان يكفينى أن أحيلك على ما كتبته لك فى (سورة البقرة) وغيرها مثل (الأنعام) ولكن سأعيد هنا مافيه الكفاية .

إن فى علم الحساب متوالية هندسية ومتوالية عددية . فالأولى مثل قولك (١ - ٢ - ٤ - ٨ - ١٦) وهكذا و (٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ الخ) والثانية مثل (٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ١٠ الخ) فانظر كيف وضع الله الكواكب وجعل نظامها بالنسبة للشمس على الطريقة الأولى بحيث إذا فرضنا بعد الزهرة (٣) يكون بعد الأرض (٦) والمريخ (١٢) وكوكب مهشم بقيت آثاره تجرى كما كان يجرى وقد كشفه العلماء (٢٤) والمشترى (٤٨) وزحل (٩٦) وأورانوس (١٩٢) ونبتون (٣٨٤) .

هذا هو القانون الذى استخرجه العلماء فى العصر الحاضر لإبعاد الكواكب السيارة عن الشمس بحيث يكون بعد كل كوكب ضعف بعد الكوكب الذى قبله ، فكأن هذه الكواكب مصابيح وضعها صاحب البيت على أوضاع لاخلل فيها ناطقة بلسان الحال «وما كنا عن الخلق غافلين» «إنا كل شىء خلقناه بقدر» «وكل شىء عنده بمقدار» «وإن من شىء إلا عندنا خزائنه ومانتزله إلا بقدر معلوم» «إن الله سريع الحساب» .

أليس من السار اللذيذ أنى حييت فى هذه الدنيا حتى كتبت هذا ، اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم والحكمة .

أيها الذكى أنا لاأريد فى هذا المقام كثرة العلم لأن المقام يقتضى الأمثلة السهلة المقبولة فكفى ماذكرته فى الفلك وأما تحقيق تلك الأعداد فارجع اليه فى نفس هذا التفسير فى سورة البقرة والأنعام فان ماذكرته إجمال وهناك تفصيل ومساحة بآلاف الآلاف من الأميال .

(٢) نظام الإنسان والحيوان والنبات والمعادن

هاأنت ذا رأيت نظام الكواكب من حيث وضعها ، فهل نظام هذه المواليد على الأرض كنظام الكواكب فى الأبعاد كلا . وإنما نظامها بحال مخالفة لتلك . إن هذه المواليد سلسلة واحدة متصل أعلاها بأدناها :

(١) التراب

(٢) الجبس . الزاج . الشب . أدنى المعادن .

(٣) الذهب . الياقوت والجواهر النفيسة كلها أعلى المعادن .

(٤) خضراء الدمن والكمأة وهى أدنى النبات .

(٥) النخل والكشوث وهما من أعلى النبات .

(٦) أنبوبة تنبت على الصخور فى سواحل البحار فهادودة تخرج نصف شخصها من جوف تلك الأنبوبة الحلزونية هذا أدنى الحيوان .

(٧) القرد . الحصان . الفيل . هذه متصلة بعالم الإنسان .

(٨) أدنى الانسان سكان أطراف المعمورة لا معرفة لهم ولا علم .

(٩) أعلاه الأنبياء فالحكماء .

(١٠) الملائكة .

(١١) الله فوق الجميع .

هذه هى السلسلة التى شرحها القدماء ولقد شرحتها مرارا فى هذا التفسير بطرق شتى ، فترى الجص والشب والزاج معادن أقرب إلى التراب ليست شريفة كالذهب ولا الياقوت ولاتزال المعادن فى ارتقاء حتى تصل إلى الفضة التى هى أرقى من النحاس ثم الذهب ، فهذا الأعلى من المعادن يليه أدنى النبات وهو اللاصق بالأرض ينبت صباحا ويذبل ضحى يراه الناس كل يوم فى الغدوات أيام الربيع ثم ينتهى ضحى وهكذا كل يوم ويرتقى النبات إلى أن يصل إلى النخل والكشوثى ، أما النخل فقد امتاز الذكر فيه عن الأنثى كأنه حيوان ، وأما الكشوثى فهو نبات يعيش على غيره من النباتات ويمتص منه فكأنه حيوان ، فالنخل قارب الحيوان فى انفصال الذكر عن الأنثى والكشوثى فى استقلاله وعيشه عيشة حيوانية على النبات لا على التراب والماء والعناصر الأرضية ثم يلى ذلك دودة الحلزون التى تكون على شاطىء النهر والبحر إذ لها حاسة اللمس وليس لها حاسة غيرها فهى قريبة من النبات . إنه يحس بالضوء فيميل إليه باحساس ضعيف جدا ويرفع غصنه إلى أعلى ويمد فروعه فى الأرض نحو المواضع الندية ويتجافى عن المواضع اليابسة ، فإذن بين النبات وبين أدنى الحيوان مناسبة والحيوان يرتقى من الأدنى إلى الأعلى وهو الإنسان وهو درجات من أدنى إلى أعلى وأعلاه الأنبياء ومن نالوا حكمة وعلما وبعد هؤلاء عالم الملائكة وفوق ذلك الله فهو منزه عن هذه المادة والمخلوقات. فهنا إذن نسبة كاملة والعالم سلسلة منتظمة .

(٣) (النظر فى المعادن)

إن المعادن كثيرة منها الاسفيذاج والاسرب والاسفندرى والتنكار والجص والتوتيا والدر والذهب والرصاص والرماد والزاج والزنجار والزئبق والزرنيخ والزبرجد والزنجفر والزمرد والشب والعقيق والعنبر والفضة والفيروزج والقير والكبريت والكحل وملح الطعام والمرجان والمغناطيس والموميا والنورة والنوشادر والنحاس والنفط والياقوت . قال العلماء [إن من المعادن الألماس وهو لا يحتك بجسم من الأحجار المعدنية إلا هشمه إلا جنسا من الاسرب فإنه يؤثر فيه ويكسره ويفتته مع رخاوته ولينه ونتن رائحته] وما مثل تأثير هذا الحجر الضعيف المهين فى هذا الجوهر الشريف إلا كمثل (البقة) تسلطت على الفيل القوى فآذته ، فالألماس قام فى المعادن مقام الحديد فى الخشب والياقوت مسلط على أكثر المعادن . ثم إن الماس يتكون فى معدن الياقوت وتخرجه الرياح والسيول من معدنه وهو ضربان أبيض كالبلور ويسمى البلورى وأبيض يخالط بياضه صفرة ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه ، وإذا وضع على الحديد ودق بالمطرقة لم ينكسر وغاص فى وجه السندان والمطرقة . والياقوت لا تعمل فيه المبارد لشدة صلابته إلا الألماس والسنباذج بالحك فى الماء . والمغناطيس يجذب الحديد فانظر كيف كان الياقوت يعمل فى أكثر المعادن وهو مسلط عليها والألماس مسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن والأسرب الذى هو جنس من الرصاص ولكنه غير ناضج مسلط على الألماس المسلط على الياقوت وعلى سائر المعادن ثم إن هذه المعادن تجمع من أقطار المسكونة فى أماكن مختلفة ومع ذلك تراها متحدة الوجهة بحيث تتحد على المنافع العامة ، ولها نظام : فمنها الجاذب ومنها المجذوب ومنها الحاكم على الجميع ومنها ما هو تحته . وهذا الحاكم وهو الألماس له مؤدب

من رعيته وهو الأسرب وكأنه قاض يحكم على الملك، وإذا رأينا العلماء والحكام فى الناس على مقدار الحاجة هكذا نرى المعادن لا يحكم فيها بالقطع إلا قليل على قدر الحاجة ، ونرى ماكان منها نافعا فى أكثر الأحوال يكثر كالجبس والنوشادر ، وماكان متوسط النفع يكون متوسط الوجود كالنحاس والرصاص، وماكان للزينة أو للتعامل كان وجوده أقل كالذهب، وماكان لمجرد الزينة والجمال ندروجوده كالألماس والياقوت، فهذا نظام يشبه نظام الكواكب فيما تقدم فتلك نظمت أوضاعها وكالمواليد الثلاثة فإنها متسق نظامها متقارب وضعها وهذا أيضا رتبت على مقدار الحاجة إليها وهى وإن دخلت فيما قبلها أردت أن أفصل الكلام فيها تفصيلا توطئة لما سيأتى فى القسم الرابع، وهى :

(٤) (العناصر عند علماء العصر الحاضر)

إنى أحمد الله إذ وصلت إلى هذا المقام فأريدأن أطلعك على نظام بديع فى العناصر التى عرفها علماء العصر الحاضر وهوفوق السبعين عدا . قد كان القدماء يقولون إن العناصر (٤) وهى الماء والتراب والنار والهواء، ولكن علماء العصر حللوا هذه فأصبحت فوق السبعين وسأوضح بعضها وليس المقام مقام علم العناصر ولا مقام تحليلها وإنما المقام مقام نظام وحساب . إن هذا الأمر أعجب مارأيت فى العلم ولكنى لا أقدر أن أشرحه كما يجب . إن معرفة الدقة فى الحساب والنظام بين العناصر والنسب بينها لايعرفها إلا أكابر العلماء فى هذا الفن وهم لم يعرفوها إلا بعد ما عرفوا الخواص الطبيعية والكيمائية وبعد تلك الخواص يعرفون النسبة والجمال فكيف يمكن أن نفهم ذلك ونحن فى تفسير القرآن ونخرج عن جمال موضوعنا إلى مجاهل مقفرة وطرق يضل فيها السارون . أقول إن الله يضرب الأمثال للناس فلأقدم لك ضرب مثل يشرح صدرك وتعرف به هذا المقام الجميل ، تصور رجلا مثريا عنده نحو ثمانين رجلا يزرعون فى حقوله فأقبل عليه علماء بلاده ضيوفا فأحب أن يريهم عجيبة فقال إن هؤلاء الرجال إذا أنا أوقفتهم صفوفا فى أماكن معينة من هذه الأرض بحيث يتكون منهم صفوف طولية وصفوف عرضية فإن كل رجل أرتبه مع ما بعده بحسب الوزن فكل رجل يزيد عما قبله وقيتين فى الصف الأول الأفقى وهكذا الصف الثانى والثالث إلى الصف الرابع عشر وذلك من اليمين إلى الشمال بحيث يكون آخر واحد أكثر من أول واحد بعدد الرجال مرتين من الوقيات ، وهنا يكون العجب العجاب تجد كل واحد من كل صف أفقى أعنى من اليمين إلى اليسار أكثر مما قبله وقيتين وأقل مما بعده وقيتين كما قدمنا إجمالا ، وأيضا يكون هو نفسه بالنسبة لمن هو فوقه أقل (٢٦) وقية وبالنسبة لمن تحته أكبر (١٦) وقية فى الخط الرأسى ومع هذا كله تجد كل صف أفقى قد اتحدت أفراده فى ثمانية أشياء كالعرض والطول وطول الشعر بحسب الطبيعة ومقدار ما يأكلون بالوزن ومقدار ما يشربون كذلك ، والمرض يكون فى وقت واحد والفرح والحزن كذلك لا يختلفون البتة والنوم فى وقت واحد .

هذا من جهة الصف الأفقى . أما من جهة الصف الرأسى فإن الرجل مع من خلفه ومن أمامه يتفقون فى الصفات الباطنة فيعرف الصف الواحد علوما متفقة ، فمتى عرف واحد منهم علم النحو والصرف والفقه والتفسير والشعر والعروض والأدب وعلم الموسيقى تجد الصف كله يعرف تلك العلوم . إذن لكل واحد خصال يشترك فيها مع الصف الأفقى وخصال يشترك فيها مع الصف الرأسى ، وإذا مات واحد من هؤلاء فإن صفاته معلومة لأن صفاته الجسمية بالنسبة للخط الأفقى وصفاته العقلية بالنسبة للخط الرأسى مفهومة معلومة فيمكننا أن نعرف صفاته ونوقن بأننا نجد فى قريتنا أطفالا يولدون بهذه الصفات فلو مات ثلاثة من صفوف مختلفة فإننا نوقن أنه سيولد أطفال يحلون محل الذين ماتوا بشرط أن كل طفل يخلق متصفا بتلك الصفات المعروفة عندنا ويحل محل من مات بصفاته التى لا خلل فيها . ولقد مات عشرون رجلا وصفاتهم

معروفة وها نحن أولاء نرتقب المولودين حديثا ونضع كل مولود فى مرتبته ومتى كبر رأيناه بهذه الصفات فى الأماكن الخالية . هذا هو المثل الذى أردت ضربه ليقرب لنا موضوع النظام، فى العناصر فصاحب الضيعة جعل رقعة من أرضها وقسمها مربعات وجعل المربعات صفوفا منتظمات وأوقف كل رجل فى مكان مرتبين بترتيب الوزن من اليمين إلى اليسار وهذا الترتيب بعده تظهر خواص عجيبة حتى إن كل رجل يشارك صفة الأفقى فى صفات نحو ثمانية وهكذا هو مع من أمامه ومن خلفه تكون له صفات أخرى خلقية وكلما مات واحد يولد آخر ويكون له نفس تلك الصفات وإذا مات منهم عدد جاء بدله ويمكنهم أن يصفوا كل من يخلق قبل وجوده . فإذا رأينا وجودا على هذا النمط كان فى غاية النظام . وإذا تصورنا أن هنا موجودات على هذه النسبة كما ستراه الآن فى العناصر فإن العقل يدهش لذلك أشد الدهش وتصبح هذه العناصر فى أوزانها وأوصافها أشبه بالجدول الآتى :

١١	٢٤	٧	٢٠	٣
٤	١٢	٢٥	٨	١٦
١٧	٥	١٣	٢١	٩
١٠	١٨	١	١٤	٢٢
٢٣	٦	١٩	٢	١٥

فإذا صعب عليك التمثيل بالرجال فى الضيعة فيما قدمناه فانظر هذا الجدول فهو يقرب لك المقام . فكل صف من صفوفه الرأسية وصفوفه الأفقية وهكذا القطران عدد (٦٥) فاجمع أى صف تجده على هذا النمط وهذه الأعداد من (١) إلى (٢٥) وضعت على هذا النظام فكان هذا الاتحاد فى الجمع . إذا عرفت هذا فقس عليه نظام العناصر الآتى ولكن هذا تقريبى إذ نظام العناصر الآتى يكون نسبة كل عنصر إلى صفه الأفقى غير نسبته إلى صفه الرأسى كما رأيت، وأيضا الصفات هناك كثيرة ولكنها هنا فى الجدول ليست متعددة ، ولقد أطلت ليسهل عليك ما سأذكره (انظر الجدول الآتى فى الصفحة التالية) .

(الصفوف أو الخطوط الرأسية)

(الصفوف أو الخطوط الأفقية)

الايدروجين ١ر٧											
هليوم ٣ر٩٩	ليثيوم ٦ر٩٤	جليتوم ٩ر١	بورون ١١	كربون ١٢	ازوت ١٤	اكسوجين ١٦	فلور ١٩				
نيون ٢١	صوديوم ٢٣	مانغنيسيوم ٢٤ر٣٢	الومنيوم ٢٧ر١	سليكون ٢٨ر٣	فوسفور ٣١	كبريت ٣٢ر٠٧	كلور ٣٥ر٤٦				
ارجون ٣٦ر٨٨	بوتاسيوم ٣٩ر١	كالسيوم ٤٠ر٠٩	اسكنديوم ٤٤ر١	تيتان ٤٨ر١	فاناديوم ٥١ر٠٦	كروم ٥٢	مانجنيز ٥٤ر٥٣	حديد ٥٥ر٨٥	كوبلت ٥٨ر٩٧	نيكل ٥٨ر٦٨	
	النحاس ٦٣ر٥٧	خارصين ٦٥ر٣٧	جاليوم ٦٩ر٩	جراماتيوم ٧٢ر٥	زرنيخ ٧٤ر٩٦	سيلنوم ٧٩ر٢	بروم ٧٩ر٩٢				
كربتون ٨٢ر٩	روبيديوم ٨٥ر٢٥	استرانشيوم ٨٧ر١٣	ايتريوم ٨٩	زركيتيوم ٩٠ر٦	نيوبيوم ٩٣ر٥	موكبدين ٩٦		روتينيوم ١٠١ر٧	روديوم ١٠٢ر٥	بلاديوم ١٠٦ر٧	
	فضة ١٠٧ر٨٨	كودميوم ١١٢ر٤	انديوم ١١٤ر٨	قصدير ١١٩	انتيمون ١٢٠ر٢	تللوريوم ١٢٧ر٥	يود ١٢٦ر٩٢				
زينون ١٣٠ر٢	سيزيوم ١٣٢ر٨١	باريوم ١٣٧ر٢٧	انتال ١٣٨ر٩	سيريوم ١٤٠ر٣	... ١٤٤	...	سماريوم ١٥٠ر٣				
				اربيوم ١٦٦							
			انتربيوم ١٧٢		تانتال ١٨١	تونجتن ١٨٤		ارسميوم ١٩٠ر٩	ايريديوم ١٩٣ر١	بلاتين ١٩٥ر٢	
	ذهب ١٩٧ر٢	زئبق ٢٠٠ر٦	ثاليوم ٢٠٤	رصاص ٢٠٧	بزموت ٢٠٨						
		أوديوم ٢٢٦ر٤		توريوم ٢٣٢ر٤		أورانيوم ٢٣٨ر٥					

ههنا آن أن أشرح لك جدول العناصر السابق. أشرحه لك لتعجب من عجائب هذه الدنيا البديعة الجميلة ألست ترى أن الايدروجين وحده يقاس عليه كما رأيته فوق الجدول وأن الهليوم زاد عليه اثنين تقريبا وهكذا الليثيوم وجليتيوم وبورون وكربون وأزوت وأكسوجين، فهذه مع الايدروجين ثمانية كان وزن آخرها وهو الاكسوجين (١٦) فكان لكل واحد اثنان فى الجملة وإن اختلف بعض أفرادها ونجد أن وزن ذرة الكبريت (٣٢) وكسر وهى تمام الثمانية الثانية، وعلى كل فالنسبة بين كل عنصرين اثنان ولكن هذا أمر تقريبي قد يختلف، ثم لننظر إلى الصفوف الرأسية التى يسمونها الطوائف، فإننا نجد أن الليثيوم فى الصف الرأسى (٦ر٩٤) والصوديوم تحته (٢٣) والفرق بينهما (١٦) ثم إن البوتاسيوم تحته (٣٩ر١) فالفرق بينهما (١٦)

ألست أيها الذكى تتعجب من هذا النظام البديع ، كيف رتبت العناصر اثنين اثنين عند وزنها بمعنى أن الايدروجين وهو أخفها جعل وحدة يقاس بها كما يقيس الناس بالذراع ، وهذه العناصر كلها أثقل منه بعدد (٢-٢-٢) إلى آخرها ثم وجد بينها تناسب فى الخطوط الرأسية ، إذن هى تفاوتت باثنين أفقيا وتفاوتت رأسيا بضاعف اثنين وهو (١٦) وهو العدد المسمى بزوج الزوج الذى هو عدد الشطرنج المعروف وكأن هذه رقعة شطرنج والله وضع العناصر فيها ورتبها ليرينا كيف بدأ الخلق بنظام ، وهل كان يدور بخلدك قبل هذا أن هذا العالم الذى خلقنا فيه قد جعلت أصوله التى تحلل إليها الإنسان والحيوان والنبات بينها تناسب فى أوزانها كتناسب مسألة الشطرنج ، إذ أن الملك الهندى لما اخترع الفيلسوف الشطرنج طلب منه أن يتمنى شيئا ليكون كالمكافأة فقال أعطنى قمحا بحيث لو جعل فى البيت الأول من الأربعة والستين بيتا من الشطرنج حبة يكون فى الثانى (٢) وفى الثالث (٤) وفى الرابع (٨) إلى آخره فلما حسبوه لم يكفه القمح الذى فى الدنيا مئات السنين وقد كتبتها فى كتابى [نظام العالم والأمم] وتقدم فى سورة مريم . هذا نظام العناصر حسابيا .

﴿ نظام العناصر الطبيعى والكيمائى ﴾

انك ترى أن كل صف رأسى تشترك أفراده فى الخواص الطبيعية (١) كاللون (٢) والطعم (٣) والرائحة (٤) والذوبان (٥) والانصهار (٦) والغليان (٧) والحرارة النوعية (٨) والكثافة .

فأما الصفوف الأفقية كالهليوم مع الليثيوم فانها تشترك فى الصفات الكيمائية مثل (١) الاحتراق وكونه فلزا أو غير فلز (٢) وهل يتفاعل مع الاودروجين (٣) والوزن الذرى (٤) والوزن المكافىء بالنسبة للاودروجين ، ومعنى ذلك أن يقال هذا العنصر إذا حل محل الاودروجين فى التفاعل مع الاكسوجين مثلا فكم درهما تقوم مقام الايدروجين فتطرد الايدروجين وتحل محله (٦) ثم مع أى عنصر يركب (٧) وخواص المركبات وتركيبها (٨) وتأثيره فى الأحماض [مثال ذلك] الألومنيوم تأمل تجد أن له نسبة عددية إلى ماقبله وما بعده ونسبة هندسية إلى مافوقه وما تحته فهنا اجتمعت النسبة العددية والنسبة الهندسية وهذا هو عين الموسيقى والنغمات والشعر ، فهذا العالم كله موسيقى وشعر ونظم وتجده يشترك فى خواصه الطبيعية المذكورة مع مافوقه وهو البورون وماتحته وهو انكليديوم وخواصه الكيمائية يشترك فيها مع ماقبله فى الخط الأفقى وهو المغنيسيوم ومابعده فيه وهو السليكون فاذن تكون الصفات (١٨) صفة منها اثنتان عدديتان و (١٦) طبيعية وكيمائية

﴿ معجزات العلم فى هذا الجدول وعجائب القرآن ، وفهم قوله تعالى «وكل شىء عنده بمقدار» وقوله «إن الله سريع الحساب» وهو كله معنى قوله «قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق» ﴾

إذن يسهل عليك أيها الذكى أن تفهم كيف أخبر (منديليف الروسى) سنة ١٨٦٩ مخترع هذا الجدول بما سيحدث وهو أن الطبيعة تحتوى على معدن جاليوم وجرمانيوم ومعدن آخر وعين فى هذا الجدول محلها الذى رأيته وذكر الخواص الطبيعية والكيمائية ونسبها الحسابية التى هى من الصفات الكيمائية أيضا ثم جاء العلماء بعده فكشفوا هذه المعادن الثلاثة على وزان ماقرر هو فتأمل وتعجب ، وعليه سيكشف الناس كل عنصر وضع فى مربعه شرطه سوداء أو نقط فى هذا الجدول وقد عينوا مواضعها وخواصها كما فعل (منديليف) سنة ١٨٦٩ فههنا أحد وعشرون عنصرا قد عينها الناس مترجين كشفها فى الزمان المستقبل والعناصر التى كشفت إلى الآن (٨٦) والباقى المنتظر (٣٤) تقريبا فتكون العناصر كلها (١٢٠) .

ولعمرى أى فرق إذن بين نظام الكواكب ونظام العناصر ، فههنا (منديليف الروسى) أخبر بعناصر قبل وجودها وأبان أوصافها فكانت كما ذكرنا وكذلك فى علم الفلك فانهم كشفوا أيضا أن بعد كل كوكب سيار مضاعف لبعد ماقبله عن الشمس وبهذه الطريقة قالوا إن بين المريخ والمشترى فراغا كان يجب أن يكون فيه سيار فى المسافة (٢٤) لئلا تختل النسبة المحفوظة ، فانظر الجدول فى (سورة البقرة) وقد ذكرناه فى هذا

القال اجمالا قريبا ، وقد كشف العلماء كواكب كثيرة فى نفس ذلك المكان الذى عينه العلماء وهى عبارة عن قطع صغيرة من ذلك الكوكب الذى كان فى ذلك البعد ثم جاء أجله وقامت قيامته فصار هشيما وها هى الكواكب الصغيرة التى اشتقت منه تدور حول الشمس ولكن لايعرفها إلاعلماء الرصدومن أجزائه سيريس.

(الكلام على الروديوم وعلى الذهب وأمثالها)

لقد عرفت كيف كانت العناصر منظمة تنظيما بديعا بهيجا وهذا النظم فيها أبدع وأبهج من نظام الجدول المخمس الذى رأيته آنفا وإنى أحمد الله عز وجل إذ كنت أيام التعلم أبحث فى هذا العالم عن نظامه وقداطلعت على أوفاق كذلك الوفق المخمس فكنت أقول ياليت شعرى إن الله كان يقدر أن يجعل العالم منظما كنظام هذا الجدول ، إذن يكون هذا العالم بديعا ويستدل الإنسان به على ربه. أما الآن فانى أقول إن هذا الترتيب أعجب وأبدع من ذلك الجدول الذى يعجب منه المبتدئون ، ماكان ليخطر ببالى أن يكون هذا العالم على هذا النظام ، وماكان يخيل لى أنه حق كما رأيت الآن ، ياعجبا كل العجب كواكب منظمة أبعادها حيوانات ونباتات ومعادن مسلسلة صفاتها منظمة متتالية عناصر مرصعة مرصوفة محسوبة منظومة ، هذا هو الشعرهذا هو النظم ، هذه هى القصائد ، هذه هى الأغانى . لا، بل هذه هى السعادة والنعمة وبهجة جنان الخلد .

إن أهل الجنة إذا لم يتعلموا يودون لو يعرفون هذا معرفة أجل من معرفتنا ، جل الله ، ماأبدع هذه الجواهر وأقرها للنواظر وأسرها للخواطر وأشرحها لصدور الأكابر .

(نظام النفوس الإنسانية والملائكة)

إن فى هذه الجواهر عجائب أخرى . ألا ترى إلى الذهب والحديد والرصاص وأمثالها كيف نظمت كما قدمناه فى وجودها بحيث تكثر النافعة العموم وتقل غيرها كما شرحناه فى الكلام على المعادن . ألم يقل الذهب لأن فائدته يجب أن يكون هو على مقتضاها . ألم يكن الروديوم الذى قد كشف حديثا قد قل وجوده جدا جدا بحيث إن الذى كشف منه لايصل إلا إلى دراهم معدودة ، ألم تر أن هذه القلة تناسبه حتما ، لماذا ؟ لأنه هو الحاكم على المعادن . انظر كيف كان الألماس فيما قدمنا يحكم على المعادن ويسلط عليها ويكسرها أماهو فلا يحكم عليه إلا الأسرب كما علمت، فأما هنا فان الروديوم تسلط أشعته على بعض المعادن فيحيلها إلى البعض الآخر حتى أصبح الناس يرون أن العناصر من أصل واحد بسبب هذا التأثير . ألست ترى أن هذه الأشعة قد أثرت فى العلم تأثيرا كبيرا . ألست ترى أن قلة هذا المعدن لابدمنها ولو كثر لأحدث تغيرا فى عالمنا الأرضى ألست ترى أن الذهب كالحكماء والنحاس والحديد والاكسوجين والاودروجين وغيرها كبقية الناس . أولست ترى أن هذا المقام هو الذى شرحه أفلاطون فى جمهوريته إذ جعل الناس قسما كالذهب وقسما كالفضة وقسما كبقية المعادن وهم الحكام والجيوش وبقية الأمة . أو لست ترى معى أن الأنبياء أشبه بالروديوم . أو لست ترى أن هذا هو قوله عليه الصلاة والسلام «الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام » أولست ترى معى أن هذا النظام فى العناصر يخيل للانسان أن هناك نظاما أدق منه فى عالم الأرواح الانسانية وأنها ربما كان بينها نظام كهذا النظام أو أدق بحيث لو بحث الناس فى عقولهم المختلفة لوجدوا هناك نظما تتفق وتختلف بنظام بحيث تقوم تلك القوى الكامنة بحاجة البشر ، أو لست ترى أن الناس يجهلون نظام عقولهم وأنهم لايزالون أشقياء حتى يعرفوا نظام عقولهم . أولست ترى أن نظام عقولهم يكون أدق من حيث نسبه من نظام الذرات لأن الأرواح أرق من المادة والأرق تكون فيه النسب أدق . أو لست ترى أن الناس سيبحثون عن هذه الغرائز فى طباعهم ولكنى لاأدرى هل ينالونها فى المستقبل على هذه الأرض أم ذلك مؤجل ليعرفوه بعد موتهم فى العوالم التى سيمرون بها فى عوالم البرزخ وهناك يدرسون أنفسهم دراسة أدق من دراسة هذا الجدول . ألست ترى أن هذا يناسب قوله تعالى «ومامنا إلا له مقام معلوم» وإذا كان المقام للعلوم بالنسبة

القدرات عجبا فما بالك بالمقام المعلوم للملائكة . أو ليس هذا كله يناسب نظام الشمس والكواكب فى شروقها وغروبها لأن لها جداول لا خلل فيها . يا ألله عجبت من صنعك وإبداعك وفهمنا على قدر طاقتنا قولك « أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير . قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » . هذا هو بدأ الخلق وهو عجيب جدّ عجيب .

(اللطيفة الخامسة : فى أن حاجة الناس دفعتهم إلى هذه العلوم)

أيها الذكى ها أنت ذا اطلعت على نظام هذه العوالم وعلى بدء الخلق ورأيت كيف حضّ عليها القرآن أفلا تنظر معى كيف اتفق الشرع والحاجة . وبعبارة أخرى : انظر كيف أمر الله بأن نعرف كيف بدأ الخلق ولم يكتف بذلك بل أحوج الانسان وحكم عليه أن يبحث فى ذلك كله لأجل أموره المعاشية . انظر كيف ترى العالم الروسى يبحث عن نسبة العناصر وهو لم يبحث عنها إلا وهو مجد فى طلب علوم الدنيا لأجل الحياة الحاضرة والله يقول لنا أيضا انظروا ، إيه ، ما أجهل الانسان ، ما أجهل أمة الاسلام ، أبعد هذا يا أمة محمد صلى الله عليه وسلم تنامون ، أمركم ربكم ودعت الحاجة إلى معرفة حقائق الدنيا وأنتم نائمون ، ألستم أنتم الذين وعدتم وأمرتم أن تكونوا خير أمة أخرجت للناس وأن تكونوا رحمة للعالمين وتخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، أأنتم ورثة السلف الصالح . كلا . كلا . والله أنتم ورثتهم ولكن فى تحمل الشريعة وستصيرون ورثتهم فى هداية الأمم بعد ظهور هذه الحقائق فى هذا التفسير وغيره ، وستقودون نوع الانسان بعد الآن . أفلاتكم أن هذه الحقائق والدقائق والنظم البديعة استخرجها الناس لأجل حياتهم الدنيا ولم يفعل الله ذلك معهم إلا لأن طباع أهل الأرض لاتتحرك إلا بمحرك قاسر قاهر وهو الأمور الحيوية ليدافعوا عن أنفسهم الأعداء ، ويجلبوا لأنفسهم الغذاء ، ولعمرى لم يجعل الله هذا فيهم إلا ليكمل نفوسهم بقدر الإمكان فان علاج الصناعات وممارسة الزراعات والتجارات ونظم السياسات وما أشبه ذلك وكذلك أعمال الحرب كلها مما تدعو لرقى العقول والاطلاع على العجائب ، وأهل الأرض لولا ما ابتلاهم الله به من ذلك ما اطلعوا فهم مقهورون مأمورون بالاطلاع والمسلمون قد دعاهم دينهم للاطلاع فناموا لأنهم لم يعلموا أنهم مأمورون بالتدقيق لهذا الحد فعليهم من الآن أن يجدوا ويقرءوا العلوم التى عرفها الناس ثم يسيطروا على سائر العلوم .

(ذكر البارود والعناصر التى ركب منها عند الأمم)

قلنا إن الله حكم على الأمم بالحرب وغيره لتعرف دقائق العلوم وقلنا إن المسلمين جهلوها فوقعوا بأن الفرنجة دخلوا بلادهم وأذلوهم بالأسلحة والغارات الخانقة ، وأقول الآن إن النوع الانسانى الذى خلقه الله على هذه الأرض ركب تركيبا مناسبا وليس يتحرك للمعارف غالبا إلا بمؤثرات بليغة . والمؤثرات كما قدمنا قسمان : دينية ودنيوية ، والدنيوية إما لجلب رزق كالزراعة والتجارة والصناعة ومنها الطب ولا جرم أن العناصر وتحليلها ومعرفة ذراتها ومعيارها لابد منها للأدوية الطبية وللزراعة والتجارة وهذا أمر معلوم ، فهذا جعل لجلب المنفعة ماعدا العقاقير الطبية فانها لدفع مضرة المرض . وإما لدفع ضرر وذلك أن علم صناعة الحرب تقدم تقدما عظيما ومعرفة العناصر ومقاديرها أمر واجب لذلك .

انظر إلى صنع البارود فهو مخلوط من ملح البارود والكبريت والفحم ، فمن الأول (٧٥) ومن الثانى (١٢٫٥٠) ومن الثالث (١٢٫٥٠) وهذا عند الفرنسيين و (٧٤) و (١٠) و (١٦) على هذا الترتيب عند الألمانيين و (٧٦) و (١٠) و (١٤) عند الانجليز على الترتيب .

ومن أراد تلوين السواريخ بالبياض فليأت بنحو (١٦) من ملح البارود و (٤) من الكبريت و (٣) من البارود الناعم .

.(نيران زرقاء) كلورات بوتاسيوم (٢٦) كبريت (١) أوكوسى كلورور النحاس (١٤) وهناك مقادير للنار الحمراء والبنفسجية .

وللنيران الخضراء كلورات بوتاسيوم (٢٨) أزوتات باريوم (٣٥) أوكسى كلورور النحاس (١) صمغ لك (١٠) كلورور الرصاص .

للون الصفرة (٥) كلورات بوتاسيوم (١) صمغ لك (٢) أوكسالات صوديوم.

هذه نبذة من التركيب وفوائده وكيف كان وزن العناصر أصبح ضروريا لنوع الانسان حتى فى دفاعه عن نفسه وكيف استطاع أن يركب من الكبريت والفحم وملح البارود أنواعا ثم كيف قدر على التلوين بالخضرة والصفرة والحمرة وغيرها ، ذلك كله بوزن وحساب كما صنع الله عز وجل فى نباته وحيوانه إذ استخرج من أجزاء معلومة ما لا يتناهى من أشكال بديعة وصور عجيبة وبدائع وغرائب . إن الإنسان خليفة الله فى الأرض فتراه يسير على سنن حكمته وإن لم يعلم . سلط الله الناس بعضهم على بعض بالقتال والحرب فاضطروا لمعرفة المادة وتحليلها وحسابها كما اضطروا لذلك فى أمور معاشهم فهم مضطرون للعلم وللتحليل والتركيب فى الحالين حال جلب المنفعة وحال دفع المضرة . فهذه العلوم تقوى أجسامهم وترقى نفوسهم ويسيرون فى الأرض ويركبون السفن الحربية ويحاربون فى الجو ويمزقون الأجسام فتنشط الأمم وتقوى الهمم وتدفن الرمم ويبقى الأحياء مجدين . إن الله بالحرب والضرب يزعج أرواحا من هذه الأرض فتخرج منها إلى عالم البرزخ والأرواح الباقية تستفيد عبرة واختبارا . أيها الذكى لا تظن أنى أبيح الحرب . كلا . وإنما كلامى فى الحكم الكونية التى فهمتها من عمل الله فى الأرض . إنه سلط بعضهم على بعض لأن هذه الأرض ليست محل إقامة بل هى دار صناعة وتعليم وتنشيط . جهلت هذه الأرواح الأرضية التى تمر بأرضنا علوما ومعارف فأنزلها فى الأرض وسلط عليها هذه الأخلاق وأرسل لها أنبياء وحكماء ثم قال اعملوا فكل ميسر لما خلق له فتطاحنوا وتضاربوا وتقاتلوا .

كل ذلك ليستيقظوا للنتيجة وهى أن تعرف نفوسهم نظام هذا العالم وتميل إلى الجمال فاذا وصلوا إلى الجمال وعرفوا الحقائق يدخلون فى دار أخرى تكون العلوم فيها بالشوق لا بالحرب والضرب والفقر ومبادئ العلوم هناك ما نراه هنا من الجمال. ولعلك تقول أى جمال هنا ؟

(الجمال فى هذا العالم)

اعلم أن نهاية هذا العالم الجمال ولا يمكن إدراكه إلا بالحكمة والناس يفهمون الجمال العادى فى الوجوه وجمال الوجوه فى (أربعة أشياء) الخدين والعينين والأنف والفم . هذه الأربعة متى كانت منتظمة سائرة على النسب الصادقة فانها تكون جميلة ومتى تنافرت قبحت وظهرت مكروهة الطلعة . وليس فى الأرض إنسان إلا وهو يدرك هذا الجمال إجمالا ولكنه لا يدرك سببه والسبب هو النسب التى قررها العلماء لأعضاء الانسان وليس هذا مقام بيانها، ومرجع الجمال فى الزهر والنبات والحيوان هو النسب العددية والهندسية ، وليس فى الأرض ولا فى السماء جمال إلا بهذه النسب ، وترى الناس يطربون للشعر وللموسيقى وليس ذلك إلا للنسبة العددية والموسيقية والشعر والموسيقى من واد واحد فان السبب والوتد والفاصلة المشروحة فى ذينك العلمين ترجع كلها إلى حركة وسكون فى علم الموسيقى وحرف ساكن وحرف متحرك فى علم الشعر ، فالشعر والموسيقى يرجعان إلى هذين، فترى الأبحر الستة عشر التى جعل لها الخليل دوائر حسابية منظمة لم تخرج عن النسبة الحسابية والهندسية وهكذا جميع الأغانى وضروب الموسيقى على هذا النمط كما نرى فى الماخورى من علم الموسيقى مثل بحر البسيط من علم الشعر وكلاهما (٤٨) مابين ساكن ومتحرك ففى كل منهما (١٢) سببا و(٨) أوتاد ومعلوم

أن السبب متحرك وساكن والوتد متحركان وساكن فتكون الأسباب (٢٤) حرفا والأوتاد (٢٤) وهناك تظهر النسب الهندسية والنسب العددية كما هو واضح فى ذينك المثلين . إذن ظهر لك أن الناس لا يفرحون بالجمال المحسوس إلا للحساب والنسبة وإن كانوا لا يعلمون ذلك ، وكلما كان التناسب أتم كان السرور أعظم ، هكذا فى الجمال العقلى الذى لامعنى له إلا تلك النسبة ، ومن وازن ماذكرناه فى الجمال الظاهرى وفى الشعر بما أبناه هناك فى الجدول الذى اخترعه العالم الروسى يرى فرقا عظيما ، يرى التناسب هناك أبدع ، إذ يرى الخواص الطبيعية والخواص الكيماوية مضافة إلى الأوزان الذرية؛ فالشعر والموسيقى والجمال الظاهرى لم يدخل فيها شىء سوى الحساب ، أما فى أوزان الذرات فهناك (١٦) صفة تزيد على النسبة المذكورة ولذلك ترى لذة العلماء والحكماء أضعاف أضعاف لذة الجهلاء، لأن الجاهل لايعرف إلا ماأحس به والعالم ترق وأدرك مالايفهمه الجاهلون «لمثل هذا فليعمل العاملون» .

أقول : وكأن هذا الجمال الذى يظهر فى هذه الذرات وأمثالها هو مبدأ لنظام أجمل تدركه النفوس إذا خرجت من هذا العالم والشوق هنا يؤهلها للرقى هناك ، لذلك تجد النفوس الإنسانية مجدة على الأرض فى طلب العلم والجلب والدفع ، والدليل على ذلك ماتراه فى تعريف حكماء الشرق التربية قديما وحديثا :

(١) قال ابن المقفع [مانحن إلى مانتقوى به على حواسنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى الأدب الذى هو لقاح عقولنا] .

(٢) قال أفلاطون [الغرض من التربية هو إمداد كل من الجسم والعقل بما يمكن من الكمال والجمال ومن رأيه أن يربى قليل من أبناء الخاصة لأجل نظام الحكومة] .

(٣) وقال ملتون [التربية الصحيحة الكاملة هى ماتؤهل المرء القيام بأى عمل خاصا كان أوعاما بمهارة وإخلاص تام أثناء السلم والحرب] وهذا التعريف يقرب مما قررناه .

(٤) وقال جيمس مل [التربية تؤهل المرء لأن يكون عاملا من عوامل السعادة لنفسه أولا ولسائر مخلوقات الله ثانيا] .

(٥) وقال جون استوارت مل [التربية تشمل كل مايفعله المرء أو يفعله غيره له لغرض تقريبه من درجة الكمال] .

(٦) وقال هربرت سبنسر [مهمة التربية هى إعدادنا لحياة كاملة] .

(٧) وقال بعض علماء روسيا [التربية إنماء جميع القوى الإنسانية إنماء تتعادل فيه جميع القوى ولكن ميول البشر واستعدادهم مختلفات فقد يكون من الحكمة الاهتمام ببعض القوى فى إنسان أكثر منه فى آخر] ولهذا زاد بعضهم على التعريف المتقدم ، فقال بطريقة مبنية على طبيعة العقل [فكل قوى العقل يجب أن تفحص ثم تقوى وتنمى على حسب طبيعتها] .

(٨) القرآن، ألست ترى أن هذه التعاريف كلها جاءت فى هذه الآية، وهل ترى أنى الآن أنقلها لغير فائدة التفسير ، إنى نقلتها لأنها فى نفس الآية ، فقوله تعالى «قل سيروا فى الأرض» والسير حركة وهى ترجع للقوة الجسمية ، وقوله «فانظروا» راجع للقوة العقلية فكأن الله بهذه الآية يأمرنا بنظام الجسم وبنظام العقل وبهذا دخلت التعاريف السابقة كلها فى الآية والآية شملتها ، فالحركة للتجارة وللحج وللقتال ولطلب العلم وللسياحة كلها سير فى الأرض وكل حركة للتمرين وللأعمال العامة تقرب من السير لأنها حركة على وجه العموم ، وكل صناعة فمبدؤها بالعلم ونهايتها بالعمل فهى مشتركة بين الجسم والعقل، فصناعة البارود مثلا مبدؤها التعقل فى المعامل والمدارس ونهايتها السير فى الأرض وإطلاق النار ، فأولها تعقل وآخرها عمل وجميع القوى

العقلية تنمو بالنظر . إن الآية قرنت بين التمرين الجسمي والتمرين العقلي ، فهي تعطي الجسم حظه والعقل حظه وهذه كانت صفة نبينا صلى الله عليه وسلم فانه كان في أثناء الجهاد يوحى إليه ويعظ الناس ويعلمهم . فحركة العقل وحركة الجسم متقارنتان . ومتى تذكرت ماجاء في (سورة التوبة) من أن كثيرا من آياتها أوحى بها في سفره إلى غزوة تبوك عرفت تفسير قوله تعالى «قل سيروا في الأرض فانظروا» الخ ؛ وكذلك غزوة أحد وغزوة بدر ، فكان الجسم والعقل مشتركين في تنمية العقول . إن الاسلام لم يقف عند هذا الحد في تربية النفوس بل إن أدعية الصلاة مؤيدة لذلك .

﴿ اللطيفة السادسة : مقاصد الصلاة في الإسلام العلوم والحكم وارتقاء العقول بها ﴾

ذكرت لك أن ديننا يأمر بالعلوم وأن الفطر الإنسانية والحاجة الدافعة اضطرت الناس إلى العلوم وأذكر هنا أن الصلاة تبعث على العلوم . فكما أن القرآن كله حث على النظر في هذه الدنيا تجد المؤمن في أقطار الأرض يقرأ كلمات تحثه على العلوم وأكثر الناس لايعلمون . انظر إلى الفاتحة فهي مبدوءة بالحمد ثم الدعاء بالهداية إلى الصراط المستقيم وتقدم هذا . وانظر إلى الأدعية في الركوع والسجود والجلوس بين السجدتين والتشهد وأنواع المحامد والثناء . إن المحامد عند الرفع من الركوع تحث على معرفة العوالم العلوية والسفلية عامة والمحامد في الركوع والسجود تحث على علوم الطبيعة بأجمعها ، انظر إلى هذه العجائب في العبادات . انظر إلى دين جاء لأمم أرقى من الأمم الحاضرة . ياأله إنك أمرت المسلم أن يقول عند رفع رأسه من الركوع «سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ماشئت من شيء بعد» وهل للحمد اللفظي معنى إلا بالعلم بالمحمود عليه وما المحمود عليه إلا هذه العوالم التي ذكرناها ودخلت في قوله تعالى هنا « فانظروا كيف بدأ الخلق » أي معنى للحمد بدون علم . إن المسلم يصلي ولا يعلم أن الصلاة تدعوه للعلوم . إن المسلم إذا صلى وقلبه غافل لاصلاة له . وإذا صلى وقلبه حاضر وعرف المعنى ، فإما أن يقف عند الألفاظ وهو متجه لله فيشتاق إليه ثم يموت فيرجع إليه وهو عابد في درجة خاصة ولكنه لايرتقي إلى درجات رفيعة . وأما إذا فهم المقصود من الصلاة فانه يتغلغل في العلوم إذ يعلم أن الصلاة تحث على الجد في معاني هذه الكلمات . ومعانيها هي جميع العلوم . يرفع المسلم رأسه قائلا «ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ» فكأنه يشير إلى علم الفلك وما نحا نحوه وبقية العلوم إجمالا . أما في الركوع فانه أولا ينزه الله أن يكون كالمخلوق فيقول «سبحان ربي العظيم» فكأنه قبل أن يخاطبه ينزهه أن يكون كمن يخاطبهم ثم يقول « اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت» وهذا إقرار بالإيمان وهي أول مرتبة ولكن الوقوف عندها جهالة وكسل ثم يقول « خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي لله رب العالمين » وهذا عبارة عن علم التشريح وأن المسلم عليه أن يعرف شيئا من التشريح حتى يدرك السمع والبصر والمخ الخ وقد تقدم بعض ذلك في هذا التفسير وكذا السمع والبصر في (سورة آل عمران) والمؤمنين ويقول في السجود بعد التسبيح « اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين » ففي السجود ذكر الايمان والتسليم كما في الركوع ولكن المصلي يتوغل هنا فيقول : سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره . فالتعبير بالخلق والتصوير وشق السمع والبصر يقتضي زيادة العلم بالتصوير وبعجائب طبقات العين وعجائب الأذن وغرائب المخ وذلك يدعو إلى علم التشريح ويقرب منه معرفة أنواع الحيوان والنبات والعناصر التي خلقت هذه منها . ولست أقول إن المصلي إذا لم يدرس تكون صلاته باطلة ولا أخالف مانص عليه الفقهاء «لايكلف الله نفسا إلا وسعها» ولكن المقام مقام مزايا الاسلام والتربية فانظر كيف دعانا إلى معرفة العوالم العلوية عند رفع رؤوسنا إلى أعلى ودعانا لمعرفة أجسامنا وقياسها بما هو نظيرها في التغذي والتركيب وهو الحيوان والنبات وهكذا العناصر المركبة هي منها . ولما كان الله وهو

ساجد أقرب إلى ربه كما فى الحديث وكما فى الآية كما قال تعالى « واسجد واقترب » رأينا الدعاء فى السجود يوضح تشريح الجسم ويشير إلى الجد فى مسائل الجسم الانسانى . وإذا ضممنا ذلك إلى ذكر الحمد على جميع النعم فى الصلاة ومبادىء النعم كلها ماذكرناه فى تفسير هذه الآية وكذلك قول المسلم فى قنوت الصبح فانه يدعو بطلب الهداية ويحمد الله ويشكره فى آخر الدعاء . ولا معنى للحمد ولا للشكر إلا هذه العلوم وكذلك التشهد فإن المسلم يقول « التحيات المباركات الصلوات الطيبات لله » وهذا فى معنى الحمد ويختم ذلك بقوله « إنك حميد مجيد » والحمد لا معنى له كما قلنا إلا بمعرفة العلوم المتقدمة وإلا كان حمدا ناقصا . أقول إذا ضممنا ذلك كله إلى ما ذكرناه ظهر أن الصلاة فى جميع أحوالها عبارة عن درس لهذه العلوم وحث عليها ومجرد أدعية الصلاة كاملة كافية لشوق المسلم إلى هذه العلوم وإن لم يسمع من القرآن حرفا ، وسيأتى فى هذه الأمة من يعرف الناس مقاصد الصلاة ويعرف الناس مقاصد القرآن ويعرف الناس حكمة الله فى خلق الناس على الأرض ويعرف الناس أن الله لم يدع وسيلة لتنمية العقول إلا وضعها فى هذا العالم الأرضى وأن المسلمين لما جهلوا جماله ونظامه ولم يعرفوا ما فى القرآن ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم شكا من طائفة فقال « يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » ولم يعرفوا ما ترمى إليه الصلاة أرسل سبحانه الفرنجة ليكون هذا آخر سهم يرمى به المسلمين حتى يرجعوا إلى رشدهم ويتعلموا وعسى أن يقوم فيهم من يفهمهم أن الإسلام أرقى مما أنتم عليه وأن هذه هى العلوم التى يرضاها الله فهى خير من ضياع الوقت فى فروع فقهية ينقضى الدهر ولا يسأل عنها أحد . اللهم إنى نصحت وأفرغت جهدى فى النصح ، وإنى أسألك أن تلهم هذه الأمة الرشد وتسعد بالها وتلهم الأذكياء منها أن يرفعوا من شأنها ويسعوا لاصلاحها ويهدوها الصراط المستقيم .

سيعلم الدعاة والمصلحون فى الإسلام أن ما ذكرناه فى هذا المقام ترمز إليه الصلاة على الترتيب الذى سطرناه . فالثناء فى الرفع والاعتدال وفى الفاتحة والدعاء بالهداية فيها وفى القنوت وفى الجلوس بين السجدتين موجه لعموم العلوم ، فإذن يبتدىء المتعلم بقراءة العلوم كما فى المدارس الابتدائية والثانوية فى الأمم الراقية ثم يأخذ فى علوم التخصص حتى يتقن فنا خاصا كما قررناه مرارا . فالثناء فى حال الرفع والاعتدال وما معه غير ما يذكر فى الركوع وفى السجود من ذكر نوع خاص كالسمع والبصر والمخ والعصب فهذا خاص والمذكور فى الاعتدال عام . فالصلاة نسخة من صفحات العلوم أوحى الله بها إلى نبيه ليقرأها الناس صباحا ومساء وقد اهتدى بهذه الصحيفة البيضاء قوم وسيهتدى به أكثر المسلمين فى مستقبل الزمان .

﴿ اللطيفة السابعة ﴾

اعلم أن الله عز وجل كما حث المسلمين فى صلاتهم وفى دينهم وفى جميع أحوالهم على العلوم ثم سلط علينا الفرنجة لما سبق فى علمه أننا جامدون حث الأمم الأخرى التى سبقتنا على ذلك فيما كانوا يتعبدون به لأنه رحيم عام الجود . ولأذكر لك ما كان يصنعه قدماء المصريين للتقرب إلى الكواكب التى كانت معظمة عندهم كما ذكره أستاذنا العلامة على باشا مبارك فى كتابه (خواص الأعداد) قال ما ملخصه :

(كان المصريون يعتنون بالأوفاق وأخذ عنهم فيثاغورس وجماعته ، وسميت بالأوفاق لأنهم نسبوها إلى الكواكب السبعة فإنهم كانوا يجعلون الجداول المذكورة فى صور مختلفة وكانوا ينقشونها على صفائح من المعدن الموافق للكوكب الذى يريدونه وكانوا يجعلون جدول الوفق المذكور على شكل كثير الأضلاع منتظم مرسوم داخل دائرة عدد أضلاعه بقدر ما يشتمل عليه ضلع المربع ومكتوب عليه أسماء الملائكة الموكلين بالكوكب المطلوب ومرسوم عليه أيضا فيما بين أضلاع الشكل ومحيط الدائرة إشارات منطقة فلك البروج وكانوا يزعمون أنه ينفع من يحمله معه . وكيفية انتساب تلك الجداول إلى الكواكب هو أنهم كانوا يجعلون

لزحل

لزحل المربع المنقسم إلى تسع خانات جذر عددها (٣) ومجموع أعداد صفه (١٥) وإلى المشترى المربع المكون من (١٦) خانة جذرها (٤) ومجموع أعداد صفه (٣٤) وإلى المريخ المربع المركب من (٢٥) خانة وضلعه (٥) ومجموع أرقام صفه (٦٥) وقد تقدم قريبا وإلى الشمس المربع المكون من (٣٦) خانة وضلعه (٦) ومجموع أعداد صفه (١١١) وإلى الزهرة المربع المشتمل على (٤٩) خانة وضلعه (٧) ومجموع أعداد صفه (١٧٥) وإلى عطارد المربع المشتمل على (٦٤) خانة وضلعه (٨) ومجموع أعداد صفه (٢٦٠) وإلى القمر المربع المشتمل (٨١) خانة وضلعه (٩) ومجموع أعداده (٣٦٩) وكانوا يجعلون للمادة الأولى المربع المشتمل على (٤) خانات وضلعه (٢) والله الواحد الأحد المربع المكون من خانة واحدة وضلعه (١) بحيث إنه لو ضرب فى نفسه لا يتغير أبدا . وقد تقدم الوفق المخمس . ولأرك شكلا واحدا آخر وهو المسبع ثم أذكر الحكمة فى وجود هذا فى العالم الإنسانى .

(المسبع)

٢٢	٤٧	١٦	٤١	١٠	٣٥	٤
٥	٢٣	٤٨	١٧	٤٢	١١	٢٩
٣٠	٦	٢٤	٤٩	١٨	٣٦	١٢
١٣	٣١	٧	٢٥	٤٣	١٩	٣٧
٣٨	١٤	٣٢	١	٢٦	٤٤	٢٠
٢١	٣٩	٨	٣٣	٢	٢٧	٤٥
٤٦	١٥	٤٠	٩	٣٤	٣	٢٨

ولأكتف بهذا المسبع وبالمخمس الذى ذكرته سابقا وأشرح موضوع هذه الأوفاق . إن هذه الأوفاق كانوا يعتنون بها ويدعون أدعية لـكواكب وكان ذلك على مقتضى ما عندهم من العلم . ولا جرم أن دين قدماء المصريين كان دخله التحريف فصاروا يتقربون بهذه الأوفاق . والسر فى التقرب بها أن أعدادها منتظمة تحير فكر الذى يتلو العزيمة إذ يجد أعدادا منتظمة تحير العقل وتدهش اللب وتدخل فى عقل الناظر للأعداد نوعا من الحيرة وحب الاتقان فأصل وضعها كان لارشاد الشعب إلى حب الجمال وهو النظام وذلك يدعوه للبحث فى السموات والأرض على ذلك النظام فى عالم السموات والأرض وربما كان ذلك من رجال الدين ثم تمادى الناس فيه فجعلوه لطلب قضاء الحاجات من الأصنام التى كانوا يزعمون أنها ملائمة للكواكب التى تحفظها الملائكة لأن دين القدماء هكذا [الله خلق العالم. الملك موكل بالكوكب . الصنم سبيل للكوكب . الأوفاق تقرب العابد من الكوكب الذى هو يمثل الملك المقرب من الله] فهذه سلسلة طويلة أملاها عليهم رجال الدين تحصل عند طول الأمد بعد نزول الأديان فيحصل الانقطاع إلى الأمور المادية ويترك الأصل الذى قصده الأولون فعكف الناس على الاستغاثة والاستعانة بهذه الأوفاق ونسوا ما لأجله وضعت الأوفاق عند الكهنة ورجال الدين وإن كانوا هم أيضا غير موقنين بتطاول الزمن عليهم فتطاول الزمن على رجال الدين وعلى العامة جعل تلك الأوفاق أدعية للرزق والجاه والشهوات كما أن كثيرا من جهلة الأمة الإسلامية وبعض الخواص يجعلون القرآن فى أكثر الأوقات لطلب أمور الدنيا لغرض الدنيا وهذا انتكاس على الرأس . والمقصد الأول من ديننا ارتقاء النفوس بالعمل والعلم فاتجه كثير من الناس إلى جعل الدين مفتاحا لباب الشهوات . وأصل الأوفاق عند قدماء المصريين تذكير النفوس بالعلم والحكمة وجمال الله فجعلها المتأخرون منهم باب مرتزق

وتبعهم على ذلك جهلة المسلمين إلى الآن ، فانظر كيف جعل الله فى القدماء قبلنا من وجهوا الهمم إلى معرفة حسن النظام فى العالم بطريق الدين ثم نسيه أهله فذهبت دولتهم فأصبحوا خاسرين ، ذلك أن الله عزّ وجل لم ينس عباده ولم يترك أحدا من خلقه بل هو عليهم مهيمن يذكرهم كل حين ولا ينال العز إلا من سبقت له الحسنى . ومما ينبغى ذكره فى هذا المقام أن (فيثاغورس) كان مغرما بعلم العدد ويقول إن العالم مركب من العدد وهذا لشدة ولوعه بالله تعالى لأن هذه الأوفاق التى نقلها عن المصريين قد قرأها وعرف أسرارا وراءها لا نعلمها نحن فنفنى فى الخالق واشرأبت نفسه إلى ذلك الجمال الأسنى « وأن إلى ربك المنتهى » .

ويقرب من ذلك جدول العناصر المتقدم بل هو مدهش ومدهش لأنه يعرف جمال الله فى صنعه بأبلغ حجة وأقطع برهان . واعلم أن قدماء المصريين لما جهلوا المقصود من دينهم نسخه الله، هكذا المسلمون لما نسوا مقصود القرآن سلط الله علينا الفرنجة وسيجعل الله بعد عسر يسرا ويرتقى الاسلام « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » انتهى الكلام على القسم الأول من السورة .

(القِسْمُ الثَّانِى)

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ۞ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ۞ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۞ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ۞ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ۞ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ۞ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ۞ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۞

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ * يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ * الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَمَا هٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ * فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ * وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

قال تعالى (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) أى الأصنام يتكلون عليها فى نصرهم (كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) أى مثل المشرك الذى يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذى يعبد الله مثل العنكبوت تتخذ بيتا بالاضافة إلى رجل يبنى بيتا بآجر وجص أو ينحته من صخر ، وكما أن أوهى البيوت إذا استقريتها بيتا بيتا بيت العنكبوت كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها دينا دينا عبادة الأوثان « لو كانوا يعلمون » أى لو كانوا يرجعون إلى علم لعلموا أن هذا مثلهم (إن الله يعلم

ما يدعون من دونه من شيء) هذا توكيد للمثل: أي إن الله يعلم أن الأصنام التي يدعونها ليست شيئا فما نافية ومن زائدة وشيء المجرور بمن الزائدة مفعول تدعون (وهو العزيز) الغالب الذي لاشريك له (الحكيم) فكيف يعبد الناس ما ليس شيئا ويذرون عبادة العزيز الحكيم (وتلك الأمثال) الأمثال بدل (نضربها) نبينها خبر (للناس) وإن ضحك من هذا المثل سفهاء قريش وقالوا محمد يضرب المثل بالذباب والعنكبوت (وما يعقلها إلا العالمون) ورد «العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه» (خلق الله السموات والأرض بالحق) محقا غير قاصد به باطلا فان المقصود بالذات من خلقها إفاضة الخير وإيجاد كل ممكن تعلق به العلم (إن في ذلك لآية للمؤمنين) لأنهم يستدلون بالآثار على مؤثرها (اتل ماأوحى إليك من الكتاب) تعبدا وحفظا وفهما لمعانيه واستكشافاً لغوامض ما فيه (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وذلك لأنها حال الاشتغال بها تشغل المصلي عن الاشتغال بغيرها، وأيضا تورث النفس خشية من الله. «روى أن فتى من الأنصار كان يصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يدع شيئا من الفواحش إلا ركبه فوصف له فقال إن صلاته ستنهاه فلم يلبث أن تاب» (ولذكر الله أكبر) أى ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته، أو والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات وسميت ذكراً لأنها مشتملة على ذكره تعالى وهو العمدة في كونها مفضلة على الحسنات (والله يعلم ماتصنعون) منه ومن سائر الطاعات فيجازيكم بها أحسن المجازاة (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن) بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين والغضب بالكظم والمشاغبة بالنصح (إلا الذين ظلموا منهم) بالافراط في العناد كأن يتبنوا الولد أو يقولوا يد الله مغلولة أو ينبذوا العهد، وإذا استعمل السيف في بعض الأحوال فذلك أنه كالكي آخر الدواء، فالمدار في نشر الدين أصالة على إقامة الحجة لاسيما في هذا الزمان، ثم أبان طرفاً من تلك المجادلة فقال (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) مطيعون له خاصة، وفيه تعريض بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وبكتبه ورسله فإن قالوا باطلا لم تصدقوهم وإن قالوا حقاً لم تكذبوهم» وقوله (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب) أى وكما أنزلنا الكتب إلى من قبلك أنزلنا إليك الكتاب (فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) كعبد الله بن سلام وأحزابه (ومن هؤلاء) ومن العرب وأهل مكة ومن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب (من يؤمن به) بالقرآن (وما يجحد بآياتنا) مع ظهورها وقيام الحجة عليها (إلا الكافرون) أى المتوغلون في الكفر كاليهود عرفوه صلى الله عليه وسلم وكفروا به وكفرهم هو عين الجحود إذ الجحود بعد المعرفة (وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك) فإن ظهور كتاب جامع لهذه المزايا يستحيل أن يأتي به أمي فإذن هي معجزة (إذا لارتاب المبطلون) أى لو كنت تكتب أو تقرأ قبل الوحي إليك لارتاب أهل مكة واليهود فقال الأولون إنه يقرأ من كتب الأولين وقال الآخرون إن صفته في التوراة إنه لا يقرأ (بل هو آيات بينات) أي القرآن (في صدور الذين أوتوا العلم) يحفظونه لايقدر أحد على تحريفه (وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون) المتوغلون في الظلم المكابرون (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه) مثل العصا وناقة صالح (قل إنما الآيات عند الله) ينزلها كما يشاء لست مالكها (وإنما أنا نذير مبين) ليس من شأني إلا الانذار (أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) فهو معجزة دائمة على مدى الزمان وليست كالعصا لأنها لا تدوم، وقد جاء في (سورة طه) أن أمثال هذه الآيات الحسية تلتبس ولذلك كفر بنو إسرائيل لما أروا عجل السامري وقد تقدم إيضاح هذا هناك (إن في ذلك) الكتاب الذي هو حجة دائمة (لرحمة) لنعمة (وذكرى) وتذكرة (لقوم يؤمنون) دون المتعنتين (قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) يشهد لي أني رسول الله ويشهد عليكم بالتكذيب، وشهادة الله إثبات المعجزة له بإنزال الكتاب عليه (يعلم ما في السموات والأرض) فلا تخفى عليه

حالى وحالكم (والذين آمنوا بالباطل) وهو مايعبد من دون الله (وكفروا بالله) منكم (أولئك هم الخاسرون) المغبونون فى صفقتهم لأنهم اشتروا الكفر بالإيمان (ويستعجلونك بالعذاب) كالنضر بن الحارث لما قال «فأمطر علينا حجارة من السماء» (ولولا أجل مسمى) وهو ما وعدتك أنى لا أعذب قومك ولا أستأصلهم (لجاءهم العذاب وليأتينهم) العذاب (بغتة وهم لايشعرون) باتيانه (يستعجلونك بالعذاب) أعيدت الجملة تأكيدا (وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) ستحيط بهم وتجمعهم جميعاً (يوم يغشاهم العذاب) يصيبهم (من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون) أى جزاءه (ياعبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون) أى إذا لم تسهل لكم العبادة فى بلد ولم يتمشَّ فيه أمر دينكم فلتهاجروا عنه إلى بلد تكونون فيه أصح دينا وأكثر عبادة . وعن سهل « إذا ظهرت المعاصى والبدع فى أرض فاخرجوا منها إلى أرض المطيعين » ويقال أيضاً . إن لم تخلصوا العبادة لى فى أرض فأخلصوها فى غيرها » (كل نفس ذائقة الموت) يريد بذلك تهوين الهجرة من بلد المعاصى ويقول إذا كانت النفوس تجد مرارة الموت وكربه فكيف يهمها المهاجرة من الوطن (ثم إلينا ترجعون) بعد الموت للثواب والعقاب (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم) لننزلنهم (من الجنة غرفا) علالى (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين) أى أجرهم (الذين صبروا) على أذية المشركين والهجرة للدين والمحن والمشاق (وعلى ربهم يتوكلون) فلا يتوكلون إلا على الله (وكأين من دابة لا تحمل رزقها) لا تطيق حمله لضعفها أولا تدخره فتصبح ولا معيشة عندها (الله يرزقها وإياكم) فأنتم مع قوتكم وهى مع ضعفها سواء فى أن الله يرزقكم جميعاً فهو المسبب لها فلا تخافوا على رزقكم من الهجرة إذ قال بعضكم كيف نقدم على بلد ليس لنا فيها مرتزق (وهو السميع) لقولكم (العليم) بنياتكم (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر) أى ولئن سألت أهل مكة ذلك (ليقولن الله) لأن العوالم منتهية إليه (فأنى يؤفكون) فكيف يصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك (الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له) أى لمن يشاء: أى يوسع ويضيق لواحد فى وقتين مختلفين ويوسع لزيد ويضيق لعمرو (إن الله بكل شىء عليم) يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم . وروى « إن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الغنى ولو أفقرته لأفسده ذلك ، وإن من عبادى من لا يصلح إيمانه إلا الفقر ولو أغنيته لأفسده ذلك » (ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولن الله) أى هم مقرون بذلك (قل الحمد لله) على عصمتك من مثل هذه الضلالات وعلى تصديقك وإظهار حجتك (بل أكثرهم لايعقلون) فيتناقضون فإنهم يقولون إنه خالق كل شىء ثم يشركون به سواه (وما هذه الحياة الدنيا) الإشارة للتحقير (إلا لهو) اشتغال بما لايعنى وتمتع باللذات وفرح (ولعب) عبث وباطل لا يبقى (وإن الدار الآخرة لهى الحيوان) أى الحياة أى ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة لا موت فيها فكأنها فى ذاتها حياة ، وأصل حيوان حييان من حى على وزن غليان قلبت الياء الثانية واواً (لو كانوا يعلمون) حقيقة الدارين مااختاروا اللهو الفانى على الحيوان الباقى، ثم قال إن هؤلاء دائبون على ما وصفوا به من الشرك (فإذا ركبوا فى الفلك دعوا الله مخلصين له الدين) فهم والحالة هذه لا فرق بينهم وبين المؤمنين فى صورة الاخلاص لله لعلمهم أنه لايدفع الشدائد سواه (فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) أى فاجئوا المعاودة إلى الشرك والمؤمنون ثابتون على إيمانهم (ليكفروا بما آتيناهم) أى يشركون حتى يكفروا بما آتيناهم من النعمة (وليتمتعوا) أى سيتمتعون بهذه العاجلة ولا نصيب لهم فى الآخرة (فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم وهذا تهديد ويصح أن تكون اللام للأمر فى ليكفروا وليتمتعوا (أو لم يروا) أى أهل مكة) أنا جعلنا حرما آمنا) أى جعلنا بلدهم ممنوعا مصونا يأمن داخله (ويتخطف الناس من حولهم) يستلبون قتلا وسبيا (أفبالباطل يؤمنون) أى أبا لشيطان والأصنام يؤمنون (وبنعمة الله) المذكورة الواضحة (يكفرون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) بأن

زعم أن له شريكا (أو كذب بالحق لما جاءه) يعنى الرسول أو الكتاب ، وفى التعبير بلما إيذان بسفاهتهم إذ سارعوا إلى التكذيب بلا ترو لمجرد السماع (أليس فى جهنم مثوى للكافرين) أى أما لهذا الكافر المكذب مأوى فى جهنم . ولما كان أول هذه السورة مسوقا للجهاد العام لجهاد النفس والجهاد مع الوالدين والجهاد مع الأعداء ومع الأصحاب ختم السورة كما ابتدأها وبشر المجاهدين بالهداية فقال (والذين جاهدوا فينا) أى فى حقنا سواء أكان جهاد الأعداء الظاهرة أم الباطنة فيشمل سائر المعاصى حتى جهاد الكبر والحسد والحرص وكل مرض قلبي (لنهدينهم سبلنا) لأنا خلقنا السموات والأرض بالحق (وإن الله لمع المحسنين) بالنصرة والاعانة . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة .

﴿ لطائف هذا القسم ﴾

﴿ اللطيفة الأولى : فى قوله تعالى « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت » ﴾

لأذكر لك ما كتبته فى كتابى [جمال العالم] من عجائب العنكبوت تحت العنوان الآتى ونصه :

العنكبوت

خلق العنكبوت ذا ثمانية أرجل وعلمه الله بالإلهام من الصغر فى إبان حياته حتى إنه ينسج بحيث تتساوى كبارها وصغارها والأمهات وأولادها فى الغزل والنسج ، فلاعنكبوت إلا وقد أوتى هذه الصنعة بلا تعلم ولا تعليم ولا مدرسة كأمهاتها ولا تخريج ولا درس ولا تنقيب كما فطرت صغار البط على العوم فى الماء عقب كسر بيضها وهكذا جميع الطيور والحشرات ، ولما كان هذا التعليم غريزيا إلهيا لم يدخله الغلط ولا السهو بخلاف النوع الإنسانى ولذلك احتجنا إلى قول نبينا ﷺ « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان » فلا يقع من العنكبوت فى نسجه ولا غزله غلط بل تراه يحكمها باتقان مع التأنى والتثبت ، فترى خيوطا متينة وشبكاتها محكمة الوضع هندسية الشكل ، وقد قال علماء العصر الحاضر [لو اجتمع كل نساج وغزال فى الدنيا وقوبلت صناعاتهم بصناعات العنكبوت لفاق الثانى الأولين والآخرين وغلب الحيوان الأعجم هذا الإنسان] « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » .

(العنكبوت البناء)

كل عنكبوت فى الدنيا غزال ونساج وبعض الأنواع بناء يبنى منازل يشاهدها الناس فى أماكن كثيرة فى حجم (الكشتبان) يقفلها من الداخل بقفل لم يقف أحد من علماء الحشرات على كنهه حتى يأمن من دخول عدو مهاجم أو سارق ، فتأمل كيف أعطى قوة وحكمة عجز عنهما الإنسان فى البناء كما أوتى النحل فى بناء مسكنه فوق الأرض وأحكم المنافذ للنور وأقفلها عند الرطوبة أو البرد ، كل هذا يدلنا على أن هذا العالم يشمله تدبير عجيب من أدنى ذرة إلى أكبر كوكب ، وما ألذ النظر فى هذه العوالم والعلوم ، وما أجل الحكمة وأبهجها « إن ربك هو الخلاق العليم » ألا فليبتهج بهذا العالمون وليفرح الحكماء المدققون .

(عنكبوت البساتين)

وهناك نوع يسكن البساتين وما شابهها ، تراه مضطرا إلى الانتقال من شجرة إلى شجرة ومن غصن إلى غصن ، فماذا يصنع ياترى ؟ ألهمه الله أن يبنى قنطرة بين الشجرتين أو ممشى بين الغصنين كما يصنع نوع من القرود فى أمريكا قنطرة كما تقدم ، ولكن طريقة العنكبوت فى قنطرته أعجب ، فتلك بالأجسام وهذه بخيط واحد يخرج من فمه مخلوقا من لعابه إذا لامس الهواء جمد فيمتد فيه بعد تثبيت أحد طرفيه ولا يزال الطرف الآخر يغدو ويجىء حتى يمسك بورقة أو غصن فتمر عليه العنكبوت ، وبهذه الطريقة نجا عنكبوت من الموت فى حكاية وإليك بيانها :

حكى أنه وضع حيوان العنكبوت على عود فى ماء قريب من شاطئ جزيرة فنزل من أعلى العود إلى أسفله فوجد الماء محيطا به فرجع إلى أعلى ثم أخذ يفكر فى حيلة اهتدى بها إلى أن غزل خيطا وأثبت أحد طرفيه فى رأس العود ولا زال الطرف يغدو ويروح حتى أمسك بغصن من الشاطئ الآخر فسار عليه حتى نجا سالما ، وهذا النوع البستانى ينسج على الأغصان والأوراق شبكة عجيبة يقتنص بها الذباب وغيره فيتخذ بها مركزا يقيم فيه ويمد خيوطه إلى جميع الجوانب ، فتشكل أطرافها محيط ذلك على الأوراق والأغصان ، وتلك الخيوط أقطارها والعنكبوت رسامها وغازلها وناسجها ومهندسها والصائدبها ، وما أشبه تلك الخيوط بأعمدة العجلة (البسكليت) فإذا أحكمت تلك الأعمدة بخيوطها الجدولة أخذت العنكبوت تجدل خيوطا أخرى فأدارتها على هذه وربطتها ربطا وثيقا محكما عليها مع التناسب فى الوضع والإحكام والهندسة بحيث ترى بين كل خيطين من تلك الأعمدة وآخرين من الملتف عليها مسافات متساويات هندسية ومنها تكون شبكة للصيد عجيبة الصنع جميلة الوضع « فتبارك الله أحسن الخالقين ـ وفى الأرض آيات للموقنين » وهذه الشبكة قلدها الإنسان فى صيد السمك للقوت وفى صنع زينة منسوجة من الحرير منقوشة بالذهب مرصعة بالحلى اهتدى لها الإنسان المتمدين بعد الآلاف من الدهور والعصور والسنين تفتخر به الفتيات الإفرنجيات فى إتقان الصنعة وحسنها ، فانظر كيف كانت نهاية الإنسان بداية الحيوان . لعله يهولك غرائب العنكبوت إذا عاينت أثرها وأنها تنسج ما تنسج بمؤخر أرجلها فلا تحتاج إلى النظر بعينها ، فإذا قطعت خيطانها قبل الغروب ثم نظرت لها عند شروق الشمس فى اليوم الثانى رأيت شبكتها نسجت كما كانت مع صبره وتؤدته وتثبته وأنه يأتى بقطع صغيرة من الحجارة والخشب يضعها على نسجه ليثبته حافظا له من التكسر وإطاعة الرياح الهابة والأعاصير والزعازع وأنه يبحث عن صمغ وغراء من أماكنها فى أشجارها ويلطخ بها خيطانه وشبكته ليكسبها لزوجة فلا تتمزق إذا فاجأتها الرياح وهاجت عليها الأعاصير ، وإذا مر بها الذباب التقطته بمادتها اللازجة ولم يؤثر على الشبكة حركته ، فتأمل كيف صلحت بالغراء لأمرين : إمساك الذباب والتجدد باللزوجة لئلا تتقطع ، ومتى أمسكت الذبابة بالشبكة التى صنعت لهذه الغاية أسرع العنكبوت فى الحال إليها فعضها وجرى السم فيها فماتت فأكلها ، ومنه نوع يقرب من اليمام فى الحجم يصطاد الطيور كما يصطاد الصغير من الذباب والحشرات وقد يرى النحل بشبكته فيرجو أكلها ويخاف لسعها فيصبر عليها حتى تتعب ثم يأخذ فى أن يديرها بخيط يلفه عليها ويدور سريعا سريعا حتى لايبقى بها حراك ثم يقتلها بسمه ويأكلها .

فهذه عجائب العنكبوت غفل عنها أكثر الناس وهم لايشعرون . انتهى ماجاء فى كتابى [جمال العالم] ولأذكر لك ماجاء فى كتابى [القرآن والعلوم العصرية] .

العنكبوت أيضا

ومن الحشرات العنكبوت ذات النسيج الجميل والغزل الرقيق والريق الذى إذا تعرض للهواء انقلب إلى مادة أشبه بالقطن أو الحرير فيغزلها خيطا دقيقا وينسج تلك الخيوط نسجا محكما متقنا حتى قال علماء الحشرات [إن هندستها التى رسمتها فى نسيجها ونظامها البديع الذى توخته فى عملها أدق ماصنعه المهندسون وأبرع مانظمه البارعون حتى إنها لم تخطئ يوما فى نظمها ولم تغلط يوما فى نسجها ، وإن أبرع المهندسين وأعظم المحكمين الذين درسوا فى المدارس العالية وتخرجوا على أعلم علماء الهندسة يخطئون فى تقديرهم ويشذون فى عملهم ويحيدون عن سواء السبيل] وهذه الحشرات لاتخطئ فى نظمها ولا تضل فى هندستها ولا تخيب فى إحكامها ذلك لأن معلم المهندسين من المخلوقين ومعلوم العنكبوت خالق المهندسين ، فتلميذ الله لن يخطئ ، وتلميذ المخلوق قد يضل مع الضالين ، ولقد شاهد الناس صغارها وصغار الحيوانات تخرج عالمة بفنونها محكمة لعملها كأمهاتها

بلا تعليم ولا تدريب ولا تهذيب ولا تدريس ولا مدارس ولا معلمين بل الغريزة الإلهية والحكمة الصمدانية التى أبدعت المخلوقات ونظمت الكائنات « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

ولقد ذكر الله العنكبوت فقال « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » فإذا كان أوهن البيوت على نظام أتم وحكمة أبهج فما بالك بأمتنها بناء وأحسنها نظاما « وما كنا عن الخلق غافلين » .

(لطيفة)

إن العلماء بحثوا فى تجزئة المادة حتى وصلوا إلى مايدهش العقول ويحير الأفكار ، فقد رأوا بعض العناكب تنسج خيوطا رقيقة جدا فانها تنسج بيتها من خيوط كل خيط منها مؤلف من أربعة خيوط أدق منه ، وكل واحد من هذه الأربعة مؤلف من ألف خيط وكل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت ، فانظر كيف كان الخيط الواحد مؤلفا من (٤) فى (١٠٠٠) يساوى (٤٠٠٠) ومن عجب أن بعض علماء الألمان قال إنه إذا ضم أربعة بلايين خيط (٤٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) إلى بعضها لم تكن أغلظ من شعرة واحدة من شعر لحيته ، ولقد علمت أن كل خيط من تلك الخيوط مؤلف من أربعة آلاف خيط ، فكل خيط إذن من هذه الخيوط الدقيقة يساوى غلظه $\frac{١}{١٦٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠}$ واحدا من ستة عشر ترليونا ثم تعجب كيف كان كل واحد من الألف يخرج من قناة مخصوصة فى جسم العنكبوت وكيف يسع جسم العنكبوت ألف ثقب فيها ألف خيط ، أليس ذلك من العجب ، أو ليس من أعجب الحكم أن العنكبوت فى هذا تمثل نظام العالم الجميل يخرج الخيط الدقيق من ثقبه فيخيل للرائى أنه خرج بلا حكمة فإذا انضمت الخيوط إلى بعضها كونت خيطا والخيوط الأربعة أنتجت خيطا أكبر وباجتماع الخيوط أنشأت بيتاً وكان مسكنا ومحل صيد للعنكبوت ومع ذلك تسمع القرآن يقول « وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » وصف بيت العنكبوت بأنه أوهن البيوت ثم أردفه بقوله « لو كانوا يعلمون » فانظر كيف ذكر العلم المقرون بلو بعد مسألة العنكبوت ، أفليس هذا الوهن قد ظهر فى التحليل والتجزئة فقد جاوزت خيوط العنكبوت الحد المعروف فى الدقة وتناهت فى التجزئة ، فذكر الوهن هنا إشارة إلى قبول التجزئة قبولا مطردا بحيث لا يمتنع عنها وهو متماسك ، ذلك هو السر فى قوله « لو كانوا يعلمون » فليس يدرك الناس تلك التجزئة التى أشار لها الوهن مجرد إشارة إلا بعلم الطبيعة ، ولا يدرى المسلمون ما السر فى تسمية سورة باسم العنكبوت إلا بالتفرغ لدراسة الحشرات وإذن يعرفون لماذا سميت سورة فى القرآن باسم العنكبوت وأخرى باسم النمل وأخرى باسم النحل وهى حشرات وسورة باسم البقرة وسورة باسم الأنعام وهذه من ذوات الأربع ، والذى أراه أن الجيل الحاضر ومن كانوا قبله من المسلمين فى الأعصر المتأخرة انما خلقوا ليحفظوا القرآن والشريعة حتى يتفكر فيهما الأجيال المقبلة التى سيوقظها أمثال هذا التفسير ويخرج جيل إسلامى لم تحلم به العصور ولم تلده سوالف الدهور وهم خلفاء الله والنبى صلى الله عليه وسلم وهذا سيكون وأنا به من المؤمنين .

وما مثل العنكبوت فى ذلك النظام البديع إلا كمثل النحل إذ نظم بيوتا مسدسات ذات أضلاع متساوية متقنة . ومن العجيب أن الأشكال المسدسة كل ضلع يساوى القطر المار ما بين ضلعين من أضلاعها كما قرره علماء الهندسة . ولقد أبنا الحكمة فى اختيار المسدس دون باقى الأشكال ولم يكن دائرة فيما كتبناه فى كتبنا السابقة وأوضحنا عجائب هذه الحشرات وغيرها إيضاحا أتم وبيانا أكمل فى كتابنا [جمال العالم] وكذا [نظام العالم والأمم] وغيرها ، وهذا الكتاب إنما جعلناه تذكرة عامة للأمة الاسلامية ليستيقظوا من غفلتهم وليفيقوا من سباتهم وليعلموا أن الله عز وجل ما وصف هذه الحشرات ولا ذكر هذه الآيات ولا أخذ يصف الأنهار والجبال والكواكب والشمس والقمر والنجوم إلا ليسوقنا إليها وليحثنا عليها فانظر مسألة النحل

الذى

الذى تقدم الكلام عليها فانها فضلا عما فيها من بدائع الصنعة الإلهية والحكمة الصمدانية دلالة على حكمة الخالق وإتقانه ونظامه وعجيب صنعه فان لها أثرا عظيما فى الزراعة . إن تربية النحل فى البساتين النضرة موجب للثروة بالعسل الكثير الذى يربو إذا كانت الخلايا فى وسط الأزهار ويقل بل يموت النحل إذا كانت الأرض المحيطة به مقفرة ، ولها فوق ذلك شروط وأحوال خاصة يعرفها الدارسون لمستقرها ومستودعها من علماء الزراعة الساهرين على مصالح الأمم الناظرين فيما جادت به يد الخالق من العجائب والبدائع .

ولما كانت هذه الحشرات الضعيفة ربما غفل الناس عن أمرها وصغروا من شأنها وجهلوا صنعها سمى الله عز وجل سورا من القرآن باسمها فسمى النمل والنحل والعنكبوت . أفليس ذلك نبراساً يهتدى به المسلمون فيرقون صناعاتهم ويبنون مجدهم ويدرسون كل ما دب وكل ما طار وكل حيوان ونبات « إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » كما قررناه . انتهى ما جاء فى كتابى [القرآن والعلوم العصرية] والحمد لله رب العالمين .

هذا ما أردته عند تأليف هذا التفسير ثم إنى وجدت بعد ذلك أثناء تقديمه للطبع فى الكتب الفرنجية عجائب وبدائع فى العنكبوت والذباب ونحوه فآثرت ذكرها هنا تبصرة وذكرى للمسلمين .

ما من امرىء إلا رأى نسج العنكبوت . إن العنكبوت ليست من الحشرات وإن كان ظاهرها يوهم أنها منها . إن نوع العنكبوت ونوع الحشرات يتفقان فى أن كلا منهما له آلتان فى مقدمه يستعملهما كما نستعمل نحن أصابعنا وهو بهما يتفاهم كما يتفاهم الأصم الأبكم من الناس بحاسة البصر ولكن العنكبوت لها ثمانية أرجل والحشرات جميعها لها ستة أرجل . إن الحشرات والعنكبوت كلاهما تضع بيضا وإنما الفرق بينهما أن الحشرات يتحول بيضها إلى دودة والدودة تنقلب إلى (فيلجة) أى شرنقة والشرنقة تنقلب حشرة تامة كما فى مسألة دودة القز ففيها هذه الصفات والنحل والنمل وأشباهها وقد تقدم فى سورة النحل ، ومن الحشرات ما تعتنى بنسلها كالنمل والنحل ومنها مالا تعرفه كحشرة أبى دقيق إذ تموت ولا ترى أولادها وهكذا الجراد ولكن هذا النوع يعتنى بوضع البيض فى مكان صالح بنسله . أما العنكبوت فمثله كمثل الدجاج فان بيضها متى فقست خرج ولدها صورة طبق الأم كما فى السمك والضفادع .

(كيف تعيش العنكبوت)

إن العناكب تعيش على الحشرات ، إنها نافعة جدا ومفيدة للفلاح ولصاحب البستان لأنها تقتل الآلاف من الحشرات اللاتى تفتك بالزرع فى الأرض .

(نسج العنكبوت)

إن العنكبوت تغزل خيوطا دقيقة حريرية آتية من (مقر الغزل) فى جسمها الذى فيه مسام دقيقة جدا وهذه المسام الدقيقة تخرج منها خيوط تجتمع وتكون خيطا والخيوط تجعلها العنكبوت نسيجا . إن هذه الخيوط لزجة وأى ذبابة وصلت إليها تلتصق بها .

(أنواع المصنوعات العنكبوتية)

إن العنكبوت لا تقتصر على جعل خيوطها أشبه بالخيمة . كلا . بل إنها تجعلها قنطرة تمر عليها من مكان إلى مكان وتارة تجعلها عشاً تضع فيه بيضها ومسكنا نظيفا لها يسر الساكنين . إن من العنكبوت نوعا تغزل الخيوط الحريرية المذكورة وتجعلها أشبه بسحاب وتطير عليه فى الهواء . ويرى الناس مئات من هذا النوع طائرات فى الهواء على هذه الطريقة فى يوم ثائر الهواء . وهناك نوع من العناكب يجرى على سطح الماء ، وكيف ذلك ؟ إنه يؤلف بعض الأوراق الجافة مع خيوط حريرية من جسمه ويجعلها (قاربا) يعوم فيه على

وجه الماء ويسبح به وهو قرير العين وهذا القارب جعله للصيد فمها لاحت له ذبابة أسرع بقاربه إليها وأخذها إلى فيه فأكلها .

ولما وصلت إلى هذا المقام جاء صاحبي العالم الذى حادثنى فى (سورة النحل) فاطلع على ما كتبته هنا فقال : لقد قرأت كتبك كلها فسلني كما تشاء فى [نظام العالم والأمم] وفى [النظام والاسلام] وفى [جواهر العلوم] وفى [ميزان الجواهر] وفى [جمال العالم] قرأتها وفهمتها وقرأت هذا التفسير إلى هذه السورة فاسمح لى أن أسأل هنا ما عنّ لى فى قولك نخبر لك أن أحاورك من أن أدع هذا لقرائك والمطلعين على هذا التفسير . فقلت ذلك يسرنى . فقال أوضح الفرق بين الحشرات والعنكبوت ، ولماذا أراك تشرح هذه الحيوانات هنا حتى جعلتنى أسألك المزيد ؟ وهل هذا يوافق مساق الآية ومساق الآية لايقتضى هذا الشرح فقلت أما الفرق بين العنكبوت والحشرات فقد ذكرت بعضه الآن وهو تعداد الأرجل وطريقته نحو الذرية وأزيد عليه أن جسم العنكبوت مركب من (قسمين) وأجسام الحشرات مركبة من (ثلاثة أجزاء) كما تقدم فى (سورة النحل) وأيضا لغالب الحشرات أجنحة والعنكبوت لاأجنحة لها ؛ ثم إن القسم الأعلى من العنكبوت فيه العيون والفكان وهذان فى الرأس وفيه الأرجل الثمانية وهى فى الصدر ، أما القسم الأسفل ففيه البطن والمؤخر ، وأما أقسام جسم الحشرات فاقرأها فى (سورة النمل) كما قلت لك . فقال النمل من الحشرات وهل لها أجنحة ؟ فقلت تخلق لها أجنحة ولكن عند ما تكبر وتزاول الأعمال تكسرها لتتفرغ للأعمال . قال: فما تقول فى عدد العيون . فقلت عيون العنكبوت تختلف من زوج واحد إلى ستة أزواج موضوعة مثنى فى مقدم الرأس وبتحركان من اليمين إلى اليسار وبها يفترس الذباب ، أما الحشرات فانها لها أعين تقدم شرحها فى سورة النحل وأن بعضها قد بلغت العين الواحدة فيه (٢٧) ألف عين أى أن العين الواحدة مكونة من عيون مستقلة تبلغ هذا القدار ولو تلفت واحدة منها لم تتلف البقية كما شرحه علماء النمسا وألمانيا فى هذا القرن فاقرأه هناك وانظر كيف ذكرت لك هناك أن أصدقائى أهل العلم فى مدارسنا المصرية عارضونى فى ذلك وفيهم من كانوا فى أوربا بل بعض الأطباء أنكره فى أول الأمر ، ولما ألفت الرسالة التى تقدمت فى (سورة النحل) أقروا وصدقوا ، والسبب فى ذلك أن أمتنا المصرية قد كانت تعرف هذه العلوم قبل هذه الأيام فى القرن التاسع عشر ثم لما دخل الفرنجة بلادنا حذفوا تلك العلوم الطبيعية من بلادنا فصار المتعلمون يكرهونها وكثير ممن ذهبوا إلى أوروبا لايقرءونها ، أما الآن وأنا أكتب هذا التفسير فإن هذه العلوم أخذت ترجع تدريجاً وصار الأطفال اليوم يقرءون ما كان يجهله آباؤهم منذ خمس سنين وهذا يدلك أن العلوم الطبيعية مرقية للأمم ولولا ذلك ماحذفها الفرنج قبل استقلالنا الظاهرى بمصر ، هذا . ثم إن النملة كما قدمت العين الواحدة من عينيها مركبة من مائتى عين والذبابة عينها الواحدة مركبة من أربعة آلاف عين ، فقال صاحبى أربعة آلاف . قلت نعم . قال أنكر ذلك . قلت له هذا يدرس فى جميع مدارس العالم ، وهل تريد أن تفعل معى مافعله المدرسون منذ سنين كما أخبرتك ؟ قال لا ، قلت فدعنى أتم لك الحديث ، فقال يا عجبا كل العجب أتكون الذبابة أكثر عيونا ويصطادها العنكبوت مع أن عيونه محدودة ، فقلت له لا تعجب وكيف تعجب من آية الله فى الأرض ، فقال وأى آية ؟ قلت إن كثرة الآلات والقوى لاتمنع من الهلاك ، ألا ترى إلى قيصر الروس وغيره من ملوك الأرض فإنهم مع كثرة جيوشهم وعددهم وآلاتهم قد سلط الله عليهم من طردوهم من ملكهم بل قتلوا بعضهم ، وهو قيصر الروس الذى أثار الحرب الكبرى فى زماننا واتحد مع انكلترا وفرنسا ، قام للحرب بعد أن دبر المكائد فماذا جرى ؟ كانت هذه الحرب شؤما عليه ويتبعه نحو (١١٠) مليون من الناس ومن هؤلاء (٢٠) مليونا يعملون فى حقوله ، فهذا كان من ضحايا الحرب فعزل ثم قتل . إذن كثرة العدد

والآلات

والآلات لا تدل على البقاء ، فهذا الذباب كثرت عيونه التي تعد بالآلاف ولكن نوع العنكبوت الذي لا تزيد عيونه على ستة أزواج قام فافترس الذباب على كثرة عيونه .

إن الله حكيم في صنعه ، ألا ترى أن هذا الذباب ـ وإن كان ينظف جونا بابتلاعه الرطوبات التي فيها أنواع الحيوانات الذرية الصغيرة الفاتكة بنا القاتلة بأنواع الحميات والوباء ـ يرجع هو نفسه مهلكا لنا فينقل الأمراض ويأتي بالوباء ، فهو نفسه لما تغذى من المواد الضارة بنا ليصلح جونا أصبح هو ضررا لنا ، فخلق الله العنكبوت لتصطاده وتصطاد غيره من الحشرات الفاتكات بنا وبزرعنا ، فالذباب باحداث العدوى وغير الذباب بأكل الزرع فجعل الله هذه العناكب مساعدة لنا . فمن جهل بعض المسلمين أنهم لا يعلمون أن هذا مساعدهم ونافع لزرعهم وحافظ لهم ولقوتهم .

يعيش المسلم ويموت وهو لا يعلم أن الله أنعم عليه بالعنكبوت ، يعيش المسلم ويموت وهو لا يعلم أن الطيور من القنابر والعصافير والغربان وأبي قردان والبوم تساعده في أكل الدود والحشرات الفاتكات بزرعه وقد أوضحت أكثر هذا في هذا التفسير فراجع بعضه في (سورة المائدة) .

إنه ليحزنني والله أن تكون أمتنا أجهل الأمم بهذه العلوم التي تمتعت بها أوروبا ونحن عنها غافلون ، أذكر أني وأنا مدرس بدار العلوم كنت أرقب نسج العنكبوت في حديقة المدرسة وأنظر له كل يوم فلحظ ذلك وكيل المدرسة وهو من المتعلمين فقال ما هذا الذي تحافظ عليه ؟ قلت إن هذا النسج فيه عجائب فهو نسج محكم يدل على حكمة بالغة أبدعها صانع هذا العالم فتبسم ضاحكا وقال لا قيمة له وهذا لأن المعلمين لا يشوقون التلاميذ إلى الجمال وهذه أكبر مصيبة في الاسلام وقد ابتدأت تزول وهذا التفسير من دلائل النهضة ومن أوائلها .

فقال صاحبي كم عدد الحشرات على وجه الأرض . فقلت إن الحشرات التي من بعضها غذاء العنكبوت قد بلغت في تعداد أنواعها أكثر مما بلغته سائر الحيوانات ، وإذا كانت الخنافس وحدها تبلغ (٨٠٫٠٠٠) نوع فما بالك بغيرها من الحشرات وأنواع الحشرات المعروفة (٢٠٠٫٠٠٠) ويتوقعون أنها تبلغ ألف ألف فقال هذا مدهش ، إني قرأت في كلام أسلافنا أن في البحر (٤٠٠) أمة وفي البر كذلك . فقلت له الأمر فوق ما قالوا والله يقول « ويخلق ما لا تعلمون » ويقول « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وآيات الله في الآفاق وفي الأنفس ابتدأ ظهورها الآن وهذا التفسير من المنبهات لها وأن المسلمين بعدنا لا ينصبون ولا يتعبون في تحصيل العلم وسيقوم فيهم هداة ومصلحون ينشرون هذه العلوم بين الناس فلا يكون فيهم من يقاسي ما قاسيت مما ذكرته في كتابي [التاج المرصع] فإني ذكرت هناك أني كنت أقرأ في كلام الامام الغزالي أن عجائب الله تعالى في نسيج العنكبوت وأعمال النحل لا تتناهى . فأما عجائب النحل فقد كانت واضحة لي ، وأما العنكبوت فقد كنت أود أن أرى شكلا منظما في الكتب لأرى حسن النسق والنظام فيه فلم أوفق لذلك حتى قرأت الكتب الانجليزية فوجدت الرسم فيها فعجبت كل العجب من أمة نائمة لا تعرف نعمة الله ولا تسير على خطوات علمائها ، فلا جمال الله أدركوا ولا آراء علمائهم اتبعوا .

﴿ هل يجوز رسم الحيوان في التفسير ﴾

فقال لي صاحبي ، ههنا قامت عليك الحجة ، فقلت وأي حجة ، فقال أذكرك بأنك في سورة النحل وعدت أن ترسم أشكال الحيوان الذي يحتاج للايضاح ، فلم لا ترسم لنا العنكبوت حتى نطلع على الوصف الذي وصفته ولم لم ترسم لنا النحلة التي وصفتها هناك ولم ترسمها ؟ ألم تقل إن رسم ذلك ليس مباحا فقط بل هو واجب لأن التعلم واجب . وبعبارة أخرى إن هذا التأليف واجب عليك وجوبا عينيا ويجب قراءة هذا على من احتاج إليه وهو قادر إما شكرا لله وإما لزيادة التوحيد ، وقد يجب وجوبا كفائيا كما أوضحته أنت في سورة

للفائدة عند مسألة الغراب وفي غيرها . فقلت له سأرسم شكل نسج العنكبوت . فقال لا يكفي لابد من رسم نفس العنكبوت ونفس النملة ، وإلا عد هذا منك خوفا من صغار العلماء . فقلت لا أقدر أن أرسم ذلك إلا بعد شرح المقام في السنة حتى يوقن كل مطلع على التفسير أن النبي صلى الله عليه وسلم يجيز ذلك . فقال يا عجبا . إن التصوير الشمسي لم يرد تحريمه في كتاب ولا في سنة وما ورد في التصوير من تحريم أو تحليل راجع لفعل الانسان إما مجسما وإما غير مجسم بالرسم المعروف . قلت هذا حق . قال وإذا كان حقاً فلماذا تريد أن تطيل المقام أو تراوغ فلا ترسم هذه الأشكال ، وإني أذكرك بأنك في كتاب (جمال العالم) قلت ما معناه إن العنكبوت لها ستة أرجل كسائر الحشرات مع أن العنكبوت غير الحشرات ولها ثمانية أرجل ، فإذا رسمت الصورة لم يحصل هذا اللبس . فقلت فلنورد الأحاديث حتى لايقع لبس في المقام وتنقطع المعاذير ، وهاك بيانها :

(١) روى قتادة قال : كنا عند ابن عباس رضي الله عنهما وهم يسألونه ولم يذكر النبي صلى الله عليه وسلم حتى سئل فقال سمعت محمدا صلى الله عليه وسلم يقول « من صور صورة في الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » اهـ .

(٢) روى الأعمش عن مسلم قال : كنا مع مسروق في دار يسار بن نمير فرأى في صفته (بتشديد الفاء) تماثيل قال سمعت عبد الله قال سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون »

(٣) روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة يقال لهم أحيوا ما خلقتم » هذه الأحاديث ونحوها وردت في فعل التصوير بمعنى إيجاد الصورة . أما ما كانت رقما في ثوب أو ورق فهاك ما ورد فيها .

(١) روى زيد بن خالد رضي الله عنه أن أبا طلحة حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة » قال بسر فرض زيد بن خالد فعدناه فاذا نحن في بيته بستر فيه تصاوير فقلت لعبد الله الخولاني ألم يحدثنا في التصاوير ؟ فقال إنه قال « إلا رقما في ثوب ألا سمعته قال لا قال بلى قد ذكره » اهـ .

(٢) روى الترمذي بسنده عن عتبة أنه دخل على أبي طلحة الأنصاري يعوده فوجد عنده سهل بن حنيف قال فدعا أبو طلحة إنسانا ينزع نمطا تحته فقال له سهل لم تنزعه قال لأن فيه تصاوير وقال النبي صلى الله عليه وسلم ما قد علمت قال سهل أو لم يقل « إلا ما كان رقما في ثوب » فقال بلى ولكنه أطيب لنفسي ، وقال الترمذي حسن صحيح .

(٣) روى أنس رضي الله عنه قال « كان قرام لعائشة رضي الله عنها سترت به جانب بيتها فقال صلى الله عليه وسلم أميطي عني فإنه لاتزال تصاويره تعرض لي في صلاتي » اهـ .

هذه الأحاديث تدل على إباحة الرقم ، فأما الفوتوغراف فشيء آخر وإنما هو صور جاءت من ضوء الشمس وضوء الشمس ما هو إلا تصوير الله ومن ذا يقدر أن يحرم تصوير الله . وقال الخطابي [إن المصور الذي يصور شكل الحيوان فإني أرجو ألا يدخل في هذا الوعيد لأنه ليس إلا رقما] .

فتبين بهذا أن رسم الصور بيد الانسان ليس محرما بنفس نص الحديث الحسن الصحيح وكلامنا أيضا ليس فيه بل إن الصور الشمسية كلها من تصوير الله ، فإذا رأيت صورا في هذا التفسير فإنها كصور الشمس والقمر والكواكب والحيوان والنبات .

فلما سمع ذلك صاحبي قال هذا حسن جداً وواضح لجميع المسلمين ، وإنما سقط المسلمون في مثل هذا الجهل الذي غشى على العقول فبدل أن يسيروا في رقي الأمة رجعوا القهقرى وفتحوا باب الكفر والنوم والجهل وأقفلوا أبواب جمال الله تعالى ومعرفة عجائبه التي لانهاية لها جهلوا علوم الكائنات ، ولما أردتم إيضاحها خفتم من الجهلاء ، فأوردتم الأحاديث خيفة أن يقفلوا أبواب العلم في وجوه القارئين .

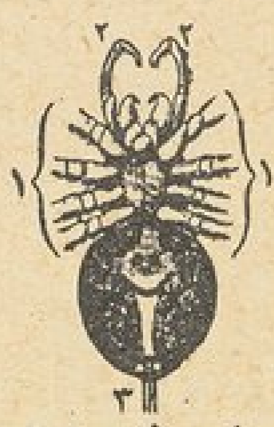
(تذكرة)

(تذكرة)

ثم إن هذا الموضوع قد كتبته أثناء التأليف ولكن أثناء الطبع كتبت ما هو أجمل هناك من هذا في (سورة يونس) فاقرأه (انظر الأشكال الآتية) .



(شكل ٦ ـ صورة العنكبوت واضحة)



(شكل ٧ ـ صورة أصول الأرجل والفكين ومخرج النسيج)



(شكل ٨ ـ صورة جهاز الغزل)



(شكل ٩ ـ صورة نسيج العنكبوت مع بيان حسن لها)

(يفرز العنكبوت مادة سائلة تجف بمجرد ظهورها في الهواء، وتكون على شكل خيوط رفيعة ويستعملها العنكبوت كحبالة لاقتناص فريسته من الذباب أو غيره من الحشرات الصغيرة ، وليزل بواسطتها من المحال المرتفعة كي لا يسقط فيتأثر بالسقوط، ومادة هذه الخيوط خفيفة للغاية من حيث الوزن حتى إن ما يبلغ وزنه أوقية واحدة من هذه الخيوط يمكن أن يصل بين نيويورك في أمريكا وباريس في أوروبا أي بين عمارة ولورث في الأولى وبرج ايفل في الثانية ، وإذا أخذ من خيوط العنكبوت مايزن رطلا أمكن أن تطوّق به الكرة الأرضية مرّتين)



(شكل ١٠ - صورة ذكر النمل الحقيقي . صورته مكبرة جدا لموازنتها بصورة العنكبوت)

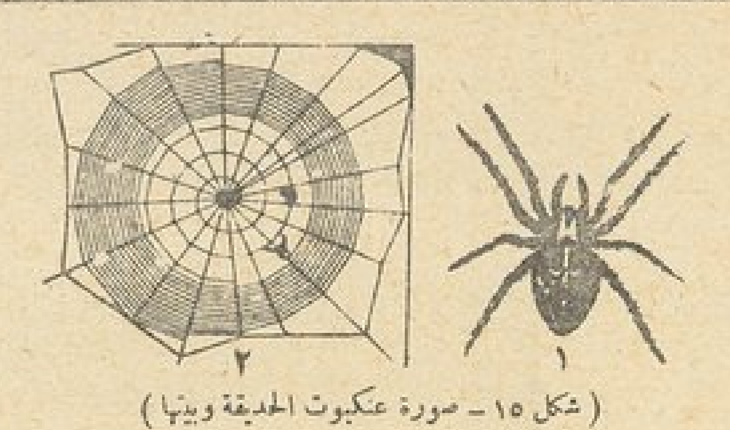


(شكل ١١ - صورة أنثى النمل . صورة الأنثى على حقيقتها . صورتها مكبرة)



(شكل ١٢ - صورة بقر النمل المسمى «المن») (شكل ١٣ صورة مخلب العنكبوت) (شكل ١٤ صورة اجتماع الخيط)

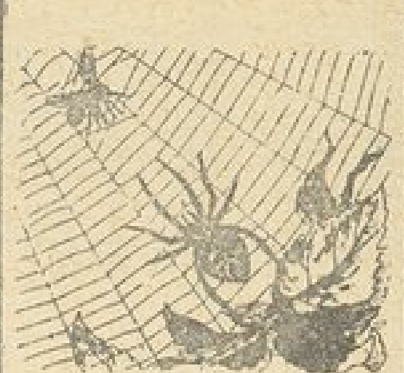
(شكل ١٥



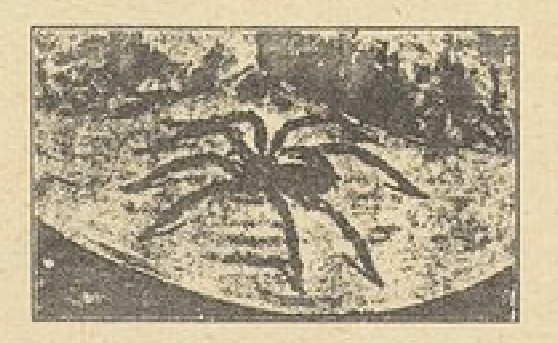
(شكل ١٥ – صورة عنكبوت الحديقة وبيتها)



(شكل ١٦ – صورة أكبر بيت للعنكبوت)



(شكل ١٧ صورة عنكبوت الحديقة صائدة)







(شكل ١٨ – صورة عنكبوت المنازل)

(شكل ١٩ – صورة العنكبوت المائى)

فلما اطلع صاحبي على هذه الأشكال سرّ غاية السرور وانشرح صدره وقال لقد قمت بما وجب عليك وهذا أصلح ما وقع فى كتبك من الخطأ، فانك ذكرت عن المتقدمين أن ريق العنكبوت إذا لامس الهواء صار خيطا، فظهر الآن أن الكشف الحديث أبان أن هناك غدة ظهرت فى الشكل أخرجت لنا هذا النسيج الذى صار تارة طيارة كطيارات الناس فى هذا العصر وتارة سفينة فى بحر لجىّ وتارة تكون عشا ومنزلا وشبكة صيد .

فهذه الكرة المرسومة المتقدمة منبع عجيب جدا للسفن العنكبوتية ومنازلها ومهد أولادها وشبكات صيدها وسفنها وطياراتها وقناطرها التى تعبر عليها ، وإذا كانت هذه حال العنكبوت التى بيتها أضعف البيوت فكيف استحالت حال المسلمين اليوم من القوة إلى الضعف لجهلوا كل شىء ونسوا نعمة ربهم فى صغيرات الأمور وكبارها .

﴿ لطيفة ﴾

لما اطلع على هذا أحد الفضلاء قال : لقد مرّ على الأمم الإسلامية قرون وقرون ولم يظفروا فى تعاليمهم بأمثال هذه الصور ولكن هذا الزمان هو الذى ظهرت فيه العلوم وتقدمت الفنون فساعدت على ظهور هذا التفسير بهيئة جديدة ولكن ليس معنى هذه الصور أنها تصدنا عن المباحث العامة . فقلت سل ما بدا لك . فقال إن الله ضرب العنكبوت مثلا لما يعبد الكافرون من الأصنام وقرّر أن أوهن البيوت بيت العنكبوت فكيف يكون بيت العنكبوت أوهن البيوت وقد رأينا من الاتقان فيه والإبداع مالا حدّ له ؟ فهذا عجب كيف اجتمع نهاية الإبداع مع نهاية الوهن ، إن الوهن لا يجامع الاتقان . فقلت إذا كان بيت العنكبوت أوهن البيوت مع أنه عجيب الصنع بديع الاتقان فإن هذا هو المعروف فى هذا العالم ، فأنت ترى فيما تقدم فى آخر سورة النمل فى تفسير قوله تعالى « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » أن مقدار الماء الذى يملأ ملعقة الشاى يحتوى على مقدار من الهيدروجين وهذا المقدار فيه كهرباء لو استخرجها العلماء فى المستقبل لأصبح عندنا منه مائة ألف كيلو من الكهربائية وقوتها تساوى (١٣٣) ألف حصان وما هذا كله إلا من الهيدروجين الذى فى ملعقة الشاى ، ما هو الهيدروجين فى تلك الملعقة ؟ إن هو إلا جزء من (٩) من الماء وذلك أن الماء مركب من الاكسوجين والاودروجين ، والاودروجين فى الوزن لا يساوى أكثر من واحد من (٩) من الاكسوجين. إذن تسع ملعقة الشاى هو الذى يعطينا قوةّ (١٣٣) ألف حصان ، فهذا الماء فى الملعقة شىء لا يؤبه له فضلا عن جزء من تسعة من هذا المقدار . إذن الله أتقن القليل وأدهشنا من إتقانه ، وإذا كان هذا عمله فى القليل فما بالك بالكثير ؟ وهذا قوله تعالى « الذى أحسن كل شىء خلقه » فالقلة لا تمنع الاتقان لأن القدرة والعلم لا حدّ لهما وهذا على حد قول الشاعر :

له همم لا منتهى لكبارها   وهمته الصغرى أجل من الدهر

فما قاله الشاعر فى ممدوحه يقال هنا إن جميع البيوت فى العالم سواء أكانت إنسانية كبيوتنا أم كانت للحيوان والطير أمتن وأقوى من بيت العنكبوت ، ألا ترى منازل الناس وأجحار الضب والغزال والذئاب وأضرابها ثم إلى أعشاش الطيور التى تبنيها فى الأشجار ، فهذه كلها أقوى من بيت العنكبوت ، فهكذا الأصنام وإن كانت ماثلة أمام الناس يرونها بأعينهم لا قوة ولا عمل لها ونسبة الأصنام من حيث عبادتها إلى خالق العالم الحكيم كنسبة بيت العنكبوت إلى بيوت الانسان ونحوه ، فبيت العنكبوت إذا نسبناه إلى بيوتنا وبيوت حيواناتنا كان أوهن البيوت ، هكذا عبادة الأصنام يتوهم الناس أنها تنفعهم وما هى بنافعة وإنما يتخيل عبادها بوهمهم نفعها لهم ، فهذا التخيل الذى لا يرى أشبه ببيت العنكبوت من حيث ضعفه

لا من

لامن حيث حسن إتقانه ، فهذا مقام وذاك آخر ، بل إذا تمادينا فى الفهم ونظرنا بعين الحقيقة رأينا هذه الدنيا كلها أشبه بالأصنام بل المعبود حقيقة عند كثير من الناس إنما هو الهوى . بعبارة أخرى : الناس يحبون الدنيا كالمال والولد حبا جما وهذا الحب هو العبادة الحقيقية ، وإذا كانت الدنيا لاثبات لها بل هى زائلة ، بل ظهر كما تقدم فى سورة النور عند قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » أن قطرة الماء فيها جواهر صغيرة تكاد تصل فى العدّ نجوم السماء التى عرفت فى الكشف الحديث ، ومع هذا كله نرى هذا العدد لا يملأ من فراغ تلك القطرة إلا جزءا واحدا من مئات آلاف آلاف وبناء عليه أصبح هذا العالم عند العلماء عالما أجوف والمادة فيه تكاد تكون متوهمة . إذن هذا العالم عالم الوهم فليس الحكم على المادة بأنها كبيت العنكبوت خاصا بالأصنام بل هذا الحكم يعم المادة كلها والحياة فيها وهذا هو قوله تعالى « وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو » وقوله تعالى « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان » وقوله « كل شىء هالك إلا وجهه » .

وأهم ما تقدم أن بيت العنكبوت من حيث إتقانه له حكم غيره من حيث ضعفه ، فضرب المثل به جاء من حيث ضعفه لا من حيث إتقانه وهذا الضعف له نظير فى المادة كلها وفى الأصنام ؛ فالمادة أشبه بالوهم والخيال كما وضح فى قطرة الماء فى (سورة النور) ولا جرم أن هذا الإيضاح ليس يعقله جميع الناس بل يعوزه علم وحكمة لهذا قال تعالى « لو كانوا يعلمون » وقال « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

فالجاهل يظن أن ضرب المثل بالعنكبوت أمر سهل لأنه مفهوم والعالم يدرسه دراسة تامة ويفهم ما كتبناه فقال لقد أجبت بما شفى صدرى ولكنى أريد أن أسألك سؤالا آخر ، هل قلد الناس نسيج العنكبوت . لجماله وإبداعه واتقانه وهندسته . فقلت نعم فقد جاء فى مجلة « كل شىء » ما نصه (شكل (٢٠)

(محاكاة الطبيعة)



(شكل ٢٠ ـ باب من حديد مصنوع بهيئة نسيج العنكبوت)

« كل منا يعرف نسيج العنكبوت ويعجب به ، كما أننا نضرب المثل به فى الضعف والوهن ولكن أحد الصناع الإنجليز رأى أن يقلده فصنع بابا من الحديد بهيئة نسيج العنكبوت وعرضه حديثا فى لندن فنال إعجاب كل من رآه »

﴿ لطيفة ﴾

لقد تقدم فى (سورة الفرقان) عند قوله تعالى « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » أن العنكبوت تأكل الذباب وبهذا يخلو الجو للانسان والحيوان . إذن العنكبوت نافع للزراعة لأنه آكل الحشرات ذبابا وغيره فاقرأ هذا الموضوع هناك ، وإنى أزيد المقام حكمة بما رأيته اليوم من أن العقارب التى شاركت العنكبوت فى أرجلها الثمانية وفى الهيئة شاركتها أيضا فى قتل الحشرات فانظر (شكل ٢١)



(شكل ٢١ ـ صورة عقرب تأكل العث والسوس)

[هذه عقرب صغيرة تعيش بين الأوراق والكتب والأخشاب فى البيوت القديمة وتقتات بالعث والسوس وسائر الحشرات التى تأكل الثياب والأقمشة والأوراق، لها ثمانية أرجل مثل سائر العقارب ولها كلابتان إذا قبضت بهما على الحشرة أزهقتها ، وهى تبيض نحو (٢٠) بيضة تحملها فى طية من طيات بطنها حتى يتفقس البيض وتخرج الصغار « إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم ».

وإلى هنا انتهى القول فى السؤال الأول وما ترتب عليه من الشروح فى الحشرات والعنكبوت فقد اكتفيت . أما جوابى لك أيها الأخ عن السؤال الثانى وهو لماذا أراك تشرح هذه الحيوانات هنا وهل هذا يوافق مساق الآية ؟ فإنى أقول لك ما الذى دعاك إلى هذا السؤال ؟ فقال غيرتى عليك لأنى رأيت أن هذه العلوم أنت مغرم بها ومساق الآية لا يعطى ذلك ، إنما مساقها لذم عباد الأصنام وأن عقولهم وقفت عند أمر ضعيف كضعف نسج العنكبوت ، وما مثلك فى هذا إلا كما جاء فى [الإتقان فى علوم القرآن] للعلامة السيوطى أن العلامة الرازى غلب عليه أقوال الفلاسفة فأكثر منها وقال أبو حيان فى (البحر) جمع الرازى كل شىء إلا التفسير وهكذا أبو حيان نفسه وقع فيما وقع فيه الرازى فقد غلب عليه قواعد النحو ومسائله فأكثر من ذلك كالواحدى فى البسيط والزجاج ، ثم إن الثعلبى غلبت عليه الأخبار ، والفقيه يكاد يجعل القرآن كله للفقه كالقرطبى ، فإنى أخاف أن تفسيرك يكون بحسب ما غلب عليك واشتهر عنك فى كتبك . فقلت له : أما من ذكرت من الشيوخ فهم أساتذتنا ولولاهم ماعلمت شيئا . وأما قولك إن تفسيرى خارج عن مساق الآية فهذا هو الذى أجيبك عنه وستعلم أن هذا زمان ظهور الحقائق القرآنية ، فاعلم أيدك الله أن مساق الآية كما ذكرت أنت إنما هو تشبيه هؤلاء الكفار من حيث إنهم اتخذوا غير الله إلها بالعنكبوت اتخذت بيتا ، ولا جرم أن بيت العنكبوت بالنسبة لبيوتنا كمعدوم لا وجود له ، وما مثل العنكبوت بالنسبة للمنازل فى القرى والمدن أو للأهرام بمصر الذى يقارع الأجيال وهو باق على كر الدهور إلا كنسبة العدم للوجود ، وإذا كان نور الشمس لما وازناه فى سورة الأنعام بنور أضعف الكواكب

بلغ مثات ألوف ألوف الألوف فهكذا هنا نسبة الهرم إلى بيت العنكبوت أبعد وأبعد جدا ، إذن عقول هؤلاء الكافرين بعبادتهم الأصنام أصبحت نسبتها إلى من يعرف الله ويدرك مصنوعاته كنسبة بيوت العنكبوت إلى أهرام الجيزة بمصر . وبعبارة أوضح : إن عقول الكفار لما وقفت عند المحسوسات وانحصرت فيها وعبدت الأجسام وانحسرت وانحبست فى صور محدودة وهيا كل معدودة كانت نسبتها إلى عقول الأنبياء والحكماء والأولياء كنسبة بيوت العنكبوت إلى أقوى الأبنية أو كنسبة أضعف كوكب إلى ضوء الشمس الذى شبه به الرسول صلى الله عليه وسلم فقيل فى القرآن « وسراجا منيرا » فإذن تكون المسألة راجعة إلى قوله تعالى فى سورة أخرى « أتعبدون ماتنحتون والله خلقكم وما تعملون » فأول الآية يمثل انحصار العقول وغفلتها بالوقوف على ماتنحته الناس وآخرها يمثل انطلاق العقول إلى باحات الجمال وإشراقها بادراك سر هذا الوجود بقدر الطاقة البشرية . إذن أصبح هذا التمثيل داعيا إلى انطلاق العقول وعدم حبسها فى أشياء خاصة بل يراد بذلك درس هذه الموجودات لمعرفة مبدعها وارتقاء العقول فى هذه الدنيا ونظام المدن ، فاذن هذا المثل حوى أمرين : « صنع الله الذى أتقن كل شئ » وصنع المخلوق الضعيف فصنع الله هو الذى يجب البحث فيه ووقوف العقل عند حد مخصوص هو الذى يذم . فالنفوس التى وقفت عند عبادة الأصنام نفوس ضعيفة فآراؤها أشبه بيت العنكبوت بالنسبة لأقوى الأبنية فهى لا محالة واهية ذاهبة . والدليل على ذلك أن كفار مكة لما جاء الاسلام خضعوا له طوعا لقليلهم وكرها لأكثرهم ، فهم اتخذوا ما يشبه بيت العنكبوت فلم يحفظهم بل غلبهم المسلمون فى الحرب وهكذا يوم القيامة يعذبون ، وهكذا ترى المسلمين فى الأعصر المتأخرة ناموا وعكفوا وجهلوا كل شىء فى الدين فغلبهم الفرنجة فى السياسة وفى الحروب .

والحاصل أن كل من وقفت عقولهم وجمدوا فانهم لا محالة مقهورون فالمدار على العلم فى كل موطن فى الدين والدنيا ، فإذا رأينا العلوم فى هذا الزمان قد جملت الناس وألبستهم وأطعمتهم فمن ترك ذلك فهو كالعنكبوت اتخذت بيتاً ، وإذا رأينا المسلم يقرأ فى علم التوحيد كلمات جدلية ويقتصر على الفقه ويترك مواهبه وعقله وتفكيره ونعمة ربه فى سمواته وأرضه وحيوانه وحشراته وعنكبوته وهوائه ومائه وهو يرى الأمم تحيط به وتعلم هذا كله ثم هو لا يفكر قلنا إن مثله كمثل العنكبوت وهو آثم لأنه ترك ما يجب عليه إما وجوبا عينياً أو وجوبا كفائياً .

إن هذا المثل عجيب جدا وكيف لايكون عجيبا وهوقد ذكر بيت العنكبوت والعنكبوت ، فبيت العنكبوت شبه به الأصنام المعبودة والعنكبوت نفسها من صنع الله وصنع الله يطلب النظر فيه شكراً لله وتوحيدا له ، ومن أعجب وأبدع ما صنع الله خلق العنكبوت ، فانظر فيها أنت فد رأيت عجائبها ، رأيت مراكبها وطياراتها ومساكنها وقناطرها فكيف كان هذا الحيوان الضعيف قد أتم الله خلقه وأكمل صنعه وجعله آية للعالمين وكيف كان أعجوبة الدهر ومثال الجمال والكمال وكيف اخترق الآفاق فى الهواء بصناعاته وأبدع منسوجا خيوطه خارجات من جسمه بلا إرشاد مرشدين ولاتعليم معلمين فساح فى الهواء وجرى على الماء وبنى القناطر وربى الذرية وطارد الجيوش الجرارة من الحشرات فاقتنصها وأراح منها زرعنا اللهم اشهد .

إنى أسجل على المسلمين جهلهم بهذه المصنوعات التى صنعتها والعجائب التى أبدعتها والطرق التى لنا أهديتها ، اللهم إنك أنت الجميل الذى أبدعت الجمال وأظهرته فى هذه الحشرة التى أتقنت الصنعة وأحكمتها والمسلمون لا يعلمون . اللهم إنى أذكر بهذا التفسير كل من اطلع عليه أن يبين للمسلمين حكمة ربهم وصنعه ويفهمهم أنه لا معنى لشكر الله ولا لحب الله ولا للاهتداء بآيات الله إلا بهذه العلوم ومعرفتها .

انظر كيف كان المثل مضروبا لسخافة عقول الكافرين المحصورة فجاء فيه الأمران بيت العنكبوت ونفس العنكبوت

ولما كان النظر فى أمر العنكبوت نفسها لا يخطر بالبال بل يقول الانسان إنه خارج عن الموضوع أفاد ذلك فقال « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام ، فهو يقول إن العلماء هم الذين يفهمون هذه الأمثال ، ومعنى هذا أن العلماء بهذه العلوم كالحشرات مع ما ينضم إليها هم الذين يعقلون هذا المثل وإلا فلماذا يأتى بهذه الجملة بعد مسألة العنكبوت ، ولماذا يختص هذا المكان بأن هذا لا يعقله إلا العالمون (بكسر اللام) .

اللهم إن المثل من حيث أنه يراد به أن الأصنام كبيت العنكبوت واضح للصبيان والعجائز لايحتاج إلى علماء ولا حكماء ، ثم زاده إيضاحا فقال «خلق الله السموات والأرض بالحق» وأتبعه بذكر أنه آية للمؤمنين ثم تلاه بأمره بتلاوة القرآن وبالصلاة لماذا يصلى لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر والفحشاء والمنكر يمنعان القلب من معرفة جمال هذه المصنوعات الإلهية وأعقبه بقوله « ولذكر الله أكبر » ومعلوم أن التفكر فى الصنعة أشرف الذكر وهو الذى رمز له بالعنكبوت ونسجه .

هنا تبين الأمر وظهر فكأنه يقول هذه الأصنام المعبودة تشبه بيت العنكبوت لاثبات لها ، والذى ينفع الناس هو النظر فى السموات والأرض ويمثل ذلك كله نفس الحشرة ، فالحشرة العنكبوتية فى المثل من أبدع ما خلق الله فى السموات والأرض ودقة نسجها وعجائب صيدها وقنصها وإتقان الغدد التى فى جسمها حتى تخرج خيوطا وغير ذلك دال على جمال الصانع وحكمته ، فالمثل فيه ضعف الصنعة وإتقانها ، ضعفها من حيث مقارنتها ببيوت الناس وإتقانها وقوتها من حيث نظام الله العام ، ولا جرم أن هذا لايعقله إلا العلماء والجهلاء يكتفون بظواهر القول .

الله أكبر ، الله أكبر ، جلّ العلم الذى أرانا أن هذه الحشرة خلقت لنا كل الحشرات الضارة بزرعنا وهى تكون نموذجا لما يفعله الله فى الأمم ، إن الأمم التى تقل فائدتها فى الوجود وإن كثر سلاحها وصحت أجسامها لابد من سقوطها كدولة الرومان وكدولة الأندلس الاسلامية التى غاب عنها عقلها وعلمها وعشقت الشعر وحده وكان الرومان قد شرهوا وقتلهم الترف والبطنة فأخذتهم الأمم وإن كانت عندهم الأسلحة وافرة وها نحن أولاء نرى الأمة العربية كيف فتحت مصر بآلاف تعد على الأصابع مع قلة العدد والعدد وقد كان فى مصر مائة ألف من الجند الرومانى فضلا عن جنود القبط بمصر مع وفرة العدد . إن الله جعل الأمم التى يقل نفعها أشبه بالذباب فهى مهما كثرت جيوشها وعددها مقهورة مصروعة مخذولة بأمم أقل منها سلاحا كما ترى فى العنكبوت الذى قلت عيونه وفى الذباب الذى تعد عيونه بآلاف .

فلما سمع صاحبى هذا قال الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، أما أنا الآن فانى أعتقد أن هذا من أسرار القرآن التى كانت مخبوءة لهذا الزمان ويظهر لى أن هناك مالا يتناهى وقد حجب عنا لقوم بعدنا ، لقد ذكرنى هذا ما فى [كتاب الاتقان] للسيوطى الذى حدثتك عنه آنفا فانه جاء فيه ما يأتى فى النوع الرابع والستين

[إن المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى سالم عن المعارضة، وهى إما حسية وإما عقلية ، وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لقلة بصيرتهم وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لأن هذه الشريعة باقية خصت بالمعجزة العقلية ليراها ذو والبصائر كما قال صلى الله عليه وسلم « ما من نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا » أخرجه البخارى . قيل إن معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة وخرقه العادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه] انتهى من كتاب الإتقان .

قال

قال صاحبي بعد أن قص ما تقدم ، فأنا أرى أن ما تذكره أنت فى التفسير من الذى لم يظهر إلا فى العصر الحاضر ، كيف لا ونحن نرى أن مثل العنكبوت ما كان ليحتمل هذا كله ويدخل فى أبواب العلوم والزراعة والسياسة وفوق ذلك . يستبين فى هذا التفسير أن المثل مقصود به ذلك بدليل أنه قال « وما يعقلها إلا العالمون » بكسر اللام ، وهذا بلا شك يفيدنا أن ما ذكرته أنت من العلم فى تفسير الآية كله مقصود القرآن ، فقلت الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات اهـ .

﴿ اللطيفة الثانية : فى قوله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » ﴾

قد مرّ الكلام عليها فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » ولكن أذكرهنا جوهرة وهى :

﴿ جوهرة : فى قوله تعالى « وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وفى حكم خطرت لى فى الصلاة صباحا يوم السبت ٢٠ يوليو سنة ١٩٢٩ ﴾

إن هيئة الصلاة فى ديننا الاسلامى موافقة أيما موافقة لهذه الدنيا ، فإنا نرى ليلا ونهاراً وشروقا وغروبا فاذا كان النهار سعى الناس لمعاشهم وترددوا فى مهامهم ، وإذا كان الليل استراحت أجسامهم وسكنت حركاتهم فهكذا فى الصلاة يقول المصلى « إياك نعبد وإياك نستعين . اهدنا الصراط المستقيم » الخ ، إذن المصلى يجد ويستغيث ربه فى كل شىء فهذا أشبه به أثناء النهار وهكذا يقول « رب اغفرلى وارحمنى الخ » وذلك بين السجدتين فهو فى هاتين الحالتين عامل كعامل الناس نهارا ولكنك تسمعه يقول فى الرفع والاعتدال « اللهم لامانع لما أعطيت ، ولا معطى لما منعت ، ولا رادّ لما قضيت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » ويقول فى الركوع « خشع لك سمعى وبصرى الخ » وفى السجود « سجد وجهى للذى خلقه وصوّره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين » فهو فى هاتين الحالتين ما بين واصف للنظام الجميل فى جسمه وساكن خاشع لا طلب له ولا عمل ، ففى الأحوال الثلاثة للمصلى قد سكن لعمل ربه فى سمواته وأرضه وفى أعضاء جسمه ، إذن هو مستغرق فى ذلك الجمال ، فهو يلاحظ الفاعل فى فعله ، فان رفع رأسه من الركوع تذكر النعم العامة فى السموات والأرض فنطق بالحمد عليها وقال « لك الحمد ملء السموات وملء الأرض الخ » وليس ينطق بهذا إلا بعد أن بهره جمالها فلم يبق بعد ذلك إلا أن يغيب عن شهود نفسه ويشهد صانع هذه العوالم فيقول « لا مانع لما أعطيت الخ » ذلك لأننى لما رأيت أن جسمى ما هو إلا ذرة من السموات والأرض ونعمك قد شملتهما سكنت إليك لأنك تربينى فى الدنيا تربية ألهمت المرأة نظيرها فى تربية ولدها والأستاذ كذلك فى تعليم تلميذه ، فبينما المرأة تعلم ولدها الجلوس تارة والقيام أخرى إذا هى تلقمه ثديها تارة وتنيمه فى المهد أخرى . وهكذا الأستاذ بينما هو يعطى التلميذ دروسه ويلقنها له من تلقاء نفسه إذا به يقول له فكر فيما لقنتك واكتب عليه موضوعا إنشائياً . إن نظام الله واحد ، نهار وليل وحركات الطفل بتعليم أمه ثم أنامته وأراحته وعمل التلميذ بنفسه فى التعلم ثم إلقاء المعلم له الدرس وإراحته عقب الدرس هكذا فى الصلاة تسليم لله فى الرفع والاعتدال ودهش من نظام السموات والأرض وهكذا تعجب من نظام الجسم فى الركوع والسجود واستغراق فى ذلك الجمال ثم الاجتهاد فى العبادة وطلب الهداية وطلب المغفرة والرحمة فى حالى القيام . وفى الجلوس بين السجدتين .

وملخص هذا كله أن هذه التربية فى الصلاة موافقة كل الموافقة لنظام هذا العالم ولنظام التعلم فى مدارس العالم قاطبة فتربية الإنسان فى صلاته كالتربية المدرسية ، فليجعل المسلمون الدروس منتظمة وقتاً للجد ووقتاً للراحة كما تفعل الأمم وكما يفعل المصلى إذ يستغرق تارة فى جمال الله وتارة يفكر بنفسه ويطلب منه الاعانة ، فاذا وجدنا رجلا ترك العمل وقال إنى مستغرق فى حب الله وجب تأديبه لأن هذا ينافى التربية ، وإذا وجدنا

آخر لا يفكر فى نظام هذه الدنيا وجمال خالقها بل أصبح مكبا على عمله قلنا له قد أخطأت إن هنا ليلا وإن هنا نهاراً وأنت جعلت حياتك كلها نهارا وقد خالفت نظام الصلاة الذى يجعلك تارة مستغرقا فى نظام السموات والأرض ونظام جسمك ، وآونة تستفيق فتطلب المعونة والهداية تارة والمغفرة تارة أخرى، وهذه نفسها حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظام القرآن ، فكان صلى الله عليه وسلم يعمل جميع الأعمال ويكل نتائج العمل لله ، هكذا فليفكر المسلمون وليجدّوا فى أعمالهم على شريطة ألا يزروا علما ولا نظاما ولا كمالا إلا أتقنوه ثم يطمئنون لما تجرى به المقادير ، وهذا هو التوكل بعينه عمل تام واطمئنان قلب لكل ما تأتى به المقادير انتهى، والحمد لله رب العالمين .

﴿ إيضاح الكلام على الصلاة وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾

اعلم أن العلم الذى ينزله الله على القلوب كالماء الذى ينزل من السماء على الأرض، فكما أن الماء لاتظهر أنواع تصرفاته ولا فنون أعاجيبه إلا باختلاطه بأجسام النبات والحيوان ونحوهما ، فهكذا الوحى الحق الذى ينزل على الأنبياء لاتظهر فنون أعاجيبه ولا صنوف حكمه إلا بأن تتناوله عقول العقلاء وتفكر فى معانيه . إذن تظهر أعاجيبه وتبتهج بها القلوب . ومسألة الصلاة فى الآية وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر يعوزها البحث والتنقيب فى آراء حكماء الأمم المختلفة من اليونانيين والأوروبيين وحكماء الهند وحكماء الاسلام . فاذا درسنا ما قاله هؤلاء فى هذا الموضوع استخرجنا منها خلاصة انتفعنا بها فى فهم هذه الآية . ومتى تم ذلك لنا أدركنا سر نهى الصلاة عن الفحشاء والمنكر لأن القرآن آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم . وعليه تكون آراء الفلاسفة فى جميع الأمم أشبه بتفسير للقرآن لأنه آيات بينات فى صدورهم . وعليه يجب على المسلمين أن يفوقوا الأمم فى الفلسفة حتى يظهر سر هذا الدين الذى لا تظهر ثمرته حق ظهورها إلا بدراسة علوم الأمم المعبر عنها بالآيات البينات فى صدور الذين أوتوا العلم، وإذن فلنبدأ بدراسة حكماء اليونان فنقول: اقرأ ماتقدم فى (سورة الشعراء) عند قوله تعالى « وإذا مرضت فهو يشفين » إذ ذكرت هناك عن طيماوس الحكيم أمراض البدن وأمراض النفس وأن الثانية تابعة للأولى وأن أمراض النفس (ثلاثة أقسام) فمنها ما يتبع إفراط اللذة وما يتبع إفراط الألم وما يتبع إفراط الأخلاط كالمرارة والبلغم لأنها تعطل سريان النفس فى البدن فيكون ذلك سبباً للتهوّر والجبن وجمود القريحة والنسيان وهكذا .

وملخص كلامه أن الشر غير اختيارى وله علتان : فساد المزاج وسوء التأديب ولا سبيل للخروج من هذه المآزق إلا بحفظ النفس والبدن معا وذلك برياضتهما معا ورياضة البدن بالحركات البدنية ورياضة النفس بالموسيقى . هذا ملخصه فاقرأه هناك .

وإذا أشرت إلى آراء علماء اليونان فلأتبعه بآراء علماء أوروبا وهو ما تقدم فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى « ولا تقربوهن حتى يطهرن » وهذا نص ما ذكره العلامة (بنتام) الانجليزى فى أصول الشرائع [إن هناك علاقة بين نظافة الجسم واعتدال الملكات النفسية وهذا الارتباط لاحظه كثير من المؤلفين فان النظافة تبعد الكسل وتحمل المرء على التحرز فى أعماله والتمسك بالوقار فى أطواره والرابطة بين نظافة الجسم وطهارة النفس شديدة جدا حتى إن شرائع المسلمين حثت عليها حثا كلياً وجعلتها من الواجبات الأولية، وقد ذكر فى نفس كتابه أن هذا من محاسن الدين الاسلامى وقد رتب على هذا أمرين : وجوب نظافة المسجونين، ووجوب وضعهم فى عمل من الأعمال؛ لأن المذنبين عنده هم القذرون أجساما الذين لاعمل لهم ، فمتى نظفوا وعملوا قلت جرائمهم . انتهى ما نقلته عن بنتام الانجليزى .

وأما ما قاله علماء الهند فذلك أنى قرأت فى كتاب (راجا يوقا) المترجم من الهندية إلى الانجليزية

سنة ١٨٩٥ وسنة ١٨٩٦ أن الانسان يجب عليه أن تكون له رياضة خيالية بحيث يتذكر فى كثير من الأوقات الصور الجميلة التى لا تثير شهوة يريد بذلك الأزهار والكواكب وجمال الابداع والنظام وأن ذلك يقوى النفس ويرقيها . وأما ما قاله علماء الاسلام فهو ما ذكره العلامة ابن سينا فى أواخر كتاب الإشارات أن الذى يرقى بالنفس إلى معاليها الصوت اللطيف والعشق العفيف والعبادة مع التفكر ، ومعنى العشق العفيف عشق الصفات والكمال والأخلاق لا عشق الصور . هذا ما أردت نقله لأشرحه فأقول :

تبين من هذه الأقوال أن هذه النفس مع الجسم لا يتركان سدى ، ذلك أنهما نتجا من عوالم كلها متحركة ؛ فالملائكة الحركات للعوالم العلوية لاتفتر لحظة والسموات الرسلات أنوارها لا تنام والعالم كله حركة ونظام ، فههنا نفس وههنا جسم يطلبان كمالهما ، فأولا لابد من النظافة كما قال (بنتام) وهذه النظافة قد أصبحت ركنا فى تربية الأمم وتعليم للمسجونين لتدفع عنهم الكسل وسوء الخلق وبها تقل الجرائم والذنوب وهذا السر ظهر فى قوله تعالى « إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » لأن بين التوبة والطهارة علاقة متينة كما تقدم ، ثم إن الصلاة أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم وهذه الأفعال حركات وهذه الأقوال دالة على معان . فهنا رياضتان لطيفتان رياضة جسمية ورياضة عقلية . وإذا وضعت قول ابن سينا مع قول طيماوس الحكيم نتج لنا أن رياضة النفس لا تقتصر على الموسيقى كما قاله طيماوس بل تشمل الفكر الذى تحويه العبادة كما قاله ابن سينا وتشمل الصور البهجة السماوية كما قاله علماء الهند . وعليه تكون الصلاة مبدأ لأمرين : رياضة البدن ورياضة النفس ، فكل منهما لا بد له من حركات والصلاة اشتملت على مبادئهما . فاذا أتم المسلم الصلاة فليتمم رياضة الجسم بكسب المعاش أو فليمش نحو ساعتين كل يوم كما يقول الأطباء فى زماننا . فاذا كان الطبيب يأمرنا بالمشى الذى لا تعقل فيه فما هو هذه الصلاة اجتمع فيها حركة الفكر وحركة الجسم وهذا أفضل . ألا ترى إلى ما يقوله علماء الطب وقد تقدم فى هذا التفسير أن التمارين الجسمية والألعاب الرياضية التى شاعت فى الأمم الآن أدنى مراتب الرياضة البدنية لأنها لا فكر معها . فأما العمل فى البساتين والحقول فإنه أعظم الرياضات ويليه المشى وأسفل الجميع تلك الألعاب .

إذن ظهر أن الصلاة أعطتنا درسين : درس رياضة الجسم ودرس رياضة النفس ، ومتى انتظم هذان الأمران أصبح الانسان قليل الذنوب قليل الشرور فان الشرور لا تنجم إلا من قذر الأجسام والطهارة فى الصلاة تمنع ذلك ، ومن عدم الرياضة البدنية والرياضة النفسية كما قاله طيماوس وهاتان الرياضتان اشتملت عليهما الصلاة بحركات الجسم وحركات النفس إذ يقف المصلى فيفكر فى السموات والأرض حين يقرأ « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض » الخ فههنا تحضر فى نفسه تلك العوالم الجميلة فتتقوى روحه وتشرح صدره وهكذا يفكر فى العوالم العلوية والسفلية عند آية « الحمد لله رب العالمين » ويتعجب من الرحمة الواسعة عند قوله « الرحمن الرحيم » وهذه الرحمة لاحد لها فى كل حشرة وطير وأنعام . وهكذا يفكر فى خلق جسمه وأعضائه وسمعه وبصره عند الذكر فى الركوع والسجود إذ يقول « خشع لك سمعى وبصرى الخ » ويقول « سجد وجهى الخ » فإذا أتم المسلم صلاته اتجه للأعمال فى حياته الدنيوية فتكون على منوال ما فى الصلاة وتنصرف نفسه للعمل الجسمى والعمل العقلى وهنالك تنصرف عن الشر إلى الخير .

(بهجة هذا المقال)

اعلم أن أفلاطون فى جمهوريته يقول [إن حكام الجمهورية لا يكونون عادلين إلا إذا انفتحت عيون بصائرهم ولا يتم ذلك إلا بعشق العلوم والمعارف لأن النفوس مغرمة بالشهوات البدنية أولا وبالذات كالمطاعم والملابس والمشارب وبالشهوات الغضبية كالفتك بالأعداء ، فهاتان القوتان هما المسيطرتان على نفوس الناس

إذا لم يفتح للحكام باب للمدة العقلية بعشق العلوم فإنهم لا محالة ينصرفون إلى اللذتين السابقتين فيشركون المحكومين لهم فى أعراضهم وأموالهم ، ولا خروج للحكام من ذلك الظلم إلا بتلك الحلقة الشريفة] هذا ملخص كلامه فى جمهوريته .

وأنا أقول [إن ملخص الصلاة مفتاح لجميع العلوم] فاقرأه فيما كتبناه فى (سورة آل عمران) فإن المسلم فى الرفع والاعتدال يذكر السموات فيقول «ملء السموات وملء الأرض وملء ما بينهما الخ » وعند الركوع والسجود يفكر فى أمر جسمه وتشريحه . فاذا كان المسلم فى كل يوم يتذكر هذه العوالم فليس لهذا معنى إلا حب البحث فيها وهذا هو الذى يخرج نفسه من حبس الشهوتين إلى حب العلم وهو صفة القوة العاقلة كما يقوله أفلاطون الله أكبر . ظهر سر هذه الآية الآن . فالطهارة تمنع الذنوب وأذكار الصلاة تفتح أبواب العلم المانعة من الشهوة والغضب وهكذا ، فظهر إذن قوله تعالى « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » أى بنظافتها وحركاتها الجسمية وحركاتها العقلية .

﴿ تطبيق على ما تقدم ﴾

(سبب إسلام الأستاذ عبد الله كويلم الإنجليزى)

لقد كان لإسلامه تاريخ وضعه هو فى كتاب وقد ذكر لى بعض الأصحاب ملخص ذلك الكتاب . قال [لقد اعترانى مرض فعرضت نفسى على الأطباء فقالوا لى لا بد من أنك تسافر إلى أقطار حارة كبلاد الجزائر فتوجه إليها وخالط أهلها فوجدهم يتوضئون ويصلون فسألهم ماهذا ؟ فقالوا هذا أمر واجب شرعا فترك العامة وأخذ يسأل العلماء عما يفعل المسلمون فما وه قواعد الدين الإسلامى فدهش وقال يا عجبا ، إن هذا الوضوء خمس مرات فى اليوم إنما هو نصف اغتسال لأنه غسل أطراف الجسم ولم يبق من الإنسان بلا غسل إلا الجذع هنالك أخذ يدرس هذا الدين وقال إن هذه النظافة هى الصحة بعينها وسلامة الجسم بعينه والأطباء يجعلون هذا أول علامة على قوة الأجسام وسلامة العقول ، وما كاد يرجع إلى بلاده حتى أخبر زوجته وأفهمها حقيقة الإسلام وبين لها فوائد الاغتسال والوضوء والصلاة والزكاة والصوم والحج وقال إن هذا صالح لرقى الإنسانية جمعاء فأسلمت معه ، ثم قال لها لنعرض هذا الرأى على فلان وفلانة من أصحابهما فعرضه عليهما فقبلا وهكذا اجتمع له من أصحابه طائفة وأعلنوا إسلامهم ، فلما سمع بهم الجيران سطا عليهم الغوغاء وصاروا يقذفونهم بالحجارة ويعيرونهم بأنهم مسلمون ، ولما كان هو من رجال القانون المشهورين رفع دعوى على الملكة فكتوريا يقول فيها أنت ملكة انكلترا ، فهل ملكك خاص بالنصارى أم هو شامل لأهل جميع الأديان ؟ فلما كادت الدعوى ترفع فى المحكمة وصل الخبر إلى الحكومة حتى بادرت الشرطة فحافظوا عليه وعلى أصحابه ومنعوا الغوغاء عنهم] .

ثم قال [وبعد ذلك سمع بنا أمم الإسلام فأخذوا يرموننا بالنفاق والرياء وأننا إنما أسلمنا لنغش المسلمين بإسلامنا فندخلهم تحت حكم دولتنا ، فلا فقلنا لهم ، أيها المسلمون . نحن لم ندخلكم تحت حكمنا بنفاقنا بل حكمناكم بمدافعنا وجيوشنا] .

هذا ما عرفته من ملخص سيرة الأستاذ (عبد الله كويلم) الذى يعتبره الناس شيخ الإسلام فى بلاد الإنجليز وقد كان إسلامه قبل إسلام صديقنا (اللورد هيدلى) الذى كان سبب إسلامه أنه قرأ الإسلام والديانات فرآه خيرها فأسلم ونشر إسلامه فى أوروبا ودعاها إلى الإسلام . وقد نقلت من كتابه قطعة فى سورة مريم قد ذكر فيها أن الألمان كشفوا سنة ١٩٠٣ كتابة فى بلاد العراق ملخصها أن الكشف الحديث أثبت أن الصلب وابن الله البكر وأمثال ذلك ماهى إلا خرافات سرت للأمم المسيحية من ديانات كانت فى العراق وهكذا فاقرأه هناك . والحمد لله رب العالمين . انتهى صباح يوم الأحد ٢١ يوليو سنة ١٩٢٩ .

الصلاة اليوم فى بلاد الإسلام

لأقص اليوم أيها الذكى عليك قصص ماعلمته من الصلاة فى بلاد الإسلام وسأجعل ذلك فصولا وهاك بيانها:

(١) فأولا أذكر ما دار من الحديث بينى وبين التلاميذ بالمدرسة الخديوية .

(٢) أذكر ما كتبه كاتب إنجليزى أيام النهضة المصرية ومطالبة البلاد المصرية بالدستور أيام الخديوى السابق عباس حلمى باشا .

(٣) وحكاية معلم ولى عهد البلاد المصرية أيام كانت تحت حكم الخديويين .

(٤) وما قصه على أستاذى الشيخ حسن الطويل .

(٥) حديث عن أهل سيلان .

(٦) وما ذكره (هنرى الفرنسى) .

(٧) وصدق العلم فى الجامع الأزهر ومخالفة العادات فى بلادنا لهذا الدين .

(٨) وطريقة الوهابية ببلاد نجد والحجاز .

(الفصل الأول : فى ذكر مادار من الحديث عن الصلاة بينى وبين تلاميذ المدرسة الخديوية وأنا مدرس لهم)

ذلك أنى يوما ما سمعت أن وزير المعارف جمع المدرسين وأخذ يكلمهم فى أمور عامة علمية فتصادف أن أحد المدرسين قام ليصلى المغرب إذ حان وقت صلاة المغرب فقال ماهذا ؟ أتريد أيها الأستاذ أن تظهر أنك أنت المتدين ونحن لا دين لنا ، ما هذا ؟ ولماذا لا تؤخرها . وقال فى مجلس آخر [إن الصالحين فى الإسلام يسهرون الليل ليصلوا وهو مخالف للصحة] فلما سمعت هذا القول خطر لى أن أحادث التلاميذ فى هذا الموضوع فقلت [أيها الأبناء إننا اليوم أرقى ممن قبلنا فالحمد لله الذى رفع عنا الأصر وأزال عنا الضر فأصبحنا بفضل المدنية الحاضرة أعلى كعبا فى المدنية وأعز ناصرا وأكثر عددا ومالا وولدا ، كيف لا ونحن نحافظ على صحتنا وننام طول الليل كما يقتضيه علم الصحة ، أما تلك الطائفة القديمة من أمم الإسلام فإنهم كانوا لايحفظون على صحتهم ويسهرون طول الليل تعبدا ويأكلون ما خشن من الطعام ولا يسعدون سعادتنا التى نلناها على يد الأوروبيين المتمدينين أولئك الذين فتحوا لنا المطاعم والمشارب وأنواع اللذات فأكلنا وشربنا وتمتعنا بكل لذة وأصبح الناجون وغير الناجين فى بلادنا يكرعون الخمر نهارا جهارا وهم فى فرح وسرور ولا ينهى أحد أحدا ولا يخجل الشارب ولا الزانى ولا غيرهما ، كل ذلك للحرية الواسعة المطلقة بفضل هذه المدنية المباركة] .

كل هذا وهم سكوت كأنما على رءوسهم الطير ، ثم قلت ولكن عندى مسألة واحدة وهى كيف نكون نحن على هذا المقام من العظمة والأبهة ونرى أننا عبيد لكل الأمم فإن جميع أوروبا لها امتيازات عندنا ومن قتل منا لادية له لأن محاكمهم هى التى تحكم ولا رادّ لحكمها لضعفنا وقوة تلك الأمم ، أما هؤلاء فقد حكموا أكثر تلك الأمم وهابها الجميع . أما أنا الآن فإنى متحير فى المسألة . أما الرقى فنحن والحمد لله راقون وأما الذل فهو نصيبنا والعزّ نصيبهم . فهنا يا أبنائى حار فكرى . نحن لا نتقيد بقيد من شرع ولادين ثم نذل وهم لا يتمتعون بمثنا ولكنهم أعزاء فما قولكم ؟ فقام شاب فيهم يسمى (بهنساوى) فقال إنك قد فتحت هذا الباب وقد أثرت فى نفوسنا تأثيرا عظيما ولكنْ هل تظن أن محلسا واحدا كهذا يغير أخلاقا وعادات ورثناها عن الآباء والأمهات والمدرسين ونظار المدارس . نحن تعلمنا فى الابتدائى ولا صلاة هناك ثم تعلمنا فى التجهيزى الآن وها نحن أولاء معك ولا صلاة أيضا . وكيف نصلى والدلالة عندنا

حار . إن التلميذ الذى يصلى يسخر منه إخوانه ، إلا وإن النساء فى المنازل يفعلن ما تفعل تماما . فالمرأة المصلية يعدونها أقلهن كمالا وشرفا لا تتسابها للدين .

هنالك نظر إليه التلاميذ جميعا نظر الشزر وردّوا عليه وقالوا اسكت ، لقد كذبت فى قولك . فقال لهم وهل تظنون أن الأستاذ لايعلم ذلك ؟ ألم ير هو المصلى هنا وقت الظهر لا يصلى فيها عدد الأصابع من التلاميذ والمدرسة فيها مئات ومئات . قلت دعوه فقد نطق بالواقع وما قاله هو الذى أعرفه فى بلادى .

هذا ما جرى بينى وبين التلاميذ بالمدرسة الخديوية فى حصة يسمونها (الحادثة أو الإنشاء الشفهى) الذى يذكر الأستاذ موضوعا يجعله حديثا بينه وبينهم . وبهذا تعرف أيها الذكى حال بلادنا المصرية فى هذا الزمان .

ولقد كان هذا قبل كتابة هذه الأسطر بنحو (١٤) سنة . أما الآن فقد تحولت الحال قليلا حتى إن الشبان جعلوا لهم ناديا سموه (جمعية الشبان المسلمين) وانتشرت هذه الفكرة من مصر إلى بلاد الإسلام وأنا والحمد لله صليت معهم وقد أصبح رقيبها بمصر من أحد تلاميذى بالمدرسة الخديوية . ومن عجب أنه موقن بالإسلام ومحب للصلاح ويصلى بالليل والناس نيام وله حكم عجيبة واسمه (يحيى الدردير) وقد مكث فى ألمانيا (١٢) سنة يكرع من موارد العلم ورجع مغرما بالإسلام غراما لاحدّ له . انتهى الفصل الأول .

﴿ الفصل الثانى : فيما كتبه كاتب إنجليزى أيام مطالبة بلادنا المصرية بالدستور ﴾

ذلك أن البلاد من أقصاها إلى أقصاها فى أول القرن العشرين تحركت لطلب الحرية الداخلية وأخذت الجرائد فى انكلترا تنقل عن جرائدنا ما يقوله المصريون فكتب كاتب إنجليزى يقول [لا يصح للانجليز أن يخرجوا من مصر إلا إذا أصبح الخاصة والسياسيون وأهل الرأى فى البلاد فى الأخلاق والعواطف كالفلاحين إنى جئت هذه البلاد فرأيت طبقة الفلاحين والجهلاء والخدم عندهم عطف على الأرحام والمساكين وذوى الحاجة ويوقنون بالعقيدة ويخافون ربهم ، أما هذه الطبقة المتعلمة بمصر فانها تذر الدين وتتركه والتلاميذ دائما يقلدون أساتذتهم . والأساتذة (قسمان) قسم من شيوخ دار العلوم ، وقسم من متعلمى المدارس الأخرى ، أما الشيوخ فإنهم حين يلقون الدرس الدينى لا يلتفت إليهم التلاميذ لأنهم يرون ناظر المدرسة لا يبالى بهذه الأمور والعبادات ويضرب بها عرض الحائط وهو لها من الكارهين فكيف نسلم البلاد لأقوام لا خلق لهم ولا كتاب] .

أقول وهذا مغالطة فإن هذا التحول عن الفضائل إنما جاء لمجاراتهم واتباع نصائحهم وكيف يصلى الوزير أو الأمير أمام حاكم إذا رآه كذلك حقره وأضمر له السوء طول الحياة . انتهى الفصل الثانى .

﴿ الفصل الثالث : فى ذكر ما قصه على والد أحد المعلمين لولىّ عهد الخديوى عباس ﴾

قال إن ولدى قد اختاره الخديوى مربيا لولى العهد وقد قص علىّ حديثا فقال « كنت يوما جالسا مع فيلسوف بوذى عند ناظر مدرسة فرنسى فقدم لنا ذلك الفرنسى القهوة فلم أشرب فسألنى ناظر المدرسة قائلا لماذا ؟ فقلت لأنى صائم . فقال وهل أنتم لا تزالون خاضعين لهذه الأوهام . أى صيام وأى صلاة ؟ دعوا هذه الأوهام ليرتقى الشرق والشرقيون ، وما أضر أهل الشرق إلا الأديان ومثلك راق مهذب فعليك أن تنصح أهل بلادك بنبذ هذه الترهات وانظروا إلى أوروبا تركت الدين فملكت رقاب العالمين فلما أراد القيام قال له الفيلسوف البوذى قابلنى يا سيدى أفندى يوم الأحد عند كنيسة كذا . فلما قابله يوم الأحد دخل الكنيسة فرأى قوما يصلون وبقيا هناك نحو ساعة فلما خرجا معا قال له الفيلسوف البوذى قد لاحظت هنا شيئا فقال من أى وجه قال ألم تر ناظر المدرسة يصلى مع المصلين فقال إى وربى إنه لحق فقال

أليس هو القائل لك دعوا هذه الخرافات ؟ فقال السيد أحدى له نعم فقال أتدرى لم قال لك ذلك قال من لك أحلى ، فقال ان هؤلاء القوم يريدون أن يذموا لنا أديان الشرق لنتركها ومتى تركناها انحلت قوانا وذهبت رابطتنا وحينئذ يحتلون بلادنا فهؤلاء القوم عقدوا الخناصر على هذا فهم له أبدا ساعون . انتهى الفصل الثالث .

﴿ الفصل الرابع : فيما قصه على أستاذى الشيخ حسن الطويل فى هذا المقام ﴾

وقبل أن أذكر حديثه رحمه الله تعالى أقدم مقدمة فأقول :

إن البلاد المصرية قد حكمها المرحوم محمد على باشا ولم يكن فى البلاد أكثر من ثلاث ملايين وهؤلاء كانوا يصلون ويصومون وكانت المدارس كلها أستاذ أو تلميذ قائمين بشعائر الدين فى بلادنا وفى أوروبا وأمكنه بهذا العدد القليل أن يملك بلاد الحجاز ونجد وأكثر بلاد العرب وهكذا بلاد السودان وزحف بجيوشه على بلاد الترك لولا توسط أوروبا ، فلما مات المرحوم محمد على باشا وإبراهيم ابنه ملك البلاد بعده بعض عقبه فغيروا الأوضاع وترك بعضهم الصلاة واتبعوا الشهوات فانحلت العصبية وكان هذا تمهيدا لاحتلال الإنجليز هذه البلاد . فانظر لما حدثنى به أستاذى الشيخ حسن الطويل .

قال رحمه الله تعالى [لقد كانوا أدخلونى فى زمرة الجند وارتقيت إلى جاويش وقد كان أستاذى بالأزهر علمنى دعاء أدعو به لتفريج الكرب ، قال فلما كنت بالجيش فى الاسكندرية أخذت أقرأ هذا الدعاء وأدعو الله أن يخرجنى من زمرة هذا الجيش ، قال وكانت هناك أوامر من الخديوى أن كل من صلى أو أظهر العبادة يعاقب فلما علموا بأنى أدعو الله بهذا الدعاء أنزلونى درجة وعاقبونى بأن أحمل سلاحى وعتادى وأرجع من الاسكندرية إلى مصر ثم رفتونى ، قال رحمه الله وقد جهل هؤلاء أن هذا الرفت هو مطلوب الدعاء الذى كنت أدعو به] .

أقول هذه حال الجيش وحال المصريين بعد أيام المرحوم محمد على باشا فكان ذلك توطئة لما نحن فيه الآن وقد كانت هذه الفكرة آتية لهم من أهل فرنسا إذ قالوا لهم إن الديانات تؤخر الأمم « وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » انتهى الفصل الرابع .

﴿ الفصل الخامس : فى حديث محمد بك عرابى نجل المرحوم أحمد عرابى باشا عن أهل سيلان ﴾

لما رجع المرحوم أحمد عرابى باشا إلى مصر بعد النفى وقد هرع إليه الناس يسلمون عليه قابلت ابنه ودار الحديث بيننا على أهل سيلان فقال [إن صلاة الجماعة أمر حتم على كل مسلم والرئيس الدينى هناك يتفقد كل مسلم فى صلاة الجماعة فإذا تأخر شاب عن الصلاة أحضره أكابر البلد وأنذروه أول مرة فإن عاد عادوا إلى الإنذار فإذا كانت الثالثة حكموا عليه بالأعدام . قلت وهل ينفذ ؟ قال نعم . قلت وماذا يفعل الإنجليز ؟ قال لو دخل عند (الملكة فكتوريا) واحتمى بها لأخرجوه وقتلوه ولا يردون أمر الشرع] فعجبت وكنت أظن أن بلادنا إذا تركت الصلاة فما هو إلا مجاراة للأوروبيين وإذا تمثلت بقول من قال :

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر

﴿ الفصل السادس : فيما قرأته فى كتاب « خواطر وسوانح فى الإسلام » للعلامة (دكترى الفرنسى) الذى ترجمه المرحوم الأستاذ فتحى باشا زغلول ﴾

قال كنت ضابطا على جنود من أهل الجزائر وكنا يوما مسافرين لأعمال الدولة ، قال فبينما الجند راكبون وهم يغنون غناء عربيا ويشيرون نحوى بالمحبة والإجلال فى أثناء الغناء إذا أنا بالعصر قد حضرت صلاته فترجلوا عن خيولهم ونزلوا واستقبلوا القبلة وقالوا بلسان واحد (الله أكبر) فسمعت كأن الخيل والجبال

والأودية والأنهار والرمال كلها تقول (الله أكبر) واعترانى الخجل أن أسمع قوما كهؤلاء يعظمون الله ويقولون فى أنفسهم إننى كافر بانه فكدت أنطق وأقول لهم ياقوم أنا أيضا أعبد الله . قال وهنالك تغيرت حالى وأخذت أبحث فى دين الإسلام وتوجهت إلى المساجد فوجدت عليها نوراً وبهجة وجمالا وبسطة تشرح الصدر فأخذت أدرس هذا الدين فراعنى جماله وبهجته ، ولولا ضيق المقام لنقلت منه فصولا تليق بالمقام ولكن عسى أن أذكره فى مقام آخر . انتهى الفصل السادس .

﴿ الفصل السابع والثامن : فى صدق العلم فى الجامع الأزهر ومخالفة العادات لحقائق الدين فى زماننا وفى طريقة الوهابية ببلاد الحجاز وبعض بلاد الاسلام ﴾

اعلم أن ما سمعته الآن عن بلاد (سيلان) له نظير فى بلاد (بلوخستان) فلقد قرأت فى بعض الجرائد عن سائح ألمانى قال [لم أجد سعادة أوفى ، ولا عزا أبهى ، ولا كمالا أرفع ، ولا راحة أعظم مما رأيته فى بلاد (بلوخستان) قال فهؤلاء يعبدون الله على مذهب الإمام الشافعى ، فإذا كانت صلاة الصبح حضر الرجال والنساء والصبيان الصلاة وأخذ الأستاذ يلقى النصائح الدينية ثم إذا طلعت الشمس رجعوا وهم مستبشرون] قال [والمرأة هناك مكبة على عملها قائمة بالواجب عليها ، بيتها نظيف ، وعرضها نظيف وزوجها عفيف ولم نسمع بالزنا فى بلادهم سنين وسنين بخلافنا نحن فقد يجد الرجل منا أن ابنه يشبه جاره ولا يقدر أن ينبس ببنت شفة . وأقول ثم إن الوهابيين بنجد والحجاز اليوم يقيمون الصلاة فى أوقاتها وهم بالدين موقنون ، واعلم أن هذه كلها تدرس فى الجامع الأزهر الشريف ، ولكن الطالب الذى يقرأ هذا فى درسه يخرج فيجد عادات بلاده تخالفها فى زماننا فلا يقدر على تغير الأحوال فيصبح على طبع أهل بلاده] .

هذا ما أردت ذكره فى هذا المقام تبصرة وذكرى لأولى الألباب والحمد لله رب العالمين . انتهى يوم الخميس ٢٥ يوليو سنة ١٩٢٩ .

الأحاديث النبوية فى فضائل الصلاة

جاء فى كتاب [إحياء علوم الدين] للامام الغزالى ما نصه :

(فضيلة المكتوبة)

قال الله تعالى « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » وقال ﷺ « خمس صلوات كتبهن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئا استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة » وقال ﷺ « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درنه قالوا لا شىء قال ﷺ فان الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن » وقال ﷺ « إن الصلوات كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » وقال ﷺ « بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما » وقال ﷺ « من لقى الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشىء من حسناته » وقال ﷺ « الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين » وسئل ﷺ أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها . وقال ﷺ « من حافظ على الخمس باكمال طهورها ومواقيتها كانت له نورا وبرهانا يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان» وقال ﷺ «مفتاح الجنة الصلاة» وقال « ماافترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شىء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته فمنهم راكع ومنهم ساجد ومنهم قائم وقاعد » وقال النبى ﷺ « من ترك صلاة متعمدا فقد كفر » أى قارب أن ينخلع عن الإيمان بانحلال عروته وسقوط عماده كما يقال

لمن قارب البلدة إنه بلغها ودخلها. وقال ﷺ «من ترك الصلاة متعمدا فقد برئ من ذمة محمد عليه الصلاة والسلام»
وقال أبو هريرة رضى الله عنه «من توضأ فأحسن وضوءه ثم خرج عامدا إلى الصلاة فانه فى صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وإنه يكتب له باحدى خطوتيه حسنة ويمحى عنه بالأخرى سيئة ، فاذا سمع أحدكم الإقامة فلا ينبغى له أن يتأخر فان أعظمكم أجرا أبعدكم دارا ، قالوا لم يا أبا هريرة قال من أجل كثرة الخطا» .
ويروى «إن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة فان وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله» . وقال ﷺ «يا أبا هريرة مر أهلك بالصلاة فان الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحتسب» . وقال بعض العلماء : مثل المصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال وكذلك المصلى لا تقبل له نافلة حتى يؤدى الفريضة . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فأطفئوها .

(فضيلة إتمام الأركان)

قال ﷺ «مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى» وقال يزيد الرقاشى : كانت صلاة رسول الله ﷺ مستوية كأنها موزونة . وقال ﷺ «إن الرجلين من أمتى ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض وأشار إلى الخشوع» وقال ﷺ «لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده» وقال ﷺ «أما يخاف الذى يحول وجهه فى الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار» وقال ﷺ «من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهى بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظتنى ، ومن صلى لغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهى سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعتنى حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه» وقال ﷺ «أسوأ الناس سرقة الذى يسرق من صلاته» . وقال ابن مسعود وسلمان رضى الله عنهما «الصلاة مكيال فمن أوفى استوفى ومن طفف فقد علم ما قال الله فى المطففين» .

(فضيلة الجماعة)

قال ﷺ «صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة» وروى أبو هريرة «أنه ﷺ فقد ناسا فى بعض الصلوات فقال لقد هممت أن آمر رجلا يصلى بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم» . وفى رواية أخرى «ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فآمر بهم فتحرق عليهم بيوتهم بحزم الحطب ولو علم أحدهم أنه يجد عظما سمينا أو مرماتين لشهدها يعنى صلاة العشاء» وقال عثمان رضى الله عنه مرفوعا «من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة» وقال صلى الله عليه وسلم «من صلى صلاة فى جماعة فقد ملأ نحره عبادة» . وقال سعيد بن المسيب : ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا فى المسجد . وقال محمد بن واسع : ما أشتهى من الدنيا إلا ثلاثة ، أخا إن تعوجت قومنى ، وقوتا من الرزق عفوا بغير تبعة ، وصلاة فى جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوما مرة ، فلما انصرف قال مازال الشيطان بى آنفا حتى أريت أن لى فضلا على غيرى لا أؤم أبدا . وقال الحسن : لا تصلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء . وقال النخعى : مثل الذى يؤم الناس بغير علم مثل الذى يكيل الماء فى البحر لا يدرى زيادته من نقصانه . وقال حاتم الأصم : فاتتنى الصلاة فى الجماعة فعزانى أبو إسحاق البخارى وحده ولو مات لى ولد لعزانى أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : «من سمع المنادى فلم يجب لم يرد خيرا ولم يرد

به خير » وقال أبو هريرة رضى الله عنه «لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصا مذابا خير له من أن يسمع النداء ثم لا يجيب » وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له إن الناس قد انصرفوا فقال «إنا لله وإنا اليه راجعون » لفضل هذه الصلاة أحب إلىّ من ولاية العراق، وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى أربعين يوما الصلوات فى جماعة لاتفوته فيها تكبيرة الاحرام كتب الله له براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار » ويقال «إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالكوكب الدرى فتقول لهم الملائكة ما كانت أعمالكم ؟ فيقولون كنا إذا سمعنا الأذان قمنا إلى الطهارة لايشغلنا غيرها ثم تحشر طائفة وجوههم كالأقمار فيقولون بعد السؤال كنا نتوضأ قبل الوقت . ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون كنا نسمع الأذان فى المسجد»

وروى أن السلف الصالح كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعا إذا فاتتهم الجماعة .

(فضيلة السجود)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ماتقرب العبد إلى الله بشىء أفضل من سجود خفى» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مامن مسلم يسجد لله سجدة إلارفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة» وروى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلنى من أهل شفاعتك وأن يرزقنى مرافقتك فى الجنة فقال صلى الله عليه وسلم أعنى بكثرة السجود » وقيل «أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجدا» وهو معنى قوله عزوجل «واسجد واقترب» وقال عزوجل «سيماهم فى وجوههم من أثر السجود» فقيل هومايلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود ، وقيل هو نور الخشوع فانه يشرق من الباطن على الظاهر وهوالأصح وقيل هى الغرر التى تكون فى وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء ، وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول ياويلاه أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت فلى النار » وروى عن على بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد فى كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد ، وروى أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان لايسجد إلا على التراب ، وكان يوسف بن أسباط يقول: يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فما بقى أحد أحسده إلا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حيل بينى وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما آسى على شىء من الدنيا إلاعلى السجود . وقال عقبة بن مسلم : مامن خصلة فى العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل ، ومامن ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل منه حيث يخر ساجدا وقال أبو هريرة رضى الله عنه: «أقرب مايكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك » .

هذا نص ماجاء فى [الإحياء] ومعلوم أن فى الإحياء أحاديث ضعيفة ولكن أجاز العلماء إيراد الضعيف فى فضائل الأعمال اه .

(الفاتحة وعلوم الحكمة)

(صباح يوم السبت ٢٧ يوليو سنة ١٩٢٩ ضحى)

لم يكن ليخيل إلى يوما ما أن تصبح "فاتحة بالنسبة للقرآن ولعلوم أهل الأرض أشبه بفن المقولات بالنسبة لعلوم الحكمة ولكن هذا الخاطر فاجأنى اليوم مفاجأة بهجوم عقلى أوجب على أن أشرحه فأقول :

إنى لأعلم أن النادر من قراء هذا التفسير يعرفون المقولات لأن المقولات إنما جاءت فى الفلسفة القديمة والفلسفة القديمة مهجورة بل الذين درسوها من المسلمين ينظرون للمقولات المذكورة نظرهم إلى مستصعب الأمور فهى غامضة المعنى ولكنى قد شرحتها فى كتابى المسمى [بهجة العلوم] فى الفلسفة العربية وموازنتها

بالعلوم الحديثة وهذا الكتاب تحت الطبع الآن ، وليس هذا المقام مقام الإطناب فيها ولكنى سأريها لك الآن بطريق سهل ، ثم أقفى بعدها بمقاصد الفاتحة وهنالك يتجلى لك أن الفاتحة لها حظ من اسمها فهى فاتحة القرآن والعلوم وهكذا المقولات فيها ملخص علوم الحكمة باجماع حكماء الشرق والغرب وهى الآن تدرس فى جميع أنحاء أوروبا للخواص هناك بلغاتهم المختلفة . المقولات هى كلمات عشر وتلك الكلمات العشر يرجع إليها كل علم من علوم الرياضة والطبيعة وسائر العلوم وهى الجوهر والكم والكيف والاضافة والمكان والزمان والوضع والملك والفعل والانفعال :

(١) فالجوهر يشمل كل مانراه من المادة كالانسان والحيوان والجماد والكواكب وهكذا .

(٢) والكم يشمل علوم المقادير من الحساب والهندسة والجبر والفلك وعلوم المساحة وهكذا ، كما أن الجوهر يشمل العلوم الطبيعية جميعها ، فعلم المدن والنبات والحيوان وطبقات الأرض كلها ترجع للجوهر .

(٣) والكيف يرجع إلى كل مانحسه بحواسنا الخمس من الألوان والأصوات والمذوقات والمشمومات والملموسات وهكذا كل مانحس به فى نفوسنا من الجوع والشبع والحزن والفرح والعلم والجهل والأخلاق الفاضلة والأخلاق النازلة وهكذا .

(٤) والإضافة كل شيئين يلازم أحدهما الآخر كالأبوة والبنوة وهكذا .

(٥) و (٦) والمكان والزمان يشملان علوم الجغرافيا وحساب السنين والأشهر والدهور .

(٧) والوضع مثل هيئة الانسان فى جلوسه ونومه وهيئة الهواء والضوء والماء والأرض وانتساب كل واحد منها إلى الآخر بهيئة خاصة .

(٨) والملك مثل كل مايملكه الانسان .

(٩) و (١٠) والفعل يشمل كل مؤثر فى غيره كاحراق النار وتبريد الثلج الماء وهكذا . والانفعال كاحتراق الحطب وبرودة الماء وهكذا .

هذه هى المقولات التى شرحت معناها شرحا وجيزا وقد علمت أنهم أجمعوا أنه لا علم من العلوم إلا وهو مندمج فيها ويقولون إنها أشبه بالرياض الزاهرات ذات الغصون والأزهار والأثمار .

كلمات عشر عبر بها الحكماء عن جميع العلوم حتى إن الصناعات كلها ترجع إلى مقولة الفعل والأمراض والفرح والحزن ترجع إلى مقولة الانفعال وهكذا ، فهذه المقولات العشر نظيرها سورة الفاتحة ، وأنت خبير أن معانى الفاتحة قد تقدمت عند تفسيرها ، وهناك قد دخلت كل علوم الأمم مثل أن (العالمين) يشمل العالم العلوى والسفلى ولفظ (رب) من «رب العالمين» يشمل كل علوم التربية فى العالم كله وهكذا ، فارجع إلى تفسيرها هناك فانك تجد الفاتحة أشمل لجميع العلوم من فن المقولات ، وعليه أصبح المسلم يتلو صباحا ومساء كلمات هى مفاتيح العلوم . المسلم فى قراءته الفاتحة تعبدا وهو غافل عن علومها أو بعضها خير ممن يقرأ المقولات العشر ويقول فى كل وقت من الأوقات (جوهر . كم . كيف الخ) وهو لايعقل معناها ؛ ولو أن رجلا أخذ يتلو هذه الكلمات العشر صباحا ومساء على مسمع من الناس لعدوه قليل العقل لأنها غير معقولة ولامفهومة إلا النادر من الناس . أما الفاتحة فمعناها الظاهر يكفى العابد فى عبادته بل توجهه لله بها وإن كان لايدرى معناها كاف فى العبادة ، والحكماء حين يتلون الفاتحة يحضر لهم إجمال العلوم كما تحضر العلوم كلها فى المقولات العشر . إذن وضع الفاتحة أرقى فى جمع العلوم من وضع الفلاسفة . الفلاسفة يضعونها فى كلمات لا يعقلها إلا الخواص والفاتحة تفيد العامة عبادة والخاصة تذكرة للعلوم كلها والحمد لله رب العالمين .

﴿ لطيفة: في قوله تعالى « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن الخ » ﴾

تقدم في (سورة النحل) عند قوله تعالى « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » أن الناس (ثلاثة أصناف) صنف هم العامة وهؤلاء لاينجع فيهم إلا الوعظ وذلك بما يرغب ويرقق القلوب ويفرحها بضرب الأمثال وذكر الحوادث والمشوقات والمخيفات من الجنان والنيران وما في معناها وصنف هم العقلاء وأرباب الفكر وهؤلاء لا تكفيهم المواعظ بل لامندوحة من إعطائهم البراهين القولية والأقوال الحكمية حتى يستقر إيمانهم ويثبت يقينهم . وصنف هم قوم لاهم مع العامة ولا مع العقلاء والحكماء وهم أهل الجدل كأهل الكتاب ، فانهم قوم مقلدون لامفكرون لأن كل من نشأ على دين يعسر عليه الاقلاع عنه فهؤلاء لاتنفعهم المواعظ ولا تقام لهم الحجج وإنما يكون القول معهم باستنباط الأدلة من كتبهم لأنهم عليه يعوّلون وبه يثقون فيقال لهم إن النبي صلى الله عليه وسلم مثلا ورد ذكره في كتابكم فجاء فيه كذا وكذا فهذا هو الجدل فهو حجة لاهي يقينية ولاهي وعظية بل هي إقناعية تستند لما يعتقده الخصم غالبا . واعلم أن القائمين بأمر الأمم أربعة أقسام : أنبياء ووعاظ وحكماء وأمراء ، وبيانه أن الوعاظ هم الذين لا حكم ولا سلطان لهم إلا على قلوب الجهال والعامة كخطباء المساجد والوعاظ وعلماء الدين المعتادين في الأمم ، فهؤلاء جميعا لا يؤثرون إلا على قلوب العامة لأنهم يقومون بتذكيرهم بآيات الله بحسب ظواهر الكتاب والسنة والأخبار بدون كثير بحث ولا تدقيق والعامة لهم مصغون وعلى قولهم معوّلون .

(الأمراء)

وبعكس هؤلاء الوعاظ الأمراء ، فإذا رأينا الواعظ قد خلب قلب العامي وخضع لقوله واتعظ وليس لهذا الواعظ من قوة جسمية تخيفه بل قوته روحية ، فإننا نرى الملوك والأمراء ورجال الإدارات في الحكومات من قاض وحاكم وجندي فكل هؤلاء لا سلطان لهم إلا على أجسام الناس وظواهرهم لاعلى عقولهم وأحلامهم.

ألا ترى رعاك الله أن فرنسا تحكم في تونس والجزائر ومراكش وإيطاليا في طرابلس والإنجليز لهم بعض السلطان في مصر ، ومع هذا نرى هذه الأمم لا تتبع هؤلاء الفاتحين إلا من خوف العقاب ، أما القلوب فإنها مع هؤلاء الوعاظ . إذن هنا جسم يحكمه الأمراء وعقل يحكمه الوعاظ .

(الحكماء)

وأما قسم الحكماء فهؤلاء قوم خصهم الله عز وجل بنور البصائر وازدياد الفهم وقوة الادراك وسرعة الخاطر ، فهم لا يصلحون لتعليم العامة والجهلاء ولا سطوة لهم على الناس فيحكمون أجسامهم بل سلطانهم يختص بالعلماء والوعاظ ، فكما خضع العامة للوعاظ بعقولهم وللأمراء بأجسامهم وظواهرهم هكذا يخضع العلماء والوعاظ للحكماء وهم أولئك الذين امتازوا بسموّ المدارك فهؤلاء يقودون بواطن العلماء ويذكرونهم بما نقصهم من العلم ، وهذه الطائفة إن لم يخلقهم الله في أمة فذلك عنوان على ضياعها وهلاكها ، ولقد قام في أمما الإسلامية من هؤلاء كثير وأذكر منهم العلامة الغزالي بالشرق وابن رشد في بلاد الأندلس فماذا همما المسلمون ، وأحرق قوم كتب الإمام الغزالي وبصق آخرون في وجه ابن رشد وكفروه . فهذان وأمثالهما إنما خلقا لإرشاد العلماء فلما آذتهما الأمة وقامت في وجههما أذلها الله وعوقبت قرونا وقرونا ودخل التتار من الشرق فخربوا الدولة العباسية وذهب مجد العرب ودخل أهل اسبانيا الأندلس فأذلوا الأمم العربية وأهلكوهم وفرّ منهم من بقي تنصروا، وهم في نظر القوم مرتدون مذنبون، ذلك مثل المسلمين السابقين .

(الأنبياء)

(الأنبياء)

أما الأنبياء فهم يعظون العامة كالوعاظ والخاصة كالحكماء ويحكمون على أجسامهم بالحبس والقتل وغيرها كالملوك والأمراء . ألا ترى أنه صلى الله عليه وسلم أمر أن يعظ كالوعاظ وأمر أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة وهذا شأن الحكماء ، وأمر أن يحكم بين الناس بالعدل وهذا شأن الأمراء والملوك . كتب ليلة الأربعاء ٢١ أغسطس سنة ١٩٢٩ قبيل الفجر .

﴿ جوهرة : في قوله تعالى « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به »
وفي قوله تعالى « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » الخ ﴾

سبحانك اللهم وبحمدك أنت الذي أنزلت القرآن ، وأنت الذي خلقت أمم الشرق والغرب ، وأنت الذي جعلت هذا القرآن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم ووعدت بأن الذين أوتوا الكتاب يؤمنون به ، اللهم إنك أنت أنرت بصائر الأمم الحاضرة المعاصرة لنا وأبرزت في أوروبا أناسا برعوا في العلم وحذقوا ودرسوا الديانات وهم من الذين أوتوا الكتاب الذين ذكرتهم وبعد ذلك أيقنوا بأن القرآن حق وصدق كما وعدت في كتابك ، اللهم إن هذا وحده برهان ، اللهم إنك قد تكفلت بحفظ هذا العالم ونظامه وتكفلت بحفظ القرآن وتكفلت بإظهار علماء من أمم أهل الكتاب يؤمنون به ، اللهم إن ظهور ذلك في زماننا أتم لكثرة العلم وانتشار الحكمة ، إذن يجب علينا نحن الذين خلقنا في هذا الزمان أن نذكر للمسلمين في أمثال هذا التفسير بما دبجه بعض أولئك العلماء من أوروبا مصداقا للقرآن ، فمنهم صديقنا (اللورد هيدلي) الإنجليزي الذي ذكرته سابقا في هذا التفسير مرارا ، ومنهم (الكونت هنري ديكاستري) ومنهم العلامة (توماس كارليل) فلأقتصر على نقل نبذ من أقوالهم ، فهؤلاء منهم مؤمنون ومنهم علماء أيقنوا بالقرآن لأنه آيات بينات في صدورهم وليكن ذلك في (ثلاثة فصول) :

(الفصل الأول)

في الكلام على صديقنا (اللورد هيدلي) الإنجليزي رئيس الجمعية البريطانية الإسلامية في كتابه المسمى [إيقاظ الغرب للاسلام] الذي لقب بحضرة (سيف الرحمن رحمة الله فاروق) وقد ترجمه إسماعيل أفندي حلمي البارودي العضو بالجمعية البريطانية الإسلامية وهذا نصه :

﴿ مقدمة ﴾

لكي أقدم الصحائف المقبلة إلى القراء لا أجد خيرا من إعادة نشري هنا لمقالة صغيرة من قلمي ظهرت في إحدى جرائد (لوندرا) الأسبوعية في نوفمبر سنة ١٩١٣ وهذا نصها :

ظهرت في جرائد عديدة قطع تشرح معتقدي الديني وإنه ليبهجني أن أرى أن كل ما وجه إليّ من الانتقاد لغاية الآن لم يكن إلا باللطف متناه ، إنه لا ينتظر أن تخرج خطوة معلومة عن خط سير مألوف دون أن تستلفت النظر . ورد لي في أحد الأيام خطاب من أحد المسيحيين المتدينين يخبرني فيه بأن الدين الإسلامي إنما هو دين لذة وأن النبي صلى الله عليه وسلم كانت له زوجات عديدات وأن ذلك قاعدة في الإسلام فما أغرب هذه الفكرة عن الإسلام إلا أنها فكرة راسخة في عقول تسعة وتسعين في المائة من البريطانيين الذين لم يعنوا ببحث الحقائق الواضحة لديانة ما ينوف عن مائة مليون من رعاياهم ، ولو درسوا تلك الديانة لتبين لهم أن نبي بلاد العرب صلى الله عليه وسلم كان مشهورا في كبح النفس عن الهوى وردها عن الشهوات وكان مخلصا لزوجته الوحيدة (السيدة خديجة) التي هي أكبر منه بخمس عشرة سنة والتي كانت أول من آمن برسالته السماوية ، وبعد وفاتها تزوج السيدة (عائشة) وقد تزوج أيضا بعض أيامى متبعيه الذين استشهدوا في إعلاء كلمة الله وذلك لا بدافع الشهوة بل لكي

يحولهن ويمنحهن مساكن وينزلهن منزلة ما كن ليحصلن عليها لولاه [يقول مؤلف هذا التفسير وسيتضح لك هذا المقام فى سورة الأحزاب] .

نحن معشر البريطانيين نعجب بأننا نحب العدل والانصاف ، ولكن ماذا أعظم جورا وحيفا من الحكم الذى يصدره كثير منا على الدين الاسلامى دون أن يجتهد أو يحاول أن يعرف ولو مجملا بسيطا من عقائده حتى إنهم لايفقهون معنى كلمة الإسلام .

إنه من المحتمل أن يظن بعض من أصدقائى أنى قد غلبت على أمرى أو تسيطر على المسلمون إلا أن ذلك ليس بحقيق لأن اعتقاداتى الحالية ماهى إلا نتيجة بحث سنوات عديدة وإن كانت مناقشاتى الحقيقية مع متعلمى المسلمين فى موضوع الديانة لم تبتدئ إلا منذ زمن قريب ، وإننى لمحتاج إلى القول بأنه قد غمرنى الفرح عندما وجدت أن كل نظرياتى واستنتاجاتى كانت مطابقة تامة للاسلام . إن أخى خواجا كمال الدين لم يحاول بتاتا أن يتسلط على فؤادى ولو قليلا فانه كان دائما مثال الأمانة والصدق إذ قد شرح لى فى ترجمة القرآن الكريم الذى ما استطعت أن أفهم معناه من الترجمة المشوهة المنتشرة بين المسيحين فأنار من هذه الوجهة المحجة الواضحة التى تسير فيها (جمعية التبشير الاسلامية) فانها ما احتالت ولا خدعت أحدا قط فالهداية كما جاء فى القرآن الشريف يجب أن تكون بمحض الرغبة والاختيار ومن تلقاء النفس ، لذا لم يرتكب خواجا كمال الدين أى صفة من صفات الاحتيال والخديعة ، وقد أراد عيسى نفس تلك الصفة عند ما قال لحوارييه « وكل من لا يقبلكم ولا يسمع لكم فاخرجوا من هناك وانفضوا التراب الذى تحت أرجلكم شهادة عليهم »

وقد علمت أمثلة كثيرة جدا من (البروتستانت) المتعصبين الذين ظنوا أن من واجباتهم أن يغشوا بيوت الرومان الكاثوليك فيحتالوا على من يقطنها لنقله إلى دينهم ، ومثل هذا العمل المثير الذى لا يليق بكرامة جار هو طبعاً عمل كريه جدا أدى إلى إثارة العواطف وإيجاد النزاع الذى جر عليهم الازدراء والاحتقار وإنى لأتألم جد الألم عند ما يعرض لفكرى أن أولئك المبشرين المسيحين حاولوا ذلك مع المسلمين أيضا وإن كان لا يوجد هناك باعث يدعوهم إلى هداية هؤلاء الذين هم أصح منهم مسيحية وأفضل منهم أنفسهم فى مسيحيتهم وقد عجزت تماما عن أن أعرف لم فعلوا ذلك ، إنى لم أقل أصح منهم مسيحية جزافا بل بعد إعمال العقل والروية لأن المحبة والألفة والتسامح فى الدين الإسلامى أقرب جدا لما أتى به المسيح مما عليه رجال المسيحية فى الكنائس المتنوعة ، خذ مثلا العقيدة (الاثانسيانية) التى تختص بالثالوث بحالة مشوشة لايقبلها العقل ثم أنه من الواضح جليا أن هذه العقيدة المهمة عندهم للغاية والتى تعتبر إحدى العقائد الرئيسية للكنيسة تمثل للمذهب الكاثوليكى وإننا إذا لم نعتقدها نهلك هلاكا أبديا وهكذا نؤمن بوجوب اعتقاد الثالوث إن أردنا الخلاص ؛ أوبطريقة أخرى نقول : إن الله رحيم وقادر على كل شئ وفى الوقت نفسه نتهمه بالظلم والقساوة اللذين لا نستطيع ولا نرضى أن ننسبهما الى أفظع سفاكى الدماء من الطغاة الآدميين كأن الله الذى هو إمام الجميع وفوق الجميع يتغلب عليه اعتقاد مخلوق ضعيف فان فى الثالوث .

هنا مثل آخر يدل على عدم وجود الحسنى لديهم ، وصلنى خطاب لمناسبة اتجاهى نحو الإسلام أخبرنى فيه كاتبه بأنى إذا لم أعتقد ألوهية المسيح لا يمكننى الخلاص . إن مسألة ألوهية المسيح ماظهرت لى قط أنها مهمة هل أرسل المسيح رسلا من البشر برسالات إلهية ؟ لو كان عندى الآن أى شك فى تلك النقطة الأخيرة لآلمنى ذلك جدا إلا أنى أشكر الله سبحانه وتعالى لعدم وجود هذا الشك وأحتم أن يكون اعتقادى فى المسيح وتعاليمه ثابتا جدا كاعتقاد أى مسلم أو مسيحى حقيقى آخر لأنى سبق لى أن قلت مرارا إن الديانة الإسلامية والديانة المسيحية كما علمت بالمسيح نفسه هما أختان ولم يفصلهما عن بعضهما إلا المذاهب والاصطلاحات المسيحية فقط التى يمكن الاستغناء عنها بكل سهولة وارتياح ..

يميل الناس فى هذه الأيام الحاضرة إلى الكفر والإلحاد عند ما يطلب منهم أن يعتقدوا هذه المذاهب والعقائد التى لا تفهم وهناك بلا شك رغبة واشتهاء إلى ديانة تقبلها العقول والميول ، فمن سمع بمسلم ارتد إلى الكفر والالحاد ؟ ربما كانت هناك حالات من هذه إلا أنى أشك جدا فيها . إنى أعتقد أن هناك آلافا من الرجال والنساء أيضا مسلمين قلبا ولكن يمنعهم خوف الانتقاد والرغبة فى الابتعاد عن التعب الناشىء من التعبير تآمرا على منعهم من إظهار معتقداتهم . إنى خطوت هذه الخطوة ولو أنى أعلم علم اليقين أن كثيرا من إخوانى وأقاربى ينظرون إلىّ الآن كروح ضالة ويصلون من أجلى ، إلا أنى لست فى الحقيقة فى اعتقاداتى اليوم إلا كما كنت منذ عشرين سنة تماما ولكن صراحتى فى القول هى التى حرمتنى حسن ظنهم بى .

الآن وقد شرحت بعضا من الأسباب التى جعلتنى أتبع الدين الاسلامى وقلت إنى أعتبر نفسى الآن أنى أصبحت باسلامى مسيحيا أفضل مسيحية مما كنت عليه من قبل ، فآمل أن يتبع الآخرون مثالى ويعتقدون أحقية الاسلام الذى أقر بكل شهامة وفخر أنه أصح الأديان وأنه ستصل السعادة لأى امرىء ينظر إلى هذه الخطوة كخطوة متقدمة لا كخطوة مضادة للمسيحية الحقة بأى وجه .

﴿سلم الإسلام﴾

ينظر فى هذا العصر للديانة كأنها شىء مزعج، والناس إما ملحدون وإما متبعون اتباعا أعمى لصفوف عقائد من الأفكار التى لا تقبلها عقولهم وتقاومها، إلا أنهم يعترفون بها ظاهرا لأنهم يظنون أن ذلك هو خير لهم وأنه يؤدى المطلوب . أكد لى رجل من أحسن الرجال الذين عرفتهم (زوج فاضل ووالد) أنه ملحد ولا ينظر لشىء غير فناء الخليقة ومع ذلك كان سعيدا جدا ولم أجد بوسعى شيئا أستطيع أن أعمله معه ويكون له أقل تأثير فى تغير معتقده الفظيع . وسمعت برجل آخر أخذ الديانة بروح فرحة جدا وكان غنيا للغاية ، ناقشه صديق له يوما من الأيام فى أسلوب حياته الحلول وسأله ألم يفكر قط فى الحالة المستقبلة وفيما ستكون عليه نفسه فى الحياة الثانية . فأجاب كلا لم أتعب نفسى وراء هاتيك الأشياء؟ إنى أدفع لطبيبى كذا فى السنة ليعتنى بصحتى الطبيعية وأعطى الكاهن نحو ستمائة جنيه فى السنة ليعتنى باحتياجاتى الروحية ، فلم إذن أصدع رأسى ، وهذا الرجل كان مسرورا أيضا بطريقته وتوفق لأن يدفع مبلغا معينا سنويا لينجو من التفكير ومن كل مايشغل رأسه أو يتعبه . إذا كان يمكننا فقط أن نجد فكرا قويا خاليا من العقائد لكى ينتخب لنا الدين الحق الذى يجب أن نتبعه تكون تلك خطوة عظيمة جدا نحو الاتجاه إلى الصواب . إننا إذا ذهبنا إلى القس والرهبان أوغيرهم ممن يقدمون أقوالا توافق مشاربهم لا نجد لديهم أى مساعدة ، لأن العقائد أو المذاهب المتعددة تناقض بعضها على خط مستقيم . خذ مثلا الكنيسة المسيحية فقط تجد بها أن الارشادات السماوية التى تدهش وتحير العقول تختلف عن كنيسة انكلترا وكنيسة روما وهما مختلفتان أيضا حتى إننا نخرج من ذلك بلا فائدة أصلا . إذن فكل مانرغبه هو مساعدة بعض المتفرجين خارجا عن هؤلاء وهؤلاء ومن غير المتعصبين الذين عندهم فرص وقدرة على التأمل والتفكير الذين ليس لهم أى صالح أو ربح من وراء إبداء رأيهم بصراحة وشرف . كل مانريده فى الواقع هو دين يعرف ويؤيد قوانين المملكة لأنه فى هذه الأيام أصبحت القوانين مما يجلب السخرية والضحك وهناك فى الخارج شعور وبيل مبك من كل أشكال المظالم والجرائم تقريبا . ضعوا هناك عدلا تاما فى الديانة لأن سلسلة المملكة الفقرية كانت من وضعها فى هذا التظاهر بالشفقة والحنو الذى لا هو إنسانى بأى حال ولا هو خليق بأن يرقى أخلاق الأمة . ما الرحمة إلا سفك دماء عند ماتكون سببا فى العفو عن القتلة ، يطبق ذلك على هذا الميل لارتكاب الآثام ، وإننا وإن كنا نشعر بحزن عميق من أجل المجرم الذى جعلته تربيته والبيئة الحقيرة التى نشأ

فيما يسبب لنا التعب والشغب إلا أنه يجب علينا أن نعاقبه لنمنع الآخرين ولنمنعه من العودة . إنه لمن أفظع الأعمال أن ندير له الخد الآخر ، ثم إن ذلك لمريع جدا لأنه يشجع الشريرين على السير في تيار جرائمهم بينما يتألم باقى أعضاء المجتمع من سوء استعمالنا للرحمة ، إذا لم أك مخطئا ، فالعدل اللين الممزوج بالماء (المغشوش) الذى يوزع فى هذه الأيام فى هذه المملكة مسئول عن نصف الشرور التى نشكو منها بحرارة زائدة ، وإنه لخير لنا أن نرجع إلى (قانون الثارات) القديم عن أن نسير فيما نفعله الآن .

لايمكننا بتاتا أن ننظر للمسيح كمشترع أو واضع قانون فانه لم يسن للعالم إلا سننا ونواميس وديمة ظريفة حالة أن إبليس الذى يتمشى اليوم لايمكن قمعه بأجوبة ناعمة وإدارة الخد الآخر له فيجب إذن أن نتخذ أشد الإجراءات مع كل رسل الشر .

كان موسى مشترعا وواضع قانون ، وكان محمد مشترعا وواضع قانون ونحن الآن فى احتياج شديد إلى جص من العدل المطلق الثابت للنبى المقدس (محمد) إنه أى القانون والتشريع الإسلامى شديد إلا أنه خال جميعه من توحش انتقام العهد القديم .

تعاقب الحكومات الحزبية التى عملت لازدياد القوة لا لصالح الأمة أوقعنا فى هذا المأزق الذى لايمكننا فيه أن نعتنى ونحفظ نظام نسائنا ، حقا إنها لحالة مفجعة لنسل سادة البحار ووطنى أعظم امبراطورية رؤيت فى العالم . قوانيننا حسنة إن هى نفذت وعمل بها . الخضوع إلى الرذيلة يقود إلى أكبر منها . لانريد الرجوع إلى طرق التعذيب من أى صنف أو الفظاعة ، ولا نريد أن نريق نقطة واحدة من الدماء لنكره الناس على قبول آرائنا فى الدين أو السياسة بل نرغب أن نرى القوانين مطاعة والعدل مكيلا للجميع .

إنى لأعتقد اعتقادا راسخا بأنه لو اتبعت الشريعة المحمدية التى أتت فى القرآن بعناية تامة ودقة لأصبح من السهل جدا حكم الشعب ولا يكون ذلك غريبا مادام أكثر من نصف رعايا جلالته فى ملكه الشاسع هم من المسلمين . مر العصر الذى كان يمكن أن يجتهد فيه لإقامة أى دين بقوة الأسلحة . إنى لمتأكد من أن المسلمين أولئك القوم المتشبعون بالاخلاص والوفاء ماحاولوا قط أن يقيموا الدين الإسلامى بالطرق العنيفة . الفتنة والتمرد يحرمهما القرآن ولا إكراه فى الدين فى إحدى مبادىء الدين الاسلامى .

لفت الأذهان وإصغاء الآذان هو كل مايرغبه المسلمون وإنى لمتأكد من أنه إذا فهم رجال انكلترا تماما المعنى الحقيقى للاسلام (العقل والتمييز والاتجاه إلى النهى والشعور) لسعوا فى أن يخفوا سوء فهمهم المخجل السائد فى الوقت الحاضر) .

ينظر الأوروبيون دائما إلى الاسلام كأنه وحشية وهمجية ، فلو علموا كل مافعله محمد صلى الله عليه وسلم لازالة التوحش والهمجية التى لقيها داخل بلاد العرب لغيروا تلك الأفكار حالا . إنهم هم المبشرون المسيحيون الذين لم يدخروا وسعا فى تحريف الديانة الاسلامية وإن هذا لأعظم الكذب الذى يخزيهم وإن كانوا ليظنون أن مايفعلونه حسن فما أعظم الفرق بين الطمس التعمدى للحقيقة وبين الحالة التى يسير عليها المبشر المسلم فى عمله .

كثيرا ما أزعجت الهيئات الحاكمة فى هذه المملكة لقبول طلبات الهيئات الدينية ، فكنيسة انجلترا وكنيسة الرومان الكاثوليك وحزب المعارضين وكثير غيرهم معتبرون جدا لأنهم ذوو نفوذ عظيم ولازال الكل يقولون هل من مزيد . ولكن ليست هناك (بأقصى مايمكن للانسان أن ينظر) أى فضيلة دينية من الفضائل المحمدية تطلب أى سلطة دينية إذ عظمة الاسلام أرفع من أن تسيطر عليها مثل هذه الاعتبارات الدنيئة ، وكل متبع اتباعا حقيقيا للنبى العظيم يتطلع إلى جزاء أرقى بكثير من الغنى والفوائد الدنيوية كرقى ضوء الشمس عن ضوء الفوسفور . ليس هناك باباوات ولا أساقف ولا رهبان ولا قسس يطلبون هبات أو أرباحا لأن الله نفسه هو رأس هاتيك الفضائل الروحية . أنبأ التاريخ أن الكنائس المسيحية تطالب دائما بشدة أن يكون لها سلطة دنيوية

ويمكننا

ويمكننا هنا أن نشير إلى بيع المغفرة وتوزيع المعاشات الدسمة بدون جور أو حيف كي نبين فظاعة الأحوال المريعة التي كان يجب أن تكون أفضل ماتطمح إليه النفس ، وكيف اختلطت باعتبارات لمكاسب دنيوية محضة سافلة . إننا لا نذهب بعيدا إذا قلنا بأن القسط الأوفر من هؤلاء الذين يزعمون بأنهم مسيحيون يعتبرون أن الديانة هي محض نظام أيام آحاد محترمة وحسنة لأنها تقدم لهم فرصا استثنائية لعرض أحسن ملابسهم وأزيائهم والتكلم عن جيرانهم ، وهذا الدين العجيب ينوى أخذهم إلى بعض من الجنة ، ويتوقف مركزهم في هذه الجنة على المبلغ المدفوع على نظام دخول الناس دور التمثيل تماما ، يجلسون بأجرة معينة في الألواج والطابق الأول وبأجرة أخرى في الصالات والكراسي الخ .

معظم ديانة الغرب ماهي في الواقع إلا نتيجة خرافات القرون الوسطى وبقايا العصور المظلمة ولاتتفق مع تعاليم موسى أو المسيح ، ففي تلك الأوقات المظلمة المكفهرة بين القرن الثالث والقرن الخامس وبعد ذلك عندما كانت أوروبا ميدانا شاسعا لمصارعات يتبارى فيه الرجال المتوحشون ومن طبعوا على حب القتال مع بعضهم ونشروا الرعب والدمار في كل الجوانب وكان الحكام العظام للممالك كباروانات ولوردات انكلترا رجالا مشهورين بالمهارة في استعمال السيف وبالطة الحرب وإحكام الدفاع عن أملاكهم وعقارهم وبيوتهم أكثر من شهرتهم في التعليم والتهذيب وكانوا لأجل أن يحفظوا إدارة ونظام شئونهم الداخلية يستخدمون الكتبة والاكليروس الذين كانوا بتعليمهم العالى قادرين على أن يجعلوا لهم نوعا من الوكالة على هذه الممتلكات وأن يحفظوا سجلات الحوادث الجارية الخ .

أصبح هؤلاء الاكليروس بعد مضى مدة من اللوازم الضرورية التي لايمكن لهذه الممتلكات الشاسعة أن تستغنى عنها وأصبح لهم سلطة عظيمة وسلطان قوى وسنحت لهم في ذلك الوقت فرص زادت سلطاتهم باستعمالهم أسرار المجهول لدى البارونات أو اللوردات كرتكز عتلة وضعوا عليه عتلات طويلة وتلك العتلات هى الرعب من جهنم والخوف من العقاب المستقبل ، نقل تلك المرعبات بينهم بمهارة فائقة أحدث في عقول السذج شعورا لايمكن إزالته من الهلع الذى كان مع ذلك يلطف ويخفف بالتأكيدات من أنه باعتناق شكل معين من الدين وابتلاع بعض عقائد وضعت بمكر زائد ينال الخلاص ولكنه اخترع بوجه ما أن الطمأنينة التامة بخصوص النجاة والمركز العالى في الآخرة لا ينال إلا بالعطايا الفاخرة جدا للكنيسة وهذه العطايا أخذت شكل منح واسعة من الأراضى والقصور والابرشيات وهبات عظيمة ، ومن هنا نرى أن ولادة وابتداء الكهنوتية والقسوسية وطلب السلطة الدنيوية المقصودة قد عرف من ذلك الوقت ، فمجىء محمد بعد المسيح بستمائة سنة تقريبا كشف عن عدم صحة مثل هذه الأفكار كالتفكير والتوسط الكهنوتي والتوسل إلى القديسين وكل هذه الطرق الملبكة المحتوى عليها التقرب من المولى جل وعلا .

مهما كانت عظمة الشرائع الموسوية ، ومهما كانت ظرافة ورقة تلك المبادئ الصفوحة التي أتى بها نبي الناصرة (عيسى عليه السلام) يجب أن يعرف أن الشريعة المحمدية التي احتوت على الرسالة السامية تتغلب بتذليلها كل العقبات التي تقف في طريق السالك إلى الله .

هناك آيات في القرآن لاتترك شكا في معناها وتطبق على جميع هؤلاء الذين يدخلون في دائرة السيادة الكهنوتية ويتخذون مخلوقات بشرية لارشادهم « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » وقال « يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .

ديانة المسيح ليست تماما ديانة (سانت بولس) الذى أضاف إليها وغيرها تغييرا فاحشا وقد ترجمت هيئات

مختلفة جاءتك التعاليم وغيرت فيها من وقت لآخر ، وليس هناك فى الحقيقة تناسق فى تلك المسيحية المزعومة ولكننا نجد فى الاسلام ما يكفى رغبات المخلوقات من الاتصال بالخالق مباشرة ، الله الموجود أبدا القادر على كل شئ والحافظ لجميع المخلوقات ، ليس هناك فى الاسلام إلا إله واحد نعبده ونتبعه ، إنه إمام الجميع وفوق الجميع وليس هناك قدوس آخر نشركه معه ، إنه لمن المدهش حقا أن تكون المخلوقات البشرية ذوات العقول والألباب على هذا القدر من الغباوة فيسمحون للمعتقدات والحيل الكهنوتية أن تحجب عن نظرهم رؤية السماء ورؤية أبيهم القهار المتصل دواما بكل مخلوقاته سواء كانوا عاديين أو أولياء مقدسين ، مفتاح السماء موجود دائما فى مكانه ويمكن إدارته بأذل وأقل المخلوقات دون أى مساعدة من نبىّ أو كاهن أو ملك ، إنه كالهواء الذى نستنشقه مجاناً لكل خلق الله ، أما هؤلاء الذين يجعلون الناس يفهمون غير ذلك ما دعاهم إلى هذا العمل إلا حب الفائدة كالرواتب ومعاشات القسس أو بعض فوائد دنيوية أخرى ، ليس غرضى الرئيسى أن أهاجم أى فرع معين من فروع الديانة المسيحية لأبين جلال وسلاسة الديانة الاسلامية التى هى خالية فى نظر الكاتب الضعيف من العوائق الظاهرة جليا فى كثير من الديانات الأخرى .

إن الدين مسئول عن كثير من الآلام والفظائع وسفك الدماء وتلك حقاً لحقيقة مبكية ، أيمكن إذن أن يوجد دين يمكن العالم الانسانى من أن يجمع أمره على عبادة الله الواحد الحقيق الذى هو فوق الجميع وإمام الجميع بطريقة سهلة خالية من الحشو والتلبيك .

فكر لحظة وذلك التفكير لازم لكمال البشر فى الحقيقة ، إنه إذا أصبح كل فرد فى الامبراطورية الانكليزية محمديا حقيقيا بقلبه وروحه أصبحت إدارة الأحكام أسهل من ذلك لأن الناس سيقادون بدين حقيق ولن تبق هناك جميعات كنائسية ولامنشقون كى يوفق بينهم ولا ضرائب ثقيلة تدفع للمرور فى الطريق الموصل إلى الفردوس . إن الديانة كما جاء بها موسى والمسيح ومحمد سهلة جدا إلا أن الخلط الذى أتاها من الآخرين الذين سعوا فى أن يحسنوا الوحى الإلهى جعلها معقدة يرتبك وييأس منها من يستعمل عقله فى السعى وراء الحقيقة بجد ونشاط . استفزّ صنف من أصناف هذا الدين الحروب الصليبية التى ضحى فيها أسلافنا عشرات الآلاف من الأرواح البشرية ، فلم ذلك ؟ معركة معينة نشبت من أجل ضريح يعتقد أن المسيح وضع فيه مدة وجيزة ، هل كان يستحق ذلك أى اهتمام ؟ وصنف آخر من أصناف هذا الدين علمنا أن نعذب كل من يخالفنا ولو على أقل نقطة من نقط هذا الدين وأن نحرقهم أحياء ، هل يستحق ذلك أى اهتمام ؟

وهناك صنف آخر من أصناف هذا الدين وهو شائع ومعلوم للجميع ، ذلك بأن هؤلاء المتعصبين الشديدى التعصب (القسس) يحكمون على تابعيهم بالهلاك الأبدى إذا لم يتقبلوا آراء مذهبية معينة ، فهل يستحق ذلك أى اهتمام ؟ أتريدون أن تصفوا ضد الاحسان الذى هو أبغض شئ عند الله رب الرحمة والذى يلعنه كل من المسيح ومحمد إلى حد ليس له نهاية . قال الجنرال غوردون [لم أر طبقة الفرنسيين بين المسلمين الذين لايتخذون كل مايتخيلونه أو يمر ببالهم كما يفعل فرنسيونا من الحكم على زيد أو عمرو بأن نصيبه النار ، إنك لا ترى منهم أبدا عدم الأنس والبشر اللذين تراهما من فرنسينا] .

(إن غوردون) عاش طويلا فى الشرق ولم يفلت جلال الشريعة الاسلامية من ملاحظته الدقيقة ، ولاشك فى أنه عند ما كتب ما تقدم كان يشعر حقيقة بأن هناك إحسانا مسيحيا حقيقيا عند المسلمين أكثر مما هو عند المسيحيين أنفسهم فى بلادهم ، وكتب (غوردون) أيضا بنفس هذه الروح ما يلى :

[ليست هناك سلوى فى العالم أوراحة تعادل تلك التى يملكها من لايعرف غير الله مدة بقائه ولا يؤمن بالأقوال بل يؤمن بالحقائق وأن كل الأشياء دبرت لتحدث ولابد من حدوثها ووقوعها ولكن كل هؤلاء الذين كانوا يعتقدون هذا الاعتقاد قد ماتوا وتخلصوا من هذه الحياة المتعبة] .

وإجابة على ما تقدم يمكن أن يقال بأن الأفكار الشرقية لا تتحد مع الآراء الغربية ، ولا يمكن أن يقال إن بينهم أى امتزاج وأن محاولة حكم الشعوب الشرقية للشعوب الغربية حينما اعترف بديانة شرقية وتسيطرت هذه الديانة على عقول الرجال وأفعالهم لم تكن لائقة وكانت خارجة عن المقصود ، والمؤلف يريد أن يشير إلى أنه مضى ألفا سنة تقريبا وكل مملكة فى أوروبا محكومة بديانة الشرق أى اليهودية والنصرانية . روح الاسلام تحلق فوق أشياء أرق وأرفع من تلك الأطماع الدنيئة والاختلافات الجنسية فى الشرق والغرب ، وإذا كانت المسيحية الشرقية التى علمت بنيّ الناصرة العظيم قد سارت سيرا حثيثا فى إضاءة طريق العالم الانسانى ، فلماذا لا يستمر الدين الاسلامى الأوسع والأسهل - كما أتى به النبىّ العربىّ الكريم - فى أعماله الحسنة مادام ليس هناك سبب جوهرى يمنع ذلك .

هناك شبه عظيم بين أخلاق الأنبياء كما يتضح لكل باحث فى حياة محمد ، كما أن دراسة دقيقة القرآن تظهر أنه حقا ليس فى الاسلام شئ يتعارض مع الديانات السابقة وإرشادات وشرائع محمد كما جاءت فى الكتاب تقوّى وتعزز تعالم الانجيل تعزيزا تاما وتوسعها حتى تلائم حاجات الزمن الحاضر . إنه لمن الجور أن تحكم على رجل لاتعرف عنه شيئا ، كما أنه من الظلم أن تفعل ما يفعله تسعة وتسعون فى المائة من المسيحين الذين يحكمون على الدين المحمدى دون أن يبحثوا حتى ولو عن معنى كلمة (إسلام) فقاعدة ترك الأمور تأخذ مجراها هى شعار هؤلاء الذين لايريدون أن تنار عقولهم لأن إنارة عقولهم معناها عندهم تعب وإزعاج فيفضلون أن يظلوا يتخبطون فى ديجور العمى والظلام عن أن يمدوا أيديهم ليفتحوا الباب الموصل إلى النور . ما حصلت عليه فيه الكفاية لى لا أريد أن أنظر لشئ آخر . ذلك ما يقولونه راضين أن يبذلوا أى مسعى ليتقدموا حتى ولو فى معرفة الله ورسالاته للجنس البشرى .

من عدة سنين خلت كان أحد أفكارى الرئيسية هو [كيف يمكن الاسلام أن يتغرب (يصبح غربيا) حتى يمارس بالأمم الأوروبية ؟] أوبعبارة أخرى : كيف يمكننا نحن معشر الغربيين أن نعد أنفسنا لكتسب وتفقه معنى الاسلام الحقيق ؟ ثم تلا ذلك فكر آخر وهو [كيف أننا لم نشك من جنسية المسيح الذى نعتقد أنه كان أسيويا محضا ؟ كانت أمه العذراء مريم أسيوية وكان موسى وكل الانبياء الموحى إليهم شرقيين وكان النبىّ الكريم محمد ﷺ شرقياً مثل الآخرين وأنزلت عليه الشريعة من الله ، فالقرآن هو من كلام الله عزّ وجل كما كان الانجيل وباقى الكتب المنزلة الأخرى وهو القرآن يثبت ويحق الكتب المقدسة الأخرى والوحى السابق . القرآن يضيف تعالم أخرى تؤكد أهمية تلك التعالم الماضية وفوق ذلك فهو يحرم كل أنواع العبادة الوثنية وروح الوحى هى أن لا يقرن اسم الله القوى العليم الرحيم بأى اسم آخر .

روح الشكر هى خلاصة الدين الاسلامى والابتهال أصل فى طلب القيادة والارشاد من الله . إنه وإن كان شكرى لله على كرمه وعنايته كان متأصلا فىّ من صغرى وأيام حداثتى إلا أننى لاأستطيع أن أشاهد ذلك من خلال السنين القليلة الماضية التى قرع فيها الدين الاسلامى لى حقا وتملك رشدى صدقا وأقنعنى نقاؤه وأصبح حقيقة راسخة فى عقلى وفؤادى إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتهما قط من قبل ونجوت من العقائد الغريبة المتعلقة بسائر فروع الكنيسة المسيحية المختلفة واستنشقت لك النجاة كما أستنشق هواء البحر الخالص النقى وبتحقق من سلامة وضياء وعظمة الاسلام ومجده أصبحت كرجل قفز من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار .

عندما قررت نهائيا أنه لا يمكن الحصول على أى راحة من التعليات الكهنوتية أتتنى الفكرة بأنه من المؤكد أن الله يلاحظ ويدبر كل إرادة وكل حركة وعمل إنه يفعل ذلك حقا إلا أن التعليات المجموعة من صحائف القرآن مكنتنى من أن أفقه معنى تلك الفكرة المريحة راحة عجيبة بطريقة كانت تستحيل علىّ ساعة

إذا كانت كل حركة فى الحياة لاتحركها إلا القوة الإلهية تكون هناك راحة حقيقية لا لهؤلاء المتأملين والعاقين عن السير فى هذه الحياة فقط بل ولهؤلاء الذين ذهبت أنفسهم حسرات على أعمالهم العديدة الشيطانية والجنونية . كل هؤلاء الذين أتوا أعمالا سيئة يجب أن يؤمنوا فى أن الله بحكمته غير المحدودة وجلاله سيجعلهم مثلا للآخرين كى يريهم ما يجب أن يقلعوا عنه . إنه لفكر بخيف إلا أن المؤمن الحقيقى يواجه كل محنة وخزى وانحطاط فى الدرجة فى سبيل المولى عز وجل .

روح الإسلام تشير إلى خلاص البائسين والتعساء والشريرين إن تبنا وأطعنا وتركنا الشرور والآثام وسعينا فى مساعدة المخلوقات بكل ما فى وسعنا حتى بين الآلام العظيمة يجب علينا أن نكون مسرورين جدا بأن جعلنا الله واسطة للارشادات السماوية .

دس التعصب الدينى الأعمى الكنائس المسيحية فى تنافسها إلا أن ذلك لايمكن أن يقال عن الاسلام الذى هو كتلة متحدة ، فما أحسن ذلك إذا كنا نحن معشر الغربيين نهجر فى هذا الوقت تلك الأصناف الدينية المليكة ونتخذ الدين الاسلامى ؟

منذ سنين مضت وجد عند حكام إحدى الأمم المتنورة جدا فى الشرق الأقصى شك كبير فيما إذا كانت طريقة الدين التى يتبعونها صحيحة أم لا ، لذا عينوا رجالا عقلاء مخصوصين ليدرسوا كل الديانات الرئيسية فى العالم ويضعوا تقريرا عنها ، ففكر الرجال الحكماء وتشاوروا وفعلوا كل مايلزم ثم وضعوا النتيجة بأن ديانتهم هى حسنة كباقى الديانات الأخرى ، لذا ليس لديهم أى ميل لينصحوا بتغييرها .

إنى لأعتقد اعتقادا راسخا أنه إذا اتبع هذا الرأى وكلف أحسن الأذهان وأنبه العقول الأوروبية بالبحث عن دين مبنى على الاعتبارات الدنيوية والعقلية ولا يخرج عن الوحى السماوى الذى أتى به الأنبياء ماوجدوا باجماع الآراء غير الاسلام دينا فسهولته وعظمته مما لايختلف فيه اثنان .

أليست هذه من أعظم النعم أن تسنح لك الفرص بأن تعتنق دينا يتفق والحجا ويرضى الفؤاد والضمير ورغبات المرء الداخلية ، كما أنه خال فى نفس الوقت من القسوسية والكهنوتية وباقى المليكات الأخرى ،

لازال يعيش على ظهر هذه البسيطة فى كلا الشرق والغرب هؤلاء الذين اتضح لهم الوحى المؤسس لحقيقة الدين الاسلامى وتعاليمه بأوضح وأجلى معانيه ، وربما كان الوقت الذى يريد الله أن يتضح الوحى فيه ويتجلى لكل عباده الموجودين فى هذا العالم ليس يبعيد إلا أن ذلك مختص بهداية المولى سبحانه وتعالى لأنه لايوجد من يعرف الميعاد . الكنائس المسيحية الكثيرة تناقض إحداها الأخرى مناقضة عظيمة ومعلمو لاهوتها (كهنتها) وضعوا عقدة التعاليم المسيحية التى لاتحل ووضعوا تلك العقائد التى تدهش العقول دهشة عظيمة حتى إن العقول السليمة الصافية والقلوب المبصرة تتوق إلى دين مفهوم مقنع وسهل غير معقد .

مذاهب الكنيسة المسيحية سواء كانت رومية كاثوليكية أو بروتستانية طردتنى منذ طفولتى وإنى لا أعرف إذا ما كانت عدم ثقتى وأنا غلام صغير بهذه العقيدة كما وضعت بسانت أثاناسيس أقل قوة من ازدرائى واحتقارى اليوم لهذا الرجل الذى يضع القوانين من أعلى منصة الخطابة ويحكم على الملايين من الرجال بالهلاك الأبدى لأنهم لايوافقونه ، وقد ظهر لى دواما أنه من المهم جدا أن السادة الأشراف المتعلمين إذا أرادوا أن يدخلوا الكنيسة يجب عليهم أن يشتركوا بسرور وابتهاج فى التسع والثلاثين مقالة المخيفة وهم يعلمون فى قلوبهم أنهم لايستطيعون أن يصدقوا نصف مايضمون أسماءهم تحته .

فكرت وصليت أربعين سنة كى أصل إلى حل صحيح والرأى السائد عندى هو أن كل تراكيب هذا الدين المزعوم هى من عمل الانسان لامن عمل الله ويجب على أن أعترف أيضا أن زياراتى الشرق ملأتنى احتراما عظيما للدين المحمدى السلس الذى يجعل الانسان يعبد الله حقيقة طول مدة الحياة لافى أيام الآحاد فقط .

الإسلام دين السهولة العظيمة ، إنه يرضى أشرف رغبات النفس ولايناقض بأى حال من الأحوال تعاليم موسى أوالمسيح عليهما السلام] اهـ الكلام على الفصل الأول .

﴿ الفصل الثانى : فيما ذكره العلامة الكونت هنرى دى كاسترى ﴾

(مقدمة)

كنت ذات يوم أجوب جوف الصحارى فى ولاية (حوران) بين زرقوم وسجير وخلفى ثلاثون فارسا كريما من أولاد يعقوب يمشون جماعات جماعات لأن حدة الخيل كانت تمنع من انتظامها وتجعل بعضها إذا مسه التالى يصهل صهيل الغيظ ثم يلفت وجهه إلى الوراء ويضرب بأرجله فى الهواء وعما قليل تسكن ثورته وتعود الجياد إلى خطاها مطمئنة ، يسير أمام الكل حاد على فرس عظيمة بيضاء لا يهدأ لمرآها ساكن الجياد وهو يترنم بما ينعش الجمع من كلام أغلبه مدح فى كاتب هذه السطور فكنت فيهم كسلطان يتسابق كل واحد من حاشيته إلى إرضائه باستعمال ماحفظ الشرق من أسرار الانحطاط النفسى فى مثل تلك المعاملات ، وكنت أصغى إلى أشعارهم ساعات متتابعة بغير ملل وقد وعيت البعض منها وكلها أراجيز محبوكة الأطراف غير تامة المعنى بذاتها فلا تميز بين المادح والممدوح والمخاطب والمتكلم بحيث يصعب علينا معشر الغربيين إدراك مراميها ، وكنت أبلغ الخامسة والعشرين من العمر والفصل فصل الشتاء ويومنا يوم جميل تنشط الأبدان حرارته ويبلغ ضوءه حد البهاء وروائحه تنعش السالكين وتجعل المستنشق شاعرا بتمام الحياة يخالجنى مع ذلك إحساس آخر هو شغفى بتلك الممدوحة التى كان اسمها يروح ويغدو فى أقوال أولئك الشجعان ، وبينما نحن سائرون على هذه الحالة إذ سكت الشاعر والتفت قائلا بصوت خشن (سيدى الآن وقت العصر) هنالك ترجلت الفرسان واصطفوا لصلاة العصر مع الجماعة وصلاة الجماعة مفضلة عند الله فى اعتقاد المسلمين كما هى كذلك عند المسيحيين ، أما أنا فقد ابتعدت عنهم وكنت أود لو انشقت الأرض فابتلعتنى ، وجعلت أشاهد البرانس العريضة تنثنى وتنفرج بحركات المصلين وأسمعهم يكررون بصوت مرتفع (الله أكبر . الله أكبر) فكان هذا الاسم الالهى يأخذ من ذهنى مأخذا لم يوجده فيه درس الموحدين ومطالعة كتب المتكلمين ، وكنت أشعر بحرج لست أجد لفظا يعبر عنه سببه الحياء والانفعال ، أحس بأن أولئك الفرسان الذين كانوا يتدانون أمامى قبل هذه اللحظة يشعرون فى صلاتهم بأنهم أرفع منى مقاما وأعز نفسا ، ولو أنى أطعت نفسى لصحت فيهم (أنا أيضا أعتقد بالله وأعرف الصلاة وكيف أعبد) فما أجمل منظر أولئك القوم فى نظامهم لصلاتهم بملابسهم وجيادهم بجانبهم أرسانها على الأرض وهى هادئة كأنها خاشعة للصلاة ، تلك هى الخيل التى كان يحبها النبى صلى الله عليه وسلم حبا ذهب به إلى أنه كان يمسح خياشيمها بطرف إزاره عملا بوصية جبريل عليه السلام . وكنت أرى نفسى وحيدا فى عرض هذه الصحراء على ما أنا به من اللباس العسكرى الضيق الذى يبرم فيه الجسم الانسانى بغير احتشام تلوح على سمات عدم الايمان فى مكان هو مسقط رأس الديانات كأنى من الحجر أو من الكلاب أمام أولئك القوم الذين يكررون إلى ربهم صلوات خاشعة تصدر عن قلوب ملئت صدقا وإيمانا ، وبينما أنا كذلك إذ جال بخاطرى ماورد فى التوراة من أن الله يسكن خيمة سام ويكثر من أولاد يافث ، وقد كان الفريقان مجتمعين فى ذلك المكان أولئك المصلون الذين هم من ولد سام معجبون بدينهم وعبادة ربهم ورب آبائهم ، الله الذى دخل خيمة إبراهيم وأنا ابن يافث الذى يمتد ذكره بالحرب والفتوح ، ولما انتهى بنا الطريق ورجعت إلى مكان راحتى جعلت أكتب ماعلق بذهنى من الأفكار فأحسست أنى منجذب بحلاوة الاسلام كأنها أول مرة شاهدت فى الصحراء قوما يعبدون خالق الأكوان وذكرت خيام النصارى حيث لا متعبد فيها غير النساء وأخذنى الغضب من كفر أبناء الغرب وقلة إيمانهم .

كنت فى سن يستسهل العقل فيه حل المشكلات ويأخذ الأشياء من ظواهرها ويعمل الخيال فيه عمل النقد والتنقيب ويعتقد المرء فى الأمور بغير قيد وهوس لو أنصف أهلوه لما كتبوا وألفوا وكنت أرى أن جمال الدين أصدق شاهد على أنه الدين الحق وصرت أكتب فى الإسلام غير شاعر بما يخطه القلم طوع الفؤاد .

ولو أنى اتبعت مجرّد الظواهر وقضيت على الأمور بغير تأمل وتدقيق لجاء كتابى مفسوما ورمانى المستشرقون بالخفة والطيش كما يرمون بحق بعض مؤلفى الجزائر من الأوروباويين ، ذلك أن المشتغلين بالإسلام فى هذه الأيام فريقان : المستشرقون الذين هم من أفاضل العلماء ، ومستعربو الجزائر من الإفرنج أيضا ، ومما لا شبهة فيه أن القسم الأول قد أفاد العلم أكثر من القسم الثانى فإن أعمالهم أنتجت كثيرا من العناصر والمواد التى يسهل بها اليوم وضع تاريخ للاسلام لأن ذلك التاريخ لا يزال مع ما تقدم فى عالم الغيب وبعدهم يأتى مستعربو الجزائر على نسبة الفرق بين غزارة المادة فى العلم وسلامة النظر فى الموجودات وهم يعيشون مع المسلمين ويفقهون غور أفكارهم ويعلمون حقيقة معيشتهم وكنه دياناتهم معرفة لا تحصل لأحد فى غير تلك البلاد ، وبهذا يرون أن لهم الحق فى أن يكتبوا عن الإسلام كالمستشرقين ، ثم إنهم لم يقفوا على جميع ما ألفه المسلمون فى الحكمة وعلم الكلام ولكنى لا أرى ذلك نقصا كبير ، إذ معرفة حقيقة الإسلام فى هذا العصر لا تحتاج إلى سعة اطلاع دينى ، على أن مطالعة جميع الكتب التى وضعت فى مبدأ ظهور هذا الدين إنما تجب على المؤرخ أكثر من غيره لأن علم الكلام وحب الخوض فيه قد اندثر منذ القرن الثانى عشر حيث أصبح الدين الإسلامى قويا متينا لا تؤثر فيه مناقشة الباحثين وتخاصم المتقدين كما أودت بأصول الديانات الأخرى فمن ذلك الحين صار كل مسلم من عالم وجاهل ومن أمير وحقير مؤمنا إيمانا لا احتياج لتحكيم العقل فى تحصيله بل هو إيمان وجدانى بسيط قوىّ فى النفس متمكن من القلوب وذلك لا يشاهد فى الأمم المسيحية إلا عند الفلاحين .

ولقد رأيت من الواجب أن أبين الصفات التى تخولنى حق الكتابة عن الإسلام قبل أن أنشر كتابى هذا ، أنا عاشرت العرب أزمانا طوالا واشتغلت كثيرا بمعرفة حقيقة طباع الشرقيين ومذهبى مذهب مستعربى الجزائر ولذلك أسأل المستشرقين ذوى الاعتبار عفوا ولينا وأطلب منهم قبل كل شىء أن لا يجمعوا بينى وبين أولئك الذين يجاوزون إلى العرب فيكتبون عن الإسلام ما تلقفوه أثناء سياحة قصيرة فجاء قولهم قولا شعريا حتى إن الموسيو (لوازون) لم ينج من هذه السقطة بل طاش قلمه وجذبته التخيلات فكان ممن يرى كل شىء فى الشرق جميلا وجاء رأيه فى الإسلام رأى قوال لا رأى باحث حكيم ، وعليه فلست أقصد بكتابى هذا أن أمجد الاسلام ولكنى لما رأيت أنه صار من المسائل الكبرى التى اشتغلت بها أذهان الباحثين فى العصر الحاضر وأسست من أجله مجلة علمية فى باريس نال بها المسلمون نجاحا أدى إلى أن المسيحيين ومنهم أولاد الصليبين يساعدونهم بالمال على إقامة مسجد يعبدون الله فيه انتهزت فرصة هذا الميل وأردت التنبيه إلى بعض أغلاط علقت بالأفكار عندنا من حيث النبي العربى ودينه الاسلامى وهو عمل شاق وموقف حرج إذ من المعلوم كما قيل أنه لا يرسخ فى الاعتقاد أكثر من خطأ الاعتقاد كذلك أرى أنه لا يكفى لأمة مسيحية متمدينة أن تحترم دين المسلمين من رعاياها بل يجب عليها أن تسعى إلى معرفة ذلك الدين كما ينبغى فنحن نضحك إشفاقا من سماع الأقاصيص التى تحرؤها عن بعض المسلمين للمسيحيين ونقول أولئك قوم جهلة متعصبون لأنهم فى بغضهم لنا مخطئون إلا أن المسيحيين هم كذلك فى بغضهم المسلمين لا يعدلون ، وأشد الأوهام رسوخا عندنا بالنظر إلى الديانة الاسلامية ما اختص منها بشخص النبى ولذلك قصدت أن يكون بحثى أولا فى تحقيق شخصيته وتحرير حقيقته الأدبية على أجد فى هذا البحث دليلا جديدا على صدقه وأمانته المتفق تقريبا عليها بين جميع مؤرخى الديانات وأكبر المتشيعين للدين المسيحى .

(صدق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ـ محمد والأغانى المعروفة بأغانى الإشارات ـ محمد والتاريخ ـ أصل الاعتقاد)
(الوحى بالقرآن ـ ليس محمد مبتدعا ـ هل كان على الدوام صديقا ـ وفاته)

كنت كلما بحثت فى الديانات مع صاحب لى من طلبة العلم فى (تلمسان) وأراد الهرب من الجدال يجيبنى [هم يقولون إن لله ولدا وإن محمدا لمن الساحرين] إجابة مملوءة بالاحتقار كما يجيب المعتقد اعتقادا وثنيا يريد أن يشفق عليه وذلك مع مبالغته فى احترامى وحسن الصلات بيننا ، وكان يرى أن التثليث خرافة فادحة كسحر محمد وأن المسيحيين الذين اخترعوا البدعتين قوم لا ينبغى الجدال معهم ولست أدرى ما الذى يقوله المسلمون لو علموا أقاصيص القرون الوسطى وفهموا ما كان يأتى فى أغانى القوال من المسيحيين بجميع أغانينا حتى التى ظهرت قبل القرن الثانى عشر صادرة عن فكر واحد كان السبب فى الحرب الصليبية وكلها محشوة بالحقد على المسلمين فلجهل الكلى بدياناتهم وقد نتج عن تلك الأناشيد تثبيت هاتيك القصص فى العقول ضد ذلك الدين ورسوخ تلك الأغلاط فى الأذهان ولا يزال بعضها راسخا إلى هذه الأيام فكل ناشد كان يعد المسلمين مشركين غير مؤمنين وعبدة أوثان مارقين ، وقد جعلوا لهم ثلاثة آلهة هم على ترتيب درجاتهم : (ماهوم) ويقال ماهوم وبافوميد وماهوميد وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ثم (أبلين) ثم (ترجافان) وذهبوا إلى أن محمدا وضع دينه بادعائه الألوهية ومن المستغربات قولهم إن محمدا الذى هو عدو الأصنام ومبيد الأوثان كان يدعو الناس لعبادته فى صورة وثن من ذهب كما كان يعتقد (الكرلوفنجيون) وأن المسلمين لما غلبهم الافرنج وصدوهم إلى أسوار (سرقسطة) عادوا إلى أصنامهم فحطموها كما طنطن به أحد منشدى ذلك العصر حيث قال [وكان أبلين إلههم فى مغارة هناك فراموا عليه وأوسعوه شتما وسبا وصلبوه من يديه فى أحد العمدان وجعلوا يدوسونه بأقدامهم ويوجعونه ضربا بالعصى حتى هشموه ، وأما (ماهوم) فقد رموه فى حفرة وتركوا الكلاب والخنازير تنهشه وتعبث عليه وتلك إهانة لم تصب إلها قبله] ويظهر أن المسلمين لم يلبثوا أن تابوا من ذنبهم واستغفروا آلهتهم وأصلحوا ما أتلفوه منها ولذلك أمر الامبراطور (كارلوس) بإبادتها لما دخل (سرقطة) كما جاء فى قول ذلك الشاعر وقد أمر الامبراطور الفرنساويين فطافوا جميع أنحاء المدينة ودخلوا المساجد والجوامع وبأيديهم مطارق من حديد فكسروا بها (ماهوميد) وجميع الأوثان والأصنام ، وكذلك يقول (ريشار) فى أناشيده وهى جيلة [لا شىء من الخراف فيها إلا أنها زور وبهتان حيث يطلب من الله أن يوقع الفشل العميم بين أولئك الذين يعبدون صورة ماهوم] ثم جعل يحرض الأشراف على الحرب المقدسة وينصحهم أن ينكسوا أصنام المسلمين [قوموا ونكسوا صنم ماهوميد وترفاجان وصبوهم على النار وقدموهم إلى ربكم] وذهبوا إلى أن صورة (ماهوم) كانت تصنع من أنفس الأحجار والمعادن بأحكم صنع وأدق إتقان . ومن قرأ وصفه فى أناشيد رولان كاد يحلف أن ذلك الشاعر إنما يصف عن خبر وعيان . يقول وكانت كلها من الذهب والفضة لو شاهدتها لأيقنت بأنه لا يمكن العقل أن يتصور أجمل منها ، عظيمة الشكل ، لطيفة الصنع ، تلوح على وجهها سمات الشهامة كان (ماهوم) من ذهب وفضة يأخذ بريقها بالأبصار قد وضع فوق فيل على جلبة من أجمل المصنوعات خاويا من جوفه فيرى الضوء من خلاله مرصعا بنفائس الأحجار المضيئة ، يرى الناظر باطنه من الظاهر وهو صنع عز عن المثال والنظير ، ولما كانت الآلهة تنزل الوحى وقت الشدائد وانهزم المسلمون فى إحدى غزواتهم بعث قائدهم إلى مكة يطلب ربه ، قال الراوون فجاء الإله محمد فى موكب عظيم يضرب بالطبل والمزامير ضربا يسمع لهدوى قاصف وبعضهم يغنى بالمزمار والآخر بصفارات من الفضة والكل حولهم يرقصون ويغنون بأعلى أصواتهم واقبلوا به فرحين حيث المجلس معقود والخليفة الدينى فى انتظاره فلما رآه قام يعبده بخضوع وخشوع ثم

أخذ (ريشار) بعد ذلك يقص كيفية مناجاة أولئك الوثنيين لذلك الصنم الذى وصفه بالتجويف وأن لا شىء في باطنه إلا ويرى من الخارج فقال [وقد وضعوا في جوفه عفريتا استحضره السحرة وصار ينط ويعربد ثم أخذ يكلم المسلمين وهم يسمعون] ولقد زاد بعضهم لذلك الصنم حتى جعلوه علامة على الدين الإسلامى كما جعلوا الصليب علامة للدين المسيحى ؛ فروى (بودوان) فى نشيده على الكونتسه (بونتيو) لما أرادت أن تعتنق الإسلام أمام صلاح الدين أنها قالت [أريد أن أعبد محمدا فائتونى به فلما صار بين يديها خرت ساجدة إليه] ويأخذ القارىء من نشيد آخر يظهر أنه وضع تتمة لأناشيد (بودوان) وجود إلهين للمسلمين غير الذين سبق ذكرهم وهما (بارتوان) و (جوبين) إلا أن الثلاثة الأولين هم الرؤساء ، ولما رد أحد قواد المسيحيين جيش المسلمين الذى خرج من مكة أخذ الشاعر يصف اضطراب المسلمين فقال [وقد جعل الوثنيون يصيحون ويصرخون ويموجون بينهم ويهرجون ويتنادون بأعلى أصواتهم يا ترفاجان ياماهوم ومع ذلك يوجد نشيد من أناشيد القرون الوسطى لايرى فيه القارىء رمزا إلى محمد بالصنم وهو القسيس (اسكندرودبون) ألفه سنة ١٢٥٨ ميلادية أخذا عن مسلم تنصر من ذوى الاعتبار ، وعد الناس تلك القصة تاريخا صحيحا عن ذلك النبى ، وقد جاء فيها [إنه من المعلوم أن محمدا كان عالما بطرق المكر والخيانة والخداع] ثم شبهه بأحد الأمراء المحوط بأتباعه ينشر دينه على أبسط حال حتى اعتقده الناس أكثر مما اعتقدوا حبر رومة .

ولقد أطلنا القول فى تلك الأضاليل لأن تاريخ اسكندر المذكور لم يزلها ولأنها تركت أثرا فى الأذهان وصل إلى أهل هذه الأيام وتشبثت به أفكارهم فى النبى وكتابه .

ولو سأل سائل هل كان أولئك المنشدون يعتقدون صحة ما يقولون لأجبناه جواب أهل (نورمندة) لا ونعم إذ من المحقق أن الاختلاط بين المسيحيين والمسلمين سهل للمنشدين معرفة الدين المحمدى على حقيقته ولكنهم ما كانوا يقصدون الحقائق التاريخية فى أناشيدهم بل حفظ روح البغضاء فى نفوس قومهم فاحتاجوا فى ذلك إلى وصف المسلمين ونبيهم ودينهم بالأوصاف التى تؤثر فى نفوس المنشود لهم على حسب معارفهم وأميالهم وإذا انتقلنا من شعراء القرون الوسطى إلى من جاء بعدهم من المؤرخين والمتكلمين الباحثين فى علم التوحيد الذين يظهر على كتبهم فى ذلك الزمن أنهم ميالون إلى الاعتدال وجدنا مؤلفاتهم محشوة بتلك الأقاصيص الخرافية مملوءة بالطعن والشتائم فى نبى المسلمين وكان المصلحون (هم البروتستان أيام دعوتهم لاصلاح الدين المسيحى) أشد تعصبا ضده من غيرهم ، فقد اعتنى (بيبلياندر) بتشبيه محمد بالشيطان وعاملوا كتابه وشرعه كما عاملوه ولسنا نقيم برهانا على ما نقول غير توجيه نظر القارىء إلى مطالعة ما جاء فى مقدمة كتاب (ريلان) الذى ألفه سنة ١٧٢١ تحت عنوان [ما هو السبب فى أن الناس عامة لا يعرفون من الديانة المحمدية إلا شيئا يسيرا) حيث يقول (لو أراد الباحثون أن يصموا مذهبا أو طريقة بوصمة الخزى والعار نسبوها إلى محمد فقالوا مذهب محمدى أو طريقة محمدية وهكذا] .

وألف القس (دون مارتينو الفرنسو فيفالدو) كتابا سماه (سراج الكنيسة المقدسة الذهبى) جاء فيه إن كتاب محمد لاتلزم قراءته بل يجب أن يسخر به وأن يحتقر ويرمى فى النار أنى وجد ، ولا يليق أن يحفظه الناس لأنه عمل جهنمى ، وبعضهم كان لا يقول بحرقه ولكنه يرى من العبث أن يجهد الانسان نفسه ويزيد إيلامها بحفظ هزئيات وأمور تافهة منشؤها خيالات شخص اختل عقله واضطربت قواه .

وأما المسلمون فمن أصنامهم فى تلك الكتب البهة والكسالى والحمير والحمير الوحشية والمقوتون الذين يعاشون المنزل بالنساء فى الليل ويطلقونهن فى النهار ، ولو أردت الاطلاع على جبة الشتائم والسباب فعليك بكتاب ألفه أحد اليسوعيين وهو (يروشاير) وسماه مرشد السياحة وقدمه إلى الأمير (فيليب روفالو) سنة

١٣٣٢ وذكر فيه الأسباب التي تحمله على الدعوى إلى حرب صليبية فقال [من ذا الذي لا يذرف عبرات الجمع عند ما يعلم أن الرجال هم القابضون اليوم على تلك البقاع التي هي ميراثنا، أولئك قوم لا رب لهم ولا دين يهديهم ولا شرع يرجعون إليه ولا عهد ولا حنان، أولئك قوم أخساء أدنياء وهم أعداء لكل حقيقة في الوجود وكل صفاء وكل خير وكل عدل أولئك هم أعداء الصليب الكافرون بالله المضطهدون للمسيحيين المفرطون في نسائهم ، الفاسقون بالأطفال، الظالمون لعجم الحيوانات، المخالفون لطبائع البشر، القتالون للفضائل، المميتون للأخلاق ، الغارقون في القبائح والخطايا، وأولئك هم أولياء الشيطان، وأنصار الدنايا ، ذوو حقد وبغض، ذوو أفكار سافلة ، وأعمال سخيفة ، وعيشة دنيئة، وأقوال بذيئة، وعشرة سوء معدية، لا تنصرف إرادتهم ولا تتجه هممهم إلا إلى اللذائذ البهيمية والمعيشة الهمجية ، أولئك هم القوم الذين أبعدونا عن تلك البقاع وآذونا في هذه البقعة الصغيرة التي نحن فيها مستهزئين بنا وساخرين بديننا ، أولئك هم الذين خربوا بيت الله وملكوا المدينة المقدسة التي هي مهبط شرعنا ولوثوا أماكنها المقدسة المطهرة] .

ولم يزل هذا الروح سائداً عند المسيحيين حتى إن المستشرق (بريدو) الانكليزي ألف سنة ١٧٢٣ كتابا في سيرة النبي عنوانه (حياة ذى البدع محمد) وترجمه بعضهم إلى لغتنا وجعل له مقدمة بين فيها مقصد المؤلف فقال [إن غرض واضع هذا الكتاب هو خدمة القصد المسيحي الحكيم بذكر حياة ذلك الرجل الشرير محمد] أولئك كتاب ما قصدوا التاريخ ولكنهم أرادوا خدمة القصد المسيحي الحكيم كما يقولون وكان سلاحهم الوحيد في تأييد سواقط حججهم أن يشبعوا خصمهم سبا وشتما وأن يحرفوا في النقل مهما استطاعوا وأراد (داماسين) أن يخالفهم في التأليف لكونه تربى في دمشق الشام وكان مقربا عند الخلفاء فجعل يرد مذهب الاسلام من غير تعصب لذلك عده بدعة في الديانة المسيحية تقرب من بدعة (أريوس) ومع ذلك فلم تؤثر عبارته في رأى الغربيين بل ظلوا يعتقدون الخرافات في النبي وقرآنه وكان رؤساؤهم الروحانيون يجتهدون دائما في تأييدها وتمكينها من الأذهان وهي سياسة جعلت الناس عندنا يهزءون بالدين الاسلامي وأغنت الباباوات عن حربه حربا صحيحا فقد كانت الكنيسة اللاتينية في القرن الثامن مشتغلة بأمور أخرى لأن الكنيسة الشرقية كانت واقعة بين عاملين مضطربين هما أحزاب النفس الواحدة في جسدين وأحزاب النفس في جسم واحد . ولم يبدأ في البحث عن الاسلام بغير تعصب ولا تشيع إلا في زمننا هذا ، في القرن التاسع عشر أخذ الباحثون ينظرون إلى المسألة نظر الناقد البصير وكان من وراء ذلك أن افترق الناس في القرآن إلى معجب به وطاعن فيه ومع ذلك لا تزال ترى في لسان هذا القسم الأخير ماتشم منه رائحة تأثرهم بالأفكار الماضية . فقال المسيو (دروخق) في سياحته في بلاد العرب التي نشرها سنه ١٨٧٨ عن النبي (إنه عربي خائن دنيء) وقد نسي أن هذه الألفاظ التي يشمئز منها السامع لم تعد تصلح اليوم حجة على صحة الدعوى . وأول مادار البحث فيه مسألة صدق النبي في رسالته وقد قلنا إن ذلك متفق عليه بين المستشرقين والمتكلمين على التقريب ، ومعلوم أنه لا ارتباط بين هذه المسألة وبين كون القرآن كتابا منزلا ، ولسنا نحتاج في إثبات صدق النبي إلى أكثر من إثبات أنه كان مقتنعا بصحة رسالته وحقيقة نبوته ، أما الغرض من تلك الرسالة في الأصل فهو إقامة إله واحد مقام عبادة الأوثان التي كانت عليها قبيلته مدة ظهوره . وبيان ذلك أن إسماعيل لما حنقت عليه (سارة) وطرد من عائلة أبيه توجه إلى بلاد العرب ونقل إليها ديانة أبيه إبراهيم إلا أنه لم يبق بين العرب من تلك الديانة سوى شيء قليل يشبه الخيال إذ لم يكن عندهم من يذكرهم على الدوام بأن رب إبراهيم هو رب عزيز لايقبل له شريكا كما حصل ذلك لبني إسرائيل ولايزال هذا الاعتقاد يزول شيئا فشيئا وتحل محله عبادة الآلهة التي كانت معروفة في أمم أخرى حتى تنوسي دين إسماعيل تماما ثم دخلت اليهودية في بعض القبائل

المجاورة لبلاد الشام ولكن الديانة المسيحية لم تعلق فى تلك البقاع حتى إن (تيث) قس البصرة اعترف فى القرن الرابع بأن معيشة العرب الرحالة النقالة تمنع من انتشار تلك الديانة فى بحث جزيرة العرب إلى أن قال :

ثبت إذن مما تقدم أن محمدا ﷺ لم يقرأ كتابا مقدساً ولم يسترشد فى دينه بمذهب متقدم عليه خلافا لما ذهب إليه (اسكندرديون) حيث يقول (إنه كان يعرف فى دين اليسوع قراءة وكتابة) نعم إن البحث عن معرفة المصادر الق عساه يكون تلق عنها بالمشافهة ديانة المسيح أو الديانة اليهودية أو ديانة عباد الكواكب قد يكون مفيدا لمعرفة الموافقات التى جاءت بين القرآن وبين التوراة إلا أنه بحث ثانوى إذ لو فرض وكان القرآن قد نقل بعضا من الكتب المقدسة الأخرى لبقى الأمر مشكلا كما كان عليه فى معرفة حقيقة ما اختلج بروحه الدينى وكيف وجد فيها ذلك الاعتقاد الثابت بوحدانية الله حتى استولى عليه روحا وجسما ، ولقد نعلم أنه مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلاما نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته فقد خلقه الله ذا نفس تمحصت للدين ، ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكى يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذى ابتدعه المسيحيون وكان بغضهما متمكنا من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة فى جسمه صلى الله عليه وسلم ولكى ينفرد بما نزل فيه من الفكر العظيم وهو وحدانية الله تعالى اعتكف فى جبل حراء وأرخى العنان لفكره يجول فى بحار التأملات عابدا متهجدا ومضت عليه بهذه الحالة ليال من ليالى هاتيك البقاع التى تملأ النفس انشراحا حتى جاء عنها فى لسان العامة أن الملائكة تسأل ربها لو أذن لهم فيهبطوا من السماء لقضاء ليلهم على الأرض إعجابا بجمال الليل فيها وشوقا إلى صفاته وجلاله .

ولعمرى فيم كان يفكر ذلك الرجل الذى بلغ الأربعين وهو فى ريعان الذكاء . ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا فى العقل بحدة التخيل وقوة الادراك لا بوضع المقدمات وتعليق النتائج عليها ما كان إلا أن يقوله مرارا ويعيد تكرارا هذه الكلمات (الله أحد . الله أحد) كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد ولم يزل عقله مشتغلا حتى ظهر هذا الفكر فى كلامه على صور مختلفة جاءت فى القرآن « لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وكانت مترادفات اللغة العربية تساعده بمعانيها الرقيقة على ترداد ذلك الفكر السامى الذى دل عليه ومن تلك الأفكار وتلك العبادة تولدت كلمة الإسلام (لا إله إلا الله) .

ذلك هو أصل الاعتقاد بإله فرد ورب صمد منزه عن النقائص يكاد العقل يتصوره وهو اعتقاد قوىّ يؤمن به المسلمون على الدوام ويمتازون به على غيرهم من القبائل والشعوب ، أولئك حقاً هم المؤمنون كما يسمون أنفسهم بألسنتهم . ولقد يستحيل أن يكون هذا الاعتقاد وصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم من مطالعته التوراة والانجيل إذ لو قرأ تلك الكتب لردها لاحتوائها على مذهب التثليث وهو مناقض لفطرته مخالف وجدانه منذ خلقته فظهور هذا الاعتقاد بواسطته دفعة واحدة هو أعظم مظهر فى حياته وهو بذاته أكبر دليل على صدقه فى رسالته وأمانته فى نبوته .

وأما مسألة الوحى بالقرآن فهى أكثر إشكالا وأكبر تعقيدا لأن الباحثين لم يهتدوا إلى حلها حلا مرضيا والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمى وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بنى الانسان عن الاتيان بمثلها لفظا ومعنى ، آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة حار فى جمالها ، وكفى رفيع عباراتها لاقناع عمر بن الخطاب فآمن برب قائلها ، وفاضت أعين نجاشى الحبشة بالدموع لما تلا عليه جعفر بن أبى طالب (سورة آل عمران) وما جاء فى ولادة يحيى وصاح القسس (إن هذا الكلام وارد من موارد كلام عيسى) قال ناقل هذه الرواية (كوزان دى برسوفال) فلما كان اليوم الثانى طلب النجاشى جعفرا وأشار إليه بتلاوة

ما فى

مافى القرآن عن المسيح فضل واستغرب لذلك لما سمع أن المسيح عبد الله ورسوله وروح منه نزل فى أمه مريم ثم تناول قضيبا دقيقا كان أمامه وقال لجعفر [إن الفرق بين ماسمعناه منك الآن عن عيسى وبين مانقوله ديانتنا عنه لايزيد عن سمك هذا القضيب وقد قوى ذلك القضيب لمنع الحبشة من الإسلام وجعلها مسيحية إلى الآن لكن نحن معشر الغربيين لايسعنا أن نفقه معانى القرآن كما هى لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا غير أنه لاينبغى أن يكون ذلك سببا فى معارضة تأثيره فى عقول العرب] ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول [من الناس من يتعلم قليلا من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ولو أنه سمع محمدا صلى الله عليه وسلم يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المقنع المشبع الذى يطرب الآذان ويؤثر فى القلوب والتفت إلى أنه كلما بدت أحكامه أيدها بقوة البيان وما أوتيه من بلاغة اللسان لخر ساجدا على الأرض وناداه أيها النبى رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار] . قال (بولا تقيلير) [إنى لأعترف بأنه من الصعب أن يظن الإنسان ولا يتحير فى أمره أن قوة الفصاحة الإنسانية تؤثر ذلك التأثير خصوصا أنها تصدر عالية بغير ضعف أبدا وتتجدد رفيعة معجزة إذ تقصر دون تمثيلها رجال الأرض وملائكة السماء] وقد أشار المؤلف فى كتابه إلى الآية الآتية « أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو » .

إذن ليس محمد من المبتدعين ولا من المنتحلين كتابهم وليس هو بنى سلاب كما يقول المسيو (صايوس) ثم قد نرى تشابها بين القرآن والتوراة فى بعض المواضع إلا أن سببه ميسور المعرفة ، ذلك أن محمدا كان يلصق ديانة الإسلام بالديانتين المسيحية واليهودية فالبحث مباح فيما إذا كان مذهبه صحيحا أو موضوعا اتخذه ليؤيد به الحقيقة الدينية من حيث هى ولكن لا نسلم إنكار هذه الحقيقة وحينئذ لاعجب إذا تشابهت تلك الكتب فى بعض المواضع خصوصا إذ لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها كما أن النبى ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين .

والآن نلخص لك مذهب بنى المسلمين فى الديانات الثلاث فنقول [إن دين الأنبياء كان كله واحدا فهم متحدون فى المذهب منذ آدم إلى محمد وقد نزلت ثلاث كتب سماوية وهى : التوراة والانجيل والقرآن ، والقرآن بالنسبة للانجيل كالإنجيل بالنسبة للتوراة وأن محمدا بالنظر إلى عيسى كعيسى بالنظر إلى موسى ولكن الأمر الذى تهم معرفته هو أن القرآن آخر كتاب سماوى ينزل للناس وصاحبه خاتم الرسل فلا كتاب بعد القرآن ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ولن تجد بعده لكلمات الله تبديلا] إذا تقرر هذا لم يعد هنالك وجه للاستغراب من وجود بعض التشابه بين القرآن والتوراة لمحمد كعيسى قال إنه بعث ليتمم رسالة من قبله لا ليبيدها فلم يكن من أمره الابتعاد عمن تقدمه ، ولذلك كان يصرح على الدوام بأنه يعيد على الناس مانزل على الأنبياء من قبله وكان يسمع صوتا من السماء يقول له «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهرون وسليمان وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما» وقال تعالى «وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون - وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون بالبينات والزبر وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفكرون» على أن بعض المتشابهات لاتحتاج إلى مثل هذا التفسير إذ نفس محمد كانت متأثرة بما تأثرت به نفوس الأنبياء من بنى إسرائيل وكان يعبد الله الذى عبدوه فلا عجب إن تشابهت ألفاظ التضرعات وتجانست

أنواع الهجاء . إذن لا يمكن أن ننكر على محمد صلى الله عليه وسلم فى الدور الأول من حياته كال إيمانه وإخلاص صدقه ؛ فأما الايمان فلم يتزعزع مثقال ذرة من قلبه فى الدور الثانى وما أوتيه من النصر كان من شأنه أن يقويه على الايمان لولا أن الاعتقاد كله قد بلغ منه مبلغا لا محل للزيادة فيه ولم يكن فيه عيب ، بل إن مانسبوه إليه من هذا القبيل لا يؤثر بشىء على سيرته الطاهرة فما كان يميل إلى الزخارف ولم يكن شحيحا بل كان كما قال أبو الفداء يستدر اللبن من نعاجه بنفسه ويجلس على التراب ويرتق ثيابه ونعاله بيده ويلبسها مرقعة مرتقة وكان قنوعا خرج من هذا الباب كما رواه أبو هريرة ولم يشبع من خبز الشعير مرة فى حياته .

هذا هو النبى الذى قال عنه المتشددون من النصارى [إنه كان منهما بأى المغيات فى الحانات] تجرد من الطمع وتمكن من نوال المقام الأعلى فى بلاد العرب ولكنه لم يجنح إلى الاستبداد فيها فلم يكن له حاشية ولم يتخذ وزيرا ولا حشما وقد حاز الرفعة والمعالى وبلغ من السلطان منتهاه .

ومهما اجتهدنا فى إدراك كل معنى من معانيه فانا به جاهلون ، فلقد وعد ملوك بنى إسرائيل أن يرسل للسيح من أصلابهم ورأينا أن عيسى ولد على غير ماعهدوا . على أن محمدا ﷺ كان يقول عن نفسه إنه يخشى العذاب ويسأل الله الغفران ، وكم من مرة شوهدت على وجهه علائم الهلع وما به من هول رسالته عندما كان يتلو على الناس آيات الفزع الأكبر .

هذا ما كان من صدقه وأمانته فى السنين الأولى من بعثته حتى سماه معاصروه بالأمين . وأما حاله فى بقية مدته بعد أن صار رئيساً سياسياً فالاستدلال عليه أدق وأدعى إلى طول البحث والتنقيب . قال رينارد دوزى [يكاد أن يكون من المستحيل الجزم بأن محمدا كان فى آخر حياته يعتقد بصدق رسالته . أما فى الدور الأول فاعتقاده وصدقه لا شك فيهما والأدلة كثيرة من الجانبين ووضع المسألة على هذه الكيفية هو الذى فرق بين الباحثين وانتصر كل حزب من المتطفلين لرأى وحجة تبع أمياله وما يشتهى ، إلا أن الناقد المنصف لا يصح له أن يرجح قولا على آخر بدون ملاحظة القرائن التى تتبع الاثنين ، ولكن الناس كما وصفهم المسيو (مونود) محتاجون إلى الإيقان والاعتقاد وهم فى احتياجهم هذا يميلون إلى من يلقى عليهم المسائل كلها كأنها حقيقة ثابتة ويمقتون من ينهاهم عن الاعتقاد بشىء أو نفيه مطلقا بغير تثبت ولا دليل ولست ممن يدعى الترفع عن هذا التقريع غير أنى أقول إنه بفرض صحة المذهبين وأن صدق النبى فى آخر حياته وعدمه سيان فى الوضوح والدليل فلا يزال عندنا سبيل آخر للوصول إلى الحقيقة أو القرب منها ألا وهو علم النفس وحركاتها ، وهذا العلم وإن لم يبلغ بعد الدرجة التى تزيل كل شبهة علقت بالأفكار لكنه مع ذلك يوصلنا إلى الإيقان بأن من الأنبياء من لا يتيسر الباحثين أن يجزموا بشىء فى أمرهم كأن يؤكدوا أنهم صادقون أو أنهم جروا فى أعمالهم على ما يخالف الواقع وهم يعلمون كما يفعل السياسيون ، ومامن كاتب ولا باحث يستطيع أن يجزم بأن الأمبراطور (كونستنتان) الذى رفعه القسس مكانا عليا فى المعابد واختصوه بالمواهب الإلهية كان صادقا بعد انتصاره فى قنطرة (ميلنيوس) ولكن محمدا قاوم الوثنية بحزم واحد طول الحياة ولم يتردد لحظة واحدة بينها وبين عبادة الواحد الأحد كما ضل الملك الرومانى وإيمانه كان حقا ثابتا على الدوام ، لذلك لم تتغير حميته ولم تفتر عزيمته فقد انتهى كما بدأ ، ولو أنه جال بفكره ساعة من زمانه شك فى صدق رسالته لكفى بنصره الدائم مزيلا لهذه الغمة ومؤيدا له فى صحة نبوته وصدق رسالته] .

وفى الصدق درجات فليتبينها الباحثون وليفقهوها قبل أن يحكموا بالبدع وهم مخطئون ، ولقد عانى محمد ﷺ كثيرا مع بنى قومه إذ كانوا منكرين ولم يأخذهم على غرة منهم بعد أن صاروا مؤمنين ، نحن لا نصدق بما يقولون بل نرى أن قومه كانوا فى استعمال أمانته من المتطرفين ، ولئن أعجم لهم القول حينا فى مخاطبتهم

فذلك

فذلك لأنه يعز وجود من يحب الحق ولا تلجئه الحوادث إلى الإبهام طلبا لتقريره فى ذهن قوم جامدين . إن الذين ينكرون صدق محمد فى آخر حياته لايستطيعون أن ينكروا عليه أنه بقى إلى آخر لحظة منها نبيا رسولا شديد التمسك بمذهبه وأنه فارق الدنيا موقنا بأداء رسالته ، فلقد اتفق مؤرخو العرب طرا على الحوادث التى تخللت أيامه الأخيرة وأورثونا عنهم ما كان من حركاته وسكناته بقول واحد ومعنى لا يتغير مما يبرهن على صدق حديثهم وأمانتهم فى نقلهم ، ولولا زيغ المتشددين من النصارى وكثرة تخيلهم لما قالوا [إن محمدا قد مات تنهشه الخنازير إذ وجدوه نشوان وليس عنده معين ولا نصير] تلك جريمة لا تغتفر ، ومما يستغرب له المطالع أن يجد حكاية هذا الموت الفاضح فى تاريخ الحرب الصليبية الأولى لمؤلفه (جيبيردى نوجان) وهو معدود من المؤرخين الذين لايميلون إلى التحريف غير أنه أتى بهذه الأكذوبة وزاد عليها أن المسلمين كرهوا لحم الخنزير من ذلك التاريخ فلنسدل ثوب النسيان على هذه الأقاصيص المحزنة ولنقرأ كيفية وفاة النبى فى كتب المؤرخين الصادقين.

لما قربت المنية خارت قواه وخرج إلى الحج بمكة فى شهر مارس سنة (٦٣٢) ميلادية وهى حجة الوداع وخطب فى الناس على منبر المسجد المقدس فقال رب إنى أديت رسالتى وبلغت أمانتى اليوم قال الله تعالى : «اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » ثم رجع إلى المدينة وأقام ببيت عائشة زوجته المصطفاة برضا من زوجاته ، ولما أحس بقرب الأجل ذكر الفقراء فانه لم يرغب طول حياته فى المال بل كان كلما جمع إليه شيئا منه أنفقه فى الصدقات ، وكان قد أعطى عائشة مقدارا يسيرا لتحفظه فلما حضره المرض أمر بانفاقه على المعوزين لساعته وغاب فى سنة ولما أفاق سألها عما إذا كانت أنفذت أمره أم لا فأجابته .كلا. فأمر بالنقود وأشار إلى العائلات المعوزات فوزع عليهم وقال الآن استراح قلبى فانى كنت أخشى أن ألاقى ربى وأنا أملك هذا المال ، وكان فى مرضه يخرج كل يوم ليصلى الظهر بالناس وآخر يوم خرج فيه هو الثامن من شهر يونيه سنة ٦٣٢ وكانت مشيته مضطربة متوكئا على الفضل بن العباس وعلىّ بن أبى طالب وقصد منبر الخطابة الذى كان يعظ الناس عليه قبل الصلاة وحمد الله وأثنى عليه ثم خطب فى المسلمين بصوت رفيع سمعه من كان خارج المسجد فقال : « أيها الذين تسمعون قولى إن كنت ضربت أحدكم على ظهره فدونه ظهرى فليضربه ، وإن كنت أسأت سمعة أحد فلينتقم من سمعتى ، وإن كنت سلبت أحدا ماله فاليه مالى فليقتص منه وهو فى حلّ من غضبى فان الغلّ بعيد عن قلبى » ثم نزل من المنبر وصلى بالجماعة ، ولما أراد الانصراف أمسك به رجل من إزاره وطلب منه ثلاثة دراهم دينا له فأداها على الفور قائلا « لخزى الدنيا أهون من خزى الآخرة » ثم دعا لمن حارب معه فى (أحد) وسأل الله لهم الرحمة والغفران ، وكان مشهد النبىّ بين المؤمنين فى ذلك اليوم مشهد جلال ووقار والناس يلمحون على وجهه تأثير السم الذى شربه من يد يهودية خيبر وقلوبهم منفطرة من الوجد عليه ، ذلك أنه لما كان فى واقعة خيبر قدمت إليه يهودية اسمها (زينب) شاة مشوية أضافت إليها سما فأخذ منه النبى ﷺ قطعة واحدة بين شفتيه وأحس بأنها مسمومة فألقاها ، ثم لما حضرته الوفاة بعد حين كان يقول « ما زالت تعاودنى أكلة خيبر » وكان أبو بكر ينتحب ويقول للرسول « هلا افتدينا روحك بأرواحنا » ثم أوصله الصحابة إلى بيت عائشة واضطجع تعبا مهزولا وصار المرض يشتد عليه فتخلف عن الصلاة بالمسلمين وقيل له قد جاء وقت الظهر فأشار إلى أبى بكر ليصلى بالناس فكان من وراء هذه الاشارة خلافة أبى بكر بعد النبى ﷺ وأخبرت عائشة رضى الله عنها عن حالة الاحتضار فقالت كانت رأس رسول الله ﷺ مستندة إلى صدرى وبقربه قدر ماء وكان يغمس فيها يده ويمسح جبينه ويقول « رب أعنى على تحمل سكرات الموت ادن منى يا جبريل ، رب اغفر لى واجمع بينى وبين أصدقائى فى السماء » ثم ثقلت رأسه ومال ثانية إلى صدرى

أما عقاره فبيت بناه بيده وجمع نياق آلت إلى بيت المال لأنه عليه الصلاة والسلام قال « نحن معاشر الأنبياء لا نورث » وإلى هنا نقصر القول عن ذات النبي لما أردنا أن نطيل فيها إلا لنعرف حقيقة تلك النفس المتشبعة بالدين إذ الدين يدعو إلى الدين ، وكان من الواجب دقة البحث عن اعتقاده ﷺ قبل أن نتتبع دينه كيف انتشر ولا يزال ينتشر في الوجود .

﴿ الاسلام فى زمن الفتح ومدة حكم العرب ﴾

قال القديس (بولس) يطلب اليهود معجزات ليصدقوا واليونان أدلة ليؤمنوا ، وأما العرب فانهم آمنوا بغير معجزات ولا أدلة إذ النبي كان يقول لجلسائه على الدوام إنه آدمي مثلهم وإنه مرسل إليهم وإنه مجرد عن كل سلطان في المعجزات « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد ـ قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا إلا ماشاءالله ولوكنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ومامسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون »

وأما البراهين فنحن نعلم مقدار بعد عقله عن التخيلات الذهنية كالأمة التى بحث فيها إلا أننا رأينا الاسلام فى واقعة بدر سنة ٦٢٤ ميلادية وليس له من الأنصار إلا ثلثمائة وأربعة عشر نفرا لم يمض عليه قرن واحد حتى اجتاز جبال (الألب) وتوسط البلاد الفرنساوية ، وقد أسلمت الشام والعجم ومصر وبلاد الغرب من مراكش إلى الجزائر إلى تونس إلى طرابلس : نعم قد سبق هذا الانتشار العظيم عناء شديد واضطراب فى العمل كثير واضطهاد الناس كبير شأن كل ديانة عامة فى مبدإ ظهورها ولكن الإسلام لم يلبث أن تغلب على أكبر العثرات ، فمهد الصعاب حتى صار لايعرف حاجزا ولا ممانعا .

وما أشبه الدين فى انتشاره بامتداد السائلات الطبيعية فهو نتيجة [مؤثرين] مؤثر داخلى يسمى المقاوم ومؤثر خارجى وهو المحرك والأول خفى لايظهر أثره وإن كان هوالذى يلتقط جميع الحرارة الواصلة إلى الجسم، فعمله الوحيد التغلب على مقاومة العناصر فاذا انحلت جاء للمؤثر الخارجى فنشأ عنه مع اختلاف يسير تمدد الجسم العظيم الذى يسمى تبخرا .وقد احتاج الاسلام فى الانتشار إلى التغلب على قوة العوائد والتقاليد التى وجدها وهو مانع يصادف كل دين جديد إلا أنه كان قويا للغاية عند العرب لتمسكهم بعاداتهم وإعجابهم برسوم قبائلهم العريقة القديمة وكان من الصعب جدا أن يعتنقوا دينا يرى آباءهم غير مطهرين ، ومن الموانع التى قوت العرب فى استعصائهم على الاسلام مااشتمل عليه من مبدإ قهر النفوس وتذليلها للواحد المعبود ، فالقول بالمساواة بين الناس طرا أمامه كان ثقيلا على آذان العرب مخالفا لتقاليدهم الأولية حتى يدينوا إليه بغير عناء ولذلك فان الاسلام سنة ٦٣٢ ميلادية أيام وفاة النبي لم يكد يبلغ حدود جزيرة العرب إلا أنه كان بين المسلمين الأولين رجال من العقلاء اعترف بفضلهم الأب (بروغل) حيث قال [إن الذين آمنوا بمحمد كانوا قوما صادقين ذوى دراية وذكاء منهم أبو بكر وعمر رجلان توليا زمام مملكة فسيحة الأرجاء فأحسنا سياستها وكانا ذوى ثبات وفضل وقناعة وفضل وشدة عزيمة وكانا أرفع قدرا وأبعد مرمى من القياصرة والحكام الذين حاربوهما] .

ومن الغريب أن الدين الاسلامى لم يلق فى طريقه من المقاومات إلا ماقابله بها العرب الوثنيون فانهم كما قدمنا كانوا مدفوعين إلى المقاومة بسبب تمسكهم بعوائدهم وشعائرهم القديمة وحبهم لحريتهم واستقلالهم فكان جميع تلك القبائل للثورة ، وهم رحل فى الوديان غيورون على إطلاقهم فى الفلوات . لايعرفون من الحكم إلا سوق الماشية إلى المرعى ومحاربة بعضهم فى كل آن يتكون أمة واحدة منهم أكبر عقبة قامت فى وجه النبي صلى الله عليه وسلم، ولولا قوة الدين الجديد لما بقيت تلك الوحدة زمنا طويلا إلا أنها لم تدم إلا وقتا وعادت بعد ذلك إلى التفرق والانقسام، غير أن القبائل بعد تفرق وحدتها لاتزال متمسكة بدينها الجديد وصار الاسم العربى ذا المقام الأول بين الأسماء فى جميع أطراف المسكونة وصار كل ينتسب إلى عائلة من عائلات الجزيرة

خصوصا عائلة قريش ذات المجد الباذخ والشرف الرفيع ، وهذا هو السبب فى إطلاق اسم العرب فى التاريخ على أمور كثيرة فقالوا عائلة كذا عربية وأمة كذا عربية وتمدن كذا عربى مع أنه لاجامعة بينها وبين بلاد العرب سوى الاسلام . انتهى الكلام على الفصل الثانى .

﴿ الفصل الثالث : فيما ذكره العلامة توماس كارليل ﴾

لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصل إلى مايظن من أن دين الاسلام كذب وأن محمدا خداع مزور وآن لنا أن نحارب مايشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول مازالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون من الناس أمثالنا خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائتة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبدا وإذا كان الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم مثل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة كان الأولى بها أن لاتخلق .

فواأسفاه ماأسوأ مثل هذا الزعم وماأضعف أهله وأحقهم بالرثاء والرحمة (وبعد) فعلى من أراد أن يبلغ منزلة ما فى علوم الكائنات أن لايصدق شيئا البتة من أقوال أولئك السفهاء فانها نتائج جيل كفر وعصر جحود وإلحاد، وهى دليل على خبث القلوب وفساد الضمائر وموت الأرواح فى حياة الأبدان . ولعل العالم لم ير قط رأيا أكفر من هذا وألأم ، وهل رأيتم قط معشر الاخوان أن رجلا كاذبا يستطيع أن يوجد دينا وينشره؟ عجبا والله إن الرجل الكاذب لايقدر أن يبنى بيتا من الطوب ، فهو إذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب وما شاكل ذلك فما ذلك الذى يبنيه بيت وإنما هو تل من الأنقاض وكثيب من أخلاط المواد ، ثم وليس جديرا أن يبقى على دعائمه اثنى عشر قرنا يسكنه مائة مليون من الأنفس ولكنه جدير أن تنهار أركانه فينهدم فكأنه لم يكن ، وإنى لأعلم أنه على المرء أن يسير فى جميع أمره طبق قوانين الطبيعة وإلا أبت أن تجيب طلبته وتعطيه بغيته ، كذب والله ما يذيعه أولئك الكفار وإن زخرفوه حتى خيلوه حقا، وزور وباطل وإن زينوه حتى أوهموه صدقا ومحنة والله ومصاب أن ينخدع الناس شعوبا وأمما بهذه الأضاليل وتسود الكذبة وتعود بهاتيك الأباطيل وإنما هو كما ذكرت لكم من قبيل الأوراق المالية المزورة يحتال لها الكذاب حتى يخرجها من كفه الأثيمة ويحيق مصابها بالغير لابه ، وأى مصاب وأيكم ؟ مصاب كمصاب الثورة الفرنسوية وأشباهها من الفتن والمحن تصيح على أفواهها (هذه الأوراق كاذبة) .

أما الرجل الكبير خاصة فانى أقول عنه بأنه من المحال أن يكون كاذبا فانى أرى الصدق أساسه وأساس كل مابه من فضل ومحمدة ، وعندى أنه مامن رجل كبير (ميرابو) أو (نابليون) أو (بارنز) أو (كرمويل) كفء للقيام بعمل ما إلا وكان الصدق والاخلاص وحب الخير أول باعثاته على محاولة مايحاول أعنى أنه رجل صادق النية جاد مخلص قبل كل شىء بل أقول إن الاخلاص (الاخلاص الحر العميق الكبير) هو أول خواص الرجل العظيم كيفما كان ، لاأريد إخلاص ذلك الرجل الذى لايبرح يفتخر للناس باخلاصه . كلا . فان هذا حقير جدا وايم الله ، هذا إخلاص سطحى وقح وهو فى الغالب غرور وفتنة ، إنما إخلاص الرجل الكبير هو مما لايستطيع أن يتحدث به صاحبه . كلا ولا يشعر به بل لأحسب أنه ربما شعر من نفسه بعدم الاخلاص إذ أين ذاك الذى يستطيع أن يلزم منهج الحق يوما واحدا ؟ ثم إن الرجل الكبير لايفخر باخلاصه قط بل هو لايسأل نفسه أهى مخلصة ؟ أو بعبارة أخرى أقول إن إخلاصه غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد، هو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، حقيقة لايستطيع أن يهرب من

جلالها الباهر مهما حاول ، هكذا خلق الله ذهنه ، وخلقة ذهنه على هذه الصورة هو أول أسباب عظمته ، هو يرى الكون مدهشا وخيفا وحقا كالموت وحقا كالحياة وهذه الحقيقة لا تفارقه أبدا وإن فارقت معظم الناس فساروا على غير هدى وخبطوا فى غياهب الضلال والعماية بل تظل هذه الحقيقة كل لحظة بين جنبيه ونصب عينيه كأنها مكتوبة بحروف من اللهب لاشك فيها ولا ريب هاهى هاهى .

فاعرفوا هداكم الله أن هذه هى أول صفات العظيم وهذا حده الجوهرى وتعريفه وقد توجد هذه فى الرجل الصغير فهى جديرة أن توجد فى نفس كل إنسان خلقه الله ولكنها من لوازم الرجل العظيم ولا يكون الرجل عظيما إلا بها .

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا أصليا صافى الجوهر كريم العنصر فهو رسول مبعوث من الأبدية المجهولة برسالة إلينا ، ثم قال بعد ذلك بكلام هذا نصه بالحرف الواحد كالذى قبله : نحن نعلم أن قوله ليس بمأخوذ من رجل غيره ولكنه صادر من لباب حقائق الأشياء ، ثم هو يرى باطن كل شىء لا يحجب عنه ذلك باطل الاصطلاحات وكاذب الاعتبارات والعادات والمعتقدات وسخيف الأوهام والآراء ، وكيف وأن الحقيقة لتسطع لعينه حتى يكاد يعشى لنورها ثم إذا نظرت إلى كلمات العظيم شاعرا كان أو فيلسوفا أو نبيا أو فارسا أو ملكا ألا تراها ضربا من الوحى ، والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا وأحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء ، وقد دل الله على وجوده بعدة آيات أرى أن أحدثها وأجدها هو الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة فوجب علينا أن نصغى إليه قبل كل شىء . وعلى ذلك فلسنا نعد محمدا هذا قط رجلا كاذبا متصنعا يتذرع بالحيل والوسائل إلى بغية أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر وما الرسالة التى أداها إلا حق صراح ، وما كلمته إلا صوتا صادقا صادرا من العالم المجهول . كلا . ما محمد بالكاذب ، ولا الملفق وإنما هو قطعة من الحياة قد تفطر عنها قلب الطبيعة فإذا هى شهاب قد أضاء العالم أجمع ، ذلك أمر الله « وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » وهذه حقيقة تدمغ كل باطل وتدحض حجة القوم الكافرين .

كانت عرب الجاهلية أمة كريمة تسكن بلادا كريمة وكأنما خلق الله البلاد وأهلها على تمام وفاق فكان ثمت شبه قريب بين وعورة جبالها ووعورة أخلاقهم وبين جفاء مناظرها وجفاء طباعهم وكان يلطف من قسوة قلوبهم مزاج من اللين والسماحة كما كان يبسط من عبوس وجوه البلاد رياض خضراء وقيعان ذات أمواه وأكلاء ، وكان الأعرابى صامتا لا يتكلم إلا فيما يعنيه إذ كان يسكن أرضا قفرا يبابا خرساء تخالها بحرا من الرمل يصطلى جمرة النهار طوله ويكافح عن وجهه نفحات القر ليله :

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشى فيخصر

ولا أعجب أنها شأنهم الانفراد وسط البيد والقفار يحادثون ظواهر الطبيعة ويناجون أسرارها إلا أنهم يكونون أذكياء القلوب حداد الخواطر خفاف الحركة ثاقبى النظر ، وإذا صح أن الفرس هم فرنسويو الشرق فالعرب لا شك طليانه ، والحق أقول لقد كان أولئك العرب قوما أقوياء النفوس كأن أخلاقهم سيول دفاقة لما من شدة حزمهم وقوة إرادتهم أحسن سور وأمنع حاجز ، وهذه وأبيكم أم الفضائل وذروة الشرف الباذخ ، وقد كان أحدهم يضيفه ألد أعدائه فيكرم مثواه وينحر له فإذا أزمع الرحيل خلع عليه وحمله وشيعه ثم هو بعد كل ذلك لا يحجم أن يقاتله متى عادت به إليه الفرص ، وكان العربى أغلب وقته صامتا فإذا قال أفصح ؛ ويزعم أن العرب من عنصر اليهود والحقيقة أنهم شاركوا اليهود فى مرارة الجد وخالفوهم فى حلاوة الشمائل ورقة الظرف وفى ألمعية القريحة وأريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد عليه الصلاة والسلام مفاخرات

في الشعر

فى الشعر يجرونها بسوق عكاظ فى جنوب البلاد حيث كانت تقام أسواق التجارة فإذا انتهت الأسواق تناشد الشعراء القصائد ابتغاء جائزة تجعل للأجود قريضا والأحكم قافية فكان الأعراب الجفاة ذوو الطباع الوحشية الوعرة يرتاحون لنغمات القصيد ويجدون لرناتها أى لذة فيتهافتون على النشد كالفراش ويتهالكون .

وأرى لهؤلاء العرب صفة من صفات الاسرائيليين واضحة فيهم وأحسبها ثمرة الفضائل جميعها والمحامد بحذافيرها ألا وهى التدين فإنهم مذ كانوا مابرحوا شديدى التمسك بدينهم كيفما كان وكانوا يعبدون الكواكب وكثيرا من الكائنات الطبيعية يرونها مظاهر الخالق ودلائل على عظمته . فهذا وإن يك خطأ فليس من جميع وجوهه فإن مصنوعات الله ما برحت بوجه ما رموزا له ودلائل عليه . ألسنا كما قدمت نعتبرها مفخرة الشاعر وفضيلة أن يكون يدرك ما بالكائنات من أسرار الجمال والجلال أو أسرار الجمال الشعرى كما اصطلح الناس على تسميته . وقد كان لهؤلاء العرب عدة أنبياء كلهم أستاذ قبيلته ومرشدها حسبما يقتضيه مبلغ علمه ورأيه ، ثم أليس لدينا من البراهين الساطعة ما يثبت لنا أى حكمة بليغة ورأى مسدد . وأى تقوى وإخلاص قد كان لهؤلاء البدو المفكرين . وقد اتفق النقاد أن (سفر أيوب) أحد أجزاء التوراة كتابنا المقدس قد كتب فى بلاد العرب .

ورأيى فى هذا الكتاب فضلا عن كل ما كتب عنه أنه من أشرف ما سطر يراع ودونت يد كاتب . ولا يكاد المرء يصدق أنه من آثار العبرانيين لما فيه من عمومية الأفكار مع شرفها وسموها عمومية تخالف التعصب والتحيز .

وكان بين هؤلاء العرب التى تلك حالهم أن ولد النبى محمد عليه الصلاة والسلام عام (٥٨٠) ميلادية وكان من أسرة هاشم من قبيلة قريش وقد مات أبوه عقب مولده . ولما بلغ عمره ستة أعوام توفيت أمه وكان لها شهرة بالجمال والفضل والعقل فقام عليه جده شيخ كان قد ناهز المائة من عمره وكان صالحا بارا ، وكان ابنه عبد الله أحب أولاده إليه فأبصرت عينه الهرمة فى محمد صورة عبد الله فأحب اليتيم الصغير بملء قلبه ، وكان يقول ينبغى أن يحسن القيام على ذلك الصبى الجميل الذى قد فاق سائر الأسرة والقبيلة حسنا وفضلا ، ولما حضرت الشيخ الوفاة والغلام لم يتجاوز العامين عهد به إلى أبى طالب أكبر أعمامه رأس الأسرة بعده فرباه عمه — وكان رجلا عاقلا كما يشهد بذلك كل دليل — على أحسن نظام عربى .

ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه فى أسفار تجارية وما أشبه ، وفى الثامنة عشرة من عمره نراه فارسا مقاتلا يتبع عمه فى الحروب ، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذى حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين — رحلة إلى مشارف الشام إذ وجد الفتى نفسه هنالك فى عالم جديد إزاء مسألة أجنبيه عظيمة الأهمية جدا فى نظره — أعنى الديانة المسيحية ، وإنى لست أدرى ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذى يزعم أن أبا طالب ومحمدا سكنا معه فى دار ، ولا ماذا عساه يتعلمه غلام فى هذه السن الصغيرة من أى راهب ما ، فإن محمدا لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشرة ولم يكن يعرف إلا لغته ، ولا شك أن كثيرا من أحوال الشام ومشاهدها لم يك فى نظره إلا خليطا مشوشا من أشياء ينكرها ولا يفهمها ولكن الغلام كان له عينان ثاقبتان ولابد من أن يكون قد انطبع على لوح فؤاده أمور وشئون فأقامت فى ثنايا ضميره ولو غير مفهومة ريثما ينضجها له كر الغداة ومر العشى وتحلها له يد الزمن يوما ما فتخرج منها آراء وعقائد ونظرات نافذات فلعل هذه الرحل الشامية كانت لمحمد أوائل خير كثير وفوائد جمة .

ثم لا ننسى شيئا آخر وهو أنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك فى بلاد العرب ، ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمدا لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ماتعلم هو عيشة الصحراء

وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهد بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية. وعجيب وايم الله أمية محمد . نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علومه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه فى ظلمات صحراء العرب ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيا عن كل ذلك ، ولم يقتبس محمد من نور أى إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره ولم يك فى جميع أشباهه من الأنبياء والعظماء [أولئك الذين أشبههم بالمصابيح الهادية فى ظلمات العصور] من كان بين محمد وبينه أدنى صلة وإنما نشأ وعاش وحده فى أحشاء الصحراء ونما هنالك وحده بين الطبيعة وبين أفكاره .

ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شابا مفكرا وقد سماه رفقاؤه (الأمين) رجل الصدق والوفاء . الصدق فى أفعاله وأقواله وأفكاره . وقد لاحظوا أنه مامن كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة . وإنى لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت . يسكت حيث لاموجب للكلام ، فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمة ، لا يتناول غرضا فيتركه إلا وقد أنار شبهه وكشف ظلمته وأبان حجته واستثار دفينته وهكذا يكون الكلام وإلا فلا . وقد رأيناه طول حياته رجلا راسخ المبدإ صارم العزم بعيد الهم كريما برا رءوفا تقيا فاضلا حرا رجلا شديد الجد مخلصا وهو مع ذلك سهل الجانب لين العريكة جم البشر والطلاقة حميد العشرة حلو الايناس بل ربما مازح وداعب . وكان على العموم تضىء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق لأن من الناس من تكون ابتسامته كاذبة ككذب أعماله وأحواله . هؤلاء لايستطيعون أن يبتسموا . وكان محمد جميل الوجه وضىء الطلعة حسن القامة زاهى اللون له عينان سوداوان تتلألآن . وإنى لأحب فى جبينه ذلك العرق الذى كان ينتفخ ويسود فى حال غضبه [كالعرق المقوس الوارد فى قصة القفازة الحمراء لوالتر سكوت] وكان هذا العرق خصيصة فى بنى هاشم ولكنه كان أبين فى محمد وأظهر . نعم لقد كان هذا النبى حاد الطبع نارى المزاج ولكنه كان عادلا صادق النية ، كان ذكى اللب شهم الفؤاد :

لوذعيا كأنما بين جنبيــــه مصابيح كل ليل بهيم

ممتلئا نارا ونورا ، رجلا عظيما بفطرته لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم وهو غنى عن ذلك كالشوكة استغنت عن التنقيح فأدى عمله فى الحياة وحده فى أعماق الصحراء .

إلى أن قال [ويزعم المتعصبون من النصارى والملحدون أن محمدا لم يكن يريد بقيامه إلا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان . كلا . وايم الله لقد كان فى فؤاد ذلك الرجل الكبير . ابن القفار والفلوات المتوقد المقلتين العظيم النفس المملوء رحمة وخيرا وحنانا وبرا وحكمة وحجى وإربة ونهى] أفكار غير الطمع الدنيوى ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه ، وكيف وتلك نفس صامتة كبيرة ورجل من الذين لايمكنهم إلا أن يكونوا مخلصين جادين ، فبينما ترى آخرين يرضون بالاصطلاحات الكاذبة ويسيرون طبق الاعتبارات الباطلة إذ ترى محمدا لم يرض أن يلتفع بمألوف الأكاذيب ويتوشح بمتبع الأباطيل لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الأمور والكائنات ، لقد كان سر الوجود يسطع لعينيه كما قلت بأهواله ومخاوفه وروائقه ومباهره لم يك هنالك من الأباطيل ما يحجب ذلك عنه فكأن لسان حال ذلك السر الهائل يناجيه « ها أنا ذا » فمثل هذا الاخلاص لا يخلو من معنى إلهى مقدس ، وما كلمة مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة ، فاذا تكلم فكل الآذان برغمها صاغية وكل القلوب واعية وكل كلام ماعدا ذلك هباء ، وكل قول جفاء ، وما زال منذ الأعوام الطوال منذ أيام رحيله وأسفاره يجول بخاطره آلاف من الأفكار ، ماذا أنا ؟ وما ذلك الشىء العديم النهاية الذى أعيش فيه والذى يسميه الناس كونا ؟ وما هى الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا أعتقد ؟ وماذا أفعل ؟

فهل

فهل أجابته عن ذلك صخور جبل حراء أو شماريخ طود الطور أو تلك القفار والفلوات ؟ كلا . ولا قبة الفلك الدوار واختلاف الليل والنهار ولا النجوم الزاهرة والأنواء الماطرة ؟ لم يجبه لا هذا ولاذاك وما الجواب عن ذلك إلا روح الرجل وإلا ما أودع الله فيه من سره ، وهذا ما ينبغى لكل إنسان أن يسأل عنه نفسه فقد أحس ذلك الرجل القفرى أن هذه هى كبرى المسائل وأهم الأمور وكل شىء عديم الأهمية فى جانبها ، وكان إذا بحث عن الجواب فى فرق اليونان الجدلية أو فى روايات اليهود المبهمة أو نظام وثنية العرب الفاسد لم يجده ، وقد قلت إن أهم خصائص البطل وأول صفاته وآخرها هى أن ينظر من خلال الظواهر إلى البواطن . فأما العادات والاستعمالات والاعتبارات والاصطلاحات فينبذها جيدة كانت أو رديئة ، وكان يقول فى نفسه [هذه الأوثان التى يعبدها القوم لابد من أن يكون وراءها ودونها شىء ، ماهى إلا رمز له وإشارة إليه وإلا فهى باطل وزور وقطع من الخشب لاتضر ولاتنفع] وما لهذا الرجل والأصنام؟ وأنى تؤثر فى مثله أوثان ولو رصعت بالنجوم لابالذهب ولو عبدها الجحاجح من عدنان والأقيال من حمير . أى خير له فى هذه ولو عبدها الناس كافة؟ إنه فى واد وهم فى واد . هم يعمهون فى ضلالهم وهو ماثل بين يدى الطبيعة قد سطعت لعينيه الحقيقة الماثلة ، فإما أن يجيبها وإلا فقد حبط سعيه وكان من الخاسرين . فلتجبها يا محمد . أجب لابد من أن توجد الجواب . أيزعم الكاذبون إنه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وأثاره . حمق وايم الله وسخافة وهوس . أى فائدة لمثل هذا الرجل فى جميع بلاد العرب وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وجميع ما بالأرض من تيجان وصوالجة وأين تصير الممالك والتيجان والدول جميعها بعد حين من الدهر ؟ أفى مشيخة مكة وقضيب مفضض الطرف أوفى ملك كسرى وتاج ذهبى الذؤابة منجاة للمرء ومظفرة . كلا . إذن فلنضرب صفحا عن مذهب الجائرين القائل إن محمدا كاذب ونعد مواقفهم عارا وسبة وسخافة وحمقا فلنربأ بنفوسنا عنه ولنترفع . وكان من شأن محمد أن يعتزل الناس شهر رمضان فينقطع إلى السكون والوحدة دأب العرب وعادتهم وشمت العادة ، ما أجل وأنفع ولا سيما لرجل كمحمد ، لقد كان يخلو إلى نفسه فيناجى ضميره صامتا بين الجبال الصامتة متفتحا صدره لأصوات السكون الغامضة الخفية . أجل حبذا تلك عادة ونعمت . فلما كان فى الأربعين من عمره وقد خلا إلى نفسه فى غار بجبل (حراء) قرب مكة شهر رمضان ليفكر فى تلك المسائل الكبرى إذا هو قد خرج إلى (خديجة) ذات يوم وكان قد استصحبها ذلك العام وأنزلها قريبا من مكان خلوته فقال لها إنه بفضل الله قد استجلى غامض السر واستنار كامن الأمر وإنه قد أنارت الشبهة وانجلى الشك وبرح الخفاء ، وإن جميع هذه الأصنام محال وليست إلا أخشابا حقيرة وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فهو الحق وكل ما سواه باطل ، خلقنا ورزقنا وما نحن وسائر الخلق والكائنات إلا ظل له وستار يحجب النور الأبدى والرونق السرمدى ، الله أكبر ولله الحمد ثم الاسلام وهو أن نسلم الأمر لله وندعن له ونسكن إليه ونتوكل عليه وأن القوة كل القوة هى فى الاستنامة لحكمه والخضوع لحكمته والرضا بقسمته ، أية كانت فى هذه الدنيا وفى الآخرة ومهما يصبنا به الله ولو كان الموت الزؤام فلنتلقه بوجه باسم ونفس مغتبطة راضية ونعلم أنه الخير وأن لاخير إلا هو ، ولقد قال شاعر الألمان وأعظم عظمائهم (جايتى) [إذا كان ذلك هو الاسلام فكلنا إذن مسلمون ، نعم كل من كان فاضلا شريف الخلق فهو مسلم] وقدما قيل [إن منتهى العقل والحكمة ليس فى مجرد الإذعان للضرورة ، فان الضرورة تخضع المرء برغم أنفه ولا فضل فيما يأتيه الانسان مكرها بل فى اليقين بأن الضرورة الملجئة المرّة هى خير ما يقع للانسان وأفضل ما يناله وأن لله فى ذلك حكمة تلطف عن الأفهام وتدقّ عن الأذهان ، وإنه من الأفن والسخف أن يجعل الانسان من دماغه الضئيل ميزانا لذلك العالم وأحواله بل عليه أن يعتقد أن للكون قانونا عادلا وإن غاب عن إدراكه وأن الخير هو أساس الكون والصلاح روح

الوجود والنفع لباب الحياة ، ثم عليه أن يعرف ذلك ويعتقده ويتبعه فى سكوت وتقوى] .

إلى أن قال [وجعل يذكر رسالته لهذا ولذاك فما كان يصادف إلا جمودا وسخرية حتى إنه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ولكنه المنتظر فى مثل هذه الحال وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأربعين من قرابته ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون وأنها المسألة الكبرى بل المسألة الوحيدة فأيهم يمد إليه يده ويأخذ بناصره، وبينما القوم صامتون حيرة ودهشة وثب علىّ وكان غلاما فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة فصاح فى أحدّ لهجة إنه ذلك النصير والظهير . ولا يحتمل أن القوم كانوا منابذين محمدا ومعادينه وكلهم قرابته وفيهم أبو طالب عم محمد وأبو على ولكن رؤية رجل كهل أمى يعينه غلام فى السادسة عشرة يقومان فى وجه العالم بأجمعه كانت مما يدعو إلى العجب المضحك فانفض القوم ضاحكين، ولكن الأمر لم يك بالمضحك بل كان نهاية فى الجد والخطر، أما علىّ فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبرا ويتلظى فؤاده نجدة وحماسة ، وكان أشجع من ليث ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ورأفة وحنان جدير بها فرسان الصليب فى القرون الوسطى وقد قتل بالكوفة غيلة وإنما جنى ذلك على نفسه بشدة عدله حتى حسب كل إنسان عادلا مثله وقال قبل موته حينما أومر فى قاتله [إن أعش فالأمر إلىّ وإن أمت فالأمر لكم فان آثرتم أن تقتصوا فضربة بضربة وأن تعفوا أقرب للتقوى] .

إلى أن قال [فلما كان العام الثالث عشر من رسالته وقد وجد أعداءه متألبين عليه جميعاً وكانوا أربعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه وألفى المقام بمكة مستحيلا هاجر إلى (يثرب) حيث التف به الأنصار والبلدة تسمى الآن (المدينة) أى مدينة النبى ﷺ وهى من مكة على (٢٠٠) ميل تقوم وسط صخور وقفار، ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ فى الشرق، والسنة الأولى من الهجرة توافق (٦٢٢) ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر محمد، فترون أنه كان قد أصبح إذ ذاك شيخا كبيرا وكان أصحابه يموتون واحدا بعد واحد ويخلون أمامه مسلكا وعرا وسبيلا قفرا وخطة نكراء موحشة، فاذا هو لم يجد من ذات نفسه مشجعا ومحركا ويفجر بعزمه ينبوع أمل بين جنبيه فهيهات أن يجد بارقات الأمل فيما يحدق به من عوابس الخطوب ويحيط به من كالحات المحن والملمات وهكذا شأن كل إنسان فى هذه الأحوال ، وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط ، فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الاصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبه حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربى ولسان حاله يقول «وأما وقد أبت قريش إلا الحرب فلينظروا أى فتيان هيجاء نحن» وحقا رأى فان أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق وشريعة الصدق وأبوا إلا تماديا فى ضلالهم يستبيحون الحريم ويهتكون الحرمات ويسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها ويأتون كل إثم ومنكر وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة فأبوا إلا عتوا وطغيانا، فليجعل الأمر إذن إلى الحسام المهند والوشيج القوم وإلى كل مسرودة حصداء وسابحة جرداء، وكذلك قضى محمد بقية عمره وهى عشر سنين أخرى فى حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين ولا مدرّ فواق وكانت النتيجة ماتعلمون] .

ولقد قيل كثيرا فى شأن نشر محمد دينه بالسيف، فاذا جعل الناس ذلك دليلا على كذبه فشد ما أخطئوا وجاروا، فهم يقولون (ماكان الدين لينتشر لولا السيف) ولكن ماهو الذى أوجد السيف ؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق والرأى الجديد أول ماينشأ يكون فى رأس رجل واحد ، فالذى يعتقده هو فرد، فرد ضد العالم أجمع ، فاذا تناول هذا الفرد سيفه وقام فى وجه الدنيا فقلما والله يضيع ، وأرى على العموم أن الحق ينشر

نفسه

نفسه بأية طريقة حسبما تقتضيه الحال ، أو لم تروا أن النصرانية كانت لاتأنف أن تستخدم السيف أحيانا وحسبكم مافعل (شارلمان) بقبائل السكسون ، وأنا لاأحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية آلة أخرى ، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار ، لندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فانها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم وليس فى طاقتها قط أن تفنى ماهو خير منها بل ماهو أحط وأدنى فإنها حرب لا حكم فيها إلا الطبيعة ذاتها ونعم الحكم ماأعدل وما أقسط وما كان أعمق جذرا فى الحق وأذهب أعراقا فى الطبيعة فذلك هو الذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة ناميا زاكيا وحده .

إلى أن قال : نحن سمينا الإسلام ضربا من النصرانية ، ولو نظرنا إلى ما كان من سرعته إلى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء فى العروق لأيقنا أنه كان خيرا من تلك النصرانية التى كانت إذ ذاك فى الشام واليونان وسائر تلك الأقطار والبلدان . تلك النصرانية التى كانت تصدع الرأس بضوضائها الكاذبة وتترك القلب ببطلانها قفرا ميتا ، على أنه قد كان فيها عنصر من الحق ولكنه ضئيل جدا وبفضله فقط آمن الناس بها وحقا إنها كانت ضربا كاذبا من النصرانية كالدعى بين الأصلاء ، ولكنها ضرب حى على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا قفرة ميتة ، ونظر محمد من وراء أصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ورواياتهم وبراهينهم ومزاعمهم وقضاياهم ، نظر ابن القفار والصحارى بقلبه البصير الصادق وعينه المتوقدة الجلية إلى لباب الأمر وصميمه فقال فى نفسه «الوثنية باطل وهذه الأصنام التى تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب أخشاب لاتضر ولا تنفع وهى منكر وفظيع وكفر لو تعلمون ، إنما الحق أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له خلقنا وبيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم وما أصابكم من شىء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون» .

وإن دينا آمن به أولئك العرب الوثنيون وأمسكوه بقلوبهم النارية لجدير أن يكون حقا وجدير أن يصدق به رأن ماأودع هذا الدين من القواعد هو الشىء الوحيد الذى للانسان أن يؤمن به وهذا الشىء هو روح جميع الأديان ، روح تلبس أثوابا مختلفة وأثوابا متعددة وهى فى الحقيقة شىء واحد ؛ وباتباع هذه الروح يصبح الإنسان إماما كبيرا لهذا المعبد الأكبر (الكون) جاريا على قواعد الخالق تابعا لقوانينه لامحاولا عبثا أن يقاومها ويدافعها ولم أعرف قط تعريفا للواجب أحسن من هذا ، والصواب كل الصواب فى السير على منهاج الدنيا فان الفلاح فى ذلك إذ كان منهاج الدنيا هو طريق الفلاح وجاء محمد وشيع النصارى تقيم أسواق الجدال وتتخابط بالحجج الجائرة وماذا أفاد ذلك وماذا أثمر . أما إنه الأهم ليس صحة ترتيب القضايا المنطقية وحسن إنتاجها وإنما هو أن خلق الله وأبناء آدم يعتقدون تلك الحقائق الكبرى . لقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له أن يبتلعها لأنه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة . وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدليات النصرانية وكل مالم يكن بحق فانها حطب ميت أكلته نار الاسلام فذهب والنار لم تذهب .

أما القرآن فان فرط إعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق فى الأمم المختلفة . هذا ، وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة ولذلك لاعجب إذا قلت إن الأوروبى يجد قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لايزال يقطع فى صفحاتها قفارا من القول الممل المتعب ويحمل على ذهنه هضابا وجبالا من الكلم لكى يعثر فى خلال ذلك على كلمة مفيدة . أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل مالم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم ، ومابرح فى كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل والقانون المتبع فى شئون الحياة ومسائلها والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا

منيرا يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فى غياهب الحياة، وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يوم مرة يتقاسمه ثلاثون قارئا على التوالى، وكذلك مابرح هذا الكتاب يرنّ صوته فى آذان الألوف من خلق الله وفى قلوبهم اثنى عشر قرنا فى كل آن ولحظة، ويقال إن من الفقهاء من قرأه سبعين ألف مرة . إذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان وإذا خرجت من القلب نفذت إلى القلب والقرآن خارج من فؤاد محمد فهو جدير أن يصل إلى أفئدة سامعيه وقارئيه . وقد زعم (براديه) وأمثاله أنه طائفة من الأخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون أعذاراله عما كان يرتكب ويقترف وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ولكنه قد آن لنا أن نرفض جميع هذه الأقوال فانى لأمقت كل من يرمى محمدا بمثل هذه الأكاذيب، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط فى القرآن مثل ذلك الرأى الباطل ، والقرآن لوتبصرون ماهو إلا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال فى الخلوات الصامتات وكانت الخواطر تتراكم عليه بأسرع من لمح البصر وتتزاحم فى صدره حتى لا تكاد تجد مخرجا وقل مانطق به فى جانب ماكان يجيش بنفسه العظيمة القوية .

هذا، وقد كان تدفع الوقائع وتدفق الخطوب يعجله عن روية القول وتنميق الكلم ، ويالها من خطوب كانت تطيح به وتطير، فقد كان فى هذه السنين الثلاث والعشرين قطبا لرحى حوادث متلاطمات متصادمات وعالم كله هرج ومرج وفتن ومحن . حروب مع قريش والكفار ومخاصمات بين أصحابه وهياج نفسه وثورانها كل ذلك جعله فى نصب دائم وعناء مستمر، فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط، وقد أتخيل روح محمد الحادة النارية وهى تتململ طول الليل الساهر يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دوامات الفكر حتى إذا أسفرت لها بارقة رأى حسبته نورا هبط عليها من السماء وكل عزم مقدس يهم به خاله جبريل ووحيه (كذا) يزعم الأفاكون الجهلة أنه مشعوذ ومحتال . كلا . ثم كلا ما كان قط ذلك القلب المحتدم الجائش كأنه تنور فكر يفور ويتأجج ليكون قلب محتال ومشعوذ لقد كانت حياته فى نظره حقا وهذا الكون حقيقة رائعة كبيرة والاخلاص المحض الصراح يظهر لى أنه فضيلة القرآن التى حببته إلى العربى المتوحش وهى أول فضائل الكتاب أيا كان وآخرها وهى منشأ فضائل غيرها بل لاشىء غيرها يمكنه أن يبث بالكتاب فضائل أخرى . ومن العجب أن ترى فى القرآن عرقا من الشعر[1] يجرى فيه من بدايته إلى نهايته ثم يتخلله نظرات نافذات . نظرات نبى وحكيم، أجل! لقد كان لمحمد فى شئون الحياة عين بصيرة ثم له قدرة عظيمة على أن يوقع فى أذهاننا كل ما أبصره ذهنه أنا لا أحفل كثيرا بما جاء فى القرآن من الصلوات والتحميد والتمجيد لأنى أرى لها فى الانجيل شبها ولكنى شديد الاعجاب بالنظر الذى ينفذ إلى أسرار الأمور فهذا أعظم مايلذنى ويعجبنى وهو ماأجده فى القرآن وذلك كما قلت فضل الله يؤتيه من يشاء .

وكان محمد ﷺ إذا سئل أن يأتى بمعجزة قال « حسبكم بالكون معجزة ، انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته ، هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا، تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه وهذا السحاب المسير فى الآفاق لا يدرى من أين جاء، وهو مسخر فى السماء كل سحابة كمارد أسود ثم يسح عباله ويهطل ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا أليس ذلك آية « والأنعام خلقها لكم» تحول الكلأ لبنا وهى نخرلكم ، والسفن (وكثيرا مايذكر السفن) كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لما حاد من الريح ، وبينا تسير إذا هى قد وقفت بغتة وقد قبض الله الريح ، معجزات والله كل هذه ، وأى معجزات بعدها تريدون . ألستم أنتم معجزات ؟ لقد

(١) أى البلاغة .

كنتم

كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ثم لكم جمال وقوة وعقل ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين ثم وهبكم الرحمة .لقد أدهشتني جدا هذه الجملة فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا كان يكون أمرهم ؟ » هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة ، وكذلك أرى في محمد دلائل شاعرية كبيرة وآيات على أشرف المحامد وأكرم الخصال وأتبين فيه عقلا راجحا عظيما وعينا بصيرة وفؤادا صادقا ورجلا قويا عبقريا ، لو شاء لكان شاعرا فحلا أو فارسا بطلا أو ملكا جليلا أو أى صنف من أصناف البطل . نعم لقد كان العالم في نظره معجزة أى معجزة ، وكان يرى فيه كل ما كان يراه أعاظم المفكرين حتى أمم الشمال المتوحشة وهو أن هذا الكون الصلب للمادى إنما هو في الحقيقة لا شيء . إنما هو آية على وجود الله ، منظورة ملموسة . وهو ظل علقه الله على صدر الفضاء لا غير . وكان يقول «هذه الجبال الشامخات ستحل وتذوب مثل السحاب وتفنى» وكان يقول « الجبال أوتاد الأرض وإنها ستفنى كذلك يوم القيامة وإن الأرض في ذلك اليوم العظيم تتصدع وتتفتت وتذهب في الفضاء هباء منثورا فتنعدم وكان لايزال واضحا لعينيه سلطان الله على كل شيء وامتلاء كل مكان بقوة مجهولة ورونق باهر وهول عظيم هو القوة الصادقة والجوهر والحقيقة » وهذا ما يسميه علماء العصر (القوى والمادة) ولا يرونه شيئا مقدسا بل لا يرونه شيئا واحدا ، وإنما أشياء تباع بالدرهم وتوزن بالمثقال وتستعمل في تسيير السفن البخارية فسرعان ما تنسينا الكيماويات والحسابيات ما يكمن في الكائنات من سر الله وما أخشى ذلك النسيان عارا وأكبر هذه الغفلة إثما ؟ وإذا نسينا ذلك فأى الأمور يستحق الذكر . إذن فمعظم العلوم أشياء ميتة خاوية بالية بقلة ذابلة . نعم وما أحسب العلوم لولا ذلك إلا خشبا يابسا ميتا وليس هو بالشجرة النامية ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التي لا تبرح تمدك بالخشب أثر الخشب فيما تمدك وتعطيك . ولن يجد المرء السبيل إلى العلم حتى يجده أولا إلى العبادة ، أعنى أنه لا علم إلا لمن عبد وإلا فما العلم إلا شقشقة كاذبة وبقلة كما قلت ذابلة .

الى أن قال «وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد ما نجور ونخطىء إذا حسبناه رجلا شهويا لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ . كلا . فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أية كانت . لقد كان زاهدا متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله . وكان طعامه عادة الخبز والماء وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار. وإنهم ليذكرون ونعم ما يذكرون أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة ؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل ، دائبا في نشر دين الله غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت . رجل عظيم وربكم وإلا فما كان ملاقيا من أولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما وإكبارا وإعظاما وما كان ممكنه أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله ، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفية وكانوا حماة الأنوف ، أباة الضيم ، وعر القيادة ، صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا فذلكم وايم الله بطل كبير، ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا ، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه ، وظنى أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده ، فكذلك تكون العظمة وهكذا تكون الأبطال ، وكانت آخر كلماته تسبيحا وصلاة ، صوت فؤاد يهم بين الرجاء والخوف أن يصعد إلى ربه ولا تحسب أن شدة تدينه أزرت بفضله . كلا . بل زادته فضلا . وقد يروى عنه مكرمات عالية منها قوله حين رزىء غلامه « العين تدمع ، والقلب يوجع ، ولا نقول ما يسخط الرب » ولما استشهد مولاه زيد ابن حارثة

فى غزوة (مؤتة) قال محمد ولقد جاهد زيد فى الله حق جهاده وقد لقى الله اليوم فلا بأس عليه » ولكن ابنة زيد وجدته بعد ذلك يبكى على جثة أبيها . وجدت الرجل الكهل الذى دب فى رأسه الشيب يذوب قلبه دمعا فقالت ماذا أرى ؟ قال صديقا يبكى صديقه .

مثل هذه الأقوال وهذه الأفعال ترينا فى محمد أخا الانسانية الرحيم . أخانا جميعا الرءوف الشفيق وابن أمنا الأولى وأبينا الأول . وإنى لأحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأى لا يعول إلا على نفسه ولا يدعى ما ليس فيه ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ضرعا فهو قائم فى ثوبه المرقع كما أوجده الله وكما أراد . يخاطب بقوله الحر المبين قياصرة الروم وأكاسرة العجم يرشدهم إلى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الآخرة . وكان يعرف لنفسه قدرها . ولم تخل الحروب الشديدة التى وقعت له مع الأعراب من مشاهد قسوة ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة وكرم وغفران . وكان محمد لا يعتذر من الأولى ولا يفتخر بالثانية إذ كان يراها من وحى وجدانه وأوامر شعوره ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين . وكان رجلا ماضى العزم لا يؤخر عمل اليوم إلى غد . وطالما كان يذكر (يوم تبوك) إذ أبى رجاله السير إلى موطن القتال واحتجوا بأنه أوان الحصيد وبالحر فقال لهم الحصيد إنه لا يلبث إلا يوما فماذا تتزودون للآخرة والحر ؟ نعم إنه حر ولكن جهنم أشد حرا (وربما خرج بعض كلامه تهكما وسخرية) إذ يقول للكفار ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم ويوزن لكم الجزاء ثم لا تبخسون مثقال ذرة .

وما كان محمد بعابث قط ولا شاب شيئا من قوله شائبة لعب ولهو بل كان الأمر عنده أمر خسران وفلاح ومسألة فناء وبقاء ولم يك منه إزاءها إلا الإخلاص الشديد والجد المر . فأما التلاعب بالأقوال والقضايا المنطقية والعبث بالحقائق فما كان من شأنه قط . وذلك عندى أفظع الجرائم إذ ليس هو إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق وعيشة المرء فى مظاهر كاذبة . وليس كل ما يستنكر من مثل هذا الإنسان هو أن جميع أقواله وأعماله أكاذيب بل إنه هو نفسه أكذوبة . وأرى خصلة المروءة والشرف (شماع الله) متضائلا فى مثل ذلك الرجل مضطربا بين عوامل الحياة والموت فهو رجل كاذب لا أنكر أنه مصقول اللسان مهذب حواشى الكلام محترم فى بعض الأزمان والأمكنة . لا تؤذيك بادرته ، لين اللمس رفيق الملمس كحمض الكربون تراه على لطفه سما نقيعا وموتا ذريعا . وفى الاسلام خلة أراها من أشرف الخلال وأجلها وهى التسوية بين الناس ، وهذا يدل على أصدق النظر وأصوب الرأى . فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الأرض والناس فى الاسلام سواء والاسلام لا يكتفى بجعل الصدقة سنة محبوبة بل يجعلها فرضا حتما على كل مسلم وقاعدة من قواعد الاسلام ثم يقدرها بالنسبة إلى ثروة الرجل فتكون جزءا من أربعين من الثروة تعطى إلى الفقراء والمساكين والمنكوبين . جميل والله كل هذا وما هو إلا صوت الانسانية . صوت الرحمة والإخاء والمساواة يصيح من فؤاد ذلك الرجل (ابن القفار والصحراء) . وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره فأقول « إن العيب فى ذلك على الشراح والمفسرين لا على ما جاء فى الكتاب فان القرآن قد أقل جدا من إسناد الحسيات والماديات إلى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن إيماء وتلميح وإنما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ولا متعة شهوية حتى ألحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا وألما جثمانيا حتى أسندوه إلى النار ، ثم لا تنسوا أن القرآن جعل أكبر ملاذ الجنة روحانيا إذ قال « وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين » فالسلام والأمن هما فى نظر كل عاقل أقصى أمانى المرء وأعظم الملاذ قاطبة والشئ الذى عبثا يلتمسه الإنسان فى الحياة الدنيا . وقال أيضا « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » وأى رذيلة أخبث من الغل مصدر المحن والمصائب والنقم والآفات ، وأى شئ أهنأ من التآلف والتصافى ، وأى دليل أشهر ببراءة الإسلام من الميل إلى الملاذ

من

من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات وتزجر النفس عن غاياتها وتقدع عن مآربها . وهـذا هو منتهى العقل والحزم فإن مباشرة اللذات ليس بالمنكر، وإنما المنكر هوأن تذل النفس لجبار الشهوات وتنقاد لحادى الأوطار والرغبات ، ولعل أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان وأن لايجعل من لذاته سلاسل وأغلالا تعييه وتعتاص عليه إذاهم أن يصدعها بل حليا وزخارف متى شاء، فلا أهون عليه من خلعها ولا أسهل من نزعها وكذلك أمر رمضان سواء كان مقصودا من محمد معينا أو كان وحى الغريزة وإلهامها فطريا فهو والله نعم الامر . ويمكننا القول على كل حال أن الجنة والنار هاتين هما رمز لحقيقة أبدية لم تصادف من حسن الذكر قط مثل ماصادفت فى القرآن، وماذا ترون تلك الجنة وملاذها وهاته النار وعذابها وقيام الساعة التى يقول عنها «يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى» ماذا ترون كل هـذه إلا ظلا تمثل فى خيال ذلك النبى الشاعر للحقيقة الروحانية الكبرى رأس الحقائق أعنى الواجب وجسامة أمره، لقد كان هذا النبى يرى الحياة أمرا جسيما ويرى لكل عمل إنسانى مهما حقر خطارة كبرى فما كان من سىء فله من السوء نتيجة أبدية وما كان صالحا فله من الصلاح ثمرة سرمدية وإن المرء قد يسمو بصالحاته إلى أعلى عليين ويهبط بموبقاته إلى أسفل سافلين وأن على عمره القصير تقوم دعائم أبدية هائلة خفية . كل ذلك كان يلتهب فى روح ذلك الرجل القفرى كأنما قد نقش ثمت بأحرف النار . وكل ذلك قد حاول فى أشد إخلاص وأجد جد أن يخرجه للناس ويصوره لهم فأخرجه وصوره فى صورة تلك النار والجنة، وأى ثوب لبسته هذه الحقيقة؛ وأى قالب صبت فيه فلا تزال أولى الحقائق مقدسة فى أى أسلوب وأى صورة . وعلى كل حال فهذا الدين فيه للمبصرين أشرف معانى الروحانية وأعلاها فاعرفوا له قدره ولاتبخسوه حقه . ولقد مضى عليه مئتان وألف عام وهو الدين القوم والصراط المستقيم لخمس العالم وما زال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم . ولا أحسب أن أمة من النصارى اعتصموا بدينهم اعتصام المسلمين باسلامهم إذ يوقنون به كل اليقين ويواجهون به الدهر والأبد . وسينادى الحارس الليلة فى شوارع القاهرة أحد المارة (من السائر ؟) فيجيبه السائر (لا إله إلا الله) وأن كلمة التوحيد والتكبير والتهليل لترن آناء الليل وأطراف النهار فى أرواح تلك الملايين الكثيفة وأن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانى فى حبه ليأتون شعوب الوثنية بالهند والصين والملائى فيهدمون أضاليلهم ويشيدون مكانها قواعد الاسلام ونعم مايفعلون ولقد أخرج الله العرب بالاسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به من العرب أمة هامدة وأرضا هامدة وهل كانت إلا فئة من جوالة الأعراب خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من لدنه ورسالة من قبله فإذا الخمول قد استحال شهرة والغموض نباهة والضعة رفعة والضعف قوة والشرارة حريقا وسع نوره الأنحاء وعم ضوءه الأرجاء وعقد شعاعه الشمال بالجنوب والمشرق بالمغرب . وماهو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى أصبح لدولة العرب رجل فى الهند ورجل فى الأندلس وأشرقت دولة الاسلام حقبا عديدا ودهورا مديدة بنور الفضل والنبل والمروءة والبأس والنجدة ورونق الحق والهدى على نصف المعمورة ، وكذلك الايمان عظيم وهو مبعث الحياة ومنبع القوة ، وما زال للأمة رقى فى درج الفضل وتعريج إلى ذرى المجد مادام مذهبها اليقين ومنهاجها الإيمان، ألستم ترون فى حالة أولئك الأعراب ومحمدهم وعصرهم كأنما قد وقعت من السماء شرارة على تلك الرمال التى كان لايبصر بها فضل ولا يرجى فيها خير فإذا هى بارود سريع الانفجار وما هى برمل ميت وإذاهى قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين غرناطة ودلهى . ولطالما قلت إن الرجل العظيم كالشهاب من السماء وسائر الناس فى انتظاره كالحطب فما هو إلا أن يسقط حتى يتأججوا ويلتهبوا ، وإلى هنا تم الكلام على الفصل الثالث ، والحمد لله رب العالمين .

(من هو توماس كارليل)

من كتاب السيد عبد الرحمن البرقوقى مترجم هذا الفصل

ولد (توماس كارليل) فى قرية (اكلفكان) باقليم (اناندال) بجنوبى (اسكوتلانده) لأربع خلون من شهر تشرين سنة ١٧٩٥ وذلك قبل نهضة (نابليون) لغزو العالم بأربعة أشهر وقبل وفاة (روبرت بارنز) شاعر القرن الثامن عشر بسبعة أشهر، ولو أنه ولد على بضعة أميال من جنوب تلك القرية لكان رجلا إنكليزيا وكان أبوه بناء وبيديه بنى البيت الذى ولد فيه ابنه، دليل على متانة أخلاق الرجل واستبداد ذهنه واستقلال رأيه واستغنائه عن الغير بقوة نفسه. وكان قليل الكلام كثير العمل جلد الحصاة صليب العود ولكنه ليس بفظ ولا غليظ فكأن قلبه بئر السلسل الزلال حولها من الحجر الأصم سور وحجاب وأبت أخلاقه أن تجاور.

* خلائق أصفار من المجد خيب *

[جوهرتان]

[الجوهرة الأولى] فى إيضاح مناسبة هذه الآراء الفرنجية للآيات التى نحن بصددها.

[الجوهرة الثانية] فى ثناء المؤلف على الله وحمده له على نعمة العلم.

(الجوهرة الأولى)

إن الآيات التى نحن بصددها هى قوله تعالى «وكذلك أنزلنا إليك الكتاب» إلى قوله «أولئك هم الخاسرون» فقوله تعالى «وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون» قد ظهرت آثارها فى هؤلاء المؤمنين من المسيحيين وهم (اللورد هيدلى) و (الكونت هنرى دى كاسترى) و (توماس كارليل).

وأما قوله تعالى «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون» فهذا قد ظهر ظهورا واضحا فى كلام العلامة (الكونت هنرى) إذ قال (إن محمدا ما كان يقرأ ولا يكتب بل كان كما وصف نفسه مرارا نبيا أميا) وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه. ولاشك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان على أن القراءة والكتابة كانت معدومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار ولم يكن بمكة قارىء أو كاتب سوى رجل واحد ذكره (جادسين دى تاسى) فى كتابه الذى طبعه سنة ١٨٧٤م إلى أن قال [ثبت إذن مما تقدم أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يقرأ كتابا مقدسا الخ] وانظر إلى ما قاله (توماس كارليل) قال: ثم لاننسى شيئا آخر وهو أنه لم يتلق دروسا على أستاذ أبدا إلى آخر ما تقدم وقوله تعالى «بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون، وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون، قل كفى بالله بينى وبينكم شهيدا يعلم ما فى السموات والأرض» الخ فان هذا ظاهر فى كلام هؤلاء المؤمنين من علماء النصارى. ألا ترى إلى ما ذكره (توماس كارليل) فيما تقدم قال [وكان محمد إذا سئل أن يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة، انظروا إلى هذه الأرض أليست من عجائب صنع الله وآية على وجوده وعظمته، هذه الأرض التى خلق الله لكم ونهج لكم فيها سبلا تسعون فى مناكبها وتأكلون من رزقه، وهذا السحاب المسير فى الآفاق لا يدرى من أين جاء وهو مسخر فى السماء كل سحابة مكفهرة أسود ثم يسح بمائه ليحيى أرضا مواتا ويخرج منها نباتا ونخيلا وأعنابا، أليس ذلك آية والأنعام خلقها لكم تحول الكلأ لبنا وهى فخر لكم، والسفن (وكثيرا ما يذكر السفن) كالجبال العظيمة المتحركة تنشر أجنحتها وتحتفز فى سواء اليم لها حاد من الريح وبينا تسير إذا هى قد

وقفت

وقفت بغتة (قد قبض الله الريح ، معجزات والله كل هـذه ، وأى معجزات بعدها تريدون ؟ ألستم أنتم معجزات ؟ لقد كنتم صغارا وقبل ذلك لم تكونوا أبدا ، ثم لكم جمال وقوة وعقل ، ثم وهبكم الرحمة أشرف الصفات ، وتهرمون ويأتيكم المشيب وتضعفون وتهن عظامكم وتموتون فتصبحون غير موجودين . ثم وهبكم الرحمة . لقد أدهشتنى جدا هذه الجملة فان الله ربما كان خلق الناس بلا رحمة فماذا يكون أمرهم ؟ هذه من محمد نظرة نافذة إلى لباب الحقيقة] اه .

أليس هذا بعينه هو قوله تعالى «قل إنما الآيات عند الله» وقوله « أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » الخ .

(يا معشر المسلمين)

أليس هذا هو الذى قلته لكم فى هذا التفسير . هذا التفسير ميزته الخاصة أنه يوجه هممكم إلى معرفة هذه الدنيا ومخلوقات الله تعالى فأنظر فأجد هذا العالم الفرنجى يقول إن معجزة محمد هو هذا الكون والنظر فيه ، إن هذا العالم لم يقيد عقله كما قيدت عقول آبائنا المتأخرين فى الاسلام الذين تركوا الكون ظهريا وراءهم واكتفوا بعلم الفقه . أليس هذا هو الذى أناديكم به فى هذا التفسير . امتاز هؤلاء العلماء بأنهم ينظرون للقرآن نظرا مجردا فحكموا بأن معجزة النبى ﷺ هو الكون أما نحن فى القرون المتأخرة فقد أغمضنا أعيننا ولم ننظر الكون واكتفينا بكلمات جدلية فى علم التوحيد ، والحمد لله قد آن لنا أن نرجع إلى القرآن كما قدمت .

وقد بينت فى هذا التفسير أن فى القرآن (٧٥٠) آية فى وصف الكون وهذا كله هو المعجزة الحقيقية لا الاكتفاء بما جاء فى كتاب [الشفاء] للقاضى عياض وغيره . فنظر المسلمين فى الكون هو الذى يجب العناية به .

يا سبحان الله . هل نبينا ﷺ يحتاج فى أداء رسالته إلى جميع تلك الخوارق وإن كان حصل بعضها بل معجزاته باقية هى القرآن والكون .

ومن أعجب العجب أنك ترى صديقنا (اللورد هيدلى) يشكو مر الشكوى من القسيسين ويقول هم يأكلون أموال الناس بالباطل ويقرأ « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم » فهذا هو العجب أن ترى حقيقة أن دين الإسلام قد جاء لإصلاح الأمم جميعها بشهادة هؤلاء الأفاضل الذين عرفوا حقائق لم تكن لتخطر بالبال . هذه هى المعجزات التى لاتفنى بل تتجدد بتجدد الزمان اه .

اللهم إنى أحمدك على نعمة العلم والحكمة وأشهد أنك أجبت دعائى وأعطيتنى أجمل ما أتمنى فى الحياة . فهل كان يدور بخلدى وأنا شاب أطوف على شواطئ الأنهار وفى الخلوات وفى الحقول وأبحث فى هذه الدنيا الجميلة . دنياك البديعة . دنياك المملوءة زينة وبهجة وجمالا . أقول هل كان يدور بخلدى أن السؤالين اللذين كنت أسألكهما قد أجبتهما إجابة تامة وهما هل العالم منظم حتى أعرف أن له صانعا وماذا يقول أهل أوروبا فى وجودك ؟ هل هم يقولون إنك موجود لأنى رأيت لهم تفوقا على المسلمين . فهل هؤلاء الذين فاقوا الشرقيين يعرفون أن للكون صانعا . هذان هما السؤالان اللذان كنت فى شبابى أثناء انقطاعى من الجامع الأزهر فى شغل بهما كما ذكرته مرارا فى هذا التفسير . وهناك سؤال ثالث وهو لماذا تأخرت أمم الاسلام . هذه هى الأسئلة الثلاثة التى كانت ترد على خاطرى وذهبت بلبى وأقضت مضجعى وحرمتنى النوم فى أكثر الأوقات والآن أقول وأصرح بأعلى صوتى إنى عرفت أن العالم منظم وله صانع وهذا التفسير هو الذى جمع أجمل ما اطلعت عليه ووثقت به ، وما أسعد حظى إذ كتبت فيه ما سمعته الآن أيها الذكى من آراء علمائهم وكيف أدركوا أن الديانات التى تقدمت الاسلام مرتبكة ضائعة ، أفلا أكون الآن سعيدا إذ كتبت فى هذه الآيات ما أبان أن المسيحيين يعتنقون الاسلام وبأى سبب أسلموا ، وكيف أدركوا حقائق الاسلام ، وكيف يقول اللورد هيدى لى إنه الآن سعيد لأن الله معه فى كل حركاته وسكناته ، وكيف يبرهن الأستاذ (توماس كارليل) ومثله (هنرى)

الفرنسي أن دين الاسلام هو الحق وهو يعلو ولايعلى عليه ، وكيف نرى أن المسيحيين فى زماننا قوم لايفكرون مطلقا فى حقائق الديانات ويسيرون تبع القسيسين بلا تفكير . إنى أعلن اليوم أنى قد نلت ما كنت أطلبه من الله وهو الوقوف على حقائق نظام الدنيا بقدر طاقتى البشرية واطلاعى على آراء الأمم المحيطة بنا فى الديانات وما الحق منها ثم إدراجى فى هذا التفسير بذور الاصلاح والاسعاد لأمم الاسلام وأنا موقن أن الذى نصرنى فى أدوار حياتى وأنالنى ما أعنى من تلك الآمال الثلاثة هو الذى سينصر أمم الاسلام بعد قراءتهم أمثال هذا التفسير وستتغير خريطة الأرض ذلا وعزا وسعادة وشقاء ، ثم أقول من ذا الذى كان يظن أن أوروبا التى ملأت الآفاق بمدارسها وعلومها تكون عقول رجالها نائمة إلى هذا الحد ، فانظر ما يقوله (اللورد هيدلى) فيما يلى

(التحريف المعمدى)

كنت أطلع من وقت لآخر على كتابات (الإرساليات المسيحية) التى يطبعونها بشكل كراسات صغيرة ويدعون فيها أنهم يعطون معلومات حقيقية عن الدين الاسلامى ، وإنى لفى شدة الأسف لأن أعترف بأنى أشعر بذلة عظيمة وخجل كبير عند ما أجد أن أحد رجال وطنى ينحنى للرياء والتمويه والتحريف لكى يحز آراءه نحو الدين . إن الدين الذى يمكن أن يدعى أنه دين يجب أن يعلم العدل الدقيق والحب الحق، وإنه ليذهل جدا إلى أى مدى تسير (التعصبات الدينية المسيحية) .

انظر إلى وجه الصورة الآخر، ألاتدهشك رؤية مظاهر روح الحسنى التى يقررها القرآن وملاحظة الهدوء الذى يلاق به المجتمع الاسلامى الشاسع الحملات عديمة القيمة التى تحمل عليهم وعلى ديانتهم باسم عيسى الكريم أحد أنبيائهم . إننا لا نجد كما أعلم أى جور أو تحريف فى أعمال محمد لأنه حق وإن كانت هناك كلمات شديدة من جهة المسلمين (يعذرون من أجلها) إلا أنهم لم يلجئوا إلى مثل هذه التهم المكذوبة كى يكونوا منها أهم أسلحتهم التى يهاجمون بها خصومهم . إنى وإن لم أبين أسماء هذه الكراسات المشار إليها آنفا إلا أنه يمكن الحصول عليها بسهولة من الناشرين الذين أخذوا على عاتقهم طبع مثل هذا النوع من الأدبيات .

إنى سأذكر الآن بعد قطع من كراسات وضعت خصيصا لتشويه أخلاق النبى الكريم وسوف يرى كل شخص ذو عقل مستقيم أن سفالة الحقد وطلب الانتقام هو السلاح الذى استعمل وليس فى تلك الكراسات حجج ولا إشارات إلى حقائق تاريخية بل ولا شىء أكثر من تقارير مثيرة متوالية يعرف المؤلف لها بأنها ليست ولا يمكن عدها تقارير جوهرية أو مبنية على أى أساس، وسيرى القارىء منها هنا بعض أمثلة مقيتة إلا أنى أعتذر إليه لذكر مثل هذا الهذيان الغير الصحى وعذرى فى ذلك أنه يجب أن يعرف العالم مقدار تعصب وغرابة شكل الهجمات التى توجد ضد المسلمين التألمين من زمن بعيد والذين لا تسمح لهم حسناهم وصبرهم وطول أناتهم وحسن ذوقهم بأن يقابلوهم بنفس هذه السفالة والأعمال المبتذلة، وها هى تلك القطع التى ظهرت فى جريدة (نور آفشو) وهى جريدة مسيحية أسبوعية تطبع فى (لوديانا) :

(١) الوحى الذى نزل على محمد أتى من عند الشيطان .

(٢) المحمديون فى الواقع حمر وأعمالهم كأعمال الجحوش .

(٣) محمد كان غليا يعجب بجمال النساء وحبيبا .

(٤) المسلمون مربوطون بحبال الشيطان من رقابهم .

(٥) كل نساء بلاد العرب المتزوجات زانيات .

(٦) إن إله القرآن والحديث ، هو الذى خلق رجالا مملوئين بالخطيئة والذى ليس فقط لا يدلهم على الطريق السوى بل يضلهم دائما .

(٧) خلاص المسلمين مبنى على ارتكاب الخطايا وجعلت الأعمال الطيبة عندهم كوسيلة للحرمان . أما الخطيئة فقد نظمت كغرض وحيد لحياتهم الطبيعية .

(٨) أسس محمد أمة جعلت ارتكاب الخطايا دينها وعلامتهم أن قوادهم يتعمدون الكذب ويسفكون الدماء ويرتكبون السرقة وقطع الطرق ويظنون أن الزنا من البشائر المفرحة وكل منهم مصحوب بالشيطان ومصيرهم إلى جهنم جميعا .

والآتى أيضا قد جمع من مصادر مختلفة وظهر فى المجلة الاسلامية تحت العنوان التالى :

[إثبات كفاره بقلم ت . هويل راعى الكنيسة الانكليزية بلاهور]

(٩) قال الكاتب مخاطبا المسلمين بتعيير وتوبيخ «ذلك لأن قوادهم مجرمون شريرون وعقولهم ضعيفة» (صحيفة نمرة ٣) .

(١٠) بذور الجريمة التى تدعى نصيب الشيطان نبتت فى كل وقت وآن من عقل محمد (صحيفة نمرة ١٠)

(١١) من محض رغبته أو غوايته الشيطانية شكر محمد الأصنام وسجد لها (صحيفة نمرة ٢٠) .

(١٢) أنه (أى محمدا) ظل خاضعا دائما للشيطان والسحر (صحيفة نمرة ٢٠) .

[حضرة محمد ـ بقلم القس . ج . ه . راوس ـ دكتور فى الكهنوت]

(١٣) هناك أشياء كثيرة تبرهن على أنه (محمد) مجرم أثيم (صحيفة نمرة ٦) .

(١٤) الطمع والغضب كانا من الشرور القوية الغريزية فى محمد (صحيفة نمرة ١٠) .

(١٥) كان مجرما (صحيفة نمرة ١٤) .

(١٦) أنه نفسه (محمد) مفتقر إلى الخلاص (صحيفة نمرة ١٤) .

(١٧) أنه (محمد) لايستطيع أن يتخلص من جهنم بأى طريقة (صحيفة نمرة ١٧) .

(١٨) كان مجرما وسيلقى فى جهنم كباقى الخاطئين الآخرين (صحيفة نمرة ١٤) .

[حمرا شفيق كون هاى ـ بقلم القس ه . راوس . دكتور كهنوتى]

(١٩) كان محمد مجرما ورغب فى أن يمدح بعدم الخطيئة (صحيفة نمرة ٥) .

(٢٠) سيحتاج محمد إلى شفيع ومخلص كباقى الخاطئين العاديين (صحيفة نمرة ٦) .

[دفع البهتان ـ بقلم القس روكلين]

(٢١) لانستطيع أن ندعو محمدا إلا نفس الرجل الغنى . يقصد الرجل الغنى الذى كان (كقول سانت توما) من نسل إبراهيم وعاش عيشة فاخرة ولما مات ألقى فى جهنم (صحيفة نمرة ٦٩) .

(٢٢) أصحاب محمد (الصحابة الكرام رضى الله عنهم) يوصفون بأنهم سفاكو دماء وظلمة متوحشون وزناة وغشاشون ولصوص وقطاع طرق وفاعلو كل أصناف الآثام وهلم جرا (صحيفة نمرة ٨٧) .

(٢٣) كان (محمد) رجلا دنيويا متبعا لشهواته ومثل هؤلاء الرجال عادة يغرقون فى مثل هذه الأشياء الويل لكل أمثال هؤلاء الرجال لأن لهم مثل تلك الخاتمة وسيلقون جميعا فى غضب الله أعنى فى بحيرة النار والكبريت (صحيفة نمرة ٥٤) .

[صراط المسيح والمحمد ـ بقلم القس ثا كرداس المبشر الأميركى]

(٢٤) كان محمد فى شخصه مخطئا بل كان مخطئا حقيقيا (صحيفة نمرة ٦) .

(٢٥) شكل محمد الحقيقى كما صوره العرب كان أعظم الغارقين فى الشهوة البهيمية وحب النساء (صحيفة نمرة ١٤) .

(٢٦) كان محمد رجلا ضالا جهنميا (صحيفة نمرة ٣١) .

(٢٧) يظهر أنه (محمد) اصطيد بالشيطان (صحيفة نمرة ٣١) .

(٢٨) حضرات القراء انتبهوا لئلا تؤخذوا بغش محمد (صحيفة نمرة ٣٥) .

[انجيل أندرونا]

(٢٩) حامل علامة المسيح الدجال هو نفس الثعبان القديم إلا أنه عند مايفتح فه يظهره فكاه مشخصا فى البابا ونبى بلاد العرب (صحيفة نمرة ٧٠) .

(٣٠) دين محمد ودين البابا هما فكا ثعبان واحد (صحيفة نمرة ٧٤) .

[محمدى توارخ إجمال . بقلم القس وليم من ديوارى وطبعت بمطبعة الارسالية المسيحية]

(٣١) محمد هو زعيم اللصوص والنشالين والسفاكين والغشاشين (صحيفة نمرة ١) .

(٣٢) كان محمد من أعظم الخطاه (صحيفة نمرة ٨) .

(٣٣) ولو أن جبريل اجتهد فى أن يزيل ظلمة قلب محمد الذى كان يحتوى على بذور الجرعة أو السائل النوى أو قسم من الشيطان بالغسل المتكرر إلا أنه لم يزل أبدا منه ، فمحمد قد سود فؤاده بالانهماك فى ارتكاب الجرائم المتعددة دون أن يرجعه عقله (صحيفة نمرة ٢٥)

(٣٤) قد سجن محمد فى داخل بخارجهنم إلا أن كل ذلك حصل له لارتكابه الجرائم التى ظل يمارسها إلى أن مات (صحيفة ٢٧) .

(٣٥) علماء المسلمين ارتكبوا جرائم من الزنا والسرقة ومثل هاتيك الأشياء وقد أتوا هذه الخطايا والتعديات إطاعة لرغبات محمد تحت ستار مبدئه «ولا إله إلا الله» (صحيفة نمرة ٣١)

(٣٦) لم تخلق الشرائع المحمدية الزانيات المحمديات بكثرة زائدة فقط بل حتى الجنة لامتلائها بالحور والغلمان قد أصبحت (كرخانة) منظمة (صحيفة نمرة ٣١) .

(٣٧) ليست فقط الكلمة المحمدية هى التى تشجع المجرم على ارتكاب جريمته بجسارة فائقة بل تخدمه أيضا كحبة (بلبوعة) الهضم يهضم بها جرائمه ويشد بها عزمه لينكب على عيشة الجرائم المتناهية وبركات الكلمة المحمدية تتم وتعمر الكرخانات (صحيفة نمرة ٤٩) .

(٣٨) حالة إله القرآن كحالة البلد التى دمرت والراجا الأعمى تماما (صحيفة نمرة ٥٥) .

(٣٩) ملعون من لم يعتقد فى كفارة المسيح (صحيفة نمرة ٢٩) .

(٤٠) القرآن مجموع من الحكايات التوراتية والانجيلية واليهودية والمسيحية والقرشية الغير موثوق بها وقرائن الجهل وتقليدات غير معتمدة (صحيفة نمرة ٣٩) وهكذا دواليك .

ليس فى وسع الإنسان فى الحقيقة إلا أن يعتقد أن مدبجى وناسجى هذه الافتراءات لم يتعلموا حتى ولا أول مبادىء دينهم وإلا لما استطاعوا أن ينشروا فى جميع أنحاء العالم تقارير معروف لديهم أنها محض كذب واختلاق .

إن تعاليم القرآن الكريم قد نفذت ومورست فى حياة محمد الذى (سواء فى أيام تحمله الألم والاضطهاد أو فى زمن انتصاره ونجاحه) أظهر أشرف الصفات الخلقية التى لايتسنى لمخلوق آخر إظهارها ، فكل

صفات الصبر والثبات فى مقصده كانت ترى أثناء الثلاث عشرة سنة التى تألمها فى مجاهداته الأولى بمكة ولم يشعر فى كل زمن هذا الجهاد بأى تزعزع فى ثقته بالله وأتم كل واجباته بشمم وحمية .

كان ﷺ مثابرا ولا يخشى أعداءه لأنه كان يعلم بأنه مكلف بهذه المأمورية من قبل الله ومن كلفه بهذا العمل لن يتخلى عنه وقد أثارت تلك الشجاعة التى لا تعرف الجفول (تلك الشجاعة التى كانت حقًّا إحدى معجزاته وأوصافه العظيمة) إعجاب واحترام الكافرين وأولئك الذين كانوا يشتهون قتله ومع ذلك فقد انتبهت مشاعرنا وزاد إعجابنا به بعد ذلك فى حياته الأخيرة أيام انتصاره بالمدينة عند ما كانت له القوة والقدرة على الانتقام واستطاعته الأخذ بالثأر ولم يفعل بل عفا عن كل أعدائه .

العفو والاحسان والشجاعة ، ومثل هاتيك المكارم كانت ترى منه فى كل تلك المدة حتى إن عددا عظيما من الكافرين اهتدوا إلى الاسلام عند رؤية ذلك .

عفا بلا قيد ولا شرط عن كل هؤلاء الذين اضطهدوه وعذبوه. آوى إليه كل الذين كانوا قد نفوه من مكة وأغنى فقراءهم ، وعفا عن ألد أعدائه عند ما كانت حياتهم فى قبضة يده وتحت رحمته ، تلك الأخلاق اللاهوتية التى أظهرها النبى الكريم أقنعت العرب بأن حائزها يجب أن لا يكون إلا من عند الله وأن يكون رجلا على الصراط المستقيم حقا وكراهيتهم المتأصلة فى نفوسهم حولتها تلك الأخلاق الشريفة إلى محبة وصداقة متينة .

فكل المحاولات عديمة القيمة فى تحقير عظمة شريعة النبى المعظم بالبذاءة وسوء الاستعمال والحجج المموّهة المتضمنة كثيرا من طمس الحقائق والآثارات المكذوبة تقدمت كثيرا بتعمد القصد فى إضلال الناس وإبعادهم عن الحقائق ، وهؤلاء الذين اتخذوا مثل هذه الأساليب يجب أن يتذكروا (إذا كانوا قد نصروا مسيحيين) بأنه يجب عليهم على الأقل أن يقلدوا المسيح فى عدم الكذب الذى كان أكره شئ فى نظر أعظم معلمى الناصرة (عيسى) . هناك أصناف عديدة من الكذب . الكذب الأبيض وهو غير مهم حيث إنه لا يضر وغالبا ما يقال لحماية سمعة جار أو مساعدة صديق . وهناك الكذب الخبيث الضار الذى يهلك صديقا أو جارا، إلا أن ألعنها ما يقال باسم الدين لأنه يحمل على تقليل أهمية المولى عزّ وجل وهى جريمة لا يوجد أعظم منها .

فى حلقة التمويهات المستمرة سعى فى إظهار أن الدين الاسلامى هو المسئول عن الآثام والسلب والنهب الذى أتته القبائل المتجولة التى صدف أن كانت مسلمة اسماً فقط . إنه من العدل أن يلام المسيح مثل ذلك تماما على التعذيب وإحراق الأساقف والآخرين أحياء فى بلادنا هذه السعيدة وليس ذلك من سنين بعيدة . حقا إن الديانة المسيحية الصحيحة ما صادقت قط على شرور (محاكم التفتيش) الخبيثة الرجعة أو الفظائع التى لا يمكن عدها التى فعلها المسيحيون فى بعضهم وفى اليهود والمسلمين الآخرين الذين كانت لهم أفكار دينية تخالفهم . إننى لا أظن أبدا أنه يمكن إظهار أن المسلمين اجتهدوا قط أن يحشروا أفكارهم ومعتقداتهم الدينية فى حلوق الناس بالقوة والفظاعة والتعذيب . وإذا كان هناك مثل هذه الحالات فحينئذ يمكننا فقط أن نقول إن مرتكبي هذه الآثام ليسوا بمسلمين حقيقة لأننا لا نستطيع أن نشير إلى أن القرآن الشريف يصادق على أعمالهم . إن محمدا كان قانونيا ومحاربا وعند ما امتشق الحسام هو وتابعوه لم يكن ذلك إلا للدفاع عن أنفسهم فقط ولم يعتدوا قط إذ كان النبى نفسه وديعا رحيما بأعدائه المقهورين. لكى نستطيع أن نكوّن الرأى الصواب عن صفات شخص يجب علينا أن ننظر إليه أيام شدته وأيام رخائه فإذا كانت حالته دائما حالة شدة وظل دواما بين أيدى مضطهديه تكون الظروف حينئذ لم تسمح له بأن يفعل شيئا نحو أصدقائه أو أعدائه وهنا يستحيل أن يعرف تماما ما كان يمكن أن يفعله، كما أن أرق الصفات لا يمكن أن تدل عليها الوداعة والخضوع فقط بل يجب علينا أن نرى أيضا ضبط النفس وعفو الرجل الذى يتغلب على حواس الانتقام ويصل رقه إلى أقصى منتهاه . حقيقة إن العفو لم يتسع دائما ليشمل أعداء الاسلام الذين جعلوا قصارى جهدهم محاربة وإخماد

الدين الاسلامى وأعملوا السيف فى رقاب المسلمين ثورة وعصيانا لأن الرحمة من هذا النوع لاتدل إلا على مد الفظاعة وإزهاق الأرواح .

قوة أخلاق الرجل تظهرها المحن والتجارب ، وصفاته النبيلة الكريمة يستدل على أنها فى أتم كمالها عند مايظهر رحمة وعفوا فى يوم مسرته بالنجاح والقوة ، وليس القلب الرقيق فقط هو الذى يحتاج إليه رجل الله، إذ لايستطيع أن يزعم أى كان بأنه يمكنه الوقوف ليكون مثالا أو نموذجا للجنس البشرى، وهو لم يختبر تصاريف الدهر وتقلبات الحياة من فاقة وعز وتعاسة وسعادة وضعف وقوة . لايمكنك أن تكون معلماً حقيقيا للصبر مالم يمر عليك الغضب أو الألم أو النصب الذى يحتاج إلى ممارسة الصبر . الضيق فقط هو الذى يظهر أعظم المواهب العالية فى الرجل الذى يحب الله من كل قلبه ومثل هذا المخلوق المحزون ينظر لكل نازلة أو مصيبة تقطع الفؤاد كأنها تأديب من إله الرحمة، وكلما عظمت المصيبة والبلوى ازداد احترام وتذلل وندامة ذى الاعتقاد الصحيح الذى يعرف أن ربه القادر الحفيظ يقوده بذلك إلى الصراط المستقيم، إنه يؤمن بالحكمة غير المحدودة والحب غير المحدود والرأفة غير المحدودة التى لهاديه الوحيد فى هذا العالم ، إنه يعلم أن خالقه عالم بأنه يبغض الشيطان وحيله الشريرة وهذا الاعتقاد فيه الكفاية لشد عزائمه فى أية معركة مع الشيطان مهما كانت شديدة لأنه يعتمد على معونة مولاه فى كل شئ ، فالرجوع إلى الله (القدير ذى الجلال والاكرام الرحمن الرحيم الذى لم يقترن اسمه بأى اسم آخر تنزه عن مثيل أو شبيه) يمد المؤمن بثقة تفوق إدراك البشر .

كل الأنبياء المقدسين فى كل الأزمان والأوقات الذين كلفوا بتبليغ الرسالات للبشر قاموا بتبليغها بكل صدق وأمانة إلا أنه لم يكن فى كل هؤلاء الرسل من هو أرفع مركزا من محمد ﷺ .

إنه يفهم ويعرف جيدا أنه لا يتمكن من العفو إلا من أصبح قاهرا وله القوة التى تمكنه من أن يصب جام غضبه وانتقامه على أعدائه الذين كان بين أيديهم ضعيفا حتى يقدر الظروف التى كان فيها تحت رحمة الآخرين، لايمكن لأحد أن يدعى الرحمة وهو لم يقع تحت طائل رحمته أى إنسان قط، وليس هناك فى التاريخ من يمكن أن تنسب له تلك الخاصية كمحمد النبى الكريم الذى رأى أعظم الاذلال وابتدأ حياته يتيما وإن كانت عين الله ترعاه ومرت عليه كل أطوار الحياة المختلفة وهو مستسلم الاستسلام الكلى لمولاه ، ولم تتلوث أخلاقه العذبة أبدا بأى عمل دنئ أو خسيس ، ولم يرتكب الظلم قط .

نحن نعتبر أن نبى بلاد العرب الكريم هو أخلاق متينة وشخصية حقيقية وزنت واختبرت فى كل خطوة من خطى حياته ولم ير فيها أقل نقص أبدا ، وبما أننا فى احتياج إلى نموذج كامل يفى بحاجاتنا فى خطوات الحياة فحياة النبى المقدس تسد تلك الحاجة .

حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقى والسخاء والكرم والشجاعة والاقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو وباقى الأخلاق الجوهرية التى تكون الانسانية ونرى ذلك فيها بألوان وضاءة . خذ أى وجه من وجوه الآداب وأنت تأكد بأنك تجده موضحا فى إحدى حوادث حياته ، ومحمد وصل إلى أعظم قوة وأتى إليه مقاوموه ووجدوا منه شفقة لا تجارى وكان ذلك سببا فى هدايتهم ونقائهم فى الحياة .

إن الغيرة الشديدة التى لا تعرف الكلل التى كان يبذلها مؤسس الاسلام لاخماد عبادة الأصنام قد أثارت معارضة مزعجة ضده فلم تكن هناك قبيلة من قبائل العرب بدون معبود صنمى ، وقد أشعلت كل قبيلة لظى الحرب كى تؤيد وتحمى أصنامها ، حصل ذلك عند ما كان النبى بالمدينة وفى الواقع قد قضى هناك أياما أصعب من أيام مكة ، ولما كان أعداؤه يشنون عليه الغارة دائما من جميع الجهات أخذ فى كل وقت وآن فى مقاتلتهم أو إرسال رجاله لمقابلة التعديات فكانوا طورا ينتصرون وتارة ينهزمون، وكانت كل حادثة تخلق فرصة مناسبة للنبى الكريم ليظهر وجوه أخلاقه العظيمة المختلفة التى لو جمعها الانسان ونسقها لوجد العالم فيها قوانين وأحكاما

الحرب أكثر إنسانية وملاءمة مما يمكن لمروجى مؤتمر لهاى أن يتصوروا .

ما أشهر السلاح محمد قط إلا عند الحاجة القصوى لحماية الحياة البشرية وربما ادعى بأن الاسلام استعمل السيف فى نشر الدين ولكن ألد أعداء الاسلام القادحين فيه عجزوا عن أن يأتوا ولو بأقل دليل أو مثل من الأمثلة التى أثر فيها الحرب على هداية أى قبيلة أو شخص إلى الاسلام .

إن هذه الوقائع ماأفادت بلاشك إلا فى إظهار كرم أخلاق محمد الذى امتلك كل قلوب مواطنيه وكانت أشد تأثيرا فى الهداية من أى شكل من أشكال الإكراه ، وقد أظهرت تلك المعاملة النبيلة التى كان يعاملها التى للمنهزمين عجائب وغرائب فما أتاه ملتمس إلا ونال أكثر مما كان يؤمل أو يشتهى اه .

(تذكرة)

ظهر الحق واستبان السبيل . أيها المسلمون «الآن حصحص الحق ـ وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» ها أناذا الآن أقول بأعلى صوتى وأجهر بأن أهل الشرق وأهل الغرب الذين نحن معهم على هذه الأرض جميعا يعوزهم قول الحق والصراحة وإظهار الحقيقة فلنهجر لهم جميعا ولنخاطب أولا المسلمين فنقول لهم هاهو ذا كلام العظماء من أوروبا فى ديننا الإسلامى ، فأى شهادة هذه وأى عظمة لديننا ولنبينا ﷺ وأى حكمة أبدعت فى القرآن . هؤلاء نظرهم فى الإسلام نظر عال سام شريف لم يطأطئوا رءوسهم عند دراسة الدين ويدرسوا القشور ويدعوا اللب ، لم يتوجهوا لمباحث المعتزلة وأهل السنة والصوفية والثلاث والسبعين فرقة الاسلامية ولا الخلاف فى البيوع والرهن والحج والصلاة والصوم والزكاة وما أشبهها ، بل هؤلاء درسوا نفس الدين ونفس الروح المحمدية فشهدوا بما علموا ورأوا أن هذا الدين يعلو إلى سماء المجد والشرف ويبحث فى الأفلاك والكواكب والطبيعة ومركز العلم ، أليس هذا بعينه هو الذى حواه هذا التفسير . سبحانك اللهم وبحمدك . نحن قوم محصورون فى جدليات وعلوم جزئية وخلافات مذهبية وآراء سوفسطائية فنقول حنفية أوشافعية أومالكية أوحنبلية أو شيعية أو وهابية ونتسكع فى هذه الجزئيات ونذر الكليات أو يقول المتعلمون تعلما ظاهريا فى المدارس المصرية والفرنجية ، هل ديننا يوافق العلم ، إن العلم شىء والدين شىء آخر وقد جهل هؤلاء هذه الحقيقة التى قالها (توماس كارليل) و (هنرى) وغيرهما وقالها الامام الغزالى وابن رشد قبلهما وهى أن معجزات الإسلام هى نفس العلوم لا أنه ضدها ، إذن الاسلام غير الديانات الأخرى ، فالاسلام خاصته العلوم وهى برهانه وهل برهان الشىء ضده ولولا هذه الحجب التى أسدلت على العقول الاسلامية ماأعوزنا أن نقول فى (سورة طه) إن عبادة بنى إسرائيل لعجل السامرى بعد مارأوا معجزة العصا برهان على أن خوارق العادات لاتكفى فى الايمان فلابد من العلوم العقلية وقد وجدنا الامام الغزالى أوضحها وهاهم أولاء علماء الفرنجة يقولونها ويقولون إن معجزة نبينا هو الكون ، فهذه حالنا التى كان من نتائجها أن المرحوم العلامة (ادوارد براون) الانجليزى الذى ذكرته سابقا فى هذا التفسير قال لى [لقد ذهبت إلى تركيا وإلى بلاد الفرس بأمر حكومتنا الانجليزية لأعرف هل تتحد هاتان المملكتان فوجدت أن أهل إيران مشغولون بقتل الحسين والروس إذذاك يجوسون خلال ديارهم ويحاولون احتلالها ذلك أيام حكم القياصرة قبل اليوم بنحو ٢٥ سنة] ويقول طالب من الطلاب الفارسيين [لقد حاربت مع الروس ضد الترك الكلاب الكفار لأنهم من أهل السنة الذين قتلوا الحسين . فقال لى لقد ضحكت من عقول هذه الأمم وقلت الحسين مضى له ١٣ قرنا ولكن الروس يدخلون عليهم الآن ، فما لهؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ، قال وحكمت بأن هذه الأمم لاتتحد] .

أقول وقد تغيرت الحال الآن وتعاهد الفرس مع مصطفى كمال باشا بعد أن زالت تلك العقول الصغيرة .

هذه حال المسلمين وأنا وأنت أيها الذكى منهم ، فنحن حصرنا فى إبان الصغر وزمن الجهل فى الجزئيات فلم يتضح لنا جمال الله فى سمواته وأرضه ولم نعرف جمال النبوة ولا بهجة الكمال المحمدى بطريقة مشوقة مثل الذى يقوله

أمثال (هنرى) وأمثال (توماس كارليل) وأغمضنا أعيننا عن كل ماحولنا من جمال وكمال ، وما نحن إلا قوم أشبه بمن حبسوا فى سجن ضيق مظلم فيه قنديل ضئيل النور وفى خارجه أنوار الشمس البهجة الجميلة فهؤلاء الأوروبيون الذين نظروا فى ديننا ، نظروا وهم خارج هذا السجن فعقلوه وأحبوه وأحبوا نبينا صلى الله عليه وسلم وبينوا ظاهره على مقدار طاقتهم ، أما نحن الذين حبسنا فى سجن التقليد والكتب الفقهية والجدلية وأمثالها فان كل من تخلص منا من ذلك السجن الذى لم يستضىء إلا بالضوء الضئيل الخارج من ذلك المصباح الضعيف عده القوم خارجا عن زمرتهم ورموه بالجهالة ومن هؤلاء العلامتان ابن رشد والغزالى ، هنالك بقى المسلمون فى سجونهم وانحصروا فى جلودهم حتى جاءت هذه النهضة المباركة فخرج من السجن جماعة فى أقطار الاسلام ومن هؤلاء قراء هذا التفسير فهم والحمد لله اليوم تقابلوا مع من خرجوا من ذلك السجن ورأوا ما رآه الخارجون عنه وعرفوا ربهم وجمال نبيهم صلى الله عليه وسلم ومرتبة كتابهم وهم لايأبهون بسفاسف العقول الصغيرة المحبوسة الجاهلة الناشئة من أمم الإسلام ، هذا كلامى مع أمم الإسلام ، أما أمم الفرنجة فانى أقول ولى الحق أن أقول إنهم إلى الآن عباد التقاليد ، فلئن حبس المسلمون فى ظلمات التقاليد واكتفوا بالعلوم الدينية الجزئية وهم الآن يريدون الخروج ، فهاهم أولاء الفرنجة محبوسون فى دين قديم قد أكل الدهر عليه وشرب ، وقد عرف عقلاؤهم الحقيقة ولايقدرون أن يجهروا بها فهم والمسلمون سواء فى الخافة ، المسلم محبوس فى ظواهر الدين والفرنجى محبوس فى دين قد نسجت عليه عناكب النسيان وذلك كله بشهادة هؤلاء العلماء الأوروبيين فيما تقدم ، أليس هذا هو قوله تعالى «وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» .

أليس هذا أيضا هو قوله تعالى «وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئا ولا يهتدون» وآيات كثيرة فى هذا المعنى ، فأهل الأرض إذن فى الشرق والغرب قوم مقلدون فأين العقل إذن . الأوروبيون يعرف بعضهم حقيقة الاسلام فيخاف من أهله وذويه والمسلم يتبع مذهبا ويخاف مخالفة أسرته وأهل بلدته ولكن الأوروبى فتح له باب العلم . فيارب أنت خالق الشرق وخالق الغرب وخالق كل شىء وأنت عالم بهم ومقدر هذا عليهم ، ولقد وضعت كلا فى درجته التى لايستحق سواها ولقد قضت حكمتك اليوم أن تفتح البصائر وتلهم بهذا التفسير الذى سيقرؤه قوم فى أنحاء هذه الكرة الأرضية ويكون هو وأمثاله بذورا لرقى العقول فى الأمم ويصبح الناس فى مسرة وحبور وحكمة ونور . هذا من جهة الدين ، أما السياسة فان أهل الغرب وأهل الشرق لم يصلوا حتى كتابة هذه الأسطر إلى سياسة تسعدهم وهذه أوروبا لها جمعيات كجمعية الأمم ، ويظهر لى أن أهل الشرق الآن يريدون أن يكونوا جمعية أخرى ويظهر أن الأمم ستتلاقى فى السياسة ولا أدرى متى يكون ذلك ، وإذا قرأت كتابى [أين الإنسان] عرفت ماهى سياسة الأمم الحالية والتى قبلها ، فسياسات الأمم تقليدية لا عقلية ودياناتهم كذلك بالتقليد لابالعقل . ومن درس هذا التفسير ودرس كتابى [أين الإنسان] وقف على حقائق الديانات وحقائق السياسات ونفع الأمم الشرقية والغربية فى أديانهم وسياساتهم ، فلتكن أيها الذكى منهم ولما وفقك الله لقراءة هذا الكتاب كان ذلك علامة على أنك من المصلحين النافعين للأمم الشرقية والغربية والله عز وجل يحب المصلحين « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » اهـ .

﴿ الجوهرة الثالثة فى قوله تعالى «وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وإياكم » الخ ﴾

قد مرت عجائب كثيرة فى هذا المعنى كالذى فى (سورة البقرة) عند قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض» وكالذى فى (سورة آل عمران) عند قوله تعالى أيضا « وترزق من تشاء بغير حساب » وكالذى فى (المائدة) و (الأنعام) و (الحجر) وغيرها من السور ، ولكن لابد من ذكر عجائب هنا لم تقدم هناك ليبتهج

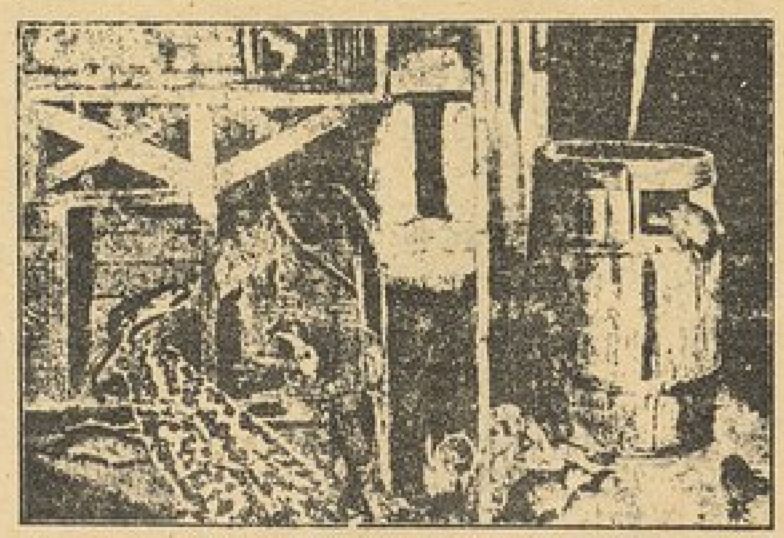
بها المفكرون ويفرح بها العلماء العاملون ، وهى جوهرة يتيمة فى هذه الآية .

إن عناية الله بكل حيوان وكل نبات قد تجلت فى هذا التفسير وظهرت أيما ظهور فى (سورة البقرة) و (آل عمران) و (المائدة) و (الأنعام) و (هود) و (النحل) و (طه) و (النمل) و (مريم) وغيرها من سور القرآن، ولقد جاء فى كل سورة مما ذكر هنا وغيره مافيه حكمة وعبرة ونوروهدى وجمال وبهاء. ولكن الذى أريد أن أبينه هنا تلك الغرائز العجيبة التى تفسرلنا قوله تعالى «قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى» وتفسر قوله تعالى «والذى قدر فهدى» والحق يقال إن الانسان لاسعادة له إلا بأن يقف على جمال هذه العوالم ويعرف أن هنا عناية فائقة وحكمة تامة شملت أدق الحيوانات الذرية وتكفلت بسعادة كل مخلوق ، ولعمرى متى أدرك الإنسان أن هناك هذه العناية التامة والحكمة الشاملة فانه لايشك أنه مغمور بتلك الرحمة مشمول بتلك النعمة ويصبح ويمسى وقد رأى رحمة الرحيم العليم الحكيم فى كل يابسة وخضراء وجبل وبطحاء وكأن صانع هذه العجائب معه أينما حل أو ارتحل ، وليس يصده عن تذكره فى غدوه ورواحه إلا ذلك الحجاب الذى ألقى بين هذه العوالم الأرضية وبين مبدعها ، فاذا ارتقت النفس ونحن فى هذا العالم فانها تصبح وقد أحست بالسعادة الأبدية قبل أن تزور الرمس ، ومن ملكت هذه الآراء فؤاده فى الدنيا سعد السعادة التامة وليس يزحزحه عنها إلا قواطع الفواجع ثم يرد إليها وهو فى حبور فمن ذا الذى لايدهش إذ يسمع ماجاء فى مجلة مصرية:

(١) أن الفأر الذى يسكن بيتنا إذا أحس أن البيت الذى نسكن فيه يريد أن ينقض يفر منه حالا قبل سقوطه بساعات ، وإذا أحس بذلك فى المركب هرب قبل وقوع الكارثة فيها . روت سيدة إنجليزية كانت تعيش فى زمن الحرب فى منزل قديم فى (نور فلك) فى انجلترا أن الجرذان كانت تقلق راحتها كل ليلة بصريرها ففى إحدى الليالى شعرت بضجة خارقة من الجرذان وكان صوت الضجيج يتجه إلى خارج المنزل فاستنتجت السيدة منه أن (الجرذان) تبرح المنزل ثم انقطعت الحركة وساد السكون وبعد ساعة واحدة سقطت قنبلة من منطاد ألمانى وأصابت جناحا من المنزل فدمرته ، أما الجرذان فكانت قد نجت كلها .

وقد شوهدت الجرذان تبرح إحدى القرى فى زمن الصيف وتقيم على ضفاف النهر المجاورة لها وتحفر هناك أوكارها، ولكن قبل سقوط الأمطار بعدة قرية تعود إلى أوكارها السابقة فى القرية؛ فعندما يراها الأهالى راجعة يتوقعون هطول الأمطار وفيضان النهر فهى لهم بمثابة ميزان للطقس يصدق كل الصدق فى الدلالة عليه .

ويروى عن إحدى المطاحن أن الجرذان برحتها فجأة واتجهت راكضة إلى الغابة المجاورة وبعد وقت قريب طغى النهر على المطحنة واضطر صاحبها إلى الفرار بنفسه من دون أن يستطيع أن ينقذ شيئا منها (انظر شكل ٢٢)



(شكل ٢٢ ــ فأر المنزل يشعر بما يهدد المنزل الذى يسكنه من الخطر فيفر منه قبل وقوع الكارثة)

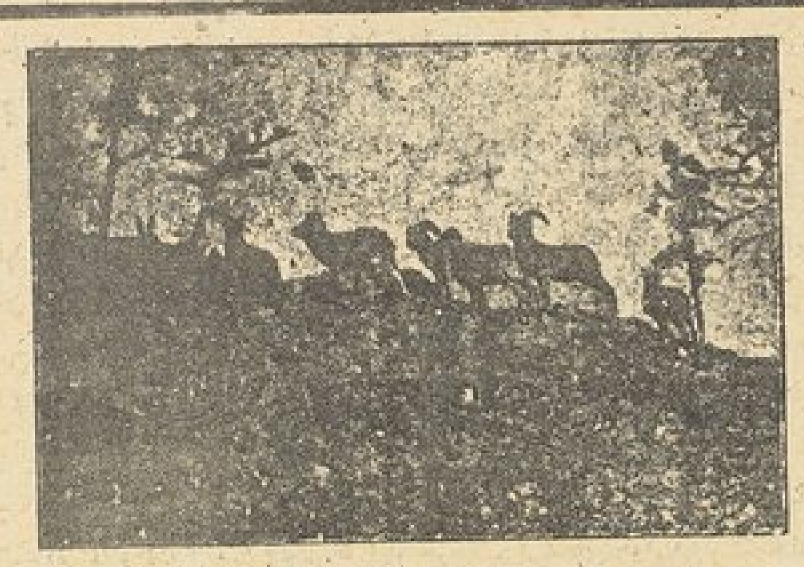
(٢) إن الجمل فى الصحراء يمرغ رأسه فى الأرض ويشخر شخيرا متواصلا قبل هبوب عواصف الرمال بوقت قصير فيكون شخيره منذرا باقتراب العاصفة من دون أن يظهر فى الجو دليل ما على ذلك .

(٣) ويعرف الذين ألفوا صيد السمك بالصنارة أن هناك نوعا من السمك يختفى من النهر فى أحد الأيام فجأة فلا يعثر له أحد على أثر وبعد اختفائه بقليل يطغى ويحدث فيضان كبير ، فاختفاؤه خير نذير للصيادين بأن النهر على وشك الفيضان . ثم إن هذا السمك يمتنع عن الأكل إلى أن تصل إليه مياه الفيضان فكأنه يتوقع أن تحمل إليه هذه المياه أغذية جديدة تستحق أن يصوم سلفا ويستعد لالتهامها .

(٤) ويعزى السبب فى مهاجرة كثير من أنواع الطيور إلى التنبؤ عن الطقس فبعضها يتبع الربيع أينما سار والبعض الآخر يتبع الشتاء ، ومن المشهور عن الهنود الحمر فى أمريكا أنهم يتنبئون عن الطقس بدقة عظيمة ولكن ثبت بعد التحقيق أنهم يستدلون فى تنبئهم إلى تنقلات الطيور والحيوانات . ومن المشهور عن الحيوانات التى تسكن الجبال أن لها خبرة عظيمة فى تقلبات الطقس ، فالوعول والأرانب البرية وبعض أنواع الدجاج البرى تنزل من أعالى الجبال إلى منحدراتها قبل حلول عواصف الأمطار ويكون الجو عندئذ صافيا والسماء مشرقة ولكن لايكاد ينقضى يوم أو بعض يوم حتى تتلبد السماء والجو بالغيوم وتسقط الأمطار ، ومن المعروف عن الأرانب البرية التى تسكن الجبال أنها تهجرها فى بعض الأحيان وتغيب عنها بضع سنوات فلا تجد فيها أثرا لأرنب ، ويحدث فى خلال ذلك أن الأمطار تبقى غزيرة ويكون فصل الشتاء قاسيا ، ولكن تلك الأرانب لاتلبث أن تعود فتكون عودتها دليلا على توقع طقس حسن وشتاء محتمل ، ولا شك أن أنواع الطيور والحيوان التى لها غريزة التنبؤ عن المستقبل كثيرة جدا فلا نرى بنا حاجة إلى الكلام عن كل نوع منها بمفرده . انتهى ملخصا من تلك المجلة المصرية (انظر شكل ٢٣) و (شكل ٢٤)



(شكل ٢٣ - صورة نوع من الأوز البرى يرحل عن المنطقة التى يسكنها متوقعا اشتداد الشتاء وسوء الطقس فيه مع أنه لايوجد أى دليل ظاهر على ذلك عند رحيله)



(شكل ٢٤ - صورة انحدار الوعول من الجبال إلى السهول)

هذا هو الذى أردت تلخيصه ورسم صوره فى تفسير قوله تعالى «وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم» أكتبه فى تفسيرها وأنا أعلم أن كثيرا من الناس يطلعون على هذا وهم لا يفكرون ولكن بيانه وتفصيله فى تـ . الآية هنا يجعل له رونقا وحكمة يعقلها أولو الألباب .

﴿ خطاب المؤلف لصانع هذا العالم ﴾

(١) اللهم إنى أحمدك حمدا كثيرا ، أحمدك على العلم وعلى الفهم .

(٢) يارب ها أنا ذا أتيت إلى الأرض وسكنت فيها وعشت فى أمم ودول وممالك وهم يتقاتلون وأكثرهم لا يذكرون .

(٣) بحثت عن الحقيقة أمد الحياة فعرفت أنك خبأتها فى صور المخلوقات ودفنتها فلم يطلع عليها إلا الطالبون.

(٤) علمت من صنعك أن الغذاء والدواء والأوصاب والقتال والحروب والقضايا وأعمال الأمم ، كل ذلك دخان قد غشيت به عقول الأمم والأفراد فأكثرهم لا يعقلون

(٥) يتطاحنون ويتقاضون ويتقاطعون على زاد قليل وهم غافلون .

(٦) وفى أثناء ذلك تظهر لطائفة من تلك الأمم جمالك الباهر وعلمك البديع وحسن صنعك الجميل فيبهرهم جمالك ويسحرهم بهجة صنعك ؛ فهؤلاء لأجلهم خلقت الدنيا ولاسعادهم أنزلت الدين ، هؤلاء هم الذين يقومون باسعاد أممهم علما وعملا ابتغاء وجهك ويصرفون حياتهم فى فهم سمواتك وأرضك ولا يرون بك بديلا .

(٧) يسخرون من الزخرف والجاه والمال والناس حولهم بها لمحجون وهؤلاء لا يطلبون جزاء على عملهم إلا ما يحسون به فى نفوسهم من الجمال والبهجة والنور ؟ قد استوى للماضى والحال والاستقبال عندهم وهم بذلك راضون ساكنون .

(٨) يرون لطفك وعطفك ورحمتك ورأفتك بالجرذان إذ أنت أعلمتها أن قنبلة ستسقط عليها من مدافع الألمان ليلا فهاجت وماجت وخرجت ثم ساد السكون وبعد ذلك سقطت قنبلة الألمان ، فهذه الطائفة إذا سمعت هذا فرحت وانشرحت وعلمت أن لطفك محيط بالعظيم والحقير والجليل والصغير والانسان والفيران ويرون لطفك بها وقد أعلمتها بأن النار ستشب فى مخازن الجمارك التى عاشت فيها فهاجرت وتركت المكان .

(٩) وأى عجب أكثر من أن الوعول والأرانب البرية تنزل من أعالى الجبال قبل هطول الأمطار ولا علامة فى الجو وإنما هى حكمة الحكيم الرحيم أعلمها بما سيكون .

(١٠) الجهلاء من الناس لايعبئون بهذه الرحمات إلا على سبيل الروايات ، أما الفضلاء من الناس فإنهم يرون هذه العوالم فصلت تفصيلا وقد شملها كلها من سموات وأرضين تدبير محكم منظم لايشغله العظيم عن الحقير ولا الكبير عن الصغير؛ فهو مع الفأر فى جحره ومع الطير فى جوه ومع الكوكب فى مداره فكأن هذه الدنيا جسم واحد له رأس وقلب وحواس وأحشاء وأعضاء والروح لاتغفل عن الصغير ولا عن الكبير .

(١١) فهؤلاء الحكماء الذين ظهرت لهم هذه المعانى وحضرت فى أكثر أوقاتهم هم المصطفون الأخيار، هؤلاء يدركون فى هذه الحياة أنهم فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمفكرين الذين يعقلون وأى سعادة أكبر من الوقوف على الحقائق ، هذه هى السعادة التى تصغر فى جانبها جميع السعادات، هذه هى سعادة كلية من نالها فهو الآن فى جنة العرفان ، يرى أن الرحمة والعلم والنعمة تحيط بالعالم الذى هو فيه وهو يحس بها وسواه من الناس بها لايعلمون . إن فى الأرض حجابا حجب أكثر الناس عن هذا الجمال كما قال تعالى : «وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال» فالحجاب مضروب على قلوب أهل هذه الكرة الأرضية . ظهرت لهم الرحمة نقمة والسعادة شقاء وذلك لأنهم فى عالم من العوالم المتأخرة هذا قوله تعالى «ولكن أكثر الناس لايعلمون»

بعد أن كتبت هذا حضر عندى قاضى محكمة (دكرنس) من أعمال (الدقهلية) بالوجه البحرى من القطر المصرى ولما اطلع على عجائب هذه الحيوانات وعلمها بما سيحصل لها قال وأنا أحدثك حديثا شاهدته بعينى رأسى ، ذلك أنى كنت قاضيا فى (مديرية سوهاج) من مديريات الوجه القبلى ومن عادتهم هناك أن المدير وأعيان المديرية يحضرون اجتماعا عاما لافتتاح الترعة المسماة [الترعة السوهاجية] وهذه الترعة لاتفتح إلا أيام تمام النيل ، قال وقد حضر المغنون والمطبلون والزامرون وما حضرت أنا معهم ليلا فمر المدير على منزلى صباحا فلم يجدنى فتوجه لى بالمحكمة وقال تعال معى لنفتح الترعة اليوم ، قال فذهبت معه فوجدت أنواع الحشرات والحيات والعقارب وما أشبهها تجرى جريا حثيثا مسرعة لتدخل البلدة فسألت عن ذلك فقيل لى إن هذه الحشرات والزواحف كل سنة قبيل فتح الترعة بساعات تراها أخذت تهاجر من مساكنها التى استقرت فيها بهذه الترعة اليابسة ، فهذه الحال نراها كل سنة اهـ .

هذه هى الحادثة التى حدثنى بها القاضى وهو أدرك مغزاها ولكن العامة لم يدركوا مغزاها ولم يعقلوها ولم يفكروا فيها ، فهم رأوها كما يرون شروق الشمس وغروبها ويرون الولادة والموت ، إما العبرة والجمال وإما الحكمة فلا، لهذا نرى المسلم اليوم إنما ينقل هذه العجائب عن الأمم الفرنجية لأن كثيرا من الناس هناك يعقلون مايرون ، هذا مااتفق لى عند كتابة هذا الموضوع ، وهنا يسأل سائل فيقول : كيف ألهمت هذه الحيوانات أمرا غائبا كهذا، فأما الإنسان فلا ونحن نجيب عليه فنقول :

(١) إن الله قدر فهدى وأعطى النعم والحكم بقدر ، أعطى الإنسان دولا وممالك وحكماء وعلماء فليس من المصلحة أن يشغله بأمور قامت بها دولته التى وزعت الأعمال عليها .

(٢) إن علم المستقبل لهذه الحيوانات مقدر بقدر وهو الأمر العام لعمومهم ومستقبلهم بدليل أننا نقتل الحيات ونصطاد الطيور ولا علم لها بما سنفعله معها ، فهذا العلم بالمستقبل مقدر بقدر وهو النظام العام لها لا لأفراد خاصة .

(٣) إن الإنسان يتنبأ عند التنويم المغناطيسى كما تراه فيما تقدم فى (سورة البقرة) عند آية السحر هناك إذ ترى رجلا منوما (بفتح الواو) قد أخبر بسير مرضه ووصف الدواء لدائه ثم فاجأه عارض فمات فاستنتج العلماء أن نفوس الناس فى حال إزالة الموانع الجسمية تعرف كل أحوالها المستقبلة ولكنها لاتعرف مايصادفها من العقبات الخارجية .

(٤) إن العلم بالمستقبل يصرف الانسان عن العمل له ويقعده فى الكسل وذلك لارقيه ومارق الناس

إلا بأن يجهلوا مستقبل الأمور ويلهموا إلهامات جزئية كإلهام أم موسى ثم هم بعد ذلك يبنون على هذا الإلهام علما وعملا، فأما إذا كان كل شيء ممهدا فلا سبيل إلى رقيهم، إذن الرقى بالعمل ولا عمل إلا لمن حجبت عنه الأمور المستقبلة فسارع لاسعاد نفسه المجهول عنده «وما كان الله ليطلعكم على الغيب» لتجدوا فى عملكم حتى تلقونى. انتهى صباح يوم الاثنين (٨) يوليو سنة ١٩٢٩ عند طبع هذه السورة.

﴿ لطيفة فى قوله تعالى «وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون» ﴾

هل لك أيها الذكى أن أحدثك عما خبرته بنفسى وعرفته من أحوال الناس فى زماننا من حيث طول الأمل بسبب الوسواس الخناس فأحدثك حديث وزير عظيم ومدرس كبير ورجلين فى بلاد الفلاحين بالشرقية.

﴿ الوزير ﴾

كنت أعرف وزيرا من عظماء الأمة المصرية وكانت لى معه مجالس علمية فحادثنى يوما قائلا: هل أنت موقن يا شيخ طنطاوى بأن كلام الديانات حق وأن هناك جنة ونارا وسعادة وشقاء بعد الموت؟ فقلت نعم، فتعجب غاية العجب وقال وكيف ذلك فأخذت أذكر الحجج المعروفة، فقال هو: إن العلم الآن ينفى ذلك وماهذه الدنيا إلا دار مغالبة ومكابرة ومصابرة وجهاد، فالغالب فيها هو الذى ازداد بها استمتاعا كما هو مذهب النشوء والارتقاء كما جاء فى كتاب (بخنر الألمانى) شرحا على مذهب (داروين) وملخص المذهب أن العوالم التى نراها آخذة فى الارتقاء، وأقواها يغلب أضعفها وهناك يحصل الانتخاب الطبيعى، فالطبيعة لا تبقى إلا ماهو أكمل وتفنى ماهو أقل كمالا وجمالا. خذ لك مثلا. نحن الآن نركب العربات فى الطرقات ولا نركب (الترام) كالعامة وإذا ركبنا فى قطار السكة الحديدية تربعنا فى الدرجة الأولى بخلاف الناس جميعا وهانحن أولاء نسكن فى مساكن جميلة ونتمتع بنعم عظيمة ويضرب العسكر لنا سلاما بالسلاح، هذا هو الانتخاب الطبيعى وهذا هو مذهب (داروين) وأنا به أدين، فهذا الوزير لم يوصله العلم إلى أكثر من أنه يعيش فى نعيم فى الدنيا وليس هناك عالم آخر وهو يكذب جميع الأنبياء. وأنت تعلم أيها الذكى من هذا التفسير أن نفس النعيم الدنيوى عذاب على صاحبه فمن لم يروض نفسه ويتعلم القناعة فى المآكل والمشارب الخ أحاطت به الأمراض وذل فى حياته، ولكن هذا وأمثاله لا يعقلون أكثر مما أسمعتكه فى هذا المقام.

﴿ المدرس العظيم الممتاز ﴾

لقد كان بمدرسة دار العلوم مدرس كبير تخرج على يديه مئات من المدرسين فحدثنى أحد تلاميذه قال ناقلا عن أستاذه ذلك المدرس العظيم، قال لقد كنت فى أول حياتى مجاورا بالجامع الأزهر ولم يكن لى مال وإذا جاء زمن البطالة توجهت إلى قريتنا بالصعيد فكنت إذا أردت أن أذاكر الدروس أجلس تحت شجرات بالقرب من منزلنا، فلما أن صرت موظفا ومن الله على بالثروة والغنى اشتريت نفس تلك الأرض التى فيها الشجرات التى كنت أجلس تحتها للمذاكرة أيام الفقر، فلما أن اشتريت هذه الأرض استأجرها مؤجرون من الفلاحين فزرعوها قطنا فتوجهت يوما لتلك الأرض وأخذت أجوب جنباتها وأجول فى عرصاتها وقد أعجبنى القطن فتذكرت أيام الفاقة إذ كنت أجلس تحت الشجرات ولا أملكها فأخذت من شدة الفرح أغنى لهذه النعمة التى نلتها. فهذا المدرس رأى أن غاية نعم الحياة أنه يملك هذه الأرض ولما أحس بالنعمة أخذ يغنى ونسى أنه من الجامع الأزهر وأنه كبرت سنه وأن الله يقول «وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون» ونسى قوله تعالى «إن الله لا يحب الفرحين» وكان خيرا له حينما رأى هذه النعمة وتذكرها أن يكثر من الاستغفار كما قال تعالى لنبيه ﷺ «إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا».

فأما الرجلان ببلاد الفلاحين بالشرقية فإن أحدهما وكان له مقام واحترام بينهم قال: ما المقصد من

الحياة ؟ القصد منها أنى إذا كنت ألبس قطنا لا أنزل إلى ملابس الفقراء، وأما الثانى فانى سمعته يقول: ما القصد من الحياة عندنا الجاموسة والبقرة وفيهما اللبن وعندنا الذرة فنحن والحمد لله أغنياء .

وإنما ذكرت هذا لك أيها الذكى لأذكرك بما تعرف من الناس حولك، فجميع أهل الأرض لا يخرجون عن أمثال ما ذكرته الآن ولكن العلم والحكمة والدين تخرج الانسان من فكرة العامة إلى مقام العلماء وآداب الحكماء، وإذ ذاك يعرف الانسان قوله تعالى «وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون» .

فياليت شعرى ما هى الوزارة قصيرة الأجل وما هى الثروة والمال لا سيما لمن كبرت سنه فهى إن دامت له فرضا فان حياته وصحته لا يدومان . انتهى والحمد لله رب العالمين .

﴿ خاتمة السورة ﴾

(خطاب العنكبوت للمفكرين فى الاسلام فى زماننا والذين سيقرءون أمثال هذا الكتاب ومن بعدهم)

تقول العنكبوت : أيها العلماء إنى آية لكم لا للجهال، ألم تروا أنكم تبنون بيوتكم بطين تحرقونه فيصير آجرا وبه تبنون القصور والدور وتلبسون ملابسكم مما تستنبتونه فى الأرض من الكتان والقطن وما تستخرجونه من الحرير الذى ينسجه الدود وتستعينون بالحديد والخشب على إكمال البناء وتشييد القصور وصنع السفن فى البحار والطيران فى الهواء . فأنتم تبنون وتلبسون وتركبون بآلات مختلفات . أما أنا ففى مصنع واحد فى جسمى منه أبنى بيتى وأصنع طيارتى وأصطاد فريستى وأبنى قنطرتى قام مقام الخشب والحديد والطين وإحراقه والقطن وغزله ونسجه وما يتبع ذلك من آلات تنسج وتغزل وأخرى لسقى الأرض ولتنقية الحشيش الخ . فدنياكم كلها قد حيزت لى بأكلها وهذا الصنع الذى فى جسمى إنما هو من غذائى الذى تستقذرونه . أنا التى أكلت الحشرات الفاتكات بزرعكم للطفات لجوكم بتعاطى المواد العفنة فأنا أتلقاها وأفترسها بعد أن أدت وظيفتها لكم ولم يبق إلا ضررها . فهذه تنقلب فى جسمى فى غدد مخصوص ما يشبه الحرير أو القطن أو الكتان . هذا هو الصنع الذى أعطانيه ربى قام مقام آجركم وخشبكم وحديدكم وقطنكم وتيلكم ولم أحتج إلى نجار لبناء سفينتى ولا بناء لبيتى ولا مهندس لجدرانه ولا آلة بخارية لسقى قطنى . بل مخزنى الذى اختصنى به الله هو الذى كفانى كل ما أحتاج إليه وهذا أيها العقلاء فى كتابكم . يقول الله « وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » فهذه إحدى خزائنه خصنى بها وحرم سواى وهو ناظر إلى راحمى بها . أفلستم ترون أيها المفكرون فى هذا العالم أنى أكفيكم فى معرفة منظم هذا الكون الذى أحسن كل شىء خلقه ، أفلا ترون أن هذا هو الحسن والجمال لقد أحسن الله خلقى ولكن لا يعرفنى إلا العلماء المفكرون، فان أردتم دليلا على ربى فأنا أكبر دليل بل نظامى وحده كنظام السموات والأرض، وإن نظرتم إلى أمر المدنية والرقى فأنا مع ضعفى وإن بيتى أضعف البيوت بنيت على الشجر فى أرضكم بيوتى واتخذت سفنا فى بحاركم وأنتم تجهلون وظيفتى بينكم ولا تعلمون أنى حارسة لحقلكم وطرت فى الجو بطيارتى . أفلا تخجلون أيها المسلمون أن أطير بآلتى المنسوجة من غزل جسمى وقد قلدنى الفرنجة وأنتم لا تقلدون وفى آيات ربكم لا تفكرون .

هذا هو بعض معنى قوله تعالى « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » انتهى تفسير هذه السورة ليلة الخميس الخامس من شهر مارس سنة ١٩٢٥ م . والحمد لله رب العالمين .

تم بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع عشر من كتاب (الجواهر)
فى تفسير القرآن الكريم

ويليه : الجزء الخامس عشر ، وأوله تفسير سورة الروم

فهرس

فهرس
الجزء الرابع عشر من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صحيفة

صحيفة

صحيفة

صحيفة

١١٣ بعث النبي صلى الله عليه وسلم إلى ملك الروم وقد أمره ﷺ بالاسلام فأطل على قومه فأشار عليهم بالاسلام فغضبوا ثم أرضاهم بأنه كان يختبرهم .
بيان عام فى أمر الجهاد ، وذكر أن المصلى يكرر الرحمة والتربية فى الصلاة وأن هذه الرحمة بها تآلفت الطيور والحمامات وتعلم الفلاسفة بها ضرب الأمثال للتآلف العام ، وهكذا نبينا صلى الله عليه وسلم إذ خاطب الملوك للاتحاد العام .

١١٤ زيادة إيضاح ، وبيان أن المهديين إلى الصراط المستقيم المذكورين فى الفاتحة يجب أن يكون لهم السلطان على المغضوب عليهم والضالين ولهذا قال «قل يا أهل الكتاب» الخ. وبيان أن هؤلاء الصحابة كانت لهم لذة روحية بها تحملوا هذه المشاق وبها حرم سيدنا عمر أموال الغنائم عليه وعلى ابنته فخلف من بعدهم خلف افتتنوا باللذات بعد الغزوات وجهلوا آية « فلا اقتحم العقبة ، وما أدرك ما العقبة ، فك رقبة » الخ .

١١٥ شرع العتق ليكون الغالب والمغلوب أمة واحدة ، فلما ظلم المسلمون خربت بيوتهم وانكمشوا لأنهم أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا . فانظر ما يقوله (سديو) الفرنسى فى سبب انحطاط أسلافنا العرب فى اسبانيا فانهم لما طردوا الموحدين تفرقوا هم شيعا وذاق بعضهم بأس بعض فأخذهم الفرنج مملكة مملكة الخ .

١١٦ ذكر بعض ممالك شرق الأندلس إذ حاصرها جيش الأردمليش وقصر بن هود فى حاميتها وسد الماء الداخل لها فسلم القوم أنفسهم للفرنجة ومات كثير منهم بالعطش وكثير بالسيف .

١١٧ ذكر بهجة ابنة أحد الموسرين إذ أسرها علج من العلوج فى منزل أبيها وعلى فراشه نفسه ، وهكذا فتاة أخرى كانت تغنى له لأنها كانت مغنية لأبيها ، وهكذا يفعل المسيحيون فى المسلمين ما فعله المسلمون بالمسيحيين « كل يوم هو فى شأن » .

١١٨ كيف أثمر الجهاد لتحرير أوروبا بعد خمود أمم الاسلام . وبيان أن أمثال (روسو) و (فلتير) إنما أيقظوا أوروبا بما قرءوه فى كتب المسلمين المنهوبة من مصر والأندلس كما تقدم ، وأن القسيسين والرهبان كانوا ظالمين وحركة الاسلام هى التى أوقفتهم عند حدهم .

١١٩ بيان أن أهل فرنسا يوم ٤ أغسطس سنة ١٧٨١ م نالوا حقوق الإنسان التى نادى بها (جان جاك روسو) ومحيت امتيازات الأشراف .

١٢٠ (قصة نوح عليه السلام وتفسيرها) وبيان أن الطوفان فى القرآن جزئى لا كلى الخ .

١٢١ قارة اتلنتس وقارة الأوقيانوس الباسفيكى ، وبيان قصة التوراة وأولها (رأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض الخ) .

١٢٢ القصة البابلية والصينية والهندية . والقصتان الهندية والصينية تشيران إلى طوفان محلى نشأ عن فيضان الأنهر كالبابلية عن فيضان دجلة والفرات .

صحيفة

صفحة

صحيفة

تمت


Princeton University Library
32101 079196240